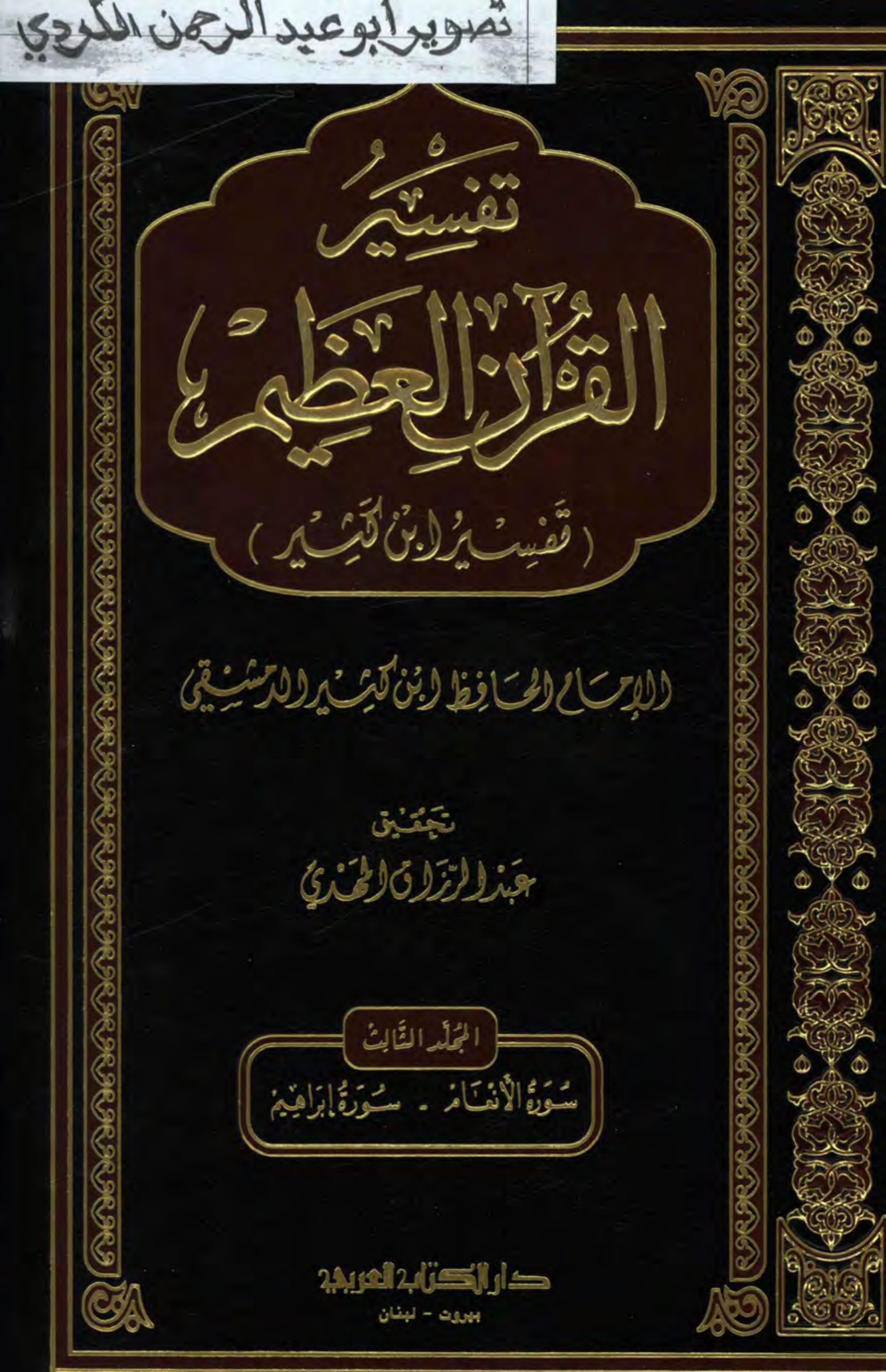


تصوير أبو عبد الرحمن الكردي
تفسير القرآن العظيم
(تفسير ابن كثير)
الإمام الحافظ ابن كثير الدمشقي
تحقيق
عبد الرزاق المهدي
المجلد الثالث
سورة الأنعام - سورة إبراهيم
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

تفسير القرآن العظيم

(تفسير ابن كثير)

للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل
ابن كثير القرشي الدمشقي
(٧٠١ - ٧٧٤ هـ)

تحقيق
عبد الرزاق المهدي

المجلد الثالث

سورة الأنعام - سورة إبراهيم

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

تفسير القرآن العظيم
(تفسير ابن كثير)

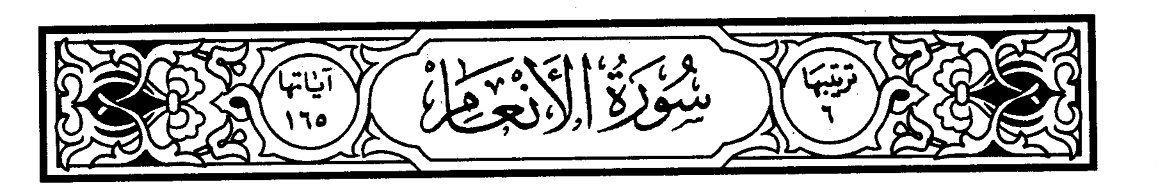
1432هـ ـ 2011 م

ISBN: 978-9953-27-015-9



الناشر
دار الكتاب العربي

العنوان : بيروت ـ شارع فردان ـ بناية بنك بيبلوس ـ الطابق الثامن
ص. ب. : 11-5769 بيروت 1107 2200 لبنان
هاتف : 861178 - 862905 - 800811 - 800832 (+9611)
فاكس : 805478 (+9611) بريد إلكتروني daralkitab@idm.net.lb
مواقعنا: www.dar-alkitab-alarabi.com
www.academiainternational.com



وهي مكية؛ قال العَوفي وعكرمة وعطاء، عن ابن عباس: أُنزلَت سورةُ الأنعام بمكة.

وقال الطبرانيّ: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا حَجَّاجُ بن مِنهالٍ، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمةَ، عن عليِّ بن زيدٍ، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عباس، قال: نَزلَتْ سورةُ الأنعام بمكَّة ليلاً جُملةً، حولها سبعون ألفَ مَلَكٍ يجأرون حولها بالتَّسبيح.

[٢٨٥٩] وقال سفيان الثوريّ، عن ليث، عن شَهْر بن حَوْشب، عن أسماءَ بنت يزيدَ قالت: نَزلَتْ سورةُ الأنعام على النبيِّ - ﷺ - جملةً وأنا آخِذَة بزِمامِ ناقةِ النبيِّ - ﷺ - إنْ كادَتْ من ثِقَلها لَتَكْسِرُ عِظامَ النَّاقَةِ[١].

[٢٨٦٠] وقال شَريك، عن ليث، عن شَهرٍ، عن أسماءَ قالت: نَزلَتْ سورةُ الأنعام على رسول الله - ﷺ - وهو في مَسِير، في زَجَلٍ من الملائكة، وقد نَظَموا ما بين السماء والأرض[٢]. وقالَ السدّي، عن مُرّة، عن عبد الله قال: نَزلَتْ سورةُ الأنعامِ يُشَيِّعها سبعونَ ألفاً من الملائكة. ورُوي نحوهُ من وَجْهٍ آخَرَ، عن ابن مسعود.

[٢٨٦١] وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو عبد الله مُحمّد بن يعقوبَ الحافظ، وأبو الفضل الحسنُ بن يعقوبَ العَدْلُ، قالا: حدثنا مُحمَّد بن عبد الوهّاب العَبْدِيُّ، أخبرنا جعفر بن عَونٍ، حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن السدِّيُّ، حدثنا محمد بن المُنْكدِرِ، عن جابر قال: لما نزلت سورةُ الأنعام سَبَّح رسول الله - ﷺ - ثم قال: «لقد شَيَّع هذه السورةَ من الملائكة ما سَدَّ الأُفُقَ»[٣]. ثم قال: صحيحٌ على شرط مسلم.

[٢٨٦٢] وقال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن مَعْمَرٍ، حدثنا إبراهيم بن دُرُسْتُوَيهِ الفارِسيُّ، حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن سالم، حدثنا ابن أبي فُدِيك، حدثني عُمَر بن طلحة الرَّقاشي، عن نافع ابن مالك أبي سُهَيل، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله - ﷺ -: نزلت سورةُ الأنعام معها موكبٌ من الملائكة، سَدَّ ما بين الخافِقين، لهم زَجَلٌ بالتسبيح، والأرضُ بهم تَرتجُّ، ورسول الله - ﷺ - يقول: «سبحان الله العظيم، سبحانَ الله العظيمِ»[٤].

[٢٨٦٣] ثم روى ابن مَرْدُويه عن الطبراني، عن إبراهيم بن نائلة، عن إسماعيل بن عمرو، عن

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٢٤/ ١٧٨ وفي إسناده شهر بن حوشب غير قوي، وليث بن أبي سليم ضعيف. وأعله الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢٠ بشهر فقط، مع أن ليث بن أبي سليم أسوأ حالاً منه.

(٢) إسناده ضعيف لضعف ليث وشهر كما سبق.

(٣) ضعيف. أخرجه الحاكم ٢/ ٣١٥ وصححه، ورده الذهبي بقوله: لا والله، لم يدرك جعفرٌ، السديَّ، وأظن هذا موضوعاً اهـ. والسدي روى مناكير كثيرة.

(٤) ضعيف. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٦٤٤٣، وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢٠: رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبد الله بن عرس عن أحمد بن محمد السالمي، ولم أعرفها، وبقية رجاله ثقات اهـ. قلت: عمر بن طلحة الرقاشي لم أعثر له على ترجمة.

يوسف بن عطية، عن ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «نزلت عليَّ سورة الأنعام جملة واحدة، وشيَّعها سبعون ألفاً من الملائكة، لهم زجل بالتَّسبيح والتَّحميد»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾

يقول تعالى مادحاً نفسَه الكريمة، حامِداً لها على خَلْقِه السموات والأرض قراراً لعباده، وجَعْلِهِ الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فَجَمع لفظ الظلمات ووحَّد لفظ النور، لكونه أشرف، كما قال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨] وكما قال في آخر هذه السورة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، أي: ومع هذا كلِّه كَفَر به بعضُ عبادِهِ، وجعلوا معه شَريكاً وعِدْلاً، واتخذوا له صاحبةً وولداً، تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً. وقولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، يعني: أباهم آدم الذي هو أصلُهم ومنه خَرَجُوا، فانتشروا في المشارق والمغارب. وقولُه: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، قال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾، يعني: الموت، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ يعني الآخرة. وهكذا رُوِي عن مجاهِدٍ، وعكرمةَ، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادةَ، والضحَّاكِ، وزيدِ بن أسلَم، وعَطِيَّة، والسدي، ومقاتل ابن حيان، وغيرهم. وقولُ الحسن، في رواية عنه: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ قال: ما بين أن يُخلَق إلى أن يَموت، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ وهو ما بين أن يموت إلى أن يبعث ـ هو يرجع إلى ما تقدَّم، وهو تقدير الأجَلِ الخاصِّ، وهو عُمْرُ كلِّ إنسانٍ، وتقديرُ الأجَلِ العامُّ وهو عُمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها وانقضائها وزَوَالها، والمصير إلى الدار الآخرة. وعن ابن عباس ومجاهد: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾، يعني: مُدَّة الدنيا، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، يعني: عمر الإنسان إلى حين موته، وكأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. . . الآية. وقال عطيةُ، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾، يعني: «النوم، يُقبَضُ فيه الرّوحُ، ثم يرجع إلى صاحبه عند اليقظة، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، يعني: أجلَ موتِ الإنسان. وهذا قولٌ غريبٌ. ومعنى قوله: ﴿عِندَهُۥ﴾، أي: لا يعلمُه إلا هو، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وكقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾ [النازعات: ٤٢ ـ ٤٤]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، قال السدّيُّ وغيرُه: يعني تَشُكُّون في أمر الساعة. وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾. اختلف مُفَسِّرو هذه الآية على أقوال بعد الاتفاق على تخطئة قول الجَهْمية الأُوَلِ القائلين بأنه ـ تعالى عن قولهم علواً كبيراً ـ في كلِّ مكان، حيث حَمَلوا الآية على ذلك، فأصح الأقوال أنه: المدعوّ الله في السموات وفي الأرض، أي: يَعبُدُه ويُوحِّدُه ويُقِرُّ له بالإلهية مَن في السموات ومَن في الأرض، ويسمُّونه الله، ويدعونَه رَغَباً

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني في «الصغير» ٢٢٠ وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢٠: وفيه يوسف بن عطية الصفار، وهو ضعيف اهـ قلت: بل متروك. وانظر «تفسير الشوكاني» ٨٧٨ و٨٨٢ بتخريجي.

ورهباً، إلا من كفر من الجنّ والإنس، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، أي: هو إله مَنْ في السماءِ وإله مَنْ في الأرض، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبراً أو حالاً. والقول الثاني: أن المراد أنه الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، من سِرٍّ وجهر. فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، تقديره: وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض ويعلم ما تكسبون. والقول الثالث: أن قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ وقف تامٌ، ثم استأنفَ الخبرَ فقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾. وهذا اختيارُ ابن جريرٍ. وقولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾، أي: جميعَ أعمالكم خيرها وشرها.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦)﴾

يقول تعالى مُخبِراً عن كفر المشركين المُكَذِّبين المعاندين: إنهم مهما أتتهم ﴿مِّنْ آيَةٍ﴾، أي: دَلالَةٍ ومُعجزَةٍ وحُجَّةٍ، من الدلالاتِ على وحدانيَّة الربِّ ـ عزّ وجلّ ـ، وصِدْقِ رُسُله الكرام، فإنهم يعرِضُون عنها، فلا ينظرُونَ فيها ولا يبالون بها، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥)﴾. وهذا تهديدٌ لهم ووعيدٌ شديدٌ على تكذيبهم بالحقّ، بأنه لا بدّ أن يأتيهم خَبَرُ ما هم فيه من التكذيب، وليجدُنّ غِبّه، ولَيذُوقُنّ وباله. ثم قال تعالى واعظاً لهم ومحذّراً أن يُصيبَهم من العذاب والنَّكالِ الدُّنيويّ ما حلّ بأشباههم ونُظرائِهم من القرون السالفة الذين كانوا أشدَّ منهم قُوّةً وأكثر جمعاً، وأكثَرَ أموالاً وأولاداً، واستغلالاً للأرض وعِمارة لها، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾، أي: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض، والسَّعة والجُنُود، ولهذا قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾، أي: شيئاً بعد شيءٍ، ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي: كثّرنا عليهم أمطارَ السماء وينابيعَ الأرض، أي: استدراجاً وإملاءً لهم، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾، أي: بخطاياهم وسيّئاتهم التي اجترحوها، ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، أي: فَذَهب الأوّلُون كأمس الذاهِب وجعلناهم أحاديث، ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، أي: جِيلاً آخَرَ لنختبِرَهم، فعَمِلُوا مثلَ أعمالهم، فهَلَكوا كهلاكهم. فاحذروا أيها المخاطبون أن يُصِيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعزَّ على الله منهم، والرسولُ الذي كَذَّبتُموهُ أكرمُ على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبةِ منهم، لولا لطفُه وإحسانُه.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن كفر المشركين وعنادهم ومُكابرتهم للحق ومباهَتتهم ومنازعتهم فيه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾، أي: عايَنُوه، ورأوا نزوله، وباشَرُوا ذلك، ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مُكابرتهم للمحسوسات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ

يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الطور: ٤٤]. ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، قال الله: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾، أي: لو نَزَلت الملائكةُ على ما هُم عليه لجاءهم من الله العذاب، كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]... الآية. وقولُه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾، أي: ولو أنزلنا مع الرسول البَشَريّ مَلَكاً، أي: لو بعثنا إلى البشر رَسُولاً مَلَكِيّاً، لكان على هَيْئَةِ رَجُلٍ لِتُفهَم مخاطبتُه والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما يَلْبِسُون على أنفسهم في قبول رسالة البَشَريّ، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥]، فمن رَحْمَةِ الله تعالى بِخَلْقِهِ أنه يُرسِلُ إلى كلِّ صِنْفٍ من الخلائق رُسُلاً منهم، ليدعُو بعضُهم بعضاً، وليمكن بعضُهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]... الآية. قال الضحّاكُ، عن ابن عباس في الآية: يقول: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صُورةِ رجل، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور، ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾، أي: ولَخلَطْنا عليهم ما يَخلِطُون. وقال الوالبيُّ، عنه: ولَشبَّهنا عليهم. وقولُه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾، هذا تسليةٌ لرسوله محمد ـ ﷺ ـ في تكذيبِ من كَذَّبه من قومه، ووعدٌ له وللمؤمنين به بالنُّصرةِ والعاقبةِ الحَسَنةِ في الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾، أي: فَكِّروا في أنفسِكم، وانظروا ما أَحلَّ الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعانَدُوهم، من العذاب والنَّكال، والعقوبة في الدنيا مع ما ادَّخرَ لهم من العذاب الأليم في الآخرة، وكيف نَجّى رُسُله وعباده المؤمنين.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

يُخبر تعالى أنه مالكُ السموات والأرضِ ومن فيهنّ، وأنه كَتَبَ على نَفْسِه المقدّسة الرحمةَ.

[٢٨٦٤] كما ثبت في الصحيحين، من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «إنّ الله لمّا خَلق الخلق كَتَب كتاباً عنده فوق العرش، إنّ رحمتي تَغلِبُ غَضَبِي»(١). وقولُه: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، هذه اللامُ هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٩٤ و٧٤٠٤ و ٧٥٥٣ ومسلم ٢٧٥١ والترمذي ٣٥٤٣ وابن ماجه ٤٢٩٥ وابن حبان ٦١٤٣ و٦١٤٤ وأحمد ٢/٣١٣ و٣٨١ و ٣٩٧ و ٤٣٢ والطبري ١٣٠٩٩ والبغوي في «التفسير» ٨٦١ من طرق عن أبي هريرة بألفاظ متقاربة.

الكريمة ليجمعنَّ عباده لميقاتِ يوم معلوم، وهو يوم القيامة الذي لا ريبَ فيه ولا شكَّ عند عباده المؤمنين، فأما الجاحدون المكذِّبون فهم في ريبهم يَتردَّدُونِ.

[٢٨٦٥] وقال ابن مَرْدُويه عن تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا عبيد الله ابن أحمد بن عقبة، حدثنا عباس بن محمد، حدثنا حُسَين بن محمد، حدثنا مِخْصَنُ بن عقبة اليماني، عن الزبير بن شبيب، عن عثمان بن حاضر، عن ابن عباس قال: «سُئل رسول الله ـ ﷺ ـ عن الوقوف بين يدي رب العالمين، هل فيه ماء؟ قال: والذي نفسي بيده إن فيه لماءً، إن أولياء الله ليَردون حياضَ الأنبياء، ويبعث الله تعالى سبعينَ ألفَ مَلَكٍ في أيديهم عِصِيٌّ من نار، يَذُودون الكفارَ عن حياضِ الأنبياء»[1]. هذا حديثٌ غريبٌ.

[٢٨٦٦] وفي الترمذيّ: «إن لكلِّ نبيٍّ حَوْضاً، وإنَّهم يتباهَونَ أيُّهم أكثرُ وارِدَةً، وأرجُو أن أكونَ أكثَرَهُم وارِدَةً»[2]. ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لا يصدقون بالمعاد، ولا يخافون شر ذلك اليوم. ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أي: كلُّ دابّة في السموات والأرض، الجميعُ عبادُه وخلقه، وتحت قَهْرِه وتَصرُّفه وتَدْبيره، لا إله إلا هو. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، أي: السميعُ لأقوالِ عباده، العليمُ بحرَكاتهم وضمائرهم وسرائرهم. ثم قال لعبده ورسوله محمد ـ ﷺ ـ الذي بَعَثه بالتوحيد العظيم، والشرع القويم، وأمَرَه أن يدعُوَ الناس إلى صِراطه المستقيم: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كما قال: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: ٦٤]، والمعنى: لا أتَّخذُ وليّاً إلا الله وحدَه لا شَريكَ له، فإنه فاطرُ السمواتِ والأرض، أي: خالِقُهما ومُبْدِعهما، على غير مثالٍ سَبَق. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، أي: وهو الرزّاق لِخَلْقِه من غير احتياجِ إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]... الآية. وقرأ بعضهم هاهنا: «وهو يُطعم ولا يَطْعَم»، أي: لا يأكُل.

[٢٨٦٧] وفي حديث سُهَيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هُريرة قال: دعا رجلٌ من الأنصار من أهل قُبَاء النبيَّ ـ ﷺ ـ قال: فانطلقنا مَعه، فلما طَعِمَ النبيُّ ـ ﷺ ـ وغَسَل يديه قال: «الحمد لله الذي يُطعِم ولا يُطْعَمُ، ومَنَّ علينا فَهَدانا، وأطعَمَنا وسَقَانا، وكُلَّ بلاءٍ حَسَنٍ أبلانا. الحمدُ لله غير مُودَّع ربي ولا مكافأً ولا مكفُورٍ ولا مُستَغنىً عنه. الحمدُ لله الذي أطعَمنا من الطَّعام، وسَقَانا من الشَّراب، وكسانا من العُرْي، وهَدَانا من الضَّلال، وبَصَّرنا من العمى، وفَضَّلنا على كثير ممن خَلَق تفضيلاً. الحمدُ لله رب العالمين»[3].

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، أي: من هذه الأمة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾، يعني يوم القيامة ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ يعني: العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾، يعني: فقد رحمه الله، ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾، كما قال: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. والفوز: هو حُصُولُ الرِّبحِ ونفي الخَسارةِ.

---

(١) إسناده ضعيف. عثمان بن حاضر تابعي صدوق ومن دونه مجاهيل لم أعثر على ترجمة لواحد منهم.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٤٤٣ من حديث الحسن عن سمرة وضعفه الترمذي بقوله: غريب، وقد رواه الأشعث بن عبد الملك عن الحسن مرسلاً، لم يذكر فيه سمرة، وهو أصح. وضعفه شيخنا في جامع الأصول ٧٩٩٢.

(٣) صحيح. أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» ٣٠١ وابن أبي الدنيا في «الشكر» ١٥ وابن السني ٤٨٥ وصححه ابن حبان ٥٢١٩ والحاكم ١/٥٤٦ على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى مخبراً أنه مالكُ الضرِّ والنَّفع، وأنه المتصرِّف في خَلْقِه بما يشاء، لا مُعقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]. . . الآية.

[٢٨٦٨] وفي الصَّحيح أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقولُ: «اللهم لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُعطِيَ لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»[1]. ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، أي: هو الذي خَضعت له الرقابُ، وذَلَّت له الجبابرة، وعَنَت له الوجوهُ، وقَهر كلَّ شيء ودانت له الخلائقُ، وتواضعتْ لعظمَةِ جلالِهِ وكبريائِهِ وعَظَمته وعُلُوِّه وقُدْرَتِهِ الأشياء، واستكانت وتَضاءلت بين يديه وتحت حُكمه وقَهْرِه. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: في جميع ما يفعلُه، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بمواضِعِ الأشياءِ ومحالِّها، فلا يُعطِي إلا لمن يستحِقُّ، ولا يمنعُ إلا من يَستِحقُّ. ثم قال: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾، أي: من أعظم الأشياء شهادة ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: هو العالمُ بما جئتكم به، وما أنتم قائلونَ لي، ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، أي: وهو نَذِيرٌ لكلِّ من بلَغه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سَعيد الأشجُّ، حدثنا وكيعٌ وأبو أسامةَ وأبو خالد، عن موسى بن عُبَيدة، عن محمد بن كَعب في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾: من بَلَغه القرآنُ فكأنما رأى النبي ـ ﷺ ـ زاد أبو خالد: وكَلَّمه. ورواه ابنُ جرير من طريق أبي مَعْشَرٍ، عن محمد بن كعب قال: من بَلَغه القرآنُ فقد أبلغه مُحمَّد ـ ﷺ ـ.

[٢٨٦٩] وقال عبد الرزَّاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادةَ في قوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾: إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «بلِّغوا عن الله، فمن بَلَغَتْه آيةٌ من كتاب الله فقد بَلَغه أمرُ الله»[2]. وقال الربيعُ بن أنس: حقٌّ على من اتَّبع رسول الله ـ ﷺ ـ أن يدعُو كالذي دعا رسول الله ـ ﷺ ـ وأن يُنذِر كالذي أنذر. وقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ أيها المشركون ﴿أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾. ثم قال تعالى مخبراً عن أهلِ الكتابِ أنهم يعرفون هذا الذي جِئتَهُم به كما يَعْرِفون أبناءَهم، بما عندهم من الأخبار والأنباءِ عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرُّسُلَ كُلَّهم بَشَّروا بوجود محمد ﷺ وببعثه وصفته، وبلده ومُهَاجَرِه، وصفة أُمَّته. ولهذا قال بعد هذا: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: خَسِروا كُلَّ الخسارة، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الأمر الجَليِّ الظَّاهر الذي بَشَّرت به الأنبياءُ، ونوَّهت به في قديمِ الزمانِ وحَديثه. ثم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٨٤٤ و٦٦١٥ ومسلم ٥٩٣ وأبو داود ١٥٠٥ والنسائي ٣/ ٧٠ وأحمد ٤/ ٢٥٠ وابن حبان ٢٠٠٥ والبيهقي ٢/ ١٨٥ من حديث المغيرة بن شعبة وصدره: «لا إله إلا الله وحده...».

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٧٨١ والطبري ١٣١٢٢ عن قتادة وهو ضعيف لإرساله.

بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾، أي: لا أظلَمَ ممن تقوَّل على الله، فادَّعى أن الله أرسله ولم يكن أرسَلَه، ثم لا أظلم ممن كَذَّب بآياتِ الله وحُجَجِه وبراهينه ودَلالَته، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، أي: لا يُفْلِح لا هذا ولا هذا، لا المفتري ولا المُكَذِّب.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يومَ القيامةِ فيسألهم عن الأصنام والأندادِ التي كانوا يعبدُونها من دونه قائلاً لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٦٢]. وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾، أي: حُجَّتُهم. وقال عطاء الخراساني، عن ابن عباس: أي مَعْذِرتهم. وكذا قال قتادة. وقال ابن جُرَيج، عن ابن عباس: أي قِيلُهم. وكذا قال الضحاك. وقال عطاء الخراساني: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ بَلِيَّتُهم حين ابتُلوا ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وقال ابن جَرير: والصوابُ ثم لم يكن قِيلُهم عند فِتْنتنا إيّاهم، اعتذاراً مما سَلَف منهم من الشِّرْكِ بالله ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو يحيى الرازيّ، عن عمرو بن أبي قيس، عن مُطَرِّف، عن المنهال، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: أتاه رجلٌ فقال: يا أبا عبَّاس، سَمِعتُ الله يقول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾؟ قال: أما قولُه: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فإنهم رَأوا أنه لا يدخلُ الجَنَّةَ إلا أهلُ الصلاة، فقالوا: تَعالوا فَلْنَجْحَد. فيجحَدُون، فَيَختِم الله على أفواههم، وتشهَدُ أيديهم وأرجلُهم ولا يكتُمون الله حديثاً. فهل في قَلْبِكَ الآن شيءٌ؟ إنه ليس من القرآن شيءٌ إلا قد نَزَل فيه شيءٌ، ولكن لا تعلَمُون وَجْهَه. وقال الضحاكُ، عن ابن عباس: هذه في المنافقين. وفي هذا نظر، فإن هذه الآية مكيَّة، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والتي نزَلت في المنافقين آيةُ المجادلة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ [المجادلة: ٨١]. . . الآية. وهكذا قال في حق هؤلاء: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾، كما قال: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ [غافر: ٧٣ ـ ٧٤]. . . الآية. وقولُه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾، أي: يجيئون ليسمعوا قراءتك، ولا تجزي عنهم شيئاً لأن الله جعل ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، أي: أغطيةً لئلا يفهَمُوا القرآن ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، أي: صَمَماً عن السماع النافع، فهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: ١٧١]. . . الآية. وقولُه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ أي مهما رَأوا من الآياتِ والدلالاتِ والحُجَج البيِّناتِ، لا يؤمنوا بها. فلا فَهْم عندهم ولا إنصافَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]. . . الآية. وقولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ﴾، أي: يحاجُونك ويُناظرونك في الحق بالباطل، ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: ما هذا الذي جِئتَ به إلا مأخوذٌ من كُتُبِ الأوائل ومنقولٌ عنهم. وقولُه: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾، وفي معنى ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾

قولان: أحدهما: أنّ المرادَ أنهم ينهَون الناسَ عن اتِّباع الحقّ، وتصديق الرَّسُولِ والانقيادِ للقرآن، ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ﴾، أي: ويبتعدون هم عنه، فَيَجمَعُونَ بين الفعلين القبيحَيْن، لا ينتفعون ولا يتركون أحداً ينتفِعُ وَيَبتَعِدُونَ. قال علي بن أبي طَلحَةَ، عن ابن عبّاس: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال: ينهَون النّاس عن محمد ـ ﷺ ـ أن يؤمنوا به. وقال محمد بن الحَنفِيّة: كان كفارُ قريشٍ لا يأتون النبي ـ ﷺ ـ وينهون عنه. وكذا قال مجاهد وقتادة، والضحّاك، وغيرُ واحدٍ. وهذا القول أظهَرُ، والله أعلم، وهو اختيارُ ابن جَرير. والقولُ الثاني رواه سفيانُ الثوريُّ، عن حبيب بن أبي ثابت، عمّن سَمِعَ ابنَ عَبّاس يقولُ في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، قال: نَزلت في أبي طالب، كان ينهَى عن النبي ـ ﷺ ـ أن يُؤذَى. وكذا قال القاسمُ ابن مُخَيمِرَةَ، وحبيبُ بن أبي ثابتٍ، وعطاءُ بن دينارٍ وغيره: أنها نزلت في أبي طالب. وقال سعيدُ بن أبي هلال: نزلت في عُمُومة النبي ـ ﷺ ـ وكانوا عَشَرةً، فكانوا أشدَّ الناسِ معه في العلانية، وأشدَّ الناسِ عليه في السِّرِّ. رواه ابن أبي حاتم. وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، أي: ينهَون الناس عن قتله. وقولُه: ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ﴾، أي: يتباعَدُون منه. ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: وما يُهْلِكون بهذا الصَّنِيع ولا يعود وبالُه إلا عليهم، وما يَشعُرونَ.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يذكُر تعالى حالَ الكُفّار إذا وُقِفُوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينُهم تلك الأمورَ العظامَ والأهوالَ، فعند ذلك قالوا: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، يتمنون أن يُرَدُّوا إلى الدّار الدُنيا، ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذّبوا بآيات ربِّهم ويكونوا من المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ﴾، أي: بل ظَهَر لهم حينئذٍ ما كانوا يُخفُون في أنفسهم من الكُفر والتكذيب والمعاندةِ، وإن أنكروها في الدُّنيا، أو في الآخرة كما قال قبلَ هذا بيسير: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ﴾. ويحتَمل أنّهم ظهر لهم ما كانوا يَعلَمُونه من أنفسهم من صِدْقِ ما جاءت به الرسلُ في الدُّنيا، وإن كانوا يُظهِرون لأتباعهم خلافه، كما قال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. . . الآية. وقال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النمل: ١٤]. ويَحتَمِلُ أن يكون المرادُ بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يُظهِرُون للناس الإيمان ويُبْطِنُون الكفر، ويكون هذا إخباراً عما يكونُ يومَ القيامة من كلام طائفة من الكفار، ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكية، والنفاقُ إنما كان من بعضِ أهلِ المدينة ومن حولها من الأعراب، فقد ذكر الله وقوع النِّفاق في سورة مكية وهي العنكبوت، فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت: ١١]؛ وعلى هذا فيكون هذا إخباراً عن حال المنافقين في الدار الآخرة، حين يُعايِنُون العذاب، فظهر لهم حينئذ غِبُّ ما كانوا يُبطنون من الكفر والشقاق والنفاق، والله أعلم. وأما معنى الإضراب في قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ﴾، فَهُم ما طلبوا العَود إلى الدنيا رغبةً ومحبّةً في الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذي عايَنُوه جَزَاءَ على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعةَ إلى

الدنيا لِيَتخلَّصوا مما شاهدوا من النار، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، أي: في تَمَنِّيهم الرجعةَ رغبةً ومحبةً في الإيمان. ثم قال مُخبراً عنهم: إنهم لو رُدّوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نُهوا عنه من الكفر والمخالفة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، أي: في قولهم: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾. أي: لعادوا لما نهوا عنه، ولقالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ أي: ما هي إلا هذه الحياةُ الدنيا، ثم لا مَعَاد بعدها. ولهذا قال ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾. ثم قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: أوقفوا بين يديه، قال: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾، أي: أليس هذا المعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، أي: كما كنتم تكذبون به فذوقوا اليوم مَسَّهُ، ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور: ١٥].

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن خَسارة من كَذَّب بلقاء الله، وعن خَيْبَتِه إذا جاءته الساعةُ بغتةً، وعن نَدامَتِهِ على ما فرَّط من العمل، وما أسلَفَ من قبيح الفِعالِ، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾. وهذا الضميرُ يَحتَمِلُ عَوْدُه على الحياةِ الدنيا وعلى الأعمال، وعلى الدّار الآخرةِ، أي: في أمرها. وقولُه: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾، أي: يحملون. وقال قتادة: يعملون. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالد، عن عَمرو بن قيس، عن أبي مرزوق قال: وَيَستَقبِلُ الكافر، أو: الفاجرُ، عند خروجه من قبره كأقبح صُورة رآها وأنتنه ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أوَ ما تعرفني؟ فيقول: لا، إلاّ أن الله قَبّح وجهك ونَتَّن ريحك. فيقول: أنا عملك الخبيث، هكذا كنتَ في الدنيا خبيثَ العملِ مُنْتِنهُ، فطالما ركبتني في الدنيا، هَلُمّ أركبْكَ، فهو قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾... الآية.

وقال أسباطُ، عن السّدّي أنه قال: ليس من رجل ظالم يموت فيدخلُ قبره إلا جاءَهُ رجلٌ قبيحُ الوجه، أسودُ اللون، مُنتنُ الريح، عليه ثياب دنِسة، حتى يدخلَ معه قَبْرَه، فإذا رآه قال: ما أقبح وجهك! قال: كذلك كان عملك قبيحاً. قال: ما أنتن ريحك! قال: كذلك كان عملك منتناً. قال: ما أدنسَ ثيابك! قال فيقول: إن عَمَلك كان دَنِساً. قال له: من أنت؟ قال: أنا عملك! قال: فيكونُ معه في قبره، فإذا بُعِث يومَ القيامة قال له: إني كنت أحمِلُكَ في الدنيا باللذات والشهوات، وأنت اليوم تحملني. قال: فيركَبُ على ظهره فيسوقُه حتى يُدْخِلَه النار، فذلك قولُه: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾. وقولُه: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، أي: إنما غالبُها كذلك ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى مُسَلّياً لنبيِّه - ﷺ - في تكذيب قَومِهِ له ومخالفَتِهم إياه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾، أي: قد أحطنا علماً بتكذيب قومك لك، وحُزنك وتأسُّفك عليهم، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦] وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، أي: لا يتَّهمونك بالكذب في نفس الأمر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، أي: ولكنهم يُعانِدُون الحقَّ ويدفَعُونه بصدورهم.

[٢٨٧٠] كما قال سفيان الثوريُّ، عن أبي إسحاقَ، عن ناجيةَ بن كعبٍ، عن علي قال: قال أبو جَهل للنبي - ﷺ -: إنا لا نُكَذِّبك، ولكن نُكَذِّب بما جِئْتَ به، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[١]. ورَوَاه الحاكم، من طريق إسرائيلَ، عن أبي إسحاقَ: ثم قال: صحيحٌ على شَرْطِ الشيخين، ولم يُخرجاه.

[٢٨٧١] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الوزير الواسطي بمكة، حدثنا بشر بن المُبَشّر الواسطي، عن سلام بن مسكين، عن أبي يزيد المَدَني: أنَّ النبي - ﷺ - لقي أبا جَهْلٍ فصافَحه، فقال له رجلٌ: ألا أراكَ تصافح هذا الصابىء؟! فقال: والله إني لأعلم إنه لَنَبيٌّ، ولكن متى كنا لبني عبد منافٍ تَبَعاً؟! وتلا أبو يَزيد: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[٢]. وقال أبو صالح وقتادةُ: يعلَمُون أنك رسولُ الله ويجحدُون.

[٢٨٧٢] وذكر محمد بن إسحاق، عن الزهري، في قِصَّةِ أبي جهل حين جاء يستَمِعُ قراءةَ النبي - ﷺ - من الليل، هو وأبو سفيان صَخر بن حَرْب، والأخنس بن شَرِيق، ولا يشعر واحدٌ منهم بالآخر. فاستمعوها إلى الصباح، فلما هَجَم الصُّبح تَفرَّقوا، فجمعتهم الطريقُ، فقال كلٌّ منهم للآخر: ما جاء بك؟ فذكر له ما جاء له، ثم تعاهدوا ألاَّ يَعُودُوا، لما يخافون من عِلْم شباب قُرَيش بهم، لئلا يُفْتَتَنُوا بمجيئهم. فلما كانت الليلةُ الثانيةُ جاء كلٌّ منهم ظنّاً منه أن صاحِبَيه لا يجيئانَ، لما تقدَّم من العهود، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق، فتلاوموا، ثم تعاهَدُوا على ألاَّ يَعُودُوا. فلما كانت الليلة الثالثة جاؤوا أيضاً، فلما أصبحوا تعاهدوا على ألاَّ يعودوا لمثلها. ثم تفرَّقوا. فلما أصبح الأخنس بن شَرِيق أخذ عصاه، ثم خَرَج حتى أتى أبا سفيان بن حَرْبٍ في بيته، فقال: أخبرني - يا أبا حنظلة - عن رأيك فيما سَمِعتَ من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبةَ، والله لقد سَمِعتُ أشياءَ أعرفها وأعرفُ ما يُراد بها، وسَمِعتُ أشياءَ ما عَرَفت معناها ولا ما يُرَاد بها. قال الأخنسُ: وأنا والذي حَلَفْتَ به. ثم خَرَجَ من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بَيْتَه فقال: يا أبا الحكم، ما رأيكُ فيما سَمِعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشَّرَفَ: أطعَمُوا فأطعَمْنا، وحمَلُوا فَحملنا، وأعطَوا فأعطَيْنا، حتى إذا تجاثَينا على الركب، وكنا كفرسي رِهَانٍ، قالوا: منا نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السماء! فمتى نُدْرِك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نُصدِّقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه[٣].

وروى ابنُ جرير، من طريق أسباطٍ، عن السدِّيِّ، في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٠٦٤ والحاكم ٢/ ٣١٥ وصححه على شرطهما وقال الذهبي: ما خرجا لناجية شيئاً. وأخرجه الترمذي بإثر ٣٠٦٤ عن ناجية دون ذكر علي، وقال: وهذا أصح.

(٢) مرسل. أبو يزيد المدني تابعي، والمرسل من قسم الضعيف عند علماء الحديث.

(٣) مرسل. أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٢/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧ من طريق ابن إسحاق به.

يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾: لما كان يوم بدر قال الأخنسُ بن شَرِيقٍ لبني زُهْرَةَ: يا بني زُهْرَةَ، إن محمداً ابنُ أختكم، فأنتم أحق من كفّ عنه. فإنه إن كان نبياً لم تقاتلوه اليوم، وإن كان كاذباً كنتم أحقَّ من كَفّ عن ابن أخته! قِفُوا حتى ألقى أبا الحكم، فإن غُلِب مُحمد رجعتُم سالمين، وإن غَلَب محمد فإن قومكم لن يصنعُوا بكم شيئاً فيومئذ سُمّي الأخْنس، وكان اسمُه «أبيّ»، فالتقى الأخنسُ وأبو جهل، فخلا الأخنس بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد: أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش غَيري وغيرُك يسمع كلامنا. فقال أبو جهل: ويحكَ؟ والله إنَّ محمداً لصادق، وما كَذَب محمدٌ قَطُّ، ولكن إذا ذَهبت بنو قُصيّ باللواء والسقاية والحِجَابة والنُبوّة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فآيات الله: محمد ـ ﷺ ـ.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾. هذه تسلية للنبي ـ ﷺ ـ وتعزيةٌ له فيمن كذّبه من قومه، وأمرٌ له بالصَّبر كما صَبَر أولو العَزْم من الرُّسُل، ووعدٌ له بالنصر كما نصِروا، وبالظُّفرِ حتى كانت لهم العاقبة، بعدَما نالهم من التكذيب من قَومِهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصرُ في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: التي كَتَبها بالنُّصرة في الدنيا والآخرة لعبادِهِ المؤمنين، كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١]. وقولُه: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: من خَبَرِهم كيفَ نُصِروا وأُيِّدوا على من كذَّبهم من قومهم، فَلَك فيهم أُسْوةٌ وبهم قُدوة. ثم قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، أي: إن كان شقَّ عليك إعراضُهم عنك، ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: النفَقُ: السَّرَبُ، فتذهَب فيه فتأتيهم بآية، أو تجعل لك سلَّماً في السماء، فتصعدُ فيه فتأتيَهم بآية أفضلَ مما أتيتَهم به، فافعَلْ. وكذا قال قتادةُ، والسدّيُّ، وغيرهما.

وقولُه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]. . . الآية. قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن عبَّاسٍ في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، قال: إن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يحرصُ أن يُؤمِنَ جميعُ الناس ويتابعُوه على الهُدَى، فأخبرَ الله أنه لا يُؤمِن إلا من قد سَبَق له من الله السعادة في الذكر الأول. وقولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، أي: إنما يَستجيبُ لدعائك يا محمَّد من يسمَع الكلامَ ويَعيه ويفْهمه، كقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٧٠]. وقولُه: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، يعني بذلك الكفار، لأنهم موتَى القلوب، فشَبَّههم الله بأمواتِ الأجسادِ، فقال: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، وهذا من باب التهكم بهم، والإزراء عليهم.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنّهم كانوا يقُولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي: خارقٌ على

مُقتضى ما كانوا يريدون وما يَتعنّتون كما قالوا، ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠]. . . الآيات. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: هو تعالى قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخيرَ ذلك، لأنه لو أنزلها وَفْقَ ما طَلَبُوا ثم لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة كما فَعَل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء: ٤]. وقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾. قال مجاهد: أي أصنافٌ مُصَنَّفة تُعرف بأسمائها. وقال قتادةُ: الطير أمّةٌ، والإنس أمّة، والجنُّ أمّة. وقال السّدّي: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، أي: خلق أمثالكم.

وقولُه تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: الجميعُ عِلْمُهم عند الله، ولا يَنْسَى واحداً من جميعها من رزقِهِ وتدبيره، سواء كان بَرّياً أو بَحرياً. كما قال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦]، أي: مُفصِح بأسمائها وأعدادِها ومَظانّها، وحاصرٌ لحركاتها وسكناتها، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

[٢٨٧٣] وقد قال الحافظ أبو يَعْلَى: حدثنا مُحمَّد بن المثنّى، حدثنا عُبيد بن واقدٍ القيسيُّ أبو عَبّاد، حدثني محمد بن عيسى بن كيسانَ، حدثنا محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: قَلّ الجراد في سَنَةٍ من سِني عُمَر ـ رضي الله عنه ـ التي وَلِي فيها، فسأل عنه فلم يُخبَر بشيء، فاغتَمّ لذلك. فأرسلَ راكباً إلى كذا، وآخر إلى الشام، وآخر إلى العراق يسأل: هل رُؤي من الجراد شيءٌ أم لا؟ فأتاه الراكبُ الذي من قِبَلِ اليمن بِقَبْضَةِ جرادٍ، فألقاها بين يديه، فلما رآها كَبَّر ثلاثاً، ثم قال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «خلق الله ـ عزّ وجلّ ـ ألف أُمّةٍ، منها سِتّمئة في البحر، وأربعمئة في البر. وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجَرادُ، فإذا هلكت تَتابعتْ مثلَ النِّظام إذا قُطِع سِلْكُه»[١].

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا سفيان، عن أبيه، عن عكرمةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، قال: حَشْرُها الموتُ. وكذا رواه ابنُ جَرير من طريق إسرائيل، عن سعيد، عن مسروق، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: موت البهائم حَشْرُها. وكذا رواه العوفي عنه. قال ابن أبي حاتم: ورُوِي عن مجاهد والضحاك مثلُه. والقول الثاني: أن حشرها هو بعثُها يومَ القيامة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

[٢٨٧٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا مُحمَّد بن جَعْفَرٍ، حدثنا شعبةُ، عن سليمانَ، عن مُنذِر الثوريِّ، عن أشياخ لهم، عن أبي ذَرٍّ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ رأى شاتين تَنْتَطِحان، فقال: يا أبا ذَرٍّ، هل تَدْري فيم تنتطحان؟ قال: لا. قال: لكنَّ الله يَدْرِي، وسَيَقْضي بينهما»[٢].

---

(١) باطل. أخرجه الخطيب ١١/٢١٨ والدولابي ٢/٥٢ وأبو يعلى في «مسنده الكبير» كما في «المجمع» ١٢٤٣٣ وابن الجوزي في «الموضوعات» ٣/١٣ ـ ١٤ وابن عدي ٥/٣٥٢ و٦/٢٤٥ من حديث جابر عن عمر. وقال الهيثمي: فيه عبيد بن واقد القيسي وهو ضعيف اهـ. وأعله ابن حبان بمحمد بن عيسى بن كيسان وقال: شيخ يروي عن ابن المنكدر العجائب، وعن الثقات الأوابد، وهذا الحديث لا شك أنه موضوع، ليس من كلام رسول الله ﷺ اهـ وافقه ابن الجوزي، وهو كما قالا.

(٢) أخرجه أحمد ٥/١٦٢ وله طرق أخرى يحسن بها إن شاء الله، راجع المجمع ١٠/٣٥١ ـ ٣٥٢.

[٢٨٧٥] ورواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الأعمش، عمن ذكره، عن أبي ذرٍّ قال: بينا نحن عند رسول الله ـ ﷺ ـ إذ انتطحت عنزان، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون فيم انتطحتا؟!». قالوا: لا ندري. قال: «لكن الله يدري وسيقضي بينهما»(١). ورواه ابن جرير.

[٢٨٧٦] ثم رواه من طريق مُنْذِر الثوريِّ، عن أبي ذَرٍّ، فذكره وزاد: قال أبو ذَرٍّ: «ولقد تَرَكَنا رسول الله ـ ﷺ ـ وما يُقَلِّبُ طائرٌ جناحَيه في السماءِ إلا ذَكَرنا منه عِلْماً»(٢).

[٢٨٧٧] وقال عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثني عباس بن محمد وأبو يحيى البزار قالا: حدثنا حجاج بن نُصَير، حدثنا شُعبَةُ، عن العَوَّام بن مُرَاجِم ـ من بني قيس بن ثعلبةَ ـ عن أبي عثمانَ النَّهدِيِّ، عن عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ الجَمَّاء لَتقتَصّ من القَرْناء يوم القيامة»(٣).

وقال عبدُ الرزاق: أخبرنا معمَرٌ، عن جعفر بن بُرقان، عن يزيدَ الأصمِّ، عن أبي هُرَيرة في قوله: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، قال: يُحشَر الخلقُ كلُّهم يومَ القيامة، البهائمُ والدوابُّ والطيرُ وكلُّ شيء، فيبلغُ من عَدْلِ الله يومئذ أن يأخذ للجَمَّاء من القَرْنَاءِ. قال: ثم يقولُ: كوني تراباً. قال: فلذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾. وقد رُوي هذا مرفوعاً في حديث الصُّور(٤).

وقولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، أي: مَثَلُهم في جَهْلِهم وقِلَّة عِلْمهم وعَدَم فَهْمِهم كمثل أصَمَّ ـ وهو الذي لا يسمَعُ ـ أبكَمَ ـ وهو الذي لا يتكَلَّمُ ـ وهو مع هذا في ظلام لا يُبصِرُ، فكيف يَهتَدِي مثلُ هذا إلى الطريق، أو يخرُج مما هو فيه؟! كما قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٧ ـ ١٨]، وكما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠]، ولهذا قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: هو المتصرِّف في خَلْقِه بما يشاءُ.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ٧٨٦ ومن طريقه الطبري ١٣٢٢٦، وإسناده ضعيف فيه راوٍ لم يسم، وله شاهد عند مسلم سيأتي.

(٢) أخرجه الطبري ١٣٢٢٧ وهو منقطع بين أبي ذر ومنذر الثوري، لكن يتأيد بالآتي. وأخرجه أحمد ٥/ ١٧٣ والبزار ٣٤٥٠ من وجه آخر عن أبي ذر مرفوعاً وفي إسناده ليث بن أبي سليم غير قوي. والصواب الرواية المتقدمة. حيث رواه منذر عن أشياخ له عن أبي ذر، وبكل حال الحديث حسن بطرقه، وفي الباب أحاديث تعضده، وانظر ما بعده.

(٣) صحيح بشواهده. أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» ١/ ٧٢ والبزار ٣٤٤٩ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٣٥٢: رواه أبو يعلى في «الكبير» والبزار وعبد الله بن أحمد، وفيه الحجاج بن نصير، وقد وثق على ضعفه وبقية رجال البزار رجال الصحيح غير العوام بن مزاحم، وهو ثقة اهـ. ويشهد له حديث أبي هريرة عند مسلم ٢٥٨٢ والترمذي ٢٤٢٠ وابن حبان ٧٣٦٣ وأحمد ٢/ ٣٢٣ وابن حبان ٧٣٦٣.

(٤) يأتي تخريجه إن شاء الله.

ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

يخبر تعالى أنه الفعّال لما يريدُ، المتصرِّفُ في خَلْقِه بما يشاءُ، وأنه لا مُعقِّب لحكمه، ولا يَقْدِر أحدٌ على صَرْفِ حُكْمِهِ عن خَلْقِه، بل هو وَحْدَه لا شريكَ له، الذي إذا سُئِل يجيبُ لمن يشاءُ، ولهذا قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾، أي: أتاكم هذا أو هذا ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: لا تدعون غيره، لعلمكم أنه لا يقدر أحدٌ على دفع ذلك سواه، ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: في اتّخاذكم آلهةً معه ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: في وقتِ الضرورةِ لا تَدْعُون أحداً سواه، وتذهَبُ عنكم أصنامُكم وأندادكُم، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]. . . الآية. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾، يعني: الفقر والضيق في العيش ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، أي: يَدْعُونَ الله ويتضرَّعون إليه ويخشَعُون، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾، أي: فَهلاً إذ ابتليناهم بذلك تَضرَّعوا إلينا وتَمَسْكَنُوا لَدينا، ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ما رقَّتْ ولا خَشَعت، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أي: من الشِّرك والمعاندة والمعاصي. ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾، أي: أعرضوا عنه وتناسَوه وجعَلُوه وراءَ ظُهُورهم ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، أي فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون. وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عياذاً بالله من مكره، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾، أي: من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أي: على غَفْلةٍ ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، أي: آيسون من كُلِّ خيرٍ. قال الوالبيُّ: عن ابن عبَّاسٍ: المبلسُ: الآيسُ. وقال الحسنُ البصريُّ: من وَسَّع الله عليه فلم يَرَ أنه يمكرُ به فلا رَأي له، ومن قَتَر عليه فلم يَرَ أنه ينظر له فلا رَأي له، ثُمَّ قَرَأ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾، قال الحسن: مَكَرَ بالقوم ورَبِّ الكعبة، أُعْطُوا حاجتهم ثم أُخِذُوا. رواه ابن أبي حاتم. وقال قتادةُ: بَغَتَ القومَ أَمْرُ الله، وما أخذَ الله قوماً قطُّ إلا عِنْدَ سَكْرَتِهم وغِرَّتِهم ونَعْمتِهم، فلا تغترُّوا بالله، إنه لا يغترُّ بالله إلا القومُ الفاسقون. رواه ابن أبي حاتم أيضاً.

وقال مالكٌ، عن الزهريِّ، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ قال: إرخاء الدنيا وسَتْرُها.

[٢٨٧٨] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غَيلانَ، حدثنا رِشْدِينُ ـ يعني ابنَ سعد أبا الحجّاج المَهْرِيّ ـ عن حَرْمَلة بن عمرانَ التُّجِيبي، عن عُقبَةَ بن مسلم، عن عقبةَ بن عامرٍ، عن النبيّ ـ ﷺ ـ قالَ: «إذا رأيتَ الله يُعطِي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحبُّ، فإنما هو استدراجٌ. ثم تلا رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾»[1].

ورواه ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم، من حديث حَرْمَلة وابن لَهيعة، عن عقبةَ بن عامرٍ، به.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٤٥ والطبري ١٣٢٤٣ والطبراني ١٧/ ٣٣٠ (٩١٣) والبيهقي في «الشعب» ٤٥٤٠ من طرق عن حرملة بن عمران به. وأخرجه الطبري ١٣٢٤٤ من طريق ابن لهيعة عن عقبة بن مسلم به، والأول فيه رشدين ضعيف، والثاني فيه ابن لهيعة ضعيف، وله شواهد ستأتي دون ذكر هذه الآية.

[٢٨٧٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمّار، حدثنا عِراك بن خالِد بن يزيدَ، حدثني أبي، عن إبراهيم بن أبي عَبْلَةَ، عن عُبادة بن الصامت أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «إنَّ الله إذا أراد بقوم بقاءً، أو نماءً، رزَقهم القَصْدَ والعَفَاف، وإذا أراد الله بقوم اقتطاعاً فَتَح لهم، أو فتح عليهم، باب خيانةٍ» ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، كما قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[1]. ورواه أحمد وغيره.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المكذِّبين المعاندين: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ أي: سَلَبكم إياها كما أعطاكموها. كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الملك: ٢٣]... الآية. ويحتَمِلُ أن يكون هذا عبارة عن مَنْع الانتفاع بهما النفعَ الشرعي، ولهذا قال: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾، كما قال: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس: ٣١] وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وقولُه: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾، أي: هل أحدٌ غيرُ الله يقدِرُ على رَدِّ ذلك إليكم إذا سَلَبه الله منكم؟ لا يقدرُ على ذلك أحد سواه، ولهذا قال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾، أي: نُبيِّنها ونُوضِّحها ونُفسِّرها دالَّةً على أنه لا إله إلاّ الله وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال، ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، أي: ثم هُم مع هذا البيان يصدفون. أي: يُعرِضون عن الحق، ويَصُدُّون الناسَ عن اتّباعه. قال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿يَصْدِفُونَ﴾ يَعْدِلون. وقال مجاهدٌ، وقتادةُ: يُعرِضون. وقال السدِّيُّ: يَصُدُّون. وقولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾، أي: وأنتم لا تشعرونَ به حتى بَغَتكم وفَجَأكم ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أي: ظاهِراً عياناً ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: إنما كان يُحيط بالظالمين أنفسَهم بالشِّرك بالله، وينجُو الذين كانوا يعبدون الله وَحْدَه لا شريكَ له، فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزَنُون، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]... الآية. وقولُه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، أي: مُبشِّرين عباد الله المؤمنين بالخيرات، ومُنْذِرين من كَفَر بالله النِّقماتِ والعقوبات. ولهذا قال: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾، أي: فمن آمن قلبُه بما جاؤوا به وأصلح عملَه باتّباعه إياهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، أي: بالنسبة إلى ما يَستقبِلُونه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: بالنسبة إلى ما فاتهم وتَرَكُوه وَرَاء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها، الله وليهم فيما خَلَّفُوه، وحافظهم فيما تَركوه. ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾، أي: ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرُّسُل، وخَرَجوا عن أوامر الله وطاعته، وارتكَبُوا مَحَارِمه ومناهيه وانتهاك حرماته.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ

---

(١) ضعيف. فيه عراك بن خالد، لين الحديث. وهو منقطع بين إبراهيم بن أبي عبلة وعبادة بن الصامت.

هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

يقولُ تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، أي: لستُ أملِكُها، ولا أنا المُتصرِّفُ فيها، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، أي: ولا أقولُ: إني أعلمُ الغيبَ إنما ذاك من علم الله ـ عزّ وجلّ ـ لا أطّلع منه إلا على ما أطلعني عليه، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾، أي: ولا أدّعِي أنّي مَلَكٌ، إنما أنا بشرٌ، يُوحَى إليّ من الله ـ عزّ وجلّ ـ شرّفني بذلك، وأنعم عليّ به. ولهذا قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، أي: لستُ أخرجُ عنه قِيدَ شِبْرٍ ولا أدنى منه. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾، أي: هل يستوي من اتّبع الحقّ وهُدِيَ إليه، ومن ضلّ عنه ولم ينقد له؟ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، وهذه كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩]. وقولُه: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، أي: وأنذِرْ بهذا القرآن يا محمد ﴿الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] والذين ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١]. ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: يوم القيامة ﴿لَيْسَ لَهُم﴾، أي: يومئذ ﴿مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، أي: لا قريب لهم ولا شَفِيعَ فيهم من عذابه إن أراده بهم، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: أنذِرْ هذا اليومَ الذي لا حاكم فيه إلا الله ـ عزّ وجلّ ـ ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، فيعملون في هذه الدار عملاً يُنجيهم الله به يومَ القيامة من عَذابِهِ، ويُضاعِفُ لهم به الجزيلَ من ثَوابِهِ. وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، أي: لا تُبعِدْ هؤلاء المتّصفين بهذه الصفة عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخِصّاءك، كما قال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨]. وقولُه: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، أي: يعبدُونه ويسألونه ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، قال سعيد بن المسيّب، ومجاهد، والحسن، وقتادةُ: المراد بذلك الصلواتُ المكتوباتُ. وهذا كقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، أي: أتقبّلُ منكم. وقولُه: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، أي: يَبتَغُون بذلك العملِ وجهَ الله الكريم، فهم مُخلِصُون فيما هم فيه من العبادات والطاعات. وقولُه: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ كما قال نوح ـ عليه السلام ـ في جواب الذين قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الشعراء: ١١١ ـ ١١٣]، أي: إنما حسابهم على الله ـ عزّ وجلّ ـ وليس عَلَيّ من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء. وقولُه: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، أي: إن فعلتَ هذا والحالةُ هذه.

[٢٨٨٠] قال الإمام أحمد: حدثنا أسباطٌ ـ هو ابن محمد ـ حدثنا أشعث، عن كُردُوسٍ، عن ابن مسعود قال: مَرّ المَلأُ من قُرَيشٍ على رسول الله ـ ﷺ ـ وعنده: خَبّابُ بن الأرَتّ وصُهَيبٌ، وبلالٌ، وعمارٌ. فقالوا:

يا محمد أرضيت بهؤلاء؟ فنزل فيهم القرآن: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾[1].

[٢٨٨١] ورواه ابنُ جرير، من طريق أشعثَ، عن كُردُوس، عن ابن مسعود قال: مَرَّ الملأُ من قُريش برسول الله ـ ﷺ ـ وعنده: صُهيبٌ، وبلالٌ، وعمّار، وخَبّاب، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيتَ بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطرُدْهم فَلَعلَّكَ إن طردتَهم أن نَتّبعك: فنزلت هذه الآيةُ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾... إلى آخر الآية[2].

[٢٨٨٢] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بنُ يحيى بن سعيد القَطّانُ، حدثنا عَمرو بن محمد العَنقَزيُّ، حدثنا أسباطُ بن نَصْرٍ، عن السدّي، عن أبي سعيد الأزدي ـ وكان قارىء الأزدِ ـ عن أبي الكَنُود، عن خَبّاب في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، قال: جاء الأقرع بن حابس التميميُّ وعُيَينة بن حِصْنٍ الفَزَاريُّ، فوجدوا رسول الله ـ ﷺ ـ مع صُهَيبٍ وبلال وعَمّار وخَبّاب قاعداً في ناسٍ من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حولَ النبي ـ ﷺ ـ حَقَرُوهم، فأتوه فَخَلوا به، وقالوا: إنا نريدُ أن تجعلَ لنا منك مجلساً تَعرِفُ لنا به العربُ فضلَنا، فإنَّ وفودَ العرب تأتيك فَنَستَحِي أن ترانا العرب مع هذه الأعبدُ، فإذا نحن جئناك فأقِمْهُم عَنّا، فإذا نحن فَرَغنا فاقعُد مَعهم إن شئت. قال: نعم. قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً. قال: فدعا بالصحيفة ودعا علياً ليكتب، ونحن قعودٌ في ناحية، فنزل جبريلُ فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾... الآية، فرَمى رسولُ الله ـ ﷺ ـ بالصحيفة من يده، ثم دعانا فأتيناه[3]. ورواه ابنُ جرير، من حديث أسباطٍ، به. وهذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية، والأقرعُ بن حابس وعُيَينة إنما أسلما بعد الهجرة بدَهْرٍ.

[٢٨٨٣] وقال سفيانُ الثَّوري، عن المقدام بن شُرَيح، عن أبيه قال: قال سعد: نزلت هذه الآية في سِتَّةٍ من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ منهم ابن مسعود، قال: كُنّا نستَبق إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ وندنو منه ونسمَعُ منه، فقالت قريش: يُدني هؤلاء دوننا! فنزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾[4]. رواه الحاكم في مستدرَكِهِ من طريق سفيانَ، وقال: على شرط الشيخين، وأخرجه ابن حِبّان في صحيحه من طريق المقدام بن شُرَيحٍ، به.

---

(١) حسن. أخرجه أحمد ٣٩٨٥ والبزار ٢٢٠٩ والطبراني ١٠٥٢٠ والواحدي في «أسباب النزول» ٤٣٣ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠٩٩٧: رجال أحمد رجال الصحيح، غير كردوس، وهو ثقة اهـ وهو يتأيد بحديث سعد وسيأتي.

(٢) أخرجه الطبري ١٣٢٥٨ وانظر الحديث المتقدم.

(٣) منكر. أخرجه الطبري ١٣٢٦١ و١٣٢٦٢ من حديث خباب، وإسناده ضعيف أبو الكنود الأزدي هو عبد الله ابن عامر. مقبول كما في التقريب. أي حيث يتابع، ولم يتابع على هذا السياق، بل خالفه من هو أوثق منه، كما في الخبر المتقدم والآتي. وأبو سعيد الأزدي مجهول، والسدي هو إسماعيل بن عبد الرحمن وثقه أحمد، وقال أبو حاتم: لا يحتج به، وضعفه ابن مهدي. وعنه أسباط بن نصر، وهو سيّىء الحفظ، ثم إن الآية مكية كما ذكر ابن كثير، والأقرع أسلم في المدينة، فالخبر منكر، والله أعلم.

(٤) صحيح. أخرجه الحاكم ٣/ ٣١٩ بهذا اللفظ وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه مسلم ٢٤١٣ والنسائي في «التفسير» ١٨٣ وابن ماجه ٤١٢٨ وأبو يعلى ٨٢٦ والطبري ١٣٢٦٦ والواحدي ٤٣١ بألفاظ متقاربة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، أي: ابتلينا واختبرنا وامتحنّا بعضهم ببعض ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، وذلك أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان غالبُ من اتّبعه في أوّل البعثة ضعفاءَ الناس من الرجالِ والنساءِ والعبيدِ والإماءِ، ولم يَتْبعه من الأشراف إلا قليلٌ، كما قال قومُ نوح لنوح: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧]. . . الآية، وكما قال هِرَقل ملكُ الروم لأبي سفيانَ حين سأله عن تلك المسائل، فقال له: فهل اتّبعه ضعفاءُ الناسِ أو أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال: هم أتباعُ الرُّسُلِ. والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخَرون بمن آمن من ضعفائهم، ويُعذِّبون من يقدِرُون عليهم منهم، وكانوا يقولون: أهؤلاء مَنّ الله عليهم من بيننا؟ أي ما كان الله ليهديَ هؤلاء إلى الخير ـ لو كان ما صاروا إليه خيراً ـ ويَدَعنا كما قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم: ٧٣]. قال الله تعالى في جواب ذلك: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم: ٧٤]. وقال في جوابهم حين قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أي: أليس الله أعلَم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فَيُوفِّقهم ويَهْدِيَهم سُبُل السلام، ويخرجَهم من الظلمات إلى النور، ويَهْدِيَهم إليه صراطاً مستقيماً، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

[٢٨٨٤] وفي الحديث الصحيح: «إن الله لا ينظُر إلى صُوَركم ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1].

[٢٨٨٥] وقال ابن جرير: حدثنا القاسمُ: حدثنا الحُسَين، حدثنا حَجّاج، عن ابن جُرَيج، عن عِكْرِمَةَ في قوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ . . . الآية، قال: جاء عُتْبة بن ربيعة، وشَيبةُ ابن ربيعة، ومُطعِم بن عَدِيّ، والحارثُ بن نوفل، وقرظَة بن عبد عمرو بن نوفل، في أشراف من بني عبد مناف من أهل الكفر، إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب، لو أن ابن أخيك محمداً يطرُد عنه مَوالينا وحُلَفاءَنا، فإنما هم عَبيدنا وعُسَفاؤنا، كان أعظمَ في صُدُورنا، وأطوَعَ له عندنا، وأدنى لاتِّباعنا إياه، وتَصْديقنا له. قال: فأتى أبو طالب النبيَّ ـ ﷺ ـ فحدثه بالذي كَلّموه، فقال عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: لو فعلت ذلك، حتى تنظر ما الذي يريدون، وإلامَ يصيرون من قولهم؟ فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ . . . إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾. قال: وكانوا بلالاً، وعَمّار بن ياسر، وسالماً مولى أبي حذيفة، وصَبيحاً مولى أسِيد ـ ومن الحُلَفاء ابن مسعود، والمقدادُ بن عمرو، ومسعودُ بن القاري، وواقدُ بن عبد الله الحَنظلي، وعمرو بن عبد عمرو ذو الشمالين، ومَرْثَدُ بن أبي مَرْثد ـ وأبو مَرْثَدٍ الغنويُّ حَليفُ حمزة بن عبد المطلب ـ وأشباهُهم من الحلفاء. ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ . . . الآية. فلما نزلَتْ، أقبل عُمَر ـ رضي الله عنه ـ فاعتذر من مقالته، فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ . . . الآية[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، أي: فأكرِمْهم بِرَدِّ السلام عليهم، وبَشِّرْهم برحمة الله الواسعةِ الشامِلةِ لهم. ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، أي: أوجبَها على

(١) تقدم في سورة البقرة عند آية: ٢٧٥.

(٢) مرسل. والمرسل من قسم الضعيف.

نفسِه الكريمةِ، تفضُّلاً منه وإحساناً وامتناناً. ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾، قال بعض السَّلَفِ: كُلُّ من عَصَى الله فهو جاهلٌ. وقال مُعتَمِرُ بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾، قال: الدنيا كلُّها جَهالة. رواه ابنُ أبي حاتم. ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾، أي: رَجَع عما كان عليه من المعاصي، وأقلَع وعَزَم على ألاَّ يعودَ، وأصلحَ العملَ في المستقبل ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

[٢٨٨٦] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن هَمَّام بن مُنَبِّهٍ قال: هذا ما حَدَّثنا أبو هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لما قَضَى اللهُ الخَلْقَ، كتب في كتابِهِ فهو عنده فوقَ العرشِ: إن رَحْمَتي غَلَبت غضبي»(١). أخرجاه في الصحيحين. وهكذا رواه الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرَةَ. ورواه موسى بن عُقبَةَ عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة. وكذا رواه الليثُ وغيرُه، عن محمَّد بن عجلان، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ بذلك.

[٢٨٨٧] وقد رَوَى ابن مَرْدُويه، من طريق الحكم بن أبان، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا فَرَغ الله من القضاء بين الخلق، أخرجَ كتاباً من تحتِ العَرْش: إنَّ رحمتي سَبَقت غَضَبي، وأنا أرحمُ الراحمين. فيقبضُ قبضةً أو قبضتَين، فيُخرِج من النار خَلْقاً لم يعملوا خيراً، مكتوبٌ بين أعينهم: عُتقاء الله»(٢).

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن عاصم بن سُلَيمان، عن أبي عثمان النَّهدِيِّ، عن سَلْمَانَ في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، قال: إنَّا نجدُ في التوراةِ عطفتين: أن الله خلق السموات والأرض، وخلق مئة رحمة ـ أو جعل مئةَ رحمةٍ ـ قبل أن يخلق الخلق، ثم خلق الخلق، فوضَع بينهم رحمةً واحدةً، وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، قال: فبها يتراحمون، وبها يتعاطفون، وبها يتباذلون، وبها يتزاورون، وبها تَحِنّ الناقة، وبها تَثَأَجُ البقرة، وبها تثغو الشاة، وبها تَتَابَعُ الطير، وبها تَتَابَع الحيتانُ في البحرِ. فإذا كان يومُ القيامةِ جَمع الله تلك الرحمةَ إلى ما عنده، ورحمتُه أفضلُ وأوسعُ(٣). وقد رُوي هذا مرفوعاً من وجه آخر. وسيأتي كثيرٌ من الأحاديثِ الموافقةِ لهذه الآية عند قولِه: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

[٢٨٨٨] ومما يناسبُ هذه الآيةَ من الأحاديث أيضاً قولُه ـ ﷺ ـ لمعاذ بن جَبَلٍ: «أتَدري ما حقُّ الله على العباد؟ أن يَعبدُوه ولا يُشرِكوا به شيئاً»، ثم قال: «أتدري ما حقُّ العباد على الله إذا هم فَعَلوا ذلك؟ ألاَّ يُعذِّبهم»(٤) وقد رواه الإمامُ أحمدُ، من طريق كُمَيل بن زياد، عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ

(١) تقدم عند آية: ١٢ من هذه السورة.

(٢) الحكم بن أبان فمن فوقه على شرط البخاري، ولم يذكر المصنف من دون الحكم.
ويشهد لصدره حديث أبي هريرة المتقدم، ولعجزه حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري ٧٤٣٩ ومسلم ١٨٣ ح ٣٠٢ وفيه أنه يقال لهم: «هؤلاء عتقاء الرحمن» وليس أنه مكتوب بين أعينهم والله أعلم.

(٣) أخرجه المروزي في «زيادات الزهد» ١٠٢٠ عن سلمان موقوفاً، وقد أخرجه مسلم ٢٧٥٣ ح ٢١ وابن حبان ٦١٤٦ عن سلمان مرفوعاً، وسيأتي في سورة الأعراف عند آية: ١٥٦.

(٤) تقدم في سورة البقرة عند آية: ٢٢ وفي سورة النساء عند آية ٣٦.

مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

يقول تعالى: وكما بَيَّنا ما تقدَّم بيانه من الحُجَج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وذَمِّ المجادلة والعناد، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾، أي: التي يحتاجُ المخاطَبون إلى بيانها، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولتظهر طريقُ المجرمين المخالفين للرسل. وقرىء: ﴿ولِتَسْتَبِينَ سبيلَ المجرمين﴾، أي: ولتستبين يا محمدُ ـ أو يا مخاطبُ ـ سبيلَ المجرمين. وقولُه: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾، أي: على بصيرةٍ من شريعةِ الله التي أوحاها إليَّ ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾، أي: بالحقِّ الذي جاءني من الله ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾، أي: من العذاب، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، أي: إنما يَرْجِعُ أمرُ ذلك إلى الله إن شاءَ عَجَّل لكم ما سألتُموه من ذلك، وإن شاء أنْظَرَكم وأجَّلكم؛ لما له في ذلك من الحكمةِ العظيمةِ، ولهذا قال ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾، أي: وهو خيرُ من فَصَل القَضايا وخيرُ الفاتِحينَ الحاكِمينَ بين عباده. وقولُه: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: لو كان مرجعُ ما تستعجلون به إليّ، لأوقعتُ بكم ما تَسْتَحِقُّونه من ذلك ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

[٢٨٨٩] فإن قيل: فما الجمعُ بين هذه الآية وبين ما ثَبَت في الصحيحين من طريق ابن وَهب، عن يُونُس، عن الزهريِّ، عن عُروَةَ، عن عائشةَ أنها قالت لرسول الله ـ ﷺ ـ: يا رسول الله، هل أتَى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحُدٍ؟ فقال: لقد لقيتُ من قومِك، وكان أشدُّ ما لَقِيت منهم يومَ العَقَبة؛ إذ عَرَضْتُ نفسي على ابن عبدِ ياليلَ بن عبد كُلالٍ، فلم يُجبني إلى ما أردتُ. فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وَجْهِي، فلم أستَفِقْ إلا بقَرْنِ الثَّعالِب فرفَعتُ رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظَلَّتْنِي، فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ ـ عليه السلام ـ، فناداني فقال: إنَّ الله قد سَمِعَ قولَ قَوْمِك لك، وما رَدُّوا عَلَيْكَ، وقد بَعَث إليك مَلَكَ الجِبالِ لتأمره بما شِئْتَ فيهم. قال: فناداني مَلَكُ الجِبالِ وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمَّدُ، إن الله قد سَمِع قولَ قَومِك لك، وقد بَعثني ربُّك إليكَ، لتأمُرَني بأمرك، فما شِئتَ؟ إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشَبين. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بل أرجو أن يُخرجَ الله من أصلابِهم من يعبدُ الله، لا يُشرِك به شيئاً»[1]. وهذا لفظ مسلم. فقد عُرِضَ عليه عذابُهم واستئصالُهم، فاستأنى بهم، وسَألَ لهم التأخيرَ، لعل الله أن يُخرِجَ من أصلابهم من لا يُشرك به شيئاً، فما الجمعُ بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾؟ فالجوابُ، والله أعلم، أنَّ هذه الآية دلَّت على أنَّه لو كان إليه وقوعُ العَذابِ الذي يَطْلُبونه حال طَلَبهم له، لأوقعه بهم. وأما الحديثُ فليس فيه أنهم سَألُوه وقوعَ العذابِ بهم، بل عَرَضَ عليه مَلَكُ الجبالِ أنه إن شاء أطبقَ عليهم الأخشَبين، وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوباً وشمالاً، فلهذا استأنَى بهم، وسألَ الرفق لهم. وقولُه تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٣١ و ٧٣٨٩ ومسلم ١٧٩٥ والنسائي في «الكبرى» ٧٧٠٦ وابن حبان ٦٥٦١ وأبو نعيم في «دلائل النبوة» ٢١٣.

[٢٨٩٠] قال البخاريُّ: حدثنا عبدُ العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سَعدٍ، عن ابنِ شِهابٍ، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه: أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «مفاتحُ الغَيبِ خمسٌ لا يعلَمُها إلا الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان: ٣٤]»[١].

[٢٨٩١] وفي حديث عُمَر: أنَّ جبريل حين تبدَّى له في صورة أعرابي فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال له رسول الله ـ ﷺ ـ فيما قال له: «خمسٌ لا يعلَمُهنَّ إلا الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]. . . الآية[٢]. وقوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾، أي: يحيطُ علمُه العظيم بجميع الموجودات بَرِّيِّها وبحريِّها، لا يخفَى عليه من ذلك شيءٌ، ولا مثقالُ ذَرَّةٍ في الأرضِ ولا في السماءِ. وما أحسنَ ما قال الصَّرْصَرِيّ:

فَـلاَ يَـخْـفَـى عـلـيـه الـذَّرُ إمَّـا تَـرَاءَى لـلـنـواظـر أو تَـوَارَى

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾، أي: ويعلم الحركاتِ حَتَّى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سِيَّما المُكلَّفون منهم من جِنِّهم وإنسِهم، كما قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: ١٩]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن سعيد بن مسروق، عن حسان النمري، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾، قال: ما من شجرةٍ في بَرٍّ ولا بَحرٍ إلا ومَلَكٌ مُوكَّل بها، يكتُب ما يَسقُط منها. وقولُه: ﴿وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾.

قال محمدُ بن إسحاقَ، عن يحيى بن النضر، عن أبيه، سَمِعتُ عبد الله بن عمرو بن العاص يقولُ: إنَّ تحتَ الأرض الثالثة وفوقَ الرابعة من الجنِّ ما لو أنهم ظهروا، يعني لكم، لم تَرَوا معهم نُوراً، على كلِّ زاويةٍ من زَوَاياها خاتَمٌ من خواتيم الله ـ عزّ وجلّ ـ على كلِّ خاتم مَلَك من الملائكة يبعَث الله ـ عزّ وجلّ ـ إليه في كلِّ يوم مَلَكاً من عنده: أن احتَفِظْ بما عندكَ[٣]. قال ابنُ أبي حاتم: حَدّثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المِسْوَرِ الزُّهري: حدثنا مالك بن سُعَير، حدثنا الأعمش، عن يَزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث قال: ما في الأرضِ من شجرةٍ ولا مِغْرَز إبرةٍ إلا عليها ملك مُوَكَّل يأتي الله بِعِلْمِها: رُطُوبتُها إذا رَطِبت، ويَبَسُها إذا يَبِست. وكذا رواه ابنُ جرير عن أبي الخطاب زياد بن يحيى الحَسَّانيِّ، عن مالك بن سُعَيرٍ، به. ثم قال ابنُ أبي حاتم: ذُكِرَ عن أبي حُذَيفة، حدثنا سفيان، عن عَمْرو ابن قَيسٍ، عن رجل، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: خَلَقَ الله النُّون ـ وهي الدَّوَاةُ ـ وخلق الألواحَ، فكتَبَ فيها أَمْرَ الدنيا حَتَّى يَنْقَضِي ما كان من خَلْقٍ مخلوقٍ، أو رِزْقٍ حَلالٍ أو حَرَامٍ، أو عَمَلٍ بِرٍّ أو فجور، وقرأ هذه الآيةَ: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾. . . إلى آخِرِ الآيةِ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٢٧ والنسائي في «الكبرى» ٧٧٢٨.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٨ والترمذي ٢٦١٠ والنسائي ٨/٩٧ وابن ماجه ٦٣ وابن حبان ١٦٨.

(٣) لا يصح هذا الأثر عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وفي إسناده ابن إسحاق مدلس وقد عنعن، وعلى فرض صحته يكون قد أخذه من الزاملتين اللتين وقعتا له في الشام يوم اليرموك.

مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾

يخبر تعالى أنه يتوفّى عباده في منامهم بالليل، وهذا هو التوفّي الأصغرُ، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، فذكر في هذه الآية الوفاتين الكُبرى والصُّغرى، وهكذا ذكر في هذا المقام حُكم الوفاتين الصُّغرى ثم الكُبرى، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾، أي: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار. وهذه جملة معترضةٌ دلَّت على إحاطةِ عِلْمِه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم، في حال سُكونهم وفي حال حَركتهم، كما قالَ: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠]، وكما قالَ تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾، أي: في الليل: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣]، أي: في النهار، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ١٠ ـ ١١]. ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾، أي: ما كسبتم بالنهار ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، أي: في النهارِ. قاله مجاهدٌ، وقتادةُ والسدّيُّ. وقال ابن جُرَيج، عن عبد الله بن كَثِير: أي في المنام. والأول أظهر.

[٢٨٩٢] وقد رَوَى ابن مَرْدُويه بِسَنَدِه، عن الضحّاك، عن ابن عبّاس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «مع كل إنسان مَلَكٌ إذا نام يأخذُ نَفْسَه ويرده إليه، فإن أَذِنَ الله في قَبْضِ روحه قَبَضه، وإلا رُدَّ إليه»، فذلك قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾[1].

وقولُه تعالى: ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، يعني به أَجَلَ كُلِّ واحدٍ من الناس، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، أي: يومَ القيامة، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾، أي: فيخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: ويجزيكم على ذلك، إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌّ. وقولُه: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾، أي: هو الَّذي قَهر كُلَّ شيءٍ، وخَضع لجلالِهِ وعَظَمتِهِ وكبريائه كلُّ شيءٍ. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، أي: من الملائكة يحفظون بَدَنَ الإنسان، كقوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. وحَفَظَةٌ يحفظون عمله ويُحْصونه، كقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]، وكقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧ ـ ١٨].

وقولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾، أي: إذا احتُضِرَ وحان أجلُه ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، أي: ملائكة موكَّلُون بذلك. قال ابنُ عَبَّاسٍ وغيرُ واحد: لِمَلَكِ الموتِ أعوانٌ من الملائكة، يُخرِجُون الروحَ من الجَسَد، فيقبضها مَلَكُ الموتِ إذا انتهَتْ إلى الحلقوم. وسَيَأتي عندَ قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الأحاديثُ المتعلِّقةُ بذلك، الشاهدةُ لهذا المرويِّ عن ابن عباس وغيره بالصِّحة. وقولُه: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، أي: في حِفْظِ رُوح المتوفَّى، بل يحفَظُونها وينزلونها حيث شاء الله ـ عزّ وجلّ ـ إن كان من

(١) إسناده ضعيف جداً. الضحاك لم يلق ابن عباس، فهو منقطع. ولم يسق المصنف الإسناد إلى الضحاك، وعلى الغالب هو جويبر، فإنه هو راوية الضحاك وهو متروك الحديث.

الأبرار ففي عِلِّيين، وإن كان من الفُجّار ففي سِجِّين، عياذاً بالله من ذلك. وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ قال ابنُ جَرير: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ﴾ يعني الملائكة ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾.

ونذكر هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هُرَيرَةَ في ذِكر صُعُودِ الملائكة بالرُّوح من سماءٍ إلى سماءٍ، حتى تنتهي بها إلى السماءِ التي فيها الله ـ عزّ وجلّ ـ حيثُ قال:

[٢٨٩٣] حدثنا حسين بن محمد، حدثنا ابن أبي ذِئْب، عن محمد بن عَمْرو بن عطاء، عن سعيد ابن يَسار، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن الميِّت تحضُره الملائكةُ، فإذا كان الرجلَ الصالحَ قالوا: اخرُجي أيَّتُها النفسُ الطيبةُ كانت في الجسد الطيب، اخرُجِي حَميدةً، وأبشري بِرَوح وريحان، وربٌّ غير غضبان. فلا يزالُ يقالُ لها ذلك حتى تخرُجَ، ثم يُعرَجُ بها إلى السّماءِ فَيُسْتَفتَحُ لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلانٌ. فيقال: مرحباً بالنفس الطيِّبة كانت في الجسد الطَّيِّب، ادخلي حميدةً وأبشري برَوحٍ وريحان، وربٌّ غير غضبان. فلا يزال يُقال لها ذلك حتى يُنتَهَى بها إلى السماءِ التي فيها الله ـ عزّ وجلّ ـ. وإذا كان الرجل السّوءِ قالوا: اخرُجي أيَّتها النفسُ الخبيثةُ كانت في الجسدِ الخبيثِ، اخرجي ذميمة وأبْشري بحميمٍ وغسّاق، وآخَرَ من شَكْلِه أزواجٍ. فلا يزالُ يقالُ لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعرجُ بها إلى السماء، فيستفتَح لها، فيقال: من هذا؟ فيقالُ: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثةِ كانَتْ في الجَسَدِ الخبيثِ، ارجِعِي ذميمةً، فإنه لا يُفتَحُ لك أبواب السماء. فَتُرسَلُ من السماء ثم تَصِير إلى القبر، فيجلِسُ الرجلُ الصالحُ فيقالُ له مثلُ ما قيل له في الحديث الأول، ويجلس الرجلُ السُّوءُ فيقال له مثل ما قيل في الحديث الثاني»[1]. هذا حديث غريب. ويَحتمِلُ أن يكون المراد بقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ﴾، يعني: الخلائق كلّهم ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة، فَيَحكُمُ فيهم بعدله، كما قال: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الواقعة: ٤٩ ـ ٥٠]، وقال: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٧ ـ ٤٩]. ولهذا قال: ﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾.

﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ۝٦٤ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ۝٦٥﴾

يقولُ تعالى ممتناً على عباده في إنجائه المضطرِّين منهم ﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾، أي: الحائرين الواقعين في المهامه البرِّيّة، وفي اللُّجَج البحريَّة إذا هاجت الريحُ العاصفة، فحينئذ يُفرِدُون الدعاء له وحدَه لا شريكَ له، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [الإسراء: ٦٧]. . . الآية. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢ فَلَمَّآ

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ح ٨٥٥١ وكرره ٦/ ١٤٠ عقب حديث لعائشة ومداره على محمد بن عمرو بن عطاء وهو ثقة. ولحديثه شواهد كثيرة سوى لفظ «حتى ينتهي به إلى السماء التي فيها الله عز وجل» فهذا تفرد به ولا يتابع عليه. وقد ورد مثل هذا السياق من حديث البراء أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧ وأبو داود ٣٢١٢ و٤٧٥٣ و٤٧٥٤ ولفظ أحمد «حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة» ليس فيه لفظ. «التي فيها الله عز وجل» وحديث البراء حسنه المنذري في «الترغيب» ٥٢٢١ وقال: رواته محتج بهم، وقال الهيثمي في «المجمع» ٣/ ٥٠: رجاله رجال الصحيح.

أَنجَنْهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢ ـ ٢٣]. . . الآية، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل: ٦٣].
وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، أي: جهراً وسراً ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾، أي: من هذه الضائقة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أي: بعدها. قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ﴾، أي: بعد ذلك ﴿تُشْرِكُونَ﴾ أي: تدعونَ مَعَه في حال الرفاهية آلهةً أُخرى. وقولُه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، لما قال: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ عقَّبه بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾، أي: بعد إنجائه إياكم، كما قال في سورة سبحان: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: ٦٦ ـ ٦٩]. قال ابن أبي حاتم: ذُكِر عن مسلم بن إبراهيم، حدثنا هارون الأعور، عن جعفر ابن سُليمانَ، عن الحسَن في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: هذه للمشركين. وقال ابن أبي نَجيحٍ، عن مُجاهدٍ في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لأمّةِ محمد ـ ﷺ ـ وعَفا عنهم. ونذكر هنا الأحاديثَ الواردةَ في ذلك والآثارَ، وبالله المستعانُ، وعليه التّكلانُ، وبه الثقةُ.

[٢٨٩٤] قال البخاريُّ ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾: يَلْبِسَكُم: يَخلِطَكم، من الالتباس، يَلْبِسوا: يَخلِطُوا. شيعاً: فِرَقاً. حَدَّثنا أبو النعمانِ، حدثنا حَمّاد بنُ زيد، عن عَمْرو بن دينار، عن جابر بن عبد الله قال: لما نزَلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قال رسول الله ـ ﷺ ـ «أعوذُ بوجهك. ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: أعوذُ بِوجهِك. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: هذا أهونُ، أو قال: هذا أيسرُ»(١). وهكذا رواه أيضاً في «كتاب التوحيد» عن قُتَيبة، عن حَمّادٍ، به. ورواه النّسائي في «التفسير»، عن قُتَيبةَ، ومحمد بن النّضر ابن مُسَاوِرٍ، ويحيى بن حَبيب ابن عَرَبِيٍّ، أربعتُهم عن حَمّاد بن زيدٍ، به. وقد رواه الحُميديُّ في مُسنَدِهِ، عن سُفيان بن عُيينة، عن عَمْرو بن دينار، سمع جَابِراً عن النبي ـ ﷺ ـ به. ورواه ابنُ حِبّان في صحيحه، عن أبي يَعْلَى الموصلي، عن أبي خَيْثَمَة، عن سُفيان بن عُيينَة، به. ورواه ابنُ جَريرٍ في تفسيره عن أحمدَ ابن الوليد القُرَشي، وسعيد بن الربيع، وسفيان ابن وكيع، كلُّهم عن سفيان بن عُيَينة، به. ورواه أبو بكر ابن مَرْدُويه، من حديث آدَمَ بن أبي إياس، ويحيى بن عبد الحميد، وعاصم بن علي، عن سفيان بن عُيَينة، به. ورواه سَعيدُ بن منصورٍ، عن حَمّاد بن زيد، وسفيان ابن عيينة، كلاهما عن عَمرو بن دينار، به.

[٢٨٩٥] طريق أخرى: قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره: حدثنا سُليمان بن أحمد، حدثنا مِقْدَامُ بن داود، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا ابنُ لَهيعة، عن خالد بن يزيدَ، عن أبي الزُّبير، عن جابر قال: لما نزلَتْ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أعوذ بالله من ذلك»،

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٢٨ و٧٤٠٦ والترمذي ٣٠٦٥ والنسائي في «التفسير» ١٨٤ وأبو يعلى ١٩٨٢ وابن حبان ٧٢٢٠ والطبري ١٣٣٦٨ والبغوي في «التفسير» ٨٧٤ من طرق عن عمرو بن دينار به.

﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من ذلك» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ قال: «هذا أيسرُ». ولو استعاذَه لأعاذه[1]. ويتعلق بهذه الآيةِ أحاديثُ كثيرةٌ:

[٢٨٩٦] أحدُها، قال الإمام أحمد بن حَنْبَلٍ في مُسنَدِه: حدثنا أبو اليمانِ، حدثنا أبو بكر، هو ابن أبي مَرْيَم، عن راشد، هو ابن سعد المَقْرَئِيّ، عن سعد بن أبي وقاص قال: سُئِل رسول الله ـ ﷺ ـ عن هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، فقال: «أما إنها كائنةٌ، ولم يأتِ تأويلُها بعد»[2]. وأخرجه الترمذي، عن الحسن بن عرفَة، عن إسماعيلَ بن عَيَّاشٍ، عن أبي بكر بن أبي مَرْيَم، به. ثم قال: هذا حديثٌ غريبٌ.

[٢٨٩٧] حديثٌ آخرُ: قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يَعْلَى، هو ابن عُبَيد، حدثنا عثمان بن حَكِيم، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: أقبَلْنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ حتى مَرَرْنا على مسجد بني معاوية، فدخل فَصَلَّى رَكْعَتَين، فَصَلَّينا معه، فناجى ربَّه ـ عزَّ وجلّ ـ طويلاً. ثم قال: «سألتُ ربِّي ثلاثاً: سألته ألاَّ يُهلِك أُمّتي بالغَرَق فأعطانيها، وسألته ألاَّ يهلك أمتي بالسَّنَة فأعطانيها، وسألته ألاَّ يجعَلَ بأسَهُم بينَهُم فَمنَعَنِيها»[3]. انفرَدَ بإخراجه مسلمٌ، فرواه في «كتاب الفِتَنِ» عن أبي بكر بن أبي شَيْبَةَ، وعن محمد ابن عبد الله بن نُمَير، كلاهما عن عبد الله بن نمير، وعن محمد بن يحيى بن أبي عُمَر، عن مَرْوانَ بن معاوية، كلاهما عن عُثمان بن حَكِيم، به.

[٢٨٩٨] حديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: قرأتُ على عبد الرحمن بن مَهْدِيٍّ، عن مالك، عن عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عَتِيك، عن جابر بن عَتِيك أنه قال: جاءنا عبد الله بن عُمَر في بني معاوية ـ قَريةٍ من قُرَى الأنصار ـ فقال لي: هَلْ تَدْرِي أين صَلَّى رسول الله ـ ﷺ ـ في مسجدكم هذا؟ فقلتُ: نَعَم. فأشرتُ إلى ناحيةٍ منه، فقال: هل تَدْرِي ما الثلاثُ التي دعا بهنّ فيه؟ فقلتُ: نعم. فقال: فَأَخبِرني بهنَّ، فقلت: دعا بألا يُظهِرَ عليهم عَدُوّاً من غيرهم، ولا يُهلِكَهُم بِالسِنين فأُعطِيهما، ودَعَا بألاَّ يجعل بَأْسَهُم بينهم، فَمُنِعَها. قال: صَدَقْتَ، فلا يزال الهَرْجُ إلى يوم القيامة»[4]. ليس هو في شَيءٍ من الكُتُب السِتَّةِ، وإسنادُه جَيِّدٌ قويٌّ، ولله الحمد والمِنَّةُ.

[٢٨٩٩] حديثٌ آخرُ: قال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن حكيم بن عَبّاد بن حُنَيف، عن علي بن عبد الرحمن، أخبرني حُذَيفة بن اليَمانِ قال: خرجتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى حَرَّةِ بني معاوية، قال: فَصَلَّى ثماني رَكعاتٍ. فأطال فيهنَّ، ثم التفت إليَّ فقال: حَبَسْتُكَ يا حُذَيفَةُ؟ فقلت: الله ورسولُه أعلم. قال: إني سألتُ الله ثلاثاً، فأعطاني اثنتين ومَنَعني واحدةً، سألته ألاَّ يُسَلِّط على أُمّتي عَدُواً من غَيرِهم، فأعطاني. وسألته ألاَّ يهلكَهم بِغَرقٍ، فأعطاني، وسألته ألاَّ يجعلَ بَأسهم بينهم، فمنعني»[5] رواه ابن مَرْدُويه من حَديثِ ابن إسحاقَ.

[٢٩٠٠] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عَبِيدةُ بن حُمَيد، حدثني سُلَيمان الأعمش، عن رَجاءٍ الأنصاريِّ، عن عبد الله بن شَدَّاد، عن مُعاذِ بن جَبَل ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ أطلُبُه

---

(١) حديث حسن. فهو وإن كان فيه ابن لهيعة، لكن يشهد له ما قبله.

(٢) ضعيف، أخرجه الترمذي ٣٠٦٦ وأحمد ١/ ١٧١ من حديث سعد ومداره على أبي بكر بن أبي مريم وهو ضعيف. ومع ذلك قال الترمذي: حسن غريب. ولعل الصواب ما وقع عند ابن كثير قول الترمذي «غريب» ليس فيه حسن، والله أعلم.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٩٠ وأحمد ١/ ١٧٥ و١٨١ ـ ١٨٢ وأبو يعلى ٧٣٤ وابن حبان ٧٢٣٦ والبغوي في «التفسير» ٨٧٥.

(٤) جيد. أخرجه أحمد ٥/ ٤٤٥ والطبراني في «الكبير» ١٧٨١ وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢٢١: رواه أحمد، ورجاله ثقات.

(٥) حديث حسن. إسناده ضعيف، فيه عنعنه ابن إسحق، لكن للحديث شواهد.

فقيل لي: خَرَج قبلُ. قال: فجعلتُ لا أمرُّ بأحَدٍ إلا قال: مَرَّ قبلُ. حتى مَرَرتُ فوجدتُه قائماً يصلِّي، قال: فجئت حتى قمتُ خَلْفَه، قال: فأطالَ الصلاةَ، فلما قَضى صلاته قلتُ: يا رسول الله، لقد صَلَّيتَ صلاةً طويلةً؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إني صَلَّيتُ صلاةَ رَغبةٍ ورَهْبَةٍ، سألتُ الله ـ عزّ وجلّ ـ ثلاثاً فأعطاني اثنَتين ومَنَعني واحدةً، سألتُه ألاَّ يُهلِكَ أمتي غَرَقاً فأعطانيها، وسألتُه ألاَّ يُظْهِر عليهم عَدُوّاً ليس منهم فأعطانيها، وسألته ألاَّ يجعلَ بأسهم بَيْنَهم فَرَدَّها عليّ»[١]. ورواه ابن ماجه في «الفِتَنِ» عن محمد بن عبد الله بن نُميرٍ وعلي بن محمد، كلاهما عن أبي معاويةَ، عن الأعمش، به. ورواه ابنُ مردُويه من حديث أبي عَوَانَةَ، عن عبد الله بن عُمَير، عن عبد الرحمن بن أبي لَيلى، عن مُعاذ بن جَبَلٍ، عن النبي ـ ﷺ ـ بمثِله أو نَحْوِه.

[٢٩٠١] حديثٌ آخرُ: قال الإمام أحمد: حدثنا هارونُ بن معروف، حدثنا عبد الله بن وَهْبٍ، أخبرني عَمرو بن الحارث، عن بُكَير بنِ الأشجِّ، أنَّ الضحاك بن عبد الله القُرَشيَّ حَدَّثه، عن أنسٍ بن مالك أنه قال: رأيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ في سفر صَلَّى سُبْحَة الضُّحى ثمانيَ رَكَعاتٍ، فلما انصرَفَ قال: «إني صَلَّيتُ صلاةَ رَغْبةٍ ورَهْبَةٍ، سألتُ ربِّي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومَنَعني واحدة: سألتُه ألاَّ يَبْتَلي أمّتي بالسِّنين فَفعل، وسألته ألاَّ يُظْهِر عليهم عَدُوَّهم ففعل، وسألته ألاَّ يَلْبِسَهم شِيعاً فأبى عَلَيّ»[٢]. ورواه النَّسائي في الصلاة، عن محمد بن سلمة، عن ابن وَهْبٍ، به.

[٢٩٠٢] حديثٌ آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعَيب بن أبي حَمْزة قال: قال الزهريُّ: حدثني عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نَوْفَلٍ، عن عبد الله بن خَبَّابٍ، عن أبيه خَبَّاب بن الأرَتِّ ـ مولى بني زُهْرَة ـ وكان قد شَهِد بدراً مع رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: راقبتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ في ليلةٍ صلاَّها كُلَّها، حتى كان مع الفجر، فسلَّم رسول الله ـ ﷺ ـ من صلاته. قُلتُ: يا رسول الله، لقد صَلَّيتَ الليلة صلاةً ما رأيتك صلَّيتَ مثلها. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أجل، إنها صلاةُ رَغْبٍ ورَهَبٍ. سألتُ ربِّي ـ عزّ وجلّ ـ فيها ثلاث خصالٍ فأعطاني اثنتين ومَنَعَني واحدةً: سألتُ ربِّي ـ عزّ وجلّ ـ ألاَّ يُهلِكَنا بما أهلَكَ به الأممَ قبلنا، فأعطانيها. وسألتُ ربي ـ عزّ وجلّ ـ ألاَّ يُظهِرَ علينا عَدُوّاً من غَيرِنا، فأعطانيها. وسألت ربِّي ـ عزّ وجلّ ـ ألاَّ يَلْبِسنا شِيعاً، فَمَنَعنيها»[٣]. ورواه النَّسائي من حَدِيث شُعيب بن أبي حَمْزة، به، ومن وجه آخر، وابن حِبَّان في صَحِيحه، بإسناديهما عن صالح بن كيسان، والترمذي في «الفِتَنِ» من حديث النعمان بن راشد، كلاهما عن الزهري، به. وقال: حسن صحيح.

[٢٩٠٣] حديثٌ آخَرُ: قال أبو جعفر بن جَرير في تفسيره: حدثني زياد بن عُبَيد الله المُزَنيّ، حدثنا مَرْوان بن معاوية الفَزاريُّ، حدثنا أبو مالك، حدثني نافعُ بن خالد الخزاعيُّ، عن أبيه: أنَّ النبيَّ ـ ﷺ ـ صلّى صلاة خفيفةً تامَّةَ الركوع والسُّجودِ، فقال: «قد كانت صلاةَ رغْبَةٍ ورَهْبةٍ، سألت الله ـ عزّ وجلّ ـ فيها ثلاثاً،

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٥/ ٢٤٠ وابن ماجه ٣٩٥١ وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وفي الباب من حديث ثوبان عند مسلم ٢٨٨٩ وأبي داود ٤٢٥٢ والترمذي ٢١٧٦ وابن ماجه ٣٩٥٢ وأحمد ٥/ ٢٧٨ وابن حبان ٧٢٣٨.

(٢) جيد. أخرجه أحمد ٣/ ١٤٦ و١٥٦ وقال الهيثمي في «المجمع» ٢/ ٢٣٦: رواه أحمد، ورجاله ثقات.

(٣) جيد. أخرجه الترمذي ٢١٧٥ والنسائي ٣/ ٢١٦ ـ ٢١٧ وأحمد ٥/ ١٠٨ و١٠٩ وابن حبان ٧٢٣٦ والطبراني ٣٦٢١ والمزي في «تهذيب الكمال» ١٤/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨ وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح. وهو حديث حسن لأجل عبد الله بن خباب، وله شواهد.

أعطاني اثنتين ومَنَعني واحدة. سألتُ الله ألاَّ يُصيبكم بعذاب أصابَ به من قبلَكُم، فأعطانيها. وسألت الله ألاَّ يُسَلِّطَ عليكم عدوّاً يَستَبيحُ بيضتكم[1]، فأعطانيها. وسألته ألاَّ يَلْبِسَكُم شيعاً ويُذِيق بعضَكم بَأسَ بعضٍ، فَمَنَعنيها» قال أبو مالك: فقلتُ له: أبوك سَمِع هذا مِنْ فِيّ رسول الله ـ ﷺ ـ؟ فقال: نَعَم، سَمِعته يُحدِّثُ بها القومَ أنه سمعها مِن في رسول الله ـ ﷺ ـ[2].

[٢٩٠٤] حديث آخرُ: قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُ الرزّاقِ قال مَعْمرٌ: أخبرني أيّوب، عن أبي قِلابة، عن أبي الأشعثِ الصّنعاني، عن أبي أسماء الرَّحَبِي، عن شَدّاد بن أوسٍ، أن رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله زَوَى لي الأرضَ حتى رأيتُ مشارِقَها ومغاربها، وإن مُلْك أمّتي سَيَبلُغُ ما زُوِيَ لي منها، وإنّي أعطيتُ الكنزين الأبيضَ والأحمرَ، وإني سألتُ ربّي ـ عز وجلّ ـ ألاّ يُهلِكَ أمّتي بسنةٍ بعامّةٍ وألاّ يُسلِّط عليهم عَدُوّاً فيهلكهم بِعَامّةٍ، وألاّ يَلْبِسَهُمْ شيعاً، وألاّ يُذِيقَ بعضَهم بَأسَ بَعض. فقال: يا محمدُ، إني إذا قَضَيتُ قضاءً فإنه لا يُرَدّ، وإني قد أعطيتُكَ لأمتك ألاّ أهلِكَهُم بسَنةٍ بعامّةٍ، وألاّ أسلِّط عليهم عَدُوّاً مِمن سواهم فَيهلِكوهم بعامّة، حتى يكونَ بعضُهم يُهلِكُ بعضاً وبَعضُهم يَقتُلُ بعضاً وبعضهم يَسْبِي بَعْضاً. قال: وقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «وإنّي لا أخافُ على أمتي إلا الأئمةَ المُضِلّين، فإذا وُضِع السيفُ في أمتي لم يُرفَع عنهم إلى يوم القيامة»[3]. ليس في شيءٍ من الكُتُبِ الستّةِ، وإسنادُه جَيّد قويٌّ. وقد رواه ابنُ مَرْدُويه من حديث حمّاد بن زيد وعَبّاد بن منصور، وقتادة، ثلاثتهم عن أيّوب، عن أبي قِلابَةَ، عن أبي أسماءَ، عن ثَوْبَانَ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ[4] بنحوه، فالله أعلم.

[٢٩٠٥] حديث آخر: قال الحافظُ أبو بكر بن مَرْدُوَيه: حدثنا عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم الهاشمي وميمون بن إسحاق بن الحسن الحَنفِي قالا: حدثنا أحمدُ بن عبد الجَبّار، حدثنا محمد بن فُضَيل، عن أبي مالك الأشجَعِيّ، عن نافع بن خالد الخُزَاعِيّ، عن أبيه قال ـ وكان أبوه من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وكان من أصحاب الشجرة ـ قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا صلّى والناسُ حولَه، صَلّى صلاة خفيفةً تامّة الركوع والسجود، قال: فجلس يوماً فأطال الجلوسَ حتى أومأ بعضُنا إلى بعض: أن اسكُتُوا، إنه يُنَزَّل عليه. فلما فَرَغ قال له بعضُ القوم: يا رسول الله، لقد أطلت الجلوسَ حتى أومأ بعضُنا إلى بعضٍ: إنه يُنَزَّلُ عليك. قال: «لا، ولكنها كانت صلاةَ رَغْبَةٍ ورَهْبَةٍ، سألت الله فيها ثلاثاً أعطاني اثنتين ومَنَعني واحدةً، سألتُ الله ألاّ يُعذِّبكم بعذاب عَذَّبَ به من كان قبلكم، فأعطانيها. وسألته ألاّ يُسَلِّط على أمتي عَدُوّاً يَستَبِيحُها، فأعطانيها. وسألتُه ألاّ يَلْبسَكم شِيعاً وألاّ يُذِيقَ بعضَكم بأسَ بعضٍ، فَمَنعنيها» قال: قلت له: أبوكَ سَمِعها من رسول الله ـ ﷺ ـ؟ قال: نعم، سَمِعته يقول: إنه سَمِعها من رسول الله ـ ﷺ ـ عَدَد أصابعي هذه، عَشر أصابعَ[5].

---

(١) أي جماعتهم.

(٢) جيد بشواهده. أخرجه الطبري ١٣٣٧٠ بإسناد لا بأس به لأجل نافع الخزاعي حيث وثقه ابن حبان، وللحديث شواهد وطرق.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٤/ ١٢٣ والبزار ٣٢٩١ وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢٢١: رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٨٩ وأبو داود ٤٢٥٢ والترمذي ٢١٧٦ وابن ماجه ٣٩٥٢ وأحمد ٥/٢٧٨ وابن حبان ٧٢٣٨ والبيهقي في «الدلائل» ٦/ ٥٢٦ ـ ٥٢٧.

(٥) جيد بشواهده. أخرجه الطبراني ٤١١٢ والبزار ٣٢٨٩ بنحوه وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢٢٣: رواه الطبراني بأسانيد، ورجال بعضها رجال الصحيح، غير نافع بن خالد، وقد ذكره ابن أبي حاتم، ولم يجرحه أحد، ورواه البزار اهـ. وثقه ابن حبان وحده، ولحديثه شواهد وطرق.

[٢٩٠٦] حديثٌ آخَرُ: قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يونُس، هو ابن مُحَمَّد المؤدِّب، حدثنا ليثٌ - هو ابنُ سعدٍ - عن أبي وَهْبٍ الخَوْلانيِّ، عن رَجُلٍ قد سَمَّاه، عن أبي بَصْرَةَ الغِفاريِّ صاحب رسول الله - ﷺ - أن رسول الله - ﷺ - قال: «سألت ربي - عزّ وجلّ - أربعاً فأعطاني ثلاثاً، ومنعني واحدةً. سألتُ الله ألاَّ يجمعَ أمّتي على ضلالة، فأعطانيها. وسألتُ الله ألاّ يُظهر عليهم عَدُواً من غيرهم، فأعطانيها. وسألت الله ألاّ يهلِكَهم بالسِّنين كما أهلَكَ الأمم قبلهم، فأعطانيها. وسألتُ الله - عزّ وجلّ - ألاّ يلْبِسَهُم شِيَعاً وَيُذيقَ بعضَهم بأسَ بعضٍ، فمنعنيها»[١]. لم يُخرجه أحدٌ من أصحابِ الكُتُب السِتَّةِ.

[٢٩٠٧] حديثٌ آخَرُ: قال الطبرانيُّ: حدثنا محمَّد بن عثمان بن أبي شَيْبَةَ: حدثنا مُنجابُ بن الحارث، حدثنا أبو حُذَيفة الثَّعلبي، عن زياد بن عِلاَقَة، عن جابر بن سَمُرة السُّوائِيِّ، عن عليٍّ: أن رسول الله - ﷺ - قال: «سألت رَبِّي ثلاث خصالٍ، فأعطاني اثنتَين ومَنَعني واحدة، فقلتُ: يا ربُّ، لا تُهلِكْ أُمّتي جوعاً. فقال: هذه لَكَ. قلتُ: يا ربُّ، لا تُسَلِّط عليهم عَدُوّاً من غيرهم - يعني أهلَ الشرك - فيَجتاحَهُم. قال: لك ذلك. قلت: يا ربُّ، لا تَجْعَلْ بأسَهُم بينهم. قال: فَمَنَعني هذِهِ»[٢].

[٢٩٠٨] حديثٌ آخر: قال الحافظُ أبو بكر بن مَرْدُوَيه: حدثنا محمدُ بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أحمدُ بن محمد بن عاصم، حدثنا أبو الدرداء المروزيُّ، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كَيسان، حدثني أبي، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسول الله - ﷺ - قال: «دعوتُ ربِّي - عزّ وجلّ - أن يرفَعَ عن أُمّتي أربعاً، فرفَع الله عنهم ثِنْتَين، وأبي عليَّ أن يرفَعَ عنهم ثنتين. دعوتُ ربِّي أن يَرْفع عنهم الرَّجم من السماءِ والغَرَق من الأرض، وألاّ يَلْبِسَهُم شيعاً، وألاّ يُذيق بعضهم بأس بعض. فَرَفع الله عنهم الرَّجْم من السماء، والغَرَق من الأرض، وأبى الله أن يَرْفَع اثنتين: القتلَ، والهَرْجَ»[٣].

[٢٩٠٩] طريقٌ أخرى: عن ابن عباس أيضاً، قال ابن مَرْدُويه: حدثني عبد الله بن محمد بن زيد، حدثني الوليد بن أبان، حدثنا جعفر بن مُنِير، حدثنا أبو بدر شجاعُ بن الوليد، حدثنا عَمْرو بن قيس، عن رَجُل، عن ابن عباس قال: لما نَزَلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: فقام النبي - ﷺ - فتوضَّأ، ثم قال: «اللهم لا تُرْسِلْ على أمتي عذاباً من فوقهم، ولا من تحتِ أرجُلِهم، ولا تَلْبِسْهُم شيعاً، ولا تُذِق بعضهم بأسَ بعض. قال: فأتاه جبريلُ فقال: يا محمدُ، إن الله قد أجار أُمّتك أن يُرسِلَ عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم»[٤].

[٢٩١٠] حديث آخَرُ: قال ابن مَرْدُوَيه: حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الله البزار، حدثنا عبد الله بن أحمد بن موسى، حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد، حدثنا عَمرو بن محمد العَنْقَزيّ، حدثنا أسباطٌ، عن السدِّيِّ، عن أبي المنهال، عَن أبي هُرَيرة، عن النبيِّ - ﷺ - قال: «سألتُ ربِّي لأمتي أربعَ خصالٍ، فأعطاني ثلاثاً ومَنَعني واحدةً، سألتُه ألاّ تكفر أُمّتي واحدة[٥] فأعطانيها. وسألته ألاّ يعذِّبهم بما عَذَّب به الأمَمِ قَبْلَهم، فأعطانيها.

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٣٩٦ والطبراني في «الكبير» ٢١٧١ وإسناده ضعيف فيه راوٍ لم يُسمّ وانظر «مجمع الزوائد» ٧/ ٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) أخرجه الطبراني ١٧٩ وإسناده ضعيف، قال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢٢٢: وفيه أبو حذيفة الثعلبي، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات اهـ. قلت: لأصله شواهد.

(٣) ضعيف بهذا اللفظ. وعلته عبد الله بن كيسان، فإنه ضعيف، وقد صح بغير هذا السياق.

(٤) إسناده ضعيف، فيه راوٍ لم يسمّ، والغريب فيه ذكر جبريل عليه السلام. وأما أصل الحديث، فمحفوظ لشواهده المتقدمة.

(٥) أي مجتمعةً.

وسألته ألاَّ يُظهِرَ عليهم عَدُوّاً من غيرهم، فأعطانيها. وسألته ألاَّ يجعلَ بأسَهم بينهم، فَمَنَعنيها»[١]. ورواه ابنُ أبي حاتم، عن أبي سعيد بن يحيى بن سَعِيد القَطّان، عن عمرو ابن محمد العَنْقَزِيّ، به نحوه.

[٢٩١١] طريق أخرى: وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا كُثَير بنُ زَيدٍ الليثي المدني، حَدَّثني الوليد بن رباح مولى آل أبي ذُبَاب، سَمِعَ أبا هُرَيرَة يقول: قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «سألتُ ربي ثلاثاً، فأعطاني اثنتين ومَنَعني واحدةً. سألته ألاَّ يُسلِّط على أمتي عَدُواً من غيرهم فأعطاني. وسألته ألاَّ يُهلِكَهم بالسنين، فأعطاني، وسألته ألاَّ يَلبِسَهم شيعاً يُذِيق بعضهم بأسَ بعضٍ، فَمَنَعني»[٢]. ثم رواه ابنُ مرذُويه بإسناده عن سعد بن سعيد بن أبي سعيد المَقبُرِيِّ، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوه. ورواه البَزّار من طريق عُمَر بن أبي سَلَمة، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ بنحوه.

أثرٌ آخرُ: قال سفيانُ الثوريُّ، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالِيَة، عن أُبَيِّ بن كَعْبٍ قال: أربعةٌ في هذه الأمة: قد مضت ثِنتان، وبقيت ثنتان: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال: الرجمُ، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: الخَسفُ، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، قال سفيان: يعني الرجم والخسف. وقال أبو جعفر الرازيُّ، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبَيِّ بن كَعبٍ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، قال: فهي أربع خلال، منها ثنتان بعد وفاة رسول الله ـ ﷺ ـ بخمس وعشرين سنة، أُلبسوا شيعاً، وذاق بعضهم بأس بعض، وبقيت اثنتان لا بد منهما واقعتان: الرجم والخسف. رواه أحمد، عن وكيع، عن أبي جعفر. ورواه ابنُ أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا المنذر بن شاذانَ، حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو الأشهب، عن الحسنَ، في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ﴾ . . . الآية، قال: حُبِسَتْ عقوبتُها حتى عُمِل ذَنْبُها، فلما عُمِل ذَنْبُها أُرسِلَت عقوبتها. وهكذا قال سعيد بن جُبَير، وأبو مالك، ومجاهد، والسدّيُّ، وابن زَيدٍ في قوله: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يعني: الرجم، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، يعني: الخسف. وهذا هو اختيارُ ابن جرير. ورَوى ابنُ جرير، عن يُونُسَ، عن ابن وَهب، عن عبد الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ في قولِه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: كان عبد الله بن مسعود يصيح وهو في المسجد، أو على المنبر، يقول: ألا أيها الناس، إنه قد نزل بكم: إن الله يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، لو جاءكم عذابٌ من السماء لم يُبْقِ منكم أحداً، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، لو خَسَفَ بكم الأرض أهلككم، لم يُبْقِ منكم أحداً، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، ألا إنه نزل بكم أسوأُ الثلاث.

قولٌ ثان: قال ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم: حدثنا يونُس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، سَمِعتُ خَلاَّد ابن سُليمان يقول: سَمِعت عامرَ بن عبد الرحمن يقول: إن ابنَ عباس كان يقولُ في هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، فأما العذاب من فوقكم فأئمة السوء، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فخدم السُّوءِ. وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، يعني: أمراءكم، ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يعني: عَبِيدكم وسَفِلَتكم. وحَكَى ابن أبي حاتم، عن أبي سنانَ وعُمَير بن هانىءٍ، نحوَ ذلك. قال ابنُ جرير: وهذا

---

(١) إسناده غير قوي، لكن لأصله شواهد تعضده. وأخرجه الطبراني في «الصغير» (١) من وجه آخر وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢٢٢: وفيه جنادة بن مروان، وهو ضعيف.

(٢) حديث حسن صحيح.

القولُ وإن كان له وجهٌ صحيح، لكن الأول أظهر وأقوى. وهو كما قال ابنُ جَرِير ـ رحمه الله ـ ويشهدُ له بالصحة قولُه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: ١٦ ـ ١٧].

[٢٩١٢] وفي الحديث: «ليكونَنَّ في هذه الأمة قَذْفٌ وخَسْفٌ ومَسْخٌ»[١]. وذلك مذكورٌ مع نَظائِرِه في أماراتِ الساعةِ وأشراطِها وظهورِ الآياتِ قبلَ يوم القيامةِ، وستأتي في مَوْضِعِها إن شاء الله تعالى. وقولُه: ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا﴾، أي: يَجعلَكُم ملتبسين شِيَعاً فِرَقاً متخالفين. قال الوالبيُّ، عن ابن عباس: يعني الأهواءَ. وكذا قال مجاهد وغير واحد.

[٢٩١٣] وقد وَرَد في الحديث المرويِّ من طُرُق عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «وستفترق هذه الأمةُ على ثلاثٍ وسبعين فرقةً، كلُّها في النار إلا واحدةً»[٢]. وقولُه تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾ قال ابنُ عباس وغيرُ واحدٍ: يعني يُسَلِّط بعضَكم على بعضٍ بالعذاب والقَتل. وقولُه تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، أي: نُبينها ونُوضِّحها ونُفسِّرها، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾، أي: يفهمُون ويتدبَّرون عن الله آياتِه وحُجَجَه، وبَراهِينَه.

[٢٩١٤] قال زيدُ بن أسلَمَ: لما نزلَتْ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾... الآية، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تَرْجِعُوا بعدي كُفَّاراً يضرِبُ بعضُكم رقابَ بعضٍ بالسيوف». قالوا: ونحن نشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنك رسولُ الله؟ قال: نعم. فقالَ بعضُ الناس: لا يكونُ هذا أبداً، أن يقتُلَ بعضُنا بعضاً ونحن مسلمون. فنزلت: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾[٣]. رواه ابنُ أبي حاتم وابنُ جَرير.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾، أي: بالقرآن الذي جئتَهم به، والهُدَى والبيانِ. ﴿قَوۡمُكَ﴾ يعني: قريشاً،

---

(١) يأتي في سورة القمر عند آية: ٤٩ إن شاء الله.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٦٤١ والحاكم ١/١٢٩ والآجري في «الشريعة» ٢١ و٢٢ من طريق عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن عبد الله بن يزيد عن ابن عمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ليأتين على أمتي...» ومداره على عبد الرحمن بن زياد، وهو واهٍ، وله شواهد. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب مفسر لا نعرفه إلا من هذا الوجه اهـ، وضعفه الحاكم فقال: إسناده لا تقوم به حجة. لكن للحديث شواهد منها:
حديث أنس عند ابن ماجه ٣٩٩٣ وصحح إسناده البوصيري في «الزوائد»، ومن حديث عمرو بن عوف عند الحاكم ١/١٢٩ وإسناده ضعيف لضعف كثير بن عبد الله المزني، ومن حديث معاوية بن أبي سفيان عند أبي داود ٤٥٩٧ والحاكم ١/١٢٨ وصححه الحاكم والذهبي، وهو كما قالا، وانظر «الشريعة» للآجري ١٨ ـ ٢٦ بتخريجي.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبري ١٣٣٨١ عن زيد بن أسلم وهذا مرسل. وفيه أيضاً مؤمل بن إسماعيل البصري فيه ضعف. ثم المعنى بتتمة الآية كفار قريش انظر كلام الطبري رحمه الله عقب حديث ١٣٣٨٢ و١٣٣٨٥ وما قبله. والخبر ضعيف بكل حال لكونه مرسلاً.

﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾، أي: الذي لَيْسَ وراءَه حقٌّ. ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾، أي: لستُ عليكم بحفيظٍ، ولستُ بموكَّلٍ بكم، كقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، أي: إنما عليَّ البلاغُ، وعليكم السمعُ والطاعةُ، فمن اتَّبعني سَعِد في الدنيا والآخرة. ومن خالفني فقد شَقِي في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾. قال ابنُ عَبَّاس وغيرُ واحد: أي، لكُلِّ نبأ حقيقةٌ، أي: لِكُلِّ خبر وقوعٌ ولو بعد حين، كما قال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٨] وقال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]. وهذا تهديد ووعيد أكيد، ولهذا قال بعده: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. ثم قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾، أي: بالتكذيب والاستهزاء ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾، أي: حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب، ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، والمراد بهذا كلُّ فَرْدٍ من آحاد الأمة ألاَّ يجلسوا مع المكذبين الذين يُحرِّفون آياتِ الله ويضَعُونها على غير مواضعها، فإن جلس أحدٌ معهم ناسياً ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، بعد التذكر ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

[٢٩١٥] ولهذا وَرَد في الحديث: «رُفِعَ عن أُمَّتي الخَطأُ والنِّسيان وما استُكْرِهُوا عليه»(١). وقال السدِّيُّ، عن أبي مالك وسَعِيد بن جُبَير في قَوْلِهِ: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، قال: إن نَسِيت فَذُكِّرْت فلا تَجْلِس معهم. وكذا قال مقاتل بن حَيَّان. وهذه الآيةُ هي المُشَار إليها في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]. . . الآية، أي: إنكم إذا جلستُم معَهم وأقرَرْتُموهم على ذلك، فقد ساويتُموهم في الذي هم فيه.

وقولُه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾، أي: إذا تَجنَّبُوهم فلم يجلِسُوا معهم في ذلك، فقد بَرِئُوا من عهدتهم، وتخلصوا من إثمهم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا عُبَيد الله بن موسى، عن إسرائيلَ، عن السدِّيِّ، عن أبي مالك وسعيد بن جُبَير، قولُه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾، قال: ما عليك أن يَخُوضوا في آيات الله إذا فعلتَ ذلك، أي: إذا تجنَّبتهم وأعرضتَ عنهم. وقال آخرون: بل معناه وإن جَلَسُوا معهم فليس عليهم من حسابهم من شيءٍ. وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية، وهي قولُه: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، قاله مجاهد، والسدِّيُّ، وابن جُرَيج، وغيرهم. وعلى قولهم يكون قولُه: ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذٍ تذكيراً لهم عما هُم فيه، لعلهم يتَّقون ذلك، ولا يَعُودُون إليه.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: دَعْهُم وأعرِضْ عنهم وأمْهِلْهم قليلاً، فإنهم صائِرُون إلى عذابٍ عظيم. ولهذا قال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾، أي: وذكِّر النَّاسَ بهذا القرآن، وحَذِّرْهم نقمة الله وعَذَابه الأليمَ يومَ القيامة. وقولُه تعالى: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾، أي: لِئلاَّ تُبْسَل، قال الضحاكُ عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، والسدِّي: تبسل: تسلَم. وقال الوالبيُّ،

(١) إسناده غير قوي، تقدم في سورة البقرة آية: ٢٨٦.

عن ابن عباس: تُفْضح. وقال قتادةُ: تُحْبَس. وقال مُرّة وابنُ زيدٍ: تُؤاخذ. وقال الكَلْبِيُّ: تُجازَى. وكلُّ هذه العبارات متقاربة في المعنى، وحاصلها الإسلام للهلكَةِ، والحبسُ عن الخير، والارتهانُ عن دَرْكِ المطلوب، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّا أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩﴾ [المدثر: ٣٨ ـ ٣٩]. وقولُه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، أي: لا قريبَ ولا أحدَ يشفعُ فيها، كما قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وقولُه: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾، أي: ولو بذلَتْ كُلَّ مبذولٍ ما قُبِل منها كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ [آل عمران: ٩١]. . . الآية. وهكذا قال هاهنا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧١ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٢ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٧٣﴾

قال السديُّ: قال المشركون للمؤمنين: اتَّبِعوا سبيلَنا، واتركوا دينَ محمد. فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾، أي: في الكفر ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، فيكون مَثَلُنا مثل الذي استهوته الشياطينُ في الأرض، يقول: مَثَلُكم إن كفرتُم بعد الإيمان كَمَثَلِ رجل كان مع قوم على الطريقِ، فضلَّ الطريقَ، فَحَيَّرته الشياطين، واستَهوته في الأرض، وأصحابُه على الطريق، فَجعلوا يَدْعُونه إليهم يقولون: ائتنا، فإنّا على الطريق فأبى أن يأتيهم. فذلك مَثَلُ من يَتَّبِعهم بعد المعرفة بمحمد ـ ﷺ ـ ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، والطريقُ هو الإسلام. رواه ابن جرير. وقال قتادةُ: ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أضلّته في الأرض. يعني ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾ سَيَّرته، مثل قوله تعالى: ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقال عليّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ . . . الآية: هذا مثلٌ ضَرَبَه الله للآلهة ومَن يدعو إليها، والدعاة الذين يدعون إلى هدى الله ـ عزّ وجلّ ـ كمثل رجلٍ ضَلَّ عن الطريق تائهاً ضالاً، إذ ناداه منادٍ: يا فلانَ بن فلانٍ، هَلُمَّ إلى الطريق، وله أصحابٌ يَدْعُونه: يا فلانُ، هَلُمَّ إلى الطريق، فإن اتبع الداعيَ الأول انطلَق به حتى يُلقيه إلى الهَلَكَةِ، وإن أجاب من يدعُوه إلى الهُدَى اهتدى إلى الطريق. وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغِيلان. يقول: مثلُ من يعبُد هذه الآلهةَ من دون الله، فإنه يرى أنه في شيءٍ حتّى يأتيَه الموتُ، فَيَستَقبلَ الهَلَكة والنَّدامَةَ. وقولُه: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، هم الغيلانُ، يَدْعُونه باسمه واسم أبيه وجَدِّه، فَيَتبعها وهو يَرَى أنه في شيءٍ، فيصبح وقد ألقته في مَهْلَكَةٍ، ورُبّما أكلته، أو تلقيه في مَضَلَّةٍ من الأرض، يهلِكُ فيها عطشاً. فهذا مثلُ من أجابَ الآلهةَ التي تُعبَدُ من دون الله ـ عزّ وجلّ ـ. رواه ابن جرير. وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾، قال: رجل حيرانُ إن يدعوه أصحابه إلى الطريق، وذلك مثل من يَضِلُّ بعد أنْ هُدِيَ. وقال العَوفيّ، عن ابن عباس، قولُه: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ﴾، فهو الذي لا يَستَجيبُ لهدى الله، وهو رجلٌ أطاع الشيطان، وعَمِلَ في الأرضِ بالمعصيَةِ، وحار عن الحق

وضلَّ عنه، وله أصحاب يَدْعُونه إلى الهدى، ويزعُمُون أن الذي يأمرونه هُدَى، يقول الله ذلك لأوليائهم من الإِنس: إن الهدى هدى الله، والضلالُ ما يدعو إليه الجنُّ. رواه ابنُ جرير، ثم قال: وهذا يقتضي أن أصحابه يدعونه إلى ضلال، ويزعمُون أنه هُدَى. قال: وهذا خلاف ظاهر الآية؛ فإن الله أخبر أن أصحابه يدعونه إلى الهُدَى، فغيرُ جائزٍ أن يكون ضلالاً، وقد أخبر الله أنه هُدىً. وهُوَ كما قال ابنُ جرير، فإنَّ سياقَ الآيةِ يقتضي أن هذا الذي استهوته الشياطين في الأرض حيرانَ ـ وهو منصوب على الحال، أي: في حال حيرته وضلاله وجَهْله بوَجه المَحَجَّة ـ وله أصحاب على المحجَّةِ سائرونَ، فجعلوا يدعونه إليهم وإلى الذَّهاب معهم على الطريقة المُثْلَى. وتقديرُ الكلام: فَيأبى عليهم ولا يلتفتُ إليهم، ولو شاء الله لهداه، ولردَّ به إلى الطريق. ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾، كما قال: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]، وقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [النحل: ٣٧]. وقوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي نخلص له العبادة وحده لا شريك له. ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾، أي: وأُمِرْنا بإقامةِ الصلاةِ وبتقواه في جميع الأحوالِ، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. أي: يوم القيامة. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالعَدْلِ، فهو خالقهما ومالكهما، والمدبِّرُ لهما ولمن فيهما. وقولُه: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾، يعني يوم القيامة، الذي يقول الله فيه: كن، فيكونُ عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب. «ويومَ» منصوبٌ إما على العطف على قوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، وتقديره: واتقوا يومَ يقول كُن فيكونُ. وإما على قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: وَخلَق يومَ يقول كن فيكون. فذكر بدء الخلق وإعادته، وهذا مناسب. وإما على إضمار فعل تقديره: واذكرْ يوم يقولُ كن فيكونُ. وقولُه: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ جملتان مَحَلُّهما الجرُّ، على أنهما صِفتان لربِّ العالمين. وقولُه: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكون بدلاً من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ . . . يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾، وَيَحْتَمِلُ أن يكون ظرفاً لقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾، كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وكقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦] وما أشبه ذلك.. واختلف المفسِّرون في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ فقال بعضهم: المراد بالصُّور هاهنا جمع صُورَةٍ، أي: يوم يُنْفَخُ فيها فتحيا. قال ابنُ جَرِيرٍ: كما يقال: سُورٌ، لِسُورِ البلد، وهُوَ جمع سُورَةٍ. والصحيحُ أنَّ المراد بالصُّور القَرْنُ الذي ينفُخ فيه إسرافيلُ ـ عليه السلام ـ[(١)].

[٢٩١٦] قال ابن جرير: والصوابُ من القول في ذلك عندنا ما تظاهرت به الأخبارُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنَّ إسرافيلَ قد التقَم الصُّور وَحَنَى جبهتَهُ، ينتظرُ متَى يُؤمَرُ فينفخُ»[(٢)].

[٢٩١٧] وقال الإِمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سُليمان التيمي، عن أسْلَم العِجْلي، عن بِشْرِ ابن شَغَافٍ، عن عبد الله بن عَمْرو قال: قال أعرابيٌّ: يا رسول الله، ما الصُّورُ؟ قال: قَرْنٌ يُنفخ فيه»[(٣)].

[٢٩١٨] وقد روينا حَديثَ الصُّور بطوله، من طريق الحافظ أبي القاسم الطبراني، في كتابه «الطُّوَالات» قال: حدثنا أحمد بن الحسن المصري الأيْلي، حدثنا أبو عاصم النبيل، حدثنا إسماعيلُ بن رافع، عن

(١) راجع ذلك مفصلاً في «فتح الباري» بإثر حديث ٦٥١٨.

(٢) انظر ما تقدم في سورة آل عمران عند آية: ١٧٣.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ٤٧٤٢ والترمذي ٣٢٤٣ و٣٢٤٤ وأحمد ٢/ ٣١٢ وصححه ابن حبان ٧٣١٢ والحاكم ٢/ ٤٣٦ و٥٠٦ وكذا الذهبي، وهو حديث حسن.

مُحمَّد بن زياد، عن مُحمَّد بن كعب القُرَظي، عن أبي هُرَيرَة ـ رضي الله عنه ـ قال: حَدَّثنا رسول الله ـ ﷺ ـ وهو في طائفةٍ من أصحابه، فقال: «إنَّ الله لما فَرَغ من خَلْقِ السمواتِ والأرض، خَلَقَ الصُّور فأعطاه إسرافيلَ، فهو واضِعُه على فَمِه شاخصاً بصرهُ إلى العرش، ينتظر متى يُؤمَر». قلت: يا رسول الله، وما الصورُ؟ قال: «القرنُ». قلت: كيفَ هُوَ؟ قال: «عظيمٌ، والذي بعثني بالحقِّ إن عِظَم دارةٍ فيه كعَرْض السمواتِ والأرض، ينفخ فيه ثلاث نَفَخات: النفخة الأولى نفخة الفَزَع، والثانية نَفخةَ الصَّعْق، والثالثة نَفخةُ القيامِ لرب العالمين، يأمرُ الله إسرافيلَ بالنَّفْخَةِ الأولى، فيقول: انفُخ، فينفخ نفخةَ الفَزَع، فيفزَعُ أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، ويأمره فَيُديمها ويُطيلها، ولا يَفْتُر، وهي كقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥] فتسيرُ الجِبالُ، فتمرُّ مَرَّ السحاب فتكون سَراباً. ثم ترتجُّ بأهلها رجّاً فتكونُ كالسفينة المرميَّةِ في البحر تَضرِبُها الأمواج، تُكفَأ بأهلها كالقنديل المعلّقِ بالعَرْشِ، تُرَجْرِجُه الرياح، وهي التي يقول: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ [النازعات: ٦ ـ ٨]، فَيَميدُ الناس على ظهرها، وتَذْهَلُ المراضع، وتَضَع الحوامل، وتَشِيب الولدان، وتَطِير الشياطين هاربةً من الفَزع، حتى تأتي الأقطار، فتأتيها الملائكةُ فتضرب وُجوهها، فَترجِعُ، ويُوَلِّي الناس مُدْبِرين ما لهم من أمْرِ الله من عاصم، يُنادي بعضُهم بعضاً، وهو الذي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢]. فبينما هم على ذلك إذ انصدَعتِ الأرضُ من قُطرٍ إلى قُطرٍ، فَرَأوا أمراً عظيماً لم يَرَوا مثله، وأخَذَهم لذلك من الكَرْب والهول ما الله به عليمٌ. ثم يُنظَرُ إلى السماء فإذا هي كالمُهْلِ، ثم انشقَّت فانتثرت نجومُها، وانخسفت شمسُها وقَمَرُها. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: الأمواتُ لا يَعلمُون بشيءٍ من ذلك. قال أبو هُرَيرة: يا رسول الله، من استثنى الله ـ عزّ وجلّ ـ حين يقول: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]؟ قال: أولئك الشهداءُ، وإنما يَصِلُ الفزعُ إلى الأحياء، وهم أحياءٌ عند الله يُرزَقون، وقاهم الله فَزَع ذلك اليوم، وآمَنَهم منه، وهو عذابُ الله يبعثه على شرار خلقه، قال: وهو الذي يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ١ ـ ٢]، فيكونون في ذلك البَلاَء ما شاء الله، إلاّ أنه يَطُولُ. ثم يأمر الله إسرافيلَ بنفخة الصَّعْقِ، فينفخ نَفْخَةَ الصَّعْقِ، فَيُصْعَقُ أهلُ السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله، فإذا هُم قد خَمَدُوا، وجاء مَلَك الموت إلى الجَبّار ـ عزّ وجلّ ـ فيقول: يا ربِّ، قد مات أهلُ السموات والأرض إلا مَن شِئتَ. فيقول الله ـ وهو أعلمُ بمن بقِي ـ: فمن بَقِي؟ فيقول: يا ربِّ، بَقِيتَ أنت الحيُّ الذي لا يموت، وبَقِيَتْ حَمَلَةُ العَرْشِ، وبَقِي جبريلُ وميكائيلُ، وبقيتُ أنا. فيقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ليمت جبريلُ وميكائيلُ. فَيُنْطِقُ الله العَرْشَ فيقول: يا رب، يموتُ جبريلُ وميكائيلُ؟! فيقول: اسكت، فإني كَتَبتُ الموت على كلِّ من كان تحت عَرْشِي. فيموتان. ثم يأتي مَلَكُ الموت إلى الجَبّار فيقول: يا ربُّ، قد ماتَ جبريلُ وميكائيلُ. فيقول الله ـ وهو أعلم بمن بَقِي ـ: فمن بقي؟ فيقول: بقيتَ أنتَ الحيُّ الذي لا يموتُ، وبَقِيت حَمَلَةُ عَرْشِك، وبقيتُ أنا. فيقول الله: لِيمُت حَمَلَةُ عَرْشِي. فَيموتون. ويأمرُ الله العرشَ فَيَقبِضُ الصُّور من إسرافيل. ثم يأتي مَلَكُ الموتِ. فيقول: يا ربُّ، قد مات حَمَلَةُ عرشك، فيقول الله ـ وهو أعلم بمن بَقِي ـ: فمن بَقِي؟ فيقول يا رب، بقيتَ أنت الحي الذي لا يموتُ، وبقيت أنا. فيقول الله: أنت خَلْق من خلقي، خلقتك لما رأيت، فَمُت. فَيَموت. فإذا لم يبق إلا الله الواحد الأحدُ الصَّمَدُ، الذي لم يَلِد ولم يولَد، كان آخراً كما كان أولاً، طَوَى السموات والأرض طَيَّ السِّجل للكتاب، ثم دَحاهما ثم يَلْقَفُهما ثلاثَ مَرّات، ثم يقول: أنا الجَبّارُ، أنا الجَبّارُ، أنا الجَبّار. ثلاثاً. ثم هَتَف

بصوته: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ ثلاث مرّاتٍ، فلا يُجيبه أحدٌ، ثم يقولُ لنفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، يقولُ الله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فيَبسطُهما ويَسْطحُهما، ثم يَمُدُّهما مَدَّ الأديم العُكَاظِيِّ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٧]. ثم يزجُرُ الله الخلقَ زَجْرَةً واحدة، فإذا هُم في هَٰذِه الأرض المبدَّلة مثل ما كانوا فيها من الأولى، من كان في بطنها كان في بطنها، ومن كان على ظَهْرها كان على ظَهْرها، ثم ينزل الله ـ عزّ وجلّ ـ عليهم ماء من تحت العرش، ثم يأمر الله السماء أن تُمطِر، فتُمطِرَ أربعينَ يوماً، حتى يكونَ الماءُ فوقَهم اثني عشر ذراعاً، ثم يأمر الله الأجساد أن تَنبُتَ فتنبت كنباتِ الطَّرَاثِيثِ ـ أو: كنبات البَقْلِ ـ حتى إذا تكامَلَت أجسادُهم فكانت كما كانت، قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: لِيَحْيَ حملةُ عرشي. فَيَحْيَونَ، ويأمر الله إسرافيل فيأخذُ الصُّور، فيضَعُه على فِيه، ثم يقول: لِيَحْيَ جبريلُ وميكائيلُ. فَيَحْيَيان، ثم يدعو الله الأرواحَ، فَيُؤتَى بها تتوهَّجُ أرواحُ المسلمين نُوراً، وأرواحُ الكافِرِينَ ظُلْمَةً، فَيَقْبِضُها جميعاً ثم يُلقيها في الصُّور. ثم يأمرُ الله إسرافيلَ أن ينفُخَ نفخةَ البعث، فينفُخَ نفخةَ البعث، فتخرج الأرواح كأنها النَّحل قد ملأت ما بين السَّماء والأرض، فيقول: وعزَّتي وجلالي لَيَرْجِعَنَّ كُلُّ روحٍ إلى جَسَدِه، فتدخُل الأرواحُ في الأرض إلى الأجساد، فتدخل في الخَيَاشِيم، ثم تَمْشِي في الأجسادِ كما يمشي السمُّ في اللدِيغ، ثم تَنْشَقّ الأرض عنكم، وأنا أول من تَنشَقّ الأرض عنه، فَتَخْرُجُون منها سراعاً إلى ربكم تَنْسِلون، ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٨]، حفاة عُرَاة غُرْلاً، فَتَقِفُون موقفاً واحداً مقدارُه سبعون عاماً، لا يُنْظَر إليكم ولا يُقْضَى بينكم، فتبكونُ حتى تنقطِعَ الدموع، ثم تَدْمَعُون دماً وتَعْرَقُون حتى يُلْجِمَكم العَرَق، أو يبلُغ الأذقانَ، وتقولون: من يشفع لنا إلى رَبِّنا فيَقضِيَ بيننا؟ فيقولون: من أحقُّ بذلك من أبيكم آدمَ، خَلَقه الله بيده، ونَفَخ فيه من رُوحه، وكَلَّمه قِبَلاً. فيأتون آدم، فيطلبون ذلك إليه فيأبى، ويقول: ما أنا بصاحب ذلك. فيستقرئون الأنبياءَ نَبِيّاً، نَبِيّاً، كُلَّما جاؤوا نَبِيّاً أبى عليهم، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: حتى يأتوني فأنطلِق إلى الفحص فَأخرّ ساجداً ـ قال أبو هُرَيرة: يا رسول الله، وما الفَحْصُ؟ قال: قُدَّام العرش ـ حتى يَبْعَثَ إليَّ ملكاً فيأخُذَ بَعَضُدي، فيرفَعني، فيقول لي: يا محمَّدُ، فأقول: نعم، يا ربِّ. فيقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ما شأنُك؟ وهو أعلم، فأقول: يا ربِّ، وعَدتَني الشفاعة فَشَفِّعني في خَلْقِكَ، فاقضِ بينهم. قال الله: قد شَفَّعتُك، أنا آتيكم أَقْضِي بينكم. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: فأرجعُ فأقِفُ مع الناس، فبينَما نحن وقوفٌ إذْ سَمِعنا حِسّاً من السماء شديداً فهالنا، فنزل أهل السماء الدنيا بِمِثْلي من في الأرض من الإنس والجن، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقَتِ الأرضُ بنورهم، وأخذوا مَصَافَّهم، وقُلنا لَهم: أفيكم ربُّنا؟ قالوا: لا، وهو آتٍ. ثم ينزِل أهلُ السماء الثانية بِمثْلَيّ من نَزَل من الملائكة، وبمثلَيْ من فيها من الجنّ والإنسِ، حتى إذا دَنَوا من الأرضِ أشرقَتِ الأرضُ بِنُورِهم، وأخذوا مَصَافَّهم، وقلنا لهم: أفيكم ربنا؟ فيقولون: لا، وهو آتٍ. ثم ينزلُون على قَدْرِ ذلك من التضعيف، حتى ينزل الجَبَّارُ ـ عزّ وجلّ ـ في ظُلَل من الغمام والملائكة، ويحملُ عَرْشه يومئذ ثمانية ـ وهم اليوم أربعة ـ أقدامُهم في تُخوم الأرضِ السفلى، والأرضِ والسموات إلى حُجْزَتهم، والعرش على مناكبهم، لهم زَجَلٌ في تَسْبيحِهم، يقولون: سبحانَ ذِي العَرْشِ والجَبَرُوت، سُبحانَ ذي المُلْكِ والمَلَكُوتِ، سبحانَ الحيِّ الذي لا يموتُ، سبحان الذي يُمِيتُ الخلائق ولا يَموتُ، سُبُوح قُدُوسٌ قُدُوسٌ قُدُوسٌ، سبحانَ ربِّنا الأعلى، ربُّ الملائكة والروح، سُبحانَ رَبِّنا الأعلى، الذي يُميت الخلائق ولا يموتُ.

فيضَعُ الله كرسيه حيثُ يشاءُ من أرضه، ثم يِهْتِفُ بصوته فيقول: يا معشَرَ الجن والإنسِ، إني قد أنْصَتُّ لكم منذ خَلَقْتُكم إلى يومكم هذا، أسمَعُ قولكم وأُبصرُ أعمالكم، فأنصتوا إليَّ، فإنما هي أعمالُكم وصُحُفكم تُقرأ عليكم، فمن وَجَد خيراً فَلْيَحْمدِ الله، ومن وَجَد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه. ثم يأمر الله جهنم، فيَخرُجُ

منها عُنق ساطعٌ مظلم، ثم يقول: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ۝٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦٣]، أو: بها تكذبون ـ شك أبو عاصم ـ ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾ [يس: ٥٩]، فيميز الله الناس وتجثو الأمم، يقول الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨﴾ [الجاثية: ٢٨] فيقضي الله ـ عز وجلّ ـ بين خلقه، إلا الثَّقلين الجن والإنس، فيقضي بين الوحوشِ والبهائم، حتى إنه يَقْتصُّ للجَمَّاء من ذات القَرْن، فإذا فَرَغ من ذلك فلم تَبْقَ تَبِعَةٌ عند واحدةٍ لأخرى قال الله لها: كُوني تراباً. فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠]. ثم يقضي الله بين العباد، فكان أوّلُ ما يَقْضِي فيه الدماءَ، ويأتي كلُّ قَتيل في سبيل الله ـ عزّ وجلّ ـ ويأمرُ الله عز وجل كُلَّ قَتيل فيحمل رأسه تَشْخُب أوداجُه يقول: يا ربّ، فيم قَتَلني هذا؟ فيقول، ـ وهو أعلم ـ: فيم قَتَلْتَهُم؟ فيقول: قتلتهم لتكون العِزّةُ لك. فيقول الله له: صدقت. فيجعَلِ الله وجهه مثل نُورِ الشمسِ، ثم تَمرُّ به الملائكةُ إلى الجَنَّة. ويأتي كلُّ من قُتل على غير ذلك يحمِلُ رأسَه تَشْخُب أوداجه دماً فيقول: يا ربِّ، فيم قَتَلني هذا؟. فيقول ـ وهو أعلمُ ـ لم قَتَلْتَهُمْ؟ فيقول: يا ربِّ، قَتَلتُهم لتكونَ العزّةُ لي. فيقول: تَعِستَ. ثم لا تبقى نفسٌ قَتَلها إلا قُتِل بها، ولا مظلمةٌ ظَلَمها إلا أُخِذَ بها. وكان في مشيئة الله، إن شاء عَذَّبه، وإن شاء رَحِمه. ثم يقضي الله تعالى بين من بَقِي من خَلْقِه، حتى لا تَبْقَى مظْلَمَةٌ لأحدٍ عند أحدٍ إلا أَخذَها المظلومُ من الظالم، حتى إنَّه لَيُكلَّف شائِبَ اللبنِ بالماءِ ثم يُبيعه أن يُخلِّصَ اللبنَ من الماءِ. فإذا فَرَغ الله من ذلك نادى منادٍ يُسْمِعُ الخلائقَ كُلَّهم: ألا لِيَلْحَقْ كُلُّ قوم بآلهتهم، وما كانوا يَعبدُون من دون الله. فلا يبقَى أحدٌ عَبد من دون الله إلا مُثِّلَت له آلهتهُ بين يديه، ويُجعَلُ يومئذٍ مَلَك من الملائكة على صورة عُزَير، ويُجعَلُ مَلَكٌ من الملائكة على صورة عيسى ابن مَرْيَم. ثم يَتْبعُ هذا اليهودُ وهذا النصارى، ثم قادَتْهم آلهتهم إلى النار. وهو الذي يقول: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩﴾ [الأنبياء: ٩٩]. فإذا لم يبقَ إلا المؤمنون فيهم المنافقونَ، جاءهم الله فيما شاء من هَيْئَتِهِ، فقال: يا أيها الناسُ، ذَهَب الناسُ فالحقوا بآلهتكم وما كنتُم تعبدون. فيقولون: والله ما لنا إله إلا الله، وما كُنّا نعبدُ غيره. فينصرِفُ عنهم، وهو الله الذي يأتيهم فيمكُثُ ما شاء الله أن يمكُثَ، ثم يأتيهم فيقولُ: يا أيُّها الناسُ، ذَهَب الناسُ فالحقوا بآلهتكم وما كنتُم تعبدون. فيقولون: والله ما لنا إله إلا الله، وما كُنّا نعبدُ غيره. فيكشف لهم عن ساقه، ويَتَجلّى لهم من عظمته ما يَعْرِفون أنه رَبُّهم، فَيَخِرُّون للأذقان سُجّداً على وجوههم، ويخرُّ كلُّ منافقٍ على قَفَاه، ويجعلُ الله أصلابَهم كَصَياصي البقر. ثم يأذن الله لهم فيرفعون، ويضربُ الله الصِّراط بين ظَهْرَاني جَهَنَّم كحدِّ الشَّفْرَةِ، أو كحدِّ السيف، عليه كَلاليبُ وخطاطيف وحسَك كحَسَك السَّعْدَانِ، دونه جِسْرٌ دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، فيمرُّون كطَرفِ العين، أو كَلَمْح البرق، أو كَمَرِّ الرِّيح، أو كَجِيَادِ الخيل، أو كَجِيَاد الرِّكَابِ، أو كَجِيَاد الرجال. فناجٍ سالمٌ، وناجٍ مَخدُوشٌ، ومُكَرْدَسٌ على وجهه في جهنم. فإذا أفضى أهل الجَنَّةِ إلى الجنةِ قالوا: من يَشْفَع لنا إلى ربِّنا فندخُلَ الجَنَّةِ؟ فيقولون: من أحَق بذلك من أبيكم آدمَ ـ عليه السلام ـ، خَلَقه الله بيده، ونفخ فيه من رُوحِهِ، وكَلَّمه قِبَلاً؟. فيأتون آدم فَيُطلَبُ ذلك إليه، فيذكُر ذَنْباً ويقول: ما أنا بصاحب ذلك، ولكن عليكم بنوحٍ، فإنه أول رُسُلِ الله. فَيُؤتَى نوحٌ فَيُطلَبُ ذلك إليه، فَيَذْكُرُ ذنباً ويقول: ما أنا بصاحب ذلك، ويقول: عليكم بإبراهيم، فإنَّ الله اتخذه خليلاً. فيؤتى إبراهيمُ فيُطلَبُ ذلك إليه، فَيَذْكُر ذنباً ويقول: ما أنا بصاحب ذلك، ويقول: عليكم بموسى فإنَّ الله قربه نَجِيّاً، وكَلّمه وأنزلَ عليه التوراةِ. فَيُؤتَى موسى فَيُطلَبُ ذلك إليه، فَيَذْكُر ذَنباً ويقول: لستُ بصاحبِ ذلك، ولكن عليكم بروح الله وكَلِمَتِه عيسى ابن مَرْيَم. فَيُؤتَى عيسى ابن مريَم

فَيُطلَبُ ذلك إليه، فيقول: ما أنا بصاحبكم، ولكن عليكم بمحمد. قال رسول الله ـ ﷺ ـ فيأتوني وَلي عند رَبّي ثلاثُ شَفَاعاتٍ وَعَدَنيهنّ، فأنطلقُ فآتِي الجَنّة، فآخذ بحلقَةِ الباب، فأستَفتِحُ فَيُفتَحُ لي، فأُحَيّا ويُرَحَّبُ بي. فإذا دخلتُ الجنةَ فنظرتُ إلى ربّي خَرَرْت ساجداً، فيأذن الله لي من حَمده وتَمجِيدِه بشيءٍ ما أذِن به لأحدٍ من خلقه، ثم يقول: ارفَعْ رأسك يا محمدُ، واشفَعْ تُشَفَّع، وسَلْ تُعطَهْ. فإذا رفعتُ رأسي يقول الله ـ وهو أعلَمُ ـ: ما شأنك؟ فأقول: يا ربِّ، وَعَدتَني الشفاعةَ، فَشَفِّعْني في أهل الجنةِ فَيَدْخُلون الجنةَ. فيقول الله: قد شَفَّعْتُكَ وقد أذِنتُ لهم في دُخول الجنةِ. وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «والّذِي نفسي بيده، ما أنتم في الدنيا بأعرفَ بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنةِ بأزواجهم ومساكنهم، فيدخلُ كلُّ رجلٍ منهم على ثِنْتَينِ وسبعين زوجةً، سبعين مما ينشىء الله ـ عزّ وجلّ ـ وثنتين آدَمِيَّتَينِ من ولد آدم، لهما فَضلٌ على من أنشأ الله، لعبادتهما الله في الدنيا. فيدخلُ على الأُولى في غُرفة من ياقوتةٍ، على سريرٍ من ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ باللؤلؤ، عليها سبعونَ زوجاً من سُندُسٍ وَإستَبْرَقٍ، ثم إنه يَضَع يَدَه بين كَتِفَيها، ثم ينظر إلى يده من صَدْرِها، من وراء ثيابها وجِلْدِها ولحمها، وإنه لينظر إلى مُخّ ساقِها كما ينظر أحدُكم إلى السِّلْكِ في قَصَبة الياقُوتِ، كَبِدُها له مرآة وكبدُه لها مرآة. فبينا هو عندها لا يَمَلُّهَا ولا تَمَلُّه، ما يأتيها من مَرّة إلاّ وَجَدَها عذراءَ، ما يَفْتُرُ ذَكَرُه، وما تَشتكي قُبُلَها. فبينا هو كذلك إذ نُودي: إنا قد عَرَفنا أنك لا تَمَلُّ ولا تُمَلُّ، ألا إنه لا مَنِيّ ولا مَنِيَّةَ، ألاّ إنَّ لك أزواجاً غيرها. فيخرُج فيأتيهنّ واحدةً واحدةً، كُلّما أتى واحدةً قالت له: والله ما أرَى في الجَنّةِ شيئاً أحسنَ منك، ولا في الجنةِ شيءٌ أحبُّ إليّ منك. وإذا وقع أهلُ النار في النار، وَقَع فيها خَلقٌ من خَلْقِ ربك أوْبقَتهُم أعمالُهم، فمنهم من تأخذ النار قَدَميه لا تجاوز ذلك، ومنهم من تأخذه إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من تأخذُه إلى رُكْبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حَقْوَيه، ومنهم من تأخذُ جَسَده كُلَّه إلاّ وَجْهَه، حَرَّم الله صُورَتَه عليها. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: فأقول: يا ربِّ، مَن وَقَع في النار من أُمّتي؟ فيقول: أخرجوا من عَرَفتم، فيخرجُ أولئك حتى لا يبقى منهم أحدٌ. ثم يأذن الله في الشفاعة فلا يبقَى نبيٌّ ولا شهيدٌ إلا شَفَع، فيقول الله: أخرجوا من وَجَدتم في قلبه زنةَ الدِّينار إيماناً. فيخرج أولئك حتى لا يبقَى منهم أحد. ثم يَشفَع الله فيقول: أخرجوا مَنْ وجدتم في قلبه إيماناً ثُلُثي دينار. ثم يقول: ثُلُثَ دينار. ثم يقول: رُبُعَ دينار. ثم يقول: قيراطاً. ثم يقول: حَبّةً من خَرْدَلٍ. فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحدٌ، وحتى لا يبقَى في النار من عَمِل لله خيراً قَطُّ، ولا يبقى أحدٌ له شفاعة إلاّ شَفَعَ، حتى إن إبليس ليتطاوَلُ مما يرى من رحمَةِ الله رجاءَ أن يُشفَع له، ثم يقول: بقيتُ وأنا أرحَمُ الراحمين. فَيُدْخِلُ يده في جَهَنّم فيخرج منها ما لا يُحصِيه غيرهُ، كأنهم حُمَم، فَيُلْقَون على نهر يقال له: نهر الحيوان، فَيَنبتُون كما تَنْبُت الحَبّةُ في حَميلِ السَّيل ما يلي الشمسَ منها أُخَيضرُ، وما يلي الظلَّ منها أُصَيفرُ، فَينبتُون كنباتِ الطراثيث، حتى يكونوا أمثالَ الذَّرّ، مكتوبٌ في رِقابهم: الجُهَنَّمِيُّونَ عُتَقاء الرّحمن، يَعرِفُهم أهلُ الجنةِ بذلك الكتابِ، ما عَمِلوا خيراً لله قطُّ. فيمكُثُون في الجنّة ما شاء الله، وذلك الكتاب في رِقَابِهم، ثم يقولونَ: ربّنا امحُ عنّا هذا الكتابَ. فيمحُوه الله ـ عزّ وجلّ ـ عنهم»[1].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الطوال» ٣٦ وأبو الشيخ في «العظمة» ٣٨٨ و٣٨٩ و٣٩٠ والبيهقي في «البعث» ٦٦٨ و٦٦٩ والطبري ٢/ ٣٣٠ و٣٣١ و١٧/ ١١٠ و٢٤/ ٣٠ و٦١ و٢٦/ ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ وإسحق بن راهويه كما في «المطالب العالية» ٢٩٩١ من طرق عن إسماعيل بن رافع، وهو واهٍ، فرواه تارة عن يزيد بن أبي زياد عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة، وتارة عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب عن أبي هريرة، وتارة عن محمد بن يزيد بن أبي زياد عن رجل من الأنصار عن محمد بن كعب عن أبي هريرة، وتارة عن محمد بن كعب القرظي عن رجل من الأنصار عن أبي هريرة. وأياً كان فمداره على

هذا حديثٌ مشهورٌ، وهو غريب جداً، ولبعضه شواهدُ في الأحاديث المتفرّقة، وفي بعض ألفاظه نَكارة، تفرّد به إسماعيل بن رافع قاصُ أهلِ المدينة، وقد اختُلِف فيه، فمنهم من وثّقه، ومنهم من ضعّفه، ونَصّ على نكارةِ حَدِيثه غيرُ واحد من الأئمة، كأحمدَ بن حنبلٍ، وأبي حاتم الرازيّ، وعَمْرُو بن علي الفَلاّس، ومنهم من قال فيه: هو متروكٌ. وقال ابن عَدِيّ: أحاديثهُ كلُّها فيها نظر، إلاّ أنه يُكْتَبُ حديثه في جُملة الضُّعفَاء. قلتُ: وقد اختُلِفَ عليه في إسناد هذا الحديثِ على وُجُوهٍ كثيرة، قد أفردتها في جزءٍ على حِدَةٍ. وأما سياقهُ فغريبٌ جدّاً، ويقال: إنه جَمَعه من أحاديثَ كثيرةٍ، وَجعله سياقاً واحداً، فأُنكر عليه بسبب ذلك. وسمعتُ شيخَنا الحافظَ أبا الحجّاجِ المِزّيّ يقول: إنه رأى للوليدِ بن مسلم مُصَنّفاً قد جَمَعَه كالشواهِدِ لبعضِ مفرداتِ هذا الحديثِ، فالله أعلم.

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾

قال الضَّحّاكُ، عن ابن عباس: إن أبا إبراهيم لم يكن اسمُه آزرَ، إنما كان اسمُه تارحَ. رواه ابن أبي حاتم. وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عَاصِم النَّبِيل، حدثنا أبي، حدثنا أبو عاصم، حدثنا شبيبٌ، حدثنا عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ يعني بآزر الصَّنَم، وأبو إبراهيم اسمُه تارحُ، وأمه اسمها مثاني، وامرأته اسمها سارّة، وأم إسماعيل اسمها هَاجَر، وهي سُرِّيَّةُ إبراهيمَ. وهكذا قال غيرُ واحد من علماء النسب: إن اسمه تارح. وقال مجاهد والسدِّيُّ: آزرُ: اسمُ صَنَم. قلتُ: كأنه غَلَبَ عليه آزرُ لخدمته ذلك الصنم، فالله أعلم. وقال ابنُ جَرِيرٍ: وقال آخرونَ: هو سَبٌّ وعَيبٌ بكلامِهِم، ومعناه:

إسماعيل بن رافع ولم يتابعه على هذا الحديث بطوله أحد، وهو واه. جاء في الميزان ٨٧٢: ضعفه أحمد ويحيى وجماعة، وقال الدارقطني وغيره: متروك، وقال ابن عدي: أحاديثه كلها مما فيه نظر اهـ باختصار. وقد نص الحفاظ على وهن هذا الحديث بطوله. فقال الحافظ في «المطالب العالية» ٢٩٩١: فيه ضعف اهـ وقال البوصيري: في ١/٢١: تابعيه مجهول. وجاء في الفتح ١١/٣٦٨ ـ ٣٦٩ عقب حديث ٦٥١٨ ما ملخصه: وأخرجه عبد بن حميد وأبو يعلى في «الكبير» وعلي بن معبد في «الطاعة والمعصية» ومداره على إسماعيل بن رافع، واضطرب في سنده مع ضعفه، فرواه تارة عن القرظي بلا واسطة، وتارة بذكر رجل مبهم بينهما، وتارة عن القرظي عن أبي هريرة، وتارة بذكر رجل مبهم بينهما، وأخرجه إسماعيل بن أبي زياد الشامي أحد الضعفاء في «تفسيره» عن محمد بن عجلان عن محمد القرظي واعترض مغلطاي على عبد الحق في تضعيفه الحديث بإسماعيل بن رافع، وخفي عليه أن الشامي أضعف منه، ولعله سرقه من إسماعيل، فلزقه بابن عجلان وقد قال الدارقطني: يضع الحديث. وقد صحّح الحديث من طريق إسماعيل بن رافع القاضي أبو بكر بن العربي في «سراجه» وتبعه القرطبي في «التذكرة» وقول عبد الحق في تضعيفه أولى، وضعفه قبله البيهقي اهـ كلام الحافظ. وتكلم عليه أيضاً ابن كثير رحمه الله في «نهاية البداية» ٢/٢٢٣ ـ ٢٢٤ وخلاصة القول أنه حديث ضعيف بهذا التمام، وبعض ألفاظه في الصحيحين، وغيرهما، وبعضه في الكتب المعتبرة. وبعضه الآخر منكر لا يتابع عليه.

مُعْوَجٌ، ولم يُسْنِدْه ولا حكاه عن أحدٍ. وقد قال ابنُ أبي حاتم: ذُكِر عن مُعتَمِر بن سُلَيمان، سَمِعتُ أبي يقرأ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ قال: بلغني أنها أعوجُ، وأنها أشدُّ كلمة قالها إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ. ثم قال ابنُ جَرير: والصوابُ أن اسم أبيه آزرُ. ثم أورد على نفسه قَوْلَ النسابين أنَّ اسمَه تارحُ، ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان، كما لكثير من الناس، أو يكون أحدُهما لَقباً. وهذا الذي قاله جيد قوي، والله أعلم.

واختلف القُرّاء في أداءِ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾، فحكى ابنُ جرير عن الحسن البصري وأبي يزيد المدني أنهما كانا يقرآن: ﴿وإذْ قال إبراهيم لأبيه: آزرُ، أتتَّخِذُ أصناماً آلهةً﴾، معناه: يا آزرُ، أتتخذ أصناماً آلهة؟! وقرأ الجمهورُ بالفتح، إما على أنه عَلَمٌ أعجميٌّ لا ينصرفُ، وهو بدلٌ من قوله ﴿لِأَبِيهِ﴾، أو عطف بيان، وهو أشبه. وعلى قول من جعله نعتاً لا ينصرفُ أيضاً كأحمر وأسود. فأما من زَعَم أنه منصوبٌ لكونه معمولاً لقوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾، تقديره: يا أبتِ، أتتخذُ آزَرَ أصناماً آلهة ـ فإنه قول بعيد في اللغة؛ لأن «ما» بعد حرف الاستفهام لا يعملُ فيما قبله، لأن له صَدْرَ الكلام، كذا قرَّره ابن جرير وغيره. وهو مشهورٌ في قواعِدِ العربية. والمقصودُ أنَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ وعظ أباه في عبادةِ الأصنام، وزَجَره عنها، ونَهاه فلم يَنْتَهِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ أي: أتتألَّه لصنم تعبدُه من دونِ الله، ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ﴾، أي: السالكين مَسْلَكَكَ ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: تائهين لا يهتَدُون أين يَسلكُونَ، بل في حَيرةٍ وجَهْلٍ، وأمركُم في الجهالةِ والضلالِ بَيِّنٌ واضح لكل ذي عَقْلٍ صَحيح. وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٨]، فكان إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ يستغفرُ لأبيه مُدّة حياته، فلما ماتَ على الشرك وتبيّن إبراهيمُ ذلك رَجَع عن الاستغفار له، وتَبرّأ منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

[٢٩١٩] وثبت في الصَّحيح: أن إبراهيم يلقى أباه آزرَ يوم القيامة فيقول له أبوه: يا بُنَيَّ، اليومَ لا أَعْصِيك، فيقول إبراهيم: أيْ ربِّ، ألم تَعِدْني أنك لا تُخزِيني يوم يبعثون، وأيُّ خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال: يا إبراهيمُ، انظر ما وراءك. فإذا هو بِذِيخٍ متلطخ، فيؤخَذُ بقوائمه، فيُلْقَى في النار[١].

وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: نُبيِّنُ له وَجهَ الدَّلالة في نَظَره إلى خَلقِهما على وَحْدانيَّة الله ـ عز وجل ـ في مُلكه وخَلقه، وأنه لا إله غيرُه ولا ربَّ سواه، كقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سبأ: ٩]. فأما

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٥٠ من حديث أبي هريرة بهذا السياق، والنسائي في «الكبرى» ١١٣٧٥ و«التفسير» ٣٩٥ بنحوه.

ما حكاه ابنُ جرير وغيره، عن مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، والسدّيّ، وغيرهم قالوا ـ واللفظ لمجاهد ـ: فُرِجت له السمواتُ، فنظرَ إلى ما فيهنّ، حتّى انتهى بصرُه إلى العرش، وفُرِجَت له الأرضُون السبعُ، فنظر إلى ما فيهنّ ـ وزاد غيرُه ـ: فَجَعَلَ ينظرُ إلى العباد على المعاصي فيدعُو عليهم، فقال الله له: إني أرحمُ بعبادي منك، لَعلَّهم أن يَتُوبوا ويُرَاجعوا. وقد روى ابن مَرْدُويه في ذلك حَدِيثين مَرفُوعين[١]، عن معاذٍ وعليّ ابن أبي طالب، ولكن لا يصح إسنادهما والله أعلم. وروى ابنُ أبي حاتم من طريق العَوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ فإنه ـ تعالى ـ جَلَا لَهُ الأمرَ سرَّه وعلانيَتَه، فلم يَخفَ عليه شيءٌ من أعمالِ الخلائقِ، فلما جعل يلعَنُ أصحابَ الذنوب قال الله: إنك لا تستطيع هذا. فَرَدَّه الله كما كان قبل ذلك. فَيَحْتَمِلُ أن يكونَ هذا بأنْ كَشفَ له عن بَصَرِهِ، حتى رأى ذلك عياناً، ويحتمل أن يكون عن بَصيرته حتى شاهَدَه بفؤاده وتحقَّقه وعَرَفه، وعَلِم ما في ذلك من الحِكَمِ الباهرةِ والدّلالاتِ القاطعة.

[٢٩٢٠] كما رواه الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ ـ وصَحَّحه ـ عن معاذ بن جَبَلٍ في حديث المَنام: «أتاني رَبّي في أحسنِ صُورَةٍ فقال: يا محمدُ، فيم يختصمُ المَلأُ الأعلى؟ فقلتُ: لا أدري يا ربُّ، فوضَعَ كفَّه بين كَتِفَيَّ، حتى وجدتُ بَرْدَ أنامِله بين ثَدْيَيَّ، فتجلَّى لي كلُّ شيءٍ وعَرَفت ذلك...»[٢] وذكر الحديث. وقولُه: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾، قيل: الواو زائدة، تقديرُه: وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين، كقوله: ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. وقيل: بل هي على بابها، أي: نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً. وقولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾، أي: تَغشّاه وسَتَره ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾، أي: نجماً، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ﴾، أي: غاب. قال محمد بن إسحاق بن يسار: الأفُول: الذّهاب. وقال ابن جَرير يقال: أفل النجم يأفُل ويأفِل أفُولاً وأفلاً: إذا غاب، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

مصابيحُ ليست باللواتي تَقُودُها نُجُومٌ، ولا بالآفلاتِ الدَّوَالِكِ

ويقال: أين أفَلْت عنا؟ بمعنى: أين غِبْتَ عنّا؟. قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾، قال قتادةُ: علم أن رَبَّه دائمٌ لا يزول. ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾، أي: طالعاً ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾، أي: هذا المنير الطالع رَبّي ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾، أي: جِرماً من النجم ومن القمر، وأكثرُ إضاءة ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾، أي غابَتْ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾، أي: أخلصتُ ديني وأفردتُ عبادَتي ﴿لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: خَلَقَهُما وابتدعَهُما على غير مثالٍ سَبَق ﴿حَنِيفًا﴾، أي: في حال كوني حَنيفاً، أي: مائلاً عن الشِّرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. وقد اختَلَفَ المفسّرون في هذا المقام، هل هو مقام نَظَرٍ أو مناظرة؟ فَروى ابنُ جريرٍ من طريق علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباسٍ ما يقتَضِي أنه مقام نَظَر، واختاره ابنُ جَرير مستدلاً بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى﴾... الآية. وقال محمد بن إسحاق: قال ذلك حين خرج من السَّرَب الذي وَلَدته فيه أُمُّه، حين

---

(١) انظرهما في الدر المنثور ٣/ ٤٥ عند تفسير هذه الآية.

(٢) حسن. أخرجه الترمذي ٣٢٣٣ وأحمد ٥/ ٣٤٣ من حديث معاذ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وسألت البخاري عن هذا الحديث فقال: هذا الحديث حسن صحيح. وله شاهد من حديث ابن عباس، أخرجه الترمذي ٣٢٣٢ وأبو يعلى ٢٦٠٨ من طريق أبي قلابة عن خالد بن اللجلاج عن ابن عباس مرفوعاً. وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه. وأخرجه الترمذي ٣٢٣١ وأحمد ١/ ٣٦٨ من طريق أبي قلابة عن ابن عباس مرفوعاً.

تخوّفت عليه النُمرُود بن كنعان، لما كان قد أخبر بوجُودِ مولود يكون ذهابُ مُلْكِه على يديه، فأمر بِقَتْلِ الغِلمان عامئذٍ. فلما حَمَلت أُمُّ إبراهيمَ بِهِ وحان وضعُها، ذَهَبتْ به إلى سَرَبٍ ظاهِرَ البلدِ، فَوَلَدت فيه إبراهيم وتركته هُناك. وذكر أشياء من خوارق العاداتِ، كما ذكرها غيرُه من المفسّرين من السَّلَفِ والخَلَفِ. والحقُّ أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مُبَيّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فَبَيَّن في المقام الأوّل مع أبيه خَطَأهُم في عبادة الأصنام الأرضيّة، التي هي على صورةِ الملائكةِ السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقَرُ من أن يعبُدُوه، وإنما يتوسّلُون إليه بعبادةِ ملائِكَتِه، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجُون إليه. وبَيَّن في هذا المقام خَطَأهم وضَلالَهم في عبادةِ الهياكلِ، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيِّرة، وهي: القمر، وعُطَارِدُ، والزُهرة، والشّمس، والمرِّيخ، والمُشْتَري، وزُحَلَ. وأشدُّهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمسُ، ثم القمرُ، ثم الزُهرَة. فبيَّن أولاً صلوات الله وسلامه عليه أنّ هذه الزُهرةَ لا تصلُحُ للإلهيّة، لأنها مُسَخَّرة مُقَدَّرة بِسَير مُعَيَّن، لا تَزِيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تَمْلِك لنفسها تَصَرُّفاً، بل هي جُرْمٌ من الأجرام خَلَقَها الله مُنِيرةً، لما له في ذلك من الحِكَم العظيمة، وهي تَطْلع من المشرق، ثم تَسِيرُ فيما بينه وبين المغرب حتى تَغِيب عن الأبصار فيه، ثم تبدُو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثلُ هذه لا تَصلُح للإلهيّة. ثم انتقل إلى القَمَر فبيَّن فيه مثل ما تقدَّم في النجم. ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفتِ الإلهيَّة عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنورُ ما تَقَع عليه الأبصارُ، وتحقَّق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، أي: أنا بريءٌ من عبادتهنّ وموالاتهنّ، فإن كانت آلهةً فَكِيدُوني بها جميعاً ثم لا تُنظِرون، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾، أي: إنما أعبد خالقَ الأشياءِ ومخترعَها ومُسَخِّرها ومقدِّرها ومُدَبِّرها، الذي بيده ملكوتُ كُلِّ شيءٍ، وخالقُ كلِّ شيءٍ وربُّه ومليكه وإلهُهُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]. وكيف يجوزُ أن يكونَ إبراهيمُ ناظراً في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حَقِّه: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء: ٥١ـ٥٢]. . . الآيات، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١].

[٢٩٢١] وقد ثَبَتَ في الصحيحين، عن أبي هُرَيرة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة»[١].

[٢٩٢٢] وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «قال الله: إني خلقتُ عبادي حُنفاء»[٢]. وقال الله في كتابه العَزِيز: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: ٣٠].

---

(١) تقدم في سورة النساء عند آية: ١١٩.

(٢) تقدم أيضاً في سورة النساء عند آية: ١١٩.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ومعناه على أحد القولين، كقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ كما سيأتي بيانه. فإذا كان هذا في حَقِّ سائر الخليقةِ، فكيف يكونُ إبراهيم الخليل الذي جَعَله الله ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] ناظراً في هذا المقام؟! بل هو أولى الناسِ بالفِطْرَةِ السليمةِ، والسجيَّةِ المستقيمةِ بعد رسول الله ـ ﷺ ـ بلا شكٍّ ولا ريبٍ. ومما يُؤيِّد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومِه فيما كانوا فيه من الشِّرك لا ناظراً قوله تعالى:

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم حين جادله قومُه فيما ذَهَب إليه من التوحيد وناظَرُوه بِشُبَهٍ من القول، أنه: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾، أي: تجادلونني في أمر الله وأنّه لا إله إلا هُوَ، وقد بَصَّرني وهَدَاني إلى الحقِّ وأنا على بَيِّنَةٍ منه؟ فكيف ألتفتُ إلى أقوالِكم الفاسِدَةِ وشُبَهكم الباطلة؟! وقوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾، أي: ومن الدلائل على بُطْلانِ قَوْلِكم فيما ذهبتُم إليه أنَّ هذه الآلهة التي تعبدُونها لا تُؤثِّر شيئاً، وأنا لا أخافُها ولا أباليها، فإن كان لها صُنْعٌ فكِيدُوني بها جميعاً ولا تُنْظِرون، بل عَاجِلُوني بذلك. وقولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ استثناء منقطعٌ، أي: لا يضرُّ ولا ينفَعُ إلا الله، ـ عزّ وجلّ ـ. ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾، أي: أحاط علمُه بجميع الأشياءِ، فلا تخفَى عليه خافيةٌ. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: فيما بَيَّنْتُه لكم فتعتبِرُون أنَّ هذه الآلهةَ باطلةٌ فتَنْزَجِرُوا عن عبادتها؟ وهذه الحجّةُ نظيرُ ما احتجَّ به نبيُّ الله هود ـ عليه السلام ـ على قومه عادٍ، فيما قصَّ عنهم في كتابه، حيثُ يقول: ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٦] الآية. وقولُه: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾، أي: كيف أخافُ من هذه الأصنامِ التي تعبدونَ من دونِ الله ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾؟ قال ابن عباس وغير واحد من السلف: أيّ حُجّة؟! وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]. وقولُه: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: فأيُّ الطائفتين أصوبُ؟ الذي عَبَد من بيده الضرُّ والنفعُ، أو الذي عَبد ما لا يضرُّ ولا ينفَعُ بلا دليل، أيهما أحقُّ بالأمنِ من عذاب الله يومَ القيامة لا شريك له؟. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾، أي: هؤلاء الذي أخلَصُوا العبادةَ لله وحدَه لا شريكَ له، ولم يُشرِكُوا به شيئاً هم الآمنون يومَ القيامةِ، المهتَدُون في الدنيا والآخرة.

[٢٩٢٣] قال البخاري: حدثنا محمد بن بَشّار، حدثنا ابن عَدِيّ، عن شُعبَة، عن سُلَيمان، عن إبراهيمَ،

عن عَلْقَمَةَ، عن عبد الله قال: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، قال أصحابُه[١]: وأيُّنا لم يَظْلِم نَفْسَه؟ فنزلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣][٢].

[٢٩٢٤] وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمشُ، عن إبراهيمَ، عن عَلْقَمة، عن عبد الله قال: لما نَزَلَتْ هذه الآيةُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذلك على الناس، وقالوا: يا رسول الله، فأيُّنا لا يظلِمُ نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تَعنون! ألم تسمعوا ما قال العبدُ الصالح: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، إنما هو الشرك[٣].

[٢٩٢٥] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا وَكِيعٌ وابن إدريس، عن الأعمش، عن إبراهيمَ، عن عَلْقَمَةَ، عن عبد اللهِ قال: لما نزلَتْ: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذلك على أصحابِ رسول الله ـ ﷺ ـ قالوا: وَأَيُّنا لم يَظْلِم نفسَه؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ ليس كما تَظُنُّون، إنما قال لقمانُ لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٤].

[٢٩٢٦] وحدثنا عُمَر بن شَبَّةَ النُّمَيْري، حدثنا أبو أحمد، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عَلْقَمَة، عن عبد الله عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، قال: بِشِرْكٍ[٥]. قال: ورُوِيَ عن أبي بكر الصِّدِّيق، وعُمَر، وأُبَيّ بن كَعْبٍ، وسَلْمَانَ، وحُذَيفة، وابن عباس، وابن عُمَر، وعَمْرو بن شُرحبيل، وأبي عبد الرحمن السُّلمي، ومجاهِدٍ، وعكرمةَ، والنَّخَعِيِّ، والضحاكِ، وقتادَة، والسدِّيِّ نحوُ ذلك.

[٢٩٢٧] وقال ابنُ مَرْدَوَيه: حدثنا الشافعيُّ[٦]، حدثنا محمد بن شَدَّادَ المِسْمعيُّ، حدثنا أبو عاصم، حدثنا سفيانُ الثَّوريُّ، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمةَ، عن عبد الله قال: لما نَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: قيل لي: أنتَ منهم[٧].

[٢٩٢٨] وقال الإِمامُ أحمدُ: حدثنا إسحاقُ بن يوسُفَ، حدثنا أبو جَناب، عن زاذان، عن جَرير بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ فلما بَرَزْنا من المدينة إذا راكبٌ يُوضِعُ نحونا، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كأن هذا الراكبَ إيَّاكم يُرِيدُ» فانتهى إلينا الرجلُ، فَسَلَّم فردَدْنا عليه، فقال له النبيُّ ـ ﷺ ـ: «من أينَ أقبلتَ؟» قال: من أهلي وَوَلَدِي وعَشِيرتي. قال: فأين تُرِيدُ؟ قال: أُرِيدُ رسول الله. قال: «فقد أصبتَه» قال: يا رسول الله، عَلِّمني ما الإيمانُ؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، وتُقِيم الصلاةَ، وتُؤتي الزكاةَ، وتصومُ رمضانَ، وتحجُّ البيتَ». قال: قد أقررتُ. قال: ثم إنَّ بعيرَه دَخلت يدُه في شَبَكَة جُرْذَانَ، فَهوى بعيرُه وهَوَى الرجلُ، فوقَع على هامته فماتَ. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «عَلَيَّ بالرجُلِ». فوثَبَ إليه عَمَّار بن ياسر

---

(١) أي أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ كما في الفتح ٨/ ٢٩٤ ح ٤٦٢٩.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢ و٤٦٢٩ ومسلم ١٢٤ والترمذي ٣٠٦٧ وأحمد ١/ ٣٨٧.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ١/ ٣٧٨ بإسناد على شرطهما، وانظر ما بعده.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ١٢٤ ح ١٩٧ و ١٩٨ وابن حبان ٢٥٣ وابن مندة ٢٦٨.

(٥) إسناده صحيح، رجاله ثقات مشاهير.

(٦) هو غير الإمام الشافعي، فابن مردويه لم يدركه. والمراد هنا أبو بكر الشافعي شيخ ابن مردويه.

(٧) إسناده ضعيف، لأجل محمد بن شداد المِسْمعي. جاء في الميزان ٧٦٦٥: قال الدارقطني: لا يكتب حديثه، وقال مرة: ضعيف، وضعفه البرقاني، وقال: كان معتزلياً.

وحُذَيفة بن اليَمَانِ فأقعدَاه، فقالا: يا رسول الله، قُبِض الرجل! قال: فأعرَضَ عنهما رسول الله ـ ﷺ ـ ثم قال لهما رسول الله ـ ﷺ ـ: «أما رأيتما إعراضِي عن الرجل، فإني رأيت مَلَكين يَدُسَّان في فيه من ثمار الجنة، فَعَلِمْتُ أنه مات جَائِعاً». ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «هذا من الذين قال الله ـ عز وجلّ ـ فيهم»: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾. . . الآية. ثم قال: دُونكم أخاكم. قال: فاحتَمَلْناه إلى الماء فَغَسَّلناه وحَنَّطناه وكَفَّناه، وحَمَلناه إلى القبر، فجاء رسول الله ـ ﷺ ـ حتى جلس على شَفِير القبرِ فقال: «الْحدُوا ولا تَشُقُّوا، فإن اللحد لنا والشَّقّ لغيرنا»[١].

[٢٩٢٩] ثم رواه أحمدُ عن أسودَ بن عامرٍ، عن عبد الحميد بن أبي جعفرٍ الفَرَّاءِ، عن ثابتٍ، عن زَاذانَ، عن جَرير بن عبد الله، فذكر نحوه، وقال فيه: «هذا ممن عَمِل قليلاً وأُجِرَ كثيراً»[٢].

[٢٩٣٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسفُ بن موسى القَطَّان، حدثنا مِهْرانُ بن أبي عُمَر، حدثنا علي بن عبد الأعلى، عن أبيه، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كُنَّا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في مسير ساره، إذ عرض له أعرابي فقال: يا رسول الله، والذي بَعَثَك بالحق لقد خرجتُ من بلادِي وتِلادِي ومَالي لأهتدي بهداك، وآخذَ من قولك، وما بلغتُك حتى مالي طعامٌ إلا من خَضِرِ الأرضِ، فاعرضْ عليّ. فَعَرَضَ عليه رسول الله ـ ﷺ ـ فقَبِلَ. فازدَحَمْنا حولَه، فدخَلَ خُفُّ بَكْره في بيت جرذَانٍ، فتردَّى الأعرابيُّ، فانكسَرَت عُنقُه. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «صَدَق والذي بعثني بالحق، لقد خَرَج من بلاده وتلادِه ومالِهِ لِيَهتَدِي بهُدايَ ويأخُذَ من قولي، وما بَلَغَني حتى مَالَهُ طعامٌ إلا من خَضِرِ الأرضِ، أسمِعتُم بالذي عَمِل قليلاً وأُجِرَ كثيراً؟ هذا منهم. أسَمِعتُم بالذين آمنوا ولم يَلْبسُوا إيمانهم بظلم أولئك لَهم الأمن وهم مُهتدُون؟ فإنّ هذا منهم»[٣].

[٢٩٣١] وروى ابن مَرْدَوَيْه من حديث محمد بن مُعَلَّى ـ وكان نزيل الرَّيِّ ـ: حدثنا زيادُ بن خَيْثمةَ، عن أبي داود، عن عبد الله بن سخبرة، عن أبيه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من أعطِي فَشَكر، ومُنِع فَصَبر، وظَلَم فاستغفر، وظُلِم فَغَفَر، وسكت»، قال: فقالوا: يا رسول الله، ماله؟ قال: «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»[٤].

وقولُه تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، أي: وَجَّهنا حُجّته على قومه. قال مجاهدٌ

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٣٥٩ والطبراني ٢٣٢٩ وقال الهيثمي في «المجمع» ١/ ٤١ ـ ٤٢: وفي إسناده أبو جناب، وهو مدلس، وقد عنعنه، والله أعلم. وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٣٥٩ ح ١٨٦٩٦ ورجاله ثقات، غير عبد الحميد بن أبي جعفر، وقد وثقه ابن حبان، ويتأيد بما بعده.

(٣) إسناده غير قوي فيه عبد الأعلى بن عامر الثعلبي، ضعفه أحمد وأبو زرعة، وقال يحيى: ليس بذاك القوي. لكن يتأيد بما قبله.

(٤) ضعيف جداً، أخرجه الطبراني ٦٦١٣ من حديث سخبرة. وقال الهيثمي في «المجمع» ١٨٠٤٨: وفيه أبو داود الأعمى، وهو متروك. وأخرجه البيهقي في «الشعب» ٤٤٣١ بهذا الإسناد لكن قال: عن عبد الله بن سمرة عن سمرة، ثم أعله بمحمد بن معلى، وقال: ليس بالقوي. وفي ذلك نظر، فمحمد بن معلى وثقه أبو زرعة وأبو حاتم وابن حبان، والشيء الثاني: خفي حال أبي داود على البيهقي، مع أنه أولى أن يعله به. والشيء الثالث: جعله عن سمرة، وهو خطأ، أو لعله تحريف من النساخ، فقد رواه البغوي في «معجمه» وابن أبي حاتم وابن قانع وابن مردويه والطبراني فيما ذكر السيوطي في الدر ٣/ ٥٠ كلهم من حديث سخبرة. والخبر واه بكل حال مداره على أبي داود نُفيع بن الحارث، وهو متروك كما قال الهيثمي.

وغيره: يعني بذلك قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ الآية. وقد صدَّقه الله، وحكم له بالأمن والهداية فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾، ثم قال بعد ذلك كلّه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾. قُرِىء بالإضافة وبلا إضافةٍ[1]، كما في سورة يوسف، وكلاهما قريبٌ في المعنى. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، أي: حكيمٌ في أفعالِه وأقوالِه ﴿عَلِيمٌ﴾، أي بمن يَهْديه ومَن يُضلّه، وإن قامت عليه الحُجج والبراهينُ، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

يذكرُ تعالى أنه وَهَب لابراهيم إسحاقَ بعدَ أن طَعَن في السنِّ، وأيس هو وامرأته «سارّة» من الوَلَد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوطٍ، فَبَشَّروهما بإسحاقَ، فتعجَّبت المرأة من ذلك، وقالت: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧٢ ـ ٧٣]. وبَشَّروهما مع وُجوده بنبوته، وبأنَّ له نَسْلاً وعَقِباً، كما قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: ١١٢]. وهذا أكملُ في البشارة، وأعظم في النعمة. وقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، أي: ويُولَدُ لهذا المولود وَلَدٌ في حياتكما، فَتَقَرُّ أعينُكما به كما قَرَّت بوالده، فإن الفَرَح بوَلَدِ الوَلَدِ شديدٌ لِبَقاء النَّسل والعَقِب. ولما كان ولدُ الشيخِ والشيخةِ قد يُتوهَم أنه لا يُعْقِبُ لضعفه وقعت البشارةُ به وبوَلَدِه باسم «يعقوب»، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاةً لإبراهيم ـ عليه السلام ـ حين اعتزَلَ قومَه وتركهم، ونَزَح عنهم وهاجَرَ من بلادهم ذاهباً إلى عبادةِ الله في الأرض، فعوَّضَه الله ـ عزّ وجلّ ـ عن قومه وعشيرته بأولادٍ صالحين من صُلْبِهِ على دينه، تَقَرُّ بهم عينُه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٩]، وقال هاهنا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾. وقولُه: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾، أي: من قَبْلِهِ، هَدَيناه كما هَدَيناه، ووهبنا له ذريّة صالحةً، وكلٌّ منهما له خُصوصيّةٌ عظيمةٌ، أما نوحٌ ـ عليه السلام ـ فإن الله تعالى لما أغرقَ أهل الأرضِ إلا مَن آمن به، وهم الذين صَحِبوه في السفينة، جَعَل الله ذرّيته

---

(١) مراده لفظ «درجات» قرىء بدون تنوين، فقط بكسرة، وعلى هذا يكون مضافاً وما بعده مضافاً إليه، والله أعلم. وانظر سورة يوسف، الآية: ٧٦.

هم الباقين، فالناسُ كلُّهم من ذُرِّية نُوحٍ، وكذلك الخليلُ إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يَبْعَثِ الله ـ عزّ وجلّ ـ بعده نَبياً إلا من ذُرِّيته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. . . الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

وقولُه في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾، أي: وهَدينا من ذُرِّيته ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾. . . الآية. . وعودُ الضَّمير إلى «نوح» لأنه أقربُ المذكورين، ظاهرٌ. وهو اختيارُ ابن جَرير، ولا إشكالَ عليه. وعودُه إلى «إبراهيم» لأنه الذي سِيقَ الكلامُ من أجْلِهِ حَسَن، لكن يشكل على ذلك «لوط»، فإنه ليس من ذُرِّية «إبراهيم»، بل هو ابن أخيه ماران بن آزَرَ، اللهم إلا أن يُقالَ: إنه دَخل في الذريّة تغْليباً، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣]، فإسماعيل عمه، ودَخل في آبائِهِ تغليباً. وكما في قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الحجر: ٣٠]، فدخَل إبليسُ في أمْرِ الملائكة بالسجود، وذُمّ على المخالفة، لأنه كان قد تشبّه بهم، فَعُومِلَ مُعاملتهم ودخل فيهم تغليباً، وإلا فهو كان من الجنّ وطبيعته من النار والملائكةُ من نورٍ. وفي ذكر عيسى ـ عليه السلام ـ في ذُرِّيته إبراهيم أو نُوحٍ، على القول الآخر، دلالةٌ على دخولِ ولد البناتِ في ذُرِّية الرجال، لأن عيسى ـ عليه السلام ـ إنما ينسب إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأمه مَرْيَم ـ عليها السلام ـ فإنه لا أب له. قال ابن أبي حاتم: حدثنا سهل بن يحيى العسكري، حَدّثنا عبدُ الرحمن بن صالح، حدّثنا علي بن عابسٍ، عن عبد الله بن عَطَاء المكي، عن أبي حَرْب بن أبي الأسودِ قال: أرسل الحجّاجُ إلى يحيى بن يَعْمَر فقال: بَلَغني أنك تزعُم أنّ الحسن والحُسَين من ذُرِّيَة النبي ـ ﷺ ـ تَجدُه في كتاب الله، وقد قرأته من أوّله إلى آخِره فلم أجِدْه؟ قال: أليس تقرأ سورةَ الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾، حتى بلغَ: ﴿وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾؟ قال: بلى. قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم، وليس له أب؟ قال: صَدقْت. فلهذا إذا أوصى الرجلُ لذرّيته، أو وَقَف على ذُرِّيته أو وَهَبهم، دخل أولادُ البناتِ فيهم، فأما إذا أعطى الرجلُ بَنِيه أو وَقَف عليهم، فإنّه يختصُّ بذلك بَنُوه لِصُلْبه وبَنُو بَنِيه، واحتجُّوا بقول الشاعر العربي:

بَنُونا بَنُو أبنائِنا وبناتُنا　　　بنوهُنَّ أبناءُ الرجالِ الأجانِبِ[1]

وقال آخرون: ويدخُل بَنُو البناتِ فيهم أيضاً.

[٢٩٣٢] لما ثَبت في صَحيح البخاريِّ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال للحسن بن علي: «إن ابني هذا سيِّدٌ، ولعلَّ الله أن يُصْلِحَ به فِئَتين عَظيمتين من المسلمين»[2]؛ فَسمّاه ابناً، فَدلَّ على دُخوله في الأبناءِ. وقال الآخرون: هذا تَجوّزٌ. وقولُه: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ ذَكر أُصولَهم وفروعَهم. وذَوِي طبقتهم، وأنّ الهداية والاجتباء شَمِلهم كلَّهم، ولهذا قال ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: إنما حَصَل لهم ذلك بتوفيق الله وَهِدايته إيّاهم، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا

---

(١) ويروى «الأباعد». والبيت من شواهد النحاة، مجهول القائل.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٢٧٠٤ و٣٦٢٩ وأبو داود ٤٦٦٢ والنسائي ٣/١٠٧ والترمذي ٣٧٧٣ وأحمد ٥/٤٩ من حديث أبي بكرة.

كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، تشديدٌ لأمر الشرك، وتغليظٌ لشأنه، وتعظيمٌ لملابسته، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]... الآية. وهذا شرطٌ، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع، كقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].. وكقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٧]، وكقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٤]. وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾، أي: أنعمنا عليهم بذلك رحمةً للعباد بهم، ولطفاً منا بالخليقة، ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾، أي: بالنبوّةِ، ويَحتمِلُ أن يكون الضميرُ عائداً على هذه الأشياء الثلاثة: الكتاب، والحكم، والنبوة. وقولُه: ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني: أهلَ مكّة، قاله ابنُ عباس، وسعيد بن المسيَّب، والضحاك، وقتادةُ، والسدي، وغير واحد، ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أي إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض، من عَرَب وعَجَم، ومِلِّيين وكتابيين، فقد وَكَّلنا بها قوماً آخرين، يعني: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة، ﴿لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾، أي: لا يجحدون شيئاً منها، ولا يَرُدُّون منها حرفاً واحداً، بل يُؤمِنُون بجميعها: مُحكَمِها ومُتَشابِهها، جَعَلنا الله منهم بمنِّه وكرَمه وإحسانِهِ. ثم قال تعالى مخاطباً عبدَه ورسولَه محمداً ـ ﷺ ـ ﴿أُولَٰئِكَ﴾، يعني: الأنبياءَ المذكورينَ مع مَن أُضيف إليهم من الآباء والذرّية والإخوان، وهم الأشباه، ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾، أي: هُم أهلُ الهداية لا غيرُهم، ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، أي: اقتَدِ واتَّبِعْ. وإذا كان هذا أمراً للرسول ـ ﷺ ـ فأُمّته تَبَعٌ له فيما يشرعُه ويأمرُهم به.

[٢٩٣٣] قال البخاريُ عند هذه الآية: حَدَّثنا إبراهيمُ بن موسى، أخبرنا هِشامُ أنّ ابن جُرَيج أخبرَهم قال: أخبرني سليمانُ الأحولُ، أن مجاهداً أخبره أنه سأل ابنَ عباس: أفي (ص) سجدةٌ؟ فقال: نعم، ثم تلا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾، إلى قوله: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، ثم قال: هو منهم ـ زاد يزيدُ بنُ هارونَ، ومحمد بن عُبَيد، وسهلُ بن يوسف، عن العَوّام، عن مجاهد قال: قلتُ لابن عباس، فقال: نَبيُّكم ـ ﷺ ـ ممن أُمِرَ أن يَقتَدِي بهم(١). وقولُه: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، أي: لا أطلبُ منكم على إبلاغي إيّاكم هذا القرآنَ ﴿أَجْرًا﴾، أي: أجرةً، ولا أريد منكم شيئاً، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾، أي: يَتذكَّرون به فيَرْشُدُونَ من العَمَى إلى الهُدَى، ومن الغَيِّ إلى الرَّشادِ، ومن الكُفر إلى الإيمانِ.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يقول الله تعالى: وما عَظَّموا الله حَقَّ تعظيمه، إذ كذبوا رسله إليهم. قال ابن عباس ومجاهد، وعبد الله بن كثير: نَزَلَت في قُرَيشٍ. واختاره ابن جرير. وقيل: نَزلت في طائفةٍ من اليهود. وقيل: في فِنْحاص رجل منهم. وقيل: في مالك بن الصَّيْفِ. ﴿قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، والأولُ هو الأظهرُ، لأنّ الآية

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٣٢. وقوله «هو منهم»، قال الحافظ في «الفتح» ٨/ ٢٩٥: أي داود ممن أُمر نبيكم أن يقتدي به» اهـ ومراد ابن عباس إثبات سنية السجود في سورة «ص» إذ سجد داودُ عليه السلام.

مكيَّةٌ، واليهودُ لا يُنكِرُونَ إنزالَ الكُتبِ من السماء، وقُريشٌ ـ والعربُ قاطبةً ـ كانوا يُبعِدون إرسالَ رسولٍ من البشر، كما قال: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٤ ـ ٩٥]. وقال هاهنا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾؟ أي: قُلْ يا محمَّدُ لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكُتُب من عند الله، في جوابِ سَلْبِهِمُ العامِّ بإثبات قضيةٍ جزئيةٍ مُوجبة: ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ يعني التوراةَ التي قد عَلِمتم، وكلُّ أحد، أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾، أي: لِيُستَضاءَ بها في كَشْفِ المشكلات، ويُهتَدى بها من ظُلَمِ الشُّبهاتِ. وقولُه: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾[1]، أي: يَجعلُها حَمَلتُها قراطيسَ، أي: قِطعاً قِطعاً يكتبُونها من الكتاب الأصليِّ الذي بأيديهم ويُحرِّفون فيها ما يُحرِّفون ويُبدِّلُونَ ويتأوَّلُون، ويقولُون ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ تَرَى هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾، أي: في كتابه المنزل، وما هُو من عند الله. ولهذا قال: ﴿يَجعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا ويُخْفُون كَثِيراً﴾. وقولُه: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾، أي: وَمَن أنزل القرآن الذي عَلَّمَكم الله فيه من خَبَر ما سَبَق، ونبأ ما يأتي ما لم تَكونوا تَعلَمُون ذلك لا أنتُم ولا آباؤكُم. وقد قال قتادة: هؤلاء مشركُو العَرَب. وقال مجاهدٌ: هذه للمسلمين. وقولُه تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾، قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس، أي: قُل: الله أنزله. وهذا الذي قاله ابنُ عباس هو المتعيِّن في تَفسير هذه الكلمةِ، لا ما قاله بعضُ المتأخرين، من أن معنى ﴿قُلِ اللَّهُ﴾، أي: لا يكونُ خطابُك لهم إلا هذه الكلمةَ: «الله». وهذا الذي قاله هذا القائل يكونُ أمراً بكَلِمَةٍ مفردة من غير تركيب، والإتيانُ بكَلِمةٍ مفردةٍ لا يُفيدُ في لغة العرب فائدةً يحسنُ السكوتُ عليها. وقولُه: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، أي: ثم دَعْهم في جَهْلِهم وضَلالهم يلعبون، حتى يأتيهم من الله اليقينُ، فسوف يعلمون: ألهم العاقبةُ، أم لعبادِ الله المتَّقين؟ وقولُه: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ﴾، يعني القرآن ﴿أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾، يعني: مَكَّة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أحياءِ العرَب، ومن سائرِ طوائف بني آدم من عَرَبٍ وعَجَم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]. وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]. وقال: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

[٢٩٣٤] وثبت في الصَّحيحين أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أعطيت خمساً لم يُعطَهُنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي» وذكر منهن: «وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامَّة»[2]، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: كلُّ من آمن بالله واليوم الآخِرِ يُؤمِنُ بهذا الكتابِ المبارَكِ الذي أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآنُ، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، أي: يَقُومون بما افتُرِضَ عليهم، من أداءِ الصَّلَوَاتِ في أوقاتها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ

(١) هذه قراءة ابن كثير وأبي عمرو، وقرأ الباقون من السبعة بالتاء.

(٢) تقدم في سورة آل عمران عند آية: ١٥١.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحدَ أظلَمُ مِمَّن كَذَبَ على الله، فَجعَل له شريكاً أو ولداً، أو ادَّعى أنَّ الله أرسلَه إلى الناس ولم يَكُن أرسَلَه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾. قال عكرمةُ وقتادةُ: نزلت في مُسيلِمَةَ الكذَّاب. ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، يعني: وَمَن ادَّعى أنه يُعارِض ما جاء من عند الله من الوحي بما يفتريه من القول، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١]... الآية، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾، أي: في سَكَراته وغَمَراته وكُرُباته، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: بالضرب، كما قال: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى﴾ [المائدة: ٢٨]... الآية، وقال: ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الممتحنة: ٢]... الآية. وقال الضحَّاكُ، وأبو صَالح: ﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: بالعذاب. وكما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]، ولهذا قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم، ولهذا يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾، وذلك أن الكافر إذا احتُضِرَ بشَّرته الملائكةُ بالعذاب والنَّكال، والأغلال والسَّلاسِل، والجَحِيم والحَمِيم، وغَضَبِ الرحمن الرحيم، فتَتَفرَّقُ روحه في جَسَدِه، وتَعصِي وتأْبى الخروجَ، فتضربهم الملائكة حتى تَخرُج أرواحُهم من أجسادهم، قائلينَ لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾... الآية، أي: اليوم تُهانُونَ غايةَ الإهانةِ، كما كنتم تُكذبون على الله، وتستكبرون عن اتِّباع آياتِه، والانقيادِ لرُسُلِه.

وقد وَرَدت الأحاديثُ المتواترة في كيفيَّة احتضارِ المؤمن والكافر عند الموت، وهي مُقرَّرةٌ عندَ قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وقد ذكر ابن مَرْدَوَيه هاهنا حَديثاً مُطوَّلاً جداً من طريق غَريبةٍ، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعاً(١)، فالله أعلم.

وقولُه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: يقال لهم يوم مَعادهم هذا، كما قال: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف: ٤٨]، أي: كما بَدأناكم أعدناكم، وقد كُنتم تُنكِرُون ذلك وتَستبعِدُونه، فهذا يومُ البعث. وقولُه: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾، أي: من النعم والأموال التي اقتنيتُموها في الدار الدنيا ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

[٢٩٣٥] وثبتَ في الصَّحِيح أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يقولُ ابنُ آدم: مالي مالي، وهل لَكَ من مالك إلا ما أكلت فأفنيتَ، أو لَبِستَ فأبلَيْتَ، أو تَصدَّقت فأمضَيْتَ، وما سِوَى ذلك فذاهبٌ وتاركُه للناس»(٢).

---

(١) ساقه السيوطي في «الدر» ٣/ ٥٦ ـ ٥٨ بطوله، وقال: إسناده ضعيف. وفيه الضحاك لم يلق ابن عباس، فهو منقطع، هذا إن لم يكن الراوي عنه جويبر، أو غيره من الضعفاء المتروكين.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٥٨ والترمذي ٢٣٤٢ والنسائي ٦/ ٢٣٨ وأحمد ٤/ ٢٤ والطيالسي ١١٤٨ وابن حبان ٧٠١ وابن المبارك في «الزهد» ٤٩٧ والحاكم ٢/ ٥٣٤ من حديث عبد الله بن الشخير.

وقال الحسنُ البصريُّ: يُؤتَى بابن آدمَ يومَ القيامةِ كأنه بَذَجٌ[1]، فيقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: أين ما جَمَعتَ؟ فيقول: يا ربِّ، جمعتُه وتركتُه أوفَر ما كان. فيقول له: فأين ما قدّمت لنفسك؟ فلا يراه قَدَّم شيئاً، وتَلاَ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾[2]؛ رواه ابنُ أبي حاتم. وقولُه: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾، تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتّخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانّين أن تلك تنفعهم في معاشِهم ومَعادِهم إن كان ثَمّ مَعادٌ، فإذا كان يومُ القيامة تَقطّعت الأسبابُ، وانزاحَ الضلالُ، وضلّ عنهم ما كانوا يفترون، ويُناديهم الربُّ ـ عزّ وجلّ ـ على رؤوس الخلائق: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢]، ويقال لهم ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣)﴾ [الشعراء: ٩٢ ـ ٩٣]؟ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: في العبادة، لهم فيكم قسطٌ في استحقاقِ العبادةِ لهم.

ثم قال تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾، قُرِىء بالرفع، أي: شَمْلُكم. وقُرِىء بالنَّصب، أي: لقد تقطّعَ ما بينكم من الوُصْلاتِ والأسباب والوسائل، ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾، أي: وذَهب عنكم ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من رَجاءِ الأصنام كما قال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾ [البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤]... الآية، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾... إلى قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢ ـ ٢٤]، والآياتُ في هذا كثيرة جداً.

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)﴾

يخبر تعالى أنه ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾، أي: يَشقُّه في الثرى فتنبُت الزروعُ على اختلافِ أصنافها من الحبوب، والثّمار على اختلاف أشكالها وألوانها وطعُومها من النّوى. ولهذا فسّر قولَه: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ بقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾، أي: يُخرج النباتَ الحيَّ من الحبِّ والنَّوى الذي هو كالجماد الميّت، كما قال: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٦]. وقولُه: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ معطوفٌ على ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾، ثم فسّره ثم عَطَف عليه قوله: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾. وقد عبّروا عن هذا بعباراتٍ كلُّها متقاربةٌ مؤدِّيةٌ للمعنى، فمن قائل: يخرج الدجاجةَ من البيضةِ والبيضةَ من الدجاجةِ، ومن قائل: يخرج الولدَ الصالحَ من الكافرِ، والكافرَ من الصالح، وغير ذلك من العبارات التي تَنتظِمُها الآيةُ وتشمَلُها.

---

(١) البَذَج: الحَمَل، وقيل: هو أضعف ما يكون من الحملان؛ شبه به في الذلّ والهوان.

(٢) تقدم في سورة البقرة عند آية: ٢١٢.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾، أي: فاعلُ هذه الأشياءِ هو الله وحدَه لا شريكَ له ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾، أي: فكيفَ تُصرَفُون عن الحقِّ وتَعْدِلون عنه إلى الباطِلِ فتَعبدُون مع الله غيره. وقولُه: ﴿فَالِقُ الإصباحِ وجاعلُ الليلِ سَكَناً﴾[1]، أي: خالقُ الضياءِ والظلام، كما قال في أوّل السُّورةِ: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، فهو سبحانه يَفْلِق ظلامَ الليل عن غُرّة الصباح، فيُضِيء الوجودُ، ويستنيرُ الأفقُ، ويَضمَحِلُّ الظلامُ، ويذهبُ الليلُ بسواده وظلامِ رواقه، ويجيءُ النهارُ بضيائه وإشراقِهِ، كما قال: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، فبيَّن تعالى قدرته على خَلْقِ الأشياء المتضادَّة المختلفة الدالَّة على كَمال عَظَمته وعَظِيم سلطانه. فذكر أنه فالقُ الإصباح. وقابلَ ذلك بقوله: ﴿وجاعلُ الليلِ سَكَناً﴾، أي: ساجياً مُظلِماً تسكنُ فيه الأشياءُ، كما قال: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝﴾ [الضحى: ١ ـ ٢]، وقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝﴾ [الليل: ١ ـ ٢]، وقال: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝﴾ [الشمس: ٣ ـ ٤]. وقال صُهَيبٌ الروميُّ رضي الله عنه لامرأتِه وقد عاتبته في كَثْرَة سَهَره: إن الله جَعَلَ الليل سَكَناً إلا لِصُهَيب، إنَّ صُهَيباً إذا ذكر الجنّة طال شوقُه، وإذا ذكر النار طارَ نومُه. رواه ابنُ أبي حاتم. وقولُه: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾، أي: يجريان بحساب مقنَّن مُقدَّر، لا يتغيَّر ولا يَضطَرِبُ، بل كلٌّ منهما له منازلُ يسلُكُها في الصَّيفِ والشتاءِ، فيترتَّبُ على ذلك اختلافُ الليل والنهارِ طُولاً وقِصَراً، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ [يونس: ٥]. . . الآيـة، وكمـا قـال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝﴾ [يس: ٤٠]، وقـال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقـولُـه: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، أي: الجميعُ جارٍ بتقدير العزيز الذي لا يُمانَعُ ولا يُخالَفُ، العليمُ بكلِّ شيءٍ، فلا يعزُب عن عِلْمِهِ مثقالُ ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء، وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خَلْقَ الليل والنهار والشمسَ والقمرَ، يختم الكلام بالعزَّة والعِلْم، كما ذُكر في هذه الآية، وكَمَا في قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝﴾ [يس: ٣٧ ـ ٣٨]. ولـمـا ذكـر خَـلْـقَ السـمـواتِ والأرضِ وما فيهنَّ في أوّل سُورَةِ «حم» السَّجدةِ، قال: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]. وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، قال بعض السلف: من اعتقدَ في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكَذَب على الله سبحانه: أن الله جعلها زينةً للسماءِ، ورُجُوماً للشياطين، ويُهتدَى بها في ظلماتِ البر والبحر. وقولُه: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾، أي: قد بَيَّناها ووَضَّحناها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: يَعقِلون ويَعْرِفون الحقَّ ويتجنَّبونَ الباطِلَ.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني: آدم ـ عليه السلام ـ، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]. وقولُه: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾،

(١) قرأ الكوفيون من السبعة «وجَعَلَ اللَّيْلَ»، وقرأ الباقون: «وجاعلُ الليلِ».

اختلفوا في معنى ذلك، فعن ابن مسعودٍ، وابن عباس، وأبي عبد الرحمن السُّلمي، وقيس بن أبي حازم، ومجاهدٍ، وعطاءٍ، وإبراهيمَ النَّخعيِّ، والضحاك، وقتادةَ، والسدِّيِّ، وعطاءِ الخُراسانيِّ: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾، أي: في الأرحام. قالوا ـ أو أكثرهم ـ: ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾. أي: في الأصلاب. وعن ابن مسعود وطائفة عكس ذلك. وعن ابن مسعودٍ أيضاً وطائفةٍ: فمستقرٌ في الدنيا، ومستودَعٌ حيثُ يموتُ. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الأرحام وعلى ظهر الأرض، وحيث يموت. وقال الحسن البصري: المستقر الذي قد مات فاستقرَّ به عملُه. وعن ابن مسعود: ومستودع في الدار الآخرة. والقول الأول هو الأظهرُ، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾، أي: يفهمُون ويعُون كلام الله ومعناه. وقولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، أي: بِقَدرٍ مباركاً، رزقاً للعباد وغياثاً للخلائِق، ورحمةً من الله لخلقه ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾. ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾، أي: زَرْعاً وشَجراً أخضرَ، ثم بعد ذلك يخلق فيه الحبَّ والثَّمر، ولهذا قال تعالى: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾، أي: يركب بعضُه بعضاً، كالسنابل ونحوها. ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾، أي: جمع قِنْو، وهي عُذُوق الرُّطَب ﴿دَانِيَةٌ﴾، أي: قريبة من المتناول، كما قال عليُّ بن أبي طلحةَ الوالبيُّ، عن ابن عباس، ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾، يعني بالقنوانِ الدانيةِ قِصارَ النَّخلِ اللاصقة عذوقُها بالأرض. رواه ابنُ جَريرٍ. قال ابنُ جَريرٍ: وأهلُ الحجاز يَقُولون: قِنوانٌ. وقيس يقولُون: قُنوانٌ، وقال امرؤ القيس:

فـأثَّـتْ أعَـالِـيـهِ، وآدَتْ أُصُـولُـه ... ومَـالَ بِـقـنْـوانٍ مـن الـبُـسْـرِ أحْـمَـرَا[1]

قال: وتميمُ يقولون: قُنْيانٌ بالياء، قال: وهي جَمْعُ قِنو، كما أنَّ صِنواناً جمعُ صِنْو. وقولُه تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: ونُخرِج منه جناتٍ من أعنابٍ، وهذان النوعانِ هما أشرفُ الثمار عند أهل الحجاز، وربما كانا خيارَ الثمار في الدنيا، كما امتن الله تعالى بهما على عباده في قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، وكان ذلك قبل تحريم الخمر. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ [يس: ٣٤]. . . الآية. وقولُه: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾، قال قتادةُ وغيرُه: متشابه في الورق، قريبُ الشكل بعضُه من بعض، ومُتخالفُ في الثِّمار شَكلاً وطَعماً وطَبعاً. وقولُه تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾، أي: نُضجِه، قاله البَرَاءُ بن عازب، وابن عباس، والضحاك، وعطاءُ الخراساني، والسدِّيُّ، وقتادةُ، وغيرهم. أي: فَكِّروا في قُدرة خالقه من العَدَم إلى الوجودِ، بعد أن كان حَطَباً صار عِنَباً ورُطَباً وغير ذلك مما خلق تعالى من الألوان والأشكال والطُّعوم والروائح، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]. . . الآية، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ﴾، أي: أيُّها الناسُ ﴿لَءَايَٰتٍ﴾، أي: لَدَلالاتٍ على كمال قُدرَةِ خالق هذه الأشياء وحِكْمته ورَحْمَتِه ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: يُصدِّقون به، ويتَّبِعون رُسُلَه.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

هذا رَدّ على المشركين الذين عبَدوا مع الله غَيْره، وأشركوا به في عبادَتِهِ أن عَبَدُوا الجنّ، فَجعلُوهم شركاءَ الله في العبادة، تعالى الله عن شِرْكهم وكُفرهم. فإن قيل: فكيف عُبِدت الجنُّ وإنَّما كانُوا يعبدُون الأصنامَ؟ فالجواب: أنهم إنما عبَدوا الأصنامَ عن طاعة الجنّ وأمْرِهم إياهم بذلك، كما قال تَعَالى: ﴿إِن

(١) وهكذا لفظ الطبري ذكره عقب حديث ١٣٦٦٥. ومعنى «أثَّ» ينث، أي كثر والتفّ.

يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النساء: ١١٧ ـ ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى ﴾ [الكهف: ٥٠]. . . الآية، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾ [مريم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١]، وتقول الملائكة يومَ القيامة: ﴿ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤١]، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾، أي: وقد خَلَقهم، فهو الخالقُ وحدَه لا شريكَ له، فكيف يُعبَد معه غيرُه، كما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات: ٩٥ ـ ٩٦]. ومعنى الآية: أنه ـ سبحانه وتعالى ـ هو المُستقلُّ بالخلقِ وحدَه، فلهذا يجبُ أن يُفرَد بالعبادة وحدَه لا شريكَ له.

وقولُه تعالى: ﴿ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾، يُنبِّه به تعالى على ضَلال من ضلَّ في وَصْفِه تعالى بأن له ولداً، كما يزعُم من قاله من اليهود في عُزير، ومن قاله من النَّصارى في عيسى، وكما قال المشركون من العَرَب في الملائكة: إنها بناتُ الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. ومعنى قوله: ﴿ وَخَرَقُوا۟ ﴾، أي: اختلَقُوا واتَّفكُوا وتخرّصوا وكَذَبوا، كما قاله علماء السلف. قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿ وَخَرَقُوا۟ ﴾، يعني أنهم تَخرَّصُوا. وقال العَوْفيُّ، عنه: ﴿ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾، قال: جَعلُوا له بنينَ وبناتٍ. وقال مجاهد: ﴿ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ ﴾، قال: كذَبوا. وكذا قال الحسن: وقال الضحاك: وَضَعُوا، وقال السدّيُّ: قَطَعوا. قال ابنُ جَرير: فتأويلُ الكلام إذاً: وجعلوا لله الجنَّ شركاءَ في عبادتهم إياه، وهو المنفردُ بخَلْقِهم بغير شريكٍ ولا مُعين ولا ظَهير، ﴿ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بحقيقة ما يقولون، ولكن جَهلاً بالله وبعظمتِهِ، وأنه لا ينبغي لمن كان إلهاً أن يكونَ له بَنُونَ وبناتٌ ولا صاحبةٌ، ولا أن يَشرَكَه في خَلْقِهِ شَريكٌ. ولهذا قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، أي: تَقَدَّس وتنزَّه وتعاظَمَ عما يَصِفُه هؤلاء الجهلة الضالُّونَ من الأولاد والأنداد، والنُّظراء والشُّركاء.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، أي: مُبدِعُ السمواتِ والأرضِ وخالقهما ومنشئهما ومحدثهما على غير مثالٍ سَبَق، كما قال مجاهد، والسدّيُّ. ومنه سُمِّيت البِدْعَةُ بدعةً، لأنه لا نَظير لها فيما سَلَف. ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾، أي: كيف يكونُ له ولدٌ، ولم تكن له صاحبةٌ؟ أي: والولَدُ إنما يكونُ متولِّداً عن شيئين متناسبين، والله تعالى لا يناسبه ولا يُشابهه شيءٌ من خَلْقِه، لأنه خالقُ كلِّ شيءٍ، فلا صاحبةَ له ولا وَلَد، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾، إلى قوله: ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥]. ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾، فَبيَّن تعالى أنه الذي خَلَق كلَّ شيء، وأنه بكلِّ شيءٍ عليمٌ، فكيف يكون له صاحبةٌ من خَلْقِه تُناسِبُه؟! وهو الذي لا نظيرَ له فأنّى يكونُ له وَلَدٌ! تعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، أي: الذي خلق كلَّ شيء ولا وَلَد له ولا صاحبة، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: فاعبدوه وَحْدَه لا شريكَ له، وأقِرُّوا له بالوحدانيّةِ، وأنه لا إله إلا هُوَ، وأنه لا وَلَدَ له ولا والِدَ ولا صاحِبَةَ له ولا نظِير ولا عَدِيلَ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظٌ ورقيبٌ، يدبِّر كلَّ ما سواه، ويرزقُهم ويكلؤهم بالليل والنهار. وقولُه تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، فيه أقوال للأئمة من السلف: أحدها: لا تدركُه في الدنيا، وإن كانت تَرَاه في الآخرة.

[٢٩٣٦] كما تواترت به الأخبارُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ من غير ما طريق ثابتٍ في الصِّحاح والمسانيد والسُّنن، كما قال مسروقٌ، عن عائشة أنها قالت: من زَعَم أن محمداً أبصر رَبَّه فقد كَذَب، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[1]. رواه ابنُ أبي حاتم من حديث أبي بكر ابن عياش، عن عاصم بن أبي النَّجود، عن أبي الضُّحى، عن مسروق. ورواه غير واحد عن مسروق، وثَبَت في الصَّحيح وغيره عن عائشة من غير وجه. وقد خالفها ابنُ عباس، فعنه إطلاقُ الرؤية، وعنه أنه رآه بفؤاده مرتين. والمسألة تُذْكَر في أول «سورة النجم» إن شاء الله تعالى. وقال ابن أبي حاتم: ذكر محمد بن مسلم، حدثنا أحمد بن إبراهيم الدَّورَقيُّ، حدثنا يحيى بن مَعِين قال: سَمِعتُ إسماعيل بن عُلَيَّة يقولُ في قول الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾، قال: هذا في الدنيا. قال: وذكَر أبي، عن هشام بن عُبَيد الله أنه قال نَحوَ ذلك. وقال آخرون: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، أي: جميعُها، وهذا مُخَصَّصٌ بما ثَبَتَ من رُؤيةِ المؤمنينَ له في الدار الآخرةِ. وقال آخرون من المعتزلة بمقتضى ما فَهِمُوه من هذه الآية: أنه لا يُرَى في الدنيا ولا في الآخرة. فخالفوا أهل السنة والجماعَةِ في ذلك، مع ما ارتكَبُوه من الجَهْلِ بما دلَّ عليه كتابُ الله وسنةُ رسُولِهِ. أما الكتابُ فقولُه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] وقال تعالى عن الكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]. قال الإمام الشافعي: فَدَلَّ هذا على أن المؤمنين لا يُحْجَبُون عنه تبارك وتعالى. وأما السنةُ فقد تواترتِ الأخبارُ عن أبي سَعِيدٍ، وأبي هُرَيرة، وأنس، وجَرِيرٍ، وصُهَيبٍ، وبلالٍ، وغير واحدٍ من الصَّحَابَةِ عن النبي ـ ﷺ ـ أن المؤمنين يَرَون الله في الدَّارِ الآخرةِ في العَرَصات، وفي رَوضات الجناتِ، جَعَلنا الله تعالى منهم بمنِّه وكَرَمه، آمين.

وقيل: المرادُ بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، أي: العقولُ. رواه ابنُ أبي حاتم، عن علي بن الحسين، عن الفَلَّاس، عن ابن مهدي، عن أبي الحصين يحيى بن الحُصَين قارىء أهل مكة أنه قال ذلك. وهذا غريب جدّاً، وخلافُ ظاهرِ الآية، وكأنه اعتقدَ أنَّ الإدراك في معنى الرؤية، والله أعلم. وقال آخرون: لا منافاةَ بين إثبات الرؤية ونَفْي الإدراك، فإن الإدراك أخَصُّ من الرؤية، ولا يلزمُ من نَفْي الأخص انتفاء الأعم. ثم اختلفَ هؤلاء في الإدراك المنفي، ما هو؟ فقيل: معرفةُ الحقيقةِ، فإنَّ هذا لا يعَلَمه إلا هُو وإن رآه المؤمنون، كما أن من رَأى القَمَر فإنه لا يُدرك حقيقتَه وكنهه وماهِيَّته، فالعظيمُ أولَى بذلك، وله المثَلُ الأعلى. وقال آخرون: المراد بالإدراك الإحاطة. قالوا: ولا يلزمُ من عَدَمِ الإحاطة عدمُ الرؤية، كما لا يَلْزَم من عدم إحاطة العلم عدم العلم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

(١) يأتي في سورة النجم، إن شاء الله.

[٢٩٣٧] وفي صَحِيح مسلم: «لا أحصِي ثناء عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسك»[١]، ولا يلزم من هذا عَدَمِ الثناء، فكذلك هذا. قال العَوْفِيُّ، عن ابن عباسٍ في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ قال: لا يحيطُ بَصَرُ أحدٍ بالمَلِكِ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا عمرو بن حَمَّاد ابن طلحةَ القَنَّادُ، حدثنا أسباط، عن سماك، عن عكرمة، أنه قيل له: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾؟ قال: ألست تَرَى السماءَ؟ قال: بلى. قال: فكُلَّها تَرَى؟ وقال سَعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادةَ في الآية: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾: هو أعظمُ من أن تدركه الأبصار.

وقال ابنُ جرير: حدثنا سعدُ بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا خالدُ بن عبد الرحمن، حدثنا أبو عَرْفَجَة، عن عطيةَ العَوفيِّ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، قال: هم ينظرونَ إلى الله، لا تُحيط أبصارهم به من عَظَمته، وبصرُه محيطٌ بهم. فذلك قولُه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾. وقد ورد في تفسير هذه الآيةِ حديثٌ رواه ابن أبي حاتم هاهنا فقال:

[٢٩٣٨] حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا مُنْجَابُ بن الحارث السهمي، حدثنا بِشْرُ بن عُمَارة، عن أبي رَوْقٍ، عن عَطِيَّة العَوْفِيِّ، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾، قال: «لو أنَّ الجنَّ والإنسَ والشياطينَ والملائكةَ منذ خُلِقوا إلى أن فَنُوا صُفُّوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً»[٢]. غريبٌ لا يُعرَف إلا من هذا الوجه، ولم يَرْوِه أحدٌ من أصحابِ الكُتُب الستَّة، والله أعلم.

[٢٩٣٩] وقال آخَرون في: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ بما رواه الترمذيُّ في جامعه، وابنُ أبي عاصم في كتاب السنَّة له، وابنُ أبي حاتمٍ في تفسيره، وابن مَرْدُويه أيضاً، والحاكمُ في مستدركه، من حديث الحكم بن أبان قال: سَمِعتُ عكرمة يقولُ: سمِعتُ ابنَ عباس يقول: رأى مُحمَّدٌ ربَّه تبارك وتعالى. فقلت: أليس الله يقولُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ . . . الآية؟ فقال لي: لا أمَّ لك. ذاك نوره الذي هو نُورُه، إذا تَجلَّى بنوره لا يُدْرِكه شيءٌ[٣]، وفي روايةٍ: لا يقُوم له شيء. قال الحاكم: صحيح على شرطِ الشيخَين، ولم يخرجاه.

[٢٩٤٠] وفي معنى هذا الأثر ما ثبتَ في الصَّحِيحين، عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «إن الله لا ينامُ، ولا ينبغي له أن يَنَام، يخفِضُ القِسط ويرفَعُه، ويُرفَع إليه عَمَلُ اللّيلِ قَبل عَمَلِ النهار، وعَمَلُ النهار قبلَ عمل الليل، حجابُه النورُ، أو النار، لو كَشَفه لأحرَقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِهِ ما انتهى إليه بصرُه من خلقه»[٤]. وفي الكتب المتقدِّمة: إن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤيةَ: يا مُوسى،

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٤٨٦ وأبو داود ٨٧٩ والترمذي ٣٤٩٣ والنسائي ٢/ ١٠٢ و٢١٠ وأحمد ٦/ ٥٨ وابن حبان ١٩٣٢ من حديث عائشة وصدره: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك».

(٢) ضعيف جداً. أخرجه ابن عدي ٢/ ١٠ والعقيلي في «الضعفاء» ١/ ١٤٠/ ١٧٠، وضعفه السيوطي في «الدر» ٣/ ٦٨ ونقل عن الذهبي قوله: هذا حديث منكر. ووافقه وأعله ابن عدي والعقيلي ببشر بن عمارة الخثعمي، وقال العقيلي: ولا يتابع عليه لا يعرف إلا به. قلت: وعطية العوفي ضعيف.

(٣) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٢٧٩ وابن أبي عاصم في «السنة» ٤٣٧ والحاكم ٢/ ٣١٦ وصححه وضعفه الذهبي بقوله: بل إبراهيم متروك. قلت: له توابع، وقال الترمذي: حسن غريب. ومدار الحديث على الحكم بن أبان، وفيه ضعف من قبل حفظه.

(٤) تقدم في سورة البقرة عند آية: ٢٥٥.

إنه لا يراني حيٌّ إلا مات، ولا يابسٌ إلا تَدَهْدَه. أي تَدعثر. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ونَفْيُ هذا الإدراكِ الخاصِّ لا ينفي الرؤيةَ يوم القيامة، يَتجلَّى لعباده المؤمنين كما يشاء، فأما جلالُه وعظمتُه على ما هو عليه ـ تعالى وتَقدَّسَ وتنزَّه ـ فلا تُدركه الأبصارُ. ولهذا كانت أُمُّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ تُثْبِت الرؤية في الدار الآخرة وَتَنفيها في الدنيا، وتحتجُّ بهذه الآية: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾، فالذي نفته الإدراك الذي هو بمعنى رؤية العَظَمَةِ والجلالِ على ما هو عليه، فإن ذلك غيرُ ممكن للبشر، ولا للملائكة، ولا لشيء. وقولُه: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: يُحيطُ بها ويعلمُها على ما هِيَ عليه، لأنه خَلَقها كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]. وقد يكون عَبَّر بالأبصار عن المُبْصرين كما قال السدّيُّ في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾: لا يراه شيءٌ وهو يَرى الخلائِق. وقال أبو العاليةِ في قولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾: اللطيفُ باستخراجِها، الخبيرُ بمكانها. والله أعلم. وهذا كما قالَ تعالى إخباراً عن لُقمان فيما وَعَظ به ابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦].

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

البصائرُ، هي البيِّناتُ والحُجج التي اشتَمَلَ عليها القرآنُ، وما جاء به الرسولُ ـ ﷺ ـ، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ مثلُ قوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥]، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾، لما ذَكر البصائر قال: ﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: فإنما يعودُ وَبالُ ذلك عليه، كقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾، أي: بحافظٍ ولا رَقيبٍ، بل أنا مبلِّغ، والله يهدي من يشاءُ ويُضِلُّ من يشاء. وقولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: وكما فَصَّلنا الآيات في هذه السُّورةِ، من بيان التوحيدِ وأنَّه لا إله إلا هو، هكذا نُوَضِّح الآيات ونُفسِّرها ونُبيِّنها في كلِّ موطن لجَهَالةِ الجاهلين، وليقولَ المشركون والكافرون المكذِّبون: دارست يا محمد من قَبْلَك من أهل الكتاب وقارأتهم وتَعلَّمت منهم. هكذا قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، والضحاك، وغيرهم.

وقد قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن عُيَينة، عن عَمرو بن دينار، عن عَمرو بن كيسان قال سمعتُ ابن عباس يقول: ﴿دارست﴾ تَلَوتَ، خاصَمْتَ، جادَلْتَ. وهذا كما قال تعالى إخباراً عن كَذِبهم وعنادهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ [الفرقان: ٤ ـ ٥]... الآية. وقال تعالى إخباراً عن زَعِيمهم وكاذبهم: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ١٨ ـ ٢٥]. وقولُه: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولنوضِّحه لقوم يعلَمُون الحقَّ فيتبعونه، والباطلَ فيجتَنِبُونه. فللَّه تعالى الحكمة البالغة في إضلالِ أولئك، وبيان الحقِّ لهؤلاء. كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]... الآية. وقال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٣ ـ ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ

إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى أنزل القرآن هُدىً للمتقين، وأنه يُضلُّ به من يشاء ويهدي به من يشاء. ولهذا قال هاهنا: ﴿وكذلك نُصرِّفُ الآياتِ وليَقُولوا: دارَسْتَ، ولنبينه لقوم يعلمون﴾[1].

وقرأ بعضهم: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾، قال التميمي، عن ابن عباس: ﴿دَرَسْتَ﴾، أي: قرأت وتَعلَّمتَ. وكذا قال مجاهد، والسدِّيُّ، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمر، قال الحسن: «وليقولوا دَرَسَتْ»، يقول: تقادَمَتْ وانمَحَتْ. وقال عبد الرزاق أيضاً: أنبأنا ابن عُيَينة، عن عَمْرو بن دينار، سَمِعتُ ابنَ الزُّبير يقول: إنَّ صبياناً يقرؤون هاهنا: «دَرَسَتْ»، وإنما هي ﴿دَرَسْتَ﴾. وقال شعبة: حدثنا أبو إسحاق الهَمْداني قال: هي في قراءة ابن مسعود «دَرَسَتْ»، يعني بغير ألفٍ، بِنَصب السِّين، ووَقْفِ التاء. وقال ابنُ جرير: ومعناه انمحَتْ وتقادَمتْ، أي: إنَّ هذا الذي تتلُوه علينا قد مَرَّ بنا قديماً، وتطاولَت مُدَّته. وقال سَعِيدُ بن أبي عَرُوبة، عن قتادَةَ أنه قرأها: «دُرِسَتْ»، أي: قُرِئت وتُعُلِّمَتْ. وقال معمر، عن قتادة: «دُرِسَت». قُرِئت. وفي حرف ابن مسعود (دَرَس). وقال أبو عُبَيد القاسم بن سَلَّام، حدثنا حَجَّاج، عن هارونَ قال: هي في حَرْفِ أبيِّ بن كعب وابنِ مسعودٍ: (وليقولوا دَرَس)، قال: يَعنُونَ النبي ـ ﷺ ـ أنه قرأ[2]. وهذا غريب، فقد رُوِي عن أبيِّ بن كعب خلاف هذا.

[٢٩٤١] قال أبو بكر بن مَرْدَوَيه: حدثنا محمَّد بن أحمدَ بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن الليث، حدثنا أبو سَلَمة، حدثنا أحمدُ بن أبي بَزَّةَ المكي، حدثنا وَهب بن زَمْعَةَ، عن أبيه، عن حُمَيدٍ الأعرجِ، عن مجاهدٍ، عن ابن عباسٍ، عن أبيِّ بن كعب قال: أقرأني رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾[3]. ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث وَهب بن زَمْعَةَ، وقال: يعني بجزم السين، ونصب التاء، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله ـ ﷺ ـ ولمن اتَّبع طَرِيقته: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، أي: اقتدِ به، واقتَفِ أثرَه، واعمَل به؛ فإنَّ ما أُوحِيَ إليكَ من رَبِّك هو الحقُّ الذي لا مِرْيَةَ فيه، لأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، أي: اعفُ عنهم واصفَح، واحتَمِلْ أذاهم، حتى يَفتَح الله لَكَ وينصُرَك ويظفِرَكَ عليهم. واعلم أن لله حكمة في إضلالهم، فإنَّه لو شاءَ لهدى الناسَ كُلَّهم جميعاً، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى

---

(١) هذه قراءة ابن كثير وأبي عمرو من السبعة، أما الباقون فقرؤوا: «دَرَسْتَ».

(٢) لا يصح هذا عن أبي ولا ابن مسعود والأثر معضل. وقد روي خلافه بإسناد متصل وهو الآتي.

(٣) أخرجه الحاكم ٢/٢٣٨ ـ ٢٣٩ وصححه، ووافقه الذهبي، مع أن فيه زمعة بن صالح، وقد ضعفه أحمد وابن معين وأبو زرعة وغيرهم، فالإسناد إلى الضعف أقرب.

﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾، أي: بل له المشيئةُ والحكمةُ فيما يشاؤهُ ويختارُه، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وقولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، أي: حافظاً يحفظُ أعمالَهم وأقوالَهم. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، أي: موكَّلٍ على أرزاقِهم وأمورِهم. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٢]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

يقول الله تعالى ناهياً لرسوله ـ ﷺ ـ والمؤمنين عن سَبِّ آلهةِ المشركين، وإن كان فيه مصلحةٌ، إلا أنه يترتَّبُ عليه مفسدةٌ أعظَمُ منها، وهي مقابَلَةُ المشركين بسبِّ إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هُو، كما قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: قالوا: يا محمَّد، لَتَنْتَهِيَنَّ عن سَبِّك آلهتنا، أو لنهجُوَنَّ ربَّك. فنهاهم الله أن يسبوا أوثانَهم، ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. وقال عبد الرزّاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: كان المسلمون يسبُّون أصنام الكفار، فيسبُّ الكفارُ الله عَدْواً بغير علم، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

[٢٩٤٢] وروى ابنُ جَرير وابنُ أبي حاتم، عن السدِّيّ أنه قال في تفسير هذه الآية: لما حَضَر أبا طالب الموتُ قالت قُرَيشٌ: انطلِقُوا فَلْنَدخُل على هذا الرَّجُل، فَلْنَأْمُره أن يَنْهَى عَنَّا ابنَ أخيه، فإنا نَستَحْيِي أن نقتلَه بعد موته، فتقول العرب: كان يمنعه فلما مات قَتَلُوه. فانطلق أبو سفيان، وأبو جهل، والنضر بن الحارث، وأميَّة وأبيُّ ابنا خَلَفٍ، وعقبة بن أبي مُعَيط، وعمرو بن العاص، والأسودُ بنُ البَخْتريِّ، وبَعَثُوا رجلاً منهم يقال له: المطلب، قالوا: استأذِنْ لنا عَلَى أبي طالب. فأتى أبا طالب فقال: هؤلاء مَشْيَخَةُ قومك يُريدون الدخولَ عليك. فَأَذِن لهم عليه، فدخلوا عليه فقالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرُنا وسيِّدنا، وإنَّ محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا، فَنُحبُّ أن تَدعُوَه فتنهاه عن ذِكْرِ آلهتنا، وَلْنَدَعْه وإلهَهُ. فدعاه فجاء النبي ـ ﷺ ـ فقال له أبو طالب: هؤلاء قومُك وبنو عَمِّك. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ما تُريدون؟ قالوا: نريد أن تَدَعَنا وآلهتنا، ولنَدَعْك وإلهَك. قال له أبو طالب: قد أنصفك قومك، فاقبل منهم. فقال النبي ـ ﷺ ـ: أرأيتم إن أعطيتكم هذا، هل أنتم معطيَّ كلمةً إن تكلمتم بها ملكتُم بها العَرَب، ودانت لكم بها العَجمُ وأدَّت لكم بها الخراجَ. قال أبو جهل: وأبيك لنعطينَّكها وعشرةَ أمثالها، قالوا: فما هي؟ قال قال: قولوا: لا إله إلا الله. فأبوا واشمأزُّوا، قال أبو طالب: يا بن أخي، قُلْ غيرها، فإنَّ قومَكَ قد فَزِعُوا منها. قال: يا عَمِّ، ما أنا بالذي أقولُ غيرها، حتى يأتُوا بالشمس فَيَضعُوها في يدِيَّ، ولو أتوا بالشمس فَوَضَعُوها في يديَّ ما قلتُ غيرها. إرادة أن يُؤيسهم، فغضِبُوا وقالوا: لَتكُفَّنَّ عن شَتْمِ آلهتنا، أو لَنَشْتُمَنَّكَ ونشتُمُ من يأمرك. فذلك قوله: ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(١).

ومن هذا القبيل، وهو تَرْكُ المصلحة لمفسدةٍ أرجَحَ منها، ما جاء في الصحيح:

[٢٩٤٣] أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ملعونٌ من سَبَّ والِدَيه». قالوا: يا رسول الله، وكيف يَسُبُّ

(١) أخرجه الطبري ١٣٧٤٤ مرسلاً، لكنه مشهور في كتب السيرة، وله شواهد تعضده.

الرجلُ والِدَيه؟ قال: يَسُبُّ أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويَسُبُّ أمه فيَسُبُّ أمّه. أو كما قال ـ عليه السلام ـ[1].
وقولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾، أي: وكما زيَّنّا لهؤلاء القوم حُبَّ أصنامهم والمحاماةَ لها والانتصارَ، كذلك زيَّنّا لكلِّ أمة أي من الأمَم الخالية على الضلال عَمَلَهم الذي كانوا فيه، ولله الحجةُ البالغةُ والحكمةُ التامة فيما يشاؤه ويختاره. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾، أي: معادُهم ومصيرُهم، ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: يُجَازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

يقولُ تعالى إخباراً عن المشركين: إنهم أقسَمُوا بالله جَهْد أيمانهم، أي: حَلَفوا أيماناً مُؤكَّدة ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ أي: مُعجزةٌ وخارقٌ ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾، أي: لَيُصدقُنّها، ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾، أي: قُل ـ يا محمد ـ لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنُّتاً وكُفراً وعِناداً، لا على سبيل الهُدَى والاسترشاد: إنما تَرْجِعُ هذه الآياتُ إلى الله، إن شاءَ أجابَكُم، وإن شاء تَرَكَكُم.

[٢٩٤٤] كما قال ابنُ جرير: حدثنا هَنّاد، حدثنا يُونس بن بُكَير، حدثنا أبو مَعْشَر، عن محمد بن كَعْبٍ القُرَظي قال: كَلَّم رسول الله ـ ﷺ ـ قريشاً، فقالوا: يا محمَّدُ، تُخبِرُنا أن موسى كان معه عصاً يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرةَ عيناً، وتخبِرُنا أن عيسى كان يُحيي الموتى، وتُخبرنا أن ثمودَ كانت لهم ناقةٌ، فَأْتِنا من الآيات حتى نُصدِّقَكَ. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أي شيء تُحبُّون أن آتيكم به؟ قالوا: تجعَلُ لنا الصَّفا ذهباً. فقال لهم: فإن فعلتُ تصدقوني؟ قالوا: نعم، والله لئن فعلْتَ لنتبعنَّكَ أجمعين. فقام رسول الله ـ ﷺ ـ يدعو، فجاءه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال له: ما شِئْتَ؟ إن شئتَ أصبحَ الصفا ذهباً، ولَئِنْ أرسل آية فلم يُصَدِّقوا عند ذلك ليُعذِّبَنَّهم، وإن شِئْت فاتركهم حتى يتوب تائبهم. فقال رسول الله ﷺ: بل يتوب تائبهم. فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَجْهَلُونَ﴾[2]. وهذا مرسل، وله شواهدُ من وُجُوهٍ أُخَر. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]... الآية.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، قيل: المخاطبُ بـ ﴿ما يشعركم﴾ المشركون، وإليه ذَهَب مجاهد، كأنه يقول لهم: وما يَدْرِيكم بِصِدْقِكِم في هذه الأيمان التي تُقْسِمون بها. وعلى هذا فالقراءة: ﴿إنَّها إذا جاءت لا يؤمنون﴾، بكسر «إنها» على استئناف الخبر عنهم بنفي الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها، وقرأ بعضُهم: «أنها إذا جاءت لا تؤمنون»، بالتاء المثناة من فوق. وقيل: المخاطب

---

(١) لم أره بهذا السياق. وإنما صح من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص بلفظ «من الكبائر شتم الرجل والديه. قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه» أخرجه البخاري ٥٩٧٣ ومسلم ٩٠ واللفظ المذكور له وأبو داود ٥١٤١ والترمذي ١٩٠٢ وابن حبان ٤١١. وقوله: «ملعون من سب والديه» هو قطعة من حديث ابن عباس الذي أخرجه أحمد ١/ ٣٠٩ و٣١٧ وأبو يعلى ٢٥٣٩ وابن حبان ٤٤١٧ والحاكم ٤/ ٣٥٦ وإسناده صحيح، ويشهد له حديث علي عند مسلم ١٩٧٨ والنسائي ٧/ ٢٣٢ وأحمد ١/ ١٠٨ والبيهقي ٦/ ٩٩.

(٢) مرسل. أخرجه الطبري ١٣٧٥٠ والواحدي ٤٤٧ عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً. ومع إرساله في إسناده أبو معشر، وهو ضعيف، فالخبر واهٍ.

بقوله ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ المؤمنون أي: وما يُدريكم أيها المؤمنون، وعلى هذا فيجوزُ في قوله: ﴿أَنَّهَآ﴾ الكسر كالأول والفتح على أنه معمول يشعركم. وعلى هذا فتكون «لا» في قوله: ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صلة كما في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنبياء: ٩٥]، أي: ما منعك أن تسجدَ إذ أمرتك، وحَرَام أنهم يرجعون. وتقديره في هذه الآية: وما يدريكم ـ أيها المؤمنون الذين يَودُّون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم ـ أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون؟ وقال بعضهم: «أنها» بمعنى لعلَّها. قال ابنُ جرير: وذكروا أن ذلك كذلك في قراءة أُبيّ بن كعب، قال: وقد ذُكِر عن العرب سماعاً: اذهب إلى السوق أنك تشتري لي شيئاً بمعنى: لعلك تشتري. قال: وقد قيل: إن قول عَدِيِّ بن زيد العباديِّ من هذا:

أعاذِلُ، ما يُدريك أنَّ منيَّتي إلى ساعةٍ في اليوم أو في ضُحَى الغَدِ

وقد اختار هذا القولَ ابنُ جريرٍ، وذكر عليه شواهِدَ من أشعَارِ العَرَب، والله أعلم. وقولُه تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، قال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: لمَّا جَحَد المشركون ما أنزل الله لم تَثبت قلوبُهم على شيءٍ، ورُدَّتْ عن كلِّ أمرٍ. وقال مجاهدٌ في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾: ونَحُولُ بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم كل آيةٍ، فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أوَّلَ مَرَّةٍ. وكذا قال عكرمةُ، وعبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ. وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابنِ عَباسٍ رضي الله عنه أنه قال: أخبر الله ما العبادُ قائلون قبل أن يقولوه، وعَمَلهم قبل أن يعملوه. قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ جل وعلا، وقال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨]، فأخبر الله سبحانه أنهم لو رُدُّوا لم يقدروا على الهُدَى، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]؛ وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وقال: ولو رُدُّوا إلى الدنيا لَحيل بينهم وبين الهُدَى، كما حُلْنا بينهم وبينه أوَّل مرَّة وهم في الدنيا. وقولُه: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾، أي: نتركُهم ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾. قال ابن عباس والسدِّيُّ: في كفرهم. وقال أبو العالية، والربيعُ بن أنس، وقتادةُ: في ضلالهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ قال الأعمش: يَلْعَبون. وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، والربيع، وأبو مالك: في كفرهم يَتردَّدُون.

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

يقولُ تعالى: ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسمُوا بالله جَهد أيمانهم: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾، فنزلنا عليهم الملائكة، أي تخبرهُم بالرسالةِ من الله بتصديقِ الرُسلِ، كما سألوا فقالوا: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]، و﴿قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١]. ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أي: فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل، ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾، قرأ بعضهم ﴿قِبَلًا﴾، بكسر القاف وفتح الباء، من المقابلة والمعاينة. وقرأ آخرون: بِضَمِّهما، قيل: معناه من المقابلة والمعاينة أيضاً، كما رواه عليُّ بن أبي طلحةَ والعوفيُّ، عن ابن عباس. وبه قال قتادةُ، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَمَ. وقال مجاهد ﴿قُبُلًا﴾ أفواجاً، قَبِيلاً قَبِيلاً، أي: تُعرَضُ عليهم كلُّ أمة بعد أمة، فتخبرهم بصِدْق الرُسُلِ فيما جاؤوهم به ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، أي: إن الهداية إليه لا إليهم. بل يَهْدِي من يشاء ويُضِلُّ من

يشاء، وهو الفعّال لما يريد، ولا يُسأل عما يفعَلُ وهم يُسألون، لعلمه وحِكْمَتِه، وسُلطانِهِ وقهرِهِ وغَلَبَتِهِ.
وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يقول تعالى: وكما جعلنا لك ـ يا محمّد ـ أعداءً يخالفونك ويُعَانِدُونَكَ، جعلنا لكل نبيٍّ من قَبْلِك أيضاً أعداءً، فلا يَهيدَنَّك ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾ [الأنعام: ٣٤]... الآية، وقال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]... الآية.

[٢٩٤٥] وقال وَرَقَةُ بن نوفلٍ لرسول الله ـ ﷺ ـ: «إنه لم يأت أحدٌ بمثل ما جِئْتَ به إلا عُودِيَ»[١].
وقولُه: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ بَدَلٌ من ﴿عَدُوًّا﴾، أي: لهم أعداء من شياطين الإنس والجنّ. والشيطان: كلُّ من خرج عن نظيره بالشرّ. ولا يعادي الرسل إلا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء، قَبّحهم الله ولَعَنهم.

[٢٩٤٦] قال عبد الرزّاق: أخبرنا معمرٌ، عن قتادة في قوله ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، قال: من الجن شياطينُ، ومن الإنس شياطينُ، يُوحِي بعضُهم إلى بعضٍ. قال قتادةُ: وبلغني أن أبا ذَرّ كان يوماً يصلّي، فقال النبي ـ ﷺ ـ «تعوّذ يا أبا ذَرّ من شياطين الإنس والجن؟ فقال: أوَ إنَّ من الإنس لشياطينَ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: نعم»[٢]. وهذا منقطع بين قتادة وأبي ذرّ. وقد رُوِي من وجه آخرَ عن أبي ذرّ ـ رضي الله عنه ـ

[٢٩٤٧] قال ابنُ جريرٍ: حدّثني المثنى، حدثنا أبو صالح، حدثني معاويةُ بن صالح، عن أبي عبد الله محمد بن أيّوب وغيرِه من المَشْيَخَةِ، عن ابن عائذ، عن أبي ذرٍّ أنه قال: «أتيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ في مجلسٍ قد أطال فيه الجلوسَ، قال: فقال: «يا أبا ذر، هل صليت؟» قلت: لا يا رسول الله. قال: «قم فاركع ركعتين». قال: ثم جئت فجلست إليه فقال: «يا أبا ذَرّ، هل تَعوّذت بالله من شياطين الجنّ والإنس؟». قال: قلت: لا يا رسول الله وهل للإنس من شياطين؟ قال: «نعم هم شر من شياطين الجن»[٣]. وهذا أيضاً فيه انقطاعٌ.

[٢٩٤٨] ورُوِي متصلاً كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيعٌ، حدثنا المسعوديُّ، أنبأني أبو عمر الدِّمشقي، عن عُبيد بن الخشخاش، عن أبي ذَرٍّ قال: أتيتُ النبي ـ ﷺ ـ وهو في المسجد، فجلستُ فقال: «يا أبا ذر، هل صَلَّيتَ؟» قلتُ: لا. قال: قم فَصَلِّ. قال: فقمتُ فَصلَّيتُ، ثم جلستُ فقال: يا أبا ذَرّ، تعوّذ

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٥٦ ومسلم ١٦٠ وأحمد ٦/ ٢٣٢ وابن حبان ٣٣ والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ١٣٥ ـ ١٣٦ من حديث عائشة مطوّلاً.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٨٤٦ و٨٤٧ وإسناده ضعيف، لانقطاعه، لكنه يعتضد بما بعده.
وأخرجه الطبري ١٣٧٧٤ و١٣٧٧٥ عن قتادة مرسلاً.

(٣) أخرجه الطبري ١٣٧٧٣ وإسناده ضعيف فيه انقطاع كما ذكر المصنف لكنه يعتضد بما قبله وما بعده.

بالله منْ شر شياطين الإِنس والجن. قال قلت: يا رسول الله، وللإِنس شَياطين؟ قال: نعم...»[١] وذكر تمام الحديث بطوله. وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره، من حديث جعفر بن عَوْنٍ، ويعلى بن عُبَيد، وعُبَيد الله بن موسى، ثلاثتهم عن المسعوديِّ، به.

[٢٩٤٩] طريق أخرى عن أبي ذَرٍّ، قال ابن جَرير: حدثني المثنى، حدثنا الحَجَّاج، حدثنا حماد، عن حُمَيد بن هلال، حدثني رَجُلٌ من أهل دِمَشق، عن عوفِ بن مالكٍ، عن أبي ذَرٍّ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: يا أبا ذَرٍّ، هل تَعوذْت بالله من شَرِّ شياطين الإِنسِ والجنِّ؟ قال قلتُ: يا رسول الله، هل للإِنس من شياطينُ؟ قال: نعم[٢].

[٢٩٥٠] طريقٌ أخرى للحديث، قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمدُ بن عوف الحِمْصي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا مُعان بن رفاعة، عن علي بن يَزيد، عن القاسم، عن أبي أُمامَةَ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ قال: يا أبا ذرٍّ تَعوَّذت من شياطين الجن والإِنس؟ قال: يا رسول الله، وهل للإِنس شياطين؟ قال: نعم، ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[٣]. فهذه طُرق لهذا الحديث، ومجموعُها يُفِيد قوّته وصِحَّته، والله أعلم. وقد روى ابنُ جَرِيرٍ: حدثنا ابنُ وَكِيع، حدثنا أبو نُعَيم، عن شَريك، عن سعيد بن مَسْروقٍ، عن عكرمة: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، قال: ليس في الإِنس شياطين، ولكن شياطين الجن يُوحُون إلى شياطينَ الإِنس، وشياطين الإِنس يُوحونَ إلى شياطينَ الجنِّ. قال: وحَدَّثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا إسرائيلُ، عن السدِّيِّ، عن عكرمةَ في قوله: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾. قال: للإِنسيّ شيطان، وللجني شيطان، فيلقى شيطانُ الإِنس شيطانَ الجنِّ، فَيُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُروراً. وقال أسباطٌ، عن السدِّيِّ في قوله: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ في تفسير هذه الآية: أمَّا شياطين الإِنس فالشياطينُ التي تُضِلُّ الإِنس، وشياطينُ الجنِّ الذي يُضِلُّون الجنَّ، يلتقيان، فيقول كلُّ واحدٍ منهما لصاحبه: إني أضللتُ صاحِبي بكذا وكذا، فَأَضْلِل أنت صاحِبَكَ بكذا وكذا، فَيُعلِّم بعضُهُم بعضاً. فَفَهم ابنُ جريرٍ من هذا أنَّ المراد بشياطين الإِنس عندَ عكرمةَ والسدِّيِّ: الشياطينُ من الجنِّ الذين يُضِلُّون الناسَ لا أنَّ المراد منه شياطين الإِنس منهم. ولا شك أن هذا ظاهر من كلام عكرمة، وأما كلام السدّي فليس مثله في هذا المعنى، وهو محتمل، وقد رَوَى ابنُ أبي حاتم نحو هذا عن ابن عباس من رواية الضحاك، عنه، قال: إن للجنِّ شياطين يضلونهم مثل شياطين الإِنس يضلونهم، قال: فيلتقي شياطين الإِنس وشياطين الجن، فيقول هذا لهذا: أضْلِلْه بكذا، وأضلِلْهُ بكذا. فهو قولُه: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾. وعلى كلِّ حال فالصحيحُ ما تقدَّم من حديث أبي ذَرٍّ: إن للإِنس شياطين منهم، وشيطانُ كلِّ شيءٍ ماردُه.

[٢٩٥١] ولهذا جاء في صحيح مسلم عن أبي ذَرٍّ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «الكلبُ الأسودُ شيطانٌ»[٤]. ومعناه ـ والله أعلم ـ شيطان في الكلاب. وقال ابن جريج: قال مجاهد في تفسير هذه الآية: كفار الجن شياطين يوحون إلى شياطينِ الإِنس ـ كفار الإِنسِ ـ ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

---

(١) أخرجه النسائي ٨/ ٢٧٥ وأحمد ٥/ ١٧٨ ـ ١٧٩ وإسناده ضعيف فيه أبو عمر الدمشقي واهٍ، لكن له طرق أخرى يقوى بها.

(٢) أخرجه الطبري ١٣٧٧٢ وإسناده ضعيف، فيه راوٍ لم يسم، ويشهد له ما بعده، وانظر ما قبله.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٢٦٥، وإسناده ضعيف لأجل علي بن يزيد الألهاني.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٥١٠ وأبو داود ٧٠٢ والترمذي ٣٣٨ والنسائي ٢/ ٦٣ ـ ٦٤ وابن ماجه ٩٥٢ وأحمد ٥/ ١٤٩ وابن حبان ٢٣٨٥.

وروى ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: قَدِمتُ على المختار فأكرمني وأنزلني حتى كاد يتعاهَدُ مبيتي بالليل، قال: فقال لي: اخرُج إلى الناس فحدِّث الناس. قال: فخرجتُ، فجاء رجل فقال: ما تقول في الوحي؟ فقلت: الوحي وحيان، قال الله تعالى: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣]، وقال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾. قال: فهمُّوا بي أن يأخذُوني، فقلت: ما لكم ذَاك، إني مُفتيكم وضيفُكم. فتركوني. وإنما عَرَّضَ عكرمةُ بالمختار، وهو ابن أبي عُبَيد ـ قَبَّحه الله ـ وكان يزعمُ أنه يأتيه الوحيُ، وقد كانت أخته صَفيَّة تحت عبد الله بن عُمَر، وكانت من الصالحات، ولما أُخبِرَ عبد الله بن عُمَر أن المختار يزعمُ أنه يوحَى إليه قال: صدق الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾، أي: يلقي بعضهم إلى بعض القولَ المزيَّن المُزخرفَ، وهو المزوّق لذي يغترُّ سامِعُه من الجَهَلةِ بأمره. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾، أي: وذلك كلُّه بقدرِ الله وقَضائه وإرادته ومَشيئَتِهِ أن يكونَ لكلِّ نبيّ عدوٌّ من هؤلاء. ﴿فَذَرْهُمْ﴾، أي: فَدَعْهم، ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، أي: يكذبون. أي: دَعْ أذاهم وتوكَّل على الله في عداوتهم، فإن الله كافيك وناصرُك عليهم. وقولُه تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾، أي: ولِتَميلَ إليه. قاله ابنُ عباس، ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: قُلوبُهم وعقولُهم وأسماعهم. وقال السدّيُّ: قلوب الكافرين، ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾، أي: يحبُّوه ويريدوه. وإنما يَستَجيبُ لذلك من لا يؤمن بالآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الصافات: ١٦١ ـ ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ [الذاريات: ٨ ـ ٩]. وقولُه: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾، قال عليّ بن أبي طلحَة، عن ابن عباس: وليكتَسِبُوا ما هم مُكتَسِبُون. وقال السدّيُّ، وابنُ زيدٍ: وليعملُوا ما هم عاملون.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ـ ﷺ ـ: قل لهؤلاء المشركينَ بالله غيرَه الذين يعبدون غيْرَه: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾، أي: بيني وبينكم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾، أي: مُبيَّناً ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: من اليهود والنصارى يعلمُون أنه مُنزَّلٌ من ربِّك بالحقّ، أي: بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدِّمين، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، كقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: ٩٤]. وهذا شرطٌ، والشرط لا يقتضي وقوعَه.

[٢٩٥٢] ولهذا جاءَ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا أشكُّ ولا أسأل»[1]. وقولُه تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، قال قتادةُ: صدقاً فيما وَعَدَ، وعدلاً فيما حكَم. يقول: صدقاً في الإخبار وعدلاً في الطلب، فكلُّ ما أخبر به فحقٌّ لا مِريةَ فيه ولا شكَّ، وكلُّ ما أمَرَ به فهو العدلُ الذي لا عَدْلَ سواه، وكل ما نَهى عنه فباطلٌ، فإنه لا ينهَى إلا عن مَفْسَدةٍ، كما قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾

(١) يأتي في سورة يونس. آية: ٩٤ إن شاء الله.

[الأعراف: ١٥٧]. . . إلى آخر الآية. ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾، أي: ليس أحد سواه يُعَقِّب حكمه تعالى، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالِ عبادِه، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحركَاتِهم وسكَنَاتِهم، الذي يُجازِي كلَّ عاملٍ بعَمَلِهِ.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

يخبرُ تعالى عن حال أكثر أهلِ الأرض من بني آدمَ أنه الضَّلال، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات: ٧١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم في ظُنُون كاذبةٍ وحُسبان باطل، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، فإن الخَرْص هو الحَزْرُ، ومنه خَرْصُ النخلِ، وهو حَزْرُ ما عليها من التَّمر. وذلك كُلّه عن قَدَر الله ومشيئته، و﴿هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فيُيَسِّره لذلك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فيُيَسِّره لذلك، وكلٌّ ميسرٌ لما خُلِق له.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾

هذا إباحةٌ من الله لعباده المؤمنين أن يأكُلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمُه، ومَفْهُومُه أنه لا يباحُ ما لم يذكَرِ اسمُ الله عليه كما كان يَستبيحه كفارُ المشركين من أكْلِ المَيْتَاتِ، وأكل ما ذُبح على النُّصب وغيرها. ثم نَدَب إلى الأكلِ مما ذُكِر اسمُ الله عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: قد بيَّن لكم ما حَرَّمَهُ عليكم وَوَضَّحه. وقرأ بعضهم ﴿فَصَّلَ﴾ بالتشديد، وقرأ آخرون بالتخفيف، والكلُّ بمعنى البيانِ والوضوح. ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾، أي: إلا في حال الاضطرار، فإنه يُبَاحُ لكم ما وَجدتُم. ثم بَيَّن تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسِدَةِ، من استحلالهم الميتاتِ وما ذُكِر عليه غيرُ اسم الله تعالى، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾، أي: هو أعلم باعتدائهم وكَذِبهم وافترائهم.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

قال مجاهدٌ: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾: مَعْصِيته في السرِّ والعلانية. وفي رواية عنه قال: هو ما ينوي مما هو عامل. وقال قتادةُ: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾، أي: قليله وكثيرَه، سره وعَلانيته. وقال السدّي: ظاهره: الزنا مع البغايا ذوات الراياتِ، وباطنه: الزنا مع الخليلة والصدائِقِ والأخدان. وقال عكرمة: ظاهره نكاحُ ذوات المحارم. والصحيحُ أن الآية عامة في ذلك كلّه، وهي كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. . . الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾، أي: سواءٌ كان ظاهراً أو خفياً، فإن الله سَيَجزيهم عليه.

[٢٩٥٣] قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحَسَنُ بن عَرَفة، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَير، عن أبيه، عن النَّواسِ بن سِمْعان قال: سألتُ رسول الله ـ ﷺ ـ

عن الإثم فقال: «الإِثمُ ما حاكَ في صَدْرِكَ، وكَرِهْتَ أن يَطَّلِع الناسُ عليه»[1].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾

استدلَّ بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أنه لا تَحلُّ الذبيحة التي لم يُذكَر اسمُ الله عليها، ولو كان الذابحُ مسلماً. وقد اختلف الأئمةُ ـ رحمهم الله ـ في هذهِ المسألة على ثلاثة أقوال: فمنهم من قال: لا تحلُّ هذه الذبيحةُ بهذه الصفة، وسواءٌ كان متروكُ التسميةِ عمداً أو سهواً. وهو مرويٌ عن ابن عُمَر، ونافع مولاه، وعامر الشَّعبي، ومحمد بن سِيرين. وهو روايةٌ عن الإمام مالكٍ، ورواية عن أحمد بن حنبلٍ نصرها طائفةٌ من أصحابه المتقدمين والمتأخرين، وهو اختيار أبي ثَورٍ، وداودَ الظاهريِّ، واختار ذلك أبو الفتوح محمد بن محمد بن علي الطائي، من متأخري الشافعية في كتابه «الأربعين». واحتجُوا لمذهبهم هذا بهذه الآية، وبقوله في آية الصَّيد: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]. ثم قد أُكِّد في هذه الآية بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾. والضمير قيل: عائد على الأكلِ، وقيل: عائدٌ على الذَّبح لغير الله، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذَّبح والصَّيدِ، كحديثَيْ عَدِيِّ بن حاتِم وأبي ثعلبَةَ:

[٢٩٥٤] «إذا أرسلت كَلْبَكَ المعلَّم وذكرتَ اسمَ الله عليه فَكُلْ ما أمسَكَ عليك»[2]. وهما في الصَّحِيحين.

[٢٩٥٥] وحديث رافع بن خَدِيج: «ما أنهَرَ الدَّم وذُكِر اسمُ الله عليه فكلوه»[3]. وهو في الصحيحين أيضاً.

[٢٩٥٦] وحديث ابن مسعود أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال للجنِّ: «لكم كلُّ عَظْمٍ ذُكِر اسمُ الله عليه»[4] رواه مسلم.

[٢٩٥٧] وحديث جُنْدَب بن سفيانَ البَجَليّ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من ذَبَح قبل أن يُصَلّي فَلْيَذْبَحْ مكانَها أُخرَى. ومن لم يكن ذَبَح حتى صَلَّينا فَلْيَذْبَح باسم الله»[5]، أخرجاه.

[٢٩٥٨] وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن ناساً قالوا: يا رسول الله، إن قوماً يأتوننا باللحم لا نَدْري: أَذُكِر اسمُ الله عليه أم لا؟ قال: سَمُّوا عليه أنتم وكُلُوا. قالت: وكانوا حَدِيثي عَهْدٍ بالكفر[6]. رواه البخاري. ووجهُ الدَّلالة أنهم فَهِموا أنَّ التسميةَ لا بدَّ منها، وأنهم خَشُوا ألاَّ تكون وُجِدت من أولئك، لحداثة إسلامهم، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل، لتكون كالعِوَض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وُجِدت، وأمَرَهم بإجراء أحكام المسلمين على السَّداد، والله تعالى أعلم.

---

(١) تقدم في سورة البقرة عند آية: ٢٧٥.

(٢) تقدم في سورة المائدة عند آية: ٤.

(٣) تقدم في سورة المائدة عند آية: ٣.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٤٥٠ وأبو داود ٨٥ والترمذي ١٨ و٤٢٥٨ وابن حبان ١٤٣٢ والبيهقي ١٠/١٠٨.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٩٨٥ و٥٥٠٠ ومسلم ١٩٦٠ والنسائي ٧/ ٢٢٤ وابن ماجه ٣١٥٢ وأحمد ٤/ ٣١٢ وابن حبان ٥٩١٣.

(٦) صحيح. أخرجه البخاري ٢٠٥٧ و٥٥٠٧ وأبو داود ٢٨٢٩ والنسائي ٧/ ٢٣٧ وابن ماجه ٣١٧٤ والبيهقي ٩/ ٢٣٩ والبغوي في «التفسير» ٨٨٩.

والمذهب الثاني في المسألة: أنه لا يُشترَطُ التسميةُ، بل هي مُستحبَّةٌ، فإن تُركت عمداً أو نسياناً لم تضرّ. وهذا مذهب الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ وجميع أصحابه، ورواية عن الإمام أحمد، نقلها عنه حَنْبَل. وهو رواية عن الإمام مالك، ونصَّ على ذلك أشهبُ بن عبد العزيز من أصحابه، وحُكِي عن ابن عباس، وأبي هُرَيرة، وعطاء بن أبي رباح، والله أعلم. وحمل الشافعي الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ على ما ذُبح لغير الله، كقوله تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وقال ابن جُرَيج، عن عطاءٍ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، قال: ينهَى عن ذبائح كانت تَذبحُها قريشٌ على الأوثان، وينهَى عن ذبائح المجوس. وهذا المسلكُ الذي طَرَقه الإمام الشافعيُّ ـ رحمه الله ـ قويٌّ، وقد حاولَ بعضُ المتأخرين أن يُقَوِّيه بأن جعل «الواو» في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ حاليةً، أي: لا تأكلوا مما لم يُذْكَر اسم الله عليه في حال كَوْنِهِ فسقاً، ولا يكون فِسقاً حتى يكون قد أُهِلَّ به لغير الله. ثم ادَّعى أنَّ هذا متعينٌ، ولا يجوز أن تكون «الواو» عاطفة، لأنه يلزَمُ منه عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية طلبية. وهذا ينتقض عليه بقوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾، فإنها عاطفةٌ لا محالَةَ، فإن كانت «الواوُ» التي ادَّعي أنها حاليَّةٌ صحيحةً على ما قال امتنعَ عَطْفُ هذه عليها، فإن عطفت على الطلبية وَرَد عليه ما أَوْرَدَ على غيره، وإن لم تكن «الواو» حاليّة بطل ما قال مِن أَصْلِهِ، والله أعلم. وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أنبأنا جَرير، عن عطاءٍ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قولَه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، قال: هي المَيْتةُ.

ثم رواه، عن أبي زُرعة، عن يحيى بن بُكَيرٍ، عن ابن لَهيعة، عن عطاء، وهو ابن السائب، به.

[٢٩٥٩] وقد استُدِلَّ لهذا المذهب بما رواه أبو داود في المراسيل، من حديث ثَور بن يزيد، عن الصَّلْتِ السَّدُوسي ـ مولى سُوَيد بن ميمون، أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم بن حِبَّان في كتاب الثِّقات ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ذبيحةُ المسلم حلالٌ ذَكَر اسم الله أو لم يَذْكُر، إنه إنْ ذَكَر لم يَذْكُرِ إلا اسم الله»[1]. وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطنيُّ عن ابن عباس أنه قال: «إذا ذَبَح المسلم ولم يَذْكِرِ اسم الله فَليأكُل، فإنَّ المسلم فيه اسمٌ من أسماء الله».

[٢٩٦٠] واحتجَّ البيهقيُّ أيضاً بحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ المتقدّم أن ناساً قالوا: يا رسول الله، إنَّ قوماً حديثي عهدٍ بجاهلية يأتوننا بلحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال: سَمُّوا أنتم وكلُوا[2]. قال: فلو كان وجودُ التسميةِ شرطاً لم يُرَخص لهم إلا مع تحققها، والله أعلم.

المذهبُ الثالثُ في المسألة: أنّه إن تَرَكَ التَّسمية على الذبيحة نسياناً لم يضرّ، وإن تَركها عمداً لم تَحلّ. هذا هو المشهورُ من مذهب الإمام مالكٍ، وأحمدَ بن حنبل، وبه يقول أبو حنيفةَ وأصحابُه، وإسحاقِ بن راهوَيه. وهو محكيٌّ عن علي، وابن عباس، وسعيد بن المسيِّب، وعطاء، وطاووسَ، والحسن البصري، وأبي مالك، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وجعفر بن محمد، وربيعةَ بن أبي عبدِ الرحمن. ونقل الإمام أبو الحسن المَرْغِينَانيُّ في كتابه «الهداية» الإِجماعَ قبلَ الشافعي، على تحريمِ متروكِ التسمية عمداً، فلهذا قال أبو

---

(١) ضعيف، أخرجه أبو داود في «مراسيله» ٣٤١ عن الصلت السدوسي مرسلاً، ومع ذلك تابعيه شبه مجهول. فهو وإن، وثقه ابن حبان، فقد قال الزيلعي في نصب الراية ٤/١٨٣: قال ابن القطان: لا يعرف حاله، ولا يعرف بغير هذا الحديث اهـ، ولينه الحافظ في التقريب، فهاتان علتان للحديث.

(٢) تقدم قبل حديث واحد.

يوسف والمشايخ: لو حَكَم حاكمٌ بجوازِ بيعه لم يَنفُذْ لمخالفة الإِجماع. وهذا الذي قاله غريبٌ جداً، وقد تقدَّم نقلُ الخلاف عمَّن قَبْل الشافعي[١]، والله أعلم.

وقال الإِمام أبو جعفر بنُ جَرِيرٍ: من حَرَّمَ ذبيحةَ الناسي، فقد خَرَج من قول جميعِ الحُجَّة، وخالف الخبر الثابت عن رسول الله ـ ﷺ ـ في ذلك، يعني ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي:

[٢٩٦١] أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس الأصمُّ، حدثنا أبو أمية الطَّرْسُوسيُّ، حدثنا محمد بن يزيدَ، حدثنا مَعْقِلُ بن عُبَيد الله، عن عَمرو بن دينار، عن عكرمةَ، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «المسلم يَكفِيه اسمُه، إن نَسِي أن يُسمِّي حين يَذْبح، فَلْيَذْكرِ اسم الله ولْيَأكُلْه»[٢]. وهذا الحديثُ رفعهُ خطأ، أخطأ فيه مَعقِل بن عبيد الله الجَزَري، فإنه ـ وإن كان من رجال مسلم إلا أن سعيد ابن منصور، وعبد الله بن الزُّبير الحُمَيدي رَوَياه عن سفيان بن عُيَينة، عن عمرو، عن أبي الشعثاء، عن عكرمةَ، عن ابن عباس، من قوله. فزادا في إسناده «أبا الشعثاء»، وَوَقفاه. وهذا أصحُّ، نَصَّ عليه البيهقيُّ وغيره من الحفاظ، والله تعالى أعلم. وقد نقل ابنُ جرير وغيره. عن الشعبي ومحمد بن سيرين، أنهما كَرِها متروك التسمية نسياناً، والسَّلَفُ يطلقون الكراهة على التحريم كثيراً والله أعلم؛ إلا أن من قاعدة ابن جَرير أنه لا يعتبر قولَ الواحد ولا الاثنين مخالفاً لقول الجمهور، فَيَعدُّه إجماعاً، فَلْيُعلَم هذا، والله الموفق.

قال ابن جَرِير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة، عن جُهِير بن يزيد قال: سُئِلَ الحَسَنُ، سأله رجل: أُتِيتُ بطير كَذَا، فمنه ما قد ذُبِح فَذُكِر اسم الله عليه، ومنه ما نُسِي أن يُذكر اسمُ الله عليه، واختلط الطيرُ، فقال الحسن: كُلْه كُلَّه. قال: وسألتُ محمَّدَ بن سِيرينَ فقال: قال الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

[٢٩٦٢] واحتُجَّ لهذا المذهب بالحديث المرويِّ من طُرُقٍ عند ابن ماجه، عن ابن عباس، وأبي هُرَيرة، وعن أبي ذَرٍّ، وعقبة بن عامر، وعبد الله بن عمرو، عن النبي ـ ﷺ ـ: «إنَّ الله وضَعَ عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استُكرِهُوا عليه»[٣]. وفيه نظر، والله أعلم.

[٢٩٦٣] وقد رَوَى الحافظُ أبو أحمد بن عَدِيّ، من حديث مَرْوان بن سالم القَرْقَسانِيِّ، عن الأوزاعيِّ، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة قال: جاء رجلٌ إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، أرأيتَ الرجلَ مِنَّا يذبحُ وينسَى أن يُسمِّي؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ: «اسمُ الله على كلِّ مسلم»[٤]. ولكن هذا إسنادٌ

---

(١) انظر ذلك في المذهب الثاني في أوله.

(٢) الراجح وقفه. أخرجه الدارقطني ٤/ ٢٩٦ والبيهقي ٩/ ٢٣٩ وقال: كذا رواه مرفوعاً، ورواه ابن عيينة وغيره موقوفاً. وقال الزيلعي في نصب الراية ٤/ ١٨٢: قال ابن القطان: ليس في الإسناد من يتكلم فيه غير محمد بن يزيد بن سنان، وكان صدوقاً صالحاً لكنه كان شديد الغفلة. قال الزيلعي: وقال غيره: معقل بن عبيد الله، وإن كان من رجال مسلم لكنه أخطأ في رفع هذا الحديث، فقد رواه الحميدي وسعيد بن منصور عن ابن عيينة عن عمرو بن أبي الشعثاء عن عكرمة عن ابن عباس موقوفاً. قال الزيلعي: معقل بن عبيد الله ذكره ابن الجوزي في الضعفاء ونقل عن ابن معين قوله: ضعيف. قال: ومحمد بن يزيد ضعيف، ووثقه ابن حبان، والصحيح أن هذا الحديث موقوف اهـ.

(٣) غير قوي، تقدم مراراً، وتقدم تخريجه في سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٤) ضعيف. أخرجه الدارقطني ٤/ ٢٩٥٠ والبيهقي ٩/ ٢٤٠ وابن عدي ٦/ ٣٨٥ من حديث أبي هريرة. قال الدارقطني: مروان بن سالم ضعيف. وقال البيهقي: قال ابن عدي مروان بن سالم، عامة حديثه لا يتابعه عليه الثقات. قال البيهقي: هو ضعيف، ضعفه أحمد والبخاري وغيرهما، وهذا الحديث منكر. اهـ وضعفه ابن القطان ووافقه الزيلعي. راجع نصب الراية ٤/ ١٨٣.

ضعيفٌ، فإن مروان بن سالم القَرْقَسَانيّ أبا عبد الله الشاميّ ضَعِيف، تَكَلَّم فيه غيرُ واحدٍ من الأئمة، والله أعلم. وقد أفردتُ هذه المسألةَ على حِدَةٍ، وذكرتُ مذاهِبَ الأئمة ومآخذَهم وأدلّتهم، وَوَجْهَ الدلالاتِ والمناقضات والمعارضات، والله أعلم.

قال ابنُ جَرِير: وقد اختلف أهلُ العلم في هذه الآية: هل نُسِخ من حكمها شيءٌ أم لا؟ فقال بعضُهم: لم يُنسَخ منها شيءٌ وهي مُحكمة فيما عُنِيتْ به. وعلى هذا القول عامّةُ أهلِ العلم. ورُوِي عن الحَسَن البصري وعكرمةَ ما حدثنا به ابن حُمَيد: حدثنا يحيى بن واضح، عن الحُسَين بن وَاقِدٍ، عن يزيد عن عكرمةَ والحسن البصريّ قالا: قال الله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾، فنُسِخ واستثنى من ذلك، فقال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥]. وقال ابن أبي حاتم: قُرِىء على العباس بن الوليد بن مَزْيَد، حدثنا محمد بن شُعَيب، أخبرني النعمان ـ يعني ابن المنذر ـ عن مكحول قال: أنزل الله في القرآن: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، ثم نسخها الربُّ ورَحِم المسلمين فقال: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾، فنسخها بذلك وأحلّ طعام أهل الكتاب. ثم قال ابنُ جَرِير: والصواب أنه لا تعارض بين حِلّ طعام أهلِ الكتاب، وبين تحريم ما لم يُذكر اسمُ الله عليه. وهذا الذي قاله صحيحٌ، ومن أطلق من السَّلَفِ النسْخَ هاهنا فإنما أراد التَّخْصِيص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُ، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاقَ قال: قال رجلٌ لابن عُمر: إن المختار يزعمُ أنه يُوحَى إليه؟ قال: صَدَق، وتلاَ هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾. وحدثنا أبي، حدثنا أبو حُذَيفة، حدثنا عكرمة بن عمار، عن أبي زُمَيل قال: كنت قاعداً عند ابن عباس، وحَجَّ المختار بن أبي عُبَيد، فجاءه رجل فقال: يا بن عَبَّاس، زعم أبو إسحاق أنه أُوحي إليه الليلة؟ فقال ابن عباس: صَدَق، فَنَفَرْتُ وقلت: يقول ابن عباس صَدَق! فقال ابن عباس: هما وحيان، وَحْي الله، ووحْيُ الشيطانِ، فوحيُ الله إلى محمد ـ ﷺ ـ ووحي الشيطان إلى أوليائه، ثم قرأ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾. وقد تَقَدَّم عن عكرمة في: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ نحو هذا. وقوله تعالى: ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾.

[٢٩٦٤] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُ، حدثنا عمران بن عُيَينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير قال: خاصَمَتِ اليهودُ النبيَّ ـ ﷺ ـ فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قَتَل الله؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾. هكذا رواه مرسلاً. ورواه أبو داود متصلاً فقال: حدثنا عثمانُ بن أبي شَيبَةَ، حدثنا عمران بن عُيَينة، عن عطاء ابن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: جاءت اليهودُ إلى النبي ـ ﷺ ـ فقالوا: نأكلُ مما قتلنا ولا نأكلُ مما قَتَل الله؟! فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾. . . الآية[1]. وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن عبد الأعلى وسفيانَ بن وَكيع

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٨١٩ والترمذي ٣٠٦٩ والطبري ١٣٨٢٩، وإسناده ضعيف، عطاء بن السائب صدوق إلا أنه اختلط بأَخَرَة، وقد اضطرب فيه، فتارة ذكر: قال المشركون. وتارة: قال اليهود. ورواية الترمذي: أتى أناس. وهذا الاضطراب يدل على أن عطاء بن السائب رواه بعد اختلاطه، وكون السائل اليهود بعيد كما ذكر ابن كثير. فانظر كلامه الآتي. عقب حديث الطبراني.

كلاهما عن عمران بن عُيَينة، به. ورواه البزار عن محمد بن موسى الحَرَشِيّ، عن عمران بن عُيَينة، به. وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة: أحدها: أن اليهودَ لا يَرون إباحة المَيْتَةِ حَتّى يُجادِلوا. الثاني: أن الآية من الأنعام، وهي مكية. الثالث: أن هذا الحديث رواه الترمذيُّ عن محمد بن موسى الحَرَشِيّ، عن زياد بن عبد الله البكّائي، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس. ورواه الترمِذِيُّ بلفظ: «أتى ناسٌ النبيَّ - ﷺ - . . . .» فذكره وقال: حَسَن غريب، ورُوي عن سَعيد بن جُبَير مرسلاً.

[٢٩٦٥] وقال الطَبراني: حدثنا عَليّ بن المبارك، حدثنا زيد بن المُبَارك، حدثنا موسى بن عبد العزيز، حدثنا الحَكَم بن أبانَ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: لما نزلَتْ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾، أرسلت فارسُ إلى قُرَيشٍ: أن خاصِمُوا محمداً وقولوا له: فَمَا تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال، وما ذبح الله - عزّ وجلّ - بشمشير من ذهب - يعني الميتة - فهو حَرَام. فنزلت هذه الآيةُ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ قال: الشياطينُ من فارس، وأولياؤهم قُرَيشٍ[١].

[٢٩٦٦] وقال أبو داودَ: حدثنا محمد بن كَثير، أخبرنا إسرائيلُ، حدثنا سِمَاك، عن عكرمةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾، يقولون: ما ذَبَح الله فلا تأكلوه. وما ذبحتم أنتم فكُلُوه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾[٢]. ورواه ابن ماجه وابن أبي حاتم، عن عَمرو ابن عبد الله، عن وكيع، عن إسرائيلَ، به. وهذا إسناد صحيح. ورواه ابنُ جرير من طُرُق مُتعدِّدة، عن ابن عباس، وليس فيه ذكرُ اليهود، فهذا هو المحفوظ، لأن الآية مكية، واليهود لا يحبون الميتة والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وَكيع، حدثنا جَرير، عن عطاء عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾، إلى قوله: ﴿لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾، قال: يقول: يوحي الشياطين إلى أوليائهم تأكلون مما قتلتُم، ولا تأكلون مما قتل الله! وفي بعض ألفاظه عن ابن عباس: إن الذي قتلتُم ذكر اسمُ الله عليه، وإنّ الذي قد مات لم يذكر اسم الله عليه.

وقال ابنُ جُرَيج: قال عَمرو بن دينار، عن عكرمةَ: إنّ مشركي قُرَيش كاتبوا فارس على الروم، وكاتبتهم فارس، وكتَبَتْ فارسُ إلى مشركي قُرَيش: «إنّ محمداً وأصحابه يزعمون أنّهم يتبعون أمر الله، فما ذَبح الله بسِكّين من ذَهَبٍ فلا يأكُله محمد وأصحابه، للمَيْتَة، وأما ما ذَبحُوا هم يأكُلون. فكَتَبَ بذلك المشركون إلى أصحاب محمد - ﷺ - فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيءٌ، فأنزل الله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ﴾. . . الآية، ونزلت: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾. وقال السدّيُّ في تفسير هذه الآية: إنّ المشركين قالوا للمؤمنين: كيف تَزْعُمون أنكم تَتْبعون مرضاةَ الله، وما ذَبَح الله فلا تأكلونه،

---

(١) أخرجه الطبراني ١١٦١٤ وإسناده ضعيف لضعف علي بن مبارك، وفيه موسى بن عبد العزيز ضعفه علي المديني وغيره، وفيه الحكم بن أبان لينه الذهبي، وأخرجه الترمذي ٣٠٦٩ والنسائي ٧/٢٣٧ من طريقين عن ابن عباس وكلا الطريقين لا تخلوا من ضعف وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وأخرجه الطبري ١٣٨٠٩ و١٣٨١٠ من وجه آخر عن عكرمة مرسلاً، ليس فيه ذكر ابن عباس. فالخبر واهٍ.

الخلاصة: ليس في تعيينهم خبر صحيح. وإسناد أبي داود الآتي صحيح على شرط مسلم، وليس فيه ذكر القوم الذين جادلوا في ذلك رسول الله ﷺ. وانظر كلام ابن كثير الآتي.

(٢) حسن. أخرجه أبو داود ٢٨١٨ وابن ماجه ٣١٧٣ من طريقين عن إسرائيل به وصحح إسناده المصنف، وحسبه أن يكون حسناً لأجل سماك بن حرب.

وما ذبحتُم أنتم أكلتمُوه؟ فقال الله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ فأكلتم الميتة، ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ . وهكذا قاله مجاهدٌ، والضحَّاكُ، وغيرُ واحدٍ من عُلَماء السَّلَفِ، ـ رَحِمهم الله ـ.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ ، أي: حيثُ عَدَلتُم عن أمر الله لكم وشَرْعِهِ إلى قول غيره، فَقَدَّمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]. . . الآية.

[٢٩٦٧] وقد رَوَى الترمذي في تفسيرها عن عَدِيّ بن حاتم أنه قال: يا رسول الله، ما عَبَدُوهم، فقال: بل إنهم أحَلُّوا لهم الحرام وحَرَّموا عليهم الحلال، فاتَّبَعُوهم، فذلك عبادتهم إياهم[١].

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

هذا مثلٌ ضربَه الله تعالى للمؤمن الذي كان مَيْتاً، أي: في الضلالة هالكاً حائراً، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له وَوَفَّقه لاتباع رسله. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ ، أي: يهتدي كيفَ يسلك وكيفَ يتصرَّفُ به. والنور هو القرآن، كما رواه العَوْفيّ وابنُ أبي طلحةَ، عن ابن عباسٍ. وقال السدّيُّ: الإسلام. والكلُّ صَحيحٌ. ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ ، أي: الجِهالات والأهواء والضَّلالاتُ المتفرّقة، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ ، أي: لا يهتدي إلى مَنْفَذٍ، ولا يخلص مما هو فيه.

[٢٩٦٨] وفي مسند الإمام أحمد عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلّ»[٢]. كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وكما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٣]. والآيات في هذا كثيرة، ووجهُ المناسبةِ في ضَرْب المثلين هاهنا بالنور والظلمات، ما تقدَّم في أول السورة: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾. وقد زَعَم بعضُهم أنَّ المراد بهذا المثَلِ رَجُلان مُعَيَّنان، فقيل: عُمَر ابن الخطاب هو الذي كان مَيتاً فأحياه الله، وجعل له نوراً يمشي به في الناس. وقيل: عَمَّار بن ياسر. وأما الذي في الظُّلمات ليس بخارج منها: أبو جهل عمرو بن هشام، لعنه الله. والصحيحُ أن الآية عامة، يدخلُ فيها كلُّ مؤمنٍ وكافرٍ. ووقولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، أي:

---

(١) تقدم في سورة المائدة.

(٢) جيد. أخرجه الترمذي ٢٦٤٢ وابن أبي عاصم في «السنة» ٢٤١ والآجري في «الشريعة» ٣٥١ من طريق يحيى بن أبي عمرو السيباني عن ابن الديلمي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ، وأخرجه أحمد ٢/١٧٦ وابن حبان ٦١٦٩ والحاكم ١/٣٠ وابن أبي عاصم في «السنة» ٢٤٤ واللالكائي ١٠٧٩ من طرق عن الأوزاعي عن ربيعة بن يزيد عن ابن الديلمي عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً. وصححه الحاكم وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/١٩٣ ـ ١٩٤: رواه أحمد بإسنادين والبزار والطبراني، ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات اهـ. وفي الباب أحاديث كثيرة.

حَسّنا لهم ما هم فيه من الجهالة والضلالة، قَدَراً من الله وحِكمةً بالغةً، لا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

يقولُ تعالى: وكما جعَلنا في قَرْيتِكَ ـ يا محمّدُ ـ أكابر من المُجرمين، ورؤساءَ ودعاةً إلى الكفر والصدِّ عن سبيل الله، وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسُل من قبلك يُبْتلَون بذلك، ثم تكون لهم العاقبةُ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]... الآية، قيل: معناه أمرناهم بالطاعات فَخالفوا، فدمرناهم. وقيل: أمرناهم أمراً قَدَرياً، كما قال هاهنا: ﴿لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾. وقال ابنُ أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾، قال: سلّطنا شرارها فَعصَوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب.

وقال مجاهد وقتادةُ: ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ قال: عُظماءَها. قلتُ: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤ ـ ٣٥]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]. والمرادُ بالمكر هاهنا دعاؤهم إلى الضلالة بزُخرُف من المقال والفعال، كما قال تعالى إخباراً عن قوم نوح: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح: ٢٢] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣]... الآية. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابنُ أبي عُمَر، حدثنا سفيان قال: كل مكر في القرآن فهو عَمَلٌ. وقولُه تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: وما يَعُود وبالُ مَكْرِهم ذلك وإضلالُهم من أضلُّوه إلا على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]. وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾، أي: إذا جاءتهم آيةٌ وبرهانٌ وحُجّةٌ قاطعةٌ، قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾، أي: حتى تأتينا الملائكةُ من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرُسُل، كقوله جَلَّ وعلا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]... الآية.

وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، أي: هو أعلمُ حيثُ يضعُ رسالته ومَن يصلُح لها من خلْقِه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١ ـ ٣٢]... الآية، يعنون: لولا نُزّل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مُبَجّل في أعينهم ﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾، أي: مكّة والطائف. وذلك لأنهم ـ قبّحهم الله ـ كانوا يَزدرُون بالرسول ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بغياً وحسداً، وعناداً واستكباراً، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ

بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ [الأنعام: ١٠]. . هذا وهم مُعترِفُون بفضله وشَرَفه ونسبه، وطهارة بيته ومَرْباه ومَنشَئِهِ، حتى إنهم كانوا يُسمُّونه بينهم قبل أن يُوحَى إليه: الأمين. وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان، حين سأله هرقل مَلِك الروم: كيف نَسَبُه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نَسَبٍ. قال: فهل كنتم تتَّهِمُونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. الحديث بطُوله الذي استدلّ به مَلِكُ الرومِ بطهارةِ صِفَاتِهِ ـ عليه الصلاة والسلامُ ـ على صِدْقه ونُبُوّتِهِ وصِحَّة ما جاءَ بِهِ.

[٢٩٦٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن مُصعَبٍ، حدثنا الأوزاعيُّ، عن شَدَّادٍ أبي عَمَّار، عن واثلةَ بن الأسقَعِ ـ رضي الله عنه ـ. أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله اصطفى من وَلَد إبراهيم إسماعيلَ، واصطفَى من بني إسماعيل بني كنانةَ، واصطفى من بني كنانةَ قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(١). انفردَ بإخراجه مسلمٌ من حَدِيث الأوزاعيِّ، وهو عبدُ الرحمن بن عَمْرو، إمامُ أهلِ الشام، به نحوه.

[٢٩٧٠] وفي صحيح البخاري، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بُعِثْتُ من خير قُرون بني آدم قَرْناً فَقرناً، حتى كنت من القَرْنِ الذي كنتُ منه»(٢).

[٢٩٧١] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو نعيم، عن سفيانَ، عن يزيدَ بن أبي زيادٍ، عن عبد الله بن الحارث بن نَوفلٍ، عن المطلب بن أبي وَدَاعةَ قال: قال العباسُ: بلغَه ـ ﷺ ـ بعضُ ما يقولُ الناسُ، فصَعد المنبر فقال: «من أنا؟ قالوا: أنت رسولُ الله. قال: أنا محمَّدُ بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خَلْقِه، وجعلهم فِرْقتَين، فَجعلني في خير فِرْقةٍ، وخَلَق القبائلَ فجَعَلني في خَيْر قبيلةٍ. وجعلهم بُيُوتاً فجعلني في خَيْرهم بيتاً، فأنا خيرُكم بيتاً وخيرُكم نفساً»(٣). صدق صلوات الله وسلامُه عليه.

[٢٩٧٢] وفي الحديث أيضاً المرويِّ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قال لي جبريلُ قَلَبْتُ الأرضَ مشارقَها ومغاربَها فلم أجِدْ رجُلاً أفضلَ من محمدٍ، وقَلَبْتُ الأرضَ مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم»(٤). رواه الحاكم والبيهقي.

[٢٩٧٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو بكر، حدثنا عاصم، عن زِرِّ بن حُبيشٍ، عن عبد الله بن مسعود قال: إن الله نظر في قُلوب العباد، فوجد قَلْب محمد ـ ﷺ ـ خَيْرَ قلوبِ العبادِ، فاصطفاه لنفسه، فابتعثَه برسالته. ثم نظر في قُلوب العباد بعد قَلْب محمد ـ ﷺ ـ فوجد قُلُوبَ أصحابه خير قلوب العباد، فَجَعَلَهم

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٢٧٦ والترمذي ٣٦١٠ وأحمد ٤/١٠٧ وأبو يعلى ٧٤٨٥ والبيهقي في «الدلائل» ١/١٦٦.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٥٧ وأبو يعلى ٦٥٥٣ من حديث أبي هريرة.

(٣) حسن. أخرجه أحمد ١/٢١٠ من طريق أبي نعيم به. وإسناده غير قوي لأجل يزيد، وأخرجه الترمذي ٣٥٣٢ و٣٦٠٨ من هذا الوجه عن المطلب بن أبي وداعة قال: جاء العباس إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فكأنه سمع شيئاً فقام النبي ﷺ على المنبر فقال: من أنا. . . فذكره. وقال: هذا حديث حسن غريب.

ويشهد له حديث عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث عند أحمد ٤/١٦٥ ـ ١٦٦ والطبراني في «الكبير» ٢٠/٢٨٦ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٨/٢١٤ ـ ٢١٥ وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

وفي الباب أحاديث انظر «مجمع الزوائد» ٨/٢١٣ ـ ٢١٥.

(٤) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ١/١٧٦ والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١٣٨٢٩ كلاهما من حديث عائشة وقال الهيثمي: فيه موسى بن عبيدة الربذي. وقال البيهقي بعد أن ذكر أحاديث أخر: هذه الأحاديث وإن كان في روايتها من لا تصح به، فبعضها يؤكد بعضاً والله أعلم.

وُزَراء نَبيِّه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمونَ حسناً فهو عندَ الله حَسَنٌ، وما رأوا سَيِّئاً فهو عند الله سَيِّء[1].

[٢٩٧٤] وقال أحمدُ: حَدَّثنا شُجاع بن الوليد قال: ذكر قابوسُ بن أبي ظَبْيَان، عن أبيه، عن سَلْمَان قال: قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ «يا سلمانُ، لا تُبْغِضني فتفارقَ دينك. قلت: يا رسول الله، كيف أُبغِضُك وبِكَ هدانا الله؟ قال: تُبْغِضُ العرب فَتُبغِضُني»[2]. وذكر ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية: ذُكِرَ عن محمد بن منصور الجَوَّاز، حدثنا سُفيانُ، عن ابن أبي حُسَين قال: أبصر رَجُلٌ ابنَ عباس وهو يدخلُ من باب المسجد، فلما نظر إليه راعَه، فقال: من هذا؟ فقالوا: ابنُ عباسٍ ابنُ عمِّ رسول الله ـ ﷺ ـ. قال: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾ . . . الآية، هذا وعيدٌ شديد من الله وتهديدٌ أكيدٌ، لمن تكبر عن اتباع رُسُله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه سَيُصيبه يومَ القيامة بين يدي الله ﴿صَغَارٌ﴾ وهو الذلة الدائمة، كما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذُلاً يوم القيامة لما استكبروا في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي: صاغرين ذَليلين حَقِيرين. وقولُه تعالى: ﴿وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾، لما كان المكرُ غالباً إنما يكون خَفِياً، وهو التلطف في التَّحيُّلِ والخديعة، قُوبلوا بالعذاب الشديد جزاءً وِفَاقاً، ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩]، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق: ٩]، أي: تظهر المستترات والمكنونات والضمائر.

[٢٩٧٥] وجاء في الصحيحين، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «يُنصَبُ لكلِّ غادرٍ لواءٌ عند استِهِ يوم القيامة، فيقال: هذه غَدْرَةُ فلانِ بن فلان»[3]. والحكمةُ في هذا أنه لما كان الغَدْرُ خَفِياً لا يَطَّلِعُ عليه الناسُ، فيوم القيامة يصير عَلَماً مَنشُوراً على صاحبه بما فَعَل.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٢٥﴾

يقول تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾، أي: يُيسِّره له ويُنشِّطه ويُسهِّله لذلك، فهذه علامةٌ على الخير كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢]. . . الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]. قال ابنُ عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾، يقول: «يُوَسِّع قلبه للتوحيد والإيمان به». وكذا قال أبو مالك، وغير واحد. وهوظاهر.

---

(١) موقوف. أخرجه أحمد ١/ ٣٧٩ والطبراني في «الكبير» ٨٥٨٣ وقال الهيثمي في «المجمع» ١/ ١٧٧ ـ ١٧٨: ورجاله موثوقون.

(٢) منكر. أخرجه أحمد ٥/ ٤٤٠ والحاكم ٤/ ٨٦ ح ٦٩٩٥. صححه الحاكم! وتعقبه الذهبي بقوله: قابوس ـ بن أبي ظبيان ـ تكلم فيه اهـ. وجاء في الميزان ٦٧٨٨ كان ابن معين شديد الحط عليه، على أنه قد وثقه، وقال أبو حاتم: لا يحتج به. وقال ابن حبان: رديء الحفظ، ينفرد عن أبيه بما لا أصل له، فربما رفع المرسل، وأسند الموقوف اهـ وهو كما قال ابن حبان، فالمتن منكر، وقد رواه عن أبيه.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٨٦ ومسلم ١٧٣٦ وابن ماجه ٢٨٧٢ وابن حبان ٧٣٤١ والبيهقي ٩/ ١٦٠ من حديث ابن مسعود.

[٢٩٧٦] وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن عَمْرو بن قيس، عن عَمْرو بن مُرّة، عن أبي جعفر قال: سُئِلَ النبيُّ - ﷺ -: أيّ المؤمنين أكيسُ؟ قال: أكثرُهم ذكراً للموت، وأكثرُهم لما بعده استعداداً. قال: وسُئِل النبيُّ - ﷺ - عن هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، قالوا: كيفَ يَشْرَح صدره يا رسول الله؟ قال: نور يُقْذَف فيه، فَيَنْشَرِحُ له ويَنْفَسِحُ. قالوا: فهل لذلك من أمارة يُعرَفُ بها؟ قال: الإنابةُ إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغُرُور، والاستعدادُ للموتِ قبل لقاء الموت[1].

[٢٩٧٧] وقال ابنُ جَرِير: حدثنا هَنّاد، حدثنا قَبيصَةُ، عن سفيان، يعني الثوريّ، عن عمرو بن مُرّة، عن رَجُل يكنى أبا جعفر كان يسكنُ المدائن قال: سُئِل رسول الله - ﷺ - عن قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾، فذكر نحو ما تقدم[2].

[٢٩٧٨] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا ابنُ إدريسَ، عن الحسن بن الفُرات القَزّاز، عن عَمْرو بن مرة، عن أبي جعفر قال: قال رسول الله - ﷺ -: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، قال رسول الله - ﷺ -: «إذا دخل الإيمان القلبَ انفسحَ له القلبُ وانشرحَ صَدْرُه. قالوا: يا رسول الله، هل لذلك من أمارةٍ؟ قال: نعم الإنابةُ إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعدادُ للموتِ قبلَ الموتِ»[3]. وقد رواه ابنُ جرير، عن سَوّارِ بن عبد الله العَنْبَري، حدثنا المعتمر ابن سليمان، سمعتُ أبي يُحدِّث عن عبد الله بن مُرّة، عن أبي جعفر، فذكره.

[٢٩٧٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالد الأحمرُ، عن عَمْرو بن قيس، عن عمرو بن مُرّة، عن عبد الله بن المِسْورِ قال: تلا رسول الله - ﷺ - هذه الآيةَ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، قالوا: يا رسول الله، ما هذا الشرحُ؟ قال: نورٌ يُقذَفُ به في القلب. قالوا: يا رسول الله، فهل لذلك من أمارةٍ تُعْرَفُ؟ قال: نعم. قالوا: وما هِيَ؟ قال: الإنابة إلى دَار الخُلُودِ، والتجافِي عن دارِ الغُرُور، والاستعدادُ للموتِ قبل الموت»[4].

[٢٩٨٠] وقال ابنُ جرير أيضاً: حدثني هلال بن العلاء، حدثنا سعيدُ بن عبد الملك بن واقدٍ، حدثنا محمد بن سَلَمة، عن أبي عبد الرحيم، عن زيد بن أبي أُنيسَة، عن عمرو بن مُرّة، عن أبي عُبَيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إذا دخل النورُ القلبَ انفسحَ وانشرحَ. قالوا: فهل لذلك من علامةٍ يُعرف بها؟ قال: الإنابة إلى دارِ الخلُود، والتنحّي عن دار الغُرُور، والاستعداد للموت قبل لُقِيّ الموتِ»[5].

---

(١) واه بمرة. أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٨٥٢ ومن طريقه الطبري ١٣٨٥٧ و٣٨٥٦ و٣٨٥٨ والبيهقي في «الصفات» ١/٢٥٧ وهذا إسناد ساقط فمع إرساله تابعيه، وهو أبو جعفر المدائني ذكره الذهبي في «الميزان» ٤٦٠٨ فقال: قال أحمد وغيره: أحاديثه موضوعة، وقال النسائي والدارقطني: متروك.

(٢) واه بمرة. أخرجه الطبري ١٣٨٥٨، وانظر الحديث المتقدم.

(٣) واه بمرة. الطبري ١٣٨٥٦ عن أبي جعفر به. وإسناده ساقط.

(٤) أخرجه البيهقي في «الصفات» ١/٢٥٨ بهذا الإسناد، وإسناده ساقط كسابقه، عبد الله بن مسور هو أبو جعفر المدائني نفسه فالروايات المتقدمة كلها تدور على أبي جعفر هذا وهو متهم بالوضع.

(٥) أخرجه الطبري ١٣٨٥٩، وإسناده ساقط. أبو عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود منقطع، وسعيد بن عبد الملك روى موضوعات. وانظر ما بعده.

[٢٩٨١] وقد رواه ابنُ جرير من وجه آخر عن ابن مسعودٍ متَّصلاً مرفوعاً، فقال: حدثني ابنُ سنان القَزّاز، حدثنا محبوب بن الحسن الهاشمي، عن يونس، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، قالوا: يا رسول الله، وكيف يُشْرَح صَدْره؟ قال: يدخل فيه النورُ فينفَسح. قالوا: وهل لذلك علامةٌ يا رسول الله؟ قال: التجافي عن دار الغرور، والإنابةُ إلى دار الخُلُود، والاستعدادُ للموت قبل أن ينزل الموتُ»[١]. فهذه طرق لهذا الحديث مرسَلَةٌ ومتصلة[٢]، يَشُدُّ بعضُها بعضاً، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قرأ بعضهم «ضَيْقاً» بفتح الضاد وتسكين الياء، والأكثرون: ﴿ضَيِّقًا﴾ بتشديد الياء وكسرها، وهما لغتان: كَهْين وهَيِّن. وقرأ بعضهم: ﴿حَرِجًا﴾ بفتح الحاء وكسر الراء، قيل: بمعنى آثم. قاله السدِّيُّ. وقيل: بمعنى القراءة الأخرى ﴿حَرَجًا﴾ بفتح الحاء والراء، وهو الذي لا يَتَّسع لشيء من الهُدَى، ولا يخلُص إليه شيءٌ ما ينفعه من الإيمان ولا ينفُذ فيه.

وقد سأل عمرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مُدْلج: ما الحَرَجَةُ؟ قال: هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصلُ إليها راعية، ولا وَحْشِية، ولا شيء. فقال عُمَر ـ رضي الله عنه ـ: كذلك قلبُ المنافِقِ لا يصل إليه شيء من الخَيْر. وقال العوفي عن ابن عباس: يجعل الله عليه الإِسلام ضَيِّقاً، والإِسلامُ واسعٌ. وذلك حين يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، يقول: ما جعل عليكم في الإِسلام من ضِيقٍ. وقال مجاهد والسدِّي: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾: شاكاً. وقال عطاء الخراساني: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾: ليس للخير فيه منفذٌ. وقال ابن المبارك، عن ابن جُرَيج ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾: بلا إله إلا الله، حتى لا تستطيع أن تدخله، كأنما يَصعَّد في السماء من شِدَّة ذلك عليه. وقال سعيد بن جُبَير: يجعل صَدْرَه ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾، قال: لا يجد فيه مسلكاً إلا صُعُداً. وقال السدِّيُّ: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ من ضيق صَدره. وقال عَطاءُ الخراسانيُّ: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، يقول: مَثَلُه كمثل الذي لا يستطيعُ أن يصعد في السماء. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمَةَ، عن ابن عباس: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، يقول: فكما لا يستطيعُ ابنُ آدم أن يبلغَ السماءَ، فكذلك لا يستطيعُ أن يدخلَ التوحيدُ والإِيمانُ قلبه، حتى يُدخِله الله في قلبه. وقال الأوزاعيُّ: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، كيف يستطيعُ من جعل الله صَدْرَه ضَيِّقاً أن يكون مُسلِماً.

وقال الإِمام أبو جَعفرٍ بنُ جَرِير: وهذا مثل ضَرَبه الله لقلب هذا الكافر في شِدَّةِ تَضْييقه إيّاه عن وُصُولِ الإِيمان إليه، يقول: فمثلُه في امتناعه من قبول الإِيمان وضيقه عن وُصُوله إليه، مثلُ امتناعه من الصُّعود إلى

---

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ١٣٨٦١ بهذا الإسناد وهو معضل بين عبد الرحمن بن عبد الله وجده ابن مسعود وعبد الرحمن هو المسعودي، اختلط. وورد موصولاً أخرجه الحاكم ٤/ ٣١١ ح ٧٨٦٣ والبيهقي في «الشعب» ١٠٥٥٢ وإسناده واه بمرة. سكت عليه الحاكم، وقال الذهبي: عدي بن الفضل، ساقط. وذكره في الميزان ٥٥٩٣ فقال: قال ابن معين وأبو حاتم: متروك، وقال يحيى: لا يكتب حديثه، وقال غير واحد: ضعيف اهـ وله علة ثانية عبد الرحمن بن عبد الله هو المسعودي اختلط بأَخَرَة. فالخبر واه جداً لا حجة فيه والله أعلم.

(٢) ليس كما قال الحافظ رحمه الله، فالمرسل مداره على أبي جعفر المدائني، وكأنه خفي حاله على الحافظ رحمه الله، مع أنه متهم بالكذب كما تقدم آنفاً. وأما حديث ٢٩٧٩ فربما ظهر لابن كثير أنه مرسل آخر، وليس كذلك فإنما هو أبو جعفر المدائني نفسه، وأما حديث ابن مسعود فليس بمتصل كما تقدم بيانه. والطريق المتصل ذكرته، وفيه رجل متروك، فالخبر واهٍ لا يشد بعضه بعضاً خلافاً للحافظ ابن كثير، ثم إن المتن أشبه بكلام الوعاظ. والله أعلم.

السماء وعَجْزِهِ عنه، لأنه ليس في وُسْعِهِ وطاقته. وقال في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، يقول: كما يجعلُ الله صَدْرَ من أراد إضلاله ضَيِّقاً حَرَجاً، كذلك يسلط الله الشيطانَ عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمانَ بالله ورسوله، فيُغويه ويصدُّه عن سبيل الله. قال ابنُ أبي طلحةَ، عن ابن عباس: الرجس: الشيطان. وقال مجاهد: الرجسُ: كلُّ ما لا خير فيه. وقال عبد الرحمن بنُ زيد بن أسلَمَ: الرجسُ: العذابُ.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

لما ذكر تعالى طريقةَ الضالِّين عن سبيله، الصادِّين عنها، نبَّه على أشرفِ ما أرسل به رَسُوله من الهدى ودين الحق، فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ﴾، منصوبٌ على الحال، أي: هذا الدين الذي شَرَعناه لك ـ يا محمد ـ بما أوحينا إليك هذا القرآن، هو صراطُ الله المستقيم.

[٢٩٨٢] كما تقدم في حديث الحارث عن علي في نَعْتِ القرآن: «وهو صراطُ الله المستقيم، وحبلُ الله المتين، وهو الذكرُ الحكيمُ»[(١)]. رواه أحمد والترمذيُّ بطوله. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾، أي: قد وَضَّحناها وبيَّناها وفسَّرناها، ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، أي: لمن له فَهمٌ ووعيٌ يعقل عن الله ورسوله. ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾، وهي: الجنةُ، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ ۖ﴾، أي: يومَ القيامة. وإنما وصَفَ الله الجنةَ هاهنا بدار السلام لسلامتهم فيما سَلَكوه من الصِّراط المستقيم، المقتفي أثَر الأنبياءِ وطرائقهم، فكما سَلِموا من آفاتِ الاعوجاج أفضَوا إلى دار السلام. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾، أي: والسلام ـ وهو الله ـ وليُّهم، أي: حافِظُهم وناصرُهم ومُؤيِّدُهم، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أي: جزاءً على أعمالهم الصالحة تولاَّهم وأثابهم الجنةَ، بمنِّه وكَرَمِه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

يقول تعالى: واذكر ـ يا محمد ـ فيما تقصُّه عليهم وتُذَكِّرهم به ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾، يعني الجنَّ وأولياءهم ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾ الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويعوذُون بهم ويُطيعونهم، ويُوحي بعضُهم إلى بعض زخرفَ القولِ غُروراً: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾، أي ثم يقول: يا معشرَ الجنِّ. وسياقُ الكلام يدلُّ على المحذوف. ومعنى قوله: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾، أي: من إضلالهم وإغوائهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦٢]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾، يعني: أضللتم منهم كثيراً. وكذلك قال مجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾، يعني: أن أولياء الجنِّ من الإنس قالوا مُجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا.

---

(١) تقدم في تفسير سورة الفاتحة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الأشهب هوذة بن خليفة، حدثنا عوفٌ، عن الحسن في هذه الآية قال: استكثر ربُّكم أهلَ النار يوم القيامة، فقال أولياؤهم من الإنس: ربنا استمتعَ بعضُنا ببعض. قال الحسن: وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرَت، وعمِلت الإنسُ. وقال محمَّدُ بن كعبٍ في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾، قال: الصحابة في الدنيا.

وقال ابن جُرَيج: كان الرجلُ في الجاهلية ينزِل الأرضَ، فيقول: «أعوذُ بكبير هذا الوادي». ذلك استمتاعهم، فاعتذروا يوم القيامة. وأما استمتاعُ الجنِّ بالإنس فإنه كان ـ فيما ذكر ـ ما ينال الجنُّ من الإنس من تعظيمهم إياهم في استعاذتهم بهم، فيقولون: قد سُدنا الإنسَ والجنَّ. ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ قال السدِّيُّ: أي الموت. قال: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾، أي: مأواكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، أي: ماكثين فيها مكثاً مُخلَّداً إلا ما شاء الله. قال بعضهم: يرجعُ معنى الاستثناءِ إلى البَرْزَخ: وقال بعضُهم: هذا ردٌّ إلى مُدَّة الدنيا. وقيل غيرُ ذلك من الأقوال التي سيأتي تقريرُها عند قوله تعالى في سورة هُود: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: ١٠٧]. وقد روى ابنُ جَرير وابنُ أبي حاتِم في تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن صالح، كاتبِ اللَّيثِ: حدثني معاويةُ بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾. قال: إن هذه الآية آيةٌ لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خَلْقِه، لا ينزلهم جَنَّةً ولا ناراً.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

قال سعيدٌ، عن قتادةَ في تفسيرها: إنما يُولِّي الله الناسَ بأعمالهم، فالمؤمن وَلِيُّ المؤمن أين كانَ وحيث كانَ، والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلِّي. واختار هذا القول ابنُ جَريرٍ. وقال مَعْمَرٌ، عن قتادةَ في تفسيرها: ﴿نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾، في النار، يَتْبَعُ بعضهم بعضاً. وقال مالك بن دينار: قرأتُ في الزَّبُور: إني أنتقم من المنافقين بالمنافقين، ثم أنتقم من المنافقين جَميعاً، وذلك في كتاب الله وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾. وقال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾، قال: ظالمي الجنِّ وظالمي الإنس، وقرأ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦]، قال: ونُسلِّط ظلمةَ الجنِّ على ظلمة الإنس.

[٢٩٨٣] وقد رَوَى الحافظُ ابن عساكر في ترجمةِ عبد الباقي بن أحمدَ، من طريق سعيد بن عبد الجبار الكرَابيسي، عن حَمَّاد بن سَلَمة، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن ابن مسعود مرفوعاً: «من أعان ظالماً سَلَّطه الله عليه»[1]. وهذا حديث غريبٌ، وقال بعضُ الشعراء:

وما مِن يَدٍ إلا يدُ الله فوقَها ... ولا ظَالِمٍ إلا سَيُبلى بظَالِمِ

ومعنى الآيَة الكريمة: كما وَلَّينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفةَ التي أغْوَتهم من الجنِّ، كذلك

---

(١) باطل. ذكره السخاوي في «المقاصد» ١٠٦٣ وقال: أخرجه ابن عساكر في تاريخه من جهة الحسن بن علي بن زكريا عن سعيد بن عبد الجبار الكرابيسي به. قال: وابن زكريا هو العدوي، متهم بالوضع، فهو آفته، وذكره الديلمي بلا سند عن ابن مسعود. وبالجملة فمعناه صحيح اهـ وهو كما قال السخاوي رحمه الله معناه صحيح، فكل من يعين والياً على ظلم المسلمين، وغير ذلك، فلا بد أن يخزيه الله ويذله سواء على يدي ذاك الظالم أم غيره، نسأل الله السلامة.

نفعلُ بالظالمين، نُسلِّط بعضَهم على بعضٍ، ونُهلِك بعضَهم ببعضٍ، ونَنْتقِم من بَعْضِهم ببعض، جزاءً على ظُلمهم وبَغْيِهم.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

وهذا أيضاً مما يُقَرِّعُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ به كافري الجنِّ والإنس يومَ القيامة، حيث يسألُهم ـ وهو أعلم ـ: هل بَلَّغتهم الرسُلُ رسالاتِه؟ وهذا استفهامُ تقرير: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، أي: من جملتكم. والرسُلُ من الإنس فقط، وليس من الجنِّ رُسُل، كما قد نَصَّ على ذلك مجاهدٌ، وابن جُريج وغيرُ واحد من الأئمة، من السلف والخلف. وقال ابنُ عباس: الرسلُ من بني آدم، ومن الجن نُذُر. وحكى ابنُ جرير، عن الضَّحاك بن مُزاحم: أنه زَعَم أن في الجنِّ رُسُلاً، واحتجَّ بهذه الآية الكريمة، وفي الاستدلال بها على ذلك نظر، لأنها مُحتَملةٌ وليست بصريحةٍ، وهي ـ والله أعلم ـ كقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾، أي: المالح والحلو ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ إلى أن قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ١٩ ـ ٢٢]، ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما يُستخرجان من الملح لا من الحُلوِ. وهذا واضحٌ ولله الحمد. وقد نَصَّ على هذا الجوابِ بعينه ابنُ جَريرٍ. والدليلُ على أن الرسل إنَّما هُم من الإنس قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ إلى أن قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. فحصر النبوةَ والكتابَ بعد إبراهيم في ذُرِّيته، ولم يَقل أحدٌ من الناس: إن النبوةَ كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل، ثم انقطعت عنهم ببعثته. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ومعلوم أن الجنَّ تبع للإنس في هذا الباب، ولهذا قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢].

[٢٩٨٤] وقد جاء في الحديث ـ الذي رواه التِّرمذيُّ وغيره ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ تلا عليهم سورة الرحمن، وفيها قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرحمن: ٣١ ـ ٣٢][1].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾، أي: أقررنا أن الرُّسُلَ قد بلَّغونا رسالاتِك، وأنذرونا لقاءك، وأنَّ هذا اليومَ كائنٌ لا محالَة. وقال تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: وقد فرَّطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم للمعجزات، لما اغترُّوا به مِن زُخرُفِ الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها، ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: يوم القيامة ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾، أي: في الدنيا، بما جاءتْهم به الرُّسُلُ، صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين.

---

(١) سيأتي تخريج الحديث هناك إن شاء الله تعالى، وهو غير قوي.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾، أي: إنما أعذرنا إلى الثَّقَلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب، لئلا نُعاقِب أحداً بظلمه وهو لم تبلغه دعوةٌ، ولكن أعذرنا إلى الأمم، وما عَذَّبنا أحداً إلا بعد إرسال الرُّسُل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: ٨ ـ ٩]، والآيات في هذا كثيرة.

قال الإمام أبو جعفر بنُ جَرِير: ويَحتمِلُ قولُه تعالى ﴿بِظُلْمٍ﴾ وجهين: أحدهما: ذلك من أجل أنَّ ربك لم يكن لِيُهلِكَ القُرَى بظُلم أهلها بالشِّرك ونحوه، وهُم غافلون، يقول: لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعثَ إليهم رسولاً يُنبِّههم على حُجَج الله عليهم، ويُنذِرهم عذابَ الله يوم مَعَادِهم، ولم يكن بالذي يُؤاخِذُهم غفلةً فيقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩]. والوجه الثاني: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾، يقول: لم يكن ربك لِيُهلِكَهُم دونَ التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر، فيظلمهم بذلك، والله غير ظَلاَّم لعبيده. ثم شَرَع يُرَجِّح الوجه الأول، ولا شكَّ أنه أقوى، والله أعلم.

وقال: قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾، أي: ولكلِّ عامل في طاعةِ الله أو مَعْصِيَتِهِ منازلُ ومراتبُ من عَمَلِهِ يُبلِّغه الله إياها، ويُثيبه بها، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌّ. قلت: ويَحتَمِلُ أن يعودَ قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أي: من كافري الجن والإنس، أي: ولِكُلٍّ درجةٌ في النار بحسبه، كقوله: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨]. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، قال ابنُ جَرِير: أي وكُلُّ ذلك من عَمَلِهم ـ يا مُحمَّد ـ بعِلْمٍ من ربِّك، يُحصيها ويُثبِتها لهم عنده، ليجازيَهم عليها عند لقائهم إيَّاه ومعادِهم إليه.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمدُ ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾، أي: عن جميع خَلْقِه من جميع الوُجُوه، وهم الفُقَراء إليه في جَميع أحوالهم، ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، أي: وهو مع ذلك رَحِيمٌ بهم رؤوف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، أي: إذا خالفتم أمره ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ أي: قوماً آخرين، أي: يعملون بطاعته، ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾، أي: هو قادرٌ على ذلك، سَهْلٌ عليه، يَسيرٌ لديه، كما أذهب القرون الأُولى وأتى بالذي بعدها، كَذلِك هو قادرٌ على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٧]. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ

ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]. وقال مُحمَّد بن إسحاق، عن يعقوبَ بن عُتبَة قال: سَمِعْتُ أبانَ بن عثمانَ يقول في هذه الآية: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾: الذرّيةُ: الأصلُ، والذرّيّةُ: النّسْلُ. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ أي: أخبِرهُم ـ يا محمد ـ أن الذي يُوعَدُون به من أمر المعاد كائنٌ لا محالَةَ، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾، أي: ولا تُعجِزُون الله، بل هو قادرٌ على إعادتكم، وإن صِرْتم تراباً رُفاتاً وعظاماً هو قادر لا يُعجِزُه شيءٌ.

[٢٩٨٥] وقال ابن أبي حاتم في تفسيرها: حدثني أبي، حدثنا محمد بن المُصَفّى، حدثنا محمد بن حِمْيَر، عن أبي بكر بن أبي مَرْيَم، عن عطاء بن أبي رَبَاحٍ، عن أبي سعيد الخُدْري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «يا بني آدم، إن كنتم تعقلون فَعُدُّوا أنفسكم من الموتى. والذي نفسي بيده إن ما تُوعَدُون لآتٍ وما أنتم بِمُعجِزين»[١].

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، هذا تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، أي: استَمِرُّوا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنُّون أنكم على هدىً، فأنا مستمرٌ على طريقي ومَنْهَجِي، كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود: ١٢١ ـ ١٢٢]. وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أي: ناحِيَتِكم. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: أتكون لي أو لكم. وقد أنجز مَوْعودَهُ له ـ صلوات الله عليه ـ فإنه تعالى مَكَّن له في البلاد، وحَكَّمه في نواصي مخالفيه من العباد، وفَتَح له مكة، وأظهَرَه على من كَذَّبه من قومه وعاداه وناوأه، واستقرَّ أمرُه على سائر جَزيرة العَرَب، وكذلك اليمن والبحرين، وكلُّ ذلك في حياته. ثم فُتِحت الأمصار والأقاليم والرَّساتيقُ بعد وفاته في أيام خُلَفائه، ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين. كما قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١ ـ ٥٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى إخباراً عن رسله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]. . . الآية، وقد فَعَل الله تعالى ذلك بهذه الأمة المحمدية، وله الحمدُ والمنّةُ أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

---

(١) ضعيف، أخرجه البيهقي في «الشعب» ١٠٥٦٤ بهذا الإسناد، لكن بأتم منه، وهو ضعيف لأجل أبي بكر بن أبي مريم. قال الذهبي في «الميزان» ١٠٠٦: ضعيف عندهم. ضعفه أحمد وغيره لكثرة ما يغلط، وقال ابن حبان: رديء الحفظ، لا يحتج به إذا انفرد اهـ وشيخه محمد بن حِمير غير قوي.

هذا ذمّ وتوبيخٌ من الله تعالى للمشركين الذي ابتدَعُوا بِدَعاً وكُفراً وشِرْكاً، وجعلوا له جُزءاً من خلقه، وهو خالقُ كلِّ شيءٍ، سبحانه وتعالى عما يشركون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾، أي: مما خَلَق وبَرَأ ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾ أي: من الزروع والثمار ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾، أي: جُزءاً وقِسْماً، ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾. وقوله: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾، قال عليُّ بن أبي طلحةَ، والعوفيُّ، عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآيةِ: إن أعداءَ الله كانُوا إذا حَرَثوا حَرْثاً، أو كانت لهم ثمرةٌ، جعلُوا لله منه جُزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثَمرة أو شيءٍ من نصيب الأوثان حَفِظوه وأحصَوه. وإن سقطَ منه شيءٌ فيما سُمّي للصَّمد رَدُّوه إلى ما جَعلُوه للوثَنِ. وإن سَبَقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جَعَلُوه لله جَعَلُوا ذلك للوثن. وإن سقط شيء من الحَرْثِ والثَّمَر التي جعلوا لله فاختلط بالذي جَعَلوه للوثن، قالوا: هذا فقير. ولم يَرُدوه إلى ما جَعَلُوه لله. وإن سَبَقهم الماءُ الذي جَعَلُوه لله، فسقى ما سُمّي للوثن، تَرَكُوه للوثن، وكانوا يُحَرِّمون من أموالهم البَحِيرة والسائبة والوَصِيلَة والحام، فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يُحَرِّمونه قربة لله، فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ . . . الآية. وهكذا قال مجاهدٌ، وقتادةُ، والسدِّيُّ، وغيرُ واحدٍ. وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَم في تفسيرها: كلُّ شيءٍ جَعَلوه لله من ذِبْح يذبحونه، لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا مَعَه أسماء الآلهة. وما كان للآلهة لم يذكُروا اسمَ الله معه، وقرأ الآية حتى بَلَغ: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾. أي: ساء ما يقسمون، فإنهم أخطؤوا أوّلاً في القسمة، فإن الله تعالى هو ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه وخالقُه، وله الملك، وكلُّ شيءٍ له وفي تَصَرُّفه وتحت قُدْرته ومشيئته، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه. ثم لما قَسَمُوا فيما زعموا لم يحفظوا القسمةَ التي هي فاسدةٌ، بل جَارُوا فيها، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [الزخرف: ١٥]. وقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢١ ـ ٢٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

يقول تعالى: وكما زَيَّنتِ الشياطينُ لهؤلاء المشركين أن جعلوا لله مما ذَرَأ من الحَرْثِ والأنعام نصيباً، كذلك زَيَّنُوا لهم قتلَ أولادهم خشيةَ الإملاق، ووأدَ البنات خشيةَ العار. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾، هم زَيَّنوا لهم قَتْل أولادهم.
وقال مجاهد: شركاؤهم: شياطينهم، يأمرُونهم أن يَئِدُوا أولادَهم خشيةَ العَيْلة. وقال السدِّيُّ: أمرتهم الشياطينُ أن يَقتُلوا البناتِ وأمّا ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ فيهلكوهم، وأمّا ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾، فَيَخْلِطُوا عليهم دِينَهُم. ونحوَ ذلك قال قتادةُ، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسْلَم. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ [النحل: ٥٨ ـ ٥٩] الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩]. وقد كانوا أيضاً يقتلون الأولاد من الإملاق، وهو الفقر؛ أو خَشيَةَ الإملاق أن يحصُلَ لهم في تلف المال، وقد نهاهم عن قَتْلِ أولادهم لذلك، وإنما كان هذا كله من شرع الشيطان وتَزيِينه لهم ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾، أي: كلُّ هذا واقعٌ بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كوناً، وله الحكمة التامة في ذلك، فلا يُسأل عما يَفعل وهم يُسألون.

﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، أي: فَدَعْهُم واجتَنِبهم وما هُم فيه، فَسَيحكُم الله بينك وبينهم.

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

قال علي بن أبي طَلْحَة، عن ابن عباس: الحِجْرُ: الحَرَامُ، ما حَرَّموا من الوصيلة، وتحريم ما حَرَّموا.. وكذلك قال مجاهدٌ، والضحاكُ، والسديُّ، وقتادةُ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ. وقال قتادة: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾... الآية: تحريمٌ كان عليهم من الشياطين في أموالهم، وتغليظٌ وتشديدٌ، وكان ذلك من الشياطين، ولم يَكُن من الله تعالى. وقال ابنُ زيد بن أسلَمَ: ﴿حِجْرٌ﴾، إنما احتَجرُوها لآلهتهم. وقال السديُّ: ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾، يقولون: حَرام أن نُطعِم إلا من شِئْنا. وهذه الآيةُ الكريمةُ كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩]. وكقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣]. وقال السديُّ: أما أنعامٌ حُرِّمت ظهورُها فهي البَحِيرةُ والسائبةُ والحامِ، وأما الأنعامُ التي لا يَذكُرون اسم الله عليها، قال: لا إذا أولدوها، ولا إن نَحروها.

وقال أبو بكر بن عَيّاش، عن عاصم بن أبي النَّجودِ، قال لي أبو وائل: تَدْرِي ما في قوله: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾؟ قلت: لا. قال: هي البحيرةُ، كانوا لا يَحُجُّون عليها. وقال مجاهد: كان من إبلهم طائفةٌ لا يَذكُرون اسمَ اللهِ عليها ولا في شيءٍ من شأنها، لا إن ركبوا، ولا إن حَلَبُوا، ولا إن حَمَلوا، ولا إن سَحَبوا، ولا إن عَمِلُوا شيئاً. ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾، أي: على الله، وكَذِباً منهم في إسنادِهم ذلك إلى دين الله وشَرْعِهِ، فإنه لم يَأْذَن لهم في ذلك ولا رَضِيه منهم، ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: أي: عليه، ويُسْنِدُون إليه.

﴿وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾

قال أبو إسحاقَ السَّبِيعيُّ، عن عبد الله بن أبي الهُذَيل، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾... الآية، قال: اللبن. وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾... الآية، فهو اللَّبن، كانوا يُحَرِّمونه على إناثهم، ويشرَبه ذُكرانهم. وكانت الشاةُ إذا وَلَدت ولداً ذكراً ذَبَحوه، وكان للرجال دون النساء. وإن كانت أنثى تُركت فلم تُذبَح، وإن كانت مَيْتةً فهم فيه شركاء. فَنَهى الله عن ذلك. وكذا قال السدّيُّ. وقال الشعبيُّ: البحيرةُ لا يأكُل من لَبَنِها إلا الرجالُ، وإن مات منها شيءٌ أكلَه الرجالُ والنساءُ. وكذا قال عكرمةُ، وقتادةُ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسْلَم.

وقال مجاهدٌ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾، قال: هي السائبةُ والبَحِيرةُ. وقال أبو العاليةِ، ومجاهدٌ، وقتادةُ في قوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾، أي: قَوْلَهم الكَذِب في ذلك. يعني كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ﴾ [النحل: ١١٦ ـ ١١٧]... الآية. ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾، أي: في أفعاله وأقواله وشَرْعِهِ، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما قال عبادُه من خَيرٍ وشرٍّ، وسَيَجزيهم على ذلك أتمَّ الجزاءِ.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

يقول تعالى: قد خَسِر الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة، أمّا في الدنيا فَخسِروا أولادَهم بقتْلِهم، وضَيَّقُوا عليهم في أموالهم، فَحَرَّموا أشياءَ ابتدعُوها من تِلْقَاءِ أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل بِكَذِبهم على الله وافترائهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٦٩ ـ ٧٠].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن أيّوب، حدثنا عبد الرحمن بن المبارك، حدثنا أبو عَوَانة، عن أبي بشر، عن سَعيد بن جُبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إذا سَرَّك أن تعلَمَ جَهلَ العرب فاقرأْ ما فوق الثلاثين والمئةَ من سورةِ الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾[1]. وهكذا رواه البخاريُّ منفرداً في كتاب مناقب قُرَيش من صَحِيحه، عن أبي النعمان مُحمَّد بن الفضل عارمٍ، عن أبي عوانَةَ ـ واسمه الوَضَّاح بن عبد الله اليشكُريُّ ـ عن أبي بشرٍ ـ واسمه جَعفرُ بن أبي وَحْشِيَّةَ بن إياس ـ به.

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾

يقول تعالى مبيناً أنّه الخالقُ لكلِّ شيءٍ من الزُّروع والثِّمار والأنعام، التي تَصرفَ فيها هؤلاء المشركون بآرائهم الفاسدةِ وقَسموها وجَزَّؤوها، فجعَلُوا منها حراماً وحَلالاً، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾. قال علي بن أبي طَلْحَةَ، عن ابن عباس: مَعْرُوشاتٍ: مَسْمُوكاتٍ. وفي رواية: فالمعروشاتُ ما عَرَش الناسُ. وغيرَ معروشاتٍ: ما خَرَج في البَرِّ والجبالِ من الثمرات. وقال عطاء الخُرَاسانيُّ، عن ابن عباس: معروشاتٍ: ما عُرِش من الكرم. وغير مَعْرُوشاتٍ: ما لم يُعْرَشْ من الكَرْم. وكذا قال السدّيُّ. وقال ابن جُرَيج: ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾، قال: مُتَشابهاً في المنظر، وغير مُتَشابه في الطَّعم. وقال محمد بن كعب: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾، قال: من رُطبه وعِنَبه. وقولُه تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ﴾، قال ابن جرير: قال بعضهم: هي الزكاة المفروضة. حدثنا عمرو، حدثنا عبد الصمد حدثنا يزيدُ بنُ درهم قال: سمعتُ أنسَ بنَ مالكٍ يقول: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ﴾، قال: الزكاةُ المفروضةُ. وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ﴾، يعني الزكاةَ المفروضةَ، يومَ يُكَال ويعلمُ كيلُه. وكذا قال سعيدُ بن المسيِّب. وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ﴾، وذلك أنَّ الرجلَ كان إذا زَرَع فكان يومُ حصادِهِ، لم يُخرِج مما حَصَد شيئاً فقال الله: ﴿وَءَاتُواْ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٢٤.

حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾، وذلك أن يَعْلَم ما كيلُه وحَقُّهُ، من كلِّ عَشَرةٍ واحداً، وما يَلْقُطُ الناس من سنبله.

[٢٩٨٦] وقد رَوَى الإمام أحمد، وأبو داود في سُنَنه، من حديث مُحمَّد بن إسحاق: حدثني محمد ابن يحيى بن حَبَّانَ، عن عَمِّه واسع بن حَبَّانَ، عن جابر بن عبد الله. أنَّ النبي ـ ﷺ ـ أمَرَ من كُلِّ جادٍّ عَشَرَة أوسُق من التمر، بقِنْو يُعلَّق في المسجدِ للمساكين[١]. وهذا إسناد جَيِّدٌ قويٌّ. وقال طاووس، وأبو الشعثاءِ، وقتادةُ، والحسنُ، والضحّاك، وابن جُرَيج: هي الزكاةُ. وقال الحسنُ البصريُّ: هي الصدَقَةُ من الحَبِّ والثِّمار. وكذا قال ابنُ زيدِ بن أسلَمَ. وقال آخرون: هو حَقٌّ آخَرُ سِوَى الزَّكاةِ: قال أشعثُ عن محمد بن سيرينَ، ونافع عن ابن عُمَرفي قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾، قال: كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة. ورواه ابن مَرْدَوَيه. وروى عبد الله بن المبارك وغيرُه، عن عبد الملك بن أبي سُلَيمان، عن عَطَاءِ بن أبي رَبَاح في قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾، قال: يُعطي من حَضَره يَوْمَئذٍ ما تَيسَّرَ، وليس بالزكاة. وقال مجاهدٌ: إذا حَضَرك المساكين طَرَحْتَ لهم منه. وقال عبد الرزاق، عن ابن عُيَينةَ، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾، قال: عند الزَّرع يُعطِي القَبْضَ، وعند الصِّرام يُعطي القَبْض، ويتركهم فيتَّبِعُونَ آثار الصِّرام. وقال الثوريّ، عن حَمّاد، عن إبراهيم قال: يُعطِي مثلَ الضِّغْثِ. وقال ابنُ المبارك، عن شَريك، عن سالم، عن سعيد بن جُبَير ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾، قال: كان هذا قبل الزكاة، للمساكين القبضةُ، والضغثُ لعَلَف دابَّته.

[٢٩٨٧] وفي حديث ابنِ لهيعة، عن دَرَّاج، عن أبي الهيثَم، عن أبي سَعِيد مرفوعاً: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾، قال: «ما سقَطَ من السُّنْبل»[٢]. رواه ابن مَرْدُويه.

وقال آخرون: هذا شيءٌ كان واجباً، ثم نَسَخه الله بالعُشْر أو نصف العشر. حكاه ابنُ جَرِير عن ابن عباس، ومحمد بن الحنفيَّة، وإبراهيمَ النَّخعيّ، والحَسَن، والسّديّ، وعطيةَ العَوْفيّ، واختاره ابنُ جَرير، ـ رحمهم الله ـ. قلتُ: وفي تَسميةِ هذا نسخاً نظرٌ، لأنه قد كان شيئاً واجباً في الأصل، ثم إنه فُصِّلَ بيانه وبُيِّن مقدارُ المُخرَجِ وَكمِّيتُه. قالوا: وكان هذا في السنة الثانية من الهِجْرَةِ، فالله أعلم.

وقد ذَمَّ الله سبحانه الذين يَصْرِمُون ولا يتصدَّقُونَ، كما ذُكِر عن أصحاب الجَنَّةِ في سُورَةِ (ن): ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾، أي: كالليل المُدْلَهِمّ سوداء محترقة، ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾، أي: قُـوّة وَجَـلـد وهِمـة ﴿قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ قيل: معناه: ولا تُسْرِفوا في الإعطاء، فتُعطوا فوقَ المعروفِ، قال أبو العاليةَ: كانوا يعطُون يومَ الحَصَادِ شيئاً، ثم تبارَوا فيه وأسرَفُوا، فأنزل الله: ﴿وَلَا

---

(١) حسن. أخرجه أبو داود ١٦٦٢ وأحمد ٣/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠ وأبو يعلى ٢٠٣٨، ورجاله رجال الصحيح غير أن ابن إسحاق مدلس وقد صرح بالتحديث في رواية أحمد فانتفت شبهه التدليس.

(٢) إسناده ضعيف. له علتان ضعف ابن لهيعة. ودرّاج وبخاصة في روايته عن أبي الهيثم العتواري. فإنه روى عنه مناكير كثيرة.

تُسْرِفُوٓا۟﴾. وقال ابن جُرَيج: نزلت في ثابت بن قَيس بن شَمَّاسٍ، جَدَّ نَخلاً له. فقال: لا يأتيني اليوم أحدٌ إلاّ أطعمته. فأطعم حتى أمسى وليسَتْ له ثمرةٌ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾. رواه ابنُ جَرير، عنه. وقال ابن جُرَيج، عن عطاءٍ: ينهَى عن السَّرَفِ في كُلِّ شيء. وقال إياسُ بن معاوية: ما جاوَزْتَ به أمرَ الله فهو سَرَفٌ. وقال السدِّيّ في قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾، قال: لا تعطوا أموالكم، فتَقعُدوا فُقَراء. وقال سَعِيد بن المسيَّبِ، ومحمَّد بن كعب، في قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾، قالا: لا تمنَعوا الصدقة فَتعصُوا ربكم. ثم اختار ابنُ جَرِير قول عطاءٍ: إنه نَهْيٌ عن الإسراف في كلِّ شيء. ولا شك أنه صحيحٌ، لكن الظاهر ـ والله أعلم ـ من سياق الآية حيثُ قال الله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ أن يكون عائداً إلى الأكل، أي: ولا تُسْرِفوا في الأكل لما فيه من مَضَرَّةِ العقلِ والبَدَنِ، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]... الآية.

[٢٩٨٨] وفي صحيح البخاري تعليقاً: «كُلُوا واشرَبُوا والبَسُوا وتَصدَّقُوا، في غير إسرافٍ ولا مَخيلةٍ»(١)، وهذا من هذا، والله أعلم. وقولُه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾، أي: وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حَمُولةٌ وما هو فَرْشٌ، قيل: المراد بالحَمُولةِ ما يُحمَلُ عليه من الإبل، والفَرْشِ الصِّغارُ منها. كما قال الثَّوريُّ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوصِ، عن عبد الله في قوله: ﴿حَمُولَةً﴾: ما حُمل عليه من الإبل، ﴿وَفَرْشًا﴾ قال: الصِّغارُ من الإبل. رواه الحاكمُ وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال ابنُ عباس: الحمولةُ هي الكِبار، والفَرْشُ الصِّغار من الإبل. وكذا قال مجاهد. وقال عليُّ بن أبي طلحَةَ، عن ابن عَبَّاس: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾، فأما الحَمُولةُ فالإبل والخيل والبغال والحمير، وكلُّ شيء يُحمَلُ عليه، وأما الفرشُ فالغَنَمُ. واختاره ابنُ جرير، قال: وأحسَبه إنما سُمِّي فرشاً لدنوه من الأرض. وقال الربيعُ بن أنَسٍ، والحسن، والضحاك، وقتادةُ وغيره: الحمولةُ الإبل والبقر، والفرشُ الغنمُ. وقال السدِّيّ: أما الحَمُولة فالإبل، وأما الفرش فالفُصْلان والعَجَاجِيل والغَنَم. وما حُمل عليه فهو حَمُولة. وقال عبدُ الرحمن بنَ زيدِ بن أسلَمَ: الحَمُولَةُ ما تركَبُونَ، والفرشُ ما تأكلون وتَحلِبُونِ، شاةٌ لا تحمل، تأكلون لحمها، وتَتَّخِذُونَ من صُوفِها لحافاً وفِراشاً.

وهذا الذي قاله عبدُ الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حَسَنٌ يشهدُ له قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٦٦﴾ [النحل: ٦٦]، إلى أن قال: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٨٠ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ۝٨١﴾ [غافر: ٧٩ ـ ٨١]. وقولُه تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: من الثمار والزُّرُوع والأنعام، فكُلُّها خلقها الله تعالى وجعَلَها رزقاً لكم،

---

(١) حسن، ذكره البخاري قبل ح ٥٧٨٣ معلقاً بصيغة الجزم، ووصله الطيالسي ٢٢٦١ فقال: حدثنا همام عن رجل عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً، وزاد «فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». وهذا فيه رجل لم يسم، لكن أسنده البيهقي في «الشعب» عن رجل ـ قال ـ أظنه قتادة. ثم كرره من وجه آخر عن همام عن قتادة عن عمرو بن شعيب به، وهذا إسناد حسن رجاله كلهم ثقات معروفون، وكرره ٤٥٧١ عن همام عن قتادة عن عمرو به. وللحديث شواهد كثيرة تقويه. وانظر ما قاله الحافظ في الكلام عليه ١٠/٢٥٣.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، أي طرائقِه وأوامِره كما اتّبعها المشركونَ الذين حرّموا ما رزقهم الله، أي: من الثمار والزروع افتراءً على الله، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ﴾، أي: إن الشيطان ـ أيها الناس ـ لكم ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، أي: بيّن ظاهر العَداوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧]. . . الآية، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]. والآيات في هذا كثيرةٌ في القرآن.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

وهذا بيانٌ لجهل العَرَب قبل الإسلام فيما كانوا حرّموا من الأنعام، وجعلوها أجزاءً وأنواعاً: بحيرة، وسَائِبَةً، وَوَصيلةً، وحَامياً، وغيرَ ذلك من الأنواع التي ابتدَعُوها في الأنعام والزروع والثمار، فبيّن أنه تعالى أنشأ جناتٍ معروشاتٍ وغيرَ معروشاتٍ، وأنه أنشأ من الأنعام حَمُولَةً وفرشاً. ثم بين أصنافَ الأنعام إلى غَنَم وهو بياض وهو الضأن، وسواد وهو المعز، ذكره وأنثاه، وإلى إبل ذكورها وإناثها، وبقر كذلك. وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ولا شيئاً من أولادها، بل كُلُّها مخلوقةٌ لبني آدم، أكلاً، وركوباً، وحمولة، وحَلْباً، وغير ذلك من وُجوهِ المنافع، كما قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]. . . الآية. وقولُه تعالى: ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، رَدٌّ عليهم في قولهم: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾. وقولُه تعالى: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: أخبروني عن يقين: كيف حَرَّم الله عليكم ما زعمتُم تحريمه من البحيرة والسائبةِ والوَصِيلة والحام ونحو ذلك؟!.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: قولُه تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ فهذه أربعة أزواج، ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، يقول: لم أُحرِّم شيئاً من ذلك ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، يعني هل يشتمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى فلم تحرمون بعضاً وتحلون بعضاً؟. ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، يقول تعالى: كُلُّه حلال. وقولُه: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾، تهكُّمٌ بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله، من تحريم ما حرّموه من ذلك، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: لا أحد أظلم منه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وأول من دخل في هذه الآية عَمرو بن لُحَيّ بن قَمَعَةَ، لأنه أول من غَيّر دينَ الأنبياءِ، وأول من سَيَّبَ السوائب، وَوَصَلَ الوَصِيلةِ، وحَمَى الحاميَ[1]، كما ثَبتَ ذلك في الصحيح.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ

(١) مضى في سورة المائدة.

﴿خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً عبدَه ورسُولَه محمداً ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ. ﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء الذين حَرَّموا ما رَزَقَهم الله افتراءً على الله: ﴿لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾، أي: آكل يأكُلُه. قيل: معناه: لا أجد شيئاً مما حَرَّمتم حراماً سوى هذه. وقيل: معناه لا أجِدُ شيئاً من الحيوانات حَرَاماً سوى هذه، فَعَلَى هذا يكون ما وَرَد من التحريمات بعد هذا في سورةِ «المائدةِ»، وفي الأحاديثِ الواردةِ، رافعاً لمفهوم هذه الآية. ومنَ الناس من يُسمِّي ذلك نسخاً، والأكثرون من المتأخرين لا يسمُّونه نسخاً، لأنه من باب رَفْعِ مباحِ الأصل، والله أعلم. وقال العَوفيُّ، عن ابن عَبَّاس: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾، يعني: المُهَرَاقَ. وقال عكرمة في قوله: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾: لولا هذه الآية لتتبعَ الناس ما في العُرُوق كما تَتَبَّعه اليهود. وقال حَمّاد، عن عمران بن حُدَير قال: سألت أبا مِجْلِزٍ عن الدم، وما يتلطخ من الذبح من الرأس، وعن القِدْر يُرَى فيها الحُمْرَة، فقال: إنما نَهَى الله عن الدَّمِ المسفوح. وقال قتادةُ: حَرِّم من الدماء ما كان مسفوحاً، فأما لحم خالطَه دمٌ فلا بَأْسَ به. وقال ابنُ جرير: حَدَّثنا المثنى، حدثنا حَجّاج ابن منهالٍ، حدثنا حَماد، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم، عن عائشة: أنها كانت لا ترى بلُحُوم السباع بأساً، والحمرةِ والدَّمِ يكونان في أعلى القدر بأساً، وقَرَأَتْ هذه الآية. صحيح غريبٌ.

[٢٩٨٩] وقال الحُمَيديُّ: حدثنا سفيان، حدثنا عَمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن عبد الله: إنهم يزعمُون أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ نهى عن لُحوم الحُمُر الأهلية زَمَن خَيْبَرَ، فقال: قد كان يقول ذلك الحكَمُ بنُ عَمْرو، عن رسول الله ـ ﷺ ـ، ولكن أبى ذلكَ البحرُ ـ يعني ابنَ عباسٍ ـ وقرأ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ . . . الآية[1]. وكذا رواه البخاريُّ عن علي بن المَدِيني، عن سفيانَ، به. وأخرجه أبو داود من حديث ابن جُرَيج، عن عمرو بن دينار. ورواه الحاكم في مستدركه مع أنه في صحيح البخاري، كما رأيت.

[٢٩٩٠] وقال أبو بكر بن مَرْدُويه والحاكِمُ في مُستدرَكِه: حدثنا محمَّد بنُ علي بن دُحيم، حدثنا أحمدُ بن حازم، حدثنا أبو نُعَيم الفضل بن دُكَين، حدثنا محمد بن شريك، عن عَمرو بن دينارٍ، عن أبي الشعثاء، عن ابن عباس قال: كان أهلُ الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تَقَذُّراً، فبعث الله نبيَّه وأنزلَ كِتابَهُ، وأحلَّ وحَرَّم حرامه، فما أحلَّ فهو حلالٌ، وما حَرَّم فهو حَرَامٌ، وما سَكَت عنه فهو عَفْوٌ، وتلا هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ . . . إلى آخر الآية[2]. وهذا لفظ ابن مَرْدُويه، ورَوَاه أبو داودَ منفرداً به، عن محمد بن داودَ بن صبيح، عن أبي نُعَيمٍ، به. وقال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد ولم يُخرجاه.

[٢٩٩١] وقال الإمام أحمد: حدثنا عَفّان، حدثنا أبو عَوَانَةَ، عن سِمَاك بن حَرْبٍ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ماتت شاةٌ لسودةَ بنت زَمْعَة، فقالت: يا رسول الله، ماتت فلانةُ ـ تعني الشاة ـ قال: فَلَولا أَخَذتُم مَسْكها؟. قالت: نأخذُ مَسْك شاةٍ قد ماتت؟! فقال لها رسول الله ـ ﷺ ـ: إنما قال الله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٢٩، لكن عنده عن عمرو بن دينار عن جابر بن زيد بدل جابر عبد الله. وأخرجه أبو داود ٣٨٠٨ من طريق ابن جريج عن عمرو بن دينار قال أخبرني رجل عن جابر بن عبد الله. . . فذكره.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ٣٨٠٠ والحاكم ٤/ ١١٥ وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

أوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾، وإنكم لا تَطْعَمُونه، أن تَدبَغُوه فتَنتَفِعُوا به. فأرسَلَت فَسلَخت مَسْكَها فَدَبَغته، فاتَّخَذَتْ منه قِرْبَةً، حتى تَخرَّقت عندها[1]. ورواه البخاريّ والنسائي، من حديث الشعبيّ، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن سَودَةَ بنت زَمْعَةَ، بذلك أو نحوه.

[٢٩٩٢] وقال سعيدُ بن منصور: حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن عيسى بن نُميلَة الفَزاريّ، عن أبيه قال: كنتُ عند ابن عُمَر، فسأله رجلٌ عن أكْلِ القُنفُذِ، فقرأ عليه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾... الآية، فقال شيخٌ عنده: سمعتُ أبا هُرَيرة يقول: ذُكِر عند النبي ـ ﷺ ـ فقال: «خَبِيثَةٌ من الخبائِثِ». فقال ابن عُمَر: إن كان النبي ـ ﷺ ـ قاله فهو كما قال[2]. ورواه أبو داودَ عن أبي ثور عن سَعِيد بن منصور، به.

وقولُه تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، أي: فمن اضطر إلى أكْلِ شيءٍ مما حرم الله في هذه الآية الكريمة، وهو غير مُتَلبِّسٍ ببغيٍ ولا عدوان، ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: غفورٌ له، رحيمٌ به. وقد تَقدَّم تفسير هذه الآية في سورة البقَرة بما فيه كفاية. والمقصودُ من سياقِ هذه الآيةِ الكريمةِ الردُّ على المشركينَ الذين ابتدَعوا ما ابتدَعُوه، من تحريم المحرَّمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البَحِيرة والسَّائبة والوَصِيلة والحام ونحو ذلك، فأمر رسولَه أن يُخبِرَهم أنه لا يَجدُ فيما أوحاه الله إليه أن ذلك مُحرَّم، وإنما حُرِّم ما ذكر في هذه الآية، من الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ لغير الله به. وما عدا ذلك فلم يُحرَّم، وإنما هو عفوٌ مسكوتٌ عنه، فكيف تزعُمون أنتُم أنه حَرامٌ، ومن أين حَرَّمتموه ولم يحرِّمه؟ وعلى هذا فلا يَنفي تحريم أشياءَ أُخَرَ فيما بعدَ هذا، كما جاء النهيُ عن لحومِ الحُمُر الأهلية ولحومِ السباع، وكلِّ ذي مِخْلَبٍ من الطير، على المشهورِ من مذاهبِ العُلَماءِ.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ الْحَوَايَآ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)﴾

قال ابنُ جَرير: يقولُ تعالى: وحرمنا على اليهود كل ذي ظفر، وهو من البهائم والطير ما لم يَكُن مشقوقَ الأصابع، كالإبل والنعام والإوَزّ والبَطّ. قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾، وهو البعيرُ والنعامةُ. وكذا قال مجاهد والسدّي في روايةٍ. وقال سعيد بن جُبَير: هو الذي ليس بمنفرج الأصابع ـ وفي رواية عنه: كلُّ شيءٍ مُتَفرِّق الأصابع، ومنه الدِّيكُ. وقال قتادةُ في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾. وكان يقال: البعيرُ والنعامة وأشياء من الطير والحيتان. وفي رواية: البعير والنعامة، وحَرَّم عليهم من الطير البطَّ وشبهَه، وكلَّ شيء ليس بمشقوق الأصابع. وقال ابنُ جُرَيج، عن مجاهد: ﴿كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾، قال: النعامةُ والبعيرُ، شَقّاً شَقّاً. قلت للقاسم بن أبي بَزّةَ وحَدَّثَنيه: ما شَقّاً شَقّاً؟ قال: كلُّ ما لم ينفرج من قوائم البهائم. قال: وما انفرج أكَلَتْه اليهود؟ قال:

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري وغيره، وتقدم.

(٢) ضعيف، أخرجه أبو داود ٣٧٩٩ والبيهقي ٩/ ٣٢٦، وإسناده ضعيف، فيه عيسى بن نميلة عن أبيه، وكلاهما مجهول كما في التقريب. والشيخ الذي أخبرهم عن أبي هريرة لم يسمّ أيضاً. قال البيهقي: فيه ضعف، ولم يرو إلا بهذا الإسناد. وذكره الحافظ في «تلخيص الحبير» ٢٠٠٧ ونقل عن القفال قوله: إن صح الخبر فهو حرام، وإلا رجعنا إلى العرب، والمنقول عنهم أنهم كانوا يستطيبونه، وقال غيره: هذا الشيخ مجهول. وقال الخطابي: ليس إسناده بذاك اهـ باختصار.

انفرجَتْ قوائم البهائم والعصافير، قال: فيهودُ تأكلها. قال: ولم تَنفَرِجْ قائمةُ البعير ـ خُفّهُ ـ ولا خُفّ النعامة ولا قائمة الوَزِّ، فلا تأكلُ اليهود الإبلَ ولا النعامَ ولا الوَزّ، ولا كلُّ شيءٍ لم تَنفَرِج قائمتُه، ولا تأكلُ حِمَارَ وَحْشٍ. وقولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾، قال السدّيُّ: يعني الثَّرْبَ وشَحْمَ الكُلْيَتَيْنِ. وكانت اليهود يقولون: إنه حَرّمه إسرائيل، فنحن نُحَرّمه. وكذا قال ابنُ زيد. وقال قتادةُ: الثَّرْبُ وكلُّ شَحْمٍ كان كذلكَ ليس في عظم.

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾: يعني ما عَلِق بالظهر من الشُّحوم. وقال السدّيُّ وأبو صالح: الألْيَةُ مما حَمَلَت ظهورُهما. وقولُه تعالى: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾، قال الإمامُ أبو جَعفرِ بنُ جَرير: الحوايا جَمْعٌ، واحدُها حاوياءُ، وحاويةٌ، وحَويّةٌ وهو ما تَحَوّى من البطن فاجتمع واستدار، وهي بَنَاتُ اللبن، وهي المباعرُ، وتسمى المرابِضَ، وفيها الأمعاءُ. قال: ومعنى الكلام: ومن البقر والغنم حَرّمنا عليهم شُحُومَهما، إلا ما حَمَلَت ظِهُورهما، أو ما حَمَلَتِ الحوايا. وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: أو الحوايا، وهي المِبْعَرُ. وقال مجاهد: «الحوايا المِبْعَرُ، والمَرْبِضُ» وكذا قال سعيد بن جُبَير، والضّحّاك، وقتادةُ، وأبو مالك، والسدّيُّ. وقال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسْلَم: ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾، المرابِضُ التي تكونُ فيها الأمعاء، تكون وَسَطها، وهي بنات اللبن، وهي في كلام العرب تُدعَى المَرَابِضَ. وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾، أي: وإلا ما اختلط من الشُّحومِ بالعظام فقد أحْلَلناه لهم. قال ابن جُرَيج: شحمُ الألْية اختلَطَ بالعُصْعُصِ فهو حلال. وكلُّ شيءٍ في القوائم والجَنْبِ والرأس والعين وما اختلط بعظم، فهو حلال. وَنحوَه قال السديُّ. وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾، أي: هذا التَّضييقُ إنما فعلناه بهم وألزمناهم به، مجازاةً لهم على بَغْيهم ومخالفتهم أوامرنا، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾. وقولُه: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، أي: وإنا لعادلون فيما جازيناهم به. وقال ابنُ جَرير: وإنّا لصادقون فيما أخبرناك به ـ يا محمّد ـ من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زَعَموا من أن إسرائيل هو الذي حَرّمه. والله أعلم.

[٢٩٩٣] وقال عبد الله بن عباس: بَلَغ عُمَرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن سَمُرَةَ باع خمراً، فقال: قاتل الله سَمُرَةَ! ألم يعلم أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لعن الله اليهودَ، حُرِمت عليهم الشحومُ فَجَمَلُوها فباعوها»[1]. أخرجاه من حديث سفيانَ بن عُيَيْنَةَ، عن عَمْرو بن دينار، عن طاووسَ، عن ابن عَبّاسٍ، عن عُمَر، به.

[٢٩٩٤] وقال الليثُ: حدثني يزيدُ بن أبي حَبيب قال: قال عطاءُ بن أبي رَبَاح: سَمِعتُ جابرَ بن عبد الله يقول: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول عامَ الفتح: «إنّ الله ورسولَه حَرّم بيع الخَمر والمَيْتَةِ والخنزير والأصنام. فقيل: يا رسول الله، أرأيت شُحُوم الميتة، فإنه يُدهَنُ بها الجلود ويُطلَى بها السفن، ويَسْتَصبح بها الناس. فقال: لا، هو حَرَام. ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ عند ذلك: قاتل الله اليهودَ، إن الله لمّا حَرّم عليهم شُحُومَها جمَلُوه، ثم باعوه وأكلوا ثمنه»[2]. ورواه الجماعة من طرق، عن يزيد بن أبي حَبِيب، به.

[٢٩٩٥] وقال الزُّهرِيُّ، عن سَعيد بن المسيّب، عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قاتل الله

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٢٢٣ ومسلم ١٥٨٢ والنسائي ٧/ ١٧٧ وأحمد ١/ ٢٥ وأبو يعلى ٢٠٠.

(٢) تقدم في سورة المائدة، برقم ٢٤٢٧.

اليهودَ! حُرِّمت عليهم الشحومُ، فباعوه وأكلوا ثَمَنه»[١]. ورواه البخاريُّ ومسلم جميعاً، عن عبدانَ، عن ابن المبارك، عن يُونُسَ، عن الزهريِّ، به.

[٢٩٩٦] وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن إسحاقَ، حدثنا سُلَيمان بن حَرْب، حدثنا وُهَيبٌ، حدثنا خالد الحذَّاءِ، عن بركة أبي الوليد، عن ابن عَبَّاسٍ: أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان قاعداً خَلْف المقام، فَرَفع بَصَره إلى السماء فقال: «لعن الله اليهودَ ـ ثلاثاً ـ إن الله حَرَّم عليهم الشُّحُوم، فباعوها وأكلوا أثمانها. وإن الله لم يُحَرِّم على قوم أكْلَ شيءٍ إلا حَرَّم عليهم ثَمَنه»[٢].

[٢٩٩٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، أنبأنا خالد الحَذَّاء، عن بَرَكَةَ أبي الوليد، أنبأنا ابنُ عباس قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ قاعداً في المسجد مستقبلاً الحِجْرَ، فنظر إلى السماء فَضَحِكَ فقال: «لَعَنَ الله اليهودَ، حُرِّمت عليهم الشحومُ فباعوها وأكلوا أثمانها، وإنَّ الله إذا حَرَّم على قومٍ أكْلَ شيءٍ حَرَّم عليهم ثَمَنه»[٣]. وَرَواه أبو داود، من حَدِيث خالدِ الحَذَّاءِ.

[٢٩٩٨] وقال الأعمشُ، عن جامع بن شَدَّاد، عن كُلثوم، عن أُسامَةَ بن زيدٍ قال: دخلنا على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو مريض نَعُوده، فوجدناه نائماً قد غُطِّي وجهه بِبُرْدٍ عَدَنيٍّ، فكشَفَ عن وجهه وقال: «لعنَ الله اليهودَ، يُحَرِّمون شحومَ الغَنَمِ ويأكلون أثمانها»، وفي رواية: «حُرِّمَت عليهم الشحومُ فباعوها وأكلوا أثمانها»[٤].

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

يقول تعالى: فإن كذبّك ـ يا محمد ـ مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم، فقل: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ وهذا ترغيبٌ لهم في ابتغاءِ رحمةِ الله الواسعة، واتِّباع رسوله، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ترهيبٌ لهم في مُخَالفتهم الرسولَ خاتَمَ النبيين. وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج: ١٢ ـ ١٤]. والآياتُ في هذا كثيرةٌ جداً.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٢٢٤ ومسلم ١٥٨٣ وأحمد ١/ ٢٤٧.

(٢) إسناده صحيح، وانظر ما بعده.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ١/ ٣٢٢ وأبو داود ٣٤٨٨ وابن حبان ٤٩٣٨ والبيهقي ٦/ ١٣ ـ ١٤ من طرق عن خالد الحذاء به وإسناده صحيح وأصله عند مسلم برقم: ١٥٧٩.

(٤) أخرجه الحاكم ٤/ ١٩٤ من طريق الأعمش به، وصححه، ووافقه الذهبي، مع أن في الإسناد كلثوم الخزاعي، وهو مقبول. أي حيث يتابع، وقد توبع على اللفظ المرفوع، دون صدره الفعلي.

يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

هذه مناظرةٌ ذكرها الله تعالى، وشُبهةٌ تشبَّثَ بها المشركون في شِرْكهم وتحريم ما حَرَّموا: فإن الله مُطَّلِع على ما هُم فيه من الشِّرك والتحريم لما حَرَّموه، وهو قادرٌ على تغييره بأن يُلْهِمَنا الإيمان، أو يَحُولَ بيننا وبين الكفر، فلم يُغَيِّره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه مِنّا ذلك، ولهذا قال: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]. . . الآية، وكذلك الآية التي في «النّحل» مثل هذه سواء قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: بهذه الشبهة ضَلَّ مَن ضلَّ مِن قبل هؤلاء. وهي حُجَّةٌ داحضة باطلة، لأنها لو كانت صحيحةً لما أذاقهُم الله بأسه، ودمَّر عليهم، وأدال عليهم رُسُلَه الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام. ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾، أي: بأن الله راضٍ عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾، أي: فتُظهِرُوه لنا وتُبَيِّنوه. وتُبرزُوه، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾، أي: الوهمَ والخيال. والمرادُ بالظن هاهنا الاعتقادُ الفاسدُ، ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي: تكذِبون على الله فيما ادَّعيتُموه. قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾، فإنهم قالوا: عبادتُنا الآلهة تُقرِّبنا إلى الله زلفى. فأخبرَهُم الله أنها لا تُقرِّبهم، وقولُه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾، يقول تعالى: لو شئتُ لجمعتُهم على الهدى أجمعين.

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾، يقول تعالى لنبيه ـ ﷺ ـ: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾، أي: له الحكمة التامة والحجة البالغة في هدايةِ مَن هدَى، وإضلال من أضلَّ، ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وكلُّ ذلك بقدرته ومَشِيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضَى عن المؤمنين، ويُبغِضُ الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]. وقولـه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]. قال الضحاك: لا حُجَّةَ لأحد عَصَى الله، ولكن لله الحجةُ البالغةُ على عباده. وقولُه تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾، أي: أحضِرُوا شهداءكم ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾، أي: هذا الذي حرمتموه وكَذَبتُم وافتريتم على الله فيه، ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾، أي: لأنهم إنما يشهدُون ـ والحالة هذه ـ كذباً وزوراً، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، أي: يشركون به، ويجعلُون له عَدِيلاً.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾

قال داودُ الأوديُّ، عن الشعبيِّ، عن علقمةَ، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: من أراد أن يقرأ صحيفةَ رسول الله ـ ﷺ ـ التي عليها خاتَمه، فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وقال الحاكمُ في مستدرَكه: حدثنا بكرُ بن محمد الصيرفيُّ

بمَرْوَ، حدثنا عبدُ الصَّمَد بنُ الفَضلِ، حدثنا مالك بن إسماعيلَ النَّهديُّ، حدثنا إسرائيلَ، عن أبي إسحاقَ، عن عبد الله بن خَلِيفةَ قال: سَمِعتُ ابنَ عَبّاس يقول: إنَّ في الأنعام آياتٍ محكماتٍ هنَّ أم الكتاب، ثم قرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ . . . الآيات، ثم قالَ: صحيحُ الإِسنادِ، ولم يخرجاه. قلت: ورواه زُهَير وقَيس بن الربيع، كِلاهما عن أبي إسحاقَ، عن عبد الله بن قَيسٍ، عن ابن عباس، به. فالله أعلم.

[٢٩٩٩] وروى الحاكمُ أيضاً في مُستَدْرَكِه من حديث يزيد بن هارون، عن سُفيانَ بن حُسَين، عن الزهريِّ، عن أبي إدريسَ، عن عُبادة بن الصامتِ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أيكم يُبايِعُني على ثلاث؟ ثم تلا رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، حتى فرَغ من الآيات. فمن وَفَى فأجره على الله، ومن انتقَصَ منهنَّ شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبتَه، ومن أُخِّر إلى الآخرة فأمرهُ إلى الله، إن شاء عَذَّبه وإن شاء عفا عنه»[١]. ثم قال: صحيح الإِسناد، ولم يخرجاه، وإنما اتفقا على حديث الزُّهري، عن أبي إدريس، عن عُبادَةَ: «بايعوني على أن لا تُشركوا بالله شيئاً . . .» الحديث. وقد روى سفيان بن حُسَين كلا الحديثين، فلا ينبغي أن ينسب إلى الوهم في أحد الحديثين إذا جَمَع بينهما، والله أعلم[٢].

وأما تفسيرها فيقولُ تعالى لنبيه ورسوله محمد ـ ﷺ ـ: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين الذين عَبَدوا غَير الله، وحَرَّموا ما رَزَقَهم الله، وقَتَلُوا أولادَهم، وكلُّ ذلك فَعَلُوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿تَعَالَوْا﴾، أي: هَلُمُّوا وَأَقْبِلوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾، أي: أَقُصُّ عليكم وأُخبِرُكم بما حَرَّم ربُّكم عليكم حقاً لا تَخرُّصاً ولا ظَنّاً، بل وَحياً منه وأمراً من عنده: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ﴾، وكأن في الكلام محذوفاً دل عليه السياق، وتقديره: وأوصاكم ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وكما قال الشاعر:

حَجَّ وأوصَى بسُلَيمى الأعْبُدَا ... أنْ لا تَرَى ولا تُكَلِّمْ أحَدا
ولا يَزَل شَرابُها مُبَرَّدا

وتَقول العربُ: أمرتك أن لا تَقُومَ.

[٣٠٠٠] وفي الصحيحين من حديث أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أتاني جبريلُ فَبَشَّرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك دَخَل الجنة. قلت: وإن زَنَى وإن سَرَق؟ قال: وإن زنى وإن سَرَق قلت: وإن زَنَى وإن سَرَق؟ قال: وإن زَنَى وإن سَرَق. قلت: وإن زَنَى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، وإن شَرِب الخمر». قلت: وفي بعض الروايات أن القائل ذلك إنما هو أبو ذَرٍّ لرسول الله ـ ﷺ ـ، وأنه ـ عليه السلام ـ قال في الثالثة: «وإن رَغِمَ أنفُ أبي ذَرٍّ». فكان أبو ذَرٍّ يقول بعد تمام الحديث: «وإن رَغِم أنفُ أبي ذَرٍّ»[٣].

[٣٠٠١] وفي بعض المسانيد والسُّنن عن أبي ذَرٍّ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: يقولُ الله تعالى: «يا ابنَ آدمَ، إنك ما دعوتَني ورجَوتني فإنيّ أغفرُ لك على ما كان منكَ ولا أُبالي، ولو أتيتَني بقُراب الأرض خطيئةً أتيتك بِقُرابها مَغفِرةً ما لم تُشرِكْ بي شيئاً. وإن أخطأتَ حتى تبلُغَ خطَاياكَ عَنانَ السَّماءِ ثم استغفرتني، غَفرتُ

---

(١) أخرجه الحاكم ٢/٣١٨ وصححه! ووافقه الذهبي، وإسناده ضعيف لضعف سفيان بن حسين في الزهري. وانظر ما تقدم في النساء آية: ٥٩.

(٢) إلى هنا كلام الحاكم في «المستدرك».

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٨٢٧ ومسلم ٩٤ ح ١٥٤ وأحمد ٥/١٦٦.

لك»[١]. ولهذا شاهدٌ في القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

[٣٠٠٢] وفي صحيح مسلم عن ابن مسعودٍ: «من مات لا يُشرِك بالله شيئاً، دَخَل الجنة»[٢]. والآياتُ والأحاديثُ في هذا كثيرةٌ جداً.

[٣٠٠٣] وروى ابن مَرْدُويه من حديث عُبَادَة وأبي الدرداءِ: «لا تُشرِكُوا بالله شيئاً، وَإِنْ قُطِّعْتُم أو صُلِبتم أو حرِقتم»[٣].

[٣٠٠٤] وقال ابنُ أبي حاتِمٍ: حدثنا مُحمَّد بن عوف الحِمْصي، حدثنا ابنُ أبي مريَمَ، حدثنا نافع ابن يزيدَ، حدثني سَيَّار بن عبد الرحمٰن، عن يزيد بن قَوْذَرٍ، عن سلمة بن شُرَيح، عن عُبادة بن الصامت قال: أوصانا رسول الله ـ ﷺ ـ بسبع خِصَالٍ: «ألا تشركوا بالله شيئاً، وإن حُرِّقتم وقُطِّعتم وصُلِبتم»[٤].

وقولُه تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، أي: وأوصاكم وأمَرَكُم بالوالدين إحساناً، أي: أن تُحسنوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقرأ بعضُهم: «وَوَصَّى ربُّك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحساناً». والله تعالى كثيراً ما يَقْرِن بين طاعته وبرِّ الوالدين، كما قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٤ ـ ١٥]. فأمر بالإحسان إليهما وإن كانا مُشرِكَين يَحْتَسِبهما، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]... الآية، والآيات في هذا كثيرةٌ.

[٣٠٠٥] وفي الصحيحين عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «سألتُ رسول الله ـ ﷺ ـ: أيُّ العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاةُ على وقتها قلت: ثم أيٌّ؟ قال: برُّ الوالدين. قلت: ثم أيٌّ؟ قال: الجهادُ في سبيل الله. قال ابنُ مسعود: حَدَّثني بهنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ ولو استزدتُه لزادني»[٥].

[٣٠٠٦] وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه بسنده عن أبي الدرداء، وعن عُبادة بن الصامت، كلٌّ منهما

---

(١) حسن. أخرجه أحمد ٥/ ١٧٢ والبغوي في «التفسير» ٤٥٣ من طريق شهر بن حوشب عن معد يكرب. عن أبي ذر به، وأخرجه أحمد ٥/ ١٥٤ من طريق شهر عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي ذر به، وفي إسناده ضعف لأجل شهر بن حوشب، ومعدي كرب لم أجد من ذكر أنه يروي عن أبي ذر إلا أنه توبع وله شاهد من حديث أنس أخرجه الترمذي ٣٥٣٥ واستغربه وفي إسناده لين لأجل كُثير بن فائد، ويحسن حديثه بالمتابعة وله شاهد آخر من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني ١٢٣٤٦، وانظر «صحيح مسلم» ٢٦٨٧.

(٢) هكذا جاء في صحيح مسلم برقم ٩٢ من كلام ابن مسعود وذلك حديث مرفوع ولفظه «سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار، وقلت أنا: ومن مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة» هكذا استدل ابن كثير رحمه الله بالموقوف، مع أن مسلماً رحمه الله أسنده عقبه (٩٣) عن جابر مرفوعاً. وقد جاء مرفوعاً عن جماعة من الصحابة فالاستدلال بالمرفوع أولى، والله الموفق.

(٣) لم أقف على إسناده. وانظر ما بعده فله شاهدان.

(٤) أخرجه الطبراني كما في «المجمع» ٧١١٤، وإسناده ضعيف. فيه سلمة بن شريح ذكره الذهبي في «الميزان» ٣٤٠٢ وقال: عن عبادة بن الصامت، لا يُعرف اهـ وله شاهد بعد حديث عن أبي الدرداء وعن أميمة.

(٥) تقدم في سورة البقرة عند آية: ٨٣.

يقول: أوصاني خَلِيلي ـ ﷺ ـ: «أَطِعْ والدِيكَ، وإن أَمَراكَ أن تَخرُجَ لهما من الدنيا فافعَلْ»[١]. ولكن في إسنادَيهما ضعفٌ، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لَمَّا أوصى تعالى ببرِّ الآباء والأجداد، عَطَف على ذلك الإحسانَ إلى الأبناءِ والأحفادِ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾، وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سَوَّلت لهم الشياطينُ ذلك، فكانوا يَئِدُون البناتِ خشيةَ العار، وربما قتلوا بعضَ الذكور خَشيةَ الافتقار.

[٣٠٠٧] ولهذا جاء في الصحيحين، من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قلتُ: يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظمُ؟ قال: أن تجعلَ لله نِدّاً وهو خَلَقَك. قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: أن تقتل ولدَكَ خشية أن يَطْعَمَ معك. قلت: ثم أيٌّ؟ قال: أن تُزانيَ حَليلة جارِك. ثم تلا رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾[٢]... الآية. وقوله تعالى: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾، قال ابنُ عباس، وقتادةُ، والسُّدِّي: هو الفقر. أي: ولا تقتلوه من فقركم الحاصل، وقال في سورة «سبحان»: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: خشيةَ فقرٍ في الآجل، ولهذا قال هناك: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]، فبدأ بِرِزْقِهِم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فَقْرِكم بسببهم، فَرِزقُهم على الله، وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلاً، قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، لأنه الأهمُ هاهنا، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣]. وقد تقدَّم تفسيرُها عند قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

[٣٠٠٨] وفي الصَّحِيحَين عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا أحد أغيرُ من الله، من أجل ذلك حَرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بَطَن»[٣].

[٣٠٠٩] وقال عبد الملك بن عُميرَ، عن وَرَّادٍ، عن مولاه المغيرة قال: «قال سعدُ بن عُبادة: لو رأيتُ مع امرأتي رَجُلاً لضربته بالسيف غير مُصْفَح. فبلغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: أتعجبون من غَيْرَة سَعْدٍ؟! فوالله لأنا أغيرُ من سَعْدٍ، والله أغيرُ مني، من أجل ذلك حَرَّمَ الفواحش ما ظهر منها وما بَطَنَ»[٤] أخرجاه.

[٣٠١٠] وقال كامل أبو العلاء، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة قال: قيل: يا رسول الله، إنا نغارُ. قال: «والله إني لأغارُ، والله أغيرُ مِنِّي، ومن غَيْرَتِهِ نَهى عن الفواحش»[٥]. رواه ابن مَرْدُويه، ولم يخرجه أحدٌ من أصحاب الكتب السِّتة، وهو على شَرْطِ الترمذيِّ:

[٣٠١١] فقد رَوَى بهذا السَّنَدِ: «أعمارُ أُمَّتي ما بين الستين إلى السبعين»[٦].

---

(١) حديث عبادة بن الصامت هو المتقدم قبل حديث. وأما حديث أبي الدرداء، فأخرجه الطبراني كما في «المجمع» ٧١١٥ وقال الهيثمي: فيه شهر بن حوشب، وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات. وله شاهد أخرجه الطبراني ٢٤/ ١٩٠ من حديث أميمة مولاة رسول الله ﷺ، وقال الهيثمي في «المجمع» ٧١١٧: فيه يزيد بن سنان الرهاوي وثقه البخاري وغيره، والأكثر على تضعيفه اهـ.

(٢) تقدم في سورة البقرة عند آية: ٢٢ و١٦٥.

(٣) تقدم في سورة النساء عند آية: ١٦٥.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٧٤١٦ ومسلم ١٤٩٩ والبيهقي في «الأسماء والصفات» ٦٣٠.

(٥) في إسناده كامل بن العلاء أبو العلاء، وثقه يحيى، ولينه النسائي، وضعفه ابن حيان. فالحديث فيه ضعف، والله أعلم.

(٦) يأتي في سورة فاطر عند آية: ٣٧ إن شاء الله.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، وهذا مما نصَّ تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيداً، وإلاّ فهو داخلٌ في النهي عن الفَوَاحِشِ ما ظَهَر منها وما بطن.

[٣٠١٢] فقد جاء في الصَّحِيحين، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يحلُّ دَمُ امرىءٍ مسلِم يشهدُ أن لا إله إلاّ الله وأنّي رسولُ الله إلاّ بإحدى ثلاثٍ: الثيِّبُ الزاني، والنَّفسُ بالنَّفس، والتاركُ لِدِينه المفارقُ للجماعَةِ». وفي لَفْظٍ لمسلم: «والذي لا إله غيرُه لا يحلُّ دمُ رجلٍ مسلمٍ»(١)... وذكره، قال الأعمش: فَحَدَّثتُ به إبراهيم، فَحَدَّثني عن الأسود، عن عائشة، بمثله.

[٣٠١٣] وَرَوَى أبو داودَ والنسائيُّ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا يحلُّ دَمُ امرىءٍ مسلم إلاّ بإحدى ثلاثِ خصالٍ: زانٍ محصَن يُرْجَمُ، ورجلٌ قَتَل رجلاً مُتَعَمِّداً فيُقتَلُ، ورجلٌ يخرُج من الإسلام حارَب الله ورسوله، فيُقتَلُ أو يُصلَبُ أو يُنفى من الأرض»(٢)، وهذا لفظ النسائي.

[٣٠١٤] وعن أمير المؤمنين عثمانَ بن عَفَّان ـ رضي الله عنه ـ أنه قال وهو محصُورٌ: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا يحلّ دمُ امرىءٍ مسلم إلاّ بإحدى ثلاث: رجل كَفَر بعد إسلامه، أو زَنَى بعد إحصانه، أو قَتَل نفساً بغير نفس». فوالله ما زنيتُ في جاهليَّةٍ ولا إسلام، ولا تَمَنَّيتُ أن لي بديني بدلاً منه بعد إذْ هداني الله، ولا قتلتُ نفساً، فَبِم تَقتُلونني؟»(٣). رواه الإمامُ أحمد، والترمذيّ، والنسائيّ، وابن ماجه. وقال الترمذيُّ: هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وقد جاء النهيُ والزَّجْرُ والوعيدُ في قتل المُعاهد ـ وهو المستأمن من أهْلِ الحرب.

[٣٠١٥] كما رواه البخاريّ، عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من قتل مُعاهَداً لم يَرَحْ رائحةَ الجَنَّةِ وَإنَّ ريحها تُوجَدُ من مسيرة أربعين عاماً»(٤).

[٣٠١٦] وعن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من قَتَل معاهَداً له ذمَّةُ الله وذمَّةُ رسولِه، فقد أخفَرَ بذمَّةِ الله، فلا يَرَحْ رائِحَةَ الجنة، وإنَّ ريحها لَيُوجَدُ من مَسِيرةِ سبعينَ خريفاً»(٥). رواه ابن ماجه، والترمذي وقال: حسن صحيح. وقولُه: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: هذا ما وصَّاكم به لعلكم تَعْقِلُون عنه أمْرَه ونَهْيَه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

---

(١) تقدم في سورة النساء عند آية: ٩٢.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ٤٣٥٣ والنسائي ٧/ ٩٠ وأحمد ٦/ ١٨١ من طريقين من حديث عائشة.
وأخرجه النسائي ٧/ ٩١ وأحمد ٦/ ٢٠٥ وأبو يعلى ٤٦٧٦ من وجه آخر من حديث عائشة بنحوه.

(٣) حسن. أخرجه الترمذي ٢١٥٨ والنسائي في «الكبرى» ٣٤٨٢ وابن ماجه ٢٥٣٣ وأحمد ١/ ٦٥ وصححه الحاكم ٤/ ٣٥٠ على شرطهما، ووافقه الذهبي وقال الترمذي: حديث حسن. وهو كما قال.

(٤) أخرجه البخاري ٣١٦٦ والنسائي ٨/ ٢٥ وابن ماجه ٢٦٨٦ وأحمد ٢/ ١٨٦.

(٥) حسن. أخرجه الترمذي ١٤٠٣ وابن ماجه ٢٦٨٧ وأبو يعلى ٦٤٥٢ وقال الترمذي: حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ اهـ. مع أن في إسناده معدي بن سليمان ضعفه النسائي وغيره، وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد. ومع ذلك يتأيد بما قبله، وفي الباب أحاديث.

[٣٠١٧] قال عطاءُ بنُ السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠]... الآية، فانطلق من كان عنده يَتِيم فَعزَل طعامَه من طعامِه وشرابَه من شَرَابِه، فجعل يَفضُل الشيءُ فيُحبَسُ له حتّى يأكلَه، ويفسُدَ. فاشتدَّ ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠][١]، قال: فخلطوا طعامَهم بطعامهم، وشرابَهم بشرابِهم، رواه أبو داود.

وقولُه تعالى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾، قال الشعبيُّ، ومالك، وغيرُ واحد من السلف: يعني حتى يحتَلِمَ. وقال السدِّيُّ: حتى يبلُغَ ثلاثين سنة. وقيل: أربعونَ سنةً، وقيل: ستونَ سنةً. قال: وهذا كلُّه بَعِيدٌ هاهنا، والله أعلم. وقولُه تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾، يأمرُ تعالى بإقامةِ العَدْلِ في الأخذ والإعطاء، كما توَعَّد على تَرْكِهِ في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ١ ـ ٦]. وقد أهلك الله أمةً من الأمم كانوا يَبْخَسُون المكيال والميزان.

[٣٠١٨] وفي كتاب الجامع لأبي عيسى الترمذيِّ، من حَديث الحُسَين بن قيس أبي علي الرَّحَبِيِّ، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابِ الكَيْلِ والميزانِ: «إنكم وُلِّيتُم أمراً هَلَكَتْ فيه الأمم السالفة قبلكم»[٢]. ثم قال: «لا نعرفه مرفُوعاً إلاّ من حديث الحُسَين، وهو ضعيفٌ في الحديث، وقد رُوِي بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفاً».

[٣٠١٩] قلتُ: وقد رواه ابن مَرْدُويه في تفسيره، من حديث شريك، عن الأعمَشِ، عن سالم بن أبي الجَعْدِ، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنكم ـ معشَرَ الموالي ـ قد بَشَّركم الله بخَصْلَتَينِ بهما هَلَكت القرون المُتقدِّمة: المكيالِ والميزانِ»[٣]. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أي: مَنِ اجتهَدَ في أداءِ الحَقِّ وأخْذِه، فإن أخطأ بعدَ استفراغِ وُسْعِه وبَذْلِ جُهْدِه فلا حَرَج عليه.

[٣٠٢٠] وقد روى ابن مَرْدُويه من حديث بَقِيَّة، عن مُبَشِّر بن عُبَيد، عن عمرو بن ميمون بن مهران، عن أبيه، عن سعيد بن المُسَيّب قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، فقال: من أوفى على يَدِه في الكَيلِ والميزان، والله يعلَمُ صِحَّةَ نِيَّتِهِ بالوفاء فيهما، لم يُؤاخَذْ. وذلك تأويلُ ﴿وُسْعَهَا﴾[٤]، هذا مرسلٌ غريبٌ. وقولُه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ كما قال

---

(١) تقدم الحديث هناك..

(٢) أخرجه الترمذي ١٢١٧ والبيهقي في «الشعب» ٥٢٨٨. وضعفه الترمذي بقوله: لا نعرفه إلا من حديث حسين ابن قيس، وهو يضعَّف في الحديث، وروي عن ابن عباس بإسناد صحيح موقوفاً اهـ وقد توبع حسين على هذا الحديث فانظر ما بعده.

(٣) ظاهره الصحة فإن رجاله ثقات كلهم. لكن أخرجه البيهقي في «الشعب» ٥٢٨٧ عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن كريب عن ابن عباس موقوفاً من قوله، وقد جعل واسطة بين سالم وابن عباس، فعلة المرفوع إما من سالم، فإنه وإن كان ثقة لكنه يرسل كثيراً، أو من شريك، فإنه لما تولى القضاء ساء حفظه، فالراجح في هذا الحديث الوقف كما ذهب إليه الترمذي. والله أعلم.

(٤) باطل. عزاه أيضاً السيوطي في «الدر» ٣/ ١٠٥ لابن مردويه عن ابن المسيب، وهذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف، لكن مراسيل ابن المسيب قوية، لو صح إليه السند، وههنا لم يصح، فإن فيه مبشر بن عبيد الحمصي. جاء في الميزان

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨] وكذا التي تشبهها في سورة النساء، يأمر تعالى بالعدل في الفِعَال والمَقَال، على القَرِيب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكلِّ أحَدٍ، في كلِّ وقتٍ، في كُلِّ حالٍ. وقولُه: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾، قال ابنُ جَرير: يقول وَبِوصِيَّةِ الله التي أوصاكم بها فأَوفُوا، وإيفاءُ ذلك أنْ تُطِيعوه فيما أمركم ونَهَاكم، وتعمَلُوا بكتابِه وسُنَّةِ رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله. ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، يقول تعالى: هذا وَصَّاكُم به، أو أمَرَكُم به، وأكّد عليكم فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: تتّعِظُون وتنتهُون عما كنتم فيه قبل هذا، وقرأ بعضُهم بتشديد الذَّالِ، وآخرون بتخفيفها.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس قولُه تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، وقولُه: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، ونحو هذا في القرآن. قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفُرْقةِ، وأخبرهم أنه إنما هَلَك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله. ونحوُ هذا قاله مجاهد، وغيرُ واحدٍ.

[٣٠٢١] وقال الإمام أحمدُ بن حَنبلٍ: حدثنا الأسودُ بن عامر ـ شاذانُ ـ حدثنا أبو بكر ـ هو ابن عَيَّاش ـ عن عاصم ـ هُوَ ابن أبي النَّجُود ـ عن أبي وائل، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود، ـ رضي الله عنه ـ قال: خطَّ رسول الله ـ ﷺ ـ خطّاً بيده، ثم قال: «هذا سبيلُ الله مستقيماً»، وخطَّ عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السُّبُلُ ليس منها سبيلٌ إلاّ عليه شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[1]. وكذا رواه الحاكمُ، عن الأصمِّ، عن أحمدَ ابن عبد الجبَّارِ، عن أبي بكر ابن عَيَّاشٍ، به. وقال: صحيحُ الإسناد ولم يخرجاه. وهكذا رواه أبو جعفر الرازيُّ، وورْقاءُ، وعَمْرُو بن أبي قَيسٍ، عن عاصم، عن أبي وائل شَقِيقِ بن سَلَمة، عن ابنِ مسعود به، مرفوعاً نحوَهُ. وكذا رواه يزيدُ بن هارون ومسدَّد والنَّسائي، عن يحيى بن حَبِيب بن عَرَبيّ، وابنُ حبان من حديث ابن وهب، أربعتهم عن حَمَّاد بن زيد، عن عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، به. وكذا رواه ابنُ جرير، عن المثنى، عن الحِمَّاني، عن حَمَّادِ بن زيد، به. ورواه الحاكم عن أبي بكر بن إسحاق، عن إسماعيل بن إسحاقَ القاضي، عن سليمان بن حَرْبٍ، عن حَمَّاد بن زيد، به كذلك، وقال: صحيح ولم يخرجاه. وقد رَوَى هذا الحديث النسائي والحاكمُ، من حديث أحمد بن عبد الله بن يونس، عن أبي بكر بن عَيَّاشٍ، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن عبد الله بن مَسْعودٍ، به مرفوعاً. وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه من حديث يحيى الحِمَّانيّ، عن أبي بكر بن عياشٍ، عن عاصمٍ، عن زِرٍّ، به. فقد صَحَّحه الحاكم كما رأيت من الطريقين، ولَعلَّ هذا الحديثَ

٧٠٥٢: قال أحمد: كان يضع الحديث، وقال البخاري: روى عنه بقيةُ، منكر الحديث. اهـ والمتن غريب جداً، فهو باطل. والله تعالى أعلم.

(١) جيد. أخرجه أحمد ١/ ٤٦٥ والحاكم ٢/ ٢٣٩ من طريقين عن أبي بكر بن عياش به، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وأخرجه النسائي في «الكبرى» ١١١٧٤ والطيالسي ٢٤٤ وأحمد ١/ ٤٣٥ والدارمي ١/ ٦٧ ـ ٦٨ وابن حبان ٦ و٧ والحاكم ٢/ ٣١٨ والبزار ٢٤١٠ من طرق عن حماد بن زيد عن عاصم به، وإسناده حسن لأجل عاصم. وأخرجه النسائي في «الكبرى» ١١١٧٥ من طريق زر بن حبيش عن ابن مسعود. وله شاهد من حديث جابر، وهو الآتي.

عندَ عاصم بن أبي النجود، عن زِرٍّ، وعن أبي وائل شَقِيقِ بن سلمة، كلاهما عن ابن مسعود، به. والله أعلم.

[٣٠٢٢] وقال الحاكم: وشاهدُ هذا الحديثِ حديثُ الشعبيِّ عن جابر، من وجه غير معتمد، يشير إلى الحديث الذي قال الإمام أحمد وعبدُ بن حُمَيد جميعاً ـ واللفظ لأحمد ـ: حدثنا عبد الله بن محمد ـ وهو أبو بكر بن أبي شَيبة ـ أنبأنا أبو خالد الأحمر، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: كنّا جلوساً عند النبي ـ ﷺ ـ فخطَّ خطّاً هكذا أمامه، فقال: «هذا سبيلُ الله». وخَطَّين عن يمينه، وخَطَّين عن شِماله، وقال: «هذه سُبُلُ الشيطان». ثم وَضَع يَدَه في الخطِّ الأوسط، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[(١)]. ورواه ابنُ ماجه في كتاب السُّنّةِ من سُنَنِه، والبزّارُ عن أبي سعيدٍ عبد الله بن سعيد، عن أبي خالدِ الأحمر، به.

[٣٠٢٣] قلت: ورواه الحافظُ بن مَرْدويه من طريقين، عن أبي سعيد الكِنديّ، حدثنا أبو خالد، عن مجالد، عن الشعبيّ، عن جابر قال: خَطَّ رسول الله ـ ﷺ ـ خطّاً، وخَطَّ عن يمينه خطّاً، وخَطَّ عن يساره خطّاً، ووضع يده على الخطِّ الأوسطِ، وتلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ﴾[(٢)]. ولكن العُمدَةَ على حديث ابن مسعود، مع ما فيه من الاختلاف إن كان مُؤثِّراً، وقد رُوي موقوفاً عليه. قال ابنُ جرير: حدثنا مُحمَّد بن عبد الأعلى، حدثنا محمدُ بن ثَورٍ، عن مَعْمَرٍ، عن أبانَ بن عثمان: أن رجلاً قال لابن مسعود: ما الصراطُ المستقيمُ؟ قال: تَرَكَنا محمد ـ ﷺ ـ في أدناه، وطرفهُ في الجَنّة، وعن يمينه جَوادٌ، وعن يساره جَوادٌ، وثَمَّ رجالٌ يدعُون من مَرَّ بهم. فمن أخذ في تلك الجوادِّ انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة. ثم قرأ ابنُ مسعودٍ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾... الآية. وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا أبو عمرو، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، حدثنا آدم، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا أبان بن أبي عَيَّاش، عن مُسْلِم بن أبي عِمْران، عن عبد الله بن عُمَر: سأل عبد الله عن الصِّراط المستقيم، فقال له ابنُ مسعودٍ: تَرَكَنا محمد ـ ﷺ ـ في أدناه، وطرفهُ في الجَنّة... وذكر تَمامَ الحديث كما تقدَّم، والله أعلم. وقد رُوي من حديث النوّاسِ بن سمْعَانَ نحوه.

[٣٠٢٤] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا الحسنُ بن سَوّارٍ أبو العلاء، حدثنا لَيثٌ ـ يعني ابنَ سَعدٍ ـ عن معاوية ابن صالح: أن عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَير حَدَّثه، عن أبيه، عن النوّاس بن سمْعانَ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ضرب الله مثلاً صِراطاً مستقيماً، وعن جَنْبَي الصِّراط سُورانِ فيهما أبواب مُفَتَّحةٌ، وعلى الأبواب سُتُورٌ مرخاةٌ، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: يا أيُّها الناسُ، هلموا ادخلوا الصِّراط المستقيم جميعاً، ولا تُعَرِّجوا، وداعٍ يدعُو من جَوفِ الصِّراطِ، فإذا أراد الإنسانُ أن يفتَحَ شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحكَ! لا تَفتَحْه، فإنّك إن تَفْتَحْه تَلِجْه. فالصِّراطُ الإسلامُ، والسُّوران حُدُودُ الله، والأبوابُ المفتَّحةُ مَحارِمُ الله، وذلك الداعي على رأسِ الصِّراطِ كتابُ الله، والدَّاعِي من فَوقُ واعظُ الله في قَلْبِ كلِّ مسلم»[(٣)]. ورواه الترمذيُّ والنسائيُّ، عن علي بن حُجْر ـ زاد النسائي: وعَمْرو بن عثمان ـ كلاهما عن بَقِيَّةَ بن الوليد، عن بَحِير بن سعد، عن خالد بن معدانَ، عن جُبَير بن نُفَير، عن النَّوّاس بن سمْعان، به. وقال الترمذيّ: حسن غَريب.

---

(١) حسن. أخرجه ابن ماجه ١١ وأحمد ٣/ ٣٩٧ وإسناده غير قوي، لأجل مجالد، لكن يشهد لما قبله، ويتأيد به.

(٢) إسناده لين كسابقه، لكن يصلح شاهداً لما قبله.

(٣) تقدم في سورة الفاتحة عند آية: ٦.

وقولُه تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾، إنما وَحَّد سبيله لأن الحقَّ واحد، ولهذا جَمَع السُّبُل لتفرقها وتَشعُّبها، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧].

[٣٠٢٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطيُّ، حدثنا يزيدُ بن هارون، حدثنا سفيان ابن حُسَين، عن الزُّهريِّ، عن أبي إدريسَ الخَوْلانيِّ، عن عُبادَةَ بن الصامت قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أيُّكم يُبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، حتى فَرَغ من ثلاث الآياتِ ثم قال: «ومن وفى بهنَّ فأجرُه على الله، ومن انتقصَ منهنَّ فأدركَهُ الله في الدنيا كانت عُقُوبتَه، ومن أخَّره إلى الآخرة كان أمرُه إلى الله إن شاء أخذه، وإن شاء عفَا عنه»[1].

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾

قال ابنُ جَرير: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، تقديرُه: ثم قُل يا مُحمَّد مُخبِراً عنَّا بأنا آتينا موسى الكتاب، بدلالة قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾. قلت: وفي هذا نَظَرٌ. و«ثُم» هاهنا إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر، لا للترتيب هاهنا، كما قال الشاعر:

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أبوهُ ... ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذلِكَ جَدُّهْ

وهاهنا لما أخبر الله تعالى عن القرآن بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾، عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾. وكثيراً ما يقرنُ سبحانه بين ذِكْرِ القرآن والتوراة، كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: ١٢]. وقوله تعالى في أوّل هذه السورة: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾... الآية، وبعدها: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]... الآية، وقال تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٤٨]؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨]. وقال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣٠]... الآية.

وقولُه تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾، أي: آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تماماً كاملاً جامعاً لجميع ما يُحتاج إليه في شريعته، كما قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]... الآية. وقولُه: ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾، أي: جزءاً على إحسانه في العمل، وقيامِه بأوامرنا وطاعتنا، كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقولُه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال أبو جعفر الرازيُّ، عن الربيع بن أنس: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾، يقول: أحسنَ فيما أعطاه الله. وقال قتادةُ: من أحسن في الدنيا تَمَّم له ذلك في الآخرة. واختار ابن جرير أن تقدير

---

(١) إسناده ضعيف لضعف سفيان بن حسين في روايته عن الزهري، وتقدم بغير هذا السياق في الصحيح.

الكلام: ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على إحسانه. فكأنه جعل «الذي» مصدرية، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩] أي: كَخوضِهِم. وقال ابنُ رَوَاحة:

فَثَبَّتَ اللهُ ما آتاكَ مِنْ حَسَنٍ ... في المرسلين ونَصْراً كالذي نُصِروا

وقال آخرون: «الذي» هاهنا بمعنى «الذين». قال ابنُ جرير: وقد ذُكِر عن عبد الله بن مسعود: أنه كان يقرؤها: «تماماً على الذين أحسنوا». وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾، قال: على المؤمنين والمحسنين. وكذا قال أبو عُبَيدة. قال البَغَويُّ: والمحسنون: الأنبياءُ والمؤمنونُ، يعني: أظهرنا فضله عليهم. قلتُ: كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ولا يلزم اصطفاؤه على محمد ـ ﷺ ـ خاتم الأنبياء والخليل ـ عليهما السلام ـ لأدلة أُخَر.

قال ابنُ جرير: وَرَوَى أبو عمرو بن العلاء، عن يحيى بن يَعمَرَ أنه كان يقرؤها: «تماماً على الذي أحسنُ»، رفعاً، بتأويل: «على الذي هو أحسنُ»، ثم قال: وهذه قراءةٌ لا أستجيزُ القراءةَ بها، وإن كان لها في العربية وجهٌ صحيح. وقيل: معناه: تماماً على إحسان الله إليه زيادةً على ما أحسن الله إليه. حكاه ابنُ جرير والبغويُّ. ولا منافاة بينه وبين القولِ الأوّلِ، وبه جَمَع ابنُ جَريرٍ كما بَيّناه، ولله الحمدُ. وقولُه تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾، فيه مَدْحٌ لكتابه الذي أنزله الله عليه، ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾، فيه الدعوةُ إلى اتّباع القرآنِ، يُرَغِّبُ سبحانه عباده، في كتابه، ويأمرهم بتدبُّره والعمل به والدعوة إليه، وَوَصَفِه بالبركة لمن اتبعه وعمل به، في الدنيا والآخرة، لأنه حبل الله المتين.

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

قال ابنُ جَرير: معناه: وهذا كتاب أنزلناه لئلا يقولوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾. يعني: لينقطع عُذرُهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧] وقولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾، قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: هم اليهودُ والنصارى. وكذا قال مجاهد، والسّديُّ، وقتادةُ، وغيرُ واحد. وقولُه: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾، أي: وما كنا نَفْهَم ما يقولون، لأنهم لَيسُوا بلساننا، ونحنُ مع ذلك في شُغُلٍ وغَفْلَةٍ عمّا هم فيه. وقولُه: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾، أي: وقَطْعاً لِتَعَلُّلِكم أن تقولوا: لو أنّا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكنا أهدى منهم فيما أوتوه، كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢]... الآية، وهكذا قال هاهنا: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، يقول: فقد جاءَكُم من الله على لسان محمّد ـ ﷺ ـ

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٣٥ و٦٥٠٦ ومسلم ١٥٧ وأبو داود ٤٣١٢ وابن ماجه ٤٠٦٨ وأحمد ٢/ ٢٣١ و٣١٣ وابن حبان ٦٨٣٨ من طرق عن أبي هريرة مرفوعاً.

النبي العربي قرآنٌ عَظِيم، فيه بيانٌ للحلالِ والحَرَام، وهُدىً لما في القلوب، ورحمةٌ من الله بعباده الذين يَتَّبِعُونه ويقتفُون ما فيه.

وقولُه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾؛ أي: لم ينتفع بما جاء به الرسول، ولا اتَّبع ما أُرسِلَ به، ولا ترك غيره، بل صَدَف عن اتباع آيات الله، أي: صَرَف الناسَ وصَدَّهم عن ذلك، قاله السّديّ. وعن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾: أعْرَضَ عنها. وقَولُ السدّيّ هاهنا فيه قُوّةٌ، لأنه قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾: كما تَقَدَّم في أول السورة: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٦]، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾. وقد يكون المرادُ كما قاله ابنُ عباس ومجاهدٌ وقتادةُ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾، أي: لا آمن بها ولا عَمِلَ بها، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة: ٣١ ـ ٣٢]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على اشتمال الكافر على التكذيب بقلبه، وتَرْكِ العمل بجوارحه. ولكن المعنى الأولَ أقوى وأظهرُ، والله تعالى أعلم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

يقول تعالى متوعِّداً للكافرين به، والمخالفين رُسُلَه والمكذِّبين بآياته، والصادّين عن سبيله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾، وذلك كائن يوم القيامة، ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، وذلك قبل يوم القيامة كائنٌ من أماراتِ الساعةِ وأشراطها.

[٣٠٢٦] كما قال البخاريّ في تفسير هذه الآية: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد، حدثنا عُمارةُ، حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا أبو هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تقومُ الساعةُ حتى تَطلُعَ الشمسُ من مَغْرِبها، فإذا رآها الناسُ آمَنَ مَن عليها، فذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾»(١).

[٣٠٢٧] حدثنا إسحاق، حدثنا عبد الرزّاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن هَمّام بن مُنَبِّه، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تقومُ الساعةُ حتى تطلُعَ الشمسُ من مَغْرِبها، فإذا طَلَعَتْ ورآها الناسُ آمنوا أجمَعُونَ، وذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾»(٢)، ثم قرأ هذه الآية. هكذا رُوي هذا الحديث من هذين الوجهين، ومن الوجه الأوّلِ أخرجه بَقِيّةُ الجماعة في كتبهم إلا الترمذيَّ، من طُرُقٍ، عن عُمارة بن القَعْقَاع بن شُبْرُمَةَ، عن أبي زُرْعَة بن عَمْرِو بن جَرير، عن أبي هُرَيرة، به. وأما الطريق الثاني فرواه عن إسحاق، غير منسوب، فقيل: هو ابن منصور الكَوسَجُ، وقيل: إسحاقُ بن نَصْر. والله أعلم. وقد رواهُ مسلِمٌ عن محمد بن رافع الجُنَيْدِيسَابُورِيّ، كلاهُما عن عبد الرزّاقِ، به. وقد وَرَد هذا الحديثُ من طُرُقٍ أُخَر عن أبي هُرَيرة، كما انفرد مسلمٌ بروايته من حديثِ العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب مولى الحُرَقَةِ، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة، به.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٣٦ من هذا الوجه، وانظر الحديث المتقدم.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٥٨ والترمذي ٣٠٧٤ وأحمد ١/١٠٧ وأبو يعلى ٦١٧٢ والطبري ١٤٢٥٢.

[٣٠٢٨] وقال ابنُ جَرِير: حَدَّثنا أبو كُرَيب، حدثنا ابن فُضَيل، عن أبيه، عن أبي حَازِم، عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ثلاث إذا خرجن ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾: طلوعُ الشمس من مغربها، والدجّالُ، ودابّة الأرض»[١]. ورواه أحمدُ، عن وَكِيع، عن فُضَيل بن غَزْوَانَ، عن أبي حازم سَلْمانَ، عن أبي هُرَيرة، به. وعنده: «والدخان» ورواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شَيبةَ، وزُهَير بن حَرْبٍ، عن وكيع. ورواه هو أيضاً والترمذي، من غير وجه، عن فُضَيل بن غزوان، به. ورواه إسحاق بن عبد الله الفَرْوِيّ، عن مالك، عن أبي الزّناد، عن الأعرجِ، عن أبي هُرَيرة. ولكن لم يُخَرِّجه أحدٌ من أصحاب الكُتُبِ من هذا الوَجْهِ، لضَعْفِ الفَرْوِيِّ، والله أعلم.

[٣٠٢٩] وقال ابنُ جَرِير: حدثنا الرَّبيعُ بن سليمان، حدثنا شُعَيب بن اللَّيثِ، عن أبيه، عن جعفر بن رَبِيعةَ، عن عبد الرحمن بن هُرْمزَ الأعرجِ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تقومُ الساعةُ حتى تطلُعَ الشمسُ من مغربها، فإذا طلعت آمنَ الناسُ كلُّهم، وذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾... الآية[٢]. ورواهُ ابن لَهِيعَةَ، عن الأعرجِ، عن أبي هُرَيرة، به. ورواه وكيعٌ، عن فُضَيل بن غَزْوان، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيرة، به. أخرج هذه الطرق كلَّها الحافظُ أبو بكر بن مَرْدُويه في تَفْسِيره.

[٣٠٣٠] وقال ابنُ جَرير: حدثنا الحسن بن يحيى، أخبرنا عبد الرزّاق، قال: أخبرنا معمرٌ، عن أيوب عن ابن سيرينَ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من تاب قبل أن تَطْلُع الشمسُ من مَغْرِبها، قُبِلَ منه»[٣]. لم يُخَرِّجه أحدٌ من أصحابِ الكُتُبِ الستَّةِ.

[٣٠٣١] حَدِيثٌ آخَرَ: عن أبي ذَرّ الغِفَارِيِّ، في الصَّحِيحين وغيرهما، من طُرُقٍ، عن إبراهيم بن يزيدَ ابن شَرِيك التَّيمِيِّ، عن أبيه، عن أبي ذَرٍّ جُنْدَب بن جُنَادة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: «تَدْري أين تذهبُ الشمسُ إذا غَرَبت؟ قلتُ: لا أدري. قال: إنها تَنْتَهِي دُونَ العَرْشِ، ثم تَخرُّ ساجِدةً، ثم تقومُ حتى يقال لها: ارجِعِي، فَيُوشِكُ يا أبا ذَرٍّ أن يُقال لها: ارجِعِي من حيثُ جِئْتِ، وذَلكِ حينَ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾»[٤].

[٣٠٣٢] حديث آخرُ عن حُذَيفَةَ بن أسِيدٍ أبي سَرِيحَةَ الغِفَارِيِّ، ـ رضي الله عنه ـ قال الإمام أحمد ابن حنبل: حدثنا سفيان، عن فُرَاتٍ، عن أبي الطُّفَيل، عن حُذَيفَةَ بن أسِيد الغِفَارِيِّ قال: «أشرفَ علينا رسول الله ـ ﷺ ـ من غُرفَةٍ، ونحن نتذاكرُ الساعةَ، فقال: «لا تَقُوم الساعةُ حَتّى تَرَوا عشر آيات: طلوعُ الشمس من

---

(١) أخرجه الطبري ١٤٢٢٤ من هذا الوجه، وانظر ما تقدم.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٢/ ٢٧٥ والطبري ١٤٢٢٥ من طريق عبد الرزاق به، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه، وقد أخرجه مسلم ٢٧٠٣ وأحمد ٢/ ٤٢٧ و٥٠٦ وابن حبان ٦٢٩ والبغوي في «التفسير» ٩٠٦ من طرق عن هشام بن حسان عن ابن سيرين.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٥٩ والنسائي في «الكبرى» ١١١٧٦ وابن حبان ٦١٥٣ من طرق عن إبراهيم التيمي بأتم منه وصدره «أتدرون أين تذهب هذه الشمس...». وأخرجه البخاري ٣١٩٩ ومسلم بإثر ١٥٩ والترمذي ٢١٨٦ وأحمد ٥/ ١٧٧ وابن حبان ٦١٥٤ من طرق عن الأعمش عن إبراهيم التيمي به، لكن ليس فيه ذكر هذه الآية، وإنما ذكر بدلاً عنها ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا...﴾ [يس: ٣٨].

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٠١ وأبو داود ٤٣١١ والترمذي ٢١٨٣ والنسائي في «الكبرى» ١١٣٨٠ وابن ماجه ٤٠٤١ وأحمد ٦/٤ و٧ وابن حبان ٦٧٩١ و٦٨٤٣.

مغربها، والدخانُ، والدابّةُ، وخروجُ يأجوجَ ومأجوجَ، وخروجُ عيسى ابن مريمَ، وخروج الدجالُ، وثلاثةُ خسوف: خَسْفٌ بالمغرب، وخَسْفٌ بالمشرق، وخَسْفٌ بجزيرة العَرَب. ونارٌ تخرج من قَعْرِ عَدَنَ تسوقُ ـ أو تحشرُ ـ الناسَ، تَبِيت معهم حيثُ باتُوا، وتَقِيلُ معهم حيث قالوا»[1]. وهكذا رواه مسلم وأهلَ السُّنَن الأربعة، من حديث فُرَاتٍ القَزَّازِ، عن أبي الطُّفيل عامر بن وَاثِلَةَ، عن حُذَيفة بن أسِيد، به. وقال الترمذيُّ: حسن صحيحٌ.

[٣٠٣٣] حديثٌ آخرُ: عن حُذَيفةَ بن اليمان، ـ رضي الله عنه ـ: قال الثوريُّ، عن منصُورٍ، عن رِبْعيٍّ، عن حُذَيفة قال: «سألتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ فقلتُ: يا رسول الله، ما آية طُلوع الشَّمسِ من مَغْربها؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ: تَطُول تلك الليلةُ حتى تكونَ قدر ليلتين، فينتَبِهُ الذين كانوا يُصَلُّونَ فيها فيعمَلُونَ كما كانوا يعملون قَبْلَها والنجومُ لا تَسْرِي، قد قامت مكانها، ثم يرقُدون، ثم يقومون فيصلون، ثم يرقُدون، ثم يقومُون فَتَبطُل عليهم جُنوبُهم، حتى يتطاول عليهم الليلُ، فيفزع الناس ولا يُصبِحُون. فبينما هم ينتظرون طلوعَ الشمس من مشرقها إذْ طلعت من مَغْرِبها، فإذا رآها الناس آمَنُوا، ولا ينفعهم إيمانُهم»[2]. رواه ابن مَرْدَوَيه، وليس هو في شيءٍ من الكتب السِّتة من هذا الوجه، والله أعلم.

[٣٠٣٤] حديث آخر: عن أبي سَعِيد الخُدْرِي، واسمُه سَعْدُ بن مالك بن سِنَان، ـ رضي الله عنه ـ وأرضاه: قال الإمام أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا ابنُ أبي لَيْلَى، عن عطيةَ العَوْفي، عن أبي سعيد الخُدْريِّ، عن النبي ـ ﷺ ـ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾، قال: طلوعُ الشَّمس من مَغْرِبها»[3]. ورواه الترمذيُّ، عن سفيانَ بن وكيع، عن أبيه، به. وقال: غَرِيب، ورواه بعضُهم ولم يَرْفَعْهُ[4].

[٣٠٣٥] وفي حديث طالوتَ بن عَبَّاد، عن فَضَّال بن جُبَير، عن أبي أُمامة صُدَيّ بن عَجْلانَ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن أوَّلَ الآياتِ طلوعُ الشَّمسِ من مَغْرِبها»[5].

[٣٠٣٦] وفي حديثِ عاصم بن أبي النَّجُودِ، عن زِرِّ بن حُبَيش، عن صَفْوانَ بن عَسَّالٍ قال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله فَتَح باباً قِبَلَ المغرب عرضُه سبعُون عاماً للتَّوبة، قال: لا يغلَقُ حتى تطلُعَ الشمسُ منه»[6]. رواه الترمذيُّ وصَحَّحَه، والنسائيُّ وابنُ ماجه، في حديثٍ طوِيلٍ.

[٣٠٣٧] حديثٌ آخَرُ عن عبد الله بن أبي أوفى: قال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن علي بن دُحَيم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا ضرار بن صُرَد، حدثنا ابن فُضَيل، عن سليمان بن زَيد، عن عبد الله بن أبي أوفى

---

(١) الثوري فمن فوقه رجال البخاري ومسلم، ولم يذكر المصنف من دون الثوري، وعزاه لابن مردويه، وتفسيره لم يطبع، وبكل حال للمتن شواهد.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٠٧٣ وأحمد ٣/ ٣١ وأبو يعلى ١٣٥٣، وإسناده ضعيف لضعف عطية العوفي، لكن يشهد له حديث أبي هريرة المتقدم قبل خمسة أحاديث.

(٣) قد صح من طرق عدة مرفوعاً كما ترى، فرواية من رواه موقوفاً لا تعلل المرفوع، والله أعلم.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٨٠٢٢ وقال الهيثمي في «المجمع» ٨/ ٩: وفيه فضالة بن جبير، وهو ضعيف، وأنكر هذا الحديث اهـ لكن يشهد له حديث عبد الله بن عمرو الآتي بعد حديثين.

(٥) أخرجه الترمذي ٣٥٣٦ وابن ماجه ٤٠٧٠ وأحمد ٤/ ٢٤١ والطبري ١٤٢١٢ وابن حبان ١٣٢١ والبغوي في «التفسير» ٩٠٧ من طرق عن عاصم بن أبي النجود به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وإسناده غير قوي لأجل عاصم بن أبي النجود. وذكر عرض الباب غريب.

قال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ليأتينَّ على الناس ليلةٌ تَعدِلُ ثلاثَ ليالٍ من لياليكم هذه، فإذا كانَ ذلك يعرفها المُتنفِّلون، يقوم أحدُهم فيقرأ حِزْبَه، ثم ينام، ثم يقوم فيقرأ حزبه، ثم ينام، فبينما هم كذلك إذ صاح الناسُ بعضُهم في بعضٍ، فقالوا: ما هذا؟ فيفزَعُون إلى المساجد، فإذا هم بالشمس قد طَلَعت، من مَغْرِبها، فَضجَّ الناس ضَجَّةً واحدةً حتى إذا صارت في وَسَط السماء رَجَعت وطَلَعت من مَطْلَعها ـ قال: حينئذ لاَ ينفعُ نفساً إيمانها»[1]. هذا حَدِيثٌ غريبٌ من هذا الوَجْهِ، وليس هو في شيءٍ من الكُتُب السِّتَّةِ.

[٣٠٣٨] حديثٌ آخرُ: عن عبد الله بن عَمْرو: قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا إسماعيلُ بن إبراهيمَ: حدثنا أبو حَيّان، عن أبي زُرْعَةَ بن عَمرو بن جَرِير قال: جلس ثلاثةُ نَفَرٍ من المسلمين إلى مَرْوانَ بالمدينةِ فَسمِعوه يقول: وهو يحدِّثُ في الآيات: ـ إنَّ أولها خروجُ الدَّجالِ. قال: فانصرف النفرُ إلى عبد الله بن عمرو، فَحدَّثوه بالذي سَمِعُوه من مَرْوان في الآيات، فقال عبد الله: لم يقل مَرْوَان شيئاً. قد حَفِظْتُ من رسول الله ـ ﷺ ـ في مثل ذلك حديثاً لم أنسه بعدُ، سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: إنَّ أوَّل الآياتِ خروجاً طلوعُ الشمس من مغربها، وخروجُ الدابة ضُحىً، فأيَّتُهما كانت قبلَ صاحبتها فالأخرى على أثَرها. ثم قال عبد الله ـ وكان يقرأ الكُتُبَ ـ: وأظنُّ أولاَها خروجاً طلوعَ الشمس من مَغْرِبها، وذلك أنها كلما غَرَبت أتت تحتَ العرش فَسجَدَت واستأذنت في الرجوع، فَأُذِن لها في الرجوع، حتى إذا بَدَا الله أن تطلع من مَغْرِبها فَعلَت كما كانت تَفْعَلُ، أتت تحتَ العَرْشِ فَسَجدَتْ واستأذنَتْ في الرجوع، فلم يَرُدَّ عليها شيءٌ، ثم تستأذنُ في الرجوع فلا يرد عليها شيءٌ، ثم تستأذَن فلا يرد عليها شيءٌ، حتى إذا ذَهَب من اللَّيلِ ما شاء أن يذهبَ، وعَرَفَت أنه إن أُذِنَ لها في الرُّجوع لم تدرك المشرق، قالت: رَبِّي، ما أبعدَ المشرق! من لي بالناس؟ حتى إذا صار الأفُقُ كأنه طوق استأذنت في الرجوع، فَيُقالَ لَها: من مكانك فاطْلُعي. فَطَلعت على الناسِ من مَغْرِبها. ثم تلا عبد الله هذه الآية: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ . . . الآية[2]. وأخرجه مسلم في صَحِيحه، وأبو داود وابنُ ماجَهْ، في سُنَنَيهما، من حديث أبي حَيَّان التَّيمِيِّ ـ واسمُه يحيى بنُ سعيدِ بن حَيَّان ـ عن أبي زُرْعَةَ بنِ عَمْرِو بن جَرِيرٍ، به.

[٣٠٣٩] حديث آخر: عنه: قال الطبراني: حَدَّثنا أحمد بن يحيى بن خالد بن حِبَّان الرَّقِّيُّ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زِبْرِيقَ الحِمْصِيّ، حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، حدثنا ابنُ لَهيعَةَ، عن حُيَي ابن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عَمرو بن العاص قال: قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «إذا طَلَعَتِ الشمسُ من مَغْرِبها خَرَّ إبليسُ ساجداً ينادي ويجهَرُ: إلهي، مُرْني أن أسجُد لمن شئت. قال: فيجتمع إليه زبانيتُه فيقولون: يا سيِّدَهم، ما هذا التضرُّعُ؟ فيقول: إنما سألتُ ربي أن يُنْظِرَني إلى الوقتِ المعلوم، وهذا الوقتُ المعلومُ. قال: ثم تخرجُ دابَّةُ الأرضِ من صَدْعٍ في الصفا، قال: فأوَّلُ خطوة تَضَعها بأنطاكيَةَ، فتأتي إبليسَ فَتَلْطُمه»[3]. هذا حديثٌ غريبٌ جدّاً وسنَدُه ضَعيفٌ، ولعلّه من الزَّامِلَتَينِ اللَّتَينِ أصابهما عبد الله بن عَمرو يوم اليرموك، فأما رَفْعُه فمنكر، والله تعالى أعلم.

---

(١) إسناده ضعيف جداً. فيه ضرار بن صُرَد، جاء في الميزان ٣٩٥١: قال البخاري وغيره: متروك، وقال ابن معين: كذابان بالكوفة: ضرار بن صُرَد، وأبو نعيم النخعي اهـ فالإسناد ساقط والمتن غريب.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٢/ ٢٠١ بتمامه. والمرفوع منه أخرجه مسلم ٢٩٤١ وأبو داود ٤٣١٠ وابن ماجه ٤٠٦٩.

(٣) باطل. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٩٤. قال الهيثمي في «المجمع» ١٢٥٧٨: فيه إسحق بن إبراهيم بن زبريق وهو ضعيف اهـ وله علة ثانية، وهي ابن لهيعة، والظاهر أنه روى هذا الحديث بعد اختلاطه، فإنه منكر جداً، والله أعلم.

[٣٠٤٠] حديثٌ آخَرُ: عن عبد الله بن عَمْرٍو، وعبد الرحمن بن عَوفٍ، ومعاويةَ بن أبي سفيانَ، ـ رَضِيَ الله عنهم ـ أجمعينَ. قال الإمام أحمد: حدثنا الحَكَمُ بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، عن ضَمْضَم بن زُرْعَةَ، عن شُرَيح بن عُبَيد يرده إلى مالك بن يُخامر، عن ابن السَّعدي أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تنقطعُ الهجرةُ ما دام العدوُّ يقاتل». فقال معاوية، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عَمْرو ابن العاص: إن النبي ـ ﷺ ـ قال: إن الهجرة خَصْلَتان: إحداهُما تهجُر السيئات، والأخرى تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع ما تُقبِّلت التوبة، ولا تزال التوبةُ مقبولةً حتى تطلُع الشمسُ من المغرب، فإذا طَلَعت طُبِعَ على كلِّ قَلْبٍ بما فيه، وكُفِي الناسُ العَمَلَ»[1]. هذا الحديثُ حَسَنُ الإسنادِ، ولم يُخرِجه أحدٌ من أصحابِ الكُتُب الستةِ، والله أعلم.

حديثٌ آخَرُ: عن ابن مَسْعُودٍ ـ رضي الله عنه ـ: قال عوفٌ الأعرابيُّ، عن مُحمَّد بنِ سيرينَ، حدثني أبو عُبيدَةَ، عن ابن مسعود أنه كان يقول: ما ذُكِر من الآيات فقد مَضَى غير أربع: طلوعُ الشمس من مغربها، والدَّجال، ودابَّةُ الأرضِ، وخروجُ يأجوجَ ومأجوجَ. قال: وكان يقول: الآيةُ التي تُخْتَمُ بها الأعمالُ طلوعُ الشمس من مَغْربها، ألم تَرَ أن الله يقول: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾... الآية كُلُّها، يعني طلوعَ الشمس من مَغْرِبها.

[٣٠٤١] حديث ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره من حديث عبد المنعم بن إدريسَ عن أبيه، عن وهب بن مُنَبِّه، عن ابن عباس مرْفُوعاً، فذكر حديثاً طويلاً غريباً منكراً رفعه، وفيه: «أن الشمس والقمر يطلُعان يومئذ من المغرب مقرونَين، فإذا نَصَفا السماءَ رَجَعا ثم عادا إلى ما كانا عليه»[2]. وهو حديثٌ غريبٌ جداً، بل مُنكَر، بل موضوعٌ إن ادُّعِي أنه مَرْفُوعٌ، فأما وَقْفُه على ابنِ عباس أو وَهْبِ بن مُنَبِّه ـ وهو الأشبهُ ـ فغيرُ مدفوعٍ، والله أعلم.

وقال سفيانُ، عن منصورٍ، عن عامر، عن عائشةَ قالت: إذا خَرَجَ أولُ الآياتِ، طُرِحت الأقلام، وحُبِست الحَفَظَةُ، وشَهِدَت الأجسادُ على الأعمال. رواه ابن جرير. فقولُه: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾، أي: إذا أنشأ الكافرُ إيماناً يومئذٍ لا يُقبل منه، فأمّا من كان مُؤمِناً قبل ذلك، فإن كان مُصْلِحاً في عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مُخلِطاً فأحدث توبةً حينئذٍ لم تقبلْ منه توبتهُ، كما دلت عليه هذه الأحاديثُ المتقدِّمة، وعليه يحملُ قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، أي: ولا يُقبَلُ منها كَسْبُ عملٍ صالحٍ إذا لم يَكُن عاملاً به قبلَ ذلك. وقولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، تهديدٌ شديدٌ للكافرين، ووعيدٌ أكيدٌ لمن سَوَّف بإيمانه وتوبته إلى وقتٍ لا ينفَعُه ذلك. وإنما كان هذا الحكمُ عند طلوع الشمس من مَغْرِبها، لاقتراب

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٩٢ وإسناده حسن كما قال المصنف رحمه الله، وأخرجه ٤/ ٩٩ من وجه آخر من حديث معاوية، وهو شاهد لما قبله.

(٢) لا أصل له في المرفوع. ذكره السيوطي في «الدر» ٣/ ١١٤ ـ ١١٥ مطولاً في ورقات، وعزاه لابن مردويه، واكتفى بقوله: بسند واهٍ! وليس كما قال، ففي إسناده عبد المنعم بن إدريس اليماني. جاء في «الميزان» ٥٢٧٠: قصاص، ليس يعتمد عليه، تركه غير واحد، وأفصح أحمد أنه كان يكذب على وهب بن منبه، وقال البخاري: ذاهب الحديث: وقال ابن حبان: يضع الحديث على أبيه وعلى غيره اهـ فالحمل في هذا الحديث عليه، فإنه المتهم به، وقد قال الإمام أحمد: يكذب على وهب، وهذا رواه عن أبيه عن وهب كما ترى، وقد ذكر ابن كثير أن المرفوع موضوع، وصوب الوقف على وهب بن منبه، والله أعلم.

وقت القيامة، وظهور أشراطها، كما قال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ [محمد: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤ ـ ٨٥]. . . الآية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

قال مجاهد، وقتادةُ، والضحاكُ، والسدِّيُّ: نزلت هذه الآيةُ في اليهودِ والنَّصارى. وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً﴾، وذلك أنَّ اليهودَ والنصارى اختلفوا قبل أن يُبعَثَ محمد ـ ﷺ ـ فتفرَّقُوا. فلما بُعِث محمدٌ ـ ﷺ ـ أنزلَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ في شَيْءٍ﴾[1]. . . الآية.

[٣٠٤٢] وقال ابنُ جَرير: حدثني سَعِيد بن عَمْرو السَّكُونيُّ، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد: كتب إليّ عَبَّاد ابن كَثِير، حَدَّثني ليثٌ، عن طاووسَ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ في هذه الآية: ﴿الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ في شَيْءٍ﴾، وليسُوا منك، هم أهلُ البِدَعِ، وأهلُ الشُّبهاتِ، وأهلُ الضَّلالَةِ[2]، من هذه الأمة. ولكنَّ هذا الإِسنادَ لا يصحُّ، فإن عبَّادَ بنَ كثير متروكُ الحديث، ولم يختلق هذا الحديثَ، ولكنه وَهِم في رَفْعِهِ. فإنَّه رَوَاه سفيان الثَّوري، عن ليث ـ وهو ابنُ أبي سُلَيم ـ عن طاووس، عن أبي هُرَيرة، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾، قال: نَزَلتْ في هذه الأمَّة.

[٣٠٤٣] وقال أبو غالب، عن أبي أُمامةَ، في قوله: ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾، قال: هم الخوارجُ[3]. ورُوِي عنه مرفوعاً، ولا يصحُّ.

[٣٠٤٤] وقال شعبةُ، عن مجالدٍ، عن الشَّعبي، عن شُرَيح، عن عُمَر أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال لعائشة: «﴿إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً﴾، قال: هم أصحاب البِدَع»[4]. وهذا رواه ابن مَرْدُويه، وهو غَريبٌ أيضاً، ولا يصحُّ رفعه. والظاهرُ أنَّ الآيةَ في كلِّ من فارقَ دينَ الله، وكان مُخَالِفاً له، فإنَّ الله بَعَث رسولَه ﷺ بالهُدَى ودين الحقِّ ليظهرَه على الدين كلِّه، وشَرْعُه واحدٌ لا اختلافَ فيه ولا افتراقَ، فمن اختلَف فيه ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾، أي: فِرَقاً كأهل المِلَل والنِّحَلِ ـ وهي الأهواء والضلالات ـ فإن الله تعالى قد برّأ رسولَه مما هُم فيه. وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣]. . . الآية.

[٣٠٤٥] وفي الحديث: «نحن ـ معاشر الأنبياء ـ أولادُ عَلاَّتٍ، دينُنا واحدٌ»[5]. فهذا هو الصِّراطُ

---

(١) قرأ بذلك علي وقتادة وغيرهما كما في الطبري ١٤٢٥٧ و١٤٢٥٨ و١٤٢٥٩، وهي قراءة حمزة والكسائي. وقراءة حفص «فرّقوا» وهي الأشهر في هذه الأيام.

(٢) المرفوع ضعيف، والصواب موقوف. أخرجه الطبري ١٤٢٧١ بهذا الإسناد، وأعله ابن كثير رحمه الله بعباد بن كثير، وأنه متروك. وصوب وقفه، وهو كما قال، حيث أسنده الطبري ١٤٢٦٩ من طريق ليث عن أبي هريرة موقوفاً بنحوه.

(٣) إسناده ضعيف لضعف أبي غالب، واسمه حزور، وتقدم تخريجه، والصواب موقوف على أبي أمامة.

(٤) ضعيف. أخرجه الطبراني في «الصغير» ٥٦٠ والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» ص ٢٠٩ وأبو نعيم ٤/١٣٨ وابن الجوزي في «الوهيات» ٢٠٩ من حديث عمر، وقال ابن الجوزي: لا يثبت، وبقية مدلس، والظاهر أنه سمعه من ضعيف، فأسقطه. وأعله الهيثمي في «المجمع» ٨٩٦ بضعف بقية ومجالد.

(٥) تقدم في سورة البقرة عند آية: ١٣٣ وفي سورة المائدة عند آية: ٤٨.

المستقيمُ، وهو ما جاءت به الرسلُ، من عبادة الله وحده لا شريكَ له، والتمسُّكِ بشريعةِ الرسول المتأخِّر، وما خالف ذلك فَضلالاتٌ وَجهالاتٌ وآراءٌ وأهواءٌ، الرسلُ بُرآءُ منها، كما قال: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾. وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج: ١٧]. . . الآية، ثم بين فَضْلَه يوم القيامة في حُكْمه وعَدْلِه فقال تعالى:

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)﴾

وهذه الآيةُ الكريمةُ مُفَصِّلة لما أُجملَ في الآيةِ الأخرى، وهي قولُه: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾، وقد وَرَدت الأحاديثُ مطابقةً لهذه الآيةِ، كما قال الإمامُ أحمدُ بن حَنْبَلٍ ـ رحمه الله ـ:

[٣٠٤٦] حدثنا عفانُ، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا الجعدُ أبو عثمان، عن أبي رَجَاء العُطَاردي، عن ابن عَبّاس ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ فيما يَرْوِي عن ربِّه ـ عز وجلّ ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ ربَّكم رحيمٌ، من هَمَّ بحَسَنةٍ فلم يَعملْها كُتِبتْ له حَسَنةً، فإن عَمِلها كُتِبَتْ له عَشراً إلى سَبْعمئةٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ. ومن هَمَّ بسيئةٍ فلمَ يعمَلْها كُتبَتْ له حَسَنةً، فإن عَمِلَها كُتِبَتْ له واحدةً، أو يمحُوها الله ـ عزّ وجلّ ـ ولا يهلكُ على الله إلا هالِكٌ»[1]. ورواه البخاري، ومسلم، والنسائي، من حديث الجَعْدِ أبي عُثمان، به.

[٣٠٤٧] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاويةَ، حدثنا الأعمشُ، عن المَعْرُور بن سُوَيدٍ، عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يقول الله ـ عز وجلّ ـ: من عَمِل حسنة فله عشرُ أمثالها وأَزِيدُ. ومن عَمِلَ سَيئةً فجزاؤها مثلها أو أغفِرُ. ومن عَمِل قُراب الأرض خطيئةً ثم لَقِيني لا يُشرِك بي شيئاً جَعَلْتُ له مثلَها مغفرةً، ومن اقترب إليّ شبراً اقتربتُ إليه ذراعاً، ومن اقتربَ إليّ ذراعاً اقتربتُ إليه باعاً، ومن أتاني يَمْشِي أتيتهُ هرولةً»[2]. ورواه مسلم عن أبي كُرَيب، عن أبي مُعاويَةَ، به. وعن أبي بكر بن أبي شَيْبَةَ، عن وَكِيعٍ، عن الأعمش، به. ورواه ابنُ ماجه، عن عليِّ بن محمَّد الطَّنافِسِيِّ، عن وكيع، به.

[٣٠٤٨] وقال الحافظُ أبو يَعْلَى المَوْصِليُّ: حدثنا شيبانُ، حدثنا حَمَّاد، حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من هَمَّ بحَسَنةٍ فلم يَعْمَلها كُتِبتَ له حَسَنةً، فإنْ عَمِلها كُتِبت له عشراً. ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم يُكْتَبْ عليه شيءٌ، فإن عَمِلها كُتِبت عليه سيئةً واحدةً»[3]. واعلم أنّ تاركَ السيِّئةِ الذي لا يَعْمَلُها على ثلاثة أقسام: تارةً يتركها لله، فهذا تكتبُ له حسنةً على كَفِّه عنها لله تعالى، وهذا عَمَل ونيَّةٌ. ولهذا جاء أنه يُكتَبُ له حسنةٌ، كما جاء في بعض ألفاظ الصَّحيح:

[٣٠٤٩] «فإنما تركها من جَرَّائي، أو: من أجلي»[4]. وتارةً يتركُها نِسياناً وذُهُولاً عنها، فهذا لا لَهُ ولا عَلَيه، لأنه لم يَنْو خيراً ولا فَعَل شرّاً. وتارةً يتركها عَجْزاً وكسلاً عنها بعد السَّعي في أسبابها والتَّلبُّس بما يَقْرُب منها، فهذا يتنزَّلُ منزلة فَاعِلها، كما جاء في الحديث، في الصحيحين:

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٩١ ومسلم ١٣١ والنسائي في «الكبرى» ٧٦٧٠ وأحمد ١/٢٧٩.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٨٧ وابن ماجه ٣٨٢١ وأحمد ٥/١٥٣ و١٦٩.

(٣) صحيح. أخرجه أبو يعلى ٣٤٥١، وأخرجه مسلم ١٦٢ في حديث الإسراء عن أنس مرفوعاً.

(٤) صحيح. وهو قطعة من حديث أبي هريرة عند مسلم ١٢٩.

[٣٠٥٠] «إذا تواجَه المسلمان بسيفيهما فالقاتلُ والمقتولُ في النار». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتلُ فما بالُ المقتولِ؟ قال: إنه كانَ حرِيصاً على قَتْلِ صاحبه»[١].

[٣٠٥١] وقال الإمام أبو يَعْلى المَوْصِلي: حدثنا مجاهد بن موسى، حدثنا علي - وحدثنا الحسن ابن الصَّباح وأبو خَيْثَمَة - قالا: حدثنا إسحاقُ بن سليمان، كلاهما عن موسى بن عُبَيدة، عن أبي بكر بن عُبَيد الله بن أنسَ، عن جَدِّه أنس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من هَمّ بحسنةٍ كَتَبَ الله له حسنةً، فإن عملها كُتِبت له عشراً. ومنَ همَّ بسيئة لم تكتب عليه حتى يَعمَلَها، فإن عملها كُتِبت عليه سيئةً، فإن تركها كُتِبت له حسنةً. يقول الله تعالى: إنما تركها من مخافتي»[٢]. هذا لفظُ حديثِ مجاهدٍ. يعني ابنَ موسى.

[٣٠٥٢] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِيِّ، حدثنا شيبانُ بن عبد الرحمن، عن الرُّكين بن الرَّبيع، عن أبيه، عن عَمِّه فلان بن عُمَيلَةَ، عن خُرَيم بن فاتكٍ الأسدِيِّ: أن النبيَّ - ﷺ - قال: النَّاسُ أربعةٌ والأعمال سِتّةٌ. فالناس مُوَسَّعٌ له في الدنيا والآخرة، ومُوَسَّع له في الدنيا مَقْتُورٌ عليه في الآخرة، ومَقْتورٌ عليه في الدنيا مُوسَّعٌ له في الآخرة، وشَقِيٌّ في الدنيا والآخرة. والأعمال مُوجِبَتَانِ، ومثلٌ بمثلٍ، وعشرةُ أضعافٍ، وسبعمئة ضِعْفٍ، فالمُوجِبتان من مات مسلماً مؤمناً لا يُشرك بالله شيئاً وَجَبت له الجنَّةُ، ومن مات كافراً وَجَبت له النارُ. ومن هَمَّ بحسنة فلم يَعْمَلْها، فَعَلِمَ الله أنه قد أشْعَرَها قَلْبَه وحَرَصَ عليها، كُتِبت له حسنةً، ومن هَمَّ بسيئة لم تُكْتَب عليه، ومن عَمِلها كُتِبت واحدةً ولم تُضاعَف عليه. ومن عَمِل حسنةً كانت عليه بِعَشرِ أمثالها. ومن أنفق نَفَقَةً في سبيلِ الله - عزّ وجلّ - كانت له بسبعمئة ضِعْفٍ»[٣]. ورواه الترمذيُّ والنسائيُّ، من حديثِ الرُّكَينِ بن الرَّبيع، عن أبيه، عن بشير بن عُمَيلَةَ، عن خُرَيم بن فَاتِكٍ، به ببعضه. والله أعلم.

[٣٠٥٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عُبَيد الله بن عُمَر القَواريريُّ، حدثنا يزيدُ بن زُرَيع، حدثنا حَبِيب المعلم، عن عَمْرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه، عن النبيِّ - ﷺ - قال: «يحضرُ الجمعةَ ثلاثةُ نَفَرٍ: رجل حَضَرها يَلْغُو فهو حَظُّه منها، ورجل حَضَرها بدُعاءٍ، فهو رجل دعا الله، فإن شاء أعطاه وإن شاء مَنَعه. ورجل حَضَرها بإنصات وسكوت ولم يَتَخطَّ رقَبَةَ مسلم ولم يُؤذِ أحداً، فهي كفارةٌ له إلى الجمعة التي تليها وزيادةُ ثلاثة أيام، وذلك لأن الله يقولُ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾»[٤].

[٣٠٥٤] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن مرثد، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثني أبي، حدثني ضَمْضَمُ بن زُرْعَة، عن شُرَيح بن عُبَيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله - ﷺ -:

---

(١) تقدم في سورة المائدة عند آية: ٢٨.

(٢) إسناده ضعيف لضعف موسى بن عبيدة الربذي، وأصل الحديث صحيح، له شواهد كثيرة، وعجزه غريب لكن يشهد له ما تقدم قبل حديث واحد.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٣٤٥ ح ١٨٥٥٦ ورجاله ثقات معروفون سوى فلان بن عميلة، فلم أجد من ترجمه. وأخرجه الحاكم ٢/ ٨٧ ح ٢٤٤٢ عن مسلمة بن جعفر عن الركين عن عمه عن خريم مرفوعاً به. وقال الذهبي: فيه مسلمة - بن جعفر من بجيلة - تعبت عليه فلم أعرفه اهـ أي هو مجهول. والحديث بطوله غريب وإسناده مجهول بطريقيه وقد ورد عن الركين عن الربيع عن يسير بن عميلة عن خُريم مرفوعاً لكن باختصار شديد وإسناده حسن رجاله ثقات. وقد صحح الحاكم ٢٤٤١ الحديث المختصر، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا. وهو عند الترمذي والنسائي مختصر، وقد تقدم.

(٤) حسن. أخرجه أبو داود ١١١٣، وإسناده حسن للاختلاف المعروف في عمرو بن شعيب عن آبائه.

«الجُمْعة كفارةٌ لما بينها وبين الجمعة التي تليها وزيادةُ ثلاثةِ أيام، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾»(١).

[٣٠٥٥] وعن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من صام ثلاثة أيّام من كلِّ شهرٍ فقد صام الدهرَ كُلَّه». رواه الإمامُ أحمدُ ـ وهذا لفظه ـ والنسائيُّ، وابنُ ماجه، والترمذيُّ وزاد: «فأنزلَ الله تصْدِيقَ ذلك في كتابِه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، اليومُ بعَشْرَةِ أيام»(٢). ثم قال: هذا حديثٌ حسنٌ.

وقال ابنُ مسعودٍ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، من جاء بلا إله إلا الله، ومن جاء بالسيِّئَةِ يقول: بالشرك. وهكذا وَرَد عن جماعةٍ من السّلَفِ. وقد وَرَدَ فيه حديثٌ مرفوعٌ(٣)، والله أعلمُ بصحته، لكني لم أرَه من وَجهٍ يثبتُ، والأحاديثُ والآثارُ في هذا كثيرةٌ جداً، وفيما ذَكَرنا كفايةٌ، إن شاء الله تعالى، وبه الثِّقةُ.

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

يقولُ الله تعالى آمراً نبيَّه ـ ﷺ ـ سيِّدَ المرسلين أن يُخبر بما أنعم الله به عليه، من الهداية إلى صراطِه المستقيم، الذي لا اعوجاجَ فيه ولا انحرافَ: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾، أي: قائماً ثابتاً، ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقولِهِ: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، وقولِهِ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣]، وليس يلزمُ من كونه ـ عليه السلام ـ أُمِرَ باتِّباع ملةِ إبراهيمَ الحنيفيةِ أن يكونَ إبراهيمُ أكملَ منه فيها، لأنه ـ عليه السلام ـ قام بها قياماً عظيماً، وأُكملت له إكمالاً تاماً لم يَسْبِقه أحدٌ إلى هذا الكمالِ. ولهذا كان خاتَمَ الأنبياءِ، وسَيِّد وَلَدِ آدم على الإطلاق، وصاحِبَ المقام المحمودِ الذي يَرْغَبُ إليه الخلق كلُّهم حتى إبراهيمَ الخليل ـ عليه السلام ـ.

[٣٠٥٦] وقد قال ابن مَرْدُوَيه: حدثنا محمد بن عبد الله بن حفص، حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا شعبةُ، أنبأني سَلَمَةَ بن كُهَيل، سَمِعتُ ذَرّ بن عبد الله الهَمْدَانِيّ، يُحدِّثُ عن ابن أبْزَى، عن أبيه قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا أصبحَ قال: «أصبحنا على مِلَّةِ الإسلامِ، وكَلِمة الإخلاصِ، ودينِ نَبيِّنا محمد، ومِلَّةِ أبينا إبراهيمَ حَنيفاً وما كانَ من المشركين»(٤).

---

(١) أخرجه الطبراني ٣٤٥٩، وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٠٥٨: وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش. لم يسمع من أبيه شيئاً اهـ لكن يشهد له ما قبله، وفي الباب أحاديث تقويه، والله أعلم.

(٢) حسن. أخرجه الترمذي ٧٦٢ والنسائي في «الكبرى» ٢٧١٧ وابن ماجه ١٧٠٧ من حديث أبي ذر، وقال الترمذي: حسن صحيح. وأخرجه أحمد ٥/ ١٥٤ ح ٢٠٨٥٧ بلفظ «صوم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر، ويذهب مغلة الصدر...». وله شاهد من حديث قرة المزني أخرجه أحمد ٥/ ٣٥ وابن حبان ٣٦٥٢ ولم يذكر فيه الآية، وإسناده صحيح وله شاهد آخر من حديث عبد الله بن عمرو أخرجه البخاري ١٩٧٦ ومسلم ١١٥٩ ح ١٨١ وليس فيه ذكر الآية.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» ٣/ ١١٩ وعزاه لأبي الشيخ عن أبي هريرة أراه رفعه اهـ. وذكره عن ابن مسعود موقوفاً، وكذا عن ابن عباس، وتفرد أبي الشيخ برفعه يدل على وهنه، والله أعلم.

(٤) حسن. أخرجه أحمد ٣/ ٤٠٦ وابن السني ٣٣ والنسائي (١) كلاهما في اليوم والليلة، كلهم من حديث عبد الله بن =

[٣٠٥٧] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ، أخبرنا محمد بن إسحاقَ، عن داودَ بن الحُصَين، عن عكرمةَ، عن ابن عباسٍ قال: «قِيلَ لرسول الله ـ ﷺ ـ: «أيُّ الأديانِ أحبُّ إلى الله؟ قال: الحنيفيَّةُ السَّمْحَةُ»[١].

[٣٠٥٨] وقال أحمد أيضاً: حدثنا سُلَيمان بن داودَ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام ابن عُرْوَةَ، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «وَضَع رسول الله ـ ﷺ ـ ذَقْنِي على مَنْكِبه، لأنظر إلى زَفْنِ الحبشة، حتى كنتُ التي مَلِلْتُ فانصرفتُ عنه. قال عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال لي عُروَةُ: إنَّ عائشة قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ يومئذٍ: «لِتعَلَمْ يهودُ أنَّ في ديننا فُسحةً، إنِّي أرسلتُ بحَنيفيَّةٍ سَمْحَةٍ»[٢]. أصل الحديث مُخرَّج في الصَّحِيحين، والزيادةُ لها شَوَاهدُ من طرق مُتَعدِّدة، وقد استقصيتُ طُرُقها في شَرْحِ البخاري، ولله الحمدُ والمنَّةُ. وقولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾، يأمره تعالى أن يخبرَ المشركين الذين يعبدُون غير الله ويذبَحُونَ لغير اسمه، أنه مخالفٌ لهم في ذلك، فإن صلاتَهُ لله ونُسُكَه على اسمه وحدَه لا شريكَ له. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢]، أي: أخْلِصْ له صلاتَكَ وذَبِيحتك، فإنَّ المشركين كانُوا يَعبُدونَ الأصنام ويَذْبَحُون لها، فأمره الله تعالى بمخالَفتِهم والإنحرافِ عَمَّا هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعَزْم على الإخلاص لله تعالى. قد مجاهدٌ في قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾، قال: «النُسُكُ»: الذَّبحُ في الحجِّ والعُمْرَة. وقال الثوريُّ، عن السُّدِّيِّ، عن سعيد بن جُبَيرِ ﴿وَنُسُكِي﴾، قال: ذَبحي. وكذا قال السدِّيُّ والضحاك.

[٣٠٥٩] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أحمد بن خالد الوَهبِيُّ، حدثنا محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حَبِيب، عن أبي عياش[٣]، عن جابر بن عبد الله قال: ضَحَّى رسول الله ـ ﷺ ـ في يوم عيدٍ بكبشَينِ، وقال حين ذَبَحَهُما: «وجَّهتُ وجهي للذي فَطَر السمواتِ والأرضَ حَنيفاً وما أنا من المشركينَ، إن صلاتي ونُسُكي ومحيايَ ومماتي لله رب العالمين. لا شريكَ له وبذلك أُمِرتُ وأنا أول المسلمين» وقولُه عز وجل: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، قال قتادةُ: أي من هذه الأمة. وهو كما قال، فإنَّ جميعَ الأنبياء قبله كُلُّهم كانت دعوتُهم إلى الإسلام، وأصلهُ عبادةُ الله تعالى وحدَه لا شريكَ له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقد أخبر تَعالى عن نُوح أنه قال لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا

= أبزى، وحسنه ابن حجر والسيوطي، وصححه العراقي في «الإحياء» ١/ ٣٢٧ والنووي في «الأذكار» ١٩١ وقال: كذا وقع في كتاب ابن السني «ودين نبينا محمد»، وهو غير ممتنع، ولعله قال ذلك جهراً ليسمعه غيره فيتعلمه، والله أعلم.

(١) حسن. أخرجه أحمد ١/ ٢٣٦ والطبراني في «الكبير» ١١٥٧٢ وفي إسناده ابن إسحاق، وهو مدلس، ولم يصرح بالسماع كما في «المجمع» ١/ ٦٠ وفي الباب من حديث أبي هريرة عند الطبراني في «الأوسط» ٧٣٤٧ وإسناده ضعيف فيه عبد الله بن إبراهيم الغفاري منكر الحديث كما في «المجمع» ١/ ٦٠ وله شواهد. وانظر الحديث المتقدم في سورة البقرة عند آية: ١٨٥.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ١١٦ و٢٣٣ وإسناده جيد، وانظر «فتح الباري» ٢/ ٤٤٤. وأصله في الصحيحين دون عجزه كما ذكر المصنف، انظر «صحيح البخاري» ٥١٩٠ و«صحيح مسلم» ٨٩٢.

(٣) وقع في سائر النسخ «ابن عباس»، والتصويب عن سنن البيهقي ٩/ ٢٨٧.

وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢]، وقال يوسفُ ـ عليه السلام ـ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤ ـ ٨٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤]. . . الآية. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [المائدة: ١١١]. فأخبر تعالى أنه بعث رُسُلَه بالإِسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائِعِهم الخاصَّةِ التي يَنْسَخُ بعضُها بعضاً، إلى أن نُسِخت بشريعة محمد ـ ﷺ ـ التي لا تُنسَخُ أبَدَ الآبدين، ولا تزال قائمةً منصورةً، وأعلامُها مشهورةً إلى قيام الساعة.

[٣٠٦٠] ولهذا قال ـ عليه السلام ـ: «نحن ـ معاشر الأنبياء ـ أولادُ عَلاّتٍ، ديننا واحدٌ»[(١)]، فإن أولادَ العَلاّتِ هم الأخوةُ من أبٍ واحدٍ وأُمهاتٍ شَتَّى، فالدينُ واحدٌ، وهو عبادة الله وحدَه لا شريكَ له، وإن تَنَوَّعت الشرائعُ التي هي بمنزلة الأمهات، كما أن إخوةَ الأخيافِ عكسُ هذا، بنو الأمِّ الواحدةِ من آباءٍ شَتَّى، والإخوةُ الأعيانُ الأشقاءُ من أبٍ واحد وأمٍّ واحدة، والله أعلم.

[٣٠٦١] وقد قال الإِمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا عبدُ العزيز بن عبد الله الماجِشُون، حدثنا عبد الله بن الفضل الهاشميُّ، عن الأعرج، عن عُبَيد الله بن أبي رافع، عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا كَبَّر استفتح، ثم قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾، اللهم أنت المَلِكُ، لا إله إلاّ أنت، أنت رَبي وأنا عبدُك، ظلمتُ نفسي واعترفتُ بذنبي، فاغفِر لي ذُنوبي جميعاً، لا يَغفِرُ الذنوبَ إلاّ أنت. واهدِني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت. واصرف عَني سَيِّئها لا يصرِفُ عنه سَيِّئها إلا أنتَ. تباركتَ وتعاليتَ، أستغفِرُكَ وأتوبُ إليكَ»[(٢)]. ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والتَّشهُدِ. وقد رواه مسلمٌ في صَحِيحه.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاصِ العبادةِ له والتوكُّل عليه: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾، أي: أطلبُ رباً سِواه، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يُرَبِّيني ويحفظني ويكلؤني ويدبِّر أمري. أي: لا أتوكَّلُ إلاّ عليه، ولا أُنيبُ إلاّ إليه، لأنه ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه، وله الخلق والأمر. ففي هذه الآيةُ الأمر بإخلاص التوكُّل، كما تَضمَّنت الآيةُ التي قبلَها إخلاصَ العبادةِ لله وحده لا شريكَ له. وهذا المعنى يُقرَن بالآخَرِ كثيراً في القرآن، كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا له: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [المزمل: ٩]، وأشباه ذلك من الآياتِ.

---

(١) تقدم في سورة البقرة عند آية: ١٣٣.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٧٧١ وأبو داود ٧٦٠ والترمذي ٣٤٢٢ والنسائي ١٢٩٢ وأحمد ١/ ١٠٢ وابن حبان ١٧٧١.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، إخبارٌ عن الواقع يومَ القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعَدله، أنَّ النفوس إنما تُجازَى بأعمالها، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ. وأنه لا يُحمَلُ من خطيئةِ أحدٍ على أحدٍ. وهذا من عَدْلِهِ تعالى، كما قال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨]، وقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، قال علماء التفسير: أي فلا يُظلَم بأن يُحمَل عليه سَيِّئاتُ غيره، ولا يُهضَم بأن يُنقَصَ من حسناته. وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ [المدثر: ٣٨ـ٣٩]، معناه: كلُّ نفسٍ مُرتَهَنة بعملها السّيء إلاّ أصحابَ اليمين، فإنه قد تعود بركةُ أعمالهم الصالحة على ذراريهم وقراباتهم، كما قال في سورة الطور: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، أي: ألحقنا بهم ذُرِّياتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة، وإن لم يكونوا قد شاركُوهم في الأعمال، بل في أصل الإيمان، وما أَلَتْناهم، أي: ما أنقصْنا أولئك السادَةَ الرُّفعاء من أعمالهم شيئاً حتى ساويناهم وَهؤلاءِ الذين هم أنقصُ منهم منزلةً، بل رَفَعَهُم تعالى إلى منازلِ الآباءِ ببركة أعمالهم، بِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ. ثم قال: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، أي: من شرٍّ.

وقولُه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، أي: اعملوا على مكانتكم إنا عاملونَ على ما نحن عليه، فَستعرَضُون ونُعرَضُ عليه، ويُنَبِّئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كُنّا نختلف فيه في الدار الدنيا، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ: ٢٥ـ٢٦].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: جَعَلكم تَعمُرون الأرضَ جيلاً بعد جيل، وقَرْناً بعد قرن، وخَلَفاً بعد سَلَفٍ. قاله ابنُ زيدٍ وغيرُهُ، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزخرف: ٦٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقوله: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾، أي: فاوَتَ بينكم في الأرزاق والآجال، والمحاسن والمساويء، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقَولِهِ تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، وقَولِهِ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١]. وقولُه تعالى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، أي: ليختبِرَكُم في الذي أنعمَ به عليكم وامتحنكم به، ليختبِرَ الغنيَّ في غِناه ويسأله عن شُكره، والفقير في فَقْرِه ويسأله عن صَبْرِه.

[٣٠٦٢] وقد روى مسلمٌ في صَحِيحه، من حديث أبي نَضْرة، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الدنيا حُلوةٌ خَضِرة، وإن الله مُستَخلِفُكم فيها لينظُرَ كيف تعمَلُون، فاتَّقُوا الدنيا، واتَّقُوا النِّساء، فإن أوّلَ فتنةِ بني إسرائيل كانت في النساء»[1].

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٤٢ والترمذي ٢١٩١ وابن ماجه ٤٠٠٠ وأحمد ٣/١٩ و٢٢ وأبو يعلى ١١٠١ وابن حبان ٣٢٢١ والقضاعي ١١٤٢.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾، ترهيبٌ وترغيبٌ، أنَّ حِسابَه وعقابَه سريع ممن عَصَاه وخالَفَ رُسُله. ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ لمن والاه واتَّبع رُسُلَه فيما جاؤوا به من خَبرٍ وطَلَبٍ. وقال محمد بن إسحاق: يرحَم العباد على ما فيهم. رواه ابن أبي حاتم. وكثيراً ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين، كما قال: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]، وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وغير ذلك من الآيات المشتملة على التَّرغيب والتَّرهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبةِ وصفةِ الجنةِ والتَّرغيبِ فيما لديه، وتارةً يدعُوهم إليه بالرَّهبة وذِكْر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارةً بهذا وبهذا لينجَعَ في كل بحسبه. جَعَلَنا الله ممن أطاعه فيما أمر، وتَرك ما نَهى عنه وزَجَر، وصَدَّقه فيما أخبَرَ، إنه قريبٌ مجيبٌ سَمِيعُ الدعاء، جَوَادٌ كريمٌ وهَّاب.

[٣٠٦٣] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا زُهير، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هُرَيرةَ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لو يعلَمُ المؤمنُ ما عند الله من العُقُوبة ما طَمِعَ بالجنة أحد. ولو يعلم الكافرُ ما عند الله من الرحمة ما قَنِطَ من الجنة أحدٌ. خَلَق الله مئة رحمةٍ فوضَعَ واحدةً بين خَلْقِهِ يتراحَمُون بها، وعند الله تسعة وتسعون»[(١)]. ورواه الترمذي، عن قتيبة، عن عبد العزيز الدراوَردي، عن العلاء، به. وقال: حَسَن. ورواه مسلم، عن يحيى بن يحيى، وقتيبة، وعلي بن حجر وثلاثتهم عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء.

[٣٠٦٤] وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لما خلق الله الخلق كتب في كتابٍ، فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي تغلبُ غضبي»[(٢)].

[٣٠٦٥] وعنه أيضاً قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «جعل الله الرحمة مئة جزءٍ، فأمسك عنده تسعةً وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابَّة حافرها عن ولدها خشيةً من أن تصيبه»[(٣)]. رواه مسلم.

* * *

آخر تفسير سورة الأنعام، ولله الحمد والمنّة

(١) تقدم في سورة الفاتحة عند آية: ٣.

(٢) صحيح، أخرجه مسلم ٢٧٥١ عن أبي هريرة، وقد تقدم عند آية: ١٢ و٥٣ من هذه السورة.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٠٠٠ ومسلم ٢٧٥٢ وابن حبان ٦١٤٨ والبيهقي في «الآداب» ٣٥.



وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

قد تقدَّم الكلام في أول «سورة البقرة» على ما يتعلق بالحروف وبسطه، واختلاف الناس فيه. وقال ابن جرير: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا أبي، عن شَريك، عن عَطاء بن السائب، عن أبي الضُّحى، عن ابن عباس: ﴿الٓمٓصٓ﴾، «أنا الله أفصل»(١). وكذا قال سعيد بن جُبَير. قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، أي: هذا كتابٌ أنزِل إليك، أي: من ربك، ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾، قال مجاهد، وقتادة، والسدّيُّ: شك منه. وقيل: فلا تتحرَّج به في إبلاغِه والإنذار به، واصبِرْ كما صَبَر أولو العَزْم من الرسُلِ، ولهذا قال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾، أي أنزلَ إليك لتنذر به الكافرين، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: اقتفوا آثار النبيِّ الأميِّ الذي جاءكم بكتاب أنزل من رب كلِّ شيء ومليكِهِ، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾، أي: لا تخرُجوا عما جاءكم به الرسولُ إلى غيره، فتكونوا قد عَدَلتم عن حكم الله إلى حُكم غيره. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣] الآية، وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦].

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾: أي: بمخالفةِ رُسُلِنا وتَكذيبهم، فأعقَبهم ذلك خِزيَ الدنيا موصولاً بذلِّ الآخرةِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ [الأنعام: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝٤٥﴾ [الحج: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ

---

(١) موقوف ضعيف. أخرجه الطبري ١٤٣١٥ بإسناد واهٍ، وله ثلاث علل: سفيان بن وكيع تغير حفظه، لذا ضعفه غير واحد، وشريك صدوق إلا أنه سيىء الحفظ، وعطاء بن السائب اختلط بأخرة. والوارد عن سعيد ابن جبير فيه أيضاً عطاء بن السائب.

مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨]. وقوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾، أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بَيَٰتًا﴾، أي: ليلاً. ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾، من القيلولة، وهي: الاستراحةُ وسطَ النهار. وكلا الوقتين وقت غَفلةٍ ولَهوٍ، كما قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف: ٩٧ ـ ٩٨]، وقال: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥ ـ ٤٧].

وقولُه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾، أي: فما كان قولُهم عند مجيءِ العَذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا. كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾. . . إلى قوله: ﴿خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١].

[٣٠٦٦] قال ابن جرير: في هذه الآية الدلالةُ الواضحةُ على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ـ ﷺ ـ من قوله: «ما هلك قوم حتى يُعْذروا من أنفسهم». حدثنا بذلك ابن حميد، حدثنا جرير، عن أبي سنان، عن عبد الملك بن ميسرة الزرّاد قال: قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما هلك قوم حتى يُعْذِروا من أنفسهم». قال: قلت لعبد الملك: كيف يكونُ ذاك؟ قال: فقرأ هذه الآية: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص: ٦٥]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة: ١٠٩]، فالرَّبُّ تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته. ولهذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾، وقال: يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المرسلين عما بلَّغوا.

[٣٠٦٧] وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا أبو سعيد الكِنْدي، حدثنا المحاربي، عن ليث، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كُلُّكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام يُسأَل عن رعيَّته، والرجل يسأل عن أهله، والمرأة تُسألُ عن بيت زوجها، والعبد يُسألُ عن مال سيده». قال الليث: وحدثني ابن طاووس، مثله، ثم قرأ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾[2]. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون هذه الزيادة. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾: يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون. ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾، يعني أنه تعالى يخبر عباده يومَ القيامة بما قالوا وبما عَمِلوا،

---

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري ١٤٣٢٨، وفيه انقطاع. عبد الملك بن ميسرة تابعي صغير، لم يدرك ابن مسعود، وصحة معنى الحديث، أو صحة الكلام، لا يعني صحة رفعه إلى النبي ﷺ، خلافاً لأبي جعفر الطبري رحمه الله، وقد خالفه ابن أبي حاتم، فرواه موقوفاً على ابن مسعود كما في الدر المنثور ٣/١٢٦ وهو أصح من المرفوع، والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري ٨٩٣ و٢٤٠٩ ومسلم ١٨٢٩ وأبو داود ٢٩٢٨ والترمذي ١٧٠٥ وابن حبان ٤٤٧٢ والبيهقي ٦/٢٨٧ دون ذكر الآية.

من قليل وكثير، وجليل وحقير، لأنه تعالى شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تُخفي الصدور، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾، أي: للأعمال يوم القيامة ﴿ٱلْحَقُّ﴾، أي: لا يظلم تعالى أحداً، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ [القارعة: ٦ ـ ١١]. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١ ـ ١٠٣].

فصل: والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال وإن كانت أعراضاً، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً. قال البغوي: يُرْوَى هذا عن ابن عباس.

[٣٠٦٨] كما جاء في الصحيح من أن «البقرة» و«آل عمران» يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ـ أو غَيَايتان ـ أو فِرْقَان من طير صَوَافّ[١].

[٣٠٦٩] وكذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: «أنا القرآنُ الذي أَسْهَرتُ ليلك وأظمأتُ نهارَك»[٢].

[٣٠٧٠] وفي حديث البراء، في قِصَّة سُؤالِ القبر: «فيأتي المؤمنَ شابٌ حَسَنُ اللون طيِّبُ الرِّيحِ، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عَمَلُكَ الصالحُ»[٣]، وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق.

[٣٠٧١] وقيل: يوزن كتاب الأعمال، كما جاء في حديث البطاقة، في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفّة تسعة وتسعون سِجْلاً، كل سجل مد البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: «لا إله إلا الله» فيقول: يا ربِّ، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: «إنك لا تُظْلَم». فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة»[٤]. رواه الترمذي بنحو من هذا، وصححه.

---

(١) تقدم في سورة البقرة.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٣٧٨١ وأبو عبيد بن سلام في «فضائل القرآن» ص ٣٦ ـ ٣٧ وأحمد ٥/٣٤٨ وأبو الفضل الرازي في «فضائل القرآن» ١٣٠ من حديث بريدة، وصححه الحاكم على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، وفي إسناده بشير بن مهاجر الغنوي مختلف فيه.

(٣) حسن. أخرجه أحمد ٤/٢٨٧ والبيهقي في «عذاب القبر» ٥٥ وذكره المنذري في «الترغيب» ٥٢٢١ وقال: هذا الحديث حديث حسن، رواته محتج بهم في الصحيح. وفي الباب أحاديث كثيرة.

(٤) يأتي في سورة الأنبياء عند آية: ٤٧ إن شاء الله.

[٣٠٧٢] وقيل: يُوزَنُ صاحبُ العملِ. كما في الحديث: «يُؤتَى يومَ القيامةِ بالرَّجل السَّمِين، فلا يَزِنُ عند الله جناحَ بَعُوضةٍ» ثم قرأ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[١].

[٣٠٧٣] وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أتعجَبُونَ من دِقَّةِ ساقيه، فوالذي نَفْسِي بيده لهما في الميزان أثقلُ من أحُدٍ»[٢]. وقد يمكِنُ الجمعُ بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كلُّه صحيحاً، فتارةً تُوزَنُ الأعمالُ، وتارةً توزَنُ مَحالُّها وتارةً يُوزَن فاعِلُها، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى مُمْتَنّاً على عَبِيده فيما مكَّن لهم من أنه جعَلَ الأرض قراراً، وجعل لها رواسي وأنهاراً، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً، وأباح لَهم منافعها، وسَخَّر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم ﴿فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أي: مكاسب وأسباباً يَتَّجِرون فيها، ويَتَسَبَّبُون أنواعَ الأسباب، وأكثرُهم مع هذا قليلُ الشكرِ على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وقد قرأ الجميع ﴿مَعَٰيِشَ﴾ بلا هَمْزٍ، إلا عبدَ الرحمن بن هُرْمز الأعرجَ فإنَّه همزها. والصواب الذي عليه الأكثرونَ بلا همز، لأن معايش جمع معيشةً، من عاش يعيش عيشاً، ومعيشة أصلها مَعْيِشَةٌ فاستُثْقِلت الكسرةُ على الياء، فَنُقِلَت إلى العين فصارت مَعِيشة، فلما جُمعت رَجَعَتِ الحركةُ إلى الياءِ لزوال الاستثقالِ، فقيل: معايشِ، ووزنُه مفاعِلُ، لأن الياء أصليةٌ في الكلمةِ بخلاف مدائن وصحائف وبصائر، جمع مَدِينةٍ وصحيفة وبصيرةٌ، مِن مَدَنَ وصَحُفَ وأبصَرَ، فإن الياء فيها زائدة، ولهذا تُجمَعُ على فعائِلَ، وتهمَزُ لذلك. والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

يُنَبِّه تعالى بني آدم في هذا المقام على شَرَف أبيهم آدمَ، ويُبيِّن لهم عَدُوَّهم إبليس، وما هو مُنْطوٍ عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدمَ، ليحذَرُوه ولا يَتَّبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٢٩]، وذلك أنه تعالى لما خَلَقَ آدم ـ عليه السلام ـ بيده من طين لازب، وصَوَّره بَشَراً، ونَفَخَ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الربِّ تعالى وجَلالِه، فَسَمِعوا كلُّهم وأطاعوا، إلا إبليسَ لم يكن من الساجدينَ. وقد تَقَدَّم الكلامُ على إبليسَ في أول تفسير «سورةُ البقرةِ». وهذا الذي قَرَّرناهُ هو اختيارُ ابن جريرٍ، أنَّ المراد بذلك كله آدمُ عليه السلامُ.

وقال سُفيان الثوري، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سَعيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾، قال: خُلِقوا في أصلاب الرجال، وصُوِّروا في أرحام النساء. رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ونقله ابنُ جرير عن بعض السلف أيضاً أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم: الذرية.

---

(١) الكهف: ١٠٥. والحديث أخرجه البخاري ٤٧٢٩ ومسلم ٢٧٨٥ من حديث أبي هريرة.

(٢) جيد. أخرجه أحمد ١/ ٤٢٠ والطيالسي ٢٥٦١ وأبو يعلى ٥٣١٠ وإسناده حسن لأجل عاصم بن بهدلة انظر «مجمع الزوائد» ٩/ ٢٨٩. ويشهد له حديث علي عند أحمد ١/ ١١٤ وأبو يعلى ٥٣٩ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٩/ ٢٨٨ وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجالهم رجال الصحيح. غير أم موسى، وهي ثقة اهـ.

وقال الربيع بن أنس، والسدي، وقتادة، والضحاك في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، أي: خلقنا آدم ثم صورنا الذرية. وهذا فيه نظر، لأنه قال بعده: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، فدل على أن المراد بذلك آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر، كما يقول تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن الرسول ـ ﷺ ـ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: ٥٧]، والمراد آباؤهم الذين كانوا في زمان موسى، ولكن لما كان ذلك منّةً على الآباء الذين هم أصل صار كأنه واقعٌ على الأبناء. وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢)﴾ [المؤمنون: ١٢]. . . الآية، فإنَّ المرادَ منه آدمُ المخلوق من السلالة، وذريَّته مخلوقون من نُطفةٍ، وصَحَّ هذا لأنَّ المرادَ في ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ الجنسُ لا معيناً. والله أعلم.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)﴾

قال بعضُ النحاة في توجيه قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: «لا» هاهنا زائدة. وقال بعضهم: زِيدَتْ لتأكيدِ الجَحْد، كقول الشاعر:

ما إن رأيــتُ ولا سَـمِـعــتُ بـمـثـلـه

فأدخل «إن»، وهي للنفي، على «ما» النافية لتأكيد النفي، قالوا: وكذلك هاهنا: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾، مع تقدم قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾. حكاهما ابن جرير، وردَّهما، واختار أن «منعك» تضمن معنى فعلٍ آخر تقديره: ما أحرجَكَ وألزمَكَ واضطرك ألاَّ تسجد إذ أمرتك؟ ونحو ذلك. وهذا القول قوي حسن، والله أعلم. وقولُ إبليس ـ لعنه الله ـ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضلُ بالسجود للمفضولِ، يعني لعنه الله: وأنا خير منه، فكيف تأمرني بالسجود له؟! ثم بَيّن أنه خيرٌ منه بأنه خُلِق من نار، والنار أشرفُ مما خلقْتَه منه، وهو الطين. فنظر اللعينُ إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم. وهو أن الله تعالى خَلَقَ آدم بيده، ونَفَخَ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نصِّ قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، فشذَّ من بين الملائكة بتَرْكِ السجود، فلهذا أبلسَ من الرحمة، أي: أُويس من الرحمة، فأخطأ قَبّحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرفُ من الطين أيضاً، فإن الطينَ من شأنه الرزانةُ والحلم والأناة والتثبيت، والطينُ محلُّ النبات والنمو والزيادة والإصلاح. والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة. ولهذا خان إبليسَ عُنصُرُه ونفع آدمَ عنصرهُ في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.

[٣٠٧٤] وفي صحيح مسلم، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال ـ ﷺ ـ: «خُلِقَت الملائكة من نُورٍ وخُلِقَ إبليسُ من مارجٍ من نارٍ، وخُلِق آدمُ مما وُصِفَ لكم»[١]. هكذا رواه مسلم.

[٣٠٧٥] وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود، حدثنا نُعَيم بن حَمَّاد، حدثنا عبد الرزّاق، عن معمر، عن الزُهري، عن عُروَةَ، عن عائشة قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «خَلَقَ الله الملائكة من نور العرش، وخَلَقَ الجان من مارجٍ من نار، وخَلَقَ آدم مما وُصِف لكم» قلت لنُعيمِ بن حَمَّاد: أين سَمِعت هذا من عبد الرزّاق؟ قال: باليمن[٢].

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٩٦ وأحمد ٦/ ١٥٣ و١٦٨ وابن حبان ٦١٥٥. والبيهقي في «الصفات» ٢/ ١٢٦.

(٢) إسناده ضعيف. عبد الله بن مسعود الراوي عن نعيم لم أعثر على ترجمة له، وشيخه نعيم بن حماد الخزاعي وثقه أحمد =

[٣٠٧٦] وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في غير الصحيح: «وخُلِقَتِ الحورُ العينُ من الزّعفران»[١].

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن كثير، عن ابن شَوْذَب، عن مطر الورّاق، عن الحسن في قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، قال: قاس إبليسُ، وهو أوّلُ من قاسَ. إسناده صحيح. وقال: حدثني عمرو بن مالك، حدثني يحيى بن سليم الطائفي، عن هشام، عن ابن سيرين قال: أوّلُ من قاسَ إبليسُ، وما عُبِدَتِ الشمسُ والقمرُ إلا بالمقاييس. إسناد صحيح أيضاً.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ۝١٣ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥﴾

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قَدَرِيّ كونيّ: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾، أي: بسبب عصيانِكَ لأمري، وخُروجِك عن طاعتي، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، قال كثيرٌ من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى، ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾، أي: الذليلين الحقيرين، معاملةً له بنقيضِ قَصْدِهِ، ومكافأةً لمراده بضده. فعند ذلك استدرك اللعينُ وسأل النَّظِرَةَ إلى يوم الدين، وقال: ﴿أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥﴾، أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع، ولا مُعقِّب لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ۝١٧﴾

يخبر تعالى أنه لما أنذر إبليسَ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، واستوثق إبليسُ بذلك، أخذ في المعاندة والتمرُّد، فقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، أي: كما أغويتني. قال ابن عباس: كما أضللتني. وقال غيره: كما أهلكتني لأقعدنَّ لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه، على صِراطك المستقيم، أي: طريق الحق وسبيل النجاة، فَلأُضلَّنَّهم عنها لئلا يعبدوك ولا يُوَحِّدوك بسبب إضلالك إياي. وقال بعض النحاة: الباء هاهنا قسمية، كأنه يقول: فبإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم. قال مجاهد: ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، يعني: الحق. وقال محمد بن سوقة، عن عون بن عبد الله: يعني طريق مكة. قال ابن جرير: والصحيحُ أن الصراط المستقيم أعم من ذلك كلّه.

[٣٠٧٧] قلت: لما روى الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عقيل ـ يعني الثقفي عبد الله بن عقيل ـ حدثنا موسى بن المسيَّب، أخبرني سالم بن أبي الجعد، عن سبرةَ بن أبي فاكهٍ قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطْرُقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين

= ويحيى. لكن ذكر يحيى أنه يخطىء. وقال أبو داود: كان عند نعيم نحو عشرين حديثاً عن رسول الله ﷺ ليس لها أصل. وقال النسائي: ضعيف. لا يحتج به. وقال الأزدي: كان ممن يضع الحديث لتقوية السنة. وقال ابن يونس: روى مناكير عن الثقات. وذكر له ابن عدي مناكير. راجع الميزان ٩١٠٢. وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ٢٠٩٠٤ عن معمر به دون قوله «العرش». وهذا اللفظ تفرد به ابن مردويه عن نعيم بن حماد، ولا يتابع عليه.

(١) ضعيف جداً، أخرجه الخطيب ٧/٩٩ من حديث أنس، ومداره على الحارث بن خليفة، وهو مجهول كما في الميزان ١٦١٤ وقد ورد عن مجاهد وزيد بن أسلم موقوفاً عليهما، وسيأتي، والأشبه أنه متلقى عن أهل الكتاب، والله أعلم.

آبائك؟. قال: فعصاه وأسلم. قال: وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وَتَذَرُ أرْضَك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطِّوَل. فعصاه وهاجر ـ ثم قعد له بطريق الجهاد ـ وهو جهاد النفس والمال ـ فقال: تقاتل فَتُقتَلُ، فتنكحُ المرأةُ ويقسَم المالُ؟. قال: فعصاه فجاهد ـ قال رسول الله ـ ﷺ ـ: فمن فَعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وَإنْ قُتِل كان حقاً على الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يدخله الجنة. وإن غَرِق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وَقَصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة»[1].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾. . . الآية. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، أشكّكهم في آخرتهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، أرغبهم في دنياهم، ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، أشبّه عليهم أمر دينهم، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾، أشهّي لهم المعاصي. وقال ابن أبي طلحة ـ وفي رواية ـ والعوفي، كلاهما عن ابن عباس: أما ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، فمن قبل دنياهم، وأما ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، فأمر آخرتهم، وأما ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، فمن قِبَلَ حسناتهم، وأما ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾، فمن قِبَل سيئاتهم. وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة: أتاهم ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، من أمر الدنيا فزيّنها لهم ودعاهم إليها، و﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ من قِبَلَ حسناتهم بَطّأهم عنها، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾، زين لهم السيئات والمعاصي، ودعاهم إليها، وأمرهم بها. أتاك يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله. وكذا رُوي عن إبراهيم النخَعي، والحكم بن عتيبة، والسدِّي، وابن جريج، إلا أنهم قالوا: ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الدنيا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآخرة. وقال مجاهد: من بين أيديهم وعن أيمانهم: حيث يبصرون، ومن خلفهم وعن شمائلهم: حيث لا يبصرون. واختار ابن جرير أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصدهم عنه، والشر يُحَبِّبُه لهم. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾، ولم يقل: من فوقهم، لأن الرحمة تنزل من فوقهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾، قال: موحِّدين. وقولُ إبليس هذا إنما هو ظنٌّ منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٢١﴾ [سبأ: ٢٠ ـ ٢١]. ولهذا وَرَد في الحديث الاستعاذةُ من تَسَلُّط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، كما قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده:

[٣٠٧٨] حدثنا نصر بن علي، حدثنا عمرو بن مُجَمّع، عن يونس بن خَبّاب، عن ابن جُبير بن مطعم ـ يعني نافع بن جُبَير ـ عن ابن عباس، ـ وحدثنا عمر بن الخطاب ـ يعني السجستاني ـ حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن زيد بن أبي أنيسة، عن يونس بن خَبّاب ـ عن ابن جبير بن مطعم ـ عن ابن عباس قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي. اللهم استُر عَوْرتي وآمِن رَوْعتي، واحفظني من بين يديَّ، ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي»[2]. تفرد به البَزّار، وحَسّنه.

---

(١) أخرجه النسائي ٦/ ٢١ ـ ٢٢ وأحمد ٣/ ٤٨٣ وابن حبان ٤٥٩٣ وإسناده لا بأس به، انظر «أحكام القرآن» لابن العربي ١٠٩٢. بتخريجي، طبع دار الكتاب العربي.

(٢) حديث حسن، وهو في كشف الأستار ٤/ ٦٠. وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ٦٩٨ من طريق عبيد الله ابن عمرو به، لكن جعله من حديث ابن عمر وانظر الحديث الآتي.

[٣٠٧٩] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا وكيع حدثنا عبادة بن مسلم الفزاري، حدثنا جبير بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم، سمعت عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسولُ الله يَدَعُ هؤلاء الدعواتِ حينَ يصبحُ وحينَ يمسي: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة. اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي. اللهم استر عوراتي، وآمن رَوْعاتي. اللهم احفظني من بين يديّ ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتِكَ أن أُغتالَ من تحتي»[1] قال وكيع: يعني الخسف. ورواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حِبَّان، والحاكم من حديث عُبادة بن مسلم، به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

أكّد تعالى اللعنةَ والطردَ والإبعاد والنفيَ عن محلّ الملأ الأعلى بقوله: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾. قال ابن جرير: «أما «المذؤوم»، فهو المَعِيب، والذَّأْمُ ـ غير مشدَّد ـ: العيبُ يقال: «ذَأَمه يَذْأَمه ذَأْماً فهو مذؤوم». ويتركون الهمز فيقولون: «ذِمْته أَذِيمه ذَيماً وذَاماً»، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم. قال: «والمدحور: المُقْصَى، وهو المبعد المطرود». وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف «المذؤوم» و«المذموم» إلا واحداً. وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾، قال: مَقِيتاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: صَغِيراً مقيتاً. وقال السدّيّ: مَقِيتاً مطروداً. وقال قتادة: لَعِيناً مقيتاً. وقال مجاهد: مَنْفِياً مطروداً. وقال الربيعُ بن أنس: مذؤوماً: منفيّاً، والمدحورُ المصَغَّرُ. وقوله تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. كقوله: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٣ ـ ٦٥].

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾

يذكر تعالى أنه أباح لآدمَ عليه السلامُ ولزوجتِه حَوَّاءَ الجنةَ أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرةً واحدةً. وقد تقدَّم الكلام على ذلك في «سورة البقرة»، فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والخديعة والوسوسة ليُسْلبا ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن، وقال كذباً وافتراءً: ما نهاكما ربكما عن أكل هذه الشجرة إلا لتكونا ملكين أي: لئلا تكونا ملكين خالدين هاهنا. ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلك، كقوله: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] أي، لئلا تكونا ملكين، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦] أي: لئلا تضلوا. ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] أي: لئلا تميد بكم. وكان ابن عَبَّاسٍ ويحيى بنُ أبي كثيرٍ يقرآن: «إلاَّ أن تَكُونا مَلِكَيْنِ» بكسر اللام. وقرأه الجمهور بفتحها. ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾، أي: حلف لهما بالله، ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، فإني من قَبْلكما ها

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٥٠٧٤ والنسائي ٨/ ٢٨٢ وابن ماجه ٣٨٧١ وأحمد ٢/ ٢٥ والبخاري في «الأدب المفرد» ١٢٠٠ وصححه ابن حبان ٩٦١ وكذا الحاكم ١/ ٥١٧ ـ ٥١٨ ووافقه الذهبي، وإسناده حسن، رجاله ثقات.

هنا، وأعلم بهذا المكان. وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين، كما قال خالد بن زُهَير، ابنُ عَمِّ أبي ذُؤيبٍ:

وقاسَمَها بالله جَهْداً لأنتمُ ألذُّ من السَّلْوَى إذا ما نَشُورها

أي: حلف لهما بالله على ذلك. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾: فحلف لهما بالله حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله، فقال: إني خُلِقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أرشدكما. وكان بعض أهل العلم يقول: «من خادعنا بالله خُدعنا له».

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾

[٣٠٨٠] قال سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه قال: كان آدم رجلاً طُوَالاً، كأنه نخلة سَحُوق، كثير شعر الرأس. فلما وقع بما وقع به من الخطيئة، بدت له عورته عند ذلك، وكان لا يراها، فانطلق هارباً في الجنة فتعلَّقَتْ برأسِه شجرةٌ من شَجَرِ الجنة، فقال لها: أرسليني. فقالت: إني غير مرسلتك. فناداه ربه عز وجل: يا آدم، أمنّي تفر؟ قال: ربِّ إني استحيتُك. وقد رواه ابنُ جرير، وابن مَرْدُويه، من طُرُق، عن الحسن، عن أبيّ بن كعب، عن النبي ـ ﷺ ـ[1]، والموقوف أصح إسناداً. وقال عبد الرزاق: أخبرنا سفيان بن عيينة وابن المبارك، عن الحسن بن عمارة[2]، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته، السنبلة، فلما أكلا منها ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾، وكان الذي وارى عنهما من سوآتهما أظفارهما، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ ورَق التينِ، يلزقان بعضه إلى بعض، فانطلق آدم ـ عليه السلام ـ مولياً في الجنة، فعلقت برأسه شجرةٌ من الجنة، فناداه الله: يا آدم، أمنّي تفر؟ قال: لا، ولكني استحيتُك يا ربِّ. قال: أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مندوحةٌ عما حرَّمت عليك؟ قال: بلى يا رب، ولكن وعزَّتك ما حَسِبت أن أحداً يَحلِفُ بك كاذباً. قال: وهو قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾. قال: فبعزتي لأهبطنَّكَ إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا كَدًّا. قال: فأُهبط من الجنة، وكانَا يأكلان منها رغداً، فأُهبِطَ إلى غير رغد من طعام وشراب، فعُلِّم صنعةَ الحديد، وأُمِرَ بالحرث، فحرث وزرعَ ثم سقى، حتى إذا بلغ حصد، ثم داسه، ثم ذرّاه، ثم طحنه، ثم عجنهُ، ثم خبزه، ثم أكله، فلم يَبْلَعه حتى بُلِّغَ منه ما شاء الله أن يَبْلَغ.

وقال الثوري، عن ابن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾، قال: ورق التين. صحيح إليه. وقال مجاهد: جعلا يَخْصِفان عليهما من ورق الجنة كهيئة الثوب. وقال وهب بن مُنَبِّه في قوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾، قال: كان لباس آدم وحواء نُوراً على فُروجهما، لا يَرَى هذا عَورة هذه، ولا هذه عَوْرَة هذا. فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما. رواه ابن جرير بإسناد صحيح إليه. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة قال: قال آدم: أي ربِّ، أرأيت إن تُبتُ واستغفرت؟ قال: إذاً أدخلك الجنة. وأما إبليس فلم يسأله التوبة، وسأله النَّظِرَةَ، فأعطى كل واحد منهما

(١) الصواب موقوف، وتقدم في سورة البقرة.

(٢) الحسن بن عمارة متروك، وهذا الخبر وما بعده، من كتب الأقدمين.

الذي سأله. وقال الضحاك بن مزاحم في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾: هي الكلمات التي تلقّاها آدم من ربِّه. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أكل آدم من الشجرة قيل له: لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني. قال: فإني قد أعقبتها ألاّ تحمل إلا كَرْهاً، ولا تضع إلا كَرْهاً. قال: فرَنَّت[1] عند ذلك حواء، فقيل لها: الرنَّةُ عليك وعلى ولدك.

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قيل: المراد بالخطاب في ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾: آدم، وحواء، وإبليس، والحية. ومنهم من لم يذكر الحية، والله أعلم. والعمدةُ في العداوة آدمُ وإبليس، ولهذا قال تعالى في سورة «طه» قال: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ . . . الآية، وحواء تبعٌ لآدم. والحية ـ إن كان ذكرها صحيحاً ـ فهي تَبَعٌ لإبليس. وقد ذكر المفسرون الأماكنَ التي هَبَط فيها كلٌّ منهم، ويرجعُ حاصلُ تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها. ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسولُه ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، قال: قرارٌ وأعمارٌ مضروبةٌ إلى آجالٍ معلومةٍ، قد جرى بها القلمُ، وأحصاها القدرُ، وسُطِرت في الكتاب الأول. وقال ابن عباس: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: القبورُ. وعنه: وجه الأرض وتحتها. رواهما ابن أبي حاتم. وقولُه: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾، كقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥] ـ يخبر تعالى أنه جَعَل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ويجازي كلاً بعمله.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يَمتنُّ تبارك وتعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش، فاللباس المذكور هاهنا لستر العورات ـ وهي السوآت ـ والرياش والريش: هو ما يُتجمَّل به ظاهراً، فالأول من الضروريات، والريش من التكميلاَت والزيادات. قال ابن جرير: الرياش في كلام العرب: الأثاث، وما ظهر من الثياب. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ـ وحكاه البخاري ـ عنه: الريشُ: المالُ. وكذا قال مجاهد، وعروة ابن الزبير، والسدي، والضحاك: (الرِّياش: المالُ). وقال العَوفي، عن ابن عباس: الرِّياش: اللِّباس، والعيش، والنعيم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرياش: الجمال.

[٣٠٨١] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أصْبَغُ، عن أبي العلاء الشامي قال: «لبس أبو أمامة ثوباً جديداً، فلما بلغ تَرْقوتَه قال: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عَوْرَتي، وأتجمَّل به في حياتي. ثم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: من استَجَدَّ ثوباً فلبسه، فقال حين يبلغ ترقوته: «الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي، وأتجمل به في حياتي»، ثم عمد إلى الثوب الذي

---

(١) أي صاحت.

خَلُقَ أو: ألقي، فتصدق به، كان في ذمة الله، وفي جوار الله، وفي كَنَفِ الله حياً وميتاً»[١]. ورواه الترمذي، وابن ماجه، من رواية يزيد بن هارون، عن أصبغ ـ هو ابن زيد الجهني ـ وقد وثقه يحيى بن معين وغيره، وشيخه «أبو العلاء الشامي» لا يعرف إلا بهذا الحديث، ولكن لم يجرحه[٢] أحد، والله أعلم.

[٣٠٨٢] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عُبيد: حدثنا مختار بن نافع التمار، عن أبي مطر: أنه رأى علياً ـ رضي الله عنه ـ أتى غلاماً حدثاً، فاشترى منه قَمِيصاً بثلاثة دراهم، ولبسه إلى ما بين الرسغين إلى الكعبين، يقول حين لبسه: الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأواري به عورتي. فقيل: هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن نبي الله ﷺ؟ قال: هذا شيء سمعته من رسول الله ـ ﷺ ـ يقول عند الكسوة: «الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأواري به عورتي»[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ ـ قرأ بعضهم: «ولباسَ التقوى»، بالنصب. وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء، و﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ خبره. واختلف المفسرون في معناه، فقال عكرمةُ: يقال: هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة. رواه ابن أبي حاتم. وقال زيدُ بن علي، والسدّيُّ، وقتادةُ، وابن جُرَيج: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: الإِيمان. وقال العوفي، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: العمل الصالح. وقال ذيال بن عمرو، عن ابن عباس: هو السَّمْتُ الحَسَنُ في الوجه. وعن عروة بن الزبير ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: خشية الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: يتقي الله، فيواري عورته، فذلك لباسُ التقوى. وكل هذه متقاربة.

[٣٠٨٣] ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه ابن جرير حيث قال: حدثني المثنى، حدثني إسحاقُ بن الحجاج، حدثنا إسحاقُ بن إسماعيلَ، عن سُليمانَ بن أرقَمَ، عن الحسن قال: رأيت عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ على مِنْبَرِ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ عليه قميصٌ قُوهِيٌّ[٤] محلول الزِّرِّ، وسمعته يأمر بقتل الكلاب، وينهى عن اللعب بالحمام، ثم قال: يا أيها الناس، اتَّقوا الله في هذه السرائر، فإنّي سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «والذي نفسُ محمدٍ بيدِه، ما عَمِلَ أحدٌ قطُّ سرًّا إلا ألبسه الله رداءَ علانيةٍ، إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً. ثم

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٥٦٠ وابن ماجه ٣٥٥٧ والحاكم ٤/ ١٩٣ وابن السني في «اليوم والليلة» ٢٧٢ والبيهقي في «الآداب» ٦٤١ وأحمد ١/ ٤٤. قال الترمذي: غريب، ورواه يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن علي ابن زيد عن القاسم عن أبي أمامة اهـ وعلي بن زيد متروك وابن زحر فيه ضعف وكذا القاسم. فهذه متابعة واهية. وهي في المستدرك ٤/ ١٩٣ ح ٧٤١٠. وقال المنذري عن الإسناد الأول: أبو العلاء مجهول اهـ. وكذا قال الحافظ عنه في التقريب: مجهول. والخبر منكر بهذا التمام، وللذكر عند لبس الثوب فقط شواهد تقويه، ومنها ما يأتي، والوهن فقط في عجزه، والله أعلم.

(٢) وقع في كافة النسخ «يخرجه» وهذا إما سبق قلم، أو سهو من الناسخ، والله الموفق.

(٣) حسن لشواهده. أخرجه أبو يعلى ٢٩٥ وأحمد ١/ ١٥٨ ح ١٣٥٤ وعبد الله ١٣٥٢ من حديث علي، وإسناده ضعيف، قال الهيثمي في «المجمع» ٨٤٩١: فيه مختار بن نافع، وهو ضعيف اهـ وفيه أبو مطر البصري مجهول كما قال أبو حاتم والذهبي. لكن يشهد للمرفوع منه ما قبله. وله شاهد من حديث ابن عمر أخرجه الطبراني في «الأوسط» ١٠٧٧ لكن فيه أبو داود الأعمى وهو متروك. وله شاهد من حديث معاذ بن أنس أخرجه أبو داود ٤٠٢٣ والحاكم ٤/ ١٩٢ ح ٧٤٠٩، وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: أبو مرحوم ضعيف، وهو عبد الرحيم بن ميمون اهـ فهذا الحديث يرقى إلى الحسن بمجموع هذه الشواهد، والله تعالى أعلم.

(٤) القوهي: ثياب بيض.

تلا هذه الآية[١]: «ورياشاً» ولم يقرأ ﴿وَرِيشًا﴾، ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ قال: السمت الحسن. هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمانَ بن أرقم، وفيه ضعفٌ. وقد رَوَى الأئمة: الشافعي، وأحمد، والبخاري في «كتاب الأدب» من طُرقٍ صَحِيحَةٍ، عن الحسن البصري، أنه سمع أميرَ المؤمنين عثمانَ بن عفّانَ يأمُرُ بقتل الكلاب وذبح الحمام ـ يوم الجمعة ـ على المنبر. وأما المرفوع منه، فقد روى الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير له شاهداً من وجه آخر، حيث قال: حدثنا. . .»[٢].

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقولُ تعالى محذِّراً بني آدم من إبليس وقبيله، ومبيِّناً لهم عداوتَه القديمة لأبي البشر آدمَ عليه السلامُ، في سَعْيه في إخراجه من الجنَّةِ التي هي دارُ النعيم، إلى دارِ التعب والعناء، والتسبب في هَتْكِ عورته بعدما كانت مستورةً عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فتضعُ المرأةُ على قُبُلِها النِّسعة، أو الشيء وتقول:

اليوم يبدُو بعضُهُ أو كلُّه ... وما بَدا منه فلا أُحِلُّهُ

فأنزل الله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾. . . الآية. قلت: كانت العربُ ـ ما عدا قريشاً ـ لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسُوها، يتأوّلون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عَصَوا الله فيها، وكانت قريش ـ وهم الحُمْس[٣] ـ يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوباً، طاف فيه، ومن معه ثوب

---

(١) أخرجه الطبري ١٤٤٥١ بهذا الإسناد، وهو ضعيف لأجل سليمان بن أرقم. جاء في الميزان ٣٤٢٧. تركوه. قال أحمد: لا يروى عنه. وقال ابن معين: ليس بشيء. وقال الجوزجاني: ساقط. وقال أبو داود والدارقطني: متروك. وانظر كلام ابن كثير الآتي، وما رواه الطبراني.

(٢) بياض في كافة النسخ. والظاهر أنه أراد ما أخرجه في «الكبير» ١٧٠٢ حدثنا محمود بن محمد المروزي ثنا حامد بن آدم المروزي حدثنا الفضل بن موسى عن محمد بن عبيد الله العرزمي عن سلمة بن كهيل عن جندب ابن سفيان قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما أسر عبد سريرة، إلا ألبسه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ». قال الهيثمي في «المجمع» ١٧٦٧٦: فيه حامد بن آدم كذاب اهـ وفيه العرزمي متروك. قلت: ولعل ابن كثير رحمه الله لما رأى في إسناد هذا الحديث رجلاً متهماً بالكذب. ترك الحديث، أو سقط من النساخ، فالله أعلم. وله شاهد أخرجه أحمد ٢٨/٣ وأبو يعلى ١٣٧٨ من حديث أبي سعيد وإسناده ضعيف فإنه من رواية درّاج عن أبي الهيثم. لكن يستأنس به، والله أعلم.

(٣) سُمُّوا بذلك لتشددهم في دينهم.

جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، فمن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً، طاف عرياناً. وربما كانت امرأة فتطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئاً يستره بعض الشيء وتقول:

اليوم يبدو بعضُهُ أو كلُّه وما بدا منه فلا أُحِلُّهُ

وأكثر ما كان النساء يطفن بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فقال تعالى رداً عليهم: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لمن ادعى ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾. أي: هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة، والله لا يأمر بمثل ذلك. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل والاستقامة، ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، أي: أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله، وما جاؤوا به من الشرائع، وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من الشرك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾... إلى قوله: ﴿ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ ـ اختلف في معنى قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، فقال ابن نجيح، عن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: يحييكم بعد موتكم. وقال الحسن البصري: كما بدأكم في الدنيا، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء. وقال قتادةُ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، قال: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً، ثم ذهبوا، ثم يعيدهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً، كذلك يعيدكم آخراً.

[٣٠٨٤] واختار هذا القولَ أبو جعفرِ بن جَريرٍ، وأيَّده بما رواه من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج كلاهما، عن المغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ـ ﷺ ـ بموعظة فقال: «يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عُراة غُرلاً، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾»[1]. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، من حديث شعبة، وفي صحيح البخاري أيضاً من حديث الثوري به. وقال ورقاء بن إياس أبو يزيد، عن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، قال: يُبعث المسلم مسلماً، والكافر كافراً. وقال أبو العالية: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: رُدّوا إلى علمه فيهم. وقال سعيد بن جُبير: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: كما كُتِبَ عليكم تكونون. وفي رواية: كما كنتم تكونون عليه تكونون. وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدىء عليه خلقه، وإن عمل بأعمال أهل السعادة. كما أن إبليس عمل بأعمال أهل السعادة، ثم صار إلى ما ابتُدىء عليه خلقه. ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدىء خلقه عليه، وإن عمل بأعمال أهل الشقاء، كما أن السحرة عملت بأعمال أهل الشقاء، ثم صاروا إلى ما ابْتُدِئُوا عليه. وقال السدّيُّ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، يقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما خلقناكم، فريق مهتدون وفريق ضُلاّل، كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ

---

(١) تقدم في سورة المائدة عند آية: ١١٦.

ٱلضَّلَٰلَةُۗ﴾، قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ﴾ [التغابن: ٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم، مؤمناً وكافراً.

[٣٠٨٥] قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري: «فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع ـ أو: ذراع ـ فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع ـ أو: ذراع ـ فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة»[(١)].

[٣٠٨٦] وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو غسان، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «إن العبد ليعمل ـ فيما يرى الناس ـ بعمل أهل الجنة، وإنه من أهل النار. وإنه ليعمل ـ فيما يرى الناس ـ بعمل أهل النار، وإنه من أهل الجنة. وإنما الأعمال بالخواتيم»[(٢)]. هذا قطعة من حديث رواه البخاري من حديث أبي غسان محمد بن مطرِّف المدني، في قصة «قُزمان» يوم أحد.

[٣٠٨٧] وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «تبعث كل نفس على ما كانت عليه»[(٣)]. وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه، عن الأعمش، به، ولفظه: «يُبعَثُ كلُّ عبدٍ على ما مات عليه»[(٤)]، وعن ابن عباس مثله؛ قلت: ويتأيد بحديث ابن مسعود.

قلت: ولا بد من الجمع بين هذا القول ـ إن كان هو المراد من الآية ـ وبين قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠].

[٣٠٨٨] وما جاء في الصحيحين، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»[(٥)].

[٣٠٨٩] وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حِمَار قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ يقول الله تعالى: «إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»[(٦)]... الحديث. ووجهُ الجمعِ على هذا أنه تعالى خَلَقَهم ليكونَ منهم مؤمنٌ وكافر في ثاني الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده، والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم بذلك الميثاق، وجعله في غرائزهم وفطَرهم، ومع هذا قدر أن يكون منهم شقي ومنهم سعيد، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ﴾ [التغابن: ٢].

[٣٠٩٠] وفي الحديث: «كل الناس يَغْدُو، فبائعٌ نفسه فمعتِقُها، أو مُوبِقها»[(٧)]، وقدر الله نافذ في بَرِيَّتِهِ،

---

(١) تقدم في سورة البقرة عند آية: ١٣٢.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٢٨٩٨ و٤٢٠٢ ومسلم ١١٢ وأحمد ٥/ ٣٣٥ والبيهقي في «الدلائل» ٤/ ٢٥٢ من حديث سهل بن سعد مطوّلاً.

(٣) صحيح. أخرجه الطبري ١٤٤٩٥ بهذا الإسناد. وانظر ما بعده.

(٤) أخرجه مسلم ٢٨٧٨ وأحمد ٣/ ٣٣١ وابن حبان ٧٣١٩ من حديث جابر. وأخرجه ابن ماجه ٤٢٣٠ بلفظ «يحشر الناس على نياتهم».

(٥) تقدم في سورة النساء عند آية: ١١٩.

(٦) تقدم في سورة البقرة عند آية: ١٦٨ في أثناء حديث عياض بن حمار.

(٧) صحيح. أخرجه مسلم ٢٢٣ والترمذي ٣٥١٧ وأحمد ٥/ ٣٤٢ وابن حبان ٨٤٤ من حديث أبي مالك الأشعري بأتم منه.

فإنه هو الذي ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٣]، و﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

[٣٠٩١] وفي الصحيحين: «فأما من كان منكم من أهل السعادة، فييسّر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فييسّر لعمل أهل الشقاوة»[١]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، ثم علّل ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ . . . الآية. قال ابنُ جَرير: وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زَعَم أن الله لا يُعذِّبُ أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عناداً منه لربه فيها. لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضَلَّ وهو يَحسِبُ أنه هادٍ، وفريق الهدى، فرقٌ. وقد فرّق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية الكريمة.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾

هذه الآية الكريمة ردّ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة، كما رواه مسلم والنسائي وابن جرير ـ واللفظ له ـ من حديث شعبة، عن سلمة بن كُهيل، عن مسلم البَطِين، عن سعيد ابن جُبَير، عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء: الرجال بالنهار، والنساء بالليل. وكانت المرأة تقول:

اليومَ يبدُو بعضُه أو كلُّه ... وما بَدَا مِنْهُ فلا أُحِلُّهُ

فقال الله تعالى: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ . . . الآية، قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة، فأمرهم الله بالزينة، والزينة: اللباس، وهو ما يُواري السَّوْأة، وما سِوَى ذلك من جَيّد البزّ والمتاع، فَأمِروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد. وكذا قال مجاهد، وعطاء وإبراهيم النخَعي، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدي، والضحاك، ومالك عن الزهري، وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها: أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة.

[٣٠٩٢] وقد روى الحافظ ابن مَرْدُوَيه، من حديث سعيد بن بشير والأوزاعي، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً: أنها أنزلت في الصلاة في النعال[٢]. ولكن في صحته نظر، والله أعلم. ولهذه الآية، وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل اللباس البياض، كما قال الإمام أحمد:

[٣٠٩٣] حدثنا علي بن عاصم، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «البسُوا من ثيابكم البياضَ، فإنها من خيرِ ثيابكم، وكَفِّنوا فيها موتاكم، وإنَّ من خيرِ أكحالكم الإثمد، فإنه يجلُو البَصَر، ويُنبتُ الشعرَ»[٣]. هذا حديثٌ جيد الإسناد، رجاله على شرط

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٦٢ ومسلم ٢٦٤٧ وأبو داود ٤٦٩٤ والترمذي ٢١٣٧ وابن ماجه ٧٨ وأحمد ١/ ٨٢ وأبو يعلى ٣٧٥ من حديث علي بأتم منه.

(٢) ورد ذلك من حديث أبي هريرة، أخرجه ابن عدي ٦/ ١٦٢ بإسناد ساقط لأجل محمد بن الفضل الخراساني، وهو مخرج في «فتح القدير» ٩٧٠ و٩٧١ للشوكاني بتخريجي.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ٣٨٧٨ والترمذي ٩٩٤ وابن ماجه ١٤٧٢ وأحمد ١/ ٣٢٨ وصححه ابن حبان ٥٤٢٣ والحاكم ١/ ٣٥٤ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح. وإسناده حسن لأجل عبد الله بن عثمان، وصدره صحيح لشواهده.

مسلم. ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

[٣٠٩٤] وللإمام أحمد أيضاً، وأهل السنن بإسناد جيد، عن سَمُرة بن جُندَب قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «عليكم بالثياب البياض فالبسوها؛ فإنها أطهرُ وأطيبُ، وكفِّنوا فيها موتاكم»(١). وروى الطبراني بسند صحيح، عن قتادة، عن محمد بن سيرين: أن تميماً الداري اشترى رداءً بألف فكان يُصَلِّي فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ . . . الآية، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾. وقال البخاري: قال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سَرَفٌ ومَخِيلَةٌ. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: أحل الله الأكل والشرب، ما لم يكن سَرفاً أو مَخيلة. إسناده صحيح.

[٣٠٩٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهز، حدثنا همام، عن قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا سرف؛ فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده»(٢).

[٣٠٩٦] ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث قتادة، عن عَمرو بن شُعَيبٍ، عن أبيه، عن جَدّه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «كُلُوا وَتَصَدَّقُوا والبَسُوا، في غير إسرافٍ ولا مَخيلة»(٣).

[٣٠٩٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا سليمان بن سليم الكناني، حدثنا يحيى بن جابر الطائي، سمِعت المقدام بن معد يكرب الكندي قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حَسْبُ ابن آدم أُكلاتٌ يُقِمْنَ صُلبه، فإن كان فاعلاً لا محالَةَ، فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثُلُثٌ لنَفَسِهِ»(٤). ورواه النَّسائي والتِّرمذي، من طُرُقٍ، عن يحيى بن جابر، به. وقال الترمذي: حسن. وفي نسخة: حسن صحيح.

[٣٠٩٨] وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا سُوَيد بن عبد العزيز، حدثنا بَقيَّةُ، عن يوسف بن أبي كثير، عن نوح بن ذكوان، عن الحسن، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ من السَّرَفِ أن تأْكُلَ كُلَّ ما اشتَهَيْتَ»(٥). ورواه الدارقطني في الأفراد، وقال: هذا حَديثٌ غَرِيبٌ تفرَّدَ به بَقيَّة.

---

(١) جيد. أخرجه النسائي في «الكبرى» ٩٦٤٣ و٩٦٤٤ وأحمد ٥/ ١٢ و٢١ والحاكم ٤/ ١٨٥ وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٢/ ١٨١ ـ ١٨٢ والحاكم ٤/ ١٣٥ من طريق همام به، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) حسن. أخرجه النسائي ٥/ ٧٩ وابن ماجه ٣٦٠٥ وقال المنذري في «الترغيب» ٣١٧٤: ورواته إلى عمرو ثقات يحتج بهم في الصحيح.

(٤) جيد. أخرجه الترمذي ٢٣٨٠ والنسائي في «الكبرى» ٦٧٦٨ وأحمد ٤/ ١٣٢ وابن حبان ٦٧٤ وقال الترمذي: حسن صحيح. وإسناده جيد.

(٥) واهٍ بمرة. أخرجه ابن ماجه ٣٣٥٢ وأبو يعلى ٢٧٦٥ وابن عدي ٧/ ٤٤ وابن الجوزي في «الموضوعات» ٣/ ٣٠ من حديث أنس، وزاد السيوطي في «اللآلىء» ٢/ ٢٤٦ نسبته للخرائطي في «اعتلال القلوب» كلهم عن بقية بهذا الإسناد، وإسناده ضعيف جداً، بقية مدلس وقد عنعن، ويوسف بن أبي كثير مجهول كما في التقريب، وشيخه نوح بن ذكوان، قال عنه أبو حاتم: ليس بشيء. وقال ابن عدي: أحاديثه ليست محفوظة. وقال ابن حبان: منكر الحديث جداً. واكتفى البوصيري في زوائد ابن ماجه بتوهين هذا الحديث، في حين حكم ابن الجوزي بوضعه، وهو الأقرب، والله تعالى أعلم.

وقال السدي: كان الذين يطوفون بالبيت عراة، يحرمون عليهم الودَكَ ما أقاموا في الموسم. فقال الله تعالى لهم: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ . . . الآية، يقول: لا تسرفوا في التحريم. وقال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلَم: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾، يقول: ولا تأكلوا حراماً، ذلك الإسراف. وقال عطاء الخراساني، عن ابن عباس قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، في الطعام والشراب. وقال ابن جرير: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، يقول الله: إن الله لا يحب المتعدين حَدَّه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل أو حَرّم، بإحلال الحرام، وبتحريم الحلال، ولكن يحب أن يحلّل ما أحل، ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى رَدّاً على من حَرّم شيئاً من المآكل والمشارب والملابس من تلقاء نفسه، من غير شرع من الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يُحَرّمون ما يُحَرّمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ . . . الآية، أي: هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا، وإن شرِكَهم فيها الكفار حِساً في الدنيا، فهي لهم خاصة يوم القيامة، لا يَشْرَكهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرّمة على الكافرين.

قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو حصين محمد بن الحسين القاضي، حدثنا يحيى الحِمّاني، حدثنا يعقوب القُمّي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كانت قريشٌ يطوفون بالبيتِ وهم عراةٌ، يُصَفّرون ويُصَفّقون، فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾، فأُمِرُوا بالثياب.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

[٣٠٩٩] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا أحد أغيرُ من الله فلذلِك حَرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحدَ أحبّ إليه المَدْحُ من الله»[1]. أخرجاه في الصحيحين، من حديث سليمان بن مِهْران الأعمش، عن شقيق أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود. وتقدم الكلام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن في سورة الأنعام.

وقولُه تعالى: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، قال السدي: أما الإثم فالمعصية، والبغيُ أن تَبغيَ على الناس بغير الحق. وقال مجاهد: الإثم المعاصي كلها، وأخبر أن الباغي بغيه كائن على نفسه. وحاصلُ ما فُسّر به الإثم أنه الخطايا المتعلّقة بالفاعِل نفسِه، والبغيُ هو التعدّي إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا. وقولُه: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، أي: تجعلوا له شريكاً في عبادته، ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك مما لا علم لكم به، كما قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] الآية.

(١) تقدم في سورة النساء عند آية: ١٦٥.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾، أي: قرنٍ وجيلٍ ﴿أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾، أي: ميقاتهم المقدَّرُ لهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ عن ذلك ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾. ثم أنذر تعالى بني آدم بأنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته، وبشَّر وحذَّر فقال: ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾، أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾، أي: كذبت بها قلوبهم، واستكبروا عن العمل بها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، أي: ماكثون فيها مكثاً مخلداً.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾، أي: لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله، أو كذب بآيات الله المنزلة. ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾، اختلف المفسرون في معناه، فقال العوفي عن ابن عباس: ينالهم ما كتب عليهم، وكتب لمن يفتري على الله أن وجهه مسودّ. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: نصيبهم من الأعمال، من عَمِل خيراً جُزي به، ومن عمل شراً جُزِي به. وقال مجاهد: ما وعدوا فيه من خير وشر. وكذا قال قتادة، والضحاك، وغير واحد. واختاره ابن جرير.

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾، قال: عمله ورزقه وعمره. وكذا قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول قوي في المعنى، والسياق يدل عليه، وهو قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ ويصير المعنى في هذه الآية كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٦٩ ـ ٧٠]، وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ [لقمان: ٢٣ ـ ٢٤]... الآية. وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾... الآية، يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت وقَبْض أرواحهم إلى النار، يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله؟ ادعوهم يخلِّصوكم مما أنتم فيه. قالوا: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم. ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾، أي: أقروا واعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه المكذِّبين بآياته: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ﴾، أي: من أشكالكم وعلى صِفاتِكم، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾، أي: من الأمم السالفة الكافرة. ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾، يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾، ويحتمل أن يكون ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾، أي: مع أمم. وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾، كما قال الخليل عليه السلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧]. وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾، أي: اجتمعوا فيها كلهم، ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾، أي: آخرهم دخولاً ـ وهم الأتباع ـ لأولاهم ـ وهم المتبُوعون ـ لأنهم أشد جرماً من أتباعهم فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة، لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، أي: أضعِفْ عليهم العقوبةَ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨]... الآية. وقوله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾، أي: قد فعلنا ذلك وجازينا كلاً بحسبه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا﴾ [النحل: ٨٨]... الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]... الآية.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾، أي: قال المتبوعون للأتباع: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، قال السدي: فقد ضللتم كما ضللنا. ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وهذا الحال كما أخبر تعالى عنهم في حال محشرهم، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾، قيل: المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء. قاله مجاهد، وسعيد بن جبير. ورواه العوفي وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وكذا رواه الثوري، عن ليثٍ، عن عطاء، عن ابن عباس. وقيل: المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء. رواه الضحاك، عن ابن عباس. وقاله السدي وغير واحد، ويؤيده ما قال ابنُ جرير:

[٣١٠٠] حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن المنهال ـ هو ابن عمرو ـ عن زاذان، عن البراء: أن رسول الله ـ ﷺ ـ ذكر قَبْضَ روحِ الفاجر، وأنه يُصْعَد بها إلى السماء، قال: فيصعدون بها، فلا تمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا: «ما هذه الروحُ الخبيثة؟» فيقولون: «فلان» ـ بأقبح أسمائه التي

كان يُدْعَى بها في الدنيا ـ حتى ينتهوا بها إلى السماء، فَيَسْتفتِحُون بابها له فلا يُفْتَح له. ثم قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ . . . الآية[١]. هكذا رواه، وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، من طرق، عن المنهال بن عمرو، به.

[٣١٠١] وقد رواه الإمام أحمد بطوله فقال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولَمَّا يُلْحَد. فجلس رسول الله ـ ﷺ ـ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر ـ مرتين أو ثلاثاً ـ ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حَنُوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر. ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحَنُوط. ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجِدَت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون ـ يعني بها ـ على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: «فلان بن فلان»، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: «اكتبوا كتاب عبدي في عِلِّيين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى». قال: فتعاد روحُه: فيأتيه مَلَكان فيجلسانه فيقولان له: «من ربُّك» فيقول: «ربِّي الله». فيقولان له: «ما دينُك» فيقول: ديني الإسلامُ. فيقولان له: «ما هذا الرجلُ الذي بُعِثَ فيكم؟» فيقول: هو رسول الله ـ ﷺ ـ فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتابَ الله فآمنتُ به وصدَّقتُ. فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة. فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مَدّ بصره. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرُّك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي. قال: وإن العبد الكافر، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مَدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب. قال: فَتُفرق في جسده، فينتزعها كما يُنتزَعُ السُّفُّودُ[٢] من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدعُوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: «فلان بن فلان»، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى يُنْتَهَى به إلى السماء الدنيا، فَيُستَفْتَحُ له، فلا يُفتَحُ. ثم قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾، فيقول الله عز وجل: «اكتبوا كتابه في سجّين في الأرض السفلى». فَتُطرَحُ روحه

---

(١) حسن. أخرجه الطبري ١٤٦٢٠، ورجاله ثقات، وَله طرق وشواهد، وانظر ما بعده.

(٢) السفود: السَّيخ، حديدة يشوى بها.

طرحاً، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. فتُعاد روحُه في جسده. ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: «من ربك؟» فيقول: هاه هاه! لا أدري: فيقولان: «ما دينُك؟» فيقول: هاه هاه! لا أدري. فيقولان: «ما هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟» فيقول: هاه هاه! لا أدري. فينادي منادٍ من السماء: «أن كذب، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار». فيأتيه من حرها وسمومها، ويُضَيَّق عليه قبرُه حتى تختلف فيه أضلاعُه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، مُنتِنُ الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءُك. هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تُقِم الساعة»[(١)].

[٣١٠٢] وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن يونس بن خباب، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان. عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى جنازة ـ فذكر نحوه. وفيه: حتى إذا خرج رُوحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلِهم. وفي آخره: ثم يقيض له أعمى أصم أبكم، في يده مَرْزَبّة لو ضرب بها جبل كان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيده الله عز وجل كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحةً يسمعها كلُّ شيء إلا الثقلين ـ قال البراء: ثم يفتح له باب من النار، ويُمْهَدُ له من فُرُشِ النار[(٢)].

[٣١٠٣] وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن ماجه وابن جَرِير ـ واللفظُ له ـ من حديث محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يَسَار، عن أبي هُرَيرَةَ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «الميتُ تحضُره الملائكةُ، فإذا كان الرجلُ الصالحُ قالوا: اخرجي أيتُها النفسُ المطمئنة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حَميدة، وأبشري برَوْحٍ وريحانٍ، وربٌّ غير غضبانَ. فيقولون ذلك حتى يُعْرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان. فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري برَوْح وريحان، ورب غير غضبان»، فيقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل. وإذا كان الرجل السَّوءُ قالوا: «اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغسّاق وآخر من شكله أزواج»، فيقولون ذلك حتى تخرُجَ، ثم يُعرَج بها إلى السماء فَيُستَفْتَحُ لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان. فيقولون: لا مرحباً بالنفس الخبيثة التي كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لم تفتح لك أبواب السماء. فَتُرسَلُ بين السماء والأرض، فتصير إلى القبر»[(٣)].

وقد قال ابن جُرَيج في قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾، قال: لا تفتح لأعمالهم، ولا لأرواحهم. وهذا

---

(١) حسن. أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨ و٢٩٥ ـ ٢٩٦ وأبو داود ٤٧٥٣ والآجري في «الشريعة» ٨٧٨ والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» ٢٠ ـ ٢٧ وصححه الحاكم ١/ ٣٧ ـ ٤٠ ووافقه الذهبي وصححه ابن القيم في «تهذيب سنن أبي داود» ٤/ ٣٣٧ وقد أعله ابن حبان في «صحيحه» بإثر ٣١١٧ بالانقطاع بين زاذان والبراء، لكن فيه نظر، وقد صرح زاذان في رواية الحاكم بالسماع من البراء وقال الحاكم: وله شواهد على شرطهما يستدل بها على صحته.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦، وفيه يونس بن خباب صدوق يخطىء، لكن توبع، فالحديث قوي.

(٣) حسن. أخرجه أحمد ٢/ ٣٦٤ والنسائي في «الكبرى» ١١٤٤٢ وابن ماجه ٤٢٦٢ والطبري ١٤٦٢١ وإسناده حسن لأجل محمد بن عمرو، وفي الباب أحاديث.

فيه جمع بين القولين، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، هكذا قرأه الجمهور، وفسَّروه بأنه البعيرُ. قال ابن مسعود: هو الجمل ابن الناقة. وفي رواية: زوج الناقة. وقال الحسن البصري: حتى يدخل البعير في خُرْق الإبرة. وكذا قال أبو العالية، والضحاك. وكذا روى علي بن أبي طلحة، والعوفي عن ابن عباس. وقال مجاهد، وعكرمة، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها «يلج الجُمَّلُ في سمّ الخياط» ـ بضم الجيم، وتشديد الميم ـ يعني: الحبلَ الغليظَ في خرم الإبرة. وهذا اختيارُ سعيد بن جُبَير. وفي رواية أنه قرأ: «حتى يَلِجَ الجُمَّلُ» يعني قُلُوس السفُن، وهي: الحبالُ الغِلاظُ. وقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾، قال محمد بن كعب القُرَظِيّ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾، قال: الفُرُش، ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾، قال: اللُّحُف. وكذا قال الضحاكُ بن مُزاحم، والسُّدّي، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

لما ذكر تعالى حالَ الأشقياءِ، عَطَف بذكر حال السُّعداء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله، واستكبروا عنها. ويُنبّه تعالى على أن الإيمان والعملَ به سهلٌ، لأنه تعالى قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾، أي: من حَسَدٍ وبغضاء، كما جاء في الصحيح للبخاري، من حديث قتادة، عن أبي المتوكّل الناجيّ، عن أبي سعيد الخدري قال:

[٣١٠٤] قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا خَلَص المؤمنون من النار حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتُصّ لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذّبوا ونُقّوا، أُذِن لهم في دخولِ الجنة؛ فوالذي نفسي بيده، إن أحدهم بمنزله في الجنةِ أدلُّ منه بمسكنه كان في الدنيا»[1]. وقال السُّدّي في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ . . . الآية: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة فبلغوا، وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان، فشربوا من إحداهما، فينزع ما في صدورهم من غل، فهو «الشراب الطهور»، واغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم نضرة النعيم، فلم يَشْعَثُوا ولم يَشْحُبُوا بعدها أبداً. وقد رَوى أبو إسحاق، عن عاصم، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب نحواً من ذلك، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

وقال قتادة: قال علي ـ رضي الله عنه ـ: إني لأرجو أن أكونَ أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾. رواه ابن جرير. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، عن إسرائيل قال: سمعت الحسن يقول: قال علي: فينا والله ـ أهلَ بدرٍ ـ نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

[٣١٠٥] وروى النسائي وابن مَرْدُويه ـ واللفظ له ـ من حديث أبي بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٤٠ والحاكم ٢/ ٣٥٤ وأبو يعلى ١١٨٦ وابن حبان ٧٤٣٤ والبغوي في «التفسير» ٩٢١.

الله هداني، فيكون له شكراً، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني، فيكون له حسرة»[1]. ولهذا لما أورِثُوا مقاعدَ أهلِ النار في الجنة نُودُوا: ﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة، وتبوأتم منزلكم بحسب أعمالكم.

[٣١٠٦] وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «واعلموا أن أحدكم لن يُدخِلَه عملُه الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله برحمة منه وفَضلٍ»[2].

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يخبر تعالى بما يخاطب أهل الجنة أهلَ النار إذا استقروا في منازلهم، وذلك على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾، «أن» هاهنا مفسّرة للقولِ المحذوف، و«قد» للتحقيق، أي: قالوا لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ﴾؛ كما أخبر تعالى في سورة «الصافات» عن الذي كان له قَرِينٌ من الكفار: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾، أي: ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا، ويقرّعه بما صار إليه من العذاب والنَّكال، وكذا تُقرِّعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٤ ـ ١٦].

[٣١٠٧] وكذلك قَرَّع رسول الله ـ ﷺ ـ قتلى القَلِيب يوم بدر، فنادى: «يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة ـ وسمى رؤوسهم ـ: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً. فقال عمر: يا رسول الله، تخاطب قوماً قد جَيَّفوا؟! فقال: والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا»[3].

وقوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾، أي: أعلم مُعْلِم ونادى مُنَادٍ: ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، أي: مستقرة عليهم. ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، أي: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله ورسوله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد. ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾، أي: وهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرون، أي: جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به. فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكرٍ من القول والعمل، لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً، فهم شر الناس أعمالاً وأقوالاً.

---

(١) حسن. أخرجه النسائي في «الكبرى» ١١٤٥٤ بإسناد حسن، رجاله ثقات.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٦٧٣ ومسلم ٢٨١٦ وأحمد ٢/ ٢٦٤ و٥٢٤ وابن حبان ٣٤٨ عن أبي هريرة.
وأخرجه البخاري ٦٤٦٤ ومسلم ٢٨١٨ عن عائشة، وأخرجه مسلم ٢٨١٧ وأحمد ٣/ ٣٣٧ عن جابر.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٧٤ وابن حبان ٦٤٩٨.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، نبّه أن بين الجنة والنار حجاباً، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة. قال ابن جَرير: وهو السور الذي قال الله تعالى فيه: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]. وهو الأعراف الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾. ثم روى بإسناده عن السديّ أنه قال في قوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وهو السُورُ، وهو الأعراف. وقال مجاهد: الأعراف: حجاب بين الجنة والنار، سور له باب. قال ابن جَرير: والأعراف جمع عُرْف، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عُرْفاً، وإنما قيل لعُرْفِ الديك عُرْفاً لارتفاعه.

وحدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن عيينة، عن عُبَيد الله بن أبي يزيد، سمع ابن عباس يقول: الأعراف: هو الشيء المشرِفُ. وقال الثوري، عن جابر، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: الأعراف: سُوْرٌ كعُرْف الديك. وفي رواية عن ابن عباس: الأعراف تَلٌّ بين الجنة والنار، حُبِس عليه ناسٌ من أهل الذنوب بين الجنة والنار. وفي رواية عنه: هو سور بين الجنة والنار. وكذلك قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير. وقال السدِّيُّ: إنما سُمِّي الأعرافُ أعرافاً، لأن أصحابه يعرفون الناس. واختلفت عباراتُ المفسِّرين في أصحاب الأعراف: مَنْ هم؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتُهم وسيئاتُهم، نصَّ عليه حُذيفة، وابن عباس، وابن مسعود، وغيرُ واحد من السلف والخلف رحمهم الله.

[٣١٠٨] وقد جاء في حديث مرفوع رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا عبد الله بن إسماعيل، حدثنا عبيد بن الحسين، حدثنا سليمان بن داود، حدثنا النعمان بن عبد السلام، حدثنا شيخ لنا يقال له: أبو عباد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر بن عبد الله قال: «سئل رسول الله ـ ﷺ ـ عمن استوت حسناته وسيئاته، فقال: «أولئك أصحاب الأعراف، لم يدخلوها وهم يطمعون»[1]. وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

[٣١٠٩] ورواه من وجه آخر، عن سعيد بن سلمة بن أبي الحسام، عن محمد بن المنكدر، عن رجل من مُزَينة قال: «سُئِلَ رسول الله ـ ﷺ ـ عن أصحاب الأعراف، فقال: إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم، فَقُتِلوا في سبيل الله»[2].

[٣١١٠] وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معشر، حدثنا يحيى بن شِبْل، عن يحيى بن عبد الرحمن المُزَنِيِّ، عن أبيه قال: سُئِل رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن أصحاب الأعراف، فقال: «هم ناسٌ قُتِلوا في سبيلِ الله بمعصيَةِ آبائهم، فمنعهم من دخولِ الجنة معصيةُ آبائهم، ومنعهم من النار قتلُهم في سبيل الله»[3]. هكذا رواه

---

(١) إسناده ضعيف. فيه أبو عباد مجهول. وعبد الله بن محمد بن عقيل ضعفه يحيى وغيره. وعزاه السيوطي في «الدر» ٣/ ١٦٢ لأبي الشيخ وابن عساكر وانظر ما بعده.

(٢) إسناده ضعيف. فيه سعيد بن سلمة. ضعفه النَسائي فقال: شيخ ضعيف، وقال أبو حاتم: سألت عنه ابن معين فلم يعرفه. وذكره ابن حبان في الثقات، وللحديث علة أخرى شيخ ابن المنكدر مجهول لم يسمّه، وانظر ما بعده.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبري ١٤٧١٣ والبيهقي في «البعث» ١١٢ و١١٣ و١١٤ والطبراني كما في «المجمع» ١١٠١٤ من حديث عبد الرحمن المزني. قال البيهقي: أبو معشر نجيح المزني ضعيف، وكذا ضعفه الهيثمي بأبي معشر، وله علة ثانية

ابن مَرْدُويه، وابن جَرير، وابن أبي حاتم من طرق، عن أبي معشر، به. وكذلك رواه ابن ماجه مرفوعاً من حديث ابن عباس وأبي سعيد الخدري[1]. والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة وقصاراها أن تكون موقوفة، وفيه دلالة على ما ذكر.

وقال ابن جَرِير: حدثني يعقوب: حدثنا هُشَيم، أخبرنا حُصين، عن الشعبي، عن حُذَيفة: أنه سُئِل عن أصحاب الأعراف، قال: فقال: هم قوم استوت حسناتُهم وسيئاتُهم، فقعدت بهم سيئاتُهم عن الجنة، وخلَّفت بهم حسناتُهم عن النار. قال: فوقفوا هناك على السور حتى يقضِيَ الله فيهم. وقد رواه من وجه آخر أبسط من هذا فقال: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يونس بن أبي إسحاق قال: قال الشعبي: أرسل إليَّ عبد الحميد بن عبد الرحمن ـ وعنده أبو الزناد عبد الله بن ذكوان مولى قريش ـ وإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذِكْراً ليس كما ذكرا، فقلت لهما: إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة، فقالا: هات. فقلت: إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال: هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار، وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، فإذا صُرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، فبيناهم كذلك، اطلع عليهم ربك اطلاعةً فقال لهم: اذهبوا فادخلوا الجنة، فإني قد غفرت لكم.

وقال عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر الهُذَلي قال: قال سعيد بن جُبَير ـ وهو يحدِّث ذلك عن ابن مسعود ـ قال: يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار. ثم قرأ قول الله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ . . . الآيتين، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: سلام عليكم، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا إلى أصحاب النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، فتعوذوا بالله من منازلهم. قال: فأما أصحابُ الحَسَناتِ، فإنهم يُعطَون نوراً فيمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطى كل عبد يومئذٍ نوراً، وكل أمة نوراً، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة. فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨]. وأما أصحاب الأعراف، فإن النور كان في أيديهم فلم ينزع، فهنالك يقول الله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، فكان الطمع دخولاً. قال: وقال ابن مسعود:

مداره على يحيى بن شبل وهو مجهول. وأخرجه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق» ٢٥١ بهذا الإسناد، لكن جعله مرسلاً، وكرره الطبري ١٤٧١٢ وفيه يحيى بن شبل لا يعرف، وفيه مجاهيل أيضاً. وورد من حديث أبي سعيد أخرجه الطبراني في «الصغير» ٦٦٦ وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٠١٣: فيه محمد بن مخلد الرعيني وهو ضعيف اهـ. قلت: بل هو شديد الضعيف، قال ابن عدي عن الرعيني: حدث بأباطيل. وورد من حديث أبي هريرة أخرجه البيهقي ١١٥ وفيه أبو معشر نجيح السندي واهٍ؛ وضعّفه البيهقي. وورد من حديث حذيفة أخرجه البيهقي ١١١ وإسناده ضعيف فيه مجاهيل، وانقطاع بين الشعبي وحذيفة، وقد شك في رفعه، وأخرجه ١١٠ من وجه آخر عن الشعبي عن حذيفة موقوفاً، ثم أخرجه ١٠٩ عن الشعبي عن صلة بن زفر عن حذيفة موقوفاً، وهو أصح. وورد عن ابن مسعود وابن عباس وعبد الله بن الحارث والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم موقوفاً عليهم، والوقف فيه على بعض الصحابة أو التابعين أشبه من المرفوع، فليس في المرفوع ما يحتج به. وهو الذي اختاره ابن كثير رحمه الله. والله تعالى أعلم.

(١) تقدم حديث أبي سعيد، وأما حديث ابن عباس، فقد ورد موقوفاً، وقد تقدم، ولم أره مرفوعاً، ولم أجد من عزاه لابن عباس مرفوعاً. تنبيه: عزاهما المصنف لابن ماجه، ولم أجدهما في سننه، ولا عزاهما السيوطي في الدر ٣/ ١٦٢ ـ ١٦٣ ولا غيره له، فالله أعلم. ولو وجد حديث أبي سعيد عند ابن ماجه لما ذكره الهيثمي في «المجمع». وقد تقدم.

على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة. ثم يقول: هلك من غلبت آحاده أعشاره. رواه ابن جرير، وقال أيضاً: حدثني ابن وكيع وابن حُمَيد قالا: حدثنا جَرِيرٌ، عن منصور، عن حَبيب بن أبي ثابت، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس قال: الأعراف: السور الذي بين الجنة والنار، وأصحاب الأعراف بذلك المكان، حتى إذا بدا لله أن يعافيهم، انْطُلِق بهم إلى نهر يقال له: الحياة حافتاه قصب الذهب، مكلل باللؤلؤ، ترابه المسك، فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم، وتبدوا في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال: تمنوا ما شئتم. فيتمنون، حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم: لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفاً. فيدخلون الجنة وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، يسمون مساكين أهل الجنة. وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن يحيى بن المغيرة، عن جرير، به. وقد رواه سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن مجاهد، عن عبد الله بن الحارث، من قوله. وهذا أصح، والله أعلم. وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد.

[٣١١١] وقال سُنيد بن داود: حدثني جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة بن عمرو بن جَرِير قال: سُئِل رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن أصحاب الأعراف قال: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من فصله بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار، ولم تدخلوا الجنة، فأنتم عتقائي فارعوا من الجنة حيث شئتم»[1]. وهذا مرسل حسن. وقيل: هم أولاد الزنا. حكاه القرطبي.

[٣١١٢] وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الوليد بن موسى، عن شيبة بن عثمان، عن عروة بن رويم، عن الحسن، عن أنس بن مالك، عن النبي ـ ﷺ ـ: «أنَّ مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب، فسألناه عن ثوابهم وعن مؤمنيهم، فقال: على الأعراف، وليسوا في الجنة مع أمة ـ محمد ـ ﷺ ـ. فسألناه: ما الأعراف؟ فقال: حائط الجنة تجري فيه الأنهار، وتنبت فيه الأشجار والثمار»[2]. رواه البيهقي، عن ابن بشران، عن علي بن محمد المصري، عن يوسف بن يزيد، عن الوليد بن موسى، به.

وقال سفيان الثوري، عن خُصيف، عن مجاهد قال: أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء. وقال ابن جَرِير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن سليمان التيمي، عن أبي مِجْلَز في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾، قال: هم رجال من الملائكة، يعرفون أهل الجنة وأهل النار، قال: ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ۝٤٦ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٤٧ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ في النار ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٨ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾، قال: فهذا حينَ دخلَ أهلُ الجنةِ الجنة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. وهذا صحيح إلى أبي مِجْلَزٍ لاحق بن حميد أحد التابعين، وهو غريب من قوله، وخلاف الظاهر من السياق، وقولُ الجمهور مقدَّمٌ على قوله، بدلالة الآية على ما ذهبوا إليه. وكذا قول مجاهد: إنهم قوم صالحون علماء فقهاء. فيه غرابة أيضاً، والله أعلم. وقد حكى القرطبي وغيره فيهم

---

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ١٤٧٢٣ عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير مرسلاً، والمرسل من قسم الضعيف عند أهل الحديث. ثم إن سُنيد بن داود ضعفه غير واحد.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه البيهقي في «البعث» ١١٧ وفيه الوليد بن موسى هو الدمشقي جاء في الميزان ٩٤١٢: قال الدارقطني: منكر الحديث، وقواه أبو حاتم، وقال غيره: متروك، ووهاه العقيلي وابن حبان. وشيبة لم أجد له ترجمة، والخبر شبه موضوع.

اثني عَشَر قولاً منها: أنهم شهداء، وأنهم صلحاء تفرَّغوا عن فَزَع الآخرة، وخلوا يَطَّلعون على أخبار الناس. فقيل: هم أنبياء. وقيل: ملائكة. وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه. وكذا روى الضحاك، عنه. وقال العَوفي، عن ابن عباس: أنزلهم الله بتلك المنزلة، ليعرفوا من في الجنة والنار، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه، ويعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين. وهم في ذلك يحيّون أهل الجنة بالسلام، لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله. وكذا قال مجاهد، والضحاك، والسدِّي، والحسن، وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم. وقال معمر، عن الحسن: إنه تلا هذه الآية: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم، إلا لكرامة يريدها بهم. وقال قتادة: أنبأكم الله بمكانهم من الطمع.

وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾، قال الضحاك عن ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وقال السديّ: وإذا مروا بهم يعني بأصحاب الأعراف ـ بزمرةٍ يُذْهَبُ بها إلى النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وقال عكرمة: تُجَرَّد وجوههم في النار، فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، فرأوا وجوههم مُسْوَدَّة، وأعينهم مُزْرَقَّة ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى مُخبراً عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم، يعرفونهم في النار بسيماهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي: كثرتكم، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما صرتم فيه من العذاب والنكال. ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني أصحاب الأعراف ـ ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سعد، حدثني أبي، حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ . . . الآية. قال: فلما قالوا لهم الذي قضى الله أن يقولوا ـ يعني أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار ـ قال الله لأهل التكبر والأموال: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

[٣١١٣] وقال حذيفة: إن أصحاب الأعراف قوم تكافأت أعمالهم، فَقَصُرت بهم حسناتُهم عن الجنة، وقَصُرَت بهم سيئاتهم عن النار، فجُعِلُوا على الأعراف، يعرفون الناس بسيماهم. فلما قضى الله بين العباد أذن لهم في طلب الشفاعة، فأتوا آدم فقالوا: يا آدم، أنت أبونا، فاشفع لنا عند ربك. فقال: هل تعلمون أن أحداً خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وسبقت رحمتُه إليه غضبه، وسجدت له الملائكة غيري؟ فيقولون: لا. قال: فيقول: ما علمت كُنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن ائتوا ابني إبراهيم. فيأتون إبراهيم ـ ﷺ ـ فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم، فيقول: هل تعلمون من أحد اتخذه الله خليلاً؟ هل تعلمون أن أحداً أحرقه قومه في النار في الله غيري؟ فيقولون: لا. فيقول: ما علمت كُنهَه، ما أستطيع أن أشفع لكم. ولكن ائتوا ابني موسى. فيأتون موسى عليه السلام، فيقول: هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليماً وقربه نجياً غيري؟ فيقولون: لا. فيقول: ما علمت كُنهَهُ، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن ائتوا عيسى. فيأتونه عليه السلام

فيقولون له: اشفع لنا عند ربك. فيقول: هل تعلمون أحداً خلقه الله من غير أب غيري؟ فيقولون: لا. فيقول: هل تعلمون من أحدٍ كان يُبرىءُ الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى بإذن الله غيري؟ قال: فيقولون: لا. فيقول: هل أنا حَجِيجُ نفسي، ما علمت كُنْهَهُ، ما أستطيع أن أشفع لكم. ولكن ائتوا محمداً ﷺ. فيأتونني، فأضرب بيدي على صدري، ثم أقول: أنا لها. ثم أمشي حتى أقِفَ بين يَدَي العرش، فآتي ربي عز وجل، فَيُفتَحُ لي من الثناء ما لم يَسمع السامعون بمثله قط، ثم أسجدُ فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تُعطه، واشفع تُشَفَّعْ. فأرفع رأسي ثم أثني على ربي عز وجل ثم أخرّ ساجداً فيقال لي: ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع. فأرفع رأسي، فأقول: رَبّي أمّتي. فيقول: هم لك. فلا يبقى نبي مرسل، ولا ملك مقرب، إلا غبطني بذلك المقام، وهو المقام المحمود. فآتي بهم الجنة، فأستفتح فيفتح لي ولهم، فيذهب بهم إلى نهر يقال له: نهر الحيوان حافتاه قَصَبٌ مكلّل باللؤلؤ، ترابه المسك، وحصباؤه الياقوت. فيغتسلون منه، فتعود إليهم ألوانُ أهل الجنة وريح أهل الجنة، فيصيرون كأنهم الكواكب الدُّرّية، ويبقى في صدورهم شامات بيض يُعْرَفُون بها، يقال لهم: مساكين أهل الجنة[1].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم، وأنهم لا يجابون إلى ذلك. قال السدي: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، يعني: الطعام. وقال عبد الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ: يستطعمونهم ويستسقونهم. وقال الثوري، عن عثمان الثقفي، عن سعيد بن جُبَير في هذه الآية قال: ينادي الرجل أباه أو أخاه فيقول: قد احترقت، أفض عليَّ من الماء. فيقال لهم: أجيبوهم. فيقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾. ورُوي من وجه آخر عن سعيد، عن ابن عباس، مثله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: يعني طعام الجنة وشرابها.

[٣١١٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نصر بن علي، أخبرنا موسى بن المغيرة، حدثنا أبو موسى الصفار في دار عمرو بن مسلم قال: سألت ابن عباس ـ أو: سُئِل ـ: أيّ الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «أفضل الصدقة الماء، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله»[2].

[٣١١٥] وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح قال: لما مرض أبو طالب قالوا له: لو أرسلت إلى ابن أخيك هذا، فيرسل إليك بعنقود من الجنة، لعله أن يشفيك

(١) أصله في الصحيح بنحو هذا السياق، انظر «صحيح مسلم» رقم ١٩٥.
(٢) ضعيف. أخرجه أبو يعلى ٢٦٧٣ والطبراني في «الأوسط» ١٠١٥ ومداره على موسى بن المغيرة عن أبي موسى الصفار، وكلاهما مجهول. كما في الميزان ٤/ ٢٢٤. وأعله الهيثمي في المجمع ٤٧٢٧ بجهالة موسى ابن مغيرة فحسب. والخبر واهٍ بكل حال.

به. فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبي ـ ﷺ ـ فقال أبو بكر: إن الله حَرَّمهما على الكافرين[1].

ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا من اتخاذهم الدين لهواً ولعباً، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للدار الآخرة. وقولُه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا﴾، أي: نعاملهم معاملة من نَسيهم، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه، كما قال تعالى: ﴿فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]. وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا﴾، قال: نَسِيهم الله من الخير، ولم يَنْسَهم من الشر. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: نتركهم، كما تركوا لقاء يومهم هذا. وقال مجاهد: نتركهم في النار. وقال السدي: نتركهم من الرحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا.

[٣١١٦] وفي الصحيح أن الله ـ تعالى ـ يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوِّجْكَ؟ ألم أكرمك؟ ألم أسَخِّر لك الخيلَ والإبلَ، وأذَرْك تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فيقولُ: بلى. فيقول: أظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نَسيتني[2].

﴿وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسولُ، وأنه كتاب مُفَصَّلٌ مُبيّنٌ، كما قال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١]. . . الآية. وقولُه: ﴿فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: على علم منا بما فَصَّلناه به، كما قال تعالى ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]. قال ابن جرير: وهذه الآيةُ مردودةٌ على قوله: ﴿كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢]. . . الآية، ﴿وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ﴾. . . الآية. وهذا الذي قاله فيه نَظَرٌ، فإنه قد طال الفصل، ولا دليلَ على ذلك، وإنما لما أخبر عما صاروا إليه من الخَسَار في الدار الآخرة، ذكر أنه قد أزاح عِلَلَهم في الدار الدنيا، بإرسال الرسل وإنزال الكتب، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾، أي: ما وعدوا من العذاب والنكال والجنة والنار. قاله مجاهد وغير واحد. وقال مالك: ثوابه. وقال الربيعُ: لا يزال يجيء من تأويله أمر، حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ.

﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾، أي: يوم القيامة، قاله ابن عباس، ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾، أي: تركوا العمل به، وتناسوه في الدار الدنيا: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾، أي: في خلاصنا مما نحن فيه، ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ

---

(١) هذا معضل. فهو ضعيف، لا حجة فيه.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٦٨ وأحمد ٢/ ٤٩٢ وابن حبان ٧٤٤٦ من حديث أبي هريرة.

فَقَالُوا يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٢٨]، كما قال هاهنا: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، أي: خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، أي: ذَهَبَ عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا ينصرونهم، ولا يشفعون لهم، ولا يُنقِذُونهم مما هم فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

يخبر تعالى بأنه خَلَقَ هذا العالَم، سماواتِهِ وأرضِه وما بين ذلك، في ستَّةِ أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن. والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة. وفيه اجتمع الخلقُ كلّه، وفيه خُلِق آدم عليه السلام. واختلفوا في هذ الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام؟ كما هو المتبادر إلى الأذهان، أو كل يوم كألف سنة؟ كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد ابن حنبل، ويُرْوَى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق، لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع.

[٣١١٧] فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا حجاج، حدثنا ابن جُرَيج، أخبرني إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع ـ مولى أم سلمة ـ عن أبي هريرة قال: «أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ بيدي فقال: خَلَق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبالَ فيها يوم الأحد، وخلق الشَّجَرَ فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثَّ فيها الدوابَّ يوم الخميس، وخَلَق آدم بعد العصرِ يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعاتِ الجُمعةِ فيما بين العَصْر إلى الليل»[1]. فقد رواه مسلم بن الحَجّاج في صَحِيحه والنسائي ـ من غير وجه ـ عن حجاج ـ وهو ابن محمد الأعور ـ عن ابن جُرَيج به. وفيه استيعابُ الأيام السبعةِ، والله تعالى قد قال في ستة أيام. ولهذا تكلّم البخاري وغيرُ واحد من الحفّاظِ في هذا الحديث، وجَعَلُوه من رواية أبي هُرَيرة، عن كعبِ الأحبارِ، ليس مرفوعاً، والله أعلم.

وأما قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، فللناس في هذا المقام مقالاتٌ كثيرةٌ جداً، ليس هذا موضعَ بسطها، وإنما يُسلك في هذا المقام مذهبُ السلف الصالح: مالك والأوزاعي، والثوري، والليث ابن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيءٌ من خلقه، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بل الأمر كما قال الأئمة ـ منهم نُعَيم بن حَمّادِ الخزاعيّ شيخُ البخاريّ ـ: من شَبَّه الله بخلقه فقد كَفَر، ومن جَحَد ما وصف الله به نفسه فقد كفر. وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسولُه تشبيه، فمن أثبتَ لله تعالى ما وردَتْ به الآياتُ الصريحةُ والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلالِ الله تعالى، ونَفَى عن الله تعالى النقائِصَ، فقد

---

(١) تقدم في سورة البقرة، آية: ٢٩. وهوأحد الأحاديث المتكلم فيها، وهو في صحيح مسلم، وانظر الكلام عليه فيما مضى مستوفياً. ولله الحمد والمنة.

سَلَك سبيل الهدى. وقولُه تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾، أي: يَذْهَبُ ظلامُ هذا بضياءِ هذا، وضياءُ هذا بظلامِ هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، أي: سريعاً لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٧ ـ ٤٠]، فقوله: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾، أي: لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو في أثره لا واسطة بينهما، ولهذا قال: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ ـ منهم من نَصَب، ومنهم من رفع، وكلاهما قريب المعنى، أي: الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته، ولهذا قال مُنبهاً: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، أي: له الملك، والتصرف، ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، كما قال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١]... الآية.

[٣١١٨] وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاقُ، حدثنا هشام أبو عبد الرحمن، حدثنا بقيةُ ابن الوليد، حدثنا عبد الغفار بن عبد العزيز الأنصاري، عن عبد العزيز الشامي، عن أبيه ـ وكانت له صحبةٌ ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من لم يحمَدِ الله على ما عَمِلَ من عَمَلٍ صالحٍ، وحمِدَ نفسه، فقد كَفَر وحَبط عملُه. ومن زَعَم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً، فقد كَفَر بما أنزلَ الله على أنبيائه»، لقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

[٣١١٩] وفي الدعاء المأثور، عن أبي الدرداء ـ ورُوِيَ مرفوعاً ـ: «اللهم لك الملكُ كلُّه، ولك الحمدُ كلُّه، وإليك يَرجعُ الأمر كلّه، أسألُك من الخيرِ كُلِّه، وأعوذ بك من الشرِّ كلِّه»[2].

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

أرشد تبارك وتعالى عبادَه إلى دعائه، الذي هو صلاحُهم في دنياهم وأخراهم، فقال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، معناه: تَذلُّلاً واستكانة، و﴿وَخُفْيَةً﴾، كما قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]... الآية.

[٣١٢٠] وفي الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناسُ أصواتَهم بالدعاءِ، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أيها الناس، اربَعُوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب»[3]... الحديث. وقال ابن جُريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباسٍ في قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، قال: السر. وقال ابن جرير: ﴿تَضَرُّعًا﴾: تذللاً واستكانة لطاعته. ﴿وَخُفْيَةً﴾، يقول: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهاراً ومراءاة. وقال عبد الله بن المبارك، عن المبارك بن فضالة، عن الحسن قال: إنْ كانَ الرجلُ لقد جَمَع القرآن، وما يشعرُ به الناسُ. وإن كان الرجل

---

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ١٤٧٨٤، وهو معلول، عبد الغفار شيخ بقية لم أجد من ترجمه، وكذا شيخه، وشيخ شيخه، والظاهر أنه إسناد مصنوع. وبقية يروي عن مجاهيل لا يعرفون، راجع ترجمته في الميزان.

(٢) ورد مرفوعاً من حديث أبي سعيد. أخرجه البيهقي في «الشعب» ٤٤٠٠ وفيه خالد بن يزيد العمري، وهو متهم بالكذب. وورد مختصراً من حديث سعد بن أبي وقاص أخرجه البيهقي ٤٣٩٩ وفي الباب أحاديث.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٨٦.

لقد فَقُه الفقه الكثير، وما يشعرُ به الناس. وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّورُ. وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرضِ من عَمَلٍ يقدرُون أن يعملُوه في السرِّ، فيكونَ علانيةً أبداً. ولقد كان المسلمونُ يجتهدونَ في الدعاء، وما يُسمَعُ لهم صوتٌ، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربِّهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رَضِي فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: ٣]. وقال ابن جُرَيج: يكره رفعُ الصوتِ والنداءُ والصياحُ في الدعاء، ويؤمر بالتضرُّع والاستكانة، ثم رَوَى عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: في الدعاء ولا في غيره. وقال أبو مِجْلَزٍ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: لا يُسْأَلُ منازلَ الأنبياء.

[٣١٢١] وقال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا شعبة، عن زياد ابن مخراقٍ، سَمِعتُ أبا نعامة، عن مولى لسعد: أن سعداً سَمع ابناً له يدعو وهو يقول: «اللهم، إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها، ونَحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها». فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً وتعوَّذت بالله من شر كثير؛ وإني سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء»وقرأ هذه الآية: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾... الآية، وإن بحسبك أن تقول: «اللهم إني أسألك الجنة وما قَرَّب إليها من قولٍ أو عَمَلٍ، وأعوذُ بك من النار وما قَرَّب إليها من قول أو عمل»[1]. ورواه أبو داود، من حديث شعبة، عن زياد بن مخراق، عن أبي نعامة، عن ابن لسعد، عن سعد... فذكره، والله أعلم.

[٣١٢٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حَمّاد بن سَلَمة، أخبرنا الجَريري، عن أبي نعامة: أن عبد الله بن مُغفَّل سمع ابنه يقول: «اللهم، إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة، إذا دخلتها. فقال: يا بُنَيّ، سَلِ الله الجنة، وَعُذ به من النار؛ فإني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور»[2]. وهكذا رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عفان به. وأخرجه أبو داود، عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن سعيد بن إياس الجريري، عن أبي نَعَامة ـ واسمه: قيس بن عباية الحنفي البصري ـ وهو إسناد حسن لا بأس به، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾، ينهى تعالى عن الإِفساد في الأرض، وما أضره بعد الإصلاح فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإِفساد بعد ذلك، كان أضر ما يكون على العباد. فنهى تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، فقال: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، أي: خوفاً مما عنده من وبيل العقاب، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: إن رحمته مُرْصَدة للمحسنين، الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]... الآية. وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾، ولم يقل: «قريبة»، لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: قريب من المحسنين. وقال مَطَر الورّاق. تَنَجَّزُوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين. رواه ابن أبي حاتم.

---

(١) حسن. أخرجه أحمد ١/ ١٧٢، وإسناده ضعيف لجهالة مولى سعد. وأخرجه أبو داود ١٤٨٠ من طريق أبي نعامة عن ابن لسعد عن سعد، وهو معلول بجهالة ابن سعد لكن يتأيد بما بعده.

(٢) حسن. أخرجه أبو داود ٩٦ وابن ماجه ٣٨٦٤ وأحمد ٤/ ٨٧ و٥/ ٥٥ والحاكم ١/ ١٦٢ و٥٤٠ وابن حبان ٦٧٦٤ من طرق عن حماد بن سلمة به. وحسن إسناده المصنف، وهو كما قال.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ۝٥٨﴾

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المُدَبِّر المُسَخِّر، وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر ـ نبَّه تعالى على أنه الرزّاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: «وهو الذي يرسل الرياح نُشراً»، أي: ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر. ومنهم من قرأ: «بشراً»، كقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾ [الروم: ٤٦]. وقوله: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ أي: بين يَدَي المطر، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِىُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٢٨﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡىِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٞ ۝٥٠﴾ [الروم: ٥٠]. وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾، أي: حملت الرياح سحاباً ثقالاً أي: من كثرةِ ما فيها من الماء تكون ثقيلةً قريبةً من الأرضِ مدلهمّة، كما قال زيد بن عمرو بن نُفَيل رَحِمه الله:

وأسلمتُ وَجهي لِمَن أسلَمَتْ ... لَهُ المُزْنُ تَحمِلُ عَذباً زُلالا
وأسلَمتُ وَجهي لِمن أسلَمَتْ ... له الأرض تحمِلُ صَخراً ثِقالاً

وقولُه تعالى: ﴿سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ أي: إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ [يس: ٣٣]. . . الآية، ولهذا قال: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رَمِيماً يوم القيامة، يُنَزِّل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء، فتُمطر الأرض أربعين يوماً، فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض. وهذا المعنى كثير في القرآن، يضرب الله مثلاً للقيامة بإحياء الأرض بعد موتها، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾. وقوله: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ﴾، أي: والأرض الطيبةُ يخرج نباتها سريعاً حسناً، كما قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ [آل عمران: ٣٧]. ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا﴾، قال مجاهد وغيره: كالسباخ ونحوها. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.

[٣١٢٣] وقال البخاري: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا حَمّاد بن أسامة، عن بُرَيد بن عبد الله، عن أبي بُردَة، عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مثلُ ما بَعَثني الله به من الهُدَى والعلم، كَمَثلِ الغيثِ الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعُشبَ الكثير، وكانت منها أجادبُ أَمسَكَتِ الماءَ، فنفع الله بها الناس، فَشَرِبُوا وسَقَوا وَزَرَعُوا. وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قِيعان لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنبِتُ كَلأً، فذلك مَثَلُ من فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فَعَلِم وَعَلَّم، ومثلُ من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يَقْبَل هُدَى الله الذي أرْسِلْتُ به»[1]. رواه مسلم والنسائي من طرق، عن أبي أسامة حماد بن أسامة، به.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧٩ ومسلم ٢٢٨٢ وأبو يعلى ٧٣١١.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم في أوّل السورة، وما يتعلّق بذلك ويتّصِلُ به، وفرَغ منه، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ الأول فالأولَ، فابتدأ بذكر نوح عليه السلام فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام، وهو «نوح بن لامك بن متوشَلَح بن أخنُوخَ ـ وهو إدريسَ عليه السلام ـ كما يزعمون، وهو أول من خط بالقلم ـ ابن بُرد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم عليه السلام. هكذا نسبه ابن إسحاقَ وغير واحد من أئمة النَّسَبِ، قال محمدُ بن إسحاقَ: ولم يَلْقَ نبيٌّ من قومِهِ من الأذى مثلَ نوح إلا نبيٌّ قُتل. وقال يزيد الرَّقاشي: إنما سُمِّي نُوحاً لكثرةِ ما ناح على نفسه. وقد كان بين آدم إلى زمان نوح عليهما السلام عشرة قرون، كلهم على الإِسلام.

قال عبد الله بن عباس وغيرُ واحد من علماء التفسير: وكان أولُ ما عُبِدت الأصنامُ أن قوماً صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صورة أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان جعلوا تلك الصُّوَرَ أجساداً على تلك الصُّوَر. فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسَمَّوها بأسماء أولئك الصالحين: وداً وسُواعاً ويَغُوث وَيعُوق ونَسراً، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى ـ وله الحمد والمنة ـ رسوله نوحاً يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أي: من عذاب يوم القيامة إنْ لقيتم الله وأنتم مشركون، به. ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾، أي: الجمهورُ والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا. وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢﴾ [المطففين: ٣٢]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝١١﴾ [الأحقاف: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١﴾، أي: ما أنا ضالٌ، ولكن أنا رسول من رَبِّ كلِّ شيء ومليكه، ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢﴾. وهذا شأن الرسول أن يكون بليغاً فصيحاً ناصحاً بالله، لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات.

[٣١٢٤] كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لأصحابه يوم عَرَفة، وهم أوفرُ ما كانوا وأكثر جمعاً: «أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتُها عليهم ويقول: «اللهم اشهَدْ، اللهم اشهَدْ»[1].

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ۝٦٤﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾... الآية، أي: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجَب أن يوحي الله إلى رجل منكم، رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم، لإنذاركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فتمادوا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه

(١) هو بعض حديث جابر في صفة حجة النبي ﷺ، وهو عند مسلم برقم ١٢١٨.

منهم إلا قليل، كما نص عليه تعالى في موضع آخر، ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، وهي السفينة، كما قال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]، ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، كما قال: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح: ٢٥]. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾، أي: عن الحق، لا يبصرونه ولا يهتدون له. فبيَّن تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾... الآية إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥١ ـ ٥٢].

وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة، أن العاقبة للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجّى نوحاً وأصحابه المؤمنين. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: كان قومُ نوحٍ قد ضاقَ بهم السهلُ والجبلُ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز. وقال ابن وَهب: بلغني عن ابن عباسٍ: أنه نجا مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً، أَحَدُهم «جُزهم»، وكان لسانُه عربياً. رواهنّ ابنُ أبي حاتم. وقد روي هذا الأثرُ الأخير من وجه آخر متصلاً عن ابن عباس، رضي الله عنهما.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً. كذلك أرسلنا إلى عادٍ أخاهم هوداً. قال محمد بن إسحاق: هم ولد عاد بن إرَم بن عَوص بن سام بن نُوح. قلت: وهؤلاء هم عاد الأولى، الذين ذكرهم الله، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العَمَد في البر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: ٦ ـ ٨] وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥]. وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل. قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخُزاعي، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، سمعت علي بن أبي طالب يقول لرجل من حَضرَموت: هل رأيت كثيباً أحمر تخالطه مَدَرَة حمراء ذا أراكٍ وسِدْر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حَضرموت، هل رأيته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. والله إنك لتنعته نعتَ رجل قد رآه. قال: لا، ولكني قد حدثت عنه، فقال الحضرمي: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبرُ هود عليه السلام. رواه ابن جرير. وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، وأن هوداً ـ عليه السلام ـ دُفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسباً، لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شُدِّد خلقُهم شُدِّد على قلوبهم، وكانوا من أشدِّ الأمم تكذيباً للحق، ولهذا دعاهم هود ـ عليه السلام ـ إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾، والملأ هم: الجمهور والسادة والقادة منهم، ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى

سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، أي: في ضلالةٍ حيثُ دعوتنا إلى تركِ عبادةِ الأصنام، والإقبال إلى عبادةِ الله وَحدَهُ، كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]... الآية. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾، أي: لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾. وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة. ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾، أي: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمَدُوا الله على ذاكم، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾، أي: واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم من ذرية نوح، الذي أهلك الله أهلَ الأرض بدعوته، لَمّا خالفوه وكذبوه، ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾، أي: زاد طولكم على الناس بَسْطةً، أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كما قال تعالى في قصة طالوت: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾، أي: نعمه ومنّه عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. والآلاء جمع إلىً، وقيل: ألْيٍ.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾... الآية، كما قال الكفار من قريش: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]. وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أنهم كانوا يعبدون أصناماً، فَصَنمٌ يقال له: صُدَاء، وآخر يقال له: صَمُود، وآخر يقال له: الهباء. ولهذا قال هودٌ عليه السلامُ: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾، أي: قد وَجَبَ عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجسٌ، قيل: هو مقلوب من رجز. وعن ابن عباس: معناه السخَط والغضب. ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾، أي: أتحاجوني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة، وهي لا تضرُّ ولا تنفعُ، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً، ولهذا قال: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾. وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه، ولهذا عقب بقوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

وقد ذكر الله ـ سبحانه ـ صفة إهلاكهم في أماكن أُخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٨] لما تمردوا وعَتوا أهلكهم الله بريح عاتيةٍ، فكانت تحملُ الرجلَ منهم فترفعُه في الهواءِ ثم تُنكسُه على أمِّ رأسه فتثلغ رأسه حتى تُبِينَهُ من جثته، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾. وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن من عمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد فشَوا في الأرض وقَهروا أهلها، بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحابَ أوثانٍ يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام، وهو من أوسطهم نسباً، وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يُوَحِّدوا الله ولا يجعَلُوا معه إلهاً غيره، وأن يَكُفُّوا عن

ظُلم الناس. فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة؟ واتبعه منهم ناس، وهم يسير مكتتمون بإيمانهم، فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه، وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا، وبنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع، كلمهم هود فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣١]. ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾، أي: بجنون، ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٦].

قال محمدُ بن إسحاق: فلما أبوا إلا الكفرَ به، أمسكَ الله عنهم القَطْرَ ثلاثَ سنين، فيما يزعمُونَ، حتى جَهَدهم ذلك، قال: وكان الناس إذا جَهَدهم أمرٌ في ذلك الزمان، فطلبوا من الله الفرجَ، إنما يطلبونه بحرمته ومكان بيته، وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليقُ مقيمونَ، وهم من سلالة عِمْلِيقِ بن لاوَذَ بن سام بن نوح، وكان سَيِّدُهم إذ ذاك رجلاً يقال له: معاوية بن بكر، وكانت له أم من قوم عاد، واسمها كلهدة ابنة الخيبري، قال: فبعثت عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً إلى الحرم، ليستسقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان ـ قينتان لمعاوية ـ وكانوا قد وصلوا إليه في شهر، فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف، عَمِلَ شعراً يُعَرِّض لهم بالانصراف، وأمر القينتين أن تغنياهم به، فقال:

ألا يا قَيْلُ، ويحَكَ! قُمْ فَهَيْنِمْ ... لعلَّ الله يُصْبِحُنا غَمَاما
فَيَسْقِي أرضَ عادٍ، إنَّ عاداً ... قَدَ امسَوا لا يُبِينُونَ الكَلاَما
من العطش الشديد، فليس نَرجُو ... به الشيخَ الكبيرَ ولا الغُلاَما
وقد كانت نساؤهُمُ بخير ... فقد أمست نساؤهم عَيَامى
وإن الوحشَ تأتيهم جِهاراً ... ولا تخشى لعاديٍّ سِهَامَا
وأنتم ها هُنَا فيما اشتهيتُمْ ... نهارَكُمُ ولَيْلَكُمُ التَّمَامَا
فَقُبِّحَ وَفْدُكُم من وَفْدِ قَوْم ... ولا لُقُّوا التحيَّةَ والسَّلاَما

قال: فعند ذلك تنبَّهَ القومُ لما جاؤوا له، فَنَهضُوا إلى الحرم، ودَعَوا لقومهم فدعا داعيهم، وهو قَيْلُ ابن عِتْر، فأنشأ الله سحابات ثلاثاً: بيضاءَ، وسوداءَ، وحَمْرَاء، ثم ناداه منادٍ من السماء: اخْتَرْ لنفسك ـ أو لقومك ـ من هذا السحاب. فقال: اخترت هذه السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماء. فناداه مناد: اخترتَ رَماداً رِمْدداً، لا تبقى من عاد أحداً، ولا والداً تترك ولا ولداً، إلا جعلته هَمَداً، إلا بني اللَّوذيّة المهَّدا ـ قال: وبنو اللَّوذية: بطن من عاد مقيمون بمكة، فلم يصبهم ما أصاب قومهم ـ قال: وهم من بقي من أنسالهم وذراريهم عاد الآخرة ـ قال: وساق الله السحابة السوداء ـ فيما يذكرون ـ التي اختارها قَيْلُ بن عِتْر بما فيها من النقمة إلى عاد، حتى تخرج عليهم من واد يقال له: المغيث، فلما رأوها استبشروا، وقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ يقول: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥]، أي: تهلك كل شيء مَرّت به، فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح، فيما يذكرون، امرأة من عاد يقال لها: مهدد، فلما تبينت ما فيها صاحت، ثم صَعِقَتْ فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يا مهدد؟ قالت: ريحاً فيها شُهُب النار، أمامها رجال يقودونها. فسخَّرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، كما قال

الله ـ والحسوم: الدائمة ـ فلم تَدَعْ من عاد أحداً إلا هَلَك واعتزل هُود عليه السلام ـ فيما ذُكِرَ لي ـ ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومن معه إلا ما تلين عليه الجلود، وتَلْتَذُّ الأنفس، وإنها لتمر على عاد بالطعن ما بين السماء والأرض، وتدمَغُهم بالحجارة». وذكر تمام القصة بطولها، وهو سياق غريب فيه فوائد كثيرة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود: ٥٨].

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإِمامُ أحمد في مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله.

[٣١٢٥] قال الإِمام أحمد: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي، حدثنا عاصم بن أبي النَّجُود، عن أبي وائل، عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فمررتُ بالربَذَة فإذا عجوزٌ من بني تميم مُنقطعٌ بها، فقالت لي: يا عبد الله، إنَّ لي إلى رسول الله ـ ﷺ ـ حاجةً، فهل أنت مُبلِغي إليه؟ قال: فَحَمَلْتُها فأتيتُ المدينةَ، فإذا المسجدُ غاصٌ بأهله، وإذا رايةٌ سوداء تُخفِقُ، وإذا بلالٌ متقلدٌ السيفَ بين يدي رسول الله ـ فقلت: ما شأن الناس؟ فقالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً. قال: فجلست، فدخل منزله ـ أو قال: رَحْلَه ـ فاستأذنتُ عليه، فَأَذِنَ لي، فدخلتُ فسلَّمتُ، فقال: هل بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدَّبَرةُ عليهم. ومررتُ بعجوز من بني تميم منقطع بها. فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب. فأذن لها، فدخلَتْ، فقلت: يا رسولَ الله، إنْ رأيتَ أن تجعلَ بيننا وبين تميم حاجزاً، فاجعل الدهناء. فَحَمِيت العجوزُ واستوفَزَتْ، فقالت: يا رسولَ الله، فإلى أين يُضطَرُّ مُضطَرُك؟ قال: قلت: إن مثلي ما قال الأول: «معزَى حَملت حتفها»، حَملْتُ هذه ولا أشعرُ أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافِد عادٍ! قال: هيه، وما وافد عاد؟ ـ وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يَسْتَطْعِمُه ـ قلت: إن عاداً قُحِطُوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيلٌ، فمرَّ بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتُغَنِّيه جاريتان، يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهرة، فقال: «اللهمَّ إنك تعلم أني لم أجيء إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديَه. اللهم اسقِ عاداً ما كنت تَسقيهِ فمرَّتْ به سحابات سُودٌ، فنودي منها: اختر. فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رماداً رِمْدِداً لا تُبقي من عاد أحداً. قال: فما بلغني أنه بُعث عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا، حتى هلكوا ـ قال أبو وائل: وصدق ـ قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد[1]. هكذا رواه الإِمام أحمد في المسند، ورواه الترمذي، عن عبد بن حُميد، عن زيد بن الحُبَاب، به نحوه، ورواه النسائي من حديث سلام أبي المنذر، عن عاصم ـ وهو ابن بَهدَلَة ـ ومن طريقه رواه ابنُ ماجه أيضاً، عن أبي وائل، عن الحارث بن حسان البكري، به. ورواه ابن جَرير، عن أبي كريب، عن زيد بن

(١) حسن. أخرجه أحمد ٣/ ٤٨٢ والترمذي ٣٢٧٤ والطبري ١٤٨١٤ من طريق زيد بن الحباب به وقال الترمذي عقب الحديث: ويقال له الحارث بن حسان أيضاً (أي عن الحارث بن يزيد). وأخرجه أحمد ٣/ ٤٨٢ ح ١٥٥٢٣ من طريق سلام أبي المنذر به لكن من حديث الحارث بن حسان.

وأخرجه ابن ماجه ٢٨١٦ مختصراً والطبري ١٤٨١٣ من طريق أبي بكر بن عياش عن عاصم عن الحارث بن حسان البكري به. وهو حديث حسن الإسناد. وأخرجه الترمذي ٣٢٧٣ من طريق عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن رجل من ربيعة قال: قدمت المدينة. . . فذكره.

حُبَاب، به. ووقع عنده: عن الحارث بن يزيد البكري فذكره. ورواه أيضاً عن أبي كريب، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن الحارث بن حسان البكري. فذكره. ولم أر في النسخة أبا وائل، والله أعلم.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

قال علماء التفسير والنسب: ثمودُ بن عاثِرِ بن إرَم بن سام بن نوح، وهو أخو جَدِيس بن عاثِر، وكذلك قَبيلَةُ طَسْم، كلُّ هؤلاء كانوا أحياءً من العربِ العاربةِ قبل إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وكانت ثمودُ بعد عادٍ، ومساكنهم مشهورةٌ فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القُرَى وما حوله، وقد مَرَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ على قراهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع.

[٣١٢٦] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صخر بن جُوَيرية، عن نافع، عن ابن عُمَر قال: لما نزل رسولُ الله ـ ﷺ ـ بالناس على تَبُوك، نزل بهم الحِجْرَ عند بيوت ثمود فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشربُ منها ثَمود، فعجنوا منها ونَصَبُوا القُدور. فأمرهم النبي ـ ﷺ ـ فأهراقوا القدور، وعلفوا العجينَ الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقةُ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا قال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»[١].

[٣١٢٧] وقال أحمد أيضاً: حدثنا عفّان، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ وهو بالحِجْرِ: «لا تَدْخُلوا على هؤلاء المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تَدْخُلوا عليهم أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم»[٢]. وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين من غير وجه.

[٣١٢٨] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدّثنا يزيدُ بن هارونَ، أخبرنا المسعوديّ، عن إسماعيل بن أوسط، عن محمد بن أبي كبشة الأنماري، عن أبيه قال: لما كان في غزوة تبوك تسارَع الناسُ إلى أهل الحِجْر يدخلون عليهم. فبلغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ فنادى في الناس: الصلاة جامعةً. قال: فأتيت رسول الله ـ ﷺ ـ

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٢/ ١١٧ وابن حبان ٦٢٠٣ من طريق صخر بن جويرية به. وأخرجه البخاري ٣٣٧٩ ومسلم ٢٩٨١ وابن حبان ٦٢٠٢ والدلائل ٥/ ٣٤ من طرق عن عبيد الله عن نافع به.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٢/ ٧٤ بهذا الإسناد، وأصله عند البخاري ٤٣٣ و٤٤٢٠ ومسلم ٢٩٨٠ وابن حبان ٦٢٠٠ والبيهقي في «الدلائل» ٥/ ٢٣٣.

وهو ممسكٌ بعيره وهو يقول: ما تدخلون على قوم غَضِب الله عليهم. فناداه رجلٌ منهم: نعجبُ منهم يا رسول الله. قال: أفلا أنبئكم بأعجبَ من ذلك، رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وبما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسَدِّدوا. فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً(١). لم يخرجه أحد من أصحاب السنن الستة، وأبو كبشة اسمه: عَمْرو بن سعد، ويقال: عامر بن سعد، والله أعلم.

[٣١٢٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن أبي الزبير، عن جابر قال: «لما مرّ رسول الله ـ ﷺ ـ بالحجر قال: لا تسألوا الآياتِ، فقد سألها قومُ صالح فكانت ـ يعني الناقة ـ ترد من هذا الفجِّ، وتَصْدُر من هذا الفجِّ، فعَتَوا عن أمر ربهم فعَقَروها، وكانت تشربُ ماءهم يوماً ويشربون لَبَنها يوماً، فَعَقَرُوها، فأخذتْهم صيحةٌ أهمَدَ الله مَنْ تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحداً كان في حَرَم الله. فقالوا: من هو يا رسول الله؟. قال: أبو رِغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه(٢). وهذا الحديثُ ليس في شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم. فقولُه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلةِ ثمودِ أخاهم صالحاً، ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، جميعُ الرسل يدعون إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ أي: قد جاءتكم حجةٌ من الله على صدق ما جئتُكم به. وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه أن تَخرُجَ لهم من صخرةٍ صَمّاءَ عيَّنوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحِجْر، يقال لها: الكَاتبة، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عُشَراء تَمْخَضُ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنّه، فلما أعطوه على ذلك عهودَهم ومواثيقهم قام صالحٌ ـ عليه السلام ـ إلى صلاته ودعا الله عز وجل، فتحرّكت تلك الصخرةُ ثم انصدَعَتْ عن ناقة جَوْفاء وبْرَاء يتحرك جنينُها بين جنبيها، كما سألوا، فعند ذلك آمن رئيسُ القوم وهو: جُندَع بن عمرو ومن كان معه على أمره، وأراد بقية أشارف ثمود أن يؤمنوا فَصَدَّهم «ذؤاب بن عمرو بن لَبِيدٍ» و«الحُبابُ» صاحب أوثانهم، و«رباب بن صَمْعَرِ بن جَلمس»، وكان «الجندع بن عمرو» ابنُ عَمٍّ يقال له: «شهاب بن خليفة بن مخلاة بن لبيد بن جواس»، وكانَ من أشراف ثمود وأفاضلها، فأراد أن يُسلم أيضاً فنهاه أولئك الرهط، فأطاعهم، فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود، يقال له: مَهْوش بن عَنَمة بن الدُّمَيل رَحِمَه الله:

وكانت عُصْبةٌ من آل عَمْرو ... إلى دين النبيِّ دَعَوْا شِهابا
عَزيز ثَمُود كُلُّهمُ جميعاً ... فَهَمَّ بأن يُجيبَ فَلَو أجابَا
لأصبحَ صالحٌ فينا عَزيزاً ... وما عَدَلُوا بصاحبهم ذُؤابا
ولكنّ الغُوَاة مِنَ آل حِجرٍ ... تَولّوا بعد رُشْدهم ذئابا

فأقامت الناقةُ وفصيلُها بعدما وضعته بين أظهرهم مدّةً، تشرب ماء بئرها يوماً، وتدعه لهم يوماً. وكانوا

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٣١ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٦/ ١٩٤ وقال: وفيه عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي وقد اختلط. فالإسناد ضعيف. وله علة أخرى إسماعيل بن أوسط، لا يحتج به.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٢٩٦ وابن حبان ٦١٩٧ والحاكم ٢/ ٣٤٠ ـ ٣٤١ والطبري ١٤٨٢٤، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي وقال ابن كثير: على شرط مسلم. مع أن في إسناده أبي الزبير مدلس، وقد عنعن.

يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥]. وكانت تسرَحُ في بعض تلك الأوديةِ ترد من فَجّ وتصدُر من غيره ليسعها، لأنها كانت تتضلّع من الماء، وكانت ـ على ما ذكر ـ خَلْقاً هائلاً ومنظراً رائعاً، إذا مرّت بأنعامهم نفرت منها. فلما طال عليهم ذلك واشتدّ تكذيبُهم لصالح النبي ـ عليه السلام ـ عزموا على قتلها، ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلّهم على قتلها. قال قتادة: بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كُلّهم، أنهم راضون بقتلها، حتى على النساء في خدورهن، وعلى الصبيان أيضاً. قلت: وهذا هو الظاهر لأن الله تعالى يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾ [الشمس: ١٤]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾. فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة، فدلَّ على رِضا جميعِهم بذلك، والله أعلم.

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير ـ رحمه الله ـ وغيره من علماء التفسير في سبب قتل الناقة: أن امرأة منهم يقال لها: عنيزة ابنة غنم بن مجلز، وتكنى أم غَنْم، وكانت عجوزاً كافرةً، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام، وكانت لها بناتٌ حِسانٌ ومالٌ جزيل، وكان زوجها ذُؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود، وامرأةٌ أخرى يقال لها: «صدوف ابنة المحيا» بن دهر بن المحيا ذات حسب ومال وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود، ففارقته، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت «صدوف» رجلاً يقال له: «الحباب» وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها. فدعت ابن عم لها يقال له: «مصدع بن مهرج بن المحيا»، فأجابها إلى ذلك ـ ودعت «عنيزة بنت غَنْم» «قدار بن سالف ابن جُنْدع»، وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه كان وَلَدَ زِنية، وأنه لم يكن من أبيه الذي يُنْسَب إليه، وهو سالف، وإنما كان من رجلٍ يقال له: صهياد، ولكن ولد على فراش سالف، وقالت له: أعطيك أيّ بناتي شئتَ على أن تعقر الناقة! فعند ذلك انطلق «قدار بن سالف» و«مصدع بن مهرج» فاستفزا غُواةً من ثمود، فاتّبعهما سبعةُ نفرٍ، فصاروا تسعةَ رهطٍ، وهم الذين قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨]، وكانوا رؤساء في قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها، فطاوعتهم على ذلك، فانطلقوا فرصَدُوا الناقة حين صَدَرت عن الماء، وقد كمن لها «قدار» في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها «مصدع» في أصل أخرى، فمرت على «مصدع» فرماها بسهم فانتظم به عضَلَة ساقها وخرجت «أم غَنْم عنيزة»، وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجهاً، فسفرت عن وجهها لقدار وذَمّرته فشد على الناقة بالسيف، فكسَفَ عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رَغاةً واحدة تُحَذِّر سَقْبَها، ثم طعن في لبّتها فنحرها، وانطلق سَقْبُها ـ وهو فصيلها ـ حتى أتى جبلاً منيعاً، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا. فروى عبد الرزاق، عن معمر، عمن سمع الحسن البصري أنه قال: يا رب، أين أمي؟ ويقال: إنه رغا ثلاث مرات، وإنه دخل في صخرة فغاب فيها، ويقال: بل اتبعوه فعقروه مع أمه، فالله أعلم.

فلما فعلوا ذلك وَفَرَغُوا من عَقْر الناقة، بلغ الخبرُ صالحاً عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]. . . الآية، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح، وقالوا: إن كان صادقاً عَجَّلناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته! ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ [النمل: ٤٩ ـ ٥٠]. . . الآية. فلما عزموا على ذلك وتواطؤوا عليه، وجاؤوا من الليل ليفتِكُوا بنبي الله صالح، أرسل الله ـ سبحانه وتعالى، وله العزة ولرسوله ـ عليهم حجارة فرضَختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس، وهو اليوم الأول من أيام النَّظرة، ووجوههم مُصْفَرَّةٌ كما وعدهم صالح عليه السلام. وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل، وهو يومُ الجمعة، ووجوههم محمرَّة. وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت، ووجوههم مسودّة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنَّطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه ـ عياذاً بالله من ذلك ـ لا يدرون ماذا يُفعَلُ بهم، ولا كيف يأتيهم العذابُ، وأشرقت الشمسُ، جاءتهم صيحةٌ من السماء ورَجْفة شديدة من أسفلَ منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس في ساعة واحدة ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، أي: صرعى لا أرواحَ فيهم، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى. قالوا: إلا جارية كانت مقعدة ـ واسمها: «كلبة ابنة السِّلْق»، ويقال لها: «الذُّرَيْعَةُ» ـ وكانت كافرة شديدةَ العداوةِ لصالح عليه السلام، فلما رأت ما رأت من العذاب، أُطلِقَت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء، فأتت حياً من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حَلَّ بقومها، ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت ماتت.

قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد، سوى صالح ـ عليه السلام ـ ومن اتبعه ـ رضي الله عنهم ـ إلا رجلاً كان يقال له: «أبو رِغَال»، كان لما وقعت النقمة بقومه مقيماً إذ ذاك في الحرم، فلم يصبه شيء، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحلّ جاءه حجر من السماء فقتله. وقد تقدم في أول القصة حديث «جابر بن عبد الله» في ذلك، وذكروا أن أبا رِغَالٍ هذا هو والد ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف.

[٣١٣٠] قال عبد الرزاق: قال مَعْمَر: أخبرني إسماعيل بن أمية: أن النبي ـ ﷺ ـ مرَّ بقبر أبي رِغَالٍ فقال: أتدرون من هذا؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا قبر أبي رِغَالٍ، رجل من ثمود، كان في حرم الله، فمنعه حرمُ الله عذاب الله. فلما خرج أصابه ما أصاب قومه، فَدُفِن هاهنا، ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم، فبحثوا عنه، فاستخرجوا الغصن. وقال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رِغَالٍ، أبو ثَقِيف[1]. هذا مرسل من هذا الوجه، وقد رُوي متصلاً من وجه آخر:

[٣١٣١] كما قال محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن بُجَير بن أبي بُجير قال: سمعتُ عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال: «هذا قبر أبي رِغَالٍ، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم فَدَفَع عنه، فلما خرج أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدُفِن فيه، وآيةُ ذلك أنه دُفِن معه غُصنٌ من ذَهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه، فابتدره الناسُ فاستخرجوا منه الغصنَ»[2]. وهكذا رواه أبو داود، عن يحيى بن معين، عن وهب بن جرير بن حازم، عن أبيه، عن ابن إسحاق به. قال شيخنا أبو الحجاج المِزِّي: وهو حديث حسنٌ عزيزٌ. قلت: تفرد بوصله بُجَير بن أبي بجير هذا، وهو شيخ لا يُعرَفُ إلا بهذا الحديث، قال يحيى ابن معين: ولم أسمع أحداً روى عنه غير إسماعيل بن أمية. قلت: وعلى هذا فيخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما يكون

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٩١٦ عن إسماعيل بن أمية، وهذا معضل. وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٠٨٨ وابن حبان ٦١٩٩ والبيهقي ٤/١٥٦ والذهبي في الميزان ١١٢٤ والمزي في «تهذيب الكمال» ٤/ ١٠ ـ ١١ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. وإسناده ضعيف. ابن إسحق مدلس، ولم يصرح بالتحديث. لكن توبع عند البيهقي، وفيه بُجير بن أبي بُجير مجهول كما في الميزان، والتقريب، فالإسناد واهٍ. وانظر تعليق ابن كثير رحمه الله.

من كلام عبد الله بن عمرو، مما أخذه من الزاملتين. قال شيخنا أبو الحجاج، بعد أن عرضت عليه ذلك: وهذا محتمل، والله أعلم. وقوله تعالى:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

هذا تقريعٌ من صالح ـ عليه السلام ـ لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتَمَرُّدِهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق وإعراضهم عن الهدى إلى العَمَى. قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعاً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك.

[٣١٣٢] كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما ظهر على أهل بدر، أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر براحلته فشُدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها، ثم سار حتى وقف على القليب قليب بدر، فجعل يقول: «يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، ويا فلان بن فلان: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً. فقال له عمر: يا رسول الله، ما تُكلِّم من أقوام قد جَيَّفوا؟! فقال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون»[١].

[٣١٣٣] وفي السيرة أنه ـ عليه السلام ـ قال لهم: «بئس عشيرةُ النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصَدَّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم!»[٢].

وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، أي: فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحاً. ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾. وقد ذكر بعض المفسرين أن كُلَّ نبي هَلَكت أمته كان يذهب فيقيم في الحرم، حَرَم مكة، فالله أعلم.

[٣١٣٤] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا زَمْعَةُ بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «لما مر رسول الله ـ ﷺ ـ بوادي عُسْفان حين حَجّ قال: يا أبا بكر، أيُّ واد هذا؟ قال: هذا وادي عُسْفان. قال: لقد مَرَّ به هُودٌ وصالح ـ عليهما السلامَ ـ على بَكَرات حُمْرٍ خُطُمها اللّيف، أُزُرُهم العَبَاء، وأرديتهم النِّمار[٣]، يُلَبُّون، يحجّون البيت العتيق»[٤]. هذا حديث غريبٌ من هذا الوجه، لم يخرِّجه أحدٌ منهم.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَ﴾ لقد أرسلنا ﴿لُوطًا﴾، أو تقديره: واذكرْ لُوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم

---

(١) صحيح. وقد تقدم عند آية: ٤٤ من هذه السورة.

(٢) ذكره ابن هشام في «السيرة» ٢/ ٢١٢، وهو معضل.

(٣) البكرات: جمع بكرة، وهي الفتية من الإبل. والخطم: الحبل الذي تؤخذ به الناقة.
والنمار: شملة مخططة من مآزر الأعراب.

(٤) أخرجه أحمد ٢٠٦٧ «بترقيم شاكر»، وقال الهيثمي في «المجمع» ٥٣٤٧: فيه زمعة بن صالح، وفيه كلام، وقد وُثق اهـ. وجاء في «الميزان» ٢٩٠٤: ضعفه أحمد وابن معين، وقال في رواية: صُويلح الحديث. وقال أبو زرعة: لين واهي الحديث. وقال البخاري: يخالف في حديثه، تركه ابن مهدي أخيراً. وقال النسائي: ليس بالقوي وقال أبو داود: ضعيف اهـ وبهذا يتحصل أن الرجل ضعيف، فما ذكره الهيثمي فيه نظر.

بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾. ولوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل ـ عليهما السلام ـ وكان قد آمن مع إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أهل سَدُوم وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث. وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل سَدُوم عليهم لعائن الله. قال عمرو بن دينار: قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال: ما نزا ذَكَرٌ على ذكر، حتى كان قوم لوط. وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق: لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً. ولهذا قال لهم لوط عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: عدلتم عن النساء، وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال، وهذا إسراف منكم وجهل، لأنه وضع الشيء في غير محله، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الحجر: ٧١]، فأرشدهم إلى نسائهم، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن، ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ [هود: ٧٩]، أي: لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك. وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغنى بعضهن ببعض أيضاً.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أي: ما أجابوا لوطاً إلا أن هَمّوا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالماً، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، قال قتادة: عابوهم بغير عيب. وقال مجاهد: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، من أدبار الرجال وأدبار النساء. ورُوي مثله عن ابن عباس أيضاً.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

يقولُ تعالى: فأنجينا لوطاً وأهله، ولم يؤمن به أحدٌ منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦]، إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تمالئهم عليه وتُعْلمهم بمن يَقْدَم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم، ولهذا لما أمر لوط ـ عليه السلام ـ أن يُسْري بأهله أُمِرَ ألاّ يعلم امرأته ولا يخرجها من البلد. ومنهم من يقول: بل اتبعتهم، فلما جاء العذابُ التفتت هي فأصابها ما أصابهم. والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، أي: الباقين. ومنهم من فسر ذلك ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الهالكين، وهو تفسير باللازم. وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، مفسر بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢ ـ ٨٣]، ولهذا قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: انظر ـ يا محمد ـ كيف كان عاقبة من يجترىء على معاصي الله وكذّب رسله.

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ إلى أن اللائِطَ يُلقى من شاهقٍ، ويُتبَعُ بالحجارة كما فُعِل بقوم لوط. وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يُرجَم سواء كان مُحصناً أو غير مُحصَن. وهو أحد قولي الشافعي رحمه الله.

[٣١٣٥] والحجة ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث الدَّراوَرْدِيِّ، عن عمرو بن أبي عَمْرو، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من وجدتُموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[(١)]. وقال آخرون: هو كالزاني، فإن كان محصناً رُجِمَ، وإن لم يكن مُحصناً جُلِد مئة جلدة. وهو القول الآخر للشافعي. وأما إتيان النساء في الأدبار فهو اللوطية الصغرى وهو حرام بإجماع العلماء، إلا قولاً شاذاً لبعض السلف، وقد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ـ ﷺ ـ وقد تقدم الكلام عليها في سورة البقرة.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥)﴾

قال محمدُ بن إسحاق: هم من سُلالة مدين بن مديان بن إبراهيم. وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجن قال: واسمه بالسريانية «يثرون». قلت: وتطلق مدين على القبيلة، وعلى المدينة ـ وهي التي بقرب مَعَان من طريق الحجاز، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وهم أصحابُ الأيكَةِ، كما سنذكُره إن شاء الله تعالى، وبه الثقة. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

---

(١) يشبه الحسن. أخرجه أبو داود ٤٤٦٢ والترمذي ١٤٥٦ وابن ماجه ٢٥٦١ والدارقطني ٣/ ١٢٢ وابن الجارود ٨٢٠ والحاكم ٤/ ٣٥٥ وأحمد ١/ ٣٠٠ والبغوي ١٠/ ٣٠٨ والبيهقي ٨/ ٢٣٢، وإسناده غير قوي ومع ذلك صححه الحاكم! وسكت الذهبي. وجاء في نصب الراية ٣/ ٣٤٠ ما ملخصه: قال البخاري: عمرو هذا روى عن عكرمة مناكير، وقال النسائي: ليس بالقوي. وقال شيخنا الذهبي في الميزان: وثقه ابن معين لكن قال: ينكر عليه حديث ابن عباس هذا.

وجاء في تلخيص الحبير ٤/ ٥٤ ما ملخصه: حديث ابن عباس استنكره النسائي، وفي ثبوته اختلاف.

وتابعه عباد بن منصور أخرجه أحمد ١/ ٣٠٠ ح ٢٧٢٣ والبيهقي ٨/ ٢٣٢، وقد اغتر الألباني بذلك في «الإرواء» ٢٣٥٠ بهذا المتابعة فصححه. وهذا ليس بجيد. جاء في الميزان ٢/ ٣٧٦: عباد بن منصور لم يرضه القطان، وقال يحيى: ليس بشيء، وقال ابن الجنيد: متروك قدري. وضعفه النسائي. وقال أبو حاتم الرازي وابن حبان: نرى أنه أخذ هذه الأحاديث عن إبراهيم بن أبي يحيى عن داود بن حصين عن عكرمة اهـ «لفظ أبي حاتم الرازي» وإبراهيم هذا ضعيف. وداود روى عن عكرمة مناكير. فهذه المتابعة لا فائدة منها. ومع ذلك فقد أخرجه أحمد ٢٧٢٨ عن عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس موقوفاً عليه.

وورد من حديث أبي هريرة. أخرجه ابن ماجه ٢٥٦٢ وعلقه الترمذي بإثر حديث ١٤٥٦ وفيه عاصم بن عبد الله العمري وهو متروك، وتابعه عبد الرحمن بن عبد الله العمري في المستدرك ٤/ ٣٥٥ وهو متروك وقال الذهبي: ساقط، ثم إن لفظه «فارجموا. .» بدل «فاقتلوا».

الخلاصة: لا يثبت هذا الحديث. ولو صح لما اختلف الصحابة والأئمة الفقهاء في ذلك. حيث ذهب بعضهم إلى أنه يلقى من شاهق. وقال بعضهم: يرجم، وقال بعضهم: يقتل بالسيف، ورواية عن أحمد: حكمه حكم الزاني. ورواية أخرى عنه: يرجم ثيباً كان أو بكراً. وقال ابن أبي حاتم في «العلل» ١٣٦٧: سألت أبي عن حديث رواه ابن أبي حبيبة عن داود بن حصين عن عكرمة به، فقال أبي: هذا حديث منكر لم يروه غير ابن أبي حبيبة اهـ. وقد اضطرب فيه عمرو بن عمرو. قال الترمذي عقب الحديث ١٤٥٦: ورواه محمد بن إسحق عن عمرو بن أبي عمرو، فقال «ملعون من عمل عمل قوم لوط» لم يذكر فيه القتل. وقال الترمذي: اختلف أهل العلم في حد اللوطي، فرأى بعضهم عليه الرجم أحصن أو لم يحصن، وهذا قول مالك والشافعي وأحمد وإسحق، وقال الحسن والنخعي وعطاء وأهل الكوفة والثوري: حد اللوطي حد الزاني.

غَيْرُهُۥ﴾، هذه دعوة الرسل كلهم، ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به. ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أي: لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو: نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٦]، وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه. ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب، الذي يقال له: خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨٦ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨٧﴾

ينهاهم شُعَيبٌ ـ عليه السلام ـ عن قطع الطريق الحسّيّ والمعنويّ بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾، أي: تتوعَّدون الناسَ بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم. قال السدِّيُّ وغيره: كانوا عشارين. وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾، أي: تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه. والأول أظهر، لأنه قال: ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾، وهي الطرق، وهذا الثاني هو قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، أي: وتودون أن تكون سبيل الله عِوَجاً مائلة. ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾، أي: كنتم مُستضعَفين لقلتكم فصِرتم أعزة لكثرةِ عَدَدكم، فاذكروا نعمةَ الله عليكم في ذلك، ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، أي: من الأمم الخالية والقرون الماضية، ما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله. وقولُه: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ أي: قد اختلفتم عليّ، ﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾، أي: انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم، أي: يفصل، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝٨٨ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ۝٨٩﴾

هذا إخبارٌ من الله عما واجهت به الكفار نبي الله شعيباً ومن معه من المؤمنين، في توعدهم إياه ومن معه بالنفي من القرية، أو الإكراه على الرجوع في مِلّتهم والدخول معهم فيما هم فيه. وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معهم على الملة. وقولُه: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾، يقول: أو أنتم فاعلو ذلك ولو كنا كارهين ما تدعوننا إليه؟ فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمنا على الله الفرية في جعل الشركاء معه أنداداً، وهذا تعبير منه عن أتباعه. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾، وهذا ردّ إلى المشيئة، فإنه يعلم كل شيء، وقد أحاط بكلِّ شيء علماً، ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، أي: في أمورنا ما نأتي منها

وما نذر ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾، أي: افصل بيننا وبين قومنا، وانصرنا عليهم، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾، أي: خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

يخبرُ تعالى عن شِدَّةِ كُفرِ قوم شُعَيب وَتَمَرُّدِهم وعُتُوِّهم، وما هم فيه من الضلالِ، وما جُبلَتْ عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، فلهذا عَقَّب ذلك بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾، أخبر تعالى هاهنا أنهم أخذتهم الرجفةُ كما أرجَفُوا شعيباً وأصحابه وتوعَّدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة «هود» فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾. والمناسبة في ذلك ـ والله أعلم ـ أنهم لما تهكَّموا بنبي الله شعيبٍ في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، فجاءت الصيحة أسكتتهم.

وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الشعراء: ١٨٧]... الآية، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظُّلَّة، وقد اجتمع عليهم ذلك كلُّه ـ أصابهم عذابُ يوم الظلة، وهي سحابة أظلَّتهم فيها شَرَرٌ من نار ولَهَب ووهَج عظيم، ثم جاءتهم صيحةٌ من السماء ورجفةٌ من الأرض شديدةٌ من أسفلَ منهم، فزَهَقتِ الأرواحُ، وفاضت النفوسُ، وخمدت الأجسادُ، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾، أي: كأنهم لما أصابتهم النقمةُ لم يُقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسولِ وصحبه منها. ثم قال تعالى مقابلاً لقيلهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

أي: فتولى عنهم شعيب ـ عليه السلام ـ بعد ما أصابهم ما أصابَهم من العذاب، والنقمةِ والنكال، وقال مقرعاً لهم وموبخاً: ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، أي: قد أديتُ إليكم ما أرسِلْت به، فلا أسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به، ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عما اختُبِر به الأمم الماضيةَ، الذين أُرسِلَ إليهم الأنبياءُ بالبأساء والضراء، يعني: ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام. ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ ما يصيبهم من فقرٍ وحاجة ونحو ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾، أي: يَدْعون ويخْشعون ويبتهِلُون إلى الله تعالى في كشفِ ما نزل بهم.

وتقديرُ الكلام أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرَّعوا، فما فعلوا شيئاً من الذي أراد الله منهم، فقلب الحال إلى

الرخاء ليختبرهم فيه، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾، أي: حوّلنا الحال من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك، فما فعلوا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾، أي: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر، ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. يقول تعالى: ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرَّعُوا ويُنيبوا إلى الله، فما نَجع فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، بل قالوا: قد مَسَّنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء، مثلُ ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر، وإنما هو الدهرُ تاراتٌ وتاراتٌ. ولم يتفطنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضراء.

[٣١٣٦] كما ثبت في الصحيحين: «عجباً للمؤمن. لا يَقْضِي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبَر فكان خيراً له»(١) فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من السراء والضراء.

[٣١٣٧] ولهذا جاء في الحديث: «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه، والمنافق مثله كمثلِ الحمار لا يدري فيم رَبَطه أهلهُ، ولا فيم أرسلوه»(٢)، أو كما قال. ولهذا عَقَّب هذه الصفة بقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: أخذناهم بالعقوبة بغتةً، أي: على بغتةٍ منهم، وعدمِ شعورٍ، أي: أخذناهم فجاةً.

[٣١٣٨] كما جاء في الحديث: «موت الفجاةِ راحةٌ(٣) للمؤمن، وأخذةُ أَسَفٍ للكافر»(٤).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

---

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٥٣.

(٢) أما صدره فصحيح، أخرجه مسلم ٢٨٠٩ والترمذي ٢٨٦٦ وابن حبان ٢٩١٥. وأما عجزه، فغريب، لم أجده بهذا اللفظ، وعجز حديث مسلم المتقدم هو «ومثل المنافق مثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد». وانظر «الترغيب» ٤٩٨١ و٤٩٨٢ وما بعده.

(٣) وقع في الأصل «رحمة» والتصويب من «المقاصد الحسنة» ١٢١٢ و«مسند أحمد» ٦/ ١٣٦.

(٤) أخرجه أحمد ٦/ ١٣٦ ح ٢٤٥٢١ من طريق عبيد الله بن الوليد عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن عائشة به وإسناده ضعيف جداً فيه عبد الله بن الوليد الوصافي، وهو متروك قاله الهيثمي في «المجمع» ٢/ ٣١٨.

وأخرجه ابن الجوزي في «العلل» ١٤٩٣ من وجه آخر، وأعله بصالح بن موسى، ونقل عن يحيى قوله: ليس بشيء، واتهمه ابن حبان. وورد من حديث أنس أخرجه ابن الجوزي في «العلل» ١٤٩٠ وأعله بسمعان بن مهدي، وأنه مجهول منكر الحديث.

وورد بلفظ «موت الفجأة أخذة أسف» أخرجه أبو داود ٣١١٠ عن عبيد بن خالد رفعه مرة ووقفه أخرى فهذا اضطراب يوهن الحديث، ونقل ابن الجوزي في «العلل» ٢/ ٨٩٥ عن الأزدي قوله: ولهذا الحديث طرق، وليس فيها صحيح عن رسول الله ﷺ وافقه الحافظ ابن الجوزي، وهو كما قالا، والله أعلم. انظر «فتح الباري» ٣/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

يقول تعالى مُخبراً عن قِلّة إيمان أهل القُرى الذين أُرسِلَ فيهم الرسُلُ، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨]، أي: ما آمنت قرية بتمامها إلا قومَ يونس، فإنهم آمنوا، وذلك بعد ما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٧ ـ ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٣٤]. . . الآية. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ أي: آمنت قلوبُهم بما جاءتهم به الرسلُ وصدَّقت به واتَّبعته، واتَّقوا بفعلِ الطاعاتِ وتركِ المحرَّمات، ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: قَطْرَ السماءِ ونباتَ الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، أي: ولكن كذَّبوا رسلَهم، فعاقبناهم بالهلاكِ على ما كسبوا من المآثم والمحارم. ثم قال تعالى مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره، والتجرؤ على زواجره: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، أي: الكافرة ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾، أي عذابنا ونَكالنا، ﴿بَيَٰتًا﴾، أي: ليلاً ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾، أي: في حال شُغلهم وغفلتهم، ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾، أي: بأسه ونِقْمته وقُدْرته عليهم وأخْذَه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعاتِ وهو مشفقٌ وجلٌ خائفٌ والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمنٌ.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾: أو لم يَتبيَّن، وكذا قال مجاهد والسُّدِّيّ. وقال أبو جعفر بن جَرير في تفسيرها: يقول تعالى: أو لم يَتبيَّنْ للذين يُستخلَفون في الأرض من بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربهم: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾، يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم. ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، يقول: ونختم على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، موعظة ولا تذكيراً. قلت: وهكذا قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة: ٢٦]، وقال: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٤ ـ ٤٥]. . . الآية، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم: ٩٨]، أي: هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٦]، وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحقاف: ٢٥ ـ ٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ [سبأ: ٤٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ [الملك: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٥ ـ ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نِقَمه بأعدائه، وحُصول نِعَمه لأوليائه. ولهذا عَقَّب ذلك بقوله، وهو أصدق القائلين ورب العالمين:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

لما قَصَّ تعالى على نبيه ـ ﷺ ـ خَبَر قوم نوح، وهود وصالح، ولوط، وشعيب، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذرَ إليهم بأن بَيَّنَ لهم الحقَّ بالحُجَج على ألسنة الرسل ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾، أي: يا محمد ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾، أي: من أخبارها، ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾، أي: بالحُجَج على صِدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠٠ ـ ١٠١]. وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾، الباء سببية، أي: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أوَّل ما ورد عليهم. حكاه ابن عطية رحمه الله. وهو مُتَّجهٌ حَسَن، كقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١٠٩ ـ ١١٠]. . . الآية، ولهذا قال هنا: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾، أي: لأكثر الأمم الماضية ﴿مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ﴾، أي: ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال. والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربُّهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، وأقرّوا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعَبَدوا مع الله غيره بلا دليلٍ ولا حُجَّةٍ، لا من عقلٍ ولا شرعٍ. وفي الفِطَرِ السليمة خلافُ ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك، كما جاء في صحيح مسلم:

• [٣١٣٩] يقول الله تعالى: «إني خلقْتُ عبادي حُنفاء، فجاءتهم الشياطينُ فاجتالتهم عن دينهم، وحَرّمَت عليهم ما أحللتُ لهم»(١).

[٣١٤٠] وفي الصحيحين: «كُلُّ مولود يُولَد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه»(٢). . . الحديث، وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١١٩.

(٢) تقدم أيضاً في تفسير سورة النساء.

وقد قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾، ما روى أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب في قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ قال: كان في علمه تعالى يوم أقرّوا له بالميثاق، أي: فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك، وكذا قال الربيع بن أنس، واختاره ابن جرير. وقال السدّيُّ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾، قال: ذلك يوم أُخِذَ منهم الميثاقُ فآمنوا كُرهاً. وقال مجاهد في قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾: هذا كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾ [الأنعام: ٢٨]. . . الآية.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾، أي: الرسلَ المتقدم ذكرهم، كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب ـ صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين ـ ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، أي: بحُججنا ودلائلنا البينة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك مصر في زمان موسى، ﴿وَمَلَإِي۟هِۦ﴾، أي: قومه، ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾، أي: جَحَدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً، كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، أي: الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أي: انظر ـ يا محمد ـ كيف فعلنا بهم، وأغرقناهم عن آخرهم، بمرأى من موسى وقومه. وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون، وإلجامِه إياه الحُجَّة، وإظهاره الآياتِ البيِّنات بحضرةِ فرعونَ وقومه من قبطِ مصرَ، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾، أي: أرسلني الذي هو خالقُ كل شيء وربه ومليكه. ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، فقال بعضهم: معناه حقيق بألاّ أقول على الله إلا الحق: أي جدير بذلك وحَريّ به. قالوا: والباء و«على» يتعاقبان، فيقال: رميت بالقوس وعلى القوس، وجاء على حال حسنة وبحال حسنة. وقال بعض المفسرين: معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق. وقرأ آخرون من أهل المدينة ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾ بمعنى واجب وحق عَلَيّ ذلك أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من عزّة جلاله وعظيم سلطانه. ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: بحجة قاطعة من الله، أعطانيها الله دليلاً على صدقي فيما جئتكم به، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم؛ فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل، وهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن. ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كان معك حجة فأظهرها لنراها، إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُعۡبَانٌ مُّبِينٌ﴾، الحية الذكر. وكذا قال السدي، والضحاك. وفي حديث الفُتُون[1]، من رواية يزيد بن هارون، عن الأصبغ بن زيد، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ﴾ فتحولت حيةً عظيمةً فاغرة فاها، مسرعةً إلى فرعون، فلما رأى فرعون أنها قاصدةٌ إليه اقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه، فَفَعل. وقال قتادة: تحولت حية عظيمة مثل المدينة. وقال السدي في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٌ مُّبِينٌ﴾: والثعبان الذكر من الحيات، فاتحةً فاها، واضعةً لَحْيها الأسفل في الأرض، والآخر على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها ذُعر منها، ووثب وأحدث، ولم يكن يُحْدث قبل ذلك، وصاح: يا موسى، خذها وأنا أؤمن بك، وأرسِلُ معك بني إسرائيل. فأخذها موسى ـ عليه السلام ـ فعادت عصا. ورُوِي عن عكرمة، عن ابن عباس نحوُ هذا. وقال وهب بن مُنَبِّه: لما دخل موسى على فرعونَ، قال له فرعونَ: أعَرِّفكَ؟ قال: نعم. قال: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾ [الشعراء: ١٨]؟ قال: فردّ إليه موسى الذي رَدّ. فقال فرعون: خذوه. فبادره موسى فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين فَحَمَلَتْ على الناس فانهزموا منها، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، قتل بعضهم بعضاً، وقام فرعون منهزماً حتى دخل البيت. رواه ابن جرير، والإمام أحمد في كتابه «الزهد»، وابن أبي حاتم، وفيه غرابة في سياقه، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾، أي: نزع يده: أخرجها من درعه بعد ما أدخلها فيه فخرجت بيضاء تتلألأ من غير بَرَص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ [النمل: ١٢]. . . الآية. وقال ابن عباس في حديث الفتون ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾، يعني من غير برص، ثم أعادها إلى كمه، فعادت إلى لونها الأول، وكذا قال مجاهد وغير واحد.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ١١٠﴾

أي: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ وهم الجمهور والسادةُ ﴿مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ﴾ موافقين لقول فرعون فيه، بعدما رجع إليه روعه، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك، قال للملأ حوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ﴾، فوافقوه وقالوا كمقالته، وتشاوروا في أمره، وماذا يصنعون في أمره، وكيف تكون حيلتُهم في إطفاء نُوره وإخمادِ كلمته، وظهورِ كَذِبه وافترائه، وتَخوّفوا أن يستميلَ الناسَ بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضِهم، والذي خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ [القصص: ٦]. فلما تشاوروا في شأنه، وائتمروا فيه، اتفقَ رأيُهم على ما حكاه الله ـ تعالى ـ عنهم في قوله تعالى:

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾

قال ابن عباس: ﴿أَرۡجِهۡ﴾: أخره. وقال قتادة: احبسه. ﴿وَأَرۡسِلۡ﴾ أي: ابعث ﴿فِي ٱلۡمَدَآئِنِ﴾، أي: في الأقاليم ومدائن ملكك، ﴿حَٰشِرِينَ﴾، أي: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم. وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً، واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم، أن ما جاء به موسى ـ عليه السلام ـ من قبيل ما تُشعبِذُه سَحرتهم. فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات، كما

---

(١) يأتي في سورة طه.

أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠)﴾ [طه: ٥٧ - ٦٠]. وقال تعالى هاهنا:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤)﴾

يخبر تعالى عما تشارَطَ عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضةِ موسى - عليه السلام - إن غَلَبُوا موسى لَيُثِيبَنَّهم وَلَيُعطينَّهم عطاءً جزيلاً. فَوَعَدهم ومَنَّاهم أنه يُعطِيَهم ما أرادوا، ويجعلهم من جلسائِهِ والمقرَّبين عنده، فلما تواثقوا من فرعون لعنه الله:

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦)﴾

هذه مبارزةٌ من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾، أي: قَبلك. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥]. فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿أَلْقُوا﴾، أي: أنتم أولاً قبلي. والحكمةُ في هذا - والله أعلم - ليرى الناسُ صَنيعَهم ويتأمَّلوه، فإذا فَرَغوا من بَهْرَجِهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تَطَلُّب له وانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس. وكذا كان، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾، أي: خَيّلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقةٌ في الخارج، ولم يكن إلا مجرّدَ صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩)﴾ [طه: ٦٦ - ٦٩]. قال سفيان بن عيينة: حدثنا أبو سعد، عن عكرمة، عن ابن عباس: ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً. قال: فأقبلت يُخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. وقال محمد بن إسحاق: صَفَّ خمسةَ عَشَر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيه، وخرج موسى - عليه السلام - معه أخوه يتكىء على عصاه، حتى أتى الجمع، وفرعونُ في مجلِسه معه أشرافُ أهلِ مملكته، ثم قال السحرة: ﴿يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ [طه: ٦٥ - ٦٦]، فكان أولُ ما اختطفوا بسحرهم بَصَرَ موسى وبَصَرَ فرعون، ثم أبصارَ الناس بعد. ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من العصي والحبال، فإذا حيات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً. وقال السدّي: كانوا بضعةً وثلاثين ألفَ رجلٍ، ليس رجلٌ منهم إلا ومعه حبلٌ وعَصاً، ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾، يقول: فَرقوهم أي: من الفَرَق. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، عن هشام الدّستوائي، حدثنا القاسم بن أبي بزّةَ قال: جمع فرعونُ سبعينَ ألفَ ساحرٍ[1]، فألقوا سبعين ألف حبل، وسبعين ألف عصا، حتى جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

(١) هذا رقم خيالي من مجازفات بني إسرائيل.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

يُخبرُ تعالى أنه أوحى إلى عبدِه ورسُوله موسى ـ عليه السلام ـ في ذلك الموقف العظيم، الذي فَرَّق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه، ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾، أي: تأكل ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾، أي: ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل. قال ابن عباس: فجعلت لا تَمُرُّ بشيء من حبالهم ولا من خُشُبهم إلا التقمته، فعرفت السحرةُ أنَّ هذا أمرٌ من السماء، وليس هذا بِسِحرٍ، فَخَرُّوا سُجَّداً وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾. وقال محمد بن إسحاق: جعلت تَبْتَلِع تلك الحبالَ والعِصِيَّ واحدةً واحدةً، حتى ما يُرَى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾، لو كان هذا ساحراً ما غلبنا. وقال القاسم بن أبي بَزَّة: أوحى الله إليه أن ألق عصاك، فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين فاغرٌ فاه، يبتلع حبالَهم وعصيهم. فألقى السحرة عند ذلك سجَّداً، فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلهما.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

يخبر تعالى عما توعَّد به فرعون ـ لعنه الله ـ السَّحرَةَ لَمَّا آمنوا بموسى ـ عليه السلام ـ وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾، أي: إنَّ غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضاً منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، وهو يعلم ـ وكلّ من له لُبٌّ ـ أن هذا الذي قاله من أبطلِ الباطِلِ، فإن موسى ـ عليه السلام ـ بمجرد ما جاء من مَدْين دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزاتِ الباهرةَ والحججَ القاطعةَ على صِدْقِ ما جاء به، فعند ذلك أرسلَ فرعونُ في مدائن ملكه ومُعاملة سَلْطَنته، فجمع سحرةً متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصرَ، ممن اختار هو والملأ من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل. وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدّم عند فرعون. وموسى عليه السلام لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رَعاع دولته وجَهَلتهم، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فإنَّ قوماً صدّقوه في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] من أجْهَل خلق الله وأضلهم.

وقال السدّي في تفسيره بإسناده المشهور عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾، قالوا: التقى موسى عليه السلام وأميرُ السحرة، فقال له موسى: أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي، وتشهد أن ما جئت به حق؟ قال الساحر: لآتين غداً بسحر لا يغلبُه سحرٌ، فوالله لئنْ غلبتني لأومنن بك ولأشهدن أنك حقّ. وفرعونُ ينظر إليهما، قالوا: فلهذا قال ما قال. وقوله: ﴿لِتُخْرِجُوا۟

﴿مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي: تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصولة، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ما أصنع بكم. ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾، يعني: يقطع يد الرَّجُل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس، و﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، أي: على الجذوع. قال ابن عباس: وكان أولَ من صلب، وأولَ من قطع الأيدي والأرجل من خلاف، فرعون، وقولُ السحرة: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، أي: قد تحققنا أنا إليه راجعون، وعذابه أشدُّ من عذابك، وَنَكالُه مما تدعونا إليه اليوم ومما أكرهتنا عليه من السِّحر أعظم من نكالك، فَلَنصبِرَنَّ اليوم على عذابك لنخلصَ من عذاب الله، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾، أي: عُمَّنا بالصبر على دينكَ، والثبات عليه، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، أي: متابعين لنبيك موسى عليه السلام. وقالوا لـفـرعـون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه: ٧٢ ـ ٧٥]، فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء بررة. قال ابن عباس، وعُبيد بن عمير، وقتادة. وابن جُرَيج: كانوا في أول النهار سحرةً، وفي آخره شهداءَ.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعونُ ومَلَؤُه، وما أظهروه لموسى ـ عليه السلام ـ وقومه من الأذى والبِغْضَةِ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾، أي: لفرعون ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾، أي: أتدعهم ليفسدوا في الأرض، أي: يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك، يا لله للعجب! صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه! ألا إنَّ فرعونَ وقومه هم المفسدون، ولكن لا يشعرون. ولهذا قالوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، قال بعضهم: الواو هاهنا حالية، أي: أتذره وقومه يفسدون في الأرض وقد تَرَكَ عبادتك؟ وقرأ ذلك أبي بن كعب: «وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك»، حكاه ابنُ جَرير. وقال آخرون: هي عاطفة، أي لا تَدَعْ موسى يصنَعُ هو وقومُه من الفسادِ ما قد أقررتَهم عليه وعلى تَرْكِهِ آلهتك. وقرأ بعضهم: «إلا هتك»، أي: عبادتك، ورُوي ذلك عن ابن عباس ومجاهد. وعلى القراءة الأولى قال بعضهم: كان لفرعون إله يعبده. قال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبده في السر. وقال في رواية أخرى: كان له جُمَانَة في عُنُقه معلقة يسجُدُ لها. وقال السدي في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾: وآلهتهُ ـ فيما زعم ابن عباس ـ كانت البقرَ، كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها، فلذلك أخرجَ لهم السَّامريُّ عجلاً جَسَداً له خوار. فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾، وهذا أمرٌ ثانٍ بهذا الصنيع، وقد كان نكَّل بهم قبل ولادة موسى ـ عليه السلام ـ حَذراً من وجوده، فكان خلاف ما رامه وضدّ ما قصدَه فرعون. وهكذا عُومِل في صَنِيعه أيضاً، إنما أراد قهر بني إسرائيلَ وإذلالهم، فجاء الأمر على خلاف ما أراد، نصرهم الله عليه وأذله، وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده. ولما صَمَّم فرعونُ على ما ذكره من المسَاءة لبني إسرائيل، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا﴾، ووعدَهُم بالعاقبة، وأن الدار ستصيرُ لهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن

يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾، أي: قد جرى علينا مثل ما رأيت من الهوانِ والإذلال من قَبْلِ ما جئتَ يا موسى ومن بعد ذلك. فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضرة وما يصيرون إليه في ثاني الحال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ . . . الآية، وهذا تَحْضِيضٌ لهم على العَزْمِ على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، أي: اختبرناهم وامتحنّاهم وابتليناهم ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾، وهي سِني الجوع بسبب قِلّة الزروع، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، قال مجاهد: وهو دون ذلك. وقال أبو إسحاق، عن رجاء بن حَيْوة: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾، أي: من الخصب والرزق ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾، أي هذا لنا بما نستحقه، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، أي: جدْبٌ وقَحطٌ ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾، أي: هذا بسببهم وما جاؤوا به. ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يقول: مصائبهم عند الله، قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وقال ابنُ جُرَيج، عن ابن عباس قال: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قال: أي من قِبَل الله.

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

هذا إخبارٌ من الله ـ عزّ وجلّ ـ عن تَمَرُّدِ قوم فرعون وعُتُوِّهِم، وعنادهم للحقّ وإصرارهم على الباطل في قولهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، يقولون: أيُّ آية جئتنا بها ودلالة وحجّة أقمتها رَدَدْناها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به، قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾. اختلفوا في معناه، فعن ابن عباس في رواية: كثرةُ الأمطارِ المغرقةُ المتلفةُ للزروع والثمارِ. وبه قال الضحاك بن مزاحم. وقال ابن عباس في رواية أخرى: هو كثرة الموتِ، وكذا قال عطاء. وقال مجاهد: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾: الماء، والطاعون على كل حال.

[٣١٤١] وقال ابن جريرٍ: حدثنا أبو هشام الرفاعي، حَدَّثنا يحيى بن يمان، حدثنا المنهالُ بن خليفةَ، عن الحجاج، عن الحكم بن مِيناءٍ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الطوفانُ الموتُ»[1]. وكذا رواه ابن مَرْدُويه، من حديث يحيى بن يمان، به. وهو حديث غريب. وقال ابن عباس في

(١) واهٍ بمرة. أخرجه الطبري ١٥٠٠٥ و١٥٠٠٩ وإسناده ساقط، ابن يمان وشيخه وشيخ شيخه ثلاثتهم ضعفاء، والصحيح كونه من كلام مجاهد، كذا أخرجه الطبري عنه من طرق.

رواية أخرى: هو أمرٌ من الله طافَ بهم، ثم قرأ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [القلم: ١٩]. وأما الجرادُ فمعروفٌ مشهورٌ، وهو مأكولٌ، لما ثبت في الصحيحين عن أبي يَعفور قال:

[٣١٤٢] سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد، فقال: «غزونا مع رسول الله ـ ﷺ ـ سبع غزوات نأكل الجراد»[١].

[٣١٤٣] وروى الشافعي، وأحمد بن حنبل، وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوتُ والجرادُ، والكبِدُ والطِّحالُ»[٢]. ورواه أبو القاسم البَغَوي، عن داود بن رُشَيد، عن سُوَيد بن عبد العزيز، عن أبي تمام الأيلي، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر أن عمر مرفوعاً، مثله.

[٣١٤٤] وروى أبو داودَ عن محمد بن الفرج، عن محمد بن الزبرقان الأهوازي، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: سُئِل رسول الله ـ ﷺ ـ عن الجراد فقال: «أكثر جنودِ الله، لا آكله، ولا أحرِّمه»[٣]. وإنما تركه ـ عليه السلام ـ لأنه كان يعافُه، كما عافت نفسُه الشريفةُ أكلَ الضَّبِّ، وأَذِن فيه.

[٣١٤٥] وقد روى الحافظ ابن عساكر في جزء جمعه في الجراد، من حديث أبي سعيد الحسن بن علي العدوي: حدثنا نصر بن يحيى بن سعيد، حدثنا يحيى بن خالد، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ لا يأكل الجرادَ، ولا الكُلْوتين، ولا الضبَّ، من غير أن يُحرِّمها. أما الجرادُ فرِجْز وعذاب، وأما الكُلْوتان فلقربهما من البول، وأما الضَّبُّ فقال: «أتخوفُ أن يكون مسخاً»[٤]؛ ثم قال: غريب، لم أكتبه إلا من هذا الوجه. وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشتهيه ويحبه، فروى عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن عمر سئل عن الجراد فقال: ليت أن عندنا منه قفعة أو قفعتين نأكله.

[٣١٤٦] وروى ابن ماجه: حدثنا أحمد بن مَنِيع، عن سفيان بن عُيَينة، عن أبي سعد سعيد بن المرزبان البَقّال، سَمِع أنسَ بن مالك يقول: كان أزواجُ النبي ـ ﷺ ـ يتهادَينَ الجرادَ على الأطباق[٥].

[٣١٤٧] وقال أبو القاسم البَغَوِيّ: حدثنا داود بن رُشَيد، حدثنا بقية بن الوليد، عن نُمَير بن يزيد القَيْني، حدثني أبي، عن صُدَي بن عَجْلان، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن مريم بنت

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٤٩٥ ومسلم ١٩٥٢ وأبو داود ٣٨١٢ والترمذي ١٨٢٢ والنسائي ٧/ ٢١٠ وأحمد ٤/ ٣٥٧ وابن حبان ٥٢٥٧ والبيهقي ٩/ ٢٥٧.

(٢) تقدم في سورة البقرة. آية: ١٧٣. المرفوع ضعيف، وصح موقوفاً، وله حكم الرفع.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٨١٣ وقال بإثره: رواه المعتمر عن أبيه عن أبي عثمان عن النبي ﷺ لم يذكر سلمان اهـ وهو أصح من الموصول، وانظر ضعيف أبي داود ٨١٩.

(٤) لا أصل له، في إسناده يحيى بن خالد مجهول كما في الميزان ٩٤٩٣ وفيه الحسن بن علي العدوي قال ابن عدي: يضع الحديث، حدث عن جماعة لا يدرى من هم، وحدث عن الثقات بالبواطيل. راجع الميزان ١٩٠٤ وقال الدارقطني: متروك. وكذبه الحسن بن علي البصري اهـ والمتن غريب وأمارة الوضع لائحة عليه. والله أعلم.

(٥) ضعيف. أخرجه ابن ماجه ٣٢٢٠ والبيهقي ٩/ ٢٥٨ من حديث أنس. قال البوصيري في «الزوائد»: سعيد بن المرزبان ضعيف. وجاء في «الميزان» ٣٢٧١: تركه الفلاس، وقال ابن معين: لا يكتب حديثه. وقال أبو زرعة: صدوق مدلس. وقال البخاري: منكر الحديث.

عمران ـ عليها السلام ـ سألت ربها ـ عزّ وجلّ ـ أن يطعمها لحماً لا دمَ له، فأطعمها الجرادَ، فقالت: اللهم أعِشه بغير رَضَاع، وتابع بَيْنَه بغير شِياعٍ» وقال نُمَير: «الشِّيَاع»، الصوت[١].

[٣١٤٨] وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا أبو تَقِيّ هشام بن عبد الملك اليَزَنيُّ، حدثنا بقية بن الوليد، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضمضم بن زُرْعَةَ، عن شُرَيح بن عُبَيد، عن أبي زُهير النُّميريِّ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تقاتلوا الجراد، فإنه جندُ الله الأعظم»[٢]. غريب جداً. وقَدْ قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ﴾، قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم، وتدع الخشب. وروى ابن عساكر من حديث علي بن زيد الخرائطيُّ، عن محمد بن كثير، سمعت الأوزاعي يقول: خرجت إلى الصحراء، فإذا أنا برِجْل من جراد في السماء، وإذا برَجُل راكب على جَرَادة منها، وهو شاكٍ في الحديد، وكلما قال بيده هكذا مال الجراد مع يده، وهو يقول: الدنيا باطل باطل ما فيها، الدنيا باطل باطل ما فيها، الدنيا باطل باطل ما فيها. وروى الحافظ أبو الفرج المعافى ابن زكريا الجَرِيري، حدثنا محمد بن الحسن بن زياد، حدثنا أحمد بن عبد الرحيم، أخبرنا وكيع، عن الأعمش، أنبأنا عامر قال: سئل شُرِيح القاضي عن الجَرَاد، فقال: قَبّح الله الجرادة. فيها خلقة سبعة جبابرة: رأسها رأسُ فرسٍ، وعنقها عنق ثورٍ، وصدرُها صدرُ أسدٍ، وجناحُها جناحُ نَسرٍ، ورجلاها رجلا جمل، وذنبها ذنب حَيَّة. وبطنها بطن عقرب. وقد قدمنا عند قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦][٣]، حديث حماد بن سلمة، عن أبي المُهَزِّم، عن أبي هُرَيرة قال:

[٣١٤٩] خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في حج أو عمرة، فاستقبلنا رِجْلُ جرادٍ، فجعلنا نضربه بالعصي، ونحن محرمون، فسألنا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «لا بأسَ بصيدِ البحرِ».

[٣١٥٠] وروى ابن ماجه، عن هارون الحمَّال، عن هاشم بن القاسم، عن زياد بن عبد الله بن عُلاثة، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أنس وجابر، عن رسول الله ـ ﷺ ـ: أنه كان إذا دعا على الجراد قال: «اللهم أهلك كبارَه، واقتل صغاره، وأفسد بيضَه، واقطع دابرَه، وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا، إنك سميع الدعاء». فقال له جابر: يا رسول الله، أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال:

---

(١) وبهذا الإسناد أخرجه البيهقي ٢٥٨/ وفي إسناده نمير بن يزيد القيني، وهو مجهول قال الذهبي في «الميزان» ٩١٢٢: قال الأزدي: ليس بشيء. قال الذهبي: تفرد عنه بقية اهـ أي مجهول أيضاً. فالخبر واه. وهو عند الطبراني ٧٦٣١ وقال الهيثمي في «المجمع» ٦٠٧٥: فيه بقية ثقة لكنه مدلس. ويزيد القيني، لم أعرفه. وبقية رجاله ثقات اهـ.

(٢) منكر. أخرجه الطبراني ٢٢/٢٩٧ وفي «مسند الشاميين» ١٦٥٦ والأوسط ١٥٩ «مجمع البحرين» من طريقين عن إسماعيل بن عياش به، وأعله الهيثمي في «المجمع» ٤/٣٩ (٦٠٧٣) بمحمد بن إسماعيل بن عياش، وقال: ضعيف اهـ. لكن ليس في «الكبير» محمد بن إسماعيل، وإنما فيه سليمان بن عبد الرحمن، وتابعهما بقية عند أبي بكر بن أبي داود، لكن مداره على إسماعيل بن عياش، وقد وثقه قوم، وضعفه آخرون. وله علة ثانية شريح بن عبيد ثقة إلا أنه كثير الإرسال، ولم يصرح بالتحديث، وقد روى عن جماعة من الصحابة ولم يدركهم، والمتن منكر. فإن الجراد إذا جاء بكميات كبيرة وأكل الزرع تجب مقاومته، والقضاء عليه بكافة الوسائل والمبيدات، ومن تركه مع قدرته على القضاء عليه حال أكل الزرع، يكون مبذراً يهدر ماله وأموال المسلمين، وبهذا يتبين وهم الألباني إذ حسنه، ووافقه تلميذه السلفي في تخريجه للمعجم الكبير ومسند الشاميين، والظاهر أنهما لم ينظرا إلى المتن وما يحتويه من معنى مخالف لأحكام الشريعة. والله تعالى أعلم.

(٣) تقدم الحديث الآتي أثناء تفسيرها، وهو ضعيف..

إنما هو نثرة حوت في البحر. قال هاشم: أخبرني زياد أنه أخبره من رآه ينثره الحوت[١]. قال: من حقق ذلك أن السمك إذا باض في ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدا للشمس، أنه يفقس كله جراداً طياراً.

[٣١٥١] وقدّمنا عند قوله: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨][٢]. حديث عُمَر ـ رضي الله عنه ـ: «إن الله خَلَق ألف أُمَّةٍ، ستمئة في البحر وأربعمئة في البر، وإن أولها هلاكاً الجراد».

[٣١٥٢] وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا يزيد بن المبارك، حدثنا عبد الرحمن بن قيس، حدثنا سالم بن سالم، حدثنا أبو المغيرة الجوزجاني محمد بن مالك، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا وباء مع السيف، ولا نجاء مع الجراد»[٣]. حديث غريب.

وأما «القُمّل» فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الحِنْطة. وعنه أنه الدَّبَى ـ وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة. وعن الحسن وسعيد بن جبير: القُمّل، دواب سود صغار. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: القُمّل، البراغيث. وقال ابن جرير: القُمّل: جمع واحدتها «قُمّلة»، وهي دَابَّة تشبه القَمْل، تأكلها الإبل فيما بلغني، وهي التي عناها الأعشى بقوله:

قَـوْمٌ تُـعـالِـجُ قُـمَّـلاً أَبـنـاؤهـم ... وَسَلاَسِـلاً أُجُـداً وبـابـاً مُـؤْصَـدا

قال: وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القُمّل عند العرب «الحَمنان»، واحدتها «حَمْنانة»، وهي صغار القِرْدان فوق القَمْقَامة. وقال الإمام أبو جعفر بن جَرير: حدثنا ابن حُمَيد الرازي، حدثنا يعقوب القُمّي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى ـ عليه السلام ـ فرعونَ قال له: أرسِلْ معي بني إسرائيل. فأرسل الله عليهم الطوفان ـ وهو المطر ـ فَصَبَّ عليهم منه شيئاً، خافوا أن يكون عذاباً، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأنبت لهم في تلك السنة شيئاً لم يُنبِتْه قبل ذلك من الزرع والثمر والكلأ. فقالوا: هذا ما كنا نتمنّى! فأرسل الله عليهم الجراد، فسلطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يُبقي الزرع، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك ليكشف عنا الجراد فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فداسوا وأحرزوا في البيوت، فقالوا: قد أحرزنا. فأرسل الله عليهم القُمّل ـ وهو السوس الذي يخرج منه ـ فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرّحى، فلا يرد منها ثلاثة أقفزة. فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا القمّل، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع، فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا؟ قال: وما عسى أن يكون كيد هذا؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذَقْنه في الضفادع، ويهم أن يتكلم فتثب الضفدع في فيه. فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع، فنؤمنَ لك، ونرسلَ معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فكشَفَ عنهم، فلم يؤمنوا، وأرسل الله عليهم الدم، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار، وما كان في أوعيتهم، وجدوه دماً عبيطاً، فشكَوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتُلينا بالدم، وليس لنا شراب فقال: إنه قد سَحَركم! فقالوا: من أين سَحَرنا، ونحن لا نجدُ في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً

---

(١) إلى هنا لفظ ابن ماجه ٣٢٢١ فلعل الزيادة التي ذكرها المصنف من كتب أخرى أو سقطت من نسخ ابن ماجه المطبوعة، وبكل حال إسناده ضعيف جداً وتقدم تخريجه.

(٢) تقدم الحديث أثناء تفسيرها، وهو خبر باطل.

(٣) إسناده ضعيف جداً، محمد بن مالك، ذكره الذهبي في «الميزان» ٨١٠٨ وقال: قال أبو حاتم بن حبان: لا يحتج به اهـ وعنه سالم بن سالم لم أجد من ترجمه، وعنه عبد الرحمن بن قيس متروك، فالخبر واه.

عبيطاً[1]؟ فأتوه وقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل. وقد رُوِي نحوُ هذا عن ابن عباس، والسدي، وقتادة، وغير واحد من علماء السلف أنه أخبر بذلك. وقال محمد بن إسحاقَ بن يسار ـ رحمه الله ـ: فرجع عَدُوُّ اللهِ فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر، والتمادي في الشر، فتابع الله عليه الآيات، وأخذه بالسنين، فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات. فأرْسَل الطوفان ـ وهو الماء ـ ففاض على وجه الأرض ثم ركد، لا يقدرون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئاً، حتى جَهِدُوا جوعاً، فلما بلغهم ذلك ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فدعا موسى ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر، فيما بلغني، حتى إن كان ليأكلُ مساميرَ الأبواب من الحديد، حتى تقعَ دورهم ومساكنُهم، فقالوا مثلَ ما قالوا، فدعا ربَّه، فَكَشف عنهم، فلم يَفُوا له بشيء مما قالوا. فأرسل الله عليهم القُمّل، فذُكر لي أن موسى ـ عليه السلام ـ أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه، فمشَى إلى كَثيب أَهْيَلَ عظيم، فضربه بها، فانثالَ عليهم قُمّلاً، حَتّى غلَبَ على البُيوتِ والأطعمةِ، ومنعهم النومَ والقَرَارَ فلما جَهَدهم قالوا له مثل ما قالوا له، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا. فأرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلاّ وجد فيه الضفادع، قد غلبت عليه، فلما جَهَدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا، فسأل ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا. فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون دماً، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء، إلاّ عاد دماً عَبيطاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزي، أنبأنا النضر، أنبأنا إسرائيل، أنبأنا جابر بن يزيد، عن عكرمة، قال عبد الله بن عَمْرو: لا تقتلوا الضفادع، فإنها لما أرسلت على بني إسرائيل انطلق ضفدع منها، فوقع في تنور فيه نار، يطلب بذلك مرضاة الله. فأبدلهن الله أبرد شيء نعلمه من الماء، وجعل نقيقهن التسبيح. وروي من طريق عكرمة، عن ابن عباس، نحوه. وقال زيد بن أسلم: يعني بالدم: الرعاف. رواه ابن أبي حاتم.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

يخبر تعالى أنهم لما عَتَوا وتَمَرّدوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة، انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم، وهو البحر الذي فَرَقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم وَرَدَه فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها. وأخبر تعالى أنه أورث ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٥ ـ ٦]، وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾

(١) الدم العبيط: الطريّ.

[الدخان: ٢٥ ـ ٢٨]. وعن الحسن البصري وقتادة، في قوله: ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾، يعني: الشام. وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾، قال مجاهد وابن جرير: وهي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾. وقوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾، أي: وخرَّبنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: ﴿يَعْرِشُونَ﴾: يبنون.

﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٣٩﴾

يخبر تعالى عما قاله جَهَلَة بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا، ﴿فَأَتَوْا۟﴾، أي: فمروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾، قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين. وقيل: كانوا من لخم. قال ابن جُرَيج: وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر. فلهذا أثار ذلك شُبهَة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾. أي: تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن يُنزَّه عنه من الشريك والمثيل. ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾، أي: هالك ﴿وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

[٣١٥٣] وروى الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسير هذه الآية من حديث محمد بن إسحاق وعقيل ومعمر كلهم، عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان، عن أبي واقد الليثي: أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى حنين، قال: وكان للكفار سِدْرَةٌ يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، قال: فمررنا بسدرةٍ خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال: «قلتم، والذي نفسي بيده، كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٣٩﴾»[1].

[٣١٥٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن الزهريّ، عن سنان بن أبي سنان الدِّيلي، عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ قبل حنين، فمررنا بسدرة، فقلت: يا نبي الله، اجعل لنا هذه ذات أنواط، كما للكفار ذات أنواط. وكان الكفار ينوطون سلاحَهم بسدرة، ويعكفون حولهم. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ إنكم تركبون سَنَنَ من قبلكم»[2]. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه، عن جده، مرفوعاً.

---

(١) صحيح. أخرجه الطبري ١٥٠٦٥ من طريق معمر و١٥٠٦٧ من طريق محمد بن إسحاق و١٥٠٦٨ من طريق عقيل عن الزهري به؛ وإسناده على شرط الصحيح. وانظر ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٢١٨٠ والنسائي في «الكبرى» ١١١٨٥ وابن أبي شيبة ١٥/١٠١ وأحمد ٥/٢١٨ وأبو يعلى ١٤٤١ وابن حبان ٦٧٠٢ والبغوي في «التفسير» ٩٣٩ وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وهو على شرط البخاري ومسلم.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

يُذَكِّرهم موسى ـ عليه السلام ـ بنعمة الله عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه، وغرقه ودماره. وقد تقدم تفسيرها في البقرة.

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

يقول تعالى ممتناً على بني إسرائيل، بما حَصَل لهم من الهداية، بتكليمه موسى ـ عليه السلام ـ وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة. قال المفسرون: فَصَامها موسى ـ عليه السلام ـ وطواها فلما تَمّ الميقاتُ استاكَ بلحاءِ شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين. وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة، والعشر عشر ذي الحجة. قاله مجاهد، ومسروق، وابن جريج. ورُوي عن ابن عباس. فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ـ ﷺ ـ كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]. فلما تم الميقات عزم موسى على الذهاب إلى الطور، كما قال تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ [طه: ٨٠]. . . الآية، فحينئذٍ استخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون ـ عليه السلام ـ نبي شريف كريم على الله، وله وجاهة وجلالة، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

يُخبِرُ تعالى عن موسى ـ عليه السلام ـ أنه لما جاء لميقاتِ الله تعالى، وحصل له التكليم من الله، سألَ الله تعالى أن ينظر إليه فقالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾. وقد أشكل حرف «لن» هاهنا على كثير من العلماء، لأنها موضوعة لنفي التأبيد، فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة. وهذا أضعف الأقوال، لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]، وقوله تعالى إخباراً عن الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]. وقيل: إنها لنفي التأبيد في الدنيا، جمعاً بين هذه الآية وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة. وقيل: إن هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقد تقدم

ذلك في الأنعام. وفي الكتب المتقدمة، أن الله تعالى قال لموسى ـ عليه السلام ـ: «يا موسى، إنه لا يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده»، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.

[٣١٥٥] قال أبو جعفر ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: حدثنا أحمد بن سهيل الواسطي، حدثنا قُرّة بن عيسى، حدثنا الأعمش، عن رجل، عن أنس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لما تجلى ربه للجبل أشار بإصبعه، فجعله دكاً». وأرانا أبو إسماعيل بإصبعه السبابة[١]. هذا الإسناد فيه رجل مبهم لم يسم.

[٣١٥٦] ثم قال: حدثني المثنى، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد، عن ليث، عن أنس: أن النبي ـ ﷺ ـ قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾، قال: هكذا بإصبعه ووضع النبي ـ ﷺ ـ إصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخِنْصَرِ، فساخ الجبل. هكذا وقع في هذه الرواية: حماد ابن سلمة، عن ليث[٢]، عن أنس، والمشهور: حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس.

[٣١٥٧] كما قال ابن جرير أيضاً: حدثني المثنى، حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾، قال: وضع الإبهام قريباً من طرف خنصره، قال: فساخ الجبل. قال حميد لثابت: تقول هذا؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حُمَيد، وقال: يقوله رسول الله ـ ﷺ ـ ويقوله أنس، وأنا أكتمه؟[٣].

[٣١٥٨] وهكذا رواه الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو المثنى معاذ بن معاذ العنبري، حدثنا حماد ابن سلمة، حدثنا ثابت البُنَاني، عن أنس بن مالك، عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾، قال: قال هكذا ـ يعني أنه أخرج طرف الخنصر ـ قال أحمد: أرانا معاذ، فقال له حُمَيد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدره ضربة شديدة وقال: من أنت يا حميد؟! وما أنت يا حميد؟! يحدثني به أنس بن مالك عن النبي ـ ﷺ ـ فتقول أنت ما تريد إليه؟![٤] وهكذا رواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن عبد الوهاب بن الحكم الوَرّاق، عن معاذ بن معاذ، به. وعن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن سُلَيمان بن حَرْبٍ، عن حماد، به، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث حماد. وكذا رواه الحاكم في مستدركه من طرق، عن حماد بن سلمة، به. وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ورواه أبو محمد الحسن بن محمد الخلال، عن محمد بن علي ابن سُوَيد، عن أبي القاسم البغوي،

---

(١) أخرجه الطبري ١٥٠٩٦، وإسناده ضعيف فيه رجل لم يسمَّ، لكن توبع.

(٢) ليس في تفسير الطبري ١٥٠٩٧ ذكر ليث، والظاهر أنه فقط في النسخة التي وقعت لابن كثير رحمه الله. والإسناد الآتي هو الصواب.

(٣) أخرجه الطبري ١٥٠٩٨ ورجاله ثقات، وانظر ما بعده.

(٤) أخرجه أحمد ٣/ ١٢٥ والترمذي ٣٠٧٤ والحاكم ٢/ ٣٢٠ وابن عدي في «الكامل» ٢/ ٢٦٠ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١٠/ ١٢٢ من طريقين عن حماد بن سلمة به، وهذا إسناد ظاهره الصحة، رجاله رجال مسلم، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن غريب صحيح. وأعله ابن عدي، وعده من غرائب حماد بن سلمة، وأنه مما دُسّ في كتبه. وقال ابن الجوزي: لا يثبت. قال الحافظ ابن عدي: كان ابن أبي العرجاء ربيب حماد بن سلمة، فكان يدس في كتبه هذه الأحاديث اهـ. وقد ذكره الألباني في صحيح الترمذي ٢٤٥٨. والذي أراه أنه معلول، لكن لا يتهيأ الحكم عليه بالوضع.

عن هدبة بن خالد، عن حماد بن سلمة، فذكره، وقال: هذا إسناد صحيح لا علة فيه. وقد رواه داود بن المحبَّر، عن شعبة، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً. وهذا ليس بشيء، لأن داود بن المحبر كذاب. ورواه الحافظان أبو القاسم الطبراني وأبو بكر بن مَرْدُويه من طريقين، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً بنحوه، وأسنده ابن مردويه من طريق ابن البيلماني، عن أبيه، عن ابن عمر مرفوعاً[1]، ولا يصح أيضاً. وقال السدِّيُّ، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾، قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر ـ ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾، قال: تراباً ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، قال: مغشياً عليه. رواه ابن جرير. وقال قتادة: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، قال: مَيْتاً. وقال سفيان الثوري: ساخَ الجبل في الأرض، حتى وقع في البحر فهو يذهب معه. وقال سُنَيد، عن حجاج بن محمد الأعور، عن أبي بكر الهُذلي: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾، انقعر فدخل تحت الأرض، فلا يظهر إلى يوم القيامة. وجاء في بعض الأخبار أنه ساخَ في الأرض، فهو يهوي فيها إلى يوم القيامة، رواه ابن مَرْدُويه.

[٣١٥٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شَبَّةَ، حدثنا محمد بن يحيى أبو غسان الكناني، حدثنا عبد العزيز بن عمران، عن معاوية بن عبد الله، عن الجلد بن أيوب، عن معاوية بن قُرَّة، عن أنس بن مالك: أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لما تجلى الله للجبال طارت لعظمته ستة أجبل، فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة، بالمدينة: أحد، ووَرِقان، ورضوى. ووقع بمكة: حراء، وثَبِير، وثور»[2]. وهذا حديث غريب، بل منكر. قال ابن أبي حاتم: ذُكِر عن محمد بن عبد الله بن أبي الثلج، حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا عثمان بن حصين بن عَلاق، عن عروة بن رُوَيم قال: كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى على الطور صُمّاً مُلْساً، فلما تجلى الله لموسى على الطور دُكّ، وتفطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف. وقال الربيع بن أنس: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، وذلك أن الجبل حين كُشف الغطاء ورَأى النور، صار مثل ذاكَ من الدكاك. وقال بعضهم: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ أي: فَتَّتَهُ. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾، فإنه أكبر منك وأشد خلقاً، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾، فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فدك على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل، فخر صعقاً. وقال عكرمة: جعله دكّاءَ قال: نظر الله إلى الجبل، فصار صحراء تراباً. وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء، واختارها ابن جرير، وقد ورد فيها حديث مرفوع[3] رواه ابن مَرْدُويه. والمعروف أن الصَّعْقَ هو الغَشْي هاهنا، كما فسره ابن عباس وغيره، لا كما فسره قتادة بالموت، وإن كان ذلك صحيحاً في اللغة، كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى

---

(١) انظر الدر المنثور ٣/ ٢٢١ ـ ٢٢٢ فقد عزاه لابن مردويه أيضاً عن ابن عمر. وقال ابن كثير لا يصح. وذلك لأن فيه عبد الرحمن بن البيلماني. ضعفه الدارقطني وصالح جزرة والأزدي، ولينه أبو حاتم، ووثقه ابن حبان.

(٢) واهٍ بمرة. أخرجه الخطيب ١٠/ ٤٤١ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١/ ١٢٠ وابن حبان في «المجروحين» ١/ ٢١١، وقال ابن حبان: هذا حديث موضوع، ولا أصل له، وعبد العزيز بن عمران، يروي المناكير عن المشاهير. وكرره ابن الجوزي من طريق آخر، وأعله بأيوب بن خوط ونقل عن يحيى قوله: لا يكتب حديثه. وقال أبو حاتم والنسائي والسعدي والدارقطني: متروك.

وورد من حديث ابن عباس. أخرجه ابن الجوزي ١/ ١٢١ وأعله بطلحة بن عمرو، وقال: لا شيء متروك الحديث قاله أحمد بن حنبل، وقال ابن حبان: لا يحل الرواية عنه إلا على سبيل التعجب اهـ.

(٣) مراده ما أخرجه ابن مردويه كما في «الدر» ٣/ ٢٢٢ من حديث أنس. قال: قرأ النبي ﷺ «فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاء» مثقلة ممدودة اهـ. لكن ذكر ابن كثير رحمه الله، أنه لا يصح.

ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر: ٦٨] فإنَّ هنا قرينةً تدلُّ على الموت كما أن هناك قرينةً تدلّ على الغشي، وهو قولُه: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾، والإفاقة إنما تكون من غشي. ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾، تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات. وقولُه: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، قال مجاهد: أن أسالك الرؤية. ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: من بني إسرائيل، واختاره ابن جرير، وفي رواية أخرى عن ابن عباس: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه لا يراك أحد. وكذا قال أبو العالية: قد كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة. وهذا قول حسن له اتجاه. وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره هاهنا أثراً طويلاً فيه غرائب وعجائب، عن محمد بن إسحاق بن يسار، وكأنه تلقاه من الإسرائيليات، والله أعلم. وقولُه: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، فيه أبو سعيد وأبو هُرَيرة، عن النبي - ﷺ - فأما حديث أبي سعيد فأسنده البخاري في صحيحه هاهنا، فقال:

[٣١٦٠] حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن عمرو بن يحيى المازني، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي - ﷺ - قد لُطم وجهُهُ، فقال: يا محمد، إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لَطَم وجهي. قال: ادعُوه. فَدَعوه، قال: لم لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟ قال: يا رسولَ الله، إنيّ مَرَرْتُ باليهود فسمِعتُه يقولُ: والذي اصطفى موسى على البشر. قال، فقلتُ: وعلى محمد؟ فأخذتني غضبة فلطمته، قال: لا تخيروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزي بصعقة الطور[١]؟. وقد رواه البخاري في أماكن كثيرة من صحيحه، ومسلم في أحاديث الأنبياء من صحيحه، وأبو داود في كتاب «السنة» من سننه من طرق، عن عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي الحسن المازني الأنصاري المدني، عن أبيه، عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري، به.

[٣١٦١] وأما حديث أبي هريرة فقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن الأعرج، عن أبي هُرَيرة - رضي الله عنه -: قال: استبَّ رجلان: رجلٌ من المسلمين، ورجلٌ من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فغَضِبَ المسلمُ على اليهوديِّ فَلَطمه، فأتى اليهوديُّ رسولَ الله - ﷺ - فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله - ﷺ - فاعترف بذلك، فقال - ﷺ -: «لا تُخَيِّروني على موسى؛ فإن الناس يُصعَقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى ممسكاً بجانِب العرش، فلا أدري أكان ممن صُعِق فأفاق قبلي، أم كان ممن استثناه الله عز وجل؟»[٢]. أخرجاه في الصحيحين، من حديث الزُهري، به.

وقد روى الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا - رحمه الله - أن الذي لطم اليهودي في هذه القضية هو أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - ولكن تقدَّم في الصحيحين أنه رجل من الأنصار، وهذا هو أصحُ وأصرحُ، والله أعلم. والكلام في قوله - عليه السلام -: «لا تخيِّروني على موسى»، كالكلام على قوله: «لا تفضلوني على الأنبياء، ولا على يونس بن متى»، قيل: من باب التواضع. وقيل: قبل أن يعلم بذلك. وقيل: نُهي أن يفضل بينهم على وجه الغضبية والتعصب، وقيل: على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي، والله أعلم. وقوله: «فإن

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٣٨ و٦٩١٧ ومسلم ٢٣٧٤ وأبو يعلى ١٣٦٨.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٢٤١١ و٣٤٠٨ ومسلم ٢٣٧٣ والبيهقي في «الأسماء والصفات» ٣٠٤.

الناس يُصعَقون يوم القيامة»، الظاهر أن هذا الصَّعْقَ يكون في عَرَصَات القيامة، يحصل أمر يُصعَقُون منه، والله أعلم به. وقد يكون ذلك إذا جاء الربُّ ـ تبارك وتعالى؛ لفصل القضاء، وتَجلّى للخلائِق الملكُ الديان، كما صَعِق موسى من تَجلِّي الربِّ عز وجل، ولهذا قال عليه السلام: «فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزِي بصَعْقَة الطور»؟

[٣١٦٢] وقد رَوَى القاضي عياض في أوائل كتابه «الشفاء» بسنده عن محمد بن محمد بن مرزوق: حدثنا قتادة حدثنا الحسن، عن قتادة، عن يحيى بن وَثّاب، عن أبي هُريرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لما تجلى الله لموسى عليه السلام، كان يبصر النملة على الصَّفا في الليلة الظلماء، مسيرة عشرة فراسِخَ»[1]، ثم قال: ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحُظْوة بما رأى من آيات ربه الكبرى. انتهى ما قاله، وكأنه صَحَّح هذا الحديث، وفي صحته نظر، ولا يخلو رجالُ إسناده من مجاهيل لا يعرفون، ومثل هذا إنما يقبل من رواية العدل الضابط عن مثله، حتى ينتهي إلى منتهاه، والله أعلم.

﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

يذكر تعالى أنّه خاطبَ موسى بأنه اصطفاه على عالَمي زَمانه برسالاته وكلامه تعالى، ولا شك أن محمداً ـ ﷺ ـ سَيِّدَ ولدِ آدمَ من الأولين والآخرين، ولهذا اختصَّه تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ثم موسى كليم الرحمن ـ عليه السلام ـ ولهذا قال تعالى له: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾، أي: من الكلام والمناجاة ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾، أي: على ذلك، ولا تطلُب ما لا طاقةَ لكَ به. ثم أخبر تعالى أنه كَتَب له في الألواح من كلِّ شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكل شيء، قيل: كانت الألواحُ من جوهر، وأن الله تعالى كتبَ له فيها مواعظَ وأحكاماً مفصَّلة مُبيِّنَةً للحلال من الحرام، وكانت هذه الألواحُ مشتملةً على التوراة التي قال الله فيها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣]. وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة، فالله أعلم. وعلى كل تقدير كانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومُنع منه، والله أعلم. وقولُه: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾، أي: بِعَزْمٍ على الطاعة، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾، قال سفيان بن عُيينة: حدثنا أبو سَعْد، عن عكرمة، عن ابن عبّاس قال: أمر موسى عليه السلام أن يأخذ بأشدّ ما أمِر قومه. وقولُه: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾، أي سَتَرون عاقبةَ من خالف أمري، وخرجَ عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب؟. قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾، كما يقول القائلُ لمن يخاطبه: سأريك غداً إلام يصيرُ إليه حالُ من خالفَ أمري؟ على وجه التهديدِ والوعيدِ لمن عَصاه وخالفَ أمره. ثم نَقَل معنى ذلك عن مجاهد، والحسن البصري. وقيل: معناه ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾، أي: من أهل الشام، وأعطيكم إياها. وقيل: منازل قوم فرعون، والأولُ أولى،

---

(١) ضعيف جداً. ساقه المصنف بهذا الإسناد نقلاً عن «الشفا» وفي الإسناد قلب، لذا لم يعرف المصنف بعض رجاله. وهو في «الشفا» ١/ ٦٩ لكن فيه همام بدل قتادة شيخ ابن مرزوق. وهو عند الطبراني في «الصغير» ٧٧ من طريق ابن مرزوق عن هانىء بن يحيى عن الحسن بن أبي جعفر عن قتادة عن ابن وثاب به، والحسن هذا متروك.

والله أعلمُ؛ لأن هذا كان بعد انفصالِ موسى وقومِه عن بلاد مصرَ، وهو خطابٌ لبني إسرائيل قبل دخولهم التِّيه، والله أعلم.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: سأمنعُ فهمَ الحُجَجِ والأدلة الدالة على عَظَمتي. وشريعتي وأحكامي قُلوبَ المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرونَ عن الناس بغير حقٍّ، أي: كما استكبروا بغير حَقٍّ أذلَّهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقال بعض السلف: لا ينال العِلْمَ حَيِيٌ ولا مستكبر. وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلّم ساعة، بقي في ذل الجهل أبداً. وقال سفيان بن عُيينة في قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، قال: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي. قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة. قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عُيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كلّ أمة، ولا فرق بين أحد وأحد في هذا، والله أعلم.

وقولُه: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧] وقولُه: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، أي: وإن ظهر لهم سبيل الرشد، أي: طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً. ثم عَلَّل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: كذبت بها قلوبهم، ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾، أي: لا يعملون شيئاً مما فيها. وقولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾، أي: من فَعَل منهم ذلك واستمرّ عليه إلى الممات، حَبِط عمله.

وقولُه: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، أي: إنما نجازيهم بحَسبِ أعمالهم التي أسلفوها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وكما تَدين تُدان.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

يُخبِرُ تعالى عن ضَلاَل من ضَلّ من بني إسرائيل في عبادتهم العجلَ، الذي اتّخذه لهم السامريُّ من حُليّ القبطِ، الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً، ثم ألقى فيه القبضةَ من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام، فصار عجلاً جسداً له خُوَار والخُوَار صوتُ البقر. وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه: ٨٥]. وقد اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحماً ودماً له خوار؟ أو استمر على كونه من ذَهَب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوّت

كالبقر؟ على قولين، والله أعلم. ويقال: إنهم لما صَوّت لهم العجل رَقَصُوا حوله وافتتنوا به، وقالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾، فقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٩]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾، ينكر تعالى عليهم في ضَلالهم بالعجل، وذُهولهم عن خالق السموات والأرض وربّ كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خُوَار لا يكلمهم، ولا يرشدهم إلى خير. ولكن غطّى على أعينُ بصائرهم عَمَى الجهل والضلال.

[٣١٦٣] كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبي داود، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «حُبُكَ الشيء يُعْمِي ويُصِمّ»[١]. وقوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: ندموا على ما فعلوا، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾، وقرأ بعضهم: «لئن لم ترحمنا»، بالتاء المثناة من فوق، «ربّنا»، منادى، «وتغفر لنا»، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، أي: من الهالكين. وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

يخبر تعالى أن موسى ـ عليه السلام ـ رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبانُ أَسِفٌ. قال أبو الدرداء: والأَسَف: أشد الغضب. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾، يقول: بئس ما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم. وقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾، يقول: استعجلتم مجيئي إليكم، وهو مقدّر من الله تعالى. وقوله: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾، قيل: كانت الألواحُ من زُمُرّدٍ. وقيل: من ياقوت. وقيل: من بَرَدٍ.

[٣١٦٤] وفي هذا دَلالَةٌ على ما جاء في الحديث «ليس الخبر كالمعاينة»[٢]. ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً. وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولاً غريباً، لا يصح إسناده إلا[٣] حكاية قتادة[٤]، وقد رَدّه ابن عطية وغير واحد من العلماء، وهو جدير

---

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٩٣.

(٢) حسن صحيح. أخرجه أحمد ١/ ٢٧١ والخطيب ٦/ ٥٦ وصححه ابن حبان ٦٢١٣ و٦٢١٤ والحاكم ٢/ ٣٢١ وقال: على شرطهما، ووافقه الذهبي، كلهم من حديث ابن عباس. والحديث بتمامه: «ليس الخبر كالمعاينة. قال الله لموسى: إن قومك صنعوا كذا وكذا، فلم يبال ـ وفي رواية: فلم يلق الألواح ـ، فلما عاين ألقى الألواح». وقال في «المجمع» ١/ ١٥٣: رجاله رجال الصحيح. وله شاهد من حديث أنس أخرجه الطبراني كما في «مجمع البحرين» ٢٨ وقال الهيثمي في «المجمع» ١/ ١٥٣: رجاله ثقات.

(٣) وقع في الأصول «إلى» والمثبت أقرب للسياق، وبه يستقيم الكلام. لأن إسناده إلى قتادة صحيح.

(٤) باطل. أسنده الطبري ١٥١٤٢ و١٥١٤٣ عن قتادة فذكر خبراً طويلاً ركيكاً وآخر الرواية الثانية «فألقى موسى عليه السلام الألواح، وقال: اللهم اجعلني من أمة محمد ﷺ» وهذا لم يعزه قتادة لصحابي، ولا للنبي ﷺ، وهو لا شك من الإسرائيليات المردودة، وقد احتج بمثل هذا بعض الناس، والعجب إذا كان أهل الحديث لا يقبلون مرسل الزهري، فكيف يقبل هؤلاء مراسيل بني إسرائيل، وهم المعروفون بالكذب والتدليس وتحريف الوقائع؟!! فهذا الخبر أحسن حاله أنه من مراسيل أهل الكتاب.

بالرد، وكأنه تَلَقَّاه قتادة عن بعض أهل الكتاب، وفيهم كذابون وَوَضاعون وأفاكون وزنادقة. وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قد قصر في نهيهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٢ ـ ٩٤]، وقال هاهنا: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: لا تَسُقني مَسَاقهم، ولا تخلطني معهم، وإنما قال: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ ليكون أراف وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه. فلما تحقَّق موسى ـ عليه السلام ـ براءة ساحة هارونَ ـ عليه السلام ـ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ [طه: ٩٠]، فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

[٣١٦٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «يرحم الله موسى، ليس المعاين كالمخبر؛ أخبره رَبُّه عز وجل أن قومه فتنوا بعده، فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح»[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾

أما الغضبُ الذي نالَ بني إسرائيلَ في عبادةِ العجل، فهو أن الله ـ تعالى ـ لَمْ يَقْبَلْ لهم توبةً، حتى قَتَل بعضُهم بعضاً، كما تقدم في سورة البقرة: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤]. وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصَغاراً في الحياة الدنيا. وقولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسنُ البصري: إنَّ ذلَّ البِدْعَةِ على أكتافهم، وإن هَمْلَجَت[٢] بهم البَغَلاتُ، وطَقْطَقَتْ بهم البَرَاذينُ. وهكذا رَوَى أيوبُ السختياني، عن أبي قِلابَةَ الجَرْمِيِّ أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾، قال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة. وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل. ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان منْ كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق. ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ﴾، أي: يا محمد، يا رسول الرحمة ونبي النور ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾، أي: من بعد تلك الفعلة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا أبان، حدثنا قتادة، عن عَزْرَة، عن الحسن العُرَني، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود: أنه سئل عن ذلك ـ يعني عن الرجل يزني بالمرأة، ثم يتزوجها ـ فتلا هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾، فتلاها عبد الله عشر مرات، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هملجت: سارت سيراً حسناً في سرعة.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾، أي: سكن ﴿عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾، أي: غضبه على قومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾، أي: التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل، غيرةً لله وغضباً له ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾. يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسَّرت، ثم جمعها بعد ذلك. ولهذا قال بعض السلف: فوجد فيها هدى ورحمة. وأما التفصيل فَذَهَب، وزعموا أن رُضاضها لم يزل موجوداً في خزائن الملوك لبني إسرائيلَ إلى الدولةِ الإسلامية، والله أعلم بصحة هذا، وما الدليل القاطع على أنها تكسَّرت حين ألقاها، وهي من جوهرِ الجنَّة، وقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعدما ألقاها وجد فيها هُدىً ورحمةً؟!. ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، ضمَّن الرهبة معنى الخضوع، ولهذا عدّاها باللام.

وقال قتادة: في قوله تعالى ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾، قال: ربِّ إني أجدُ في الألواح أمةً خيرَ أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون ـ أي آخرون في الخَلْق ـ سابقون في دخول الجنة، ربِّ اجعلهم أمتي. قال: تلك أمةُ أحمدَ. قال: رب، إني أجد في الألواح أمةً أناجيلُهم في صدورهم يقرؤونها وكان من قَبْلَهم يقرؤون كتابهم نظراً، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً، ولم يعرفوه ـ قال قتادة: وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئاً لم يعطِه أحداً من الأمم ـ قال: رب، اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رَبِّ، إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فصول الضلالة، حتى يقاتلوا الأعورَ الكذّابَ، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رَبِّ، إني أجد في الألواح أمة صَدَقاتهم يأكلونها في بطونهم، ويؤجرون عليها ـ وكان مَنْ قبلهم إذا تصدَّق بصدقةٍ فقُبِلت منه، بعث الله عليها ناراً فأكلتها، وإن ردت عليه تُرِكت فتأكلها السباع والطير، وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم ـ قال: رب، اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: ربِّ، إني أجد في الألواح أمةً إذا همَّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كُتِبت له حسنة، فإن عَمِلها كُتِبت له عَشْرَ أمثالها إلى سبعمئة، ربِّ اجعلهم أمتي. قال: تلك أمةُ أحمدَ. قال: رَبِّ، إني أجد في الألواح أمة إذا هَمّ أحدهم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها، فإذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد: قال: ربِّ، إني أجِدُ في الألواح أمة هم المستجيبون والمستجاب لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمةُ أحمدَ. قال: رَبِّ، إني أجد في الألواح أمة هم المشفَّعون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال قتادة: فذكر لنا أن نبي الله موسى نبذ الألواح، وقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد[1].

﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: كان الله أمرَه أن يختار من قومه سبعينَ رجلاً، فاختار سبعين رجلاً فبرز بهم ليدعوا ربَّهم، فكان فيما دَعَوا الله قالوا: اللهمَّ أعطِنا ما لم تُعطِه أحداً قبلنا، ولا تعطه أحداً بعدنا. فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة، قال موسى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ

(١) قد وقع ابن كثير رحمه الله فيما أبى، فإنه قبل قليل أشار لأثر قتادة هذا، وحكم بعدم صحته، وأنه رده غير واحد، ولكن عاد ههنا، فذكره بتمامه، ولم ينبه عليه، مع أن الذي رده آنفاً هو هذا.

﴿أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾. . . الآية. وقال السدي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعداً، فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته، فَأَرِنَاهُ. فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾. وقال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً، الخيِّرَ فالخيِّرَ، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهَّروا، وطهّروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء، لميقات وقَّته له ربه. وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم. فقال السبعون ـ فيما ذُكِرَ لي حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربه ـ لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا. فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمودُ الغمام، حتى تغشى الجبل كله. ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع، ولا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه. فَضُرِب دونه بالحجاب. ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سُجُوداً، فسمعوه وهو يكلّم موسى، يأمره وينهاه افعل، ولا تفعل. فلما فرغ إليه من أمره، انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة: فأخذتهم الرجفة ـ وهي الصاعقة ـ فافتُلتَتْ أرواحهم، فماتوا جميعاً. فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾. قد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل.

وقال سفيان الثوري: حدثني أبو إسحاق، عن عمارة بن عبد السَّلُولي، عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: انطلق موسى وهارون وشَبَّر وشَبِير، فانطلقوا إلى سفح جَبَل، فنام هارون على سرير، فتوفاه الله عز وجل. فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا له: أين هارون؟ قال: توفاه الله عز وجل. قالوا: أنت قتلته، حَسَدتنا على خُلقه ولينه ـ أو كلمة نحوها ـ قال: فاختاروا من شئتم. قال: فاختاروا سبعين رجلاً. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾، فلما انتهوا إليه قالوا: يا هارون، من قتلك؟ قال: ما قتلني أحد، ولكن توفاني الله. قالوا: يا موسى لن تعصَى بعد اليوم. قال: فأخذتهم الرجفة. قال: فجعل موسى عليه السلام يرجع يميناً وشمالاً، وقال: يا ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾، قال: فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلهم. هذا أثر غريب جداً، وعمارة بن عبد هذا لا أعرفه. وقد رواه شعبة، عن أبي إسحاق، عن رجل من بني سلول، عن علي، فذكره. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جُرَيج: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل، ولا نهوهم. ويتوجه هذا القول بقول موسى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾. وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾، أي: ابتلاؤك واختبارُك وامتحانُك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جُبير، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وغير واحد من علماء السلف والخلف. ولا معنى له غير ذلك؛ يقول: إنِ الأمرِ إلا أمرُك، وإنِ الحكمُ إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لمن منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر. وقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾، الغفر هو: الستر، وترك المؤاخذة بالذنب. والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها ألاَّ يوقعه في مثله في المستقبل، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾، أي: لا يغفر الذنوب إلاّ أنت. ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾، هذاك الفصلُ الأولُ من الدعاء في دفع المحذور، وهذا

لتحصيل المقصود، ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، أي: أوْجِبْ لنا وأثْبِتْ لنا فيهما حسنةً، وقد تقدم تفسير الحسنة في سورة البقرة. ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: تبنا ورجعنا وأَنَبْنا إليك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، وأبو العالية، والضحاك، وإبراهيم التيمي، والسدي، وقتادة، وغير واحد. وهو كذلك لُغَة. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن شريك، عن جابر، عن عبد الله بن نُجَيٍّ، عن علي قال: إنما سميت اليهود لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾. جابر ـ هو ابن يزيد الجُعْفي ـ: ضعيف.

﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

قال تعالى مجيباً لموسى في قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾. . . الآية: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾، أي: أفعل ما أشاء، وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك. سبحانه لا إله إلا هو. وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ آيةٌ عظيمةُ الشُمولِ والعُموم، كقوله إخباراً عن حَملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

[٣١٦٦]وقال الإمام أحمد: حدثنا عبدُ الصمدِ، حدثنا أبي، حدثنا الجُرَيري، عن أبي عبد الله الجشمي، حدثنا جُندُبٌ ـ هو ابن عبد الله البَجَليّ رَضِي الله عنه ـ قال: جاء أعرابيٌّ فأناخ راحلته ثم عَقَلها. ثم صلى خلف رسول الله ـ ﷺ ـ. فلما صلى رسول الله ـ ﷺ ـ أتى راحلتَه فأطلق عقالها، ثم ركبها، ثم نادى: اللهم، ارحمني ومحمداً، ولا تشرك في رحمتنا أحداً. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أتقولون: هذا أضلُّ أم بعيرُه؟ ألم تسمعوا ما قال؟ قالوا: بلى. قال: لقد حَظَرْتَ رحمةً واسعة؛ إن الله عز وجل خلق مئة رحمة، فأنزل رحمة واحدة يتعاطف بها الخلق جنّها وإنسها وبهائمها، وأخَّر عنده تسعاً وتسعين رحمة، أتقولون هو أضل أم بعيره؟!»[(١)]. ورواه أبو داود، عن علي بن نصر، عن عبد الصمد ابن عبد الوارث، به.

[٣١٦٧]وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يحيى بن سعيد، عن سُليمان، عن أبي عثمان، عن سَلْمان، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن لله عز وجل مئةَ رحمةٍ، فمنها رحمة يتراحَمُ بها الخلق، وبها تَعطِفُ الوحوشُ على أولادِها، وأخَّر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة»[(٢)]. انفرَدَ بإخراجه مسلم، فرواه من حديث سُلَيمان ـ هو ابن طَرخان ـ وداود بن أبي هند، كلاهما عن أبي عثمان ـ واسمه عبد الرحمن بن مِلّ ـ عن سلمان، هو الفارسي، عن النبي ـ ﷺ ـ به.

[٣١٦٨]وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لله مئة رحمة، عنده تسعة وتسعون، وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين الجن والإنس وبين الخلق، فإذا كان يوم القيامة ضمها إليه»[(٣)]. تفرد به أحمد من هذا الوجه.

[٣١٦٩]وقال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لله مئة رحمة، فقسم منها جزءاً واحداً بين الخلق، فبه يتراحم الناس والوحش

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٨٨٥ وأحمد ٤/ ٣١٢ وإسناده ضعيف لجهالة أبي عبد الله الجشمي، والوهن فقط في لفظ «أتقولون. . . قالوا بلى» وآخره «أتقولون. . .» وأما باقي الحديث فصحيح ـ له شواهد وطرق.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٥٣ وأحمد ٥/ ٤٣٩ وابن حبان ٦١٤٦ والطبراني ٦١٢٦.

(٣) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٦٥. وهو حديث حسن.

والطير»[1]. ورواه ابن ماجه من حديث أبي معاوية، عن الأعمش، به.

[٣١٧٠] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عثمانَ بن أبي شَيبةَ، حدثنا أحمد بن يُونُسَ، حدثنا سعد أبو غَيْلان الشيباني، عن حَمّاد بن أبي سليمان، عن إبراهيمَ، عن صلة بن زُفر، عن حُذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «والذي نفسي بيده ليدخُلَنَّ الجنة الفاجرُ في دينه، الأحمقُ في معيشته. والذي نفسي بيده ليدخُلنَّ الجنة الذي قد مَحَشته النار بذنبه. والذي نفسي بيده ليغفرَنَّ الله يومَ القيامةِ مغفرةً يتطاولُ لها إبليسُ رجاءَ أن تُصِيبه»[2]. هذا حديث غريب جداً: وسعد هذا لا أعرفه. وقوله: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ . . . إلى آخرها يعني: فسأوجب حُصول رحمتي مِنَّةً مني وإحساناً إليهم، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]. وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: سأجعلُها للمتَّصِفينَ بهذه الصفات، وهم أمة محمد ـ ﷺ ـ الذين يتقون، أي: الشرك والعظائم من الذنوب. قوله: ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، قيل: زكاةُ النفوس. وقيل: الأموالُ. ويحتمل أن تكون عامة لهما، فإن الآية مكية، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: يصدقون.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾، وهذه صفة محمد ـ ﷺ ـ في كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثه، وأمروهم بمتابعته. ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم.

[٣١٧١] كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، عن الجُريري، عن أبي صخر العُقَيلي، حدثني رجل من الأعراب قال: جلبت جَلُوبةً إلى المدينة في حياة رسول الله ـ ﷺ ـ فلما فرغتُ من بيعتي قلت: لألقينَّ هذا الرجل فَلأسمعن منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فَتَبعتُهم حتى أتوا على رجل من اليهود، ناشراً التوراة يقرؤها، يعزي بها نفسه على ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك ذا صفتي ومَخْرَجي؟ فقال برأسه هكذا، أي: لا. فقال ابنه:

---

(١) صحيح. أخرجه ابن ماجه ٤٢٩٤ وأحمد ٣/ ٥٥ وأبو يعلى ١٠٩٨ وإسناده صحيح، قال البوصيري في «الزوائد» حديث أبي سعيد صحيح، ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٣٠٢٢ والأوسط كما في «المجمع» ١٠/ ٢١٦ من حديث حذيفة. قال الهيثمي: في إسناد الكبير سعد بن طالب أبو غيلان، وثقه أبو زرعة وابن حبان، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات اهـ. ووافقه الشيخ حمدي السلفي في تخريج الكبير، وفي ذلك نظر فإن شيخ الطبراني محمد بن عثمان بن أبي شيبة، وإن وثقه صالح جزرة، وقال ابن عدي: لم أر له حديثاً منكراً، وهو على ما وصف عبدان لا بأس به، فقد قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: كذاب. وقال ابن خِراش: كان يضع الحديث. وقال مطيَّن: هو عصا موسى تلقف ما يأفكون، وقال البرقاني: لم أزل أسمعهم يذكرون أنه مقدوح فيه. وقال ابن عقدة: سمعت عبد الله بن أسامة الكلبي وإبراهيم بن إسحق وداود بن يحيى يقولون: محمد بن عثمان كذاب اهـ راجع الميزان ٧٩٣٤، فالرجل أشد ضعفاً من سعد أبي غيلان، الذي أعله الهيثمي به.

إني، والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومَخرَجَك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. فقال: أقيموا اليهودي عن أخيكم. ثم وَلي كَفَنَه والصلاة عليه[1]. هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح، عن أنس.

[٣١٧٢] وقال الحاكم صاحبُ المستدرَكِ: أَخْبَرَنا أبو محمد عبد الله بن إسحاق البغوي، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي، حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن إدريس، حدثنا عبد الله بن إدريس، عن شُرَحبيل ابن مسلم، عن أبي أمامة الباهلي، عن هشام بن العاص الأموي قال: بُعِثْتُ أنا ورجلٌ آخرُ إلى هِرَقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام، فخرجنا حتى قدمنا الغُوطة ـ يعني غُوطة دمشق ـ فنزلنا على جَبَلة بن الأيهم الغساني، فدخلنا عليه، فإذا هو على سريرٍ له، فأرسلَ إلينا برسولٍ نكَلِّمه، فقلنا: والله لا نكلِّم رسولاً، إنما بُعِثنا إلى المَلِك، فإن أذِنَ لنا كلمناه، وإلا لم نكلم الرسول. فرجَعَ إليه الرسولُ فأخبره بذلك، قال: فأذِن لنا فقال: تَكَلَّموا. فكلَّمَه هشامُ بن العاصِ، ودعاه إلى الإسلام، فإذا عليه ثيابُ سَوَادٍ، فقال له هشام: وما هذه التي عليك؟ فقال: لبستها وحلفت ألاَّ أنزعها حتى أخرِجَكم من الشام. قلنا: ومجلسكَ هذا، فوالله لنأخذَنَّه منك، ولنأخذَنَّ مُلك الملكِ الأعظم، إن شاء الله، أخبرنا بذلك نبينا محمد ﷺ. قال: لستم بهم، بل هم قوم يصومونَ بالنهار، ويقومُون بالليل، فكيفَ صومُكم؟ فأخبرناه، فمُلىء وجهُه سَواداً، فقال: قوموا. وبعث معنا رسولاً، فخرجنا، حتى إذا كنا قريباً من المدينة، قال لنا الذي معنا: إنَّ دوابَكم هذه لا تدخل مدينة الملك، فإن شئتم حملناكم على بَراذين وبغال؟ قلنا: والله لا ندخل إلا عليها. فأرسلوا إلى الملك: إنهم يأبونَ ذلك. فدخلنا على رواحلنا مُتقلِّدين سيوفنا، حتى انتهينا إلى غرفة، فأنخنا في أصلها وهو ينظر إلينا، فقلنا: لا إله إلا الله، والله أكبر. فالله يعلم لقد تَنَفَّضَت الغرفةُ حتى صارت كأنها عِذْقٌ تُصفقه الرياح. فأرسل إلينا: ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم. وأرسل إلينا: أنِ ادخُلوا. فدخلنا عليه وهو على فراشٍ له، وعنده بطارقتُه من الروم، وكل شيء في مجلسه أحمرُ، وما حولَه حمرةٌ، وعليه ثياب من الحمرة. فدنونا منه فَضَحِك، فقال: ما كان عليكم لو حَيَّيتمُوني بتحيتكم فيما بينكم؟! وإذا عنده رجلٌ فصيح بالعربية، كثير الكلام، فقلنا: إنَّ تحيّتنا فيما بيننا لا تَحلُّ لك، وتحيتك التي تُحَيّا بها لا يحل لنا أن نحييك بها. قال: كيف تحيتُكم فيما بينكم؟ قلنا: السلامُ عليك. قال: وكيف تُحيُّون مَلِككم؟ قلنا: بها. قال: وكيف يَرُدُّ عليكم؟ قلنا: بها. قال: فما أعظمُ كلامكم؟ قلنا: لا إله إلا الله، والله أكبر. فلما تكلمنا بها ـ والله يعلم ـ لقد تَنَفَّضت الغرفةُ حتى رَفَع رأسه إليها، قال: فهذه الكلمة التي قلتموها حيث تَنَفَّضَت الغرفة، كُلَّما قلتموها في بيوتكم تنفَّضت عليكم غُرفكم؟ قلنا: لا، ما رأيناها فعلت هذا قط إلا عندك، قال: لَوَدِدْتُ أنكم كلما قلتم تنفض كلُّ شيءٍ عليكم، وأنّي خرجتُ من نِصْفِ ملكي. قلنا: لم؟ قال: لأنه كان أَيْسَر لشأنها، وأجدر ألاَّ تكون من أمْرِ النبوة، وأن تكون من حِيَلِ الناس. ثم سألنا عما أراد، فأخبرناه. ثم قال: كيف صلاتُكم وصومُكم؟ فأخبرناه، فقال: قوموا. فقمنا فأمر لنا بمنزل حسن ونُزُل كَثِير، فأقمنا ثلاثاً. فأرسل إلينا ليلاً، فدخلنا عليه، فاستعاد قولنا، فأعدناه. ثم دعا بشيءٍ كهيئة الرَّبْعَةِ العظيمة مُذْهَبَةً، فيها بيوت صغار عليها أبواب، ففتح بيتاً وقُفْلاً، فاستخرج حريرةً سوداءَ، فَنَشَرها، فإذا فيها صورةٌ حمراءُ، وإذا فيها رجل ضخم العينين عظيم

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤١١ وفي إسناده أبو صخر العقيلي، وقال الهيثمي في «المجمع» ٨/ ٢٣٤: وأبو صخر لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح. وقول المصنف: «له شاهد في الصحيح عن أنس» لعله يشير إلى حديث أنس عند البخاري ١٣٥٦ وأبي داود ٣٠٩٥ وأحمد ٣/ ٣٨٠.

الأَلْيتين، لم أر مثلَ طولِ عُنُقِه، وإذا ليست له لحيةٌ، وإذا له ضفيرتان أحسنَ ما خلق الله. قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا آدم عليه السلام. وإذا هو أكثر الناس شَعَراً. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج حريرة سوداءَ وإذا فيها صورة بيضاء وإذا له شعر كشعر القطط، أحمر العينين، ضخم الهامة، حسن اللحية فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا نوح عليه السلام. ثم فتح باباً آخر فاستخرج حريرة سوداء، وإذا فيها رجلٌ شديدُ البياض، حسن العينين، صَلْتُ الجبين، طويل الخد، أبيض اللحية كأنه يَتَبَسَّمُ، فقال: هل تعرفونَ هذا؟ قلنا؛ لا. قال: هذا إبراهيم عليه السلام. ثم فتح باباً آخر فإذا فيه صورة بيضاء، وإذا والله رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، محمد رسول الله ـ ﷺ ـ قال: وبكينا. قال: والله يعلم أنه قام قائماً ثم جلس، وقال: والله إنه لَهُوَ؟ قلنا: نعم، إنه لَهُوَ، كأنك تنظر إليه. فأمسك ساعةً ينظر إليها، ثم قال: أما إنه كان آخِرَ البيوتِ، ولكني عَجَّلته لكم لأنظر ما عندكم. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرةً سوداءَ، فإذا فيها صورة أدماء سحماء، وإذا رجلٌ جعد قَطَط، غائرُ العينين، حديد النظر عابس، متراكب الأسنان، مُقَلَّص[1] الشفة كأنه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا موسى عليه السلام. وإلى جَنْبه صورة تشبهه، إلا أنه مِدْهَان الرأس، عريضُ الجبين، في عينيه قَبَلٌ، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا هارون بن عمران عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجلٍ آدَمَ سَبْطٍ رَبْعَةٍ. كأنه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا لوط عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورةُ رجلٍ أبيضَ مُشْرَبٍ حُمرةً، أقنى، خَفِيفِ العارضين، حَسَنِ الوجه، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسحاق عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج حريرةً بيضاء، فإذا فيها صورة تشبه إسحاقَ، إلا أنه على شفته خَالٌ، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يعقوب عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورةُ رجلٍ أبيضَ حسن الوجه، أقنى الأنفِ، حسن القامة، يعلو وجهَه نورٌ، يعرف في وجهه الخشوع، يضرب إلى الحمرة، قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسماعيل جَدُّ نبيكم، عليهما السلام. ثم فتح باباً آخر فاستخرج حريرة بيضاء فيها صورة كأنها صورةُ آدم عليه السلام، كأن وجهه الشمس، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يوسف عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أحمرَ حَمْش الساقين، أخفش العينين، ضخم البطن، رَبْعَةٍ، متقلّد سيفاً، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا داود عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فيها صورة رجل ضخم الأليتين، طويل الرجلين، راكب فرساً فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا سليمان بن داود، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداءَ، فيها صورةٌ بيضاءُ، وإذا رجلٌ شاب شديد سَوَاد اللحية، كثير الشعر، حسن العينين، حسن الوجه، فقال: هل تَعرِفُونَ هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا عيسى ابنُ مريم، عليه السلامُ. قلنا: من أين لَكَ هذه الصُّوَرُ؟ لأنا نعلم أنها على ما صُوّرت عليه الأنبياء عليهم السلام، لأنا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله. فقال: إن آدم ـ عليه السلام ـ سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده، فأنزل عليه صورهم فكان في خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال. ثم قال: أما والله إنَّ نفسي طابت بالخروج من مُلكي، وإنْ كنت عبداً لا يسوءكم ملكه حتى أموت. ثم أجازنا فأحسن جائزتنا، وسَرّحنا. فلما أتينا أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فحدثناه بما

---

(١) الأسحم: الأسود. القطط: القصير الجعد من الشعر. قَلِصَت شفته: انزوت وشمَّرَت.

أرانا، وبما قال لنا، وما أجازنا، قال: فبكى أبو بكر وقال: مسكين، لو أراد الله به خيراً لفعل. ثم قال: أخبرنا رسول الله ـ ﷺ ـ أنهم واليهودَ يَجدُون نعت محمدرسول الله ـ ﷺ ـ عندهم[١]. وهكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي رحمه الله في كتاب «دلائل النبوة»، عن الحاكم إجازة، فذكره، وإسناده لا بأس به.

[٣١٧٣] وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا عثمان بن عُمَر، حدثنا فُليح، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يَسار قال: لقيت عبد الله بن عَمْرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ـ ﷺ ـ في التوراة. قال: أَجَلْ، والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملَّةَ العوجاءَ، بأن يقولوا: «لا إله إلا الله»، ويفتحَ به قلوباً غُلْفاً، وآذاناً صُمّاً، وأعيناً عمياً، قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك، فما اختلفا حرفاً، إلا أن كعباً قال بِلُغَتِهِ، قال: قلوباً غُلوفياً، وآذاناً صُمُومياً، وأعيناً عُمُومياً[٢]. وقد رواه البخاري في صحيحه، عن محمد بن سنان، عن فُلَيح، عن هلال بن علي ـ فذكر بإسناده نحوه، وزاد بعد قوله ليس بفظ ولا غليظ: ولا صخاب في الأسواق، ولا يَجْزِي بالسيئة السيئةَ، ولكن يَعفُو ويصفح». ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق «التوراة» على كتب أهل الكتاب. وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا. والله أعلم.

[٣١٧٤] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا مُحمَّد بن إدرِيس بن عمر وَرّاقُ الحُمَيدي، حدثنا محمد بن عمر بن إبراهيم ـ من ولد جُبَير بن مطعم ـ قال: حدثتني أم عثمان بنت سعيد ـ وهي جدتي ـ عن أبيها سعيد بن محمد بن جُبَير، عن أبيه محمد بن جُبير، عن أبيه جُبَير بن مطعم قال: خرجتُ تاجراً إلى الشام، فلما كنت بأدنى الشام لَقِيني رجلٌ من أهل الكتاب، فقال: هل عندكم رجلٌ تَنَبَّأ؟ قلت: نعم. قال: هل تعرفُ صورتَه إذا رأيتَها؟ قلت: نعم. فأدخلني بيتاً فيه صور، فلم أر صورةَ النبي ﷺ. فَبَينا أنا كذلك إذ دَخَل رجلٌ منهم علينا، فقال: فيم أنتم؟ فأخبرناه، فذهبَ بنا إلى منزله، فساعة ما دخلتُ نظرتُ إلى صُورة النبيِّ ـ ﷺ ـ وإذا رجل آخذ بِعقِب النبي ـ ﷺ ـ قلت: من هذا الرجلُ القابضُ على عَقِبه؟ قال: إنه لم يكن نبيٌّ إلا كان بعده نبي إلا هذا النبي، فإنه لا نبيَّ بعده، وهذا الخليفةُ بعده، وإذا صفةُ أبي بكر رضي الله عنه[٣].

[٣١٧٥] وقال أبو داود: حدثنا حفص بن عمر[٤] أبو عُمَر الضرير، حدثنا حَمّاد بن سَلَمة أنّ سعيد ابن إياس الجُرَيري أخبرهم، عن عبد الله بن شَقِيق العُقَيلي، عن الأقرع مُؤَذِّن عُمَر بن الخطاب قال: بعثني عُمَر إلى الأسقفُ فدعوتُه، فقال له عُمَر: هل تجدني في الكتاب؟ قال: نعم. قال: كيف تجدُني؟ قال: أجدك

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ١/ ٣٨٥ ـ ٣٩٠، وقول المصنف: «لا بأس به» فيه نظر، فإن عبد العزيز بن مسلم بن إدريس لم أجد من ترجمه، والمتن غريب، وفي بعض ألفاظه نكارة، فالله أعلم. وعلى العموم مداره على عبد العزيز بن مسلم، وهو مجهول لا يحتج بما يتفرد به، والله أعلم.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٣٨ والطبري ١٥٢٣٦ وابن سعد في «الطبقات» ١/ ٢٧١ والبغوي في «التفسير» ٩٤٦ من طرق عن فليح به.

(٣) منكر. أخرجه الطبراني في «الكبير» ١٥٣٧ و«الأوسط» ٨٢٢٧ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٨/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤ وقال: وفيه من لم أعرفهم.

(٤) في الأصول: «عمر بن حفص» والتصحيح عن سنن أبي داود وكتب الرجال.

قَرْناً. قال: فرفع عمر الدِّرَّةَ وقال: قَرْن مَهْ؟ قال: قَرْنُ حديد، أمير شديد. قال: فكيف تجدِ الذي بعدي؟ قال: أجد خليفةً صالحاً غير أنه يؤثر قرابته. قال عمر: يَرْحَمُ الله عثمان، ثلاثاً. قال: كيف تجد الذي بعده؟ قال: أجِدُه صَدَأ حديد. قال: فَوَضَع عُمَر يده على رَأسِهِ وقال: يا دَفْراه! يا دَفْراه[١]! قال: يا أمير المؤمنين، إنه خليفة صالح، ولكنه يُستخلَف حين يُسْتخلف والسيف مسلول، والدم مهراق[٢].

وقولُه تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، هذه صفةُ الرسول ـ ﷺ ـ في الكُتُب المتقدِّمة، وهكذا كان حالُه عليه الصلاة والسلام، لا يأمرُ إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَأَرْعِها سَمْعَك، فإنه خيرٌ يأمر به أو شرٌّ ينهى عنه. ومن أهمِّ ذلك وأعظَمِه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

[٣١٧٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر ـ هو العَقَدي عبد الملك بن عمرو ـ حدثنا سليمان ـ هو ابن بلال ـ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد، عن أبي حميد وأبي أسيد ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا سَمِعتم الحديث عَنّي تعرفه قلوبُكم، وتَلين له أشعارُكم وأبشارُكم، وتَرَون أنه منكم قريبٌ، فأنا أولاكم به. وإذا سَمِعتم الحديثَ عني تُنْكره قلوبكم، وتَنْفِرُ منه أشعارُكم وأبشارُكم، وترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منه»[٣]. هذا جيّدُ الإِسناد، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب.

[٣١٧٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مُرّة، عن أبي البَخْتَرِيّ، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: إذا حُدِّثتم عن رسول الله ـ ﷺ ـ حديثاً فَظنُّوا به الذي هو أهدى، والذي هو أهنأ، والذي هو أتقى[٤].

[٣١٧٨] ثم رواه عن يحيى بن سعيد، عن مِسْعَرٍ، عن عمرو بن مرة، عن أبي البَخْتَرِي، عن أبي عبد الرحمن، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: إذا حُدِّثتم عن رسول الله ـ ﷺ ـ حديثاً، فظنوا به الذي هو أهداه وأهناه وأتقاه[٥]. وقولُه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، أي: يُحلّ لهم ما كانوا حَرَّموه على أنفسهم من البَحَائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك، مما كانوا ضَيَّقوا به على أنفسهم. ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كلحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من

(١) الدفر: الذل والنتن.

(٢) لا يصح هذا الخبر. أخرجه أبو داود ٤٦٥٦، وفي إسناده الأقرع مؤذن عمر. قال عنه الذهبي في الميزان ١٠٢٦: لا يُعرف اهـ ثم مثل هذا لا يقبل إلا برواية العدل الضابط عن مثله، فإن فيه بعض علم الغيب، ثم إن عمر لم يكن يعلم أن عثمان هو الذي سيلي بعده الخلافة، ولا علم أن بعده علياً، والنبي ﷺ لم يذكر شيئاً من ذلك، فكيف يأتي في التوراة؟! فالخبر منكر غير صحيح.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٤٢٥ و٣/ ٤٩٧، وقال الهيثمي في «المجمع» ١/ ١٤٩ ـ ١٥٠: ورجاله رجال الصحيح. قلت: عبد الملك بن سعيد روى له مسلم حديثاً واحداً، وله حديث آخر في السنن استنكره الذهبي، وحديثه هذا غريب. فالله أعلم، والرجل غير مشهور.

(٤) موقوف. أخرجه أحمد ١/ ١٢٢.

(٥) أخرجه أحمد ١/ ١٢٢.

المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى. وقال بعضُ العلماءِ: كلُّ ما أحلَّ الله تعالى فهو طيِّب نافع في البدن والدين، وكل مَا حرَّمه فهو خبيثٌ ضارٌ في البدن والدين. وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له. وكذا احتجَّ بها من ذَهَب من العلماءِ إلى أن المرجعَ في حِلِّ المآكل التي لم يُنَصّ على تحليلها ولا تحريمها، إلى ما استطابته العرب في حال رفاهيتها، وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبثته. وفيه كلام طويل أيضاً. وقولُه: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: إنه جاء بالتيسير والسماحة.

[٣١٧٩] كما ورد الحديث من طُرق عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «بعثت بالحَنيفية السمحة»[١].

[٣١٨٠] وقال ﷺ لأميريه معَاذ وأبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنهما ـ لما بعثهما إلى اليمن: «بَشِّرا ولا تُنَفِّرا، ويَسِّرا ولا تُعَسِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا»[٢].

وقال صاحبُه أبو بَرْزَةَ الأسلمي: إني صَحِبتُ رسول الله ـ ﷺ ـ وشَهِدتُ تيسيره، وقد كانت الأمم الذين كانوا قبلنا في شرائعهم ضُيِّق عليهم، فوسّع الله على هذه الأمة أمورها، وسَهّلها لهم؛

[٣١٨١] ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حَدَّثَتْ به أنفسَها، ما لم تَقُل أو تَعْمَل»[٣].

[٣١٨٢] وقال: «رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استُكرِهُوا عَلَيه»[٤]. ولهذا أرشَدَ الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

[٣١٨٣] وثَبَت في صحيحِ مُسلمِ «أنَّ الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه: قد فعلتُ، قد فعلتُ»[٥].

وقولُه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾، أي: عَظَّموه، ووَقَّروه، ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، أي: القرآنَ والوحيَ الذي جاء به مُبلِّغاً إلى الناس، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، أي: في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

يقولُ تعالى لنبيِّه ورسولِه محمدٍ ـ ﷺ ـ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والعجمي، ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، أي: جميعكم، وهذا من شَرَفه وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوثٌ إلى الناس كافة، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧] وقال تعالى:

---

(١) تقدم في سورة البقرة عند آية: ١٨٥.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة، عند الآية: ١٨٥.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة، عند الآية: ٢٨٤.

(٤) تقدم في سورة البقرة: ٢٨٦ وسورة الأنعام: ١٢١.

(٥) تقدم في آخر سورة البقرة.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [آل عمران: ٢٠]. والآياتُ في هذا كثيرةٌ، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلومٌ من دين الإِسلام ضرورةً أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ رسولُ الله إلى الناس كلهم.

[٣١٨٤] قال البخاري رحمه الله في تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله، حدثنا سُلَيمان بن عبد الرحمن وموسى بن هارون قالا: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الله بن العلاء بن زَبْر، حدثني بُسْر ابنُ عُبَيدِ الله، حدثني أبو إدريس الخَوْلاني قال: سمعتُ أبا الدرداء ـ رضي الله عنه ـ يقول: كانت بين أبي بكر وعمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ محاورةٌ، فأغضب أبو بكر عُمَرَ، فانصرفَ عُمَرُ عنه مُغضَباً، فاتَّبعه أبو بكر يسألُه أن يستغفر له، فلم يفعَلْ حتى أغلَقَ بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال أبو الدرداء: ونحن عنده، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أما صاحبكم هذا فقد غامَرَ» أي: غاضب وحاقد ـ قال: وَنَدِم عُمَر على ما كان منه، فأقبل حتى سَلَّم وجلس إلى النبي ـ ﷺ ـ وقصّ على رسول الله ـ ﷺ ـ الخبر، قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله ـ ﷺ ـ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلمُ. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعاً. فقلتم: كذبتَ. وقال أبو بكر: صَدَقْتَ»[١]. انفرد به البخاري.

[٣١٨٥] وقال الإِمامُ أحمدُ: حدّثنا عبد الصمد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا يزيد بن أبي زياد، عَنْ مِقْسم، عن ابنِ عباس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أعطِيتُ خمساً لم يُعطَهُنّ نبيٌّ قبلي ـ ولا أقوله فخراً ـ بُعثت إلى الناس كافّةً، الأحمر والأسودِ، ونُصِرتُ بالرّعب مَسِيرةَ شهر، وَأحِلّت لي الغنائمُ ولم تحلّ لأحد قبلي، وجُعلت لي الأرض مَسجِداً وطَهوراً، وأعطيتُ الشفاعة فأخّرتُها لأمّتي فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً»[٢]؛ إسناد جَيِّد، ولم يخرجوه.

[٣١٨٦] وقال الإِمام أحمد أيضاً: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا بكر بن مضر، عن ابن الهاد، عن عَمْرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جده: أن رسول الله ـ ﷺ ـ عام غزوة تَبُوك، قام من الليل يُصَلِّي، فاجتمع وَرَاءه رجال من أصحابه يحرسونه، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أعطيت الليلة خمساً ما أُعطِيَهُنّ أحد قبلي، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة، وكان من قبلي إنما يُرسَل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرةُ شهر لَمُلِيء مني رعباً. وأحِلّت لي الغنائم آكُلُها، وكان مَن قبلي يُعَظِّمون أكلها، كانوا يَحرِقونها. وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، أينما أدركتني الصلاة تَمَسّحتُ وصليتُ، وكان من قبلي يعظمون ذلك، إنما كانوا يصلون في بيعهم وكنائسهم. والخامسة هي ما هي، قيل لي: «سل؛ فإن كل نبي قد سأل». فأخّرت مسألتي إلى يوم القيامة، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله»[٣]. إسناد جيد قَوِيّ أيضاً ولم يخرجوه.

[٣١٨٧] وقال أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعْبَة، عن أبي بِشْرٍ، عن سعيد بن جُبير، عن أبي

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٤٠، وتقدم.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ١/ ٣٠١ والبزار ٣٤٦٠ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٨/ ٦٥٨ وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح غير يزيد بن أبي زياد، وهو حسن الحديث. قلت: يزيد، صدوق لكنه سيء الحفظ، لذا ضعفه غير واحد، لكن للمتن شواهد كثيرة.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٢ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٣٦٧ وقال: ورجاله ثقات.

موسى الأشعريّ ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من سَمِعَ بي من أمّتي أو يهوديّ أو نصرانيّ، فلم يؤمن بي، لم يَدخُل الجنة»[1].

[٣١٨٨] وهذا الحديث في صحيحِ مسلم من وجه آخر، عن أبي موسى قال: رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «والذي نفسي بيده، لا يسمَعُ بي رجلٌ من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم لا يُؤمِنُ بي إلا دَخَلَ النارَ»[2].

[٣١٨٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا أبو يونس ـ وهو سليم بن جُبَير ـ عن أبي هُرَيرة عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «والذي نفسي بيدِهِ، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة: يهوديٌّ أو نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولا يؤمِنُ بالذي أرسِلْتُ به، إلاّ كان من أصحاب النار»[3] تَفَرّد به أحمد.

[٣١٩٠] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حُسَين بن محمد، حدثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي بُرْدَةَ، عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أعطيت خمساً: بُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود، وجُعِلَتْ لي الأرضُ مَسجداً وطهوراً، وأحِلَّت لي الغنائم ولم تَحلَّ لمن كان قبلي، ونُصِرْتُ بالرُعبِ شهراً، وَأعْطِيتُ الشفاعةَ، وليس من نبي إلا وقد سَأل الشفاعة، وإني قد اختبأت شفاعتي، ثم جعلتُها لمن مات من أمّتي لم يشرك بالله شيئاً»[4]. وهذا أيضاً إسناد صحيح، ولم أرهم خرجوه، والله أعلم. وله مثله من حديث ابن عمر بسند جيد أيضاً.

[٣١٩١] وهذا الحديث ثابتٌ في الصحيحين أيضاً، من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أعطيتُ خمساً لم يُعطَهُنَّ أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرتُ بالرعب مَسِيرة شهر، وجُعِلَت لي الأرضُ مَسْجِداً وطَهُوراً، فأيُّما رَجُلٍ من أمّتي أدركته الصلاةُ فَلْيُصَلِّ، وأحلّت ليَ الغنائمُ، ولم تَحلَّ لأحدٍ قبلي، وأعطيتُ الشفاعَةَ، وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قومِهِ وبُعِثْتُ إلى الناسِ عامة»[5]. وقولُه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ صفة الله تعالى. في قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: إن الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه، والذي بيده الملك والإحياء والإماتة، وله الحكم. وقولُه: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾، أخبرهم أنه رسولُ الله إليهم، ثم أَمَرَهُم باتّباعه والإيمان به، ﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾، أي: الذي وُعِدتم به وبُشّرتم به في الكتب المتقدمةِ، فإنه منعوتٌ بذلك في كتبهم، ولهذا قال ﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾، أي: يُصَدِّقُ قولُه عملَه، وهو يؤمِنُ بما أُنزِلَ إليه من ربِّه ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾، أي: اسلكوا طريقه واقتفوا أثره، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي: الصِّراط المستقيم.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن بني إسرائيلَ أنّ منهم طائفة يتّبعون الحقّ ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٤/٣٩٨، وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه مسلم ١٥٣ لكن من حديث أبي هريرة، وقد تقدم في سورة آل عمران: ٢٠.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٢/٣٥٠، وتقدم في سورة آل عمران آية: ٢٠.

(٤) صحيح. أخرجه أحمد ٤/٤١٦ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٨/٢٥٨ وقال: رواه أحمد متصلاً ومرسلاً والطبراني، ورجاله رجال الصحيح. وله شواهد.

(٥) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٥١.

ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٤]. . . الآية، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]. . . الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

وقد ذكر ابنُ جريرٍ في تفسيرها خبراً عجيباً، فقال: حدثنا القاسم، حدثنا الحُسَين، حدثنا حَجّاج، عن ابن جُرَيج قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾، قال: بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم، وكفروا ـ وكانوا اثني عشر سبطاً ـ تبرّأ سبطٌ منهم مما صَنَعوا، واعتذَرُوا، وسألوا الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يُفرِّق بينهم وبينهم. ففتح الله لهم نَفَقاً في الأرض، فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين، فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا قال ابن جريج: قال ابنُ عباس: فذلك قوله: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء: ١٠٤]، ووَعْدُ الآخرة عيسى ابن مريم. قال ابن جُرَيج: قال ابن عباس: ساروا في السَّرَبِ سنةً ونصفاً. وقال ابن عُيَينة، عن صدقة أبي الهُذَيل، عن السدّي: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾، قال قومٌ بينكم وبينهم نهر من شُهْد.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة، وهي مدنية، وهذا السياق مَكّي، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته هنا، ولله الحمد والمنة.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

هذا السياقُ هو بَسْطٌ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة: ٦٥]، يقول تعالى لنبيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾، أي: واسأل هؤلاء اليهودَ الذين بحَضْرَتِك عن قِصَّةِ أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمتُه على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة. وحذِّر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كُتُبهم؛ لئلا يَحلَّ بهم ما حل بإخوانهم وسَلَفهم. وهذه القرية هي «أيلة»، وهي على شاطىء بحر القلزم. قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحُصين، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ

﴿ٱلْبَحْرِ﴾، قال: هي قرية يقال لها «أيلة» بين مَدْين والطور. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وقتادة، والسدي. وقال عبد الله بن كثير القارىء: سمعنا أنها أيلة. وقيل: هي مدينُ، وهو رواية عن ابن عباس. وقال ابنُ زيد: هي قرية يقال لها: «مقنا» بين مدين وعينُونَى. وقولُه: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾، أي: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾، قال الضحاك، عن ابن عباس: أي ظاهرة على الماء. وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس ﴿شُرَّعًا﴾: ظاهرة من كل مكان. قال ابنُ جَرير: وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾، أي: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليَوْم المحرَّم عليهم صيدُه، وإخفائه عنهم في اليَوْمِ المُحَلَّلِ لهم صيدُه، ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾: نختبرهم، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، يقول: بفسقهم عن طاعة الله، وخروجهم عنها. وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام.

[٣١٩٢] وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بَطَّة رحمه الله: حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكبتِ اليهودُ فَتَستحلّوا محارمَ الله بأدنى الحِيَل»[١]. وهذا إسناد جيد، فإن أحمد بن محمد بن مسلم هذا ذكره الخطيب في تاريخه، وَوَثَّقه، وباقي رجاله مشهورونَ ثقاتٌ، ويُصَحِّحُ الترمذيّ بمثلِ هذا الإسنادِ كثيراً.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾

يُخبرُ تعالى عن أهلِ هذه القرية أنَّهم صاروا إلى ثلاثِ فِرَقٍ: فرقةٌ ارتكبت المحذورَ، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السَّبت، كما تقدمَ بيانه في سورة البقرة. وفرقة نَهَت عن ذلك، واعتزلتهم. وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟ أي: لِمَ تَنْهونَ هؤلاء، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقُّوا العقوبَةَ من الله؟ فلا فائدةَ في نهيكم إياهم. قالت لهم المنكرة: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ـ قرأ بعضهم بالرفع، كأنه على تقديره: هذا معذرةٌ. وقرأ آخرون بالنصب، أي: نفعل ذلك ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقولون: ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾، أي: فلما أبى الفاعلون المنكرَ قبولَ النصيحة، ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أي: ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾، فنصّ على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيماً فَيُذَمُّوا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين أو من الناجين؟ على قولين، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، هي قرية على شاطىء البحر بين مصر والمدينة، يقال لها: «أيلة»، فحرّم الله عليهم الحيتان يوم سَبتهم، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً في ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها. فمضى على

(١) إسناده حسن، رجاله ثقات. وجوده ابن كثير.

ذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فَنَهَتهُم طائفة وقالوا: تأخذونها وقد حرّمها الله عليكم يوم سبتكم؟! فلم يزدادوا إلا غَيّاً وَعُتوّاً، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاة: تَعلَمُون أن هؤلاء قوم قد حَقّ عليهم العذابُ، ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وكانوا أشدّ غضباً لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وكلّ قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ والذين قالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان، فجعلهم قِردَةً. ورَوَى العَوفيُّ، عن ابن عباس قريباً من هذا.
وقال حَمّاد بن زيد، عن داود بن الحُصَين، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: «أتعظون قوماً الله مهلكهم»، أم لا؟ قال: فلم أزل به حتى عَرّفته أنهم قد نَجَوا، فكساني حُلّة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جُرَيج، حدّثني رَجل، عن عكرمة قال: جئت ابن عباس يوماً وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره، فأعظمت أن أدنو، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدّمت فجلست، فَقُلْت: ما يبكيكَ يا بن عباس؟ جعلني الله فداك! قال: فقال: هؤلاء الورقات.
قال: وإذا هو في سورة الأعراف، قال: تعرف أيلة؟ قلت: نعم. قال: فإنه كان بها حيٌّ من يهودَ سِيقَت الحيتانُ إليهم يومَ السبت، ثم غاصَتْ لا يقدِرُونَ عليها حتى يَغُوصوا بعد كَدٍّ ومؤنة شديدة، كانت تأتيهم يوم السبت شُرّعاً بيضاً سماناً كأنها الماخض، تَتَبَطّح ظهورها لبطونها بأفنيتهم، فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نُهيتُم عن أكلها يوم السبت، فخذوها فيه، وكلوها في غيره من الأيام. فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة: بل نُهيتم عن أكلها يوم وأخذها وصيدها يوم السبت. فكانوا كذلك، حتى جاءت الجمعة المقبلة، فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين وتنحّت، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت. وقال الأيمنون: ويلكم! الله، الله، ننهاكم عن أن تتعرضوا لعقوبة الله، وقال الأيسرون: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟ قال الأيمنون: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، إن ينتهوا فهو أحبُّ إلينا ألاّ يصابوا ولا يهلكوا، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم. فمضوا على الخطيئة. وقال الأيمنون: فقد فعلتم، يا أعداء الله. والله لا نُبَايِتُكم الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب. فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا، فلم يجابوا، فوضعوا سلماً، وأعلوا سور المدينة رجلاً، فالتفت إليهم فقال: أي عباد الله، قردةٌ والله تَعاوَى لها أذناب. قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القرود أنسابها من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فَتَشَمّ ثيابه وتبكي، فتقول: ألم ننهكم عن كذا؟ فتقول برأسها أي نعم. ثم قرأ ابن عباس: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾، قال: فَأَرَى الذين نَهَوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذُكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها. قال: قلت: جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم قدكرهوا ما هم عليهم، وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾؟ قال: فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين. وكذا روى مجاهد، عنه. وقال ابن جَرِير: حدثنا يونس، أخبرنا أشهب بن عبد العزيز، عن مالك، قال: زعم ابن رُومان أن قوله تعالى: ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾، قال: كانت تأتيهم يوم السبت، فإذا كان المساءُ ذهبت فلا يُرَى منها شيء إلى يوم السبت الآخر. فاتخذ لذلك رجل خيطاً وَوَتداً، فربط حوتاً منها في الماء يوم السبت، حتى إذا أمسوا ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجد الناس ريحه، فأتوه فسألوه عن ذلك، فجحَدَهم، فلم يزالوا به حتى قال لهم: فإنه جلد حُوتٍ وجدناه. فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك ـ ولا أدري لعلّه

قال: ربط حُوتَين ـ فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجدوا رائحة، فجاؤوا فسألوه، فقال لهم: لو شئتم صنعتم كما أصنع. فقالوا له: وما صنعت؟ فأخبرهم، ففعلوا مثل ما فعل، حتى كثر ذلك. وكانت لهم مَدينة لها رَبَضٌ يغلقونها عليهم، فأصابهم من المسخ ما أصابهم. فغدوا عليهم جيرانهم ممن كانوا حولهم، يطلبون منهم ما يطلب الناس، فوجدوا المدينة مغلقة عليهم، فنادوا فلم يجيبوهم، فتسوّروا عليهم، فإذ هم قردة، فجعل القرد يدنو يتمسّح بمن كان يعرف قبل ذلك، ويدنو منه ويتمسح به. وقد قدمنا في سورة البقرة من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مَقْنَع وكفاية، ولله الحمد والمنة. القول الثاني: أن الساكتين كانوا من الهالكين: قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحُصَين، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: ابتدعوا السبت فابتُلوا فيه، فحرمت عليهم فيه الحيتان، فكانوا إذا كان يوم السبت شَرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر. فإذا انقضى السبت ذَهبت فلم تُر حتى السبت المقبل، فإذا جاء السبتُ جاءت شُرَّعاً، فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك، ثم إنّ رجلاً منهم أخذ حوتاً فَخزَم أنفه، ثم ضَرَب له وتداً في الساحل، وربطه وتركه في الماء. فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله، ففعل ذلك وهم ينظُرون ولا ينكِرون، ولا ينهاه منهم أحدٌ، إلا عصبة منهم نَهوه، حتى ظهر ذلك في الأسواق، ففُعل علانية. قال: فقالت طائفة للذين ينهونهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، فقالوا: نَسخط أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، قال ابن عباس: كانوا أثلاثاً: ثلث نَهوا، وثلث قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نَهوا وهلك سائرهم. وهذا إسنادٌ جيدٌ عن ابن عباس، ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا، لأنه تبين حالهم بعد ذلك، والله أعلم. وقولُه تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾، فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا. و﴿بَئِيسٍ﴾ فيه قراءات كثيرة، ومعناه في قول مجاهد «الشديد»، وفي رواية: «أليم». وقال قتادةُ: «مُوجع». والكل متقارب، والله أعلم. وقوله: ﴿خَاسِئِينَ﴾، أي: ذليلين حقيرين مُهانين.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿تَأَذَّنَ﴾: تفَعّل من الإِذْن، أي: أعلم، قاله مجاهد. وقال غيره: أمر. وفي قُوّة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا تُلُقّيت باللام في قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾، أي: على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامرَ الله وشرعه واحتيالهم على المحارم. ويُقالُ: إنّ موسى ـ عليه السلام ـ ضرب عليهم الخراج سبع سنين ـ وقيل: ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج ـ ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكُشدانيين والكُلدانيين، ثم صاروا في قهر النصارى وإذلالهم إياهم، وأَخْذِهم منهم الجزية والخراج. ثم جاء الإِسلام ومحمد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ فكانوا تحت خُفَارته وذِمّته يؤدُّون الخراج والجزية. قال العَوفيُّ، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: هي المَسْكَنَةُ وأَخْذُ الجِزْيَة منهم. وقال علي بن أبي طلحة، عنه: هي الجزية، والذين يسومونهم سوء العذاب: محمد رسول الله ـ ﷺ ـ وأمته، إلى يوم القيامة. وكذا قال سعيد بن جُبَير، وابن جُرَيج، والسدّيُّ، وقتادة. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمر، عن عبد الكريم الجزريِّ، عن سعيد بن المسيِّب قال: يستحب أن تبعث الأنباط في الجزية. قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يَخرُجون أنصاراً للدَّجّالِ، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ وذلك آخر الزمان. وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾، أي: لمن عصاه وخالَفَ

شرعه، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: لمن تاب إليه وأناب. وهذا من باب قَرْنِ الرَّحمةِ مع العقوبة، لئلا يحصلَ اليأسُ، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً، لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

يذكر تعالى أنه فرَّقهم في الأرض ﴿أُمَمًا﴾، أي: طوائفَ وفرقاً، كما قال: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء: ١٠٤]. ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي: فيهم الصالح وغير ذلك، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجن: ١١]، ﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾ أي اختبرناهم ﴿بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبة، والعافية والبلاء، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾، يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح، خَلْفٌ آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة ـ وقال مجاهد: هم النصارى ـ وقد يكون أعم من ذلك، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾، أي: يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوِّفون أنفسهم ويَعدونها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه. ولهذا قال: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾، وكما قال سعيد بن جُبَير: يعملون الذنب، ثم يستغفرون الله منه، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه. وقال مجاهدٌ في قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾، قال: لا يُشرِف لهم شيء في الدنيا إلا أخذوه، حلالاً كان أو حراماً، ويتمنَّون المغفرة، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾، وقال قتادة في ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾، إي والله، لَخلفُ سَوْءٍ، ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بعد أنبيائهم ورسلهم، ورَّثهم الله وعَهِدَ إليهم، وقال الله في آية أخرى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: ٥٩]، قال: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، تمنوا على الله أماني، وغِرَّةٌ يغترون بها ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾، لا يشغلهم شيء عن شيء، ولا ينهاهم شيء عن ذلك، كلما هَفَّ لهم شيء من الدنيا أكلوه، ولا يبالون حلالاً كان أو حراماً.

وقال السدِّيُ قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾، قال: كان بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهود ألاّ يفعلوا ولا يَرْتَشوا، فجعل الرجلُ منهم إذا استقضى ارتَشى، فيقال له: ما شأنك تَرْتَشِي في الحكم؟ فيقول: سيغفر لي، فيطعَنُ عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نُزِع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعَن عليه، فيرتشي، يقول: وإن يأت الآخرين عَرَضُ الدنيا يأخذوه. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾، يقول تعالى منكراً عليهم في صنيعهم هذا، مع ما أخذ عليهم من الميثاق لَيُبيِّنُنَّ الحق للناس ولا يكتمونه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وقال ابن جُرَيج: قال ابن عباس: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، قال: فيما يُوجِبُون على الله

من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها، ولا يتوبون منها. وقوله تعالى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، يرغبهم تعالى في جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه، أي: وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، يقول: أفليس لهؤلاء ـ الذين اعتاضوا بعَرَض الدنيا عما عندي ـ عَقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير، ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ـ ﷺ ـ كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾، أي: اعتصموا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾، يقول: رفعناه، وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٤]. وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم. وقال القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: ثم سار بهم موسى ـ عليه السلام ـ متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمره الله تعالى أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم، وأبوا أن يقروا بها حتى يَنْتُق الله الجبل فوقهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾، قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم. رواه النسائي بطوله. وقال سُنيد بن داود في تفسيره، عن حَجّاج بن محمد، عن أبي بكر بن عبد الله قال: هذا كتاب، أتقبلونه بما فيه، فإن فيه بيان ما أحلّ لكم وما حرم عليكم، وما أمَرَكم وما نهاكم؟ قالوا: أنشر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها يسيرة، وحدودها خفيفة قبلناها. قال: اقبلوها بما فيها. قالوا: لا، حتى نعلَمَ ما فيها، كيف حُدودُها وفرائضها. فراجعوا موسى مراراً، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتَفَع في السماء، حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى: ألا تَرَون ما يقولُ ربِّي عز وجل؟ لئن لم تقبلوا التوراةَ بما فيها لأَرْمِيَنَّكم بهذا الجبل قال: فحدَّثني الحسن البصري قال: لما نظروا إلى الجبل خَرّ كل رجل ساجداً على حاجِبِه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل، فَرقاً من أن يسقط، فكذلك ليس اليوم في الأرض يهوديٌّ يسجدُ إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدةُ التي رُفِعَت بها العقوبة. قال أبو بكر: فلما نَشَر الألواح فيها كتاب الله كتَبَه بيده، لم يبق على وجه الأرض جَبَلٌ ولا شجرَ ولا حَجرَ إلا اهتز، فليس اليوم يهودي على وجه الأرض صغيرٌ ولا كبيرٌ تُقرأُ عليه التوراة إلا اهتز ونَغَض لها رَأسَه أي: حَرّك، كما قال تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥١] والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

يُخبِرُ تعالى أنه استخرج ذرّية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

[٣١٩٣] وفي الصحيحين عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كلُّ مولود يولد على الفطرة ـ وفي رواية: على هذه الملّة ـ فأبواه يُهوِّدانه وينصرانه ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمةً جمعاءَ، هل تُحسُّون فيها من جدعاء»[١]؟

[٣١٩٤] وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حِمَار قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «يقول الله: إني خلقتُ عبادي حُنَفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم»[٢].

[٣١٩٥] وقال الإمام أبو جعفر بن جرير ـ رحمه الله ـ: حدثنا يونُس بن عبد الأعلى، حدَّثنا ابنُ وَهْب، أخبرني السريُّ بن يحيى: أن الحسن بن أبي الحسن حَدَّثهم، عن الأسود بن سَرِيع من بني سعد قال: غزوتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ أربع غزوات، قال: فتناول القومُ الذرّية بعد ما قَتَلوا المُقَاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ فاشتدَّ عليه، ثم قال: «ما بالُ أقوام يتناولون الذرِّية؟» فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، أليسوا أبناءَ المشركين؟ فقال: «إن خياركم أبناءُ المشركين! ألا إنها ليست نسمةٌ تولد إلا وُلِدت على الفطرة، فما تزالُ عليها حتى يُبِينَ عنها لسانها، فأبواها يُهوِّدانها أو ينصرانها» قال الحسن: ولقد قال الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾. . . الآية[٣]. وقد رواه الإمام أحمدُ، عن إسماعيل بن عُلَيَّة، عن يونس بن عُبَيد، عن الحسن البصريِّ، به. وأخرجَهُ النسائيُّ في سُنَنه من حديثِ هُشَيم، عن يونس بن عُبَيد، عن الحسن قال: حدثنا الأسود بن سَرِيع، فذكره، ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك. وقد وردت أحاديث في أخذ الذرِّية من صُلْب آدم عليه السلام، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفي بعضها الإشهادُ عليهم بأن الله ربهم.

[٣١٩٦] قال الإمام أحمدُ: حدثنا حَجَّاجٌ، حدثنا شعبةُ، عن أبي عِمْرَان الجَوْنيِّ، عن أَنَسِ بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يُقال لرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيءٍ أكنت مُفْتدِياً به؟ قال: فيقولُ نعم. فيقولُ: قد أردت منك أَهْوَنَ من ذلك، قد أخذتُ عليك في ظهر آدم أن لا تُشركَ بي شيئاً، فأبيتَ إلا أن تُشرِكَ بي»[٤]. أخرجاه في الصحيحين، من حديث شُعبةَ، به.

[٣١٩٧] حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا حُسَين بن محمد، حدثنا جَرِير ـ يعني ابن حازم ـ عن كُلثوم بن جَبْر، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم ـ عليه السلام ـ بِنعمانٍ ـ يعني عرفة ـ فأخرجَ من صُلْبِه كلَّ ذريَّة ذَرَأها فنثرها بين يديه، ثم كَلَّمهم قِبَلاً، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ﴾[٥] إلى قوله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[٦]. وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه، عن محمد بن عبد الرحيم ـ

---

(١) تقدم في سورة النساء آية: ١١٩.

(٢) تقدم في سورة الأنعام آية: ٧٩.

(٣) أخرجه الطبري ١٥٣٦٤، ورجاله ثقات، لكن فيه عنعنة الحسن. وأخرجه أحمد ٣/ ٤٣٥ والنسائي في «الكبرى» ٨٦١٦ كلاهما من طريق الحسن به دون ذكر الآية وصححه الحاكم ٢/ ١٢٣ على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٣٤ ومسلم ٢٨٠٥ وأحمد ٣/ ١٢٧ و١٢٩ وأبو يعلى ٤١٨٦.

(٥) هذه قراءة أبي عمرو «أن يقولوا» و«أو يقولوا»، وقرأ الباقون بالتاء.

(٦) الراجح وقفه. أخرجه أحمد ١/ ٢٧٢ ح ٢٤٥١ والنسائي في «الكبرى» ١١١٩١ والطبري ١٥٣٤٩ والحاكم ١/ ٢٧ و٢/

صاعقة ـ عن حُسَين بن محمد المروزيّ، به. ورواه ابنُ جَرِير وابن أبي حاتم من حديث حُسَين بن محمد، به، إلا أن ابن أبي حاتم جَعَله موقوفاً. وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره، عن جرير ابن حازم، عن كلثوم بن جَبْر، به. وقال: صحيح الإِسناد ولم يخرجاه، وقد احتجَّ مسلم بكلثوم بن جَبْر». هكذا قال، وقد رواه عبد الوارث، عن كلثوم بن جَبْرٍ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، فوقفه، وكذا رواه إسماعيل بن عُلَيّة ووكيع، عن ربيعةَ بن كلثوم، عن أبيه، به. وكذا رواه عطاءُ بن السائب، وحبيب بن أبي ثابت، وعلي بن بَذيمة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، قوله. وكذا رواه العَوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عَبّاس. فهذا أكثرُ وأثبتُ، والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أَبي، عن أبي هلال، عن أبي جَمْرَة الضُبَعي، عن ابن عباس قال: أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذرّ، وهو في آذِيّ من الماء. وقال أيضاً: حدثنا علي بن سهل، حدثنا ضَمْرَة بن رَبِيعَةَ، حدثنا أبو مسعود، عن جُوَيبر قال: مات ابنٌ للضحاك بن مزاحم، ابنُ ستّة أيام. قال: فقال: يا جابرُ، إذا أنتَ وَضَعْتَ ابني في لَحْدِهِ، فأبرِزْ وجهَهُ، وحُلَّ عنه عُقَدَه، فإنّ ابني مُجْلَس ومَسْؤولٌ. ففعلتُ بِهِ الذي أَمَرَ، فلما فَرَغتُ قلت: يرحمُكَ الله، عم يُسألُ ابنُكَ؟ من يسألُه إيّاه؟ قال: يُسْأل عن الميثاق الذي أقرّ به في صلب آدم. قلت: يا أبا القاسم، وما هذا الميثاق الذي أقرّ به في صلب آدم؟ قال: حدثني ابنُ عباس أن الله مسح صُلْبَ آدم فاستخرج منه كلَّ نَسَمَةٍ هو خَلَقَها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق: أن يعبدُوه ولا يُشرِكوا به شيئاً، وتكفَّل لهم بالأرزاق، ثم أعادهم في صلبه. فلن تقومَ الساعةُ حتى يولد من أعطى الميثاقَ يومئذٍ، فمن أدرك منهم الميثاقَ الآخر فَوفَى به، نفعه الميثاق الأول. ومن أدرك الميثاق الآخر فَلَم يَفِ به لم ينفعه الميثاق الأول، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر، مات على الميثاق الأول على الفطرة. فهذه الطرق كلُّها ما يُقَوّي وَقْف هذا على ابن عباس، والله أعلم.

[٣١٩٨] حديث آخر: وقال ابنُ جَرير: حدثنا عبد الرحمن بن الوليد، حدثنا أحمد بن أبي طَيْبَةَ، عن سفيان بن سعيد، عن الأجلح، عن الضحاك، وعن منصور، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، قال: أخذوا من ظهره، كما يؤخَذُ بالمشط من الرأس، فقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾. قالت الملائكة: ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾(١). أحمد بن أبي طَيْبَةَ هذا هو: أبو محمد الجُرجانيُّ قاضي قُومسَ، كان أحدَ الزُهادِ، أخرج له النسائي في سُنَنه، وقال أبو حاتم الرازي: يُكتبُ حديثهُ. وقال ابنُ عَدِيّ: حَدَّث بأحاديث كثيرة أكثرها غرائبُ. وقد رَوَى هذا الحديثَ عبدُ الرحمن بن مَهدِيّ، عن سُفيان الثَوري، عن منصور، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، قوله. وكذا رواه جَرير، عن منصور، به. وهذا أصح، والله أعلم.

---

٥٤٤ من حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً. صححه الحاكم، وقال: احتجَّ مسلم بكلثوم بن جبر، ووافقه الذهبي. وأما النسائي، فقال: كلثوم هذا غير قوي، وحديثه غير محفوظ اهـ. والظاهر أن الوهم في رفعه، إنما هو من جهة جرير بن حازم، فإنه ثقة لكن له أوهام إذا حدث من حفظه، أو الوهم ممن دونه فقد أخرجه الطبري ١٥٣٥٠ عن عبد الوارث عن كلثوم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً. وتابعه ابن علية برقم ١٥٣٥١ عن كلثوم به موقوفاً. و١٥٣٥٢ وبرقم ١٥٣٥٣ و١٥٣٥٤ تابعه عطاء بن السائب، فرواه عن سعيد عن ابن عباس موقوفاً. فالصواب في هذا الحديث الوقف، كما رواه غير واحد، والله أعلم.

(١) أخرجه الطبري ١٥٣٦٥ بهذا الإسناد، وفيه أحمد بن أبي طيبة غير قوي، وقد خالفه غير واحد فرووه موقوفاً أخرجه الطبري ١٥٣٦٦ و١٥٣٦٧ وكلا الإسنادين صحيح، والله أعلم.

[٣١٩٩] حديث آخر: قال الإمام أحمدُ: حدثنا رَوحٌ ـ وهو ابن عُبادة ـ حدثنا مالك ـ وحدثنا إسحاق، أخبرنا مالك ـ عن زيد بن أبي أُنيسةَ: أنَّ عبد الحميد بنَ عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبَرَهُ. عن مسلم بن يَسارٍ الجُهَني: أن عُمَر بنِ الخطاب سُئِلَ عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾... الآية، فقال عُمَرُ بن الخطاب: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ سُئِل عنها، فقال: «إن الله خلق آدم ـ عليه السلام ـ ثم مَسَح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذُرِّيّة، قال: خلقت هؤلاءِ للجنَّةِ، وبعَمَل أهلِ الجنة يعمَلُون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذُرِّيَّةً، قال: خلقتُ هؤلاءِ للنار وبِعَمَلِ أهل النار يَعْمَلُونَ». فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، ففيم العملُ؟ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة. وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموتَ على عملٍ من أعمال أهلِ النارِ، فيدخِلَه به النار»[1]. وهكذا رواه أبو داود عن القَعْنَبِيّ ـ والنسائي عن قتيبة ـ والترمذيّ عن إسحاق بن موسى، عن مَعْن ـ وابن أبي حاتم، عن يونس بن عبد الأعلى، عن وهب ـ وابن جَرير من حديث رَوح بن عبادة وسَعْدِ بن عبد الحميد بن جعفر ـ وأخرجه ابن حبان في صحيحه، من رواية أبي مصعب الزبيري، كلهم عن الإمام مالك بن أنس، به. قال الترمذيّ: وهذا حديثٌ حَسَنٌ، ومسلم بن يَسَار لم يَسْمَع عُمَرَ. وكذا قاله أبو حاتم وأبو زُرعَةَ. زاد أبو حاتم: وبينهما نُعَيم بن رَبيعةَ.

[٣٢٠٠] وهذا الذي قاله أبو حاتم رواه أبو داود في سُنَنه، عن محمد بن مُصَفَّى، عن بقيةَ، عن عُمَر ابن جُعْثُم القُرَشيّ، عن زيد بن أبي أُنَيسَةَ، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يَسَار الجُهَني، عن نُعَيم بن ربيعة قال: كنت عند عُمر بن الخطاب، وقد سُئِل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾... فذكره[2]. وقال الحافظ الدارقطنيُّ: وقد تابع عُمَرَ بن جُعْثُم يزيدُ بن سنان أبو فَرْوة الرُّهاوي، وقولُهما أولى بالصواب من قولِ مالك، والله أعلم. قلت: الظاهر أن الإمام مالكاً إنما أسقط ذكر نُعَيمِ بن رَبيعةَ عمداً لما جهل حاله ولم يعرفه، فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث، وكذلك يسقِطُ ذِكْرَ جماعةٍ ممن لا يرتضيهم، ولهذا يرسِلُ كثيراً من المرفوعات، ويقطَعُ كثيراً من الموصولات، والله أعلم.

[٣٢٠١] حديث آخَرُ: قال الترمذيّ عند تفسيره هذه الآية: حدثنا عَبْدُ بن حُمَيد، حدّثنا أبو نُعَيم، حَدَّثنا هشام بن سَعْدٍ، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لما خلق الله آدم مَسَحَ ظهره، فَسَقَطَ من ظهره كلُّ نَسَمة هوخالِقُها من ذُرِّيته إلى يوم القيامة، وجعل بين عَيْنَي كل إنسان

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٧٠٣ والترمذي ٣٠٧٥ وأحمد ١/ ٤٤ ـ ٤٥ والطبري ١٣٥٦٨ والحاكم ١/ ٢٧ و٢/ ٥٤٤ وابن حبان ٦١٦٦ كلهم من طريق مالك به، وفيه إرسال بين مسلم بن يسار وعمر، لكن جاء موصولاً في رواية أبي داود الآتية، وللحديث شواهد تقويه إن شاء الله، وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٧٠٤ والطبري ١٥٣٦٩ وابن عبد البر في «التمهيد» ٦/ ٤ و٤ ـ ٥ وقال: هذا الحديث منقطع بهذا الإسناد، لأن مسلم بن يسار لم يلق عمر بن الخطاب، وزيادة من زاد فيه نعيم بن ربيعة ليست حجة، لأن الذي لم يذكره أحفظ، وإنما تقبل الزيادة من الحافظ المتقن، وجملة القول في هذا الحديث: إنه حديث ليس إسناده بالقائم، لأن مسلم بن يسار ونعيم بن ربيعة جميعاً غير معروفين بحمل العلم، ولكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة يطول ذكرها اهـ. وللحديث شواهد كثيرة انظر تفسير القرطبي ٣١٣٩ و ٣١٤٠ بتخريجي.

منهم وَبيصاً من نور، ثم عَرَضهم على آدم فقال: أي ربِّ، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذُرِّيتُك. فرأى رَجُلاً منهم فأعجبه وَبِيصُ ما بين عينيه، فقال: أي ربِّ، من هذا؟ قال: هذا رجلٌ من آخر الأمَم من ذُرِّيتك، يقال له: داود. قال: رَبِّ، وكم جعلتَ عُمْرَه؟ قال: سِتِّين سنةً. قال: أي ربِّ، زده من عُمْري أربعينَ سنةً. فلما انقضى عُمر آدَمَ جاءه ملكُ الموت قال: أو لم يبق من عُمري أربعون سنةً؟ قال: أوَ لم تُعطِها ابنكَ داود؟ قال: فَجَحَدَ آدمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيتُه، ونُسِّي آدم فَنَسِّيت ذُرِّيته، وخَطِئَ آدمُ فَخَطِئت ذُرِّيتُه»[١]. ثم قال الترمذي: هذا حديث حَسَن صحيح، وقد رُوِي من غير وَجْهٍ عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ. ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث أبي نُعَيم الفضل بن دُكَين، به، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

[٣٢٠٢] ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره، من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، أنه حَدَّثه عن عطاء بن يسار، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ فذكر نحوَ ما تقدم، إلى أن قال: «ثم عَرَضهم على آدم فقال: يا آدم هؤلاء ذُرِّيتك. وإذا فيهم الأجذَمُ والأبرص والأعمى، وأنواع الأسقام، فقال آدم: يا ربِّ، لم فعلت هذا بذرِّيتي؟ قال: كي تشكر نعمتي. وقال آدم: يا ربِّ، من هؤلاء الذين أراهم أظْهَرَ الناس نُوراً. قال: هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك»[٢]. ثم ذكر قصة داود، كنحو ما تقدم.

[٣٢٠٣] حديثُ آخرُ: قال عبدُ الرحمن بن قتادة النَّصْري، عن أبيه، عن هشام بن حكيم ـ رضي الله عنه ـ: أن رجلاً سأل النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، أتُبتَدَأ الأعمالُ، أم قد قُضِي القضاء؟ قال: فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله قد أخذ ذُرِّية آدم من ظهورهم، ثم أشهدَهُم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كَفَّيه، ثم قال: «هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار»، فأهلُ الجنة ميسَّرون لعملِ أهل الجَنَّةِ، وأهلُ النار مُيَسَّرون لعملِ أهلِ النار»[٣]. رواه ابن جرير، وابن مَرْدُويه، من طرق، عنه.

[٣٢٠٤] حديث آخر: روى جعفر بن الزبير ـ وهو ضعيف ـ عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لما خَلَق الله الخلق، وقَضَى القَضِيَّةَ، أخذ أهلَ اليمين بيمينه وأهلَ الشمالِ بشماله، فقال: يا أصحابَ اليمين. فقالوا: لَبَّيك وسَعْدَيْكَ. قال: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى. قال: يا أصحابَ الشمالِ. قالوا: لَبَّيك وسَعْدَيْكَ. قال: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى. ثم خَلَط بينهم، فقال قائل: يا ربِّ، لم خلطتَ بينهم. قال: «لهم أعمالٌ من دون ذلك هم لها عاملون، أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، ثم رَدَّهم في صُلْبِ آدم»[٤]. رواه ابن مَرْدُوَيه.

---

(١) غريب. أخرجه الترمذي ٣٠٧٦ وابن سعد ١/ ٢٧ ـ ٢٨ والحاكم ٢/ ٢٨٦ من طرق عن هشام بن سعد به، وهذا إسناد لين هشام بن سعد روى له مسلم في الشواهد، قال أحمد: لم يكن بالحافظ. وورد من وجه آخر من طريق سعيد المقبري عن أبي هريرة عند الترمذي ٣٣٦٨ وابن حبان ٦١٦٧ والحاكم ١/ ٦٤ في أثناء حديث، وفي إسناده لين أيضاً الحارث بن عبد الرحمن، وإن روى له مسلم، ووثقه غير واحد فقد قال أبو حاتم: ليس بالقوي. وقال ابن حزم: ضعيف. والحديث صححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن غريب. وانظر «أحكام القرآن» لابن العربي ٩٢٨ بتخريجي.

(٢) إسناده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد تفرد فيه بألفاظ ليست في شيء من شواهده.

(٣) أخرجه الطبري ١٥٣٧٧ والبزار ٢١٤١ والطبراني ٤٣٤ و٤٣٥ والآجري في «الشريعة» ٣٤٣ وإسناده حسن رجاله ثقات، وصرّح بقية بن الوليد بالتحديث، ولأكثر هذا المتن شواهد وطرق، راجع «المجمع» ٧/ ١٨٦ و«أحكام القرآن» ٩٢٧ لابن العربي بتخريجي.

(٤) إسناده ضعيف جداً. لضعف جعفر بن الزبير: كذبه شعبة، وقال يحيى: ليس بثقة. وقال البخاري: تركوه.

أثر آخر: قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبيّ بن كعب في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾... الآية والتي بعدها، قال: فَجمعهم له يومئذٍ جميعاً، ما هو كائن منه إلى يوم القيامة، فجعلهم أرواحاً، ثم صورهم، ثم استنطقهم فتكلموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾... الآية، قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع، والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا. اعلموا أنّه لا إله غيري، ولا ربَّ غيري، ولا تشركوا بي شيئاً، وإني سأرسل إليكم رُسُلاً يُذَكِّرونَكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتبي. قالوا: نشهد أنّك رَبُّنا وإلٰهنا، لا ربَّ لنا غيرُك، ولا إله لنا غيرك. فأقرُّوا له يومئذٍ بالطاعة، ورفع أباهم آدم فَنَظَر إليهم، فرأى فيهم الغني والفقير، وحَسَن الصورة ودُون ذلك. فقال: يا ربِّ، لو سوَّيتَ بين عبادك؟ قال: إني أحببت أن أُشكَر. ورأى فيهم الأنبياء مثل السُّرُج عليهم النور، وخُصُّوا بميثاق آخَرَ من الرسالة والنبوة، فهو الذي يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧]... الآية، وهو الذي يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، ومن ذلك قال: ﴿هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ [النجم: ٥٦]، ومن ذلك قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠٢]. رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه، ورواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مَرْدُوَيه في تفاسيرهم، من رواية أبي جعفر الرازي، به. ورُوي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادة، والسدِّي، وغير واحد من علماء السلف سياقات توافق هذه الأحاديث، اكتفينا بإيرادها عن التطويل بتلك الآثار كلها، وبالله المستعان. فهذه الأحاديثُ دالَّة على أن الله ـ عزّ وجلّ ـ استخرج ذرِّية آدم من صلبه. ومَيَّز بين أهل الجنة وأهل النار. وأما الإشهادُ عليهم هناك بأنه ربُّهم فما هو إلا في حديث كُلثوم بن جَبْر، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، وفي حديث عبد الله ابن عَمْرو، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، كما تقدم. ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إنَّ المراد بهذا الإشهاد إنما هو فَطْرهم على التوحيد، كما تقدَّم في حديث أبي هُرَيرة وعياض بن حِمَار المُجَاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سَرِيع. وقد فسر الحسن البصريّ الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، ولم يقل: من آدم، ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾، ولم يقل: من ظهره ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، أي: جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]. ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، أي: أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً وقالاً: والشهادة تارةً تكون بالقول، كما قال: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠]... الآية، وتارةً تكون حالاً، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]، أي: حالهم شاهدٌ عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [العاديات: ٧]، كما أن السؤال تارة يكون بالقال، وتارة يكون بالحال، كما في قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

قالوا: ومما يدلُّ على أنَّ المراد بهذا هذا، أن جعل هذا الإشهاد حُجَّةً عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال، لكان كلُّ أحدٍ يذكره، ليكون حجة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول به كاف في وجوده. فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وجُعِلَ هذا حجة مستقلة عليهم، فَدَلَّ على أنَّ الفطرة التي فُطِرُوا عليها هي الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال: ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾، أي:

لئلاً يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾، أي: التوحيد ﴿غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾. . . الآية.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

قال عبد الرزّاق، عن سفيان الثوريّ، عن الأعمش ومنصور، عن أبي الضُّحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود ـ رَضي الله عنه ـ في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾. . . الآية، قال: هو رجل من بني إسرائيل، يقال له: بلعم بن أَبَر. وكذا رواه شعبة وغير واحد، عن منصور، به. وقال سعيد بن أبي عَرُوبةَ، عن قتادةَ، عن ابن عَبَّاسٍ: هو صيفي بن الراهب. قال قتادةُ: وقال كعبٌ: كان رجلاً من أهل البلقاء، وكان يَعْلَم الاسم الأكبر، وكان مقيماً بِبَيتِ المقدس مع الجبارين. وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: هو رجلٌ من أهل اليمن، يقال له: بَلْعَم، آتاه الله آياتِه فتركها. وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجابَ الدعوةَ، يُقدِّمونه في الشدائد، بعثه نبيُّ الله موسى إلى ملك مَدْين يَدعُوه إلى الله، فأقطعه وأعطاه، فَتبع دينه وترك دِينَ موسى عليه السلام. وقال سفيان بن عُيَينة، عن حُصَين، عن عِمْران بن الحارث، عن ابن عباس: هو بلعم بن باعور. وكذا قال مجاهد وعكرمة. وقال ابن جَرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا إسرائيل، عن مغيرةَ، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: هو بلعام. وقالت ثقيف: هو أمية بن أبي الصلت. وقال شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن نافع بن عاصم، عن عبد الله بن عمرو في قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ﴾. . . الآية، قال: هو صاحبكم أُميَّةُ بن أبي الصَّلْتِ. وقد رُوِي من غير وجه، عنه. وهو صحيحٌ إليه، وكأنه إنما أراد أنَّ أمية بن أبي الصَّلت يشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، ولكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله ـ ﷺ ـ وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته. وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمعَ به ولم يتبعه، وصار إلى موالاةِ المشركين ومناصرتهم وامتداحهم، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة، قَبَّحه الله.

[٣٢٠٥] وقد جاء في بعض الأحاديث: «أنه ممن آمن لسانه، ولم يُؤمِن قلبه»[1]؛ فإنَّ له أشعاراً ربانية، وحِكَماً وفصاحة، ولكن لم يشرَحِ الله صَدْرَه للإسلام. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عُمَر، حدثنا سفيان، عن أبي سعيد الأعور، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾، قال: هو رجلٌ أعطِيَ ثلاثَ دعواتٍ يُستَجابُ له فيهنَّ، وكانت له امرأةٌ له منها ولد، فقالت: اجعل لي منها واحدةً. قال: فلك واحدةٌ، فما الذي تُريدين؟ قالت: ادع الله أن يجعلني أجملَ امرأة في بني إسرائيل. فدعا الله، فجعلها أجملَ امرأة في بني إسرائيل، فلما عَلِمت أن ليس فيهم مثلها رَغِبت عنه،

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ. وأخرج مسلم ٢٢٥٥ من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: استنشدني رسول الله ﷺ. . . وفيه «إن كاد ليسلم» وفي رواية «فلقد كاد يسلم في شعره». وانظر حديث أبي هريرة الآتي في سورة القصص عند آية: ٨٨ وحديث ابن عباس الآتي في سورة غافر عند آية: ٧.

وأرادت شيئاً آخر، فدعا الله أن يجعلها كلبة، فصارت كلبة، فذهبت دعوتان. فجاء بنوها فقالوا: ليس بنا على هذا قرار، قد صارت أمُّنا كلبةً يُعيِّرنا الناس بها، فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها، فدعا الله، فعادت كما كانت، فذهبت الدعوات الثلاث، وسُمِّيت البَسُوسَ. غريب. وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجلٌ من المتقدمين في زمان بني إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هورجلٌ من مدينة الجبّارين، يقال له: بلعام، وكان يعلم اسم الله الأكبر. وقال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَمَ، وغيرُه من علماء السلف: كان مجابَ الدعوةِ، ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه. وأغربَ، بل أبعدَ، بل أخطأ من قال: كان قد أوتيَ النبوةَ فانسلخ منها. حكاه ابن جرير، عن بعضهم. ولا يصح. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لما نزل موسى بهم ـ يعني بالجبارين ـ ومن معه، أتاه ـ يعني بلعام ـ أتاه بنو عمه وقومه، فقالوا: إن موسى رجلٌ حَدِيدٌ، معه جنود كثيرة، وإنه إنْ يَظْهَرْ علينا يُهلِكْنا، فادع الله أن يردّ عنّا موسى ومن معه. قال: إني إن دعوتُ الله أن يردَّ موسى ومن معه، ذهبت دنياي وآخرتي. فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾... الآية. وقال السدّي: إن الله لما انقضَت الأربعون سنةً التي قال الله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: ٢٦]، بعث يوشع بن نون نبياً، فدعا بني إسرائيل، فأخبرهم أنه نبيٌّ، وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين، فبايعوه وَصَدَّقوه ـ وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له: بلعام وكان عالماً يَعْلَم الاسمَ الأعظم المكتوم، فكَفَر ـ لعنه الله ـ وأتى الجبارين، وقال لهم: لا ترهَبُوا بني إسرائيل، فإني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلِكُون! وكان عندهم فيما شاء من الدنيا، غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء، لِعِظَمِهِنَّ، فكان ينكح أتاناً له، وهو الذي قال الله تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾. وقولُه تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: استحوذ عليه وغلبه على أمره، فمهما أمره امتثل وأطاعه، ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾، أي: من الهالكين الحائرين البائرين.

[٣٢٠٦] وقد وَرَد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنَده حيث قال: حدَّثنا محمد بن مرزوق، حدثنا محمد بن بكر، عن الصَّلْتِ بن بَهرام، حدثنا الحسن، حدثنا جُندُب البَجَليّ في هذا المسجد: أن حُذَيفة ـ يعني ابن اليمان ـ رضي الله عنه ـ حَدَّثه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن مما أتخوَّف عليكم رجلٌ قرأ القرآن، حتى إذا رُئِيَتْ بَهجتُهُ عليه ـ وكان رِدْءَ الإسلام أعزّه ـ إلى ما شاء الله ـ انسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسَعَى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك». قال: قلت يا نبي الله، أيهما أولى بالشرك: المرميّ أو الرامي؟ قال: «بل الرامي»[١]. هذا إسنادٌ جيّدٌ. والصَّلْتُ بن بَهْرام كان من ثقات الكوفيين، ولم يُرْمَ بشيء سوى الإرجاء، وقد وَثَّقه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن مَعِين وغيرهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾، أي: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: مال إلى زينة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرّته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهى. وقال أبو الزاهريّة في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، قال: تراءى له الشيطانُ على غَلْوةٍ من قنطرة بانياسَ، فسجدت الحمارة لله، وسجد بلعام للشيطان. وكذا قال عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَيرٍ، وغير واحد.

---

(١) انظر المطالب العالية لابن حجر ٤/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

وقال الإمام أبو جعفر بن جَرير رحمه الله: وكان من قِصَّةِ هذا الرجل ما حَدَّثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه: أنه سُئِل عن هذه الآية: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾، فحدث عن سَيّار: أنه كان رجلاً يقال له: بلعام، وكان مجابَ الدعوة، قال: وإن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام ـ أو قال: الشام ـ قال: فَرُعِبَ الناسُ منه رعباً شديداً، قال: فأتوا بلعامَ، فقالوا: ادعُ الله على هذا الرجل وجَيْشِهِ! قال: حتى أوَامِرِ ربي، أو: حتى أؤَامر ـ قال: فآمر في الدعاء عليهم، فقيل له: لا تدع عليهم، فإنهم عبادي، وفيهم نَبِيّهم. قال: فقال لقومه: إني قد وامرت ربي في الدعاء عليهم، وإني قد نُهيتُ. فأهدوا له هدية فقبلها، ثم راجعوه فقالوا: ادع عليهم، فقال: حتى أؤامر ربي. فآمر، فلم يَحُرْ إليه شيء. فقال: قد وامرتُ فلم يَحُرْ إليّ شيءٌ! فقالوا: لو كَرِهَ ربُك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرةُ الأولى. قال: فأخذ يدعو عليهم، فإذا دعا عليهم جَرَى على لسانه الدعاء على قومه، وإذا أراد أن يدعو أن يُفْتَح لقومه، دعا أن يُفْتَح لموسى وجيشه، أو نحواً من ذا إن شاء الله. قال: فقالوا ما نراكَ تدعو إلا علينا. قال: ما يجري على لساني إلا هكذا، ولو دعوت عليه أيضاً ما استجيب لي، ولكن سأدلكم على أَمْرٍ عَسى أن يكون فيه هلاكُهم. إن الله يُبغِضُ الزنا، وإنهم إن وَقعُوا بالزنا هَلَكُوا، ورجوتُ أن يهلِكَهم الله، فَأَخْرِجُوا النساء يَسْتقبلنَهم، فإنهم قوم مسافرون. فعسى أن يزنوا فيهلكوا. قال: ففعلوا. قال: فأخرجوا النساء يستقبلنهم. قال: وكان للملك ابنةٌ، فذكر من عظمَها ما الله أعلم به! قال: فقال أبوها ـ أو بلعامُ ـ: لا تُمَكِّني نفسك إلا من موسى! قال: ووقعوا في الزنا. قال: وأتاها رأسُ سِبْطٍ من أسباط بني إسرائيل، قال: فأرادها على نَفْسِها. فقالت: ما أنا بممكِّنةٍ نفسي إلا من موسى. قال: فقال: إن منزلتي كذا وكذا، وإن من حالي كذا وكذا. قال: فأرسلَتْ إلى أبيها تستأمره، قال: فقال لها: فأمكنيه قال: ويأتيهما رجل من بني هارون ومعه الرمح فيطعنُهما. قال: وأيّده الله بقوّةٍ، فانتظمَهُما جميعاً، ورفعهما على رمحه، فرآهما الناس ـ أو كما حدث ـ قال: وسَلَّط الله عليهم الطاعون. فمات منهم سبعون ألفاً. قال أبو المعتمر: فَحَدَّثني سَيّار: أنَّ بلعاماً رَكِبَ حمارةً له حتى أتى العلولي ـ أو قال: طريقاً من العلولي ـ جعل يضربها ولا تُقْدم، وقامت عليه فقالت: علام تضربني؟ أما ترى هذا الذي بين يديك! فإذا الشيطان بين يديه. قال: فنزل وسجد له، قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. قال: فحدثني بهذا سيار، ولا أدري لعله قد دخل فيه شيءٌ من حديث غيره[1]. قلت: وهو بِلْعام ـ ويقال: بَلْعَمُ ـ بن باعوراء، ويقال: ابن آبَرَ. ويقال: ابن باعور بن شهوم بن قوشتم بن ماب بن لوط بن هاران ـ ويقال: ابن حران ـ بن آزر. وكان يسكنُ قريةً من قُرَى البلقاء. قال ابن عساكر: وهو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم، فانسلخَ من دينه، له ذكر في القرآن. ثم أورد من قصته نحواً مما ذكرنا هاهنا، أورده عن وهب وغيره، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن سالم أبي النضر: أنه حدّث أن موسى ـ عليه السلام ـ لما نَزَل في أرض بني كنعان من أرض الشام، أتى قومُ بلعام إليه فقالوا له؛ هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل، قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويُحلها بني إسرائيل، وإنا قومُك، وليس لنا منزلٌ، وأنت رجلٌ مجاب الدعوة، فاخرج فادع الله عليهم. قال: ويلكم! نبي الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو عليهم، وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! قالوا له: مالنا من منزل! فلم يزالوا به يُرَقِّقُونه ويتضرَّعون إليه، حتى فَتَنُوه فافتُتِن، فركب حمارةً له متوجهاً إلى الجبل الذي يُطلِعُه على عسكر بني إسرائيل، وهو جبل حُسْبان، فلما سار عليها غير

---

(١) هذا الأثر متلقى عن أهل الكتاب. وكذا ما بعده.

كثير رَبَضَت به، فنزل عنها فضربها، حتى إذا أَذْلَقَها قامت فَرَكِبها. فلم تَسِرْ به كثيراً حتى رَبَضت به. فضربها حتى إذا أذلقها أذن الله لها فكلمته حُجَّة عليه، فقالت: ويحك يا بلعم، أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي تَرُدّني عن وجهي هذا؟ أتذهب إلى نبيِّ الله والمؤمنين لتدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها يضربها، فخلَّى الله سبيلَها حين فَعَل بها ذلك، فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حُسْبَان، على عسكر موسى وبني إسرائيل، جعل يدعو عليهم، ولا يدعو عليهم بشرٍّ إلا صرف به لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل. فقال له قومُه: أتدري يا بلعم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم، وتدعو علينا! قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غَلَب الله عليه! قال: واندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لهم: قد ذَهَبَت مني الآن الدنيا والآخرةُ ولم يبق إلا المكرُ والحيلةُ، فسأمكر لكم وأحتال: جَمِّلوا النساء وأعطوهن السِّلَع، ثم أرسلوهن إلى العسكر يَبِعْنَها فيه، ومُرُوهن فلا تمنع امرأةٌ نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كُفيتُموهم. ففعلوا. فلما دخل النساءُ العسكر، مَرَّتِ امرأةٌ من الكنعانيين اسمها كَسْبَىٰ ابنة صور، رأس أمته ـ برجل من عظماء بني إسرائيل، وهو زَمْرِي بن شلوم، رأس سبط بني شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، فقام إليها، فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى عليه السلام، فقال: إني أظنك ستقول: هذا حرامٌ عليك؟ قال: أجل، هي حَرَامٌ عليك، لا تقربها. قال: فوالله لا نُطيعك في هذا. ثم دَخل بها قُبَّتَه فَوقَعَ عليها. وأرسل الله ـ عزّ وجلّ ـ الطاعونَ في بني إسرائيل، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون، صاحب أمر موسى، وكان غائباً حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يَجُوسُ في بني إسرائيل، فأخبر الخبر، فأخذ حَرْبته ـ وكانت من حديد كلُّها ـ ثم دخل القبة وهما متضاجعان، فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعَهما إلى السماء، والحربةُ قد أخذها بذراعه، واعتمد بِمَرْفِقه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لَحْيَيْه ـ وكان بِكْرَ العيزار ـ وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك. ورُفعَ الطاعون، فحُسِب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زَمْري المرأة إلى أن قتله فِنْحاصُ، فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفاً ـ والمقلّل لهم يقول: عشرون ألفاً ـ في ساعة من النهار. فمن هنالك تُعطى بنو إسرائيل ولد فِنْحاص على كل ذبيحة ذبحوها الرَّقبة والذراعَ واللَّحْيَ ـ لاعتماده بالحربة على خاصرته، وأخذه إياه بذراعه، وإسناده إياها إلى لحيَيه ـ والبِكْرِ من كل أموالهم وأنفسهم، لأنه كان بِكْرَ أبيه العيزار. ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

وقولُه تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾، اختلف المفسرون في معناه، فأما على سياق ابن إسحاق، عن سالم بن أبي النضر: أن بلعاماً اندلع لسانه على صدره، فتشبيهه بالكلب في لهثه في كلتا حالتيه إن زُجِر وإن تُرِك. وقيل معناه: فصار مَثَلُه في ضلاله واستمراره فيه، وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء، كالكلب في لَهْثه في حالتيه، إن حَمَلْتَ عليه وإن تَرَكْته، وهو يلهث في الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، ونحو ذلك. وقيل: معناه أنَّ قلب الكافر والمنافق والضالّ ضعيفٌ فارغٌ من الهُدَى، فهو كثِير الوَجِيب، فعُبِّر عن هذا بهذا. نُقِلَ نحوهُ عن الحسن البصري وغيره. وقولُه تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ

---

(١) الأثر بطوله متلقى عن أهل الكتاب.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، يقول تعالى لنبيه محمد ـ ﷺ ـ: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ﴾، أي: لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام، وما جَرَى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه ـ في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سُئِل به أَعْطَى، وإذا دُعِيَ به أجاب ـ في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن، وشَعْب الإيمان، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان، كليم الله موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: فيحذروا أن يكونوا مثله؛ فإن الله قد أعطاهم عِلْماً، ومَيَّزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفَة محمد ـ ﷺ ـ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحقُّ الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته، كما أخبرتْهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به، ولهذا من خالف منهم في كتابه وكتمه فلم يُعْلم به العباد أحَلَّ الله به ذُلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة. وقولُه: ﴿سَآءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، يقول تعالى: ساءَ مثلاً مثلُ القوم الذين كذبوا بآياتنا، أي: ساء مثلُهم أن شُبِّهوا بالكلاب التي لا هِمَّة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حَيِّز العلم والهدى، وأقبل على شهوة نفسه، واتَّبع هواه، صار شبيهاً بالكلب، وبئس المثل مثله.

[٣٢٠٧] ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ليس لنا مثلُ السَّوءِ، العائد في هبته كالكلب يعود في قَيْئِهِ»[(١)]. وقولُه: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾، أي: ما ظلمهم الله، ولكن هم ظَلَموا أنفسَهم، بإعراضِهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تَحصِيل اللَّذَّاتِ وموافقة الهوى.

﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

يقولُ تعالى: من هداه الله فإنه لا مُضِلَّ له، ومن أَضَلَّه فقد خاب وخَسِر وضَلَّ لا محالَةَ، فإنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

[٣٢٠٨] ولهذا جاء في حديث ابن مسعود: «إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يَهدِهِ الله لا مُضِلَّ له، ومن يُضَلِلِ الله فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أن محمَّداً عبدُه ورسولُه»[(٢)]. . . الحديث بتمامه، رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، وغيرهم.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَـٰئِكَ كَالْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾، أي: خلقنا وجعلنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾، أي: هَيَّأناهم لها، وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلُق الخَلْق علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتَبَ ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٦٢٢ والترمذي ١٢٩٨ والنسائي ٦/٢٦٧ وأحمد ١/٢١٧ من حديث ابن عباس. وأخرجه البخاري ٢٥٨٩ ومسلم ١٦٢٢ ح ٧ وأبو داود ٣٥٣٨ وابن ماجه ٢٣٨٥ وأحمد ١/ ٢٨٠ من حديث ابن عباس أيضاً لكن بلفظ «العائد في هبته كالعائد في قيئه».

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ٢١١٨ والترمذي ١١٠٥ والنسائي ٦/٨٩ وابن ماجه ١٨٩٢ وأحمد ١/٤٣٢ والبيهقي ٣/ ٢١٤ من طرق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود به.

[٣٢٠٩] كما ورد في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عَمْرو أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألفَ سنةٍ، وكان عرشُه على الماء»[١].

[٣٢١٠] وفي صحيح مسلم أيضاً، من حديث عائشة بنت طلحة، عن خالتها عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: دُعِي رسول الله ـ ﷺ ـ إلى جنازة صَبيّ من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طُوبى له، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوءَ ولم يدركه، فقال: «أوَ غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق الجنة، وخَلَق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم، وخلَق النار، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم»[٢].

[٣٢١١] وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود: «ثم يُبْعَثُ إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات، فيكتُبُ: رِزقَه، وأجله، وعمله، وشَقِيٌّ أم سعيدٌ»[٣].

[٣٢١٢] وتقدم: أن الله لما استخرج ذرِّية آدم من صُلْبه وجعلهم فريقين: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، قال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي»[٤]. والأحاديث في هذا كثيرة، ومسألة القَدَر كبيرةٌ ليس هذا موضع بَسْطِها. وقولُه تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾، يعني: ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جَعَلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]... الآية. وقال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٨]، هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، ولم يكونوا صماً ولا بكماً ولا عمياً إلا عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٧]. وقولُه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يَعُونه ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يُعَيِّشها من ظاهر الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: ٢٧١]، أي: ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان، كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول. ولهذا قال في هؤلاء: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، أي: من الدواب؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبَسَّ بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء؟ ولأن الدواب تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر، كانت الدواب أتم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٥٣ والترمذي ٢١٥٦ وأحمد ٢/١٦٩ وابن حبان ٦١٣٨ والبيهقي في «الصفات» ٧٩٩.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٦٢ وأبو داود ٤٧١٣ والنسائي ٤/٥٧ وابن ماجه ٨٢ وأبو يعلى ٤٥٥٣ وأحمد ٦/٤١ و٢٠٨ وابن حبان ١٣٨.

(٣) تقدم في سورة البقرة عند آية: ٢٣٤ وصدره «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه...».

(٤) تقدم عند آية: ١٧٢ من هذه السورة.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

[٣٢١٣] عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن لله تسعةً وتسعينَ اسماً، مئةً إلا واحداً من أحصاها دَخَل الجنة، وهو وِتْر يحبُّ الوِتْر»(١). أخرجاه في الصحيحين من حديث سُفيان بن عُيَينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عنه. ورواه البخاري، عن أبي اليمان، عن شعيب بن أبي حمزة، عن أبي الزناد، به.

[٣٢١٤] وأخرجه الترمذي، عن الجوزجاني، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شعيب فذكر بسنده مثله، وزاد بعد قوله: «يحب الوِتْر»: هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارىء، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المُعِزّ، المُذِلّ، السميع، البصير، الحَكَم، العَدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المُقِيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المُجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المُحصِي، المُبدىء، المُعَيد، المحيي، المميت، الحيُّ، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصَّمَدُ، القادر، المقتدر، المُقَدِّمُ، المُؤَخِّر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البَرُّ، التواب، المنتقم، العَفُوّ، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المُقسِطُ، الجامع، الغني، المُغني، المانع، الضارُّ، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصَّبورُ»(٢). ثم قال الترمذي: هَذا حديث غريب... وقد رُوِي من غير وجهٍ عن أبي هُريرة، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. ورواه ابن حِبّانَ في صحيحه، من طريق صفوان، به. وقد رواه ابن ماجه في سننه، من طريق آخر، عن موسى بن عقبة، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً، فسرد الأسماء كنحو ما تقدم بزيادة ونقصان. والذي عَوَّل عليه جماعة من الحفاظ أن سَرد الأسماء في هذا الحديث مُدرجٌ فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن، كما ورد عن جعفر بن محمد، وسفيان بن عُيَينة، وأبي زيد اللُّغوي، والله أعلم.

ثُمَّ لِيُعلَمْ أن الأسماء الحسنى ليست منحصرةً في التسعة والتسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده، عن يزيد بن هارون، عن فُضَيل بن مرزوق، عن أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال:

[٣٢١٥] «ما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حُزنٌ فقال: اللهم، إني عبدُك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عَدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سَمَّيتَ به نفسَكَ، أو أنزلته في كتابكَ، أو أعلمتَهُ أحداً من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندَك، أن تجعل القرآن العظيم ربيعَ قلبي،

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤١٠ ومسلم ٢٦٧٧ والترمذي ٣٥٠٦ وابن ماجه ٣٨٦٠ وأحمد ٢/ ٢٦٧ و٤٢٧ وابن حبان ٨٠٧ والبغوي في «التفسير» ٩٥٤ من طرق من حديث أبي هريرة.

(٢) تقدم تخريجه والكلام عليه في سورة الفاتحة «فصل البسملة».

ونورَ صَدْرِي، وجَلاءَ حزني، وذَهاب هَمِّي ـ إلا أذهب الله هَمَّه وحَزَنه، وأبدله مكانه فَرَحاً. فقيل: يا رسولَ الله، أفلا نتعلّمها؟ فقال: بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها»[١]. وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حِبَّانَ البُستيُّ في صحيحه، بمثله. وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه «الأحوذي في شرح الترمذي» أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم.

وقال العوفيّ، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال: إلحادُ الملحدين: أن دَعَوا «اللات» في أسماء الله. وقال ابن جُرَيج، عن مجاهد: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾، قال: اشتقوا «اللات» من الله، واشتقوا «العُزّى» من العزيز. وقال قتادةُ: ﴿يُلْحِدُونَ﴾، يشركون. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب. وأصلُ الإلحاد في كلام العرب: العدلُ عن القصدِ، والميلُ والجورُ والإنحرافُ، ومنه اللحدُ في القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾، أي: ومن الأمم ﴿أُمَّةٌ﴾ قائمةٌ بالحق، قولاً وعملاً، ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، يقولونه ويَدعُون إليه، ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾، يعملون ويقضون. وقد جاء في الآثار أنّ المرادَ بهذه الأمةِ المذكورةِ في الآية هي هذه الأمةُ المحمديةُ.

[٣٢١٦] قال سعيدٌ، عن قتادةَ في تفسير هذه الآية: بَلَغنا أن نبي الله ـ ﷺ ـ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هذه لكم، وقد أعطِي القومُ بين أيديكم مثلها: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾»[٢].

[٣٢١٧] وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن من أمتي قوماً على الحقِّ، حتى ينزلَ عيسى ابن مريم متى ما نزل»[٣].

[٣٢١٨] وفي الصحيحين، عن معاويةَ بن أبي سفيانَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يَضرُّهم من خَذَلهم ولا من خالفهم، حتى تَقُومَ الساعة»[٤] ـ وفي رواية ـ: «حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» ـ وفي رواية ـ: «وَهُم بالشّام»[٥].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾، ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا، حتى يغترُّوا بما هم فيه ويعتقدُوا أنهم على شيء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا

---

(١) جيد. أخرجه أحمد ١/ ٣٩١ و٤٥٢ وأبو يعلى ٥٢٩٧ والحاكم ١/ ٥٠٩ وابن حبان ٩٧٢ من طرق عن فضيل ابن مرزوق به، وإسناده صحيح. أبو سلمة الجهني هو موسى بن عبد الله ويقال: ابن عبد الرحمن، وهو ثقة من رجال مسلم وقد وصفه الذهبي بالجهالة فلم يعرفه.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبري: ١٥٤٧٠ عن قتادة مرسلاً بصيغة التمريض، فهو ضعيف.

(٣) هذا مرسل. عزاه السيوطي في «الدر» ٣/ ٢٧٢ لابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس مرسلاً.

(٤) تقدم في سورة البقرة عند آية: ١٢٠ و١٢٩.

(٥) لفظ «وهم بالشام» ليس في الصحيحين، ولم يصح مرفوعاً، وإنما هو من قول معاذ بن جبل، وتقدم الكلام على ذلك.

نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤ ـ ٤٥]. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾، أي: وسأملي لهم، أي: أطوّلُ لهم ما هم فيه ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي: قوي شديد.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ يعني محمداً ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾، أي: ليس به جنون، بل هو رسولُ الله حقاً، دعا إلى حق، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: ظاهر لمن كان له قلب ولب يعقل به ويعي به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٦]، يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا لله، أي: قياماً خالصاً لله ليس فيه تعصب ولا عناد، ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾، أي: مجتمعين ومتفرقين، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله: أبه جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسولُ الله ﷺ حقاً وصدقاً.

[٣٢١٩] وقال قتادة بن دعامة: ذُكِر لنا أن نبيَّ الله ـ ﷺ ـ كان على الصفا، فدعا قُريشاً، فجعل يُفخِّذهم فَخذاً فخذاً: «يا بني فلان.. يا بني فلان». فَحذَّرهم بأسَ الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون! بات يصوت إلى الصباح ـ أو: حتى أصبح ـ فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾(١).

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

يقولُ تعالى أَوَلَم يَنْظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض، وفيما خَلَق الله من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومِنْ فِعْل مَن لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويُصَدِّقوا رسوله، ويُنِيبوا إلى طاعته، ويَخْلَعوا الأنداد والأوثان، وَيحذَروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه. وقوله: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾؟ يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب ـ بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه، الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه ـ يصدقون؟ إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله، عز وجل.

[٣٢٢٠] وقد رَوَى الإمامُ أحمد، عن حسن بن موسى، وَعفّان بن مسلم، وعبد الصمد بن عبد الوارث، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن أبي الصلت، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «رأيت ليلةَ أُسْرِي بي، لما انتهينا إلى السماء السابعة، فنظرتُ فوقي، فإذا أنا برعدٍ وبرقٍ وصواعقَ، قال: وأتيت على قوم بطونُهم كالبيوت فيها الحياتُ تُرَى من خارج بطونهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة

---

(١) أخرجه الطبري ١٥٤٧٢ عن قتادة مرسلاً بصيغة التمريض، وهذا ضعيف، والمتن غريب بهذا اللفظ، وحديث وقوفه عليه الصلاة والسلام على الصفا متفق عليه بغير هذا اللفظ.

الربا. فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل مني، فإذا أنا برهَج ودخان وأصوات، فقلت: ما هذا يا جبريلُ؟ فقال: هذه الشياطينُ يحومون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب»[(١)]. عليُّ بن زيد بن جُدْعان له منكراتٌ. ثم قال تعالى:

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

يقولُ تعالى: من كُتِبَ عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزى عنه شيئاً، ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾. قيل: نزلت في قريش. وقيل: في نَفَرٍ من اليهود. والأول أشبهُ، لأنَّ الآية مكيةٌ، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها، وتكذيباً بوجودها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: منتهاها، أي: متى محطها وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة؟. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾، أمر تعالى نبيه ـ ﷺ ـ إذا سُئِلَ عن وقت الساعة، أن يَرُدَّ علمها إلى الله تعالى؛ فإنه هو الذي يجليها لوقتها، أي: يعلم جلية أمرها، ومتى يكون على التحديد، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى، ولهذا قال: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادةَ في قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قال: ثَقُل علمها على أهل السموات والأرض، إنهم لا يعلمون. قال معمر: قال الحسن: إذا جاءت ثَقُلَت على أهل السموات والأرض. يقول: كَبُرت عليهم. وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضَرَر يوم القيامة. وقال ابن جُرَيج: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قال: إذا جاءت انشقت السماء، وانتثرت النجوم، وكُوّرت الشمس، وسُيّرت الجبال، وكان ما قال الله عز وجل، فذلك ثقلها. واختار ابنُ جرير رحمه الله: أن المراد: ثِقَل علم وقتها على أهل السموات والأرض، كما قال قتادة. وهو كما قالاه، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض، والله أعلم. وقال السدّيُّ: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يقول: خَفِيَت في السموات والأرض، فلا يَعْلَم قيامَها حين تقوم مَلَكٌ مُقرّبٌ، ولا نبي مرسل. ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، يبغتهم قيامها، تأتيهم على غفلة.

[٣٢٢١] وقال قتادةُ في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، قضى الله أنها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، قال:

---

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٢/ ٣٥٣ ح ٨٤٢٦ و٨٥٣٩ وإسناده ضعيف، له علتان أبو الصلت مجهول لا يعرف كما في «المجمع» ١٣٣٦٠ وفيه علي بن زيد ضعيف، روى مناكير كثيرة كما ذكر ابن كثير رحمه الله.

وذُكِر لنا أن نبيّ الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الساعة تَهيجُ بالناس والرجل يُصلِح حوضه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقيم سِلْعَتَه في السوقِ، ويخفض ميزانه ويرفعه»[١].

[٣٢٢٢] وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن عبد الرحمن، عن أبي هُرَيرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تقومُ الساعةُ حتى تطلُعَ الشمسُ من مَغْرِبها، فإذا طَلَعَتْ فرآها الناسُ آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كَسَبت في إيمانها خيراً، ولتقومَنّ الساعةُ وقد نَشَر الرجلان ثَوْبَهُما بينهما، فلا يَتَبايعانه ولا يطويانه. ولتقومَنّ الساعةُ وقد انصرف الرجلُ بلَبن لَقْحَتِهِ فلا يطعَمُه. ولتقومَنّ الساعةُ وهو يَلِيطُ[٢] حَوْضَه فلا يَسْقِي فيه. ولتقومَنّ الساعةُ والرجل قد رَفَع أَكْلَته إلى فيه فلا يَطعَمها»[٣].

[٣٢٢٣] وقال مسلم في صحيحه: حدثني زُهَير بن حرب، حدثنا سفيان بن عُيَينةَ، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة يبلغُ به النبيّ ـ ﷺ ـ قال: «تقوم الساعة والرجل يَحلُبُ اللِّقْحة، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة، والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم، والرجلُ يَلُوط حوضه فما يصدرُ حتى تقوم»[٤].

وقولُه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، اختلف المفسِّرون في معناه، فقيل معناه كما قال العَوفيُّ عن ابن عباس: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، يقول: كأن بينك وبينهم مودة، كأنك صَدِيقٌ لهم. قال ابن عَباس: لما سأل الناس محمداً ـ ﷺ ـ عن الساعة، سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم، فأوحى الله إليه: إنما علمها عنده، استأثر بعلمها، فلم يطلع عليها ملكاً مُقرباً ولا رسولاً. وقال قتادة: قالت قريش لمحمد ـ ﷺ ـ: إن بيننا وبينك قرابةً، فأسِرَّ إلينا متى الساعة؟ فقال الله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾. وكذا رُوِي عن مجاهد، وعكرمة، وأبي مالك، والسدّي، وهذا قول. والصحيح عن مجاهد ـ من رواية ابن أبي نَجِيح وغيره ـ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، قال: استَحْفَيت عنها السؤال، حتى عَلمت وقتها. وكذا قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، يقول: كأنك عالم بها، لست تعلمها، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾. وقال مَعْمَر، عن بعضهم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ كأنك عالم بها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلَم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ كأنك عالم بها، وقد أخفى الله علمها على خلقه، وقرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] الآية. وهذا القول أرجح في المعنى من الأول، والله أعلم. ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

[٣٢٢٤] ولهذا لما جاء جبريل ـ عليه السلام ـ في صورة أعرابي، لِيُعلِّم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ـ ﷺ ـ مجلس السائل المسترشد، وسأله ﷺ عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما المَسْؤُولُ عنها بأعلم من السائل»، أي: لست أعلم بها منك ولا أحدٌ أعلَم بها من أحدٍ، ثم قرأ النبي ـ ﷺ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية. وفي رواية: فسأله عن أشراطِ الساعة، فَبَيّن له أشراطَ الساعة، ثم قال: في خمس لا يعلمهنّ إلا الله. وقرأ هذه الآية، وفي هذا

---

(١) هذا مرسل. لكن يشهد له ما بعده.

(٢) يليط حوضه: أي يصلحه، كما صرح بذلك قتادة رحمه الله في الحديث السابق.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٠٦ و٧١٢١ وأحمد ٢/ ٣٦٩ وأبو يعلى ٦٢٧١ والبغوي في «التفسير» ٩٥٨.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٥٤ وانظر ما تقدم.

كلّه يقول له بعد كل جواب: «صدقت»، ولهذا عَجِب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه، ثم لما انصرف قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». وفي رواية قال: «وما أتاني في صورة إلا عَرَفتُه فيها، إلا صورتَه هذه»[١]. وقد ذَكَرْتُ هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد، في أول شرح صحيح البخاري، ولله الحمد والمنة.

[٣٢٢٥] ولما سأله الأعرابي وناداه بصوت جَهْوَرِيٍّ فقال: يا محمَّدُ! قال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «هَاؤم» ـ على نحو من صوته ـ قال: يا محمد، متى الساعة؟ قال له رسول الله ـ ﷺ ـ: ويحك! إن الساعة آتية، فما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله. فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: المرء مع من أحب»[٢]. فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث. وهذا له طرق متعددة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ: أنه قال: «المرء مع من أحب»، وهي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين. ففيه أنه عليه السلام كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه، أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته.

[٣٢٢٦] ولهذا قال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبةَ وأبو كريب قالا: حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كانت الأعرابُ إذا قَدِمُوا على رسول الله ـ ﷺ ـ سألوه عنِ الساعة: متى الساعة؟ فنَظَرَ إلى أحدثِ إنسانٍ منهم فقال: «إن يعش هذا لم يُدْرِكْه الهَرَم، قامت ساعتكم»[٣]. يعني بذلك موتهم الذي يُفضِي بهم إلى الحصول في بَرْزَخ الدار الآخرة.

[٣٢٢٧] ثم قال مسلم: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يونس بن محمد، عن حماد بن سَلَمة، عن ثابت، عن أنس: أن رَجُلاً سأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن الساعة وعنده غلام من الأنصار يقال له: محمد، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن يعش هذا الغلام فعسى ألاَّ يدركه الهرم حتى تقوم الساعةُ»[٤]. انفرد به مسلم.

[٣٢٢٨] وحدثني حجاج بن الشاعر، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حَمّاد بن زيد، حدثنا مَعْبد ابن هلال العَنَزيّ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلاً سأل النبي ـ ﷺ ـ قال: متى الساعة؟ فسكت رسول الله ـ ﷺ ـ هُنَيهة، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة، فقال: «إن عُمِّر هذا لم يدركه الهَرَم حتى تقوم الساعة»[٥] ـ قال أنس: ذلك الغلام من أترابي.

[٣٢٢٩] وقال: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا عَفّان بن مسلم، حدثنا هَمّام، حدثنا قتادة، عن أنسٍ قال: مَرّ غلامٌ للمغيرة بن شعبةَ ـ وكان من أقراني ـ فقال النبي ـ ﷺ ـ: «إن يُؤخَّر هذا لم يُدرِكْه الهَرَمُ حتى تقوم الساعة»[٦].

---

(١) متفق عليه، وقد تقدم.

(٢) حسن. أخرجه الترمذي ٣٥٣٦ والطيالسي ١١٦٧ وابن حبان ٥٦٢ من حديث صفوان بن عسال المرادي، وله شواهد كثيرة.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥١١ ومسلم ٢٩٥٢.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٥٣ ح ١٣٧.

(٥) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٥٣ ح ١٣٨.

(٦) صحيح. أخرجه ٢٩٥٣ ح ١٣٩.

[٣٢٣٠] ورواه البخاريُّ في كتاب «الأدب» من صحيحه، عن عَمْرو بن عاصم، عن هَمَّام بن يحيى، عن قتادة، عن أنس: أن رجلاً من أهل البادية قال: يا رسولَ الله، متى الساعة؟. . . فذكر الحديث، وفي آخره: فَمَرَّ غلامٌ للمُغِيرَةِ بن شُعْبَةَ، وذكره(١). وهذا الإطلاق في هذه الروايات محمول على التقييد بـ «ساعتكم» في حديث عائشةَ رضي الله عنها.

[٣٢٣١] وقال ابن جُرَيج: أخبرني أبو الزبير: أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ قبل أن يموت بشهرٍ قال: «تسألوني عن الساعة، وإنما عِلمُها عند الله، وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ، تأتي عليها مئة سنة. . .»(٢). رواه مسلم.

[٣٢٣٢] وفي الصَّحيحين، عن ابن عُمَر مثله، قال ابن عُمَر: وإنما أراد رَسُول الله ـ ﷺ ـ انخرامُ ذلك القَرْنِ(٣).

[٣٢٣٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيم، أنبأنا العوام، عن جبلة بن سُحَيم، عن مُؤْثِر بن عَفَازَةَ، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لَقِيتُ ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى، قال: فتذاكروا أمر الساعة، قال: فَرَدُّوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام، فقال: لا علم لي بها. فردُّوا أمرَهُم إلى موسى، فقال: لا علم لي بها. فردُّوا أمرهم إلى عيسى، فقال عيسى: أما وَجْبَتُها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل، وفيما عهد إليّ ربي ـ عزّ وجلّ ـ أن الدجال خارجٌ، قال: ومعي قضيبان، فإذا رآني ذاب كما يَذُوب الرَّصاصُ، قال: فيهلكه الله عز وجل إذا رآني، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلمُ، إن تحتي كافراً فتعال فاقتله. قال: فَيهلكهم الله عز وجل، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، قال: فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حَدَبٍ يَنْسِلُون، فَيَطؤون بلادهم، لا يأتُونَ على شيءٍ إلا أهلكوه، ولا يمرُّون على ماء إلا شَرِبوه، قال: ثم يرجِعُ الناسُ إليّ فيشكونهم، فأدعو الله ـ عزّ وجلّ ـ عليهم فيهلكهم ويميتهم، حتى تَجْوَى الأرض من نَتْن ريحهم ـ أي: تُنْتِنُ ـ قال: فينزل الله عز وجل المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر. قال أحمد: قال يزيد بن هارون: ثم تُنسَف الجبال، وتُمَدّ الأرضُ مَدَّ الأَدِيم ـ ثم رجع إلى حديث هُشَيم قال: ففيما عهد إليّ ربي ـ عزّ وجلّ ـ أن ذلك إن كان كذلك، فإن الساعة كالحامل المُتِمّ لا يدري أهلها متى تَفْجَؤُهم بولادها ليلاً أو نهاراً»(٤). ورواه ابن ماجه، عن بندار عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب بسنده، نحوه. فهؤلاء أكابرُ أولي العزم من المرسلين، ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين، وإنما رَدُّوا الأمر إلى عيسى ـ عليه السلام ـ فتكلَّم على أشراطها، لأنه ينزل في آخر هذه الأمة

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦١٦٧ وأحمد ٣/ ١٩٢.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٣٨ والترمذي ٢٢٥٠ وأحمد ٣/ ٣٢٢ و٣٨٥ وابن حبان ٢٩٨٧.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٠١ ومسلم ٢٥٣٧ وأبو داود ٤٣٤٨ والترمذي ٢٢٥١ وأحمد ٢/ ٨٨ وابن حبان ٢٩٨٩.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٤٠٨١ وأحمد ١/ ٣٧٥ والحاكم ٤/ ٤٨٨ ح ٨٥٠٢ وصححه، وسكت الذهبي. ورجاله ثقات مشهورون، سوى مؤثر بن عفازة، وثقه ابن حبان، وقال عنه الحافظ في التقريب: مقبول. وقال البوصيري: إسناده صحيح رجاله ثقات مؤثر بن عفازة وثقه ابن حبان، وصحح الحاكم إسناده.

قلت: مؤثر بن عفازة. قال عنه الحافظ: مقبول. أي حيث يتابع، ولا يتابع على كون هذا اللفظ عن عيسى عليه السلام، وقد صح عند مسلم وغيره عن النبي ﷺ، ليس فيه ذكر عيسى عليه السلام. فالحديث غير قوي بهذا الإسناد.

منفذاً لأحكام رسول الله ـ ﷺ ـ ويقتل المسيح الدجال، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به.

[٣٢٣٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا عُبَيد الله بن إياد بن لقيط قال: سَمِعْتُ أبي يذكر عن حُذَيفة قال: سُئِلَ رسول الله ـ ﷺ ـ عن الساعة فقال: «علمُها عند ربِّي عز وجل لا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو ولكن سأخبركم بمشاريطها، وما يكون بين يديها: إن بين يديها فتنةً وهَرَجاً، قالوا: يا رسولَ الله، الفتنةُ قد عرفناها، فالهرجُ ما هو؟ قال: بلسان الحبشة: القتلُ. قال: «ويُلقَى بين الناس التَّناكرُ، فلا يكاد أحد يعرف أحداً»[١]. لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه.

[٣٢٣٥] وقال وكيع: حدثنا ابن أبي خالد، عن طارق بن شهاب، قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ لا يزالُ يذكُرُ من شأن الساعة حتى نزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾[٢]. . . الآية. ورواه النسائي من حديث عيسى بن يونس، عن إسماعيل بن أبي خالد، به: وهذا إسناد جيد قوي. فهذا النبيّ الأمي سيد الرسل وخاتمهم ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ نبيُّ الرحمة، ونبيُّ التوبة، ونبيُّ الملحمة، والعاقب والمُقَفِّي، والحاشر الذي تُحشَرُ الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما:

[٣٢٣٦] «بعثت أنا والساعة كهاتين» وقرن بين أصبعيه السبابة والتي تليها،[٣] ومع هذا كله قد أمره الله تعالى أن يَرُدّ علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

أمره الله تعالى أن يفوّض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن: ٢٦]. . . الآية. وقولُه: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾، قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن منصور، عن مجاهد: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾، قال: لو كنتُ أعلم متى أموت، لعَمِلتُ عملاً صالحاً وكذلك رَوَى ابن أبي نَجِيح عن مجاهد. وقال مثلَه ابنُ جُرَيج. وفيه نظر.

[٣٢٣٧] لأن «عمل رسول الله ـ ﷺ ـ كان ديمَةً»[٤] ـ وفي رواية ـ «كان إذا عمل عملاً أثبته»، فجميعُ عَمَلِه كان على منوال واحد، كأنه ينظرُ إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ في جميع أحوالِه، اللهمّ إلا أن يكون المرادُ أن

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣٨٩.

(٢) أخرجه النسائي ١١٦٤٥ «كبرى» عن طارق بن شهاب، وفيه إرسال. قال أبو داود: رأى النبي ﷺ، ولم يسمع منه، قاله في التقريب. لكن مراسيل الصحابة صحيحة، وله شواهد، فهو قوي إن شاء الله.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٠٤ ومسلم ٢٩٥١ والترمذي ٢٢١٤ وأحمد ٣/ ٢٢٢ وأبو يعلى ٢٩٢٥ وابن حبان ٦٦٤٠ من حديث أنس، وأخرجه البخاري ٤٩٣٦ ومسلم ٢٩٥٠ وأحمد ٥/ ٣٣٠ وابن حبان ٦٦٤٢ من حديث سهل.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ١٩٨٧ و٦٤٦٦ ومسلم ٧٨٣ وأبو داود ١٣٧٠ وأحمد ٦/ ٤٣ وابن حبان ٣٢٢ من حديث عائشة. وفي لفظ عند مسلم ٧٨٢ «وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه».

يرشدَ غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم. والأحسن في هذا ما رواه الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾، أي: من المال. وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾، قال: ولا يصيبني الفقر. وقال ابن جَرير: وقال آخرون: معنى ذلك ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، لأعددت للسَّنَة المجدبة من المُخْصِبَةِ، ولعرفت الغَلاءَ من الرُّخْصِ، فاستعددت له من الرُّخْصِ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾، قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون، واتقيته. ثم أخبر أنه إنما هو نذيرٌ وبشيرٌ، أي: نذيرٌ من العذاب، وبشيرٌ للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧].

﴿۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ۚ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

يُنبِّه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم ـ عليه السلام ـ وأنه خلق منه زوجه حواء، ثم انتشر الناسُ منهما، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]... الآية. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، أي: ليألفها ويسكن بها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فلا ألفة بين رُوحَيْن أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾، أي: وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾، وذلك أول الحمل، لا تجد المرأة له ألماً، إنما هي النُّطفة، ثم العَلَقة، ثم المُضغة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾، قال مجاهد: استمرَّتْ بحمله. ورُوِي عن الحسن، وإبراهيم النَّخَعِيِّ، والسديِّ، نحوه. وقال ميمون بن مهران، عن أبيه: استخفته. وقال أيوب: سألتُ الحسنَ عن قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي؟ إنما هي: فاستمرّت به. وقال قتادة: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾، واستبان حملها. وقال ابن جَرير: استمرت بالماء، قامت به وقعدت. وقال العوفي، عن ابن عباس: استمرت به، فشكت: أحملت أم لا؟. ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾، أي: صارت ذات ثِقَلٍ بحملها. وقال السدّيُّ: كبر الولدُ في بطنها. ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾، أي: بَشَراً سَوِيّاً، كما قال الضحاك، عن ابن عباس: أشفقا أن يكون بَهيمةً. وكذلك قال أبو البَختري وأبو مالك: أشفقا ألاّ يكون إنساناً. وقال الحسن البصري: لئن آتيتنا غلاماً. ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ۚ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾، ذكر المفسرون ها هنا آثاراً وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها، ثم نُتْبِعُ ذلك ببيان الصحيح في ذلك، إن شاء الله، وبه الثقة.

[٣٢٣٨] قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عُمَر بن إبراهيم، حدثنا قتادةُ، عن الحسن، عن سَمُرَةَ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لما ولدت حواءُ طافَ بها إبليسُ ـ وكان لا يعيش لها ولد ـ فقال: سَمِّيه عبد الحارث، فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث، فعاش. وكان ذلك من وحي الشيطان

وأمره»[١]. وهكذا رواه ابنُ جرير، عن محمد بن بشار ـ بندار ـ عن عبد الصمد بن عبد الوارث، به. ورواه الترمذيّ في تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى، عن عبد الصمد، به. وقال: هذا حديثٌ حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عُمَر بن إبراهيم، ورواه بعضُهم عن عبد الصمد، ولم يرفعه. ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث عبد الصمد مرفوعاً ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره، عن أبي زُرْعَة الرازيّ، عن هلال بن فَيَّاضٍ، عن عُمَر ابن إبراهيم، به مرفوعاً. وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدَوَيه في تفسيره من حديث شاذُ بن فياض، عن عُمَر بن إبراهيم، به مرفوعاً. قلت: وشاذُ، هو: هلال، وشاذُ لقبُه. والغرضُ أن هذا الحديثَ معلولٌ من ثلاثة أوجُه: أحدها: أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري، وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به. ولكن رواه ابن مَرْدَوَيه من حديث المعتمر، عن أبيه، عن الحسن، عن سمرة، مرفوعاً[٢]. فالله أعلم. الثاني: أنه قد رُوِي من قول سَمُرة نفسه، ليس مرفوعاً، كما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه ـ وحدثنا ابن علَيَّة، عن سُلَيمان التَّيمي ـ عن أبي العلاء ابن الشِّخِّيرِ، عن سَمُرَةَ بن جُندُبٍ قال: سمى آدم ابنه عبد الحارث. الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سَمُرَةَ مرفوعاً، لما عدل عنه. قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا سهل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم. وحدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر قال: قال الحسن: عَنَى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده. يعني: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾. وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً، فهوّدوا ونَصَّروا. وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن ـ رحمه الله ـ أنه فسر الآية

---

(١) المرفوع ضعيف منكر. والصواب موقوف. أخرجه الترمذي ٣٠٧٧ والحاكم ٢/ ٥٤٥ ح ٤٠٠٣ والطبري ١٥٥٢٤. قال الترمذي: حسن غريب، ورواه بعضهم فلم يرفعه، وصححه الحاكم، وسكت الذهبي. في حين رجع الذهبي فذكره في الميزان ٦٠٤٢ في ترجمة عمر بن إبراهيم، فقال: صححه الحاكم، وهو منكر كما ترى. وجاء في تهذيب التهذيب ٧/ ٣٧٣ ما ملخصه: قال أحمد ثقة. ورواية عن أحمد: يروي عن قتادة أحاديث مناكير يخالف فيها. ووثقه ابن معين، وقال أبو حاتم: لا يحتج به. ووثقه عبد الصمد. وقال ابن عدي: يروي عن قتادة أشياء لا يوافق عليها، وحديثه عن قتادة مضطرب. وذكره ابن حبان في الثقات فقال: يخطىء ويخالف، وذكره في الضعفاء فقال: كان ممن يتفرد عن قتادة بما لا يشبه حديثه فلا يعجبني الاحتجاج به إذا انفرد، وقال الدارقطني: ليّن يترك. وقال البزار: ليس بالحافظ. اهـ. وقد خالفه من هو أوثق منه وأحفظ فرواه موقوفاً على سمرة، أخرجه الطبري ١٥٥٢٥ و١٥٥٢٦ وموقوفاً على ابن عباس ١٥٥٢٧ و١٥٥٢٨ وموقوفاً على قتادة ١٥٥٣١ و١٥٥٣٢ وموقوفاً على عكرمة ١٥٥٣٠ وعن مجاهد ١٥٥٣٣ وعن سعيد بن جبير ١٥٥٣٤ و١٥٥٣٥ وعن السدي ١٥٥٣٦ وهذا هو الراجح، وهو متلقى عن أهل الكتاب، وقد وهم عمر العبدي فرفعه ولم يتابعه عليه أحد سوى ما ذكر ابن كثير عن ابن مردويه أنه رواه من طريق المعتمر عن أبيه عن الحسن، وفي هذا نظر، والظاهر أن الوهم من أحد رجال ابن مردويه، فقد أخرجه الطبري من طريقين وكلاهما صحيح عن المعتمر عن أبيه عن أبي العلاء بن الشخير عن سمرة من قوله. وهو أشبه، والله أعلم.

(٢) لا يصح رفعه من طريق المعتمر وقد تقدم بما فيه الكفاية. وللحديث علة ثالثة كما ذكر ابن كثير وهي: أن الحسن فسر الآية بغير هذا فقد أخرج الطبري ١٥٥٣٧ عن عمرو عن الحسن قال: كان ذلك في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم. و١٥٥٣٨ عن معمر عن الحسن: عنى بهذا ذرية آدم. و١٥٥٣٩ عن قتادة: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى. اهـ. فهذه روايات ثلاث من ثلاثة وجوه مختلفة عن الحسن في معنى هذه الآية، وهو يخالف ما رواه مرفوعاً، وبهذا تنحصر علة المرفوع بعمر العبدي وهو من منكراته، والله أعلم.

بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ـ ﷺ ـ لما عدل هو ولا غيره عنه، لا سيما مع تقواه لله وورَعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل: كعب أو وهب بن منبّه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم.

فأما الآثار فقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن داود بن الحُصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم ـ عليه السلام ـ أولاداً فَيُعَبِّدهم لله ويُسَمِّيهم: عبد الله، وعبيد الله، ونحو ذلك، فيصيبهم الموت فأتاها إبليسُ وآدمَ فقال: إنكما لو تُسمّيانه بغير الذي تسميانه به لعاش، قال: فولدت له رَجُلاً فسماه عبد الحارث، ففيه أنزل الله، يقول الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾... إلى آخر الآية. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله في آدم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾، شكّت: أحبلت أم لا؟ ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فأتاهما الشيطان، فقال: هل تدريان ما يولد لكما؟ أم هل تدريان ما يكون؟ أبهيمة يكون أم لا؟ وزيَّن لهما الباطل؛ إنه غوي مبين. وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي، لم يخرج سوياً، ومات كما مات الأولان فسميا ولدهما عبد الحارث، فذلك قول الله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾... الآية. وقال عبد الله بن المبارك، عن شريك، عن خُصيف، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، قال: قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ آدم ﴿حَمَلَتْ﴾، فأتاهما إبليس ـ لعنه الله ـ فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتُطيعُنّي أو لأجعلنَّ له قَرْني أيّل فيخرجُ من بطنك فيشقه، ولأفعلنّ ولأفعلنّ ـ يخوفهما ـ فسمِّياه عبد الحارث. فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً. ثم حملت الثانية، فأتاهما أيضاً فقال: أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت، لتفعلُنّ أو لأفعلَنّ ـ يخوفهما ـ فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً. ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضاً، فذكر لهما، فأدركهما حبُّ الولد، فسمياه «عبد الحارث»، فذلك قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾. رواه ابن أبي حاتم. وقد تَلَقّى هذا الأثر عن ابن عباس جماعةٌ من أصحابه، كمجاهد، وسعيد بن جُبَير، وعكرمة. ومن الطبقة الثانية: قتادةُ، والسدّيُّ، وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يُحصَونَ كثرةً، وكأنه ـ والله أعلم ـ أصلُه مأخوذٌ من أهل الكتاب، فإنّ ابن عباس رواه عن أبيِّ بن كعب، كما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجُمَاهر، حدثنا سعيد ـ يعني ابن بشير ـ عن عقبة، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبيِّ بن كعب قال: لما حملت حواء أتاها الشيطان، فقال لها: أتطيعيني ويَسْلَم لك ولدك؟ سَمِّيه عبدَ الحارث. فلم تفعلْ، فولدت فماتَ، ثم حَمَلت فقال لها مثل ذلك، فلم تفعل، ثم حملت الثالثَ فجاءها فقال: إن تُطيعيني يسلم، وإلا فإنه يكون بَهيمة، فهيبهما فأطاعا. وهذه الآثار يظهر عليها ـ والله أعلم ـ أنها من آثار أهل الكتاب.

[٣٢٣٩] وقد صَحّ الحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إذا حَدّثكم أهل الكتاب فلا تُصدِّقوهم ولا تُكذِّبوهم»[1]. ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام، فمنها: ما عَلِمنا صِحّته بما دلَّ عليه الدليلُ من كتاب الله أو سنة

---

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٣٦٤٤ وأحمد ٤/ ١٣٦ وابن حبان ٦٢٥٧ من حديث أبي نملة بأتم منه وإسناده جيد. رجاله ثقات وانظر حديث أبي هريرة المتقدم في سورة البقرة آية: ١٣٦.

رسوله. ومنها ما علمنا كَذِبه بما دَلَّ على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً. ومنها ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام:

[٣٢٤٠] «وحدِّثوا عن بني إسرائيلَ ولا حَرَجَ»[١]. وهو الذي لا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب، لقوله «فلا تُصَدِّقوهم ولا تُكَذِّبوهم». وهذا الأثر هل هو من القسم الثاني أو الثالث؟ فيه نظر، فأما من حَدَّث به من صحابي أو تابعي، فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري ـ رحمه الله في هذا ـ والله أعلم، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذُرِّيته. ولهذا قال الله ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وذكر تعالى آدمَ وحواءَ كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]. ومعلومٌ أنّ المصابيح ـ وهي النجوم التي زُيِّنَت بها السماء ـ ليست هي التي يُرْمَى بها، وإنما هذا استطرادٌ من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائرُ كثيرةٌ في القرآن، والله أعلم. ثم قال:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

هذا إنكارٌ من الله على المشركين الذين عَبَدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقةٌ لله مربوبةٌ مصنوعةٌ، لا تَمْلِك شيئاً من الأمر، ولا تضرُّ ولا تنفعُ، ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرَّكُ ولا تسمعُ ولا تُبْصِرُ، وعابدوها أكملُ منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾، أي: أتشركون به من المعبودات ما لا يخلُق شيئاً ولا يستطيع ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٣ ـ ٧٤] أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلها ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو استَلَبَتْهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطارت لما استطاعوا إنقاذ ذلك منها، فمن هذه صفته وحاله كيف يُعبَد ليرزق ويستنصر؟! ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]، أي: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾، أي: لعابديهم ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾، يعني: ولا لأنفسهم

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٦١ والترمذي ٢٦٦٩ وأحمد ٢/٢٠٢ وابن حبان ٦٢٥٦ عن عبد الله بن عمرو.

ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ يكسر أصنام قومه ويُهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٥٨].

[٣٢٤١] وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومُعاذ بن جَبَل ـ رضي الله عنهما ـ وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة ـ فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حَطَباً للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك، وَيَرْتَؤوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح ـ وكان سيِّداً في قومه ـ كان له صنم يعبده ويطيبه، فكانا يجيئان في الليل فَيُنَكِّسانه على رأسه، ويلطخانه بالعَذِرة، فيجيء عمرو بن الجَمُوح فيرى ما صُنِع به، فيغسله ويُطَيِّبه ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر. ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه أيضاً حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت، ودلَّياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تَـالله لَـوْ كُـنْـتَ إلـهـاً مُـسْـتَـدَنْ   لـم تـكُ والـكَـلْـبُ جَـمـيـعـاً فـي قَـرَنْ

ثم أسلم فَحَسُنَ إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً، رضِي الله عنه وأرضاه، وجعل جنة الفردوس مأواه[1].

وقولُه: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ . . . الآية، يعني: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دَحَاها، كما قال إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]؟! ثم ذكر تعالى أنها عَبيدٌ مثل عابديها، أي: مخلوقات مثلهم، بل الأناسيّ أكمل منها، لأنها تسمع وتبصر وتبطش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك. وقولُه: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ . . . الآية، أي: استنصروا بها عليّ فلا تُؤخِروني طرفة عَين، واجهدوا جُهْدكم! ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾، أي: الله حسبي وكافيّ، وهو نصيري، وعليه متكلي، وإليه ألجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة، وهو ولي كل صالح بعدي، وهذا كما قال هود ـ عليه السلام ـ لما قال له قومُه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦]، وكقول الخليل: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء: ٧٦ ـ ٧٨]. . . الآيات، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨].

وقولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ . . . إلى آخر الآية، مُؤكِّدٌ لما تقدَّم، إلا أنه بصيغَة الخطاب، وذلك بصيغة الغيبة، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾. وقولُه تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾، كقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]. . . الآية. وقولُه: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، إنما قال: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، أي: يقابلونك بعيون مُصَوّرة كأنها ناظرة، وهي جَمَاد ولهذا عاملهم مُعَامَلَة من يعقِلُ؛ لأنها على صُوَر مصورة كالإنسان، ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، فعبر عنها بضمير من يعقل. وقال السدّيُّ: المراد بهذا المشركون. ورُوي عن مجاهد نحوه. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير، وقاله قتادة.

---

(١) انظر «دلائل النبوة» للبيهقي ٢/٤٥٦ ـ ٤٥٧.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

قال عَليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، يعني: خذ ما عَفَا لك من أموالهم، وما أتوك به من شَيء فخذه. وكان هذا قبل أن تنزل «براءة» بفرائض الصدقات وتفصيلها، وما انتهت إليه الصدقات. وقاله السُّدِّي. وقال الضحاك، عن ابن عباس ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾: أَنفِقِ الفَضلَ. وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، قال: الفَضلَ. وقال عبدُ الرحمن بن زَيدِ بن أَسْلَم في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾: أمره الله بالعفو والصَّفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم، واختار هذا القولَ ابنُ جَرير. وقال غير واحد، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، قال: من أخلاق الناس وأعمالهم بغير تَحَسُّس. وقال هشام بن عروة، عن أبيه: أمر الله رسوله ـ ﷺ ـ أن يأخُذَ العفو من أخلاق الناس. وفي رواية قال: خُذْ ما عفا لك من أخلاقهم. وفي صحيح البخاري، عن هشام، عن أبيه عروة، عن أخيه عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ من أخلاق الناس. وفي رواية لغيره: عن هشام، عن أبيه، عن ابن عمر. وفي رواية: عن هشام، عن أبيه، عن عائشة أنهما قالا مثل ذلك، والله أعلم. وفي رواية سعيد بن منصور، عن أبي معاوية، عن هشام، عن وهب بن كيسان، عن ابن الزبير: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال: من أخلاق الناس، والله لآخذنه منهم ما صحبتهم. وهذا أشهرُ الأقوال.

[٣٢٤٢] ويشهدُ له ما رواه ابن جَريرٍ وابنُ أبي حاتم جميعاً: حدثنا يونس، حدثنا سفيان ـ هو ابنُ عُيَينة ـ عن أُمَيِّ قال: «لما أنزل الله عز وجل على نبيه ـ ﷺ ـ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظَلَمك، وتُعطِيَ من حَرَمك، وتَصِلَ من قطعك»[1]. وقد رواه ابنُ أبي حاتم أيضاً، عن أبي يزيد القراطيسي كتابة، عن أصبغ بن الفرج، عن سفيان، عن أُميّ، عن الشعبي، نحوه وهذا على كل حال مرسل، وقد روي له شواهد من وجوه أخر، وقد رُوِيَ مرفوعاً عن جابر وقيس بن سعد بن عبادة، عن النبيّ ـ ﷺ ـ، أسندهما ابن مَرْدُويه[2].

[٣٢٤٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معاذ بن رفاعة، حدثني علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة الباهلي، عن عُقبةَ بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: لقيت رسول الله ـ ﷺ ـ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال. فقال: «يا عقبةُ، صِلْ من قَطَعك، وَأَعْطِ من حَرَمَكَ، وأعرض عمن ظَلَمَك»[3]. وروى الترمذي نحوه من طريق عُبَيد الله بن زَحْر، عن علي بن يزيد، به. وقال: حسن.

---

(١) أخرجه الطبري ١٥٥٥٩ هكذا مرسلاً عن أميّ. وكرره ١٥٥٥٨ عن ابن عيينة عن رجل. وأخرجه ابن المنذر كما في الدر ٣/ ٢٨٠ عن أميّ عن الشعبي مرسلاً، فهو ضعيف؛ وللحديث شواهد دون ذكر «جبريل» أو نزول الآية، وستأتي إن شاء الله عقب حديث عقبة بن عامر.

(٢) انظر الدر المنثور ٣/ ٢٨٠ ـ ٢٨١. وما يتفرد به ابن مردويه يكون غالباً واهياً.

(٣) جيد. أخرجه أحمد ٤/ ١٤٨ والطبراني ١٧/ ٢٦٩ وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» ١٩ والبيهقي في «الشعب» ٧٩٥٩، وهذا الإسناد ضعيف لضعف علي بن يزيد الألهاني. وورد من وجه آخر أخرجه أحمد ٤/ ١٤٨ ـ ١٥٨ ـ ١٥٩ والطبراني ١٧/ ٢٧٠ وقال الهيثمي في «المجمع» ٨/ ١٨٨: أحد إسنادي أحمد رجاله ثقات. وأخرجه ابن أبي الدنيا ٢٠ من طريق آخر، وفيه إسماعيل بن عياش، رواه عن غير الشاميين. وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه ابن أبي الدنيا ٢١ =

قلت: ولكن علي بن يزيد وشيخه القاسم أبو عبد الرحمن، فيهما ضعف. وقال البخاري قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾، العرف: المعروف. حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: أن ابن عباس قال: قدم عُيَينة بن حصن بن حُذيفة، فنزل على ابن أخيه الحُرّ بن قيس ـ وكان من النفر الذين يُدْنِيهم عُمَر، وكان القراءُ أصحابَ مَجالِس عُمَر ومشاورته ـ كُهُولاً كانوا أو شباناً ـ فقال عُيَينة لابن أخيه: يا ابنَ أخي، لك وَجْهٌ عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الحرُ لعُيينَةَ، فأذن له عُمَر، فلما دخلَ قال: هِيْ يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجَزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فَغَضِبَ عمر حتى هَمّ أن يُوقِعَ به. فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، قال الله لنبيه ـ ﷺ ـ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾. وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عُمَر حين تلاها عليه، وكان وَقَّافاً عند كتاب الله عز وجل. انفرد بإخراجه البخاري.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونُس بن عبد الأعلى قراءةً، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرني مالك بن أنس، عن عبد الله بن نافع: أن سالم بن عبد الله بن عمر: مَرّ على عِيرٍ لأهل الشام وفيها جَرَس، فقال: إن هذا منهيٌّ عنه، فقالوا: نحن أعلمُ بهذا منك، إنما يكره الجُلْجل الكبير، فأما مثل هذَا فلا بأس به. فسكَتَ سالم وقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾. وقول البخاري: العرف: المعروف، نَصّ عليه عُرْوَةُ بن الزبير، والسدي، وقتادة، وابن جرير، وغير واحد. وحكى ابن جرير أنه يقال: أوليته عُرْفاً، وعارفاً، وعارفَةً، كل ذلك بمعنى: المعروف، قال: وقد أمر الله نبيه ـ ﷺ ـ أن يأمر عباده بالمعروف. ويدخلُ في ذلك جميعُ الطاعاتِ، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ـ ﷺ ـ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جَهِلَ الحقَّ الواجبَ من حَقّ الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجَهِل وحدانيته، وهو للمسلمين حَرْبٌ. وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾، قال: هذه أخلاقٌ أمر الله بها نبيّه ـ ﷺ ـ ودلّه عليها. وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى، فسبكه في بيتين، فيهما جناس فقال:

خُذ العفو وأمر بعُرفٍ كَمَا ... أُمِرْتَ وأعرض عَن الجَاهِلينْ
وَلِنْ في الكَلاَم لكُلّ الأنام ... فَمُسْتَحْسَنٌ مِنْ ذَوي الجاه لِينْ

وقال بعضُ العلماء: الناس رجلان: فرجل محسنٌ، فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تُكَلِّفه فوق طاقته ولا ما يحرجه، وإما مسيءٌ فَمُرْه بالمعروف، فإن تمادَى على ضلاله واستعصى عليك واستمرّ في جهله، فأعرِض عنه، فلعلّ ذلك أن يردّ كيدَه، كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾

= والحاكم ١/ ٥١٨ وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: سليمان بن داود ضعيف. وورد من حديث عليّ، أخرجه البيهقي في «الشعب» ٧٩٥٦ والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١٣٦٩١، وقال الهيثمي: فيه الحارث الأعور، ضعيف. وورد من حديث معاذ بن أنس، أخرجه أحمد ٣/ ٤٣٨ والطبراني ٢٠/ ١٨٨ وقال الهيثمي ١٣٦٩٣: فيه زبان بن فائد، وهو ضعيف. وورد من حديث أبيّ بن كعب، أخرجه الطبراني في «الكبير» ٥٣٤ وقال الهيثمي ١٣٦٩٦: فيه أبو أمية بن يعلى، ضعيف. وورد من حديث أنس، أخرجه البيهقي ٧٩٥٧. وهناك أحاديث واهية أخرى تركتها خشية التطويل، فالحديث كما ترى يرقى بهذه الشواهد إلى درجة الحسن الصحيح؛ والله أعلم.

ـ أي هذه الوصية ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٦] وقال في هذه السورة الكريمة أيضاً: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾، فهذ الآيات الثلاث في «الأعراف»، «والمؤمنون». «وحم السجدة»، لا رابع لهن، فإنه تعالى يُرشدُ فيهنَّ إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف والتي هي أحسن، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾. ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه عنك الإحسان، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك. قال ابنُ جريرٍ في تفسير قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾: وأما يُغضِبنَّك من الشيطان غَضَب يصدُّك عن الإعراض عن الجاهلين، ويحملك على مجازاتهم، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، يقول: فاستجر بالله من نزغه، ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، يقول: إن الله الذي تستعيذ به من نزغ الشيطان ـ سميع لجهل الجاهل عليك، والاستعاذة به من نَزْغه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان. وغير ذلك من أمور خلقه.

[٣٢٤٤] وقال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝﴾، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: يا ربِّ، كيفَ بالغضب؟ فأنزل الله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾[1].

[٣٢٤٥] قلت: وقد تقدم في أول الاستعاذة حديث الرجلين الذين تسابا بحضرة النبي ـ ﷺ ـ فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزع غَضباً، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فقيل له، فقال: ما بي من جنون[2]. وأصل النزغ الفسادُ، إما بالغضب أو غيره، قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، والعياذ: الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر، وأما الملاذ ففي طلب الخير، كما قال المُتنَبّي في شعره:

يا مَنْ ألوذُ به فيما أؤمِّلُه ... وَمَنْ أعوذُ به مما أحاذِرُهُ
لا يَجْبُرُ الناس عَظماً أنت كاسرُهُ ... وَلاَ يَهيضُون عَظماً أنت جابِرُهُ

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زَجر، أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾، أي: أصابهم ﴿طَيْفٌ﴾ ـ وقرأ آخرون: ﴿طَٰٓئِفٌ﴾، وقد جاء فيه حديث، وهما قراءتان مشهورتان، فقيل: بمعنى واحد. وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهَمّ بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب. وقولُه: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾، أي: عقاب الله وجزيل ثوابه ووعده ووعيده فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب. ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه.

---

(١) معضل، ومع ذلك عبد الرحمن بن زيد متروك، فهذا واهٍ.
(٢) تقدم في أول الاستعاذة كما ذكر المصنف.

[٣٢٤٦] وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيه هاهنا حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: جاءت امرأة إلى النبي ـ ﷺ ـ وبها طَيفٌ فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يَشْفِيَني. فقال: إن شئتَ دعوتُ الله فشفاك، وإن شئتِ فاصبري ولا حسَابَ عليك. فقالت: بل أصبر، ولا حساب عليّ[1].

[٣٢٤٧] ورواه غير واحد من أهل السنن، وعندهم: قالت: يا رسول الله، إني أُصْرَعُ وأتكشَّفُ، فادع الله أن يشفيني. فقال: إن شئت دعوت الله أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة؟ فقالت: بل أصبر، ولي الجنة، ولكن ادع الله أن لا أتكشّف، فدعا لها، فكانتْ لا تتكشَّفُ[2]. وأخرجه الحاكم في مُسْتَدْركه. وقال: صحيحٌ على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وقد ذكر الحافظُ ابنُ عساكر في ترجمة عمرو بن جامع من تاريخه: أن شاباً كان يتعبد في المسجد، فَهَوِيته امرأة فدعتْهُ إلى نفسها، وما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل، فذكر هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾، فخر مَغْشِيّاً عليه، ثم أفاق فأعادها، فمات. فجاء عُمَر فعزّى فيه أباه، وكان قد دُفِن ليلاً، فذهب فصلى على قبره بمن معه، ثم ناداه عمر فقال: يا فتى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، فأجابه الفتى من داخل القبر: يا عمر، قد أعطانيهما ربي عز وجل، في الجنة مرّتين.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾، أي: وإخوان الشياطين من الإنس، كقوله: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾، أي: تساعدهم الشياطين في المعاصي، وتسهلها عليهم وتحسنها لهم. وقال ابن كثير: المد الزيادة. يعني: يزيدونهم في الغي، يعني: الجهل والسفه. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾، قيل معناه: إن الشياطين تَمُدّ، والإنس لا تُقْصِرُ في أعمالهم بذلك. كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾... الآية، قال: لا الإنس يُقصِرُون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تمسك عنهم. وقيل: معناه كما رواه العَوْفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾، قال: هم الجن، يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾، يقول: لا يسأمون. وكذا قال السدّيُّ وغيره: يعني أن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم في الشر؛ لأن ذلك طبيعة لهم وسجية ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾، لا تفتر فيه ولا تَبْطُل عنه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣]، قال ابن عباس وغيره: تُزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

قال علي بن أبي طَلحة، عن ابن عَبّاسٍ في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾، يقول: لولا تَلَقَّيتها. وقال مرة أخرى: لولا أحدثْتها فأنشأتها. وقال ابن جرير، عن عبد الله بن كَثِير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا

(١) حديث حسن لأجل محمد بن عمرو، وانظر ما بعده.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٢/ ٤٤١ والحاكم ٤/ ٢١٨ وابن حبان ٢٩٠٩ وإسناده حسن من أجل محمد بن عمرو، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢/ ٣٠٧ وقال: رواه البزار، وإسناده حسن.

لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾، قال: لولا اقتضبتَها، قالوا: تخرجها من نفسك. وكذا قال قتادة، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير. وقال العَوفيُّ، عن ابن عبَّاس: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾، يقول: تَلَقَّيتَها من الله تعالى. وقال الضحّاك: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾، يقول: لولا أخذتها أنت فجئتَ بها من السماء. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾، أي: معجزةٍ وخارقٍ، كما قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤﴾ [الشعراء: ٤]، يقولون للرسول ـ ﷺ ـ ألاَ تجهد نفسك في تَطَلُّب الآيات من الله حتى نراها ونؤمنَ بها؟ قال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾، أي: أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبعُ ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إليّ فإن بعث آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداءً إياها؛ إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم. ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبيانات، فقال: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤﴾

لما ذكر تعالى أنّ القرآن بصائرُ للناس وهُدىً ورحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان يتعمدُه كفار قريش المشركون في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] الآية... ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة.

[٣٢٤٨] كما ورد الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنما جُعِل الإمامُ ليؤتَمّ به، فإذا كَبَّرَ فكبِّروا، وإذا قرأ فأنصتوا»[1]. وكذلك رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة، وصححه مسلم بن الحجاج أيضاً، ولم يخرجه في كتابه.

[٣٢٤٩] وقال إبراهيم بن مسلم الهجري، عن أبي عياض، عن أبي هريرة قال: كانوا يتكلّمون في الصَّلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾، والآية الأخرى، أمروا بالإنصات[2].

[٣٢٥٠] وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم، عن المسيب بن رافع، قال ابن مسعود: كنا يُسَلِّم بعضنا على بعض في الصلاة، فجاء القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[3].

[٣٢٥١] وقال أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا المحاربي، عن داودَ بن أبي هند، عن بَشِيرُ بن جابر قال: صلّى ابن مسعود، فسمع ناساً يقرؤون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما آن لكم أن تَفْهَمُوا؟ أما آن لكم أن تعقلوا؟ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾، كما أمركم الله[4].

[٣٢٥٢] قال: وحدثني أبو السائب، حدثنا حفص، عن أشعثَ، عن الزُهري قال: نزلت هذه الآيةُ في فَتىً من الأنصار، كان رسول الله ـ ﷺ ـ كلما قرأ شيئاً قرأه، فنزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾[5].

---

(١) تقدم في سورة الفاتحة (المقدمة).

(٢) أخرجه الطبري ١٥٥٩٣ وإسناده غير قوي لأجل إبراهيم الهجري، لكن يتأيد بما بعده.

(٣) أخرجه الطبري ١٥٥٩٢ وإسناده ضعيف لانقطاعه بين المسيب وابن مسعود. وانظر حديث زيد بن أرقم عند البخاري ٤٥٣٤ ومسلم ٥٣٩، وحديث ابن مسعود عند البخاري ١١٩٩ ومسلم ٥٣٨ أيضاً.

(٤) موقوف. أخرجه الطبري ١٥٥٩٥.

(٥) أخرجه الطبري ١٥٥٩٤ والواحدي ٤٦٥ عن الزهري مرسلاً، وورد بنحوه أحاديث كثيرة بعضها مرسل وبعضها موصول.

[٣٢٥٣] وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث الزهري، عن ابن أكيمة الليثي، عن أبي هُرَيرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ انصرف من صلاة جَهَر فيها بالقراءة، فقال: هل قرأ أحد منكم معي آنفاً؟ قال رجل: نعم يا رسول الله. فقال: إني أقول: ما لي أنازَع القرآنَ؟! قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ـ ﷺ ـ فيما جهر فيه رسولُ الله ـ ﷺ ـ بالقراءة من الصلوات، حين سَمِعوا ذلك من رسول الله، ﷺ[1].

وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وصححه أبو حاتم الرازي. وقال عبد الله بن المبارك، عن يونس عن الزهري، قال: لا يقرأ مَنْ وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يُسمعهم صوته، ولكنهم يقرؤون فيما لا يجهر به سراً في أنفسهم، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سراً ولا علانية، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. قلت: هذا مذهب طائفة من العلماء: أن المأمومَ لا يَجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها، وهو أحد قولي الشافعي، وهو القديم كمذهب مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة. وقال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية.

[٣٢٥٤] لما ورد في الحديث: «من كان له إمام فقراءته له قراءة»[2]. وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعاً، وهو في موطأ مالك عن وهب بن كيسان، عن جابر موقوفاً، وهذا أصح. وهذه المسألةُ مبسوطةٌ في غير هذا الموضع، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفاً على حدة، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضاً، والله أعلم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾، يعني: في الصلاة المفروضة. وكذا روي عن عبد الله بن المُغَفَّل. وقال ابن جَرير: حدثنا حميد بن مَسْعَدة، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا الجُريريّ، عن طلحة بن عبيد الله بن كَريز قال: رَأيت عُبَيد بن عُمَير وعطاء بن أبي رباح يتحدّثان، والقاصُّ يقصُّ، فقلت: ألا تسمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود؟ قال: فنظرا إليَّ، ثم أقبلا على حديثهما. قال: فأعدتُ، فنظرا إليّ، وأقبلا على حديثهما. قال: فأعدت الثالثة، قال: فنظرا إليّ فقالا: إنما ذلك في الصلاة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾. وقال سفيانُ الثوريُّ: عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾، قال: في الصلاة. وكذا رواه غيرُ واحد عن مجاهد. وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن ليث، عن مجاهد قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم. وكذا قال سعيد بن جُبَير، والضحاك، وإبراهيم النَّخَعِيُّ، وقتادةُ، والشعبي، والسّديُّ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بذلك في الصلاة.

وقال شعبة، عن منصور، سمعت إبراهيم بن أبي حُرّة يحدِّث أنه سَمع مجاهداً يقول في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾، قال: في الصلاة والخطبة يوم الجمعة. وكذا رَوى ابنُ جُرَيج، عن عطاء، مثله. وقال هشيم، عن الربيع بن صُبَيح، عن الحسن قال: في الصلاة وعند الذكر. وقال ابن

---

(١) جيد. أخرجه البخاري في «القراءة خلف الإمام» ٩٦ وأبو داود ٨٢٦ والترمذي ٣١٢ والنسائي ٢/ ١٤٠ و١٤١ وابن ماجه ٨٤٩ وأحمد ٢/ ٢٨٤ وابن حبان ١٨٤٩ من طرق عن الزهري به، وإسناده جيد.

(٢) غير قوي. وقد تقدم في سورة الفاتحة وفي المقدمة.

المبارك، عن بقية: سمعت ثابت بن عجلان يقول: سمعت سعيد بن جُبَير يقول في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾، قال: الإنصات يوم الأضحى، ويوم الفطر، ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة. وهذا اختيار ابن جرير أن المراد بذلك الإنصات في الصلاة وفي الخطبة، لما جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة. وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن ليث، عن مجاهد أنه كره إذا مر الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئاً، قال: السكوت. وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: إذا جلست إلى القرآن فأنصت له.

[٣٢٥٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عَبّاد بن مَيْسَرَة، عن الحسن، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله، كتبت له حَسَنَةٌ مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة»(١). تفرد به أحمد، رحمه الله.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾. وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلواتُ الخمسُ ليلةَ الإسراءِ، وهذه الآية مكية. وقال هاهنا: ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ وهو أوائل النهار، ﴿وَٱلْـَٔاصَالِ﴾: جمع أصيل، كما أن الأيمان جمع يمين. وأما قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، أي: اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة، وبالقول لا جهراً، ولهذا قال: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾. وهكذا يُستحبّ أن يكون الذكر، لا يكون نداء وجهراً بليغاً؛ ولهذا لما سألوا رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا: أقريب ربنا فنناجِيَه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

[٣٢٥٦] وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار فقال لهم النبي ـ ﷺ ـ «أيها الناس، أربعُوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»(٢). وقد يكون المرادُ من هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبُّوه، وسبوا من أنزله ومن جاء به؛ فأمره الله تعالى ألاّ يجهر به، لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يُسْمعهم، وليتخذْ سبيلاً بين الجهر والإسرار. وكذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾. وقد زعم ابن جرير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله: أن المراد بهذه الآية أمْرُ السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة. وهذا بعيد مناف للإنصات المأمور به،

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٢/ ٣٤١ ح ٨٢٨٩ والبغوي في «التفسير» ١٧. قال الهيثمي في «المجمع» ١١٦٥٠: فيه عباد بن ميسرة، ضعفه أحمد وغيره، ووثقه يحيى في رواية وضعفه في أخرى. ووثقه ابن حبان اهـ والعجب فإن له علة قادحة لم يذكرها الهيثمي، وهي الانقطاع، الحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة، وقد أجاد الحافظ العراقي إذ قال في «الإحياء» ١/ ٢٨٠: فيه ضعف وانقطاع.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٨٦.

ثم المراد بذلك في الصلاة، كما تقدم، أو الصلاة والخطبة، ومعلوم أن الإنصاتَ إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان، سواء كان سراً أو جهراً. فهذا الذي قالاه لم يُتَابَعَا عليه، بل المراد الحضُّ على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكون من الغافلين. ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾. . . الآية. وإنما ذكرهم بهذا لِيُتَشَبَّه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم. ولهذا شرع لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله ـ عزّ وجلّ ـ.

[٣٢٥٧] كما جاء في الحديث: «ألا تَصُفّون كما تَصُفُّ الملائكةُ عند ربها، يُتِمُّونَ الصفوفَ الأوَل، ويتراصُّون في الصَّفّ»[١]. وهذه أول سجدة في القرآن، مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع.

[٣٢٥٨] وقد وَرَد في حديث رواه ابن ماجه، عن أبي الدرداء، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه عَدّها في سجدات القرآن[٢].

* * *

آخر تفسير سورة الأعراف، ولله الحمد والمنة

(١) يأتي في أول سورة الصافات إن شاء الله تعالى.

(٢) أخرجه ابن ماجه ١٠٥٦ وقال البوصيري في «الزوائد»: في إسناده عثمان بن فائد، وهو ضعيف.



وهي مدنية؛ آياتها ست وسبعون آية. كلماتُها ألف كلمةٍ، وستمئة كلمةٍ، وإحدى وثلاثون كلمةً. حروفُها خمسة آلاف ومئتان، وأربعة وتسعون حَرْفاً، والله أعلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾

قال البخاري: قال ابن عباس: الأنفال الغنائم: حدثنا مُحمَّد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان. حدثنا هُشَيم، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جُبَير قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر. أما ما عَلَّقه عن ابن عباس فكذلك رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: «الأنفال» الغنائم، كانت لرسول الله ـ ﷺ ـ خالصةً، ليس لأحد منها شيء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقتادةُ، وعطاء الخراسانيُّ، ومقاتل بن حَيّان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد أنها المغانم. وقال الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه قال: «الأنفال»: الغنائم، قال فيها لَبِيدٌ:

إنّ تَـقْـوَى رَبّـنـا خَـيـرُ نَـفَـلْ ... وَبِـإذْنِ الله رَيْـثِـي وَعَـجَـلْ

وقال ابن جرير: حَدَّثني يونُسُ، أخبرنا ابن وَهْب، أخبرني مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن القاسم بن محمد قال: سمعتُ رَجُلاً يسأل ابنَ عَبّاسٍ عن الأنفال، فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الفرس من النَّفَل، والسلب من النفل. ثم عاد لِمَسْألته، فقال ابنُ عباس ذلك أيضاً. ثم قال الرجل: الأنفال التي قال الله في كتابه، ما هي؟ قال القاسم: فلم يزل يسأله حتى كاد يُحرِجُه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مَثَلُ هذا؟ مثلُ صَبِيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب. وقال عبد الرزّاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزُّهريّ، عن القاسم بن محمد قالَ: قال ابن عباس: كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذا سُئِلَ عن شيء قال: لا آمرك ولا أنهاك، ثم قال ابن عباس: والله ما بعث الله نبيه ـ ﷺ ـ إلا زاجراً آمراً مُحلاً محرماً. قال القاسم: فَسُلِّط على ابن عباس رجلٌ يسأله عن الأنفال، فقال ابن عباس: كان الرجل يُنَفَّل فرس الرجل وسلاحه، فأعاد عليه الرجل، فقال له مثل ذلك، ثم أعاد عليه حتى أغضبه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مَثَل هذا؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب، حتى سالت الدماء على عقبيه ـ أو على: رجليه ـ فقال الرجل: أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس: أنه فَسّر النَّفَل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سَلَب أو نحوه بعد قَسْم أصل المغنم، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النَفَل، والله أعلم.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: إنهم سألوا رسول الله ـ ﷺ ـ عن الخُمس بعد الأربعة الأخماس،

فنزلت: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾. وقال ابن مسعود ومسروق: لا نَفَل يوم الزحف، إنما النفل قبل التقاء الصفوف. رواه ابن أبي حاتم عنهما. وقال ابن المبارك وغير واحد، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾، قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع، فهو نفل للنبي - ﷺ - يصنع به ما يشاء. وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال. وقال ابن جرير: وقال آخرون: هي أنفال السرايا. حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا علي بن صالح بن حَيٍّ قال: بلغني في قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾، قال: السرايا. ويعني هذا ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة على قَسْمهم مع بقية الجيش، وقد صرّح بذلك الشعبيُّ، واختار ابنُ جرير أنها الزيادات على القَسْمِ، ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية:

[٣٢٥٩] وهو ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا أبو إسحاق الشيباني، عن محمد بن عُبَيد الله الثقفي، عن سعد بن أبي وقاص وقال: لما كان يومُ بدرٍ، وقُتِل أخي عُمير، وقَتَلْتُ سعيدَ بن العاص وأخذتُ سيفَه، وكان يسمّى ذا الكَتِيفَةِ، فأتيت به نبي الله - ﷺ - فقال: «اذهب فاطرحه في القَبَضِ». قال: فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي، قال: فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلَتْ سورةُ الأنفال، فقال لي رسول الله - ﷺ -: «اذهَبْ فَخُذْ سيفَكَ»[١].

[٣٢٦٠] وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حَدَّثنا أسودُ بن عامر، أخبرنا أبو بكر، عن عاصم بن أبي النَّجُودِ، عن مُصعَب بن سعد، عن سعد بن مالك قال: قلت: يا رسولَ الله، قد شفاني الله اليومَ من المشركين، فَهَبْ لي هذا السيفَ، فقال: إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضَعْه. قال: فوضعتُه. ثم رجعتُ قلت: عسى أن يُعطِيَ هذا السيفَ اليوم من لا يُبْلِي بلائي!. قال: إذا رجلٌ يدعوني من ورائي، قال: قلت: قد أنزل الله فيَّ شيئاً؟ قال: كنت سألتني السيف، وليس هو لي وإنه قد وهب لي، فهو لك. قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[٢]. ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن أبي بكر بن عياش، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

[٣٢٦١] وهكذا رواه أبو داود الطيالسي: أخبرنا شعبة، أخبرنا سِماك بن حَرْب، قال: سمعتُ مُصعَبَ بن سَعْدٍ، يُحَدِّث عن سعد قال: نزلَتْ فيَّ أربعُ آيات: أصبت سيفاً يوم بدر، فأتيت النبي - ﷺ - فقلت: نَفِّلْنِيهِ. فقال: ضَعْهُ من حيث أخذته، مرتين، ثم عاودته فقال النبي - ﷺ -: ضعه من حيث أخذته. فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾. وتمام الحديث في نزول: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: ٩٠]، وآية الوصية[٣]. وقد رواه مسلم في صحيحه، من حديث شعبة، به.

[٣٢٦٢] وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أُسَيد مالك بن ربيعة يقول: أَصَبْتُ سيفَ ابن عائذ يوم بدر، وكان السيف يدعى بالمرزبان، فلما أمر رسولُ

---

(١) صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٣٧٠ وسعيد بن منصور ٢٦٨٩ وأحمد ١/ ١٨٠ والطبري ١٥٦٧١ والواحدي ٤٦٨ من طرق عن أبي إسحاق الشيباني به. ورجاله ثقات، وانظر ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ٢٧٤٠ والترمذي ٣٠٧٩ والنسائي في «التفسير» ٢١٦ وأحمد ١/ ١٧٨ و١٨١ و١٨٥ من طرق عن أبي بكر بن عياش به.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٤٨ والطيالسي ٢٠٨.

الله - ﷺ - الناسَ أن يَرُدُّوا ما في أيديهم من النَّفَلِ، أقبلتُ به فألقيته في النَّفل، وكان رسول الله - ﷺ - لا يمنع شيئاً يُسأله، فرآه الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، فسأله رسولَ الله - ﷺ - فأعطاه إياه[(١)]. ورواه ابن جرير من وجه آخر.

سبب آخر في نزول الآية:

[٣٢٦٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن سلمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الرحمن، عن سليمان بن موسى، عن مكحول، عن أبي أمامة قال: سألت عُبادة عن الأنفال، فقال: فينا - أصحابَ بدرٍ - نَزَلَتْ، حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله - ﷺ - فقسمه رسول الله - ﷺ - بين المسلمين عن بَوَاءٍ. يقول: عن سواء[(٢)].

[٣٢٦٤] وقال أحمد أيضاً: حدثنا معاوية بن عمرو، أخبرنا أبو إسحاق، عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، عن سليمان بن موسى، عن أبي سلام، عن أبي أمامة، عن عُبادَةَ بن الصَّامِت قال: خرجنا مع النبي - ﷺ - فَشهِدْتُ معه بَدْراً، فالتقى الناس، فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون. وأكبَّت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه. وأحدقت طائفة برسول الله - ﷺ - لا يصيب العدو منه غرة. حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها، فليس لأحد فيها نصيب. وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن نفَينا عنها العدو وهزمناهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله - ﷺ -: لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله - ﷺ - وخفنا أن يصيب العدو منه غرة، فاشتغلنا به. فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، فقسمها رسول الله - ﷺ - بين المسلمين. وكان رسول الله - ﷺ - إذا أغار في أرض العدو نفل الربع، فإذا أقبل وكل الناس راجعاً، نفل الثلث، وكان يكره الأنفال ويقول: «ليرد قويُّ المؤمنين على ضَعِيفهم»[(٣)]. ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن الحارث به نحوه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. ورواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه من حديث عبد الرحمن بن الحارث، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه.

[٣٢٦٥] وروى أبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن مَرْدُويه - واللفظ له - وابن حبان، والحاكم من طرق، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما كان يومُ بدرٍ قال رسولُ الله - ﷺ -: «من صَنَعَ كذا وكذا فله كذا وكذا»، فتسارع في ذلك شبانُ الرجالِ وبقي الشيوخُ تحت الرايات، فلما كانت المغانم، جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا؛ فإنا كنا رِدْءاً لكم لو انكشفتم لَفِئتم

---

(١) أخرجه الطبري ١٥٦٧٢ من طريق محمد بن إسحاق به، وفي الإسناد جهالة «عن بعض بني ساعدة».

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٩٣٣٤ وأحمد ٥/ ٣١٩ و٣٢٢ - ٣٢٣ والدارمي ٢/ ٢٢٩ و٢٣٠ والحاكم ٢/ ١٣٦ و٣٢٦ والطبري ١٥٦٦٧ والبيهقي ٦/ ٢٩٢ من طرق عن عبد الرحمن بن الحارث به، وإسناده لا بأس به.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٣٢٣ - ٣٢٤ والحاكم ٢/ ١٣٥ وابن حبان ٤٨٥٧ والبيهقي ٦/ ٢٩٢ وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، مع أن في إسناده عبد الرحمن بن الحارث، وهو صدوق له أوهام وسليمان بن موسى، وهو صدوق في حديثه لين كما في «التقريب». والحديث أخرجه الترمذي ١٥٦١ وابن ماجه ٢٨٥٢ وأحمد ٥/ ٣١٨ من طرق عن عبد الرحمن بن الحارث باختصار شديد وقال الترمذي: حديث حسن.

إلينا. فتنازعوا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١].

[٣٢٦٦] وقال الثوريُّ، عن الكلبيِّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: «لما كان يوم بدر قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من قَتَل قتيلاً فله كذا وكذا، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا». فجاء أبو اليَسَرِ بأسيرين، فقال: يا رسول الله صلى الله عليك أنت وعدتنا. فقام سعدُ بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن أعطيتَ هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر، ولا جُبْنٌ عن العدوّ، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك، نخافُ أن يأتوك من ورائك. فتشاجروا، ونزل القرآنُ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، قال: ونزل القرآنُ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١][٢] إلى آخر الآية. وقال الإمام أبو عُبَيد القاسم بن سلام ـ رحمه الله ـ في كتاب «الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصاريفها»: أما الأنفال فهي المغانم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهلِ الحرب. فكانت الأنفالُ الأولى إلى النبي ـ ﷺ ـ، يقول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، فقسَّمها يوم بدر على ما أراده الله من غير أن يخمسها على ما ذكرناه في حديث سعد. ثم نزل بعد ذلك آية الخمس، فنسخت الأولى. قلت: هكذا روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، سواء. وبه قال مجاهد، وعكرمة، والسدي. وقال ابن زيد: ليست منسوخة بل هي محكمة. قال أبو عبيد: وفي ذلك آثار. . . والأنفالُ أصلُها جماعُ الغنائم، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب، وجرت به السنة. ومعنى الأنفال في كلام العرب: كلُّ إحسانٍ فَعَلَه فاعِلٌ تفضلاً من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النَفلُ الذي أحلَّه الله للمؤمنين من أموال عَدُوِّهم، وإنما هو شيءٌ خصَّهم الله به تطولاً منه عليهم، بعد أن كانت المغانم مُحَرَّمَةً على الأمم قبلهم، فَنَفَّلها الله تعالى هذه الأمة، فهذا أصل النفل.

[٣٢٦٧] قلت: شاهد هذا في الصحيحين عن جابر: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أعطيت خمساً لم يُعطهُنَّ أحد قبلي. . فذكر الحديث إلى أن قال: وأُحلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي»[٣]، وذكر تمام الحديث. ثم قال أبو عبيد: ولهذا سُمِّي ما جعل الإمامُ للمقاتلة نَفَلاً، وهو تفضيلُه بعضَ الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم، يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والنِّكاية في العدوِّ. وفي النفل الذي ينفله الإمام سننٌ أربع، لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى: فإحداهن في النفل لا خمس فيه. وذلك السلب. والثانية في النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس. وهو أن يُوَجِّه الإمامُ السرايا في أرض الحرب، فتأتي بالغنائم، فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس. والثالثة في النفل من الخمس نفسه. وهو أن تُحازَ الغنيمةُ كلُّها، ثم تُخَمَّس، فإذا صار الخمس في يدي الإمام، نَفَّل منه على قدر ما يرى. والرابعة في النَّفَل في جُمْلَةِ الغنيمة قبل أن يخمَّس منها شيءٌ، وهو أن يعطي الأدلاء ورعاة الماشية والسوّاق لها، وفي كل ذلك اختلاف.

قال الربيع: قال الشافعي: الأنفال ألاّ يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السَّلَب قال أبو

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٧٣٧ و ٢٧٣٨ و٢٧٣٩ والنسائي في «التفسير» ٢١٧ والحاكم ٢/ ١٣١ ـ ١٣٢ وابن حبان ٥٠٩٣ والطبري ١٥٦٦٢ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) الحديث أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ٩٨٨ وفي «المصنف» ٩٤٨٣ وفي إسناده الكلبي محمد بن السائب وهو متروك الحديث متهم، وأبو صالح لم يلق ابن عباس، فالخبر واه بمرة، لكن صدر الحديث صحيح له شواهد.

(٣) تقدم في سورة النساء عند آية: ٤٣.

عُبَيد: والوجه الثاني من النفل هو شيء زيدُوه غير الذي كان لهم، وذلك من خمس النبي ـ ﷺ ـ فإنَ له خمس الخمس من كل غنيمة، فينبغي للإمام أن يجتهد، فإذا كثر العدوّ واشتدت شوكتهم، وقل من بإزائه من المسلمين، نَفَّلَ منه اتباعاً لسنة رسول الله ـ ﷺ ـ وإذا لم يكن ذلك لم يُنَفِّل. والوجه الثالث من النفل: إذا بعث الإمام سريةً أو جيشاً، فقال لهم قبل اللقاء: من غنم شيئاً فله بعد الخمس. فذلك لهم على ما شرط الإمام؛ لأنهم على ذلك غَزَوا، وبه رَضُوا. انتهى كلامه. وفيما تقدم من كلامه وهو قوله: إن غنائم بدر لم تُخَمَّس نظر، ويرد عليه حديثُ علي بن أبي طالب في شارِفَيهِ[1] اللذين حصلا له من الخمس يوم بدر، وقد بَيَّنتُ ذلك في كتاب السيرة، بياناً شافياً. ولله الحمدُ والمنة. وقولُه تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، أي: اتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، أي: في قَسْمِه بينكم على ما أراه الله، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف. وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم. وكذا قال مجاهد. وقال السديّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، أي: لا تستبُّوا.

[٣٢٦٨] ونذكر هاهنا حديثاً أورده الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي ـ رحمه الله ـ في مسنده فإنه قال: حدثنا مجاهد بن موسى، حدثنا عبد الله بن بكر، حدثنا عَبّاد بنِ شَيْبَةَ الحَبَطِيّ، عن سعيد بن أنس، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: بينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ جالسٌ، إذ رأيناه ضَحِكَ حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما أضحكك ـ يا رسول الله ـ بأبي أنت وأمي؟ فقال: رجلان جَثَيا من أمتي بين يدي رَبِّ العزة تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يا ربِّ خُذ لي مظلمتي من أخي. قال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته. قال: يا ربِّ، لم يبق من حسناتي شيءٌ. قال: رَبِّ، فليحمل عني من أوزاري ـ قال: وفاضت عينا رسولِ الله ـ ﷺ ـ بالبكاء، ثم قال: إن ذلك ليومٌ عظيمٌ، يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم ـ فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك فانظر في الجنان، فرفع رأسه فقال: يا ربِّ، أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللةً باللؤلؤ، لأيّ نبيٍّ هذا؟ لأيّ صدِّيقٍ هذا؟ لأيّ شهيدٍ هذا؟ قال: هذا لمن أعطى الثمن؟ قال: يا رب، ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكُه. قال: ماذا يا رب؟ قال: تعفُو عن أخيك. قال: يا ربِّ، فإني قد عفوت عنه. قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فأدخله الجنة. ثم قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة»[2].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، قال:

---

(١) الشارف من النوق: المسنّة الهرمة.

(٢) أخرجه الحاكم ٤/٥٧٦ ح ٦٧١٨ ونسبه السيوطي في الدر ٣/٢٩٦ لأبي يعلى، ولعله في الكبير. حيث لم أجده في الصغير ولا المجمع، والحديث صححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: عباد بن شيبة ضعيف، وشيخه لا يُعرف. وذكره الذهبي في الميزان ٣١٤٠ سعيد بن أنس، وقال: قال البخاري: لا يتابع على حديثه اهـ فالخبر واهٍ.

المنافقون لا يدخل قلوبَهم شيءٌ من ذكر الله عند أداءِ فرائِضِهِ، ولا يؤمنون بشيءٍ من آيات الله، ولا يتوكَّلون، ولا يُصلُّون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم. فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف الله المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، فأدوا فرائضه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، يقول: تصديقاً، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، يقول: لا يرجون غيره. وقال مجاهد: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، فرقت. أي: فزعت وخافت. وكذا قال السدّيُ وغير واحد. وهذه صفةُ المؤمن حقّ المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعَلَ أوامره، وترَكَ زواجره، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥]. وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤١]. ولهذا قال سفيان الثوري: سمعت السدّي يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، قال: هو الرجل يريد أن يظلم ـ أو قال: يَهُمُّ بمَعصِيةٍ ـ فيقال له: اتق الله. فَيجِلُ قلبه. وقال الثوريُّ أيضاً، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن شهر بن حَوْشَب، عن أم الدرداء في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، قالت: الوجل في القلب كاحتراق السَّعَفةِ[1]، أما تَجدُ لها قشعريرة؟ قال: بلى. قالت لي: إذا وجدت ذلك فادعُ الله عند ذلك، فإن الدُّعاء يُذهبُ ذلك. وقولُه: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، كقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤]. وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها، على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة، كالشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي عُبَيد كما بينا ذلك مستقصى في أول شرح البخاري، ولله الحمد والمنة. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجانبه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب. ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان. وقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾، ينبه تعالى بذلك على أعمالهم، بعد ما ذكر اعتقادهم. وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة، وهو حق الله تعالى. وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها، وسجودها. وقال مقاتل بن حيان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ـ ﷺ ـ هذا إقامتها. والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه. قال قتادةُ في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما هذه الأموال عَواريُّ وودائع عندك يا بن آدم أوشكت أن تفارقها.

وقولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان.

[٣٢٦٩] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا أبو كريب، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا ابن لهيعة، عن خالد بن يزيد السَّكْسَكي، عن سعيد بن أبي هلال، عن محمد بن أبي الجهم، عن الحارث بن مالك الأنصاري: أنه مَرَّ برسول الله ـ ﷺ ـ فقال له: كيف أصبحت يا

(١) السعف: جريد النخل، أو ورقه.

حارث؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً. قال: انظر ما تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقةُ إيمانك؟ فقال: عَزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي، وأظمأتُ نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغَون فيها. فقال: يا حارثُ، عرفت فالزم، ثلاثاً[(١)].

وقال عمرو بن مُرّة في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، إنما أُنزِلَ القرآن بلسان العرب، كقولك: فلان سيد حقاً، وفي القوم سادة. وفلان تاجر حقاً، وفي القوم تجار. وفلان شاعر حقاً، وفي القوم شعراء.

وقولُه: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، أي: منازل ومقامات ودرجات في الجنات، كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران: ١٦٣]. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾، أي: يغفر لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات. وقال الضحاك في قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفلُ أنه فُضّل عليه أحد.

[٣٢٧٠] ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن أهل عِلّيين ليراهم من أسفلَ منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء. قالوا: يا رسولَ الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم؟ فقال: بلى، والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله وصَدَّقوا المرسلين»[(٢)].

[٣٢٧١] وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العُلَى كما تَرَون الكوكب الغابر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنْعَمَا»[(٣)].

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ

---

(١) أخرجه الطبراني ٣٣٦٧ والبيهقي في «الشعب» ١٠٥٩١. قال الهيثمي في «المجمع» ١/ ٥٧ ح ١٨٩: فيه ابن لهيعة، ومن يحتاج إلى الكشف عنه اهـ فيه غير واحد من المجهولين. وورد من طريق آخر. أخرجه البيهقي في «الزهد» ٩٧٣ وفي إسناده يزيد بن محمد بن سنان، ضعفه ابن معين وأحمد وعلي المديني، وتركه النسائي، وقال البخاري: مقارب الحديث، وفيه عبد الأكرم مجهول. وورد من حديث أنس أخرجه البيهقي في «الشعب» ١٠٥٩٠ والبزار ٣٢، وأعله الهيثمي بيوسف بن عطية، وقال: لا يحتج به. وقال عنه في الميزان ٩٨٧٧: مجمع على ضعفه، وقال النسائي: متروك. وقال يحيى: ليس بشيء. ثم ذكر الذهبي له مناكير وعدّ هذا منها. وورد مرسلاً أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٤٣ وفي «الإيمان» ص ٤٣ عن مالك بن مغول عن زبيد، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» ٣١٤، والبيهقي ١٠٥٩٢ عن صالح بن مسمار مرسلاً، وأخرجه عبد الرزاق ١١/ ١٢٩ عن معمر عن صالح بن مسمار وجعفر بن برقان مرسلاً، وأخرجه في «التفسير» كما في الإصابة ١/ ٢٨٩/ ١٤٧٨ عن الثوري عن عمرو بن قيس الملائي عن يزيد السلمي. وأخرجه أبو عاصم في كتاب «الاستقامة» عن مالك بن مغول عن فضيل بن غزوان وذكر ابن حجر كلاماً حوله، وسكت على المراسيل وضعف الأحاديث الموصولة، فقال عن حديث أنس فيه عطية الصفار، وهو ضعيف جداً وختم كلامه بقوله: لا يثبت موصولاً. وقال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ٢٢٠ عن حديث أنس والحارث: كلا الحديثين ضعيف. اهـ.
الخلاصة: ورد مرفوعاً من طريقين وكلاهما واهٍ. وورد مرسلاً من وجوه واختلاف مخارجه يشعر بأن له أصلاً، وأنه حديث ليس بشديد الضعف.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٥٦ ومسلم ٢٨٣١ وابن حبان ٧٣٩٣ من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) ضعيف. أخرجه أبو داود ٣٩٨٧ والترمذي ٣٦٥٨ وابن ماجه ٩٦ وأحمد ٣/ ٢٧ و٥٠ وأبو يعلى ١١٣٠ من طرق عن عطية العوفي به، وإسناده ضعيف، لضعف عطية.

أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾

قال الإمام أبو جعفر الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾، فقال بعضهم: شُبّه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربَّهم، وإصلاحُهم ذاتَ بَينِهم، وطَاعتُهم الله ورسوله. ثم روى عن عكرمة نحو هذا. ومعنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم وجعلها إلى قَسْمه وقَسْم رَسُوله ـ ﷺ ـ فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم. وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة ـ وهم النفيرُ الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز عِيرهم ـ فكان عاقبة كراهتكم للقتال ـ بأن قدّره لكم، وجَمَع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد ـ رَشَداً وهدى، ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]. قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم كارهون للقتال فهم يجادِلُونَكَ فيه بعد ما تَبَيَّن لهم. ثم رَوَى نحوه عن مجاهد أنه قال: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾، قال: كذلك يجادلونك في الحق. وقال السدّيُّ: أنزل الله في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾﴾، لطلب المشركين ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾. وقال بعضُهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة، كما جادلوك يوم بدر فقالوا: أخرجتنا للعير، ولم تعلمنا قتالاً فنستعدَّ له.

قلت: رسولُ الله ـ ﷺ ـ إنما خَرَج من المدينة طالباً لعير أبي سفيان، التي بلغه خَبَرُها أنها صادرةٌ من الشام، فيها أموال جزيلة لقريش، فاستنهض رسولُ الله ـ ﷺ ـ المسلمين من خَفَّ منهم، فخرج في ثلاثمئة وبضعة عَشَرَ رجلاً، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ـ ﷺ ـ في طلبه، فبعث ضَمْضَم بن عمرو نذيراً إلى أهل مكة، فنهضوا في قريب من ألف مُقَنَّع ما بين التسعمئة إلى الألف، وتيامن أبو سفيان بالعير إلى سِيفِ البحر فنجا، وجاء النفير فوردوا ماء بدر، وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم، والتفرقة بين الحق والباطل، كما سيأتي بيانُه. والغرض أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ لما بلغه خروجُ النَّفِير، أوحى الله إليه يَعِدُه إحدى الطائفتين: إما العيرُ وإما النَّفيرُ، ورَغِب كثير من المسلمين إلى العير، لأنه كسبٌ بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

[٣٢٧٢] قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره: حدثنا سليمان بن أحمد الطبراني، حدثنا بكر ابن سهل، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا ابن لَهيعة؛ عن يزيد بن أبي حبيب، عن أسلم أبي عمران، حدّثه أنه سَمِع أبا أيوب الأنصاري يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ ونحن بالمدينة: «إني أخبِرتُ عن عِير أبي سفيان أنها مقبلةٌ؛ فهل لكم أن نخرُجَ قبلَ هذه العير لعلَّ الله يُغْنِمُنَاهَا؟ فقلنا: نعم. فخرج وخرجنا، فلما سِرْنا يوماً أو يومين قال لنا: ما ترون في قتال القوم؛ فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟ فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال العدو؛ ولكنا أردنا العير. ثم قال: ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد ابن عَمْرو: إذاً لا نقول

لك، يا رسول الله، كما قال قومُ موسى لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. قال: فتمنينا ـ معشرَ الأنصار ـ أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم. قال: فأنزل الله على رسوله ـ ﷺ ـ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾[1] . . . وذكر تمام الحديث. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث ابن لَهيعة، بنحوه.

[٣٢٧٣] وروى ابن مَرْدُويه أيضاً من حديث محمد بن عمرو بن علقمَةَ بن وَقَّاص اللَّيْثِيِّ، عن أبيه، عن جَدِّه قال: خرج رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى بدر، حتى إذا كان بالروحاء ـ خطب الناس ـ فقال: كيف تَرونَ؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا، قال: ثم خَطَب الناس فقال: كيف تَرَونَ؟ فقال عُمَر مثل قولِ أبي بكر، ثم خَطَبَ الناسَ فقال: كيف تَرَونَ؟ فقال سعدُ بن معاذ: يا رسولَ الله، إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب، ما سلكتُها قَط ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي «بِرْك الغُماد» من ذي يَمَنٍ لنسيرنَّ معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنا معكم متبعون. ولعلك أن تكون خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك، فامض له، فَصِلْ حِبالَ من شِئْتَ، واقطع حِبالَ من شِئْتَ، وعادِ من شِئْتَ، وسالِمْ من شئت، وخُذْ من أموالنا ما شِئْتَ. فنزل القرآن على قول سعد: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ . . . الآيات[2].

[٣٢٧٤] وقال العوفي، عن ابن عباس: لما شاور النبي ـ ﷺ ـ في لقاء العدو، وقال له سعد بن عُبادة ما قال، وذلك يوم بدر، أمر الناس فتعبؤوا للقتال، وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان، فأنزل الله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾[3].

وقال مجاهد: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾: في القتال. وقال محمد بن إسحاق: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ أي: كراهية للقاء المشركين، وإنكاراً لِمَسير قريش حين ذكروا لهم. قال السدِّيُّ: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾، أي بعدَ ما تبيَّن لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به. قال ابن جَرير: وقال آخرون: عَنَى بذلك المشركين. حدثني يُونُسُ، أنبأنا ابنُ وهب قال: قال ابنُ زيد في قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾، قال: هؤلاء المشركون، جادلوه في الحق ـ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾، حين يدعون إلى الإسلام ـ ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾، قال: وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر. ثم قال ابنُ جَرير: ولا معنى لما قاله! لأنَّ الذي قبل قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ خَبَرٌ عن أهل الإيمان، والذي يتلوه خَبرٌ عنهم، والصَّوابُ قولُ ابن عباس وابن إسحاق أنه خبر عن المؤمنين. وهذا الذي نصره ابن جرير هو الحق، وهو الذي يدل عليه سياق الكلام، والله أعلم.

[٣٢٧٥] وقال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا يحيى بن أبي بكير وعبد الرزاق قالا: حدثنا إسرائيل، عن

---

(١) إسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة، لكن له ما يقويه.

(٢) محمد بن عمرو حسن الحديث، ومن فوقه ثقات، وله شواهد.

(٣) أخرجه الطبري ١٥٧٢٤ بإسناد ضعيف لضعف عطية العوفي، ولأصله شواهد.

سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ـ ﷺ ـ حين فَرَغَ من بدر: عليك بالعِير ليس دونها شيء، فناداه العباس بن عبد المطلب ـ قال عبد الرزاق: وهو أسير في وثاقه ـ: إنه لا يصلح لك. قال: ولم؟ قال: لأن الله ـ عزّ وجلّ ـ إنما وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك[1]. إسنادٌ جيد، ولم يخرجوه.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾، أي: يُحبُّونَ أن الطائفة التي لا حَدَّ لها ولا منعة ولا قتال، تكون لهم، وهي العير. ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال، ليُظْفِركم بهم ويَنْصُركم عليهم، ويُظهِرَ دينه، ويَرْفَع كَلِمَة الإِسلام، ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلمُ بعواقِبِ الأمور، وهو الذي يُدَبِّركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يُحبُّون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾.

[٣٢٧٦] وقال محمد بن إسحاق رحمه الله: حدثني محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عُمَر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عُروة بن الزُّبير وغيرهم من علمائنا، عن عبد الله بن عباس ـ كل قد حدثني بعض هذا الحديث، فاجتمع حديثُهم فيما سُقْتُ من حديث بدر، قالوا: لما سَمِع رسولُ الله ـ ﷺ ـ بأبي سفيان مقبلاً من الشام نَدَب المسلمين إليهم، وقال: هذه عِيرُ قريش فيها أموالُهم فاخرجُوا إليها لعلّ الله أن يُنْفِلَكُمُوها. فانتدبَ الناسَ، فخفَّ بعضهم وثَقُل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ـ ﷺ ـ يَلْقى حرباً، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يَتجسَّسُ الأخبارَ، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فَحَذِرَ عند ذلك، فاستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه. فخرج ضَمْضَمُ بن عمرو سريعاً إلى مكة. وخَرَج رسولُ الله ـ ﷺ ـ في أصحابه حتى بَلَغَ وادياً يقال له «ذَفِرَان»، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل، وأتاه الخبر عن قُريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار النبي ـ ﷺ ـ الناسَ، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال فأحسن، ثم قام عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسولَ الله، امض لما أمرك الله به، فنحنُ معك، والله لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ولكن اذهَبْ أنت وربُّك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى «بِرْك الغماد» ـ يعني مدينةَ الحبشة ـ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ خيراً، ودعا له بخير. ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أشيروا عَلَيَّ أيها الناس» وإنما يريد الأنصار ـ وذلك أنهم كانوا عَدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذِمَامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت من ذِمَامنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنَا. فكان رسول الله ـ ﷺ ـ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهَمه بالمدينة، من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ من بلادهم. فلما قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ ذلك قال له سعدُ بن معاذ: والله لكأنك تريدُنا يا رسولَ الله؟ قال: أجل. قال: فقد آمنا بك وصدَّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك

---

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٠٨٠ وأحمد ١/ ٢٢٩ و٣١٤ و٣٢٦ وأبو يعلى ٢٣٧٣، وإسناده ضعيف لأن رواية سماك عن عكرمة فيها اضطراب، ومع ذلك جوّد إسناده المصنف! وقال الترمذي: حسن صحيح. والصواب أنه ضعيف منكر، وسماك اختلط. وكيف يعلم العباس ذلك؟!.

على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق إن استعرَضْتَ بنا هذا البحْرَ فخضتَه لخضناه معك، وما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ عند الحرب، صدُقٌ عند اللقاء، ولعل الله يُريك منا ما تَقَرُّ بِهِ عينك، فسر بنا على بركة الله. فسُرّ رسول الله ـ ﷺ ـ بقول سعد، ونشّطه ذلك، ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم»[1]. وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا. وكذلك قال السدّي، وقتادةُ، عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرُ واحد من علماء السَّلَفِ والخَلَفِ، اختصرنا أقوالهم اكتفاءً بسياق محمد بن إسحاق.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

[٣٢٧٧] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح قُراد، حدثنا عكرمة بن عَمّار، حدثنا سماك الحَنَفي أبو زُمَيل، حدثني ابن عباس، حدثني عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ـ ﷺ ـ إلى أصحابه، وهم ثلاثمئة ونَيِّف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ـ ﷺ ـ القبلة ثم مدّ يديه وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً. قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّاه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾. فلما كان يومئذٍ والتقوا، فهزم الله المشركين، فقُتل منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً. واستشار رسول الله ـ ﷺ ـ أبا بكر وعلياً وعمر، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قُوّةً لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عَضُداً. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال، قلت: والله ما أَرَى ما رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تُمَكِّنني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان ـ أخيه ـ فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فَهَوِي رسول الله ـ ﷺ ـ ما قال أبو بكر، ولم يهوَ ما قلت، وأخذ منهم الفداء. فلما كان من الغد قال عمر: فَغَدوت إلى النبي ـ ﷺ ـ وأبي بكر وهما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، ما يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدتُ بكاء بَكَيتُ، وإن لم أجد بكاء تَبَاكَيتُ لبكائكما. قال النبي ـ ﷺ ـ لِلَّذِي عَرض على أصحابك من أخذهم الفداء، قد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة ـ لشجرة قريبة ـ وأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨] من الفداء، فأحل لهم الغنائم. فلما كان يوم أُحُد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر، من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفَرّ أصحابُ النبي ـ ﷺ ـ عن النبي ـ ﷺ ـ وكُسِرت رَبَاعِيتُه، وهُشِمت البَيْضة على رأسه، وسال الدمُ على وجهه، فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم

---

(١) أخرجه الطبري ١٥٧٣٢ من طريق محمد بن إسحاق به. وهو حديث حسن، صرح فيه ابن إسحق بالتحديث.

مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٥][١]، بِأَخْذِكُم الفداء. ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذي وابن جرير وابن مَرْدُويه من طرق عن عكرمة بن عمار به، وصححه علي بن المديني والترمذي، وقالا: لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني. وهكذا رَوَى علي بن أبي طلحة والعَوفيّ، عن ابن عباس: أن هذه الآية الكريمة قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أنها في دعاء النبي ـ ﷺ ـ وكذا قال زيد بن يُثَيع، والسدّيُّ، وابن جُرَيج.

[٣٢٧٨] وقال أبو بكر بن عياش، عن أبي حُصَين، عن أبي صالح قال: لما كان يوم بدر جعل النبي ـ ﷺ ـ يناشد ربه أشد النِّشدةَ يدعو، فأتاه عمر بن الخطاب فقال: يا رسولَ الله، بعضَ نِشدَتِك! فوالله ليفيَنَّ الله لك بما وعدك[٢].

[٣٢٧٩] وقال البخاري في كتاب المغازي، باب قول الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا إسرائيل، عن مُخَارق، عن طارق ابن شهاب قال: سمعت ابن مسعود يقول: شهدتُ من المقداد بن الأسود مَشهداً لأن أكون صاحبه أحبّ إليَّ مما عُدل به. أتى النبيَّ ـ ﷺ ـ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤][٣]، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك. فرأيت النبي ـ ﷺ ـ أشرق وجهه وسرَّه.

[٣٢٨٠] وَحَدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن حوشب، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا خالد الحذاء، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ يوم بدر: اللهم أنشدك عَهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبَد. فأخذ أبو بكر بيده فقال: حَسْبُكَ. فخرجَ وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥][٤]. ورواه النسائي عن بُندارٍ، عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي. وقولُه تعالى: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، أي: يُرْدِفُ بعضُهم بعضاً، كما قال هارون بن عَنْتَرَةَ، عن ابن عباس ﴿مُرْدِفِينَ﴾: متتابعين. ويحتمل أن المراد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ لكم، أي: نجدة لكم، كما قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿مُرْدِفِينَ﴾، يقول: المدَدَ، كما تقول: ائت الرجل فزده كذا وكذا. وهكذا قال مجاهد، وابن كثير القارىء، وابن زيد: ﴿مُرْدِفِينَ﴾، مُمدِّين. وقال أبو كُدَينَةَ، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس ﴿مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، قال: وراء كل مَلَك ملك. وفي رواية بهذا الإِسناد: ﴿مُرْدِفِينَ﴾، قال: بعضُهم على أَثَرِ بعض. وكذا قال أبو ظبيان، والضحاك، وقتادة.

[٣٢٨١] وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري، حدثني عبد العزيز بن عمران، عن الزَّمْعِيّ، عن أبي الحويرث، عن محمد بن جُبَير، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: نزل جبريل في ألفٍ من الملائكة عن مَيْمَنةِ النبي ـ ﷺ ـ وفيها أبو بكر. ونزل ميكائيلُ في ألفٍ من

---

(١) الحديث أخرجه مسلم ١٧٦٣ وابن حبان ٤٧٩٣ والبيهقي في «الدلائل» ٣/ ٥١ ـ ٥٢ مطوّلاً. وأخرجه أبو داود ٢٦٩٠ والترمذي ٣٠٨١ مختصراً.

(٢) أخرجه الطبري ١٥٧٥٤، وهذا مرسل.

(٣) قد تقدم الحديث في تفسير سورة المائدة عند آية: ٢٤.

(٤) الحديث صحيح. أخرجه البخاري ٣٩٥٣ والنسائي في «الكبرى» ١١٥٥٧.

الملائكة عن مَيْسَرةِ النبي ـ ﷺ ـ، وأنا في الميسرة[١]. وهذا يقتضي ـ لو صَحَّ إسناده ـ أن الألف مُرْدَفَةٌ بمثلها، ولهذا قرأ بعضهم: «مُرْدَفين» بفتح الدال، فالله أعلم. والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: وأمدَّ الله نبيه ـ ﷺ ـ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمئة من الملائكة مجنَّبة، وميكائيل في خمسمئة مُجَنِّبة. .

[٣٢٨٢] وروى الإمام أبو جعفر بن جَرير، ومسلم، من حديث عكرمة بن عمار، عن أبي زُمَيل سِمَاك بن وليد الحَنفي، عن ابن عباس، عن عمر الحديث المتقدِّم. ثم قال أبو زُمَيل: حَدَّثني ابن عباس قال: بينا رجل من المسلمين يَشْتَدُّ في أَثَرِ رَجُلٍ من المشركين أمامَه، إذ سَمِعَ ضربةً بالسوطِ فَوْقَه، وصوت الفارس يقولُ: «أقدمْ حَيْزُومُ». إذ نظر إلى المشرك أمامه، فخر مستلقياً قال فنظر إليه، فإذا هو قد خُطِم أنفُه، وشُقَّ وَجْهُه كضربة السوط، فاخضَرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدَّثَ ذلك رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: صَدَقْتَ، ذلك من مَدَد السماء الثالثة، فقَتَلوا يومئذٍ سَبْعِين، وأَسَرُوا سَبْعِينَ[٢].

[٣٢٨٣] وقال البخاري: «باب شهودِ الملائكةِ بَدْراً»: حدثنا إسحاقُ بن إبراهيمَ، حدثنا جَرِيرٌ، عن يحيى بن سعيد، عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزُّرَقي، عن أبيه ـ وكان أبوه من أهل بدر ـ قال: جاء جبريل إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: ما تعدّون أهلَ بدرٍ فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين ـ أو كلمةً نحوها ـ قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة[٣]. انفرد بإخراجه البخاري، وقد رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث رافع بن خَدِيج، وهو خطأ، والصواب رواية البخاري، والله أعلم.

[٣٢٨٤] وفي الصحيحين أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لعمر لما شاوره في قَتْلِ حاطب بن أبي بلتعة: «إنه قد شَهِد بدراً، وما يُدريكَ لعلَّ الله قد اطَّلَعَ على أهل بَدْرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فقد غَفَرْت لَكم»[٤].

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ . . . الآية، أي: وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بُشرى، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾؛ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد: ٤ ـ ٦]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤١]، فهذه حِكَمٌ شَرَع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها. وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعاداً الأولى بالدَّبُور، وثمودَ بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شُعَيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق

---

(١) أخرجه الطبري ١٥٧٦٩، وفيه عبد العزيز بن عمران الزهري، ذكره الذهبي في الميزان ٥١١٩ وقال: قال البخاري: لا يكتب حديثه، وقال النسائي وغيره: متروك. وقال يحيى: ليس بثقة اهـ. فلم يصح إسناده، وقد تأول ابن كثير هذا الخبر لكن علق ذلك بصحة الحديث، ولم يصح كما تقدم.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٦٣ وتقدم برقم ٣٢٧٧.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٩٩٢.

(٤) يأتي في سورة الممتحنة عند آية: ١ إن شاء الله، وسيأتي تخريجه عند آية: ٢٨ من هذه السورة.

في اليمّ، ثم أنزل على موسى التوراة، شرع فيها قتال الكفار، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ﴾ [القصص: ٤٣]، وقَتْلُ المؤمنين الكافرين أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة: ١٤]، ولهذا كان قَتلُ صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان. فقَتْلُ أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى أشد إهانة له من أن يموتَ على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب ـ لعنه الله ـ بالعَدَسَة[1] بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، وإنما غسلوه بالماء قذفاً من بعيد، ورَجمُوه حتى دفنوه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾، أي: له العزّةُ ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم، بحوله وقوته، سبحانه وتعالى.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

يُذَكِّرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاسَ عليهم، أماناً من خَوْفهم الذي حَصَل لهم من كثرة عَدوّهم وقلة عَدَدِهم، وكذلك فَعَل تعالى بهم يوم أحُدٍ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحَجَف.

[٣٢٨٥] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زُهَير، حدثنا ابن مَهْديّ، عن شُعبةَ، عن أبي إسحاقَ، عن حارثة بن مُضَرِّب، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: ما كان فينا فارسٌ يوم بَدْرٍ غير المقداد، ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائم إلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبحَ[2].

وقال سفيان الثوريُّ، عن عاصم، عن أبي رَزِين، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: النعاس في القتال أمنةٌ من الله وفي الصلاة من الشيطان. وقال قتادة: النعاسُ في الرأس، والنومُ في القلب. قلت: أما النعاسُ فقد أصابهم يوم أحد، وأمر ذلك مشهورٌ جداً، وأما يومَ بدرٍ فهذه الآيةُ الشريفةُ إنما هي في سياق قصة بدر، وهي دالة على وقوع ذلك أيضاً، وكأن ذلك كان سجيةً للمؤمنين عند شدة البأس، لتكون

(١) العدسة: بثرة تخرج بالبدن كالطاعون.
(٢) جيد. أخرجه أحمد ١/ ١٢٥ و١٣٨ وأبو يعلى ٢٨٠ وابن حبان ٢٢٥٧ وإسناده جيد.

قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله. وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونِعَمِهِ عليهم، وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥ - ٦].

[٣٢٨٦] ولهذا جاء في الصحيح: أن رسول الله - ﷺ - لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق - رضي الله عنه - وهما يدعوان، أخذت رسول الله - ﷺ - سنةٌ من النوم، ثم استيقظ مبتسماً فقال: أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النَّقْعُ. ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر: ٤٥][١].

[٣٢٨٧] وقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: نزل النبي - ﷺ - يعني: حين سار إلى بدر - والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دَعْصَةٌ[٢]، فأصاب المسلمين ضعفٌ شديدٌ، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظَ، يُوسْوِسُ بينهم: تَزعمُون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مُجْنِبين! فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشَرِبَ المسلمون وتَطَهَّروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان وثبت الرملُ حين أصابه المطر، ومشى الناسُ عليه والدواب، فساروا إلى القوم، وأمدَّ الله نبيه - ﷺ - والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمئة مُجَنِّبة، وميكائيل في خمسمئة مُجَنِّبة[٣]. وكذا قال العَوْفي، عن ابن عباس: إن المشركين من قريش لما خرجُوا لينصروا العِيرَ وليقاتلوا عنها، نزلوا على الماء يوم بدر، فَغَلبوا المؤمنين عليه. فأصاب المؤمنين الظمأ، فجعلوا يصلون مُجْنِبين مُحْدِثين، حتى تعاطوا ذلك في صدورهم، فأنزل الله من السماء ماءً حتى سال الوادي، فشرب المؤمنون، وملؤوا الأسقية، وسقوا الركاب. واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهوراً، وثَبَّت به الأقدام. وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة، فبعث الله المطر عليها، فضربها حتى اشتدَّت، وثبتت عليها الأقدامُ. ونحو ذلك رُوي عن قتادة، والضحاك، والسدّي. وقد رُوي عن سعيد بن المسيب، والشعبي، والزُّهري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أنه طَشٌّ[٤] أصابهم يوم بدر.

[٣٢٨٨] والمعروف: أن رسول الله - ﷺ - لما سار إلى بدر، نزل على أدنى ماءٍ هناك، أي: أوّل ماءٍ وجده، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسولَ الله، هذا المنزل الذي نزلته منزلٌ أنزلَكَهُ الله فليس لنا أن نجاوزه، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: بل منزلٌ نزلتُه للحرب والمكيدة. فقال: يا رسولَ الله، إن هذا ليس بمنزلٍ، ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم، ونُغَوِّر ما وراءه من القُلُب، ونستقي

---

(١) لم أجد الحديث في الصحيح بهذا السياق، وإنما أخرجه البخاري ٢٩١٥ من حديث ابن عباس قال: قال النبي ﷺ وهو في قبة: اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم. فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك. وهو في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾. وأخرج البيهقي في «الدلائل» ٣/ ٨٠ - ٨١ من طريق ابن إسحاق عن يزيد ابن رومان عن عروة عن الزهري محمد بن يحيى وعاصم «كان رسول الله ﷺ في العريش هو وأبو بكر وما معهما غيرهما وقد تدانى القوم بعضهم من بعض فجعل رسول الله - ﷺ - يناشد ربه ما وعده من نصره... وفيه: وخفق رسول الله - ﷺ - خفقة ثم هبَّ فقال رسول الله ﷺ: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع...» وليس فيه ذكر الآية.

(٢) الدعص: قطعة من الرمل مستديرة، أو الكثيب منه.

(٣) ضعيف. أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣/ ٧٨ والطبري ١٥٧٨٣ وإسناده منقطع بين ابن عباس وعلي بن أبي طلحة.

(٤) الطشّ: المطر الضعيف.

الحياض، فيكون لنا ماء وليس لهم ماء. فسار رسول الله ـ ﷺ ـ ففعل كذلك[1].

[٣٢٨٩] وفي «مغازي» الأموي: أن الحباب لما قال ذلك نزل ملك من السماء وجبريل جالس عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقال ذلك الملك: يا محمد، إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن الرأي ما أشار به الحباب بن المنذر. فالتفت رسول الله ـ ﷺ ـ إلى جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: هل تعرف هذا؟ فنظر إليه فقال: ما كل الملائكة أعرفهم، وإنه ملك وليس بشيطان[2].

[٣٢٩٠] وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب «المغازي» رحمه الله: حدثني يزيد بن رُومان، عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء وكان الوادي دَهْساً، فأصاب رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه ما لبَّد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه. وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس، فأطفأ بالمطر الغبار، وتلبَّدت به الأرضُ، وطابت نفوسهم، وثبتت به أقدامُهم.

[٣٢٩١] وقال ابن جرير: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا مُصعَبُ بن المقدام، حدثنا إسرائيل، حدثنا أبو إسحاق، عن حارثة، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: أصابنا من الليل طَشٌّ من المطر ـ يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر ـ فانطلقنا تحت الشَّجَر والحَجَفِ[3]، نستظل تحتها من المطر. وبات رسول الله ـ ﷺ ـ يدعو ربه: «اللهم، إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض!» فلما أن طلع الفجر، نادى: الصلاة، عباد الله! فجاء الناس من تحت الشجر والحَجَف، فصلى بنا رسول الله ـ ﷺ ـ وحَرَّض على القتال[4]. وقولُه: ﴿لِيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾، أي: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهيرُ الظاهر، ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، أي: من وسوسة أو خاطر سيىء، وهو تطهير الباطن، كما قال تعالى في حق أهل الجنة: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾، فهذا زينة الظاهر، ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]، أي: مطهراً لما كان من غِلّ أو حَسَد أو تباغض، وهو زينة الباطن وطهارته. ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾، أي: بالصبر والإِقدام على مجالدة الأعداء، وهو شجاعة الباطن، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾، وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وهذه نعمةٌ خفيةٌ أظهرها الله تعالى لهم، ليشكروه عليها وهو أنه ـ تعالى وتقدس وتبارك وتمجد ـ أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا. قال ابن إسحاق: وَازِرُوهم. وقال غيره: قاتِلُوا معهم. وقيل: كَثِّروا سَوَادهم. وقيل: كان ذلك بأن المَلَك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ يقول سمعت هؤلاء القوم ـ يعني المشركين ـ يقولون: والله لئن حَمَلُوا علينا لنَنْكَشِفَنّ. فيحدّث المسلمون بعضُهم بعضاً بذلك، فتقوى أنفسهم. حكاه ابن جرير، وهذا لفظه بحروفه. وقولُه: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾، أي: ثَبِّتوا أنتم المسلمين وقَوُّوا أنفسَهم على أعدائهم، عن أمري لكم

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣/ ٣١ ـ ٣٥ من طريق ابن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير والزهري وعاصم مرسلاً.

(٢) لم يسقه بإسناد، والظاهر أن الأموي ساقه بلا سند، فلا حجة فيه، وهو غريب جداً.

(٣) الحجف: التروس من جلود بلا خشب.

(٤) أخرجه الطبري ١٥٧٧٧، وإسناده جيد، رجاله ثقات.

بذلك: سألقي الرعبَ والمذلّة والصّغار على من خَالَفَ أمري، وكَذّب رسولي، ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، أي: اضربوا الهام ففلّقوها، واحتزُّوا الرقاب فقطّعوها، وقَطِّعوا الأطراف منهم، وهي أيديهم وأرجلهم. وقد اختلف المفسرون في معنى: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ فقيل: معناه اضربوا الرؤوس، قاله عكرمة. وقيل: معناه أي: على الأعناق، وهي الرقاب، قاله الضحاك، وعطية العَوْفي. ويشهَدُ لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

[٣٢٩٢] وقال وكيع، عن المسعودي، عن القاسم قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إني لم أبعثْ لأعذّب بعذاب الله، إنما بُعِثْتُ بِضربِ الرّقاب وشدِّ الوثاق»[1]. واختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب وفلْق الهام.

[٣٢٩٣] قلت: وفي مغازي الأموي أن رسول الله ـ ﷺ ـ جعل يمر بين القتلى يوم بدر فيقول:

نُفَلِّقُ هاماً ....

فيقول أبو بكر:

...... مِنْ رجالٍ أعِزّةٍ ... علينا، وهم كانوا أعقَّ وأظلما

فيبتدىء رسول الله ـ ﷺ ـ بأول البيت، ويستطعِمُ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ إنشادَ آخِرِه، لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر[2]، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩]. وقال الربيع بن أنس: كان الناسُ يومَ بدرٍ يَعْرفون قَتْلى الملائكة ممن قتلوا هم بضرب فوق الأعناق، وعلى البَنَان مثل سمة النار قد أُحرِق به. وقوله: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، قال ابن جرير: معناه: واضربوا أيها المؤمنون من عدوكم كل طَرَفٍ ومَفصِلٍ من أطراف أيديهم وأرجلهم. والبنان: جمع بنانة، كما قال الشاعر:

ألا ليتني قَطّعت منيّ بَنانَةً ... ولاقيتُه في البَيْت يَقْظَانَ حَاذرا

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعني بالبنان: الأطراف. وكذا قال الضحاك وابن جُرَيج. وقال السدّيُّ: البنان الأطراف، ويقال: كل مَفْصل. وقال عكرمة، وعطية العَوْفي والضحاك ـ في رواية أخرى ـ: كل مفصل. وقال الأوزاعيُّ في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، قال: اضرِبْ منه الوجه والعين، وارمه بشهاب من نار، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك. وقال العوفي، عن ابن عباس ـ فذكر قصة بدر إلى أن قال ـ: فقال أبو جهل: لا تقتلوهم قتلاً، ولكن خُذُوهم أخذاً، حتى تُعَرِّفوهم الذي صنعوا من طعنهم في دينكم، ورَغْبَتِهم عن اللات والعزى. فأوحى الله إلى الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، فقُتِلَ أبو جهل ـ لعنه الله ـ في تسعة وستين رجلاً، وأسر عقبة بن أبي مُعيط فقتل صَبْراً، فوفّى ذلك سبعين، يعني قتيلاً. ولذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، أي: خالفوهما فساروا في شِقٍّ، وتَرَكُوا الشرع والإيمان به وأتباعه في شِقٍّ. ومأخوذ أيضاً من شَقِّ العصا، وهو جعلها فرقتين ـ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، أي: هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه، لا يفوته شيء، ولا يقوم

---

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ١٥٧٩٨ وهو مرسل، ومع إرساله، المسعودي اختلط.

(٢) عزاه المصنف لمغازي الأموي، ولم أقف عليه، فلينظر.

لغضبه شيء، تبارك وتعالى، لا إله غيره ولا رب سواه. ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾ هذا خطابٌ للكفار، أي: ذُوقُوا هذا العذَاب والنَّكال في الدنيا، واعلموا أيضاً أن للكافرين عذابَ النارِ في الآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى متوعِّداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾، أي: تقاربتم منهم ودنوتم إليهم، ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ أي: تَفروُا وتتركوا أصحابكم. ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾، أي: يفر بين يدي قِرْنِه مَكِيدة، ليريه أنه خاف منه فيتبعه، ثم يَكُرّ عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك، نص عليه سعيد بن جبير، والسُّدِّي. وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرّة من العدو فيصيبها. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾، أي: فَرَّ من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونوه، فيجوز له ذلك، حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة.

[٣٢٩٤] قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زهير، حدثنا يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى، عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنت في سَرِيَّة من سرايا رسول الله ـ ﷺ ـ فحاص الناس حَيْصة وكنت فيمن حاص، فقلنا: كيف نصنع وقد فَررنا من الزَّحفِ وبُؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فَبِتْنا؟ ثم قلنا: لو عَرَضنا أنفسنا على رسول الله ـ ﷺ ـ فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا؟ فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: من القوم؟ فقلنا: نحن الفَرَّارون. فقال: لا، بل أنتم العَكَّارون، أنا فِئَتُكم، وأنا فِئةُ المسلمين. قال: فأتيناه حتى قَبَّلنا يده[١]. وهكذا رواه أبو داود، والترمذيّ، وابنُ ماجه، من طُرقٍ عن يزيدَ بن أبي زيادِ، وقال الترمذيُّ: حَسَنٌ لا نعرِفُه إلا من حَدِيثه.

[٣٢٩٥] ورواه ابن أبي حاتم، من حديث يزيدَ بن أبي زياد، به، وزاد في آخره: وقرأ رسول الله ـ ﷺ ـ هذه الآية: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾[٢]. قال أهل العلم: معنى قوله: «العَكَّارون»، أي: العَطَّافون. وكذلك قال عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في أبي عُبَيد لما قُتِل على الجِسر بأرض فارس، لكثرة الجيش من ناحية المجوس، فقال عمر: لو انحاز إليَّ كنتُ له فِئةً. هكذا رواه مُحمَّد بن سيرين، عن عمر. وفي رواية أبي عثمان النَّهديّ، عن عُمَر قال: لما قتل أبو عُبَيد قال عُمَر: يا أيها الناسُ، أنا فِئَتُكم. وقال مجاهد: قال عمر: أنا فئة كل مسلم. وقال عبد الملك بن عُمَير، عن عمر: أيها الناس، لا تغرنكم هذه الآيةُ، فإنما كانَتْ يوم بدر، وأنا فئة لكل مسلم.

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٦٤٧ والترمذي ١٧١٦ والبخاري في «الأدب المفرد» ٩٧٢ وأحمد ٢/ ٧٠ ـ ٨٦ ـ ١٠٠ ـ ١١١ والشافعي ج ٢ ح ٣٨٨ والحميدي ٦٨٧ وابن الجارود ١٠٥٠ والبيهقي ٩/ ٧٦ والبغوي ١١/ ٦٨ وأبو نعيم ٩/ ٥٧ من طرق عن يزيد بن أبي زياد بهذا الإسناد، ومداره على يزيد، وهو ضعيف، كبر فتغير، فصار يتلقن. قاله في التقريب. وليس للحديث طريق آخر، فهو ضعيف، والله أعلم.

(٢) إسناده ضعيف لضعف يزيد بن أبي زياد كما تقدم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حَسَّان بن عبد الله المصري، حدثنا خَلَّاد بن سُليمان الحضرمي، حدثنا نافع: أنه سأل ابن عمر قلت: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندري من الفئة: إمامنا أو عسكرنا؟ فقال: إن الفِئةَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ. فقلت: إن الله يقول: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ . . . الآية، فقال: إنما نزلت هذه الآية في يوم بدر، لا قبلها ولا بعدها. وقال الضحاك في قوله: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾: المتحيز: الفار إلى النبي وأصحابه، وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه. فأما إن كان الفرارُ لا عن سَبَب من هذه الأسباب، فإنه حَرَام وكبيرة من الكبائر.

[٣٢٩٦] لما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اجتنبوا السبع الموبقات». قيل: يا رسول الله، وما هُنّ؟ قال: «الشرك بالله، والسِّحرُ، وقتلُ النفس التي حَرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم الزحف، وقذفُ المحصناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ»(1). ولهذا الحديث شواهد من وجوه أخر، ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ بَآءَ﴾، أي: رجع ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ﴾، أي: مصيره ومنقلبه يوم ميعاده ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

[٣٢٩٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عَدِيّ، حدثنا عُبَيد الله بن عَمْرو الرقيّ، عن زيد بن أبي أنيسة، حدثنا جَبَلة بن سُحَيم عن أبي المثنى العَبْدي، سمعت السَّدُوسي ـ يعني ابن الخصاصية، وهو بَشِير بن مَعْبَد ـ قال: أتيتُ النبي ـ ﷺ ـ لأبايعه، فاشترط عَلَيَّ: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أقِيمَ الصلاة، وأن أؤدِّي الزكاة، وأن أَحُجَّ حجّة الإسلام، وأن أصومَ شهر رمضان، وأن أجاهِدَ في سبيلِ الله». فقلتُ: يا رسولَ الله، أما اثنتان فوالله لا أطيقهما: الجهاد، فإنهم زعموا أنه من وَلَّى الدُّبُر فقد باء بغَضَب من الله، فأخاف إن حضرتُ ذلك جَشِعَتْ نفسي وكَرِهْتُ الموتَ ـ والصدقة، فوالله ما لي إلا غُنَيمَةٌ وعَشْرُ ذُودٍ هُنّ رَسلُ أهلي وحَمُولتهم. فقبض رسولُ الله ـ ﷺ ـ يده ثم حَرّك يده، ثم قال: فلا جهادَ ولا صدقةَ، فبم تدخل الجنة إذاً؟! فقلت: يا رسول الله، أنا أبايعك. فبايعتُه عليهنَّ كلِّهنَّ(2). وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ولم يخرجوه في الكتب الستة.

[٣٢٩٨] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم أبو النضر، حدثنا يزيد بن ربيعةَ، حدثنا أبو الأشعث، عن ثَوبان، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ثلاثة لا ينفع معهن عَمَلٌ، الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفِرَارُ من الزَّحف»(3). وهذا أيضاً حديث غريب جداً.

[٣٢٩٩] وقال الطبراني أيضاً: حدثنا العباس بن الفضل الأسفاطي، حدثنا موسى بن إسماعيلَ، حدثنا حَفْصُ بن عُمَر الشَّنّي، حدثني عُمَر بن مُرّة قال: سمعت بلال بن يسار بن زيد ـ مولى رسول الله ـ ﷺ ـ قال: سمعت أبي يحدث عن جَدِّي قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: من قال: «استغفر الله الذي لا إله إلا هو

(1) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١٠.

(2) أخرجه أحمد ٥/ ٢٢٤ والطبراني في «الكبير» ١٢٣٣ و«الأوسط» ١١٤٨ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١/ ٤٢ وقال: ورجال أحمد موثوقون.

(3) [illegible] . أخرجه الطبراني ١٤٢٠، وأعله الهيثمي في «المجمع» ٣٨٧ بيزيد بن ربيعة، وقال: ضعيف جداً.

وأتوب إليه، غفر له وإن كان قد فرَّ من الزحف»[١]. وهكذا رواه أبو داود، عن موسى بن إسماعيل، به. وأخرجه الترمذيّ، عن البخاري، عن موسى بن إسماعيل، به. وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قلت: ولا يعرف لزيد مولى النبي ـ ﷺ ـ عنه سواه. وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حَراماً على الصحابة؛ لأنه كان فرض عين عليهم. وقيل: على الأنصار خاصة، لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشَط والمكره. وقيل: إنما المرادُ بهذه الآية أهلُ بَدْرٍ خاصةً، يُرْوَى هذا عن عُمَر، وابن عُمَر، وابن عباس، وأبي هُرَيرة، وأبي سعيد وأبي نَضْرة، ونافع مولى ابن عمر، وسعيد بن جُبَير، والحسنِ البَصْرِيِّ، وعكرمة، وقتادةَ، والضحَّاكِ، وغيرهم. وحُجَّتهم في هذا أنه لم تكن عصابةٌ لها شوكةٌ يفيئون إليها سوى عصابتهم تلك.

[٣٣٠٠] كما قال النبي ـ ﷺ ـ: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعْبَد في الأرض»[٢]، ولهذا قال عبد الله بن المبارك، عن مبارك بن فضالة، عن الحسن في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾، قال: ذلك يوم بدر، فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر، أحسبه قال: فلا بأس عليه. وقال ابن المبارك أيضاً، عن ابن لَهيعة: حدثني يزيد بن أبي حَبيب قال: أَوْجَبَ الله تعالى لمن فرَّ يوم بدر النار، قال: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فلما كان يومُ أحد بعد ذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين، قال: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ... ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ٢٥]. وفي سنن أبي داود، والنسائي، ومستدرك الحاكم، وتفسير ابن جرير، وابن مَرْدُويه، من حديث داودَ بن أبي هند، عن أبي نَضْرة، عن أبي سَعيدٍ أنه قال في هذه الآية: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾: إنما أنزِلَتْ في أهل بَدْرٍ. وهذا كلّه لا ينفي أن يكونَ الفِرارُ من الزَّحْفِ حَراماً على غير أهل بدر، وإن كان سببُ النزولِ فيهم، كما دلَّ عليه حديث أبي هُرَيرَةَ المتقدِّم، من أنَّ الفِرَار من الزَّحْفِ من الموبقات، كما هو مذهبُ الجمهور والله أعلم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

يُبَين تعالى أنه خالقُ أفعالِ العباد، وأنه المحمودُ على جميع ما صَدَر عنهم من خَيرٍ، لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم، ولهذا قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾، أي: ليس بحَوْلكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أي: بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]... الآية، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

(١) حسن. أخرجه أبو داود ١٥١٧ والترمذي ٣٥٧٧ والطبراني ٤٦٧٠ وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه اهـ. وإسناده لين لأجل بلال بن يسار، لكن له شاهد، أخرجه الحاكم ٢/١١٨ من حديث ابن مسعود، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي وانظر صحيح أبي داود ١٣٤٣.

(٢) تقدم برقم ٣٢٩١.

[التوبة: ٢٥] يُعلم ـ تبارك وتعالى ـ أنَّ النصرَ ليس عن كثرة العَدَدِ، ولا بلُبس اللأْمَةِ والعُدَدِ، وإنما النصرُ من عند الله تعالى، كما قال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ثم قال لنبيه ـ ﷺ ـ أيضاً في شأن القبضة من التراب، التي حَصَبَ بها وجوهَ المشركين يوم بدر، حين خرج من العريش بعد دعائه وتَضَرُّعه واستكانته، فرماهم بها، وقال: «شاهَتِ الوجوهُ». ثم أمر أصحابه أن يَصْدُقُوا الحملة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبق أحدٌ منهم إلا ناله منها ما شَغَله عن حاله. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، أي: هو الذي بلغ ذلك إليهم، وكَبَتَهُم بها لا أنت.

[٣٣٠١] قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: رفع رسول الله ـ ﷺ ـ يديه، يعني يوم بدر، فقال: «يا رب إن تَهْلِكْ هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً. فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه ترابٌ من تلك القبضة، فولوا مدبرين»[(١)].

[٣٣٠٢] وقال السدي: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لعلي ـ رضي الله عنه ـ يوم بدر: «أعطني حصباً من الأرض». فناوله حصباً عليه تراب، فرمى به في وجوه القوم، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء، ثم رَدِفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، وأنزل الله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[(٢)].

[٣٣٠٣] وقال أبو معشر المدني، عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض، أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ قبضة من تراب، فرمى بها في وجوه القوم، وقال: «شاهت الوجوه». فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ـ ﷺ ـ فأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[(٣)].

[٣٣٠٤] وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، قال: هذا يوم بدر، أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاث حَصيات فرمى بحصاة في ميمنة القوم، وحصاة في ميسرة القوم، وحصاة بين أظهرهم، وقال: «شاهت الوجوه»[(٤)]. فانهزموا. وقد روي في هذه القصة عن عروةَ بن الزبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وغير واحد من الأئمة: أنها نزلت في رمية النبي ـ ﷺ ـ يوم بدر، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضاً.

[٣٣٠٥] وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا يعقوبُ بن محمد، حدثنا عبد العزيز بن عمران، حدثنا موسى بن يعقوبَ بن عبد الله بن زَمْعَة، عن يزيدَ بن عبد الله، عن أبي بكر بن

---

(١) أخرجه الطبري ١٥٨٤٠ والبيهقي في «الدلائل» ٣/٧٨ ـ ٧٩ وإسناده ضعيف لانقطاعه بين ابن أبي طلحة وابن عباس. لكن له شواهد مرسلة يتأيد بها.

(٢) أخرجه الطبري ١٥٨٣٨ وهذا مرسل. لكن هذه الروايات تتقوى بمجموعها، وأصلها في الصحيح.

(٣) مرسل. أخرجه الطبري ١٥٨٣٦.

(٤) مرسل. أخرجه الطبري ١٥٨٣٩ وهو شاهد لما قبله.

سليمان بن أبي حَثْمة، عن حكيم بن حزَام قال: لما كان يومُ بدرٍ، سَمِعنا صوتاً وَقَعَ من السماء، كأنه صوتُ حصاةٍ وقعت في طَسْت، ورمى رسول الله ـ ﷺ ـ تلك الرَّمْية فانهزمنا[1]. غريب من هذا الوجه. وهاهنا قولان آخران غريبان جداً، أحدهما:

[٣٣٠٦] قال ابن جرير: حدثني محمد بن عوف الطائي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثنا عبد الرحمن بن جُبَير: أن رسول الله ـ ﷺ ـ يوم ابن أبي الحُقَيقِ بخيبر، دعا بقوس، فأتي بقوس طويلة، وقال: جيئوني بقوس غيرها. فجاؤوه بقوس كَبْداء، فرمى النبي ـ ﷺ ـ الحصن، فأقبل السهم يَهوي حتى قتل ابن أبي الحُقَيق، وهو في فراشه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[2].

وهذا غريبٌ، وإسنادهُ جَيِّدٌ إلى عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَير، ولعله اشتبَه عليه، أو أنه أراد أَنَّ الآية تعم هذا كله، وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قِصَّةِ بَدْرٍ لا محالةَ، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم، والله أعلم. والثاني:

[٣٣٠٧] روى ابن جرير أيضاً، والحاكم في مستدركه، بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيَّب والزهري أنهما قالا: أنزلت في رمية رسول الله ـ ﷺ ـ يوم أحد أبيّ بن خَلَفٍ بالحربة وهو في لأمته، فخدشه في تَرْقُوته، فجعل يتدأدأ عن فَرَسه مراراً، حتى كانت وفاتُه بعد أيام قاسى فيها العذابَ الألِيمَ[3]، مَوصولاً بعذابِ البَرْزَخِ، المتَّصِلِ بعذابِ الآخِرَة. وهذا القولُ عن هذين الإِمامين غريبٌ أيضاً جدّاً، ولعلهما أرادا أَنَّ الآية تتناوله بعمومها، لا أَنها نزلتَ فيه خاصة كما تقدم، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جَعفر بن الزبير، عن عروة بن الزُّبير في قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾، أي: لِيعرِّف المؤمنين من نعمته عليهم، من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عَدُوِّهم، وقلة عَدَدِهم، ليعرفو بذلك حَقَّه، ويشكروا بذلك نعمته. وهكذا فسر ذلك ابن جرير أيضاً.

[٣٣٠٨] وفي الحديث: «وكلّ بلاءٍ حسن أبلانا»[4]. وقولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أي: سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر والغَلَب. وقولُه: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ۝١٨﴾: هذه بشارةٌ أخرى مع ما حصل من النصر: أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضْعِفُ كيد الكافرين فيما يستقبل، مُصَغِّر أمرهم، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار، ولله الحمد والمنة.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٩﴾

يقول تعالى للكفار: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾، أي: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم،

[٣٣٠٩] كما قال محمد بن إسحاق وغيره، عن الزُّهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَير: أن أبا جهل

---

(١) أخرجه الطبري ١٥٨٣٥ بإسناد ضعيف لضعف عبد العزيز بن عمران.

(٢) ضعيف. عبد الرحمن بن جبير، في عداد التابعين، فخبره مرسل، فهو ضعيف، وكون سبب نزول الآية في خيبر منكر.

(٣) ضعيف. أخرجه الحاكم ٢/٣٢٧ عن الزهري عن ابن المسيب بنحوه، وصححه على شرطهما، وهو مرسل.
وأخرجه الطبري ١٥٨٤٢ عن الزهري مرسلاً بمعناه، ومراسيل الزهري ضعيفة.

(٤) لم أقف على إسناده بعدُ، فلينظر.

قال يوم بدر: اللهم أقْطَعُنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فَأَحِنْه الغداة. وكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ . . . إلى آخرِ الآيةِ[١].

[٣٣١٠] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا يزيد ـ يعني ابن هارون ـ أخبرنا محمد بن إسحاق، حدثني الزُّهري، عن عبد الله بن ثعلبةَ: أَنَّ أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهمَّ، أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فَأَحِنْه الغداة. فكان المستفتِحَ[٢]. وأخرجه النسائي في التفسير من حديث صالح بن كيسان، عن الزهري، به. وكذا رواه الحاكم في مستدركه من طريق الزهري، به، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ورُوي نحو هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ويزيد بن رومان، وغير واحد.

وقال السدّيُّ: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر، أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: «اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين». فقال الله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾، يقول: قد نصرت ما قلتم، وهو محمد ﷺ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو قوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢]. . . الآية. . وقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾، أي: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: في الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾ كقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة، نَعُدْ لكم بمثل هذه الواقعة. وقال السدّيُّ: ﴿وَإِن تَعُودُوا﴾، أي: إلى الاستفتاح ﴿نَعُدْ﴾ إلى الفتح لمحمد ـ ﷺ ـ والنصر له وتظفيره على أعدائه. والأولُ أقوى. ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾، أي: ولو جَمَعتم من الجموع ما عَسَى أن تجمَعُوا، فإن من كان الله معه فلا غالبَ له، فإنَّ الله مع المؤمنين، وهم الحزبُ النبويُّ، والجنابُ المصطفويُّ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يأمرُ تعالى عباده المؤمنين بطاعتِه وطاعةِ رسوله، ويزجُرُهم عن مخالفته والتشُّبه بالكافرين به المعاندين له، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾، أي: تتركوا طاعته وامتثال أوامره وتَرْكَ زواجره، ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾، أي: بعدما علمتم ما دعاكم إليه. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾، قيل: المراد المشركون. واختاره ابن جرير. وقال ابن إسحاق: هم المنافقون؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا، وليس كذلك. ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ﴾، أي: عن سماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن فهمه. ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، فهؤلاء شر البرية، لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا. ولهذا شبههم بالأنعام في قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة: ١٧١]. . . الآية. وقال في الآية

---

(١) انظر ما بعده.

(٢) حسن. أخرجه النسائي في «التفسير» ٢٢١ وأحمد ٥/٤٣١ والطبري ١٥٨٥٢ والحاكم ٢/٣٢٨ والبيهقي في «الدلائل» ٣/٧٤ من طرق عن الزهري به، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وعبد الله بن ثعلبة صحابي صغير لم يثبت له سماع، لكن للحديث شواهد مراسيل تعضده. فهو حديث حسن.

الأخرى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نَفَرٌ من بني عبد الدار من قريش. رُوي عن ابن عباس، ومجاهد، واختاره ابن جرير. وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون. قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا، لأن كلاً منهم مسلوبُ الفهم الصَّحِيح والقصدِ إلى العمل الصالح. ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح، ولا قصدَ لهم صحيح لو فرض أن لهم فهماً، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾، أي: لأفهمهم، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم، لأنه يعلم أنه ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾، أي: أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك، ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عنه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)﴾

[٣٣١١] قال البخاري: ﴿اسْتَجِيبُوا﴾: أجيبوا، ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: لما يُصْلِحكم. حدثنا إسحاق، حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن خُبَيب بن عبد الرحمن قال: سمعت حَفْصَ بن عاصم يُحدِّث عن أبي سعيد بن المعلّى قال: كنتُ أصلّي، فمر بي رسولُ الله ـ ﷺ ـ فدعاني، فلم آتِهِ حتى صَلّيتُ، ثم أتيته فقال: ما منعَكَ أن تأتيني؟ ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، ثم قال: لأعلمَنَّكَ أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج. فذهب رسولُ الله ـ ﷺ ـ ليخرُجَ، فذكَرْت له ـ وقال معاذ: حدثنا شعبة، عن خُبَيب بن عبد الرحمن سَمِع حَفْصَ بن عاصم، سَمِع أبا سعيد رجلاً من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ بهذا ـ وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هي السبع المثاني[١]. هذا لفظهُ بحروفِهِ، وقد تقدَّم الكلام على هذا الحديث بذكر طُرُقه في أول تفسير الفاتحة. وقال مجاهد في قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، قال: الحق. وقال قتادة: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، قال: هو هذا القرآن، فيه النجاة والبقاء والحياة. وقال السدّيُّ: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، ففي الإِسلام إحياؤُهم بعد موتهم بالكفر. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، أي: للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقَوَّاكم بها بعد الضعف، ومَنَعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم. وقولُه تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإِيمان. رواه الحاكم في مستدركه موقوفاً، وقال: صحيح ولم يخرجاه. ورواه ابن مَرْدُويه من وجه آخر مرفوعاً[٢]، ولا يصح لضعف إسناده، والموقوف أصح. وكذا قال مجاهد، وسعيد، وعكرمة، والضحاك، وأبو صالح، وعطية، ومقاتل بن حيان، والسدي. وفي رواية عن مجاهد في قوله: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، حتى تَرَكه لا يعقل. وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه، فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه. وقال قتادةُ هو كقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. وقد وَرَدَت الأحاديثُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ بما يناسب هذه الآية.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاويةَ، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبي ـ ﷺ ـ يكثر أن يقول: «يا مُقَلِّبَ القلوب، ثَبِّتْ قلبي على دينك». قال:

---

(١) أخرجه البخاري ٤٦٤٧. وتقدم في سورة الفاتحة.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» ٣/ ٣٢٠، وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً.

فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به. فهل تخاف علينا، فقال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يُقَلبها»[١]. وهكذا رواه الترمذي في كتاب القدر من «جامعه»، عن هَنَاد بن السري، عن أبي معاوية محمد بن حازم الضرير، عن الأعمش ـ واسمه سليمان بن مهْران ـ عن أبي سفيان ـ واسمه طلحة بن نافع ـ عن أنس، ثم قال: حسن. وهكذا رُوِي عن غير واحد عن الأعمش، رواه بعضُهم عنه، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ـ ﷺ ـ. وحديث أبي سفيان عن أنس أصح.

[٣٣١٣] حديث آخر: وقال الإمام عبد بن حميد في مسنده: حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن ابن أبي ليلى، عن بلال ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ـ ﷺ ـ كان يدعو: «يا مقلّبَ القلوب ثبت قلبي على دينك»[٢]. هذا حديث جيد الإسناد إلا أن فيه انقطاعاً. وهو مع ذلك على شرط أهل السنن، ولم يخرجوه.

[٣٣١٤] حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم قال: سمعت ابن جابر يقول: حدثني بُسر بن عبد الله الحضرمي: أنه سَمِع أبا إدريس الخَوْلانيَّ يقول: سَمِعت النُّواسَ بن سمْعان الكلابي ـ رضي الله عنه ـ يقول: سمعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع رب العالمين إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يُزيغه أزاغه». وكان يقول: «يا مُقَلِّب القلوبِ، ثَبِّتْ قلوبنا على دينك»، قال: «والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه»[٣]. وهكذا رواه النسائي وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، فذكر مثله.

[٣٣١٥] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثَنا حمّاد بن زيد، عن المعلّى بن زياد، عن الحسن أن عائشة قالت: دعواتٌ كان رسول الله ـ ﷺ ـ يدعو بها: «يا مُقَلِّبَ القلوب، ثَبِّت قلبي على دينك». قالت، فقلت: يا رسولَ الله، إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء. فقال: «إن قلب الآدمي بين أصبَعينِ من أصابع الله، فإذا شاء أزاغه، وإذا شاء أقامه»[٤].

[٣٣١٦] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا عبد الحميد، حدثني شَهرٌ، سمعت أمَّ سلمة تحدِّث أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يكثر في دعائه يقول: «اللهم يا مقلِّب القلوب، ثَبِّت قلبي على دينك». قالت: فقلتُ: يا رسولَ الله، أو إن القلوب لتقلب؟ قال: «نعم، ما خلق الله من بشرٍ من بني آدم إلا أَنَّ قلبه بين أصبعين من أصابع الله ـ عزّ وجلّ ـ فإن شاء أقامه. وإن شاء أزاغه فنسأل الله ربنا ألاَّ يُزيغَ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهّاب ـ» قالت: قلت: يا رسولَ الله، ألا تعلمني دعوةً أدعو

---

(١) صحيح. أخرجه الترمذي ٢١٤١ وأحمد ٣/ ١١٢ و٢٥٧ وأبو يعلى ٣٦٨٧ وصححه الحاكم ١/ ٥٢٦ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حديث حسن. والصواب أنه صحيح، له شواهد كثيرة.

(٢) أعله المصنف بالانقطاع. أي بين ابن أبي ليلى وبلال، ومع ذلك فللحديث شواهد كثيرة كما ترى، فهو يعتضد بها، والله أعلم.

(٣) متن صحيح. أخرجه النسائي في «الكبرى» ٧٧٣٨ وابن ماجه ١٩٩ وأحمد ٤/ ١٨٢ وابن أبي عاصم في «السنة» ٢١٩ وصححه ابن حبان ٩٤٣ وكذا الحاكم ١/ ٥٢٥ ووافقه الذهبي وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح.

(٤) أخرجه أحمد ٦/ ٩١ ح ٢٤٠٨٣ وهو منقطع، الحسن البصري لم يسمع من عائشة، لكن الحديث حسن بشواهده، والله أعلم. وأخرجه الآجري ٧٤٧ من وجه آخر وإسناده ضعيف.

بها لنفسي؟ قال: بلى، قولي: اللهم رب النبيِّ محمدٍ، اغفر لي ذنبي، وأَذهِب غيظ قلبي، وأجرْني من مُضِلاَّت الفِتَنِ ما أحييتَني»[1].

[٣٣١٧] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حَيْوَة، أخبرني أبو هانىء أنه سمع أبا عبد الرحمن الحُبُلِيَّ: أنه سمع عبد الله بن عمرو: أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يُصَرِّف كيف شاء». ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اللهم مُصرِّف القلوب، صَرِّفْ قلوبنا إلى طاعَتِكَ»[2]. انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري، فرواه مع النسائي من حديث حَيْوَةَ ابن شُرَيحٍ المصريِّ، به.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

يُحذِّر تعالى عبادَه المؤمنين ﴿فِتْنَةً﴾، أي: اختباراً ومحنة، يعم بها المسيىء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب، بل يعمّهما حيث لم تدفع وترفع، كما قال الإمام أحمد:

[٣٣١٨] حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا شداد بن سعيد، حدثنا غَيلانُ بن جَرير، عن مُطَرِّف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذي قُتِل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ: إنا قرأنا على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ وأبي بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾، لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وَقَعَتْ منا حيث وَقَعَتْ[3]. وقد رواه البزّار من حديث مُطَرِّف، عن الزُّبير، وقال: لا نعرف مُطَرِّفاً روى عن الزبير غير هذا الحديث. وقد روى النسائي من حديث جرير بن حازم، عن الحسن، عن الزُّبير نَحْوَ هذا. وروى ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا مبارك بن فضالة، عن الحسن قال: قال الزُّبير: لقد خُوِّفنا بها. يعني قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾، ونحن مع رسول الله ـ ﷺ ـ وما ظننا أنا خُصِصْنا بها خاصة. وكذا رواه حُمَيد، عن الحسن، عن الزبير رضي الله عنه.

وقال داود بن أبي هند، عن الحسن في هذه الآية قال: نزلت في علي، وعثمان، وطلحة، والزبير، رضي الله عنهم. وقال سفيان الثوريُّ عن الصَّلْت بن دينار، عن عقبة بن صهبان، سمعت الزُّبير يقول: لقد قرأت هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيّون بها: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾. وقد رُوِي من غير وجهٍ، عن الزُّبير بن العَوَّام. وقال السدِّيُّ: نزلت في أهلِ بدْرٍ خاصّةً، فأصابتهم يومَ الجَمَلِ، فاقتتلوا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾؛ يعني أصحاب النبي ـ ﷺ ـ خاصة. وقال في رواية له، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين ألاّ يقروا المنكر بين ظَهْرَانِيهم. فَيَعُمَّهم الله بالعذاب. وهذا تفسيرٌ حَسَنٌ جداً، ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا

---

(١) إسناده لا بأس به، شهر بن حوشب صدوق يخطىء. أخرجه أحمد ٦/ ٣٠٢ ح ٢٦٠٣٦ والآجري في «الشريعة» ٧٤٣، والظاهر أن ما بين المعترضتين مدرج، فقد أخرجه أحمد ٦/ ٣١٥ من وجه آخر عن شهر ابن حوشب عن أم سلمة ليس فيه ما بين المعترضتين. والحديث دون ما بين المعترضتين حسن لشواهده.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٥٤ وأحمد ٢/ ١٦٨ وابن حبان ٩٠٠٢ والآجري في «الشريعة» ٧٤١.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ١٦٥، وإسناده لا بأس به. وأخرجه النسائي في «التفسير» ٢٢٦ وأحمد ١/ ١٦٧ من طريقين عن الحسن قال: قال الزبير به، وهذا منقطع، لكن يشهد لما قبله.

مِنكُمْ خَاصَّةً﴾: هي أيضاً لكم. وكذا قال الضحاك، ويزيد بن أبي حَبيب، وغيرُ واحدٍ. وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنةٍ، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن. رواه ابن جرير. والقول بأن هذا التحذير يعمُّ الصحابة وغيرهم ـ وإن كان الخطاب معهم ـ هو الصحيحُ، ويدل على ذلك الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن، ولذلك كتاب مستقل يُوَضَّح فيه إن شاء الله تعالى، كما فعله الأئمة وأفردوه بالتصنيف.

[٣٣١٩] ومن أخص ما يذكر هاهنا ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله ـ يعني ابن المبارك ـ أنبأنا سيف بن أبي سليمان، سمعت عَديّ بن عَدِيّ الكندي يقول: حدثني مولى لنا أنه سَمع جَدِّي ـ يعني عَدِيَّ بن عميرة ـ يقول: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله ـ عزّ وجلّ ـ لا يُعذّب العامة بِعَمَلِ الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن يُنْكِرُوه فلا يُنْكِرُوه، فإذا فعلوا ذلك عَذَّب الله الخاصَّة والعامة»[١]. فيه رجل مبهم، ولم يُخرجُوه في الكتب الستَّةِ، ولا واحدٌ منهم، والله أعلم.

[٣٣٢٠] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان الهاشمي، حدثنا إسماعيل ـ يعني ابن جعفر ـ أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل، عن حُذيفة بن اليمان: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرُنَّ بالمعروف، ولتنهوُنَّ عن المنكر، أو ليوشِكَنَّ الله أن يَبْعَثَ عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعُنَّه فلا يَستجِيبُ لكم»[٢]. ورواه عن أبي سعيد، عن إسماعيل بن جعفر، وقال: «أو ليبعثن الله عليكم قوماً ثم تدعونه فلا يستجيب لكم».

[٣٣٢١] وقال أحمد: حدثنا عبد الله بن نُمَير، حدثنا رَزين بن حَبيب الجُهَني، حدثني أبو الرُّقاد قال: خرجتُ مع مولاي، فدُفِعتُ إلى حُذَيفة وهو يقول: إن كان الرجل ليتكلّم بالكلمة على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فيصيرُ منافقاً، وإني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات، لتأمرُنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، ولتَحَاضُنَّ على الخير، أو ليُسْحِتَنَّكُم الله جميعاً بعذاب، أو ليؤَمِّرَنَّ عليكم شراركم، ثم يدعو خياركم فلا يُستجاب لهم[٣].

[٣٣٢٢] حديث آخر: قال الإمام أحمدُ أيضاً: حدثني يحيى بن سعيد، عن زكريا، حدثنا عامرٌ قال: سمعت النعمان بن بَشِير ـ رضي الله عنه ـ يخطب يقول ـ وأومأ بإصْبَعِه إلى أُذُنَيه ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثلُ القائم على حدود الله والواقع فيها ـ أو المُدْهِنِ فيها ـ كمثل قوم ركبوا سفينة، فأصاب بعضُهم أسفَلَها وأوْعَرَها وشَرَّها، وأصاب بعضُهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مَرُّوا على من فوقهم

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٢ والطبراني ١٧/ ١٣٩ بهذا الإسناد، ورواه الطبراني ح ٣٤٢ عن عدي بن عدي عن أبيه عن العرس بن عميرة، وكرره ٣٤٣ عن عدي بن عدي عن العرس، وهذا منقطع، وكذا رواه ٣٤٥ هكذا، وهو منقطع أيضاً، لكن عدي هذا ثقة، ورواه عن مولى لهم عن العرس، وللحديث شواهد يتقوى بها، والله أعلم.

(٢) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٠٤.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٣٩٠ ح ٢٢٨٠١ وإسناده ضعيف لجهالة أبي الرّقاد، والخبر موقوف، لكن له شواهد في المرفوع، وتقدم أكثرها.

فآذوهم، فقالوا: لو خَرَقنا في نَصِيبنا خرقاً، فاستقينا منه، ولم نُؤذِ من فوقنا فإن تركوهم وأمرهم هَلَكُوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا جميعاً»[1]. انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم، فرواه في «الشركة» و«الشهادات» والترمذي في «الفتن»، من غير وجه، عن سليمان بن مهران الأعمش، عن عامر بن شَرَاحيل الشعبي، به.

[٣٣٢٣] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حُسَين، حدثنا خَلَف بن خَلِيفة، عن ليث، عن علقمة بن مَرْثد، عن المعرور بن سُوَيد، عن أم سلمة زوج النبي ـ ﷺ ـ قالت: سَمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إذا ظَهرتِ المعاصي في أمّتي، عَمّهم الله بعذاب من عنده. فقلت: يا رسولَ الله، أما فيهم أناسٌ صالحون؟ قال: بلى. قالت: فكيف يَصنعُ أولئك؟ قال: يُصيبهم ما أصابَ الناسَ، ثم يصيرون إلى مغفرةٍ من الله ورضوان»[2].

[٣٣٢٤] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج بن محمد، أخبرنا شريك، عن أبي إسحاق، عن المنذر بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما من قوم يعملون بالمعاصي، وفيهم رجل أعزّ منهم وأمنع لا يغيرون، إلا عَمّهم الله بعقاب ـ أو: أصابهم العقاب»[3]. ورواه أبو داود، عن مُسَدّد، عن أبي الأحوص، عن أبي إسحاق، به.

[٣٣٢٥] وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، سمعتُ أبا إسحاق يحدّث، عن عُبيد الله بن جَرير، عن أبيه. أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ما من قوم يُعْمَل فيهم بالمعاصي، هم أعزُّ وأكثر ممن يعمله، ثمّ لم يغيروه، إلا عَمّهم الله بعقاب»[4]. ثم رواه أيضاً عن وكيع، عن إسرائيل ـ وعن عبد الرزاق، عن معمر ـ وعن أسود، عن شريك ويونس ـ كلهم عن أبي إسحاق السبيعي، به. وأخرجه ابن ماجه، عن علي بن محمد، عن وكيع، به.

[٣٣٢٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا جامع بن أبي راشد، عن مُنذِر، عن الحسن بن محمد، عن امرأته، عن عائشة تبلغ به النبيّ ـ ﷺ ـ: «إذا ظهر السوءُ في الأرض، أنزل الله بأهلِ الأرضِ بأسه. قالت: وفيهم أهلُ طاعة الله؟ قال: «نعم، ثم يصيرون إلى رحمةِ الله»[5].

﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يُنَبِّه تعالى عبادَه المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فَكَثّرهم، ومُسْتَضعفِين خائفين فقوّاهم ونَصَرهم، وفقراءَ عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٦٨٦ والترمذي ٢١٧٣ وأحمد ٤/ ٢٦٨ و٢٧٠ و٢٧٣ وابن حبان ٢٩٧.

(٢) جيد. أخرجه أحمد ٦/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥ و ٣٠٤ و٤١٨، وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢٦٨: رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح.

(٣) جيد. أخرجه أبو داود ٤٣٣٩ وأحمد ٤/ ٣٦١ و ٣٦٣ والطبراني ٢٣٧٩، وإسناده حسن في الشواهد.

(٤) جيد. أخرجه أحمد ٤/ ٣٦٤ و٣٦٦ وابن ماجه ٤٠٠٩ وابن حبان ٣٠٠ والطبراني ٢٣٨٠ والبيهقي ١٠/ ٩١، وإسناده حسن في الشواهد والمتابعات. وفي الباب أحاديث.

(٥) أخرجه أحمد ٦/ ٤١، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٢١٤٦: فيه امرأة لم تسمّ اهـ. وله شواهد يعتضد بها، مثل حديث أم سلمة السابق، وحديث أم حبيبة المخرج في البخاري ٣٣٤٦ ومسلم ٢٨٨٠ وغيرهما.

وهذا كان حالَ المؤمنين حالَ مقامهم بمكة قليلين مستخفين مُضطهدين، يخافون أن يتخطَّفَهم الناسُ من سائر بلاد الله، من مشرك ومجوسيٍّ ورومي، كُلُّهم أعداء لهم لِقِلَّتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دَأْبهم حتى أُذِن لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها، وقَيَّض لهم أهلها، آووا ونَصَروا يوم بدر وغيره وآسَوا بأموالهم، وبَذَلوا مُهَجَهم في طاعة الله وطاعة رسوله. قال قتادةُ بن دِعامة السَّدُوسِيُّ ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قال: كان هذا الحيُّ من العَرَب أذلَّ الناس ذلاً، وأشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً، وأبينه ضلالاً، من عاشَ منهم عاشَ شقياً، ومن مات منهم رُدِّيَ في النار، يؤكلون ولا يأكلون. والله ما نَعْلَم قَبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذٍ كانوا أشر منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام فَمَكَّن به في البلاد، وَوَسَّع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم. فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم منعمٌ يحبُّ الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

[٣٣٢٧] قال عبد الله بن أبي قتادة والزُّهري: أنزِلَتْ في أبي لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى بني قُرَيظة لينزلوا على حكم رسول الله ـ ﷺ ـ فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك ـ وأشار بيده إلى حلقه ـ أي: إنه الذَّبح. ثم فطن أبو لبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذَواقاً حتى يموتَ أو يتوب الله عليه. وانطلق إلى مسجد المدينة، فَرَبط نفسه في ساريةٍ منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتى كان يَخِرُّ مغشياً عليه من الجَهْدِ، حتى أنزل الله توبته على رسوله. فجاء الناس يُبَشِّرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا ليحلّوه من السارية، فحلف لا يَحُلُّه منها إلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ بيده، فَحلّه، فقال: يا رسولَ الله، إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقةً. فقال: «يجزيك الثلثُ أن تصدق به»[١].

وقال ابن جرير: حدثني الحارثُ، حدثنا عبد العزيز، حدثنا يونُس بن الحارث الطائفيّ، حدثنا محمَّد بن عبيد الله أبو عون الثقفي، عن المغيرة بن شعبة قال: نزلت هذه الآيةُ في قتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾... الآية[٢].

[٣٣٢٨] وقال ابنُ جَرير أيضاً: حدثنا القاسم بن بشر بن معروف، حدثنا شَبَابةُ بن سَوَّارٍ، حدثنا محمد بن المحرم[٣] قال: لقيتُ عطاء بن أبي رباح فحدَّثني قال: حدثني جابر بن عبد الله: أن أبا سفيان خَرَجَ من مكة، فأتى جبريل رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: إنَّ أبا سفيان بمكان كذا وكذا. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه: إن أبا سفيان في موضع كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتُمُوا. فكتب رجل من المنافقين إليه: إن

---

(١) أخرجه الطبري ١٥٩٣٧ عن الزهري مرسلاً، وكرره ١٥٩٣٨ عن عبد الله بن أبي قتادة، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٤٧٧ بدون سند.

(٢) لا يصح هذا الأثر عن المغيرة. أخرجه الطبري ١٥٩٣٩، وفي إسناده يونس بن الحارث الطائفي، جاء في الميزان ٩٩٠٢: ضعفه يحيى في رواية عباس، وفي رواية أحمد بن أبي مريم عن يحيى: ليس به بأس يكتب حديثه، وقال أحمد: ضعيف. وكذا قال النسائي، وقال علي المديني: كنا نضعفه ضعفاً شديداً. ثم ذكر له الذهبي حديثاً غير هذا وعده من مناكيره. فالأثر السابق عن الزهري وابن أبي قتادة أرجح.

(٣) كذا في سائر النسخ، وفي الطبري «محمد المحرم» ليس فيه لفظ «بن».

محمداً يريدكم، فَخُذُوا حِذْرَكم. فأنزل الله: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ الآية. هذا حديثٌ غريبٌ جداً، وفي سنده وسياقه نظر[١].

[٣٣٢٩] وفي الصحيحين قصة حاطب بن أبي بلتعة أنه كتب إلى قُرَيش يُعلِمُهم بِقَصْدِ رسول الله ـ ﷺ ـ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه، واستحضَرَ حاطباً فأقر بما صنع، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسولَ الله، ألا أضربُ عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: «دَعْهُ، فإنه قد شَهِدَ بدراً، وما يدريك لعل الله اطَّلَعَ على أهلِ بَدْر فقال: اعمَلُوا ما شئتم فقد غَفَرْتُ لكم»[٢]. قلت: والصحيحُ أنَّ الآية عامةٌ، وإن صَحَّ أنها وَرَدَتْ على سبب خاص، فالأخذُ بعمومِ اللفظ لا بخصوص السبب عند الجمهور من العلماء. والخيانةُ تعم الذنوبَ الصِّغار والكبار اللازمة والمتعدية. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾: الأمانة: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد، يعني الفريضة. يقول: ﴿لَا تَخُونُوا﴾ لا تنقضُوها. وقال في رواية أخرى: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، يقول: بترك سنته وارتكاب معصيته.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في هذه الآية: أي: لا تظهروا لله من الحق ما يرضى به منكم، ثم تخالفوه في السر إلى غيره؛ فإن ذلك هلاكٌ لأماناتكم، وخيانةٌ لأنفسكم. وقال السدّيُّ: إذا خانوا الله والرسولَ فقد خانُوا أماناتهم، وقال أيضاً: كانوا يسمعون من النبي ـ ﷺ ـ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين. وقال عبد الرحمن بن زيد: نهاكم أن تخونوا الله والرسول، كما صَنَعَ المنافقون. وقولُه تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، أي: اختبار وامتحان منه لكم؛ إذ أعطاكُمُوها لِيَعلَمَ أَتَشكرونه عليها وتُطيعونه فيها؟ أو تَشْتَغِلُون بها عنه، وتعتاضُون بها منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥]، وقال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]... الآية. وقولُه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، أي: ثوابه وعطاؤه. وجناتُه خيرٌ لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يُوجَدُ منهم عَدُوٌّ، وأكثرهم لا يُغني عنك شيئاً، والله ـ سبحانه ـ هو المتصرفُ المالك للدنيا والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة. وفي الأثر يقول الله تعالى: «ابن آدم، اطلبني تَجِدْني، فإن وَجَدْتني وجدت كل شيء، وإن فُتُّكَ فاتك كل شيء، وأنا أَحَبُّ إليك من كل شيء».

[٣٣٣٠] وفي الصحيح عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وَجَد بهنَّ حلاوةَ الإيمان: من كان الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يحبُّ المرءَ لا يُحبُّه إلا لله، ومن كان أن يُلْقى في النار أحبَّ إليه

---

(١) هذه العبارة ذكرها السيوطي في «أسباب النزول» ٥٢٢ ولم يعزها لابن كثير. والحديث أخرجه الطبري ١٥٩٣٦، وفي إسناده محمد المحرم أو ابن المحرم، لم أجد من ترجمه، وبقية رجال الإسناد ثقات معروفون. والآية عامة، وهو ما اختاره الطبري وابن جرير.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٠٠٧ ومسلم ٢٤٩٤ وأبو داود ٢٦٥٠ والترمذي ٣٣٠٢ وأحمد ١/٧٩ وأبو يعلى ٣٩٤ من حديث عليّ.

من أن يَرجعَ إلى الكفرِ بعد إذْ أنقذه الله منه»(١). بل حُبُّ الله ورسولِه مقدَّم على الأولاد والأموال والنفوس، كما ثبت في الصحيح أنه ـ عليه السلام ـ قال:

[٣٣٣١] «والذي نفسي بيده، لا يُؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من نفسِه وماله والناس أجمعينَ»(٢).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

قال ابن عباس، والسدي، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، ومقاتل بن حيان: ﴿فُرْقَانًا﴾، مخرجاً. زاد مجاهد: «في الدنيا والآخرة». وفي رواية عن ابن عباس: فرقاناً: نجاة، وفي رواية عنه: نصراً. وقال محمد بن إسحاق: ﴿فُرْقَانًا﴾ أي: فَصْلاً بين الحقّ والباطل. وهذا التفسيرُ من ابن إسحاق أعمُّ مما تقدَّم، وقد يستلزم ذلك كلَّه، فإن من اتَّقى الله بِفِعْل أوامره وتَرْكِ زواجره، وُفِّق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبَب نَصْرِه ونجاته ومَخْرجه من أمور الدنيا، وسَعادَتِهِ يوم القيامة. وتكفير ذنوبه ـ وهو محوُها. وَغَفْرُها: سترها عن الناس ـ سبباً لنيل ثواب الله الجزيل، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٢٨].

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾، لِيُقَيِّدُوك. وقال عطاء، وابن زيد: ليحبسوك. وقال السدّيُّ: الإِثبات هو الحبس والوثاق. وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء. وهو يجمع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء.

[٣٣٣٢] وقال سُنَيد، عن حَجَّاج، عن ابن جُرَيج، قال عطاء: سمعت عُبَيد بن عُمَير يقول: لما ائتمروا بالنبي ـ ﷺ ـ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، قال له عمُّه أبو طالب: هل تَدْرِي ما ائتمَروا بك؟ قال: «يريدون أن يَسْحَروني أو يقتلوني أو يُخرِجوني». فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: «ربِّي». قال: نعم الربُّ ربك، استوص به خيراً. فقال: «أنا أستوصي به؟! بل هو يستوصي بي»(٣).

[٣٣٣٣] وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني محمد بن إسماعيل البصري المعروف بالْوَسَاوِسيِّ، أخبرنا عبد المجيد(٤) بن أبي روَّاد، عن ابن جُرَيج، عن عطاء، عن عُبَيد عن عُمَير، عن المطَّلب بن أبي وَدَاعة: أن

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢١ و٦٠٤١ ومسلم ٤٣ والنسائي ٨/ ٩٦ وابن ماجه ٤٠٣٣ وأحمد ٣/ ١٧٢ وابن حبان ٢٣٧ من حديث أنس.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٤٤ والنسائي ٨/ ١١٥ من طريق عبد العزيز عن أنس مرفوعاً بهذا اللفظ. وأخرجه البخاري ١٥ ومسلم ٤٤ ح ٧٠ والنسائي ٨/ ١١٤ ـ ١١٥ وابن ماجه ٦٧ وأحمد ٣/ ١٧٧ و٢٠٧ وأبو يعلى ٣٠٤٩ من طريق قتادة عن أنس مرفوعاً بلفظ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».

(٣) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ١٥٩٧٨، وفي إسناده ثلاث علل: حجاج هو ابن أرطأة اختلط بأَخَرَة، وهو مدلس وقد عنعن، وابن جريج مدلس وقد عنعن، وعبيد بن عمير تابعي، فهو مرسل.

(٤) وقع في الأصول «عبد الحميد» والتصحيح عن الطبري وكتب الرجال.

أبا طالب قال لرسول الله ـ ﷺ ـ: ما يأتمر بك قومك؟ قال: يريدون أن يَسْحروني أو يقتلوني أو يُخرجوني. فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: ربي. قال: نعم الرب ربك، فاستوص به خيراً. قال: أنا أستوصي به؟! بل هو يستوصي بي. قال: فنزلت: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية[1]. وَذِكْرُ أبي طالب في هذا غريبٌ جداً، بل منكَرٌ، لأن هذه الآية مدنية، ثم إن هذه القصة واجتماعَ قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل، إنما كان ليلة الهجرة سواء، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين، لمَّا تمكنوا منه واجترؤوا عليه بعد موت عمه أبي طالب، الذي كان يَحُوطُه وَيَنْصُره ويقومُ بأعبائه.

[٣٣٣٤] والدليلُ على صحة ما قلنا ما رواه الإمام محمدُ بن إسحاقَ بن يسار صاحبُ «المَغَازِي» عن عبد الله بن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس ـ قال[2]: وحدثني الكلبي، عن باذان مولى أم هانىء، عن ابن عباس: أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمعت أنكم اجتمعتم، فأردت أن أحضركم ولن يَعْدَمكم رأيي ونصحي. قالوا: أجل، ادخل. فدخل معهم فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمره. فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم. قال: فصرخ عدوّ الله الشيخُ النجديُّ فقال: والله ما هذا لكم برأي، والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم، فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم، قال: فانظروا في غير هذا. قال: فقال قائل منهم: فأخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره في غيركم. فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قَوْلِهِ، وطلاقة لسانه، وأخذَ القلوب ما تَسْتمعُ من حديثه؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم، قالوا: صدق والله. فانظروا رأياً غير هذا. قال: فقال أبو جهل لعنه الله: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، ما أرى غيره. قالوا: وما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نَهْداً، ثم يُعطَى كلُّ غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يَقْوَونَ على حرب قريش كلها. فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العَقْل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه. قال: فقال الشيخُ النجديُّ: هذا ـ والله ـ الرأيُ، القولُ ما قال الفتى، لا رأي غيره. قال: فَتَفَرَّقوا على ذلك وهم مجمعون له. فأتى جبريل النبي ـ ﷺ ـ فأمره ألاَّ يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم. فلم يبت رسول الله ـ ﷺ ـ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال» يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾، وأنزل في قولهم: تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠]، وكان ذلك اليومُ يُسَمَّى يوم

---

(١) أخرجه الطبري ١٥٩٧٧، وإسناده ضعيف: عبد المجيد بن أبي رواد ضعفه غير واحد، وابن جريج مدلس وقد عنعن. فالخبر واه من جهة الإسناد، منكر من جهة المتن كما ذكر المصنف رحمه الله.

(٢) القائل هو ابن إسحاق.

الرحمةِ، لِلَّذي اجتَمَعُوا عليه من الرأي[١]. وعن السدّيّ نحو هذا السياق، وأنزل الله في إرادتهم إخراجَه قولَه تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ٧٦]. وكذا روى العَوْفي، عن ابن عباس. ورُوي عن مجاهد، وعُروةَ بن الزبير، وموسى بن عقبةَ، وقتادةَ، ومِقْسَم، وغير واحد، نحو ذلك.

[٣٣٣٥] وقال يُونُسُ بنُ بكَير، عن ابن إسحاقَ: فأقام رسولُ الله - ﷺ - ينتظر أمر الله، حتى إذا اجتمعَت قُريشٌ فمكرت به، وأرادوا به ما أرادوا، أتاه جبريل - عليه السلام - فأمره ألا يبيتَ في مكانه الذي كان يبيت فيه. فدعا رسولُ الله - ﷺ - علي بن أبي طالب، فأمره أن يبيت على فراشه وأن يَتسجّى ببُردٍ له أخضَرَ، ففعل. ثم خرج رسول الله - ﷺ - على القوم وهم على بابه، وخَرَج معه بحَفْنَةٍ من تراب، فجعل يَذُرُّها على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد - ﷺ - وهو يقرأ: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩][٢]. وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: ورُوي عن عكرمة ما يُؤكِّد هذا.

[٣٣٣٦] وقد روى ابن حبّان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من حديث عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: دخلت فاطمةُ على رسول الله - ﷺ - وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك يا بُنَيَّةُ؟» قالت: يا أبتِ، ما لي لا أبكي؟ وهؤلاء الملأ من قُرَيش في الحجر يتعاقدون باللات والعُزّى ومناةَ الثالثة الأخرى، لو قد رأوكَ لقاموا إليك فيقتلونَكَ، وليس منهم إلا من قد عَرَف نصيبه من دمك. فقال: «يا بُنَيَّة، ائتني بوضُوءٍ». فتوضأ رسول الله - ﷺ - ثم خرج إلى المسجد. فلما رأوه قالوا: إنما ها هو ذا. فطأطؤوا رؤوسهم، وسقطت أذقانُهم بين أيديهم، فلم يرفَعُوا أبصارهم. فتناول رسولُ الله - ﷺ - قبضةً من تراب فَحَصَبَهُم بها، وقال: شاهتِ الوجوهُ. فما أصاب رجلاً منهم حصاةٌ من حَصَياتِهِ إلا قُتل يوم بدر كافراً[٣]. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ولا أعرف له علة.

[٣٣٣٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، أخبرني عثمان الجَزَري، عن مِقْسَم مولى ابن عباس، أخبره عن ابن عباسٍ في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾. قال: تشاورت قريش ليلةً بمكة، فقال بعضُهم: إذا أصبحَ فَأَثْبِتوه بالوَثاق، يريدون النبي - ﷺ - وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أَخْرِجُوه. فأطلع الله نبيَّه على ذلك، فبات علي - رضي الله عنه - على فراش رسول الله - ﷺ - وخرج رسول الله - ﷺ - حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسُون علياً، يحسبونه النبي - ﷺ - فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً رَدّ الله تعالى مكرهم، فقالوا: أين صاحبُك هذا؟ قال: لا أدري. فاقتصُّوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصَعِدوا في الجبل فمرّوا بالغار، فرأوا على بابه نَسْجَ العنكبوتِ

---

(١) أخرجه في «الدلائل» ٢/ ٤٦٨ - ٤٦٩ من طريق الحاكم، وإسناده ضعيف. ففي الطريق الأولى ابن إسحاق مدلس وقد عنعن، وفي الطريق الثانية الكلبي، وهو متروك متهم. وأخرجه البيهقي في «الدلائل» ٢/ ٤٦٦ - ٤٦٧ عن ابن إسحاق مرسلاً. وانظر سير «ابن هشام» ١/ ٤٨٠.

(٢) الحديث أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٢/ ٤٦٩ - ٤٧٠ عن ابن إسحاق معضلاً، وانظر ما بعده.

(٣) جيد. أخرجه الحاكم ١/ ١٦٣ وأحمد ١/ ٣٠٣ و٣٦٨ وابن حبان ٦٥٠٢ والبيهقي في «الدلائل» ٦/ ٢٤٠. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

فقالوا: لو دخل ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه. فمكث فيه ثلاث ليال[1]. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، أي: فمكرت بهم بكيدي المتين، حتى خلصتك منهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يُخبِرُ تعالى عن كُفرِ قريش وعُتُوِّهم وتمرُّدِهم وعنادهم، ودعواهم الباطلَ عند سماع آياته حين تتلى عليهم أنهم يقولون: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾. وهذا منهم قولٌ بلا فعل، وإلا فقد تحدوا غير ما مرَّةٍ أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً. وإنما هذا قولٌ منهم يَغُرّون به أنفسهم ومن اتبعهم على باطلهم. وقد قيل: إن القائل لذلك هو النضرُ بن الحارث ـ لعنه الله ـ كما قد نصَّ على ذلك سعيد بن جُبَير، والسدّيُ وابن جُرَيج وغيرهم؛ فإنه ـ لعنه الله ـ كان قد ذهب إلى بلاد فارس، وتعلَّم من أخبار ملوكهم رسْتم وإسفنديار، ولما قَدم وَجَدَ رسول الله ـ ﷺ ـ قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس القرآن، فكان إذا قام ـ ﷺ ـ من مجلس، جلس فيه النضر فَيُحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أيهما أحسنُ قَصَصاً، أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى، أمر رسول الله ـ ﷺ ـ أن تُضرَبَ رقبته صبراً بين يديه، ففُعِل ذلك، ولله الحمد. وكان الذي أسره المقداد بن الأسود رضي الله عنه، كما قال ابن جرير:

[٣٣٣٨] حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بِشرٍ، عن سعيد بن جُبَير قال: قَتَل النبيُّ ـ ﷺ ـ يوم بدر صبراً عُقبة بن أبي مُعَيط، وطُعَيمة بن عَدِيّ، والنضر بن الحارث. وكان المقداد أسر النضر، فلما أمر بقتله قال المقداد: يا رسولَ الله، أسيري! فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إنه كان يقول في كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ ما يقول. فأمر رسول الله ـ ﷺ ـ بقتله، فقال المقداد: يا رسول الله، أسيري! فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: اللهم أغنِ المقداد من فضلك. فقال المقداد: هذا الذي أردت. قال: وفيه أنزلت هذه الآيـــة: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾[2]. وكذا رواه هُشيم، عن أبي بشر جعفر بن أبي وَحْشِيّة، عن سعيد بن جُبَير أنه قال: المطعم بن عَدِيّ بدل طعيمة. وهو غلط، لأن المطعم بن عدي لم يكن حيّاً يوم بدر، ولهذا قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ يومئذٍ:

[٣٣٣٩] «لو كان المُطعِم حَيّاً، ثم سألني في هؤلاء النَّتْنى، لوهبتهم له»[3]. يعني الأسارى؛ لأنه كان

---

(١) أخرجه أحمد ٣٢٥١ والطبراني ١٢١٥٥، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٠٢٨: فيه عثمان بن عمرو الجزري وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله ثقات. وقال الشيخ أحمد شاكر: في إسناده نظر. وانظر الضعيفة ١١٢٨ و ١١٢٩.

(٢) أخرجه الطبري ١٥٩٩٣ وإسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم، لكن ذكر المطعم وهم من أحد الرواة، وقد نبه على ذلك ابن كثير رحمه الله.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٣٩ و٤٠٢٤ وأبو داود ٢٦٨٩ وأحمد ٤/ ٨٠ وأبو يعلى ٧٤١٦ والبيهقي ٩/ ٦٧ من حديث جبير بن مطعم.

قد أجار رسولَ الله ـ ﷺ ـ يوم رجع من الطائف. ومعنى: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وهو جمعُ أسطورة، أي: كتبهم اقتبسها، فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس. وهذا هو الكَذِبُ البحتُ، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ [الفرقان: ٥ ـ ٦]، أي: لمن تاب إليه وأناب؛ فإنه يتقبل منه ويصفح عنه. وقولُه: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾، هذا من كثرةِ جهلهم وعُتُوِّهم وعنادهم وشدة تكذيبهم، وهذا مما عِيبُوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: «اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدِنا له، وَوَفِّقنا لاتباعه». ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب، وتقديمَ العُقوبة كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣﴾ [العنكبوت: ٥٣]. ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾ [ص: ١٦]، ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ [المعارج: ١ ـ ٣]. وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة، كما قال قوم شُعَيب له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وقال هؤلاء: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

قال شُعبَةُ، عن عبد الحميد صاحب الزِّيادي، عن أنس بن مالك قال: هو أبو جهل بن هشام قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾... الآية. رواه البخاري، عن أحمد ومحمد بن النضر كلاهما عن عبيد الله بن معاذ عن أبيه عن شعبة به، وأحمد هذا هو أحمد بن النضر بن عبد الوهّاب، قاله الحاكم أبو أحمد، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري. والله أعلم.

وقال الأعمشُ، عن رجل، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾، قال: هو النضر بن الحارث ابن كَلَدةَ، قال: فأنزل الله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾. وكذا قال مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبير، والسدّيُّ: إنه النضرُ بن الحارث. زاد عطاء: فقال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾، وقال عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾. قال عطاء: ولقد أنزل فيه بضع عشرة آية من كتاب الله عز وجل.

[٣٣٤٠] وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن أحمد بن الليث، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو نُمَيلة، حدثنا الحسين، عن ابن بُرَيدَة، عن أبيه قال: رأيتُ عمرو بن العاص واقفاً يوم أحد على فرس، وهو يقول: اللهم، إن كان ما يقول محمد حقاً فاخسِفْ بي وبفرسي[١]. وقال قتادةُ في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾... الآية، قال: قال ذلك سَفَهة هذه الأمة وجَهَلتها، فعاد الله بعائدته ورحمته على سَفَهة هذه الأمة وجهلتها. وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾.

---

(١) فيه راوٍ لم يسم، وهو ابن بريدة، ففي الإسناد جهالة، والخبر غريب.

[٣٣٤١] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود، حدثنا عكرمة بن عمار، عن أبي زُمَيل سماك الحنفي، عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لبَّيكَ اللَّهمَّ لبَّيك، لا شريك لك. فيقول النبيُّ ـ ﷺ ـ: «قَدْ قَدْ» ويقولون: لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تَمْلِكُه وما مَلَك. ويقولون: غفرانك، غفرانك[1]. فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾. قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبي ـ ﷺ ـ والاستغفار، فذهب النبي ـ ﷺ ـ وبَقِي الاستغفارُ. وقال ابن جَرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا أبو معشر، عن يزيد بن رُومان ومحمد بن قيسٍ قالا: قالت قُريشٌ بعضُها لبعض: محمد أكرمه الله من بيننا، ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فلما أمْسَوا نَدِموا على ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللهم! فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾، يقول: ما كان الله ليعذِّب قوماً وأنبياؤهم بين أظهرهم حتى يخرجهم، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، يقول: وفيهم من قد سبق له من الله الدخولُ في الإيمان، وهو الاستغفار ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني: يصلون، يعني بهذا أهل مكة. ورُوي عن مجاهد، وعكرمة، وعطية العوفي، وسعيد بن جُبَير، والسُّدِّيّ، نحو ذلك. وقال الضحاك وأبو مالك: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، يعني: المؤمنين الذين كانوا بمكة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الغفار بن داود، حدثنا النضر بن عَرَبي، قال: قال ابن عباس: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مُجارين من قوارع العَذاب ما داما بين أظهرهم، فأمان قَبَضه الله إليه، وأمان بقي فيكم، قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾. وقال أبو صالح عبد الغفار: حدثني بعض أصحابنا أن النضر بن عربيّ حَدَّثه هذا الحديث، عن مجاهد، عن ابن عباس. وروى ابن مَرْدُويه وابن جَرير، عن أبي موسى الأشعريِّ نحواً من هذا. وكذا رُوِي عن قتادة وأبي العلاء النحويِّ المقرىء.

[٣٣٤٢] وقال الترمذي: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن نُمَير، عن إسماعيلَ بن إبراهيمَ بن مهاجر، عن عَبّاد بن يوسف، عن أبي بُرْدَة بن أبي موسى، عن أبيه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنزلَ الله عليَّ أمانين لأمتي: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾، فإذا مَضيتُ تركتُ فيكم الاستغفار»[2].

[٣٣٤٣] ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه، من حديث عبد الله ابن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث، عن دَرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الشيطان قال: وعزَّتِكَ يا ربِّ، لا أبرحُ أغْوِي عبادك ما دامتْ أرواحُهم في أجسادِهِمْ، فقال الربُّ: وعِزَّتي وجلالي لا أزالُ أغفِرُ لهم ما استغفروني»[3] ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

---

(١) ضعيف. إسناده غير قوي من أجل موسى بن مسعود، حيث ضعفه غير واحد. والخبر منكر فإن الآية نزلت عقب بدر، والحديث يدل على أنه كان قبل الهجرة.

(٢) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٠٨٣ وضعفه بقوله: غريب، وإسماعيل بن مهاجر يضعّف في الحديث اهـ وله علة ثانية: عباد بن يوسف الكوفي، مجهول كما في التقريب. وعلة ثالثة: سفيان بن وكيع ضعفه غير واحد. فالخبر ضعيف. وقد ورد عن ابن عباس موقوفاً كما تقدم آنفاً، وهو أصح.

(٣) إسناده ضعيف لأنه من رواية درّاج عن أبي الهيثم، وتقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١٧ ـ ١٨.

[٣٣٤٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا رِشْدِين هو ابن سَعْدٍ، حدثني معاوية ابن سَعِيدٍ التُّجِيبِيُّ، عمن حَدَّثه، عن فَضَالة بن عُبَيدٍ، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «العبد آمن من عذابِ الله ما استغفَرَ الله عز وجل»[1].

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يخبر تعالى أنهم أهلٌ لأن يعذِّبهم، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام رسول الله ـ ﷺ ـ بين أظهرهم، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم، أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقُتل صناديدهم وأسِرت سَرَاتُهم. وأرشدهم تعالى إلى الإستغفار من الذنوب، التي هم مُتَلَبسُون بها من الشرك والفساد. قال قتادة والسدِّيُّ وغيرهما: لم يكن القومُ يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون لما عذبوا. واختاره ابن جرير، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لأوقع بهم البأس الذي لا يُرَدّ، ولكن دُفِع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى في يوم الحُدَيبية: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح: ٢٥]. قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن ابن أبزى قال: كان النبي ـ ﷺ ـ بمكة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، قال: فخرج النبي ـ ﷺ ـ إلى المدينة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. قال: وكان أولئك البقية من المؤمنين الذين بقوا فيها يستغفرون ـ يعني بمكة ـ فلما خرجوا أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾، قال: فأذن الله في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم. ورُوي عن ابن عباس، وأبي مالك، والضحاك، وغير واحد، نحو هذا. وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم. قال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا يحيى بن واضح، عن الحسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة والحسن البصري قالا: قال في الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾، فنسختها الآية التي تليها: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، فقُوتلوا بمكة، فأصابهم فيها الجوع والضر. وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي نميلة يحيى بن وَاضِح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، عن ابن جُرَيج، وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، ثم استثنى أهل الشرك فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾، أي: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام، أي الذي بمكة، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة عنده والطواف به. ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٢٠ ح ٢٣٤٣٤، وإسناده ضعيف له علتان رشدين بن سعد واهٍ، وفيه رجل لم يسمّ.

أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾، أي: هم ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهله النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٧ ـ ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢١٧]. . . الآية.

[٣٣٤٥] وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسير هذه الآية: حدثنا سليمان بن أحمد ـ هو الطبراني ـ حدثنا جعفر بن إلياس بن صدقة المصري، حدثنا نُعَيم بن حماد، حدثنا نوح بن أبي مريم، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: سئل رسول الله ـ ﷺ ـ: من آلُك؟ قال: كل تقيّ، وتلا رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1].

[٣٣٤٦] وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو بكر الشافعي، حدثنا إسحاق بن الحسن، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن إسماعيل بن عُبَيد بن رفاعة، عن أبيه، عن جده قال: جمع رسول الله ـ ﷺ ـ قريشاً فقال: هل فيكم من غيركم؟ قالوا: فينا ابن أختنا، وفينا حليفنا، وفينا مولانا. فقال: حليفنا منا، وابن أختنا منا، ومولانا منا، إنَّ أوليائي منكم المتقون[2]. ثم قال: هذا صحيحٌ، ولم يُخرجاه. وقال عروة، والسدّيّ، ومحمد بن إسحاقَ في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾، قال: هم محمد ـ ﷺ ـ وأصحابه، رضي الله عنهم. وقال مجاهد: هم المجاهدون مَن كانوا، وحيث كانوا.

ثم ذكر تعالى ما كانوا يَعتمِدُونه عند المسجد الحرام وما كانوا يعامِلُونه به، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾. قال عبد الله بن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وأبو رجاء العُطَارِديُّ، ومحمد بن كعب القُرَظي، وحُجْر بن عَنْبَس، ونُبيط بن شُرَيط، وقتادةُ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الصفير. وزاد مجاهد: وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم. وقال السدّيُّ: المُكَاء الصَّفِيرُ على نحو طير أبيضَ يقال له: المُكَاء، يكون بأرضِ الحِجَازِ. ﴿وَتَصْدِيَةً﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو خَلّاد سليمانُ بن خَلّاد، حدثنا يونُس بن محمد المؤدِّب، حدثنا يعقوبُ ـ يعني ابن عبد الله الأشعري ـ حدثنا جعفر بنِ المغيرة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾، قال: كانت قريشٌ تطوف بالكعبة عراة تَصْفِر وتُصَفِّق ـ والمكاء: الصفير، وإنما شبهوا بصفير الطير، وتصدية: التصفيق. وهكذا روى علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عباس، وكذا روى عن ابن عُمَر، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وأبي سَلَمة بن عبد الرحمن، والضحاك، وقتادة وعطية العَوفيّ، وحُجْر بن عَنْبَسٍ، وابن أَبْزَى نحو هذا. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا أبو عامر،

---

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني في «الصغير» ٣١٨ و«الأوسط» كما في «المجمع» ١٧٩٤٦ من حديث أنس. قال الهيثمي: فيه نوح بن أبي مريم، وهو ضعيف اهـ واتهمه الحاكم بالوضع. راجع الميزان ٩١٤٣. وما بعده أصح منه، وفي الباب أحاديث.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٣٤٠ والحاكم ٢/ ٣٢٨ والطبراني في «الكبير» ٤٥٤٤ والبزار ٢٧٨٠ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٢٦ وقال: ورجال أحمد والبزار وإسناد الطبراني ثقات! وصححه الحاكم! ووافقه الذهبي! والصواب أنه ضعيف، مداره على إسماعيل بن عبيد، وقد وثقه ابن حبان وحده، وأبو حذيفة، ضعفه غير واحد. وكونه عليه السلام جمع قريشاً غريب، وقد صح بغير هذا السياق.

حدثنا قرة، عَن عَطِيَّة، عن ابن عُمَر في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾، قال: المكاء: الصَّفِيرُ، والتصدية: التصفيق. قال قرة: وحَكَى لنا عطية فعل ابن عمر، فَصَفَر ابن عُمَر، وأمال خَدَّه. وصَفَّق بيديه. وعن ابن عمر أيضاً أنه قال: كانوا يضعون خُدودهم على الأرض ويُصَفقون ويصفِرُونَ. رواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عنه. وقال عكرمة: كانوا يطوفون بالبيت على الشمال. قال مجاهدٌ: وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ـ ﷺ ـ صلاته. وقال الزهري: يستهزئون بالمؤمنين. وعن سعيد بن جُبَير وعبد الرحمن بن زيد: ﴿وَتَصْدِيَةً﴾، قال: صدُّهم الناس عن سبيل الله عز وجل. قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، قال الضحاك، وابن جُرَيج، ومحمد بن إسحاقَ: هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي. واختاره ابن جرير، ولم يحك غيره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عُمَر، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد قال: عذاب أهل الإقرار بالسيف، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قال محمد بن إسحاق: حدثني الزهري، ومحمد بن يحيى بن حَبَّان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ ـ قالوا: لما أُصِيبَتْ قريشٌ يوم بدر، ورجع فَلُّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعِيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أميَّةَ، في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارةٌ، فقالوا: يا معشرَ قريش، إن محمداً قد وَتَركم وقَتَل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حَرْبِهِ، لعلنا أن ندركَ منه ثأراً بمن أصيب منا! ففعلوا، قال: ففيهم ـ كما ذُكِر عن ابن عباس ـ أنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾. وهكذا رُوِي عن مجاهد، وسعيد بن جُبير، والحكم بن عُتَيبة، وقتادة، والسدِّيّ، وابن أبْزَى: أنها نَزَلَتْ في أبي سفيان ونفقته الأموال في أُحُدٍ لقتال رسول الله ـ ﷺ ـ. وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر. وعلى كلِّ تقدير فهي عامةٌ، وإن كان سبب نزولها خاصاً، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم، ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾، أي: ندامَةً، حيث لم تُجْدِ شيئاً. لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متِمٌّ نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينِه، ومُعْلن كلمته، ومُظْهِرُ دينه على كلِّ دين. فهذا الخزيُ لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار. فمن عاش منهم رأى بعينه وسَمع بأُذنه ما يسوءُه، ومن قُتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبديّ والعذاب السرمديّ. ولهذا قال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾: فيميز أهلَ السعادة من أهل الشقاء. وقال السدّيّ: يميز المؤمن من الكافر. وهذا يحتملُ أن يكون هذا التمييز في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤]. وقال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]،

وقال تعالى: ﴿وَامْتَٰزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: ٥٩]. ويَحتمِلُ أن يكون هذا التمييزُ في الدنيا، بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وتكون اللام معللة لما جعل الله للكفار من مال ينفقونَه في الصد عن سبيل الله، أي: إنما أقدرناهم على ذلك ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، أي: من يُطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يَعصيه بالنكول عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧]. . . الآية، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] الآية، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ونظيرتُها في براءة أيضاً. فمعنى الآية على هذا: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم، وأقْدَرْناهم على إنفاق الأموال وَبَذْلِها في ذلك، ليتميز الخبيث من الطيب، فيجعل الخبيث بعضه على بعض، ﴿فَيَرْكُمَهُ﴾، أي: يجمعه كله، وهو جمعُ الشيء بعضه على بعض، كما قال تعالى في السحاب: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ [النور: ٤٣] أي: متراكماً متراكباً، ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ﴾، أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا۟ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّ اللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى لنبيِّه محمدٍ ـ ﷺ ـ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟﴾، أي: عما هم فيه من الكفر والمشاقَّةِ والعناد، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة، يغفر لهم ما قد سَلَف، أي: من كُفرِهم، وذنوبهم وخطاياهم.

[٣٣٤٧] كما جاء في الصحيح، من حديث أبي وائل، عن ابن مسعود: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «مَن أحسَن في الإسلام لم يُؤاخَذ بما عَمِل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أُخِذَ بالأول والآخر»[1].

[٣٣٤٨] وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «الإسلام يجبُّ ما قبله، والتوبةُ تجبُّ ما كان قبلها»[2]. وقوله: ﴿وَإِن يَعُودُوا۟﴾، أي: يستمروا على ما هم فيه، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: فقد مَضت سُنَّتُنا في الأولين أنهم إذا كَذَّبوا واستمرّوا على عنادهم أنا نُعاجِلُهُم بالعَذاب والعقوبة. قال مجاهد في قوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: في قريش يوم بدر وغيرها من الأمم، وقال السدِّيُّ ومحمد بن إسحاق أي: يوم بدر. وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.

[٣٣٤٩] قال البخاري: حدثنا الحسن بن عبد العزيز، حدثنا عبد الله بن يحيى، حدثنا حَيوة بن شُرَيح، عن بكر بن عمرو، عن بُكَير، عن نافع، عن ابن عمر: أن رجلاً جاءه فقال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٩٢١ ومسلم ١٢٠ وابن ماجه ٤٢٤٢ وأحمد ١/ ٤٠٩ و٤٢٩ وابن حبان ٣٩٦.

(٢) لم أقف عليه في الصحيح بهذا السياق، وإنما أخرجه الطبراني ١٨/ ٥ ـ ٦ من حديث عمرو بن العاص مطوّلاً وفيه «إن الإسلام يجبّ ما كان قبله، وإن الهجرة تجبّ ما كان قبلها» وقال الهيثمي في «المجمع» ٩/ ٣٥١: رواه أحمد والطبراني. . . ورجالهما ثقات اهـ. وفي صحيح مسلم ١٢١ ومسند أحمد ٤/ ٢٠٥ في أثناء حديث إسلام عمرو بن العاص «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله». . .

ذكَر الله في كتابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩]... الآية، فما يمنعُك ألا تقاتلَ كما ذكَر الله في كتابه؟ فقال: يا بن أخي، أُعيَّر بهذه الآية ولا أقاتل أحَبُّ إلي من أن أُعيَّرَ بالآية التي يقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣]... إلى آخرها ـ قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد النبي ـ ﷺ ـ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يُفتَنُ في دينه: إما أن يقتلوه، وإما أن يُوثِقُوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة. فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد، قال: فما قولك في عليٍّ وعثمان؟ قال ابن عمر: ما قولي في عليٍّ وعثمان؟ أمَّا عثمان فكان الله قد عفا عنه، وكرهتم أن تَعفُوا عنه، وأما عليٌّ فابنُ عَمِّ رسولِ الله ـ ﷺ ـ وخَتَنُه ـ وأشار بيده ـ وهذه ابنته ـ أو: بنته ـ حيث ترون[1].

[٣٣٥٠] وحدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا بيان أن ابن وبرة حدثه قال: حدثني سعيد بن جبير قال: خرج علينا ـ أو إلينا ـ ابنُ عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ فقال رجل: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ـ ﷺ ـ يقاتل المشركين، وكان الدخولُ عليهم فتنةً، وليس بقتالكم على الملك[2]. هذا كله سياق البخاري رحمه الله.

[٣٣٥١] وقال عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر: أنه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صَنَعوا ما ترى، وأنت ابن عمر بن الخطاب، وأنت صاحبُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ فما يمنَعُك أن تخرجَ؟ قال: يمنعني أن الله حَرَم علي دم أخي المسلم. قالوا: أو لم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾؟ قال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدينُ كلُّه لله. وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدينُ لغير الله[3].

[٣٣٥٢] وكذا رواه حَمَّاد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أيوب بن عبد الله اللخمي قال: كنتُ عند عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ فأتاه رجلٌ فقال: إن الله يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ فقال ابن عمر: قاتلت أنا وأصحابي حتى كان الدينُ كلُّه لله، وذهبَ الشركُ ولم تكن فتنةٌ، ولكنك وأصحابَكَ تقاتلون حتى تكوْن فتنة، ويكون الدين لغير الله[4]. رواهما ابن مَرْدُويه.

[٣٣٥٣] وقال أبو عوانة، عن الأعمش، عن إبراهيم التَّيمِي، عن أبيه قال: قال ذو البطين ـ يعني أسامة بن زيد ـ: لا أقاتل رجلاً يقول: «لا إله إلا الله» أبداً. قال: فقال سعدُ بن مالك: وأنا والله لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً. فقال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾؟ فقالا: قد قاتلنا حتّى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله[5]. رواه ابن مَرْدُويه. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، يعني: لا يكون شرك. وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدّيّ، ومقاتل بن حَيّان، وزيد بن أسلم. وقال محمد بن إسحاق: بلغني عن الزهريّ، عن عروةَ بن الزّبير وغيره من علمائنا: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: حتى لا يُفتَن مسلمٌ عن

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٥٠.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٥١.

(٣) رجاله ثقات، وهو يشهد لما قبله.

(٤) علي بن زيد ضعيف، لكن يتأيد بما قبله.

(٥) فيه إرسال، ومن دون أبي عوانة لا يُعرف حاله.

دينه. وقوله: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾، قال الضحاك، عن ابن عباس في هذه الآية: قال: يَخلُص التوحيدُ لله. وقال الحسن وقتادة، وابن جُرَيج ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾: أن يقال: لا إله إلا الله. وقال محمد بن إسحاق: ويكون التوحيدُ خالصاً لله، ليس فيه شركٌ، ويخلع ما دونه من الأنداد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ لا يكون مع دينكم كفر.

[٣٣٥٤] ويشهد له ما ثبتَ في الصحيحين عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عَصَمُوا مني دماءَهم وأموالهم إلا بحقِّها، وحسابُهم على الله عز وجل»[1].

[٣٣٥٥] وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: سُئِل رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن الرجل يقاتلُ شجاعةً ويقاتل حَمِيَّةً، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله عز وجل؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[2].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾، أي: بقتالكم إياهم عما هم فيه من الكفر، فكفُّوا عنه وإن كنتم لا تعلمون بواطنهم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وقولِهِ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣].

[٣٣٥٦] وفي الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لأسامة لما علا ذلك الرجلَ بالسيف، فقال: لا إله إلا الله. فضربه فقتله، فَذُكِرَ ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ فقال لأسامة ـ: أقتلته بعد ما قال: «لا إله إلا الله؟ وكيف تصنعُ بلا إله إلا الله يوم القيامة؟ قال: يا رسول الله، إنما قالها تَعَوُّذاً. قال: هلا شَقَقْتَ عن قلبه؟ وجعل يقولُ ويكرر عليه: من لك بـ لا إله إلا الله يوم القيامة؟ قال أسامة: حتى تَمنَّيتُ أني لم أكن أسلمت إلا يومئذٍ[3]. وقولـه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾، أي: وإن استمرُّوا على خلافكم ومحاربتكم، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾: سيدكم وناصركم على أعدائكم، فنعم المولى ونعم النصير.

[٣٣٥٧] وقال محمد بن جرير: حدثني عبدُ الوارث بن عبد الصَّمد، حدثنا أبي، حدثنا أبان العطار، حدثنا هشام بن عُروة، عن عُروةَ: أن عبد الملك بن مَرْوان كتب إليه يسأله عن أشياءَ، فكتب إليه عروةُ: سلامٌ عليك، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعدُ فإنك كتبت إليّ تسألني عن مخرج رسول الله ـ ﷺ ـ من مكة، وسأخبرك به، ولا حول ولا قوة إلا بالله: كان من شأن مخرج رسول الله ـ ﷺ ـ من مكة، أن الله أعطاه النبوة، فَنِعْم النَّبِيُّ، ونعم السيدُ، ونعم العشيرةُ، فجزاه الله خيراً، وَعرَّفَنا وجهه في الجَنّة، وأحيانا على مِلَّتِه، وأماتنا عليها، وبعثنا عليها. وإنه لما دعا قومَه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذي أنزل عليه، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم إليه، وكانوا يسمعون له حتى ذكر طواغيتهم. وقَدِم ناسٌ من الطائف من قُرَيش، لهم أموال، أنكر ذلك عليه ناسٌ واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال، وأغروا به من أطاعهم، فانعطف عنه عامّة الناس، فتركوه إلا من حفظه الله منهم، وهم قليلٌ. فمكث بذلك ما قَدَّر الله أن يمكُث، ثم ائتمرت

---

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٠.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٩٢.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٢٦٩ و٦٨٧٢ ومسلم ٩٦ وأبو داود ٢٦٤٣ وأحمد ٥/ ٢٠٠ وابن حبان ٤٧٥١.

رؤوسُهم بأن يفتِنُوا من اتَّبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنةٌ شديدةُ الزلزال، فافتُتِن من افتُتن، وعصم الله من شاء منهم. فلما فُعِل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله ـ ﷺ ـ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي، لا يُظلَم أحدٌ بأرضه، وكان يُثْني عليه مع ذلك، وكانت أرضُ الحبشة متجراً لقريش، يتجرون فيها، ومساكن لتجارهم، يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً، فأمَرَهُم بها النبي ـ ﷺ ـ فذهب إليها عامتهم لما قُهِرُوا بمكة، وخاف عليهم الفتن. ومكث هو فلم يَبْرَح، فمكث بذلك سنواتٍ يشتدُّون على من أسلم منهم. ثم إنه فَشا الإسلام فيها، ودخل فيه رجالٌ من أشرافهم ومَنَعَتهم. فلما رأوا ذلك استرخوا استرخاءة عن رسول الله ـ ﷺ ـ وعن أصحابه. وكانت الفتنةُ الأولى هي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ قِبَلَ أرض الحبشة مخافتها، وفراراً مما كانوا فيه من الفتن والزلزال. فلما اسْتُرْخِيَ عنهم ودَخَل في الإسلام من دخل منهم، تُحَدِّث باسترخائهم عنهم، فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ: أنه قد اسْتُرخِيَ عمن كان منهم بمكة، وأنهم لا يُفتَنُونَ، فرجعوا إلى مكة، وكادوا يأمنون بها، وجعلوا يزدادون ويكثرون. وإنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير، وفشا بالمدينة الإسلام، وطَفِق أهلُ المدينة يأتون رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة. فلما رأت قريشٌ ذلك تآمرت على أن يَفْتِنُوهم ويشتدُّوا، فأخذوهم، فَحَرِصُوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جَهْد شديد، فكانت الفتنة الأخيرة، فكانت فتنتان: فتنةٌ أخرَجَتْ من خَرَج منهم إلى أرض الحبشة، حين أمرهم النبي ـ ﷺ ـ بها، وأذن لهم في الخروج إليها، وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة. ثم إنه جاء رسول الله ـ ﷺ ـ من المدينة سبعون نقيباً، رؤوسُ الذين أسلموا، فوافَوه بالحجِّ، فبايعوه بالعقبة، وأعطوه عهودَهم على أنّا منك وأنت منا، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جئتنا، فإنا نَمنَعُك مما نمنَعُ منه أنفسنا، فاشتدَّت عليهم قريشٌ عند ذلك، فأمر رسولُ الله ـ ﷺ ـ أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ـ ﷺ ـ أصحابه، وخرج هو، وهي التي أنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ فيها: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[1]. ثم رواه عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن أبي الزّناد، عن أبيه، عن عُروةَ بن الزبير: أنه كتب إلى الوليد ـ يعني ابن عبد الملك بن مروان ـ بهذا، فذكر مثله. وهذا صحيح إلى عروة رحمه الله.

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

يُبَيِّن تعالى تفصيل ما شَرَعه مخصّصاً لهذه الأمة الشريفة، من بين سائر الأمم المتقدمة، من إحلال المغانم. والغنيمة: هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب، والفيءُ: ما أُخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصالحون عليها، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك، هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف. ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة، والغنيمة على الفيء أيضاً، ولهذا ذهب قتادةُ إلى أن هذه الآية ناسخة لآية الحشر: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ

(١) مرسل. أخرجه الطبري ١٦٠٩٧ بإسناد حسن عن عروة، وكرره ١٦٠٩٨ من وجه آخر عنه، ومراسيل عروة حسان.

أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [الحشر: ٧] الآية، قال: فنسخت آية الأنفال تلك، وجعلت الغنائم: أربعة أخماسها للمجاهدين وخمساً منها لهؤلاء المذكورين. وهذا الذي قاله بعيدٌ، لأنّ هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، وتلك نزلت في بني النضير، ولا خلاف بين علماء السير والمغازي قاطبة أن بني النضير بعد بدر. هذا أمر لا يُشَكّ فيه ولا يُرتاب، فمن يفرق بين معنى الفيء والغنيمة يقول: تلك نزلت في أموال الفيء وهذه في المغانم. ومن يجعل أمر المغانم والفيء راجعاً إلى رأي الإمام يقول: لا منافاة بين آية الحشر وبين التَّخميس إذا رآه الإمامُ والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ توكيدٌ لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيطِ، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾، اختلف المفسرون هاهنا، فقال بعضهم: لله نصيب من الخمس يجعل في الكعبة.

[٣٣٥٨] قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية الرياحي قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يؤتى بالغنيمة فيقسمها على خمسة، تكون أربعة أخماس لمن شهدها، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه الذي قبض كفه، فيجعله للكعبة، وهو سَهمُ الله. ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم، فيكون سهم للرسول، وسهم لذوي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل(١).

وقال آخرون: ذكر الله هاهنا استفتاحُ كلامٍ للتبرُّك، وسهمُه للرسول عليه السلام.

[٣٣٥٩] قال الضحاك، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا بعث سرية فغنموا، خَمَّس الغنيمة، فَضرب ذلك الخمس في خَمْسة. ثم قرأ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾(٢)، قال: وقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾، مفتاح كلام، لله ما في السموات وما في الأرض، فَجُعِل سهم الله وسهمُ الرسول واحداً. وهكذا قال إبراهيم النَّخَعي، والحسن بن محمد بن الحنفية. والحسن البصري، والشعبي، وعطاء بن أبي رباح، وعبد الله بن بُرَيدة، وقتادة، ومغيرة، وغير واحد: أن سهم الله ورسوله واحد.

[٣٣٦٠] ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بَلْقَينِ قال: أتيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ وهو بوادي القُرَى، وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: لله خمسها، وأربعة أخماس للجيش. قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال: لا، ولا السهم تستخرجه من جَنْبِك، ليس أنت أحق به، من أخيك المسلم(٣).

وقال ابن جَرِير: حدثنا عمران بن موسى، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أبانُ، عن الحَسَن قال: أوصى أبو بكر بالخمس من ماله، وقال: ألا أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه.

ثم اختلف قائلو هذا القول، فروى علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة: فربعٌ لله وللرسول. فما كان

---

(١) مرسل. أخرجه الطبري ١٦١١٧.

(٢) مرسل. أخرجه الطبري ١٦١٠٩.

(٣) صحيح. أخرجه البيهقي في «السنن» ٦/ ٣٢٤ و٣٣٦ وأبو يعلى ٧١٧٩. وقال الهيثمي في «المجمع» ١/ ٤٨ ـ ٤٩: رواه أبو يعلى، وإسناده صحيح.

لله وللرسولِ فهو لقرابة رسول الله ﷺ، ولم يأخذ النبي - ﷺ - من الخمس شيئاً. . . وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو معمر المنقري، حدثنا عبد الوارث بن سعيد، عن حسين المعلم، عن عبد الله بن بُريدَة في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾، قال: الذي لله فلنبيه، والذي للرسول لأزواجه. وقال عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح قال: خمسُ الله والرسولِ واحدٌ، يَحْمِلُ منه ويَصْنَعُ فيه ما شاء. يعني النبيَّ ﷺ. وهذا أعمُّ وأشملُ، وهو أن الرسول - ﷺ - يتصرَّفُ في الخمس الذي جعله الله له بما شاء، ويَرُدُّه في أمته كيف شاء.

[٣٣٦١] ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، عن أبي سلام الأعرج، عن المقدام بن معد يكرب الكندي: أنه جلس مع عُبادة بن الصامت، وأبي الدرداء، والحارث بن معاوية الكِندي - رضي الله عنهم - فتذاكروا حديثَ رسول الله - ﷺ - فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة، كلمات رسول الله - ﷺ - في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس؟ فقال عبادة: إنَّ رسولَ الله - ﷺ - صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله - ﷺ - فتناول وَبرة بين أنملتيه فقال: إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدّوا الخيط والمِخْيَطَ، وأكبَرَ من ذلك وأصغَرَ، ولا تَغُلّوا فإن الغلول نار وعارٌ على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناسَ في الله القريبَ والبعيدَ، ولا تبالوا في الله لومة لائم، وأقيموا حدودَ الله في الحَضَر والسَّفَرِ، وجاهدوا في الله، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم، يُنَجِّي به الله من الهمِّ والغَمِّ[(١)]. هذا حديث حسن، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه.

[٣٣٦٢] ولكن روى الإمام أحمد أيضاً، وأبو داود، والنسائي، من حديث عمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه عبد الله بن عمرو، عن رسول الله - ﷺ - نحوه في قصة الخُمُسِ، والنهي عن الغلول[(٢)].

[٣٣٦٣] وعن عمرو بن عَبَسَة أن رسول الله - ﷺ - صَلَّى بهم إلى بعير من المغنم، فلما سَلَّم أخذ وَبرة من هذا البعير ثم قال: ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذه إلا الخمسَ، والخمسُ مردودٌ فيكم[(٣)]، رواه أبو داود والنسائي. وقد كان للنبي - ﷺ - من المغانم شيء يصطفيه لنفسه، عبداً أو أمة أو فرساً أو سيفاً، أو نحو ذلك، كما نَصَّ على ذلك محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء.

[٣٣٦٤] وروى الإمام أحمد، والترمذيّ - وحسنه - عن ابن عباس: أن رسول الله - ﷺ - تَنَفَّلَ سيفه ذا الفَقَار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد ٥/٣١٦ وإسناده ضعيف، لضعف أبي بكر بن أبي مريم كما في «المجمع» ٥/٣٣٨ وبنحوه أخرجه أحمد ٥/٣٢٣ - ٣٢٤ وابن حبان ٤٨٥٥ من وجه آخر عن أبي سلام عن أبي أمامة الباهلي عن عبادة به، وإسناده لا بأس به، وأخرجه ابن ماجه ٢٨٥٠ من طريق يعلى بن شداد عن عبادة به. ويشهد له حديث عبد الله بن عمرو، وعمرو بن عبسة كما سيأتي.

(٢) حسن. أخرجه أبو داود ٢٦٩٤ والنسائي ٦/٢٦٣ - ٢٦٤ وأحمد ٢/١٨٤ و٢١٨ والبيهقي في «الدلائل» ٥/١٩٥ - ١٩٦ وإسناده حسن.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ٢٧٥٥ وإسناده صحيح.

(٤) حسن. أخرجه الترمذي بإثر ١٥٦١ وابن ماجه ٢٨٠٨ وأحمد ١/٢٧١ وابن سعد في «الطبقات» ١/٣٧٧ وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» ٤٠٥ والبغوي في «الأنوار» ٨٧٥ من طرق عن ابن أبي الزناد عن أبيه عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

[٣٣٦٥] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كانت صَفِيَّة من الصَّفيّ»[1]. رواه أبو داود في سننه.

[٣٣٦٦] وروى أيضاً بإسناده، والنسائي أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمِرْبَدِ إذْ دَخَل رجلٌ معه قطعة أدِيم، فقرأناها فإذا فيها: «من محمد رسول الله إلى بني زُهَير بن أقيش، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاةَ، وأدَّيتم الخمسَ مِن المغنم، وسَهْمَ النبيِّ وسَهْمَ الصَّفِيِّ، أنتم آمنونَ بأمان الله ورسوله». فقلنا: من كَتَبَ لك هذا؟ فقال: رسولُ الله ﷺ[2]. فهذه أحاديث جَيِّدةٌ تدل على تقرر هذا وثبوته، ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه.

وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يَتَصرَّف في مال الفيء. قال شيخنا الإمام العلامة ابن تَيمِية رحمه الله: وهذا قولُ مالكٍ وأكثر السَّلَف، وهو أصح الأقوال. فإذا ثبت هذا وعُلِم، فقد اختُلِفَ أيضاً في الذي كان يناله ـ عليه السلام ـ من الخُمسِ، ماذا يُصنَعُ به من بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلي الأمر من بعده. رُوِي هذا عن أبي بكر، وعلي، وقتادة، وجماعة، وجاء فيه حديث مرفوع.

وقال آخرون: يُصْرف في مصالح المسلمين. وقال آخرون: بل هو مردودٌ على بقيّة الأصناف: ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، واختاره ابن جرير.

وقال آخرون: بل سهمُ النبي ـ ﷺ ـ وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل. قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق. وقيل: إن الخمس جميعه لذوي القربى، كما رواه ابن جرير: حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا عبد الغفار، حدثنا المنهال بن عمرو: سألتُ عبد الله بن محمد بن عليّ، وعَليّ بن الحُسَين، عن الخُمس فقالا: هو لنا. فقلتُ لعليّ: فإنَّ الله يقول: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، فقالا: يتامانا ومساكيننا. وقال سفيان الثوري، وأبو نُعَيم، وأبو أسامة، عن قيس بن مسلم: سألت الحسن بن محمد بن الحنفية ـ رحمه الله تعالى ـ: عن قول الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾، قال: هذا مفتاح كلام، لله الدنيا والآخرة. ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ـ ﷺ ـ فقال قائلون: سهم النبي ـ ﷺ تسليماً ـ للخليفة من بعده، وقال قائلون: لقرابة النبي ـ ﷺ ـ وقال قائلون: سهم القرابة لقرابة الخليفة. فاجتمع قولهم على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعُدَّة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال الأعمش، عن إبراهيم: كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ـ ﷺ ـ في الكُراع والسلاح، فقلت لإبراهيم: ما كانَ عليٌّ يقول فيه؟ قال: كان أشدَّهم فيه. وهذا قولُ طائفةٍ كثيرةٍ من العلماء رَحِمهم الله. وأمّا سهمُ ذوي القُربى فإنه يُصْرفُ إلى بني هاشم وبني المطلب، لأنَّ بني المطَّلب وازرُوا بَني هاشم في الجاهلِية، في أول الإسلام ودَخَلُوا معهم في الشِّعب غَضَباً لرسول الله ـ ﷺ ـ وحماية له: مُسلمُهم طاعةً لله ولرسولهَ، وكافِرُهم حميّةً للعشيرة وأنفَةً وطاعةً لأبي طالب عم رسول الله. وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل ـ وإن كانوا أبناء عمهم ـ فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم ونابذوهم، ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول، ولهذا كان ذَمُّ أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشدَّ من غيرهم، لشدَّةِ قربهم. ولهذا يقولُ في أثناء قصيدته:

---

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٢٩٩٤. ويشهد له حديث أنس عند أبي داود ٢٩٩٥ وأبي يعلى ٣٧٠٤ وإسناده صحيح. ومرسل قتادة عند أبي داود برقم ٢٩٩٣.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ٢٩٩٩ وإسناده جيد، وفي الباب أحاديث.

جَزَى الله عَنَّا عبدَ شمسٍ ونَوفلا عُقُوبَةَ شَرّ عاجلٍ غيرِ آجلِ
بميزانِ قسطٍ لا يَخيسُ شَعِيرَة لهُ شاهدٌ مِنْ نَفْسهِ غيرُ عائلِ
لقد سَفِهت أحلامُ قومٍ تَبدَّلوا بَني خَلَفٍ قَيْضاً بنا والعَيَاطلِ
ونحنُ الصَّميمُ من ذؤابةِ هاشمٍ وآل قُصيٍّ في الخُطوبِ الأوائلِ

[٣٣٦٧] وقال جُبَيرُ بن مُطعِم بن عَدِيّ: مَشَيتُ أنا وعثمانَ بن عَفَّان ـ يعني ابن أبي العاص بن أمية ابن عبد شمس ـ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقلنا: يا رسولَ الله، أعطيتَ بني المطَّلِب من خُمْسِ خَيْبَرَ وتركتَنا، ونحن وَهُم منك بمنزلةٍ واحدة! فقال: إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيءٌ واحد[١]. رواه مسلم. وفي بعض روايات هذا الحديث: «إنهم لمْ يُفارِقُونا في جاهِلِيَّة ولا إسلام»[٢]. وهذا قولُ جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب. قال ابن جَرير: وقال آخرون هم بنو هاشم. ثم روى عن خُصَيف، عن مجاهد قال: علم الله أن في بني هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة. وفي رواية عنه قال: هم قرابة رسول الله ـ ﷺ ـ الذين لا تحل لهم الصدقة. ثم روى عن علي بن الحسين نحو ذلك.

[٣٣٦٨] قال ابن جرير: وقال آخرون: بل هم قريش كلها: حدثني يُونُس بن عبد الأعلى، حدثني عبد الله بن نافع، عن أبي معشر، عن سعيد المقبُرِيِّ قال: كتب نَجْدَةُ إلى عبد الله بن عباس يسأله عن «ذي القربى»، فكتب إليه ابنُ عباسٍ: كُنَّا نقولُ: إنا هُم، فأبى ذلك علينا قومُنا، وقالوا: قريش كلها ذوو قربى[٣]. وهذا الحديثَ في صحيح مسلم، وأبي داود، والترمذيّ، والنسائي من حديث سعيد المقبريِّ عن يزيدَ بن هُرمُز أن نَجْدَة كتب إلى ابن عباس يسأله عن ذي القربى، فذكره إلى قوله: «فأبى ذلك علينا قومنا». والزيادة من أفراد أبي معشر نَجيح بن عبد الرحمن المدني، وفيه ضعفٌ.

[٣٣٦٩] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن مهدي المصِّيصي، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حَنَش، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «رغبت لكم عن غُسالة الأيدي، لأن لكم من خُمْس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم»[٤]. هذا حديثٌ حسنُ الإسناد، وإبراهيم بن مهدي هذا وَثَّقه أبو حاتم، وقال يحيى بن معين: يأتي بمناكير. والله أعلم. وقوله: ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، أي: يتامى المسلمين. واختلف العلماءُ: هل يختصُّ بالأيتام الفقراء، أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين: و﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾، هم المحاويجُ الذين لا يجدون ما يسدّ خلتهم ومسكنتهم. ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، هو: المسافر، أو المُرِيد للسفر، إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، وليس له ما يُنفِقُه في سَفَره ذلك. وسيأتي تفسيرُ ذلك في آية الصدقات في سورة براءة، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة، وعليه التكلان.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾، أي: امتَثِلُوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٤٠ و٤٢٢٩ والنسائي في «الكبرى» ٤٤٣٩ وأحمد ٤/ ٨١ وأبو داود ٢٩٧٨ وأبو يعلى ٧٣٩٩ من حديث جبير بن مطعم، ولم أره في «صحيح مسلم».

(٢) هذه الرواية عند النسائي ٧/ ١٣٠ ـ ١٣١ وأبي داود ٢٩٨٠.

(٣) أخرجه الطبري ١٦١٣١ وفي إسناده نجيح السندي ضعيف، وقد تفرد بعجزه، ورواه مسلم وغيره دون لفظ «قالوا..» وقد ضعف ابن كثير رحمه الله هذه الزيادة.

(٤) فيه ضعف، لكن له شواهد تقويه، والله أعلم.

[٣٣٧٠] ولهذا جاء في الصحيحين، من حديث عبد الله بن عباس، في حديث وفد عبد القيس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لهم: «وآمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان بالله». . . ثم قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادةُ أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تُؤَدُّوا الخُمسَ من المغنم. . .»[1] الحديث بطوله، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان، وقد بَوَّب البخاري على ذلك في كتاب الإيمان من صحيحه فقال: باب: أداء الخمس من الإيمان، ثم أورد حديث ابن عباس هذا، وقد بسطنا الكلام عليه في شرح البخاري، ولله الحمد والمنة. وقال مقاتل بن حَيّان: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، أي: في القسمة. وقولُه: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، يُنَبِّه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقِه، بما فَرَّق به بين الحقِّ والباطل ببدر، وسُمِّي الفرقان، لأن الله تعالى أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل، وأظهر دينه، ونصر نبيه وحزبه. قال علي بن أبي طلحة والعَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر، فَرق الله فيه بين الحقِّ والباطِلِ، رواه الحاكم. وكذا قال مجاهد، ومقسم، وعبيد الله بن عبد الله، والضحاك، وقتادة، ومقاتل ابن حيان، وغير واحد: أنه يوم بدر. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري، عن عُروَةَ بن الزبير في قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾: يوم فرق الله بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شَهِده رسول الله ـ ﷺ ـ وكان رأسُ المشركين عتبةَ بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسعَ عشرةَ ـ أو: سبع عشرة ـ مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يومئذٍ ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسعمئة. فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين، وأسر منهم مثل ذلك. وقد روى الحاكم في مستدركه، من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن ابن مسعود قال في ليلة القدر: تحَرّوها لإحدى عشرة بقين فإن صَبِيحَتَها يوم بدر. وقال: على شرطهما. ورُوِي مثله عن عبد الله ابن الزبير أيضاً، من حديث جعفر بن برقان عن رجل عنه. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، يحيى بن واضح، حدثنا يحيى بن يعقوب أبو طالب، عن أبي عون محمد بن عبيد الله الثقفي، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: قال الحسن بن علي: كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من رمضان، إسناد جيد قوي. ورواه ابن مَرْدُويه، عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب، عن علي قال: كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان، في صَبِيحتها ليلةُ الجمعة لسبع عشرة مَضَت من شهر رمضان. وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير. وقال يزيد بن أبي حَبيب إمامُ أهل الديار المصرية في زمانه: كان يومُ بدرٍ يوم الاثنين. ولم يُتَابع على هذا، وقول الجمهورُ مُقَدَّمٌ عليه، والله أعلم.

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: إذ أنتم نُزُول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة، ﴿وَهُم﴾، أي: المشركون نزولٌ ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾، أي: البعيدة من المدينة التي من ناحية مكة، ﴿وَٱلرَّكْبُ﴾، أي: العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، أي: مما

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٣ و١٣٩٨ و٣٠٩٥ ومسلم ١٧ وأبو داود ٣٦٩٢ والترمذي ٢٦١١ والنسائي ٨/ ١٢٠ وأحمد ١/ ٢٢٨ وابن حبان ١٥٧ من حديث ابن عباس.

يلي سيف البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾، أي: أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ﴾.

قال مُحمَّد بن إسحاقَ: وَحَدَّثني يحيى بن عَبَّاد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في هذه الآية، قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرةُ عَدَدِهم وقلّة عَدَدِكم، ما لقيتُموهم، ﴿وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، أي: ليقضِيَ الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشركِ وأهله، عن غير مَلأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه. وفي حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمون يريدون عِيرَ قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عَدُوِّهم على غير ميعاد.

[٣٣٧١] وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيّة، عن ابن عَونٍ، عن عُمَير بن إسحاق قال: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه، فالتقوا ببدر، ولا يشعُرُ هؤلاء بهؤلاء، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التَقَتِ السُقاة، ونَهَد الناسُ بعضهم لبعض[١].

وقال محمد بن إسحاق في السيرة: ومضى رسول الله ـ ﷺ ـ على وجهه ذلك، حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث بَسْبَس بن عمرو، وعَدِيّ بن أبي الزَّغْباء الجُهَنِيِّين، يلتمسان الخبر عن أبي سفيان، فانطلقا حتى إذا وَرَدا بدراً فأناخا بَعيريهما إلى تَلٍّ من البطحاء، فاستقيا في شَنّ لهما من الماء، فسمعا جاريتين تَختصمان، تقول إحداهما لصاحبتها: اقضيني حقي. وتقول الأخرى: إنما تأتي العير غداً أو بعد غد، فأقضيك حقك. فَخَلّص بَينهما مَجديُّ بنُ عَمْرو، وقال: صَدقْتِ. فسمع ذلك بَسْبَسٌ وَعَدِيٌّ، فجلسا على بعيريهما، حتى أتيا رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبراه الخبر. وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حَذِر، فتقدم أمام عيره وقال لمجديّ بن عمرو: هل أَحْسَسْتَ على هذا الماء من أحدٍ تُنكِرُه؟ فقال: لا والله، إلا أني قد رأيتُ راكبين أناخا إلى هذا التل، فاستقيا في شَنٍّ لهما، ثم انطلقا، فجاء أبو سفيان إلى مُناخ بعيريهما، فأخذ من أبعارهما، فَفَتّه، فإذا فيه النّوَى، فقال: هذه والله علائِفُ يَثْرِبَ. ثم رجع سريعاً فضرب وجه عِيره، فانطلق بها فَسَاحَل، حتى إذا رأى قد أحرز عِيرَه بعث إلى قريش فقال: إن الله قد نَجّى عِيرَكم وأموالكم ورجالكم، فارجعوا. فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نأتي بدراً ـ وكانت بدرٌ سوقاً من أسواق العرب ـ فنقيم بها ثلاثاً، فنُطْعِمُ بها الطعام، وننحَرُ بها الجُزُر، ونسْقَى بها الخمر، وتَعزِفُ علينا القِيانُ، وتسمعَ بنا العربُ وبسيرنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً. فقال الأخنس بن شِرِيقٍ: يا معشر بني زُهَرة، إن الله قد نَجّى أموالكم، ونَجّى صاحبكم، فارجعوا. فأطاعوه. فرجعت بنو زُهرَة، فلم يشهدوها ولا بنو عَدِيّ[٢].

[٣٣٧٢] قال محمد بن إسحاق: وحدثني يزيد بن رُومانَ، عن عُروةَ بن الزُّبير قال: وبعثَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ حين دنا من بدر ـ عليّ بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقّاص، والزُّبير بن العوام، في نَفَرٍ من أصحابه، يتحسَّسُون له الخبر، فأصابوا سُقَاةً لقريش: غلاماً لبني سعيد بن العاص، وغلاماً لبني الحجاج، فأتوا بهما رسول الله ـ ﷺ ـ فوجدوهُ يُصَلّي، فجعل أصحابُ رسول الله ـ ﷺ ـ يسألونهما: لمن أنتما؟ فيقولان: نحن سُقاةٌ لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء. فَكَرِه القومُ خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما فلما أذلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان. فتركوهما، وركع رسولُ الله ـ ﷺ ـ وسجد سَجْدَتين، ثم سَلَّم وقال: «إذا صَدَقاكم ضربتموهما، وإذا كَذَباكم تركتموهما. صَدَقا، والله إنّهما لِقُريش، أخبَراني عن

(١) مرسل. أخرجه الطبري ١٦١٦٣.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣/ ٣١ ـ ٣٣ من طريق ابن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير والزهري وغيرهما مرسلاً.

قُرَيش. قالا: هم وراء هذا الكَثِيب الذي تَرى بالعُدْوَة القُصْوى ـ الكثيب: العَقَنْقَلُ ـ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: كم القومُ؟ قالا: كثيرٌ. قال: ما عِدَّتُهم؟ قالا: ما نَدْرِي. قال: كم يَنْحَرون كلَّ يوم؟ قالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: القوم ما بين التسعمئة إلى الألف. ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ قالا: عُتبَةُ بن رَبيعة، وشَيْبَةُ بن رَبيعَة، وأبو البَختريّ ابن هشام، وحَكِيمُ بن حِزام، ونوفلُ بن خُوَيلِدٍ، والحارِثُ بن عامر بن نَوفل، وطُعَيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزَمْعَةُ بن الأسود، وأبو جَهلِ بن هشام، وأميَّةُ بن خَلَفٍ، ونُبَيه ومُنَبِّه ابنا الحجاج، وسُهَيل بن عمرو، وعَمْرُو بن عَبْدِ ودّ. فأقبل رسول الله ـ ﷺ ـ على الناس فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها[١].

[٣٣٧٣] قال محمد بن إسحاق ـ رحمه الله تعالى ـ: وحَدَّثني عبد الله بن أبي بكر بن حَزم: أن سعدَ بن معاذ قال لرسول الله ـ ﷺ ـ لمّا التقى الناس يوم بدر: يا رسولَ الله، ألا نبني لك عَريشاً تَكُون فيه، ونُنِيخ إليك ركائبك، ونلقى عَدُوّنا؟ فإن أظهرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب، وإن تكن الأخرى فتجلس على ركائبك، وتلحق بمن وراءنا من قومنا، فقد ـ والله ـ تَخَلَّف عنك أقوام ما نحن بأشدّ لك حباً منهم، لو عَلِمُوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، ويوادُّونك وينصرونك. فأثنى عليه رسول الله ـ ﷺ ـ خيراً، ودعا له. فَبُنِيَ له عريش، فكان فيه رسول الله ـ ﷺ ـ وأبو بكر، وما معهما غيرهما[٢].

قال ابن إسحاق: وارتحلت قُرَيشٌ حينَ أصبحت، فلما أقبلت ورآها رسول الله ـ ﷺ ـ تَصَوَّب من العَقَنْقَل ـ وهو الكَثِيب ـ الذي جاؤوا منه إلى الوادي قال: «اللهمّ، هذه قريشٌ قد أقبلت بفخرها وخُيلائها تُحادُك وتُكَذِّب رسولك، اللهم أحِنْهم الغداة»[٣]. وقوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾، قال محمد بن إسحاق: أي ليكفُرَ من كَفَر بعد الحُجَّة، لما رأى من الآية والعِبْرةِ، ويُؤمِنَ من آمن على مِثْل ذَلِك. وهذا تفسيرٌ جيد، وبَسْطُ ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد، لينصُرَكم عليهم، ويرفَع كلمةَ الحقّ على الباطل، ليصير الأمرُ ظاهراً، والحجةُ قاطعةً، والبراهينُ ساطعةً، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذٍ يهلك من هلك، أي: يستمرُّ في الكفر من استمرَّ فيه على بصيرةٍ من أمره أنه مُبطِلٌ، لقيام الحجة عليه، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ﴾، أي: يؤمن من آمن، ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾، أي: حجة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وقالت عائشةُ في قِصَّة الإفْكِ: فَهَلَكَ فِيَّ من هلك أي: قال فيها ما قال من الكَذِب والبهتانِ والإفْكِ. وقولُه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾، أي: لدعائكم وتَضَرُّعكم واستغاثتكم به، ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بكم، فإنكم تستحِقُّون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤٣ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤٤﴾

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣/ ٤٢ ـ ٤٣ هكذا مرسلاً. وأصله عند مسلم ١٧٧٩ وأبو داود ٢٦٨١ وأحمد ٣/ ٢١٩ ـ ٢٢٠ وابن حبان ٤٧٢٢ من حديث أنس.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣/ ٤٤ عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم مرسلاً.

(٣) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣/ ٣١ ـ ٣٥ من طريق ابن إسحاق مطوّلاً.

قال مجاهد: أراهم الله إيّاه في منامه قليلاً، فأخبر النبي ـ ﷺ ـ أصحابه بذلك، فكان تثبيتاً لهم. وكذا قال ابن إسحاقَ وغيرُ واحدٍ. وحكى ابنُ جَرِيرٍ عن بعضهم أنه رآهم بعينه التي ينام بها وقد روى ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا يوسف بن موسى التُّسْتَري، حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج، عن الحسن في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾، قال: بعَيْنِك. وهذا القولُ غريبٌ، وقد صَرَّح بالمنام هاهنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه. وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾، أي، لَجَبُنْتُم عنهم واختلفتم فيما بينكم، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾، أي: من ذلك، بأن أراكَهم قليلاً، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، أي: بما تجنُّه الضمائر، وتَنطوي عليه الأحشاء، فيعلم خائنةَ الأعين وما تُخفِي الصدور. قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾، وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين، لِيُجرِّئهم عليهم، ويُطْمِعَهم فيهم. قال أبو إسحاق السَّبيعي، عن أبي عُبيدة، عن عبد الله ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: لقد قُلِّلوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلتُ لرجل إلى جَانبي: تراهم سبعين؟ قال: لا، بل هم مِئَة. حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، قال: كنا ألفاً. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. وقوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا سُلَيمان بن حَرْب، حدثنا حَمّاد بن زيد، عن الزُّبَير بنِ الخِرِّيت، عن عكرمة: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ قال: حَضَّض بعضهم على بعض. إسناد صحيح. وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزُّبير، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، أي: ليلقي بينهم الحرب، للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته. ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلاً من الفريقين بالآخر، وقَلَّله في عينه ليطمعَ فيه، وذلك عند المواجهة. فلما التحم القتال وأيَّد الله المؤمنين بألف من الملائكة مُرْدِفين، بقي حزبُ الكفار يَرَى حِزبَ الإيمان ضِعْفَيه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣]. وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلاً منها حق وصدق، ولله الحمد والمنة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

هذا تعليمٌ من الله عباده المؤمنين آدابَ اللقاء، وطريقَ الشجاعة عند مواجهة الأعداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾.

[٣٣٧٤] ثبت في الصحيحين، عن عبد الله بن أبي أوفى، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: «يا أيها الناس، لا تَتَمنَّوا لقاء العدوّ، واسألوا الله العافية، فإذا لَقِيتُموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظِلال السيوف، ثم قام النبي ـ ﷺ ـ قال: «اللهمَّ، مُنَزِّلَ الكتاب، ومُجرِيَ السحابِ، وهازِمَ الأحزاب، اهزمْهُم وانصرنا عليهم»[1].

[٣٣٧٥] وقال عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «لا تتمنوا لقاءَ العدوّ، واسألوا الله العافية، فإذا

---

(١) صحيح. وقد تقدم في تفسير آل عمران عند آية: ١٤٣.

لقيتموهم فاثبُتوا، واذكروا الله، فإن أجلبوا وضَجُّوا فعليكم بالصمت»[١].

[٣٣٧٦] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا إبراهيم بن هاشم البَغَوِيُّ، حدثنا أمية بن بِسْطام، حدثنا معتمر بن سليمان، حدثنا ثابت بن زيد، عن رجل، عن زيد بن أرقم، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الله يُحبُّ الصمتَ عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الزحف، وعند الجنازَةِ»[٢].

[٣٣٧٧] وفي الحديث الآخر المرفوع: يقول الله تعالى: «إنَّ عبدي كُلَّ عبدي الذي يذكُرُني وهو مناجِزٌ قِرْنَه»[٣] أي: لا يشغله ذلك الحال عن ذكري ودعائي واستعانتي.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة في هذه الآية، قال: افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون، عند الضرّاب بالسيوف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَبْدَة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، عن ابن جُرَيج، عن عطاء قال: وجب الإنصات والذكر عند الزحف، ثم تلا هذه الآية، قلت: يجهرون بالذكر؟ قال: نعم. وقال أيضاً: قُرىء على يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عياش، عن يزيد بن قَوْذَرٍ، عن كعب الأحبار قال: ما من شيءٍ أحبُّ إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناسَ بالذُّكر عند القتال، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾. قال الشاعر:

ذكـرتُـكِ والـخَـطّـيّ يَـخـطِـرُ بَـيْـنَـنَـا ... وَقَـد نَـهَـلَـتْ فـيـنَـا الـمُـثَـقَّـفَـةُ الـسُّـمْـرُ

وقال عَنترةُ:

وَلَـقَـد ذكـرتُـك والـرِّمـاحُ شَـوَاجِـرٌ ... فـيـنـا وَبـيـضُ الـهـنـد تَـقْـطُـر مـنْ دَمـي

فأمر الله تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يَفِرُّوا ولا يَنكُلُوا ولا يجبُنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا به ويتكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك. فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم. ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، أي: قُوَّتكم وحِدَّتُكم وما كنتم فيه من الإقبال، ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾. وقد كان للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في باب الشجاعة والائتمار بأوامر الله ورسوله وامتثال ما أرشدهم إليه. ما لم يكن لأحدٍ من الأمم والقرون قبلَهم، ولا يكون لأحدٍ ممن بعدهم؛ فإنه ببركة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً

---

(١) عجزه ضعيف. أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ٩٥١٨ والبيهقي ٩/١٥٣ وإسناده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن زياد، وصدره صحيح له شواهد. ولفظ «فإن أجلبوا...» ضعيف.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبراني ٥١٣٠ وابن الجوزي في «العلل» ٩٥٩ من حديث زيد بن أرقم. قال الهيثمي في «المجمع» ٤١٢٩: فيه رجل لم يسمّ اهـ قلت: سماه ابن الجوزي فقال: عن ثابت بن زيد عن أخ له يقال له: الصباح، عن زيد بن أرقم. لكن الصباح مجهول. وقال ابن الجوزي: قال أحمد: ليس بصحيح، قال: ولثابت بن زيد أحاديث مناكير. وقال ابن حبان: الغالب على حديثه الوهم، والصباح مطعون فيه.

(٣) أخرجه الترمذي ٣٥٨٠ من حديث عمارة بن زعكرة. قال الترمذي: غريب ليس إسناده بالقوي اهـ فيه أبو دوس عثمان بن عبيد مقبول كما في التقريب، وقال أبو حاتم: ما أرى بحديثه بأساً، وذكره ابن حبان في الثقات. قاله في تهذيب التهذيب ٧/١٢٥ فالحديث لا بأس به، وفي معناه أحاديث. والله أعلم.

وقوله «مناجز قرنه» قال الترمذي: يعني عند القتال اهـ باختصار.

وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عَدَدهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحُبُوش وأصناف السودان والقبْط، وطوائف بني آدم، قَهَروا الجميع حتى علت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وَحشرنا في زمرتهم، إنه كريم تواب.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

يقولُ تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم ﴿بَطَرًا﴾، أي: دفعاً للحق، ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، وهو: المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل ـ لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا ـ فقال: لا، والله لا نرجع حتى نَرِد ماء بدر، وَنَنْحَر الجُزُرَ، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً. فانعكس ذلك عليه أجمع، لأنهم لما وَرَدُوا ماء بدر وَرَدُوا به الحِمَام، ورموا في أطواء بَدْرٍ مهانين أذلاء، صَغَرةً أشقياء في عذاب أبديّ سَرْمَدِيّ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، أي: عالم بما جاؤوا به وله، ولهذا جازاهم على ذلك شر الجزاء لهم. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدّيُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، قالوا: هم المشركون، الذين قاتلوا رسول الله ـ ﷺ ـ يوم بدر. وقال محمد بن كعب: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾. وقولـه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾. . . الآية، حسَّن لهم ـ لعنه الله ـ ما جاؤوا له وما هَمّوا به. وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يُؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر فقال: أنا جار لكم. وذلك أنه تَبَدّى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جُعْشُم، سيد بني مُدْلج، كبير تلك الناحية، وكلُّ ذلك منه، كما قال تعالى عنه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠]. قال ابن جُريج: قال ابنُ عَبّاس في هذه الآية: لما كان يومُ بدرٍ سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم، وإني جار لكم. فلما التقوا، ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة، ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ـ قال: رجع مدبراً ـ وقال ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾. . . الآية.

[٣٣٧٨] وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر في جُندٍ من الشياطين، معه رايتُه، في صُورةِ رجُلٍ من بني مُدلج، والشيطان في صورة سُراقَةَ بن مالك بن جُعشُم، فقال الشيطانُ للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين. وأقبل جبريلُ ـ عليه السلام ـ إلى إبليس، فلما رآه ـ وكانت يده في يد رجل من المشركين ـ انتزع يده، ثم ولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة،

أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وذلك حين رأى الملائكة[١].

[٣٣٧٩] وقال محمد بن إسحاق: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: أن إبليس خرج مع قريش في صورة سُرَاقة بن مالك بن جُعْشم، فلما حَضَر القتال ورأى الملائكة، نَكَص على عَقِبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾، فَتَشَبَّثَ به الحارث بن هشام فنَخَر في وجهه، فَخَرّ صَعِقاً، فقيل له: ويلك يا سُرَاقة! على هذه الحال تَخْذُلنا وتَبرأ منا. فقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٢].

[٣٣٨٠] وقال محمد بن عمر الواقدي: أخبرني عُمَر بن عقبة، عن شعبة ـ مولى ابن عباس ـ عن ابن عباس قال: لما تواقفَ الناس أغْمِي على رسول الله ـ ﷺ ـ ساعة ثم كُشِف عنه، فَبَشَّر الناس بجبريل في جند من الملائكة ميمنة الناس، وميكائيل في جند آخر ميسرة الناس، وإسرافيل في جند آخر ألف، وإبليس قد تصور في صورة سراقة بن مالك بن جُعشُم المدلجي، يُذَمِّر المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس. فلما أبصر عدوّ الله الملائكة، نَكَص عى عَقِبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، فَتَشَبَّثَ به الحارث بن هشام، وهو يرى أنه سُرَاقة، لِمَا سَمِع من كلامه، فَضَرب في صَدْرِ الحارث، فَسَقط الحارث، وانطلق إبليسُ لا يُرَى حَتَّى سَقَط في البحر، ورفع يديه وقال: يا رب، مَوعِدَكَ الذي وَعَدْتني[٣].

وفي الطبراني، عن رفاعة بن رافع، قريبٌ من هذا السياق، وأبسطُ منه، ذكرناه في السيرة.

[٣٣٨١] وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان، عن عُروةَ بن الزبير قال: لما أجمعت قريش المسير، ذكرت الذي بينها وبين بني بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدّى لهم إبليسُ في صورة سراقة بن مالك بن جُعشُم المُدْلجي ـ وكان من أشراف بني كنانة ـ فقال: أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه. فخرجوا سراعاً. قال محمد بن إسحاق: فَذُكِرَ لي أنهم كانوا يَرَونه في كلِّ منزل في صورة سُراقة بن مالك لا يُنْكِرونه، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان، كان الذي رآه ـ حين نَكَص ـ الحارث بن هشام ـ أو: عُمَير بن وهب ـ فقال: أين، أيْ سُراق؟! وَمَثَل[٤] عَدُوّ الله فذهب ـ قال: فأوردهم ثم أسلمهم ـ قال: ونظر عدو الله إلى جنود الله، قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين فنكص على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وصدق عدو الله، وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٥]. وهكذا رُوي عن السدّيّ، والضحاك، والحسن البصري، ومحمد بن كعب القُرَظِيّ، وغيرهم، رَحِمَهُم الله. وقال قتادةُ: وذُكِر لنا أنه رأى جبريل ـ عليه السلام ـ تنزل معه الملائكةُ، فَعَلِمَ عدوُّ الله أنه لا يَدَان له بالملائكة فقال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، وكَذَب عدوُّ الله، والله ما به مخافةُ الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا مَنَعة، وتلك

---

(١) أخرجه الطبري ١٦١٩٨ بإسناد منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عباس.

(٢) في إسناده محمد بن السائب الكلبي، وهو متروك، وأبو صالح اسمه باذام لم يلق ابن عباس، وورد مرسلاً من وجوه كما سيأتي، والله أعلم.

(٣) راويه محمد بن عمر الواقدي متروك الحديث إلا أنه إمام في المغازي والسير، وله علة ثانية: شعبة مولى ابن عباس فيه كلام، وضعفه الأكثر.

(٤) أي اختفى في الأرض.

(٥) مرسل، ولعله يتأيد بما قبله، وبما بعده، كما ذكر ابن كثير رحمه الله.

عادةُ عدوُ الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحقّ والباطل أسلمهم شر مُسْلَم، وتَبرّأ منهم عند ذلك. قلت: يعني بعادته لمن أطاعه قولَه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

[٣٣٨٢] وقال يونس بن بُكَير، عن محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حَزم، عن بعض بني ساعدةَ قال: سمعتُ أبا أسيد مالك بن ربيعةَ بعدما أصيبَ بصرُه يقول: لو كنتُ معكم الآن ببدرٍ ومعي بصري، لأخبرتكم بالشِّعب الذي خَرَجَتْ منه الملائكةِ، لا أشك ولا أتمارى[1]. فلما نزلت الملائكة ورآها إبليسُ، وأوحى الله إليهم: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وتَثبيتُهم أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورةِ الرجل يعرفه، فيقول له: أبشِر فإنهم ليسوا بشيء، والله معكُم، كُرُّوا عليهم. فلما رأى إبليس الملائكة نَكَص على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وهو في صورة سراقة، وأقبل أبو جهل يُحَضِّضُ أصحابه ويقول: لا يهولنَّكم خِذْلانُ سُراقةَ إياكم، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه. ثم قال: واللّاتِ والعُزّى لا نَرجعُ حتى نقرنَ مُحمَّداً وأصحابه في الحبال، فلا تقتلوهم وخُذُوهم أخذاً. وهذا من أبي جهل ـ لعنه الله ـ كقولِ فرعونَ للسحرةِ لما أسلموا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وكقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، هو من باب البَهتِ والافتراءِ، ولهذا كان أبو جهلٍ فرعونَ هذه الأمة.

[٣٣٨٣] وقال مالك بن أنس، عن إبراهيم بن أبي عَبْلة، عن طلحةَ بن عُبَيد الله بن كَرِيز: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ما رُئِيَ إبليس في يوم هو فيه أصغرُ ولا أحقَرُ ولا أدحر ولا أغيظُ من يوم عرفة. وذلك مما يرى من تَنَزّل الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر. قالوا: يا رسول الله، وما رَأى يوم بدر؟ قال: أما إنه رأى جبريل عليه السلام يَزَعُ الملائكة»[2]. هذا مرسلٌ من هذا الوجه.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية قال: لما دنا القومُ بعضُهم من بعض قَلّل الله المسلمين في أعين المشركين، وقَلّل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾. وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم، فظنوا أنهم سيهزمُونَهم، لا يشكُون في ذلك، فقال الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وقال قتادةُ: رَأَوا عِصابةً من المؤمنين تَشدَّدت لأمر الله، وذُكر لنا أن أبا جهل عَدُوّ الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه قال: واللهِ لا تَعبُدُوا الله بعد اليوم. قسوة وعُتُواً. وقال ابن جُرَيج في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: هم قومٌ كانوا من المنافقين بمكة، قالوه يوم بدر. وقال عامر الشعبيُّ: كان ناسٌ من أهل مكّةَ قد تكلّمُوا بالإسلام، فخَرجُوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾. وقال مجاهد في قوله عز وجل: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣/ ٥٢ ـ ٥٣ وإسناده ضعيف فيه راوٍ لم يسم، وأخرجه البيهقي ٣/ ٥٣ من وجه آخر عن سهل بن سعد قال: قال أبو أسيد الساعدي... فذكره.

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» ١/ ٤٢٢ والطبري ١٦٢٠٤ والبغوي في «التفسير» ١٠١١ هكذا مرسلاً. ووصله البيهقي في «الشعب» ٤٠٧٠ بذكر أبي الدرداء لكن في إسناده أيوب بن سويد الرملي، وهو ضعيف، والصواب مرسل كما رواه مالك.

دِينُهُمْ﴾، قال: فئة من قريش: أبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زَمْعَةَ بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن مُنَبِّه بن الحجاج، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب، فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قِلَّة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾، حتى قدموا على ما قَدِموا عليه، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم. وهكذا قال محمد بن إسحاق بن يسار، سواءً. وقال ابنُ جَرِيرٍ: حدثنا مُحَمَّد بن عبد الأعلى، حدثنا مُحَمَّدُ بن ثَوْرٍ، عن مَعْمَرٍ، عن الحسن في هذه الآية، قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر، فَسُمُّوا منافقين. قال مَعْمَرٌ: وقال بعضهم: هم قوم كانوا أقروا بالإسلام، وهم بمكة، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلّة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: يعتمدُ على جنابه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾، أي: لا يُضام من التجأ إليه، فإن الله عزيزٌ منيعُ الجناب، عظيمُ السلطانِ، حكيمٌ في أفعالِه، لا يَضعُها إلا في مواضعها، فينصرُ من يستحقُّ النَّصرَ، ويخذل من هو أهل لذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٥١﴾

يقول تعالى: ولو عاينتَ ـ يا محمد ـ حال تَوَفِّي الملائكةِ أرواحَ الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فَظِيعاً منكَراً، إذ يضربون وُجوهَهم وأدبارهم، ويقولون لهم: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. قال ابن جُرَيج، عن مجاهد: ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾: أستاههم، قال: يوم بدر. قال ابن جُرَيج، قال ابنِ عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين، ضَرَبُوا وجوهَهم بالسيوف. وإذا وَلَّوا أدركتهم الملائكة فَضَرَبُوا أدبارهم. قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد في قوله: ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾: يوم بدر. وقال وكيع، عن سفيان الثوريِّ، عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير، عن مجاهد، عن شعبة، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جُبَير: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ قال: وأستاهَهم، ولكن الله يَكْنِي. وكذا قال عُمَر مولى غُفْرة.

[٣٣٨٤] وعن الحسن البصري قال: قال رجلٌ: يا رسولَ الله، إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشُّرُكِ[١] قال: ذاك ضرب الملائكة[٢]. رواه ابن جرير، وهو مرسل. وهذا السياقُ ـ وإن كان سَبَبُه وقعةُ بدر ـ ولكنه عامٌّ في حقِّ كلِّ كافر: ولهذا لم يُخَصِّصه تعالى بأهل بدر. بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾. وفي سورة القتال مثلها، وتقدم في سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، أي: باسطو أيديهم بالضرب فيهم، يأمرونهم إذا استعصَتْ أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرجَ قَهراً. وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله.

[٣٣٨٥] كما جاءَ في حديث البراء: إن ملك الموت ـ إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة ـ يقول: اخرجي أيتها النفسُ الخبيثةُ إلى سَمُومٍ وحَميم، وظلٍّ من يحمُومٍ. فتتفرق في بدنه،

(١) في الطبري: «الشراك»، وهو سير النعل، والجمع: شُرُك.
(٢) أخرجه الطبري ١٦٢٢٠ عن الحسن مرسلاً، والمرسل من قسم الضعيف، ثم إن مراسيل الحسن واهية.

يستخرجونها من جسده، كما يخرج السَّفود من الصوف المبلول. فتخرجُ معها العروقُ والعَصَبُ[١]. ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، أي: هذا الجزاءُ بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جَزاكم الله بها هذا الجزاء، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، أي: لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحَكَمُ العدل الذي لا يجورُ ـ تبارك وتعالى وتقدس وتنزه ـ الغني الحميد.

[٣٣٨٦] ولهذا جاء في الحديث الصحيح عند مسلم ـ رحمه الله ـ من رواية أبي ذرّ ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»[٢]. ولهذا قال تعالى:

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

يقولُ تعالى: فَعَلَ هؤلاء المشركون المكذبون بما أُرسِلْتَ به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دَأْبُنا، أي: عادتنا وسُنّتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعونَ ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل، الكافرين بآيات الله. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، أي بسبب ذنوبهم أَهْلَكَهُم وأخذهم أَخْذَ عزيز مقتدر، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، أي: لا يغلبه غالبٌ، ولا يفوته هاربٌ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

يخبر تعالى عن تمام عدله، وقسْطِه في حكمه، بأنه تعالى لا يُغيِّر نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]. وقوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، أي: كصُنْعِهِ بآل فرعون وأمثالهم حين كذَّبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

أخبر تعالى أنّ شَرَّ ما دبّ على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كُلّما عاهدوا عهداً نَقَضُوه، وكُلّما أكدوه بالإيمان نكثوه، ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾، أي: لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من

---

(١) تقدم برقم ٣١٠١.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٧٧ والبخاري في «الأدب المفرد» ٤٩٠ والترمذي ٢٤٩٥ وابن ماجه ٤٢٥٧ وأحمد ٥/ ١٦٠ وابن حبان ٦١٩ من طرق من حديث أبي ذر مطوّلاً.

الآثام. ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾، أي: تغلبهم وتظفر بهم في حرب، ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، أي: نكل بهم، قاله ابن عباس، والحسن البصري، والضحاك، والسدي، وعطاء الخراساني، وابن عُيينة ـ ومعناه غَلِّظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً ـ ليخاف من سواهم من الأعداء، من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾. وقال السدّيّ: يقول: لعلهم يحذَرون أن ينكثوا فيُصنَع بهم مثل ذلك.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةً﴾، أي: نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود، ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾، أي: عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾، أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حَرْبٌ لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك، قال الراجز:

فَاضْرِبْ وُجُوهَ الغُدُرِ الأعْدَاءِ حَتَّى يُجِيبُوكَ إلى السَّوَاءِ

وعن الوليد بن مسلم أنه قال في قوله: ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾، أي: على مَهَلٍ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾، أي: حتى ولو في حق الكافرين، لا يحبها أيضاً.

[٣٣٨٧] قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي الفيض، عن سليم بن عامر، قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر الله أكبر، وفاءً لا غدراً، إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: ومن كان بينه وبين قوم عهدٌ فلا يَحُلَّن عُقْدَةً ولا يشدها حتى ينقضي أمدها، أو يَنبِذُ إليهم على سواء. قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عَبَسَة، رَضِي الله عنه[١]. وهذا الحديثُ رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة. وأخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبّان في صحيحه من طرق عن شعبة، به. وقال الترمذيّ: حسن صحيح.

[٣٣٨٨] وقال الإمام أحمدُ أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الله الزُّبَيري، حدثنا إسرائيلُ، عن عطاء بن السائب، عن أبي البَخْتَرِيّ، عن سلمان ـ يعني الفارسيّ ـ رضي الله عنه: أنه انتهى إلى حِصْنٍ ـ أو: مدينة ـ فقال لأصحابه: دَعُوني أدعُوهُمْ كما رأيتُ رسول الله ﷺ يدعُوهُم، فقال: إنما كنتُ رَجُلاً منكُم، فهداني الله ـ عَزَّ وجلّ ـ للإسلام، فإذا أسلمتم فَلَكُم ما لنا وعليكُم ما علينا، وإن أنتم أبيتم فأدُّوا الجزية وأنتم صاغرون، فإن أبيتم نابذناكم على سواء، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾، يفعل بهم ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها، ففتحوها بعون الله[٢].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾

---

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٢٧٥٩ والترمذي ١٥٨٠ والنسائي في «الكبرى» ٨٧٣٢ وأحمد ٤/ ١١١ و١١٣ وأبو عبيد في «الأموال» ٤٤٨ والبيهقي ٩/ ٢٣١، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٤٤٠ بإسناد ضعيف، أبو البختري، هو سعيد بن فيروز، لم يدرك سلمان.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ ـ يا محمد ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ﴾، أي: فاتونا فلا نقدِرُ عليهم، بل هم تحت قَهر قُدرَتنا وفي قبضة مشيئتنا فلا يُعجِزُوننا، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت: ٤]، أي: يظنون، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾ [النور: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٧]. ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حَسَب الطاقةِ والإمكانِ والاستطاعة فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾، أي: مهما أمكنكم، ﴿مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

[٣٣٨٩] قال الإمام أحمد: حَدَّثنا هارونُ بن معروفٍ، حدثنا ابن وَهْبٍ، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي علي ثُمامَةَ بن شُفَيّ [أخي عقبة بن عامر]، أنه سَمِع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، ألا إن القوّةَ الرميُ، ألا إن القوة الرمي[1]. رواه مسلم، عن هارون بن معروفٍ، وأبو داودَ عن سعيد بن منصورٍ وابن ماجَه عن يونُسَ بن عبدِ الأعلى، ثلاثتُهم عن عبد الله بن وَهْبٍ به. ولهذا الحديث طرق أُخر، عن عُقْبَةَ بن عامرٍ، منها ما رواه الترمذيُّ، من حديث صالح بن كيسان، عن رجل، عنه.

[٣٣٩٠] وروى الإمامُ أحمدُ وأهلُ السُّنَنِ، عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ارمُوا واركَبُوا، وأن تَرْمُوا خَيرٌ من أن تركبوا»[2].

[٣٣٩١] وقال الإمامُ مالكٌ، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح السَّمان، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سِترٌ، وعلى رجل وِزْرٌ. فأما الذي له أجر فرجل رَبَطها في سبيل الله، فأطال لها في مَرْجٍ ـ أو: روضة ـ فما أصابت في طِيَلِهَا ذلك من المرج ـ أو: الروضة ـ كانت له حسنات، ولو أنها قَطَعت طِيلَها فاستَنَّت شَرَفاً أو شَرَفين، كانت آثارها وأرواثُها حسناتٍ له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يُرِد أن يَسْقي به، كان ذلك حسنات له؛ فهي لذلك الرجلِ أجر. ورجل ربطها تَغَنِّياً وتعففاً، ولم ينسَ حق الله في رقابها ولا ظُهُورها، فهي له سِترٌ. ورجل ربطها فخراً ورياءً ونِوَاءً فهي على ذلك وِزر». وسُئل رسولُ الله ﷺ عن الحُمُر فقال: «ما أنزل الله عَليّ فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذَّة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨][3]. رواه البخاري ـ وهذا لفظه ـ ومسلم، كلاهما من حديث مالك.

[٣٣٩٢] وقال الإمام أحمدُ: حَدَّثنا حجاج، أخبرنا شَريك، عن الرُّكَين بن الربيع، عن القاسم بن حسان؛ عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «الخيل ثَلاثة: فَفَرَسٌ للرحمن، وفَرَسٌ للشيطان، وفَرَسٌ للإنسان. فأما فرسُ الرحمنِ فالذي يربط في سبيل الله، فَعَلَفُه وروثُه وبَوْلُه، وذكر ما شاء الله. وأما

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٩١٧ وأحمد ٤/ ١٥٧ وأبو يعلى ١٧٤٣ وأبو داود ٢٥١٤ وابن ماجه ٢٨١٣ من طرق عن ابن وهب به. وأخرجه الترمذي ٣٠٨٣ والطبري ١٦٢٤١ من طريق صالح بن كيسان عن رجل عن عقبة بن عامر به.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ٢٥١٣ والنسائي في «الكبرى» ٤٤٢٠ وأحمد ٤/ ١٤٨ والحاكم ٢/ ٩٥، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي؛ وهو كما قال. وأخرجه الترمذي ١٦٣٧ عن عبد الله بن عبد الرحمن مرسلاً.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٢٣٧١ و٢٨٦٠ ومسلم ٩٨٧ والنسائي ٦/ ٢١٦ ـ ٢١٧ ومالك ٢/ ٤٤٤ وابن حبان ٤٦٧٢ والبيهقي ٤/ ١١٩.

فرس الشيطان فالذي يقامَرُ أو يراهن عليها، وأما فَرَسُ الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسانُ يلتمس بطنها، فهي له ستر من فَقْر»[١]. وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم.

[٣٣٩٣] وقال أحمدِ: حدثنا حَجّاج وهشام قالا: حدثنا ليثٌ، حدثني يزيدُ بن أبي حَبيب، عن ابنِ شُماسَة: أن معاويةَ بن حُدَيجٍ مَرّ على أبي ذَرٍّ، وهو قائمٌ عند فرس له، فسأله: ما تعالجُ من فرسِكَ هذا؟ فقال: إني أظنُ أنّ هذا الفرسَ قد استُجيب له دعوته! قال: وما دعاءُ بهيمةٍ من البهائم؟ قال: والذي نفسي بيده، ما من فرسٍ إلا وهو يدعو كلَّ سَحَر فيقول: اللهم، أنت خَوّلْتَني عبداً من عبادك، وجَعَلْتَ رزقي بيده، فاجعلني أَحَبَّ إليه من أهله وماله وولده[٢].

[٣٣٩٤] قال: وحدثنا يحيى بن سَعِيدٍ، عن عبد الحميد بن جَعْفَرٍ؛ حدثني يزيد بن أبي حَبيب، عن سُوَيد بن قيس؛ عن معاوية بن حُدَيجٍ، عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليس من فرس عربي إلا يُؤذَنُ له مع كلِّ فجر، يدعو بدعوتين، يقول: اللهم، إنك خَوّلتني من خَوّلتني من بني آدم، فاجعلني من أحبِّ أهله وماله إليه، أو: أحبَّ أهله وماله إليه»[٣]. رواه النسائيُّ، عن عَمْرو بن علي الفَلاّس، عن يحيى القطان به.

[٣٣٩٥] وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التُسْتَرِيّ، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا المطعم بن المقدام الصَّنعاني، عن الحسن بن أبي الحَسن أنه قال لابن الحنظلية ـ يعني سَهْلاً: حَدِّثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة، وأهلُها مُعَانُونَ عليها، ومن رَبَطَ فرساً في سبيل الله كانت النفقةُ عليه، كالمادِّ يده بالصدقة لا يقبضها»[٤]. والأحاديثُ الواردةُ في فَضلِ ارتباط الخيل كثيرة.

[٣٣٩٦] وفي صحيح البخاري، عن عُرْوة بن أبي الجعد البارقي: أن رسول الله ﷺ قال: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجرُ والمغنم»[٥]. وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ﴾، أي: تُخَوِّفون ﴿بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي: من الكفار ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ ـ قال مجاهد: يعني بني قريظة. وقال السدّيُّ: فارس، وقال سفيان الثوري: قال ابن يمان: هم الشياطين التي في الدور. وقد ورد حديثٌ بمثل ذلك.

[٣٣٩٧] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عتبة أحمد بن الفرج الحمصي، حدثنا أبو حَيْوة ـ يعني شُرَيح بن

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٩٥ وجوّد إسناده المنذري في «الترغيب» ١٨٧٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ٥/ ٢٦٠ ـ ٢٦١: رواه أحمد، ورجاله ثقات فإن كان القاسم بن حسان سمع من ابن مسعود فالحديث صحيح اهـ. قلت: لم يدرك ابن مسعود ولا طبقته، ووثقه ابن حبان وحده. وقال ابن القطان: لا يُعرف حاله. وشريك سيء الحفظ، لكن يتأيد بما قبله.

(٢) موقوف صحيح، أخرجه أحمد ٥/ ١٦٢ وإسناده إلى أبي ذر صحيح.

(٣) الراجح وقفه. أخرجه أحمد ٥/ ١٧٠ والنسائي ٦/ ٢٢٣، ورجاله ثقات، لكن الراجح الوقف، لأن الليث هو ابن سعد رواه موقوفاً، وهو أثبت من ابن جعفر.

(٤) أخرجه الطبراني ٥٦٢٣ وإسناده لا بأس به، يحيى بن حمزة، روى له الشيخان، لكن عنده غرائب، وأخرج عجزه أبو داود ٤٠٨٩ وأحمد ٤/ ١٧٩ من حديث سهل بن الحنظلية، وإسناد أبي داود ضعيف.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٢٨٥٠ و٣١١٩ ومسلم ١٨٧٣ والترمذي ١٦٩٤ والنسائي ٦/ ٢٢٢ وابن ماجه ٢٣٠٥ وأحمد ٤/ ٣٧٥ و٣٧٦.

يزيد المقرىء ـ حدثنا سَعيد بن سنَان، عن ابن عَريب ـ يعني يزيد بن عبد الله بن عَرِيبٍ ـ عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ كان يقول في قول الله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾، قال: هم الجن[١].

[٣٣٩٨] ورواه الطبراني، عن إبراهيم بن دُحَيم؛ عن أبيه، عن محمد بن شعيب؛ عن سعيد بن سنان؛ عن يزيد بن عبد الله بن عَريب، به، وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لا يُخبل بيت فيه عَتِيقٌ من الخيل»[٢]. وهذا الحديث منكر، لا يصح إسناده ولا متْنه. وقال مقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون. وهذا أشبهُ الأقوالِ، ويشهَدُ له قولُه تعالىٰ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١]. وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، أي: مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال،

[٣٣٩٩] ولهذا جاء في حديث رواه أبو داود: أن الدِّرهم يضاعَفُ ثوابه في سبيل الله إلى سبعمئة ضعف، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١][٣].

[٣٤٠٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمٰن الدَّشْتَكي، حدثنا أبي، عن أبيه، حدثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه كان يأمر ألاَّ يُتصدَّقَ إلا على أهل الإسلام، حتى نَزلت: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، فأمَر بالصدقة بعدها على كل من سأل من كل دين[٤]. وهذا أيضاً غريب.

﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

يقولُ تعالى: إذا خِفْتَ من قوم خيانةً فانبِذْ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حَرْبك ومُنابذتك فقاتلهم، ﴿وَإِن جَنَحُوا۟﴾، أي: مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾، أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة، ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾، أي: فَمِلْ إليها، واقبل منهم ذلك. ولهذا لما طَلَب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين؛ أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخرى.

[٣٤٠١] وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا فضيل بن سليمان ـ يعني النميري ـ حدثنا محمد بن أبي يحيى، عن إياس بن عمرو الأسلمي، عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه سيكون بعدي اختلاف ـ أو: أمر ـ فإن استطعت أن يكون السِّلم،

---

(١) انظر ما بعده.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه الطبراني ١٧/ ١٨٩ وابن عدي ٣/ ٣٦٠، له علتان، ضعف سعيد بن سنان الحمصي، فقد أعله ابن عدي به، وفيه مجاهيل كما في «المجمع» ١١٠٣٠.

(٣) تقدم تخريج الحديث هناك.

(٤) في إسناده جعفر بن أبي المغيرة غير قوي، ثم إن سياق الآية يدل على الإنفاق في سبيل الله لأجل الجهاد، لا على الإنفاق على الناس، ولذا استغربه ابن كثير رحمه الله.

فافعل»[١]. وقال مجاهد: نزلت في بني قريظة. وهذا فيه نظر، لأن السياق كله في وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كُلّه. وقَوْلُ ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة: أن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ . . .﴾ [التوبة: ٢٩] الآية ـ فيه نظرٌ أيضاً: لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدوّ كثيفاً فإنه تجوزُ مهادنتهم، كما دَلّت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاةَ ولانسخ ولا تخصيص، والله أعلم. وقولُه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: صالحهم وتوكل على الله، فإنَّ الله كافيك وناصرُك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقووا ويستعدوا، ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾، أي: كافيك وحدَه. ثم ذَكَر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك ومؤازرتك. ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء؛ فإنَّ الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

[٣٤٠٢] وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خَطَب الأنصار في شأن غنائم حُنَين قال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي؟» كُلّما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنّ[٢]. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: عزيز الجناب، فلا يَخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه. وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا علي بن بشر الصيرفي القزويني في منزلنا، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن الحُسَين القِنْديلي الإِستراباذي، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن النعمان الصفار، حدثنا ميمون بن الحكم، حدثنا بكر بن الشرود، عن محمد بن مسلم الطائفي، عن إبراهيم بن ميسرة، عن طاووس، عن ابن عباس قال: قَرابة الرّحم تُقطَعُ، ومِنّةُ النعمة تُكفَرُ، ولم يُرَ مثل تقارُبِ القُلُوبِ؛ يقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، وذلك موجود في الشعر:

إذا مَتّ ذُو القُرْبَى إليك بِرحْمِهِ ... فَغَشّك واستَغْنَى فَلَيس بِذي رحْمِ
ولكن ذا القربى الذي إن دَعَوتَهُ ... أجاب ومن يَرْمي العَدُوّ الذي تَرْمِي

قال: ومن ذلك قول القائل:

وَلَقد صَحِبتُ الناس ثُمّ سَبَرْتهم ... وَبَلوت ما وَصَلُوا من الأسْبابِ
فإذا القَرابةُ لا تُقَرّبُ قاطِعاً ... وَإذا المَوَدّةُ أقْرَبُ الأسْبَابِ

قال البيهقي: لا أدري هذا موصول بكلام ابن عباس، أو هو من قول من دونه من الرواة. وقال أبو

---

(١) أخرجه عبد الله في مسند أبيه ٦٩٥ من حديث علي. قال الهيثمي في «المجمع» ١٢٠٢٣: رجاله ثقات اهـ فيه فضيل بن سليمان النميري صدوق، وفيه كلام حيث لينه أبو حاتم وأبو زرعة، وقال يحيىٰ: ليس بثقة، وفيه أيضاً إياس بن عمرو الأسلمي، والظاهر أنه مجهول، حيث ذكره ابن أبي حاتم، فقال: روىٰ عن علي روىٰ عنه محمد بن أبي يحيىٰ، وذكره ابن حبان في الثقات بهذه العبارة، وتفرد محمد بن أبي يحيى عنه يدل على أنه مجهول، والله أعلم.

(٢) تقدم في سورة آل عمران عند آية: ١٠٣.

إسحاق السَّبيعي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾... الآية، قال: هم المتحابون في الله. وفي رواية: نزلت في المتحابين في الله. رواه النسائي والحاكم في مستدركه، وقال: صحيح. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه عن ابن عباس قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر؛ وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾. رواه الحاكم أيضاً.

وقال أبو عمرو الأوزاعي: حدثني عبدة بن أبي لبابة، عن مجاهد، ولقيته فأخذ بيدي فقال: إذا تراءى المتحابان في الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، وضحك إليه تحاتَّت خطاياهما كما يَتحاتُّ ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير! فقال: لا تقل ذلك؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾! قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن إبراهيم الخوزي، عن الوليد بن أبي مغيث، عن مجاهد قال: إذا التقى المسلمان فتصافحا غُفر لهما، قال: قلت لمجاهد: بمصافحة يغفر لهما؟ فقال مجاهد: أما سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾؟، فقال الوليد لمجاهد: أنت أعلم مني. وكذا روى طلحة بن مُصرِّف، عن مجاهد. وقال ابن عون، عن عمير بن إسحاق قال: كنا نُحدَّث أن أول ما يرفع من الناس الألفة.

[٣٤٠٣] وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني رحمه الله: حدثنا الحسين بن إسحاق التُّستَري، حدثنا عُبَيد الله بن عمر القواريري، حدثنا سالم بن غيلان، سمعت جعداً أبا عثمان، حدثني أبو عثمان النهدي، عن سلمان الفارسي: أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم، فأخذ بيده، تَحاتَّت عنهما ذنوبهما، كما يَتحاتُّ الورقُ عن الشجرةِ اليابسة في يوم ريحٍ عاصفٍ، وإلا غُفِر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زَبَد البحر[1]».

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يحرض تعالى نبيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم، أي: كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم، حدثنا عبيد الله بن موسى، أنبأنا سفيان، عن ابن شَوذَب، عن الشعبي في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾، قال: حسبك الله، وحسب من شهد معك. قال: ورُوِيَ عن عطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد، مثله.

---

(١) وقع في سائر النسخ «البحار» والتصويب من مصادر التخريج. والحديث حسن، أخرجه الطبراني ٦١٥٠ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٨/ ٣٧ وقال: ورجاله رجال الصحيح، غير سالم بن غيلان، وهو ثقة اهـ وحسن إسناده المنذري في «الترغيب» ٤٠١٢، وله شواهد.

ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾، أي: حثهم وذمّرهم عليه.

[٣٤٠٤] ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرّض على القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر، حين أقبل المشركون في عَدَدهم وعُدَدهم: قوموا إلى جنة عرضها السمٰوات والأرض. فقال عُمَير بن الحُمَام: عرضها السمٰوات والأرض؟! فقال رسول الله ﷺ: نعم. فقال: بَخ بَخ، فقال: ما يحملك على قولك بَخ بَخ؟ قال: رجاء أن أكون من أهلها! قال: فإنك من أهلها. فتقدّم الرجلُ فكسر جَفْنَ سيفه. وأخرج تمراتٍ فجعل يأكل منهن. ثم ألقى بقيّتهن من يده، وقال: لئن أنا حَيِيتُ حتى آكلهنّ إنها لحياة طويلةٌ! ثم تقدم فقاتل حتى قُتِلَ، رضي الله عنه[1]. وقد رُوي عن سعيد بن المسيب، وسعيد بن جُبَير: أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب، وكمل به الأربعون. وفي هذا نظر؛ لأن هذه الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة، والله أعلم.

ثم قال تعالى مُبَشّراً للمؤمنين وآمراً: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وكل واحد بعشرة. ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة. قال عبد الله بن المبارك، حدثنا جرير بن حازم، حدثني الزبير بن الخِرِّيت، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾، شقّ ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم ألاّ يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾... إلى قوله: ﴿يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾، قال: خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم. وروى البخاري من حديث ابن المبارك، نحوه.

وقال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس في هذه الآية قال: كتب عليهم ألاّ يفرّ عشرون من مائتين، ثم خفف الله عنهم، فقال تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾، فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مئتين. وروى البخاري، عن علي بن عبد الله، عن سفيان، به ونحوه.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني ابن أبي نَجيح، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظَموا أن يقاتل عشرون مئتين، ومئة ألفاً، فخفّف الله عنهم. فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾... الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عَدُوهم لم يَنْبَغِ لهم أن يَفِرُوا من عَدُوِّهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوّزُوا عنهم. وروى علي بن أبي طلحة والعَوْفي، عن ابن عباس، نحو ذلك، قال ابن أبي حاتم: وَرُوِي عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، والضحاك، نحو ذلك. وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْدَوَيه، من حديث المسيب بن شريك، عن ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ قال: نزلت فينا أصحاب محمد ﷺ.

[٣٤٠٥] وروى الحاكم في مستدركه، من حديث أبي عمرو بن العلاء، عن نافع، عن ابن عُمَر: أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾[2]، رَفَعَ. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

---

(١) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٤٨.

(٢) أما عاصم وحمزة فقد قرآ بفتح الضاد. قال الفراء: الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم. قال الزجاج: والمعنى في القراءتين واحد (زاد المسير). والحديث ضعيف. أخرجه الحاكم ٢/ ٢٣٩ وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: سلام بن سليمان نزل دمشق: واهٍ.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

[٣٤٠٦] قال الإمام أحمدُ: حدثنا علي بن عاصم، عن حُمَيد، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: استشار رسول الله ﷺ الناسَ في الأسارى يوم بدر، فقال: إن الله قد أمكنكم منهم. فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس، إن الله قد أَمْكَنَكُم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس. فقام عمر فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ ثم عاد النبي ﷺ فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا رسول الله، نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء. قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم، وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ . . . الآية[١]. وقد سبق في أول السورة حديث ابن عباس في صحيح مسلم بنحو ذلك.

[٣٤٠٧] وقال الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي عُبَيدة، عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟» قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استَبْقِهم واستَتِبْهُم، لعل الله أن يتوب عليهم. قال: وقال عمر: يا رسول الله، أخرجوك، وكذَّبوك، فَقَدِّمْهم فاضرب أعناقَهم. قال: قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، أنت في وادٍ كثير الحَطَب، فأضرم الوادي عليهم ناراً، ثم ألقهم فيه. قال: فقال العباس: قطعت رَحِمَك. قال: فسكت رسول الله ﷺ فلم يرُدَّ عليهم شيئاً، ثم قام فدخل فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر. وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: إن الله لَيُلِينُ قلوب رجال حتى تكون أَلْيَنَ من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإنَّ مثلَكَ يا أبا بكر كمثل إبراهيم [عليه السلام]، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وإنَّ مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى [عليه السلام] قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]، وإن مثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام، قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وإن مثلَكَ يا عمر كمثل نوح عليه السلام، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. أنتم عَالَةٌ فلا يَنْفَلِتَنَّ أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عُنُق. قال ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، إلا سُهَيل بن بيضاء، فإنه يَذْكُر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوفَ [من] أن تقع عليَّ حجارةٌ من السماء مِنِّي في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: إلا سُهَيل بن بَيْضَاء. فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ . . . إلى آخر الآية[٢]. رواه الإمام أحمد والترمذي، من حديث أبي معاوية، عن

---

(١) جيد. أخرجه أحمد ٣/ ٢٤٣ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٦/ ٨٧ وقال: رواه أحمد عن شيخه علي بن عاصم بن صهيب، وهو كثير الغلط والخطأ، لا يرجع إذا قيل له الصواب، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح. قلت: لكن للحديث طرق وشواهد، وأصله عند مسلم، وتقدم.

(٢) إسناده ضعيف، أخرجه أحمد ١/ ٣٨٣، والترمذي ٣٠٨٤ والحاكم ٣/ ٢١ من حديث ابن مسعود، وإسناد ضعيف لانقطاعه، أبو عبيدة لم يسمع من أبيه، وقد ذكر ذلك الترمذي ومع ذلك قال: حديث حسن! وصححه الحاكم! =

الأعمش، والحاكم في مستدركه، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وروى الحافظ أبو بكر بنُ مَرْدُويه، عن عبد الله بن عمر، وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ نحوه، وفي الباب عن أبي أيوب الأنصاري.

[٣٤٠٨] وروى ابن مَرْدُويه أيضاً ـ واللفظ له ـ والحاكم في مستدركه، من حديث عبيد الله بن موسى: حدثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: لما أُسِرَ الأسارى يوم بدر، أُسِرَ العباس فيمن أُسِرَ أَسَرَه رجل من الأنصار، قال: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه. فقال له عمر: فآتيهم؟ قال: نعم. فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس. فقالوا: لا، والله لا نرسله. فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضًى قالوا: فإن كان لرسول الله ﷺ رضًى فخذه. فأخذه عمر فلما صار في يده قال له: يا عباس، أسلم، فوالله لأَنْ تُسلِمَ أحبُّ إليّ من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، قال: فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر فيهم، فقال أبو بكر: عشيرتك، فأرسلهم، فاستشار عمر، فقال: اقتلهم. ففاداهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] الآية. قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

[٣٤٠٩] وقال سفيان الثوري، عن هشام ـ هو ابن حسان ـ عن محمد بن سيرين، عن عَبِيدَةَ، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر فقال: خَيِّر أصحابك في الأسارى: إن شاؤوا الفداء، وإن شاؤوا القتل، على أن يقتل مقبلاً مثلهم. قالوا: الفداء ويقتل منا[2]. رواه الترمذي، والنسائي، وابن حبّان في صحيحه من حديث الثوري، به. وهذا حديث غريب جداً.

[٣٤١٠] وقال ابن عون، عن عَبِيدَةَ، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ في أسارى يوم بدر: «إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء، واستشهد منكم بعدتهم». قال: فكان آخر السبعين

= ووافقه الذهبي! مع أنه منقطع وفي بعض ألفاظه غرابة. ولصدره شواهد، وكذا لعجزه، والوهن في أثنائه فقط، والله أعلم. والحديث الآتي عن ابن عمر يشهد لبعضه.

(١) لكن الحاكم أخرجه ٢/ ٣٢٩ مختصراً بذكر عجزه فقط دون التعرض لخبر العباس، وصححه الحاكم وقال الذهبي: على شرط مسلم.

(٢) متن غريب. أخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩ والترمذي ١٥٦٧ وصححه ابن حبان ٤٧٩٥، وقال الترمذي: حسن غريب، قلت: إسناده على شرط مسلم. لكن المتن غريب، تفرد بوصله عمر بن سعد الحفري عن يحيى بن زكرياء عن الثوري عن هشام بن حسان في حين أخرجه ابن سعد ٢/ ٢٢ عن هشام بن حسان عن عبيدة مرسلاً. وأخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ٣٦٨ والطبري ١٦٣٠٣ من طريق أشعث و١٦٣٠٥ من طريق ابن عون، وعبد الرزاق ٩٤٠٢ من طريق أيوب ثلاثتهم عن ابن سيرين عن عبيدة مرسلاً. وهذا هو الراجح وليس فيه ذكر جبريل عند الأكثر. وأخرجه الحاكم ٢/ ١٤٠ والبيهقي ٦/ ٣٢١ وفي «الدلائل» ٣/ ١٣٩ ـ ١٤٠ عن ابن عون عن ابن سيرين عن عبيدة عن علي، وصححه، ووافقه الذهبي، وليس فيه ذكر جبريل أيضاً وإنما هو عن النبي ﷺ ولفظه هو الآتي.

وأما الحديث الأول، فقد ذكر العلامة القاري في «شرح المشكاة» ٤/ ٢٥١ نقلاً عن التوربشتي ما ملخصه: هذا الحديث مشكل جداً لمخالفته ما يدل على ظاهر التنزيل، ولما صح من الأحاديث في أمر أسارى بدر، وأن أخذ الفداء كان رأياً رأوه، وقد عوتبوا عليه، ولو كان هناك تخيير بوحي سماوي لم تتوجه المعاتبة عليه، وقد قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ...﴾ ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. اهـ.

ثابت بن قيس، قتل يوم اليمامة، رضي الله عنه[١]. ومنهم من روى هذا الحديث عن عَبيدة مرسلاً، فالله أعلم. وقال محمد بن إسحاق، عن ابن أبي نَجيح، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قال: غنائمُ بدر، قبل أن يُحلَّها لهم، يقول: لولا أني لا أعذِّب من عصاني حتى أتقدم إليه، لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم. وكذا روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد. وقال الأعمش: سَبَق منه أن لا يعذب أحداً شهد بدراً. وروي نحوه عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن جبير، وعطاء. وقال شعبة، عن أبي هاشم، عن مجاهد: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾، أي: لهم بالمغفرة. ونحوه عن سفيان الثوري رحمه الله. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾، يعني: في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من الأسارى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾. . . الآية. وكذا روى العوفي، عن ابن عباس. وروي مثله عن أبي هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحسن البصري، وقتادة، والأعمش أيضاً: أن المراد ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ لهذه الأمة بإحلال الغنائم. وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

[٣٤١١] ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً، لم يُعطَهُنَّ أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرت بالرعب مَسِيرَة شهر، وجُعلت لي الأرضُ مَسْجداً وطهوراً، وأحِلّت لي الغنائمُ ولم تَحلّ لأحد قبلي، وأعطِيتُ الشفاعة، وكان النبي يُبعَثُ إلى قومه وبُعِثْتُ إلى الناس عامة»[٢].

[٣٤١٢] وقال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تحل الغنائم لسود الرؤوس غيرنا»[٣]. ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء.

[٣٤١٣] وقد روى الإمام أبو داود في سننه: حدثنا عبد الرحمن بن المبارك العيشي، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن أبي العنبس، عن أبي الشعثاء، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمئة[٤].

وقد استقر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء: أن الإمام مخيَّر فيهم: إن شاء قَتلَ ـ كما فُعِل ببني قريظة ـ وإن شاء فادى بمال ـ كما فُعِل بأسرى بدر ـ أو بمن أُسِرَ من المسلمين:

[٣٤١٤] كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سَبْيِ سَلَمَةَ بن الأكوع، حيث رَدَّهما وأَخَذَ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين[٥]، وإن شاء استرق من أسِرَ. هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه.

---

(١) تقدم مع ما قبله، وهو غير قوي، هناك اضطراب في المتن والإسناد، وتقدم ما فيه كفاية، والله أعلم.

(٢) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٤٣.

(٣) صحيح. أخرجه الترمذي ٣٠٨٥ والنسائي في «الكبرى» ١١٢٠٩ وابن حبان ٤٨٠٦ وإسناده صحيح، وأصله عند البخاري ٣١٢٤ ومسلم ١٧٤٧ من وجه آخر من حديث أبي هريرة مطوّلاً.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٦٩١ والبيهقي في «الدلائل» ٣/ ١٤٠ وهو صحيح دون لفظ «أربعمائة».

(٥) صحيح. هو بعض حديث أخرجه مسلم ١٧٥٥ وغيره، وتقدم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

[٣٤١٥] قال محمد بن إسحاق: حدثني العباس بن عبد الله بن مَعْبَدٍ، عن بعض أهله، عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: إني قد عرفتُ أن أناساً من بني هاشم وغيرهم، قد أخرجُوا كَرْهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً منهم ـ أي: من بني هاشم ـ فلا يقتله، ومن لقي أبا البختريّ ابن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتُله، فإنه أُخْرِج مستكرهاً. فقال أبو حُذَيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس؟! والله لئن لقيتُه لألجمَنَّه بالسيف! فبلَغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حَفْصٍ ـ قال عُمَر: والله إنه لأول يوم كَنَّاني فيه رسول الله ﷺ أيضرب وجهُ عَمِّ رسول الله بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فأضرِبَ عُنُقَه، فوالله لقد نافق. فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: والله ما آمنُ من تلك الكلمة التي قلت، ولا أزال منها خائفاً، إلا أن يكفرها الله عني بشهادة. فقتل يوم اليمامة شهيداً، رضي الله عنه[١].

[٣٤١٦] وبه، عن ابن عباس قال: لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر، والأسارى محبوسون بالوثاق، بات رسولُ الله ﷺ ساهراً أول الليل، فقال له أصحابه: يا رسول الله، ما لك لا تنام؟ ـ وقد أَسَرَ العباسَ رجلٌ من الأنصار ـ فقال رسول الله ﷺ: سمعت أنين عمي العباس في وَثَاقِهِ. فَأَطْلَقُوه، فسكتَ، فنام رسول الله ﷺ[٢]. قال محمد بن إسحاق: وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب، وذلك أنه كان رجلاً موسراً فافتدى نفسه بمئة أوقية ذهباً.

[٣٤١٧] وفي صحيح البخاري، من حديث موسى بن عقبة، قال ابن شهاب: حدثني أنس بن مالك أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فَلْنترُكْ لابن أختنا عباس فداءه. قال: لا، والله لا تَذَرُونَ منه درهماً[٣].

[٣٤١٨] وقال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومان، عن عروة ـ وعن الزهري، عن جماعة ـ سماهم ـ قالوا: بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله، قد كنت مسلماً! فقال رسول الله ﷺ: الله أعلمُ بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا، فافتدِ نفسك وابنَي أخيك: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعَقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو وأخي بني الحارث بن فهر». قال: ما ذاك عندي يا رسول الله! قال: فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل، فقلت لها: إن أصِبْتُ في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبَنِيَّ: الفضل، وعبد الله، وقُثَم؟ قال: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنك

---

(١) إسناده ضعيف. أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣/ ١٤٠ ـ ١٤١ في إسناده «عن بعض أهله» وهذا من قسم المجاهيل. والله أعلم.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣/ ١٤١ بالإسناد المذكور وهو ضعيف بهذا اللفظ. ولبعضه شواهد.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٢٥٣٧ و٤٠١٨ وابن حبان ٤٧٩٤ والبيهقي ٦/ ٢٠٥.

رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغيرُ أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني، عشرين أوقية من مال كان معي؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك»، ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، وأنزل الله عز وجل فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾، قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً، كلهم في يده مال يَضْرِبُ به، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل[١]. وقد روى ابن إسحاق أيضاً، عن ابن نَجِيح، عن عطاء، عن ابن عباس في هذه الآية بنحو ما تقدم.

[٣٤١٩] وقال أيضاً أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا ابن إدريس، عن ابن إسحاق عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال العباس: فيّ نزلت: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي، وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذ مني، فأبى، فأبدلني الله بها عشرين عبداً، كلهم تاجِرٌ، مالي في يده[٢].

[٣٤٢٠] وقال ابن إسحاق أيضاً: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله بن رئاب قال: كان العباس بن عبد المطلب يقول: فِيّ نزلت ـ والله ـ حين ذكرت لرسول الله ﷺ إسلامي[٣]. ثم ذكر نحو الحديث كالذي قبله.

[٣٤٢١] وقال ابن جُرَيج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾: عباس وأصحابه، قال: قالوا للنبي ﷺ: آمنا بما جئت ونشهد أنك رسول الله، لننصحن لك على قومنا فأنزل الله: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾، إيماناً وتصديقاً، يخلف لكم خيراً مما أخذ منكم، ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ الشرك الذي كنتم عليه. قال: فكان العباس يقول: ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لي الدنيا، لقد قال: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾، فقد أعطاني خيراً مما أخذ مني مئة ضعف، وقال: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾، وأرجو أن يكون غُفر لي[٤].

[٣٤٢٢] وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: كان العباس أسر يوم بدر فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين قرئت هذه الآية: لقد أعطانا الله عز وجل خَصلتين، ما أحب أن لي بهما الدنيا، إني أسرت يوم بدر فَفَدَيت نفسي بأربعين أوقية، فآتاني أربعين عبداً، وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله جل ثناؤه[٥].

[٣٤٢٣] وقال قتادة في تفسير هذه الآية: ذُكر لنا أن رسول الله ﷺ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفاً، وقد توضأ لصلاة الظهر، فما أعطى يومئذٍ ساكتاً ولا حرم سائلاً، وما صلى يومئذٍ حتى فرّقه، فأمر

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣/ ١٤٢ ـ ١٤٣ من طريق يونس بن بكير به. ويشهد له ما أخرجه الحاكم ٣/ ٣٢٤ والبيهقي في «السنن» ٦/ ٣٢٢ من حديث عائشة، صححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الطبري ١٦٣٣٥ ورجاله ثقات، لكن فيه عنعنة ابن إسحاق.

(٣) أخرجه الطبري ١٦٣٣٦ وإسناده ساقط، الكلبي متهم، وأبو صالح لم يلق ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري ١٦٣٤٠ وعطاء الخراساني روىٰ مناكير. وفي روايته عن ابن عباس إرسال.

(٥) أخرجه الطبري ١٦٣٣٨ ورجاله ثقات، لكن فيه إرسال، ومع ذلك له شواهد كثيرة، وهو أحسن الروايات سياقاً.

العباس أن يأخذ منه ويَحْتَثِي فأخذ. قال: فكان العباس يقول: هذا خير مما أخذ منا، وأرجو المغفرة[١].

[٣٤٢٤] وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال قال: بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفاً، ما أتاه مال أكثر منه لا قَبلُ ولا بَعدُ، قال: فَنُثِرَتْ على حَصِير ونُودِيَ بالصلاة. قال: وجاء رسولُ الله ﷺ فمثَلَ قائماً على المال، وجاء أهل المسجد فما كان يومئذٍ عَدَدٌ ولا وَزْنٌ، ما كان إلا قَبْضاً، وجاء العباس بن عبد المطلب يَحْثِي في خَمِيصَةٍ عليه، وذهب يقوم فلم يستطع، قال: فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ارفع علي. قال: فتبسم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكه ـ أو: نابه ـ وقال له: أعد من المال طائفة، وقم بما تطيق. قال: ففعل، وجعل العباس يقول ـ وهو منطلق ـ: أمّا إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا، وما ندري ما يصنع في الأخرى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾... الآية، ثم قال: هذا خير مما أخذ منا، ولا أدري ما يصنع الله في الأخرى. فما زال رسول الله ﷺ ماثلاً على ذلك المال، حتى ما بقي منه درهم، وما بعث إلى أهله بدرهم، ثم أتى الصلاة فصلّى[٢].

[٣٤٢٥] **حديث آخر في ذلك**: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو الطيب محمد بن محمد بن عبد الله السّعيديُّ، حدثنا مَحْمِش بن عصام، حدثنا حفص بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عبد العزيز بن صُهَيب، عن أنس بن مالك قال: أتي رسولُ الله ﷺ بمال من البحرين، فقال: انثروه في المسجد. قال: وكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاء العباس فقال: يا رسول الله، أعطني، فإني فاديت نفسي، وفاديت عَقيلاً. فقال له رسول الله ﷺ: خذ فحثا في ثوبه، ثم ذهب يُقلّه فلم يستطع، فقال: مُرْ بعضهم يرفعه إليّ. قال: لا. قال: فارفعه أنت عليّ قال: لا. فنثر منه ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق، فما زال رسول الله ﷺ يُتبعه بصره حتى خَفِيَ عنه، عَجَباً من حِرْصه، فما قام رسول الله ﷺ وثَمّ منها درهم[٣]. وقد رواه البخاري في مواضعَ من صحيحه تعليقاً بصيغة الجَزْمِ، يقول: وقال إبراهيمُ بن طهمان ويسوقه في بعض السياقات أتم من هذا.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ﴾، أي: فيما أظهروا لك من الأقوال، ﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل بدر بالكفر به، ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾، أي: بالإسار يوم بدر، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. أي: عليم بما يفعله، حكيم فيه. قال قتادةُ: نزلت في عبد الله بن أبي سَرْح الكاتب حين ارتد، ولحق بالمشركين. وقال ابن جُرَيج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: نزلت في عباس وأصحابه، حين قالوا: لننصحن لك على قومنا. وفسرها السدّيُّ على العموم، وهو أشمل وأظهر، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ

---

(١) هذا مرسل. أخرجه الطبري ١٦٣٣٧ لكن يعتضد بما بعده، وأصله في الصحيح تعليقاً كما سيأتي.

(٢) مرسل حسن. حميد تابعي ثقة، وهو يتأيد بما بعده.

(٣) حسن. أخرجه البيهقي ٦/٣٥٦ وإسناده حسن، وذكره البخاري ٣١٦٥ عن إبراهيم بن طهمان به تعليقاً.

فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقسَّمهم إلى مهاجرين خَرَجوا من ديارهم وأموالهم، وجاؤوا لنصر الله ورسوله، وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك، وإلى أنصار، وهم: المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسوهم في أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض، أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد. ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخَوان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في صحيح البخاري، عن ابن عباس، ورواه العَوْفي، وعلي بن أبي طلحة، عنه. وقال به مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغيرهم.

[٣٤٢٦] قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن جَرير ـ هو ابن عبد الله البجلي، رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار أولياء، بعضهم لِبَعْضٍ، والطلقاء من قريش، والعتقاء من ثقيف، بعضُهم أولياء بعض إلى يوم القيامة»[١]. تفرد به أحمد.

[٣٤٢٧] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا شيبان، حدثنا عكرمة ـ يعني ابن إبراهيم الأزدي ـ حدثنا عاصم، عن شقيق، عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهاجرون والأنصار والطلقاء من قريش، والعتقاء من ثقيف، بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة»[٢]. هكذا رواه في مسند عبد الله بن مسعود.

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه، فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾... [التوبة، الآية ١٠٠] الآية، وقال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾... [التوبة، الآية ١١٧] الآية، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾... [الحشر: ٨ ـ ٩] الآية. وأحسن ما قيل في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾، أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك،

[٣٤٢٨] ولهذا قال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا محمد بن

---

(١) جيد. أخرجه أحمد ٤/ ٣٦٣ والطبراني ٢٢٨٤ و٢٣٠٢ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ١٥: رواه أحمد والطبراني بأسانيد، وأحد أسانيد الطبراني رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه أبو يعلى ٥٠٣٣ من حديث ابن مسعود، وإسناده ضعيف عكرمة بن إبراهيم ضعفه يحيى وأبو داود والنسائي وزاد: ليس بثقة، وذكره ابن حبان في المجروحين ٢/ ١٨٨، وقال: كان ممن يقلب الأخبار اهـ راجع الميزان، والمتن محفوظٌ من حديث جرير، ولعله وهم، فجعله من حديث ابن مسعود والله أعلم.

معمر، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا حمّاد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيِّب، عن حذيفة قال: خيّرني رسولُ الله ﷺ بين الهجرة والنصرة، فاخترت الهجرة[١]. ثم قال: لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾، قرأ حمزة: وِلَايتهم بالكسر، والباقون بالفتح. وهما واحد كالدَّلالة والدِّلالة، ﴿مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾، هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بواديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نَصِيبٌ، ولا في خُمسها إلا ما حضروا فيه القتال.

[٣٤٢٩] كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مَرْثَد، عن سليمان بن بُرَيدة، عن أبيه بُرَيدة بن الحُصيب الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا بعث أميراً على سريّة أو جيش، أوصاه في خاصّةِ نفسه بتقوى الله وَمَن معه من المسلمين خيراً، وقال: اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال ـ أو: خلال ـ فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكفَّ عنهم. ادعُهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم. ثم ادعُهُم إلى التحوُّل من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين. فإن أَبَوا واختارُوا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أَبَوا فادعُهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم»[٢]. انفرد به مسلم، وعنده زيادات أخر. وقوله: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. يقول تعالى: وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني، على عدوّ لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم، لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾، أي: مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا في ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)﴾

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضُهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما قال الحاكم في مستدركه:

[٣٤٣٠] حدثنا محمد بن صالح بن هانيء، حدثنا أبو سعد يحيىٰ بن منصور الهروي، حدثنا محمد بن أبان حدثنا محمد بن يزيد وسفيان بن حسين، عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة، عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر مسلماً»، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ

---

(١) أخرجه البزار ٢٧١٨ والطبراني ٣٠١٠ من حديث حذيفة، وقال البزار: ما نعلم رواه إلا حذيفة، ولا له إلا هذا الإسناد اهـ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٥٨٠٤: رجاله رجال الصحيح غير علي بن زيد، وهو حسن الحديث! كذا قال الهيثمي رحمه الله! وعلي بن زيد ضعفه الحافظ في التقريب. وقال البخاري وأبو حاتم: لا يحتج به. راجع الميزان ٥٨٤٤.

(٢) تقدم في سورة البقرة عند آية: ١٩٠.

كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾(١). ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

[٣٤٣١] قلت: الحديث في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»(٢).

[٣٤٣٢] وفي المسند والسنن من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهلُ ملَّتين شتَّى»(٣). وقال الترمذي: حسن صحيح.

[٣٤٣٣] وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد، عن محمد بن ثور، عن معمر، عن الزهري: أن رسول الله ﷺ أخَذَ على رجل دخل في الإسلام فقال: تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان، وأنك لا ترى نار مشرك إلا وأنت له حرب»(٤). وهذا مرسلٌ من هذا الوجه.

[٣٤٣٤] وقد رُوِي مُتَّصلاً من وجه آخر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنا بريءٌ من كلِّ مسلم بين ظهراني المشركين»، ثم قال: «لا يتراءى(٥) ناراهما».

[٣٤٣٥] وقال أبو داود في آخر كتاب الجهاد: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، أخبرني يحيى بن حسان، أنبأنا سليمان بن موسى أبو داود، حدثنا جعفر بن سعد بن سَمُرة بن جندب، حدثني خبَيب بن سليمان، عن أبيه سليمان بن سمرة، عن سَمُرة بن جُندَب: أما بعد، قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»(٦).

[٣٤٣٦] وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه، من حديث حاتم بن إسماعيل، عن عبد الله بن هُرْمُز، عن محمد وسعيد ابني عبيد، عن أبي حاتم المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من تَرْضَون دينه وخلقه فأَنْكِحُوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض. قالوا: يا رسول الله، وإن كان...؟ قال: إذا أتاكم من تَرْضَون دينه وخلقه فأنكحوه ثلاث مرات»(٧). وأخرجه أبو داود والترمذي، من حديث حاتم بن إسماعيل، به بنحوه.

[٣٤٣٧] ثم رَوى من حديث عبد الحميد بن سليمان، عن ابن عجلان، عن ابن وَثِيمَةَ النضري، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوِّجوه، إلا تفعلوا

---

(١) جيد. أخرجه الحاكم ٢/ ٢٤٠ وصححه، ووافقه الذهبي، وهو حسن الإسناد، وانظر ما يأتي.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٧٦٤ ومسلم ١٦١٤ وأبو داود ٢٩٠٩ والترمذي ٢١٠٧ والنسائي في «الكبرى» ٦٣٧٢ و٦٣٧٤ وأحمد ٥/ ٢٠٠ و٢٠٨ وابن حبان ٦٠٣٣ والبيهقي ٦/ ٣١٧.

(٣) جيد. أخرجه أبو داود ٢٩١١ والنسائي في «الكبرى» ٦٣٨٤ وابن ماجه ٢٧٣١ وأحمد ٢/ ١٧٨ و١٩٥.
وأخرجه الترمذي ٢١٠٨ من حديث جابر، وتقدم.

(٤) مرسل. أخرجه الطبري ١٦٣٥٣ لكن يشهد له ما بعده، وفي الباب أحاديث كثيرة تعضده.

(٥) وفي رواية «لا تراءىٰ»، وتقدم الكلام علىٰ معناه في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١١٨.

(٦) تقدم الكلام علىٰ هذا الحديث وبيان معناه أيضاً في تفسير سورة آل عمران.

(٧) حسن. أخرجه الترمذي ١٠٨٥ وقال: حسن غريب اهـ. إسناده ضعيف لضعف عبد الله بن هرمز، لكن يتأيد بما بعده.

تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[1]. ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

لما ذكر تعالى حُكم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر ما لهم في الآخرة؛ فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان، كما تقدم في أول السورة، وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن ذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبداً، لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يُسأم ولا يُملّ، لحسنه وتنوعه. ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح، فهم معهم في الآخرة، كما قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠٠]... الآية، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

[٣٤٣٨] وفي الحديث المتفق عليه. بل المتواتر، من طرق صحيحة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرءُ مع من أحب»[2].

[٣٤٣٩] وفي الحديث الآخر: «من أحب قوماً حُشِر معهم»[3].

[٣٤٤٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة»[4]. قال شريك: فحدثنا الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عبد الرحمن بن هلال، عن جرير، عن النبي ﷺ مثله. تفرد به أحمد من هذين الوجهين. وأما قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، أي: في حكم الله، وليس المراد بقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة، الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة، بل يُدلون بوارث، كالخالة، والخال،

---

(١) حسن. أخرجه الترمذي ١٠٨٤ وابن ماجه ١٩٦٧ وأخرجه الحاكم ٢/ ١٦٥ من طريق عبد الحميد به، لكن قال فيه «وثيمة البصري» وصححه قال الذهبي: عبد الحميد هو أخو فليح قال أبو داود كان غير ثقة. ووثيمة لا يعرف اهـ. وكرره الترمذي من وجه آخر عن ابن عجلان عن أبي هريرة، وهذا منقطع. وورد عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً عند عبد الرزاق في «المصنف» ١٠٣٢٥. وأخرجه ابن عدي في «الكامل» ٥/ ٧٣ من حديث ابن عمر، وأعله ابن عدي بـ «عمار بن مطر العنبري». الخلاصة: هو حديث حسن بطرقه وشواهده.

(٢) تقدم مراراً.

(٣) أخرجه الطبراني في «الصغير» ٨٧٤ من حديث علي بأتم منه وصدره: «ثلاث هن حق....» وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٢٧٩: ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن ميمون الخياط، وقد وثق اهـ.

ـ وأخرجه الطبراني ٢٥١٩ من حديث أبي قرصافة. وقال الهيثمي: وفيه من لم أعرفه.

(٤) تقدم عند آية: ٧٢ من هذه السورة.

والعمة، وأولاد البنات، وأولاد الأخوات، ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية، ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات. كما نص عليه ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغير واحد: على أنها ناسخة للإرث بالحِلْف والإِخاء اللّذَين كانوا يتوارثون بهما أولاً، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص. ومن لم يورثهم يحتج بأدلة، من أقواها.

[٣٤٤١] حديثُ: «إنَّ الله قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا وَصِيَّة لوارثٍ»[١]، قالوا: فلو كان ذا حق لكان له فرض في كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً، والله أعلم.

• • •

آخر تفسير سورة الأنفال، ولله الحمد والمنة، وعليه التكلان. وهو حسبنا ونعم الوكيل

(١) صحيح. أخرجه سعيد بن منصور ٤٢٧ وأبو داود ٣٥٦٥ والترمذي ٢١٢٠ وابن ماجه ٢٧١٣ والطيالسي ١١٢٧ وأحمد ٥/ ٢٦٧ والبيهقي ٦/ ٢٦٤ من حديث أبي أمامة. وانظر تفسير القرطبي ٨٥٨ بتخريجي طبع دار الكتاب العربي.



﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، كما قال البخاري:

[٣٤٤٢] حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: آخرُ آيةٍ نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾، وآخر سورةٍ نَزَلَتْ براءة[1].

وإنما لم يبسمل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، والاقتداء في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ، كما قال الترمذي:

[٣٤٤٣] حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، ومحمد بن جعفر، وابن أبي عَديّ، وسَهْل بن يوسف قالوا: حدثنا عوف بن أبي جَميلة، أخبرني يزيد الفارسي، أخبرني ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المثين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ووضعتموها في السبع الطُّوَل، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو يَنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيءُ دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضَعُوا هذه الآيات في السورة التي يُذْكَرُ فيها كذا وكذا. فإذا نزلت عليه الآية فيقول: ضَعُوا هذه في السورة التي يُذْكَر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءةُ من آخر القرآن، وكانت قصَّتُها شبيهة بقصتها، وحَسَبْتُ أنها منها، وقُبِضَ رسول الله ﷺ ولم يُبَيِّن لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قَرَنْتُ بينهما، ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فَوضعْتُها في السبع الطُّوَلِ[2]. وكذا رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي وابن حبّان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من طرق أخر، عن عوف الأعرابي، به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهَمّ بالحج، ثم ذُكِر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم، فبعث أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أميراً على الحج هذه السنة، ليقيم للناس مناسكهم، ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٨٠.

(٢) ضعيف. أخرجه أبو داود ٧٨٦ و٧٨٧ والترمذي ٣٠٨٦ والنسائي في «الكبرى» ٨٠٠٧ وأحمد ١/ ٥٧ و٦٩ وابن حبان ٤٣ والبغوي في «التفسير» ١٠٢٨ وحسنه الترمذي وصححه الحاكم على شرطهما! ووافقه الذهبي؟! وإسناده ضعيف مداره على يزيد الفارسي، وهو مجهول.

هذا، وأن ينادي في الناس ببراءة، فلما قفل اتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عَصَبة له، كما سيأتي بيانه.

فقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، أي: هذه براءة، أي: تَبَرُّؤٌ من الله ورسوله ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾: اختلف المفسرون ها هنا اختلافاً كثيراً، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقّت فأجله إلى مدته، مهما كان، لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

[٣٤٤٤] ولما سيأتي في الحديث: «ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته»[(١)]. وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله. ورُوي عن الكلبي، ومحمد بن كعب القُرظي، وغير واحد. وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ الآية، قال: حَدَّ الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر، يَسيحون في الأرض حيثما شاؤوا، وأَجَّلَ أَجَلَ من ليس له عهد انسلاخَ الأشهر الحرم، من يوم النحر إلى انسلاخ المحرم، فذلك خمسون ليلة، فإذا انسلَخَ الأشهرُ الحرم أمره بأن يضع السيف فيمن لا عهد له. وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس. وقال الضحاك بعد قوله: «فذلك خمسون ليلة»: فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرَّم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهدٌ يقتُلُهم حتى يدخلوا في الإسلام. وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خَلَون من ربيع الآخر، أن يضع السيف فيهم أيضاً، حتى يدخلوا في الإسلام.

[٣٤٤٥] وقال أبو معشرٍ المَدَنيُّ: حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع، وبعَث علي بن أبي طالب بثلاثين أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس، يؤجِّل المشركين أربعة أشهر يسيحون في الأرض، فقرأها عليهم يوم عرفة، أجَّل المشركين عشرين من ذي الحجّة، والمحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشراً من ربيع الآخر، وقرأها عليهم في منازلهم، وقال: لا يحجنَّ بعد عامنا هذا مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان[(٢)].

[٣٤٤٦] وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ إلى أهل العهد: خزاعةَ، ومُدلج، ومن كان له عهد أو غيرهم. أقبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ، فأراد رسول الله ﷺ الحج، ثم قال: «إنما يحضر المشركون فيطوفون عُرَاة، فلا أحب أن أحجَّ حتى لا يكون ذلك». فأرسل أبا بكر وعلياً ـ رضي الله عنهما ـ فطافا بالناس في ذي المَجاز وبأمكنتهم التي كانوا يتبايعون بها بالمواسم كلها، فآذَنُوا أصحابَ العهدِ بأن يأمنوا أربعة أشهر، فهي الأشهر المتواليات: عشرون من ذي الحجة إلى عشر يَخْلُون من ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم، وآذَنَ الناس كُلَّهم بالقتالِ إلا أن يؤمنوا[(٣)]. وهكذا رُوي عن السدِّيّ، وقتادة. وقال الزهري: كان ابتداء التأجيل من شوال وآخره سَلْخُ المحرم. وهذا القول غريبٌ، وكيف يحاسبون بمدة

---

(١) يأتي برقم ٣٤٥١.

(٢) هذا مرسل. أخرجه الطبري ١٦٣٧٦ وقد ورد موصولاً كما سيأتي. وكذا ما بعده.

(٣) هذا مرسل، أخرجه الطبري ١٦٣٧٧ وانظر ما سيأتي بعده.

لم يبلغهم حكمها، وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر، حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك، ولهذا قال تعالى:

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾

يقول تعالى: وإعلام ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ وتقدُّم وإنذار ﴿إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾، وهو يومُ النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعاً، ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾، أي: بريء منهم أيضاً. ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾، أي: مما أنتم فيه من الشرك والضلال، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: استمررتم على ما أنتم عليه، ﴿فَاعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ﴾، بل هو قادر عليكم، وأنتم في قبضته، وتحت قهره ومشيئته، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: في الدنيا بالخزي والنكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال.

[٣٤٤٧] قال البخاري رحمه الله: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، حدثني عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني حُمَيد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ في تلك الحَجَّة في المُؤذِّنين الذين بعثهم يوم النحر، يُؤذِّنون بمنى: ألاَّ يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفَ بالبيت عريان. قال حميد: ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب، فأمره أن يؤذِّن ببراءة. قال أبو هُريرة: فأذَّن معنا عليّ في أهل منى يوم النحر ببراءة، وألاَّ يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفَ بالبيت عريانٌ[١].

[٣٤٤٨] ورواه البخاري أيضاً: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعَيب، عن الزهري، أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر فيمن يُؤذِّن يوم النحر بمنى: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفُ بالبيت عُريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل: الأكبر، من أجل قول الناس: الحج الأصغر، فَنَبَذَ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك[٢]. وهذا لفظ البخاري في كتاب الجهاد.

[٣٤٤٩] وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ في قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، قال: لما قفل النبي ﷺ زمن حنين، اعتمر من الجِعِرَّانة، ثم أمَرَ أبا بكر على تلك الحجة ـ قال معمر: قال الزهري: وكان أبو هريرة يحدِّث أن أبا بكر أمَرَ أبا هريرة أن يؤذن ببراءة في حجة أبي بكر. قال أبو هريرة: ثم أتبَعَنا النبيُّ ﷺ علياً، وأمرَه أن يؤذِّن ببراءة، وأبو بكر على الموسم كما هو ـ أو قال: على هيئته[٣]. وهذا السياق فيه غرابة، من جهة أن أمير الحج كان سنة عمرة الجعرّانة إنما عَتَّاب بن أسيد، فأما أبو بكر إنما كان أميراً سنة تسع.

[٣٤٥٠] وقال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن مغيرة، عن الشعبي، عن مُحرِّر بن أبي هريرة، عن أبيه قال: كنت مع علي بن أبي طالب، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة بـ «براءة»، فقال:

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٦٩ و٤٦٥٥ ومسلم ١٣٤٧ وأبو داود ١٩٤٦ والنسائي ٥/ ٢٣٤ وأبو يعلى ٧٦ والبغوي في «التفسير» ١٠٣١.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٧٧ بهذا الإسناد.

(٣) أخرج عبد الرزاق في «التفسير» ١٠٣٧ صدره عن ابن المسيب مرسلاً، ليس فيه ذكر أبي هريرة.

ما كنتم تنادون؟ قال: كنا نادي: أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوفَ بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله ـ أو أمَدَه ـ إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك ـ قال: فكنت أنادي حتى صَحَلَ صوتي[(١)].

[٣٤٥١] وقال الشعبي: حدثني محرَّرُ بن أبي هريرة، عن أبيه قال: كنت مع ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ حين بعثه رسول الله ﷺ ينادي، فكان إذا صَحَل ناديتُ. قلت: بأي شيء كنتم تنادون؟ قال: أربع: لا يطوف بالكعبة عريان، ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد عامنا مشرك[(٢)]. رواه ابن جرير من غير ما وجه، عن الشعبي. ورواه شعبة، عن مغيرة، عن الشعبي، به، إلا أنه قال: «ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فعهده إلى أربعة أشهر، وذكر تمام الحديث[(٣)]. قال ابن جرير: وأخشى أن يكون وهماً من بعض نقلته، لأن الأخبار متظاهرة في الأجل بخلافه.

[٣٤٥٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن سِمَاك، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ بعث بـ «براءة» مع أبي بكر، فلما بلغ ذا الحليفة قال: لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي. فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه[(٤)]. ورواه الترمذي في التفسير، عن بُنْدار، عن عفان وعبد الصمد كلاهما عن حماد بن سلمة، به ثم قال: حسن غريب من حديث أنس رضي الله عنه.

[٣٤٥٣] وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: حدثنا محمد بن سليمان ـ لُوَين ـ حدثنا محمد بن جابر، عن سِمَاكٍ، عن حَنَش، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي ﷺ دعا النبي ﷺ أبا بكر، فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة، ثم دعاني فقال: أدرك أبا بكر، فحيثما لَحقته فخذ الكتاب منه، فاذهب إلى أهل مكة فاقرأه عليهم. فلحِقْته بالجُحْفة، فأخذت الكتاب منه، ورجع أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، نزل فيَّ شيء؟ فقال: لا، ولكن جبريل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك[(٥)]. هذا إسناد فيه ضعف. وليس المراد أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ رجع من فوره، وإنما رجع بعد قضائه المناسك التي أمَّره عليها رسول الله ﷺ كما جاء مبيناً في الرواية الأخرى.

---

(١) أخرجه النسائي في «التفسير» ٢٣٤ والدارمي ١/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣ وابن حبان ٣٨٠٩ وأحمد ٢/ ٢٩٩ والطبري ١٦٣٨٤ من طريقين عن شعبة به، وصححه الحاكم ٢/ ٣٣١ ووافقه الذهبي وإسناده لين لأجل محرّر، فإنه شبه مجهول. وقال الطبري: وأخشى أن يكون وهماً من بعض نقلته لأن الأخبار متظاهرة في الأجل بخلافه اهـ. ولفظ «أربعة أشهر» ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري ١٦٣٨٢ من طريق الشعبي به، وإسناده لين لأجل محرر، لكن لأصله شواهد.

(٣) هو المتقدم قبل حديث واحد.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٠٩٠ وأحمد ٣/ ٢١٢ ـ ٢٨٣، وإسناده ضعيف فيه سماك بن حرب. جاء في «الميزان» ٣٥٤٨ ما ملخصه: صدوق صالح، ضعفه الثوري، وقال جرير الضبي: أتيت سماكاً فرأيته يبول قائماً، فرجعت ولم أسأله، فقلت: خرف، ووثقه يحيىٰ وقال: كان شعبة يضعفه، وقال أحمد: مضطرب الحديث. وقال صالح جزرة: ضعيف، وقال النسائي: إذا انفرد بأصل لم يكن بحجة اهـ. فالرجل مختلف فيه، والأكثر علىٰ وهنه، وقد تفرد بهذا اللفظ، وهو غير حجة كما قال النسائي.

(٥) أخرجه عبد الله بن أحمد في «المسند» ١/ ١٥١ ح ١٢٩٩ وإسناده ضعيف جداً. له ثلاث علل، حنش هو ابن المعتمر، غير قوي، وثقه أبو داود، وقال أبو حاتم صالح لا أراهم يحتجون به، وقال البخاري: يتكلمون في حديثه، وقال ابن حبان: لا يحتج به، يتفرد عن علي بأشياء، لا يشبه حديث الثقات، وعلة ثالثة: محمد بن جابر صدوق لكن ذهبت كتبه، وساء حفظه، وخلط كثيراً فصار يلقن.

[٣٤٥٤] وقال عبد الله أيضاً: حدثني أبو بكر، حدثنا عمرو بن حماد، عن أسباط بن نصر، عن سماك، عن حَنَش، عن علي ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ حين بعثه بـ «براءة» قال: يا نبي الله، إني لستُ باللَّسِنِ ولا بالخطيب. قال: ما بدّ لي أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت. قال: فإن كان ولا بدّ فسأذهب أنا. قال: «انطلق، فإن الله يُثَبِّتُ لسانك ويهدي قلبك». قال: ثم وَضَع يده على فيه[١].

[٣٤٥٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يُثَيْع ـ رجل من هَمْدان ـ: سألنا علياً: بأي شيء بُعثت؟ يعني يوم بَعَثَهُ النبي ﷺ مع أبي بكر في الحجة. قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا[٢]. ورواه الترمذي عن قِلابَةَ، عن سفيان بن عُيَينة، به، وقال: حسن صحيح. كذا قال. [ثم قال][٣] وروى[٤] شعبة، عن أبي إسحاق [عن زيد غير هذا الحديث][٥]، فقال: عن زيد بن أثيل، وَهِمَ فيه. ورواه الثوري، عن أبي إسحاق، عن بعض أصحابه، عن علي رضي الله عنه.

[٣٤٥٦] وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة عن زكريا، عن أبي إسحاق عن زيد بن يُثَيْع، عن علي قال: بعثني رسول الله ﷺ حين أنزلت براءة بأربع: أن لا يطوف بالبيت عريان، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مُدّته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة[٦]. ثم رواه ابن جرير، عن محمد بن عبد الأعلى، عن محمد بن ثور، عن معمر، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: أُمِرْتُ بأربعٍ... فذكره.

[٣٤٥٧] وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يُثيع قال: نزلت براءة فبعثَ رسولُ الله ﷺ أبا بكر، ثم أَرسَل علياً، فأخذها منه فلما رجع أبو بكر قال: نزل فيّ شيء؟ قال: لا، ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي، فانطلق إلى أهل مكة، فقام فيهم بأربع: لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخُلِ الجنّةَ إلا نفسٌ مسلِمَةٌ، ومن كان بينه وبين رسولِ الله ﷺ عهد، فعهدُه إلى مُدّتِهِ[٧].

---

(١) إسناده ضعيف، أخرجه عبد الله في «المسند» ١٢٨٩ بهذا الإسناد، وهو ضعيف وتقدم الكلام على حنش وسماك، وفيه عمرو بن حماد صدوق، لكن رماه أبو داود بالرفض، وفيه أسباط بن نصر غير قوي.

(٢) جيد. أخرجه الترمذي ٣٠٩٢ والحاكم ٣/ ٥٢ والطبري ١٦٣٨٧ وأبو يعلى ٤٥٢ و ٦٣٩٣ من طرق عن أبي إسحاق به، وإسناد حسن، زيد بن يثيع قال عنه الحافظ في «التقريب»: ثقة. وأما الذهبي فقال في «الميزان» ٣٠٣٢: ما روى عنه سوى أبي إسحاق. وهذا منه إشارة إلى جهالته. لكنه توبع على هذا المتن وانظر «أحكام القرآن» ١٠٨٣ لابن العربي بتخريجي.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) وقع في بعض النسخ «رواه» وفي بعض «ورواه» والتصويب عن سنن الترمذي.

(٥) مستدرك من جامع الترمذي ٣٠٩٢ وبه يستقيم سياق كلام الترمذي.

(٦) أخرجه الطبري ١٦٣٨٧ وإسناده حسن في الشواهد.

(٧) أخرجه الطبري ١٦٣٨٦ وفيه لفظ «قال أبو بكر: نزل فيّ شيء؟ قال: لا ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي» فقد رواه غير واحد عن أبي إسحاق، دون هذه الزيادة والظاهر أن الوهم ممن دون أبي إسحاق السبيعي فقد أخرجه الترمذي ٣٠٩٢ والطبري ١٦٣٨٧ عن أبي إسحاق عن زيد عن علي دون تلك الزيادة. وكرره الطبري ١٦٣٨٥ و١٦٣٨٨ من طريق آخر عن الحارث الأعور عن علي دون تلك الزيادة، فهي زيادة غريبة، والله أعلم.

[٣٤٥٨] وقال محمد بن إسحاق: عن حكيم بن حكيم بن عَبَّادِ بن حُنَيف، عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي قال: لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس، فقيل: يا رسول الله، لو بعثتَ إلى أبي بكر. فقال: لا يُؤدِّي عني إلا رجلٌ من أهل بيتي. ثم دعا علياً فقال: اخرجْ بهذه القصة من صدر براءة، وأذِّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنىً: أنه لا يدخُل الجنة كافرٌ، ولا يحجُّ بعد العام مشرك، ولا يَطُفْ بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهوَ له إلى مدته. فخرج علي ـ رضي الله عنه ـ على ناقة رسول الله ﷺ العضباء، حتَّى أدرك أبا بكر في الطريق، فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ قال: بل مأمور. ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج، والعربُ إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يَطُفْ بالبيت عريان. ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته. فلم يحج بعد العام مشرك، ولم يَطُفْ بالبيت عريان، ثم قدما على رسول الله ﷺ فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام، وأهل المدة إلى الأجل المسمى[١].

[٣٤٥٩] وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا أبو زُرْعَةَ وهبُ الله بن راشِدٍ، أخبرنا حَيْوَة بن شُريح: أخبرنا ابو صخر: أنه سمع أبا معاوية البجلي من أهل الكوفة يقول: سمعت أبا الصهباء البكري وهو يقول: سألت علي بن أبي طالب عن ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ فقال: إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبي قُحَافة يقيم للناس الحج، ويعثني معه بأربعين آية من براءة، حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة، فلما قضى خطبته التفت إليّ فقال: قم، يا علي، فأدِّ رسالة رسول الله ﷺ. فقمت فقرأت عليهم أربعين آية من براءة، ثم صَدَرنا فأتينا منى، فرميت الجمرة ونحرتُ البدنة، ثم حلقت رأسي، وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا حضروا كلهم خطبة أبي بكر يوم عرفة، فطفت أتتبع بها الفساطيط أقرؤها عليهم، فمن ثَمَّ إخال حسبتم أنه يوم النحر، وهو يوم عرفة[٢].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي إسحاق: سألت أبا جحيفة عن ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ قال: يوم عرفة. فقلت: أمِنْ عندك، أم من أصحاب محمد ﷺ؟ قال: كل في ذلك. وقال عبد الرزاق أيضاً، عن ابن جريج، عن عطاء قال: يوم الحج الأكبر: يوم عرفة. وقال عُمَر بن الوليد الشَّنِّي: حدثنا شهاب بن عباد العَصَرِيّ، عن أبيه قال: سَمِعت عُمَر بن الخطاب يقول: هذا يوم عرفة، يوم الحج الأكبر، فلا يصومَنَّه أحد. قال: فحججت بعد أبي فأتيت المدينة، فسألت عن أفضل أهلها، فقالوا: سعيد بن المسيب، فأتيته فقلت: إني سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا: سعيد بن المسيَّب، فأخبِرْني عن صوم يوم عرفة؟ فقال: أخبرُك عمن هو أفضل مني مئة ضعْفٍ: عمر ـ أو: ابن عمر ـ كان ينهى عن صومه، ويقول: هو يوم الحج الأكبر. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وهكذا رُوِي عن ابن عباس، وعبد الله بن الزبير، ومجاهد، وعكرمة، وطاووس أنهم قالوا: يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر.

---

(١) أخرجه الطبري ١٦٣٩١ هكذا معضلاً، والمعضل من قسم الضعيف، وفيه ابن إسحاق مدلس وقد عنعن، وفيه حكيم بن حكيم بن عباد وثقه ابن حبان، وقال ابن سعد: لا يحتجون به اهـ. فالخبر واهٍ، وصدره منكر، وبقية المتن صحيح له شواهد.

(٢) أخرجه الطبري ١٦٣٩٦. بإسناد لين لأجل أبي الصهباء؛ فإنه مقبول.

[٣٤٦٠] وقد ورد فيه حديث مرسل رواه ابن جُرَيج: أُخْبِرتُ عن محمد بن قيس بن مخرمة أن رسول الله ﷺ خَطَب يوم عرفة، فقال: هذا يومُ الحجِّ الأكبر[١].

[٣٤٦١] وروي من وجه آخر عن ابن جريج، عن محمد بن قيس، عن المسور بن مخرمة، عن رسول الله ﷺ: أنه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن هذا يوم الحج الأكبر[٢].

والقول الثاني: أنه يوم النحر. قال هشيم، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وقال أبو إسحاق السَّبِيعي، عن الحارث الأعور، سألتُ علياً ـ رضي الله عنه ـ عن يوم الحج الأكبر، فقال: يوم النحر. وقال شعبة، عن الحكم: سمعت يحيى بن الجَزّار يحدث عن علي ـ رضي الله عنه ـ: أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبّانة، فجاء رجل فأخذ بلجام دابته، فسأله عن الحج الأكبر، فقال: هو يومك هذا، خَل سبيلها. وقال عبد الرزاق، عن سفيان وشعبة، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وروى شعبة وغيره، عن عبد الملك بن عمير، به نحوه. وهكذا رواه هشيم وغيره، عن الشيباني، عن عبد الله بن أبي أوفى. وقال الأعمش، عن عبد الله بن سنان قال: خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال: هذا يوم الأضحى، وهذا يوم النحر، وهذا يوم الحج الأكبر. وقال حماد بن سلمة، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: الحج الأكبر، يوم النحر. وكذا رُوِي عن أبي جُحَيفة، وسعيد بن جبير، وعبد الله بن شداد بن الهاد، ونافع بن جُبَير بن مطعم، والشعبي، وإبراهيمَ النخَعِيِّ، ومجاهد، وعكرمة، وأبي جَعفر الباقر، والزُّهري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ أنّهم قالوا: يوم الحج الأكبر هو يوم النحر. واختاره ابن جَرير. وقد تقدم الحديث عن أبي هُرَيرة، في صحيح البخاري: أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يُؤذّنون بمنى. وقد ورد في ذلك أحاديث أخر.

[٣٤٦٢] كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني سهل بن محمد السجستاني، حدثنا أبو جابر الحَرَميُّ، حدثنا هشام بن الغاز الجُرَشي، عن نافع، عن ابن عمر قال: وقف رسول الله ﷺ يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع، فقال: هذا يوم الحج الأكبر[٣]. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن مَرْدُويه من حديث أبي جابر ـ واسمه محمد بن عبد الملك، به. ورواه ابن مردويه أيضاً من حديث الوليد بن مسلم، عن هشام بن الغاز، به. ثم رواه من حديث سعيد بن عبد العزيز، عن نافع، به.

[٣٤٦٣] وقال شعبة، عن عمرو بن مُرّة، عن مُرّة الهَمْداني، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قام

---

(١) ضعيف، فمع إرساله، شيخ ابن جريج لم يسمّه. أخرجه الطبري ١٦٤٠٧.

(٢) أخرجه الطبري ١٦٤٠٣ وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» ٣/ ٣٨٢ لابن أبي حاتم وابن مردويه. وابن جريج مدلس، وقد عنعن، وقد ظهر في المرسل المتقدم أنه لم يسمعه من محمد بن قيس، فالخبر واهٍ، وقد صح موقوفاً كما تقدم، وسيأتي خلافه موقوفاً ومرفوعاً.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ١٩٤٥ والطبري ١٦٤٦١ من طريقين عن هشام به، وإسناد أبي داود، رجاله ثقات مشاهير سوى مؤمل بن الفضل شيخ أبي داود، وهو صدوق، وأخرجه ابن ماجه ٣٠٥٨ من وجه آخر عن هشام به، وإسناده صحيح، رجاله رجال البخاري سوى هشام بن الغاز، وهو ثقة كما في «التقريب» وعلقه البخاري في «صحيحه» بإثر ١٧٤٢، وانظر صحيح أبي داود ١٧١٤.

فينا رسول الله ﷺ على ناقة حمراء مخضرمة، فقال: أتدرون أيُّ يوم يومكم هذا؟ قالوا: يوم النحر. قال: صدقتم، يوم الحج الأكبر[١].

[٣٤٦٤] وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن المقدام، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا ابن عون، عن محمد بن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال: لما كان ذلك اليوم، قعد رسول الله ﷺ على بعير له، وأخذ الناس بخطامه ـ أو: زمامه ـ فقال: أيّ يوم هذا؟ قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيُسَمّيه سوى اسمه، فقال: أليس هذا يوم الحج الأكبر؟[٢]. وهذا إسناد صحيح وأصله مخرج في الصحيح.

[٣٤٦٥] وقال أبو الأحوص، عن شَبِيب بن غَرْقَدَة، عن سليمان بن عمرو بن الأحوص، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فقال: أيّ يوم هذا؟ فقالوا: اليوم الحجُ الأكبر[٣]. وعن سعيد بن المسيِّب أنه قال: يوم الحج الأكبر اليوم الثاني من يوم النحر. رواه ابن أبي حاتم. وقال مجاهد أيضاً: يوم الحج الأكبر أيامُ الحج كلها. وكذا قال أبو عبيد: قال سفيان: يوم الحج، ويوم الجمل، ويوم صفين، أي: أيامه كلها. وقال سهل السرّاج: سُئِلَ الحسنُ البصري عن يوم الحج الأكبر، فقال: ما لكم وللحج الأكبر، ذاك عامٌ حج فيه أبو بكر، الذي استخلفه رسولُ الله ﷺ فحج بالناس. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة، عن ابن عون: سألت محمداً ـ يعني ابن سيرين ـ عن يوم الحج الأكبر فقال: كان يوماً وافق فيه حجُّ رسول الله ﷺ حَجَّ أهل الوَبر.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيلِ بأربعة أشهر، لمن له عهدٌ مطلقٌ ليس بمؤقّتٍ، فأجلهُ أربعةُ أشهر، يسيح في الأرض، يذهبُ فيها لينجُوَ بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت، فأجله إلى مُدّتِه المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث: ومن كان له عَهد مع رسول الله ﷺ فعهدُه إلى مُدّتِهِ. وذلك بشرط ألاّ ينقضَ المعاهد عهده، ولم يظاهر على المسلمين أحداً، أي: يمالىء عليهم من سواهم، فهذا الذي يُوفَى له بذمته وعهده إلى مدته، ولهذا حرض الله تعالى على الوفاء بذلك فقال: إن الله يحب المتقين، أي: الموفين بعهدهم.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

اختلف المفسّرون في المراد بالأشهر الحُرُم ها هنا، ما هي؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله

---

(١) صحيح. أخرجه الطبري ١٦٤٦٢ ورجاله ثقات، وجهالة الصحابي لا تضر.

(٢) صحيح. أخرجه الطبري ١٦٤٦٠ ورجاله ثقات، وجهالة الصحابي لا تضر.

(٣) متن صحيح. أخرجه الترمذي ٢١٥٩ و٣٠٨٧ والنسائي في «التفسير» ٢٣٣ وابن ماجه ٣٠٥٥. وإسناده لين لأجل سليمان بن عمرو. وله شاهد من حديث أبي حُرّة الرقاشي عن عمه أخرجه أحمد ٥/ ٧٢ ـ ٧٣ وإسناده ضعيف لضعف علي بن زيد، لكن يصلح حديثه في الشواهد، ولهذا المتن شواهد أكثرها في الصحيح. فهو حديث صحيح إن شاء الله. وانظر «أحكام القرآن» ١٠٨٠ لابن العربي.

تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ﴾ [التوبة: ٣٦]. . . الآية، قاله أبو جعفر الباقر. ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المُحَرّم. وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وإليه ذهب الضحاك أيضاً. وفيه نظر، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العَوْفي عنه، وبه قال مجاهدٌ، وعمرو بن شُعَيب، ومحمد بن إسحاقَ، وقتادةَ، والسدّيُّ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ أنَّ المرادَ بها أشهر التسيير الأربعةِ المنصوصِ عليها في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾. ثم قال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾، أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا فيها عليكم قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم، لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدرـ ثم إن الأشهر الأربعة المحرَّمَةَ سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعدُ في هذه السورة الكريمة. وقوله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي: من الأرض. وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ﴾ [البقرة: ١٩١]. وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾، أي: وَأْسِروهم، إن شئتم قتلاً، وإن شئتم أسراً. وقوله: ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ﴾، أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تُضَيّقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام. ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. ولهذا اعتمد الصديق ـ رضي الله عنه ـ في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي الدخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته. ونَبَّه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة، التي هي حق الله عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع مُتَعدّ إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة.

[٣٤٦٦] وقد جاء في الصحيحين، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أُمِرْتُ أن أقاتِلَ الناسَ حتى يشهَدُوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة»(١) الحديث. وقال أبو إسحاق، عن أبي عُبَيدَةَ، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يُزَكِّ فلا صلاة له. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسْلَمَ: أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: يرحم الله أبا بكر، ما كان أفقهه.

[٣٤٦٧] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عليُّ بن إسحاقَ، أنبأنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا حُميد الطويل، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أُمِرْتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يشهَدُوا أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذَبيحتنا، وصَلُّوا صَلاتنا، فقد حَرُمت علينا دماؤهم وأموالُهم إلا بحقِّها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم»(٢). ورواه البخاري في صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث عبد الله بن المبارك، به.

[٣٤٦٨] وقال الإمام أبو جعفر بن جَريرٍ: حَدَّثنا عبد الأعلى بن واصل الأسدِيّ، حدثنا عُبَيد الله بن موسى، أخبرنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده، وعبادته لا يشرك به شيئاً، فارَقَها والله عنه راضٍ»، قال: وقال أنس: هو دينُ الله

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٥ ومسلم ٢٢ وابن حبان ١٧٥ والبيهقي ٣/٣٦٧.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٩٢ وأبو داود ٢٦٤١ والترمذي ٢٦٠٨ وأحمد ٣/١٩٩ و٢٢٤ وابن حبان ٥٨٩٥.

الذي جاءت به الرسلُ وبلَّغوه عن ربهم، قبل هَرْج الأحاديث، واختلاف الأهواء، وتصديقُ ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، قال: توبتهم خلع الأوثان، وعبادة ربهم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم قال في آية أخرى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١][1]. ورواه ابن مَرْدُويه. ورواه محمد بن نصر المروزي في كتاب «الصلاة» له: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أنبأنا حَكّام بن سَلْم، حدثنا أبو جعفر الرازي، به سواء.

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مُزاحم: إنّها نَسَخت كلَّ عهدٍ بين النبي ﷺ وبين أَحَد من المشركين، وكُلَّ عَهدٍ، وكُلَّ مدّةٍ. وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: لم يبقَ لأحد من المشركين عهدٌ ولا ذمةٌ، منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: أمره الله تعالى أن يضَعَ السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام، ونَقْض ما كان سَمّى لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إسحاق بن موسى الأنصاري قال: قال سفيان بن عيينة: قال علي بن أبي طالب: بُعِثَ النبي ﷺ بأربعة أسياف، سيف في المشركين من العرب، قال الله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾. هكذا رواه مختصراً، وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب في قوله: ﴿قَٰتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩]، والسيف الثالث: قتال المنافقين في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ جَٰهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣] الآية، والرابع: قتال الباغين في قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]. ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه، فقال الضحاكُ والسدّيُّ: هي منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]، وقال قتادةُ بالعكس.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم، ﴿اسْتَجَارَكَ﴾، أي: استأمنك، فأجبه إلى طَلبته ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ اللَّهِ﴾، أي: تقرؤه عليه، وتذكر له شيئاً من الدين تقيم عليه به حجة الله، ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾، أي: وهو آمن مستمرُّ الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾، أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله في عباده.

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، في تفسير هذه الآية، قال: إنسان يأتيك يسمع ما تقول وما أُنزِلَ عليك، فهو آمن حتى يأتيك فيسمع كلام الله، وحتى يبلغ مأمنه، حيث جاء. ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً أو في رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم واحداً بعد واحد، يتردَّدُون في قضية بينه

---

(١) الحديث أخرجه الطبري ١٦٤٨٩، وفي إسناده عيسى بن أبي عيسى أبو جعفر الرازي ضعفه أحمد، وقال الفلاس والنسائي: متروك. وقال أحمد: لا يساوي شيئاً.

وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم.

[٣٤٦٩] ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل ضربت عنقك». وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة، وأمر به فضُربت عنقه[1] لا رَحِمه الله ولعنه. والغرضُ أن من قَدِم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صُلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه. لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان، عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء، رحمهم الله.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونَظِرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا، فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ وأمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسله، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥]... الآية، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾، أي: مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمرَّ العقدُ والهدنةُ مع أهل مكةَ من ذي القعدة في سنةَ ست، إلى أن نَقَضَت قريشٌ العهدَ ومالؤوا حلفاءهم بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضانَ سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره وفرّ من رسولِ الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء: منهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾

---

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٢٧٦٢ والنسائي في «الكبرى» ٨٦٧٥ وأحمد ١/ ٣٨٣ وابن حبان ٤٨٧٩ والطحاوي في «المشكل» ٢٨٦٢ من حديث ابن مسعود. وأخرجه أحمد ١/ ٤٠٤ والطحاوي في «المشكل» ٢٨٦١ من وجه آخر عن ابن مسعود به. ويشهد له حديث سلمة بن نعيم عن أبيه عند أبي داود ٢٧٦١ وأحمد ٣/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨ والحاكم ٣/ ٥٢ ـ ٥٣ والطحاوي ٢٨٦٣ وإسناده حسن. وانظر «تفسير البغوي» ٨٨٢ بتخريجي.

يقول تعالى مُحرّضاً للمؤمنين على معاداة المشركين والتبري منهم، ومبيّناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالىٰ وكفرهم برسول الله، ولو أنهم إذ ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم، لم يبقوا ولم يذروا، ولا راقبوا فيهم إلاً ولا ذمة. قال علي بن أبي طلحة، وعكرمة، والعوفي عن ابن عباس: الإِلّ: القرابة، والذمة: العهد. وكذا قال الضحاك والسدّيّ، كما قال تَميمُ بن مُقْبِل:

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفٌ خَلَفُوا ... قَطَعُوا الإِلَّ وَأَعْرَاقَ الرَّحِمْ

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وَجَدْنَاهُمْ كَاذِباً إِلُّهُمْ ... وَذُو الإِلِّ وَالعَهْدِ لا يَكْذِبُ

وقال ابن أبي نَجِيحٍ، عن مجاهد: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا﴾ قال: الله. وفي رواية: لا يرقُبُون الله ولا غيره. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيّة، عن سليمان، عن أبي مِجْلَز في قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾. مثلُ قوله: جبرائيل، ميكائيل، إسرافيل. كأنه يقول: يضيف جَبْر، وميكا، وإسراف، إلىٰ إيل، يقول: عبد الله ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا﴾ كأنه يقول: لا يرقبون الله. والقول الأول أشهر وأظهر، وعليه الأكثر. وعن مجاهد أيضاً: الإِل: العهد. قال قتادة: الإِلُّ: الحِلْفُ.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١)﴾

يقول تعالى ذمّاً للمشركين وحثّاً للمؤمنين على قتالهم: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التَهَموا به من أمور الدنيا الخسيسة، ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾، أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق، ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ تقدم تفسيره، وكذا الآية التي بعدها: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إلى آخرها، تقدمت.

[٣٤٧٠] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يحيى بن أبي بكر، حدثنا أبو جعفر الرازي، حدثنا الربيع بن أنس قال: سمعتُ أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته، لا يشرك به، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة ـ فارقها والله عنه راضٍ». وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هَرْج الأحاديث واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿فَإِن تَابُوا﴾، يقول: فإن خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾[١]. ثم قال البزار: آخرُ الحديث عندي، والله أعلم: «فارقها وهو عنه راضٍ»، وباقيه عندي من كلام الربيع بن أنس[٢].

﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢)﴾

---

(١) تقدم قبل حديث واحد، وإسناده ضعيف.

(٢) جعل الطبري هذه الزيادة في روايته عن أنس بن مالك، والأشبه في مثل هذا الكلام من قول الربيع بن أنس كما ذكر البزار، والله أعلم.

يقول تعالى: وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم، أي: عهودهم ومواثيقهم، ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾، أي: عابوه وانتقصوه. ومن ها هنا أُخِذَ قتلُ من سبّ الرسولَ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أو مَن طعن في دين الإسلام أو ذكره بتنقص، ولهذا قال: ﴿فَقَاتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾، أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال. وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف. وعدّد رجالاً. وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: مر سعد برجل من الخوارج، فقال الخارجي: هذا من أئمة الكفر. فقال سعد: كذبت، بل أنا قاتلت أئمة الكفر. رواه ابن مَرْدُويه. وقال الأعمش، عن زيد بن وهب، عن حذيفة أنه قال: ما قُوتِل أهلُ هذه الآية بعد. ورُوي عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ مثله. والصحيح أن الآية عامة، وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم.

وقال الوليد بن مسلم: حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَير: أنه كان في عهد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ إلى الناس حين وجههم إلى الشام، قال: إنكم ستجدون قوماً مُحَوّقَةً رؤوسهم، فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف، فوالله لأن أقتلَ رجلاً منهم أحبّ إليّ من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: ﴿فَقَاتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾. رواه ابن أبي حاتم.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

وهذا أيضاً تهييجٌ وتحضيضٌ وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم، الذين هَمُّوا بإخراج الرسول من مَكّة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١]... الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ٧٦]. وقوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، قيل: المراد بذلك يوم بدر، حين خرجوا لنَصْر عِيرهم، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم طلباً للقتال، بغياً وتكبراً، كما تقدم بسط ذلك. وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح، وكان ما كان، ولله الحمد والمنة. وقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، يقول تعالى: لا تخشوهم واخشونِ، فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبتي، فبيدي الأمر، وما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن. ثم قال تعالى عزيمةً على المؤمنين، وبياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾. وهذا عام في المؤمنين كلهم. وقال مجاهد، وعكرمة، والسدّيّ في هذه الآية: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، يعني: خزاعة. وأعاد الضمير في قوله: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم أيضاً.

[٣٤٧١] وقد ذكر ابنُ عساكر في ترجمة مؤذِّن لعمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ عن مسلم بن

يسار، عن عائشة رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ كان إذا غَضِبت أخذ بأنفها، وقال: «يا عُوَيشُ، قولي: اللهم، رب النبي محمد، اغفر ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مُضلات الفتن»(١). ساقه من طريق أبي أحمد الحاكم، عن الباغَنْدي، عن هشام بن عمار، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الجَون، عنه. ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، أي: من عباده، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: بما يصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبداً، ولا يُضِيع مثقال ذَرَّةٍ من خيرٍ وَشرّ، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المؤمنين أن نترككم مهملين، لا نختبركم بأمور يظهرُ فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؟ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾، أي: بطانة ودخيلة، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر، كما قال الشاعر:

وما أدري إذا يَمَّمْتُ أرضاً ... أريدُ الخير أيهما يَليني

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]... الآية. والحاصل أنه ـ تعالى ـ لما شرع الجهاد لعباده، بيّن أن له فيه حكمة، وهو اختبار عبيده: مَنْ يُطيعه ممّن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؟ فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا رادّ لما قدره وأمضاه.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بُنيت على اسمه وحده لا شريك له. ومن قرأ: «مسجد الله»، فأراد به المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذي بُني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له. وأسسه خليل الرحمن، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أي: بحالهم وقالِهم، كما قال السدي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني. واليهودي: ما دينك؟ لقال: يهودي. والصابئي، لقال: صابىء. والمشرك، لقال: مشرك. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾، أي: بشركهم، ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا

---

(١) في إسناده عبد الرحمن بن أبي الجون، لم أعثر له على ترجمة، ومؤذن عمر بن عبد العزيز، لم يسمّ، فالخبر واهٍ، والله أعلم.

كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فشهد تعالى بالإيمان لعُمّار المساجد.

[٣٤٧٢] كما قال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيج، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث: أن درّاجاً أبا السمح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري أن رسول ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان» قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[١]. ورواه الترمذي وابن مَرْدُويه، والحاكم في مستدركه، من حديث عبد الله بن وهب، به.

[٣٤٧٣] وقال عبد بن حُميد في مسنده: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا صالح المُرّي، عن ثابت البناني، عن ميمون بن سِيَاه وجعفر بن زيد، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عمار المساجد هم أهل الله»[٢].

[٣٤٧٤] ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الواحد بن غياث، عن صالح بن بشير المُرّي، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عُمّار المساجد هم أهل الله»[٣]. ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت غير صالح.

[٣٤٧٥] وقد روى الدارقطني في الأفراد من طريق حكامة بنت عثمان بن دينار، عن أبيها، عن أخيه مالك بن دينار، عن أنس مرفوعاً: «إذا أراد الله بقوم عاهةً نظر إلى أهل المساجد، فصَرَف عنهم»[٤] ثم قال: غريب.

[٣٤٧٦] وروى الحافظ البهاء في المستقصى، عن أبيه بسنده إلى أبي أمية الطرسوسي: حدثنا منصور بن صُقَير، حدثنا صالح المري، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً: «يقول الله: وعزتي وجلالي، إني لأهُمّ بأهل الأرض عذاباً، فإذا نظرت إلى عُمّار بيوتي وإلى المتحابين فيّ، وإلى المستغفرين بالأسحار، صرفت ذلك عنهم»[٥]. ثم قال ابن عساكر: حديث غريب.

---

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٦١٧ و٣٠٩٣ وابن ماجه ٨٠٢ وصححه ابن حبان ١٧٢١ وابن خزيمة ١٥٠٢ والحاكم ١/ ٢١٢ و٢/ ٣٣٢ وأحمد ٣/ ٦٨ كلهم من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعاً، قال الترمذي: حديث حسن! وقال الذهبي: دراج كثير المناكير، وقال الحافظ في التقريب في ترجمة درّاج: في روايته عن أبي الهيثم ضعف اهـ فالخبر ضعيف، وضعفه غير واحد، والله أعلم.

(٢) في إسناده صالح بن بشير المري، وهو ضعيف. جاء في الميزان ٣٧٧٣: ضعفه ابن معين والدارقطني، وقال أحمد: هو صاحب قصص، وليس هو صاحب حديث. وقال الفلاس: منكر الحديث جداً، وقال النسائي: متروك. وقال البخاري: منكر الحديث، وانظر ما بعده.

(٣) أخرجه ابن عدي ٤/ ٦١ وأبو يعلى والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ٢٠٣٠، وأعله الهيثمي بصالح المري، وضعفه، وكذا أعله ابن عدي به، وتقدمت ترجمته في الذي قبله، وهو ضعيف.

(٤) في إسناده عثمان بن دينار ذكره الذهبي في «الميزان» ٥٥٠٢ فقال: أخو مالك بن دينار والد حكّامة، لا شيء، والخبر كذب، اهـ، ولعله أراد هذا المتن والله أعلم. وانظر ما بعده.

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» ٩٠٥١ من طريق آخر عن صالح المري عن ثابت عن أنس مرفوعاً به، وصالح ضعيف جداً كما تقدم، وأخرجه ابن عدي ٤/ ٦١ من طريق آخر عن صالح المري وأعله به.

وورد عن معمر عن رجل من قريش يرفعه أخرجه البيهقي ٩٠٥٢ وهذا ضعيف جداً، معمر ليس له رواية عن الصحابة، فشيخه تابعي، فهو مرسل، ومع إرساله الشيخ هذا لم يسم، فهو مجهول، والخبر ضعيف بكل حال، والله أعلم.

[٣٤٧٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا سعيد، عن قتادة، حدثنا العلاء بن زياد، عن معاذ بن جبل: أن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان ذئبُ الإنسان، كذئبِ الغنمِ يأخذُ الشاةَ القاصِيةَ والناحِيةَ، فإياكم والشِّعاب، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد»[١]. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأَوْديّ، قال: أدركت أصحاب النبي ﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها. وقال المسعودي، عن حبيب بن أبي ثابت وعدي بن ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: من سمع النداء بالصلاة ثم لم يُجبْ ولم يأت المسجد ويصلي، فلا صلاة له، وقد عصى الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ . . . الآية. رواه ابن مَرْدُويه. وقد رُوي مرفوعاً من وجه آخر[٢]، وله شواهد من وجوه أخر ليس هذا موضع بسطها. وقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: التي هي أكبر عبادات البَدَن، ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى برّ الخلائق، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، أي: ولم يَخفْ إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه، ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، يقول: من وَحّد الله، وآمن باليوم الآخر. يقول: من آمن بما أنزل الله، ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، يعني الصلوات الخمس، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، يقول: لم يعبد إلا الله، ثم قال: ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، يقول: إن أولئك هم المفلحون، كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] [يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً] وهي الشفاعة، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة. وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: و «عسى» من الله حق.

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

قال العَوفي في تفسيره، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية، قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله، وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعُمّاره. فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون: ٦٦ ـ ٦٧]، يعني أنهم كانوا يستكبرون بالحرم، قال: ﴿بِهِۦ سَٰمِرًا﴾، كانوا يسمرون به، ويهجرون القرآن والنبي ﷺ، فَخيَّر الله الإيمان والجهاد مع نبي الله ﷺ على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية. ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به أنْ كانوا يعمرون بيته ويخدمونه. قال الله: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يعني: الذين زعموا أنهم

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣ والطبراني ٢٠/ ١٦٤ ـ ١٦٥، قال الهيثمي في «المجمع» ٩١٠٨: رجال أحمد ثقات إلا أن العلاء بن زياد، قيل: لم يسمع من معاذ اهـ. وجزم بذلك الحافظ في التهذيب حيث قال: أرسل عن معاذ، ويدل على ذلك أيضاً هو ما أخرجه أحمد ٥/ ٢٤٣ عنه عن رجل يثق به عن معاذ، فهذا متصل والرجل، وإن لم يسمّ لكن وثقه العلاء، ولأصل الحديث شواهد، والله أعلم.

(٢) يأتي في سورة النور إن شاء الله.

أهل العمارة، فسماهم الله «ظالمين» بشركهم. فلم تُغْنِ عنهم العمارة شيئاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية، قال: نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر، قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج، ونفك العاني، قال الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، يعني أن ذلك كان في الشرك، ولا أقبل ما كان في الشرك. وقال الضحاك بن مزاحم: أقبل المسلمون على العباس وأصحابه، الذين أسروا يوم بدر، يعيّرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنّا نعمرُ المسجدَ الحرام، ونفُكّ العاني، ونحجُب البيتَ، ونَسْقي الحاجَّ، فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾... الآية. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عُيينة، عن إسماعيل، عن الشعبي قال: نزلت في علي، والعباس ـ رضي الله عنهما ـ تكلما في ذلك. وقال ابن جرير: حدثني يونس، حدثنا ابن وهب، أخبرت عن أبي صخر قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يقول: افتخر طلحة بن شيبة من بني عبد الدار، وعباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب فقال طلحة: أنا صاحب البيت، معي مفتاحه، ولو أشاء بتّ فيه. وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، ولو أشاء بتّ في المسجد، فقال علي رضي الله عنه: ما أدري ما تقولان، لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾... الآية كلها. وهكذا قال السدّيّ، إلا أنه قال: افتخر علي والعباس وشيبةُ بن عثمانُ... وذكره نحوه.

[٣٤٧٨] وقال عبدُ الرزّاق: أخبرنا معمر، عن عمرو، عن الحسن قال: نزلت في علي وعباس وعثمان وشيبةَ، تكلموا في ذلك، فقال العباس: ما أراني إلا تَارِكَ سِقَايتنا. فقال رسولُ الله ﷺ: أقيموا على سقايتكم، فإن لكم فيها خيراً[1]. ورواه محمد بن ثور، عَن معمر، عن الحسن فذكر نحوه. وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع، فلا بد من ذكره ها هنا.

[٣٤٧٩] قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن يحيى بن أبي كثير، عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ أن رَجُلاً قال: ما أبالي ألاّ أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي ألاّ أعمل عملاً بعد الإسلام، إلا أن أعمُرَ المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم. فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ـ ولكن إذا صلّىٰ الجمعَةَ دخلنا عليه. فنزلت: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾[2].

[٣٤٨٠] طريق أخرى: قال الوليد بن مسلم: حدثني معاوية بن سلاّم، عن جَدّه أبي سلاّم الأسود، عن النعمان بن بَشِير الأنصاري قال: كنت عند مِنْبَر رسول الله ﷺ في نَفَرٍ من أصحابه، فقال رجلٌ منهم: ما أبالي ألاّ أعملَ لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام. وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم. فَزَجَرَهُم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ـ ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلت على رسول الله فاستفتيته فيما

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ١٠٦١ و١٠٦٣ والطبري ١٦٥٧٥ و١٦٥٧٨ عن الحسن هكذا مرسلاً، ومراسيل الحسن فيها ضعف، لأنه يحدث عن كل أحد، كما هو مقرر في كتب التراجم. واختلاف علي والعباس وشيبة في ذلك دون المرفوع له طرق أخرىٰ مراسيل، لكن ما بعده أصح رواه مسلم وغيره.

(٢) متن صحيح؛ أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ١٠٦٠ وفيه إرسال بين يحيىٰ وبين النعمان لكن المتن صحيح بما بعده.

اختلفتم فيه. قال: ففعل، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[١]. رواه مسلم في صحيحه، وأبو داود ـ وابن جرير وهذا لفظه ـ وابن مَرْدُويه، وابن أبي حاتم في تفاسيرهم، وابن حبان في صحيحه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

أمر تعالى بمباينة الكفار به، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إذا ﴿اسْتَحَبُّوا﴾، أي: اختاروا ﴿الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾، وتوعد على ذلك كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المجادلة: ٢٢]... الآية.

[٣٤٨١] وروى الحافظ البيهقيُّ من حديث عبد الله بن شَوْذَب قال: جَعَل أبو أبي عُبَيدة بن الجراح يَنْعَت له الآلهة يوم بدر، وجعل أبو عُبَيدَة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصدَه ابنُه أبو عُبَيدة فقتَلَه، فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[٢]... الآية. ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله وعلى رسوله وجهاد في سبيله، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾، أي: اكتسبتموها وحصّلتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾، أي تحبُّونها لطيبها وحسنها. أي: إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾، أي: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

[٣٤٨٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا قُتَيبة بن سعيد، حدثنا ابن لَهيعة، عن زُهْرَةَ بن مَعْبَدٍ، عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: واللّهِ لأنت يا رسول الله أحبُّ إليّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه». فقال عمر: أنت الآن والله أحب إليّ من نفسي. فقال رسول الله: «الآن يا عمر»[٣]. انفرد بإخراجه البخاري، فرواه عن يحيى بن سليمان، عن ابن وهب، عن حيوَة بن شُريح، عن أبي عَقِيل زُهْرَة بن مَعْبد، أنه سمع جده عبد الله بن هشام، عن النبي ﷺ بهذا.

---

(١) صحيح أخرجه مسلم ١٨٧٩ ح ١١١، وأحمد ٤/٢٦٩، والطبري ١٦٥٥٧، والواحدي في أسباب النزول رقم ٤٩٢ من حديث النعمان بن بشير.

(٢) ضعيف. أخرجه البيهقي في «السنن» ٩/٢٧ وقال عقبه: هذا منقطع اهـ قلت: وسبب انقطاعه أن عبد الله ابن شوذب لم يرو عن أحد من الصحابة وهو صدوق.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٦٣٢، وأحمد ٤/٢٣٣ وفي إسناد أحمد ابن لهيعة وهو ضعيف، وقد تابعه حيوة ابن شريح عند البخاري، وبهذا يكون الحديث صحيحاً.

[٣٤٨٣] وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(١).

[٣٤٨٤] وروى الإمام أحمد، وأبو داود؛ واللفظ له ـ من حديث أبي عبد الرحمن الخراساني، عن عطاء الخراساني، عن نافع، عن ابن عُمَر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعِينَةِ، وأخذتم بأذناب البقر، وَرَضِيتُم بالزرع، وتركتُم الجهاد، سلّط الله عليكم ذلاً لا يَنْزِعُهُ حتى ترجعوا إلى دينكم»(٢).

[٣٤٨٥] وروى الإمام أحمد أيضاً عن يزيد بن هارون، عن أبي جَنَاب، عن شَهْر بن حَوْشَب أنه سمع عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ بنحو ذلك(٣). وهذا شاهد للذي قبله، والله أعلم.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

قال ابن جريج، عن مجاهد: هذه أول آية نزلت من براءة. يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى، وبتأييده وتقديره، لا بعَدَدهم ولا بعُدَدِهم. ونَبّههم على أن النصر من عنده، سواء قَلّ الجمعُ أو كثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فَوَلّوا مدبرين إلا القليلَ منهم مع رسول الله ﷺ ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلاً، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قلّ الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

[٣٤٨٦] قال الإمام أحمد: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، سمعت يونس يحدث عن الزهري، عن عُبَيد الله، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمئة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن تُغْلَب اثنا عشر ألفاً من قلة»(٤). وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، ثم قال: هذا

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم ٤٤، وأبو عوانة ١/ ٣٣، وأحمد ٣/ ١٧٧ و٢٧٥، والنسائي ٨/ ١١٤ و١١٥، وابن ماجه (٦٧)، والدارمي ٢/ ٣٠٧، وابن حبان ١٧٩ عن أنس بن مالك.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ٣٤٦٢، وفيه إسحاق بن أسيد أبو عبد الرحمن الخراساني قال الحافظ في التقريب: فيه ضعف. وصححه الشيخ عبد القادر الأرناؤوط في تعليقه على جامع الأصول رقم ٩٤٦٥ وأخرجه أحمد رقم ٤٨٢٥ من وجه آخر بنحوه عن ابن عمر، وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناده وهو كما قال.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٨٤، وإسناده ضعيف لضعف أبي جناب، لكن يصلح شاهداً لما قبله.

(٤) حسن، أخرجه أبو داود ٢٦١١ وأحمد ١/ ٢٩٤ والترمذي ١٥٥٥ وصححه ابن خزيمة ٢٥٣٨ وابن حبان ٤٧١٧ والحاكم ١/ ٤٤٣ و٢/ ١٠١ والطحاوي في «المشكل» ١/ ٢٣٨ والبيهقي ٩/ ١٥٦، وإسناده على شرطهما، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وقول الترمذي «لا يسنده كبير أحد. . . .» فيه نظر فقد قال ابن التركماني: هذا ممنوع لأن جريراً ثقة، وقد تابعه عليه غيره اهـ، وتابعه عقيل على الزهري عند الدارمي ٢/ ٢١٥ وأحمد ١/ ٢٩٩ وأبو يعلى ٢٧١٤ وقال المناوي في «فيض القدير» ٣/ ٤٧٤: قال ابن القطان: الأقرب صحته، وصححه الضياء في المختارة ٢/ ٢٩٢/ ٦٢.

والمرسل هو عند عبد الرزاق ٩٦٩٩ والطحاوي ١/ ٣٣٩ لكن إسناد الموصول صحيح على شرطهما، فمن وصله إنما =

حديث حسن غريب، لا يسنده كبير أحد غيرُ جرير بن حازم، وإنما روي عن الزهري، عن النبي ﷺ مرسلاً. وقد رواه ابن ماجه والبيهقي وغيره، عن أكثم بن الجَوْن، عن رسول الله ﷺ بنحوه. والله أعلم. وقد كانت وقعة حُنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة.

[٣٤٨٧] وذلك لما فرغ عليه السلام من فتح مكة، وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضْري، ومعه ثَقيف بكمالها، وبنو جُشم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنَّعَم، وجاؤوا بقَضِّهم وقَضيضهم. فخرج إليهم رسولُ الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين أيضاً، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بوادٍ بين مكة والطائف يقال له حنين، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غَلَس الصبح، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم، ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم. فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين، كما قال الله عز وجل، وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذٍ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر، يثقلانها لئلا تسرع السير، وهو ينوه باسمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويدعو المسلمين إلى الرجعة: أين يا عباد الله؟ إليّ أنا رسول الله. ويقول في تلك الحال:

أنـــا الـــنـــبـــيُّ لا كَـــذِبْ ... أنـــا ابـــن عـــبـــد الـــمـــطـــلِـــبْ

وثبت معه من أصحابه قريب من مئة، ومنهم من قال: ثمانون، فمنهم: أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ والعباس وعلي، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن، وأسامة بن زيد، وغيرهم، رضي الله عنهم. ثم أمر رسول الله ﷺ عمه العباس ـ وكان جهير الصوت ـ أن ينادي بأعلى صوته ـ يا أصحاب الشجرة ـ يعني شجرة بيعة الرضوان، التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على ألاّ يفروا عنه ـ فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السَّمُرة، ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك، يا لبيك. وانعطف الناس فجعلوا يتراجعون إلى رسول الله ﷺ حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه وانحدر عنه، وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله. فلما رجعت شرذمة منهم، أمرهم ـ عليه السلام ـ أن يَصْدُقوا الحملة، وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال: اللهم أنجز لي ما وعدتني. ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ[١].

[٣٤٨٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن يسار أبي همام، عن أبي عبد الرحمن الفهريّ ـ واسمه يزيد بن أَسَيد، ويقال: يزيد بن أُنَيس، ويقال: كُرْز ـ قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة حُنَين، فَسِرْنا في يوم قائظٍ شديد الحرّ، فنزلنا تحتَ

= هو زيادة ثقة، وهي مقبولة عند علماء هذا الفن. وله شاهد من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قاله لأكثم بن الجون أخرجه ابن ماجه ٢٨٢٧ لكنه واهٍ، فيه عبد الملك بن محمد وأبو سلمة العاملي، وكلاهما ضعيف، والحجة الحديث الأول، والله أعلم.

(١) ساق المصنف هذا الخبر بالمعنى، وانظر «السيرة النبوية» ٤/ ٦٢ ـ ٧٠.

ظلالِ الشجر، فلما زالت الشمسُ لبست لأمَتي وركبت فرسي، فانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ وهو في فُسطاطه، فقلت: السلام عليك يا رسولَ الله ورحمةُ الله، حان الرواحُ. فقال: أجل. فقال: يا بلال. فثار من تحت سَمُرة كَأنَّ ظله ظل طائر، فقال: لبيك وسعديك، وأنا فداؤك. فقال: أسْرِجْ لي فَرَسي. فأخرج سَرْجاً دفَّتاه من ليفٍ، ليس فيهما أشَرٌ ولا بَطَر. قال: فأسرَجَ، فركب وركبنا، فصاففناهم عشيتنا وليلتنا، فتشامَّتِ الخيلانُ، فولى المسلمون مدبرين، كما قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾. فقال رسول الله ﷺ: يا عباد الله، أنا عبد الله ورسوله، ثم قال: يا معشر المهاجرين، أنا عبد الله ورسوله. قال: ثم اقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه، فأخذ كفاً من تراب، فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني: أنه ضرب به وجوههم، وقال: شاهت الوجوه. فهزمهم الله ـ عز وجل ـ قال يعلى بن عطاء: فحدثني أبناؤهم، عن آبائهم، أنهم قالوا: لم يبقَ منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً، وسمعنا صَلْصَلَةً بين السماء والأرض، كإمرار الحديد على الطَّسْت الجديد[١]. وهكذا رواه الحافظُ البيهقيُّ في دلائل النبوّة من حديثِ أبي داودَ الطيالِسيِّ، عن حماد بن سَلَمة، به.

[٣٤٨٩] وقال محمد بن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله قال: فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حُنين، فسبق رسول الله ﷺ، فأعدوا وتهيؤوا في مضايق الوادي وأنحائه، وأقبل رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى انحط بهم الوادي في عَمَاية الصبح، فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل، فاشتدت عليهم، وانكفأ الناس منهزمين، لا يُقْبِلُ أحد على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول: أيها الناس، هَلُمُّوا إليّ أنا رسولُ الله، أنا رسولُ الله. أنا محمد بن عبد الله[٢]. فلا شيء، وركبت الإبل بعضها بعضاً، فلما رأى رسول الله ﷺ أمْرَ الناس قال: يا عباس، اصرخ: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة. فأجابوه: لبيك، لبيك. فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره، فلا يقدر على ذلك، فيقذف درعه في عنقه، ويأخذ سيفه وقوسه، ثم يَؤم الصوت، حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مئة، فاستعرض الناسُ فاقتتلوا، وكانت الدعوة أول ما كانت: يا للأنصار، ثم جُعِلت آخراً: يا للخزرج ـ وكانوا صُبُراً عند الحرب ـ وأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلي مُجتَلَد القوم، فقال: الآن حَميَ الوَطِيسُ ـ قال: فوالله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله ملقَون، فقَتَلَ الله منهم من قتل، وانهزم منهم من انهزم، وأفاء الله على رسوله أموالهم وأبناءهم[٣].

[٣٤٩٠] وفي الصحيحين من حديث شعبةَ، عن أبي إسحاقَ، عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال له رجل: يا أبا عمارة، أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟! فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفرَّ، إن

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٨٦ رقم ٢٢٣٦٦ و٢٢٣٦٧. وإسناده ضعيف لجهالة عبد الله بن يسار أبي همام الكوفي، على أن ابن حبان ذكره في الثقات، لكن جهله إمام هذا الشأن ابن المديني. وفي المتابعات يقبل مثل هذا على أن الحديث عن غزوة حنين روي من طرق صحيحه وانظر الأحاديث الآتية.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٣/ ٣٧٦، وأبو يعلى ١٨٦٢، والبزار (١٨٣٤) وقال: لا نعلمه يروى عن جابر إلا بهذا الإسناد، وذكره الهيثمي في المجمع ٦/ ١٧٩ وقال: رواه أحمد وأبو يعلى ورواه البزار باختصار، وفيه ابن إسحاق وقد صرح بالسماع في رواية أبي يعلى، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٧٥ وأحمد ١/ ٢٠٧ وعبد الرزاق في المصنف ٩٧٤١، وابن هشام في السيرة ٢/ ٤٤٤ والحاكم في المستدرك ٣/ ٣٢٧، ٣٢٨ من حديث العباس بن عبد المطلب.

هوازن كانوا قوماً رُمَاة، فلما لقيناهم وحَمَلنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ البيضاءِ، وهو يقول:

أَنَـا الـنَّـبِـيُّ لا كَـذِبْ أنـا ابـن عَـبْـد الـمُـطَّـلِـبْ[١]

قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم من حَوْمة الوغى وقد انكشف عنه جيشه، هو مع ذلك على بغلة وليست سريعةَ الجَرْيِ، ولا تصلح لكرّ ولا لفرّ ولا لهرب، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه ـ صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ـ وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكُّلاً عليه، وعلماً منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، أي: طمأنينته وثباته على رسوله، ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: الذين معه، ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، وهم الملائكة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير:

[٣٤٩١] حدثنا القاسم قال: حدثني الحسن بن عرفة قال: حدثني المعتمر بن سليمان، عن عوف ـ هو ابن أبي جَميلَةَ الأعرابي ـ قال: سمعتُ عبد الرحمن مولى ابن بُرثن، حدثني رجلٌ كان من المشركين يوم حُنَين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حَلْبَ شاة ـ قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم، حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه، فقالوا لنا: شاهت الوجوه، ارجعوا. قال: فانهزمنا، وركبوا أكتافنا، فكانت إياها[٢].

[٣٤٩٢] وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، حدثني محمد بن أحمد بن بَالُويه، حدثنا إسحاق بن الحسنَ الحربي، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحارث بن حَصِيرة، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حُنين، فولَّى عنه الناسُ، وبقيتُ معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار، قدمنا ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة ـ قال: ورسول الله ﷺ على بغلته يمضي قُدُماً، فحادَت بغلته، فمال عن السَّرج، فقلت: ارتفع رفعك الله. قال: ناولني كفاً من التراب. فناولته، قال: فضرب به وجوهَهُم، فامتلأت أعينهم تراباً، قال: أين المهاجرون والأنصار؟ قلت: هم هناك. قال: اهْتِف بهم. فَهَتَفْتُ بهم، فجاؤوا وسيوفُهم بأيمانهم، كأنها الشُّهُب، وَوَلَّى المشركون أدبارهم[٣]. ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عَفَّان، به نحوه.

[٣٤٩٣] وقال الوليد بن مسلم: حدثني عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر الهُذلي، عن عكرمة مولى ابن عباس، عن شيبة بن عثمان قال: لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حُنَين قد عَرِيَ، ذكرت أبي وعمي وقَتْلَ

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٣١٥ و٤٣١٦ و٤٣١٧، ومسلم ١٧٧٦، والترمذي ١٦٨٨.

(٢) أخرجه الطبري ١٦١٥١ وفيه عبد الرحمن هذا، لم أجد له ترجمة.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٤٥٤، والبزار ١٨٢٩ (كشف الأستار) والحاكم ٢/ ١١٧، والبيهقي في «الدلائل» ٥/ ١٤٢. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وذكره الهيثمي في «المجمع» ٦/ ١٨٠ وقال: رواه أحمد، والبزار والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير الحارث بن حصيرة وهو ثقة. وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند رقم (٤٣٣٦). وفيه نظر، فإن عبد الرحمن سمع من أبيه ابن مسعود أحرفاً يسيرة وعامة ما يرويه عن أبيه مرسل، والذي في الصحيح أن العباس هو الذي نادى.

عليٌ وحمزة إياهما، فقلت: اليوم أُدرِكُ ثأري منه. قال: فذهبت لأجيئه عن يمينه، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً، عليه درعٌ بيضاءُ كأنها فضة، يكشف عنها العجاج، فقلت: عَمُّهُ ولن يخذله. قال: فجئته عن يساره، فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فقلت: ابنُ عمه ولن يخذله. فجئته من خلفه، فلم يبقَ إلا أن أُسَوِّرهُ سَوْرَةً بالسيف، إذ رُفِعَ لي شُوَاظ من نار بيني وبينه، كأنه برق، فخفت أن تَمْحَشَني، فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقرى، فالتفت رسول الله ﷺ وقال: يا شيبَ، يا شيبَ، ادن مني، اللهم أذهِبْ عنه الشيطان. قال: فرفعت إليه بصري، وَلَهو أحبُّ إليَّ من سمعي وبصري، فقال: يا شيبَ، قاتل الكفار[1]. رواه البيهقي من حديث الوليد، فذكره.

[٣٤٩٤] ثم روى من حديث أيوب بن جابر، عن صَدَقة بن سعيد، عن مصعب بن شيبة، عن أبيه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، والله ما أخرجني إسلام، ولا معرفة به، ولكني أبيتُ أن تظهر هوازن على قريش، فقلت وأنا واقف معه: يا رسول الله، إني أرى خيلاً بُلْقاً، فقال: يا شيبة، إنه لا يراها إلا كافر. فضرب بيده على صدري، ثم قال: اللهمّ اهدِ شيبة، ثم ضربها الثانية، ثم قال: اللهم، اهد شيبة، ثم ضربها الثالثة ثم قال: اللهم اهدِ شيبة. قال: فوالله ما رفع يده عن صدري في الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحبَّ إليَّ منه، وذكر تمام الحديث، في التقاء الناس وانهزام المسلمين ونداء العباس، واستنصار رسول الله ﷺ حتى هَزَم الله المشركين[2].

[٣٤٩٥] وقال محمد بن إسحاق: حدثني أبي إسحاق بن يسار، عمن حدثه، عن جُبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ قال: إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين، والناس يقتتلون، إذ نظرت إلى مثل البجَاد الأسود يهوي من السماء، حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة[3]. وقال سعيد بن السائب بن يسار، عن أبيه قال: سمعت يزيد بن عامر السُّوَائي ـ وكان شهد حنيناً مع المشركين ثم أسلم بعد ـ فكنا نسأله عن الرعب الذي ألقى الله في قلوب المشركين يوم حنين، فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطَّسْت فيطنّ، فيقول: كنا نجد في أجوافنا مثل هذا[4]. وقد تقدم له شاهد من حديث الفهري يزيد بن أَسِيدٍ، فالله أعلم.

[٣٤٩٦] وفي صحيح مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن هَمّام قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نُصِرتُ بالرُّعب، وأوتيتُ جوامع الكَلِم»[5]، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾. وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾، قد تاب الله على

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٥/ ١٤٥ وإسناده ضعيف لضعف أبي بكر الهذلي.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٥/ ١٤٥ ـ ١٤٦، وهو ضعيف، له علتان: أيوب بن جابر وشيخه صدقة بن سعيد، كلاهما واهٍ.

(٣) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٥/ ١٤٦ عن ابن إسحاق بهذا الإسناد، وهو ضعيف لجهالة الواسطة بين إسحاق ابن يسار وجبير بن مطعم. لكن له شواهد.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨ رقم ٦٢٣ وقال الهيثمي في المجمع ٦/ ١٨٣: رواه الطبراني، ورجاله ثقات. وعزاه في المطالب العالية رقم ٤٣٧١ لعبد بن حميد.

(٥) صحيح أخرجه مسلم ٥٢٣ ح ٨ وأحمد رقم ٧٦٢٠، وعبد الرزاق في مصنفه ٢٠٠٣٣ عن أبي هريرة.

بقية هوازن، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجِعِرّانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوماً، فعند ذلك خَيَّرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فرده عليهم، وقسم أموالهم بين الغانمين، ونفل أناساً من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مئةً مئةً من الإبل، وكان من جملة من أعطى مئةً مالك بن عوف النَّصْري، واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

مَا إن رَأيتُ ولا سَمِعتُ بمِثْلِه ... في النَّاس كُلِّهم بمِثْلِ مُحَمَّدِ
أوْفَى وَأعْطَى لِلجَزِيلِ إذا اجتُدِي ... ومَتى تَشَأ يُخْبِركَ عَمَّا في غَدِ
وَإذَا الكَتِيبَة عَرَّدَت أنيابُها ... بالسَّمْهَرِيّ وضَرْب كُلّ مُهَنَّد
فَكَأنّه لَيثٌ عَلَى أشْبالِه ... وَسْطَ الهَبَاءَة خَادِرٌ في مَرْصَدِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

أمر تعالى عبادَهُ المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين، الذين هم نَجَس ديناً، عن المسجد الحرام، وَألاّ يقربوه بعد نزول هذه الآية. وكان نزولها في سنة تسع.

[٣٤٩٧] ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ عامئذٍ، وأمره أن ينادي في المشركين: ألاّ يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان[١]. فأتم الله ذلك، وحكم به شرعاً وقدراً. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جُرَيج، أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾: إلا أن يكون عبداً، أو أحداً من أهل الذمة.

[٣٤٩٨] وقد رُوِي مرفوعاً من وجه آخر: فقال الإمام أحمد: حدثنا حُسَين، حدثنا شريك، عن الأشعث ـ يعني ابن سَوَّارٍ ـ عن الحسن، عن جابر قال: قال النبي ﷺ: «لا يدخل مسجدنا بعد عامنا هذا مشرك، إلا أهل العهدِ وخَدَمَهم»[٢]. تفرد به أحمد مرفوعاً، والموقوف أصح إسناداً.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وَأَتبَع نَهيه قولَ الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾. وقال عطاء: الحرم كله مسجد، لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾. ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك.

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد رقم ٥٩٤، والحميدي ٤٨، والدارمي ١٩١٩، والترمذي ٨٧١ و٨٧٢ و٣٠٩٢ وأبو يعلى ٤٥٢، والبيهقي ٩/ ٢٠٧ من حديث علي بن أبي طالب وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند وكذا شعيب الأرناؤوط. وتقدم.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٣/ ٣٣٩ و ٣٩٢. وقال في المجمع ٤/ ١٠: رواه أحمد وفيه أشعث بن سوار وفيه ضعف وقد وثق ا.هـ قلت: جزم الحافظ في التقريب: بضعفه، والحسن عن جابر منقطع.

[٣٤٩٩] كما وَرَدَ في الصحيح: «المؤمن لا ينجس»[1]. وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات، لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم. وقال أشعث، عن الحسن: من صافحهم فليتوضأ. رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، قال ابن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا: لتنقطعَنّ عنا الأسواق، ولتهلكن التجارة، وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق، فنزلت: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، من وجه غير ذلك. ﴿إِن شَآءَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، أي: إن هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوّضهم الله مما قُطِعَ بأمر الشرك، وما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب، من الجزية. وهكذا رُوي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبير، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾، أي: بما يصلحكم، ﴿حَكِيمٌ﴾، أي: فيما يأمر به وينهى عنه، لأنه الكامل في أفعاله وأقواله، العادل في خلقه وأمره، تبارك وتعالى. ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة، فقال: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾. فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يبقَ لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاؤوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً، لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ـ صلوات الله عليه ـ لأن جميع الأنبياء بشروا به، وأمروا باتباعه، فلما جاءَ كَفَرُوا به، وهو أشرف الرسل، عُلِم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم، ولهذا قال: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾. وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب، بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجاً. فلما استقامت جزيرة العرب، أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع، ولذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم، ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فَأَوْعَبوا معه، واجتمع من المقاتلة نحو ثلاثين ألفاً، وتخلّف بعضُ الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جدب، ووقت قيظ وحر، وخرج عليه السلام يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك فنزل بها وأقام على مائها قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله في الرجوع، فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله. وقد استدلّ بهذه الآية الكريمة مَن يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، أو من أشبههم كالمجوس.

[٣٥٠٠] كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر[2]. وهذا مذهب الشافعي،

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٨٣ ومسلم ٣٧١، وابن أبي شيبة ١/ ١٧٣، وأحمد ٢/ ٢٣٥ و٣٨٢ و٤٧١ وأبو داود ٢٣١، والترمذي ١٢١ والنسائي ١/ ١٤٥، وأبو عوانة ١/ ٢٧٥ وابن حبان ١٢٥٩ عن أبي هريرة مرفوعاً، وله قصة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٥٦ وأبو داود ٣٠٤٣ وأبو يعلى ٨٦١ من حديث عبد الرحمن بن عوف.

وأحمد ـ في المشهور عنه ـ وقال أبو حنيفة رحمه الله: بل تؤخذ من جميع الأعاجم، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب.

وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابيّ، ومجوسي، ووثني، وغير ذلك. ولمأخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا، والله أعلم. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي: إن لم يسلموا، ﴿عَن يَدٍ﴾، أي: عن قهر لهم وغلبة، ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، أي: ذليلون حقيرون مهانون. فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صَغَرة أشقياء.

[٣٥٠١] كما جاء في صحيح مسلم، عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهودَ والنَّصارى بالسلام، وإذا لَقِيتُم أحدَهم في طريق فاضطَرُّوه إلى أضيقه»[١]. ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ تلك الشروط المعلومة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم.

[٣٥٠٢] وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ، من رواية عبد الرحمن بن غَنْمٍ الأشعري قال: كتبتُ لعمَرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين صالح نصارى من أهل الشام: بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا، وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نُحْدِث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة، ولا قَلايَةً ولا صومعة راهب، ولا نجدِّد ما خَرِبَ منها، ولا نحيي منها ما كان خِطَط المسلمين، وألاّ نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نُؤوِي في كنائسنا ولا منازلنا جاسُوساً، ولا نَكْتُم غشاً للمسلمين، ولا نُعلِّم أولادنا القرآن، ولا نُظْهِر شركاً، ولا ندعو إليه أحد، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نُوَقِّر المسلمين، وأن نَقُوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نَتَشبَّه بهم في شيءٍ من ملابسهم، في قلنسوة، ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكُنَاهم، ولا نَرْكَب السروج، ولا نتقلَّد السيوف، ولا نَتَّخذَ شيئاً من السلاح، ولا نحمِلَه معنا، ولا نَنْقُش خواتمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور. وأن نَجُزَّ مقاديم رؤوسنا، وأن نَلْزم زِيّنا حيثما كنا، وأن نَشُدَّ الزنانير على أوساطنا، وألا نظهر الصليب على كنائسنا، وألاّ نظهر صُلُبنَا ولا كُتُبَنَا في شيء من طريق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خَفيفاً، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانين ولا بعوثاً، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نُرشِد المسلمين، ولا نَطَّلِعَ عليهم في منازلهم. قال: فلما أتيت عمر بالكتاب، زاد فيه: ولا نَضْرِب أحداً من المسلمين، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وَوَظفْنا على أنفسنا، فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢١٦٧، وأحمد ٨٥٤٢ و٩٨٨١، وأبو داود ٥٢٠٥ والترمذي ١٦٠٢. وتقدم.

وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

وهذا إغراء من الله ـ تعالى ـ للمؤمنين على قتال المشركين الكفار من اليهود والنصارى، لمقالتهم هذه المقالةَ الشنيعةَ، والفِرْية على الله تعالى، فأما اليهودُ فقالوا في العُزَير: إنه ابن الله، تعالى عن ذلك عُلوّاً كبيراً. وذكر السدّيُّ وغيرُه أن الشبهة التي حَصَلت لهم في ذلك، أن العمالقة لما غَلَبت على بني إسرائيل، فقتلوا عُلَماءهم وسَبوا كبارهم، بقي العُزَير يبكي على بني إسرائيل وذَهابِ العِلْم منهم، حتى سَقَطت جُفُون عينيه، فبينا هو ذات يوم إذ مَرَّ على جبانة، وإذا امرأةٌ تبكي عند قبر وهي تقول: وامطعماه! واكاسياه! فقال لها: ويلك، ويحك! من كان يطعمك قبل هذا؟ قالت: الله. قال: فإن الله حي لا يموت! قالت: يا عُزَير فمن كان يعلِّم العلماءَ قبل بني إسرائيل؟ قال: الله. قالت: فلم تبكي عليهم؟، فَعَرَفَ أنه شيء قد وُعِظ به. ثم قيل له: اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه، وصَلِّ هناك ركعتين، فإنك ستلقى هناك شيخاً، فما أطعمك فكله. فذهب ففعل ما أمر به، فإذا شيخ فقال له: افتح فمك. ففتح فمه، فألقى فيه شيئاً كهيئة الجَمْرَةِ العظيمة، ثلاث مرّات، فرجع عُزَير وهو من أعلم الناس بالتوراة، فقال: يا بني إسرائيل، قد جئتكم بالتوراة. فقالوا: يا عُزَير ما كنت كَذّاباً. فعمد فَرَبط على إصبع من أصابعه قلماً، وكتب التوراة بأصبعه كلها، فلما تراجع الناس من عَدُوّهم ورجع العلماء، أخبروا بشأن عُزَير، فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال، وقابلوها بها، فوجدوا ما جاء به صحيحاً، فقال بعضُ جَهَلَتِهِم: إنما صَنَعَ هذا لأنه ابنُ الله. وأما ضلالُ النصارى في المسيح فظاهر، ولهذا كَذَّب الله سبحانه الطائفتين فقال: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ﴾، أي: لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم، ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ﴾، أي: يشابهون ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾، أي: من قبلهم من الأمم، ضلوا كما ضل هؤلاء، ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ ـ قال ابن عباس: لعنهم الله، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، أي: كيف يضلون عن الحق، وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل؟!. ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾.

[٣٥٠٣] روى الإمام أحمد، والترمذي، وابنُ جرير من طرق، عن عَدِيّ بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ: أنه لما بلغته دعوةُ رسول الله ﷺ فَرّ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأُسِرَتْ أختُه وجماعة من قومه، ثم مَنَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجَعَتْ إلى أخيها، ورَغَّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عَديّ المدينةَ، وكان رئيساً في قومه طَيِّء، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدّث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عُنُقِ عَديّ صَليبٌ من فضة، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: بلى، إنهم حَرَّموا عليهم الحلال، وأَحَلُّوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم». وقال رسولُ الله ﷺ: «يا عَدِيُّ، ما تقول: أيفرُّكَ؟ أيَفِرُّكَ أن يُقالَ: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يُفِرّك؟ أيفرك أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله إلا الله»؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم، وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيتُ وجهه استبشر ثم قال: إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون[1]. وهكذا قال حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن

---

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٣٠٩٥ والطبري ١٦٦٣١ و١٦٦٣٢ والطبراني ٧/٩٢ من حديث عدي بألفاظ متقاربة وقال الترمذي: غريب. وغطيف ليس بمعروف. قلت: تابعه غير واحد على عامة هذه المتن. وانظر «أحكام القرآن» ١١٠٤ لابن العربي بتخريجي.

عباس، وغيرهما في تفسير: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾: إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا. وقال السدّيّ: استنصحوا الرجالَ، وتركوا كتابَ الله وراء ظهورهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾، أي: الذي إذا حَرّم الشيء فهو الحرام، وما حَلّله حلّ، وما شَرَعه اتُّبِعَ، وما حَكَم به نَفَذ. ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: تعالى وتقدّسَ وتنزّهَ عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هُوَ، ولا ربَّ سواه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى: يريدُ هؤلاءِ الكفارُ من المشركين وأهل الكتابِ ﴿أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾، أي: ما بعثَ به رسوله من الهدى ودين الحق، بمجرّدِ جدالهم وافترائهم، فمثلُهم في ذلك كمثَل من يُريدُ أن يطفىء شعاع الشمس، أو نور القمر بِنَفْخِه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسوله لا بُدَّ أن يتمّ ويظهرَ، ولهذا قال ـ تعالى ـ مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. والكافر: هو الذي يسترُ الشيءَ ويُغَطِّيه، ومنه سُمّي الليل كافراً، لأنه يسترُ الأشياء، والزارع كافراً، لأنه يغطي الحَبّ في الأرض، كما قال: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠][1]. ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾، فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع. ودين الحق: هي الأعمال الصحيحة النافعةُ في الدنيا والآخرة. ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، أي: على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال:

[٣٥٠٤] «إن الله زَوَى لي الأرضَ مشارقَها ومغاربَها، وسيبلغ ملكُ أُمّتي ما زُوِيَ لي منها»[2].

[٣٥٠٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن محمد بن أبي يعقوب: سمعت شَقيق بن حيان يحدث عن مسعود بن قَبيصة ـ أو: قبيصة بن مسعود ـ يقول: صَلّى هذا الحيُّ من مُحاربِ الصبح، فلما صَلّوا قال شابٌ منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيُفْتَح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإنَّ عمالها في النار، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة»[3].

[٣٥٠٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنا سليم بن عامر، عن تميم الداري ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغَنّ هذا الأمرُ ما بَلَغَ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بيتَ مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله هذا الدينَ، بعزّ عَزيزٍ، أو بذلّ ذليلٍ، عِزّاً يَعِزُّ الله به الإسلام، وذُلاً يُذِلُّ الله به الكفر» ـ فكان تميم الداريُّ يقول: قد عرفتُ ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخيرَ والشرفَ والعزّ، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذلّ والصَّغارَ والجزيةَ[4].

[٣٥٠٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربّه، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثني ابن جابر، سمعتُ

---

(١) في المطبوع «يعجب الكفار نباته».
(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٨٩ وأبو داود ٤٢٥٢ وأحمد ٥/ ٢٧٨ وابن حبان ٧٢٣٨. عن ثوبان.
(٣) ضعيف. أخرجه أحمد ٥/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ٥/ ٢٣٣: وفيه شقيق بن حيان قال أبو حاتم: مجهول.
(٤) أخرجه أحمد ٤/ ١٠٣ والطبراني ١٢٨٠ وقال الهيثمي في «المجمع» ٦/ ١٤: ورجاله رجال الصحيح.

سُليم بن عامر قال: سمعت المقداد بن الأسود يقول: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على ظهرِ الأرض بيتُ مَدَر ولا وَبَرٍ، إلا أدخله الله كلمة الإِسلام بعزِّ عزيز، أو ذُلِّ ذليل، إما يُعزُّهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يُذِلُّهم فَيَدِينُون لها»[1].

[٣٥٠٨] وفي المسند أيضاً: حدثنا محمد بن أبي عديّ، عن ابن عَونٍ، عن ابن سيرين، عن أبي حُذَيفة، عن عَدِيّ بن حاتم سَمِعه يقول: دخلتُ على رسول الله ﷺ فقال: «يا عدي، أسلم تسلم». فقلت: إني من أهل دين. قال: «أنا أعلم بدينك منك». فقلت: أنت أعلم بديني مني؟! قال: «نعم، ألست من الرَّكوسية[2]، وأنت تأكل مرباع قومك؟». قلت: بلى. قال: «فإن هذا لا يحل لك في دينك». قال: فلم يَعْدُ أن قالها فتواضعت لها، قال: «أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإِسلام تقول: إنما اتبعه ضَعَفَةُ الناس ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد سمعت بها. قال: «فوالذي نفسي بيده ليتمَّن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولَتُفتَحنَّ كنوزُ كسرى بن هرمز». قلت: كسرى بن هُرْمُز؟! قال: «نعم، كسرى بن هُرْمُزَ، ولَيُبْذَلنّ المال حتى لا يقبله أحد» ـ قال عَدِيّ بن حاتم: فهذه الظَّعِينة تخرجُ من الحيرة، فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله ﷺ قد قالها[3].

[٣٥٠٩] وقال مسلم: حدثنا أبو معن زيد بن يزيد الرَّقَاشِيّ، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن الأسود بن العلاء، عن أبي سَلَمَة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يذهبُ الليل والنهار حتى تُعبَدَ اللاتُ والعُزّى». فقلت: يا رسول الله، إن كنتُ لأظنُّ حين أنزل الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل، ثم يبعثُ الله ريحاً طَيِّبة فيتوفى كلَّ من كان في قلبه مثقال حَبَّةُ خردلٍ من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم»[4].

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قال السدي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى. وهو كما قال، فإن الأحبار هم علماءُ اليهودِ، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣]، والرهبان: عباد النصارى، والقسّيسون علماؤهم، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

---

(١) أخرجه أحمد ٦/٤، وقال الهيثمي ٦/١٤: رجاله رجال الصحيح.

(٢) الركوسية: دين بين دين النصارى والصابئين. والمرباع: ربع الغنيمة.

(٣) أخرجه أحمد ٤/٣٧٨ والبيهقي في «الدلائل» ٥/٣٤٢، ورجاله ثقات وله طرق كثيرة عن عدي. وأخرجه الحاكم ٤/٥١٨ من وجه آخر دون ذكر الركوسية والمرباع، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٠٧ وأبو يعلى ٤٥٦٥.

[المائدة: ٨٢]. والمقصودُ: التحذيرُ من علماءِ السوءِ وعُبّاد الضلال، كما قال سفيان بن عُيَينة: من فَسَد من علمائنا كان فيه شَبَهٌ من اليهود، ومن فسد من عُبّادنا كان فيه شَبَهٌ من النصارى.

[٣٥١٠] وفي الحديث الصحيح: «لتركبُنّ سَننَ من كان قبلكم حَذْو القُذّة بالقُذّة. قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟ ـ وفي رواية: فارس والروم؟ قال: وَمَن الناس إلا هؤلاء؟»[١]. والحاصلُ التحذيرُ من التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصِبِهم ورياستِهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرفٌ، ولهم عندهم خَرْج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بَعَث الله رسوله ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ استمرُّوا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنورِ النبوة، وسَلَبهم إياها، وعَوّضهم بالذلة والمسكنة، وَبَاؤوا بِغَضَبٍ من الله تعالىٰ.

وقولُه تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: وهم مع أكلهم الحرام يصدّون الناس عن اتباع الحق، ويَلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العُبّاد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فَسَدت أحوالُ هؤلاء فَسَدت أحوالُ الناس، كما قال بعضهم:

وَهَل أفسَدَ الدِّينَ إلاّ المُلُوك ... وَأحبارُ سُوءٍ ورُهْبانُها؟

وأما الكنز فقال مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنه قال: هو المال الذي لا تؤدى منه الزكاة.

[٣٥١١] ورُوِي عن الثوري وغيره عن عُبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: ما أُدِّي زكاتُه فليس بكنز، وإن كان تحت سَبْع أرضين، وما كان ظاهِراً لا تؤدّى زكاته فهو كنز. وقد رُوي هذا عن ابن عباس، وجابر، وأبي هُريرة موقوفاً ومرفوعاً، وعمر بن الخطاب، نحوه ـ رضي الله عنهم ـ: أيما مال أدّيت زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفوناً في الأرض، وأيما مال لم تؤدِ زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض. وَروَى البخاري من حديث الزُهْرِيِّ، عن خالد بن أسلَم قال: خرجنا مع عبد الله بن عُمَر، فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة؛ فلما نزلت جعلها الله طُهراً للأموال. وكذا قال عمر بن عبد العزيز، وعِرَاكُ بن مالك: نسخها قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية.

[٣٥١٢] وقال سعيد، عن محمد بن زياد، عن أبي أمامة أنه قال: حلية السيوف من الكنز، ما أُحَدِّثكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ. وقال الثوري، عن أبي حصين، عن أبي الضحى، عن جَعْدَة بن هُبَيرة،

---

(١) هو في الصحيح دون قوله «حذو القذة بالقذة» فقد أخرجه البخاري ٣٤٥٦ و٧٣٢٠ ومسلم ٢٦٦٩ وأحمد ٣/ ٨٤ وابن حبان ٦٧٠٣ من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن.؟». وأخرجه أيضاً البخاري ٧٣١٩ وابن ماجه ٣٩٩٤ وأبو يعلى ٦٢٩٢ من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر، وذراعاً بذراع فقيل: يا رسول الله، كفارس والروم. فقال: ومن الناس إلا أولئك». أما قوله «حذو القذة بالقذة» فهو في مسند أحمد ٤/ ١٢٥ و«الشريعة» للآجري ٣٠ من حديث شداد بن أوس.

عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: أربعة آلاف فما دونها نفقةٌ، فما كان أكثرَ منه فهو كنزٌ[١]. وهذا غريب. وقد جاء في مدح التقلُّل من الذهب والفضةِ وذم التكثُّر منهما، أحاديثُ كثيرةٌ؛ وَلْنُورِدْ منها هنا طرفاً يدل على الباقي.

[٣٥١٣] فقال عبد الرزاق: [عن منصور، عن عمرو بن مرة، عن سالم بن أبي الجعد قال: لما نزلت هذه الآية][٢] ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، قال النبي ﷺ: تبّاً للذهب تبّاً للفضة، يقولها ثلاثاً، قال؛ فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: فَأيّ مال نتخذ؟ فقال عمر ـ رضي الله عنه: أنا أعلم لكم ذلك، فقال: يا رسول الله، إن أصحابك قد شق عليهم، وقالوا: فَأيُّ المال نتخذ؟ قال: لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة تعين أحدكم على دينه[٣].

[٣٥١٤] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثني سالم، حدثني عبد الله بن أبي الهُذَيل، حدثني صاحب لي أن رسول الله ﷺ قال: تبّاً للذهب والفضة ـ قال: فحدثني صاحبي أنه انطلق مع عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، قولك: تبّاً للذهب والفضة، ماذا ندخّر؟ قال رسول الله ﷺ: لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة تُعين على الآخرة[٤].

[٣٥١٥] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبد الله بن عمرو بن مُرَّةَ، عن أبيه، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثَوبان قال: لما نزل في الفضة والذهب ما نزل قالوا: فَأيُّ المال نتخذ؟ قال عُمَرُ: أنا أعلم ذلك لكم. فأوضع على بعير فأدركه، وأنا في أثره، فقال: يا رسول الله، أيّ المال نتخذ؟ قال: ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً، وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة»[٥]. ورواه الترمذي، وابن ماجه، من غير وجه، عن سالم بن أبي الجعد، وقال الترمذي: حسن، وحكي عن البخاري أن سالماً لم يسمعه من ثوبان. قلت: ولهذا رواه بعضهم عنه مرسلاً، والله أعلم.

[٣٥١٦] حديث آخر، قال ابن أبي حاتم: حدثنا حميد بن مالك، حدثنا يحيى بن يعلى المحاربي، حدثنا أبي، حدثنا غيلان بن جامع المحاربي، عن عثمان بن أبي اليقظان، عن جعفر بن إياس، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ ... الآية، كَبُر ذلك على المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحد منا أن يترك لولده مالاً يبقى بعده. فقال عمر: أنا أفرّج عنكم، فانطلق عمر واتبعه ثوبان، فأتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، إنه قد كَبُر على أصحابك هذه الآيةُ، فقال نبيُّ الله ﷺ.

---

(١) الراجح وقفه، أخرجه البيهقي ٢/ ٨٢ بإسناد صحيح عن ابن عمر موقوفاً، وقال: هذا هو الصحيح موقوف، وقد رواه سويد بن عبد العزيز، وليس بالقوي، مرفوعاً، ثم ساق إسناده اهـ وسويد هذا ضعيف متروك الحديث. وتوبع، فقد أخرجه البيهقي ٢/ ٨٣ من وجه آخر عن ابن عمر مرفوعاً، وقال: ليس هذا بمحفوظ، والمشهور عن ابن عمر موقوفاً اهـ، وفي إسناده محمد بن كثير المصيصي الثقفي، وهو ضعيف، فالراجح فيه الوقف كما قال البيهقي رحمه الله. والله أعلم.

(٢) وقع في المطبوع: «أخبرنا الثوري، أخبرني أبو حصين عن أبي الضحى عن جعدة بن هبيرة عن علي رضي الله عنه في قوله» وهذا إسناد الحديث السابق، والتصويب من «تفسير عبد الرزاق» ١٠٧٦.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ١٠٧٦ والطبري ١٦٦٧٦ و١٦٦٧٧ وهذا مرسل، رجاله ثقات مشاهير.

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٣٦٦ وفيه راوٍ لم يسم فالإسناد ضعيف، وانظر ما بعده.

(٥) منقطع. أخرجه الترمذي ٣٠٩٤ وابن ماجه ١٨٥٦ وأحمد ٥/ ٢٨٢ وأبو نعيم ١/ ١٨٣ وقال البوصيري: قال الترمذي: سألت البخاري، فقلت له: سالم بن أبي الجعد سمع من ثوبان؟ فقال: لا.

«إن الله لم يفرضِ الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فَرَضَ المواريث من أموال تبقى بعدكم». قال: فكبَّر عمر، ثم قال له النبي ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكنز المرءُ؟ المرأةُ الصالحةُ التي إذا نَظَر إليها سَرّته، وإذا أمَرها أطاعته، وإذا غاب عنها حَفِظَتْه»[١]. ورواه أبو دَاودَ، والحاكم في مستدركه، وابن مَرْدُويه من حديث يحيى بن يَعْلَى، به. وقال الحاكم: صحيحٌ على شرطهما، ولم يخرجاه.

[٣٥١٧] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا الأوزاعي، عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس - رضي الله عنه - في سَفَرٍ، فنزل منزلاً، فقال لغلامه: ائتنا بالشَّفرةِ نعبَثْ بها. فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخْطِمُها وأزمُّها غير كلمتي هذه، لا تحفظوها علي، واحفظوا ما أقول لكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كنز الناسُ الذهبَ والفضةَ فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»[٢].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾، أي: يقال لهم هذا الكلامُ تبكيتاً وتقريعاً وتهكُّماً، كما في قوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٨ - ٤٩]، أي: هذا بذاك، وهو الذي كنتم تكنزون لأنفسكم. ولهذا يقال: من أحبَّ شيئاً وقَدَّمه على طاعة الله، عُذب به. وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم، عذبوا بها، كما كان أبو لهب لعنه الله جاهداً في عداوة الرسول ﷺ وامرأته تعينه في ذلك، كانت يوم القيامة عَوناً على عذابه أيضاً ﴿فِي جِيدِهَا﴾، أي: عنقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥]، أي: تجمع من الحطب في النار وتلقي عليه، ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه - كان - في الدنيا، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها، كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة، فيحمى عليها في نار جهنم، وناهيك بحرها، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

[٣٥١٨] قال سفيان، عن الأعمش، عن عبد الله بن عمرو بن مُرَّة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود: والله الذي لا إله غيره، لا يكوى عبد بكنز، فَيَمَسُّ دينار ديناراً، ولا درهمٌ درهماً، ولكن يوسَّع جلده، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته[٣]. وقد رواه ابن مَرْدُويه، عن أبي هريرة مرفوعاً، ولا يصح رفعه[٤]، والله أعلم. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه قال: بلغني أن الكنز يتحول يوم القيامة شُجَاعاً يتبع صاحبه، وهو يفرّ منه ويقول: أنا كنزك! لا يدرك منه شيئاً إلا أخذه.

---

(١) أخرجه أبو داود ١٦٦٤ والحاكم ٢/ ٣٣٣ وأبو يعلى ٢٤٩٩ والبيهقي ٤/ ٨٣ وإسناده ضعيف، لضعف عثمان ابن عمير، وله علة ثانية جعفر بن إياس كان شعبة يطعن في حديثه عن مجاهد، والحديث صححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: عثمان لا أعرفه، والخبر عجيب اهـ.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٢٣ وفيه روح بن عبادة فيه كلام، والمتن غريب. وأخرجه أيضاً الطبراني ١١٧٢ من حديث البراء، وإسناده ضعيف فيه موسى بن مطير، وهو متروك كما في «المجمع» ١٠/ ١٧٣.

(٣) موقوف حسن، رجاله ثقات.

(٤) هو الآتي برقم ٣٥٢٧.

[٣٥١٩] وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن معدان بن أبي طلحة، عن ثوبانَ أن نبيّ الله ﷺ كان يقول: من ترك بعده كنزاً مَثَل له يوم القيامة شُجاعاً أقرع له زبيبَتان، يتبعه، يقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذي تركته بعدك! ولا يزال يتبعه حتى يُلقمه يده فيقضمها ثم يتبعها سائر جسده»[١]. ورواه ابن حبان في صحيحه، من حديث يزيد، عن سعيد، به. وأصلُ هذا الحديث في الصَّحِيحين من رواية أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه.

[٣٥٢٠] وفي صحيح مسلم، من حديث سُهَيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما من رجل لا يؤدّي زكاة ماله، إلا جُعِل يوم القيامة صفائح من نار يُكوَى بها جَنْبُه وجَبْهَتُه وظهره، في يوم كان مقداره خمسينَ ألفَ سنةٍ حتى يقضي بين الناس، ثم يُرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»[٢]. . . وذكر تمام الحديث.

وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن حُصين، عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالرَّبذَة، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض، قال: كنا بالشام، فقرأت: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فقال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا في أهل الكتاب! قال قلت: إنها لفينا وفيهم. ورواه ابن جرير من حديث عَبْثَر بن القاسم، عن حصين، عن زيد بن وهب، عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ فذكره وزاد: فارتفع في ذلك بيني وبينه القولُ، فكتب إلى عثمان يشكوني، فكتَبَ إليّ عثمان أن أقْبِلْ إليه، قال: فأقبلتُ، فلما قَدِمتُ المدينة ركبني الناسُ كأنهم لم يروني قبل يومئذٍ، فشكوتُ ذلك إلى عثمانَ، فقال لي: تَنَحَّ قريباً قلت: والله لن أدع ما كنت أقول. قلت: كان من مذهب أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ تحريم ادّخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يُفتي بذلك، ويحثُّهم عليه، ويأمُرهم به، ويغلظ في خلافه، فنهاه معاويةُ فلم ينتهِ، فخشي أن يَضُرَّ بالناس في هذا، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان، وأن يأخذه إليه، فاستقدمه عثمان إلى المدينة، وأنزله بالربذةِ وَحْدَه، وبها مات ـ رضي الله عنه ـ في خلافة عثمان وقد اختبره معاوية ـ رضي الله عنه ـ وهو عنده، هل يوافق عملُه قولَه؟ فبعث إليه بألف دينار، ففرّقها من يومه، ثم بعث إليه الذي أتاه بها فقال: إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأتُ، فهاتِ الذهبَ! فقال: ويحك! إنها خَرَجَتْ، ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به. وهكذا رَوَى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنها عامّة. وقال السدي: هي في أهل القبلة. وقال الأحنف بن قيس: قدمت المدينة، فبينا أنا في حلقة فيها مَلأ من قريش، إذ جاء رجل أخشن الثياب، أخشن الجسد، أخشن الوجه، فقام عليهم فقال: بَشِّرِ الكنازين برَضْفٍ[٣] يحمَى عليه من نار جهنم، فيوضع على حَلمة ثَدْي أحَدهم حتى يخرج من نُغْض كتفه، ويوضَع على نُغْض[٤] كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل ـ قال: فوضع القوم رؤوسهم، ما رأيت أحداً منهم رَجَعَ إليه شيئاً. قالَ: وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية، فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم. فقال: إن هؤلاء لا يعلمون شيئاً.

---

(١) تقدم في سورة آل عمران عند آية: ١٨٠.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٩٨٧ وأبو داود ١٦٥٨ وأحمد ٢/ ٢٦٢ و٢٧٦ وابن حبان ٣٢٥٣.

(٣) الرضف: الحجارة المحماة.

(٤) النغض: غضروف الكتف.

[٣٥٢١] وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذرّ: «ما يسرُّني أن عندي مثل أُحدٍ ذهباً يمرُّ عليه ثالثةٌ وعندي منه شيء، إلا دينارٌ أرصُدُه لدين»[١]. فهذا ـ والله أعلم ـ هو الذي حدا أبا ذر على القول بهذا.

[٣٥٢٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن سعيد بن أبي الحسن، عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه: أنه كان مع أبي ذرّ، فخرج عطاؤه ومعه جارية له، فجعلت تقضي حوائجه، ففضلت معها سبعة، فأمرها أن تشتري به فلوساً. قال: قلت: لو ادخرته للحاجة تَنُوبك وللضيف ينزل بك! قال: إن خليلي عهد إليّ أنْ أيما ذهب أو فضة أوكِيَ عليه، فهو جمر على صاحبه، حتى يفرغه في سبيل الله عز وجل[٢]. ورواه عن يزيد، عن همام، به. وزاد: إفراغاً.

[٣٥٢٣] وقال الحافظ ابن عساكر بسنده إلى أبي بكر الشبلي في ترجمته، عن محمد بن مهدي: حدثنا عمر بن أبي سلمة، عن صدقة بن عبد الله، عن طلحة بن زيد، عن أبي فروة الرّهاوي، عن عطاء، عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الق الله فقيراً ولا تلقه غنياً». قال: يا رسول الله، كيفَ لي بذلك؟ قال: «ما سُئلتَ فلا تمنع، وما رُزِقْت فلا تَخْبَأ». قال: يا رسول الله، كيف لي بذلك؟ قال رسول الله ﷺ: «هو ذاك وإلا فالنار»[٣]. إسناده ضعيف.

[٣٥٢٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا عُتَيْبة، عن بُرَيدِ بن أصْرَمَ قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: مات رجل من أهل الصُفَّة، وترك دينارين ـ أو: درهمين ـ فقال رسول الله ﷺ: كَيَّتان، صلوا على صاحبكم[٤]. وقد رُوِي هذا من طرق أخر.

[٣٥٢٥] وقال قتادة عن شَهر بن حَوشب، عن أبي أمامة صدَيّ بن عجلان قال: مات رجل من أهل الصُفَّة، فوجد في مئزره دينار، فقال رسول الله ﷺ: «كية! ثم تُوفي رجل آخر فوجد في مئزره ديناران، فقال رسول الله ﷺ: كيتان»[٥].

[٣٥٢٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الفَراديسي، حدثنا معاوية بن يحيى الأَطرابُلسِيّ، حدثني أرطاة، حدثني أبو عامر الهَوْزَني، سمعت ثَوْبانَ مولى رسول الله ﷺ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٣٨٨ ومسلم ٩٩١ ح ٣٢ والترمذي ٢٦٤٤ وأحمد ٥/ ١٥٢ وابن حبان ٣٣٢٦.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٥/ ١٧٦ ورجاله ثقات، رجال البخاري ومسلم.

(٣) إسناده ضعيف جداً، طلحة بن زيد هو الرّقي. قال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك. وقال علي المديني: يضع الحديث، وورد من حديث بلال أخرجه الديلمي ١٧٦٩ وزاد العراقي في تخريج «الإحياء» نسبته للحاكم في كتاب «علامات أهل التحقيق»، وقال: إسناده ضعيف.

(٤) حسن لشواهده. أخرجه أحمد ١/ ١٠١ ح ٧٨٩ وابنه ١١٥٩ و١١٦٩ والبزار ٣٦٥١ من حديث علي، وإسناده ضعيف، فيه عتيبة الضرير مجهول، قاله في «المجمع» ١٧٧٦٤.

وورد من حديث ابن مسعود أخرجه أحمد ١/ ٤١٢ ـ ٤٥٧ وأبو يعلىٰ ٥٠٣٧ والبزار ٣٦٥٢ قال الهيثمي ١٧٧٦٥: فيه عاصم بن بهدلة وثقه غير واحد، وبقية رجاله وثقوا اهـ ويشهد له ما بعده.

(٥) جيد. أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ١٠٧٨ وأحمد ٥/ ٢٥٢ و٢٥٣ والطبري ١٦٦٨٠ والطبراني ٧٥٧٣ من حديث أبي أمامة وفي إسناده شهر بن حوشب، وحديثه حسن في الشواهد، قال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠ رواه أحمد بأسانيد، ورجال بعضها رجال الصحيح غير شهر بن حوشب، وقد وثق اهـ.

قال: ما من رجلٍ يموتُ وعنده أحمرُ أو أبيضُ، إلا جعل الله بكل قيراطٍ صفحةً من نار يُكوى بها من قدمه إلى ذَقْنه[١].

[٣٥٢٧] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمود بن خداش، حدثنا سيف بن محمد الثوري، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يوضع الدينار على الدينار، ولا الدرهم على الدرهم، ولكن يُوسَّع جلده فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فَذُوقوا ما كنتم تكنزون»[٢]. سيف هذا: كذاب، متروك.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

[٣٥٢٨] قال الإمام أحمدُ: حدثنا إسماعيل، أخبرنا أيوب، أخبرنا محمد بن سيرينَ، عن أبي بَكْرة: أن النبي ﷺ خطب في حجَّتِهِ، فقال: «ألا إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرضَ، السنةُ اثنا عشرَ شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جُمادى وشعبان. ثم قال: ألا أي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلمُ. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس ذا الحِجَّة؟ قلنا: بلى. ثم قال: أيّ بلد هذا؟. قلنا: الله ورسولُه أعلمُ. فسكت حتى ظَنَنَّا أنه سَيُسَمِّيه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟»، قلنا: بلىٰ. ثم قال: «أي شهر هذا؟». قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتىٰ ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليست البلدة؟ قلنا: بلى. قال: فإن دماءكم وأموالكم ـ قال: وأحسبه قال: وأعراضكم ـ عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي ضُلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ ألا ليبلِّغ الشاهدُ منكم الغائب منكم، فلعلَّ من يبلغه يكون أَوْعَى له مِنْ بعضِ من يسمعه»[٣].

ورواه البخاري في التفسير وغيره، ومسلم من حديث أيوب، عن محمد ـ وهو ابن سيرين ـ عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه به.

[٣٥٢٩] قال ابن جَرير: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا روح، حدثنا أشعث، عن محمد بن سيرين، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض منها أربعةٌ حُرُمٌ، ثلاثةٌ متوالياتٌ، ورجب مضر، بين جمادى وشعبان»[٤]. ورواه البزّار، عن محمد بن معمر، به. ثم

---

(١) إسناده ضعيف، فيه إسحاق بن إبراهيم الفراديسي غير قوي، وشيخه معاوية بن يحيىٰ وثقه غير واحد، وضعفه البغوي والدارقطني، وقال: هو أكثر مناكير من الصدفيّ اهـ.

(٢) في إسناده سيف بن محمد الثوري متهم بالكذب، كما ذكر ابن كثير، والصواب أنه موقوف. كما تقدم برقم ٣٥١٨. أنه موقوف على ابن مسعود.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ١٧٤١ و٤٤٠٦ ومسلم ١٦٧٩ وأبو داود ١٩٤٨ وابن ماجه ٢٣٣ وأحمد ٥/ ٣٧ و٣٩ وابن حبان ٣٨٤٨.

(٤) متن صحيح. أخرجه الطبري ١٦٧٠٠ وإسناده غير قوي لأجل أشعث، وهو ابن سوّار، لكن للمتن شواهد.

قال: لا يروى عن أبي هُريرة إلا من هذا الوجه، وقد رواه ابن عون وقُرّة وابن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، به.

[٣٥٣٠] وقال ابن جرير، أيضاً: حدثني موسى بن عبد الرحمن المَسْرُوقيُّ، حدثنا زيد بن حباب، حدثنا موسى بن عبيدة الرَّبَذي، حدثني صَدَقة بن يسار، عن ابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ في حَجّةِ الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق فقال: «أيها الناسُ، إن الزمان قد استدار، فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، وإنَّ عدَّة الشهور عند الله اثنا عَشَرَ شهراً منها أربعة حرم، أولهن رَجَبُ مضر بين جمادى وشعبان، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم»[١]. وروى ابن مَرْدُويه من حديث موسى بن عُبَيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عُمَر، مثله أو نحوه.

[٣٥٣١] وقال حَمّاد بن سَلَمة: حدثني علي بن زَيدٍ، عن أبي حُرّة الرّقاشي، عن عمه ـ وكانت له صحبة ـ قال: كنت آخذاً بزمام ناقة رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق، أذود الناس عنه، فقال رسول الله ﷺ: «ألا إنَّ الزمانَ قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، وإن عِدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض، منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم»[٢].

وقال سعيدُ بن منصور: حدثنا أبو معاوية، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾، قال: محرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة.

وقوله ﷺ في الحديث: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض»، تقرير منه ـ صَلَوات الله وسلامه عليه ـ وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نَسيء ولا تبديل.

[٣٥٣٢] كما قال في تحريم مكة: «إن هذا البلد حَرّمه الله يوم خلق السمٰوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»، وهكذا قال ها هنا: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»[٣]، أي: الأمر اليوم شرعاً كما ابتدأ الله في ذلك في كتابه يوم خلق السمٰوات الأرض.

وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث: إن المراد بقوله: «قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض»، إنه اتفق أن حَجَّ رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة، وأن العرب قد كانت نسأت النسيء، يحجون في كثير من السنين، بل أكثرها، في غير ذي الحجة، وزعموا أن حَجّة الصدِّيق في سنة تسع كانت في ذي القعدة. وفي هذا نظرٌ، كما سَنُبَيِّنه إذا تكلمنا على النسيء. وأغرب منه ما رواه الطبراني، عن بعض السلف، في جملة حديث: أنه اتفق حَجُّ المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد، وهو يوم النحر، عام حجة الوداع، والله أعلم.

فصل: ذكر الشيخ علم الدين السَّخاوي[٤] في جزء جَمَعه سماه «المشهور في أسماء الأيام والشهور»: أن

---

(١) صحيح. أخرجه الطبري ١٦٦٩٩ وفي إسناده موسى بن عبيدة الربذي ضعيف، لكن للمتن شواهد.

(٢) متن صحيح. إسناده ضعيف لضعف علي بن زيد، لكن للمتن شواهد.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٦.

(٤) هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري السخاوي الشافعي، عالم بالقراءات والأصول واللغة والتفسير، سكن دمشق وتوفي فيها سنة ٦٤٣ هـ. له عدة مؤلفات.

المحرم سمي بذلك لكونه شهراً محرماً، وعندي أنه سمي بذلك تأكيداً لتحريمه، لأن العرب كانت تَتَلعَّبُ به، فتحله عاماً وتحرمه عاماً. قال: ويجمع على محرمات، ومحارم، ومحاريم. صفر: سمي بذلك لخلو بيوتهم منهم، حين يخرجون للقتال والأسفار، يقال: صَفِر المكان: إذا خلا، ويجمع على أصفار كجَمَل وأجمال. شهر ربيع الأول: سمي بذلك لارتباعهم فيه، والارتباع: الإقامة في عمارة الرَّبع. ويجمع على أربِعَاء كنصيب وأنصباء وعلى أَرْبِعَةٍ، كرغيف وأرْغِفَةٍ. ربيع الآخر: كالأول. جُمادى: سمي بذلك لجمود الماء فيه. قال: وكانت الشهورُ في حسابهم لا تدُور. وفي هذا نظر؛ إذ كانت شهورهم منوطةً بالأهلة، ولا بدَّ من دورانه، فلعلَّهم سَمَّوه بذلك، أول ما سُمِّي عند جمود الماء في البرد، كما قال الشاعر:

وَلَيلَةٍ مِنْ جُمادى ذاتِ أَنْدِيَةٍ لا يُبْصِرُ العَبدُ في ظَلمائها الطُّنُبَا
لا يَنبَحُ الكلبُ فيها غيرَ وَاحِدَةٍ حَتَّى يَلُفَ عَلَى خُرطومه الذَّنَبَا

ويُجمع على جُمَاديات، كحبارى وحُبَاريات، وقد يذكر ويؤنث، فيقال: جمادى الأولى والأول، وجمادى الآخر والآخرة. رَجَب: من الترجيب، وهو التعظيم، ويجمع على أرجاب، ورِجَاب، ورَجَبات. شعبانُ: من تَشَعُّبِ القبائل وتَفَرُّقها للغارة ويجمع على شَعَابين وشَعْبانات. رمضانُ: من شدة الرمضاء، وهو الحر، يقال: رَمِضَت الفصالُ: إذا عَطِشت، ويجمع على رَمَضَانات ورَماضين وأرْمِضَة. قال: وقول من قال: إنه اسم من أسماء الله، خطأٌ لا يعرَّجُ عليه، ولا يُلتَفَتُ إليه. قلت: قد وَرَدَ فيه حديث؛ ولكنه ضعيف، وبينته في أول كتاب الصيام. شَوَّالٌ: من شالت الإبل بأذنابها للطِّراق، قال: ويجمع على شَوَاول وشواويل وشَوَّالات. القَعدة: بفتح القاف ـ قلت: وكسرها ـ لقُعودهم فيه عن القتال والتَّرحالِ، ويجمع على ذوات القعدة. الحِجَّة: بكسر الحاء ـ قلت: وفتحها ـ سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه، ويجمع على ذوات الحجة. أسماء الأيام: أولها الأحد، ويجمع على آحاد، وأُحاد ووحود. ثم يوم الاثنين، ويجمع على أثانين. الثلاثاء: يمد، ويُذكَّر ويؤنث، ويجمع على ثلاثاوات وأثالث. ثم الأربعاء بالمد، ويجمع على أربعاوات وأرابيع. والخميس: يجمع على أخمسة وأخامس. ثم الجمعة ـ بضم الميم، وإسكانها، وفتحها أيضاً ـ ويجمع على جُمَع وجُمُعات. السبت: مأخوذ من السَّبْت، وهو القطع، لانتهاء العدد عنده. وكانت العرب تسمي الأيام: أَوَّل، ثم أَهْوَنَ، ثم جُبَار، ثم دُبَار، ثم مُؤنِس، ثم العروبة، ثم شِيَار. قال الشاعر، من العرب العرباء العاربة المتقدِّمين:

أرجِّي أن أعيشَ وَأن يَومِي بِأوَّلَ أو بِأَهْوَنَ أو جُبَارِ
أو التالي دُبَارَ فإن أَفُتهُ فَمُؤنِسَ أو عَرُوبةَ أو شِيَارِ

وقوله تعالى: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾، فهذا مما كانت العرب أيضاً في جاهليتها تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم، إلا طائفة منهم يقال لهم: «البَسْلُ»، كانوا يُحرِّمُونَ من السنة ثمانيَة أَشْهُر، تعمقاً وتشديداً. وأما قوله: «ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»، فإنما أضافه إلى مضر، ليبين صحة قولهم في رجب: إنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا كما كانت تظنه ربيعة من أنَّ رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم. فبين ـ عليه السلام ـ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة. وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة، ثلاثة سَرْدٌ وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل شهر الحج شهر، وهو ذو القعدة، لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحُرِّم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهر آخر، وهو المحرم، ليرجعوا

فيه إلى نائي أقصى بلادهم آمنين، وحُرِّم رجب في وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتمار به. لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، أي: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحَذْو بها على ما سبق في كتاب الله الأول. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: في هذه الأشهر المحرمة، لأنه آكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام، ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي، وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا في حق من قتل في الحرم أو قتل ذا محرم. وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، قال: في الشهور كلها. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾... الآية، ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾: في كلِّهن. ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراماً، وعَظَّم حُرُماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم. وقال قتادة في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾: إنَّ الظلم في الأشهر الحُرُم أعظمُ خطيئةً ووزراً من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء. وقال: إن الله اصطفى صَفَايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذكْرَه، واصطفى من الأرض المساجدَ، واصطفى من الشهور رمضانَ والأشهُرَ الحُرُم، واصطفى من الأيام يومَ الجُمُعة، واصطفى من الليالي ليلةَ القدرِ، فَعَظِّموا ما عَظَّم الله، فإنما تُعَظَّم الأمورُ بما عَظَّمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل. وقال الثوريُّ، عن قَيس بن مسلم، عن الحسن بن مُحَمَّد بن الحنفية: بأن لا تحرموهُنَّ كحرمتهنَّ. وقال محمد بن إسحاق: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: لا تجعلوا حرامها حلالاً ولا حلالها حراماً كما فعل أهل الشرك، فـ ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾ الذي كانوا يصنعون من ذلك، ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية. وهذا القول اختيار ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾، أي: جميعكم، ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾، أي: جميعهم، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام: هل هو منسوخ أو محكم؟ على قولين: أحدهما، وهو الأشهر: أنه منسوخ، لأنه تعالى قال ها هنا: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، وأمر بقتال المشركين. وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً، فلو كان محرماً في الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها، ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام ـ وهو ذو القعدة.

[٣٥٣٣] كما ثبت في الصحيحين: أنه خرج إلى هوازن في شوال، فلما كسرهم واستفاء أموالهم، ورجع فَلُّهم فلجؤوا إلى الطائف ـ عَمَد إلى الطائف فحاصرها أربعين يوماً، وانصرف ولم يفتتحها[1]. فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام.

والقول الآخر: أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام، وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام، لقوله

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٠٥٩ ح ١٣٦ من حديث أنس بن مالك، وسيأتي.

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]. . . الآية، وقال: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. . . الآية، وقال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]. . . الآية. وقد تقدم أنها الأربعة المقررة في كل سنة، لا أشهر التسيير[١] على أحد القولين. وأما قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾، فيحتمل أنه منقطعٌ عما قبله، وأنه حكم مستأنفٌ، ويكونُ من باب التَّهييج والتحضيض، أي: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمِعُوا أنتم أيضاً لهم إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون. ويحتمل أنه أذِنَ للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]. . . الآية. وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تتمة قتال هَوازِنَ وأحلافها من ثَقِيفٍ، فإنهم هم الذين ابتدؤوا القتال، وجمعوا الرِّجال، وَدَعَوا إلى الحرب والنِّزالِ، فعندها قَصَدَهم رسولُ الله ﷺ كما تقدم، فلما تَحصَّنُوا بالطائف ذَهَب إليهم ليُنْزِلَهم من حُصُونهم، فنالوا من المسلمين، وقَتَلُوا جماعةً، واستمرّ الحصارُ بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً. وكان ابتداؤه في شهر حلالٍ، ودخل الشهرُ الحرامُ، فاستمرَّ فيه أياماً، ثم قَفَلَ عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا أمر مقرَّرٌ، وله نظائرُ كثيرةٌ، والله أعلم. وَلْنَذْكُرِ الأحاديثَ الواردة في ذلك[٢]. وقد حرَّرْنا ذلك في السيرة، والحمد لله.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

هذا مما ذم الله ـ تعالى ـ به المشركين من تَصَرُّفِهم في شَرْعِ الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكامَ الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرّم الله وتحريمهم ما أحلَّ الله. فإنهم كان فيهم من القُوّةِ الغَضَبِيّة والشّهامة والحمية، ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدّة تحليلَ المحرم وتأخيره إلى صفر. فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال، لِيُوَاطِئوا عِدّةَ الأشهر الأربعة، كما قال شاعرهم، وهو عُمَير بن قَيْس المعروف بجذل الطعان:

لَقَدْ عَلِمَت مَعدٌّ أنَّ قَومِي ... كِرَامُ النَّاس أنَّ لَهُمْ كِرَاما
ألَسْنا النَّاسئينَ عَلى مَعدّ ... شُهُورَ الحِلِّ نَجْعَلُها حَرَاما
فأيُّ النَّاس لم نُدرِكْ بوِتْرٍ؟ ... وأيُّ النَّاسِ لم نُعْلِك لِجاما؟

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾، قال: النسيء أنَّ جُنادة بن عوف بن أمية الكناني، كان يوافي الموسم في كل عام، وكان يُكنى أبا ثُمامة، فينادي: ألا إنَّ أبا ثمامة لا يُحاب ولا يُعاب، ألا وإن صفر العام الأول العامَ حلال. فيحله للناس، فيحرم صفراً عاماً، ويحرم المحرم عاماً، فذلك قول الله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ

---

(١) المراد بالتسيير ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

(٢) بعد هذه الفقرة بياض، ولعل المؤلف صرف النظر عن إثبات الأحاديث المذكورة اكتفاءً منه بإيرادها في السيرة النبوية.

﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾، يقول: يتركون المحرم عاماً، وعاماً يحرمونه. وروى العَوْفِيّ، عن ابن عباس نحوه. وقال ليث بن أبي سُلَيم، عن مجاهد: كان رجل من بني كنانة يأتي كُلَّ عام إلى الموسم على حِمَارٍ له، فيقول: أيها الناس، إنّي لا أعاب ولا أُحَاب، ولا مَرَدّ لما أقول، إنا قد حَرّمْنَا المحرم، وأخرنَا صفر. ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته، ويقول: إنا قد حرمنا صفر، وأخرنا المحرم، فهو قوله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، قال: يعني الأربعة ـ ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، لتأخير هذا الشهر الحرام. وروي عن أبي وائل، والضحاك، وقتادة، نحو هذا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أَسْلَمَ في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ . . . الآية، قال: هذا رجل من بني كنانة يقال له: القَلَمّس، وكان في الجاهلية. وكانوا في الجاهلية لا يُغير بعضهم على بعض في الشهر الحرام، يلقى الرجلُ قاتلَ أبيه ولا يَمُدّ إليه يده، فلما كان هو، قال: اخرُجوا بنا. قالوا له: «هذا المحرم»! قال: نُنسِئُه العام، هما العام صفران، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما مُحرَّمين. قال: ففعل ذلك، فلما كان عام قابل قال: لا تغزُوا في صفر، حرّموه مع المحرم، هما محرمان. فهذه صفة غريبة في النسيء، وفيها نظر، لأنهم في عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط، وفي العام الذي يليه يحرمون خمسة أشهر، فأين هي من قوله تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ وقد رُويَ عن مجاهد صفة أخرى غريبة أيضاً.

فقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ الآية، قال: فَرَض الله ـ عز وجل ـ الحجَّ في ذي الحِجّة. قال: وكان المشركون يُسَمُّون الأشهر: ذا الحجة، والمحرّم، وصفر، وربيع، وربيع، وجُمَادى، وجُمَادى، ورَجَب، وشعبان، ورَمضان، وشوالَ، وذا القعدة، وذا الحجة، يحجون فيه مرة أخرى، ثم يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه، ثم يعودون فيسمون صفر، ثم يسمون رجب جمادى الآخرة، ثم يسمون شعبان رمضان، ثم يسمون شوالاً رمضان، ثم يسمون ذا القعدة شوالاً، ثم يسمُّون ذا الحجّة ذا القعدة، ثم يسمون المحرم ذا الحجة، فيحجون فيه، واسمه عندهم ذو الحجة. ثم عادوا بمثل هذه القصة فكانوا يحجون في كل شهر عامين، حتى وافق حجة أبي بكر الآخر من العامين في ذي القعدة. ثم حج النبي ﷺ حجته التي حج فوافق ذا الحجة فذلك حين يقول النبي ﷺ في خطبته «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»، وهذا الذي قاله مجاهد فيه نظر وكيف تصح حجة أبي بكر وقد وقعت في ذي القعدة، وأنّى هذا؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ . . . الآية، وإنما نُودِي بذلك في حجّة أبي بكر، فلو لم تكن في ذي الحجة لما قال تعالى ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾. ولا يلزم من فعلهم النسيء هذا الذي ذكره من دَوَران السنة عليهم وحَجِّهم في كل شهر عامين؛ فإن النسيءَ حاصلٌ بدون هذا. فإنهم لما كانوا يُحلُّون شَهْرَ المحرم عاماً يحرّمون عِوَضَه صفراً، وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة. بحالها على نظامها وعدتها وأسماءِ شهورها، ثم في السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه، وبعده صفر، وربيع وربيع إلى آخرها فيحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطِئُوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، أي: في تحريم أربعة أشهر من السنة، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم، وتارة يُنْسِئُونَه إلى صفر، أي: يؤخرونه.

[٣٥٣٤] وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب

مضر»[١]، أي: إن الأمر في عدة الشهور وتحريم ما هو محرم منها، على ما سبق في كتاب الله من العدد والتوالي، لا كما يعتمده جهلة العرب، من فصلهم تحريم بعضها بالنسيء عن بعض، والله أعلم.

[٣٥٣٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا صالح بن بشر بن سلمة الطبراني، حدثنا مكي بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنه قال: وقف رسول الله ﷺ بالعقبة، فاجتمع إليه من شاء الله من المسلمين، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: «إنما النسيءُ من الشيطان زيادةٌ في الكفر، يُضَلّ بهِ الذين كفروا، يحلّونه عاماً ويُحرِّمونه عاماً»[٢]. فكانوا يحرمون المحرم عاماً، ويستحلون صفر، ويُحرِّمون صَفَرَ ويستحلون المحرمِ، وهو النسيء.

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في كتاب السيرة كلاماً جيّداً ومفيداً حسناً، فقال: كان أوّلُ من نسأ الشهورَ على العرب، فأحلّ منها ما حَرّم الله، وحَرّم منها ما أحلّ الله ـ عز وجل ـ القَلَمّسُ، وهو: حُذَيفة بن عَبْدِ بن فُقَيم بن عديّ بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خُزَيمة بن مُدْركة بن إلياس بن مُضَر بن نُزارِ بن مَعدّ بن عدنان، ثم قام بعده على ذلك ابنه عَبّاد، ثم من بعد عباد ابنه: قَلَعُ بن عباد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه: عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثمامة جُنَادة بن عوف، وكان آخِرَهم، وعليه قام الإسلامُ. فكانت العرب إذا فَرَغت من حَجِّها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيباً، فحرّم: رجباً، وذا القعدة، وذا الحجة، ويحل المحرم عاماً، ويجعل مكانه صَفَر، ويحرمه عاماً ليواطىء عدة ما حرم الله، فَيُحِلّ ما حرم الله، يعني: ويحرّم ما أحل الله، والله أعلم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

هذا شروعٌ في عتاب من تخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوكَ، حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحَمارّة القيظ، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: إذا دُعِيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار، ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: مالكم فعلتم هكذا؟! أرِضاً منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة؟ ثم زَهّد تبارك وتعالى في الدنيا، ورَغّب في الآخرة، فقال: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

[٣٥٣٦] كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعلُ أحدُكم أصبَعَه هذه في اليمّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ ترجعُ»[٣]؟ وأشارَ بالسَّبّابَةِ. انفرد بإخراجه مسلم.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٧ و١٠٥، ومسلم ١٦٧٩، وأبو داود ١٩٤٨، وابن ماجه ٢٣٣ وأحمد ٣٧/٥ و٣٩ و٤٥ و٤٩ من حديث أبي بكرة.

(٢) في إسناده موسى بن عبيدة، وهو الربذي ضعفه الجمهور.

(٣) أخرجه أحمد ٢٢٨/٤ و٢٢٩، ومسلم ٢٨٥٨، والترمذي ٢٣٢٣، وابن ماجه ٤١٠٨.

[٣٥٣٧] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا بشر بن مسلم بن عبد الحميد الحمصي بحمص، حدثنا الربيع بن روح حدثنا محمد بن خالد الوهبي، حدثنا زياد ـ يعني الجَصّاص ـ عن أبي عثمان قال: قلت يا أبا هُريرة، سمعتُ من إخواني بالبصرة أنك تقولُ: سمعتُ نبيَّ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله يجزي بالحسنة ألفَ ألف حسنة؟ قال أبو هُرَيرة: بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حَسَنةٍ»، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1]. فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل. وقال الثوري، عن الأعمش في الآية: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. قال: كزاد الراكب.

وقال عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه: لما حَضَرتْ عبدَ العزيز بن مروان الوفاةُ قال: ائتوني بكفني الذي أكفّن فيه، أنظر إليه. فلما وُضع بين يديه نَظَر إليه فقال: أما لي من كثير ما أُخلِفُ من الدنيا إلا هذا؟ ثم وَلّى ظهره فبكى وهو يقول: أفّ لك من دار! إن كان كثيرُك لقليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك لفي غرور. ثم تَوَعّدَ تعالى على ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، قال ابن عباس: استنفرَ رسولُ الله ﷺ حياً من العرب، فَتثاقلوا عنه، فأمسكَ الله عنهم القَطْر، فكان عذابهم. ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، أي: لنصرة نَبيِّه وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]. ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾، أي: ولا تَضرُّوا الله شيئاً بتولِّيكم عن الجهاد، ونُكولكم وتثاقُلكم عنه، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: قادرٌ على الانتصار على الأعداء بدونكم. وقد قيل: إن هذه الآية، وقوله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾: إنهن منسوخات بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾، روي هذا عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، وردَّه ابن جرير وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد، فتعيَّن عليهم ذلك، فلو تركوه لعوقبوا عليه، وهذا له اتجاه، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾، أي: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾، أي: عام الهجرة، لما هَمَّ المشركون بقتله أو حبسه أو نَفْيه، فخرج منهم هارباً صحبة صدّيقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطَّلَبُ الذين خرجوا في آثارهم. ثم يَسير نحو المدينة، فجعل أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يجزع أن يَطّلع عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ منهم أذى، فجعل النبي ﷺ يسكّنه ويثبّته ويقول: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

[٣٥٣٨] كما قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا هَمّام، أنبأنا ثابت، عن أنس أن أبا بكر حدثه قال:

---

(١) إسناده ضعيف لضعف زياد الجصاص، وتقدم في سورة البقرة.

قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أنَّ أحدَهم نظر إلى قَدَميه لأبصَرنا تحت قدَميه. قال: فقال: «يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثُهما»[١]. أخرجاه في الصحيحين. ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾، أي: تأييده ونصره عليه، أي على الرسول في أشهر القولين. وقيل: على أبي بكر. ورُوي عن ابن عباس وغيره، قالوا: لأن الرسولَ لم تزل معه سكينةٌ. وهذا لا ينافي تَجدُّدَ سكينةٍ خاصَّةٍ بتلك الحال، ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾، أي: الملائكة، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾. قال ابن عباس: يعني بـ ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: الشرك، ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ هي: لا إله إلا الله.

[٣٥٣٩] وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً، ويقاتل حَميَّة، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله»[٢]. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾، أي: في انتقامه وانتصاره، منيع الجَناب، لا يُضام من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

قال سفيان الثوريُّ، عن أبيه، عن أبي الضُّحى مسلم بن صَبِيح: هذه الآية: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أوَّلُ ما نزلَ من سورة براءةَ. وقال معتمر بن سليمان، عن أبيه قال: زعم حَضرميّ أنه ذكر له أن ناساً كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلاً أو كبيراً، فيقول: إني لا آثم، فأنزل الله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾... الآية. أمر الله تعالى بالنفير العام مع الرسول ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ عام غزوة تبوك، لقتال أعداءِ الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحَتَّم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المَنشَط والمَكْرَه، والعسر واليسر، فقال: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وقال علي بن زيد، عن أنس، عن أبي طلحة: كُهُولاً وشَبَاباً، ما أسمع الله عَذَر أحداً. ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قُتِل. وفي رواية: قرأ أبو طلحة سورة براءة، فأتى على هذا الآية: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فقال: أرى رَبَّنا يستنفرنا شيوخاً وشَباباً، جَهِّزُوني يا بَنيّ. فقال بَنُوه: يرحَمُك الله! قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى ماتَ، فنحن نغزو عنك. فأبى، فَرَكِبَ البحر فمات، فلم يجدوا له جَزيرَةً يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يَتَغيَّر، فدفنوه بها. وهكذا رُوِي عن ابن عباس، وعكرمة، وأبي صالح، والحسن البصري، وشِمْر بن عَطِيَّة، ومُقاتل بن حَيَّان، والشعبي، وزيد بن أسلم: أنهم قالوا في تفسير هذه الآية: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، قالوا: كهولاً وشباباً. وكذا قال عكرمة، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغير واحد. وقال مجاهد: شباباً وشيوخاً، وأغنياء ومساكين. وكذا قال أبو صالح، وغيره. وقال الحكم بن عُتَيبَةَ: مشاغيل وغير مشاغيل. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، يقول: انفروا نِشاطاً وغير نِشاطٍ.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٦٥٣ و٣٩٢٢ و٤٦٦٣، ومسلم ٢٣٨١، والترمذي ٣٠٩٦، وأحمد ١/ ٤.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٣ و٢٨١٠ و٣١٢٦ و٧٤٥٨، ومسلم ١٩٠٤، وأبو داود ٢٥١٧، والترمذي ١٦٤٦، والنسائي ٢٣١٦، وابن ماجه ٢٧٨٣، وأحمد ٤/ ٣٩٢ و٣٩٧ و٤٠٢ و٤٠٥ و٤١٧.

وكذا قال قتادة. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، قالوا: فإن فينا الثقيل، وذا الحاجة والضيعة والشغل، والمتيسر به أمره؟ فأنزل الله وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ وعلى ما كان منهم. وقال الحسن بن أبي الحسن البصري أيضاً: في العسر واليسر. وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الإمام أبو عَمرو الأوزاعيُّ: إذا كان النفير إلى دُروب الروم نَفَر الناس إليها خفافاً وركباناً، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافاً وثقالاً، ركباناً ومشاة. وهذا تفصيل في المسألة. وقد رُوي عن ابن عباس، ومحمد بن كعب، وعطاء الخراساني وغيرهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله. وقال السُّدِّي قوله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، يقول: غنياً وفقيراً، وقوياً وضعيفاً. فجاءه رجل يومئذٍ ـ زعموا أنه المقداد ـ وكان عظيماً سميناً، فشكا إليه وسأله أن يأذن له، فأبى. فنزلت يومئذٍ: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس شأنها، فنسخها الله تعالى، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١]. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب، عن محمد قال: شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدراً ثم لم يتخلف عن غَزاة للمسلمين إلا وهو في آخرين إلا عاماً واحداً قال: وكان أبو أيوب يقول: قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً.

وقال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرة السَّكُونيُّ، حدثنا بقيَّة، حدثنا حَريزٌ، حدثني عبد الله بن ميسرة، حدثني أبو راشد الحُبْراني قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وقد فضل عنها من عظَمه، يريد الغزو، فقلت له: لقد أعذر الله إليك. فقال: أبَتْ علينا سورة البُحُوث: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾. وبه قال حَريز: حدثني حبّان بن زيد الشرعبي قال: نَفَرنا مع صَفوان بن عمرو، وكان والياً على حمص قِبَلَ الأفسُوس، إلى الجراجمة فلقيت شيخاً كبيراً هِمّاً، وقد سقط حاجباه على عينيه، من أهل دمشق، على راحلته، فيمن أغار. فأقبلت إليه فقلت: يا عم، لقد أعذَرَ الله إليك. قال: فرفع حاجِبَيه فقال: يا ابنَ أخي، استنفرنَا الله خفافاً وثقالاً، إنه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده الله فيبقيه، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله عز وجل. ثم رَغَّب تعالى في النفقة في سبيله، وبَذْلِ المِهَج في مرضاته ومرضاة رسوله، فقال: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: هذا خيرٌ لكم في الدنيا والآخرة، ولأنكم تَغْرَمُون في النفقة قليلاً فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يَدّخر لكم من الكرامة في الآخرة.

[٣٥٤٠] كما قال النبي ﷺ: «وتَكَفَّلَ الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يُدخِلَه الجنة، أو يردَّه إلى منزله نائلاً ما نالَ من أجرٍ أو غنيمةٍ»[(١)]. ولهذا قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري ٣١٢٣ و٧٤٥٧، ومسلم ١٨٧٦ ح ١٠٤ ومالك ٢/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤ وأحمد ٢/ ٣٩٩ و٤٢٤، والنسائي ٦/ ١٦ و٨/ ١١٩ من حديث أبي هريرة.

[٣٥٤١] ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عَدِيٍّ، عن حميد، عن أَنسٍ أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال لرجل: «أَسْلِمْ». قال: أَجِدُني كارهاً. قال: «أسلم، وإن كنت كارهاً»(١).

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢)﴾

يقول تعالى موبّخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا عن النبي ﷺ بعدما استأذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾. قال ابن عباس: غنيمة قريبة. ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾، أي: قريباً أيضاً، ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾، أي: لكانوا جاؤوا معك لذلك، ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾، أي: المسافة إلى الشام، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾، أي: لكم إذا رجعتم إليهم ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، أي: لو لم تكن لنا أعذار لخرجنا معكم. قال الله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حصين بن سليمان الرازي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن مسعر، عن عَون قال: هل سَمِعتُم بمعاتبةٍ أحسَنَ من هذا؟ بَدَأ بالعفو قبل المعاتبة فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾؟ وكذا قال مُوَرِّقٌ العِجْلي وغيره. وقال قتادةُ: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخَّصَ له في أن يأذن لهم إن شاء فقال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ الآية. وكذا رُوي عن عطاء الخراساني. وقال مجاهد: نَزلت هذه الآية في أُناس قالوا: استأذنوا رسول الله فإن أذنَ لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا. ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾، أي: في إبداء الأعذار، ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾، يقول تعالى: هَلاَّ تَرَكتهم لما استأذنوك، فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادقَ منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مُصِرِّين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه. ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾، أي: في القعود عن الغزو ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، لأن أولئك يَرَون الجهاد قُربَةً، ولما نَدَبهم إليه بَادَروا وامتثلوا، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾، أي: في القعود ممن لا عذر له ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، أي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم، ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: شَكَّتْ في صِحَّة ما جِئتَهم به، ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾، أي: يتحيرون، يُقَدِّمون رِجلاً ويؤخرون أخرى، وليست لهم قَدَم ثابتة في شيء، فهم قوم حَيارى هَلْكى، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ١٠٩ و١٨١ وأبو يعلى ٣٧٦٥، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٥/ ٣٠٥ وقال: رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾، أي: معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾، أي: لكانوا تأهبوا له، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾، أي: أبغض أن يخرجوا معك قدراً، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾، أي أخرهم، ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾، أي: قدراً. ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، أي: لأنهم جبناء مخذولون، ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾، أي: ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾، أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شرٍّ بين المؤمنين وفساد كبير. وقال مجاهد، وزيد بن أسلم، وابن جرير: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾، أي: عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم. وهذا لا يبقى له اختصاص لخروجهم معهم، بل هذا عام في جميع الأحوال، والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

وقال محمد بن إسحاق: كان ـ فيما بلغني ـ من استأذن من ذوي الشرف منهم: عبد الله بن أُبيّ بن سلول والجدُّ بن قيس، وكانوا أشرافاً في قومهم، فثبّطهم الله، لعلمه بهم، أن يخرجوا معه، فيفسدوا عليه جنده. وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم، فقال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾. ثم أخبر تعالى عن تَمام علمه فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فأخبر بأنه يعلَمُ ما كان، وما يكون، وما لم يكن ـ لو كان كيف كان يكون. ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٦٨]، والآياتُ في هذا كثيرةٌ.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى مُحرِّضاً لنبيه ـ عليه السلام ـ على المنافقين: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾، أي: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخِذْلانِ دينك وإخماده مدّة طويلة، وذلك أول مَقْدَم النبي ﷺ المدينة، رَمَتْه العرب عن قَوْسٍ واحدةٍ، وحاربته يهودُ المدينة ومنافقوها، فلمّا نَصَره الله يومَ بدرٍ وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبيٍّ وأصحابه: هذا أمر قد توَجّه. فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كُلّما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)﴾

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: ﴿ائْذَن لِّي﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ بالخروج معك، بسبب الجواري من نساء الروم، قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾، أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا.

[٣٥٤٢] كما قال محمد بن إسحاقَ، عن الزُّهري، ويزيد بن رُومانَ، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عُمَر بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسولُ الله ﷺ ذاتَ يوم، وهو في جهازِهِ، للجَدِّ بن قيس أخي بني سَلِمَةَ: «هل لك يا جَدُّ العامَ في جِلادَ بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله، أو تأذنُ لي ولا تَفْتنِّي، فوالله لقد عَرَف قومي ما رجلٌ أشدُّ عجباً بالنساء مِنّي، وإني أخشى إن رأيتُ نساءَ بني الأصفرِ ألاَّ أَصْبِرَ عنهنَّ. فأعرضَ عنه رسولُ الله ﷺ وقال: «قد أذِنْتُ لك». ففي الجَدِّ بن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾. . . الآية، أي: إن كان إنما يخشَى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلُّفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم[1]. وهكذا رُوِي عن ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: أنها نزلت في الجَدِّ بن قيس، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سَلِمة.

[٣٥٤٣] وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لهم: «من سيدكم يا بني سَلِمَةَ؟» قالوا: الجَدُّ بن قيس، على أنا نُبَخِّلُهُ. فقال رسول الله ﷺ: وأيُّ داءٍ أدوَأُ من البخل؟! ولكن سَيّدكم الفتى الأبيض الجَعْدُ، بشرُ بن البراء بن مَعْرُورٍ»[2]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، أي: لا مَحيد لهم عنها، ولا مَحيص، ولا مَهرب.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)﴾

يُعلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء له، لأنه مهما أصابه من حسنة، أي: فتح ونصر وظفر على الأعداء، مما يَسُره ويَسُرّ أصحابه، ساءهم ذلك، ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾، أي: قد احترزنا من متابعته من قبل هذا، ﴿وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾. فأرشد الله تعالى رسوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة. فقال: ﴿قُل﴾، أي: لهم ﴿لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، أي: نحن تحت مشيئة الله وقدره، ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾، أي: سيدنا وملجؤنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٦٨٠٣، وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٥١٦/٤ عن غير واحد من التابعين، وله شواهد مرسلة أخر يتأيد بها.

(٢) الحديث ليس في الصحيح، إنما أخرجه الطبراني في الكبير ١٩/ ١٦٣ و١٦٤ من حديث كعب بن مالك وقال الهيثمي في المجمع ٩/ ٣١٥ رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح غير شيخي الطبراني ولم أر من ضعفهما. وله شواهد وطرق، راجع «الإصابة» ١/ ١٥٠/ ٦٥٤، فهو حسن.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا مُحمَّدُ: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ أي: تنتظرون بنا ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾: شهادة أو ظَفرٌ بكم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادةُ، وغيرهم. ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾، أي: ننتظر بكم هذا أو هذا، إما أن يصيبكم الله بقارعةٍ من عنده أو بأيدينا، بقتل أو بسبْيٍ، ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾. وقوله: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، أي: مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾. ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يُتقَبَّل منهم، لأنهم ﴿كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾، أي قد كفروا، والأعمال إنما تصح بالإيمان، ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾، أي: ليس لهم قصد صحيح، ولا همة في العمل، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ نفقة ﴿إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾.

[٣٥٤٤] وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ، أن الله لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا، وأنه طيب لا يقبل إلاّ طيباً»[١]. فلهذا لا يتقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً، لأنه إنما يتقبل من المتقين.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يقولُ تعالى لرسوله ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طـه: ١٣١]، وقال ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦]. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قال الحسن البصري: بزكاتها، والنفقة منها في سبيل الله. وقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: فلا تُعجِبْك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يُريدُ الله لِيعذِّبَهم بها في الآخرة. واختار ابنُ جرير قولَ الحسن، وهو القولُ القويُّ الحَسَنُ. وقوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾، أي: ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم، عياذاً بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يخبر تعالى نبيه ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ عن جَزَعهم وفزعهم وفَرَقهم وهَلَعهم أنهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾، يميناً مؤكدة، ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾، أي: في نفس الأمر، ﴿وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾، أي: فهو الذي حملهم على الحلف. ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾، أي: حِصْناً يتحصَّنُون به. وحِرزاً يحترزُون به، ﴿أَوْ

---

(١) متفق عليه، وتقدم.

مَغَٰرَٰتٍ﴾، وهي التي في الجبال، ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾، وهو السَّرَب في الأرض والنفَق. قال ذلك في الثلاثة ابنُ عباس، ومجاهد، وقتادة ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾، أي: يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام، ولهذا لا يزالون في همٍّ وحزن وغَمّ، لأن الإسلامَ وأهلَه لا يزال في عزٍ ونصر ورفعة، فلهذا كلما سُرَّ المؤمنون ساءهم ذلك، فهم يَوَدُّون ألا يخالطوا المؤمنين، ولهذا قال: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُم﴾، أي: ومن المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾، أي: يَعِيبُ عليك ﴿فِي﴾ قَسْم ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ إذا فرقتها، ويَتَّهِمُكَ في ذلك، وهم المتَّهَمُون المأبونُون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظِّ أنفسهم، ولهذا إن أُعطوا من الزكاة رضوا، ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي: يغضبون لأنفسهم.

[٣٥٤٥] قال ابن جُرَيج: أخبرني داود بن أبي عاصم قال: أُتي النبي ﷺ بصدقة فقسمها ها هنا وها هنا حتى ذهبت. قال: ووراءه رجل من الأنصار فقال: ما هذا بالعدل! فنزلت هذه الآية[1].

[٣٥٤٦] وقال قتادة في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، يقول: ومنهم من يطعن عليك في الصدقات. وذُكر لنا أن رجلاً من البادية حديثَ عهدٍ بأعرابية، أتى رسول الله ﷺ وهو يقسم ذهباً وفضة، فقال: يا محمد، والله لئن كان الله أمرك أن تعدل، ما عدلت. فقال نبي الله ﷺ: «ويلك. فمن ذا يعدل عليك بعدي؟!» ثم قال نبي الله: «احذروا هذا وأشباهه فإن في أمتي أشباه هذا، يقرؤون القرآن لا يجاوز تَرَاقيهم، فإذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم»، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم». وذُكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «والذي نفسي بيده، ما أعطيكم شيئاً ولا أمنعكموه، إنما أنا خازن».

[٣٥٤٧] وهذا الذي ذكره قتادة شبيهٌ بما رواه الشيخان من حديث الزهري، عن أبي سَلَمة، عن أبي سعيد في قصة ذي الخُوَيصرة ـ واسمه حُرْقُوصٌ ـ لما اعترض على النبي ﷺ حين قَسَم غَنَائم حنين، فقال له: اعدِلْ، فإنك لم تَعْدِلْ. فقال: «لقد خِبْتُ وخَسِرْتُ إن لم أكن أعدِلْ». ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مُقَفِّياً: «إنه يخرج من ضِئْضِئِ هذا قوم يَحقِرُ أحدُكم صلاته مع صلاتِهم، وصيامَه مع صيامِهم، يمرقُون من الدين مُرُوق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتُلوهم، فإنهم شرّ قتلى تحتَ أديم السماء»[2]. . . وذكر بقية الحديث. ثم قال تعالى مُنبهاً لهم على ما هو خَيْرٌ من ذلك لهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ فتضمنت هذه الآيةُ الكريمةُ أدباً عظيماً وسرّاً شريفاً، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده، وهو قوله: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾. وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتثال أوامره، وترك زواجره، وتصديق أخباره، والاقتفاء بآثاره.

---

(١) هذا مرسل، وكذا ما بعده.

(٢) أخرجه البخاري ٣٦١٠ و٦١٦٣ و٦٩٣٣ ومسلم ١٠٦٤ ح ١٤٨، وأحمد ٣/٥٦ و٦٥ دون لفظ «فإنهم شر قتلى...» وتقدم مستوفياً.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾

لما ذكر تعالى اعتراضَ المنافقين الجَهَلةِ على النبي ﷺ وَلَمْزِهِمْ إياه في قَسْم الصدقات، بَيَّن تعالى أنه هو الذي قَسَمها وبيَّن حكمها، وتولَّى أمرها بنفسه، ولم يَكِلْ قَسْمِها إلى أحدٍ غيره، فجزَّأها لهؤلاء المذكورين.

[٣٥٤٨] رواه الإمام أبو داود في سننه من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أَنْعُم ـ وفيه ضعف ـ عن زياد بن نُعَيم، عن زياد بن الحارث الصُّدائي ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيت النبيَّ ﷺ فبايعته، فأتى رجل فقال: أعطني من الصدقة فقال له: «إن الله لم يَرْضَ بحكم نبيٍ ولا غيرِه في الصدقات حتى حَكم فيها هو، فَجَزَّأها ثمانية أصناف، فإن كنت من تلك الأجزاءِ أعطيتُك»[١].

وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية: هل يجب استيعاب الدفع إليها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين:

أحدهما: أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعي وجماعة.

والثاني؛ أنه لا يجب استيعابها، بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويُعطى جميعَ الصدقة مع وجود الباقين. وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف، منهم: عمر، وحذيفة، وابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبير، وميمون بن مهران. قال ابن جرير: وهو قولُ عامَّة أهل العلم، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف ها هنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعاب الإعطاء. ولوجوه الحجاج والمآخذ مكان غير هذا، والله أعلم. وإنما قَدَّم الفقراء ها هنا لأنهم أحوجُ من البقية على المشهور، لشدَّة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير، وهو كما قال، قال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، أنبأنا ابن عون، عن محمد قال: قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: الفقير ليس بالذي لا مال له، ولكن الفقير الأخلق الكسب. قال ابن علية: الأَخْلَق: المحارَفُ عندنا. والجمهورُ على خلافه. ورُوي عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن البصري، وابن زيد. واختار ابنُ جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفِّفُ الذي لا يسألُ الناسَ شيئاً، والمسكينُ هو الذي يسألُ ويطوفُ ويتّبع الناس. وقال قتادةُ: الفقير من به زَمَانةٌ، والمسكين الصحيحُ الجسم. وقال الثوريُّ، عن منصور، عن إبراهيم: هم فقراء المهاجرين. قال سفيان الثوري: يعني ولا يُعطَى الأعرابُ منها شيئاً. وكذا رُوِيَ عن سعيد بن جُبَير، وسعيد بن عبد الرحمن بن أَبْزَى.

وقال عكرمة: لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين، وإنما المساكين مساكين أهل الكتاب. ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية: فأما الفقراء:

[٣٥٤٩] فعن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغنيّ ولا لذي مِرّة سَوِيّ»[٢]. رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي. ولأحمدَ أيضاً، والنسائي، وابن ماجه عن أبي هريرة، مثله.

---

(١) أخرجه أبو داود ١٦٣٠، وفي إسناده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي ضعيف الحديث.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ١٦٤ و١٩٢، وأبو داود ١٦٣٤، والترمذي ٦٥٢، والدارمي ١/ ٣٨٦ والحاكم ١/ ٤٠٧ من حديث عبد الله بن عمرو؛ وقال الترمذي: حديث حسن، وأخرجه من حديث أبي هريرة أحمد ٢/ ٣٧٧ و٣٨٩ والنسائي ٥/ ٩٩، وابن ماجه ١٨٣٩، والدارقطني ٢/ ١١٨ وصححه ابن حبان ٨٠٦ (موارد).

[٣٥٥٠] وعن عبيد الله بن عَدِيّ بن الخيار: أن رجلين أخبراه: أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة، فقلَّبَ فيهما البصَرَ، فرآهما جَلْدَين. فقال: «إن شئتما أعطيتُكما، ولا حَظَّ فيها لغني ولا لقوي مكتسب»[١]. رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي بإسناد جيد قوي.

وقال ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل: أبو بكر العَبْسي[٢] قال: قرأ عمر ـ رضي الله عنه ـ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾، قال: هم أهل الكتاب، روى عنه عمر بن نافع، سمعت أبي يقول ذلك[٣]. (قلت): وهذا قول غريب جداً بتقدير صحة الإسناد، فإن أبا بكر هذا، وإن لم ينص أبو حاتم على جهالته، لكنه في حكم المجهول. وأما المساكين:

[٣٥٥١] فعن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكينُ بهذا الطّواف الذي يَطُوف على الناس، فَتَردُّه اللقمةُ واللقمتان، والتمرةُ والتمرتان». قالوا: فما المسكين يا رسولَ الله؟ قال: «الذي لا يَجدُ غِنى يُغْنِيه، ولا يُفْطَنُ له فَيُتَصَدَّقُ عليه، ولا يسأل الناسَ شيئاً»[٤]. رواه الشيخان البخاريّ ومسلم. وأما العامِلون عليها فهم الجباة والسّعاة يستحقون منها قسطاً على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة.

[٣٥٥٢] ثبت في صحيح مسلم، عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث: أنه انطلق هو والفضلُ بن عباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إنَّ الصدقَةَ لا تحِلُّ لمحمدٍ ولا لآلِ مُحمَّدٍ، إنما هي أوساخُ الناس»[٥]. وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام: منهم من يعطى ليُسلم، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حُنَين، وقد كان شهدها مشركاً، قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحبَّ الناس إليّ بعد أن كان أبغضَ الناس إليّ.

[٣٥٥٣] قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عديّ، أخبرنا ابنُ المبارَكِ، عن يونُسَ، عن الزهريِّ، عن سعيد بن المسيِّب، عن صفوانَ بن أميَّةَ قال: أعطاني رسولُ الله ﷺ يوم حُنَين، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما زال يعطِيني حتى إنه لأحبُّ الناس إليّ[٦]. ورواه مسلم والترمذيّ، من حديث يونس، عن الزهري، به. ومنهم من يُعطَى ليحسُن إسلامه، ويثبتَ قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم: مئة من الإبل، مئة من الإبل.

---

(١) إسناده جيد كما قال المصنف، وتقدم.

(٢) كذا وقع في الأصول، وفي «الجرح والتعديل»، ووقع في «التهذيب» و«التقريب» العنسي.

(٣) لا يصح هذا الأثر عن عمر. فأبو بكر العبسي مجهول، لم يروِ عنه سوى عمر بن نافع الثقفي.
وله علة ثانية: الراوي عنه عمر بن نافع ضعفه يحيى، ووثقه ابن حبان، وذكره الساجي وابن الجارود في الضعفاء، فلا يقبل توثيق ابن حبان له بمخالفته من هو أرجح منه.

(٤) أخرجه البخاري ١٤٧٦ و٤٥٣٩ ومسلم ١٠٣٩ ح ١٠٢، وأبو داود ١٦٣١، والنسائي ٥/ ٨٤ ـ ٨٥، وأحمد ٢/ ٣٩٥ و٤٥٧ و٤٩٣ من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه مسلم ١٠٧٢ و١٠٧٣، وأبو داود ٢٩٨٥، والنسائي ٥/ ١٠٥، وأبو عبيد ٨٤١، والطحاوي ١/ ٢٩٩، والبيهقي ٧/ ٣١، وأحمد ٤/ ١٦٦ عن المطلب بن ربيعة بن الحارث.

(٦) أخرجه أحمد ٣/ ٤٠١ و٦/ ٤٦٥ ومسلم ٢٣١٣، والترمذي ٦٦٦.

[٣٥٥٤] وقال: «إني لأعطِي الرجلَ وغيرُه أحبُّ إليَّ منه، خَشية أن يَكُبَّه الله على وجهه في نار جَهَنَّم»[(١)].

[٣٥٥٥] وفي الصحيحين عن أبي سعيد: أن علياً بعث إلى النبي ﷺ بِذُهَيْبَةٍ في تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعُيَينة بن بدر، وعلقمة بن عُلاثة، وزَيدِ الخير، وقال: «أتألفهم»[(٢)]. ومنهم من يُعطَى لما يرجى من إسلام نظرائه. ومنهم من يُعطَى ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حَوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد. ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم.

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي ﷺ؟ فيه خلاف، فرُوي عن عُمَر، وعامر الشَّعبي وجماعة: أنهم لا يُعطَون بعده، لأن الله قد أعز الإسلام وأهله، ومَكَّن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد. وقال آخرون: بل يعطَون؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هَوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليه. وأما الرقاب: فرُوِيَ عن الحسن البصريِّ، ومُقاتل بن حَيّان، وعُمَر بن عبد العزيز، وسعيد بن جُبَير، والنخَعي، والزهريّ، وابن زيد: أنهم المكاتَبُون، ورُوِي عن أبي موسى الأشعريِّ نحوه، وهو قولُ الشافعي والليث. وقال ابن عباس، والحسن: لا بأس أن تُعتَقَ الرقبةُ من الزكاة، وهو مذهبُ الإمام أحمدَ بن حنبل، ومالك، وإسحاق، أي: إن الرقابَ أعمُّ من أن يُعطِيَ المكاتَبُ، أو يشتري رقبةً فيعتقها استقلالاً. وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وإن الله يَعْتقُ بكل عضو منها عضواً من مُعتقها حتى الفَرْج بالفرج، وما ذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل، ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الصافات: ٣٩].

[٣٥٥٦] وعن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة حَقٌّ على الله عَوْنَهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتَبُ الذي يريد الأداءَ، والناكحُ الذي يُرِيد العفافَ»[(٣)]. رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود.

[٣٥٥٧] وفي المسند عن البراء بن عازب قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، دُلَّني على عَمَل يُقَرِّبُني من الجنَّة ويباعدني عن النار. فقال: «أعتِقِ النسَمة وفُكَّ الرقبةَ». فقال: يا رسولَ الله، أوَليسا واحداً؟ قال: «لا، عِتقُ النَّسمةِ أن تُفرَد بعتقها، وفك الرقبة أن تُعِينَ في ثمنها»[(٤)]. وأما الغارمون، فهم أقسام: فمنهم من تَحمَّل حَمَالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله، أو غرم في أداء دينه أو معصية ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم.

[٣٥٥٨] والأصل في هذا الباب حديث قَبِيصةَ بن مُخَارِقٍ الهلاليِّ قال: تَحمَّلتُ حَمَالةً، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدَقةُ، فنأمر لك بها». قال: ثم قال: «يا قبيصة، إن المسألة لا

(١) أخرجه البخاري ٢٧ و١٤٧٨ ومسلم ١٥٠ وأبو داود ٤٦٨٣ و٤٦٨٤ و٤٦٨٥ والنسائي ٨/١٠٣ و١٠٤، وأحمد ١/١٧٦ من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٢) هو بعض حديث أخرجه البخاري ٣٣٤٤ ومسلم ١٦٤ ح ١٤٤، وأحمد ٣/٧٣، وأبو داود ٤٧٦٤ والنسائي ٧/١١٨ و٥/ ٨٧ وأبو يعلى ١١٦٣.

(٣) أخرجه أحمد ٢/٢٥١ و٣٤٧ والترمذي ١٦٥٥، والنسائي ٦/ ٦١، وابن ماجه ٢٥١٨ وابن حبان ٤٠٣٠ والحاكم ٢/ ١٦٠ و٢١٧ وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وقال الترمذي هذا حديث حسن.

(٤) أخرجه أحمد ٤/٢٩٩، والطيالسي ٧٣٩ والبيهقي ١٠/ ٢٧٢، ٢٧٣، وصححه ابن حبان برقم ٣٧٤ وقال الهيثمي في المجمع ٤/ ٢٤٠: رواه أحمد ورجاله ثقات.

تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة فحلّت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك. ورجل أصابته جائحةٌ اجتاحت ماله، فَحلّت له المسألة حتى يُصِيب قِوَاماً من عيش ـ أو قال: سِدَاداً من عيش ـ ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه، فيقولون: لقد أصابت فلاناً فاقةٌ فحلّتْ له المسألة، حتى يصيب قُواماً من عيش ـ أو قال: سَدَاداً من عيش ـ فما سواهُنّ من المسألة سُحتٌ يأكلها صاحبُها سُحتاً»[١]. رواه مسلم.

[٣٥٥٩] وعن أبي سعيد قال: أصيب رجلٌ في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها، فَكَثُر دَينُه، فقال النبي ﷺ: «تَصَدَّقُوا عليه». فَتَصدَّق الناسُ، فلم يبلغ ذلك وفاءَ دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم، وليس لكم إلا ذلك»[٢]. رواه مسلم.

[٣٥٦٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبدُ الصمد، أنبأنا صَدَقة بن موسى، عن أبي عمران الجَوْني، عن قيس بن زيد، عن قاضي المصْرين[٣]، عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعو الله بصاحب الدَّين يوم القيامة حتى يُوقَفَ بين يديه، فيقول: يا ابن آدم، فيم أخذتَ هذا الدَّين؟ وفيم ضَيَّعت حقوقَ الناس؟ فيقول: يا رب، إنك تعلَمُ أني أخذتُه فلم آكل ولم أشرب ولم أضيِّع، ولكن أتى على يدي إما حَرَق وإما سَرَق وإما وَضِيعة. فيقول: الله: صدق عبدي، أنا أحق من قضى عنك اليومَ، فيدعو الله بشيء فيضعه في كِفّة ميزانه، فترجحَ حسناتُه على سيئاته، فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته»[٤]. وأما في سبيل الله: فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان، وعند الإمام أحمد، والحسن، وإسحاق: «والحج من سبيل الله» للحديث. وكذلك ابن السبيل: وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعينُ به على سفره، فَيُعطَى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال. هكذا الحكمُ فيمن أراد إنشاءَ سفر من بلده وليس معه شيءٌ، فَيُعطَى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه. والدليل على ذلك: الآية، وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه من حديث معمر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال:

[٣٥٦١] قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغنيّ إلا لخمسة: العامل عليها، أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غازٍ في سبيل الله، أو مسكين تُصَدِّق عليه منها فأهدى لغني»[٥]. وقد رواه السفيانان، عن زيد بن أسلم، عن عطاء مرسلاً.

[٣٥٦٢] ولأبي داود عن عَطِيّة العَوفي، عن أبي سعيد الخُدْري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل

---

(١) أخرجه مسلم ١٠٤٤، والطيالسي ١٣٢٧، وابن أبي شيبة ٣/ ٢١٠ ـ ٢١١، وأبو داود ١٦٤٠ والنسائي ٥/ ٨٨ ـ ٨٩ والدارمي ١/ ٣٩٦ من حديث قبيصة بن مخارق الهلالي.

(٢) أخرجه مسلم ١٥٥٦ ح ١٨، وأبو داود ٣٤٦٩، والترمذي ٦٥٥، والنسائي ٧/ ٢٦٥ و٣١٢، وابن ماجه ٢٣٥٦، وأحمد ٣/ ٣٦ و٥٨ من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) هو شريح القاضي، كما بينه أحمد في روايته الأولى. قال والمصران: البصرة والكوفة.

(٤) أخرجه أحمد ١/ ١٩٧ ـ ١٩٨ ح ١٧٠٩ و١٧١٠ والبزار ١٣٣٢، وقال الهيثمي في «المجمع» ٦٦٦٢: فيه صدقة الدقيقي وثقه مسلم بن إبراهيم، وضعفه جماعة اهـ. وجاء في الميزان ٣٨٧٩: ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه، وليس بقوي اهـ. وفيه قيس بن زيد. قال الذهبي في «الميزان» ٦٩١٣: قال الأزدي: ليس بالقوي اهـ فالخبر غير قوي، والله أعلم.

(٥) إسناده قوي، ويشهد له حديث أبي سعيد الآتي، وانظر جامع الأصول ٢٧٥٧.

الصدقة لغني إلا في سبيل الله، وابن السبيل، أو جار فقير فيُهدي لك أو يدعوك»[١]. وقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: حكماً مقدراً بتقدير الله وفَرْضهِ وقَسْمه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي. عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله ويقوله ويشرعه ويحكم به، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذُون رسولَ الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾، أي: من قال له شيئاً صَدَّقه، ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جئنا وحلفنا له صدقنا. روي معناه عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾، أي: هو أذن خير، يعرف الصادق من الكاذب، ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ويصدّق المؤمنين، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾، أي: وهو حجة على الكافرين، ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾

[٣٥٦٣] قال قتادة في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ ... الآية، قال: ذُكِرَ لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً لهم شر من الحمير. قال: فَسَمِعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحقٌّ، ولأنت أشرُّ من الحمار. قال: فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «ما حملك على الذي قُلتَ؟» فجعل يلتعن، ويحلف بالله ما قال ذلك. وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صَدِّق الصادِقَ وكَذِّب الكاذِبَ. فأنزل الله عزّ وجل: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾، أي: ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حادّ الله، أي: شاقه وحاربه وخالفه، وكان في حَدّ والله ورسوله في حدّ ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾، أي مهاناً معذباً، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾، أي: وهذا هو الذل العظيم، والشقاء الكبير.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألاّ يفشي علينا سرنا هذا. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨]. وقال في هذه الآية: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾، أي: إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين له أمركم كما قال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه أحمد ٣/٣١، وأبو داود ١٦٣٧، وابن أبي شيبة ٣/٢١٠، والبيهقي ٧/٢٣ من حديث أبي سعيد الخدري. وإسناده ضعيف لأجل عطية العوفي، لكن يشهد له الحديث الذي قبله.

(٢) أخرجه الطبري ١٦٩٢٢ عن قتادة مرسلاً، والمرسل من قسم الضعيف، والله أعلم.

أَضْغَنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩ ـ ٣٠]. ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة «الفاضحة»: فاضحةَ المنافقين.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

[٣٥٦٤] قال أبو معشر المدينيُّ، عن محمد بن كعب القُرَظي وغيره قالوا: قال رجلٌ من المنافقين: ما أرى قُرّاءنا هؤلاء إلا أرغبنا بُطوناً، وأكذبنا ألسنةً، وأجبننا عند اللقاءِ. فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء إلى رسول الله وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوضُ ونلعبُ. قال: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مُجْرِمِينَ﴾ وإن رجليه لتنسفان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بِنسْعَة[1] رسول الله ﷺ[2].

[٣٥٦٥] وقال عبد الله بن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلَمَ، عن عبد الله بن عُمَر قال: قال رجلٌ في غزوةِ تَبُوكَ في مجلسٍ يوماً: ما رأيتُ مثل قُرّائِنا هؤلاء، أرغبَ بطوناً، ولا أكذَب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المسجد: كذبتَ، ولكنَّكَ منافق. لأخْبِرَنَّ رسول الله ﷺ، فبلَغَ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عُمَر: وأنا رأيتُه متعلقاً بِحَقَبِ ناقةِ رسول الله ﷺ تنكبُهُ الحجارةُ وهو يقول: يا رسولَ الله، إنما كنا نخوضُ ونلعَبُ. ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[3] الآية. وقد رواه الليث، عن هشام بن سعد، بنحو من هذا.

[٣٥٦٦] وقال ابن إسحاق: وقد كان جماعةٌ من المنافقين منهم وديعَة بن ثابت، أخو بني أمية بن زيد، من بني عمرو بن عوف، ورجل من أشجَعَ حَليفٌ لبني سَلِمَةَ يقال له: مخشى[4] بن حُمَيّر يُشِيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنا بكم غداً مُقَرّنين في الحبال. إرجافاً وترهيباً للمؤمنين. فقال مخشى بن حُمَيّر: والله لوَدِدتُ أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مئة جلدة، وإنا نَنْفَلِتُ أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وقال رسول الله ﷺ فيما بلغني ـ لعمار بن ياسر: «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا»، فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت ـ ورسول الله ﷺ واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحَقَبِها: يا رسول الله، إنما كنا

---

(١) النِّسع: سير ينسج عريضاً على هيئة أعِنّة النعال تشدُّ به الرحال، والقطعة منه نِسْعَة.

(٢) أخرجه الطبري ١٦٩٣٢ هكذا مرسلاً، وانظر ما بعده.

(٣) أخرجه الطبري ١٦٩٢٨ بهذا الإسناد وفيه هشام بن سعد ضعفه غير واحد، وقد تابعه إسماعيل بن داود عند الواحدي ٥١٣، وإسماعيل هذا ضعيف، وأسنده الطبري ١٦٩٢٧ عن زيد بن أسلم مرسلاً، ويعتضد بالمرسل المتقدم عن محمد بن كعب، والله أعلم.

(٤) كذا وقع في «الأصل» وفي سيرة ابن هشام، وقال ابن هشام ٤/ ١٢١: ويقال «مخشي» ووقع في بعض النسخ «مخشي» وكله صحيح.

نخوض ونلعب، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾. فقال مخشى بن حُمَير: يا رسول الله، قَعَدَ بي اسمي واسمُ أبي. فكان الذي عُفِيَ عنه في هذه الآية مخشى بن حُمَيِّر، فتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يُقتل شهيداً لا يُعْلَم بمكانه، فقُتِل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر[١].

[٣٥٦٧] وقال قتادة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، قال: بينا رسولُ الله ﷺ في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها، هيهات هيهات؟! فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فقال: «عَليّ بهؤلاء النفر». فدعاهم، فقال: «قلتم كذا وكذا»؟ فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب[٢]. وقال عكرمة في تفسير هذه الآية: كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول: اللهم، إني أسمعُ آية أنا أُعنى بها، تَقْشَعِرّ منها الجلود، وتَجبُ[٣] منها القلوب، اللهم، فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك، لا يقولُ أحد: أنا غَسّلتُ، أنا كَفّنتُ، أنا دَفَنتُ. قال: فَأُصِيبَ يوم اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا وقد وُجِدَ غيره. وقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾، أي: لا يُعفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم، ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾، أي: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨)﴾

يقول تعالى منكراً على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنونَ يأمرون بالمعروف وينهَوْنَ عن المنكر، كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، أي: عن الإنفاق في سبيل الله، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: نسوا ذكر الله، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾، أي: عاملهم معاملة من نَسِيهم، كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة. وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾، أي: على هذا الصنيع الذي ذُكر عنهم، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها مخلدين، هم والكفار، ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾، أي: كفايتهم في العذاب، ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم وأبعدهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩)﴾.

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، وقوله: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾، قال الحسن البصري: بدينهم، وقوله: ﴿كَمَا

(١) أورده ابن هشام في السيرة ٤/ ١٢١ ـ ١٢٢ عن ابن إسحاق، هكذا مرسلاً.

(٢) هذا مرسل.

(٣) وجب القلب وجباً: خفق.

ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾، أي: في الكذب والباطل، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾، أي: بطلت مساعيهم، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب. قال ابن جُرَيج، عن عُمَر بن عطاء، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ . . . الآية، قال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة، ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، هؤلاء بنو إسرائيل، شَبَّهَنا بهم، لا أعلم إلا أنه قال: «والذي نفسي بيده، لَتتبعُنَّهم حتى لو دخل الرجل منهم جُحر ضَبّ لدخلتموه».

[٣٥٦٨] قال ابن جُرَيج: وأخبرني زياد بن سعد، عن محمد بن زيد بن مهاجر، عن سَعِيد بن أبي سَعيدٍ المقْبُري، عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «والَّذي نفسي بيده لَتتبعنَّ سَنَنَ الذين من قبلكم، شِبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراع، وباعاً بباعٍ، حتى لو دَخلُوا جُحْرَ ضَب لَدَخلتُموه. قالوا: ومن هُمْ يا رسول الله؟ أهل الكتاب؟ قال: «فَمه»[1].

[٣٥٦٩] وهكذا رواه أبو مَعْشَر، عن سعيد المَقْبُري، عن أبي هُريرة، عن النبي ﷺ فذكره وزاد: قال أبو هُرَيرة: اقرؤوا إن شئتم القرآن: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ ـ قال أبو هُرَيرة: الخَلاقُ: الدين ـ ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾، قالوا: يا رسول الله، كما صنعت فارس والروم؟ قال: «فهل الناس إلا هم»[2]. وهذا الحديث له شاهد في الصحيح.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: ألم تُخبَروا خَبَرَ من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وما أصابهم من الغَرَقِ العامِّ لجميع أهلِ الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام، ﴿وَعَادٍ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم، لما كذبوا هوداً عليه السلام، ﴿وَثَمُودَ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً ـ عليه السلام ـ وعقروا الناقة، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلك ملكهم النمروذ بن كنعان بن كُوش الكنعاني لعنه الله، ﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب ـ عليه السلام ـ وكيف أصابتهم الرجفةُ والصيحةُ وعذابُ يوم الظلة. ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾: قوم لوط، وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾، أي: الأمة المؤتفكة، وقيل: أم قراهم، وهي «سدوم». والغرض: أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين. ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالحجج والدلائل القاطعات، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، أي: بإهلاكه إياهم، لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٤٥٦ و٧٣٢٠، ومسلم ٢٦٦٩ والطبري ١٦٩٤٧ واللفظ له.

(٢) أخرجه أحمد رقم ٨٣٢٢ (ترقيم أحمد شاكر) وابن ماجه ٣٩٩٤، وابن أبي عاصم في السنة ٧٢ من حديث أبي هريرة، وهو صحيح يشهد له حديث أبي سعيد المتقدم في الصحيحين.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

لما ذكر تعالى صفاتِ المنافقين الذميمةَ، عَطَفَ بذكر صفات المؤمنين المحمودةَ، فقال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، أي: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الصحيح:

[٣٥٧٠] «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً»، وشبك بين أصابعه[١].

[٣٥٧١] وفي الصحيح أيضاً: «مثل المؤمنين في تَوَادِّهم وتراحمهم، كمثلِ الجَسَدِ الواحِدِ، إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسَّهَر»[٢]. وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]. قولُه تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه، ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، أي: فيما أمر، وترك ما عنه زجر، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: سيرحَم الله من اتَّصف بهذه الصفات، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: ﴿عَزِيزٌ﴾ من أطاعه أعزَه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله، تبارك وتعالى.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين فيها أبداً، ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾، أي: حسنة البناء، طيبة القرار.

[٣٥٧٢] كما جاء في الصحيحين من حديث أبي عمران الجَوْني، عن أبي بكر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذَهَبٍ آنيتُهما وما فيهما، وجنتان من فِضَّةٍ آنيتُهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكبرياءِ على وجهه في جنة عَدْن»[٣].

[٣٥٧٣] وبه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤةٍ واحدةٍ مُجوَّفةٍ، طولُها ستون ميلاً في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوفُ عليهم، لا يرى بعضُهم بعضاً»[٤]. أخرجاه.

[٣٥٧٤] وفي الصحيحين أيضاً، عن أبي هُرَيرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصامَ رمضان، فإنَّ حقاً على الله أن يُدخِلَه الجنةَ، هاجر في سبيل الله، أو جَلَس في أرضِه التي ولد

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٤٦ ومسلم ٢٥٨٥، والترمذي ١٩٢٨، والنسائي ٥/ ٧٩، وابن أبي شيبة ١١/ ٢٢، وأحمد ٤/ ٤٠٤ - ٤٠٥ من حديث أبي موسى الأشعري.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠١١، ومسلم ٢٥٨٦، وأحمد ٤/ ٢٧٠، والحميدي ٩١٩، والطيالسي ٧٩٠ من حديث النعمان بن بشير.

(٣) أخرجه البخاري ٤٨٧٨ ومسلم ١٨٠، والترمذي ٢٥٢٨، وابن ماجه ١٨٦، وأحمد ٤/ ٤١١.

(٤) أخرجه البخاري ٤٨٧٩ ومسلم ١٨٠.

فيها». قالوا: يا رسول الله، أفلا نُخبرُ الناسَ؟ قال: «إن في الجنة مئة درجةٍ، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفِرْدَوسَ، فإنه أعلى الجنةِ وأوسطُ الجنةِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنةِ، وفوقَه عرشُ الرَّحمنِ»[١].

[٣٥٧٥] وعند الطبراني والترمذي وابن ماجه، من رواية زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول... فذكر مثله[٢]. وللترمذي، عن عبادة بن الصامت، مثله[٣].

[٣٥٧٦] وعن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون الغُرفة في الجنة، كما تراءون الكوكب في السماء»[٤]. أخرجاه في الصحيحين. ثم ليعلم أن أعلى منزلةٍ في الجنة مكان يقال له: الوسيلة لقربه من العرش، وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة.

[٣٥٧٧] كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن ليث، عن كعب، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليتم عليّ فسلوا الله لي الوسيلة». قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: «أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو»[٥].

[٣٥٧٨] وفي صحيح مسلم، من حديث كعب بن علقمةَ، عن عبد الرحمن بن جُبَير، عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سَمِعتُمْ المؤذِّن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليّ، فإنَّه من صلَّى عليَّ صلاةً صلَّى الله عليه بها عشراً، ثم سَلُوا لي الوسيلةَ، فإنها منزلة في الجنة لا تَنْبَغي إلا لعبد من عباد الله. وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة يوم القيامة»[٦].

[٣٥٧٩] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن علي الأبار، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني، حدثنا موسى بن أعين، عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «سَلُو الله لي الوسيلة، فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيداً ـ أو شفيعاً ـ يوم القيامة»[٧].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٩٠ و٧٤٢٣، وأحمد ٢/ ٣٣٥ و٣٣٩ من حديث أبي هريرة.

(٢) إسناده منقطع. أخرجه أحمد ٥/ ٢٣٢ و٢٤٠ ـ ٢٤١، والترمذي ٢٥٣٠، وابن ماجه ٤٣٣١، والطبراني في الكبير ٢٠/ ٣٢٧، والبزار ٢٦ وقال الترمذي: هكذا روي هذا الحديث عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار عن معاذ بن جبل، وهذا عندي أصح من حديث همام عن زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار عن عبادة بن الصامت وعطاء لم يدرك معاذ بن جبل ومعاذ قديم الموت مات في خلافة عمر. وقال الهيثمي في المجمع ١/ ٤٧: وهو من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يسمع منه.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٥٣١، والحاكم ١/ ٨٠ وفيه انقطاع أيضاً، انظر تخريج الحديث السابق.

(٤) أخرجه البخاري ٦٥٥٥ ومسلم ٢٨٣٠ وأحمد ٥/ ٣٤٠ من حديث سهل بن سعد.

(٥) أخرجه أحمد ٧٥٨٨، والترمذي ٣٦١٢ من حديث أبي هريرة وقال الترمذي: حديث غريب وإسناده ليس بالقوي، وكعب: ليس بمعروف ولا نعلم أحداً روى عنه غير ليث بن أبي سليم. وصحح العلامة أحمد شاكر الحديث في تعليقه على المسند. وله شواهد كما ترى يصح بها.

(٦) أخرجه مسلم ٣٨٤، وأبو عوانة ١/ ٣٣٦، وأبو داود ٥٢٣، والنسائي ٢/ ٢٥، ٢٦ وفي عمل اليوم والليلة ٤٥، وأحمد ٦٥٦٨ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٧) أخرجه الطبراني في الأوسط كما في المجمع ١/ ٣٣٣ من حديث ابن عباس وقال الهيثمي: وفيه الوليد بن عبد الملك

[٣٥٨٠] وفي مسند الإمام أحمد من حديث سعد أبي مجاهد الطائي، عن أبي المدله، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قلنا يا رسول الله حَدِّثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةٌ ذهب، ولَبِنةٌ فضّة، ومِلاَطُها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران. من يدخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»[1]. ورُوي عن ابن عمر مرفوعاً، نحوه.

[٣٥٨١] وعند الترمذي، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغُرَفاً يُرَى ظهورُها من بطونِها، وبطونُها من ظهورها». فقام أعرابي فقال: يا رسول الله، لمن هي؟ فقال: «لمن طَيَّبَ الكلام، وأطعم الطعامَ، وأدام الصيام، وصلَّى بالليل والناسُ نيامٌ»[2]. ثم قال: حديث غريب. ورواه الطبراني، من حديث عبد الله بن عمرو[3] وأبي مالك الأشعري[4]، كلٌّ منهما عن النبي ﷺ بنحوه، وكل من الإسنادين جيد حسن، وعنده أن السائل هو أبو مالك، فالله أعلم.

[٣٥٨٢] وعن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل مُشَمِّرٌ إلى الجنة؟ فإن الجنةَ لا خطرَ لها، هي ـ وربِّ الكعبة ـ نورٌ يتلألأ، وريحانة تَهتَزّ، وقصر مَشِيدٌ، ونهر مطَّرد، وثمرة نَضيجة، وزوجة حسناءُ جميلة، وحُلَل كثيرة، ومقام في أَبَدٍ، في دار سليمة، وفاكهة وخضرة وحَبْرة، ونعمة في محلة عالية بهية». قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها، قال: «قولوا: إن شاء الله». فقال القوم: إن شاء الله[5]. رواه ابن ماجه. وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، أي: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم.

[٣٥٨٣] كما قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخُدْري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل ـ يقول لأهلِ الجنةِ: يا أهلَ الجنةِ.

الحراني، وقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال مستقيم الحديث إذا روى عن الثقات، قلت: وهذا من روايته عن موسى بن أعين وهو ثقة. ا.هـ.

(١) أخرجه أحمد ٨٠٣٠ والترمذي ٢٥٢٦، والطيالسي ٢٥٨٣ و٢٥٨٤ وابن حبان ٧٣٨٧، وصححه العلامة أحمد شاكر في تعليقه على المسند وشعيب الأرناؤوط في تعليقه على الإحسان.

(٢) إسناده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن إسحاق وأخرجه أحمد رقم ١٣٣٧ والترمذي ١٩٨٤ و٢٥٢٧ وابن أبي شيبة ٨/ ٦٢٥ و١٣/ ١٠١، وأبو يعلى ٤٢٨ وابن عدي في الكامل ٤/ ١٦١٣ ـ ١٦١٤ من حديث علي بن أبي طالب. وله شاهدان من حديث أبي مالك الأشعري وعبد الله بن عمرو وفي إسناديهما ضعف لكن الحديث يحسن بمجموع هذه الشواهد والله أعلم، وانظر ما بعده.

(٣) أخرجه أحمد ٦٦١٥، والحاكم ١/ ٣٢١ وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٤٢٠: رواه أحمد ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم، وصحح إسناده أحمد شاكر في تعليقه على المسند. وانظر ما بعده.

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٣، والطبراني في الكبير ٣٤٦٦، وعبد الرزاق ٢٠٨٨٣، وابن حبان ٥٠٩، وقال الهيثمي في المجمع ٢/ ٢٥٤: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

(٥) أخرجه ابن ماجه ٤٣٣٢، وابن حبان ٧٣٨١ من حديث أسامة بن زيد وقال البوصيري في مصباح الزجاجة ٣/ ٣٢٥: هذا إسناد فيه مقال الضحاك المعافري ذكره ابن حبان في الثقات وقال الذهبي في «طبقات التهذيب» مجهول، وسليمان بن موسى الأموي مختلف فيه، وباقي رجال الإسناد ثقات. وقال البزار: لا نعلم من رواه عن النبي ﷺ إلا أسامة بن زيد ولا نعلم له طريقاً عن أسامة إلا هذا الطريق ولا نعلم رواه عن الضحاك إلا هذا الرجل محمد بن مهاجر.

فيقولون: لَبَّيكَ يا ربنا وسَعْدَيْكَ، والخيرُ في يديك. فيقول: هل رَضِيتُم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى يا ربّ، وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أحِلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[1]. أخرجاه من حديث مالك.

[٣٥٨٤] وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المَحَامِلي: حدثنا الرُّخامي، حدثنا الفريابي، عن سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ قال الله ـ عز وجل ـ: هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ قالوا: يا ربَّنا، ما خيرُ ما أعطيتنا؟ قال: رضواني أكبر»[2]. ورواه البزار في مسنده، من حديث الثوري. وقال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «صفة الجنة»: هذا عندي على شرط الصحيح، والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

أمر تعالى رسولَه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أنَّ مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة. وقد تَقَدَّم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: بُعِث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف، سيف للمشركين: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]. وسيف لكفار أهل الكتاب: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩]. وسيف للمنافقين: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾. وسيف للبغاة: ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، قال: بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فَلْيَكْفَهِرّ في وجهه. وقال ابن عبَّاس: أَمَره الله بجهاد الكفّار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم، وقال الضحاك: جاهِدِ الكفارَ بالسيفِ، واغلُظْ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم. وعن مقاتل، والربيع مثله. وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم. وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا، بحسب الأحوال، والله أعلم. وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾.

[٣٥٨٥] قال قتادةُ: نزلَتْ في عبد الله بن أبَيّ، وذلك أنه اقتتل رجلان: جُهَني وأنصاري، فعلا الجُهَنِيُّ على الأنصاريّ، فقال عبد الله للأنصار: ألا تنصروا أخاكم؟ والله ما مثلنا ومثلُ محمد إلا كما قال القائل: سَمِّن كلبك يأكُلك، وقال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾. فسعى بها رجلٌ من

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٤٩ و٧٥١٨ ومسلم ٢٨٢٩، والترمذي ٢٥٥٥، وأحمد ٣/ ٨٨.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٨٢ من حديث جابر بن عبد الله، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقد تابع الأشجعي محمد بن يوسف الفريابي على إسناده ومتنه. ووافقه الذهبي.

المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية[١].

[٣٥٨٦] وَرَوَى إسماعيلُ بن إبراهيمَ بن عُقْبَة، عن عَمِّه موسى بن عُقْبَة قال: فحدَّثني عبدُ الله بن الفضل، أنه سَمع أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يقول: حَزِنْتُ على من أصيب بالحَرَّة من قومي، فكتب إليَّ زيدُ بن أرقم، وبلغه شدة حزني، يذكر أنه سَمِع رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار» ـ وَشَكَّ ابن الفضل في «أبناء أبناء الأنصار» ـ قال ابن الفضل: فسأل أنساً بعضُ من كان عنده عن زيد بن أرقَم، فقال: هو الذي يقول له رسول الله ﷺ «أوفى الله له بأذُنه» وذاك حين سمع رجلاً من المنافقين يقول ـ ورسول الله ﷺ يخطب: لئن كان هذا صادقاً فنحن شر من الحمير. فقال زيد بن أرقم: فهو والله صادق، ولأنت شر من الحمار. ثم رُفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجَحَده القائل، فأنزل الله هذه الآية تصديقاً لزيد، يعني قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾[٢] . . . الآية. رواه البخاري في صحيحه، عن إسماعيل بن أبي أويس، عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة، إلى قوله: «هذا الذي أوفى الله له بأُذُنِه». ولعل ما بعده من قول موسى بن عقبة، وقد رواه محمد بن فُلَيح، عن موسى بن عقبة بإسناده ثم قال: قال ابن شهاب. فذكر ما بعده عن موسى، عن ابن شهاب. والمشهور في هذه القصة أنها كانت في غزوة بني المصطلق، فلعل الراوي وَهَمَ في ذكر الآية، وأراد أن يذكر غيرها، فذكرها، والله أعلم.

[٣٥٨٧] قال الأموي في مغازيه: حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه، عن جده قال: لما قَدِم رسول الله ﷺ أخذني قومي فقالوا: إنك امرؤٌ شاعر، فإن شئتَ أن تَعتذِرَ إلى رسول الله ﷺ ببعض العلَّة، ثم يكون ذنباً تستغفر الله منه. وذكر الحديث بطوله، إلى أن قال: وكان ممن تخلَّفَ من المنافقين، ونزل فيه القرآن منهم ممن كان مع النبي ﷺ: الجُلاَس بن سُوَيدِ بن الصامت، وكان على أم عُمَير بن سعد، وكان عمير في حِجْره، فلما نزل القرآنُ وذَكَرَهم الله بما ذَكَر مما أنزل في المنافقين، قال الجُلاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول لنحن شَرٌّ من الحمير. فسمعها عُمَير بن سعد فقال: والله ـ يا جلاس ـ إنك لأحبُّ الناس إليَّ، وأحسَنُهم عندي بلاءً، وأعزُّهم على أن يَصِلَه شيءٌ يَكْرَهه، ولقد قلت مقالةً لئن ذكرتُها لأفضحنَّك ولئن كتمتُها لتهلكني. ولإحداهما أهونُ عليّ من الأخرى. فَمَشَى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قالَ الجلاسُ. فلما بلغ ذلك الجلاس خَرَجَ حتى يأتي النبي ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عُمَير بن سعد، ولقد كَذَب عليّ. فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾، إلى آخر الآية. فَوَقَفه رسول الله ﷺ عليها. فزعموا أن الجلاس تاب فَحَسُنَت توبتُه، ونَزَع فأحسنَ النزوعَ[٣]. هكذا جاء هذا مُدْرَجاً في الحديث متصلاً به. وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحاق نفسه، لا من كلام كعب بن مالك.

[٣٥٨٨] وقال عروة بن الزبير: نزلت هذه الآيةُ في الجُلاَس بن سُوَيد بن الصامت، أقبل هو وابن امرأته مُصعب من قُباء، فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقاً فنحن أشرُّ من حُمُرنا هذه التي نحن عليها. فقال مصعب: أما والله ـ يا عدو الله ـ لأخبرنَّ رسول الله ﷺ بما قلت. فأتيت النبيَّ ﷺ وخفت أن ينزل فيَّ

(١) أسنده الطبري ١٦٩٨٩ عن قتادة، وهذا مرسل. وساقه الواحدي ٥١٥ عنه بلا سند.

(٢) أخرجه البخاري ٤٩٠٦ وأحمد ٤/ ٣٧٤ مختصراً.

(٣) أخرجه الطبري ١٧٤٦٤ من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد مختصراً ولم يذكر فيه قصة الجلاس. وأصله في الصحيحين دون ذكر قصة الجلاس.

القرآن، أو تصيبني قارعة، أو أن أخلَط بخطيئته، فقلت: يا رسول الله، أقبلت أنا والجُلاَس من قباء، فقال كذا وكذا، ولولا مخافة أن أخلَط بخطيئة أو تصيبني قارعةٌ ما أخبرتك. قال: فدعا الجُلاَس فقال: «يا جلاس، أقُلْتَ الذي قاله مصعب»؟ فحلف، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾[1]... الآية. وقال محمد بن إسحاق: كان الذي قال تلك المقالة ـ فيما بلغني ـ الجُلاَس بن سوَيد بن الصامت، فرفعها عليه رجل كان في حجره، يقال له: عمير بن سعيد، فأنكرها، فحلف بالله ما قالها. فلما نزل فيه القرآن تاب وَنَزع وحَسُنت توبته، فيما بلغني.

[٣٥٨٩] وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني أيوب بن إسحاق بن إبراهيم، حدثني عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن سماكٍ عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة، فقال: «إنه سيأتيكم إنسانٌ ينظر إليكم بعيني الشيطانِ، فإذا جاء فلا تكلموه». فلم يلبثوا أن طلع رجلٌ أزرقٌ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «علام تشتمني أنت وأصحابك»؟! فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾[2]... الآية. وقوله: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾، قيل: نزلت في الجُلاَس، وذلك أنه هَمَّ بقتل ابن امرأته حين قال: لأخبِرَنَّ رسولَ الله ﷺ. وقيل: في عبد الله بن أبيّ، هَمَّ بقتل النبي ﷺ. وقال السدّي: نزلت في أناس أرادوا أن يُتَوِّجوا عبد الله بن أبيٍّ، وإن لم يَرْضَ رسول الله ﷺ. وقد وَرَدَ أنَّ نفراً من المنافقين هَمُّوا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك، في بعض تلك الليالي، في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً، قال الضحاك: ففيهم نزلت هذه الآية.

[٣٥٩٠] وذلك بَيِّنٌ فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة» من حديث محمد بن إسحاق، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرَّةَ، عن أبي البَخْتَري، عن حذيفة بن اليمانَ ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت آخِذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به، وعمار يسوق الناقة ـ أو أنا: أسوقه، وعمار يقوده ـ حتى إذا كُنّا بالعقبة فإذا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها، قال: فأُنْبِهتُ رسول الله ﷺ بهم، فصرخ بهم فوَلّوا مدبرين، فقال لنا رسول الله ﷺ: «هل عرفتم القوم؟» قلنا: لا، يا رسول الله، قد كانوا مُتَلَثِّمِينَ، ولكنا قد عرفنا الرِّكابَ. قال: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة. وهل تَدْرُونَ ما أرادوا؟» قلنا: لا. قال: «أرادوا أن يَزْحَمُوا رسول الله في العقبة، فَيُلْقُوه منها». قلنا: يا رسول الله، أولا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعثَ إليك كلُّ قوم برأس صاحبهم؟ قال: «لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم». ثم قال: «اللهم ارمهم بالدُّبَيْلَة». قلنا: يا رسول الله، وما الدُّبَيْلَة؟ قال: «شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك»[3].

[٣٥٩١] وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا يزيد، أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جُمَيع، عن أبي الطُفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أمر منادياً فنادى: «إنَّ رسول الله أخذ العقبة فلا يأخُذْها أحد». فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عَمّار، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل، فغشوا عماراً وهو يسوق رسول الله ﷺ وأقبل عمار ـ رضي الله عنه ـ يضرب وجوهَ الرواحل، فقال رسول الله ﷺ

(١) أخرجه الطبري ١٦٩٨٢ عن هشام بن عروة مرسلاً.
(٢) أخرجه الطبري ١٦٩٨٨ من حديث ابن عباس وإسناده لا بأس به.
(٣) إسناده ضعيف، أبو البختري اسمه سعيد بن فيروز لم يسمع من حذيفة.

لحذيفة: «قَدْ، قَدْ». حتى هبط رسولُ الله ﷺ فلما هبط نزل ورجع عمار، فقال: «يا عمار، هل عرفت القوم»؟ فقال: قد عرفت عامة الرواحل، والقوم متلثمون. قال: «هل تدري ما أرادوا»؟ قال: الله ورسولُه أعلم. قال: «أرادوا أن يَنْفِرُوا برسول الله ﷺ راحلته فيطرحوه». قال: فسأل عمارٌ رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فقال: نشدتك بالله كم تعلم كان أصحابُ العقبة؟ قال: أربعة عشر. فقال: إن كنتَ منهم فقد كانوا خمسة عشر. قال: فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله، وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر الباقين حرب لله ـ عز وجل ـ ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد[١].

[٣٥٩٢] وهكذا روى ابن لَهيعَةَ، عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير نحو هذا، وأن رسول الله ﷺ أمر أن يمشي الناس في بطن الوادي، وصَعِد هو وحُذَيفة وعمّارُ العقبةَ، فتبعهم هؤلاء النفر الأرذلون، وهم متلثمون، فأرادوا سلوك العقبة، فأطلع الله على مرادهم رسوله، فأمر حُذيفة فرجَعَ إليهم، فضرب وجوه رواحلهم، ففزعوا ورجَعُوا مقبوحين، وأعلم رسول الله ﷺ حُذيفة وعمّاراً بأسمائهم، وما كانوا هَمُّوا به من الفتك به ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وأمرهما أن يكتما عليهم[٢]. وكذلك روى يونس بن بُكَير، عن ابن إسحاق، إلا أنه سَمّى جماعة منهم، فالله أعلم. وكذا قد حُكِي في معجم الطبراني، قاله البيهقي.

[٣٥٩٣] ويشهد لهذه القصة بالصحة ما رواه مسلم: حدثنا زُهَيرِ بن حرب، حدثنا أبو أحمد الكوفي، حدثنا الوليد بن جُمَيع، حدثنا أبو الطفيل قال: كان بين رجلٍ من أهل العَقَبة؟ وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس. فقال: أنشدك بالله، كم كان أصحاب العقبة، قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك. قال: كنا نُخبَّر أنهم أربعةَ عشَر، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسةَ عشَرَ، وأشهد بالله أن اثني عشَرَ منهم حربٌ لله ولرسولهِ في الحياة الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ وعَذَر ثلاثة، قالوا: ما سَمِعنا مناديَ رسولِ الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم. وقد كان في حَرَّةٍ فمشى فقال: «إن الماء قليل، فلا يسبقني إليه أحد»، فوجد قوماً قد سبقوه، فلعنهم يومئذٍ[٣].

[٣٥٩٤] وما رواه مسلم أيضاً، من حديث قتادة، عن أبي نَضْرَةَ، عن قَيسِ بن عُبَادٍ، عن عَمّار بن ياسر قال: أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً، لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط: ثمانية منهم تكفيكهم الدُّبَيلَةُ: سراجٌ من نار يظهَرُ بين أكتافهم حتى ينجُم من صُدُورهم»[٤]. ولهذا كان حُذَيفة يُقالُ له: «صاحبُ السرِّ الذي لا يعلمه غيره». أي: من تعيين جماعةٍ من المنافقين، وهم هؤلاء، قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره، والله أعلم. وقد ترجم الطبَراني في مسند حُذَيفة تسميةَ أصحاب العقبة، ثم روى عن علي بن عبد العزيز، عن الزبير بن بكار أنه قال: هم مُعَتِّب بن قُشَير، وَوَدِيعة بن ثابت، وجَدُّ بن عبد الله بن نَبْتَل بن الحارث، من بني عمرو بن عوف، والحارث بن يزيد الطائي، وأوس بن قَيْظِي، والحارث بن سُوَيد، وسعد بن زُرَارة، وقيس بن فَهْد، وسُوَيد

---

(١) أخرجه أحمد ٥/٤٥٣ ـ ٤٥٤ من حديث أبي الطفيل الليثي، وقال الهيثمي في المجمع ٦/١٩٥ رجاله ثقات، وهو كما قال، لكن الوليد فيه لين، وهو من رجال مسلم.

(٢) إسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة.

(٣) أخرجه مسلم ٢٧٧٩ ح ١١، وأحمد ٥/٣٩٠ ـ ٣٩١ ح ٢٣٢١٤ من حديث أبي الطفيل.

(٤) أخرجه مسلم ٢٧٧٩، وأحمد ٤/٢٦٢ ـ ٢٦٣ و٣١٩ ـ ٣٢٠، وأبو داود ٤٦٦٦.

وداعس من بني الحبلى، وقيس بن عمرو بن سهل، وزيدُ بن اللَّصيتِ، وسلالة بن الحمام، وهما من بني قينقاع، أظهروا الإسلام.

وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي: وما للرسول عندهم ذنبٌ إلا أن الله أغناهم ببركته ويُمْن سِفارته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به.

[٣٥٩٥] كما قال عليه السلام للأنصار: «ألم أجدكم ضُلاَّلاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي؟ وعالةً فأغناكم الله بي؟»، كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ[١]. وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾.

[٣٥٩٦] وكما قال عليه السلام: «وما ينقم ابنُ جَميلٍ إلا أن كان فَقِيراً فأغناه الله»[٢]. ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال: ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾، أي: وإن يستمروا على طريقهم ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾، أي: بالقتل والهم والغم، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾ أي: بالعذاب والنكال والهوان والصَّغار، ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، أي: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، ولا يحصل لهم خيراً، ولا يدفع عنهم شراً.

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه، لئن أغناه من فضله ليصدَّقَنَّ من ماله، وليكونن من الصالحين. فما وفى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقونَ الله عز وجل، يوم القيامة، عياذاً بالله من ذلك. وقد ذكر كثير من المفسرين، منهم ابن عباس، والحسن البصري أنَّ سبب نزولِ هذه الآيةِ الكريمةِ في ثعلبة بن حاطب الأنصاري.

[٣٥٩٧] وقد ورد فيه حديث رواه ابنُ جرير ها هنا وابن أبي حاتم، من حديث مُعَان بن رفاعة، عن علي بن يزيد، عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن ـ مولى عبد الرحمٰن بن يزيد بن معاوية ـ عن أبي أمامة الباهلي، عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أنه قال لرسول الله ﷺ: ادعُ الله أن يرزقني مالاً. فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة! قليلٌ تُؤَدِّي شكره خيرٌ من كثير لا تطيقه». قال: ثم قال مرة أخرى، فقال: «أما تَرْضَى أن تكون مثل نبيِّ الله، فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسيرَ معي الجبالُ ذهباً وفضَّةً لسارت». قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوتَ الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً». قال: فاتخذ غنماً، فَنَمت كما ينمو الدودُ، فضاقت عليه المدينة، فَتَنَحَّى عنها، فنزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة، ويترك ما سواهما. ثم نمت وكَثُرت، فَتَنَحَّى حتى ترك الصلواتِ إلا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدودُ، حتى ترك الجمعة. فطفق يَتَلَقَّى الركبان يوم الجمعة،

---

(١) تقدم تخريجه فيما سبق.

(٢) متفق عليه، وتقدم.

يسألهم عن الأخبار، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما فعل ثعلبة»؟ فقالوا: يا رسول الله، اتَّخذ غنماً فضاقت عليه المدينة. فأخبروه بأمره فقال: «يا ويحَ ثعلبةُ، يا ويحَ ثعلبة! يا ويحَ ثعلبة»! وأنزل الله جلَّ ثناؤه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]... الآية، قال: ونزلت عليه فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة: رجلاً من جهينة، ورجلاً من سُلَيم، وكتب لهما كيف يأخذانِ الصدقةَ من المسلمين، وقال لهما: مُرَّا بثعلبة، وبفلانٍ ـ رجل من بني سُليم ـ فَخُذا صدقاتهما. فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال: ما هذه إلا جزيةٌ. ما هذه إلا أختُ الجزية. ما أدري ما هذا؟ انطلقا حتى تَفرغا ثم عُودا إليّ. فانطلقا وسَمِع بهما السُّلَمِيّ، فنظر إلى خيار أسنان إبله، فَعَزَلها للصدقة، ثم استقبلهما بها. فلما رأوها قالوا: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك. قال: بلى. فخذوها فإن نفسي بذلك طيبةٌ، وإنما هي له، فأخذوها منه، فلما فَرَغا من صدقاتهما رجعا حتى مرَّا بثعلبة، قال: أروني كتابكما. فنظر فيه، فقال: ما هذه إلا أختُ الجزيةِ. انطلقا حتى أرى رأيي. فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رآهما قال: «يا ويح ثعلبة»! قبل أن يُكَلِّمهما، ودعا للسلمي بالبركة، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السُّلَمي. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾. قال: وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من أقارِب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة! قد أنزل الله فيك كذا وكذا. فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: «إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك». فجعل يحثُو على رأسه التراب، فقال له رسول الله ﷺ: «هذا عَمَلُك، قد أمرتك فلم تطعني». فلما أبى أن يقبضَ رسولُ الله ﷺ رجع إلى منزله، فَقُبِض رسولُ الله ﷺ ولَمْ يقْبَلْ منه شيئاً. ثم أتى أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ حين استُخْلِفَ، فقال: قد عَلِمْتَ منزلتي من رسول الله ﷺ وموضِعي من الأنصار، فاقبل صدقتي. فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ وأبى أن يقبلها، فقُبِضَ أبو بكر ولم يَقْبَلها. فلما وَلِي عمر ـ رضي الله عنه ـ أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، اقبل صدقتي. فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولاَ أبو بكر، فأنا أقبلها منك! فقُبِضَ ولم يقبلها. ثم ولي عثمان ـ رضي الله عنه ـ فسأله أن يقبل صدقته، فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر، وأنا أقبلُها منك. فلم يقبلها منه، وهَلَكَ ثعلبة في خلافة عثمان[1].

وقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾، أي: أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم، كما جاء في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال:

---

(١) إسناد واهٍ بمرة، والمتن باطل، أخرجه الواحدي ٥١٧ والطبراني ٧٨٧٣ وفي «الطوال» (٢٠) والطبري ١٧٠٠٢ من حديث أبي أمامة، وإسناده ضعيف جداً، وهو مسلسل بالضعفاء. فيه معان بن رفاعة وثقه أحمد وأبو داود، وضعفه ابن معين، وقال أبو حاتم: لا يحتج به. وشيخه علي بن يزيد هو الألهاني الشامي. جاء في الميزان ٥٩٦٦ ما ملخصه: قال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: ليس بثقة. وقال أبو زرعة: ليس بقوي. وقال الدارقطني: متروك. وله علة ثالثة: القاسم بن عبد الرحمن ذكره الذهبي في «الميزان» ٦٨١٧: وثقه يحيىٰ والترمذي وقال يعقوب بن شيبة: منهم من يضعفه، وقال أحمد: روىٰ عنه علي بن يزيد أعاجيب، وما أراها إلا من قبل القاسم. وقال ابن حبان: كان القاسم يزعم أنه لقي أربعين بدرياً، كان ممن يروي عن أصحاب النبي ﷺ المعضلات، ويأتي عن الثقات بالمقلوبات، حتىٰ يسبق إلىٰ القلب أنه كان المعتمد لها اهـ. فالحديث ضعيف جداً كما ترىٰ. وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٣١ ـ ٣٢: فيه علي بن يزيد الألهاني: متروك. وقال ابن حجر في «تخريج الكشاف» ٢/ ٢٩٢: إسناده ضعيف جداً. وقال ابن حزم في جوامع «السيرة» ص ٩٨ هذا باطل. اهـ. وهو كما قالوا.

[٣٥٩٨] «آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»[١]. وله شواهد كثيرة، والله أعلم. وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝٧٨﴾، يخبرهم تعالى أنه يعلم السرَّ وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنهم إن حَصَل لهم أموال تَصدَّقوا منها وشَكَروا عليها، فإنه أعلم بهم من أنفسهم، لأنه تعالى علام الغيوب، أي: يعلم كل غيب وشهادة، وكلَّ سرٍ ونجوى، ويعلم ما ظَهَرَ وما بَطَن.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩﴾

وهذه أيضاً من صفاتُ المنافقين: لا يَسْلَم أحدٌ من عيبهم ولَمْزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدِّقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مراءٌ. وإن جاء بشيءٍ يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، كما قال البخاري:

[٣٥٩٩] حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو النعمان البصري، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن أبي وائل، عن أبي مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نُحامل على ظهورنا، فجاء رجلٌ فتصدّق بشيءٍ كثير، فقالوا: مُرائي. وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية[٢]. وقد رواه مسلم أيضاً في صحيحه، من حديث شعبة، به.

[٣٦٠٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا الجُريري، عن أبي السَّليل قال: وقف علينا رجل في مجلسنا بالبقيع فقال: حدثني أبي ـ أو عَمّي ـ أنه رأى رسولَ الله ﷺ بالبقيع، وهو يقول: «من يتصدَّق بصدقة أشهدُ له بها يوم القيامة»؟ قال: فَحَلَلْتُ من عمامتي لَوْثاً أو لَوْثَين، وأنا أريد أن أتصدق بهما، فأدركني ما يدرك ابن آدم، فعقدت على عمامتي، فجاء رجلٌ لم أر بالبقيع رجلاً أشدَّ سواداً ولا أقصر قمَّة، ولا أدَمَّ بعين منه يقود ناقة، لم أر بالبقيع ناقةً أحسَنَ منها، فقال: يا رسولَ الله، أصدقةٌ؟ قال: «نعم». فقال: دونك هذه الناقة. قال: فَلَمَزَه رجلٌ فقال: هذا يتصدقُ بهذه. فوالله لهي خيرٌ منه. قال: فَسَمِعَها رسولُ الله ﷺ فقال: «كذبتَ، بل هو خير منك ومنها» ـ ثلاث مرات ـ ثم قال: «ويل لأصحاب المئين من الإبل» ـ ثلاثاً ـ قالوا: إلا من يا رسولَ الله، قال: «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا». وجَمَع بين كَفَّيه عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «قد أفلح المُزهِد المُجهِد ـ ثلاثاً ـ المُزهِدِ في العيش، المُجهِدِ في العبادة»[٣].

[٣٦٠١] وقال علي بن أبي طلحة، عن ابنِ عباس في هذه الآية، قال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاءه رجلٌ من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعضُ المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياءً. وقالوا: إن كان الله ورسولُه لَغَنِيَّيْنِ عن هذا الصاع[٤].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٣ و٢٦٨٢ و٧٢٤٩ ومسلم ٥٩ ح ١٠٩ و١١٠ وأحمد رقم ٨٦٧٠ والترمذي ٢٦٣٣ والنسائي ٨/ ١١٧ من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٦٨.

(٣) ضعيف، أخرجه أحمد ٥/ ٣٤ بهذا الإسناد، قال الهيثمي في «المجمع» ٤٦٧٠: فيه رجل لم يسمّ اهـ فالإسناد ضعيف، والمتن غريب. وقوله: لوثاً أو لوثين: أي لفة أو لفتين.

(٤) أخرجه الطبري ١٧٠١٨ وفيه إرسال بين علي بن أبي طلحة وابن عباس.

[٣٦٠٢] وقال العَوْفي، عن ابن عباس: إن رسول الله خرج إلى الناس يوماً فنادى فيهم: أن اجمعوا صدقاتكم، فجمع الناس صَدَقاتِهم، ثم جاء رجلٌ من آخرهم بصاع من تمر، فقال: يا رسولَ الله، هذا صاعَ من تَمْرٍ بتُّ ليلتي أجرُّ بالجَرِير الماءَ، حتى نِلتُ صاعين من تمرٍ فأمسكتُ أحدَهما، وأتيتك بالآخر. فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات. فَسَخِر منه رجالٌ، وقالوا: إن الله ورسوله لغنيّان عن هذا. وما يصنعان بصاعك من شيء. ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ: هل بقي أحد من أهل الصدقات؟ فقال له رسول الله ﷺ: «لم يبق أحد غيرك». فقال له عبد الرحمن بن عوف: فإن عندي مئة أوقية من ذهب في الصدقات. فقال له عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: أمجنون أنت؟! قال: ليس بي جنون. قال: أفعلت ما فعلت؟ قال: نعم، مالي ثمانية آلاف، أما أربعة آلاف فأقرضها ربي، وأما أربعة آلاف فلي. فقال له رسول الله ﷺ: «بَارَكَ الله لك فيما أمسكتَ وفيما أعطيتَ». ولمزه المنافِقُون فقالوا: والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء. وهم كاذبون، إنما كان به مُتطَوِّعاً، فأنزل الله ـ عز وجل ـ عذره وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر، فقال تعالى في كتابه: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[١] . . . الآية. وكذا رُوِي عن مجاهد[٢]، وغير واحد.

[٣٦٠٣] وقال ابن إسحاق: كان المُطَّوِّعون من المؤمنين في الصدقة: عبد الرحمن بن عوف، تصدق بأربعة آلاف درهم، وعاصم بن عدي أخا بني العجلان، وذلك أن رسول الله ﷺ رَغَّب في الصدقات، وحَضَّ عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعةِ آلاف، وقام عاصم بن عدي فتصدق بمئة وسق من تمر، فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء. وكان الذي تَصدَّق بجهده: أبو عَقِيل أخو بني أُنَيف الإِراشي ـ حليفُ بني عمرو بن عوف ـ أَتى بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة، فتضاحكوا به وقالوا: إن الله لغنِيٌّ عن صاع أبي عَقيل[٣].

[٣٦٠٤] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا طالوت بن عباد، حدثنا أبو عوانة، عن عُمَر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَصَدَّقُوا، فإني أريد أن أبعث بعثاً». قال: فجاء عبد الرحمٰن بن عوف فقال: يا رسول الله، عندي أربعة آلاف، ألفان أقرضهما ربي، وألفانِ لعيالي. فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت، وبارك لك فيما أمسكت. وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر، فقال: يا رسول الله، أصبت صاعين من تمر: صاع أقرضه لربي، وصاع لعيالي. قال: فلمزه المنافقون وقالوا: ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رياء وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غَنِيَّين عن صاع هذا؟ فأنزل الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾ . . . الآية. ثم رواه عن أبي كامل، عن أبي عوانة، عن عُمَر بن أبي سلمة، عن أبيه مرسلاً. قال: ولم يسنده أحد إلا طالوت[٤].

---

(١) أخرجه الطبري ١٧٠١٩ وفيه عطية بن سعد العوفي ضعيف، وذكر «مائة أوقية» غريب لا يتابع عليه العوفي، وقد أخرجه الطبري ١٧٠٢٠ و١٧٠٢١ عن مجاهد، وفيه «جاء عبد الرحمٰن بصدقة ماله أربعة آلاف فلمزه المنافقون. . .».

(٢) تقدم ما ورد عن مجاهد ليس فيه «مائة أوقية» والذي أراده ابن كثير أنه ورد عن مجاهد أيضاً أنها نزلت في ابن عوف، والله أعلم.

(٣) هذا معضل لكن يشهد له ما قبله، وورد عن قتادة مرسلاً أخرجه الطبري ١٧٠٢٣.

(٤) إسناده غير قوي لأجل عمر بن أبي سلمة، لكن لأصله شواهد.

[٣٦٠٥] وقال الإمام أبو جعفر بن جَرِير: حدثنا ابنُ وكيع، حدثنا زيد بن الحُبَاب، عن موسى بن عُبَيدة، حدثني خالد بن يَسَار، عن ابن أبي عَقِيلَ، عن أبيه قال: بت أجرُّ الجَرِير على ظهري، على صاعين من تمر، فانقلبت بأحدهما إلي أهلي يتبلّغون به، وجئتُ بالآخر أتقرب به إلى رسول الله ﷺ فأتيته فأخبرته، فقال: «انثره في الصدقة». قال: فَسَخِر القوم وقالوا: لقد كان الله غَنِيّاً عن صدقة هذا المسكين. فأنزل الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾... الآيتين[١]. وكذا رواه الطبراني من حديث زيد بن الحباب، به. وقال: اسم أبي عقيل: حَبْحاب، ويقال: عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة. وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾، وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر بهم، انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

يخبر تعالى نبيَّه ﷺ بأنَّ هؤلاء المنافقين ليسُوا أهلاً للاستغفار، وأنّه لو استغفر لهم ولو سبعين مَرَّةً فإنَّ الله لا يغفر لهم. وقد قيل: إنَّ السبعين إنما ذُكِرت حسماً لمادة الاستغفار لهم، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغةِ كلامها، ولا تريد التحدِيدَ بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها. وقيل: بل لها مفهوم.

[٣٦٠٦] كما رَوَى العَوْفيُّ عن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «أسمَعُ ربي قد رخَّص لي فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة، لعل الله أن يغفر لهم! فقال الله تعالى من شدة غضبه عليهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٢].

[٣٦٠٧] وقال الشعبي: لما ثَقُل عبد الله بن أبيّ، انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي قد احتُضِرَ، فأحبُّ أن تَشهَدَه وتُصلي عليه. فقال النبيُّ ﷺ: «ما اسمُكَ؟» قال: الحبابُ بن عبد الله. قال: «بل أنت عبد الله بن عبد الله، إن الحباب اسم شيطان». قال: فانطلق معه حتى شهِده وألبسه قميصه وهو عَرِقٌ، وصلَّى عليه، فقيل له: أتصلي عليه وهو منافق؟ قال: «إن الله تعالى قال: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾، ولأستغفرن له سبعين وسبعين وسبعين»[٣]. وكذا رُوِي[٤] عن عروةَ بن الزبير، ومجاهد بن جَبْرٍ، وقتادة بن دِعَامَة. رواها ابن جرير بأسانيده.

---

(١) أخرجه الطبري ١٧٠٢٩ وإسناده ضعيف لضعف موسى بن عبيدة الربذي.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري ١٧٠٤٥ من حديث ابن عباس، وفيه مجاهيل، وعطية العوفي ضعيف، وسيأتي بغير هذا اللفظ عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ آية ٨٤.

(٣) منكر. أخرجه الطبري ١٧٠٤٤ عن الشعبي هكذا مرسلاً، ومع إرساله فيه هشيم ومغيرة وكلاهما مدلس. ثم إن المتن منكر، ولا يصح حتى عن الشعبي وذلك من وجوه:
الأول: سيأتي هذا الخبر في الصحيحين وليس فيه أنه سأله عن اسمه.
والثاني: أنه ﷺ كيف لا يعرف اسمه قبل ذلك مع أنه قديم الإسلام؟ بل ذكر غير واحد أنه شهد بدراً. كما في الإصابة ٢/٣٣٦ وهو الذي استأذن رسول الله ﷺ في قتل أبيه.
الثالث: قوله: «حباب اسم شيطان» فيه نظر، فإن جماعة من الصحابة تسمّوا بذلك ولم يغير رسول الله ﷺ أسماءهم، ومن أشهر هؤلاء الحباب بن المنذر. راجع الإصابة ١/ ٣٠١ ـ ٣٠٢/ ١٥٤٥ ـ ١٥٥٣.

(٤) مراده أن الآية نزلت في شأن ابن سلول، لا أنهم ذكروا ما ذكره الشعبي.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه، ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟﴾ معه ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟﴾، أي: بعضهم لبعض: ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾. وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلهذا قالوا: ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾، قال الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر، بل أشد حراً من النار.

[٣٦٠٨] كما قال الإمام مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نارُ بني آدَمَ التي يُوقِدون بها جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جَهَنَّم». فقالوا: يا رسولَ الله، إنْ كانت لكافيةً. فقال: «فُضِّلت عليها بتسعة وستين جزءاً».(١) أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك، به.

[٣٦٠٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ ناركم هذه جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جَهَنَّم، وضُرِبت بالبحر مَرَّتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد»(٢). وهذا أيضاً إسناده صحيح.

[٣٦١٠] وقد رَوى الإمامُ أبو عيسى الترمذيّ وابنُ ماجه، عن عباس الدّوريّ، عن يحيى بن أبي بكير، عن شَرِيك، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أوقدَ على النار ألفَ سنةٍ حتى احمرتْ، ثم أوقد عليها ألفَ سنةٍ حتى ابيضّتْ، ثم أوقد عليها ألفَ سنة حتى اسودَّت، فهي سوداء كالليل المظلم»(٣). ثم قال الترمذيُّ: لا أعلم أحداً رفَعه غير يحيى. كذا قال. وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه عن إبراهيم بن محمد، عن محمد بن الحسين بن مُكْرَم، عن عبيد الله بن سعد، عن عمه، عن شريك ـ وهو ابن عبد الله النخعي ـ، به.

[٣٦١١] ورَوَى أيضاً ابن مَرْدُويه من رواية مبارك بن فضالة، عن ثابت، عن أنس قال: تلا رسولُ الله ﷺ: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، قال: «أُوقد عليها ألف عامٍ حتى ابيضّتْ، وألفَ عامٍ حتى احمرت، وألف عامٍ حتى اسودَّت، فهي سوداءُ كالليلِ لا يُضيء لهبُها»(٤).

[٣٦١٢] وروى الحافظُ أبو القاسم الطبرانيُّ من حديث تمام بن نَجيح ـ وقد اختُلِفَ فيه ـ عن الحسَن،

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٩٤، والبخاري ٣٢٦٥، ومسلم ٢٨٤٣ وابن حبان ٧٤٦٢ والبغوي ٤٣٩٨.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٢٤٤، والحميدي ١١٢٩ وابن حبان ٧٤٦٣، والبيهقي في البعث ٥٠٠ من طرق عن سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٥٩١، وابن ماجه ٤٣٢٠، وإسناده حسن لأجل عاصم بن أبي النجود فهو صدوق كما في التقريب، وللحديث شواهد.

(٤) مبارك بن فضالة غير قوي، لكن للحديث شواهد.

عن أنسٍ مرفوعاً: «لو أن شرارةً بالمشرق ـ أي: من نار جهنم ـ لوجَدَ حَرَّها مَن بالمغرب»[(١)].

[٣٦١٣] وروى الحافظُ أبو يعلى عن إسحاق بن أبي إسرائيل، عن أبي عبيدة الحداد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن شبيب، عن جعفر بن أبي وحشية، عن سعيد بن جُبَير، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لو كان في هذا المسجد مئةُ ألفٍ أو يزيدونَ، وفيهم رجلٌ من أهل النارِ فتنفَّس، فأصابهم نَفَسُه، لاحترق المسجدُ ومن فيه»[(٢)]. غريب.

[٣٦١٤] وقال الأعمش، عن أبي إسحاقَ، عن النعمان بن بَشِير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهونَ أهل النار عذاباً يوم القيامة لمن له نعلان وَشِرَاكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المِرْجَلُ[(٣)]، لا يَرَى أن أحداً من أهل النار أشَدُّ عذاباً منه، وإنه أهْوَنُهم عذاباً»[(٤)]. أخرجاه في الصحيحين، من حديث الأعمش.

[٣٦١٥] وقال مسلم أيضاً: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن أبي بُكَير، حدثنا زهير بن محمد، عن سهيل بن أبي صالح، عن النعمان بن أبي عياش، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة يَنْتَعِلُ بِنَعلين من نارٍ، يَغْلِي دِماغه من حَرارة نعليه»[(٥)].

[٣٦١٦] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا يحيى، عن ابن عجلان، سمعت أبي، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذاباً رجل يُجعَلُ له نعلان يَغْلي منهما دماغه»[(٦)]. وهذا إسناد جيد قوي، رجاله على شرط مسلم، والله أعلم. والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة، وقال الله تعالى في كتابه

---

(١) ضعيف، أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١٨٥٧٤ وابن عدي ٢/ ٨٤ من حديث أنس، قال المنذري في «ترغيبه» ٥٣٦٨: في إسناده احتمال للتحسين. وقال الهيثمي: فيه تمام بن نجيح، وهو ضعيف، وقد وثق، وبقية رجاله أحسن حالاً منه اهـ. قلت: تمام ضعيف الحديث. جزم الحافظ بذلك في التقريب، وجاء في الميزان ١٣٤١: وثقه يحيىٰ، وقال البخاري: فيه نظر، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه، وهو غير ثقة. وقال أبو حاتم: ذاهب الحديث، وقال أبو زرعة: ضعيف. وقال ابن حبان: يروي أشياء موضوعة اهـ فتحصل من أقوالهم أنه ضعيف.

(٢) منكر. أخرجه أبو يعلىٰ ٦٦٧٠ وأبو نعيم ٤/ ٣٠٧ من حديث أبي هريرة. قال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٣٩١: رواه أبو يعلىٰ عن شيخه إسحاق، ولم ينسبه، فإن كان ابن راهويه، فرجاله رجال الصحيح، وإلا فلم أعرفه اهـ وهو إسحاق بن أبي إسرائيل كما بينه أبو نعيم، واستغربه أبو نعيم عقب روايته. وقال المنذري في «الترغيب» ٥٣٦٧: إسناده حسن، وفي متنه نكارة. وعزاه الحافظ في «المطالب العالية» ٤٦٦٧ ونقل الأعظمي عن البوصيري قوله: إسناده حسن اهـ قلت: إسحاق بن أبي إسرائيل صدوق. وأبو عبيدة هو عبد الواحد بن واصل، وثقه يحيىٰ وغيره، وقال أحمد: أخشىٰ أن يكون ضعيفاً اهـ. ولعله وهم في هذا الحديث فرفعه، والله أعلم، فإنه غريب. وورد من وجه آخر أخرجه البزار ٣٤٩٩ وفي إسناده عبد الرحيم بن هارون قال الدارقطني: متروك يكذب اهـ الميزان، فلا يعتبر بمتابعته، والإسناد الأول فيه ضعف، فالخبر غير قوي، وقد استنكره المنذري كما تقدم. ثم رأيت ابن الجوزي أخرجه في «الواهيات» ٩٣٨/ ٢/ ١٦٦٤ وقال: قال أحمد بن حنبل: هذا حديث منكر، ومحمد بن شبيب لا يُعرف اهـ فنوزع بقول الإمام أحمد إنه حديث منكر والله أعلم.

(٣) المرجل: قِدْر من نحاس، وقيل: يطلق على كل قِدْر يطبخ فيه.

(٤) أخرجه البخاري ٧١٧، ومسلم ٩٩٤، وأحمد ٤/ ٢٧١ من حديث النعمان بن بشير.

(٥) أخرجه مسلم ٢١١ وأبو عوانة ١/ ٩٨ وأحمد ٣/ ٧٨ والحاكم ٤/ ٥٨١ وابن منده في الإيمان ٩٦٣.

(٦) أخرجه أحمد ٢/ ٤٣٢ و٤٣٩، وابن حبان ٧٤٧٢، والحاكم ٤/ ٥ من حديث أبي هريرة وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٣٩٥: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير يزيد بن خالد بن موهب، وهو ثقة ا.هـ. وإسناده جيد قوي كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى.

العزيز: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝﴾ [المعارج: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾، أي: لو أنهم يفقهون ويفهمون لَنَفروا مع الرسول في سبيلِ الله في الحر، ليتَّقوا به من حَرّ جَهنَّم، الذي هو أضعافُ أضعافِ هذا، ولكنهم كما قال الآخَرُ:

كالمستَجيرِ منَ الرَّمضاءِ بالنارِ

وقال الآخر:

عُمرُكَ بالحِمْيَةِ أفنَيْتَه ... مَخافَةَ البارِدِ وَالحَارِ

وَكانَ أولَى بكَ أنْ تَتَّقِي ... مِنَ المَعَاصِي حَذَرَ النَّارِ

ثم قال تعالى ـ جلَّ جلاله ـ متوعداً لهؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝﴾. قال ابنُ أبي طَلْحَة، عن ابن عباس: الدنيا قليلٌ، فَلْيَضحَكوا فيها ما شاؤوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله ـ عز وجل ـ استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً. وكذا قال أبو رَزِين، والحسنُ، وقتادةُ، والربيع بن خُثَيم، وعَون العقيلي، وزيد بن أسلم.

[٣٦١٧] وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبي خداش، حدثنا محمد بن حُمَيد، عن ابن المبارك، عن عمران بن زيد، حدثنا يزيد الرَّقاشي، عن أَنس بن مالك قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس، ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكَوا، فإن أهلَ النار يبكُون حتى تسيلَ دموعُهم في وجوهِهم كأنها جداولَ، حتى تنقطعَ الدموع فَتَسيلُ الدماء فَتُقرِّح العيون، فلو أن سفناً أرخيت فيها لجرت»[1]. ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش عن يزيد الرقاشي، به.

[٣٦١٨] وقال الحافظ أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن العباس، حدثنا حمّاد الجزري، عن زيد بن رفيع ـ رفعه ـ قال: إن أهل النار إذا دخلوا النار ـ بكَوا الدموع زماناً، ثم بكوا القَيْحَ زماناً ـ قال: فتقول لهم الخَزَنَةَ: يا معشرَ الأشقياءِ، تركتُم البكاءَ في الدار المرحوم فيها أهلها في الدنيا، هل تجدونَ اليوم من تستغيثون به؟ قال: فيرفعون أصواتَهم: يا أهل الجنة، يا معشرَ الآباء والأمهات

(١) أخرجه أبو يعلى ٤١٣٤ بهذا الإسناد، وهو واه بمرة. فيه محمد بن حميد الرازي ضعيف جداً، وعمران بن زيد ليّن، ويزيد الرقاشي واهٍ. ومن وجه آخر أخرجه ابن ماجه ٤٣٢٤ عن يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً، وقال البوصيري في الزوائد: في إسناده يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف اهـ ولصدره شواهد. ولعجزه شاهد أيضاً أخرجه الحاكم ٦٠٦/٤ من حديث أبي موسى وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي والمنذري في «ترغيبه» ٣٤٣٥. ولفظ الحاكم «إن أهل النار ليبكون، حتى لو أجريت السفن في دموعهم، لجرت، وأنهم ليبكون الدم. يعني مكان الدمع» اهـ. وإسناده على شرطهما، اللهم إن كان سلام بن مسكين سمعهُ من أبي بردة، حيث لم أجد في التهذيب وغيره أنه روى عنه، هذا شيء. والشيء الثاني: ساقه عنه بعبارة توهم الانقطاع حيث فيه «سلام بن مسكين». قال: حدث أبو بردة عن عبد الله بن قيس ـ أي أبي موسى ـ فقوله «حدث» لا تدل على أنه سمعه منه، والله أعلم. وقد جرى الألباني على ظاهره دون أن ينبه على ما ذكرت، فذكره في الصحيحة ١٦٧٩ وفي ذلك نظر، والله أعلم.

والأولاد، خرجنا من القبور عطاشاً، وكنّا طول الموقف عِطاشاً، ونحن اليوم عطاشٌ، فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فيدْعُون أربعين سنة لا يُجيبهم، ثم يجيبهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فييأسون من كل خير»[1].

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾، أي: ردك الله من غَزْوَتك هذه ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ ـ قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً ـ ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾، أي: مَعَكَ إلى غزوةٍ أخرى، ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾. أي: تعزيراً لهم وعقوبة. ثم علّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كما قال في عُمرة الحديبية: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾، قال ابن عباس: أي الرِّجالِ الذين تَخلّفوا عن الغزاة. وقال قتادةُ: ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾، أي: مع النساء. قال ابنُ جَرير: وهذا لا يستقيمُ، لأن جَمْعَ النساء لا يكون بالياء والنون، ولو أُريد النساء لقال: فاقعدوا مع الخوالف، أو الخالفات، ورجح قول ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يَبرأ من المنافقين، وألاّ يُصلّي على أحد منهم إذا مات، وألاّ يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعوَ له؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا عليه. وهذا حُكْمٌ عامّ في كلّ من عُرِفَ نفاقه، وإن كان سببُ نزولِ الآية في عبد الله بن أُبيّ بن سلول رأس المنافقين.

[٣٦١٩] كما قال البخاري: حدثنا عُبَيد بن إسماعيل، عن أبي أسامة، عن عُبَيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله ـ هو ابن أُبيّ ـ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يُعطيه قميصه يكفِّن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلّي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، تُصلّي عليه وقد نهاك ربك أن تُصلّي عليه؟ قال رسول الله ﷺ: «إنما خيَّرني الله فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، وسأزيده على السبعين». قال: إنه منافقٌ؟ قال: فصلّى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل آية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾. وكذا رواهُ مسلمٌ عن أبي بكر بن أبي شَيبةَ، عن أبي أسامةَ حَمّادِ بن أسامةَ، به. ثم رواه البخاريُّ عن إبراهيمَ بن المنذر، عن أنس بن عياض، عن عُبَيد الله ـ وهو ابن عُمر العُمَريّ ـ به،

---

(١) لا أصل له، فهو مرسل، ومرسله زيد بن رُفيع، ضعفه الدارقطني، وقال النسائي: ليس بالقوي، وحماد هو ابن عمر النصيبي متهم بالكذب، وقال البخاري منكر الحديث، وقال ابن حبان: يضع الحديث وضعاً. فالخبر باطل مرفوعاً.

وقال: فصلّى عليه، وصلينا معه، وأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[١]. . . الآية. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن يحيى بن سعيد القطان، عن عبيد الله، به.

[٣٦٢٠] وقد رُوِي من حديث عُمَر بن الخطاب نفسه أيضاً بنحوٍ من هذا، فقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوبُ، حدثنا أبي، عن ابن إسحاقَ، حَدَّثني الزهريُّ، عن عُبَيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: سَمِعتُ عُمَر بن الخطابَ ـ رضي الله عنه ـ يقول: لما تُوفي عبد الله بن أبَيّ دُعِي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولتُ حتى قمتُ في صدره، فقلت: يا رسول الله، أعَلى عَدُوّ الله عبد الله بن أُبيّ القائل يوم كذا كذا وكذا؟! يُعَدِّد أيامه ـ قال: ورسول الله ﷺ يتبسم، حتى إذا أكثرتُ عليه قال: «أخِّر عني يا عمر، إني خُيِّرت فاخترتُ، قد قيل لي: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، لو أعلم أني إن زدت على السبعين غُفِر له لزدت». قال: ثم صلّى عليه، ومشى معه، وقام على قبره حتى فُرِغ منه. قال: فعجبٌ لي وجَراءتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم! قال: فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾. فما صلّى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره، حتى قَبَضه الله عز وجل[٢]. وهكذا رواه الترمذي في التفسير من حديث محمد بن إسحاق، عن الزهري، به، وقال: حسن صحيح.

[٣٦٢١] ورواه البخاري، عن يحيى بن بُكَير، عن الليث، عن عُقَيل، عن الزُّهري، به ـ فذكر مثله ـ وقال: «أخِّر عني يا عمرَ». فلما أكثرت عليه قال: «إني خُيِّرت فاخترتُ، ولو أعلم أني إن زدتُ على السبعين يُغْفر له لَزِدْتُ عليها». قال: فصلّى عليه رسول الله ثم انصرف، فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾. . . الآية، فعجبتُ بعد من جُرْأتي على رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ أعلم[٣].

[٣٦٢٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عُبَيد، حدثنا عبد الملك، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أبيّ، أتى ابنُه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك إن لم تأته لم نَزَلْ نُعيَّر بهذا. فأتاه النبيّ ﷺ فوجده قد أدخل في حفرته، فقال: «أفلا قبل أن تدخلوه!» فأخرجَ من حُفرته، وتَفَل عليه من ريقه من قَرْنِهِ إلى قَدَمِهِ، وألبسه قَمِيصه[٤]. ورواه النسائي، عن أبي داود الحراني، عن يعلى بن عبيد، عن عبد الملك ـ وهو ابن أبي سليمان ـ به.

[٣٦٢٣] وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن عثمان، أخبرنا ابن عُيَينة، عن عَمْرو، سَمِعَ جابر بن عبد الله قال: أتى النبي ﷺ عبد الله بن أبيّ بعدما أُدخِلَ في قبره، فأمر به فَأُخْرِجَ، ووُضع على ركبتيه ونفث

---

(١) أخرجه البخاري ٤٦٧٠ ومسلم ٢٧٧٤ والطبراني ١٧٠٥١ والبيهقي في «الدلائل» ٥/ ٢٨٧ من طريقين عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر. وأخرجه البخاري ١٢٦٩، وأحمد ٢/ ١٨، ومسلم ٢٧٧٤ ح ٤، والنسائي ٤/ ٣٦، والترمذي ٣٠٩٨ وابن ماجه ١٥٢٣ من طرق عن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد الله به.

(٢) أخرجه أحمد ٩٥ وعبد بن حميد ١٩، والترمذي ٣٠٩٧، والبزار ١٩٣، والطبري ١٧٠٧٠، وابن حبان ١٣٧٦، وإسناده حسن، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث فزالت شبهة تدليسه.

(٣) أخرجه البخاري ١٣٦٦ و٤٦٧١، والنسائي في المجتبى ٤/ ٦٧، وفي الكبرى ١١٢٢٥.

(٤) صحيح. أخرجه أحمد ٣/ ٣٧١ من حديث جابر بن عبد الله، ورجاله ثقات.

عليه من ريقه، وألبسه قميصَه، والله أعلم[١]. وقد رواه أيضاً في غير موضع مع مسلم والنسائي، من غير وجه، عن سفيان بن عُيَينة به.

[٣٦٢٤] وقال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى، حدثنا مجالد، حدثنا جابر (ح) وحدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبد الرحمن بن مغراء الدوسي، حدثنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: لما مات رأس المنافقين ـ قال يحيى بن سعيد: بالمدينة ـ فأوصى أن يُصلي عليه النبي ﷺ فجاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أبي أوصى أن يكفن في قميصك ـ وهذا الكلام في حديث عبد الرحمن بن مغراء ـ قال يحيى في حديثه: فصلّى عليه، وألبسه قميصه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ وزاد عبد الرحمن: وخلع النبي ﷺ قميصه، فأعطاه إياه، ومشى فصلّى عليه، وقام على قبره، فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ لما وَلّى قال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[٢]. وهذا إسنادٌ لا بأسَ بِهِ، وما قبله شاهد له.

[٣٦٢٥] وقال الإمام أبو جعفر الطبري: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا حماد بن سلمة، عن يزيد الرّقاشي، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أراد أن يُصَلّي على عبد الله بن أبيّ، فأخذ جبريلُ بثوبِهِ وقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[٣]. ورواه الحافظ أبو يعلى في مسنده، من حديث يَزيد الرّقاشيّ، وهو ضَعِيفٌ.

[٣٦٢٦] وقال قتادةُ: أرسل عبدُ الله بن أُبيّ إلى رسول الله ﷺ وهو مريض، فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ: «أهلكك حُبُّ يهودَ». قال: يا رسول الله، إنما أرسلتُ إليك لتستغفر لي، ولم أرسل إليك لتؤنبني! ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه يكفَّن فيه أباه، فأعطاه إياه، وصلّى عليه، وقام على قبره، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[٤]. وقد ذكر بعض السلف أنه إنما ألبسه قميصه، لأن عبد الله بن أبيّ لما قَدِم العباس طُلِب له قَمِيصٌ، فلم يُوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبيّ، لأنه كان ضخماً، طويلاً، ففعل ذلك به رسول الله ﷺ مكافأة له، فالله أعلم. ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نُزول هذه الآية الكريمةِ عليه لا يصلّي على أحد من المنافقين، ولا يقوم على قبره.

[٣٦٢٧] كما قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوبُ، حدثنا أبي، عن أبيه، حدثني عبد الله بن أبي قتادة، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دُعِي لجنازةٍ سأل عنها، فإن أثني عليها خيرٌ قام فصلّى عليها، وإن أثني عليها غير ذلك قال لأهلها: «شأنكم بها»، ولم يُصَلِّ عليها[٥]. وكان عمر بن الخطاب لا يُصَلِّي على جنازة من

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٢٧٠ و١٣٥٠ و٣٠٠٨ و٥٧٩٥، ومسلم ٢٧٧٣، والنسائي ٤/ ٣٧.

(٢) إسناده لا بأس به لأجل مجالد.

(٣) متن باطل، وإسناد ضعيف. أخرجه الطبري ١٧٠٦٨ وأبو يعلى ٤١٢٢ بهذا الإسناد، واكتفى ابن كثير رحمه الله بقوله: ضعيف. والصواب أنه متن باطل فإنه عارض أحاديث صحاح، وقد تقدم بعضها، وأنه صلى عليه، ثم نزلت الآية. وأما هذا الخبر ففيه أنه لم يصلِّ عليه، وهذا الخبر من مناكير يزيد بن أبان الرقاشي، فقد روى أحاديث مناكير عن أنس.

(٤) أخرجه الطبري ١٧٠٧٤ عن قتادة، وهذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف، ثم إن صدره غريب، فالأحاديث الصحيحة تذكر أن عبد الله أعلم رسول الله ﷺ بعد موت أبيه ـ ابن سلول.

(٥) صحيح. أخرجه أحمد ٥/ ٢٩٩ و٣٠٠ وصححه ابن حبان ٣٠٥٧، والحاكم ١/ ٣٦٤ ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع ٣/ ٣ ـ ٤: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

جُهِل حاله، حتى يُصَلِّي عليها حُذَيفة بن اليمان، لأنه كان يعلم أعيان منافقين قد أخبره بهم رسولُ الله ﷺ ولهذا كان يقال له: صاحب السر الذي لا يعلمه غيره، أي: من الصحابة.

وقال أبو عُبَيد في كتاب الغريب في حديثِ عُمَر أنه أراد أن يصلي على جنازة رَجُلٍ، فَمرَزَه حُذيفة، كأنه أراد أن يَصُدَّه عن الصلاة عليها. ثم حَكَى عن بعضهم أن المَرْزَ بلغة أهل اليمامة هو: القَرْص بأطراف الأصابع. ولما نهى الله ـ عز وجل ـ عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصنيعُ من أكبر القُرُبات في حق المؤمنين، فشرع ذلك. وفي فعله الأجرُ الجزيل، لما ثبت في الصحاح وغيرها، من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

[٣٦٢٨] «من شَهِد الجنازَة حتى يُصَلَّى عليها فله قيراطٌ، ومن شَهِدها حتى تُدفن فله قيراطان». قيل: وما القيراطان؟ قال: «أصغرُهما مثل أحد»[١].

[٣٦٢٩] وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات، فقد قال أبو داود: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي، أخبرنا هشام، عن عبد الله بن بَحِير، عن هانىء ـ وهو أبو سعيد البربري، مولى عثمان بن عفان ـ عن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وَقَفَ عليه وقال: «استغفروا لأخيكم، وسلوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأَلُ»[٢]. انفرد بإخراجه أبو داود رحمه الله.

﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

وقد تقدم تفسير نظير هذه الآية، ولله الحمد والمنة[٣].

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾

يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد، الناكلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السَّعَةِ والطَّول، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾، ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]، أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبنُ شيء، كما قال الشاعر:

أفي السِّلْمِ أعياراً جَفَاءً وَغِلْظَةً ... وَفي الحَرْبِ أشباهَ النِّسَاءِ العَوَارِكِ[٤]

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧ و١٣٢٥ ومسلم ٩٤٥ ح ٥٢، وأبو داود ٣١٦٨، والترمذي ١٠٤٠ والنسائي ٤/ ٧٦، وابن ماجه ١٥٣٩، وأحمد ٢/ ٤٠١ و٢٣٢ و٢٨٠ و٤٧٠ و٥٠٣ من حديث أبي هريرة.

(٢) حسن، أخرجه أبو داود ٣٢٢١، والحاكم ١/ ٣٧٠، والبيهقي ٤/ ٥٦ وإسناده لا بأس به لأجل عبد الله بن بحير، وله ما يؤيده، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٣) انظر الآية ٥٥ من هذه السورة.

(٤) الأعيار: جمع عير، وهو الحمار. ونساء عوارك: نساء حيَّض.

وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١)﴾ [محمد: ٢٠ـ٢١]. الآية، وقوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: بِسَبَب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، أي: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.

﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)﴾

لما ذكر تعالى ذمّ المنافقين بيّن ثناء المؤمنين، وما لهم في آخرتهم، فقال: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا﴾... إلى آخر الآيتين، من بيان حالهم ومآلهم. وقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أي: في الدار الآخرة، في جناتِ الفِرْدَوسِ والدَّرَجاتِ العُلى.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠)﴾

ثم بَيّن تعالى حالَ ذَوِي الأعذار في ترك الجهاد، الذين جاؤوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حولَ المدينة. قال الضحاك، عن ابن عباس: أنه كان يقرأ: «وجاء المعذرون»، بالتخفيف، ويقول: هم أهل العذر. وكذا روى ابن عُيَينة، عن حُمَيد، عن مجاهد سواء. قال ابنُ إسحاقَ: وبَلَغني أنهم نَفَر من بني غِفار، منهم خُفافُ بن إيماء بن رَخضَة. وهذا القولُ هو الأظهر في معنى الآية، لأنه قال بعد هذا: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، أي: لم يأتوا فيعتذروا. وقال ابن جُرَيج، عن مجاهد: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾، قال: نفَر من بني غِفار، جاؤوا فاعتذروا فلم يُعْذِرهم الله. وكذا قال الحسن، وقتادة، ومحمد بن إسحاق. والقولُ الأولُ أظهر ـ والله أعلم ـ لما قدمنا من قوله بعده: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، أي: وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار، ثم أوعدهم بالعذاب الأليم، فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)﴾

ثم بين تعالى الأعذار التي لا حرَج على من قَعَد فيها عن القتال، فذكر منها ما هو لازمٌ للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيعُ معه الجِلاد في الجهادِ، ومنه العمى والعَرَج ونحوهما، ولهذا بدأ به وما هو عارض بسبب مرض عَنَّ له في بدنه، وشغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره، لا يقدر على التجهز للحرب، فليس على هؤلاءِ حَرَجٌ إذا قَعَدُوا ونَصَحُوا في حال قعودهم، ولم يُرْجِفُوا

بالناس، ولم يُثَبِّطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا، ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وقال سفيان الثوري، عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي ثمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا عن الناصح لله؟ قال: الذي يُؤثر حق الله على حق الناس، وإذا حدث له أمران، أو: بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة، بدأ بالذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا.

وقال الأوزاعيُّ: خرج الناس للاستسقاء، فقام فيهم بلال بن سعد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر من حضر، ألستم مُقِرِّين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم. فقال: اللهم إنا نسمَعُك تقول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾، اللهم وقد أقررنا بالإساءة فاغفر لنا وارحَمنا واسقِنا. ورفع يديه ورفعوا أيديهم فَسُقوا. وقال قتادة: نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني.

[٣٦٣٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازي، حدثنا ابن جابر، عن ابن فروة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتُب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب براءة، فإني لواضعُ القلم على أذني إذ أُمِرْنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾[(١)]... الآية.

[٣٦٣١] وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك أن رسول الله ﷺ أمرَ الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه، فيهم عبد الله بن مُغَفَّل المزني، فقالوا: يا رسول الله، احملنا. فقال لهم: «والله لا أجد ما أحملكم عليه». فتولوا ولهم بكاء. وعزّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملاً. فلما رأى الله حرْصَهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٢)].

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾: نزلت في بني مقرِّن من مزينة. وقال محمد بن كعب: كانوا سبعة نفر، من بني عمرو بن عوف: سالم بن عُمَير، ومن بني واقف: هَرَمي بن عمرو. ومن بني مازن بن النجار: عبد الرحمن بن كعب، ويكنى أبا ليلى. ومن بني المُعَلى: سلمان بن صخر. ومن بني حارثة: عبد الرحمن بن زيد، أبو عبلة، وهو الذي تصدق بعرضه فقبله الله منه. ومن بني سَلِمة: عمرو بن عَنَمة، وعبد الله بن عمرو المزني.

[٣٦٣٢] وقال محمد بن إسحاق في سياق غزوة تبوك: «ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بني عمرو بن عوف: سالم بن عُمَير، وعُلْبَة بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، أخو بني مازن بن النجار، وعَمْرو بن الحُمام بن الجَمُوح، أخو بني سَلِمَةَ، وعبد الله بن المغفَّل المزني وبعضُ الناس يقول: بل هو عبد الله بن عمرو المزني، وهَرَميّ بن عبد الله، أخو بني واقف، وعِرْباض بن سارية الفَزاري، فاستحملوا رسولَ الله ﷺ وكانوا أهلَ حاجةٍ، فقال: «لا أجدُ ما أحملكم عليه». فولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون.

(١) وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» ٣/ ٤٧٨ لابن مردويه والدارقطني في «الأفراد» ولم يتكلم عليه، وابن جابر هذا لم أعرفه، وكذا ابن فروة، ولعله إسحاق بن أبي فروة، فإنه واهٍ، والله أعلم، والخبر غريب بكل حال، لم يذكره السيوطي في أسباب النزول ولا الواحدي، والله أعلم.

(٢) أخرجه الطبري ١٧٠٩٤ بسند ضعيف لضعف عطية العوفي.

[٣٦٣٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن [عبد الله][1] الأودي، حدثنا وكيع، عن الربيع، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلّفتم بالمدينة أقواماً، وما أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم وادياً، ولا نلتم من عدو نيلاً إلا وقد شركوكم في الأجر» ثم قرأ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية[2].

[٣٦٣٤] وأصل هذا الحديث في الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ بالمدينة أقواماً ما قَطعتم وادياً، ولا سِرتُم مسيراً «إلا وهم معكم». قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نعم، حَبَسهم العذرُ»[3].

[٣٦٣٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة رجالاً، ما قطعتم وادياً ولا سلكتم طريقاً إلا شركوكم في الأجر، حبسهم المرض»[4]. ورواه مسلم، وابن ماجه، من طرق، عن الأعمش، به. ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنّبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال، ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم، ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾، أي: لن نصدقكم، ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾، أي: قد أعلمنا الله أحوالكم، ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾، أي: سَيُظهر أعمالكم للناس في الدنيا، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: فيخبركم بأعمالكم، خيرها وشرها، ويجزيكم عليها. ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم، ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾، احتقاراً لهم، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾، أي: خُبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ في آخرتهم ﴿جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، أي: من الآثام والخطايا. وأخبر أنهم وإن رضوا عنهم بحلفهم لهم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفأرة فُويسقة لخروجها من جُحرها للإفساد، ويقال: فَسقت الرُّطَبة: إذا خرجت من أكمامها.

---

(١) سقط من سائر النسخ، والاستدراك عن كتب الرجال، منها «الجرح والتعديل» ٦/ ٢٤٤.

(٢) مرسل. وهو يتأيد بما بعده.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٤٢٣ و٢٨٣٩، وأبو داود ٢٥٠٨، وابن ماجه ٢٧٦٤، وأحمد ٣/ ١٠٣ و١٠٦ و١٨٢ و٣٤١، وابن أبي شيبة ١٨٨٥٦، وابن سعد ١/ ٢/ ١٢١.

(٤) صحيح أخرجه أحمد ٣/ ٣٠٠، ومسلم ١٩١١، وابن ماجه ٢٧٦٥، والبيهقي في «الدلائل» ٥/ ٢٦٧.

﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾﴾

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، ﴿وَأَجۡدَرُ﴾، أي أحرى ألاَّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، كما قال الأعمش، عن إبراهيم قال: جلس أعرابي إلى زيد بن صُوحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نَهاوَند، فقال الأعرابي: والله إنَّ حديثَكَ ليُعْجِبُني، وإن يدك لَتُريبُني! فقال زيد: ما يُريبك من يدي؟ إنها الشمال. فقال الأعرابي: والله ما أدري، اليمين يقطعون أو الشمالَ؟! فقال زيد بن صوحان: صدق الله: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾.

[٣٦٣٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن أبي موسى، عن وهب بن مُنَبِّه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «من سَكَنَ البادية جفا، ومن اتبع الصيد غَفَل، ومن أتى السلطان افتتن»[1]. ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن سفيان الثوري، به. وقال الترمذي: حسن غريب؛ لا نعرفه إلا من حديث الثوري. ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله تعالى منهم رسولاً، وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩].

[٣٦٣٧] ولما أهدى ذلك الأعرابيُ تلك الهديَّةَ لرسولِ الله ﷺ فردَّ عليه أضعافها حتى رضي، قال: «لقد هَمَمْت ألاَّ أقبل هدية إلا من قُرشِي، أو ثَقَفي أو أنصاري، أو دَوْسيّ»[2]؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة، والطائف، والمدينة، واليَمن، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب، لما في طباع الأعراب من الجفاء.

[٣٦٣٨] **حديث الأعرابي في تقبيل الولد،** قال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كُرَيب قالا: حدثنا أبو أسامة وابن نُمير، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: قَدِمَ ناسٌ من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبِّلون صبيانكم؟ قالوا: نعم. قالوا: لكنا والله ما نُقَبِّل. فقال رسولُ الله ﷺ: «وَأَملكُ أن كان الله نزع منكم الرحمة؟ وقال ابن نُمير: من قَلْبِكَ الرحمة»[3]. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق أن

---

(١) حسن لغيره. وسنده ضعيف لجهالة أبي موسى فإنه لم يرو عنه غير سفيان، ولم يوثقه غير ابن حبان وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه أحمد رقم ٣٣٦٢، والنسائي ٧/ ١٩٥ ـ ١٩٦ من طريق عبد الرحمن بن مهدي بهذا الإسناد. وأخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٣٣٦ عن وكيع، والبخاري معلقاً في الكنى ص ٧٠، وأبو داود ٢٨٥٩ من طريق يحيى بن سعيد القطان، والطبراني ١١٠٣٠ عن طريق أبي نعيم، ثلاثتهم عن سفيان الثوري، به. وله شاهد حسن من حديث أبي هريرة عند أحمد ٢/ ٣٧١ وآخر عن البراء بن عازب مختصراً بلفظ «من بدا جفا» وهو في المسند ٤/ ٢٩٧. وصححه أحمد شاكر في تعليقه.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد رقم ٢٦٨٧، والبزار (١٩٣٨ ـ كشف الأستار)، وابن حبان ٦٣٨٤، والطبراني ١٠٨٩٧ من حديث ابن عباس، وقال الهيثمي في المجمع ٤/ ١٤٨: ورجال أحمد رجال الصحيح، وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند وكذا شعيب الأرناؤوط.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٩٩٨، ومسلم ٢٣١٧، وأحمد ٦/ ٥٦ و٧٠.

يُعلّمه الإيمان والعلم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يُسأل عما يفعل، لعلمه وحكمته. وأخبر تعالى أن منهم ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾، أي: في سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: غرامة وخسارة، ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾، أي: ينتظر بكم الحوادث والآفات، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾، أي: هي منعكسة عليهم والسُّوء دائرٌ عليهم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أي: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان. وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾: هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قُربة يتقربون بها عند الله، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم، ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾، أي: ألا إن ذلك حاصل لهم، ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾

يُخبِرُ تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أَعَد لهم من جناتِ النَّعيم، والنعيم المقيم. قال الشعبي: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية. وقال أبو موسى الأشعري، وسعيد بن المسيِّب، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ.

[٣٦٣٩] ، وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ: مَرّ عمر بن الخطاب برجل يقرأ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾، فأخذ عُمَر بيده فقال: من أقرأَكَ هذا؟ فقال: أُبيُّ بن كعب. فقال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه. فلما جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم. قال: وسمعتَها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: لقد كنت أرى أنا رُفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أبيّ: تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣)﴾، وفي سورة الحشر: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، وفي الأنفال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥] إلى آخر الآية، رواه ابن جرير. قال: «وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤها برفع ﴿وَالْأَنصَارِ﴾ عطفاً على ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ فقد أخبر الله العظيمُ أنه قد رَضِي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سَبَّهم أو أبغض أو سبَّ بعضهم، ولا سيما سيدُ الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديق الأكبر والخليفةَ الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة، رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويَسُبونهم، عياذاً بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبّون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)﴾

يخبر تعالى رسوله ـ صَلَواتُ الله وسلامهُ عليه ـ أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون، وفي

أهل المدينة أيضاً منافقون ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾، أي: مرنوا واستمروا عليه، ومنه يقال: «شيطان مَريد ومارد»، ويقال: «تَمرَّدَ فلان على الله» أي: عَتَا وتَجبَّر. وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]. . . الآية. لأن هذا من باب التوسّم فيهم بصفات يُعْرَفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين. وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً، وإن كان يراه صباحاً ومساءً.

[٣٦٤٠] وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم، عن رجل، عن جُبَير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت يا رسول الله، إنهم يَزعمُون أنه ليس لنا أجرٌ بمكة، فقال: «لتأتينكم أجورُكم ولو كنتم في جُحر ثعلب». وأصغى إليَّ رسول الله ﷺ برأسه فقال: «إن في أصحابي منافقين»[١]. ومعناه أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له، ومن مثلهم صَدَر هذا الكلامُ الذي سمعه جُبَير بن مطعم. وتقدم في تفسير قوله: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ أنه ـ عليه السلام ـ أعلم حُذَيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم.

[٣٦٤١] وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عُمَر البيروتي من طريق هشام بن عمار: حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا ابن جابر، حدثني شيخ ببيروتَ يكنى أبا عُمَر، أظنه حدثني عن أبي الدرداء: أن رجلاً يقال له حرملة، أتى النبي ﷺ فقال: الإيمان ها هنا ـ وأشار بيده إلى لسانه والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلا قليلاً، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل له لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وارزقه حُبّي، وحبَّ من يُحبُّني، وصَيِّر أمره إلى خير. فقال: يا رسول الله، إنَّه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأساً فيهم، أفلا آتيك بِهم؟ قال: «من أتانا استغفرنا له، ومن أَصَرَّ على دينه فالله أولى به، ولا تَخرِقن على أحَدٍ ستراً»[٢]. قال: وكذا رواه أبو أحمد الحاكم، عن أبي بكر الباغَنديّ، عن هشام بن عمّار، به.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادةَ في هذه الآية أنه قال: ما بال أقوام يتكلّفون عِلْم الناس؟ فلان في الجنة وفلان في النار. فإذا سألت أحدَهم عن نفسه قال: لا أدري! لَعَمْري أنت بنفسك أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك. قال نبي الله نوح: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]، وقال نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود: ٨٦]، وقال الله لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

[٣٦٤٢] وقال السدّيُّ، عن أبي مالك، عن ابن عباس في هذه الآية قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: «اخرج يا فلان، فإنك منافق، واخرج يا فلان فإنك منافق». فأخرج من المسجد ناساً منهم فضحهم. فجاء عُمَر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حَياء أنه لم يشهد الجمعة، وظن أن الناس قد انصرفوا، واختبؤوا هم من عمر، ظنوا أنه قد علم بأمرهم. فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناسُ لم يصلّوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشر يا عمر، قد فَضَح الله المنافقين اليومَ. قال ابنُ عباس: فهذا العذابُ الأولُ

---

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٤/ ٨٢، ٨٣، ٨٥ وأبو يعلى ٧٤٠٥ من حديث جبير بن مطعم. قال الهيثمي في «المجمع» ٩٢٨٧: فيه رجل لم يسمّ اهـ. فالإسناد ضعيف.

(٢) ضعيف. ابن جابر هو عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الأموي ثقة، روى له البخاري، وأما شيخه فإنه مجهول لا يُعرف، والمتن غريب والله أعلم.

حين أخرجَهم من المسجد، والعذابُ الثاني عذابُ القبر[١]. وكذا قال الثوري عن السدي عن أبي مالك نحو هذا[٢].

وقال مجاهد في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، يعني: القتل والسِّباء، وقال في رواية: بالجوع وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، قال: النار. وقال ابن جُرَيج: عذابُ الدنيا، وعذاب القبر، ثم يُردون إلى عذاب النار. وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا، وعذاب في القبر. وقال عبد الرحمن بن زيد: أما عذاب في الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فهذه المصائب لهم عذاب، وهي للمؤمنين أجر، وعذاب في الآخرة في النار، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، قال: النار. وقال محمد بن إسحاق: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، قال: هو ـ فيما بلغني ـ ما هم فيه من أمر الإسلام، وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها، ثم العذاب العظيم الذي يُرَدّون إليه، عذاب الآخرة والخلد فيه.

[٣٦٤٣] وقال سعيد، عن قتادة في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: عذاب الدنيا، وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسرّ إلى حذيفة باثني عشر رجلاً من المنافقين، فقال: ستة منهم تكفيهم الدُّبيلة: سراج من نار جهنم، يأخذ في كتف أحدهم حتى يفضي إلى صدره، وستة يموتون موتاً». وذكر لنا أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان إذا مات رجل ممن يرى أنه منهم، نظر إلى حذيفة، فإن صلّى عليه وإلا تركه. وذُكر لنا أن عمر بن الخطاب قال لحذيفة: أَنشُدُكَ بالله، أمنهم أنا؟ قال: لا. ولا أُومن منها أحداً بعدك[٣].

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

لما بَيّن تعالى حالَ المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبةً عنها وتكذيباً وشكّاً، شَرَع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾، أي: أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربّهم، ولهم أعمال أخر صالحةٌ، خَلَطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحتَ عفو الله وغفرانه. وهذه الآيةُ، وإن كانت نزلت في أناس مُعَيَّنين، إلا أنّها عامةٌ في كل المذنبين الخاطئين المخلطين المتلوثين. وقد قال مجاهد: إنها نزلت في أبي لُبابة لما قال لبني قريظة: إنه الذبح، وأشار بيده إلى حلقه. وقال ابن عباس: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾، نزلت في أبي لُبابة وجماعة من أصحابه، تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل: وسبعة معه، وقيل: وتسعة معه، فلما رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾، أطلقهم النبي ﷺ وعفا عنهم.

[٣٦٤٤] وقال البخاري: حدثنا مُؤمّلُ بن هشام، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عوف، حدثنا أبو

---

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ١٧١٣٧ والطبراني في «الأوسط» ٧٩٦ من حديث ابن عباس. قال الهيثمي في «المجمع» ١١٠٥٣: فيه حسين بن عمرو العنقزي، وهو ضعيف اهـ وكذا هو في إسناد الطبري، والسدي عنده مناكير. فالخبر واهٍ.

(٢) لكن ليس فيه المرفوع ولا قصة عمر، انظر الطبري ١٧١٣٨.

(٣) أخرجه الطبري ١٧١٤٥ عن قتادة مرسلاً، والمرسل من قسم الضعيف. وتقدم.

رجاء، حدثنا سَمُرة بن جُندَب قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان فابتعثاني، فانتهينا بي إلى مدينة مَبْنِيَّة بِلَبنِ ذَهَبٍ ولَبِنِ فضَّةٍ، فتلقانا رجال شَطْر من خلقهم كأحسن ما أنت رَاء، وشطر كأقبح ما أنت راءٍ، قالا لهم: اذهبوا فَقَعُوا في ذلك النهر. فوقعوا فيه، ثم رَجَعوا إلينا قد ذهب ذلك السوءُ عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جنَّةُ عَدْنٍ، وهذا منزلك. قالا: أما القومُ الذين كانوا شَطْرٌ منهم حَسَن وشَطْرٌ منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتجاوز الله عنهم»[1]. هكذا رواه مختصراً، في تفسير هذه الآية.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

أمر الله تعالى رسول الله ﷺ بأن يأخُذَ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها، وهذا عامٌ وإن أعاد بعضهم الضمير في «أموالهم» إلى «الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً». ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً برسول الله ﷺ ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، وقد رَدّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة، وقاتلوهم حتى أدّوا الزكاة إلى الخليفَةِ، كما كانوا يُؤَدُّونها إلى رسولِ الله ﷺ حتى قال الصدِّيقُ: والله لو مَنَعوني عِقَالاً ـ وفي رواية: عَنَاقاً ـ كانوا يُؤَدّونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه. وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، أي: ادع لهم واستغفر لهم.

[٣٦٤٥] كما رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُتيَ بصدقة قَومٍ صَلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى»[2].

[٣٦٤٦] وفي الحديث الآخر أن امرأةً قالت: يا رسول الله، صَلِّ عَلَيَّ وعلى زوجي. فقال: «صَلَّى الله عليك، وعلى زَوْجِكِ»[3]. وقوله: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾، قرأ بعضهم: صلواتك على الجمع، وآخرون قرؤوا: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ على الإفراد. ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، قال ابن عباس: رحمة لهم. وقال قتادة: وقار. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾، أي: لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾، أي: بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له.

[٣٦٤٧] قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا أبو العُمَيس، عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة، عن ابن لحذيفةَ، عن أبيه: أن النبي ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته، وأصابت وَلده وَوَلَدَ وَلَدِه[4].

[٣٦٤٨] ثم رواه عن أبي نُعَيم، عن مسْعَر، عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة، عن ابن لحذيفة ـ قال مسعر ـ: وقد ذكره مرة عن حُذَيفة ـ: إن صلاة النبي ﷺ لَتُدركُ الرجلَ وَوَلده وولَدَ وَلَدِه[5].

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٧٤.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٤٩٧ و ٤١٦٦ و٦٣٣٢ و٦٣٥٩ ومسلم ١٠٧٨ وأبو داود ١٥٩٠ والنسائي ٥/ ٣١ وأحمد ٤/ ٣٥٣ و٣٥٥ و٣٨١ و٣٨٨ والطيالسي ٨١٩.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ١٥٣٣ وأحمد ٣/ ١٩٨ والدارمي ١/ ٢٤ وابن حبان ٩١٦ و٩١٨ والبيهقي في السنن ٢/ ١٥٣. وإسناده حسن لأجل نُبيح بن عبد الله.

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦، وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ٢٦٨: رواه أحمد عن ابن لحذيفة عن حذيفة ولم أعرفه.

(٥) أخرجه أحمد ٥/ ٤٠٠ وابن حذيفة لم يسمّ، وهو موقوف بكل حال.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحطّ الذنوب ويمحّصُها ويمحقها. وأخبر تعالى أنَّ كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تَصَدَّق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يَتَقَبَّلُها بيمينه فَيُرَبِّيها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أحد. كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ، كما قال الثوري ووكيع، كلاهما عن عباد بن منصور، عن القاسم بن محمد، أنه سمع أبا هُرَيرة يقول:

[٣٦٤٩] قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقةَ ويأخذُها بيمينِهِ فَيُرَبِّيها لأحدكم، كما يُرَبِّي أَحَدُكم مُهْرَه، حتى إن اللُّقمةَ لتصير مثل أحُدٍ»(١). وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، وقوله ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وقال الثوري والأعمش كلاهما، عن عبد الله بن السائب، عن عبد الله بن أبي قتادة قال: قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إن الصدقة تقع في يد الله ـ عز وجل ـ قبل أن تقع في يد السائل. ثم قرأ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾. وقد روى ابن عساكر في تاريخه، في ترجمة عبد الله بن الشاعر السَّكْسَكِيِّ الدمشقي ـ وأصله حِمْصيٌّ، وكان أحد الفقهاء، روى عن معاوية وغيره، وحكى عنه حَوْشَبُ بن سيف السَّكْسَكِيّ الحِمْصِيُّ قال: غزا الناس في زمان معاوية ـ رضي الله عنه ـ وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فَغَلَّ رجل من المسلمين مئة دينار رومية. فلما قفل الجيش نَدم وأتى الأميرَ، فأبى أن يقبلها منه، وقال: قد تفرق الناس ولن أقبلها منك، حتى تأتي الله بها يوم القيامةَ. فجعل الرجلُ يستقرىء الصحابةَ، فيقولون له مثلَ ذلك، فلما قَدِم دمشق ذهب إلى معاويةَ ليقبلها منه، فأبى عليه. فخرج من عنده وهو يبكي ويَسْتَرْجِعُ، فمر بعبد الله بن الشاعر السكسكي، فقال له: ما يُبْكيكَ؟ فذكر له أمره، فقال له: أَمطيعي أنت؟ فقال: نعم، فقال: اذهب إلى معاوية فقل له: اقبَلْ مني خُمسَك. فادفع إليه عشرين ديناراً، وانظر إلى الثمانين الباقية فتصدَّقْ بها عن ذلك الجيش، فإن الله يقبل التوبة عن عباده، وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم. ففعَلَ الرجلُ، فقال معاوية ـ رضي الله عنه ـ: لأن أكون أفتيتُه بها أحبُّ إليَّ من كلِّ شيء أَمْلِكُه، أحسن الرجلُ.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

قال مجاهد: هذا وَعِيدٌ ـ يعني من الله تعالى ـ للمخالفين أوامره، بأن أعمالهم سَتُعرَضُ عليه ـ تبارك وتعالى ـ وعلى الرسول، وعلى المؤمنين. وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٩]، وقال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات: ١٠]، وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا، كما قال الإمام أحمد:

[٣٦٥٠] حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا دَرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعملُ في صخرة صَمَّاء ليس لها باب ولا كُوّة، لأخرج الله عمله للناس

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٢/٤٠١ رقم ٩٢١٧ و٤٦٩ رقم ١٠٠٤٤ والترمذي ٦٦٢ وابن أبي شيبة ٣/١١٢ من حديث أبي هريرة، وقال الترمذي حسن صحيح وهو كما قال. وأصله في الصحيحين.

كائناً ما كان»[1]. وقد ورد أن أعمال الأحياء تُعرَض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ، كما قال أبو داود الطيالسي:

[٣٦٥١] حدثنا الصلت بن دينار، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك»[2].

[٣٦٥٢] وقال الإمام أحمد: أخبرنا عبد الرزاق، عن سفيان، عمَّن سمع أنساً يقول: قال النبي ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تَهدِيهم كما هديتنا»[3].

وقال البخاري قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: إذا أعجبك حُسن عمل امرىء فقل: ﴿ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. وقد وردَ في الحديث شبيهٌ بهذا.

[٣٦٥٣] قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حُمَيد، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا عليكم أن تَعجَبُوا بأحدٍ حتّى تنظروا: بم يُختَم له؟ فإنَّ العاملَ يعملُ زماناً من عمره ـ أو: بُرهَة من دهره ـ بعمل صالح لو ماتَ عليه لدخلَ الجنةَ، ثم يتحولُ فيعملُ عملاً سيئاً، وإنَّ العبد ليعمل البرهةَ من دَهرِهِ بعملٍ سيّىءٍ لَو مات عليه دخلَ النار، ثم يتحوَّلُ فيعمل عملاً صالحاً، وإذا أراد الله بعبده خيراً استعملَه قبل موته» قالوا: يا رسول الله، وكيف يستعمله؟ قال: «يُوفِّقه لعملٍ صالحٍ ثم يقبضه عليه»[4]. تفرد به أحمد من هذا الوجه.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وغير واحد: هم الثلاثة الذين خُلِّفوا، أي: عن التوبة، وهم: مُرارة بن الربيع، وكعبُ بن مالك، وهلالُ بن أمية، قعدُوا عن غزوة تبوك في جملةٍ من قعد، كسلاً وميلاً إلى الدّعة والحفظِ وطيب الثّمار والظلال، لا شكاً ونفاقاً، فكانت منهم طائفةٌ رَبَطُوا أنفسهم

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٣/ ٢٨ وأبو يعلىٰ ١٣٧٨ وابن حبان ٥٦٧٨ والحاكم ٤/ ٣١٤، ومداره علىٰ درّاج عن أبي الهيثم، وفي رواية درّاج عن أبي الهيثم ضعف. ومع ذلك صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه الهيثمي في «المجمع» ١٧٦٧٩، وفي ذلك نظر، فإن درّاج روىٰ عن أبي الهيثم مناكير كثيرة، راجع الميزان للذهبي.

(٢) ضعيف. أخرجه الطيالسي ١٧٩٤، وفيه الصلت بن دينار متروك الحديث، وقد أنكر أبو حاتم سماع الحسن من جابر انظر المراسيل ص ٣٩. وانظر ما بعده وترجمة الصلت بن دينار.

(٣) ضعيف. أخرجه أحمد ٣/ ١٦٥ من حديث الثوري عمن سمع أنساً عن أنس. وهذا إسناد ضعيف، وأظن الذي لم يسمه الثوري هو الصلت بن دينار، جاء في التهذيب: قال ابن إدريس: عاب شعبه علىٰ الثوري روايته عن الصلت بن دينار أبي شعيب. وقال شعبة: إذا حدثكم الثوري عن رجل لا تعرفونه، فلا تقبلوا منه، فإنما يحدثكم عن مثل أبي شعيب المجنون، وقال ابن حبان: تركه أحمد ويحيى، وقال الفلاس: متروك الحديث اهـ وقال النسائي والدارقطني: ليس بثقة راجع الميزان ٣٩٠٦. وله شاهد من حديث أبي أيوب. أخرجه الطبراني ٣٨٨٧ وابن حبان في «المجروحين» ١/ ٣٣٦ وقال ابن حبان: مسلمة بن علي الخشني روىٰ عن الثقات الموضوعات. وكذا اتهمه الحاكم بالوضع.

(٤) الصحيح موقوف، أخرجه أحمد ٣/ ١٢٠ من حديث أنس بن مالك، وأخرجه أحمد أيضاً ٣/ ٢٢٣ عن أنس موقوفاً، وقال أحمد: وقد رفعه حميد مرة ثم كف عنه اهـ. والراجح وقفه، لأن المعتبر آخر الأمرين من حميد، وصدره يبعد أن يكون مرفوعاً.

بالسواري، كما فَعَل أبو لبابة وأصحابه. وطائفةٌ لم يفعلوا ذلك، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبةُ أولئك قبل هؤلاء، وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية، وهي قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾... [التوبة: ١١٧] الآية، ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ١١٨]... الآية، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك. وقوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: هم تحت عفو الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه، وهو ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

سَبَبُ نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مَقْدَم رسولِ الله ﷺ إليها رجلٌ من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهبُ، وكان قد تَنَصَّر في الجاهلية، وقرأ عِلْم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرفٌ في الخزرج كبير. فلما قَدم رسولُ الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِق اللعينُ أبو عامر بريقه، وبارَزَ بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش، فألَّبهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أُحُدٍ، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله، وكانت العاقبة للمتقين. وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصَّفين، فوقَعَ في إحداهُنَّ رسول الله ﷺ وأُصِيبَ ذلك اليوم، فَجُرِح في وجهه وكُسِرَت رَبَاعِيَتُه اليمنى السفلى، وشُجَّ رأسه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نَصْرِه وموافقته، فلما عَرَفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسقُ يا عدوَّ الله! ونالوا منه وسَبُّوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بَعْدِي شرّ. وكان رسولُ الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرّد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً، فنالته هذه الدعوةُ. وذلك أنه لما فرغَ الناسُ من أُحُدٍ، ورأى أَمْرَ الرَّسُولِ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومَنَّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يَعِدهم ويُمنِّيهم أنه سَيَقْدَمُ بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويردُّه عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له مَعقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كُتُبه، ويكونَ مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاورٍ لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلّي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته عليه السلام فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية. فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله». فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضِّرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء، الذي أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من

هَدَمَه قبل مقدمه المدينة[١]. كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾: وهم أناس من الأنصار، ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجُند من الروم، وأُخرِج محمداً وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم، أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحبّ أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة. فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ إلى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٢]. وكذا رُوي عن سعيد بن جُبير، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وقتادة، وغير واحد من العلماء.

[٣٦٥٤] وقال محمد بن إسحاق بن يَسَار، عن الزُهري، ويزيد بن رُومانَ، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عُمَر بن قتادة، وغيرهم، قالوا: أقبل رسولُ الله ﷺ يعني من تبوكَ ـ حتى نزل بذي أوان ـ بلدٍ بينه وبين المدينة ساعةٌ من نهار ـ وكان أصحابُ مسجد الضِّرارِ قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسولَ الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العِلَّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نُحِبُ أن تأتينا فتصلي لنا فيه. فقال: «إني على جَنَاح سَفَر وحال شُغل» أو كما قال رسول الله ﷺ: «ولو قدمنا ـ إن شاء الله تعالى ـ أتيناكم فصلينا لكم فيه» فلما نزل بذي أوان أتاه خبرُ المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك ابن الدّخشُم أخا بني سالم بن عوف، ومعنَ بن عَدِيٍّ ـ أو: أخاه عامر بن عَدِيٍ ـ أخا بَلْعَجْلانِ، فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه». فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدُخشُم، فقال مالك لمعن: انظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي. فدخل أهله فأخذ سَعَفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدَّان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ إلى آخر القصة، وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً: خِذَام بن خالد، من بني عُبَيد بن زيد، أحد بني عمرو بن عوف، ومن داره أخرج مسجد الشقاق. وثعلبة بن حاطب، من بني عبيد، وهو إلى بني أمية بن زيد. ومعتِّب بن قُشَير، من بني ضُبَيعة بن زيد. وأبو حبيبة بن الأزعر، من بني ضُبَيعة بن زيد، وعَبَّاد بن حُنَيف، أخو سهل بن حُنَيف، من بني عمرو بن عوف. وجارية بن عامر، وابناه: مُجَمِّع بن جارية، وزيد بن جارية. ونَبْتَل الحارث، وهم من بني ضبيعة. وبحزج وهو من بني ضبيعة. وبجاد بن عُثمان وهو من بني ضبيعة. ووديعة بن ثابت، وهو إلى بني أمية رهط أبي لبابة بن عبد المنذر[٣]. وقوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾، أي: الذين بنوه ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾، أي: ما أردناه ببنيانه إلا خيراً ورفقاً بالناس، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، أي: فيما قصدوا وفيما نووا، وإنما بنوه ضِراراً لمسجد قُباء، وكفراً بالله، وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الفاسق، الذي يقال له: الراهب، لعنه الله. وقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، نهي من الله لرسوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ والأمة تَبَع له في ذلك، عن أن يقوم فيه، أي: يصلي فيه أبداً. ثم حثه على الصلاة في مسجد قُباء الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهي طاعة الله، وطاعة رسوله، وجمعاً لكلمة المؤمنين ومعقلاً وموئلاً للإسلام وأهله. ولهذا قال تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾، والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء.

---

(١) ساقه المصنف بالمعنى من غير عزو لقائل أو راو.

(٢) أخرجه الطبري ١٧٢٠١، وفيه إرسال بين ابن أبي طلحة وابن عباس، لكن له شواهد مرسلة.

(٣) أخرجه الطبري ١٧٢٠٠ عن ابن إسحاق به وله شواهد.

[٣٦٥٥] ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجد قُباء كعُمرةٍ»[١].

[٣٦٥٦] وفي الصحيح: أنّ رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً[٢].

[٣٦٥٧] وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسسه أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف كان جبريل هو الذي عَيّن له جِهَة القبلة[٣]. فالله أعلم.

[٣٦٥٨] وقال أبو داود: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن يونس بن الحارث، عن إبراهيم بن أبي ميمونة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «نزلت هَذه الآية في أهل قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ قال: «كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم هذه الآية»[٤]. رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث يونس بن الحارث ـ وهو ضعيف ـ وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه.

[٣٦٥٩] وقال الطبراني: حدثنا الحسن بن علي المعمري، حدثنا محمد بن حُمَيد الرازي، حدثنا سَلَمةُ بن الفَضْلِ، عن محمد بن إسحاقَ، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾، بعث رسول الله ﷺ إلى عُوَيم بن ساعدة فقال: «ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم؟» فقال: يا رسول الله، ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه ـ أو قال: مقعدته ـ فقال النبي ﷺ: «هو هذا»[٥].

[٣٦٦٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا حُسَين بن محمد، حدثنا أبو أويس، حدثنا شُرَحْبيل، عن عُوَيم بن ساعدة الأنصاري: أنه حَدّثه أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قُباء، فقال: «إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟» فقالوا: والله ـ يا رسول الله ـ ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غَسَلوا»[٦]. ورواه ابن خزيمة في صحيحه.

---

(١) صحيح. أخرجه الترمذي ٣٢٤ وحسنه، وابن ماجه ١٤١١، والحاكم ١/ ٤٨٧، والطبراني في الكبير ٥٧٠، والبغوي في شرح السنة ٤٥٩ من حديث أسيد بن ظهير، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه إلاّ أن أبا الأسود مجهول ووافقه الذهبي. قلت: وله شاهد عند أحمد ٣/ ٤٨٧ و٢/ ٣٧ وابن ماجه ١٤١٢ من حديث سهل بن حنيف بلفظ: «من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة» وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وآخر من حديث كعب بن عجرة، رواه الطبراني بإسناد فيه ضعف. وانظر صحيح ابن ماجه ١١٥٩.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٩١١ و١١٩٣، ومسلم ١٣٩٩، والنسائي ٢/ ٤٧، وأحمد رقم ٤٨٤٦ عن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

(٣) لم أره مسنداً فلينظر.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٤ والترمذي ٣٠٩٩ وابن ماجه ٣٥٨، وإسناده ضعيف لضعف يونس بن الحارث، وقد ضعفه ابن كثير واستغربه الترمذي، لكن شواهده الآتية تعضده، والله أعلم، وانظر جامع الأُصول ٦٥٠.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ١٠٦٥، وقال الهيثمي في المجمع ١/ ٢١٢ وإسناده حسن إلاّ أن ابن إسحاق مدلس وقد عنعنه اهـ. لكن له شواهد كما ترى.

(٦) إسناده ضعيف لأجل شرحبيل بن سعد ضعفه جماعة وحسن الترمذي له، أخرجه أحمد ٣/ ٤٢٢، والطبراني في الكبير رقم ٣٤٨، والطبري في التفسير ١١/ ٣٠، وابن خزيمة رقم ٨٣، الحاكم ١/ ١٥٥، وسكت عنه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع ١/ ٢١٢: رواه أحمد والطبراني في الثلاثة وفيه شرحبيل بن سعد ضعفه مالك وابن معين وأبو زرعة ووثقه ابن حبان. ا.هـ. ويشهد له ما قبله فهو به حسن، والله أعلم.

[٣٦٦١] وقال هُشَيم، عن عبد الحميد المدني، عن إبراهيم بن إسماعيل الأنصاري: أن رسول الله ﷺ قال لعُويم بن ساعدة: «ما هذا الذي أثنى الله عليكم: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾»؟ قالوا: يا رسول الله، إنا نغسل الأدبار بالماء.

وقال ابن جَرِير: حدثني محمد بن عمارة الأسدي، حدثنا محمد بن سعد عن إبراهيم بن محمد، عن شُرَحْبيل بن سعد قال: سمعت خُزيمة بن ثابت يقول: نزلت هذه الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾، قال: كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط.

[٣٦٦٢] حديث آخر: قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك ـ يعني ابن مغول ـ سمعت سَيَّاراً أبا الحكم، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن محمد بن عبد الله بن سلام قال: لما قَدِمَ رسول الله ﷺ يعني قباء، فقال: «إن الله عز وجل قد أثنى عليكم في الطهور خيراً، أفلا تخبروني؟» ـ يعني قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ ـ فقالوا: يا رسولَ الله، إنا نجدهُ مكتوباً علينا في التوراة الاستنجاءُ بالماء[1]. وقد صَرَّح بأنه مسجدُ قباء جماعةٌ من السلف، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. ورواه عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عروة بن الزبير. وقاله عطية العَوفِيُّ، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلمَ، والشعبيُّ، والحسنُ البصريُّ، ونقله البغويُّ عن سعيد بن جُبَير، وقتادةَ.

وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي هو في جَوْفِ المدينة، هو المسجد الذي أسسَ على التقوى. وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا، لأنه إذا كان مسجدُ قباء قد أُسِّسَ على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى.

[٣٦٦٣] ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا أبو نُعيم، حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمي، عن عمران بن أبي أنس، عن سهل بن سعد، عن أُبي بن كعب: أن النبي ﷺ قال: «المسجد الذي أسِّسَ على التقوى مسجدي هذا»[2]. تفرد به أحمد.

[٣٦٦٤] حديث آخر: ، قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا ربيعة بن عثمان التيمي، عن عمران بن أبي أنس، عن سهل بن سعد الساعدي قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجدُ رسول الله ﷺ. وقال الآخر: هو مسجد قباء. فأتيا النبي ﷺ فسألاه، فقال: «هو مسجدي هذا»[3]. تفرد به أحمد أيضاً.

[٣٦٦٥] حديث آخر: ، قال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ليث، عن عمران بن أبي أنس، عن سعيد بن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أُسس على

---

(١) أخرجه أحمد ٦/٦ رقم ٢٣٧٢٣ والطبري ١٧٢٤٢ من حديث محمد بن عبد الله بن سلام وأخرجه الطبراني في الكبير كما في المجمع ١/٢١٣، والطبري ١٧٢٤٤ من حديث محمد بن عبد الله بن سلام عن أبيه، وقال الهيثمي: وفيه شهر بن حوشب وقد اختلفوا فيه، ولكن وثقه أحمد وابن معين، وأبو زرعة ويعقوب بن شيبة.

(٢) متن صحيح. أخرجه أحمد ٥/١١٦، وقال الهيثمي في المجمع ٤/١٠: رواه أحمد، وفيه عبد الله بن عامر الأسلمي وهو ضعيف ا.هـ. قلت: ويشهد له حديث سهل بن سعد الذي بعده فهو به حسن، والله أعلم.

(٣) جيد. أخرجه أحمد ٥/٣٣١، وابن أبي شيبة ٢/٣٧٢، والطبري ١٧٢١٨، والطبراني ٦٠٢٥، وابن حبان ١٦٠٤. وقال الهيثمي في المجمع بعد أن نسبه لأحمد والطبراني: ورجالهما رجال الصحيح.

التقوى، فقال أحدهما: هو مسجدُ قباء، وقال الآخر: هو مسجد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «هو مسجدي هذا»[(١)]. تفرد به أحمد.

[٣٦٦٦] **طريق أخرى**: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا ليث، حدثني عمران بن أبي أنس، عن ابن أبي سعيد، عن أبيه أنه قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسسَ على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي»[(٢)]. وكذا رواه الترمذي والنسائي عن قتيبة، عن الليث ـ وصححه الترمذي ـ ورواه مسلم كما سيأتي.

[٣٦٦٧] **طريق أخرى**: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن أنيس بن أبي يحيى، حدثني أبي قال: سمعت أبا سعيد الخدري قال: اختلف رجلان: رجل من بني خُدْرة، ورجل من بني عمرو بن عوف، في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ. وقال العَمْرِيّ: هو مسجد قباء. فأتيا رسول الله ﷺ فَسَألاه عن ذلك، فقال: «هو هذا المسجد» ـ لمسجد رسول الله ﷺ وقال: «في ذاك خير كثير». يعني مسجد قباء[(٣)].

[٣٦٦٨] **طريق أخرى**: قال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حُمَيدٌ الخرّاط المدني، سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد فقلت: كيف سمعت أباك يقول في المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال: قال أبي: أتيتُ رسولَ الله ﷺ فدخلت عليه في بيت لبعض نسائه، فقلت: يا رسول الله، أين المسجدُ الذي أُسِّس على التقوى؟ قال: فأخذ كفّاً من حصباءَ فَضَرَبَ به الأرضَ، ثم قالَ: هو مسجدكم هذا» ثم قال: سمعت أباك يَذْكُرُه[(٤)]. رواه مسلم منفرداً به عن محمد بن حاتم، عن يحيى بن سعيد، به. ورواه عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره، عن حاتم بن إسماعيل، عن حُمَيدِ الخَرّاط، به. وقد قال بأنه مسجدُ النبيِّ ﷺ جماعةٌ من السلَفِ والخَلَفِ، وهو مَرْوِيٌّ عن عُمَر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيِّب، واختاره ابن جرير. وقوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾، دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتنزه عن ملابسة القاذورات.

[٣٦٦٩] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عبد الملك بن عمير، سمعت

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٣/ ٨٩ ح ١١٧٨٥ عن أبي سعيد الخدري، وانظر ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٣/ ٨ والترمذي ٣٠٩٩، والنسائي ٢/ ٣٧. وانظر ما بعده.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٣/ ٢٣ و٩١ وابن أبي شيبة ٢/ ٣٧٢، والترمذي ٣٢٣، والطبري ١٧٢٢٢ و١٧٢٢٣ و١٧٢٢٤، وابن حبان١٦٢٦، والبغوي ٤٥٥، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم ١/ ٤٨٧ ووافقه الذهبي، وهو كما قالوا.

(٤) صحيح. أخرجه الطبري في جامع البيان ١٧٢٢٠ بهذا الإسناد. وأخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٣٧٢، ٣٧٣ ومن طريقه مسلم ١٣٩٨ عن حاتم بن إسماعيل عن حميد الخراط، عن أبي سلمة، عن أبي سعيد الخدري، به. وأخرجه مسلم ١٣٩٨ عن محمد بن حاتم، عن يحيى بن سعيد، عن حميد الخراط، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه، به.

شبيباً أبا روح يُحدِّث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ صلَّى بهم الصبح، فَقرأ بهم الرومَ فأوهم، فلما انصرفَ قال: «إنه يُلبِسُ علينا القرآنَ، إنَّ أقواماً منكم يصلُّون معنا لا يُحسِنُونَ الوضوءَ، فمن شَهد الصلاة معنا فَلْيُحسِن الوضوءَ». ثم رواه من طريقين آخرين، عن عبد الملك بن عُمَير، عن شبيب أبي روح، من ذي الكَلاع: أنه صلَّى مع النبي ﷺ فذكره[1]. فدل هذا على أنَّ إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة، ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها. وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾: إنَّ الطُّهور بالماء لحسن، ولكنهم المطَّهرون من الذنوب. وقال الأعمش: التوبة من الذنب، والتطهير من الشرك.

[٣٦٧٠] وقد ورد في الحديث المروي من طرق، في السنن وغيرها، أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء: «قد أثنى الله عليكم في الطهور، فماذا تصنعون؟» فقالوا: نستنجي بالماء[2].

[٣٦٧١] وقد قال الحافظ أبو بكر البَزَّار: حدثنا عبد الله بن شَبِيبٍ، حدثنا أحمد بن محمد بن عبد العزيز قال: وجدتُه في كتاب أبي، عن الزُّهري، عن عُبَيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآيةُ في أهل قُباءٍ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾. فسألهم رسول الله ﷺ فقالوا: إنا نُتبعُ الحجارةَ الماء[3]. ثم قال: تفرد به محمد بن عبد العزيز، عن الزُّهري، ولم يرو عنه سوى ابنه. (قلت): وإنما ذكرته بهذا اللفظ لأنه مشهور بين الفقهاء، ولم يعرفه كثير من المحدّثين المتأخرين، أو كلهم، والله أعلم.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالى: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ومن بنى مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما بنى هؤلاء بنيانهم ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾، أي: طرف حَفِيرة مُنْثالةٍ ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، أي: لا يصلح عمل المفسدين.

[٣٦٧٢] قال جابر بن عبد الله: رأيت المسجد الذي بني ضراراً يخرج منه الدخان على عهد

---

(١) الحديث الأول هو الصواب «عن شبيب عن رجل من أصحاب النبي ﷺ» والإسناد قوي، وجهالة الصحابي لا تضر، وقد صح الإسناد. وأما من رواه عن شبيب، فهو مرسل، جاء في التقريب: شبيب بن نُعيم أبو روح، ثقة من الثالثة ـ أي تابعي ـ أخطأ من عده في الصحابة اهـ.

(٢) تقدم قبل قليل.

(٣) أخرجه البزار كما في «المجمع» ١٠٥٣ بهذا الإسناد، قال الهيثمي: فيه محمد بن عبد العزيز بن عمر الزهري، ضعفه البخاري والنسائي وغيرهما أهـ. وذكره الذهبي في الميزان ٧٨٧٤ فقال: قال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك. وقال الدارقطني: ضعيف. وكذا ضعفه ابن دقيق العيد، ووافقه الزيلعي في «نصب الراية» ١/ ٢١٨ لكن أضاف الزيلعي: وذهل حيث قال في «الخلاصة» هذا حديث باطل لا يُعرف أهـ. مراد الزيلعي: أنه معروف برواية البزار له، وإسناده ضعيف فحسب، والله أعلم.

النبي ﷺ[١]. وقال ابن جُرَيج: ذُكر لنا أن رجالاً حَفَروا فوجدوا الدخان يخرج منه[٢]. وكذا قال قتادة. وقال خلف بن ياسين الكوفي: رأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله تعالى في القرآن، وفيه حجرٌ يخرج منه الدخان، وهو اليوم مَزْبلة[٣]. رواه ابن جرير، رحمه الله. وقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾، أي: شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقاً في قلوبهم، كما أشرب عابدو العجل حبه. وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: بموتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم، والسديُّ، وحبيب بن أبي ثابت، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: بأعمال خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾، في مجازاتهم عنها، من خير وشر.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

يُخبِرُ تعالى أنه عاوَضَ عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذا بذلُوها في سبيله بالجنة، وهذا من فَضْلِهِ وكَرَمِهِ وإحسانِهِ، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تَفضَّل به على عباده المطيعين له. ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم. وقال شِمْرُ بنُ عَطِيَّةَ: ما من مسلم إلا وَلِلَّهِ ـ عزَّ وجلَّ ؛ في عُنُقِه بيعةٌ، وَفى بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية. ولهذا يقال: من حمل في سَبيل الله بايع الله. أي: قَبل هذا العقدَ ووفى به.

[٣٦٧٣] وقال محمد بن كعب القرظي وغيره: قال عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ لرسول الله ﷺ يعني ليلة العَقبة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت! فقال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم». قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنةُ». قالوا: رَبح البيعُ لا نُقيل ولا نستقيل، فنَزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾... الآية[٤]. وقوله: ﴿يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾، أي: سواء قَتَلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة.

[٣٦٧٤] ولهذا جاء في الصحيحين: «وتكفل الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وتصديق برسلي، إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يُرجِعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو

---

(١) أخرجه الطبري ١٧٢٦٢ وإسناده ضعيف جداً، فيه يحيى الحماني، وهو متروك. وأخرجه الحاكم ٤/٥٩٦ والطبري ١٧٣٦٣ من وجه آخر بإسناد على شرط مسلم، دون لفظ «على عهد النبي ﷺ» وهذا هو الصحيح، فيكون جابر إنما أخبر عما رآه أثناء حرق المسجد، لا بعد فترة طويلة.

(٢) واهٍ بمرة. أخرجه الطبري ١٧٢٦١ وهذا مرسل، ومراسيل ابن جريج واهية جداً. وكرره بنحو ١٧٢٦٥ عن قتادة، ومراسيل قتادة واهية أيضاً.

(٣) باطل. أخرجه الطبري ١٧٢٦٤ وراوية خلف بن ياسين روى موضوعات، وعنه سلام بن سالم، ولم أجد له ترجمة، وانظر أحكام القرآن ١٢١٨ بتخريجي.

(٤) منكر. بهذا اللفظ. أخرجه الطبري ١٧٢٨٤ وهذا مرسل: وفيه أبو معشر ضعيف، وبيعة العقبة كانت في مكة، وسورة التوبة مدنية من آخر ما نزل، فكيف يصح هذا؟!!. وأصل الحديث دون ذكر نزول الآية له شواهد.

غنيمة»[١]. وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كُتُبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ فإنه لا يُخلِفُ الميعاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ ولهذا قال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، أي: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم المقيم.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾

هذا نعتُ المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسَهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلةِ والخِلالِ الجليلةِ: ﴿التَّائِبُونَ﴾ من الذنوب كُلِّها، التاركون للفواحِشِ، ﴿الْعَابِدُونَ﴾، أي: القائمونَ بعبادةِ ربِّهم محافظين عليها، وهي الأقوال والأفعال فمن أخَصِّ الأقوال الحمدُ، فلهذا قال: ﴿الْحَامِدُونَ﴾، ومن أفضلِ الأعمال الصيامُ، وهو تَرْكُ الملاذِّ من الطعام والشراب والجماع، وهو المرادُ بالسياحةِ ها هنا، ولهذا قال: ﴿السَّائِحُونَ﴾، كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿سَائِحَاتٍ﴾ [التحريم: ٥]، أي صائمات، وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾، وهم مع ذلك ينفعون خَلْقَ الله، ويُرْشِدُونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركهُ، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه، علماً وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق، ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

بيان أن المراد بالسياحة الصيام

قال سفيان الثوري، عن عاصم، عن زِرّ، عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿السَّائِحُونَ﴾ الصائمون. وكذا رُوي عن سعيد بن جُبير والعوفي عن ابن عباس. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كل ما ذكر الله في القرآن السياحة، هم الصائمون. وكذا قال الضحاك رحمه الله.

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إبراهيم بن يزيد، عن الوليد بن عبد الله، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سياحةُ هذه الأمة الصيام. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، وأبو عبد الرحمن السلمي، والضحاك بن مُزاحم، وسفيان بن عُيينة وغيرهم: أن المراد بالسائحين الصائمون. وقال الحسن البصري: ﴿السَّائِحُونَ﴾ الصائمون شهر رمضان. وقال أبو عمرو العَبْدي: ﴿السَّائِحُونَ﴾ الذين يديمون الصيام من المؤمنين. وقد ورد في حديثٍ مرفوعٍ نحوُ هذا.

[٣٦٧٥] فقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن بَزِيع، حدثنا حَكِيم بن خِزَام[٢]، حدثنا سليمان، عن أبي صالحٍ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ﷺ: «السائحون هم الصائمون»[٣]. ثم رواه

---

(١) صحيح أخرجه البخاري ٣٦ ومسلم، وقد تقدم.

(٢) وقع في كافة النسخ وكذا في الطبري «حزام»، والتصويب من كتب التراجم الآتية.

(٣) ضعيف. أخرجه ابن عدي ٢/ ٢٢٠ ـ ٢٢١، والطبري ١٧٣٠١ من حديث أبي هريرة، وفي إسناده حكيم بن خزام أبو

عن بُنْدَارٍ، عن ابن مَهْدِي، عن إسرائيل، عن سليمان الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ هم الصائمون. وهذا الموقوف أصح.

[٣٦٧٦] وقال أيضاً: حدثني يونس، عن ابن وهب، عن عمرو[١] بن الحارث، عن عمرو بن دينار، عن عُبَيد بن عُمَير قال: سُئِل النبي ﷺ عن السائحين فقال: «هم الصائمون»[٢]. وهذا مرسلٌ جيِّدٌ، فهذه أصحُّ الأقوالِ وأشهرها، وجاء ما يدلُّ على أن السياحةَ الجهاد.

[٣٦٧٧] وهو ما روى أبو داود في سُنَنه، من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، ائذَنْ لي في السياحة. فقال النبي ﷺ: «إنَّ سياحةَ أمتي الجهادُ في سبيل الله»[٣].

[٣٦٧٨] وقال ابن المبارك، عن ابن لهيعة: أخبرني عُمارة بن غَزِيَّة: أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أبدلنا الله بذلك الجهاد في سبيل الله، والتكبير على كل شرف»[٤]. وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المهاجرون. رواهما ابن أبي حاتم. وليس المراد من السياحة ما قد يفهم بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتَن والزلازل في الدين.

[٣٦٧٩] كما ثبت في صحيح البخاري، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يُوشِكُ أن يكونَ خيرُ مالِ الرجلِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجبال، ومواقع القَطْرِ، يَفِرُّ بدينه من الفتن»[٥]. وقال العَوْفِي وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾، قال: القائمون بطاعة الله. وكذا قال الحسن البصري. وعنه رواية: ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ قال: لفرائض الله، وفي رواية: القائمون على أمر الله.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

[٣٦٨٠] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبيه قال: لما حَضَرت أبا طالب الوفاةُ دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أمية، فقال: «أيْ عَمِّ، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاجّ لك بها عند الله عز وجل». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا

سمير قال أبو حاتم في «الجرح والتعديل» ٣/ ٢٠٣: متروك الحديث. وأعله ابن عدي به، وقال الذهبي في «الميزان» ٢٢١٨: قال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال البخاري: منكر الحديث أهـ وخالفه إسرائيل، وهو أحفظ من مائة منه ـ فرواه موقوفاً على أبي هريرة أخرجه الطبري ١٧٣٠٢.

(١) وقع في عامة النسخ «عمر» والتصويب عن الطبري ١٧٣٠٠ وكتب الرجال.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبري ١٧٣٠٠ هكذا مرسلاً، والمرسل من قسم الضعيف، وقد صح موقوفاً عن جماعة من الصحابة والتابعين. راجع الطبري.

(٣) أخرجه أبو داود ٢٤٨٦ وإسناده غير قوي لأجل القاسم بن عبد الرحمن، لكن في الباب أحاديث تعضده منها ما بعده، وصححه عبد الحق كما في القرطبي ٨/ ٢٧٠.

(٤) مرسل. فهو ضعيف، لكن يتأيد بما قبله.

(٥) متفق عليه، وتقدم.

طالب، أترغب عن ملّة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبد المطلب فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنهَ عنك. فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، قال: ونزلت فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦][١]. أخرجاه.

[٣٦٨١] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، أخبرنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الخليل، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه، وهما مشركان، فقلت: أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان؟ فقال: أولم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾، إلى قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾، قال: «لما مات». فلا أدري قاله سفيان أو قاله إسرائيل، أو هو في الحديث «لما مات». قلت: هذا ثابتٌ عن مجاهد أنه قال: لما مات[٢].

[٣٦٨٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا زُهَير، حدثنا زُبيد بن الحارث اليامي، عن محارب بن دثار، عن ابن بُرَيدة، عن أبيه، قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفرفنزل بنا ونحن معه قريبٌ من ألف راكب، فَصَلَّى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تَذْرِفان فقام إليه عمر بن الخطاب وفَداه بالأب والأم، وقال: يا رسول الله، مالك؟ قال: «إني سألت ربي ـ عزَّ وجل ـ في الاستغفار لأمّي، فلم يأذن لي، فدمعَت عيناي رحمة لها من النار، وإني كنت نهيتكم عن ثلاث: نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فتذكركم زيارتُها خيراً. ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث، فكلوا وأمسكوا ما شئتم. ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية، فاشربوا في أي وعاء شئتم ولا تشربوا مسكراً»[٣].

[٣٦٨٣] وروى ابن جَرير، من حديث علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بُرَيدة، عن أبيه: أن النبي ﷺ لما قَدِم مكّة أتى رَسْمَ قبر، فجلس إليه، فجعل يخاطب، ثم قام مستعبراً. فقلنا: يا رسول الله، إنا رأينا ما صنعت! قال: إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي، فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي». فما رُئِيَ باكياً أكثر من يومئذٍ.[٤]

[٣٦٨٤] وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا خالد بن خداش، حدثنا عبد الله بن وهب، عن ابن جُرَيج، عن أيوب بن هانىء، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: خرجَ رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر، فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها، فناجاه طويلاً، ثم بكى فبكينا لبكائه، ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب، فدعاه ثم دعانا، فقال: «ما أبكاكم؟» فقلنا: بكينا لبكائك. قال: «إن القبر الذي جلستُ عنده قبر آمنة، وإني استأذنتُ ربّي في زيارتها فأذن لي»[٥].

[٣٦٨٥] ثم أورده من وجه آخر، ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريباً منه، وفيه: «وإني استأذنت ربي

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٦٠ و٤٧٧٢ ومسلم ٢٤ والنسائي في «التفسير» ٢٥٠ وأحمد ٥/ ٥٣٣.

(٢) أخرجه الترمذي ٣١٠١ والنسائي ٤/ ٩١ وأحمد ١/ ٩٩ والحاكم ٢/ ٣٣٥، وإسناده لين لأجل أبي الخليل فإنه مقبول. وقد حسنه الترمذي، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم٩٧٧ و٣/ ١٥٨٤ وأحمد ٥/ ٣٥٠ ـ ٣٥٥ وابن حبان ٥٣٩٠.

(٤) إسناده صحيح. أخرجه الطبري ١٧٣٤٤، وإسناده على شرط مسلم.

(٥) أخرجه الحاكم ٢/ ٢٣٦ والواحدي في «الأسباب» ٥٣٢، وإسناده ضعيف، فيه عنعنة ابن جريج. وصححه الحاكم! واعترضه الذهبي بقوله: أيوب بن هانىء ضعفه ابن معين اهـ. لكن لأصله شواهد.

في الدعاء لها فلم يأذن لي، وأنزل علي: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾، فأخذني ما يأخذ الولدَ لوالده، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكّر الآخرة»[١].

[٣٦٨٦] حديث آخرفي معناه: قال الطبراني: حدثنا محمد بن علي المَرْوَزِيّ، حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن مُنِيب، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسولَ الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك واعتمَر، فلما هَبطَ من ثَنِيَّة عُسْفان أمر أصحابه: أن «استندوا إلى العقبة حتى أرجعَ إليكم»، فذهب فنزل على قبر أمّه، فناجى ربَّه طويلاً، ثم إنه بكى فاشتد بكاؤه، وبكى هؤلاء لبكائه، وقالوا: ما بكى نبي الله بهذا المكان إلا وقد أحدث الله في أمته شيئاً لا تُطِيقه. فلما بكى هؤلاء قام فرجع إليهم، فقال: «ما يبكيكم؟» قالوا: يا نبي الله، بكينا لبكائك، فقلنا: لعله أُحدِثَ في أُمّتِكَ شيءٌ لا تُطيقه. قال: «لا، وقد كان بعضُه، ولكن نزلتُ على قبر أمي فدعوتُ الله أن يأذَنَ لي في شفاعتها يوم القيامة، فأبى الله أن يأذن لي، فَرحِمْتُها وهي أمّي، فَبَكيت، ثم جاءني جبريل فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾، فَتَبرَّأْ أنتَ من أُمّكَ كما تبرأ إبراهيم من أبيه، فَرَحِمتُها وهي أمي، ودعوتُ ربي أن يرفع عن أمتي أربعاً، فرفع عنهم اثنتين، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين: دعوتُ ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغَرَق من الأرض، وألاّ يَلْبِسهم شيعاً، وألا يُذِيق بعضهم بأس بعض. فرفع الله عنهم الرجم من السماء، والغرق من الأرض، وأبى الله أن يرفع عنهم القتل والهَرَج». وإنما عدل إلى قبر أُمّه لأنها كانت مدفونة تحت كُدَيّ، وكانت عُسْفان لهم[٢]. وهذا حديث غريب وسياق عجيب.

[٣٦٨٧] وأغرب منه وأشد نَكارة ما رواه الخطيب البغدادي في كتاب السابق واللاحق بسند مجهول، عن عائشة في حديث فيه قصة أن الله أحيا أمّه فآمنَتْ ثم عادت[٣].

---

(١) إسناده كسابقه.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه الطبراني ١٢٠٤٩، وفي إسناده مجاهيل، وقال الهيثمي في «المجمع» ٤٥٩: من عدا عكرمة لم أعرفهم أهـ.

(٣) موضوع. أخرجه ابن شاهين في «الناسخ والمنسوخ» ٦٣٠، وابن الجوزي في «الموضوعات» ١/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤ من حديث عائشة. قال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع بلا شك. والذي وضعه قليل الفهم، عديم العلم، إذ لو كان له علم لعلم أن من مات كافراً لا ينفعه أن يؤمن بعد الرجعة، لا بل لو آمن عند المعاينة لم ينتفع، ويكفي في رد هذا الحديث قوله تعالى: ﴿فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ﴾ وقوله ﷺ كما في الصحيح «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يؤذن لي». ومحمد بن زياد هو النقاش ليس بثقة، وأحمد بن يحيىٰ، ومحمد بن يحيىٰ مجهولان، وقال شيخنا أبو الفضل بن ناصر: هذا حديث موضوع، وأم رسول الله ﷺ ماتت بالأبواء بين مكة والمدينة، وليست بالحجون اهـ، واعترضه السيوطي في «اللآلىء» ١/ ٢٦٦ ـ ٢٦٨ بما ملخصه: الصواب الحكم عليه بالضعف، ثم ذكر السيوطي عن السهيلي قوله: روي حديث غريب لعله يصح، وجدته بخط جد أبي عمر أحمد بن أبي الحسن القاضي بسند فيه مجهولان، ذكر أنه نقل من كتاب انتقل من كتاب معوذ بن داود بن معوذ الزاهد يرفعه إلى أبي الزناد عن عروة عن عائشة «أنه ﷺ سأل ربه أن يحيي أبويه، فأحياهما، فآمنا به، ثم أماتهما» قال السهيلي: والله قادر علىٰ كل شيء. ثم ذكر كلاماً عن بعض أهل العلم في هذا الشأن، لكن بدون أدلة.

قلت: الحديث الأول مداره علىٰ عبد الوهاب بن موسىٰ، قال عنه الذهبي في الميزان ٥٣٢٦ بعد أن ذكر هذا الحديث: لا يدرىٰ من ذا الحيوان الكذاب، فإن الحديث كذب، مخالف لما صح عنه ﷺ أنه استأذن ربه في الاستغفار لها فلم يؤذن له، ووافقه ابن حجر في الحكم علىٰ هذا الحديث بالوضع، وذلك في «اللسان» لكن خالفه بقوله: تكلم الذهبي هنا بالظن، فسكت عن المتهم بهذا الحديث، وجرح القوي. قال ابن حجر: فهذا الدارقطني ساقه في «غرائب مالك» ثم قال الدارقطني: عبد الوهاب لا بأس به، وهذا كذب علىٰ مالك، فالحمل فيه علىٰ أبي غزية، هو المتهم به أهـ.

وجاء في اللسان للحافظ ابن حجر في ترجمة عمر بن الربيع الخشاب: وضعفه الدارقطني في «غرائب مالك» وأورد =

[٣٦٨٨] وكذلك ما رواه السهيلي في الروض بسند فيه جَمَاعة مجهولون: أن الله أحيا له أباه وأمه، فآمنا به[1]. وقد قال الحافظ ابن دِحْيَة: هذا الحديث موضوع يَرُدّه القرآن والإجماع، قال الله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾. وقد مال أبو عبد الله القرطبي إلى مقتضى هذا الحديث، وردَّ عَلَى ابن دِحْية في هذا الاستدلال بما حاصله أنَّ هذه حياة جديدة، كما رجعت الشمس بعد غيبوبتها فصلَّى عَلِيٌّ العصر. قال الطحاوي: وهو ثابت، يعني حديث الشمس[2]. قال القرطبي: فليس إحياؤهما يمتنع عقلاً ولاَ شرعاً، قال: سَمِعتُ أن الله أحيا عَمَّه أبا طالب، فآمن به[3].

(قلت): وهذا كله متوقِّفٌ على صِحَّةِ الحديث، فإذا صَحَّ فلا مانع منه. والله أعلم.

وقال العَوفِيّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، فإن رسول الله ﷺ أراد أن يستغفِرَ لأمِّه، فنهاه الله عز وجل. عن ذلك، فقال: «فإنَّ إبراهيم خليلَ الله قد استغفر لأبيه»، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾. . . الآية. وقال عليُّ بن أبي طَلْحَةَ، عن ابن عباس، في هذه الآية: كانوا يستغفِرُون لهم، حتى نزلت هذه الآية، فلما نزلت أمسكوا

= ابن عساكر هذا الحديث من طريقه، وطريق أبي غزية، والكعبي، عن عبد الوهاب بن موسىٰ عن مالك، والكعبي مجهول ـ وحسين بن علي ـ الحلبي صاحب غرائب، ولا يعرف لأبي الزناد رواية عن هشام. وتعقبه ابن حجر بقوله: لم ينبه علىٰ أبي غزية وعمر الخشاب، وهما أولىٰ أن يلصق بهما هذا الحديث من الكعبي. وذكره ابن حجر في «اللسان» في ترجمة علي بن أحمد البصري، ونقل عن الدارقطني بعد أن أخرج له حديثاً آخر مع هذا. قال الدارقطني: والإسنادان والمتنان باطلان وهذا كذب علىٰ مالك، ووافقه ابن حجر اهـ.

وأما ما ذكره السهيلي، فالجواب أنه باطل مفترىٰ، وهو معلول بعلل كثيرة:

الأولىٰ: أن السهيلي ذكره وجادة، والوجادة أضعف أقسام التحمل عند العلماء وهي مردودة لا تقبل.

الثانية: فيه مجاهيل كما أقر بذلك السهيلي.

الثالثة: «ذكر أنه نقله من كتاب، انتقل من كتاب معوذ بن داود بن معوذ»، وهذا نقل من كتاب عن كتاب، وهذا ساقط فليست هذه الكتب معتمدة ومعوذ هذا مجهول لم أعثر له علىٰ ترجمة.

الرابعة: أبو الزناد لم يسمع من عروة كما ذكر الدارقطني وغيره، فهذا الذي ركب هذا الإسناد لا علم له بطبقات الرجال.

الخلاصة: هو حديث كذب موضوع، ومما يدل علىٰ وضعه كونه يحتوي علىٰ أمر عظيم، وهو إحياء الموتىٰ، ثم لا يرويه سوىٰ ابن شاهين والخطيب بإسناد مركب مصنوع.

الشي الثاني: هو أن القاضي عياض ذكر معجزات رسول الله ﷺ ومنها إحياء الموتىٰ، فلما لم يجد هذا الحديث وأمثاله، ذكر حديث «الشاة المسمومة» وذكر «حنين الجذع» وعد ذلك أنه من إحياء الموتىٰ، بل لم يذكر أحد في معجزاته ﷺ إحياء أبويه، لا بسند ضعيف، ولا غيره، فعلينا أن نطرح الهوىٰ جانباً، وأن ننقل ما صح، وضمن قواعد علماء الحديث والفقه.

أخيراً: حكم بوضع هذا الحديث إمام فن العلل الدارقطني، وكذا ابن عساكر، وابن ناصر ـ شيخ ابن الجوزي ـ، وابن الجوزي، والحافظ الذهبي، وابن حجر حيث وافق الدارقطني على بطلانه في غير موضع من «اللسان» كما ذكرت، وابن دحية فيما نقل ابن كثير، واستنكره ابن كثير جداً، والصواب أنه خبر موضوع مفترىٰ، لا يجوز روايته «قال رسول الله ﷺ: من حدث عني بحديث يرىٰ أنه كذب، فهو أحد الكذابين»، والله ولي التوفيق.

(١) تقدم مع ما قبله، وأنه باطل موضوع.

(٢) حديث رد الشمس أيضاً غير صحيح، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله.

(٣) كيف ذلك، بدون إسناد ولا نقل، وقد جاء في الصحاح «أنه مات علىٰ ملة عبد المطلب»، كما تقدم مع زيادة «فأبى أن يقول لا إله إلا الله»، انظر حديث المسيب بن حزن المتقدم. والله الموفق.

عن الاستغفار لأمواتهم، ولم يُنْهَوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا. ثم أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ . . . الآية.

[٣٦٨٩] وقال قَتادة في هذه الآية: ذُكِر لنا أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله، إن من آبائنا من كان يُحسِنُ الجِوَارَ، ويَصِلُ الأرحامَ، ويَفُكُّ العانيَ، ويُوفي بالذِّمَم، أفلا نستغفر لهم؟ قال: فقال النبي ﷺ: «بلى، والله إني أستغفر لأبي كما استغفر إبراهيمُ لأبيه». فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾، حتى بلغ: ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾، ثم عَذَر تعالى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾قال: وذُكِرَ لنا أن نبي الله ﷺ قال: «أوحيَ إليّ كلمات، فدخلن في أذني وَوَقَرْن في قلبي: أمِرتُ ألاَّ أستغفر لمن مات مشركاً، ومن أعطَى فَضْلَ ماله فهو خيرٌ له، ومن أمسك فهو شرّ له، ولا يلوم الله على كَفاف»[١].

وقال الثَّورِيُّ، عن الشيباني، عن سَعِيد بن جُبير قال: مات رجل يَهُوديٌّ وله ابن مسلم، فلم يخرج معه، فذكر ذلك لابن عباس فقال: كان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه، ويدعو له بالصلاح ما دام حياً، فإذا مات وَكَله إلى شأنه. ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، لم يَدْعُ.

[٣٦٩٠] وهذا يَشْهَدُ له بالصحة ما رواه أبو داودَ وغيرُهُ، عن عليّ بن أبي طالب قال: لما ماتَ أبو طالب قلتُ: يا رسولَ الله، إن عَمَّك الشيخَ الضال قد مات. قال: «اذهب فَوَاره ولا تُحْدِثَنّ شيئاً حتى تأتيني». وذكر تمام الحديث.[٢]

[٣٦٩١] ويُرْوَى أن رسول الله ﷺ لما مَرّت به جنازة عَمِّه أبي طالب قال: «وَصَلتكَ رحِمٌ يا عم»[٣].

وقال عطاء بن أبي رباح: ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا، لأني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين، يقول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾. الآية.

وروى ابنُ جَرِيرٍ، عن ابن وكيع، عن أبيه، عن عصمة بن زامل، عن أبيه قال: سَمِعتُ أبا هُرَيرة يقولُ: رَحِم الله رَجُلاً استغفر لأبي هُريرة ولأمه. قلت: ولأبيه؟ قال: لا، قال: إن أبي مات مشركاً. وقوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. وفي رواية: لما مات تبين له أنه عدو لله. وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، وغيرهم رحمهم الله. وقال عُبَيد بن عمَير وسعيد بن جُبير: إنه يتبرّأ منه يوم القيامة حين يلقى أباه، وعلى وجه أبيه الغُبرة والقَتْرة فيقول: يا إبراهيم، إني كنت أعصيك وإني اليوم لا أعصيك. فيقول: أي ربي، ألم تعدني أن لا تخزني يوم يبعثون؟ فَأيُّ خزيٍ أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال: انظر إلى ما وراءك، فإذا هو بِذِيخ مُتلطِّخ، أي: قد مُسِخ ضِبْعاناً ثم يسحب بقوائمه، ويلقى في النار. وقولُه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾، قال سفيانُ الثوريُّ وغيرُ واحدٍ، عن عاصم بن بَهْدَلَةَ، عن زِرّ بن حُبَيش، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الأوّاهُ الدعّاءُ. وكذا رُوِي من غير وجه، عن ابن مسعود.

---

(١) أخرجه الطبري ١٧٣٤٧ عن قتادة، وهذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف.

(٢) حسن. أخرجه أبو داود ٣٢١٤ والنسائي ٤/ ٧٩ وإسناده حسن، وتقدم.

(٣) لم أره مسنداً بهذا اللفظ، وأخرجه ابن سعد ١/ ٩٩ بمعناه، وإسناده ضعيف لضعف الواقدي.

[٣٦٩٢] وقال ابن جَرير: حدثني المثنّى، حدثنا الحجّاج بن مِنهالٍ، حدثنا عبد الحميد بن بهرام، حدثنا شهر بن حَوشب، عن عبد الله بن شَداد بن الهاد قال: بينما رسول الله ﷺ جالس قال رجل: يا رسول الله، ما الأوّاه؟ قال: «المتضرع» قال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[١]. ورواه ابن أبي حاتم من حديث ابن المبارك، عن عبد الحميد بن بهرام، به، قال: الأواه المتضرع الدّعَّاء. وقال الثوريُّ، عن سلمة بن كهَيل، عن مسلم البَطِين، عن أبي العُبَيْدَيْن أنه سأل ابن مسعود عن الأواه، فقال: هو الرحيم. وبه قال مجاهد، وأبو ميسرةَ عمرو به شُرحبيل، والحسن البصريُّ، وقتادةُ: أنه الرحيم، أي: بعباد الله.

وقال ابن المبارك، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الأوّاه: الموقن بلسان الحبشة. وكذا قال العوفي، عن ابن عباس أنه الموقن. وكذا قال مجاهد، والضحاك. وقال علي بن أبي طلحة، ومجاهد، عن ابن عباس: الأواه: المؤمن ـ زاد علي بن أبي طلحة عنه: المؤمن التواب. وقال العوفي عنه: هو المؤمن بلسان الحبشة. وكذا قال ابن جُرَيج: هو المؤمن بلسان الحبشة.

[٣٦٩٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى، حدثنا ابن لَهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رَبَاح، عن عقبة بن عامر: أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له: ذو البِجادين: «إنه أوّاه»، وذلك أنه كان رجلاً كثير الذكر لله في القرآن ويرفع صوته في الدعاء[٢]. ورواه ابن جرير. وقال سعيد بن جُبَير، والشعبي: الأوّاهُ المسبِّحُ. وقال ابنُ وَهْب، عن معاويةَ بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جُبَير بنُ نُفَير، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: لا يحافظ على سُبْحَةِ الضُّحى إلا أوّاه. وقال شُفَيّ بن ماتع، عن أبي أيوب: الأوّاهُ الذي إذا ذَكَرَ خطاياه استغفر منها. وعن مجاهد: الأوّاه الحفيظُ الوَجِلُ، يُذْنِبُ الذنب سِرّاً، ثم يَتُوب منه سرّاً. ذكر ذلك كلّه ابن أبي حاتم، رحمه الله.

[٣٦٩٤] وقال ابن جرير: حدثنا ابن وَكِيع، حدثنا المُحَاربي، عن حَجّاج، عن الحكم، عن الحسن بن مسلم بن ينّاق: أن رجلاً كان يكثر ذكر الله ويسبّح، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «إنه أواه»[٣]

[٣٦٩٥] وقال أيضاً: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا ابن يمان، حدثنا المنهال بن خليفة، عن حَجّاج بن أرطأة، عن عطاء، عن ابن عباس: أن النبي ﷺ دفن ميتاً، فقال: «رَحِمك الله إن كنتَ لأواهاً!» ـ يعني تَلاّءً للقرآن[٤].

[٣٦٩٦] وقال شعبة، عن أبي يونس الباهلي، قال: سمعت رجلاً بمكة ـ وكان أصله رومياً، وكان قاصّاً ـ يحدِّث عن أبي ذَرّ قال: كان رجل يطوف بالبيت الحرام ويقول في دعائه: أوّه! أوّه، فذُكِر ذلك للنبي ﷺ فقال: «إنه أوّاه» قال: فخرجتُ ذات ليلة، فإذا رسولُ الله ﷺ يدفن ذلك الرجلَ ليلاً ومعه

---

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ١٧٤٣٠، وإسناده ضعيف، شهر بن حوشب وثقه جماعة وضعفه آخرون، وقال ابن عدي: ليس بالقوي، وهو ممن لا يحتج به، وقال أبو حاتم: لا يحتج به ثم هو مدلس، وقد عنعن.

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد ٤/١٥٩ والطبراني ١٧/٢٩٥ من حديث عقبة بن عامر، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٥٩٨١: إسناده حسن! مع أن فيه ابن لهيعة، وهو ضعيف، وليس الراوي عنه أحد العبادلة، ولو صح لما اختلف المفسرون في ذلك، لكن لم يصح، لا هو ولا الذي قبله عن ابن شداد، ثم إن رفع الصوت في الدعاء ليس بمحمود. وورد خلافه «أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً».

(٣) ضعيف. أخرجه الطبري ١٧٤٢١ عن الحسن بن مسلم، وهذا مرسل، ابن يناق تابعي، وفي الإسناد حجاج ابن أرطاة صدوق اختلط بأَخَرَة، وسفيان بن وكيع واهٍ أيضاً، فالخبر ضعيف.

(٤) أخرجه الطبري ١٧٤٢٣ وفيه حجاج واهٍ.

المصباح[1]. هذا حديث غريب رواه ابن جرير. ورُوي عن كعب الأحبار أنه قال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾: قال: كان إذا ذكر النار قال: «أوّه من النار». وقال ابن جُرَيج، عن ابن عباس ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾، قال: فقيه. قال الإمام العلم أبو جعفر بن جرير: وأولى الأقوال قول من قال: إنه الدَّعّاء، وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفَرَ لأبيه عن موعدةٍ وعدها إياه، وقد كان إبراهيمُ كثير الدُّعاء حليماً عمن ظلمه وأناله مكروهاً، ولهذا استغفر لأبيه مع شِدّة أذاه في قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٦ ـ ٤٧]، فَحَلم عنه مع أذاه له، ودَعَا له واستغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يضلّ قوماً إلا بعد بلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] الآية. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ قال: بيان الله عز وجل للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه لهم في طاعته ومعصيته عامة، فافعلوا أو ذروا. وقال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهيته ذلك بالنهي عنه، ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما من لم يُؤمَر ولم يُنْه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، قال ابن جرير: هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا بنصر الله مالك السمٰوات والأرض، ولا يرهبوا من أعدائه، فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه.

[٣٦٩٧] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي، حدثنا عبد الوهّاب بن عطاء، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن محرز، عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء. فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطِيطَ السماء وما تلام أن تَئِطَّ، وما فيها من موضع شبر إلا وعليه مَلَكٌ ساجد أو قائم»[2]. وقال كعب الأحبار: ما من موضع خَرْمَةِ إبرةٍ من الأرض إلا وملك موكل بها، يرفع علم ذلك إلى الله، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى مُخه مسيرة مئة عام.

---

(١) أخرجه الطبري ١٧٤٢٥ وإسناده ضعيف فيه راوٍ لم يسمّ.

(٢) في إسناده عبد الوهاب بن عطاء الخفاف، جاء في الميزان ٥٣٢٢: صدوق، قال أحمد: ضعيف الحديث مضطرب، وقال يحيىٰ: ليس به بأس، وقال النسائي: ليس بالقوي، ووثقه الدارقطني، فالحديث غير قوي، لكنه فوق الضعيف. وبقية رجاله ثقات.

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خَرَجُوا إليها في شدّةٍ من الأمر في سنة مُجْدِبَةٍ، وحَرٍ شديد، وعُسْرٍ من الزاد والماءِ. قال قتادةُ: خَرَجوا إلى الشام عام تبوكَ في لَهَبان الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذُكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم.

[٣٦٩٨] وقال ابنُ جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عَمْرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عُتْبَةَ بن أبي عُتْبَةَ، عن نافع بن جُبَير بن مُطعِم، عن عبد الله بن عباس: أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً، فأصابنا فيه عَطَش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمسُ الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فَرْثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله عز وجل قد عَوّدك في الدعاء خيراً، فادع لنا. قال: «تحب ذلك؟» قال: نعم! فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأظَلَّت ثم سكبت، فَمَلؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[١].

وقال ابن جرير في قوله: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾، أي: من النفقة والظَّهر والزاد والماء، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾، أي: عن الحق ويشك في دين رسول الله ﷺ ويرتاب، بالذي نالهم من المشقة والشدة في سفره وغزوه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾، يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم، والرجوع إلى الثبات على دينه، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

[٣٦٩٩] قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوبُ بن إبراهيم، حدثنا ابنُ أخي الزهريّ محمد بن عبد الله، عن عمه محمد بن مسلم الزهري، أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أنّ عبد الله بن كعب بن مالك ـ وكان قائد كعب من بنيه حين عَمي ـ قال: سمعت كعب بن مالك يحدّث حديثه حين تخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلّف عن رسول الله ﷺ في غزاة غيرها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر، ولم يُعاتَب أحدٌ تخلّف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذْكَرَ في الناس منها وأشهر.

---

(١) إسناده حسن، رجاله ثقات.

وكان من خَبَري حين تخلّفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أنّي لم أكُنْ قط أقْوَى ولا أَيسَرَ مني حين تخلّفتُ عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعتُ قبلها راحلتين قط حتى جمعتُهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قلّما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً، فَجَلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوّهم، فأخبرهم وَجْهَه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ فقال كعب: فَقَلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال، وأنا إليها أَصعو[1]. فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، وَطفِقْتُ أغدو لكي أتجهّزَ معهم، فأرجع ولم أَقْض من جهازي شيئاً، فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجِدّ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئاً، وقلت: أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه. فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقضِ شيئاً من جهازي، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارطَ الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم ـ وليتني أنّي فعلتُ ـ ثم لم يُقَدَّر ذلك لي، فطفقت إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فَطُفت فيهم يُحزِنُني ألا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذره الله، عز وجل. ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» قال رجل من بني سَلِمة: حَبَسه يا رسول الله بُرْداه، والنظر في عِطفيه. فقال معاذ بن جبل: بئسما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً! فسكت رسول الله ﷺ قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد تَوجّه قافلاً من تبوك حضرني بَثّي، فطفقت أتذكر الكَذِبَ، وأقول: بماذا أخرج من سَخَطِه غداً؟ وأستعين على ذلك بكُلّ ذي رَأيٍ من أهلي. فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلّ قادماً، زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أنجوَ منه بشيء أبداً. فأجمعتُ صدقه.

وصَبّح رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فَطَفِقُوا يعتذِرون إليه ويحلفون له ـ وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ـ فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فلما سلّمت عليه تبسّم تبسّم المغضب، ثم قال لي: «تعالَ» فجئت أمشِي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خلّفك؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك؟» قال فقلت: يا رسول الله، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرجَ من سَخَطه بعذر، لقد أعطِيتُ جَدَلاً، ولكنه والله لقد علمتُ لئن حَدّثتك اليوم حديثَ كَذِبٍ ترضى به عَنّي ليوشِكَنّ الله أن يُسْخطك عَلَيّ، ولئن حدثتك بصدق تَجدُ عَلَيّ فيه إني لأرجُو قربَ عقبى ذلك من الله تعالى، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغَ ولا أيسر مني حِين تخلفت عنك. قال: قال فقال رسول الله ﷺ: «أمّا هذا فقد صدق، فَقُم حتى يقضي الله فيك». فقمتُ وبادرني رجال من بني سلمة واتّبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عَجَزت في ألاّ تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، قال: فوالله ما زالوا يُؤَنّبوني حتى أردت أن أرجع فَأكذّب نفسي. قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك

---

(١) أصعو: أميل.

رجلان قالا مثل ما قلتَ، وقيل لهما مِثْلَ ما قيل لك. قلت: فمن هما؟ قالوا: مُرَارة بن الربيع العامري، وهلال بن أميّة الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوةٌ. قال: فمضيت حين ذكروهما لي. قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا ـ أيها الثلاثة ـ من بين من تخلف عنه، فاجتنَبنا الناس وتغيّروا لنا، حتى تنكرَتْ لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً. فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشَدَّ القوم وأجلدَهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوفُ بالأسواق، فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم، وأقول في نفسي: حَرّك شفتيه بِردِّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلّي قريباً منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ فإذا التفت نحوه أعرَضَ عني. حتى إذا طال عَلَيّ ذلك من هَجْرِ المسلمين مَشَيت حتى تَسوَّرتُ حائط أبي قتادة ـ وهو ابن عمي، وأحبُّ الناس إليّ ـ فسلمت عليه، فوالله ما ردَّ علي السلام، قلت له: يا أبا قتادة، أنشُدُكَ الله: هل تعلم أني أحبُّ الله ورسوله؟ قال: فسكت. قال: فعدت فَنَشَدْتُه فسكتَ، فعدتُ فَنَشَدتُه، فقال: الله ورسوله أعلم. قال: ففاضت عيناي وتوليتُ حتى تَسوَّرتُ الجِدارَ. فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطِيّ من أنباط الشام، ممن قَدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فَطَفِقَ الناسُ يشيرون له إليّ، حتى جاء فدفع إليّ كتاباً من مَلِك غسان، وكنتُ كاتباً، فإذا فيه: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هَوان ولا مَضْيَعَة، فالْحَق بنا نُواسِكَ. قال: فقلت حين قرأتُه: وهذا أيضاً من البلاء. قال: فتيمَّمْتُ به التنُّور فَسَجرتُه به. حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسولِ رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال فقلت: أُطَلِّقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها. قال: وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك، قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، إنّ هلالاً شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقرَبَنّك». قالت: وإنه والله ما به حَرَكَةٌ إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أَمْرِه ما كانَ إلى يَوْمِه هذا. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تَخْدُمه. قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب؟

قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليالٍ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، قال: ثم صليتُ صلاةَ الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا: قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عَلَيّ الأرض بما رَحُبت، سمعت صارخاً أوفى على جَبَل سَلْع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج، قال فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صَلّى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَل صاحِبَيّ مبشرون. ورَكض إليّ رَجُلٌ فرساً، وسعى ساعٍ من أسلَمَ وأوفى على جَبَلٍ، فكان الصوت أسرَعَ من الفَرَس. فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرني، فنزعت ثوبيّ، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملِكُ غيرهما يومئذ، واستعرتُ ثوبين فلبستهما، وانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ يلقاني الناس فوجاً فوجاً يُهنّئوني بالتوبة، يقولون: لِيَهْنِكَ توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يُهرول، حتى صافحني وهَنّأني، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمتُ على رسول الله ﷺ قال: وهو يَبْرُق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مَرَّ عَليكَ منذُ وَلَدَتْكَ أمُك». قال: قلت: أمن عندك يا رسولَ الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله». قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهُه حتى كأنَّه قطعة قَمر، حتى يُعرَفَ ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله. قال: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك». قال فقلت: فإني أمسِكُ سهمي الذي بخيبر. وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألاَّ أُحَدِّث إلا صدقاً ما بقيت. قال: فوالله ما أعلمُ أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تَعَمَّدتُ كذبةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظَني الله فيما بقي. قال: وأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾. قال كعب: فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قطُّ بعد أن هداني للإسلام أعظَمَ في نفسي من صدقي رسولَ الله ﷺ يومئذٍ ألاَّ أكون كَذَبته، فأهلك كما هلك الذين كَذَبوه حين كَذَبوه؛ فإن الله تعالى قال للذين كَذَبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٥ ـ ٩٦]. قال: وكنا خُلِّفنا ـ أيها الثلاثة ـ عن أمر أولئك الذين قَبِلَ منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسولُ الله أمرَنا، حَتَّى قضى الله فيه، فبذلك قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾، وليس تخليفُه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذَكر مما خُلِّفنا بتخلفنا عن الغزو، وإنما هو عمَّن حَلَف له واعتذر إليه، فقبل منه[1]. هذا حديثٌ صحيحٌ ثابتٌ متفقٌ على صحَّتِه، رواه صاحبا الصحيح البخاريُّ ومسلمٌ من حديث الزُهريِّ، بنحوه. فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها. وكذا رُوي عن غير واحد من السلف في تفسيرها، كما رواه الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾، قال: هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع وكلهم من الأنصار. وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي وغير واحد، وكلهم قال: مُرارة بن ربيعة[2]. وفي رواية عن سعيد بن جبير: ربيع بن مرارة. وقال الحسن البصري: ربيع بن مرارة، أو: مرارة بن الربيع. وفي رواية عن الضحاك: مُرارة بن الربيع، كما وقع في الصحيحين، وهو الصواب. وقوله: فسمَّوا رجلين شهدا بدراً، قيل: إنه خطأ من الزهري، فإنه لا يُعرَف شُهودُ واحد من هؤلاء الثلاثة بدراً، والله أعلم.

ولما ذكر تعالى ما فَرَّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب، من هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرضُ بما رَحُبتْ، أي: مع سعتها، فسُدِّدت

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٤١٨ ومسلم ٢٧٦٩ والترمذي ٣١٠٢ والنسائي في «التفسير» ٢٥٢ وأحمد ٣٨٧١٦ وابن حبان ٣٣٧٠ والطبري ١٧٤٦١.

(٢) كذا قال المصنف رحمه الله والذي عند الطبري بعض هؤلاء يقول «ربيعة» وآخرون «الربيع».

عليهم المسالكُ والمذاهبُ، فلا يهتدون ما يصنعون، فَصَبَروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فَرَّج الله عنهم بسبب صِدْقهم رسولَ الله ﷺ في تَخَلُّفهم، وأنه كان عن غير عذر، فَعُوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم، ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾، أي: اصدقُوا والزمُواالصدق تكونوا مع أهله، وتنجوا من المهالك، ويَجْعَلْ لكم فرجاً من أموركم، ومخرجاً.

[٣٧٠٠] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق؛ عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البرّ وإن البرَّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدُق ويتحرّى الصدق حتى يُكتَبَ عند الله صدِّيقاً، وإياكم والكذِبَ فإنَّ الكذبَ يَهْدِي إلى الفُجور، وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذِب ويتحرّى الكَذِبَ، حتى يُكتَبَ عند الله كذاباً»(١). أخرجاه في الصحيحين. وقال شعبة، عن عمرو بن مُرّة، سمع أبا عُبيدَة يُحدِّث عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: الكَذِبُ لا يصلُح منه جِدٌّ ولا هَزْلٌ، اقرؤوا إن شئتم: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مِنَ الصادقين» ـ هكذا قرأها ـ ثم قال: فهل تجدون لأحد فيه رخصة. وعن عبد الله بن عُمر: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: مع محمد ﷺ وأصحابه. وقال الضحاك: مع أبي بكر وعمر وأصحابهما. وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا، والكَفّ عن أهل المِلّة.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

يعاتب الله تعالى المتخلّفينَ عن رسول الله ﷺ في غزوة تَبُوكَ، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة، فإنهم نَقَصُوا أنفسهم من الأجر، لأنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو: العطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وهو: التعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وهي: المجاعة ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: ينزلون مَنْزلاً يُرهِبُ عدوهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ منه ظفراً وغلبة عليه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قُدَرهم، وإنما هي ناشئةٌ عن أفعالهم، أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

يقول تعالى: ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ ـ أي: قليلاً ولا كثيراً ـ

---

(١) متفق عليه وتقدم.

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ ـ أي: في السير إلى الأعداء ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ولم يقل ها هنا «به» لأن هذه أفعال صادرة عنهم، ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ من هذه الآية الكريمة حظ وافر، ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة، والأموال الجزيلة.

[٣٧٠١] كما قال عبد الله بن الإمام أحمد: [حدثنا أبي]، حدثنا أبو موسى العَنَزي، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثني سَكَن بن المغيرة، حدثني الوليد بن أبي هِشَام، عن فَرقدٍ أبي طلحة، عن عبد الرحمن بن خَبَّاب السلمي قال: خَطَبَ رسولُ الله ﷺ فحثَّ على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: عليّ مئةُ بعيرٍ بأحلاسِها وأقتابها. قال: ثم حث، فقال عثمان: عليّ مئة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم نزل مِرْقاة من المنبر ثم حَثَّ، فقال عثمان بن عفان: عليّ مئة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا ـ يحركها. وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب: «ما على عثمان ما عمل بعد هذا»[(١)].

[٣٧٠٢] وقال عبد الله أيضاً: [حدثنا أبي]، حدثنا هارون بن معروف، وسمعته أنا من هارون بن معروف حدثنا ضمرة، حدثنا عبد الله بن شَوْذب، عن عبد الله بن القاسم، عن كثير مولى عبد الرحمن بن سَمُرة، عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان، إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جَهَّز النبي ﷺ جيشِ العُسرة ـ قال: فَصَبَّها في حِجْر النبي ﷺ فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: ما ضَرَّ ابن عفانَ ما عَمِل بعد اليومِ. يُرَدِّدها مِرَاراً[(٢)].

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾... الآية: ما ازداد قومٌ في سبيلِ الله بُعداً من أهليهم إلا ازدادوا من الله قُرباً.

﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نَفير الأحياء مع الرسول في غزوة تبوك، فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾، قالوا: فنسخ ذلك بهذه الآية. وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها، وشرذمة من كلِّ قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول ـ عليه السلام ـ بما يَتنزل من الوحي عليه، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا: النفير المعين، وبعده ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تكون الطائفة النافرة من الحيّ إما للتفقه وإما للجهاد؛ فإنه فرض على الأحياء. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾، يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾، يعني: عُصبةٌ، يعني السرايا، ولا

---

(١) حسن. أخرجه أحمد ٤/ ٧٥ والترمذي ٣٧٠٠ وإسناده لا بأس به في الشواهد، وانظر ما بعده.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٥/ ٦٣ والترمذي ٣٧٠١ والحاكم ٣/ ١٠٢ وإسناده حسن في الشواهد لأجل كثير مولى ابن سمرة، فإنه مقبول، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وفي الباب أحاديث.

يَتَسرَّوا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون مع النبي ﷺ قالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآناً، وقد تعلمناه. فتمكث السرايا يتعلّمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾، يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وقال مجاهدٌ: نَزَلتْ هذه الآيةُ في أُناسٍ من أصحاب محمد ﷺ خَرَجُوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفاً، ومن الخِصْب ما ينتفعُونَ به، وَدَعَوا مَن وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابَكَم وجئتمونا. فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجاً، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ فقال الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يبتغُونَ الخير، ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا﴾ وليستمعوا ما في الناس، وما أنزل الله بعدهم، ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾، الناس كلهم، ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وقال قتادة في هذه الآية: هذا إذا بعثَ رسولُ الله ﷺ الجيوش، أمرهم الله ألاَّ يُعَرُّوا نبيَّه ﷺ وتقيم طائفة مع رسول الله تَتَفقه في الدين، وتنطلق طائفةٌ تدعو قومها، وتُحذِّرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم.

وقال الضحاك: كان رسولُ الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يحلّ لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه، إلا أهل العذر. وكان إذا أقام فأسرت السرايا لم يَحلّ لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، فكان الرجل إذا أسرى فنزل بعده قرآن وتلاه رسول الله ﷺ على أصحابه القاعِدين معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآناً. فَيُقرِئُونهم ويفقهونهم في الدين، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً﴾، يقول: إذا أقام رسول الله ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾، يعني بذلك: أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً ونبي الله ﷺ قاعد، ولكن إذا قعد نبي الله تسَرّت السرايا، وقعد معه عُظْم الناس.

وقال ابن أبي طلحة أيضاً، عن ابن عباس قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً﴾، فإنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مُضَرَ بالسنينَ أجدبتَ بلادهم، وكانت القبيلة منهم تُقبل بأسرها حتى يَحلُّوا بالمدينة من الجهد، ويعتلُّوا بالإسلام وهم كاذبون. فضيقوا على أصحاب النبي ﷺ وأجهدوهم. فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين، فردهم رسول الله ﷺ عشائرهم، وحذّر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

[٣٧٠٣] وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: كان ينطلقُ من كلّ حي من العرب عصابةٌ، فيأتون النبي ﷺ فيسألونه عما يُرِيدُونَ من أمر دينهم، ويتفقهون في دينهم، ويقولونَ لنبي الله ﷺ: ما تأمرنا أن نفعله؟ وأخبرنا ما نقول لعشائرنا إذا انطلقنا إليهم قال: فيأمرهم نبي الله بطاعة الله وطاعة رسوله، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة. وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا: إن من أسلم فهو منا، وينذرونهم، حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه، وكان رسول الله ﷺ يخبرهم وينذرهم قومهم، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام، وينذرونهم النار، ويبشرونهم بالجنة[1]. وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآيةُ: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩]، و﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا﴾، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه، وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى

(١) أخرجه الطبري ١٧٤٨٩ بسند ضعيف لضعف عطية العوفي، لكن له شواهد مرسلة.

البدو إلى قومهم يفقهونهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ . . . الآية، ونزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ [الشورى: ١٦] الآية. وقال الحَسنُ البَصْرِيُّ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ ، قال: لِيتَفقَّهَ الذين خرجوا بما يُريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

أمر تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فَرَغَ منهم وفتح الله عليه مكة، والمدينة، والطائف، واليمن واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جَزيرةِ العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهَّز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهْد الناس وجَدْب البلاد وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام. ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حَجّة الوداع. ثم عاجلته المنية ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بعد الحجة بأحد وثمانين يوماً، فاختاره الله لما عنده. وقام بالأمر بعده وزيرُه وصديقهُ وخليفتُه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وقد مال الدينُ ميلة كاد أن يَنجَفِلَ[1]، فثبته الله تعالى به فوطد القواعد، وثبت الدعائم، ورد شارد الدين وهو راغم. ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطَّغَام، وبَيّن الحق لمن جهله، وأدّى عن الرسول ما حمله. ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عَبَدَةِ الصلبَان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنفس كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد. وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الإله. وكان تمامُ الأمر على يَدَي وصيّه من بعده، وَوَلِيّ عهدِه الفاروقِ الأوّاب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً. وحُملت إليه خزائنُ الأموالِ من سائر الأقاليمِ بُعْداً وقُرْباً، فَفرّقها على الوجه الشرعيّ، والسبيل المرضيّ.

ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شهيد الدار. فَكُسِيَ الإسلامُ بِحالةِ رياسته حُلّةً سابغةً، وأمِدَّتْ في سائر الأقاليم على رقاب العباد حُجّةُ الله البالغة، وظهر الإسلامُ في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه. وبلغت الأمة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، فكلما عَلَوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ ، أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن، غليظاً على عدوّه الكافر، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩].

---

(١) انجفل الظل: انحسر.

[٣٧٠٤] وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «أنا الضحوك القتال»[١]، يعني: أنه ضحوك في وجه وليه، قتال لهامة عدوه. وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، أي: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه. وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة، الذين هم خير هذه الأمة، في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سَفار وخسار. ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام، فأخذوة من الأطراف بلداناً كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد. فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله. والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ أي: يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيماناً؟ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. وهذه الآيةُ من أكبر الدلائل على أنَّ الإيمان يزيدُ وينقصُ، كما هو مذهبُ أكثر السلفِ والخلفِ من أئمة العلماء. بل قد حَكَى الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ، وقد بُسِطَ الكلام على هذه المسألة في أوّل شرح البخاري رحمه الله. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾، أي: زادتهم شكاً إلى شكهم، وريباً إلى ريبهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سَبباً لضلالهم ودمارهم، كما أن سَيِّيء المِزاجِ لو غُذِي بما غذي به لا يَزيده إلا خبالاً ونقصاً.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

يقول تعالى: أو لا يرى هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾، أي: يُختبرون، ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يُستقبل من أحوالهم، قال مجاهد: يُختبرون بالسَّنَةِ والجُوع. وقال قتادةُ: بالغزو في السنة مرة أو مرتين. وقال

(١) لم أقف عليه بعدُ، وقد تقدم.

شريك، عن جابر ـ هو الجعفي ـ عن أبي الضُّحى، عن حُذَيفة: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾، قال: كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين، فَيَضِلُّ بها فئام من الناس كثير. رواه ابن جرير.

[٣٧٠٥] وفي الحديث عن أنس: «لا يزداد الأمرُ إلا شدّةً، ولا يزداد الناسُ إلا شحّاً، وما من عام إلا والذي بعده شرٌّ منه». سَمِعته من نبيكم ﷺ[1]. وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾، هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، أي تلفّتوا، ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾، أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المعارج: ٣٦ ـ ٣٧]، أي: ما لهؤلاء القوم يَتَفَلّلُونَ عنك يميناً وشمالاً، وهروباً من الحق، وذهاباً إلى الباطل. وقوله: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم في شُغْل عنه، ونفورٍ منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولاً منا، نَعرِف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته... وذكر الحديث. وقال سفيان بن عُيَينة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية.

[٣٧٠٦] وقال ﷺ: «خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح»[2]. وقد وصل هذا من وجه آخر.

[٣٧٠٧] كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامَهُرمُزي في كتاب «الفاصل بين الراوي والواعي»: حدثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد، حدثنا ابن أبي عُمر، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال: أشهد على أبي لحدثني، عن أبيه، عن جده، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «خرجت من نكاح

---

(١) أخرجه البخاري ٧٠٧٨ والترمذي ٢٢٠٦ عن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج فقال: اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده أشرّ منه، حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ. هذا لفظهما ولم أره بلفظ المصنف. وانظر «الفتح» ١٣/ ٢٠ ـ ٢١.

(٢) هذا مرسل. وانظر ما بعده.

ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، لم يَغْشَني من سفاح الجاهلية شيء»[١]. وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، أي: يعز عليه الشيء الذي يُعْنِتُ أمته ويشق عليها.

[٣٧٠٨] ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال: «بعثت بالحنيفية السَّمْحَةِ»[٢].

[٣٧٠٩] وفي الصحيح: «إن هذا الدينَ يسرٌ»[٣]، وشريعته كلها سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله ـ تعالى ـ عليه. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم.

[٣٧١٠] قال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنامحمد بن عبد الله بن يزيد المقري، حدثنا سفيان بن عيينة، عن فطر، عن أبي الطُّفَيل، عن أبي ذرٍ قال: تَرَكَنَا رسولُ الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يُذَكِّرنا منه علماً ـ قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما بقي شيءٌ يُقرِّب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بُيِّن لكم»[٤].

[٣٧١١] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو قَطَن، حدثنا المسعودي، عن الحسن بن سعد، عن عبدة النَّهْدِيِّ، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يُحَرِّم حُرمة إلا وقد عَلِم أنه سيطَّلعها منكم مُطَّلع، ألا وإني آخذٌ بِحُجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش، أو الذباب»[٥].

[٣٧١٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أتاه مَلَكَان، فيما يرى النائم، فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته. فقال: إن مَثَله ومَثَل أمته كمثل قوم سَفْر انتهوا إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة، ولا ما يرجعون به؛ فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حُلَّة حِبَرَةٍ فقال: أرأيتم إن وَرَدت بكم رياضاً مُعْشِبَةٍ، وحياضاً رِوَاءً تتبعوني؟ فقالوا: نعم. قال: فانطلق بهم، فأوردهم رياضاً معشبة، وحياضاً رِوَاءً، فأكلوا وشربوا وسَمِنوا، فقال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً مُعْشبةً وحياضاً رِوَاءً أن تتبعوني؟ فقالوا: بلى. قال: فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشب من هذه، وحياضاً هي أروى من هذه، فاتبعوني، فقالت طائفة: صدق، والله لنتبعنه. وقالت طائفة: قد رَضِينا بهذا نُقِيم عليه»[٦].

[٣٧١٣] وقال البزار: حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قالا: حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، حدثنا أبي، عن عكرمة، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ يَسْتَعِينُه في شيء ـ قال عكرمة: أراه قال: «في دَمٍ» ـ فأعطاه رسول الله ﷺ شيئاً، ثم قال: «أحسنت إليك؟» قال

---

(١) متن حسن. إسناده غير قوي لأجل محمد بن جعفر بن محمد، لكن له شواهد وتقدم تخريجه، وانظر «المجمع» ٨/ ٢١٤ و «الدر» ٣/ ٥٢٥.

(٢) حديث حسن، وتقدم.

(٣) تقدم تخريجه، وهو في الصحيح.

(٤) صحيح. أخرجه أحمد ٥/١٥٣ ـ ١٦٢ والطيالسي ٤٧٩ وابن حبان ٦٥ والطبراني ١٦٤٧ وإسناد ابن حبان والطبراني رجاله رجال الصحيح غير محمد المقري، وهو ثقة.

(٥) أخرجه أحمد ١/ ٣٩٠ ـ ٤٢٤ وأبو يعلى ٥٢٨٨ والطبراني ١٠٥١١ وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢١٠: فيه المسعودي، وقد اختلط.

قلت: ولعجزه شاهد من حديث أبي هريرة، أخرجه البخاري ٦٤٨٣ ومسلم ٢٢٨٤.

(٦) أخرجه أحمد ٢٤٠٢ «بترقيم شاكر» والبزار ٢٤٠٧ والطبراني ١٢٩٤٠ بهذا الإسناد، ومداره على علي بن زيد، وقد ضعفه الحافظ في «التقريب»، ومع ذلك قال الهيثمي في «المجمع» ١٣٩٥٧: إسناده حسن!.

الأعرابي: لا، ولا أجملتَ. فغضب بعضُ المسلمين وهَمُّوا أن يقوموا إليه، فأشار رسول الله إليهم أن كُفّوا فلما قام رَسولُ الله ﷺ وبلغ إلى منزله، دعا الأعرابي إلى البيت، فقال له: «إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك، فقلت ما قلت». فزاده رسول الله شيئاً، وقال: «أحسنت إليك؟» فقال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرةٍ خيراً. قال النبي ﷺ: «إنك جئتنا فَسألتنا فأعطيناك، فقلت ما قلت، وفي أنفس أصحابي عليكَ من ذلك شيءٌ، فإذا جئتَ فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يدَيّ، حتى يُذهِبَ عن صدورهم». قال: نعم. فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه، فقال ما قال، وإنا قد دعوناه فأعطيناه، فزعم أنه قد رضي، أكذلك؟» قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعَشيرةٍ خيراً. فقال النبي ﷺ: «إن مثلي ومثلُ هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فَشرَدَت عليه، فأتبعها الناسُ فلم يزيدوها إلا نفوراً. فقال لهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي، فأنا أرفق بها وأعلم بها. فتَوجَّه إليها وأخذ لها من قَتام الأرض، ودعاها حتى جاءت واستجابت، وشدَّ عليها رحْلها واستوى عليها، وإني لو أطعتكم حيث قال ما قال لدخل النار»[١]. ثم قال البزّار: لا نعلمه يُرْوَى إلا من هذا الوجهِ. «قلت»: وهو ضعيفٌ بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء: ٢١٥ ـ ٢١٧] وهكذا أمره تعالى. في هذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾، أي: تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة، ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: الله كافيّ، لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩]. ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات. وجميع الخلائق من السمٰوات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعِلْمُه محيط بكل شيءٍ، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

[٣٧١٤] قال الإمام أحمد: حدثني محمد بن أبي بكر، حدثنا بشر بن عمر، حدثنا شعبة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن أُبيّ بن كعب قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة[٢].

[٣٧١٥] وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا روح بن عبد المؤمن، حدثنا عمر بن شقيق، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: أنهم جَمَعُوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، فكان رجال يكتبون ويملي عليهم أُبيّ بن كعب، فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، فظنوا أن هذا آخر ما أنزل من القرآن. فقال لهم أُبيّ بن كعب: إن رسول الله ﷺ أقرأني بعدها آيتين: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ

---

(١) أخرجه البزار كما في «المجمع» ٩/١٢ ـ ١٦ من حديث أبر هريرة، وإسناده ضعيف كما قال ابن كثير رحمه الله، وعلته إبراهيم بن الحكم بن أبان جاء في «الميزان» ٧٢: تركوه، وقلّ من مشاه. قال يحيىٰ: ليس بشيء. وقال النسائي: متروك، وقال البخاري: سكتوا عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٥/١١٧ والطبراني كما في المجمع ٧/٣٦، وقال الهيثمي: وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو ثقة سيىء الحفظ، وبقية رجاله ثقات.

عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ إلى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال: هذا آخر ما أنزل من القرآن قال: فختم بما فُتِح به. بالله الذي لا إله إلا هو، وهو قول الله تبارك تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥][١]. غريب أيضاً.

[٣٧١٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن بحر، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد، عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: أتى الحارث بن خَزَمَةَ بهاتين الآيتين من آخر براءة: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى عمر بن الخطاب، فقال: من معك على هذا؟ قال: لا أدري، والله إني لأشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ووعيتُها وحَفِظتها. فقال عمر: وأنا أشهد لسمِعتُها من رسول الله ﷺ ثم قال: لو كانت ثلاثُ آياتٍ لجعلتُها سورةً على حِدَةٍ، فانظروا سُورةً من القرآن، فضعوها فيها. فوضعوها في آخر براءة[٢]. وقد تقدم أن عمر بن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ بجمع القرآن، فأمر زيد بن ثابت فجمعه. وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك. وفي الصحيح: أن زيداً قال: فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت، أو أبي خزيمة[٣]. وقد قدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عن رسول الله ﷺ كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها، والله أعلم.

وقد روى أبو داود، عن يزيد بن محمد، عن عبد الرزاق بن عُمَر ـ وقال: كان من ثِقاتِ المسلمين من المُتَعَبِّدِينَ ـ عن مُدْرِك بن سعد ـ قال يزيد: شيخٌ ثقة ـ عن يونس بن مَيْسَرَةَ، عن أمِّ الدَّرداء، عن أبي الدَّرداء قال: من قال إذا أَصْبَحَ وإذا أَمْسَى: حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو ربّ العرش العظيم. سبع مرات، إلا كفاه الله ما أهمّه.

[٣٧١٧] وقد رواه ابن عساكر في ترجمة عبد الرزاق بن عُمَر هذا من رواية أبي زُرْعَةَ الدِّمَشْقِيّ، عنه، عن أبي سعد مدرك بن أبي سعد الفزاريّ، عن يونُس بن ميسرة بن حَلْبَس، عن أمِّ الدَّرداء: سَمِعتُ أبا الدَّرداء يقول: ما من عبدٍ يقول: حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكّلتُ، وهو رب العرش العظيم. سبع مَرّات صادقاً كان بها أو كاذباً، إلا كفاه الله ما أهَمّه[٤]. وهذه زيادة غريبة، ثم رواه في ترجمة عبد الرزاق أبي محمد، عن أحمد بن عبد الرزّاق، عن جدّه عبد الرزّاق بن عُمَر، بسنده يرفعه، فذكر مثله بالزيادة. وهذا منكر. والله أعلم.

* * *

آخر تفسير سورة براءة، ولله الحمد والمنّة

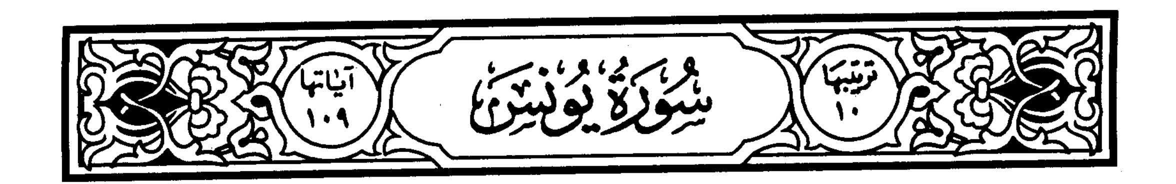
---

(١) ضعيف. أخرجه عبد الله بن أحمد في «المسند» ٥/ ١٣٤ ح ٢٠٧٢٠، فيه أبو جعفر الرازي عيسى بن أبي عيسى ضعفه أحمد وغيره، وقال الفلاس والنسائي: متروك. وأما الهيثمي فأعله في «المجمع» ١١٠٦٣ بمحمد بن جابر الأنصاري، وأنه ضعيف. لكن لم أره في الإسناد. فالله أعلم.

(٢) منكر. أخرجه أحمد ١٧١٥ وإسناده ضعيف، فهو منقطع، وابن إسحاق مدلس، والمتن منكر، راجع تعليق أحمد شاكر على المسند.

(٣) انظر صحيح البخاري ٤٦٧٩.

(٤) الصحيح موقوف. أخرجه أبو داود ٥٠٨١ عن أبي الدرداء موقوفاً بهذه الزيادة، وهي زيادة منكرة، لا تصح في الموقوف ولا المرفوع، وأخرجه ابن السني في «اليوم والليلة» ٧١ بهذا الإسناد مرفوعاً دون تلك الزيادة، وإسناده لا بأس به، رجاله ثقات، سوى مدرك بن سعد، قال عنه الحافظ في التقريب: لا بأس به لكن الصحيح وقفه.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾

أمّا الحروفُ المقطّعَة في أوائلِ السُوَر فقد تقدَّم الكلامُ عليها في أوائل سُورةِ البقرة. وقال أبو الضُحَى، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الٓر﴾، أي: أنا الله أرَى. وكذا قال الضحّاكُ وغيرُه. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾، أي: هذه آياتُ القرآنِ المُحكم المُبين. وقال مجاهدٌ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ قال: التوراة والإنجيل. وقال الحسن: التوراة والزبور[1]، وقال قتادة: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، قال: الكتبُ التي كانت قبل القرآنَ. وهذا القول لا أعرفُ وجهَهُ ولا معناه، وقولُه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾... الآية، يقول تعالى منكراً على من تَعجَّب من الكفّارِ من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، وقال هودٌ وصالحٌ لقومهما: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣]، وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥]. وقال الضحّاك، عن ابن عباس: لما بَعَث الله تعالى مُحمّداً ﷺ رسولاً أنكرت العربُ ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسولُه بشراً مثلَ محمدٍ. قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، اختلفوا فيه، فقال علي بن أبي طلحة. عن ابن عباس في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ يقول: سَبقت لهم السعادةُ في الذِّكر الأوَّل. وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، يقول: أجراً حسناً بما قَدَّموا. وكذا قال الضحّاكَ، والربيعُ بن أنَس، وعبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ، وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف: ٢ ـ ٣]. وقال مجاهد: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، قال: الأعمالُ الصالحةُ صلاتُهم وصومُهم وصَدَقتُهم وتسبيحُهم. قال: ومحمّدٌ ﷺ شفيعٌ لهم. وكذا قال زيدُ بن أسلَمَ، ومقاتلُ بن حَيّانَ. وقال قتادة: سَلَفُ صدق عند ربِّهم. واختار ابنُ جرير قولَ مجاهد أنها الأعمال الصالحة التي قَدَّمُوها، قالَ: كما يُقال: له قَدَمٌ في الإسلام، ومنه قولُ حسان ـ رضي الله عنه ـ:

لَنَا القَدَمُ العُلْيا إليكَ وَخَلْفُنا ... لأوَّلِنا في طاعَةِ اللَّهِ تَابِعُ

وقولُ ذِي الرُّمة:

---

(١) هذا قول غريب جداً.

لَكُم قَدَمٌ لا يُنكِرُ الناسُ أنها مَعَ الحسَبِ العَادِيِّ طَمَّت عَلَى البَحْرِ

وقولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: مع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم، رَجُلاً من جنسهم، بشيراً ونذيراً، ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: ظاهر، وَهُم الكاذِبُون في ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

يُخبِر تعالى أنه ربُّ العالَم جَميعِهِ، وأنه خَلَق السمٰوات والأرضَ في سِتَّةِ أيام، قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم كألف سنة مما تَعدُّونَ، كما سيأتي بيانه. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، والعرشُ أعظَمُ المخلوقاتِ وسَقفُها. قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا حجّاجُ بن حَمْزَة، حدثنا أبو أسامَةَ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد قال: سَمِعتُ سعداً الطائي يقول: العرشُ ياقوتةٌ حمراء. وقال وهبُ بن مُنَبِّهٍ: خَلقه الله من نُوره[1]. وهذا غريبٌ.

وقولُه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، أي: يُدَبِّر أمر الخلائق، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ولا يَشغله شأنٌ عن شأن، ولا تُغَلِّطُه المسائلُ، ولا يَتبرَّمُ بإلحاح المُلِحّين، ولا يُلهيه تدبيرُ الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار والعُمران والقِفارِ، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال الدَّراوَرْدِيُّ، عن سَعدِ بن إسحاقَ بن كعب بن عجرة أنه قال: حين نزلت هذه الآيَةُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ لَقِيهم رَكْبٌ عَظيم لا يرون إلا أنهم من العَربِ، فقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: من الجن، خَرَجنا من المدينة، أخرجتنا هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم. وقوله ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكقَولِهِ تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦]، وقولِه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]. وقولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: أفرِدُوه بالعبادة وحدَه لا شريكَ له، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: أيُّها المشركون في أمركم، تعبدُون مع الله إلهاً غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرِّدُ بالخَلقِ، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقولِهِ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، وكذا الآيةُ التي قبلها والتي بعدَها.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

يُخبر تعالى أن إليه مرجعَ الخلائقِ يومَ القيامة، لا يتركُ منهم أحداً حتى يُعيده كما بدأه. ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يُعيده، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: بالعَدلِ والجزاء الأوفى، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾، أي: بسبب كُفرهم يُعذَّبون يوم القيامة بأنواع العقاب، من ﴿سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن

(١) هو متلقى عن أهل الكتاب.

يحموم ﴿٤٣﴾﴾ [الواقعة: ٤٢، ٤٣]، ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٧، ٥٨]، ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

يخبرُ تعالى عما خَلق من الآياتِ الدالَّة على كمال قُدرته، وعظيم سُلطانه، وأنه جعل الشُّعاع الصادِرَ عن جِرْم الشمس ضياءً وشعاعَ القمر نوراً، هذا فَنٌّ وهذا فَنٌّ آخرُ، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعلَ سلطانَ الشمسِ بالنهارِ، وسلطانَ القَمَر بالليل، وقَدَّر القَمَر منازِلَ، فأولُ ما يبدُو صغيراً ثم يتزايد نُورُه وجرمُه، حتى يستوسقَ ويكمُلَ إبدارُه، ثم يشرَع في النقص حتى يرجعَ إلى حاله الأوَّلِ في تمام شهر، كقولِه تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٩، ٤٠]، وقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]. وقال في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾، أي: القمرَ ﴿مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾، فبالشمس تُعرفُ الأيامُ، وبسَير القمرَ تُعرف الشهورُ والأعوامُ. ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾، أي: لم يخلقه عبثاً بل له حكمةٌ عظيمةٌ في ذلك، وحُجَّةٌ بالغة، كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. وقولُه تعالى: ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾[1]، أي: نبين الحُجَجَ والأدلةَ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أي: تعاقُبهما إذا جاء هذا ذَهَب هذا، وإذا ذَهَب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً؛ كقولِهِ تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]. وقولُه: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: من الآيات الدالَّة على عَظمته تعالى، كما قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾... [يوسف: ١٠٥] الآية. وقولِهِ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، أي: العقول، وقال ها هنا: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾، أي: عقابَ الله وسخطَه وعذَابه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كَفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجُون في لقاء الله شيئاً،

---

(١) هذه قراءة نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بن عاصم ﴿يُفَصِّلُ﴾. انظر زاد المسير.

ورضُوا بهذه الحياةِ الدنيا واطمأنت إليها أنفسُهم. قال الحسنُ: والله ما زيَّنُوها ولا رَفَعوها حتى رضوا بها وهم غافِلُون عن آيات الله الكونيَّةِ فلا يَتفكَّرون فيها، والشرعيَّة فلا يأتمرون بها، فإن مأواهم يومَ معادهم النارُ، جزاءً على ما كانوا يكسِبُون في دُنياهم من الآثام والخطايا والأجرام، مع ما هُم فيه من الكُفرِ بالله ورسُولِه واليومِ الآخِرِ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

هذا إخبارٌ عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصَدَّقوا المرسَلين، وامتثلُوا ما أُمِرُوا، فَعَمِلوا الصالحات، بأنه سَيَهديهم بإيمانهم. يَحتمِلُ أن تكونَ الباء ها هنا سببيةً، فتقديرُه: بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يومَ القيامة على الصراط حتى يَجُوزُوه ويخلُصُوا إلى الجنة. ويَحتملُ أن تكونَ للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ﴾، قال: يكون لهم نوراً يمشُون به. وقال ابنُ جُريج في الآية: يَمثُلُ له عمله في صورة حسنةٍ وريح طَيِّبةٍ إذا قام من قبره، يُعارِضُ صاحبه ويبشره بكلِّ خير، فيقولُ له: من أنت؟ فيقولُ: أنا عَملُك. فَيجعَلُ له نوراً من بين يَدَيه حتى يُدخِلَه الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ﴾. والكافرُ يَمثُلُ له عمله في صورة سَيِّئةٍ وريحٍ مُنتِنَةٍ، فيلازِمُ صاحبَه ويُلازُه[1] حتى يقذفه في النار. ورُوِي نحوه عن قتادةَ مُرسَلاً، فالله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾، أي: هذا حالُ أهل الجنةِ. قال ابنُ جُرَيج: «أُخبِرْتُ أنَّ قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، قال: إذا مَرَّ بهم الطيرُ يشتهونَه، قالوا: سبحانكَ اللهمَّ، وذلك دعواهُم فيأتيهم الملكُ بما يشتهونه، فَيُسَلِّم عليهم، فيردُّون عليه، فذلك قولُه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ﴾، قال: فإذا أكلُوا حَمدوا الله ربَّهم، فذلك قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وقال مقاتلُ بن حيَّانَ: إذا أراد أهلُ الجنة أن يدعُوا بالطعام قال أحدُهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، قال: فيقوم على أحدِهم عشرةُ آلاف خادم، مع كل خادم صحفة من ذَهَب، فيها طعامٌ ليس في الأخرى، قال: فيأكلُ منهن كُلهن. وقال سفيان الثوريُّ: إذا أراد أحدُهم أن يدعوَ بشيءٍ قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾. وهذه الآيةُ فيها شَبَهٌ من قولِهِ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، وقولِهِ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨]، وقولِهِ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]. وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هذا فيه دلالةٌ على أنَّ الله تعالى هو المحمود أبداً، المعبودُ على طول المَدَى، ولهذا حَمد نفسَه عند ابتداءِ خلقه واستمرارِه، وفي ابتداءِ كتابِهِ، وعند ابتداءِ تنزيلِهِ، حيثُ يقولُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطُها، وأنه المحمودُ في الأولِ والآخِرِ، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في جميع الأحوال، ولهذا جاء في الحديث:

---

(١) يلازُه: يقارنه ويلازمه ويلصق به.

[٣٧١٨] «إن أهل الجنة يُلْهَمُون التسبيحَ والتحميدَ كما يُلهَمُون النَّفَس»[١]. وإنما يكون ذلك كذلك لما يرونَ من تضاعُفِ نِعَمِ الله عليهم، فتُكَرَّر وتُعادُ وتزادُ، فليس لها انقضاءٌ ولا أَمَدٌ، لا إله إلا هُو ولا ربَّ سواه.

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

يخبرُ تعالى عن حِلْمِهِ ولطفِه بعباده: أنه لا يَستجيبُ لهم إذا دَعَوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم، في حال ضَجَرهم وغَضَبهم، وأنه يعلم منهم عدَمَ القصدِ إلى إرادةِ ذلك، فلهذا لا يستجيبُ لهم ـ والحالَة هذه ـ لطفاً ورحمةً، كما يستجيبُ لهم إذا دَعَوا لأنفسِهم أو لأموالهم وأولادِهم بالخير والبركَةِ والنماءِ، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾، أي: لو استجاب لهم كل ما دَعَوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثارُ من ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزّار في مُسنده:

[٣٧١٩] حَدَّثنا محمد بن معمر، حدثنا يعقوبُ بن محمد، حدثنا حاتمُ بن إسماعيل، حدثنا يعقوبُ بن مجاهد أبو حَزْرَة، عن عبادة بن الوليد، حدثنا جابر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تدعُوا على أنفسكم، لا تدعُوا على أولادكم، لا تدعُوا على أموالكم. لا توافِقُوا من الله ساعةً فيها إجابةٌ فيستجيبَ لكم»[٢]. ورواه أبو داود، من حديث حاتم بن إسماعيل، به. وقال البزارُ: تفرد به عبادةُ بن الوليد بن عبادةَ بن الصامتِ الأنصاري. لم يشاركه أحد فيه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾: وهو قولُ الإنسانِ لولدِهِ أو مالِه إذا غَضِب عليه: اللهمّ لا تُبارِكْ فيه والعنه. فَلو يُعجِّل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير، لأهلكهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

يخبرُ تعالى عن الإنسان وضَجرِهِ وقَلَقِه إذا مسَّه الضر، كقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] أي: كثير، وهما في معنىً واحدٍ، وذلك لأنه إذا أصابته شِدَّةٌ قَلِقَ لها وجَزِع منها، وأكثر الدعاءَ عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالها عنه في حال اضطجاعِه وقعُوده وقيامِه، وفي جميع أحوالِه، فإذا فرّج الله شِدَّته وكشَف كربتَه، أعرضَ ونأى بجانبه، وذَهَب كأنه ما كان به من ذاك شيءٌ، ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾. ثم ذَم تعالى مَنْ هذه صفتُه وطريقتُه فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فأما مَن رَزَقه الله الهدايةَ والسداد والتوفيقَ والرشادَ فإنه مُستثنىً من ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم. وتقدم.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ١٥٣٢ وإسناده على شرط مسلم. قال أبو داود: هذا الحديث متصل الإسناد فإن عبادة بن الوليد بن عبادة لقي جابراً.

[٣٧٢٠] وكقولِ رسولِ الله ﷺ: «عَجَباً لأمرِ المؤمنِ! لا يَقضِي الله له قضاءً إلا كان خيراً له: إن أصابته ضَرَّاءُ صَبَر فكان خيراً له، وإن أصابَته سَرَّاءُ شكَر فكان خَيراً له»[١]. وليس ذلك لأحدٍ إلا للمُؤمِنِ.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

أخبر تعالى عما أحلَّ بالقرون الماضيةِ في تَكذِيبهم الرسلَ فيما جاؤوهم به من البيِّنات والحُجَج الواضحات. ثم استخلف الله هؤلاء القومَ من بعدهم، وأرسل إليهم رسُولاً لِينظُرَ طاعتهم له واتباعَهم رسولَه.

[٣٧٢١] وفي صحيح مسلم من حديث أبي نَضرة، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الدنيا حلوةٌ خَضِرَةٌ، وإن الله مستخلفكُم فيها فناظرٌ ماذا تعملون، فاتقُوا الدنيا واتقُوا النساء؛ فإنَّ أول فتنةِ بني إسرائيلَ كانت في النساءِ»[٢].

[٣٧٢٢] وقال ابنُ جرير: حدثني المثنى، حدثنا زيدُ بن عوف أبو ربيعة فهد، حدثنا حماد، عن ثابت البُناني، عن عبد الرحمن بن أبي لَيلى: أن عوف بن مالكٍ قال لأبي بكر: رأيتُ فيما يَرَى النائم كأن سَبَباً دُلِّي من السماء، فانتُشِط رسولُ الله ﷺ ثم أُعِيد، فانتُشِطَ أبو بكر ثم ذُرِعَ الناس حولَ المنبر، فَفَضَل عمر بثلاث أذرع إلى المنبر. فقال عمر: دعنا من رؤياك، لا أرَبَ لنا فيها! فلما استُخلِفَ عمر قال: يا عوف، رؤياك! فقال: وهل لك في رؤياي من حاجة؟ أولم تنتهرني؟ فقال: ويحك! إني كرهتُ أن تنعَى لخليفة رسول الله ﷺ نفسه! فقصَّ عليه الرؤيا، حتى إذا بلغ: ذُرِعَ الناسُ إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع، قال: أما إحداهن فإنه كائن خليفة. وأما الثانية فإنه لا يخاف في الله لومة لائم. وأما الثالثة فإنه شهيدٌ. قال فقال: يقولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾، فقد استُخلِفت يا ابن أمّ عمر فانظر كيفَ تَعملُ؟ وأما قوله: «فإني لا أخاف في الله لومةَ لائم»، فيما شاء الله! وأما قوله: «شهيد»، فَأنّى لعمر الشهادة والمسلون مُطِيفون به؟!. ثم قال: إن الله على كلِّ شيء قدير[٣].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

يخبرُ تعالى عن تَعنُّتِ الكفار من مشركي قُرَيش الجاحدين الحَقَّ المُعرِضين عنه، أنهم إذا قَرأ عليهم الرسولُ ﷺ كتابَ الله وحُجَجه الواضِحَةَ قالوا له: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾؛ أي: رُدَّ هذا وجئنا بغيره من نَمطٍ آخَرَ، أو بَدِّله إلى وضع آخرَ ـ قال الله لنبيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن

---

(١) صحيح. أخرجه الشيخان، وتقدم.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم وغيره، وتقدم.

(٣) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري ١٧٥٩٥ وفيه زيد بن عوف، ولقبه فهد، وهو متروك.

تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ﴾، أي: ليس هذا إليّ، إنما أنا عبدٌ مأمورٌ، ورسولٌ مُبلّغ عن اللهِ: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. ثم قال مُحتجاً عليهم في صِحّة ما جاءهم به: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾، أي: هذا إنما جئتكم به عن إذنِ الله لي في ذلك وَمشيئَتِهِ وإرادتِهِ، والدليلُ على أني لستُ أتقوّله من عندي ولا افتريتُه أنكُم عاجزُون عن مُعارضته، وأنكم تَعلَمُون صِدْقِي وأمانَتي منذ نشأتُ بينكم إلى حينَ بعثَني الله عز وجل، لا تَنتقدون عليّ شيئاً تَغمِصُوني به، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أي: أفليس لكم عقولٌ تعرفون بها الحقَّ من الباطل؟!

[٣٧٢٣] ولهذا لما سأل هرقلُ ملكُ الروم أبا سفيان ومن معه، فيما سأله من صفةِ النبي ﷺ، قال: هرقل لأبي سفيان: هل كنتم تتّهمونه بالكذِب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا. وقد كان أبو سفيان إذ ذاك رأسَ الكَفَرة وزَعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق:

وَالفَضلُ ما شَهِدَتْ بِهِ الأعداءُ

فقال له هِرَقْل: فقد أعرفُ أنه لم يكن ليدَعَ الكَذِبَ على الناس ثم يذهبَ فيكذِبَ على الله![1] وقال جعفرُ بن أبي طالب للنجاشي مَلِكِ الحَبشة: بَعثَ الله فينا رسُولاً نعرف صِدْقَه ونَسَبه وأمانته. وقد كانت مدة مُقامه ـ عليه السلام ـ بين أظهُرِنا قبل النبوّة أربعين سنةً. وعن سعيد بن المُسيِّبِ: ثلاثاً وأربعينَ سنةً. والصحيح المشهور الأول.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقولُ تعالى: لا أحدَ أظلمُ ولا أعتى ولا أشدَّ إجراماً ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، وتَقوّل على الله، وزعمَ أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحدٌ أكبرَ جُرماً ولا أعظم ظُلماً من هذا، ومثلُ هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء؟! فإن مَن قال هذه المقالةَ صادقاً أو كاذباً، فلا بدَّ أن الله يَنصب عليه من الأدلّةِ على بِرّه أو فُجوره ما هو أظهرُ من الشمسِ، فإنَّ الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذّاب لمن شاهدهما أظهَرُ من الفرق بين وقت الضُحى ووقتِ نصف الليل في حِنْدِس الظلماء، فَمِنْ سيما كُلٍ منهما وكلامِه وفِعاله يَستدلّ من له بصيرةٌ على صدقِ محمد ﷺ وكَذب مُسَيلِمةَ الكذّاب، وسَجَاحَ، والأسود العَنسِيّ.

[٣٧٢٤] قال عبد الله بن سَلاَم: لما قَدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ انجفَلَ الناس، فكنتُ فيمن انجفَلَ، فلما رأيتُه عرفتُ أنّ وجهه ليس بوجه رجل كَذّاب، فكان أول ما سمعتُه يقول: «يا أيها الناسُ، أفشوا السلامَ، وأطعموا الطعامَ، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلُوا الجنّة بسلام»[2].

[٣٧٢٥] ولما قدم ضِمَام بن ثعلبَةَ على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسولِ الله فيما قال له: من رَفَع هذه السماءَ؟ قال: «الله». قال: ومن نَصَب هذه الجبالَ؟ قال: «الله». قال: ومن سَطَح هذه الأرض؟ قال: «الله». قال: فبالذي رَفَع هذه السماءَ، ونصبَ هذه الجبالَ، وسَطحَ هذه الأرضَ، اللهُ أرسلَكَ إلى الناس كُلّهم؟ قال: «اللّهم نعم». ثم سأله عن الصلاة، والزكاة، والحجِّ، والصيام، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمينَ، ويحلف رسولُ الله ﷺ فقال له: صدقتَ، والذي بعثك بالحقِّ لا أزيدُ على ذلك ولا

---

(١) هو بعض حديث أخرجه البخاري وغيره، وتقدم.

(٢) تقدم في سورة النساء وغيرها.

أنقصُ[1]. فاكتفى هذا الرجلُ بِمُجَرَّدِ هذا، وقد أيقن بصدقِهِ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بما رَأى وشاهدَ من الدلائل الدالَّة عليه، كما قال حَسَّانُ بن ثابت:

لَـو لَـم تَـكُـنْ فِـيـهِ آيَـاتٌ مُـبَـيِّـنَـةٌ كـانَـتْ بَـديـهـتُـهُ تَـأتِـيـكَ بِـالـخَـبَـرِ

وأما مُسَيلِمَةُ فمن شاهَدَه من ذوي البصائر عَلِم أمرَه لا محالةَ، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحةٍ، وأفعاله غير الحسنةِ بل القبيحةِ، وقرآنِهِ الذي يَخلُدُ به في النار يومَ الحسرةِ والفضيحةِ، وكَم من فَرقٍ بين قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وبين عُلاكِ مُسَيلَمة ـ قبحه الله ولعنه ـ: يا ضِفْدَعُ بنت الضِّفدعين، نَقِّي كم تُنَقِّين، لا الماء تُكَدِّرين، ولا الشاربَ تمنعين. وقوله ـ قُبِّح ولُعِن ـ: لقد أنعَمَ الله على الحُبلَى. إذ أخرج منها نَسَمةً تسعَى. من بين صِفَاقٍ وحَشَا. وقَوْلِهِ ـ خَلَّدَه الله في نار جهنم، وقد فَعَل ـ: الفيل وما أدراك ما الفيل؟ له خُرطُومٌ طويل. وقوله ـ أبعده الله من رحمته ـ: والعاجناتِ عَجْناً، والخابزاتِ خَبزاً، واللاقمات لَقْماً، إهالةً وسَمْناً، إن قُريشاً قومٌ يعتدون. إلى غير ذلك من الهَذَيانات والخَرافات التي يأنَفُ الصِّبيان أن يتلفظوا بها، إلا على وجه السُّخرية والاستهزاءِ، ولهذا أرغم الله أنفَه، وشَرِب يوم «حَدِيقة الموت» حتفه. ومَزّق شمله. ولعنه صحبُه وأهلُه. وقَدِمُوا على الصِّدِّيق تائبين، وجاؤوا في دين الله راغبين، فسألهم الصدِّيقُ خليفةُ الرسولِ ـ صلوات الله وسلامُه عليه، ورَضِي عنه ـ أن يقرؤوا عليه شيئاً من قرآن مُسَيلِمَة ـ لعنه الله ـ فسألوه أن يَعفِيَهم من ذلك، فأبى عليهم إلا أن يقرؤوا شيئاً منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس، فيعرفُوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم. فقرؤوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه، فلما فرغُوا قال لهم الصديق ـ رضي الله عنه ـ: ويحكُم! أين كان يُذهَب بِعقُولكم؟ والله إن هذا لم يخرُج من إلٍّ.

وذكروا أنه وَفَد عمرو بن العاص على مُسَيلِمَةَ، وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعدُ، فقال له مُسَيلِمة: ويحكَ يا عمرو! ماذا أُنزلَ على صاحبكم ـ يعني رسول الله ﷺ ـ في هذه المدة؟ فقال: لقد سَمِعتُ أصحابَه يقرؤن سورةً عظيمةً قصيرةً، فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾. ففكر مُسَيلِمَة ساعة، ثم قال: وقد أُنزِلَ عليّ مثلُه، فقال: وما هو؟ فقال: يا وَبْرُ، إنما أنت أذنان وصَدْرٌ، وسائرك حَفْرٌ نَقرٌ، كيف ترى يا عمرو؟. فقال له عمرو: والله إنكَ لَتعلم أني أعلَمُ أنك لَتَكذِبُ؛ فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه، لم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه، وحالُ مُسَيلِمَة ـ لعنه الله ـ وكَذِبه، فكيف بأولي البصائر والنهي، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحِجى! ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٧﴾، وكذلك من كَذّبَ بالحقّ الذي جاءت به الرسلُ وقامت عليه الحُجج، لا أحدَ أظلم منه، كماجاء في الحَديث:

[٣٧٢٦] «أعتى الناسِ على الله رجلٌ قَتَلَ نبياً، أو قتله نبيٌّ»[2].

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٣ ومسلم ١٢ وابن حبان ١٥٤ و ١٥٥ من حديث أنس.

(٢) حديث حسن، وتقدم في آل عمران.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

يُنكِرُ تعالى على المشركين الذين عَبَدوا مع الله غيره، ظانِّين أن تلك الآلهة تنفعُهم شفاعتُها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تنفع ولا تَضرُّ ولا تَملِكُ شيئاً، ولا يقَع شيءٌ مما يزعمُون فيها، ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾. وقال ابنُ جَرير: معناه: أتُخبِرُون الله بما لا يكون في السَّمواتِ ولا في الأرضِ؟. ثم نزه نفسَه عن شركهم وكفرهم، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حَادِثٌ في الناس، كائنٌ بعد أن لم يكن، وأن الناسَ كُلَّهم كانوا على دين واحدٍ، وهو الإسلامُ؛ قال ابنُ عباس: كان بين آدمَ ونوح عشرةُ قرونٍ، كُلُّهم على الإسلام، ثم وقع الاختلافُ بين الناس، وعُبِدت الأصنامُ والأنداد والأوثانُ، فبعث الله الرسل بآياتِهِ وبيناتِهِ وحُججه البالغة وبراهينه الدامغةِ، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ﴾ [الأنفال: ٤٢]. وقولُه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أي: لولا ما تَقَدَّم من الله تعالى أنه لا يُعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحُجَّةِ عليه؛ وأنه قد أَجَّلَ الخلق إلى أجلٍ معدودٍ لَقُضِي بينهم فيما فيه اختلفوا، فأسعدَ المؤمنين، وأعنَتَ الكافِرينَ.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

أي: ويقولُ هؤلاء الكفرة المُكذِّبون المعاندون: لولا أنزل على محمد آيةٌ من ربِّه، يعنون كما أعطى الله ثمودَ الناقة، أو أن يُحوِّل لهم الصفَا ذهباً، أو يُزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بَساتين وأنهاراً، ونحو ذلك مما الله عليه قادرٌ، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]. يقول تعالى: إن سُنَّتي في خَلقي أنّي إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلاَّ عاجلتُهم بالعقوبة. ولهذا لما خُيِّر رسولُ الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين أن يُعطَى ما سَألوا فإن أجابوا وإلا عُوجلوا، وبين أن يتركهم ويُنْظِرهم، اختار إنظارهم، كما حَلُم عنهم غير مرة ـ صلواتُ الله عليه ـ ولهذا قال تعالى إرشاداً لنبيِّه صلى الله عليه وسلم إلى الجواب عما سألوا: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾، أي: الأمر كُلُّهُ لله، وهو يعلَمُ العواقِبَ في الأمور. ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾، أي: إن كنتُم لا تؤمنون حتى تُشَاهدوا ما سألتم فانتظِرُوا حُكم الله فيَّ وفيكم. هذا مع أنهم قد شاهدُوا من معجزاته ـ عليه السلام ـ؛ أعظم مما سألوا، حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلةَ إبداره، فانشقَّ اثنتين: فرقةٌ من وراءِ الجبل، وفرقةٌ من دونِهِ. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضيَّة مما سَألوا وما لم يسألوا، ولو عَلِم الله منهم أنهم سَألُوا ذلك استرشاداً وتثبتاً لأجابهم، ولكن عَلِمَ أنهم إنما يسألون عناداً وتعنُّتاً، فتركهم فيما رابهم، وعَلم أنَّهم لا يُؤمِنُ منهم أحدٌ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا

عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]. ولما فيهم من المُكابرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝٤٤﴾ [الطور: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [الأنعام: ٧]. فمثلُ هؤلاء أقلُّ من أن يُجابوا إلى ما سألوا، لأنه لا فائدة في جواب هؤلاء، لأنه دائرٌ على تعنُّتهم وعنادِهم، لكثرةِ فُجورهم وفسادهم، ولهذا قال: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ۝٢١ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٣﴾

يخبرُ تعالى أنه إذا أذاقَ الناسَ رحمةً من بعد ضرَّاءَ مستهُم، كالرَّخاء بعد الشدَّة، والخِصْبِ بعد الجَدْبِ، والمَطَرِ بعد القَحْطِ، ونحو ذلك، ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾. قال مجاهد: استهزاءٌ وتكذيبٌ. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢].

[٣٧٢٧] وفي الصَّحيح أن رسولَ الله ﷺ صلَّى بهم الصبح على إثر سماءٍ ـ مطرٍ ـ أصابَهم من الليل ثم قال: «هل تَدرُون ماذا قالَ ربُّكم الليلة؟» قالوا: اللَّهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «قالَ: أصبحَ من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورَحمتِهِ، فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بِنَوءِ كذا وكذا فذاكَ كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب»[1]. وقولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾، أي: أشدُّ استدراجاً وإمهالاً، حتى يظُنَّ الظانُّ من المجرمين أنه ليس بمعذَّب، وإنما هو في مُهلة، ثم يُؤخَذ على غِرَّةٍ منه، والكاتبون الكرام يَكتُبون عليه جميعَ ما يفعلُه، ويحصونه عليه، ثم يَعرِضُونه على عالم الغيبِ والشهادةِ، فيُجازِيه على الحقيرِ والجليلِ، والنقير والقِطْمير.

ثم أخبر تعالى أنه ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، أي: يحفظُكم ويَكلَؤكم بحراسته، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾، أي: بسرعة سَيرهم رافقين، فبينما هم كذلك إذ ﴿جَآءَتْهَا﴾، أي: تلك السفنَ ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، أي: شَديدةٌ ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾، أي: اغتلم البحرُ عليهم، ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾، أي: هَلَكوا ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، أي: لا يدعونَ معه صنماً ولا وثناً، بل يُفردُونه بالدعاء والابتهال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال ها هنا: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾، أي: هذه الحالِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أي: لا نُشرِكُ بك أحداً، ولَنفردَنَّك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدُّعاء ها هنا. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾، أي: من تلك الورطة ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: كأن لم يَكن من

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٨٤٦ ومسلم ٧١ وأبو داود ٣٩٠٦ وابن حبان ١٨٨.

ذلك شيء، ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾. ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، أي: إنما يذوقُ وبالَ هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تَضرُّون به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث:

[٣٧٢٨] «ما من ذنبٍ أجدرُ أن يُعجّل الله عُقُوبَته في الدنيا مع ما يَدّخر الله لصاحبه في الآخرة، من البغي وقَطِيعة الرَّحِم»[١]. وقوله: ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: إنما لكم متاعٌ في الحياة الدنيئة الحقيرة، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾، أي: مَصيركم ومآلكم، ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾، أي: فنُخبِّركم بجميعِ أعمالكم، ونُوَفِّيكم إياها، فمن وَجَدَ خيراً فَلْيحمَدِ الله، ومن وَجَدَ غيرَ ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

ضَرَب تعالى مثلاً لِزَهرةِ الحياةِ الدُّنيا وزينتها وسُرعَةِ انقضائها وزَوالها، بالنَّبات الذي أخرجَه الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، مما يأكُلُ الناسُ من زَرعٍ وثِمَارٍ، على اختلافِ أنواعِها وأصنافِها، وما تأكلُ الأنعامُ من أبٍّ وقَضْب وغير ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾، أي: زينتها الفانية، ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾، أي: حَسُنت بما خَرَج من رُباها من زهور نَضِرَةٍ مختلفة الأشكالِ والألوانِ، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾، الذين زرعُوها وغرَسُوها، ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾، أي: على جَذَاذِها وحَصَادها، فَبينا هم كذلك إذ جاءتها صاعقةٌ، أو ريحٌ شديدة باردة، فأيبسَت أوراقَها، وأتلفت ثِمَارها. ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾، أي: يَبَساً بعد الخُضرةِ والنَّضارَةِ، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾، أي: كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك. وقال قتادةُ: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾: كأن لم تَنعَم. وهكذا الأمورُ بعد زَوالها كأنها لم تكن، ولهذا جاء في الحديث:

[٣٧٢٩] «يُؤتَى بأنعَم أهل الدنيا فَيُغمَسُ في النار غَمْسَةً، ثم يقال له: هل رأيتَ خيراً قَطُّ؟ هل مَرَّ بك نعيمٌ قطُّ؟ فيقول: لا. ويؤتى بأشدِّ الناس عذاباً في الدُّنيا، فَيُغمَسُ في النعيم غَمْسَةً، ثم يقال له: هل رأيت بُؤساً قطُّ؟ فيقول: لا». وقال تعالى إخباراً عن المُهلَكين: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ [هود: ٦٧ ـ ٦٨]. ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾، أي: نُبيِّن الحُجَجَ والأدلَّة، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فيعتبرون بهذا المثل في زَوال الدنيا عن أهلها سَريعاً مع اغترارِهم بها، وتَمكُّنهم وثقتهم بمواعيدها وتَفلُّتها منهم، فإنَّ من طبعها الهَرَبَ ممن طلبها، والطَّلَبَ لمن هَرَب منها. وقد ضربَ الله مثلَ الحياة الدنيا بنبات الأرض في غير ما آيةٍ من كتابه العزيز، فقال في سورة الكهف: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥]، وكذا في سورة الزُّمَر والحديد يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا كماء.

وقال ابنُ جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا ابن عُيينَة، عن عَمرو بن دينار، عن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: سَمِعت مَرْوانَ ـ يعني ابنَ الحكم ـ يقرأ

(١) حسن. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ٦٧ والحاكم ٢/ ٣٥٦ وأحمد ٥/ ٣٦ وابن حبان ٤٥٥ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وله شواهد.

على المنبر: «وَازَّيَنَت وظنَّ أهلها أنهم قادِرونَ عليها وما كان الله لِيُهلِكَها إلا بِذُنُوبِ أهلها»، قال: قد قرأتها وليسَت في المصحف. فقال عباسُ بن عبد الله بن عباس: هكذا يقرؤها ابنُ عباس، فأرسلوا إلى ابن عباس فقال: هكذا أقرأني أبيّ بن كعب[١]. وهذه قراءة غريبة، وكأنها زيادةٌ للتفسير.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ . . . الآية، لما ذكر تعالى الدنيا وسرعةَ زَوالها، رَغَّب في الجَنَّةِ ودعا إليها، وسَمَّاها دارَ السلام، أي: من الآفاتِ والنقائصِ والنكباتِ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

[٣٧٣٠] قال أيّوبُ، عن أبي قِلابَة، عن النبي ﷺ قال: «قيل لِي: لِتَنَمْ عَينُكَ، وَلْيعقِلْ قلبُكَ، ولتسمَع أذُنك، فنامت عيني، وعَقَل قلبي، وسَمِعَت أذني ثم قيل: سَيِّدٌ بَنَى داراً، ثم صنع مَأدُبة، وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعيَ دخل الدار، وأكل من المأدبة، ورَضِيَ عنه السَّيد. ومن لم يُجب الدَّاعِيَ لم يدخُل الدار، ولم يأكل من المأدُبة، ولم يرضَ عنه السيّد: فالله السيدُ، والدارُ الإسلامُ، والمأدُبة الجنةُ، والداعي محمدٌ ﷺ»[٢]. وهذا حديثٌ مرسلٌ.

[٣٧٣١] وقد جاء متصلاً من حديث اللَّيث، عن خالد بن يزيد، عن سعيدِ بن أبي هلالٍ، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ يوماً فقال: «إني رأيتُ في المنام كأنّ جبريلَ عند رأسي، وميكائيل عندَ رجلي، يقول أحدُهما لصاحبه: اضرب له مثلاً. فقال: اسمع سَمِعَتْ أذنُك، واعقِل عَقَلَ قَلبُك، إنما مَثَلُك ومثلُ أمّتك كمثل مَلِك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدُبة، ثم بعث رسُولاً يدعُو الناسَ إلى طعامه، فمنهم من أجابَ الرسولَ، ومنهم من تَرَكه، فالله الملكُ، والدارُ الإسلام، والبيت الجنةُ، وأنت يا محمدُ الرسُولُ، فمن أجابك دخلَ الإسلامَ، ومن دخلَ الإسلامَ دخلَ الجنةَ، ومن دخلَ الجنةَ أكلَ منها»[٣] رواه ابن جرير.

[٣٧٣٢] وقال قتادةُ: حدثني خُلَيد العَصَريُ، عن أبي الدَّرداءِ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم طلعت فيه شمسُه إلا وبجَنْبَتَيها ملكان يناديان، يسمعُهما خلقُ الله كلُّهم إلا الثَّقَلَين: يا أيُّها الناسُ، هَلُمُّوا إلى ربِّكم، إن ما قَلَّ وكَفَى خيرٌ مما كَثُر وألهى». قال: وأنزِلَ ذلك في القرآن، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾[٤]. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يُخبر تعالى أنَّ لمن أحسنَ العملَ في الدنيا بالإيمانِ والعَمَلِ الصالحِ الحُسنى في الدارِ الآخرةِ، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمٰن: ٦٠]. وقولُه: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾، هي تضعيفُ ثواب

---

(١) موقوف باطل. أخرجه الطبري ١٧٦١٦ وفيه عبد العزيز، وهو ابن أبان، وهو متروك كذبه غير واحد.

(٢) مرسل، لكن يشهد له ما بعده، والله أعلم.

(٣) أخرجه الطبري ١٧٦٢٤ ورجاله ثقات مشاهير، لكنه منقطع بين سعيد وجابر، ولعله يتأيد بما قبله.

(٤) أخرجه الطبري ١٧٦٢٣ من حديث أبي الدرداء. وفيه عباد بن راشد، مختلف فيه. وثقه أحمد، ولابن معين فيه قولان، وضعفه أبو داود وقال أبو حاتم: صالح الحديث. وذكره البخاري في الضعفاء واتهمه ابن حبان، وقال ابن عدي: له أحاديث كما لأبيه، وما يرويانه لا يتابعان عليه أهـ فالأكثر على توهينه، والمتن منكر، فهو إلى الضعف أقرب. والله أعلم.

الأعمال بالحَسنةِ عشرُ أمثالها إلى سَبعمئة ضعفٍ، وزيادةٍ على ذلك أيضاً، ويَشمَلُ ما يُعطِيهم الله في الجِنَانِ من القُصُور والحُورِ والرِّضا عنهم، وما أخفاه لهم من قُرّةِ أعينٍ، وأفضلُ من ذلك وأعلاه النظرُ إلى وجهِ الكريم، فإنه زيادةٌ أعظم من جَميع ما أعطُوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بِفضلِهِ وبِرَحمتِهِ. وقد رُوي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم، عن أبي بكر الصديق، وحُذَيفة بن اليمان، وعبدِ الله بن عباس، وسَعيد بن المُسيَّب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الرحمن بن سابطٍ، ومجاهدٍ، وعكرمةَ، وعامر بن سعد، وعطاء، والضَحّاك، والحسنِ، وقتادةَ، والسّدِّيِّ، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم من السَّلَفِ والخَلَفِ. وقد وردت في ذلك أحاديثُ كثيرة عن رسولِ الله ﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمامُ أحمدُ:

[٣٧٣٣] حدثنا عفّانُ، أخبرنا حَمّاد بن سَلَمة، عن ثابت البُناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صُهَيب: أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وقال: «إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، نادى منادٍ: يا أهلَ الجنة، إن لكم عند الله مَوعِداً يُرِيدُ أن يُنْجِزَكُمُوه. فيقولون: وما هو؟ ألم يُثقِّل مَوَازِينَنَا؟ ويُبَيِّض وُجُوهَنا ويُدخِلْنا الجنةَ، ويُزحزِحنا من النارِ؟ قال: فَيُكشَفُ لهم الحجابُ فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبَّ إليهم من النَّظَرِ إليه، ولا أقرَّ لأعينهم»[١] وهكذا رواه مسلمٌ وجماعةٌ من الأئمة، من حديثِ حَمّادِ بن سَلمة، به.

[٣٧٣٤] وقال ابنُ جرير: أخبرنا يونسُ، أخبرنا ابنُ وهب قال أخبرنا شَبيب، عن أبانَ، عن أبي تمِيمة الهُجَيمِيِّ: أنه سَمِع أبا موسَى الأشعري يُحدِّث عن رسولِ الله ﷺ: إن الله يبعثُ يوم القيامة منادياً يُنادي: يا أهل الجنة ـ بصَوْت يُسْمِعُ أوّلهم وآخِرَهم ـ: «إن الله وَعَدكم الحسنى وزيادةً، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: الجنةُ، و ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: النظرَ إلى وجه الرحمنِ عَزَّ وجَل»[٢]. ورواه أيضاً ابنُ أبي حاتم، من حديث أبي بكر الهُذلي، عن أبي تَميمة الهُجَيمِيِّ، به.

[٣٧٣٥] وقال ابنُ جَرير أيضاً: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جُرَيج، عن عطاءٍ، عن كعب بن عُجْرَةَ، عن النبيِّ ﷺ في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، قال: «النظرُ إلى وجهِ الرحمنِ عَزّ وجل»[٣].

[٣٧٣٦] وقال أيضاً: حدثنا ابن عبد الرحيم، حدثنا عَمرو بن أبي سَلَمة، سَمِعت زُهَيراً، عمن سَمِعَ أبا العالية، حدثنا أُبي بن كَعب: أنه سأَلَ رسولَ الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، قال: «الحُسنَى الجنةُ، والزيادةُ النظرُ إلى وجه الله عز وجل»[٤]. ورواه ابنُ أبي حاتم أيضاً من حديثِ زُهَير، به. وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾، أي: قتامٌ وسوادٌ في عَرَصات المحشَرِ، كما يَعتَرِي وُجوهَ الكَفرةِ الفَجرةِ من القُتْرة والغُبْرة، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾، أي: هَوَانٌ وصَغَارٌ، أي: لا يحصلُ لهم إهانة في الباطن، ولا في

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٨١ والترمذي ٢٥٥٢ والنسائي في «التفسير» ٢٥٤ وأحمد ٤/ ٣٣٣ والطبري ١٧٦٤١ وابن حبان ٧٤٤١.

(٢) أخرجه الطبري ١٧٦٣٣، وفيه أبان، وهو ابن أبي عياش، اتهمه شعبة وتركه الجمهور. وتابعه أبو بكر الهذلي ١٧٦٣١ و ١٧٦٣٢ وأبو بكر متروك متهم. فالخبر ضعيف، والصحيح في هذا حديث صهيب.

(٣) أخرجه الطبري ١٧٦٤٦ وإسناده ضعيف، فيه عنعنة ابن جريج، فهذه علة، وإبراهيم غير قوي.

(٤) أخرجه الطبري ١٧٦٤٨ وإسناده ضعيف، فيه من لم يسمّ. لكن لعل هذه الروايات المرفوعة مع الموقوفة والمقطوعة تتأيد بمجموعها، والله أعلم.

الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: ١١]، أي: نضرةً في وُجوهِهم، وسُروراً في قُلوبهم. جَعَلنا الله منهم بِفَضلِهِ ورحمَتِهِ، آمين.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

لما أخبر تعالى عن حال السُّعداءِ الذين يُضاعِفُ لهم الحسناتِ، ويزدادون على ذلك، عَطَف بِذِكرِ حال الأشقياء، فَذكر عَدله تعالى فيهم، وأنه يُجازيهم على السيِّئةِ بمثلها، لا يَزيدُهم على ذلك، ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾، أي: تعتريهم، وتعلُوهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٤]. وقوله: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾، أي: من مانعٍ ولا واقٍ يقيهم العذابَ، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ [القيامة: ١٠ ـ ١٢]. وقوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾، إخبارٌ عن سَوادِ وُجوههم في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]، وكما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٣٨ ـ ٤٢].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾، أي: أهل الأرضِ كُلِّهم، من إنسٍ وجنٍ، وبَرٍ وفاجرٍ كما قال: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾، أي: الزمُوا أنتم وهُم مكاناً مُعيَّناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: ٥٩]، وقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤]، وفي الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، أي: يصيرون صِدْعين، وهذا يكونُ إذا جاء الرب تعالى لفصل القضاء، ولهذا قيل ذلك[1]... يَستَشفِعُ المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصلِ القضاءِ ويُريحنا من مَقامنا هذا.

[٣٧٣٧] وفي الحديثِ الآخَرِ: «نحنُ يومَ القيامةِ على كَوْمٍ فوقَ الناسِ»[2].

وقال الله تعالى في هذه الآيةِ الكَريمةِ إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، أنكروا عبادتَهم وتَبرَّؤوا منهم، كما قال تعالى: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢] الآية. وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾

---

(١) بياض في كافة النسخ، وحديث الشفاعة تقدم في سورة البقرة.

(٢) حديث صحيح، وتقدم مطولاً.

[البقرة: ١٦٦] وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] وقال في هذه الآية إخباراً عن قول الشُّركاء فيما راجعُوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ۝٢٩﴾، أي: ما كُنّا نشعرُ بها ولا نعلم، وإنما أنتم كنتُم تَعبدُوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنّا ما دعوناكُم إلى عبادتنا، ولا أمرناكُم بها، ولا رَضِينا منكم بذلك. وفي هذا تبكيتٌ عظيمٌ للمشركين الذين عَبَدوا مع الله غيره، مِمَّن لا يسمَعُ ولا يُبصرُ، ولا يُغني عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رَضِيَ به ولا أراده، بل تبرّأ منهم في وقتِ أحوَج ما يكونونَ إليه، وقد تركوا عبادةَ الحيِّ القيُّوم، السميع البصير، القادر على كُلِّ شيء، العليم بكلِّ شيء، وقد أرسلَ رُسُلَه وأنزل كُتُبَه، آمراً بعبادته، وحدَه لا شريك له، ناهياً عن عبادةِ ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ۝٤٥﴾ [الزخرف: ٤٥]. والمشركون أنواعٌ وأقسامٌ كثيرون، قد ذَكرهم الله في كتابه، وبَيّن أحوالَهم وأقوالَهم، وردَّ عليهم فيما هُم فيه أتمَّ ردٍ. وقولُه: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾، أي: في موقف الحسابِ يومَ القيامةِ تُختبَر كُلُّ نفس وتعلَمُ ما أسلفت من عملها من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩﴾ [الطارق: ٩]، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ [القيامة: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝١٣ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤] وقد قرأ بعضُهم: «هنالك تتلو كُلُّ نفسٍ ما أسلفَتْ»، وفسَّرها بعضهم بالقراءة، وفسّرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمته من خير وشرٍّ.

[٣٧٣٨] وفسّرها بعضُهم بحديثِ: «لِتتبع كُلُّ أمةٍ ما كانت تعبدُ، فيتبع من كان يعبدُ الشمسَ الشمسَ، ويتبعُ من كان يعبدُ القمرَ القمَر، ويَتْبَع من كان يعبد الطواغيتَ الطواغيتَ...»(١) الحديث. وقولُه: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾، أي: ورَجعت الأمورُ كُلُّها إلى اللهِ الحكَم العدلِ، فَفصَّلَها، وأدخل أهل الجنةِ الجنةَ، وأهلَ النارِ النارَ. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾، أي: ذَهب عن المشركين ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، أي: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراءً عليه.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٣٢ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣﴾

يَحتجُّ تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته ورُبُوبيَّتِه على وَحدانيّةِ الإله، فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: من ذا الذي يُنزل من السَّماء ماء المطر، فيشقُّ الأرضَ شقّاً بقُدرته ومشيئته، فيُخرج منها ﴿حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾ [عبس: ٢٧ ـ ٣١]، ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠]؟، ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١]، وكذلك قوله: ﴿أَمَّن

---

(١) متفق عليه، وسيأتي.

يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾، أي: الذي وَهَبكم هذه القوّة السامِعةَ، والقوّة الباصِرةَ، ولو شاء لذهبَ بها وسَلبكم إياها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك: ٢٣]، وقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ﴾ [الأنعام: ٤٦]. وقولُه: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾، أي: بِقُدرته العظيمة ومِنَّتِه العَمِيمة. وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك، وأن الآية عامة في ذلك كله. وقولُه: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ﴾، أي: مَن بِيَدِهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ وهو يُجير ولا يُجَار عليه، وهو المتصرِّفُ الحاكمُ الذي لا مُعقِّب لحكمه، ولا يُسْأل عما يَفعلُ وهم يُسألون، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩]، فالملك كُلُّه العُلْوي والسُّفلي، وما فيهما من ملائكةٍ وإنسٍ وجانٍّ، فقيرونَ إليه، عَبِيدٌ له، خاضِعُونَ لديه، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾،أي: وهم يعلمُون ذلك ويَعترِفُون به، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أي: أفلا تخافونَ منه أن تَعبدُوا مَعه غيرَه بآرائكم وَجهلِكم؟!.

وقولُه: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾، أي: فهذا الذي اعترفتُم بأنه فاعلُ ذلك كُلِّه هو ربُّكم وإلهكُم الحقُّ الذي يَستحِقُّ أن يُفرَدَ بالعِبادَةِ، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾، أي: فَكلُّ معبودٍ سواه باطلٌ، لا إله إلا هُوَ، واحدٌ لا شريكَ له. وقولُه: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾، أي: فكيف تُصرَفُون عن عبادتِهِ إلى عبادةِ ما سواه، وأنتم تعلمُونَ أنه الربُّ الذي خَلَق كُلَّ شيءٍ، والمتصرِّف في كلِّ شيء؟!.

وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾، أي: كما كَفر هؤلاء المشركون واستمرُّوا على شِرْكِهم وعِبَادتهم مع الله غيره، مع أنهم يَعترفون بأنه الخالقُ الرازقُ المتصرِّف في الملك وحدَه، الذي بَعَث رُسُلَه بتوحيده، فلهذا حَقَّت عليهم كلمةُ الله أنهم أشقياءُ من ساكني النار، كقوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

وهذا إبطالٌ لدعواهم فيما أشركُوا بالله غيره، وعَبدوا من الأصنام والأنداد، ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أي: من بَدَأ خَلْقَ هذه السمواتِ والأرضِ ثم يُنشِيء ما فيهما من الخلائِقِ، ويُفرِّق أجرام السموات والأرضِ ويُبَدِّلهما بفناء ما فيهما، ثم يُعِيدُ الخَلْقَ خَلْقاً جَدِيداً؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، هو الذي يفعلُ هذا ويستقلُّ به وحدَه لا شريكَ له، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾، أي: فَكيفَ تُصرَفُون عن طريق الرُّشدِ إلى الباطلِ؟! ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّۗ﴾ أي: أنتم تعلمُونَ أنَّ شُركاءَكم لا تقدر على هدايةِ ضالٍّ، وإنما يَهدِي الحيارى والضُّلَّال ويُقلِّب القلوب من الغيِّ إلى الرُّشدِ اللَّهُ الذي لا إله إلا هُوَ. ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ﴾، أي: أَفيتَّبعُ العبدُ الذي يهدي إلى الحقِّ ويُبَصِّرُ بعد العَمى، أم الذي لا يهدي إلى شيءٍ إلا أن يُهدَى، لعماه وبَكمه؟ كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، وقال لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]. إلى غير ذلك من الآيات. وقولُه: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، أي: فما بالكم يُذهَبُ بعقولكم، كيفَ سَوَّيتُم بين الله وبين خَلقِهِ، وعَدَلتم هذا بهذا، وعبدتُم هذا وهذا؟! وهلا أفردتم

الربُّ ـ جل جلاله ـ المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحدَه، وأخلصْتُم إليه الدعوة والإنابة؟! ثم بَيَّن تعالى أنهم لا يَتَّبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظَنٌّ منهم، أي: تَوَهُّم وتخيُّلٌ، وذلك لا يُغني عنهم شيئاً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾: تَهديدٌ لهم، ووعيدٌ شديدٌ، لأنه تعالى أخبر أنه سَيُجازيهم على ذلك أَتَمَّ الجَزاء.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

هذا بيانٌ لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيعُ البشرُ أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سُوَرٍ، ولا بِسُورة من مثله، لأنه بفصاحته وبَلاغته ووجَازته وحلاَوته، واشتماله على المعاني الغزيرة، النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذي لا يُشْبِهه شيءٌ في ذاته ولا صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامُه لا يُشبه كلامَ المخلوقين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: مِثْلُ هذا القرآنِ لا يكونُ إلاَّ من عند الله، ولا يُشْبِه هذا كلامَ البَشَر، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: من الكُتب المُتقدِّمة، ومُهَيمناً عليها، ومُبيِّناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل. وقولُه: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: وبيانَ الأحكام والحَلاَل والحرام، بياناً شافياً كافياً حقاً لا مِرْيَةَ فيه من الله ربِّ العالمين.

[٣٧٣٩] كما تقدَّم في حديث الحارث الأعور، عن علي بن أبي طالب: «فيه خَبَرُ ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وفَصلُ ما بينكم»[1]، أي: خَبرٌ عما سَلَف وعما سيأتي، وحُكمٌ فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه. وقولُه تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: إن ادعيتُم وافتريتُم وشككتُم في أن هذا من عند الله، وقلتم كَذِباً وميناً: «إن هذا من عند محمد»، فمحمدٌ بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتُم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورةٍ مثلِه، أي: من جنسِ القرآنِ واستعينُوا على ذلك بكل من قدرتُم عليه من إنسٍ وجانٍ.

وهذا هو المقامُ الثالثُ في التحدِّي، فإنه تعالى تَحدَّاهم ودَعَاهم، إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد، فلْتُعَارِضُوه بنظير ما جاء به وحدَه واستعينوا بمن شئتُم، وأخبر أنهم لا يَقدِرُون على ذلك، ولا سبيلَ لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سُوَرٍ منه، فقال في أول سورة هُودٍ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾، ثم تنازل إلى سورةٍ، فقال في هذه السورةِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾، وكذا في سورة البقر ـ وهي مدنيَّة ـ تَحدَّاهم بسُورةٍ منه، وأخبر أَنَّهم لا يَستطيعون ذلك أبداً، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤]. . . الآية. هذا وقد كانت الفصاحةُ من سجاياهم، وأشعارُهم ومعلقاتُهم إليها المُنتهَى من هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قِبَلَ لأحدٍ به، ولهذا آمن مَن

(١) تقدم في مقدمة الكتاب، مرفوعاً وموقوفاً، والراجح وقفه.

آمن منهم بما عَرف من بلاغة هذا الكلام وحَلاَوته، وجَزالته وطَلاَوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلَمَ الناس به، وأفهمَهُم له، وأتبعهُم له وأشدَّهم له انقياداً، كما عَرَف السحرة لِعِلْمهم بفُنُون السحر، أن هذا الذي فَعَلَه موسى ـ عليه السلام ـ لا يصدرُ إلا عن مُؤيَّد مُسدَّدٍ مُرسَل من الله، وأن هذا لا يُستَطاع لبشر إلا بإذن الله. وكذلك عيسى ـ عليه السلام ـ بُعِثَ في زمان عُلَماءِ الطِّبِّ ومعالجة المرضى، فكان يُبرِئُ الأكمَه والأبرص، ويُحيي الموتى بإذن الله، وَمِثْلُ هذا لا مدخلَ للعلاج والدواء فيه، فَعَرَفَ مَن عَرَف منهم أنه عبد الله ورسولُه.

[٣٧٤٠] ولهذا جاء في الصحيح، عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «ما من نَبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشرُ، وإنما كان الذي أوتيتُه وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجُو أن أكون أكثرهم تابعاً»[١].

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾، يقول: بل كَذَّب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهمُوه ولا عَرَفوه، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾، أي: ولم يُحصِّلوا ما فيه من الهُدَى ودين الحقِّ إلى حين تَكْذِيبهم به جهلاً وسَفَهاً: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: من الأمم السالفة، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: فانظر كيفَ أهلكناهم بتكذيبهم رُسُلنا ظلماً وعُلُواً! وكُفراً وعِناداً وَجهلاً، فاحذَرُوا أيها المُكَذِّبون أن يُصيبَكُم ما أصابهم. وقولُه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤٠﴾، أي: وَمِن هؤلاء الذين بُعثت إليهم يا محمدُ من يُؤمِن بهذا القرآن، ويتبعُكَ وينتفعُ بما أرسِلْتَ به، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾، بل يموتُ على ذلك ويُبعَثُ عليه، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾، أي: وهو أعلمُ بمن يستحقُّ الهداية فيهدِيه، ومن يَستحِقُّ الضلالَةَ فَيُضِلّه، وهو العادل الذي لا يجورُ، بل يُعطِي كُلاً ما يستحِقُّه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزَّه، لا إله إلا هُوَ.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤٢ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٤٣ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٤﴾

يقولُ تعالى لنبيه ﷺ: وإن كَذّبك هؤلاء المشركون، فَتبرّأ منهم ومن عمَلهم، ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦]. وقال إبراهيمُ الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]. وقولُه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، أي: يَسمَعُون كلامكَ الحَسَن، والقرآنَ العظيم، والأحاديث الصحيحةَ الفصيحةَ النافعة في القلوب والأبدان والأديان، وفي هذا كفايةٌ عظيمةٌ، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنَّك لا تقدرُ على إسماع الأصم ـ وهو الأطرشُ ـ فكذلك لا تقدِرُ على هداية هؤلاء، إلا أن يشاء الله. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾، أي: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التُّؤدة، والسَّمتِ الحَسَن، والخُلُق العظيم، والدلالة الظاهرةِ على نُبُوَّتِكَ لأولي البصائر والنُّهى، وهؤلاء ينظرونَ كما ينظرُ غيرهم، ولا يحصلُ لهم من الهداية شيءٌ مما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقارِ، والكافرونَ ينظرونَ بعين الاحتقار، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا

---

(١) أخرجه البخاري وغيره، وتقدم.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان: ٤١ ـ ٤٢].

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلمُ أحداً شيئاً، وإن كان قد هَدَى به من هَدَى وبَصَّر به من العَمَى، وفتحَ به أعيُناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقُلوباً غُلفاً، وأضلَّ به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكمُ المتصرِّفُ في مُلكه بما يشاءُ، الذي لا يُسْأل عما يفعل وهم يُسألونَ، لِعلْمِهِ وحِكْمَتِهِ وعَدْلِهِ، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

[٣٧٤١] وفي الحديث عن أبي ذَرٍّ، عن النبيِّ ﷺ فيما يرويه عن رَبِّهِ عزَّ وجلَّ: «يا عبادي، إني حَرَّمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم مُحرَّماً فلا تَظَالموا»... إلى أن قال في آخره: «يا عبادي، إنما هي أعمالُكم أحصِيها لكم، ثم أوفِّيكم إياها، فمن وَجَد خيراً فلْيَحمد الله، ومن وَجَد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسَه»[1]. رواه مسلم بطوله.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى مذكِّراً للناس قيام الساعة وحَشرَهم من أجداثهم إلى عَرَصات القيامة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾... الآية: كأنهم يومَ يُوافُونها ﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه: ١٠٢ ـ ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦]... الآيتين. وهذا كُلّه دليلٌ على استقصار الحياة الدنيا في الدارِ الآخرةِ، كما قال: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤]. وقولُه: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: يعرفُ الأبناءُ والآباءُ والقراباتُ بعضُهم بعضاً، كما كانوا في الدنيا، ولكن كُلٌّ مشغولٌ بنفسه، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ﴾ [المعارج: ١٠ ـ ١٥]. وقولُه: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]، لأنهم خَسروا أنفُسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسرانُ المبين. فهذه هي الخسارةُ العظيمةُ، ولا خَسارةَ أعظمُ من خَسارة من فُرِّق بينه وبين أحِبَّتِهِ، يومَ الحسرةِ والنَّدامَةِ.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٧٧ وأحمد ٥/ ١٦٠ والترمذي ٢٤٩٥ وابن ماجه ٤٢٥٧ وابن حبان ٦١٩.

يقولُ تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾، أي: ننتقم منهم في حياتِكَ، لتقرّ عينُك منهم، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، أي: مَصِيرُهم ومُنقَلَبهم، والله شهيدٌ على أفعالهم بعدك.

[٣٧٤٢] وقد قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عُقبة بن مكرم، حدثنا أبو بكر الحَنَفي، حدثنا داود بن الجارود، عن أبي الطُّفَيل، عن حُذَيفة بن أَسِيد، عن النبي ﷺ قال: «عُرِضت عليَّ أمّتي البارحة لدى هذه الحُجرَة، أولُها وآخرُها»، فقال رجل: يا رسولَ الله، عُرِض عليك من خُلِق، فكيف من لم يُخلَق؟ فقال: «صُوِّرُوا لي في الطين، حتى إني لأعرَفُ بالإنسان منهم مِن أحَدِكم بصاحبه»[١]. ورواه عن محمد بن عثمان بن أبي شَيبة، عن عقبة بن مكرم، عن يونس بن بكير، عن زياد بن المنذر، عن أبي الطفيل، عن حُذَيفة بن أَسِيد، به نحوه[٢].

وقولُه تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾، قال مجاهد: يعني يوم القيامة. ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر: ٦٩]، فَكُلُّ أمة تُعرَضُ على الله بحضرة رَسُولها، وكتابُ أعمالها من خَيرٍ وشرٍّ موضوعٌ شاهدٌ عليهم، وحَفَظتهم من الملائكة شهودٌ أيضاً، أمّةٌ بعد أمةٍ؛ وهذه الأمةُ الشريفةُ وإن كانت آخر الأمم في الخلق إلا أنها أولُ الأمم يومَ القيامة يُفصَلُ بينهم، ويُقضَى لهم.

[٣٧٤٣] كما جاء في الصَّحِيحَين عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخِرُون السابِقُون يوم القيامة، المقضيُّ لهم قَبل الخلائق»[٣]. فأمته إنما حازت قَصَب السَّبقِ لِشَرفِ رَسُولها، صلواتُ الله وسلامُه عليه دائماً إلى يوم الدين.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن كُفر هؤلاء المشركين في استعجَالِهم العذَاب وسُؤالِهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدةَ فيه لهم، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورىٰ: ١٨]، أي: كائنةٌ لا محالةَ وواقعةٌ، وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشدَ تعالى رسولَه ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، أي: لا أقولُ إلا ما عَلَّمني، ولا أقدِرُ على شيءٍ مما استأثر به إلا أن يُطلعني الله عليه، فأنا عبدُه ورسولُه إليكم، وقد أخبرتُكم بمجيءِ الساعةِ وأنها كائنةٌ، ولم يُطلِعني على وقتها، ولكن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي لكل قرن مدة من العمر مقدرة فإذا انقضى أجلهم

(١) ضعيف، أخرجه الطبراني ٣٠٥٥، ورجاله ثقات سوىٰ داود بن الجارود، فإني لم أعثر له علىٰ ترجمة، وأخشىٰ أن يكون هو زياد بن المنذر الآتي، فإن كنيته: أبو الجارود، وانظر ما بعده.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه الطبراني ٣٠٥٤، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٦٧١٢: فيه زياد بن المنذر كذاب. وجاء في «الميزان» ٢٩٦٥: زياد بن المنذر أبو الجارود الكوفي الأعمىٰ، قال ابن معين: كذاب، وقال النسائي والدارقطني: متروك. وإليه تنسب الجارودية. وورد من وجه آخر أخرجه البزار ١٤٨ و ٣٥٤٠، وقال الهيثمي ١٦٧١٣ فيه زكريا بن يحيىٰ الكسائي: متروك.

(٣) متفق عليه، وتقدم.

﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ﴾ [المنافقون: ١١]. ثم أخبرهم أنّ عذابَ الله سيأتيهم بغتةً، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾، أي: ليلاً أو نهاراً، ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾، يعني: أنهم إذا جاءهم العذابُ قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾ [غافر: ٨٤ ـ ٨٥]. ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾، أي: يومَ القيامةِ يُقال لهم هذا تبكيتاً وتقريعاً، كقوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٦].

﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤﴾

يقولُ تعالى: ويستخبرونك ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾؟ أي: المَعادُ والقيامةُ من الأجداثِ بعد صيرورةِ الأجسام تراباً. ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾، أي: ليس صيرورتُكم تُراباً بمعجزٍ لله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم فـ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢]. وهذه الآيةُ ليس لها نظيرٌ في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسولَه أن يُقسِم به على من أنكر المَعَاد، في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣]، وفي التغابن: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن: ٧]. ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامةُ يودّ الكافرُ لو افتدى من عذاب الله بملءِ الأرضِ ذهباً، ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: بالحقّ، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٥ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٥٦﴾

يُخبِرُ تعالى أنه مالكُ السمٰواتِ والأرضِ، وأنّ وعدَه حقٌّ كائنٌ لا محالةَ، وأنه يُحيي ويُميتُ وإليه مرجعهُم، وأنه القادر على ذلك، العليمُ بما تفرقَ من الأجسامِ وتمزّقَ في سائرِ أقطارِ الأرضِ والبحارِ والقفارِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾

يقول تعالى ممتناً على خَلقِهِ بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: زاجرٌ عن الفواحش، ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾، أي: من الشُّبَه والشكوك، وهو إزالةُ ما فيها من رجسٍ ودنس، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، أي: مُحَصِّلٌ لها الهدايةَ والرحمةَ من الله تعالى. وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدِّقين الموقنين بما فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقولُه تعالى: ﴿قُلْ

﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾، أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فَلْيَفرَحُوا، فإنه أولى ما يفرحُون به، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾، أي: من حُطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالةَ، كما قال ابن أبي حاتم، في تفسير هذه الآية: وذُكر عن بقيةَ ـ يعني ابن الوليد ـ عن صفوانَ بن عمروٍ: سَمِعت أيفعَ بن عبد الله الكَلاَعي يقول: لما قَدِمَ خراجُ العراق إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ خرج عُمَرُ ومولى له فجَعَلَ عمر يعدُّ الإبل، فإذ هي أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله تعالى، ويقول مولاه: هذا والله من فضل الله ورحمته. فقال عمر: كذبت، ليس هذا هو الذي يقول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾، وهذا مما يجمعون. وقد أسنده الحافظُ أبو القاسم الطَّبرانيُّ، فَرَواه عن أبي زُرعةَ الدِّمشقي، عن حيَوة بن شُرَيح، عن بَقِيَّةَ، فذكره.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، وقتادةُ، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَمَ: نَزلَت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يُحرِّمون ويُحلُّون من البحائر والسوائب والوصائل. كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]. . . الآيات.

[٣٧٤٤] وقال الإمامُ أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن أبي إسحاقَ، سمعتُ أبا الأحوصِ ـ وهو عوفُ بن مالك بن نَضلَةَ ـ يُحدِّث عن أبيه قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ وأنا قَشِفُ[1] الهيئةِ، فقال: «هل لك مال؟» قال: قلتُ: نعم. قال: «من أيِّ المال؟» قال: قلت: من كل المال من الإبل والرقيقِ والخيلِ والغَنَم. فقال: «إذا آتاك الله مالاً فَلْيُرَ عليك». وقال: «هل تُنتِجُ إبلُ قومك صِحاحاً آذانُها فَتَعمِدَ إلى موسى فتقطَعَ آذانَها فتقول: هذه بُحُر، وتَشُقُّها، أو تشقُّ جلودها وتقول: هذه صُرُم، وتُحرِّمها عليك وعلى أهلك؟» قال: نعم. قال: «فإنَّ ما آتاك الله لكَ حلٌّ، وساعِدُ الله أشدُّ من ساعِدِكَ، ومُوسَى الله أحدُّ من مُوسَاكَ. . .» وذكر تمام الحديث[2]. ثم رواه عن سُفيان بن عُيَينَةَ، عن أبي الزَّعراء عَمرو بن عمرو، عن عَمِّه أبي الأحوص، وعن بَهزِ بن أسدٍ، عن حَمَّادِ بن سلمة، عن عبد الملك بن عُمَيرٍ، عن أبي الأحوصِ، به. وهذا حديثٌ جيدٌ قويُّ الإسنادِ.

وقد أنكر تعالى على من حرَّم ما أحلَّ الله، أو أحلَّ ما حَرَّم بمجرد الآراء والأهواء، التي لا مُستَنَد لها ولا دليلَ عليها. ثم تَوَعَّدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: ما ظَنّهم أن يُصنَع بهم يومَ مرجِعِهم إلينا يومَ القيامة. وقولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾، قال ابنُ جرير: في تَركِهِ معاجَلَتهم بالعُقوبةِ في الدُّنيا. (قلت): ويَحتمِلُ أن يكون المرادُ لذو فَضلٍ على الناس فيما أباحَ لهم مما خَلَقه من المنافع في الدنيا، ولم يُحَرِّم عليهم إلاّ ما هو ضارٌّ لهم في دُنياهم أو دينهم. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، بل يُحرِّمون ما أنعَمَ الله عليهم، ويُضَيِّقون على أنفسهم، فيجعلونَ بعضاً

---

(١) القشف: رثاثة الهيئة، وسوء الحال.

(٢) أخرجه أحمد ٤/٤٧٣، وإسناده جيد كما قال المصنف.

حلالاً وبعضاً حراماً. وهذا ما وَقع فيه المشركون فيما شرَعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعُوه في دينهم.

وقال ابنُ أبي حاتم في تفسير هذه الآية: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحَوَاريّ، حدثنا رَبَاح، حدثنا عبد الله بن سُلَيمان، حدثنا موسى بن الصباح في قولِ الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾، قال: إذا كان يومُ القيامة، يُؤتَى بأهل ولاية الله ـ عزّ وجلّ ـ فيقومون بين يدي الله ـ عز وجل ـ ثلاثةَ أصنافٍ، قال: فَيُؤتى برجلٍ من الصنف الأول فيقولُ: عبدي، لماذا عملتَ؟ فيقول: يا ربِّ، خلقتَ الجنة وأشجارها وثمارَها وأنهارَها، وحُورها ونَعِيمها، وما أعددتَ لأهل طاعتك فيها، فأسهرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري شوقاً إليها. قال: فيقول الله تعالى: عبدي، إنما عملتَ للجنة، هذه الجنةُ فادخلها، ومن فَضْلي عليك أن أعتِقَكَ من النار، ومن فَضْلي عليك أن أدخِلَكَ جَنَّتي. قال: فيدخلُ هوَ ومن معه الجنةَ. قال: ثم يُؤتَى برجل من الصِّنف الثاني، قال: فيَقول: عَبدي، لماذا عملتَ؟ فيقول: يا ربِّ، خلقتَ ناراً وخلقت أغلالَها وسَعيرَها وسَمُومها ويَحمُومَها وما أعددتَ لأعدائِكَ وأهلِ معصِيَتِكَ فيها، فأسهرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري خَوفاً منها. فيقول: عبدِي، إنما عَمِلتَ ذلك خوفاً من ناري، فإني قد أعتقتُكَ من النار، ومن فَضْلِي عليك أن أدخِلَك جنتي. فيدخلُ هوَ ومن معه الجنةَ. ثم يُؤتى برجل من الصّنف الثالث، فيقول: عبدي، لماذا عَمِلتَ؟ فيقول: ربِّ، حُبّاً لك، وشوقاً إليكَ، وعزّتِك لقد أسهرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري شوقاً إليك وحُبّاً لكَ، فيقولُ تبارك وتعالى: عبدِي، إنّما عملت حُبّاً لي وشوقاً إليّ، فَيَتجلّى له الربُّ جل جلاله، ويقول: ها أنا ذا، انظر إليّ. ثم يقول: من فَضلِي عليك أن أُعتِقَك من النار، وأُبيحكَ جنتي، وأُزيرَك ملائكتي، وأسَلِّم عليك بنفسي. فيدخل هو ومن معه الجنةَ.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)﴾

يخبر تعالى نبيه ـ صلواتُ الله عليه وسلامُه ـ أنّه يعلم جميعَ أحوالِه وأحوالَ أمّتِه، وجميعَ الخلائقِ في كُلّ ساعةٍ وآن ولحظة، وأنه لا يعزُبُ عن علمه وبصره مثقالُ ذرّةٍ في حقَارتها وصِغَرها في السّمواتِ ولا في الأرضِ، ولا أصغَر منها ولا أكبرَ إلا في كتابٍ مُبين، كقولِهِ: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩)﴾ [الأنعام: ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلَم حركَةَ الأشجارِ وغيرها من الجَمَادَاتِ وكذلك الدوابُ السارحةُ، في قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]. وإذا كان هذا عِلْمَه بحركات هذه الأشياءِ، فكيف علمُه بحركات المُكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧ ـ ٢١٩]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، أي: إذ تأخذُون في ذلك الشيءِ نحن مُشاهِدُون لكم راؤون سامِعُونَ، ولهذا قال ﷺ لما سَأله جبريلُ عن الإحسانِ:

[٣٧٤٥] «أن تَعبُدَ الله كَأنَّكَ تَرَاه فإن لم تكن تراه فإنَّه يَرَاكَ»[(١)].

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

يخبرُ تعالى أن أولياءه وهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ كما فَسَّرهم ربُهم، فكُلُّ من كان تقياً كان لله ولياً ـ: أنه ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يَستقبلون من أهوال القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا. وقال عبدُ الله بن مسعود، وابنُ عباس، وغيرُ واحدٍ من السَّلَفِ، أولياءُ الله الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله. وقد وَرَد هذا في حديث مرفوع، كما قال البزّار:

[٣٧٤٦] حدثنا عليُّ بن حَرب الرازيُّ، حدثنا محمد بن سَعيد بن سابق، حدثنا يعقوبُ بن عبدِ الله الأشعَريُّ ـ وهو القُمّي ـ عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، مَنْ أولياءُ الله؟ قال: «الذين إذَا رُؤوا ذُكِر الله»[(٢)]. ثم قال البزّارُ: وقد رُوِي عن سعيد مرسلاً.

[٣٧٤٧] وقال ابنُ جرير: حدثنا أبو هِشَام الرفاعيُّ، حدثنا أبو فُضَيل، حدثنا أبي، عن عُمَارة بن القَعقاع، عن أبي زُرعَةَ بن عَمرو بن جَرير البَجَلي، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ من عبادِ الله عباداً يَغبِطُهم الأنبياءُ والشهداءُ». قيل: من هم يا رسولَ الله؟ لعلنا نُحِبُهم. قال: «هم قوم تحابُوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوهُهم نورٌ على منابِرَ من نورٍ، لا يخافُونَ إذا خافَ الناسُ، ولا يحزَنُون إذا حَزِن الناسُ». ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾[(٣)].

[٣٧٤٨] ثم رواه أيضاً أبو داودَ، من حديث جَرير، عن عُمَارة بن القَعقاع، عن أبي زرعةَ بن عمرو بن جَرير، عن عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ بمثله[(٤)]. وهذا أيضاً إسناد جيد إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب، والله أعلم.

[٣٧٤٩] وفي حديث الإمام أحمد، عن أبي النَّضر، عن عبد الحميد بن بَهرام، عن شَهر بن حَوشب، عن عبد الرحمن بن غَنْم، عن أبي مالك الأشعريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يأتي من أفناءِ الناسِ ونَوازعِ القبائِلِ قومٌ لم تتصل بينهم أرحامٌ متقاربةٌ، تحابُوا في الله، وتَصَافَوا في الله، يَضعُ الله لهم يومَ القيامة منابرَ من نور، فَيُجلِسُهم عليها، يفزع الناسُ ولا يفزعون، وهم أولياءُ الله، الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنُونَ»[(٥)]. والحديث مُطوَّل.

---

(١) متفق عليه، وتقدم.

(٢) ضعيف. أخرجه البزار كما في «المجمع» ١٦٧٧٩ وابن المبارك ٢١٨ والطبراني ١٢٣٢٥ وإسناده ضعيف لضعف جعفر في روايته عن سعيد خاصة. والمتن غريب. وكرره الطبري ١٧٧٢٦ مرسلاً، وكرره ١٧٧١٨ موقوفاً، وهو أصح من المرفوع. وكرره ١٧٧٢٤ عن ابن مسعود قوله، وهو الصحيح.

(٣) صحيح. أخرجه ابن حبان ٥٧٣ والنسائي في «الكبرى» ١١٢٣٦ والطبري ١٧٧٢٨، وله شواهد منها الآتي.

(٤) أخرجه أبو داود ٣٥٢٧ والطبري ١٧٧٢٩، ورجاله ثقات، لكن فيه إرسال بين عمر وأبي زرعة، ومع ذلك للمتن شواهد يحسن بها، انظر «تفسير الشوكاني» ١٢٠٢ و ١٢٠٦ بتخريجي.

(٥) حسن. أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٣ والطبري ١٧٧٣٠ وإسناده حسن في الشواهد لأجل شهرين حوشب.

[٣٧٥٠] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا سفيانُ، عن الأعمش، عن ذكوانَ أبي صالح، عن رجل، عن أبي الدّرداء ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾، قال: «الرؤيا الصالحةُ يراها المسلمُ، أو تُرَى له»(١).

[٣٧٥١] وقال ابنُ جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا أبو مُعَاوِيَة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن عطاءِ بن يَسَارٍ، عن رجل من أهل مصر، عن أبي الدرداء في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾، قال: سأل رجل أبا الدرداء عن هذه الآية، فقال: لقد سألتَ عن شيءٍ ما سمعتُ أحداً سأل عنه بعد رَجُل سأل عنه رسولَ الله، فقال: «هي الرؤيا الصالحةُ يراها الرجلُ المسلمُ، أو تُرَى له، بُشرَاه في الحياة الدنيا، وبُشراه في الآخرة الجنة»(٢). ثم رواه ابنُ جرير من حديث سفيانَ، عن ابن المُنكَدِرِ، عن عطاءِ بن يَسَارٍ، عن رَجُلٍ من أهل مصر: أنه سأل أبا الدرداء عن هذه الآيةِ، فذكر نحو ما تقدّم.

[٣٧٥٢] وقال ابنُ جرير: حدثني المثنّى، حَدّثنا الحجاجُ بن مِنهَالٍ، حَدّثنا حَمّاد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن أبي صالح قال: سَمِعتُ أبا الدرداء، وسُئِل عن: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾... فذكر نحوَه سواءً(٣).

[٣٧٥٣] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عَفّان، حدثنا أبانُ، حدثنا يحيى، عن أبي سَلَمة، عن عُبادَة بن الصّامت: أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أرأيتَ قولَ الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾؟ فقال: «لقد سألتني عن شيءٍ ما سألني عنه أحدٌ من أمتي ـ أو: أحدٌ قبلك ـ قال: تلك الرؤيا الصالحة، يَرَاها الرجلُ الصالحُ أو تُرَى له»(٤). وكذا رَواه أبو داود الطَّيَالسيُّ، عن عِمران القَطّانِ، عن يحيى بن أبي كَثِير، به. ورواه الأوزاعيُّ، عن يحيى بن أبي كثير، فذكره. ورواه عليُّ بن المبارك، عن يحيى، عن أبي سَلَمة قال: نُبِّئنا عن عُبادَةَ بن الصَّامِتِ، سأل رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية، فذكره.

[٣٧٥٤] وقال ابنُ جرير: حدثني أبو حُمَيد الحِمصِيُّ، حدثنا يحيى بن سَعيد، حدثنا عُمَر بن عَمرو بن عبد الأحْمُوسي، عن حُمَيد بن عبد الله المُزَنيّ قال: أتى رجلٌ عُبادةَ بن الصّامت فقال: آيةٌ في كتاب الله أسألُكَ عنها، قولُ الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؟ فقال عُبادَةُ: ما سألني عنها أحدٌ قبلك، سألت عنها نَبِيّ الله فقال مثلَ ذلك: «ما سألني عنها أحدٌ قبلَكَ. الرؤيا الصالحة، يراها العبدُ المؤمِنُ في المنام أو تُرَى له»(٥).

---

(١) حسن. أخرجه أحمد ٦/ ٤٤٥ والطبري ١٧٧٣٢ وإسناده ضعيف، فيه من لم يسمّ. لكن له ما يقويه، راجع «أحكام ابن العربي» ١٢٤٥ بتخريجي. فقد استوفيت الكلام عليه.

(٢) حسن. أخرجه الترمذي ٢٢٧٣ والطبري ١٧٧٣٧ وإسناده ضعيف لجهالة المصري. لكن له طرق وشواهد تعضده، وانظر ما تقدم و«تفسير الشوكاني» ١٢٠٨ بتخريجي.

(٣) إسناده ضعيف. لم يسمعه أبو صالح من أبي الدرداء، ولفظ «سمعت» وَهَمٌ من عاصم أو غيره. انظر بيان ذلك في «أحكام ابن العربي» ١٢٤٥ بتخريجي.

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٣١٥ والترمذي ٢٢٧٥ وابن ماجه ٣٨٩٨ والطبري ١٧٧٣٣ ورجاله رجال الصحيح إن كان أبو سلمة سمعه من عبادة، والظاهر أنه لم يسمعه، فقد كرره الطبري ١٧٧٣٦ عنه قال: نبئت أن عبادة.

(٥) أخرجه الطبري ١٧٧٤٠ وإسناده ضعيف لضعف يحيى بن سعيد الحمصي.

[٣٧٥٥] ثم رواه من حديث موسى بن عُبَيدة، عن أيوب بن خالد بن صَفوان، عن عُبَادَةَ بن الصامت: أنه قال لرسول الله ﷺ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾، فقد عَرفنا بُشرى الآخرة الجنة، فما بُشرى الدنيا؟ قال: «الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرَى له، وهي جُزءٌ من أربعةٍ وأربعينَ جُزءاً ـ أو سبعينَ[١] جزءاً ـ من النُّبوةِ»[٢].

[٣٧٥٦] وقال الإمام أحمدُ أيضاً: حَدَّثنا بَهز، حدثنا حَمَّاد، حدثنا أبو عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذَرٍّ أنه قال: يا رسولَ الله، الرجلُ يعملُ العملَ فيحمَدُه الناسُ عليه، ويثنُونَ عليه به، فقال رسولُ الله ﷺ: «تلك عاجِلُ بشرى المؤمن»[٣]. رواه مسلم.

[٣٧٥٧] وقال أحمد أيضاً: حدثنا حَسَن ـ يعني الأشيب ـ حدثنا ابنُ لَهيعة، حدثنا دَرَّاج، عن عبد الرحمن بن جُبير، عن عبد الله بن عَمرو، عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ ـ قال ـ: «الرؤيا الصالحة يُبَشَّرُها المؤمنُ هي جزءٌ من تسعةٍ وأربعين جزءاً من النبوة، فَمَن رأى ذلك فَلْيُخبر بِهَا، ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطانِ لِيَحزُنه، فَلْينفُث عن يساره ثلاثاً، وَلْيُكَبِّر ولا يُخبِرْ بها أحداً»[٤]. لم يخرجوه.

[٣٧٥٨] وقال ابنُ جَرِير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وَهب، حدثني عَمْرو بن الحارث أن دَرَّاجاً أبا السَّمح حَدَّثه عن عبد الرحمن بن جُبَير، عن عبد الله بن عَمرو، عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، الرؤيا الصالحةُ يُبَشَّرُها المؤمنُ، جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبُوّة»[٥].

[٣٧٥٩] وقال أيضاً ابنُ جرير: حدثني محمد بن حاتم المؤدِّب، حدثنا عَمَّار بن محمد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾، قال: «هي في الدنيا الرؤيا الصالحةُ، يَراها العبد أو تُرى له، وهي في الآخرة الجنة»[٦]. ثم رَوَاه عن أبي كُرَيب، عن أبي بكر بن عياش، عن أبي حُصَين، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة أنه قال: الرؤيا الحسنة بُشرى من الله، وهي من المُبَشِّرات. هكذا رواه من هذه الطريق موقوفاً.

[٣٧٦٠] وقال أيضاً: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا أبو بكر، حدثنا هشام، عن ابن سيرين، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الرؤيا الحسنةُ هي البشرى، يَرَاها المسلم أو تُرَى له»[٧].

---

(١) ورد في ذلك روايات متعددة، بأسانيد صحاح وحسان، وأرجحها «ستة وأربعين» جاء ذلك عند البخاري من حديث أبي سعيد، وعند البخاري ومسلم من حديث عبادة بن الصامت، وعند مسلم من حديث أبي هريرة. راجع «الدر المنثور» ٣/ ٥٦٠ ـ ٥٦١.

(٢) إسناد ضعيف. أخرجه الطبري ١٧٧٤٥ وفيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف، والصحيح عن عبادة هو الآتي ليس فيه تفسير الآية.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٤٢ وابن ماجه ٤٢٢٥ وأحمد ٥/١٥٦ وابن حبان ٣٦٦.

(٤) أخرجه أحمد ٢/٢١٩ والطبري ١٧٧٤٤ وإسناده ضعيف لضعف دراج، وابن لهيعة، لكن هذا الأخير توبع عند الطبري، لكن في إسناد الطبري رشدين بن سعد، وهو ضعيف.

(٥) أخرجه الطبري ١٧٧٦٩ وإسناده غير قوي لأجل درّاج، فقد روى مناكير. والحديث متفق عليه دون ذكر الآية.

(٦) أخرجه الطبري ١٧٧٤٣ وفيه عمار بن محمد غير قوي، والأعمش مدلس وقد عنعن.

(٧) أخرجه الطبري ١٧٧٤١ وإسناده حسن لأجل أبي بكر بن عياش، وللمتن شواهد، وليس فيه ذكر الآية.

[٣٧٦١] وقال ابنُ جرير: حدثني أحمد بن حماد الدُّولابيُّ، حدثنا سُفيانُ، عن عُبَيد الله بن أبي يزيد، عن أبيه، عن سِبَاع بن ثابت، عن أم كُرزٍ الكَعْبِيَّةِ: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «ذهبتِ النبوَّةُ وَبقِيتِ المُبشِّراتُ»[١]. وهكذا رُوِي عن ابن مسعودٍ، وأبي هُرَيرة، وابن عباس، ومجاهدٍ، وعُروةَ بن الزُّبير، ويحيى بن أبي كثير، وإبراهيمَ النَّخعِي، وعطاء بن أبي رباح أنهم فسَّروا ذلك بالرؤيا الصالحة. وقيل: المرادُ بذلك بُشرى الملائكةِ للمؤمن عند احتضاره بالجنَّةِ والمغفرةِ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

[٣٧٦٢] وفي حديث البراء: «إن المؤمن إذا حَضَره الموت جاءه ملائكةٌ بيضُ الوُجُوه، بيضُ الثياب، فقالوا: اخرُجي أيتها الروحُ الطَّيبة إلي رَوْحٍ ورَيحان، وربٌّ غير غضبَانَ، فتخرُجُ من فَمِهِ، كما تَسِيلُ القطرةُ من فَم السِّقَاءِ»[٢]. وأما بُشراهم في الآخرة، فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝١٠٣﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢﴾ [الحديد: ١٢]. وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: هذا الوعدُ لا يُبدل ولا يُخلَفُ ولا يُغيَّر، بل هو مُقرَّر مُثبتٌ كائن لا محالةَ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٥ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٦٦ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٦٧﴾

يقولُ تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ قولُ هؤلاء المشركين، واستعِن بالله عليهم وتوكَّل عليه؛ فإن ﴿ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: جميعُها له ولرسوله وللمؤمنين، ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: السميعُ لأقوال عباده العليمُ بأحوالهم. ثم أخبر تعالى أنَّ له ملكَ السموات والأرض، وأن المشركين يعبدونَ الأصنام، وهي لا تملكُ شيئاً لا ضَراً ولا نفعاً، ولا دليلَ لهم على عبادتها. بل إنما يتّبعون في ذلك ظُنُونَهم وتَخَرُّصهم وكذبهم وإفكهم. ثم أخبر أنه الذي جعلَ لعباده الليلَ ليسكنوا فيه، أي: يستريحون فيه من نَصَبهم وكَلالِهم وحَركاتهم، ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مُضِيئاً لمعاشهم وسَعْيِهم وأسفارِهم ومَصالِحهم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، أي: يسمعُون هذه الحُجج والأدلَّة فيعتبرون بها، ويستدلُّون على عظمةِ خالقِها ومقدِّرها ومسيِّرها.

---

(١) صحيح. أخرجه الطبري ١٧٧٤٧ بإسناد حسن، وللمتن شواهد في الصحيح.

(٢) صحيح. أخرجه عبد الرزاق ٦٧٣٧ وأحمد ٤/ ٢٨٧ والحاكم ١/ ٣٧ في أثناء حديث وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وكذا صححه ابن القيم رحمه الله في «تهذيب السنن» ٤/ ٣٣٧ وله شواهد

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾

يقولُ تعالى منكراً على من ادَّعى أن له ولداً: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾، أي: تَقَدَّس عن ذلك، هو الغنيُّ عن كُلِّ ما سواه، وكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: فكيف يكون له وَلَدٌ مما خلَق، وكلُّ شيءٍ مملوكٌ له، عبدٌ له؟! ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾، أي: ليس عندكُم دليلٌ على ما تقولونه من الكَذِب والبهتان! ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: إنكارٌ ووعيدٌ أكيدٌ، وتهديدٌ شديدٌ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥]. ثم تَوعَّد تعالى الكاذبين عليه المفترين، ممن زعَمَ أن له ولداً، بأنهم لا يُفلِحُون في الدنيا ولا في الآخرةِ، فأمَّا في الدنيا فإنهم إذا استدرجَهم وأملى لهم مَتَّعهم قليلاً، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، كما قال تعالى ها هنا: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾، أي: مُدَّةٌ قريبةٌ، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، أي: يومَ القيامة، ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾، أي: المُوجِعَ المؤلم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، أي: بِسَبَبِ كُفرهم وافترائِهم وكَذبهم على الله، فيما ادَّعوه من الإفك والزُّور.

﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)﴾

يقول تعالى لنبيِّه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: أَخبِرهُم واقصُص عليهم، أي: على كفَّار مكة الذين يُكذِّبونكَ ويُخالِفُونكَ ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾، أي: خَبَره مع قومِهِ الذين كَذَّبوه، كيف أهلكهم اللَّهُ ودمَّرهم بالغَرَقِ أجمعين عن آخرهم، لِيحذَرَ هؤلاء أن يُصيبَهم من الهَلاكِ والدَّمار ما أصابَ أولئك. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: عَظُم عليكم، ﴿مَقَامِي﴾، أي: فيكم بين أظهُركم، ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ إيَّاكم ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، أي: بحُجَجِه وبراهينه، ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: فإني لا أُبالي ولا أكفُّ عنكم، سواءٌ عظم عليكم أو لا! ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾، أي: فاجتمِعُوا أنتم وشركاؤكم الذين تَدْعُون من دون الله، من صَنَمٍ ووَثَنٍ، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾، أي: ولا تجعلوا أمركُم عليكم مُلتبِساً، بل افصِلُوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمُون أنكم مُحقُّون فاقضُوا إلي ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾، أي: ولا تُؤخِّروني ساعة واحدة، أي: مهما قدرتم فافعلُوا، فإني لا أُبالي بكم ولا أخاف منكم، لأنكم لستُم على شيءٍ، كما قال هودٌ لقومه: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾، أي: كذبتم وأدبرتم عن الطاعة، ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، أي: لم أطلبْ منكم على نُصحي إيّاكم شيئاً، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، أي: وأنا ممتثلٌ ما أُمِرْتُ به من الإسلام لله عزّ وجلّ؛ والإسلامُ هو دين الأنبياءِ من أولهم إلى آخرهم وإن تنوّعت شرائعُهم وتعدّدت مناهجُهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، قال ابنُ عباس: سبيلاً وسنةً، فهذا نوحٌ يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، وقال تعالى عن إبراهيمَ الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢]، وقال يوسفُ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقالت السحرة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١]، وقال خاتمُ الرسل وسيدُ البشر ﷺ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] أي: من هذه الأمّة.

[٣٧٦٣] ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: «نحن معاشرَ الأنبياء أولادُ علّاتٍ، وديننا واحدٌ»[١]، أي: وهو عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له، وإن تنوّعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: أولاد علات، وهم: الإخوةُ من أمّهاتٍ شتى والأبُ واحدٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ﴾، أي: على دينه ﴿فِي الْفُلْكِ﴾، وهي: السّفينة، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾، أي: في الأرض، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾، أي: يا محمّد كيف أنجينا المؤمنينَ، وأهلكنا المكذّبين؟

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

يقولُ تعالى: ثم بعثنا من بعد نُوح رُسُلاً إلى قومهم، فجاؤوهم بالبيّنات، أي: بالحُجج والأدلّة والبراهينِ على صِدقِ ما جاؤوهم به، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾، أي: فما كانت الأمَم لتؤمن بما جاءتهم بِهِ رسلُهم، بسبب تكذيبهم إيّاهم أوّلَ ما أُرسِلوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم هكذا يطبع الله على قلوب من أشبهَهم ممن بعدَهم، ويختم على قُلوبهم، فلا يؤمنوا حتّى يَروا العذابَ الأليم. والمرادُ أن الله تعالى أهلكَ الأمَمَ المُكذِّبة للرسل وأنجى مَن آمن بهم، وذلك من بعد نُوح عليه السلام، فإنّ الناس كانوا من قبله من زمان آدم ـ عليه السلام ـ على الإسلام إلى أن أحدثَ الناسُ عبادةَ الأصنام، فَبعث الله إليهم نُوحاً عليه السلام.

---

(١) متفق عليه، وتقدم.

[٣٧٦٤] ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: «أنت أوّلُ رسولٍ بعثهُ الله إلى أهلِ الأرض»[١]. وقال ابنُ عباس: كان بين آدمَ ونُوح عشرةُ قرونٍ كُلُّهم على الإسلام. وقال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧]، وفي هذا إنذارٌ عظيمٌ لمشركي العَرَبِ الذين كَذَّبوا بِسَيِّد الرسلِ وخاتَم الأنبياءِ والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصابَ مَن كذب بتلك الرُّسُلِ ما ذكره الله تعالى مِن العقاب والنَّكالِ، فماذا ظَنُّ هؤلاءِ وقد ارتكَبُوا أكبَرَ من أولئك؟!

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾، من بعد تلك الرسُلِ ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾، أي: قومِهِ، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: حُجَجِنا وبَراهيننا، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾، أي: استكبرُوا عن اتِّباعِ الحقِّ والانقيادِ له، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾، كأنهم ـ قبَّحهم الله ـ أقسمُوا على ذلك، وهم يعلمُون أن ما قالوه كَذِبٌ وبهتانٌ، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]. ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰٓ﴾ منكراً عليهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾، أي: تُثْنِينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾، أي: الدِّين الذي كانوا عليه، ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾، أي: لك ولهارونَ ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾، أي: العظمةُ والرياسةُ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعونَ في كتابه العزيز، لأنها من أعجَبِ القِصَصِ، فإن فرعون حذَّر من موسى كلَّ الحَذَر، فَسَخَّره القدر أن رَبَّى هذا الذي يُحذر منه على فراشِهِ ومائِدتهِ بمنزلة الولَدِ، ثم تَرَعرعَ وعَقد الله له سبباً أخرَجه من بين أظهرهم، ورزَقه النُّبوَّةَ والرسالَةَ والتكليمَ، وبعثَه إليه ليدعُوَه إلى الله تعالى ليعبدَه ويرجعَ إليه، هذا مَعَ ما كان عليه فرعون من عَظَمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالةِ الله تعالى، وليس له وزيرٌ سِوَى أخيه هارونَ عليه السلامُ، فَتمرَّدَ فرعونُ واستكبر وأخذته الحميَّةُ والنفسُ الخبيثةُ الأبيةُ، وقَوَّى رأسَه وتَولَّى بركنه، وادَّعى ما ليس له، وتَجهرَم على الله، وعَتَا وبغَى وأهانَ حزبَ الإيمانِ من بَني إسرائيل، والله تعالى يحفظُ رسولَه موسى وأخاه هارونَ، ويحوطُهما بعنايته، ويحرسُهما بعينه التي لا تَنام، ولم تَزَل المحاجَّةُ والمجادَلَةُ والآياتُ تقومُ على يَدَيْ موسى شيئاً بعد شيءٍ، ومرةً بعد مَرَّةٍ، مما يبهَرُ العقولَ وَيُدهشُ الألبابَ، مما لا يقومُ له شيءٌ، ولا يأتي به إلا من هو مُؤيَّدٌ من الله، وما تأتيهم ﴿مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨]، وصَمَّم فرعون ومَلَؤه ـ قبَّحَهُم الله ـ على التكذيب بذلك كُلِّه، والجَحد والعنادِ والمكابرةِ، حتى أَحَلَّ الله بهم بأسه الذي لا يُرَدّ، وأغرقَهم في صَبِيحَةٍ واحدةٍ أجمعِينَ، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

---

(١) هو بعض حديث الشفاعة المشهور، وتقدم.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

ذكر الله تعالى قِصةَ السحرة مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف وقد تقدّم الكلام عليها هناك. وفي هذه السورة، وفي سورة طه، وفي الشعراء؛ وذلك أن فِرْعَون ـ لعنه الله ـ أرادَ أن يبهرج على الناس، ويُعارِضَ ما جاء به موسى ـ عليه السلام ـ من الحقِّ المُبين، بِزَخارِفِ السحرةِ والمُشَعبذِين، فانعكَسَ عليه النظامُ، ولم يحصلْ له من ذلك المرامُ، وظهرت البراهينُ الإلهيةُ في ذلك المَحْفِلِ العامِّ، ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢٠ ـ ١٢٢] فظن فرعونُ أنه يستنصر بالسُّحار على رسولِ عالِم الأسرارِ، فخاب وخَسِر الجنة واستوجَب النار. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾؛ وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطَفُّوا ـ وقد وُعِدُوا من فِرْعَونَ بالتقريب والعَطاءِ الجزيل ـ ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ﴾ [طه: ٦٥، ٦٦]، فأراد موسى أن تكونَ البَذاءَةُ منهم، ليرى الناسُ ما صَنَعوا، ثم يأتي بالحقِّ بعده فَيَدْمَغ باطلهم. ولهذا لما ﴿أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٧ ـ ٦٩]. فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَمّار بن الحارث، حدثنا عبد الرحمن ـ يَعني الدشتَكِيّ ـ أخبرنا أبو جعفر الرازيُّ، عن ليثٍ ـ وهو ابن أبي سليم ـ قال: بَلَغني أن هؤلاءِ الآياتِ شفاءٌ من السحر بإذن الله تعالى، تقرأ في إناء فيه ماء، ثم يُصَبّ على رأس المسحور الآية التي من سورة يونُس: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾، والآية الأخرى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف: ١١٨]. . . إلى آخر أربعِ آياتٍ. وقولُه: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يخبرُ تعالى أنه لم يُؤمِن بموسى ـ عليه السلام ـ مع ما جاء به من الآيات البَيِّناتِ والحُجَج القاطعاتِ والبراهين السّاطِعَاتِ، إلا قليل من قوم فِرْعَونَ، من الذرّية ـ وهم الشبابُ ـ على وَجَل وخَوفٍ منه ومن مَلَئِهِ، أن يَرُدُّوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فِرْعَونَ لعنه الله كان جَبّاراً عَنِيداً مُسرِفاً في التمرد والعُتُوِّ، وكانت له سطوةٌ ومهابةٌ، تخاف رَعِيَّتُه منه خوفاً شديداً. قال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ﴾، قال: فإن الذرّية التي آمنت لموسى من أناسٍ غير بني إسرائيل من قوم فِرْعَون يسير، منهم: امرأةُ فرعون، ومؤمنُ آلِ فِرْعونَ، وخازِنُ فِرْعونَ، وامرأةُ خازنِهِ. ورَوَى علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عَبّاسٍ في قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾، يقول: بني إسرائيلَ. وعن ابن عَبّاسٍ، والضحّاك، وقتادةُ: الذريةُ القليلُ. وقال مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾، قال: هم أولاد

الذين أُرسِلَ إليهم موسى، من طول الزمان، ومات آباؤهم. واختار ابن جرير قولَ مجاهد في الذريّة: أنها من بَني إسرائيلَ لا من قوم فرعون، لعودِ الضمير على أقرب المذكورين.

وفي هذا نظر؛ لأنه أراد بالذرية الأحداثَ والشبابَ، وأنهم من بني إسرائيل، فالمعروفُ أنّ بني إسرائيلَ كُلّهم آمنوا بموسى ـ عليه السلام ـ واستبشَرُوا به، وقد كانوا يعرِفُون نعتَه وصِفتَه والبشارةَ به من كُتُبهم المتقدِّمة، وأنَّ الله تعالى سيُنقِذُهم به من أسْرِ فِرْعَونَ ويُظهِرُهم عليه، ولهذا لما بلغ هذا فرعونَ حذرَ كُلَّ الحَذَر فلم يُجْدِ عنه شيئاً، ولما جاء موسى آذاهم فرعونُ أشد الأذى، و ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وإذا تقرَّر هذا فكيفَ يكونُ المرادُ إلاَّ ذريةً من قوم مُوسى، وهم بنو إسرائيل؟! ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ﴾، أي: وأشرافِ قَوْمِهم ﴿أَن يَفْتِنَهُمْۚ﴾، ولم يكُن في بني إسرائيل مَن يُخاف منه أن يُفتَنَ عن الإيمان سوى قارونَ، فإنه كان من قوم موسى، فَبَغى عليهم؛ لكنه كان طاوياً إلى فرعون، متصلاً به، مُتعلقاً بحباله. ومن قال: إن الضمير في قوله: ﴿وَمَلَإِيهِمْ﴾، عائدٌ إلى فرعون، وعُظْم المَلِك من أجل أتباعه، أو بحذف آل فرعون وإقامةِ المضاف إليه مُقامَه فقد أبعد، وإن كان ابن جَريرٍ قد حكاه عن بعض النحاة. ومما يدلُّ على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمنٌ، قوله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾، أي: فإن الله كافٍ مَن تَوكَّلَ عليه، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. وكثيراً ما يقرنُ الله بين العبادةِ والتوكُّلِ، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَاۖ﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩]، وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صَلَواتهم مراتٍ مُتعدِّدةٍ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]. وقد امتثل بنُو إسرائيلَ ذلك، فقالوا: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: لا تُظفِرْهُم بنا، وتُسلِّطهم علينا، فَيَظنُّوا أنّهم إنما سُلِّطوا لأنهم على الحقّ ونحنُ على الباطل، فَيُفتَتَنوا بذلك. هكذا رُوي عن أبي مِجلَزٍ، وأبي الضُّحى. وقال ابنُ أبي نَجيح وغيرُ واحد، عن مجاهد: لا تُعذِّبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بِعَذَابٍ مَن عندك، فيقولُ قوم فرعون: لو كانوا على حقٍّ ما عُذِّبوا، ولا سُلِّطنا عليهم، فَيُفتَتَنوا بنا.

وقال عبد الرّزاق: أنبأنا ابن عُيينة، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لا تُسلِّطهم علينا فيفتِنُونا. ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾، أي: خلِّصنا برحمةٍ منك وإحسانٍ، ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: الذين كفرُوا الحقَّ وستَرُوه، ونحنُ قد آمنَّا بك وتَوكَّلنا عليك.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

يذكرُ تعالى سبَب إنجائه بني إسرائيلَ من فِرْعَونَ وقومه، وكيفيَّةَ خَلاَصِهم منهم، وذلك أنَّ الله تعالى أَمَر موسى وأخاه هارونَ ـ عليهما السلام ـ أن يتبوّآ، أي: يَتّخِذا لِقَومِهما بمصرَ بُيوتاً. واختلف المفسرون في

معنى قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، فقال الثوري وغيره، عن خُصَيف، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، قال: أمروا أن يتخذوها مساجد. وقال الثوري أيضاً، عن منصور، عن إبراهيم: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، قال: كانوا خائفين، فأمروا أن يُصَلُّوا في بيوتهم. وكذا قال مجاهد، وأبو مالك، والربيعُ بن أنس، والضحاكُ، وعبد الرحمنُ بن زيدِ بن أسلَم، وأبوه زيدُ بن أسلَمَ. وكأن هذا ـ والله أعلم ـ لما اشتدَّ بهم البلاءُ من قِبَل فرعونَ وقومه، وضَيَّقُوا عليهم، أمِرُوا بكثرةِ الصلاة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

[٣٧٦٥] وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حزبَه أمرٌ صَلَّى[1]. أخرجه أبو داود، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: بالثّوابِ والنَّصرِ القريب. وقال العوفيُّ، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآيةِ قال: قالت بنُو إسرائيل لموسى ـ عليه السلام ـ: لا نستطيعُ أن نُظهِرَ صلاتنا مع الفراعنة. فأذِن الله تعالى لهم أن يُصَلُّوا في بيوتهم، وأمروا أن يجعَلُوا بيوتهم قبل القبلة. وقال مجاهد: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، قال: لما خاف بنُوا إسرائيلَ من فِرْعَون أن يُقتَلُوا في الكنائس الجامعةِ، أمروا أن يجعَلُوا بيوتَهم مساجدَ مستقبلةَ الكعبةِ يُصَلُّون فيها سراً. وكذا قال قتادةُ، والضَّحَّاكُ. وقال سعيد بن جُبير: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، أي: يقابل بعضُها بعضاً.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

هذا إخبارٌ من الله تعالى عَمَّا دعا به مُوسَى ـ عليه السلام ـ على فرعونَ ومَلَئِهِ، لما أبوا قبولَ الحق واستمرُّوا على ضَلالهم وكفرهم معاندين جَاحِدِين، ظُلماً وعُلُواً وتكبراً وعُتُوّاً، قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾، أي: من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾، أي: جَزيلة كثيرةً، ﴿فِى﴾ هذه ﴿الحَيَاةِ الدُّنيا رَبَّنا لِيَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾[2] ـ بفتح الياء ـ أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يُؤمِنُون بما أرسلتني به إليهم استدراجاً منك لهم، كما قال تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]. وقرأ آخرون: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ ـ بضم الياء ـ أي: ليفتِتَنَ بما أعطيتهم مَن شئت من خَلْقِك، ليظُنَّ من أغويتَه أنَّك إنما أعطيتَ هؤلاءِ هذا لِحُبِّك إياهم، واعتنائك بهم. ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ: أي أهلِكْها. وقال الضحاكُ، وأبو العاليةِ، والربيعُ بن أنس: جَعَلها الله حجارةً منقُوشَةً كهيئةِ ما كانت. وقال قتادة: بلغنا أن زُرُوعهم تحولت حجارةً. وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ: اجعل سُكَّرهم حجارةً.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا يحيى بن أبي بكير، عن أبي مَعشرٍ، حدثنا مُحمَّد بن قيس: أن محمد بن كَعْبٍ قرأ سورةَ يونس على عُمَر بن عبد العزيز: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾... إلى آخرها، فقال له عُمَر: يا أبا حمزةَ، أيُّ شيء الطَّمْسُ؟ قال: عادت أموالهم كلُّها حجارةً. فقال عُمَر بن عبد العَزِير لغلامٍ له: ائتني بكيسٍ. فجاءه بِكيسٍ،

---

(١) حديث حسن وتقدم في سورة البقرة.

(٢) قرأ أهل الكوفة إلا المفضل، وزيد، وأبو حاتم عن يعقوب بضم الياء، وقرأ الباقون بفتحها.

فإذا فيه جِمصٌ وبيض، قد حول حجارة[1]. وقولُه: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، قال ابنُ عباس: أي اطبع عليها، ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾. وهذه الدعوةُ كانت من موسى ـ عليه السلام ـ غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له أنه لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيءٌ كما دعا نوح ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٧] ولهذا استجابَ الله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ فيهم هذه الدعوةَ، التي أمَّنَ عليها أخُوه هارونُ، فقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾. قال أبو العالية، وأبو صالح، وعكرمةُ، ومحمدُ بن كعب القرظيُّ، والربيعُ بن أنس: دعا موسى وأمَّنَ هارونُ، أي: قد أجبناكُما فيما سألتُما من تدميرِ آلِ فِرْعَونَ. وقد يَحتجُّ بهذه الآيةِ مَن يقولُ: إنَّ تأمين المأموم على قراءةِ الفاتحةِ يُنزَّل منزلة قراءتها، لأن موسى دعا، وهارونَ أمَّن. وقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾. . .، الآية، أي: كما أُجِيبَت دعوتُكما فاستقيما على أمري. قال ابنُ جريج، عن ابن عباس: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾، فامضِيا لأمري، وهي الاستقامة، قال ابن جُريج: يقولون: إن فِرْعَونَ مكثَ بعد هذه الدعوةِ أربعينَ سنةً. وقال مُحمَّد بنُ علي بن الحُسَين: أربعينَ يوماً.

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يذكرُ تعالى كيفيةَ إغراقِهِ فِرعونَ وجُنودَه؛ فإن بني إسرائيلَ لما خرجُوا من مصرَ صحبةَ موسَى عليه السلامُ، وهم فيما قيل ستمئة ألفِ مُقاتلٍ سِوَى الذرِّيةِ، وقد كانوا استعارُوا من القبطِ حُلياً كثيراً، فخرجوا به معهم، فاشتدَّ حَنَقُ فِرْعَونَ عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين، يجمَعُون له جُنوده من أقاليمه، فرَكِبَ وراءَهم في أبَّهةٍ عظيمة، وجيوش هائلة لما يُريده الله تعالى بهم، ولم يَتَخلَّف عنه أحدٌ ممَّن له دولةٌ وسلطانٌ في سائر مملكته، فَلحِقُوهم وقتَ شروق الشمس، ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: ٦١]، وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحلِ البحر، وأدركهم فِرْعَونُ، ولم يبقَ إلا أن يتقاتلَ الجمعانِ، وألحَّ أصحابُ موسى ـ عليه السلامُ ـ عليه في السؤال: كيفَ المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إني أُمِرتُ أن أسلُكَ ها هنا، ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، فعندما ضاقَ الأمرُ اتَّسع، فأمره الله تعالى أن يَضرِبَ البحرَ بعَصَاه، فَضربه فانفلقَ البحرُ، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، أي: كالجَبَل العظيم، وصار اثني عشر طريقاً، لِكلِّ سِبطٍ واحدٌ. وأمر الله الرِّيحَ فنشفت أرضه، ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]، وتخرَّقَ الماءُ بين الطُّرق كهيئة الشبابيك، ليرى كلُّ قَوم الآخرين لئلا يظنُّوا أنهم هَلَكوا. وجازت بنو إسرائيل البحرَ، فلما خَرَج آخرُهم منه انتهى فرعونُ وجنوده إلى حافَتِهِ من الناحيةِ الأخرى، وهو في مئةِ ألفِ أدهَمَ سوى بقية الألوان، فلما رأى ذلك هاله وأحجَم وهابَ وهَمَّ بالرجوع، وهيهات ولاتَ حين مناصٍ، نَفَذ القدر، واستُجيبت الدعوة. وجاء جبريل ـ عليه السلام ـ على فرس وديقٍ

(١) هذا الأثر، لا يصح، فيه محمد بن قيس، وثقه أبو داود والفسوي، وقال ابن معين: ليس بشيء، لا يروىٰ عنه. وفيه أبو معشر نجيح السندي، ضعفه النسائي والدارقطني، وقال البخاري: منكر الحديث اهـ فهذا من مناكيره، والله أعلم.

حائلٍ، فَمَرَّ إلى جانب حصان فرعون فحمحَم إليها وتَقَدَّم جبريلُ فاقتحم البحرَ ودخله، فاقتحم الحصانُ وراءَه، ولم يبقَ فِرعَونُ يملِكُ من نفسه شيئاً، فَتَجلَّد لأُمرائِهِ، وقال لهم: ليس بَنُو إسرائيلَ بأحقَّ بالبحر منا، فاقتحَمُوا كُلُّهم عن آخِرِهم وميكائيلُ في ساقَتِهم، لا يتركُ أحداً منهم إلا ألحقه بهم. فلما استوسقوا فيه وتكامَلُوا، وهَمَّ أوَّلُهم بالخُروجِ منه، أمر الله القديرُ البحرَ أن يرتَطِمَ عليهم، فارتطم عليهم، فلم ينجُ منهم أحدٌ، وجَعَلت الأمواجِ ترفَعُهم وتخفِضُهم، وتراكمت الأمواجُ فوقَ فِرْعَون، وغَشِيته سكراتُ الموتِ، فقال وهو كذلك: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. فآمن حيثُ لا ينفعُه الإيمان، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]. وهكذا قال الله تعالى في جَواب فِرْعَون حين قال ما قال: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾، أي: أهذا الوقتَ تقولُ وقد عصيتَ الله قبلَ هذا فيما بينكَ وبينه؟! ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، أي: في الأرضِ الذين أضَلُّوا الناسَ، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١]. وهذا الذي حَكَى الله تعالى عن فِرْعَون من قوله هذا في حاله ذاك من أسرارِ الغيبِ التي أعلم الله بها رسولَه، ولهذا قال الإمامُ أحمدُ بن حَنبلٍ رَحِمه الله:

[٣٧٦٦] حدثنا سُليمان بن حَربٍ، حدثنا حمَّاد بن سَلَمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عباس قال: قالَ رسول الله ﷺ: «لما قال فِرْعَونُ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، قال: «قال لي جبريل: يا محمَّدُ، لو رأيتني وقد أخذت من حَالِ البحرِ، فَدَسستُه في فيه مخافةَ أن تنالَه الرحمةُ»[١]. ورواه الترمذيُّ، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم في تفاسيرهم، من حديث حَمَّاد بن سَلَمة، به. وقال الترمذيُّ: حديث حسن.

[٣٧٦٧] وقال أبو داود الطيالسيُّ: حدثنا شعبةُ، عن عَدِيِّ بن ثابت وعطاءِ بن السائبِ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباسٍ قال؛ قال رسولُ الله ﷺ: «قال لي جبريلُ: لو رأيتَني وأنا أخذ من حَالِ[٢] البحرِ فأدسُّه في فَم فرعون مخافةَ أن تُدرِكَه الرحمةُ»[٣]. وقد رواه أبو عيسى الترمذيُّ أيضاً، وابنُ جرير أيضاً من غير وجهٍ، عن شعبةَ، به، وقال الترمذيُّ: حَسنٌ غريبٌ صَحِيحٌ. ووقع في روايةٍ عند ابن جرير، عن محمد بن المثنى عن غُندَر عن شعبةَ عن عطاءٍ وعديٍّ عن سعيدٍ عن ابن عباس، رفعه أحدهما، وكأن الآخَرَ لم يرفَعه، فالله أعلم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالد الأحمرُ، عن عُمَر بن عبد الله بن يعلى الثَّقفيِّ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: لما أغرق الله فِرْعَونَ أشار بأصبَعِهِ ورفع صوتَه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، قال: فخاف جبريلُ أن تَسبِقَ رحمةُ الله فيه غضَبه، فَجَعَل يأخذُ الحالَ

---

(١) أخرجه الترمذي ٣١٠٧ وأحمد ١/ ٢٤٥ والطبري ١٧٨٧٥ وإسناده ضعيف لضعف علي بن زيد. لكن يشهد له ما بعده.

(٢) الحال: الطين الأسود، والتراب اللين.

(٣) أخرجه الترمذي ٣١٠٨ والنسائي في «التفسير» ٢٥٨ وأحمد ١/ ٢٤٠ والطبري ١٨٧٥٨ وابن حبان ٦٢١٥ والحاكم ١/ ٥٧ و ٢/ ٣٤٠ وصححه على شرطهما وقال: إلا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه. وسكت الذهبي، وحسنه الترمذي، وصححه الحافظ في «تخريج الكشاف» ٢/ ٣٦٨ بعد أن أطال الكلام عليه. وهو حديث قوي بمجموع طرقه وشواهده، هذا بالنسبة للإسناد، لكن المتن فيه غرابة وقد رواه غير واحد موقوفاً والله أعلم. وانظر «تفسير الشوكاني» ١٣٠١.

بجناحِهِ فيضرِبُ به وجهَه فَيَرْمُسُه[(١)]. وكذا رواه ابنُ جرير، عن سفيانَ بن وكيع، عن أبي خالدٍ، به موقوفاً. وقد رُوِي من حديث أبي هُرَيرة أيضاً.

[٣٧٦٨] فقال ابنُ جَرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا حَكّام، عن عَنْبَسَة ـ هو ابنُ سعيدٍ ـ عن كَثِير بن زاذان، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: قال لي جبريلُ: يا محمدُ، لو رأيتَني وأنا أُغطه وأدسُ من الحالِ في فيه، مخافةَ أن تُدركَه رحمةُ الله فيغفر له». يعني فرعونَ[(٢)]. كَثِير بن زاذانَ هذا قال ابنُ مَعِين: لا أعرفُه، وقال أبو زُرعةَ وأبو حاتم: مجهولٌ، وباقي رجاله ثقاتٌ. وقد أرسلَ هذا الحديثَ جماعةٌ من السلف: قتادةُ، وإبراهيمُ التَّيمِيُّ، وميمونُ بن مِهرانَ. ونُقِل عن الضَّحّاكِ بن قيس: أنه خَطَب بهذا للناس، فالله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، قال ابن عباس وغيره من السلف: إنَّ بعضَ بني إسرائيل شَكُوا في موتِ فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يُلقِيَه بجسَدِهِ سوياً بلا رُوح، وعليه درعُه المعروفةُ، على نجوةٍ من الأرضِ وهو المكانُ المرتفِعُ، ليتحقَّقُوا موته وهلاكه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾، أي: نرفعُكَ على نَشَزٍ من الأرض، ﴿بِبَدَنِكَ﴾، قال مجاهد: بِجَسَدِكَ. وقال الحسن: بجسم لا رُوحَ فيه. وقال عبد الله بن شَدَّاد: سوياً صحيحاً، أي: لم يتمزق ليتحقَّقوهُ ويعرفوه. وقال أبو صخر: بِدِرْعِكَ. وكلُّ هذه الأقوالِ لا مُنافَاةَ بينها، كما تقدَّم، والله أعلم. وقولُه: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، أي: لتكون لبني إسرائيلَ دليلاً على مَوتِكَ وهلاكِكَ، وأن الله هو القادرُ الذي ناصيةُ كلِّ دابَّةٍ بيده، وأنه لا يقومُ لِغَضبه شيءٌ، ولهذا قرأ بعضُ السَّلَفِ: «لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً»[(٣)]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾، أي: لاَ يَتَّعِظُون بها، ولا يعتبرُون. وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء، كما قال البخاري:

[٣٧٦٩] حدثنا محمد بن بَشّار، حدثنا غُندَر، حَدَّثنا شعبة، عن أبي بَشرٍ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قَدِم النبي ﷺ المدينَة، واليهودُ تصومُ يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه»؟ فقالوا: هذا يومٌ ظهر فيه موسى على فِرْعَون. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحقُّ بموسى منهم، فَصُوموه»[(٤)].

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

يُخبِر تعالى عَمّا أنعم به على بني إسرائيلَ من النِّعم الدينيّة والدُّنيويّة وقوله ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾، قيل: هو بلادُ مصرَ والشام، مما يلي بيتَ المقدِس ونواحيه؛ فإنَّ الله تعالى لما أهلَكَ فِرعَونَ وجنودَه استقرَّت يدُ الدولة الموسوية على بلادِ مصرَ بكمالها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ

---

(١) الرمس: الستر والتغطية.

(٢) أخرجه الطبري ١٧٨٧٤ وابن عدي ٢/٧٨٨ وإسناده ضعيف لجهالة كثير بن زاذان، وأخرجه الطبراني من وجه آخر، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٠٧٠: فيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري، وضعفه جماعة.

(٣) وهي قراءة ابن السميفع وأبي المتوكل وأبي الجوزاء. كما في زاد المسير.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٢٠٠٤ و ٣٣٩٧ ومسلم ١١٣٠ وابن حبان ٣٦٢٥ وأحمد ١/٢٩١.

وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال في الآية الأخرى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩]. ولكن استمرُّوا مع موسى ـ عليه السلام ـ طالبين إلى بلاد بيتِ المقدِس، وهي بلادُ الخليل ـ عليه السلام ـ فاستمرَّ موسى بمن معه طالباً بيت المقدس، وكان فيه قومٌ من العَمَالقة، فَنَكل بنُو إسرائيل عن قتالهم، فَشرّدهم الله تعالى في التِّيه أربعين سنة، ومات فيه هارون، ثم مُوسى ـ عليهما السلام ـ وخرجوا بعدهما مع يُوشَع بن نون، ففتح الله عليهم بيتَ المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بُختَنَصَّرَ حيناً من الدهر، ثم عادت إليهم، ثم أخذها ملوكُ اليونان، وكانت تحتَ أحكامهم مُدَّةً طويلةً، وبَعَث الله عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ في تلك المدة، فاستعانت اليهودُ ـ قبَّحهم الله ـ على معاداة عيسى ـ عليه السلام ـ بملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم، ووشَوا عندهم، وأوحوا إليهم أن هذا يُفسِدُ عليكم الرعايا. فبعثوا من يَقبِضُ عليه، فرفعه الله إليه، وشُبِّه لهم بعضُ الحواريين بمشيئة الله وقَدره، فأخذوه فَصَلَبُوه، واعتقدوا أنه هو، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]. ثم بعد المسيح ـ عليه السلام ـ بنحو ثلاثمئة سنة، دخل قُسطنطِينُ أحدُ ملوك اليونان ـ في دين النصرانيةِ، وكان فَيلسُوفاً قبل ذلك. فدخل في دين النصارى قيل: تقية، وقيل: حيلةً لِيُفسِده، فوضعت له الأساقفةُ منهم قوانين وشريعةً وبِدَعاً أحدثُوها، فبنى لهم الكنائسَ والبِيَع الكبار والصغار، والصَّوامِعَ والهياكل، والمعابد والقَلَّايات[1]. وانتشر دينُ النصرانية في ذلك الزمان، واشتهر على ما فيه من تبديلٍ وتغييرٍ وتحريفٍ، وَوَضعٍ وكَذِبٍ، ومخالفةٍ لدين المَسيح. ولم يبقَ على دين المسيح على الحقيقةِ منهم إلاّ القليلُ من الرهبان، فاتخذُوا لهم الصوامع في البَرَاري والمهامهِ والقِفَارِ.

واستحوذت يدُ النصارى على مملكةِ الشام والجزيرةِ وبلادِ الروم، وبنى هذا الملك المذكورُ مدينةَ قُسطنطِينيَّة، والقُمَامة، وبيتَ لحم، وكنائس بيت المقدس، ومدن حَوران كبُصرى وغيرها من البلدان بناءات هائلة محكمة، وعَبَدُوا الصليب من حينئذٍ، وصَلُّوا إلى الشرق، وصَوَّروا الكنائس، وأحلُّوا لحم الخنزير، وغير ذلك مما أحدثُوه من الفروعِ في دينهم والأصولِ، ووضعُوا له الأمانةَ الحقيرة التي يسمونها الكبيرة، وصنَّفُوا له القوانين، وبسطُ هذا يطول. والغرضُ أنَّ يَدَهم لم تَزَل على هذه البلادِ إلى أن انتزعها منهم الصحابةُ ـ رضي الله عنه ـ وكان فتحُ بيتِ المقدسِ على يَدَي أمير المؤمنين عُمَرَ بن الخطاب، رَضِي الله عنه، ولله الحمد والمنة. وقولُه: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، أي: الحَلال، من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً. وقولهُ: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، أي: ما اختلفوا في شيءٍ من المسائِل إلا مِن بعدما جاءهم العلمُ، أي: ولم يكن لهم أن يَختلِفُوا. وقد بيَّن الله لهم وأزال عنهم اللبسَ.

[٣٧٧٠] وقد ورد في الحديث: «أن اليهود اختلفُوا على إحدى وَسبعينَ فرقةً، وأن النصارى اختلفوا على اثنتينِ وسَبعينَ فرقَةً، وستفترق هذه الأمة على ثلاثٍ وَسبعَينَ فرقةً، منها واحدةٌ في الجنة، وثنتان وسبعُون في النار». قِيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[2]. رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ، وهو في السُّنن والمسانيدِ. ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفصل بينهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

---

(١) القلايات: جمع قلاية، وهي كالصومعة في الكنيسة.

(٢) حديث صحيح، وتقدم تخريجه.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

[٣٧٧١] قال قتادةُ بن دِعامَةَ: بلغنا أن رسولَ الله ﷺ «قال: لا أشكُّ ولا أسألُ»[١]. وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جُبير، والحسن البصريُّ، وهذا فيه تثبيتٌ للأمة، وإعلامٌ لهم أن صِفَةَ نَبِيِّهم ﷺ موجودةٌ في الكُتُب المتقدمة التي بأيدي أهلِ الكتابِ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ...﴾ [الأعراف: ١٥٧] الآية. ثم مع هذا العلم الذي يعرِفُونه من كتبهم كما يعرفون أبناءَهم، يُلبِسُون ذلك ويُحرِّفُونه ويبدلونه، ولا يُؤْمِنُون به مع قيام الحُجَّةِ عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾، أي: لا يُؤْمِنُونَ إيماناً ينفعهم، بل حين لا ينفعُ نفساً إيمانُها، ولهذا لما دعا موسى ـ عليه السلام ـ على فِرْعَونَ ومَلَئِهِ قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١]. ثم قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

يَقول تعالى: فَهَلاَّ كانت قريةٌ آمنت بكَمالها من الأمم السالفة الذين بَعَثنا إليهم الرسلَ! بل ما أرسلنا من قبلك يا محمدُ من رسولٍ إلا كَذَّبه قومه، أو أكثرهم، كما قال تعالى: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٠]، ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢]، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

[٣٧٧٢] وفي الحديثِ الصَّحيح: «عُرِض عَلَيَّ الأنبياء، فَجعل النبيُّ يمرُّ ومعه الفِئَامُ من الناس، والنبيُّ معه الرجلُ، والنبي معه الرجلانِ، والنبي ليس معه أحَدٌ». ثم ذكر كثرة أتباع موسى ـ عليه السلام ـ ثم ذكر كثرة أُمَّتِهِ ـ صلوات الله وسلامُه عليه ـ كثرةً سدَّت الخافِقَين الشَّرقيَّ والغربيَّ[٢]. والغرضُ أنه لم تُوجَد قرية آمنت بكمالها بنبيِّهم ممن سَلَف من القُرَى إلا قومَ يُونُس، وهم أهلُ نِينَوَى، وما كان إيمانُهم إلا خوفاً من

---

(١) ضعيف جداً بهذا اللفظ، أخرجه عبد الرزاق ٦/١٢٦ وفي «تفسيره» ١١٧٣ والطبري ١٧٩٠٧ و ١٧٩٠٨ عن قتادة مرسلاً، والمرسل من قسم الضعيف. ومراسيل قتادة واهية. وقد ورد عن ابن عباس بلفظ «لم يشك رسول الله ﷺ، ولم يسأل» عزاه السيوطي في «الدر» ٣/ ٥٧١ لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه والضياء في «المختارة» عن ابن عباس. وورد بهذا اللفظ عن الحسن أخرجه الطبري ١٧٩٠٦، وعن سعيد بن جبير ١٧٩٠٤ و ١٧٩٠٥ وهذا أصح من كون لفظه من كلام النبي ﷺ. والله الموفق.

(٢) متفق عليه، وتقدم.

وُصولِ العذابِ الذي أنذرهم به رسولُهم، بعدما عاينُوا أسبابَه، وخَرَج رسولُهم من بين أظهرهم، فعندما جَأروا إلى الله واستغاثوا به، وتَضرّعوا لديه، واستكانوا وأحضَرُوا أطفالهم ودوابّهم ومواشيَهم، وسألوا الله تعالى أن يرفَع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نَبيُّهم. فعندها رَحِمَهم الله، وكَشَف عنهم العذابَ وأُخّروا، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾. واختلف المُفَسّرونَ: هل كُشف عنهم العذابُ الأخرويُّ مع الدنيويِّ؟ أو إنما كُشِف عنهُم في الدُّنيا فَقَط؟ على قولَين.

أحدُهما: إنما كان ذلكَ في الحياةِ الدُّنيا، كما هو مُقيّد في هذهِ الآيةِ.

والقولُ الثاني فيهما: لقولِهِ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٧ ـ ١٤٨]، فأطلق عليهم الإيمانَ، والإيمانُ منقِذٌ من العذاب الأخروي، وهذا هو الظاهرُ، والله أعلم.

قال قتادةُ في تفسير هذه الآية: لم ينفع قريةً كَفرت ثم آمنت حينَ حَضَرها العذابُ فتُركَت إلاّ قومَ يونُسَ، لما فَقَدوا نبيهم وظنُّوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبةَ، ولبسوا المُسُوح[1]، وفَرّقوا بين كلِّ بَهيمةٍ وولدِها، ثم عَجُّوا إلى الله أربعينَ ليلة. فلما عَرَف الله منهم الصِّدق من قلوبهم، والتوبةَ والندامة على ما مَضَى منهم كَشَف الله عنهم العذابَ بعد أن تدلى عليهم، قال قتادة: وذُكِرَ أن قومَ يونُسَ كانوا بنِينَوَى أرضِ الموصِلِ. وكذا رُوِي عن ابن مسعود، ومجاهدٍ، وسعيد بن جُبير، وغير واحد من السَّلَفِ، وكانَ ابنُ مسعودٍ يقرؤها: «فهلا كانت قريةٌ آمنت». وقال أبو عِمْرانَ، عن أبي الجَلْدِ قال: لما نَزَل بهم العذابُ جَعَل يدورُ على رؤوسهم كقِطَع الليل المظلم، فَمَشَوا إلى رجل من علمائهم فقالوا: عَلِّمنا دعاءً ندعُو به لعلَّ الله أن يكشف عنا العذاب. فقال: قولوا: يا حيُّ حين لا حيّ، يا محييَ الموتى، يا حيّ لا إله إلا أنت. قال: فكُشِفَ عنهم العذابُ. وتمامُ القصةِ سيأتي مُفصَّلاً في سُورةِ الصافاتِ إن شاء الله.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ ـ يا محمدُ ـ لأذِنَ لأهل الأرض كُلِّهم في الإيمانِ بما جئتَهم به، فآمنوا كلُّهم، ولكن له حكمةٌ فيما يفعله تعالى، كما قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ﴾ [فاطر: ٨]. ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾، أي: تُلزِمُهم وتُلجئهم ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: ليس ذلك عليك ولا إليكَ، بل الله ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [الرعد: ٣١]، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على أن الله تعالى هو الفعّال لما يريدُ، الهادي من يشاء، المضلُّ لمن يشاء، لعلمِهِ وحكمَتِهِ وعَدْلِهِ. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ

(١) المسوح: جمع مسح، كساء من شعر يلبسه الراهب.

إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾، وهو: الخبالُ والضَّلال، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: حُجَجَ الله وأدلَّته، وهو العادلُ في كل ذلك، في هدايةِ من هَدَى، وإضلالِ من ضَلَّ.

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

يُرشِدُ تعالى عبادَه إلى التفكُّر في آلائِهِ وما خَلَق في السمواتِ والأرضِ من الآياتِ الباهرةِ لذوي الألباب، مما في السمٰوات من كواكبَ نيِّرات، ثوابتَ وسيَّاراتٍ، والشمسِ والقمرِ، والليلِ والنهارِ، واختلافهما، وإيلاجِ أحَدهما في الآخر، حتى يطولَ هذا ويقصُر هذا، ثم يقصُرَ هذا ويطولَ هذا، وارتفاعِ السماءِ واتساعِها، وحُسنِها وزينتها، وما أنزل اللّهُ من مطرٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتِها، وأخرجَ فيها من أفانينِ الثِّمارِ والزُّروعِ والأزاهيرِ وصُنُوفِ النبات، وما ذَرَأ فيها من دوابَّ مختلفةِ الأشكالِ والألوانِ والمنافع، وما فيها من جبالٍ وسُهولٍ وقِفَارٍ وعُمرانٍ وخَرَابٍ، وما في البحر من العجائب والأمواجِ، وهو مع هذا مُذَلَّلٌ للسالكين، يحمِلُ سُفُنَهم ويجري بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: وأيُّ شيءٍ تُجدي الآيات السماويةُ والأرضيةُ، والرسل بآياتها وحُجَجِها وبَراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يُؤمِنُون؟! كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وقولُه: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: فهل يَنتظِرُ هؤلاء المُكذِّبون لك يا محمدُ من النقمةِ والعذاب إلا مثلَ أيام الله في الذين خَلَوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذِّبة لِرسُلِهم، ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: ونهلِك المُكذِّبين بالرسل، ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حقاً أوجبه تعالى على نفسه الكريمةِ، كقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

[٣٧٧٣] وكما جاء في الصَّحِيحَين، عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «إن الله كتَب كتاباً فهو عِندَه فوقَ العرش: إنَّ رحمَتي سَبقت غَضَبي»(١).

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالى لرسوله محمَّد صلواتُ الله وسلامُه عليه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ﴾ من صحَّةِ ما جئتكم به من الدين الحنيفِ الذي أوحاه الله إليَّ، فها أنا لا أعبدُ الذين تعبدُون من دونِ الله، ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾

(١) متفق عليه، وتقدم في سورة الأنعام.

وحدَه لا شريكَ له، وهو ﴿الَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ كما أحياكم، ثم إليه مَرجِعُكم، فإن كانت آلهتكم التي تَدعُون من دون الله حقاً، فأنا لا أعبدُها، فادعُوها فلْتضُرَّني، فإنها لا تَضُرُّ ولا تنفعُ، وإنما الذي بيده الضرُّ والنفعُ هو الله وحدَه لا شريكَ له، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾، أي: أخلِص العبادة لله وحدَه (حنيفاً)، أي: مُنحرِفاً عن الشرك. ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وهو معطوفٌ على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾... إلى آخرها، بيانٌ لأن الخيرَ والشرَّ والنفعَ والضرَّ إنما هو راجعٌ إلى الله تعالى وحدَه لا يُشارِكه في ذلك أحد، هو الذي يَستحِقُّ العبادةَ وحدَه، لا شَريكَ له.

[٣٧٧٤] روى الحافظ ابن عساكر، في ترجمة صفوان بن سُلَيم، من طريق عبد الله بن وهب: أخبرني يحيى بن أيوبَ، عن عيسى بن موسى، عن صفوان بن سُلَيم، عن أنس بن مالك أن رسولَ الله ﷺ قال: «اطلبُوا الخيرَ دهرَكُم كُلَّه، وتَعرَّضُوا لنفحاتِ رحمةِ الله، فإنَّ لله نَفَحاتٍ من رَحمتِهِ، يُصِيبُ بها مَن يشاءُ من عبادِهِ واسألوه أن يَستر عَورَاتِكم، ويُؤمِن رَوعَاتِكم»[1]. ثم رَوَاه من طريق اللَّيثِ، عن عيسى بن موسى، عن صَفْوَانَ، عن رجل من أشجَعَ، عن أبي هُريرة مرفوعاً، بمثله سواء. وقولُه: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، أي: لمن تاب إليه وتوكَّل عليه، ولو من أيِّ ذنب كان، حتى من الشرك به، فإنه يتوبُ عليه.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً لرسولِهِ ـ صلوات الله وسلامُه عليه ـ أن يخبر الناسَ أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحقُّ الذي لا مِرْيةَ فيه ولا شكَّ، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعودُ نفعُ الاتباع على نفسِهِ، ومن ضلَّ عنه فإنما يرجعُ وبالُ ذلك عليه. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾، أي: وما أنا مُوكَّل بكم حتى تكونُوا مؤمنين به، وإنما أنا نذيرٌ لكم، والهدايةُ على الله تعالى. وقولُه: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾، أي: تَمسَّك بما أنزل الله عليك وأوحاه، واصبر على مخالَفَةِ من خالَفَك مِنَ الناس، ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾، أي: يفتَح بينك وبينهم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، أي: خيرُ الفاتِحينَ بِعَدْلِهِ وحِكْمَتِهِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» ٢٧، والبيهقي في «الشعب» ١١٢١ و ١١٢٢ و ١١٢٣، وفي إسناده عيسى بن موسى الليثي. وثقه ابن حبان، وضعفه أبو حاتم، وذكره البخاري في تاريخه من دون جرح ولا تعديل. لكن معنى الحديث صحيح، وهو في فضائل الأعمال. والله أعلم.



وهي مكّية

[٣٧٧٥] قال الحافظُ أبو يَعْلَى: حدَّثنا خلف بن هشام البزّارُ، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن عكرمةَ قال: قال أبو بكر: سألتُ رسولَ الله ﷺ: ما شَيّبك؟ قال: «شَيَّبتني هودٌ، والواقعةُ، وعَمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كُوِّرت»[١].

[٣٧٧٦] وقال أبو عيسى التِّرمذيُّ: حدثنا أبو كُرَيب محمد بن العلاء، حدثنا معاويةُ بن هشام، عن شيبانَ، عن أبي إسحاقَ، عن عكرمة، عن ابن عباسٍ قال: قال أبو بكر: يا رسولَ الله، قد شِبْتَ؟ قال: «شَيَّبتني هودٌ، والواقعةُ، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كُوِّرت». وفي رواية: «هود وأخواتها»[٢].

[٣٧٧٧] وقال الطبرانيُّ: حدثنا عَبْدان بن أحمد، حدثنا حجّاج بن الحسن، حدثنا سعيد بن سلام، حدثنا عُمَر بن محمد، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «شيبتني هود وأخواتُها: الواقعة، والحاقَّة، وإذا الشمس كُوِّرت»[٣]. وقد رُوِي من حديث ابن مسعود نحوه:

[٣٧٧٨] فقال الحافظ أبو القاسم سُلَيمان بن أحمد الطبراني في مُعجَمه الكبير: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبةَ، حدثنا أحمد بن طارق الرائشي، حدثنا عمرو بن ثابت، عن أبي إسحاقَ، عن عبد الله بن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، ما شَيَّبك؟ قال: «هودٌ، والواقعةُ»[٤]. عَمرو بن ثابت متروك، وأبو إسحاقَ لم يدرك ابنَ مسعودٍ. والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾

(١) فيه إرسال بين عكرمة، وأبي بكر، لكن يشهد له ما بعده، فإنه متصل.

(٢) جيد. أخرجه الترمذي ٣٢٩٧ والبزار ١/ ١٧٠ «البحر الزخار» والحاكم ٢/ ٣٤٤ ـ ٤٧٦، وصححه ووافقه الذهبي، وكذا صححه الألباني في «صحيح الترمذي» ٣/ ١١٣، وهو أصح إسناد لهذا المتن.

(٣) أخرجه الطبراني ٥٨٠٤ وإسناده ساقط، قال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٣٧: فيه سعيد بن سلام العطار، وهو كذاب اهـ. لكن المتن حسن صحيح عن ابن عباس كما في الحديث السابق.

(٤) أخرجه الطبري ١٠٠٩١ وإسناده واهٍ، فيه عمرو بن ثابت، وهو متروك كما قال ابن كثير رحمه الله، وفيه إرسال. لكن المتن محفوظ كما تقدم، وانظر «تفسير الشوكاني» ١٢١٩ حتى ١٢٢٧ بتخريجي، والله الموفق.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

قد تَقدَّم الكلامُ على حروف الهجاء في أول سورة البقرةِ بما أغنى عن إعادتِه ها هنا، وبالله التوفيق. وأما قولُه: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾، أي: هي محكمة في لفظها، مُفَصَّلة في معناها، فهو كاملٌ صورةً ومعنى. هذا معنى ما رُوي عن مجاهدٍ، وقتادةٍ، واختاره ابنُ جرير. وقولُه: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، أي: من عند الله الحكيمِ في أقواله وأحكامِه، الخبير بعواقبِ الأمورِ. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، أي: نزَل هذا القرآنُ المحكم المفصَّلُ لعبادة الله وحدَه لا شريكَ له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقولُه: ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾، أي: إني لكم نذيرٌ من العذاب إن خالفتموه، وبشيرٌ بالثواب إن أطعتموه،

[٣٧٧٩] كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسولَ الله ﷺ صَعِدَ الصفا فدعا بُطُونَ قريش الأقربَ ثم الأقربَ، فاجتمعُوا، فقال: «يا معشرَ قُريش، أرأيتُم لو أخبرتُكم أن خيلاً تُصَبِّحكم، ألستم مُصَدِّقيَّ؟» فقالوا: ما جَرَّبنا عليك كَذِباً. قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يَدَي عذابٍ شديدٍ»(١).

وقولُه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أي: وآمُرُكم بالاستغفار من الذنوب السالفةِ والتوبةِ منها إلى الله ـ عز وجل ـ فيما تستقبلُونه، وأن تستَمِرُّوا على ذلك، ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا﴾، أي: في الدنيا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾، أي: في الدار الآخرة، قاله قتادةُ، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

[٣٧٨٠] وقد جاء في الصَّحيح: أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال لسعدٍ: «وإنَّك لن تُنفِقَ نفقةً تَبتغي بها وجهَ الله إلا أُجِرْت بها حتى ما تجعلَ في في امرأتك»(٢).

وقال ابنُ جَرير: حُدِّثت عن المُسيَّب بن شَريك، عن أبي بكر، عن سَعيد بن جُبير، عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾، قال: من عَمِلَ سيئةً كُتِبت عليه سيئةً، ومن عَمِل حسنة كتبت له عشرَ حَسناتٍ. فإن عُوقِبَ بالسيئة التي كان عَمِلها في الدنيا بَقِيَت له عَشرُ حَسَناتٍ، وإن لم يُعاقَب بها في الدنيا أُخِذَ من الحسناتِ العشرِ واحدةٌ، وبَقِيت له تسعُ حسناتٍ. ثم يقول: هَلَك من غلب آحادُه أعشارَه. وقولُه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾، هذا تهديدٌ شديد لمن تولَّى عن أوامر الله تعالى، وكَذَّب رُسُلَه، فإنَّ العذابَ ينالُه يومَ مَعَادِهِ لا مَحالةَ، ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مَعَادُكم ومَرجِعُكم يوم القيامة، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: وهو القادرُ على ما يشاءُ من إحسانِهِ إلى أوليائه، وانتقامِهِ من أعدائِهِ، وإعادةِ الخلائقِ يومَ القيامة، وهذا مقامُ الترهيبِ، كما أنَّ الأوَّل مقامُ ترغيبٍ.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾

---

(١) متفق عليه، وسيأتي في الصافات.

(٢) صحيح، وتقدم.

قال ابنُ عباس: كانوا يكرهُون أن يستقبلوا السماء بِفُروجهم، وَحال وِقَاعِهم، فأنزل الله هذه الآية، رواه البخاري من حديث ابن جُريج، عن محمد بن عباد بن جعفر: أنَّ ابن عَباس قرأ: «ألا إنهم تَثْنَوْني صدورُهم». الآية. فقلت: يا أبا العباس ما تثنوني صدورهم؟ قال: الرجل كان يجامع امرأته فيستحي أو يتخلىٰ فيستحي فنزلت: «ألا إنهم تثنوني صدورهم». وفي لفظٍ آخر له قال ابن عباس: أناسٌ كانوا يستحيون أن يَتَخلَّوا فيُفضُوا إلى السماء، وأن يُجامِعُوا نساءهم فيُفضُوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم.

ثم قال: حدثنا الحُمَيدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو قال: قرأ ابن عباس: «ألا إنهم يثنوني صدورَهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم». قال البخاري: وقال غيره، عن ابن عباس: ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾: يُغَطُّون رؤوسهم[1]. وقال ابنُ عباس في روايةٍ أخرَى في تفسير هذه الآية: يعني به الشكَّ في الله، وعَمَلَ السيئات. وكذا رُوِي عن مجاهد، والحسن، وغيرهم: أي أنهم كانوا يَثْنُون صُدُورَهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، يظُنُّون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يَستغشُون ثيابهم عند منامِهم في ظُلمة الليل، ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من القول: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: يعلم ما تُكِنُّ صدورُهم من النيات والضمائر والسرائر. وما أحسن ما قال زُهَير بن أبي سُلمى في مُعلَّقته المشهورة:

فَلا تَكْتُمُنَّ اللَّهَ ما في نُفُوسِكم ... لِيَخفَى، فَمَهما يُكتَمِ اللَّهُ يَعْلَمِ

يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ في كتابٍ فَيُدَّخَرْ ... لِيوم حِسابٍ، أو يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهليّ بوجودِ الصانع وعِلمِهِ بالجُزئيات، وبالمعاد وبالجزاء، وبكتابة الأعمال في الصُّحُف ليوم القيامة.

[٣٧٨١] وقال عبد الله بن شَدَّاد: كان أحدهم إذا مَرَّ برسول الله ﷺ ثَنَى صَدْرَه، وغَطَّى رأسه، فأنزل الله ذلك[2]. وعودُ الضمير على الله أولى؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ﴾. وقرأ ابنُ عباس: «ألا إنهم تَثْنَوْني صُدورُهم»، برفع الصدور على الفاعلية، وهو قريب المعنى.

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾

أخبر تعالى أنه مُتكفِّلٌ بأرزاقِ المخلوقات من سائرِ دَوَابِّ الأرض، صغيرها وكبيرها، بَحريِّها وبَرِّيها، وأنه ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ﴾، أي: يعلم أين مُنتهى سيرها في الأرض، وأين تأوِي إليه من وكرها، وهو مُستودَعُها. وقال عَليُّ بن أبي طلحة وغيره، عن ابن عباس: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي: حيث تأوي؛ ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ﴾، حيث تموت. وعن مجاهد: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الرَّحِم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ﴾ في الصلب، كالتي في الأنعام، وكذا رُوِي عن ابن عباس والضحاك وجماعة. وذَكَر ابن أبي حاتم أقوالَ المفسرين ها هنا، كما ذكره عند تلك الآية، فالله أعلم، وأن جميع ذلك مكتوبٌ في كتاب عند الله مُبِينٍ عن جميع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٦٨١ و ٤٦٨٢ و ٤٦٨٣.

(٢) أخرجه الطبري ١٧٩٥٣ و ١٧٩٥٤ وهذا مرسل، فهو ضعيف.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾

يخبرُ تعالى عن قُدرتِهِ على كُلِّ شيءٍ، وأنه خَلَق السمٰواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيامٍ، وأن عَرشَهُ كان على الماءِ قبل ذلك، كما قال الإمام أحمد:

[٣٧٨٢] حَدَّثنا أبو معاويةَ حدثنا الأعمشُ، عن جامع بن شَدَّادٍ، عن صفوانَ بن مُحرزٍ، عن عِمْرانَ بن حُصَين قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اقبلُوا البشرى يا بني تميم». قالوا: قد بَشرتَنا فَأعطِنا. قال: «اقبلوا البُشرَى يا أهلَ اليمن»، قالوا: قد قبلنا فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان الله قبلَ كُلِّ شيءٍ، وكان عرشه على الماء، وكَتَبَ في اللوح المحفوظ ذكر كُلِّ شيء». قال: فأتاني آتٍ فقال: يا عمرانُ، انحلَّت ناقتُك من عقالها. قال: فخرجت في إثرها، فلا أدري ما كان بعدِي. وهذا الحديث مُخَرَّج في صحيحَي البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة؛ فمنها: قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر، فقال: «كان الله ولم يكن شيءٌ قبله» وفي رواية: «غيرُه» وفي رواية: «مَعَه ـ وكان عرشُه على الماء، وكتب في الذكر كُلَّ شيءٍ، ثم خلق السمٰواتِ والأرضَ»[١].

[٣٧٨٣] وفي صَحِيح مسلم، عن عبد الله بن عَمرو بن العاص قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلُقَ السمواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، وكان عرشُه على الماء»[٢].

[٣٧٨٤] وقال البخاريُّ في تفسير هذه الآية: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعَيب، حدثنا أبو الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسولَ الله ﷺ قال: «قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: أَنفِق أُنفِقْ عليك». وقال: «يدُ الله ملأى لا يَغِيضُها نفقة، سَحَّاءُ الليلَ والنهار». وقال: «أفرأيتُم ما أنفقَ منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يَغِض ما في يده، وكان عرشُه على الماءِ، وبيده المِيزانُ يخفِضُ ويرفَعُ»[٣].

[٣٧٨٥] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أخبرنا حَمَّاد بن سَلَمةَ، عن يعلَى بن عطاء، عن وكيع بن عُدُس، عن عَمِّه أبي رَزِين ـ واسمه لَقِيط بن عامر بن المُنتَفِقِ العُقَيلي ـ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أين كان رَبُّنا قبل أن يخلق خلقَه؟ قال: «كان في عَماءٍ، ما تحته هواءٌ وما فوقه هواءٌ، ثم خَلَق العرش بعد ذلك»[٤]. وقد رواه الترمذيُّ في التفسير، وابنُ ماجه في السنة من حديث يزيدَ بن هارونَ، به، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وقال مجاهدٌ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، قبل أن يخلُقَ شيئاً. وكذا قال وهب بن مُنبِّه، وضمرةُ بن حَبيب، وقاله قتادة، وابنُ جرير، وغيرُ واحد. وقال قَتادةُ في قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ يُنَبِّئكُم كيفَ كان بَدْءُ خَلْقِهِ قبل أن يخلُقَ السمٰوات والأرضَ. وقال الربيعُ بن أنسَ:

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٩١ و ٤٣٦٥ و ٤٣٨٦ وأحمد ٤/ ٤٣١ وابن حبان ٦١٤٢.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٥٣ وأحمد ٢/ ١٦٩ وابن حبان ٦١٣٨.

(٣) متفق عليه، وتقدم في أواخر آل عمران.

(٤) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣١٠٩ وأحمد ٤/ ١١ ـ ١٢ وابن ماجه ١٨٢ وابن حبان ٦١٤١ وإسناده ضعيف لجهالة وكيع بن عدس. والمتن غريب.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، فلما خَلَق السمٰوات والأرض قَسَم ذلك الماء قسمين، فجعلَ نِصفاً تحت العرش، وهو البحر المسجورُ.

وقال ابنُ عباس: إنما سُمِّي العرشُ عرشاً لارتفاعه. وقال إسماعيل بن أبي خالد: سَمِعت سَعداً الطائي يقولُ: العرشُ ياقوتةٌ حمراءُ. وقال محمدُ بن إسحاق في قولِهِ تَعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، فكانَ كما وَصَف نفسَه تعالى، إذ ليس إلا الماءُ وعليه العرشُ، وعلى العرشِ ذُو الجلالِ والإكرام، والعزةِ والسلطانِ، والملكِ والقُدرةِ، والحِلْمُ والعِلْم، والرَّحمةِ والنِّعمةِ، الفَعَّال لما يُريدُ. قال الأعمشُ، عن المِنهال بن عَمرو، عن سعيد بن جُبَير قال: سُئِل ابنُ عباسٍ عن قَولِ الله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، على أي شيء كان الماءُ؟ قال: على مَتنِ الرِّيح. وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: خلَقَ السمواتِ والأرضَ لنفع عبادِهِ الذين خَلَقَهم ليعبدُوه وحدَه لا شريكَ له، ولم يخلق ذلك عبثاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، أي: ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولم يقل: أكثرُ عَمَلاً، بل أحسَنُ عملاً، ولا يكون العَمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عزَّ وجلَّ، على شريعةِ رسولِ الله ﷺ فمتى فَقَد العمَلُ واحدةً من هذين الشرطين بَطَل وحَبط.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، يقول تعالى: ولئن أخبرتَ ـ يا محمد ـ هؤلاءِ المشركين أن الله سيبعثُهم بعد مَماتِهم كما بدأهم، مع أنهم يعلَمُون أن الله تعالى هو الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وهم مَعَ هذا يُنكِرُون البعثَ والمَعاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبةِ إلى القدرةِ أهونُ من البداءة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]. وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: يقولونَ كفراً وعناداً: ما نُصَدِّقك على وقوع البعثِ، وما يَذْكُر ذلك إلا مَن سَحَرته، فهو يتبعُك على ما تقولُ. وقولُه: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾. يقول تعالى: ولئن أخَّرنا العذابَ والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور، وأوعدناهم به إلى مدةٍ مضروبة، ليقولن تكذيباً واستعجالاً: ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾، أي يؤخِّر هذا العذابَ عنا؟! فإنَّ سجاياهم قد ألِفَتِ التكذيبَ والشكَّ، فلم يبق لهم محيصٌ عنه ولا محيد. والأمّة تستعملُ في القرآن والسنة في معانٍ متعددةٍ، فيُراد بها الأمد، كقوله في هذه الآية: ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾. وقوله في يوسف: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، وتستعمل في الإمام المقتدى به، كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، وتُستعمَلُ في المِلَّة والدين كقوله إخباراً عن المشركين أنهم قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾، وتستعمل في الجَماعة كقوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ يونس: ٤٧. والمرادُ من الأمة ها هنا الذين يُبعَث فيهم الرسولُ مؤمنهم وكافرهم، كما في صحيح مسلم:

[٣٧٨٦] «والذي نفسي بيده لا يسمَعُ بي أحَدٌ من هذه الأمّة، يَهُوديٌّ ولا نَصرانيٌّ، ثم لا يؤمنُ بي إلا دخل النار»[١].

وأما أمة الأتباع فهم المُصدِّقون للرُسُلِ، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

[٣٧٨٧] وفي الصحيح: «فأقول: أمّتي أمّتي»[٢]. وتُستعملُ الأمةُ في الفِرقة والطّائفة، كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ۝١٥٩﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وكقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصِّفاتِ الذميمةِ، إلا مَن رَحِم الله من عباده المؤمنين، فإنه إذا أصابته شدّةٌ بعد نِعمةٍ، حَصَل له يأسٌ وقنوطٌ من الخير بالنِّسبة إلى المستقبل، وكفرٌ وجحودٌ لماضي الحال، كأنه لم يَرَ خيراً ولم يَرْجُ بعدَ ذلك فرجاً. وهكذا إن أصابته نعمةٌ بعد نِقمَةٍ ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾، أي يقولُ: ما ينالني بعد هذا ضيمٌ ولا سوءٌ، ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾، أي: فَرِحٌ بما في يده، بَطِرٌ فخُورٌ على غيره. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾، أي: في الشَّدائِدِ والمَكارِهِ، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: في الرَّخاءِ والعافية، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾، أي: بما يُصيبهم من الضراء، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث:

[٣٧٨٨] «والذي نفسي بيده لا يُصيب المؤمن هَمٌّ ولا غَمٌّ، ولا نَصَبٌ ولا وَصَبٌ، ولا حُزنٌ حتى الشوكةُ يُشاكُها، إلا كَفَّر الله عنه بها من خَطَاياه»[٣].

[٣٧٨٩] وفي الصَّحيحين: «والذي نفسي بيده لا يَقضِي اللهُ للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته سَرّاءُ فشكَرَ كان خيراً له، وإن أصابته ضَرّاءُ فصبرَ كان خيراً له، وليس ذلك لأحدٍ غيرِ المُؤمِنِ»[٤]. وهكذا قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٥٣ وغيره، وتقدم.

(٢) هو بعض حديث الشفاعة المطول، متفق عليه، وتقدم.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٦٤١ و ٥٦٤٢، ومسلم ٢٥٧٣، وأحمد ٢/ ٣٣٥ و ٣/ ١٨ ـ ١٩ والترمذي ٩٦٦، وابن حبان ٢٩٠٥ والبغوي ١٤٢١، والبيهقي ٣/ ٣٧٣ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري.

(٤) لم أره بهذا التمام: والظاهر أنه منتزع من ثلاثة أحاديث. أما لفظ «والذي نفسي بيده» فلعله سبق قلم من المصنف، أخذه من الحديث المتقدم أو غيره. وأما لفظ «لا يقضي. . . . .له» فقد ورد من حديث أنس، أخرجه أحمد ٣/ ١١٧ ـ ١٨٤ وابن حبان ٧٢٨ وإسناده جيد، وفيه زيادة في أوله «عجبت للمؤمن» وأما باقي الحديث، فقد ورد من حديث صهيب، أخرجه مسلم ٢٩٩٩ وأحمد ٤/ ٣٣٢ وابن حبان ٢٨٩٦ وصدره «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير. . . .». ولم أره بلفظ المصنف بشيء من الكتب فضلاً عن الصحيحين؟!.

بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١ ـ ٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢]. . . الآيات.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقولُ تعالى مُسَلِّياً لرسولِهِ ﷺ عما كان يَتعَنَّتُ به المشركون، فيما كانوا يقولُونه عن الرسول ـ كما أخبر تعالى عنهم في قوله ـ: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان: ٧ ـ ٨]. فأمر الله تعالى رسوله ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ وأرشدَه إلى ألاّ يضيقَ بذلك منهم صدرهُ، ولا يَصُدَّنه ذلك ولا يُثْنِيَنَّه عن دعائهم إلى الله ـ عز وجل ـ آناءَ الليل وأطرافَ النهار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩]، وقال ها هنا: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ﴾، أي: لقولهم ذلك، فإنما أنت نذيرٌ، ولك أسوةٌ بإخوانِكَ من الرسُل قبلك، فإنهم كُذِّبُوا وأوذوا، فَصَبرُوا حتى أتاهم نصرُ الله عز وجل. ثم بَيَّن تعالى إعجازَ القرآن، وأنه لا يستطيعُ البشرُ الإتيان بمثله، ولا بعَشْرِ سُوَرٍ مثلِهِ، ولا بِسُورَةٍ من مثله، لأن كلامَ الربِّ لا يُشبِهُه كلامُ المخلوقين، كما أَنَّ صفاتِهِ لا تُشبه صفاتِ المُحْدَثاتِ. وذاتُه لا يشبهها شيءٌ، تعالى وتقدَّس وتنزَّه، لا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه. ثم قال تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾، أي: فإن لم يأتوا بمعارَضَةِ ما دعوتموهم إليه، فاعلَمُوا أنهم عاجزُونَ عن ذلك، وأن هذا الكلامَ منزَّلٌ من عند الله، متضمِّن عِلمَه وأمرَه ونَهيَه، ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قال العَوفي، عن ابن عَبّاس، في هذه الآية: إن أهل الرِّياءِ يُعطَون بحسناتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً، يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا، صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل، لا يعمله إلا التماس الدنيا، يقول الله تعالى: أوفيهِ الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمله لالتماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين. وهكذا رُوِي عن مجاهدٍ، والضحَّاكِ، وغير واحد. وقال أنسُ بن مالك، والحسنُ: نزلت في اليهود والنصارى. وقال مجاهدٌ وغيره: نَزلت في أهل الرياء. وقال قتادةُ: من كانت الدنيا هَمَّه وَسَدَمَه[١] وطلبَتَه ونِيَّته، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يُفضِي إلى الآخرة وليس له حسنةٌ يُعطى بها جزاء. وأما المؤمن فَيُجازى بحسناته في الدنيا، ويُثاب عليها في الآخرة. وقد وَرَد في الحديثِ المرفُوع

(١) سَدِمَ بالشيء: حرص عليه ولَهِج به.

نحوٌ من هذا. وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

يخبرُ تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فِطْرةِ الله تعالى التي فَطَر عليها عبادَه، من الاعتراف له بأنّه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

[٣٧٩٠] وفي الصحيحَين عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مولودٍ يولَد على الفِطرَةِ، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه، كما تُولَدُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء(١)، هل تُحسّون فيها من جدْعاء»(٢)؟.

[٣٧٩١] وفي صحيح مسلم عن عياض بن حِمار، عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: إني خلقتُ عبادي حُنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهُم عن دينهم، وحَرّمَتْ عليهم ما أَحْلَلتُ لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزله به سلطاناً»(٣).

[٣٧٩٢] وفي المسند والسنن: «كُلُّ مولودٍ يُولَدُ على هذه المِلَّةِ حتى يُعرِبَ عنه لسانُه»(٤)... الحديث، فالمؤمنُ باقٍ على هذه الفِطْرَةِ. وقولُه: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، أي: وجاءه شاهدٌ من الله، وهو ما أوحاهُ إلى الأنبياء من الشرائع المُطَهّرة المُكَمّلة المعظّمةُ المختتمَة بشريعة محمد صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين. ولهذا قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةٌ، وأبو العالية، والضحاكُ، وإبراهيمُ النخَعيُّ، والسُّديُّ، وغيرُ واحدٍ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: إنه جبريل عليه السلام.

وعن عليٍّ، والحسن، وقتادَة: هو محمد ﷺ وكلاهما قريبٌ في المعنى، لأنّ كلاً من جبريلٍ ومُحمّدٍ ـ صلوات اللّهِ عليهما ـ بَلّغَ رسالة الله تعالى، فَجِبريلُ إلى مُحمّدٍ، ومحمدٌ إلى الأمّةِ. وقيل: هو عليٌّ. وهو

---

(١) الجمعاء من البهائم: التي لم يذهب من بدنها شيء.

(٢) صحيح أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٢٤١، والبخاري ١٣٥٨ و ١٣٥٩ ومسلم ٢٦٥٨، وأبو داود ٤٧١٤ والترمذي ٢١٣٨ وأحمد ٢/ ٣٧٥ و ٣٩٣ و ٤١٠ و ٤٨١ والطيالسي ٢٣٥٩ و ٢٤٣٣ والبغوي ٨٤ وابن حبان ١٢٩ و ١٣٠ و ١٣٣، وعبد الرزاق ٢٠٠٨٧ وتمامه: ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾.

(٣) صحيح أخرجه مسلم ٢٨٦٥، وأحمد ٤/ ١٦٢ و ١٦٣ و ٢٦٦، وعبد الرزاق ٢٠٠٨٨، والطبراني في الكبير ١٧/ ٩٨٧ و ٩٩٢ و ٩٩٣ و ٩٩٤ و ٩٩٥ و ٩٩٦ من حديث عياض بن حمار. ومعنى اجتالتهم: أي استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل.

(٤) صحيح أخرجه أحمد ٣/ ٣٤٥ و ٤/ ٢٤، والدارمي ٢/ ٢٢٣، والبيهقي في سننه ٩/ ٧٧ و ٧٨ و ١٣٠، والطبراني في الكبير ٨٢٦ و ٨٢٨ ـ ٨٣٥ وصححه ابن حبان ١٣٢، والحاكم ٢/ ١٢٣ ووافقه الذهبي.

ضَعِيفٌ لا يَثبُت له قائلٌ. والأول والثاني هو الحقُّ، وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة بما يشهَدُ للشريعةِ من حيثُ الجملة، والتفاصيلُ تؤخذ من الشريعة، والفطرةُ تُصدِّقها وتُؤمن بها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، وهو القرآن، بَلّغه جبريلُ إلى النبيِّ ﷺ وبلغه النبي مُحمَّدٌ إلى أمته. ثم قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، أي: ومن قبل القرآن كتاب موسى، وهو التوراة، ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾، أي: أنزله الله تعالى إلى تلك الأمّة إماماً لهم، وقدوةً يقتدونَ بها، ورحمةً من الله بهم. فمن آمن بها حَقَّ الإيمانِ قاده ذلك إلى الإيمانِ بالقرآنِ، ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾. ثم قال تعالى مُتوعِّداً لمن كَذَّب بالقرآن أو بشيءٍ منه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾، أي: ومن كَفَر بالقرآن من سائر أهل الأرضِ مشركيهم، أهل الكتاب وغيرهم، من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم، ممن بَلَغه القرآنُ، كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

[٣٧٩٣] وفي صحيح مسلم، من حديث شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَير، عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بِيَدِهِ لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ أو نصرانيٌّ، ثم لا يؤمن بي، إلا دَخَل النار»(١). وقال أيوبُ السَّختياني، عن سَعيد بن جُبَير قال: كنتُ لا أسمَعُ بحديثٍ عن رَسُولِ الله ﷺ على وَجْهِهِ إلا وجدتُ مِصْدَاقه ـ أو قال: تَصْدِيقه ـ في القرآنِ، فَبَلَغني أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يسمَعُ بي أحدٌ من هذه الأمة، ولا يَهُوديٌ ولا نصرانيٌ، فلا يُؤمِنُ بي إلا دَخَل النار». فَجعلتُ أقول: أين مصداقُه في كتاب الله؟ قال: وقَلَّما سَمِعتُ عن رسول الله ﷺ إلا وجدتُ له تصديقاً في القرآن، حتّى وجدتُ هذه الآية: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾، قال: من المِلَل كُلِّها(٢).

قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية، أي: القرآن حقٌّ من الله، لا مِريَةَ فيه ولا شَكَّ، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [السجدة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢]. وقولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾ [سبأ: ٢٠].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٩ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ۝٢٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٢٢﴾

---

(١) لم يروه مسلم من حديث أبي موسى، وإنما أخرجه ١٥٣ من حديث أبي هريرة. وحديث أبي موسى، أخرجه الطبري ١٨٠٩٣ وإسناده على شرط مسلم.

(٢) حديث صحيح. أخرجه الطبري ١٨٠٨٧ و ١٨٠٨٩ و ١٨٠٩٠ وهو مرسل، لكن المتن صحيح بما قبله.

يُبين تعالى حالَ المُفتَرين عليه وفَضِيحَتهم في الدار الآخرة على رُؤوسِ الخلائقِ من الملائكة والرسل والأنبياء، وسائر البشر والجانّ، كما قال الإمام أحمد:

[٣٧٩٤] حدَّثنا بَهزٌ وعفَّانُ قالا: أخبرنا هَمَّام، حدثنا قتادةُ، عن صفوانَ بنِ مُحرز قال: كنت آخذاً بيد ابن عُمر إذ عَرَض له رجلٌ قال: كيفَ سَمِعت رسولَ الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سَمِعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله ـ عزّ وجل ـ يدني المؤمن فَيَضَعَ عليه كنَفَه، ويستره من الناس، ويُقرّره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذَنْبَ كذا؟ أتعرف ذَنْبَ كذا؟ أتعرف ذَنْبَ كذا؟ حتى إذا قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هَلَك قال: فإني قد سترتُها عليك في الدنيا، ! وإني أغفِرُها لك اليوم. ثم يُعطَى كتابَ حَسَناتِهِ، وأما الكُفّارِ والمنافقون فيقول: ﴿ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[١]. أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحَين، من حديث قتادة به. وقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، أي: يردُون الناسَ عن اتباع الحقّ وسُلُوكِ طريقِ الهدى الموصِّلة إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ ويُجنّبُونَهم الجنةَ، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، أي: ويُريدُون أن يكون طريقُهم عِوَجاً غير معتدلة، ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾، أي: جَاحِدُونَ بها مُكَذّبون بوقُوعها وكَونها. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، أي بل كانوا تَحتَ قهره وغلَبته، وفي قبضته وسُلطانه، وهو قادرٌ على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبلَ الآخرة، ولكن ﴿يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

[٣٧٩٥] وفي الصحيحين: «إنّ الله ليُملي للظالم حتى إذا أخَذَه لم يُفلِته»[٢]. ولهذا قال تعالى: ﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾، أي يضاعفُ عليهم العذاب، وذلك لأنّ الله تعالى جَعَل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعُهم ولا أبصارُهم ولا أفئدتُهم، بل كانوا صُمّاً عن سَماع الحقّ، عُمياً عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دُخولِهم النار كقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨]، ولهذا يُعذّبون على كُلّ أمر تَرَكُوه، وعلى كل نَهْي ارتكبُوه. ولهذا كان أصحُ الأقوال أنهم مُكلّفون بفروع الشرائع أمرِها ونَهيِها بالنسبة إلى الدارِ الآخِرَةِ. وقولُه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾، أي: خَسِرُوا أنفسهم لأنهم أُدخِلُوا ناراً حامية، فهم مُعذّبون فيها لا يُفتّرُ عنهم من عذابها طَرْفَةَ عين، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾، أي: ذَهَب عنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم تُجدِ عنهم شيئاً، بل ضَرّتْهم كُلّ الضَرَر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٤١ و ٤٦٨٥ و ٦٠٧٠ و ٧٥١٤ وفي خلق أفعال العباد ص ٦١، ٦٢ ومسلم ٢٧٦٨ وأحمد ٢/ ٧٤ و ١٠٥، وابن ماجه ١٨٣، وابن حبان ٧٣٥٥ و ٧٣٥٦.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٨٦، ومسلم ٢٥٨٣، والترمذي ٣١١٠، وابن ماجه ٤٠١٨، والطبري ١٨٥٥٩، والبيهقي في السنن ٦/ ٩٤ وفي الأسماء ١/ ٨٢، وابن حبان ٥١٧٥ والبغوي في شرح السنة ٤١٦٢، وفي معالم التنزيل ٢/ ٤٠١ من حديث أبي موسى الأشعري.

نَّصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٦]؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالَّةِ على خسْرهم ودَمارهم، ولهذا قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ يخبرُ تعالى عن حالهم أنهم أخسرُ الناس صفقة في الدار الآخرة، لأنهم استبدلُوا بالدركات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آنٍ، وعن شُرب الرحيق المختوم، بسَمُوم وحَميم، وظِلٍّ من يحموم، وعن الحور العين بطعامٍ من غِسْلين، وعن القُصور العالية بالهاوية، وعن قُرْبِ الرحمن ورؤيته بغَضب الديَّان وعقوبته، فلا جَرَم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

لمَّا ذكر تعالى حال الأشقياء ثَنَّى بذكر السُّعَداء، وهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فآمنت قلوبُهم وعَمِلَت جوارحهُم الأعمالَ الصالحة قولاً وفِعْلاً، من الإتيان بالطاعات وتَرْكِ المنكَرات، وبهذا وَرِثُوا الجَنَّات، المشتملة على الغُرَفِ العاليات، والسُّرِرِ المصفوفات، والقُطوف الدانيات، والفُرُش المرتفعات، والحِسَان الخيِّرات، والفواكِهِ المتنوعات، والمآكل المشتَهيات، والمشارب المُستلَذَّات، والنظر إلى خالِقِ الأرضِ والسمواتِ، وهم في ذلك خالدُونَ، لا يَمُوتون ولا يَهرَمُون ولا يَمرَضُون، ولا ينامُون ولا يتغوَّطون، ولا يبصقون ولا يتمخَّطون، إن هو إلا رَشْحُ مِسك يَعرَقُون. ثم ضرَب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين، فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾، أي: الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين السُّعَداء، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع. فالكافر أعمى عن وَجهِ الحقِّ في الدنيا، وفي الآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفُه، أصمُّ عن سماع الحُجج، فلا يسمَعُ ما يُنتفَعَ به، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وأما المؤمن ففطِنٌ ذكِيٌّ لبيب، بصيرٌ بالحق، يُميِّز بينه وبين الباطل، فيتَّبعُ الخير ويترك الشر، سميع للحجة، يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يَرُوج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا؟! ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون وتُفرِّقون بين هؤلاءِ وهؤلاءِ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٤].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن نوح عليه السلام، وكان أوَّل رسولٍ بَعَثه الله إلى أهلِ الأرض من المشركين عَبَدةِ الأصنام أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: ظاهر النِّذارَة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتُم غير الله، ولهذا قال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، أي: إن استمررتُم على ما أنتم عليه عَذَّبكم الله عذاباً أليماً مُوجِعاً شاقاً في الدار الآخرة. ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ والمَلأُ

هم: السادةُ والكبراءُ من الكافرين منهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، أي: لستَ بمَلَك ولكنَّك بشرٌ، فكيف أُوحِيَ إليك من دُوننا؟ ثم ما نراك اتَّبعَكَ إلا أراذلنا كالباعة والحاكةِ وأشباههم، ولم يتَّبعك الأشرافُ ولا الرؤساءُ منّا، ثم هؤلاء الذين اتَّبعوك لم يكن عن تَرَوٍّ منهم ولا فكرةٍ ولا نظر، بل بمجرَّد ما دعوتهم أجابوك فاتَّبعوك، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾، أي: في أول بادىءِ الرَّأي، ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خَلْق ولا خُلُق، ولا رِزْقٍ ولا حالٍ، لَمّا دخلتم في دينكم هذا، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾، أي: فيما تَدْعونه لكم من البرِّ والصلاحِ والعبادةِ، والسعادةِ في الدارِ الآخرةِ إذا صِرتُم إليها. هذا اعتراضُ الكافرين على نُوح ـ عليه السلام ـ وأتباعه، وذلك دليلٌ على جهلهم وقلَّة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعارٍ على الحقِّ رَذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، وسَوَاءٌ اتبعه الأشراف أو الأراذلُ، بل الحقُّ الذي لا شك فيه أن أتباعَ الحق هم الأشرافُ، ولو كانوا فُقَراءَ، والذين يَأْبَونه هم الأرذالُ، ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالباً أنَّما يَتَّبع الحقَّ ضعفاءُ الناس، والغالبُ على الأشراف والكُبَراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

[٣٧٩٦] ولما سأل هرقلُ ملكُ الروم أبا سفيان صخر بن حَرْبٍ عن صفاتِ النبي ﷺ قال له فيما قال: أشرافُ الناس اتَّبعُوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضُعَفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباعُ الرسل[١].

وقولُهم: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ ليست بمَذَمَّة ولا عَيب، لأنَّ الحقَّ إذا وَضَح لا يبقى للتروِّي ولا للفكرِ مجالٌ، بل لا بدَّ من اتِّباع الحقِّ والحالةُ هذه لكلِّ ذي زَكَاءٍ وذكَاءٍ، ولا يُفكِّر ها هنا إلا غَبِي أو عييّ. والرسُلُ ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ إنَّما جاؤوا بأمرٍ جَليٍّ واضحٍ.

[٣٧٩٧] وقد جاء في الحديثِ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوةٌ، غَيرَ أبي بكر، فإنه لم يَتَلعثم»[٢]، أي: ما تردَّد، ولا تَرَوَّى، لأنه رأى أمراً جَلياً عَظيماً واضحاً، فبادَرَ إليه وسارَعَ. وقولُهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، هُم لا يَرَون ذلك، لأنهم عُمي عن الحقِّ، لا يسمَعُون ولا يُبصِرُون، بل هم في رَيبهم يَتَردَّدُون، وفي ظلماتِ الجهل يَعْمَهُون، وهم الأفاكون الكاذِبُون، الأقلُّون الأرذَلُون، وفي الآخرة هم الأخسَرُون.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عَما رَدَّ به نوح على قومه في ذلك: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾، أي: على يقينٍ وأمرٍ جَليٍّ، ونُبوَّةٍ صادقةٍ، وهي الرحمةُ العظيمةُ من الله به وبهم، ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾، أي: خَفيت عليكم فلم تهتدُوا إليها، ولاَ عَرَفتُم قدرها، بل بادَرْتُم إلى تكذيبها وردِّها، ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾، أي: نُغصِبكم بقبولها وأنتم لها كارهون.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧ و ٥١ ومسلم ١٧٧٣ وتقدم مراراً.

(٢) لم أره بهذا اللفظ مسنداً، وورد بمعناه من حديث ابن عمر في أثناء حديث وفيه «لا تؤذوني في صاحبي، فإن الله عز وجل ـ بعثني بالهدى ودين الحق، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدقت. . .». أخرجه الطبراني ١٣٣٨٣ وقال الهيثمي ٩/ ١٤٣٢٠: رجاله رجال الصحيح.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقولُ لقومه: لا أسألكم على نُصحي لكم مالاً أجرةً آخذُها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، كأنهم طلبُوا منه أن يطرد المؤمنين عنه، احتشاماً ونفاسةً منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالُهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرُد جماعةً من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصّاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣]. . . الآيات.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

يخبرُهم أنه رسولٌ من الله، يدعُو إلى الله وحدَه لا شريكَ له، بإذن الله له في ذلك، ولا يسألُهم على ذلك أجراً، بل هو يدعُو من لقيه من شَريفٍ ووضيع، فمن استجابَ له فقد نجا. ويخبرُهم أنه لا يَقدِر على التصرُّفِ في خزائن الله، ولا يعلَمُ من الغيب إلا ما أطلَعه الله عليه، وليس هو بملَك من الملائكة، بل بشرٌ مرسَلٌ، مُؤيَّدٌ بالمعجزات. ولا أقولُ عن هؤلاء الذين تَحتقِرونهم وتَزدَرُونَهم: إنه ليس لهم عند الله ثوابٌ على إيمانهم. الله أعلَمُ بما في أنفسهم، فإن كانوا مؤمنين باطناً كما هو الظاهرُ من حالِهم، فلَهُم جزاءُ الحُسنَى، ولو قَطَع لهم أحدٌ بِشَرٍّ بعد ما آمنوا لكان ظَالماً قائِلاً ما لا عِلْمَ لَهُ به.

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن استعجالِ قَومِ نُوح نقمةَ الله وعذابَه وسَخطَه، والبلاءُ موكَّلٌ بالمنطق: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾، أي: حاججْتَنَا فأكثرتَ من ذلك، ونحن لا نَتَّبِعُك، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، أي: من النقمة والعَذَاب، ادعُ علينا بما شئتَ، فلْيأتِنا ما تدعُو به ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾، أي: إنما الذي يُعاقبكم ويُعجِّلُها لكم الله الذي لا يَعجِزُه شيء، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾، أي: أيُّ شيءٍ يُجدِي عليكم إبلاغِي لكم وإنذاري إياكم ونُصحِي، إن كان الله يُريدُ إغواءَكم ودمارَكم، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: هو مالك أزِمَّةِ الأمور، والمتصرِّفُ الحاكمُ العادل الذي لا يجورُ، له الخلقُ وله الأمرُ، وهو المبدئُ المعيدُ، مالكُ الدنيا والآخرةِ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

هذا كلامٌ معترِضٌ في وسَطِ هذه القصة، مُؤكِّد لها ومقرِّر بشأنها. يقول تعالى لمحمد ﷺ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا وافتعلَهُ من عنده. ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾، أي: فإثم ذلك

عَلَيّ، ﴿وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾، أي: ليس ذلك مُفتَعَلاً ولا مُفترىً، لأنّي أعلمُ ما عند الله من العقوبةِ لمن كَذّب عليه.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

يخبرُ تعالى أنه أُوحِيَ إلى نُوح لما استعجَلَ قومُه نقمةَ الله بهم وعذابَه لهم، فدعا عليهم نوحٌ دعوتَه التي قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠]، فعند ذلك أوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾، فلا تحزَن عليهم ولا يَهمنّك أمرُهم. ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾، يعني السفينةَ ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾، أي: بمرأىً منا، ﴿وَوَحۡيِنَا﴾، أي: وتعليمنا لكَ ماذا تصنَعُه، ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾. فقال بعض السلف: أمره الله تعالى أن يَغرِزَ الخشب ويقطّعه ويُيَبِّسه، فكان ذلك في مئةِ سنةٍ، ونَجَّرها في مئة سنة أخرى، وقيل: في أربعين سنة، فالله أعلم. وذكر محمد بن إسحاق، عن التوراة: أن الله أمره أن يصنعها من خَشَب الساج، وأن يجعل طولَها ثمانين ذراعاً وعرضَها خمسين ذراعاً. وأن يطلي باطنها وظاهرها بالقار، وأن يجعَلَ لها جُؤجُؤاً أزوَرَ يشقُّ الماء. وقال قتادة: كان طولها ثلاثمئة ذراع في عرض خمسين. وعن الحسن: طولها ستمئة ذراع وعرضها ثلاثمئة ذراع. وعنه مع ابن عباس: طولها ألف ومئتا ذراع، في عرض ستمئة. وقيل: طولها ألفا ذراع، وعرضها مئة ذراع، فالله أعلم. قالوا كلهُم: وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً، ثلاثَ طبقاتٍ، كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدوابِّ والوحوشِ، والوُسطَى للإنس، والعُليا للطُيُورِ. وكان بابُها في عرضها، ولها غطاء من فوقها مُطبِقٍ عليها.

وقد ذكر الإمامُ أبو جعفر بن جَرير أثراً غريباً، من حديث علي بن زيد بن جُدعان، عن يوسف بن مِهران، عن عبد الله بن عباس أنه قال: قال الحواريُّون لعيسىٰ ابن مريَمَ: لو بعثتَ لنا رجلاً شَهِد السفينة فَحَدَّثنا عنها. قال: فانطلَقَ بهم حتّى أتى إلى كثيب من تُراب، فأخذ كفّاً من ذلك التراب بكفّه، قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلمُ، قال: هذا كعبُ حامِ بن نُوح. قال: وضَرَب الكثيبَ بعصاه، قال: قُم بإذن الله. فإذا هو قائم ينفُض التراب عن رأسه، قد شاب. قال له عيسى ـ عليه السلام ـ: هكذا هلكتَ؟ قال: لا. ولكن مُتُّ وأنا شابٌ ولكنّني ظننتُ أنها الساعةُ، فمن ثَمّ شِبتُ. قال: حَدِّثنا عن سفينة نُوح؟ قال: كان طولُها ألفَ ذراع ومئتي ذراع، وعرضُها ستمئةِ ذراع، وكانت ثلاثَ طبقات، فطبقة فيها الدوابُّ والوحش، وطبقةٌ فيها الإنسُ، وطبقة فيها الطيرُ، فلما كثر أرواث الدوابِّ، أوحى الله ـ عزَّ وجلَ ـ إلى نوح ـ عليه السلامُ ـ أن أغمِز ذَنَبِ الفيل، فَغمزه، فوقع منه خنزيرٌ وخنزيرةٌ، فأقبلا على الرَّوثِ، فلما وقع الفار بخَرَزِ السفينة يقرضه وحبالِها، أوحى الله إلى نوح، أن اضرب بين عيني الأسد، فخرج من منخره سنَّور وسنُّورةٌ، فأقبلا على الفار. فقال له عيسى ـ عليه السلام ـ: كيف عَلِم نوحٌ أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر، فوجد جيفةً فوقع عليها، فدعا عليه بالخوف، فلذلك لا يألف البيوت. قال: ثم بعث الحمامة، فجاءت بورق زيتون بمنقارها، وطين برجليها، فعلم أن البلاد قد غَرِقت. قال: فطوَّقَها الخضرة التي في

عنقها، ودعا لها أن تكون في أنس وأمانٍ، فمن ثم تألف البيوتَ. قال: فقلنا: يا رسولَ الله. ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلسَ معنا ويحدثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رِزقَ له؟ قال: فقال له: عد بإذن الله. فعاد تُرَاباً[(١)].

وقولُه: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾، أي يهزؤون به ويُكذِّبون بما يتوعَّدُهم به من الغرق، ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وعيدٌ شديدٌ، وتهديدٌ أكيد، ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، أي: يُهينُه في الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، أي: دائمٌ مستمرٌ أبداً.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾

هذه مُواعَدَةٌ من الله تعالى لِنُوحٍ ـ عليه السلام ـ إذا جاء أمرُ الله من الأمطار المُتَتابِعَةِ، والهَتَّان الذي لا يُقلع ولا يَفتر، بل هو كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١١ ـ ١٤]. وأما قولُه: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾، فعن ابن عباس: التنُّور: وجه الأرض. أي: صارت الأرضُ عيوناً تفورُ، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكانُ النار، صارت تفورُ ماءً. وهذا قولُ جمهور السَّلَفِ وعلماءِ الخَلَفِ. وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: «التنورُ: فَلَقُ الصُّبحِ وتنوير الفَجرِ»، وهو ضياؤهُ وإشراقه؛ والأول أظهر. وقال مجاهدٌ والشعبيُّ: كان هذا التنورُ بالكُوفَةِ. وعن ابن عباسٍ: عينٌ بالهندِ. وعن قتادةَ: عينٌ بالجَزِيرة، يقال لها: عينُ الوَرْدَةِ. وهذه أقوالٌ غريبةٌ. فحينئذٍ أمرَ الله نوحاً ـ عليه السلام ـ أن يحمل معه في السفينة من كلِّ زوجين ـ من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات ـ اثنين، ذكراً وأنثى، فقيل: كان أولُ من أدخل من الطيور الدُّرَّة وآخر من أدخل من الحيوانات الحِمَارَ، فدخل إبليس متعلقاً بذنبه، فدخل بيده، وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بِذَنبه، فجعل يقول له نوح: مالك؟ ويحكَ! ادخُل. فينهَض ولا يقدِرُ، فقال: ادخُل وإن كان إبليسُ معك. فدخلا في السفينة. وذكر أبو عُبَيدة بن عبد الله بن مسعود أنهم لم يستطيعوا أن يحمِلُوا معهم الأسد، حتى ألقيت عليه الحُمَّى.

[٣٧٩٨] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث، حدثني الليث، حدثني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لما حَمَل نوحٌ في السفينة، من كلِّ زوجين اثنين، قال أصحابه: وكيف يطمَئِن أو: تطمئن ـ المواشي ومعها الأسدُ؟ فَسَلَّط الله عليه الحُمَّى، فكانت أول حُمَّى نزلت في الأرض، ثم شكوا الفارةَ فقالوا: الفُوَيسقة تُفسِدُ علينا طعامَنا ومتاعَنا فأوحى الله إلى الأسد، فعَطِسَ، فخرجت الهِرَّة منه، فتَخَبَّأت الفارةُ منها»[(٢)].

---

(١) لا تصح نسبته لابن عباس، أخرجه الطبري ١٨١٥١ و ١٨١٥٢ وفيه علي بن زيد ضعيف، روى مناكير كثيرة، وهذا الأثر من الإسرائيليات المنكرة.

(٢) لا أصل له في المرفوع. له ثلاث علل:

الأولى: عبد الله بن صالح، روى مناكير كثيرة، بسبب جار له، كان يدس في كتبه، لذا ضعفه الجمهور.

الثانية: هشام بن سعد هو أبو عباد المدني. قال أحمد: لم يكن بالحافظ، وضعفه النسائي وابن عدي وغيرهما.

الثالثة: هو مرسل، أسلم والد زيد تابعي، والأشبه أنه من الإسرائيليات، فقد أخرجه الطبري ١٨١٥٤ عن يوسف بن مهران، وهو تابعي فذكره، وكرره ١٨١٥٥ و ١٨١٨٦ عن ابن عباس، ومداره على علي بن زيد وهو واهٍ.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي: واحمل فيها أهلك، وهم أهل بيته وقرابته، إلا من سبق عليه القول منهم ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه يام الذي انعزل وحده، وامرأة نوح، وكانت كافرة بالله ورسوله. وقولُه: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾، أي: من قومك، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أي نَزْرٌ يَسِيرٌ مع طول المدّة والمُقام بين أظهرهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً، فعن ابن عباس: كانوا ثمانينَ نفساً منهم نساؤهم، وعن كَعْب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفساً. وقيل: كانوا عشرة. وقيل: إنما كانوا نوحٌ وبنُوه الثلاثة سامٌ وحامٌ ويافثُ، وكَنَائِنُه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام. وقيل: بل امرأة نُوح كانت معهم في السفينة، وهذا فيه نَظَر، بل الظاهرُ أنّها هلكت، لأنها كانت على دين قومها، فأصابها ما أصابهم، كما أصاب امرأةَ لوطٍ ما أصاب قومَها، والله أعلمُ وأحكمُ.

﴿۞ وَقَالَ ارْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

يقولُ تعالى إخباراً عن نوح ـ عليه السلام ـ أنه قال للذين أُمِرَ بحملهم مَعَه في السفينة: ﴿ارْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾، أي: باسم الله يكون جَرْيُها على وجهِ الماء، وباسم الله يكونُ مُنتهَى سيرها، وهو رُسُوُّها. وقرأ أبو رَجَاء العَطارِدِيُّ: «بسم الله مجريها ومرسيها». وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: ٢٨ ـ ٢٩]. ولهذا تُستَحَبُّ التسميةُ في ابتداء الأمور، عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤]، وجاءت السنةُ بالحثّ على ذلك، والندبِ إليه، كما سيأتي في سُورة الزُّخرف، إن شاء الله، وبه الثقةُ.

[٣٧٩٩] وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا إبراهيم بن هاشم البغويُّ، حدثنا محمد بن أبي بكر المُقَدَّمي ـ وحدثنا زكريًّا بن يحيى الساجيُّ، حدثنا محمد بن موسى الحَرَشي ـ قالا: حدثنا عبد الحميد بن الحسن الهلاليُّ، عن نَهشَل بن سعيدٍ، عن الضحاك، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أمان أمتي منَ الغرَق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا: بسم الله الملك، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَالسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)]».

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، مناسبٌ عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكرُ أنه

---

(١) واهٍ بمرة، أخرجه الطبراني ١٢٦٦١ والأوسط كما في «المجمع» ١٧١٠٢ بهذا الإسناد. قال الهيثمي: فيه نهشل بن سعي متروك أهـ وكذبه إسحق بن راهويه، وله علة ثانية: الضحاك لم يلقَ ابن عباس. وله شاهد أخرجه أبو يعلى ٦٧٨١ وابن السني في «اليوم والليلة».. من حديث الحسين بن علي، وأعله الهيثمي بجبارة ابن مغلس، وأنه ضعيف، وله علة ثانية: يحيى بن العلاء البَجَلي متروك وكذبه أحمد. وعلة ثالثة: فيه مروان ابن سالم متروك، وعلة رابعة: فيه طلحة بن عبيد الله العقيلي متروك أيضاً.

غفورٌ رحيمٌ، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات التي يقرِنُ فيها بين انتقامه ورحمته. وقولُه: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾، أي: السفينةُ سائرةٌ بهم على وجه الماء، الذي قد طبَّقَ جميع الأرض، حتى طَفَت على رؤوس الجِبال، وارتفَع عليها بخمسة عشر ذراعاً، وقيل: بثمانينَ ميلاً، وهذه السفينةُ على وجه الماء سائرةٌ بإذن الله وتحت كنَفه وعنايته، وحِراسَتِهِ وامتنانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١ ـ ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٣ ـ ١٥]. وقولُه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، هذا هو الابنُ الرابعُ، واسمه يامٌ، وكان كافراً، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يُؤمِنَ ويركَبَ معهم ولا يغرَق مثل ما يغرَق الكافرون، ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، وقيل: إنه اتخذ له مركباً من زجاج، وهذا من الإسرائيليات، والله أعلمُ بصحته. والذي نَصَّ عليه القرآن أنه قال: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، اعتقَدَ بجهله أنَّ الطوفان لا يبلغُ إلى رُؤوس الجبال، وأنه لو تَعلَّق في رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾، أي: ليس شيءٌ يَعصِمُ اليوم من أمر الله. وقيل: إن عاصماً بمعنى معصوم، كما يقال: طاعمٌ وكاسٍ، بمعنى مطعومٍ ومَكسُوّ، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾

يخبُر تعالى أنه لما أغرق أهلَ الأرض كلهم إلاَّ أصحابَ السفينة أمر الأرضَ أن تَبلعَ ماءَها الذي نَبَع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تُقلِعَ عن المطر، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾، أي: شرَعَ في النقص، ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: فُرِغَ من أهل الأرض قاطبة، ممن كفر بالله، لم يبقَ منهم دَيَّارٌ، ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ السفينةُ بمن فيها ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾، قال مجاهد: هو جَبَلٌ بالجزيرة، تشامخت الجبالُ يومئذٍ من الغَرَق وتطاولت، وتواضعَ هو لله عز وجل فلم يَغرَق، وأرست عليه سفينةُ نوح عليه السلام. وقال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلُوا منها. قال قتادة: قد أبقى الله سفينةَ نوح ـ عليه السلام ـ على الجُوديّ من أرض الجزيرة عِبْرَةً وآية حتى رآها أوائلُ هذه الأمةِ، وكم من سفينةٍ قد كانت بعدَها فهلكت، وصارت رَماداً.

وقال الضحاك: الجُوديّ: جبلٌ بالموصِلِ. وقال بعضهم: هو الطورُ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَمرو بن رافع، حدثنا محمد بن عُبَيد، عن توبة بن سالم قال: رأيت زِرّ بن حُبَيش يصلّي في الزاوية حين يُدخل من أبواب كِندَةَ، على يمينك، فسألته: إنك لكثيرُ الصلاة ها هنا يومَ الجمعة. قال: بلغني أن سفينة نوح أرْسَتْ من ها هنا. وقال علباءُ بن أحمَرَ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان مع نوح في السفينة ثمانُونَ رجلاً، معهم أهلوهم، وإنهم كانوا في السفينة مئةً وخمسين يوماً، وإن الله وَجهَ السفينة إلى مَكّة فدارت بالبيت أربعين يوماً، ثم وجهها الله إلى الجُوديّ فاستقرت عليه، فبعث نُوحٌ الغرابَ ليأتيَه بخبر الأرض، فذهب فوقع على الجِيَفِ، فأبطأ عليه، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون، ولطخت رجليها بالطين، فعرف نوح عليه السلام أن الماء قد نَضَب، فهبط إلى أسفل الجُوديّ، فابتنى قريةً وسماها ثمانين، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتُهم على ثمانينَ لغةً، إحداها اللسانُ العربي. فكان بعضُهم لا يفقه كلام بعض،

وكان نوح عليه السلام يُعبّر عنهم. وقال كعب الأحبار: إن السفينةَ طافت ما بين المشرِق والمغرِب قبل أن تستقرَّ على الجُودِيّ. وقال قتادةُ وغيرُه: رَكِبُوا في عاشر شهر رجب فساروا مئةً وخمسينَ يوماً، واستقرَّت بهم على الجُوديِّ شهراً، وكان خروجُهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم. وقد وَرَد نحوُ هذا في حديثٍ مرفوعٍ رواهُ ابنُ جَرِير. وأنهم صاموا يومهم ذاك[١]، فالله أعلم.

[٣٨٠٠] وقال الإمامُ أحمد: حدثنا أبو جعفر، حدثنا عبد الصمد بن حَبِيب الأزديُّ، عن أبيه حَبِيب بن عبد الله، عن شُبَيل، عن أبي هُريرة قال: مَرَّ النبيُّ ﷺ بأناس من اليهود، وقد صامُوا يومَ عاشوراء، فقال: «ما هذا من الصوم؟» قالوا: هذا اليوم الذي نجى الله موسَى وبني إسرائيل من الغرق، وغَرق فيه فرعونُ، وهذا يوم استوت فيه السفينةُ على الجُودِيّ، فصامه نوح وموسى ـ عليهما السلام ـ شكراً لله عز وجل. فقال النبيُّ ﷺ: «أنا أحقُّ بموسى، وأحقُّ بصوم هذا اليوم». فصام، وقال لأصحابه: «من كان أصبحَ منكم صائماً فَلْيُتِمّ صومَه، ومن كان أصابَ من غَداءِ أهلَه فَلْيُتِمّ بقيَةَ يومه»[٢]. وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، وَلِبَعضِه شاهدٌ في الصَّحيح. وقولُه: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: هلاكاً وخَسَاراً لهم، وبُعداً من رحمةِ الله، فإنهم قد هَلَكُوا عن آخرهم، فلم يبقَ لهم بقيةٌ.

[٣٨٠١] وقد روى الإمامُ أبو جعفر بن جرير والحبر أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما، من حديث موسى بن يعقوب الزَّمعِيُّ، عن فائد مولى عُبَيد الله بن أبي رافع، أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي رَبيعة أخبره: أن عائشَة زوجَ النبي ﷺ أخبرته: أن النبي ﷺ «قال: لو رَحِم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي»، قال رسول الله ﷺ: «كان نوح ـ عليه السلام ـ مكثَ في قومِه ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً، يعني وغرس مئةَ سنة الشجر، فَعَظُمت وذَهَبت كُلَّ مذهبٍ، ثم قَطَعها، ثم جَعَلَها سفينة. ويمرُّون عليه ويسخَرُون منه ويقولون: تعملُ سفينة في البَرّ، فكيف تجري؟ قال: سوف تعلمون. فلما فَرَغ ونَبَع الماءُ، وصار في السكك خَشِيت أم الصبي عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماءُ ارتفعت حتى بَلَغت ثُلُثَيه، فلما بَلَغها الماءُ خَرَجت به حتى استوت على الجَبَل، فلما بلغ رقبتها رَفعته بيديها فَغَرِقا، فلو رَحِمَ الله منهم أحداً لَرَحِمَ أمَّ الصبيِّ»[٣]. وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، وقد رُوِي عن كعب الأحبار، ومجاهد بن جَبْر قصةُ هذا الصبي وأمِّه. بنحو من هذا.

---

(١) أخرجه الطبري ١٨٢٠٢ عن عبد العزيز بن عبد الغفور عن أبيه مرفوعاً، وهذا مرسل عبد الغفور تابعي ومع إرساله فيه عثمان بن مطر، قال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن حبان: كان ممن يروي الموضوعات عن الأثبات، راجع الميزان ٥٥٦٤ وهذا خبر منكر جداً والأشبه أنه متلقىً عن أهل الكتاب، ولا أصل له في المرفوع.

(٢) ضعيف، أخرجه أحمد ٢/٣٥٩ ـ ٣٦٠ من حديث أبي هريرة، قال الهيثمي في «المجمع» ٥١٠٥: فيه حبيب ابن عبد الله الأزدي لم يروِ عنه غير ابنه أهـ، وقال عنه الذهبي في الميزان: مجهول، وعنه ابنه عبد الصمد، قال البخاري وأحمد: ليّن الحديث، وقال يحيىٰ: ليس به بأس أهـ فالخبر واهٍ لجهالة حبيب الأزدي، وصدره، أي ذكر نجاة موسى في الصحيح، وتقدم.

(٣) ضعيف جداً، أخرجه الطبري ١٨١٤٨ من حديث عائشة، وإسناده ضعيف، له علتان: إبراهيم بن عبد الرحمن ابن أبي ربيعة، وثقه ابن حبان، وقال ابن القطان: لا يعرف حاله. وفي الإسناد موسىٰ بن يعقوب، وثقه ابن معين، ولينه النسائي، وقال علي المديني: ضعيف منكر الحديث وصححه الحاكم ٢/٣٤٢ وقال الذهبي: إسناده مظلم. ولعل الأشبه كونه عن كعب الأحبار، والله أعلم.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾

هذا سؤالُ استعلام وكَشْفٍ من نوح عليه السلام، عن حال وَلَدِهِ الذي غَرِق، قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾، أي: وقد وعدتني بنجاةِ أهلي، ووعدُك الحقُّ لا يُخلَفُ، فكيف غَرِق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ﴾، أي: الذين وعدت إنجاءهم، لأني إنما وعدتُكَ بنجاة مَن آمن من أهلك. ولهذا قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۚ﴾، فكان هذا الولد ممن سبَقَ عليه القولُ بالغَرَق لِكُفره ومخالفته أَباه نبيَّ الله نوحاً عليه السلام. وقد نَصَّ غيرُ واحدٍ من الأئمة على تخطئة من ذَهَب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زِنْية، ويُحكَى القولُ بأنه ليس بابنه، وإنما كان ابنَ امرأته عن مجاهد، والحسن، وعُبَيد بن عُمَير، وأبي جعفر الباقر، وابن جُرَيج. واحتجَّ بعضهم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾، وبقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، فممن قاله الحسن البصري، احتج بهاتين الآيتين. وبعضُهم يقول: كان ابن امرأته. وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن، أو أراد أنه نُسِب إليه مجازاً، لكونه كان ربيباً عنده، فالله أعلم. وقال ابنُ عباس، وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نَبيٍّ قط ـ قال: وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ﴾، أي: الذين وعدتُك نَجاتَهم. وقولُ ابن عباس في هذا هو الحقُّ الذي لا مَحيدَ عنه، فإنَّ الله سبحانه أغيرُ من أن يمكن امرأة نَبيٍّ من الفاحشة، ولهذا غضب الله على الذين رَمَوا أُمَّ المؤمنين عائشة بنتَ الصِّدّيق زوجَ النبي ﷺ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلَّموا بهذا وأشاعوه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾، إلى قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور: ١١ ـ ١٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادةَ وغيره، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: هو ابنهُ غير أنه خالفه في العمل والنية، قال عكرمة: في بعض الحروف: «إنه عمل عملاً غيرَ صالح»، والخيانة تكون على غير باب. وقد ورد في الحديث أن رسولَ الله قرأ بذلك، فقال الإمام أحمد:

[٣٨٠٢] حدثنا يزيدُ بن هارون، حدثنا حَمّاد بن سلمة، عن ثابت، عن شَهر بن حَوْشَب، عن أسماءَ بنتِ يزيدَ قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ: «إنه عَمِلَ غيرَ صالح»، وسمعتُه يقول: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً، ولا يبالي، إنه هو الغفور الرحيم»[(١)].

[٣٨٠٣] وقال أحمد أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا هارون النحويُّ، عن ثابت البُنانيِّ، عن شهر بن حَوشَب، عن أم سلمة أن رسول الله قرأها «إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صالحِ»[(٢)]. أعاده أحمد أيضاً في مسنده. أم سلمة

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٤٥٩ و إسناده ضعيف، شهر بن حوشب لا يحتج بما ينفرد به. وسيأتي تخريجه في الزمر، عند الآية ٥٣.
(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٢٩٤ و ٣٢٢، وإسناده كسابقه، وقد وهم أحد الرواة حيث ذكر أم سلمة بدل أسماء.

هي أم المؤمنين، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنها أسماءُ بنت يزيدَ[1]، فإنها تكنى بذلك أيضاً. وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا الثوري وابن عُيينة، عن موسى بن أبي عائشةَ، عن سليمان بن قَتَّةَ قال: سمعت ابن عباس سُئِل وهو إلى جَنْب الكعبة، عن قول الله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، قال: أما وإنه لم يَكُن بالزنا، ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنونٌ، وكانت هذه تدلُّ على الأضياف. ثم قرأ: «إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صالِحٍ»، قال ابن عيينة: وأخبرني عمار الدُّهْني أنه سأل سعيد بن جُبَير عن ذلك فقال: كان ابنَ نوح، إن الله لا يَكْذب! وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾، قال: وقال بعض العلماء: ما فَجَرت امرأةُ نبيٍّ قط. وكذا رُوي عن مجاهد أيضاً، وعكرمةَ، والضحاكِ، وميمونِ بن مهران، وثابت بن الحَجّاج، وهو اختيارُ أبي جعفر بن جرير، وهو الصوابُ الذي لا شك فيه.

﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾

يخبرُ تعالى عما قيل لنوح ـ عليه السلام ـ حين أرستِ السفينةُ على الجُوديِّ، من السلام عليه، وعلى مَن معه من المؤمنين، وعلى كلِّ مؤمنٍ من ذُرِّيته إلى يوم القيامة، كما قال محمد بن كعب: دَخَل في هذا السلام كلُّ مؤمنٍ ومُؤمنةٍ إلى يوم القيامة، وكذلك في العذابِ والمتاع كلُّ كافر وكافرةٍ إلى يوم القيامة. وقال محمد بن إسحاق: ولما أرادَ أن يكفَّ الطوفان أرسلَ ريحاً على وجه الأرضِ، فَسَكن الماءُ، وانسدَّت ينابيعُ الأرضِ الغمر الأكبر وأبواب السماء، يقول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾. . . الآية، فجعل الماءُ ينقُص ويَغيض ويُدْبرُ، وكان استواءُ الفُلْكِ على الجُوديِّ، فيما يزعمُ أهل التوراة، في الشهر السابع لسبعَ عشرةَ ليلة مَضَت منه، وفي أوَّلِ يوم من الشهر العاشر رُئي رؤُوس الجبال. فلما مضى بعد ذلك أربعُون يوماً، فتح نوح كُوّة الفُلْك التي رَكِب فيها، ثم أرسل الغُرابَ لينظر له ما صنع الماءُ، فلم يرجع إليه، فأرسل الحمامةَ فرجعت إليه، لم تجد لرجليها موضعاً، فَبَسط يده للحمامة فأخذها فأدخَلَها. ثم مضى سبعةُ أيام، ثم أرسلها لتنظر له، فرجَعَت حين أمست، وفي فيها وَرَقُ زيتونٍ، فَعَلِم نوح أن الماء قد قَلَّ عن وجه الأرض. ثم مكث سبعةَ أيام ثم أرسلها، فلم ترجِع، فعلم نوحٌ أن الأرض قد بَرَزَت. فلما كَمُلت السنةُ فيما بين أن أرسل الله الطوفانَ إلى أن أرسلَ نُوحٌ الحَمامَةَ، ودخلَ يومٌ واحدٌ من الشهر الأول من سنة اثنتين، بَرَزَ وجهُ الأرضِ وظَهَرَ اليَبَس، وكشف نوح غطاءَ الفلك ورأى وجهَ الأرضِ، وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين، في سبع وعشرين ليلة منه ﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا﴾. . . الآية.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

يقولُ تعالى لنبيِّه ﷺ: هذه القصةُ وأشباهُها ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾، يعني من أخبارِ الغُيوبِ السالفة نُوحيها إليك على وجهها، كأنك شاهدها، ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾، أي: نُعلِمُكَ بها وحياً منّا إليك، ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا﴾، أي: لم يكُن عندك ولا عند أحدٍ من قومِك علمٌ بها، حتى يقولَ من يُكذِّبك: إنك تعلمتَها منه، بل أخبرك الله بها مطابقةً لما كان الأمر عليها الأمر الصحيح، كما تشهد به كتبُ الأنبياء قبلك،

---

(١) وبه جزم عبد بن حميد أحد الرواة.

فاصبر على تكذيب من كَذَّبك من قومك، وأذاهم لك، فإنا سننصُركَ ونحوطُكَ بعنايتنا، ونجعل العاقبةَ لك ولأتباعِكَ في الدُّنيا والآخرةِ، كما فعَلنا بالمرسَلين حيث نصرناهُم على أعدائهم، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٥١]. . . الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٢]. . . الآية، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

يقولُ تعالى: ولقد أرسلنا إلى ﴿عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ آمراً لهم بعبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماءَ الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريدُ منهم أجرَة على هذا النُّصح والبلاغِ من الله، إنما يبغي ثوابه من الله الذي فَطره ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من يدعوكم إلى ما يُصلِحُكم في الدنيا والآخرةِ من غير أجرة، ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفيرُ الذنوب السالفة، وبالتَّوبة عما يَستقبلُون، ومن اتَّصَف بهذه الصِّفَةِ يَسَّرَ الله عليه رِزقَه، وسَهَّل عليه أمرَه، وحَفِظ شأنه، ولهذا قال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١١].

[٣٨٠٤] وفي الحديث: «من لَزِم الاستغفار جَعَلَ الله له مِن كُلِّ هَمّ فرجاً، ومن كلِّ ضِيقٍ مخرجاً، ورزَقه من حيثُ لا يحتسبُ»[(١)].

﴿قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوٓا أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾

يخبرُ تعالى أنَّهم قالوا لنبيِّهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ ، أي: بحجَّة وبُرهانٍ على ما تَدَّعيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أي: بمجرَّد قولِكَ: اتركوهم، نتركُهم، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ، بمصدِّقين، ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ ، يقولون: ما نَظُنُّ إلا أن بعضَ الآلهةِ أصابَكَ بجنُونٍ وخَبَلٍ في عقلِكَ بسبب نَهيِكَ عن عبادتها وعَيْبِكَ لها، ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوٓا أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ﴾ ، يقول: إني بريءٌ من جميعِ الأندادِ والأصنام، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ ، أي: أنتم وآلهتكم إن كانَت حقاً، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ، أي: طرفَةَ عَين. وقولُه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ ، أي: تحت قَهرِه وسُلطانِه، وهو الحاكمُ العادلُ الذي لا يجورُ في حكمه، فإنَّه على صراطٍ مستقيم. قال الوليدُ بن مسلم، عن صفوانَ بن

(١) ضعيف. أخرجه أحمد رقم ٢٢٣٤، وأبو داود ١٥٠٤، والنسائي في عمل اليوم والليلة ٤٥٦، وابن السني ٣٥٨، وابن نصر في قيام الليل ص ٦٥، والطبراني في الكبير ١٠٦٦٥ والحاكم ٤/ ٢٦٢ وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: الحكم فيه جهالة، وقال الحافظ في «التقريب»: مجهول.

عَمْرٍو، عن أيفعَ بن عبد الكَلاَعِيّ أنه قال في قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، قال: فَيأخذُ بِنَواصِي عِبادِهِ، فَيلْقى المؤمن حتّى يكونَ له أشفَق من الوالد لولده، ويقال للكافر: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]. وقد تضمَّن هذا المقام حجةً بالغة، ودلالةً قاطعةً على صدق ما جاءهم به، وبُطلان ما هُم عليه من عبادَةِ الأصنام التي لا تنفعُ ولا تضرُّ، بل هي جَمادٌ لا تسمَعُ ولا تُبصِرُ، ولا تُوالي ولا تُعادِي، وإنما يستحقُّ إخلاصَ العبادَةِ الله وحدَه لا شريكَ له، الذي بيده الملكُ، وله التَّصرُّفُ، وما من شيءٍ إلا تحتَ مُلكِهِ وقَهرِهِ وسُلطانِهِ، فلا إله إلا هُو، ولا ربَّ سواه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

يقولُ لهم هودٌ: فإن تَولَّوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحدَه لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجةُ بإبلاغي إيَّاكم رسالَة الله التي بَعثني بها، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يَعبدُونه وحدَه لا يُشرِكُون به ولا يُبالي بكم، فإنَّكم لا تَضرُّونَه بكفركُم بل يعودُ وبالُ ذلك عليكم، ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾، أي: شاهدٌ وحافظٌ لأقوالِ عبادِهِ وأفعالِهم، ويَجزيهم عَليها إن خَيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌ. ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾، وهو الريحُ العقيمُ، فأهلَكَهُم الله عن آخرِهم، ونجى هوداً وأتباعَه من عذاب غليظٍ، برحمته تعالى ولطفه. ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، كَفروا بها، وعَصوا رُسلَ الله، وذلك أنَّ من كَفرَ بِنبيٍّ فقد كَفر بجميع الأنبياء، لأنه لا فرقَ بين أحدٍ منهم في وُجُوب الإيمانِ به، فعادٌ كَفَرُوا بهودٍ، فَنُزِّلَ كفرُهم منزلة من كفر بجميع الرسُلِ، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، تركوا اتباعَ رسُولِهم الرشيدِ، واتبعوا أمر كل جَبَّارٍ عَنِيد. فلهذا أُتبِعُوا في هذه الدنيا لعنةً من الله ومن عباده المؤمنين كُلَّما ذُكِرُوا، ويُنادَى عليهم يومَ القيامةِ على رُؤُوس الأشهادِ، ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ﴾ . . . الآية. قال السُّديُّ: ما بُعِث نَبيٌّ بعد عاد إلا لُعِنُوا على لسانه.

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

يقولُ تعالى: ولقد أرسلنا إلى ﴿ثَمُودَ﴾ وهم الذين كانوا يسكُنون مدائِنَ الحِجْر بين تَبُوكَ والمدينةِ، وكانوا بعد عادٍ، فبعث الله منهم ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾، فأمرهم بعبادةِ الله وحدَه، ولهذا قال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: ابتدأ خَلقَكُم منها، خَلَق منها أباكُم آدمَ، ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: جعلكم عُمّاراً تَعمُرونها وتَستغِلُّونها، ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ لِسالفِ ذُنوبكم، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ فيما تَستقبِلُونه، ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]. . . الآية.

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح ـ عليه السلام ـ وبين قومه، وما كان عليه قومُه من الجَهلِ والعِنَاد في قولهم: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾، أي: كنا نرجوكَ في عَقلِكَ قبل أن تقولَ ما قُلتَ! ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، وما كان عليه أسلافُنا، ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، أي: شكٌّ كثير. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾، فيما أرسلني به إليكم على يقينٍ وبُرهان، ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾، وتركت دعوتَكُم إلى الحقِّ وعبادةِ الله وحدَه، فلو تركته لما نفعتُموني ولما زِدتُموني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾، أي: خَسارةٍ.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

تقدَّم الكلامُ على هذه القصة مستوفىً في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته ها هنا، وبالله التوفيق.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ وهم الملائكةُ، ﴿إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ قيل: تُبَشِّره بإسحاق، وقيل: بهلاكِ قوم لوطٍ. ويشهدُ للأول قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾. ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾، أي: عليكم. قال علماءُ البيان: هذا أحسنُ مما حيَّوه به، لأن الرفع يدلُّ على الثبوتِ والدوام. ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾، أي: ذهب سريعاً فأتاهم بالضِّيافةِ، وهو عِجْلٌ: فَتيُّ البَقر، حَنِيذ: مَشويٌّ على الرَّضْف، وهي الحجارةُ المُحماةُ. هذا معنى ما رُوي عن ابن عباس، وقتادة، وغيرِ واحد، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧]. وقد تَضمنت هذه الآية آدابَ الضِّيافةِ من وُجوهٍ كثيرةٍ. وقولُه: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ تنكَّرهم، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾. وذلك أن الملائكةَ لا هِمَّة لهم إلى الطعام ولا يشتَهونه ولا يأكلونه، فلهذا رأى حالَهم مُعرضين عمَّا جاءهم به، فارغين عنه بالكُلِّيةِ، فعند ذلك نَكِرهم، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾. قال السُّديُّ: لما بعثَ الله الملائكةَ لقوم لوطٍ أقبلت تمشي في صُوَرِ رجالٍ شبانٍ، حتى نزلوا على إبراهيم فَتَضيَّفوه، فلما رآهم أجلَّهم، ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾، فَذَبحه ثُمَّ شواه في الرضف، وأتاهم به فَقَعد معهم، وقامت سارَة تخدُمُهم، فذلك حين يقول: «وامرأته قائمةٌ وهو جالِسٌ» ـ في قراءة ابن مسعود ـ «فلما قربه إليهم قال ألا تأكلون»، قالوا: يا إبراهيمُ، إنا لا نأكلُ طعاماً إلا بثمن، قال: فإن لهذا

ثمناً. قالوا: وما ثمنُه؟ قال: تذكرونَ اسم الله على أوله، وتحمَدُونه على آخره. فنظر جبريلُ إلى ميكائيلَ فقال: حُقَّ لهذا أن يَتَّخِذَه ربُّه خليلاً. ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾، يقول: فلما رآهم لا يأكُلون فَزِع منهم وأوجسَ منهم خيفةً، فلما نَظَرت سارَةُ أنه قد أكرمَهم وقامت هي تَخدُمُهم ضَحِكت وقالت: عجباً لأضيافِنا هؤلاءِ، نخدُمهم بأنفُسِنا كرامةً لهم، وهم لا يأكلون طعامنا؟!

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا نصر بن علي، عن نُوح بن قَيس، عن عثمانَ بن مُخصَن في ضيفِ إبراهيم قال: كانوا أربعة: جبريلَ، وميكائيلَ، وإسرافيلَ، ورُفَائيلَ، قال نُوح بن قَيس: فزعم نوحُ بن أبي شداد أنهم لما دخلوا على إبراهيم فَقَرَّب إليهم العجلَ مَسَحه جبريلُ بجناحه، فقام يَدرُجُ حتى لَحق بأمِّه، وأمُّ العجلِ في الدار. وقولُه تعالى إخباراً على الملائكة: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾، أي قالوا: لا تَخف منا، إنَّا ملائِكَةٌ أُرسِلْنا إلى قَوم لُوطٍ لِنُهلِكَهم. فضحكت سارَةُ استبشاراً بهلاكهم، لكثرةِ فَسادِهم، وغِلَظِ كُفرِهم وعِنادِهم، فلهذا جُوزِيَتْ بالبشارة بالولد بعد الإياس. وقال قتادةُ: ضَحِكت وعَجِبت أن قوماً يأتيهم العذابُ وهم في غَفْلَة. وقولُه: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾، قال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿فَضَحِكَتْ﴾ أي: حاضت. وقولُ محمد بن قيس: إنها إنما ضَحِكت من أنها ظَنَّت أنهم يُرِيدُون أن يعمَلُوا كما يعمَلُ قومُ لوط. وقول الكلبيِّ: إنها إنما ضَحِكت لِمَا رأت من الرَّوع بإبراهيم ـ ضعيفانِ جداً، وإن كان ابنُ جرير قد رَوَاهما بِسَندِه إليهما، فلا يُلتَفَتُ إلى ذلك، والله أعلم. وقال وَهبُ بن مُنَبِّه: إنما ضَحِكت لما بُشِّرت بإسحاقَ. وهذا مخالفٌ لهذا السياقِ، فإنَّ البِشارَةَ صريحةٌ مُرتَّبَةٌ على ضَحِكها. ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾، أي: بِوَلَدٍ لها يكونُ له ولدٌ وَعقبٌ ونَسل؛ فإنَّ يعقوبَ وَلَدُ إسحاقَ كما قال في آية البقرة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

ومن ها هنا استدلَّ من استدلَّ بهذه الآية، على أن الذَّبيح إنما هو إسماعيل، وإنه يمتنع أن يكون هو إسحاقَ، لأنه وَقعت البشارة به، وأنه سَيُولد له يعقوبُ، فكيف يُؤمَرُ إبراهيم بذبحه وهو طفلٌ صغيرٌ، ولم يولد له بعد يعقوبُ الموعودُ بوجوده. ووعدُ الله حقٌّ لا خُلْفَ فيه، فيمتنع أن يُؤمَرَ بِذَبح هذا والحالةُ هذه، فَتعيَّنَ أن يكون هو إسماعيلَ. وهذا من أحسن الاستدلالِ وأصحِّه وأبينه، ولله الحمد. ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾. . الآية، حُكِي قولُها في هذه الآية، كما حُكِي فعلُها في الآية الأخرى، فإنها ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾، وفي الذاريات: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾، كما جَرت به عادةُ النساء في أقوالهنَّ وأفعالهن عند التعجُّب. ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: قالت الملائكة لها: لا تَعجَبي من أمْرِ اللهفإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون. فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً وبعلك شيخاً كبيراً فإنَّ الله على ما يشاء قديرٌ. ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾، أي: هو الحميدُ في جميع أفعالِه وأقوالِه، محمودٌ ممجَّدٌ في صِفَاتِهِ وذَاتِه، ولهذا ثبت في الصَّحِيحَين أنهم قالوا:

[٣٨٠٥] قد عُلِّمنا السلامَ عليك، فكيف الصلاةُ عليك يا رسول الله؟ قال «قولوا: اللهم صَلِّ على محمدٍ، وعلى آل محمدٍ، كما صَلَّيت على إبراهيمَ وآلِ إبراهيمَ، وبارِك على مُحمَّد وعلى آلِ مُحمَّدٍ، كما باركت على آلِ إبراهيمَ، إنك حميدٌ مجيدٌ»[١].

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٣٥٧، ومسلم ٤٠٦، وأبو داود ٩٧٦، والترمذي ٤٨٣، والنسائي ٣/ ٤٧ وابن ماجه ٩٠٤، والدارمي ١٣١٦، وأحمد ٤/ ٢٤١، ٢٤٣ والطيالسي ١٠٦١ كلهم من حديث كعب بن عجرة.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

يخبرُ تعالى عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنّه لما ذهبَ عنه الروعُ، وهو ما أوْجَس من الملائكةِ خِيفةً، حين لم يأكلوا، وبَشّروه بعد ذلك بالولد، وأخبرُوه بهلاك قوم لوطٍ، أخذَ يقولُ كما قال سعيد بن جُبَير في الآية، قال: لما جاءه جبريلُ ومن معه، قالوا له: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١]، قال لهم: أتهلِكُون قريةً فيها ثلاثمئةِ مؤمنٍ؟ قالوا: لا. قال: أفتهلِكُون قريةً فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أفتهلِكُون قرية فيها أربعُون مؤمناً؟ قالوا: لا. قال: ثلاثون؟ قالوا: لا. حتى بلغ خمسة قالوا: لا. قال: أرايتَكم إن كان فيها رجل واحد مسلم، أتهلكونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ [العنكبوت: ٣٢]. . . الآية، فَسَكت عنهم واطمأنت نفسُه. وقال قتادةُ وغيره قريباً من هذا. زاد ابن إسحاق: أفرأيتم إن كان فيها مؤمنٌ واحدٌ؟ قالوا: لا. قال: فإن كان فيها لوطٌ يُدفَع به عنهم العذابُ؟ ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾. . . الآية. وقولُه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾، مَدَحَ إبراهيم بهذه الصفات الجميلة، وقد تَقَدَّم تفسيرها. وقولُه تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾. . . الآية، أي: إنه قد نفذ فيهم القضاء، وحَقَّت عليهم الكلمةُ بالهلاكِ وحُلُولِ البأس الذي لا يُرَدُّ عن القومِ المجرمين.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾

يخبرُ تعالى عن قُدُوم رُسُله من الملائكة بعدما أعلمُوا إبراهيمَ بهلاكهم، وفارقُوه وأخبروه بإهلاكِ الله قوم لوطٍ هذه الليلة. فانطلَقوا من عنده فأتَوا لوطاً ـ عليه السلام ـ وهو ـ على ما قيل ـ في أرضٍ له، وقيل: في منزله، ووردُوا عليه وهُم في أجمل صورةٍ تكونُ، على هيئة شبان حسَانِ الوُجُوه، ابتلاءً من الله، وله الحكمةُ والحجّةُ البالغةُ، فساءه شأنُهم وضاقت نفسُه بِسَبَبِهم، وخَشِي إن لم يُضفْهم أن يُضيفَهم أحدٌ من قومه، فينالهم بسوءٍ، ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾. قال ابنُ عباس، وغيرُ واحد: شديدٌ بلاؤهُ. وذلك أنه عَلِم أنه سَيُدافع عنهم، ويَشُقُّ عليه ذلك. وذكر قتادةُ أنهم أتَوه وهو في أرضٍ له، فَتَضيَّفُوه فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم وقال لهم في أثناء الطريق، كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه: إنه ـ والله يا هؤلاء ـ ما أعلم على وَجْهِ الأرض أهلَ بلدٍ أخبثَ من هؤلاء! ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم، حتى كَرّره أربعَ مرات، قال قتادةُ: وقد كانوا أُمِرُوا ألاّ يُهلِكُوهم حتى يشهد عليهم نَبيُّهم بذلك.

وقال السديُّ: خرجت الملائكةُ من عند إبراهيم نحو قرية لُوطٍ، فبلغوا نهر سَدوم نصفَ النهار، ولَقُوا بنتَ لوطٍ تستقي، فقالوا: يا جاريةُ، هل من منزلٍ؟ فقالت: مكانَكم حتى آتيكم. وفَرِقت عليهم من قومها، فأتت أباها فقالت: يا أبتاه، أَدْرِك فتياناً على باب المدينة، ما رأيت وجوهَ قوم أحسنَ منهم، لا يأخذهم قومُك فيفضحوهم، وكان قومُه نهوه أن يُضيف رجلاً، فقالوا: خل عنا فلْنُضِفِ الرِّجالَ. فجاء بهم، فلم يعلم بهم أحدٌ إلا أهلَ بيتِهِ، فخرجت امرأته فأخبرت قومَها، فجاءوا يُهرَعُون إليه. وقولُه: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾، أي

يُسرعُون ويُهرولُون من فرحهم بذلك. وقولُه تعالى: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أي: لم يَزَل هذا من سَجيتهم حتى أخذوا وهُم على ذلك الحال. وقولُه: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، يُرشِدُهم إلى نسائهم، فإنَّ النبيَّ للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفعُ لهم في الدنيا والآخرة، كما قال لهم في الآيـــة الأخـــرى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦]، وقولُه في الآية الأخرى: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾، أي: ألم ننهَكَ عن ضيافةِ الرِّجال؟ ﴿قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٠ ـ ٧٢]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، قال مجاهد: لم يَكُنَّ بناتِه، ولكن كُنَّ من أمَّتِه، وكل نَبيٍّ أبو أمَّتِه. وكذا رُوِي عن قتادةَ، وغيرِ واحد. وقال ابن جُريج: أمرهم أن يتزوجوا النساء، ولم يعرض عليهم سفاحاً. وقال سعيد بنُ جبَير: يعني نسَاءهم، هن بَنَاته، وهو أبٌ لهم، ويقال في بعض القراءات: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجُه أمهاتهم وهو أبٌ لهم». وكذا رُوِي عن الربيع بن أنس، وقتادةَ، والسديِّ، ومحمدِ بن إسحاق، وغيرِهم.

وقولُه تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾، أي: اقبلوا ما آمركُم به من الاقتصارِ على نِسَائكم، ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾، أي: فيه خيرٌ، يقبل ما آمرُه به، ويترك ما أنهاه عنه؟! ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾، أي: إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نَشتَهيهنّ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾، أي: ليس لنا غَرَضٌ إلا في الذكور، وأنت تعلَمُ ذلك، فأيُّ حاجةٍ في تكرارِ القولِ علينا في ذلك؟! قال السديُّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾: إنما نُريد الرجالَ.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن نبيه لوط ـ عليه السلام ـ: إن لوطاً توعّدهم بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾... الآية، أي: لكنت نَكَّلتُ بكم وفعلتُ بكم الأفاعيل بنفسي وعَشِيرتي.

[٣٨٠٦] ولهذا ورد في الحديث، من طريق محمد بن عمرو بن علقمةَ، عن أبي سلمة، عن أبي هُرَيرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمةُ الله على لوطٍ، لقد كان يَأوِي إلى ركنٍ شديدٍ ـ يعني الله، عزَّ وجلَّ ـ فما بَعث الله بعده من نبيٍّ إلا في ثَرْوَةٍ من قومه»[1]. فعند ذلك أخبرته الملائكةُ أنَّهم رُسُل الله إليه، وأنهم لا وُصولَ لهم إليه، ﴿قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾، وأمروه أن يسرِيَ بأهله من آخرِ الليلِ، وأن يَتْبَع أدبارَهُم، أي: يكون ساقةً لأهله، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾، أي: إذا سَمِعت ما نزل بهم، ولا تَهُولَنَّكم تلك الأصواتُ المُزعجَةُ، ولكن استمرُّوا ذاهبين. ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾، قال الأكثرون: هو استثناءٌ من المثبت، وهو قولُه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، تقديرُه: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾، وكذلك قرأها ابن مسعود، ونصب هؤلاء امرأتَكَ، لأنه من مُثبَتٍ، فوجَبَ نصبه عندهم.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٧٥، والترمذي ٣١١٦، وأحمد ٢/ ٣٢٢، والطبري ١٨٣٩٧ و ١٨٣٩٨، والطحاوي في مشكل الآثار ٣٣٠، وابن حبان ٦٢٠٦ والبغوي في معالم التنزيل ٢/ ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

وقال آخرون من القُرَّاء والنُّحاة: هو استثناءٌ من قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾، فجوَّزوا الرفعَ والنصب، وذكر هؤلاءِ أنها خرَجت معهم، وأنها لما سمعت الوَجْبَةَ التفتت وقالت: واقوماه! فجاءها حَجَرٌ من السماء فقتلها. ثم قَرَّبوا له هَلاكَ قومِهِ تبشيراً له، لأنه قال لهم: أهلِكُوهم الساعةَ. فقالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، هذا وقومُ لُوطٍ وقوفٌ على الباب وعُكُوفٌ قد جاؤوا يُهرَعُون إليه من كلِّ جانب، ولوطٌ واقفٌ على الباب يُدَافعهم ويَرْدَعهم وينهاهُم عما هُم فيه، وهم لا يقبَلُون منه، بل يَتوعَّدُونه ويَتَهدَّدونه، فعند ذلك خَرَجَ عليهم جبريلُ ـ عليه السلام ـ فضربَ وُجُوهَهم بجناحه، فطمَس أعيُنَهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريقَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ [القمر: ٣٧]. . . الآية. وقال معمرٌ، عن قتادَةَ، عن حُذَيفةَ بن اليَمَانِ قال: كانَ إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ يأتي قومَ لوطٍ، فيقول: أنهَاكم الله أن تَعَرَّضُوا لعُقُوبتِهِ. فلم يُطِيعُوه، حتى إذا بلغَ الكتابُ أجله انتهتِ الملائكةُ إلى لوطٍ وهو يعمَلُ في أرضٍ له، فدعاهُم إلى الضيافَةِ فقالوا: إنا ضيوفُكَ الليلةَ. وكان الله قد عَهِدَ إلى جبريلَ ألا يُعذِّبهم حتى يشهَدَ عليهم لوطٌ ثلاث شهَاداتٍ، فلما تَوَجَّه بهم لوطٌ إلى الضِّيافَةِ ذَكر ما يعمَلُ قَومُه من الشر، فَمَشى معهم ساعةً، ثم التفت إليهم فقال: أما تَعلَمُونَ ما يعملُ أهلُ هذه القريةِ؟ ما أعلَمُ على وجهِ الأرضِ شرّاً منهم، أين أذهبُ بكم؟ إلى قومِي وهُم أشرُّ خَلْقِ الله. فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوها، هذه واحدةٌ. ثم مشَى معهم ساعةً، فلما توسط القرية وأشفَقَ عليهم واستحيا منهم، قال: أما تعلَمُونَ ما يعمَلُ أهلُ هذه القريةِ؟ ما أعلَمُ على وجه الأرضِ أشرَّ منهم، إنَّ قومي أشرُّ خلقِ الله. فالتفت جبريلُ إلى الملائكة فقال: احفظوا، هاتان اثنتان. فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياءً منهم وشفقةً عليهم فقال: إن قومي أشر مَنْ خَلَقَ الله؟ أما تعلمون ما يعملُ أهلُ هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أهلَ قريةٍ شرّاً منهم.

فقال جبريل للملائكة: احفظوا، هذه ثلاث، قد حقَّ العذاب، فلما دَخلُوا ذهبت عجوزه عَجوزُ السُّوءِ فَصَعِدت فَلوَّحت بثوبها، فأتاها الفُسَّاقُ يُهرَعُون سراعاً، قالوا: ما عندك؟ قالت: ضَيَّف لوطاً الليلة قومٌ، ما رأيت قطُّ أحسَنَ وجوهاً منهم، ولا أطيب ريحاً منهم. فهُرِعُوا يُسارِعُون إلى الباب، فعاجَلَهُم لوطٌ على الباب، فدافَعُوه طويلاً، هو داخلٌ وهم خارجٌ، يُناشِدُهم الله تعالى ويقول: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، فقام المَلَكُ فَلَزَّ بالباب ـ يقول: فَسَدَّه ـ واستأذن جبريلُ في عقوبتهم، فأذن الله له، فقام في الصُّورة التي يكون فيها في السماء، فنشر جناحَه ـ ولجبريل جناحان، وعليه وشاحٌ من دُرٍّ منظوم، وهو بَرَّاقُ الثنايا، أجلى الجبين، ورأسه حُبُكٌ حُبُكٌ مثل المَرْجان، وهو اللؤلؤ، كأنه الثلج، ورجلاه إلى الخضرة ـ فقال يا لوطُ: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾، امِطْ يا لوطُ عن الباب ودعني وإيَّاهم، فَتَنَحَّى لوطٌ عن الباب، فخرج إليهم، فَنشر جناحَه، فَضرب به وُجُوهَهم ضربةً شَدَخ أعيُنَهم، فصاروا عُمْياً لا يعرفون الطريق، ثم أمرَ لوطٌ فاحتمَلَ بأهله من ليلته، قال: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾. ورُوِي عن محمد بن كعب، وقتادةَ، والسديِّ، نحوُ هذا.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طُلوع الشَّمس. ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا﴾، وهي سَدُوم ﴿سَافِلَهَا﴾، كقوله: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم: ٥٤]، أي: أمطرنا عليها حجارةً من سِجِّيلٍ، وهي بالفارسيَّةِ: حجارةٌ من طينٍ، قاله ابنُ عباس وغيرُه. وقال بعضُهم: أي من «سَنْكِ» وهو الحجر، و «كِلْ»، وهو

الطين، وقد قال في الآية الأخرى: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]، أي: مستحجرة قوية شديدة. وقال بعضهم: مَشْوِيَّة، وقال البخاريُّ: سِجِّيل: الشديدُ الكَبِيرُ، سِجِّيلٌ وسِجِّينٌ، اللامُ والنُون أختان، وقَال تمِيمُ بن مُقبلٍ:

وَرَجْلَـةٍ يَـضْـرِبُـون البَـيْـضَ ضَـاحِـيَـةً ضَـرْبـاً تـواصَـت بـه الأبـطـالُ سِـجِّـيـنـا

وقولُه تعالى: ﴿مَّنضُودٍ﴾، قال بعضُهم: منضودة في السماء، أي: مُعدَّةٌ لذلك. وقال آخرون: ﴿مَّنضُودٍ﴾، أي: يَتبَعُ بعضُها بعضاً في نزولها عليهم. وقولُه: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾، أي مُعْلَمة مَختومة، عليها أسماءُ أصحابها، كُلُّ حَجَرٍ مكتوبٌ عليه اسمُ الذي ينزل عليه. وقال قتادةُ وعكرمةُ: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾: مُطوّقة، بها نَضْحٌ من حُمْرَةٍ. وذكروا أنها نزلت على أهل البلدِ، وعلى المُتفرِّقين في القُرَى مما حولَهَا، فبينا أحدُهم يكونُ عند الناس يتحدَّث إذ جاءه حجرٌ من السماءِ فَسقط عليه من بين الناس، فَدَمَّره، فتتبعهم الحجارةُ من سائر البلاد، حتى أهلكتُهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد. وقال مجاهد: أخذ جبريلُ قومَ لوط من سَرْحهم ودُورهم، حَمَلَهُم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نُباح كِلاَبهم ثم أكفأهم ـ وكان حَمَلَهُم على خَوَافي جناحِهِ الأيمَنِ ـ قال: ولما قَلَبها كان أوَّلَ ما سقَطَ منها شرفَاتُها. وقال قتَادةُ: بلغنا أن جبريلَ أخذ بِعُروة القَرْيَةِ الوسطى، ثم ألوَى بها إلى جَوِّ السماء، حتى سَمِعَ أهلُ السماء ضَوَاغِيَ كِلاَبهم، ثم دَمَّر بعضها على بعض، ثم اتبع شُذَّاذ القوم صَخْراً ـ قال: وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى، في كل قرية مئة ألف ـ وفي رواية: ثلاث قرى، الكبرى منها سدوم ـ قال: وبلغنا أن إبراهيم عليه السلام كان يشرف على سَدُوم، ويقول: سدوم، يومٌ هالكٌ. وفي رواية عن قتادة وغيره: بلغنا أن جبريلَ ـ عليه السلام ـ لما أصبحَ نَشَر جناحَه، فانتسَفَ به أرضَهم بما فيها من قُصُورها ودوابِّها وحِجَارتها وشَجَرها، وجَميع ما فيها، فَضَمَّها في جناحِهِ، فَحَواها وطَوَاها في جوف جناحه، ثم صَعِد بها إلى السماء الدنيا، حتى سَمِع سكانُ السَّماءِ أصواتَ الناسِ والكلاب، وكانوا أربعَةَ آلافِ ألف، ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرضِ منكوسةً، وَدَمْدَم بعضَها على بعضٍ، فجعلَ عالِيَهَا سافِلَهَا، ثم أتبعها حجارةً من سِجِّيلٍ. وقال محمد بن كعب القُرَظي: كانت قُرَى قوم لوطٍ خمس قريات: «سَدُوم»، وهي العُظمى، و «صعبةُ» و «صعوةُ» و «عثرةُ»، و «دُوما»، احتملها جبريل بجناحِهِ، ثم صَعِد بها، حتى إنَّ أهل السماءِ ليسمَعُون نابحة كلابها، وأصواتَ دَجَاجها، ثم كَفَأهَا على وجهها، ثم أتبعها الله بالحجارةِ، يقول الله تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾، فأهلكها الله وما حَولَها من المؤتفكات. وقال السُّدّيُّ: لَمَّا أصبحَ قَومُ لوط نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين، فحَملها حتى بَلَغ بها السماء، حتى سمع أهلُ السماء نُباحَ كلابهم، وأصواتَ دُيوكِهم، ثم قلبها فَقَتلهم، فذلك قوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣﴾ [النجم: ٥٣]، ومن لم يمت حين سَقَط للأرضِ، أمطر الله عليه وهو تحت الأرضِ الحجارةَ، ومن كان منهم شَاذّاً في الأرض يتبعُهم في القرى، فكان الرجلُ يتحدَّث فيأتيه الحجَرُ فيقتُله، فذلك قوله عزَّ وجلَّ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾، أي: في القرى ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾، هكذا قال السديُّ. وقولُه: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾، أي: وما هذه النقمةُ ممن تَشَبَّه بهم في ظُلمِهم ببعيدٍ عنه.

[٣٨٠٧] وقد ورد في الحديث المرويِّ في السُّنَن، عن ابن عباسٍ مرفوعاً: «من وَجدتُمُوه يعمَلُ عملَ قوم لوطٍ فاقتلُوا الفاعل والمفعول به»[1]. وذهب الإمام الشافعي ـ في قول عنه ـ وجماعةٌ من العلماء إلى أنَّ

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٠٠، وأبو داود ٤٤٦٢، والترمذي ١٤٨٣، وابن ماجه ٢٥٦١ والحاكم ٤/ ٢٥٥ وصححه، وأقره الذهبي، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٤٣، والخرائطي في مساوئ الأخلاق ٤٣٥، والآجري في ذم اللواط (٢٥) والبيهقي ٨/

اللائط يُقتَلُ، سواء كان مُحصناً أو غير مُحصن، عملاً بهذا الحديث. وذهب الإمامُ أبو حنيفة أنه يلقى من شاهقٍ، ويُتبَعُ بالحِجَارةِ، كما فَعَل الله بقومِ لُوطٍ، والله سبحانَه وتعالى أعلَمُ بالصَّواب.

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مديَن، وهم قبيلةٌ من العَرَب، كانوا يسكُنون بين الحجاز والشام، قريباً من بلاد مَعَانَ، في بلد يعرف بهم، يقال لها: مدين، فأرسل الله إليهم شُعيباً، وكان من أشرفهم نسباً. ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وينهاهُم عن التطفيفِ في المكيال والمِيزان، ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾، أي: في معيشتكم ورزقِكم فأخافُ أن تُسلَبُوا ما أنتم فيه بانتهاككم مَحارِمَ الله، ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾، أي: في الدارِ الآخرةِ.

﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق. وقولُه: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال ابن عباس: رزقُ الله خَيرٌ لكم. وقال الحسن: رزق الله خير من بخسكم الناس. وقال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم. وقال مجاهد: طاعة الله، وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الهلاك في العذاب، والبقية في الرحمة. وقال أبو جعفر بن جَرير: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: ما يفضلُ لكم من الرِّبح بعدَ وفاءِ الكيل والميزان ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: من أخذ أموال الناس، قال: وقد رُوِي هذا عن ابن عباس. (قلتُ): ويُشبِه قولَه تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]. قولُه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾، أي: بِرَقيبٍ ولا حَفِيظ، أي: افعلُوا ذلك لله عزَّ وجلَّ، لا تفعلُوه ليراكُم الناسُ، بل لله عزَّ وجلَّ.

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾

يقولون لَهُ على سَبِيل التهكُّم ـ قَبَّحهم الله ـ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾، قال الأعمشُ: أي: قُرآنُكَ، ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾، أي: الأوثانَ والأصنامَ، ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾، فنترك التَّطفِيفَ على قولك، وهي أموالُنا نفعلُ فيها ما نريد. قال الحسن في قوله: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾: إي والله، إنَّ صلاته لتأمرهُم أن يتركُوا ما كان يعبد آباؤهم. وقال الثوريُّ في قوله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾، يعنونَ الزكاةَ. وقولُهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾، قال ابن عباس، وميمون بن مِهْرَان، وابن

---

٢٣٢ وابن الجوزي في ذم الهوى ص ١٦٢ من حدث ابن عباس، وفيه الدراوردي وفيه كلام. وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه الترمذي ١٤٨١ وفي إسناده مقال، وابن ماجه ٢٥٦٢، والحاكم ٣٥٥٤ وقال الذهبي: فيه عبد الرحمن ساقط اهـ. وهو حديث مختلف فيه وتقدم.

جُرَيجٍ، وابنُ أسلَمَ، وابنُ جَريرٍ: يقولون ذلك ـ أعداء الله ـ على سبيلِ الاستهزاءِ، قَبَّحهُم الله ولَعَنهم عن رحمتِه، وقَد فَعَل.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾

يقولُ لهم: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ يا قوم ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾، أي: على بصيرةٍ فيما أدعو إليه، ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾، قيل: أراد النبوة، وقيلَ: أراد الرزقَ الحلالَ. ويحتمِلُ الأمرينَ. وقال الثوريُّ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾، أي: لا أنهاكُم عن شيءٍ وأخالفُ أنا في السرِّ فأفعلَه خِفيةً عنكم، كما قال قتادةُ في قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾، يقول: لم أكُن لأنهاكُم عن أمر وأركَبه، ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾، أي: فيما آمرُكم وأنهاكُم، إنّما مُرادِي إصلاحُكم جَهدِي وطاقَتي، ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ﴾، أي: في إصابةِ الحقِّ فيما أريدُه ﴿إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ في جَميع أمُورِي، ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾، أي: أرجعُ. قاله مجاهد وغيره.

[٣٨٠٨] قال الإمام أحمدُ: حدَّثنا عفَّانُ، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، حدثنا أبو قَزَعَة سُوَيد بن حُجَير الباهليُّ، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه: أن أخاه مالكاً قال: يا معاويةُ، إن مُحمَّداً أخذَ جيراني، فانطَلِقْ إليه، فإنه قد كَلَّمَك وعَرَفك فانطلقتُ معه فقال: دَعْ لي جيراني، فقد كانوا أسلَمُوا. فأعرَضَ عنه، فقام مُتَمَعِّطاً، فقال: أما والله لئن فعلتَ إنَّ الناس يزعمون أنك تأمرُ بالأمر وتُخالِفُ إلى غيرِهِ. وجَعلتُ أجرُه وهو يتكلَّم، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما تقول؟» فقال: إنَّكَ والله لئن فعلتَ ذلك إن الناسَ ليزعُمون أنَّك لتأمُرُ بالأمرِ وتُخالِفُ إلى غيره. قال: فقال: «أوَقد قالوها ـ أو قائلهم ـ ولئن فعلتُ ذلك ما ذاك إلا عَلَيَّ، وما عليهم من ذلك من شيءٍ، أَرسِلُوا له جِيرَانه»[١].

[٣٨٠٩] وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزَّاقِ، حدثنا معمَرٌ، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: أخذ النبي ﷺ ناساً من قومي في تُهمَة فحبسهم، فجاء رجل من قومي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقال: يا محمد، علامَ تحبسُ جيرتي؟ فصمَت رسولُ الله ﷺ عنه فقال: إنَّ ناساً ليقولونَ: إنك تنهى عن الشيء وتَستَخلي به، فقال النبي ﷺ: «ما يقولُ»: قال: فجعلت أعرض بينهما الكلام مخافةَ أن يسمعها فيدعُوَ على قومي دَعوةً لا يفلحون بعدها أبداً، فلم يَزَلْ رسولُ الله ﷺ به حتى فهمها، فقال: «أو قد قالوها ـ أو: قائلها منهم، والله لو فعلتُ لكان عليّ وما كان عليهم، خَلُّوا له عن جيرانه»[٢].

[٣٨١٠] ومن هذا القبيل الحديثُ الذي رواه الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو عامر، حدثنا سُليمان بن بلال، عن ربيعةَ بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد بن سُوَيد الأنصاري قال: سمعت أبا حُمَيد وأبا أَسِيد يقولان: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا سمعتم الحديثَ عني تعرِفه قلوبكُم وتَلِينُ له أشعارُكم وأبشارُكم،

(١) حسن. أخرجه أحمد ٤/٤٤٧ح١٩٨٩٩، وأبو داود ٣٦٣١، والحاكم ٣/٦٤٢، وصححه، وسكت عنه الذهبي، وهو حسن للاختلاف المعروف في حكيم عن آبائه. والإسناد إليه صحيح.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٢/٥ح١٩٩٠٢ و ١٩٩٠٤، وأبو داود ٣٦٣٠، والترمذي ١٤١٧ والنسائي ٨/٦٦. وقال الترمذي: حديث بهز عن أبيه عن جده حديث حسن. وهو كما قال.

وتَرَون أنه منكم قريبٌ، فأنا أولاكُم به. وإذا سَمِعتم الحديثَ عني تُنكِرُه قلوبُكم، وتنفِرُ منه أشعارُكم وأبشارُكم، وتَرَون أنه منكم بعيدٌ، فأنا أبعدُكم منه»[1]. هذا إسنادٌ صحيح.

[٣٨١١] وقد أخرج مسلم بهذا السند حديثَ: «إذا دخلَ أحدُكم المسجدَ فَلْيقُل: اللهمَّ، افتَح لي أبوابَ رَحمَتِكَ. وإذا خَرَج فَلْيقُل: اللهمَّ، إني أسألُكَ من فَضلِكَ»[2]. ومعناهُ ـ والله أعلم ـ مهما بلغكم عنّي من خيرٍ فأنا أولاكُم به، ومهما يَكُن من مكروهٍ فأنا أبعدكُم منه، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾. وقال قتادةُ، عن عَزْرة، عن الحَسَنِ العُرَني، عن يحيى بن الجَزّار، عن مَسرُوقٍ أنَّ امرأة جاءت ابنَ مسعود قالت: أتنهى عن الواصِلَة؟ قال: نعم. فقالت: فَلَعلَّه في بعضِ نسائِكَ؟ فقال: ما حَفِظتُ إذاً وَصِيَّةَ العبدِ الصالح: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾. وقال عثمان بن أبي شيبةَ: حدثنا جريرٌ، عن أبي سليمان العُتْبيِّ قال: كانت تَجيئنا كُتُبُ عُمَرَ بن عبدِ العزيز فيها الأمرُ والنهيُ، فيكتُب في آخِرِها، وما كانت من ذلك إلا كما قال العبدُ الصالح: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾

يقولُ لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾، أي لا تَحمِلَنَّكم عَداوتي وبُغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد فَيُصِيبكم مثلُ ما أصابَ قومَ نوح وقومَ هودٍ وقومَ صالح وقومَ لوط مِن النَّقمَةِ والعَذَابِ. قال قتادة: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾، يقول: لا يحملنكم فراقي. وقال السديُّ: عَداوتي، على أن تَتَمادوا في الضَّلال والكُفر، فَيصِيبكُم من العَذابِ ما أصابهم. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو المُغيرة عبدُ القُدُّوس بن الحجاج، حدثنا ابن أبي غَنية، حدثني عبد الملك بن أبي سُليمَان، عن أبي ليلى الكِنْدي قال: كنتُ مع مولايَ أمسِكُ دابَّته، وقد أحاطَ الناسُ بعثمانَ بن عفان، إذ أشرفَ علينا من داره فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾، يا قوم، لا تقتُلوني، إنكم إن تَقتلوني كنتم هكذا. وشَبَّك بين أصابعه. وقولُه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ قيلَ: المرادُ في الزَّمان، قال قتادة: إنما أهلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل: في المكان، ويحتَمِلُ الأمرانِ، ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾، أي: استغفِرُوه من سَالِفِ الذُّنُوبِ، وتُوبُوا فيما تستقبلونه من الأعمالِ السَّيئة، ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾، أي: لمن تاب وأناب.

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٧ و ٥/ ٤٢٥، وابن وهب في المسند (١٦٤/ ٨/ ٢)، والبزار ١٨٧ وابن حبان ٦٣، وابن سعد في الطبقات ٢/ ٣٨٧. وله شاهد مرسل قوي عند البخاري في التاريخ الكبير ٣/ ٤٧٤. وقال الهيثمي في المجمع ١/ ١٤٩، ١٥٠: رواه أحمد والبزار، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٧١٣، وأبو داود ٤٦٥، والنسائي ٣/ ٥٣ وفي عمل اليوم والليلة ١٧٧، وابن السني ١٥٦ من حديث أبي حميد وأبي أسيد.

يقولون: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾، أي: ما نفهمُ ولا نعقِلُ كثيراً من قولك، وفي آذاننا وقرٌ، ومن بَيننا وبينك حِجابٌ، ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾. قال سعيد بن جُبير، والثوريُّ: كان ضَرير البصر. قال الثوري: وكان يقال له: خَطيبُ الأنبياء. قال السّديُّ: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: أنتَ واحدٌ. وقال أبو رَوقٍ: يعنونَ ذَليلاً، لأن عَشِيرتك ليسُوا على دينك. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي: قومُكَ وعَشِيرَتُكَ؛ لولا مَعَزَّةُ قومِكَ علينا ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾، قيل: بالحجارةِ، وقيل: لَسَبَبْناك، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾، أي: ليس لك عندنا مَعزَّة. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، يقول: أتتركُوني لأجل قومي، ولا تتركُوني إعظاماً لجَناب الله أن تنالُوا نَبيَّه بِمساءةٍ. وقد اتخذتُم جانِبَ الله ﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾، أي: نَبذتُموه خَلفَكم، ولا تُطِيعُونه ولا تُعظِّمونه، ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، أي: هو يعلَمُ جميعَ أعمالِكم وسَيجزِيكم بها.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

لما يئس نبي الله شُعَيبٌ من استجابة قومه له، قال: يا قوم، ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أي: على طريقَتكم. وهذا تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ، ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾، على طريقتي ومنهجي فسوف ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، أي: في الدار الآخرة، ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾، أي: مني ومنكم، ﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟﴾، أي: انتظروا ﴿إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، وهم قومُه، ﴿ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، وقولُه: ﴿جَٰثِمِينَ﴾، أي: هامِدِينَ لا حِرَاكَ بهم، وذكر ها هنا أنهم أتتهم صيحةٌ، وفي الأعراف رجفةٌ، وفي الشُعَراء عذابُ يوم الظُلّةِ، وهم أمةٌ واحِدَةٌ، اجتمع عليهم يومَ عذابهم هذه النقَمُ كلها، وإنما ذكر في كُلّ سياق ما يناسبه، ففي الأعرافِ لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ [الأعراف: ٨٨]، ناسب أن يذكر هناك الرجفةَ فَرُجِفَت بهم الأرضُ التي ظَلَموا بها، وأرادوا إخراجَ نبيِّهم منها، وها هنا لما أساؤوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ناسبَ ذكرَ الصيحةِ التي أسكتتهم وأخمدتهُم، وفي الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾، قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾، وهذا من الأسرارِ الغريبة الدقيقةِ، ولله الحمدُ والمنّة كثيراً دائماً. وقولُه: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾، أي: يَعيشوا في دَارهم قبل ذلك، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾، وكانوا جيرانَهم، قريباً منهم في الدارَ، وشبيهاً بهم في الكفرِ وقَطْعِ الطريقِ، وكانوا عرباً شِبهَهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالى مُخبراً عن إرساله موسى ـ عليه السلام ـ بآياته وبَيِّناته وحُجَجه ودلائله الباهرة القاطِعَةِ إلى فرعون ـ لعنه الله ـ وهو مَلِكُ ديارِ مصر على أمة القِبْطِ، ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾، أي: مَسْلكه ومَنْهجه وطريقته

في الغيِّ والضلالِ، ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾، أي: ليس فيه رُشدٌ ولا هُدى، وإنما هو جهلٌ وضلالٌ، وكفرٌ وعِنادٌ، وكما أنهم اتَّبعُوه في الدنيا وكان مُقَدَّمَهم وَرئيسَهُم، كذلك هُو يَقْدُمُهم يومَ القيامةِ إلى نارِ جَهَنَّم، فأوردَهُم إيَّاها، وشَرِبوا من حياضِ رَدَاها، وله في ذلك الحظُّ الأوفرُ من العَذابِ الأكبرِ، كما قال تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: ٢١ ـ ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾، وكذلك شأن المتبوعين يكونُون موفورين في العذاب يوم المَعَاد، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالى إخباراً عن الكَفرة أنهم يقولُون في النار: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

[٣٨١٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشيم، حدثنا أبو الجَهم، عن الزُّهري، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «امرؤ القيس حاملُ لواء شُعَراء الجاهلية إلى النار»[1]. وقولُه: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي: أتبعناهم زيادةً على ما جازيناهم من عذابِ النار لعنةً في هذه الحياة الدنيا، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾، وقال مجاهدٌ: زِيدُوا لعنةً يوم القيامةِ، فتلك لعنتان. وقال عليُّ بن أبي طَلحةَ، عن ابن عباس: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾، قال: لعنةُ الدنيا والآخرة، وكذا قال الضحاك، وقتادةُ، وهكذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٤١ ـ ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾

لما ذكر تعالى خَبرَ هؤلاء الأنبياء، وما جَرى لهم مع أممهم، وكيفَ أهلك الكافرين ونَجّى المؤمنين قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾، أي: من أخبارها ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ﴾، أي: عامرٌ، ﴿وَحَصِيدٌ﴾، أي: هالك دائِرٌ، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾، أي: إذ أهلكناهم، ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: بِتكذيبهم رُسُلنا وكُفرِهم بهم، ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ أي: أصنامُهم وأوثانُهم التي كانوا يعبدُونهاويدعونها، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾، أي: ما نفعُوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمرُ الله بإهلاكهم، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾. قال مجاهد، وقتادةُ، وغيرهما: أي غير تَخسِير. وذلك أنَّ سبب هلاكهم ودَمَارهم إنما كان باتباعهم تلكَ الآلهَةِ وعبادَتِهم إياها، فبهذا أصابَهم، وخَسِروا بهم في الدُّنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه أحمد ٧١٢٧ «بترقيم شاكر»، والبزار ٢٠٩١ وابن الجوزي في «العلل» ٢٠٠ من حديث أبي هريرة، قال ابن الجوزي: لا يصح. قال أحمد: أبو الجهم مجهول، وقال أبو زرعة: واهي الحديث، وقال ابن حبان: يروي عن الزهري ما ليس في حديثه أهـ، وأما الهيثمي، فقال في «المجمع» ١٣٢٩٩: أبو الجهيم لا أعرفه، وبقية رجاله ثقات أهـ قلت: أبو الجهم عرفه غير واحد، وضعفوه كما تقدم. وورد من وجه آخر أخرجه الخطيب ٩/ ٣٧٠ وابن الجوزي ٢٠١ وأعله بأبي هفان، وقال: لا يعول عليه أهـ وذكره الذهبي في الميزان ١٠٦٩٦ فقال: حدث عن الأصمعي بخبر منكر. وورد من وجه آخر أخرجه ابن حبان في «المجروحين» ٢/ ٣٠٣ وفيه محمد بن ضوء بن صلصال عن أبيه عن جده، وهو يروي مناكير عن أبيه أهـ، فالخبر غير قوي كما ترى، والله أعلم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظَّالمة المكذِّبة لرُسُلِنا كذلك نفعَلُ بنظائرهم وأشباهِهِم وأمثالهم، ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

[٣٨١٣] وفي الصَّحيحَين عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليُملي للظالم، حتى إذ أخذه لم يُفلِته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[1].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾

يقولُ تعالى: إنَّ في إهلاكنا الكافرين، ونصرةِ الأنبياءِ، وإنجائِنا المؤمنين، ﴿لَءَايَةً﴾، أي: عظةً واعتباراً علـى صـدق مـوعـودنـا فـي الـدار الآخـرة، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣]. وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾، أي: أوَّلهم وآخرُهم، فلا يبقى منهم أحدٌ، كما قال: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]. ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾، أي: يومٌ عظيم تحضُره الملائكةُ كلُّهم، ويجتمِعُ فيه الرسلُ جميعُهم، وتُحشَرُ فيه الخلائقُ بأسرهم، من الإنس والجنِّ والطيرِ والوحوشِ والدوابِّ، ويحكم فيهم العادل الـذي ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [الـنـسـاء: ٤٠]. وقـولُـه: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾، أي: ما نؤخر إقامة يوم القيامةِ إلاَّ لأنه قد سَبقت كلمةُ الله وقضاؤه وقدرُه في وجود أناس معدُودين من ذُرّيَةِ آدم، وضَرْبِ مدَّةٍ معيَّنة، إذا انقضت وتكامل وجودُ أولئك المقدَّر خروجهم من ذريَّةِ آدم، أقام الله الساعةَ، ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾، أي: لمدَّة مؤقتة لا يُزادُ عليها ولا يُنقَصُ منها، ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، يقول: يوم يأتي هذا اليومُ وهو يومُ القيامة، لا يتكلَّم أحدٌ إلا بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

[٣٨١٤] وفي الصحيحَين عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل: «ولا يتكلَّم يومئذٍ إلا الرسلُ، ودَعْوَى الرسُل يومَئِذٍ: اللهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ»[2]. وقولُه: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾، أي: فمن أهل الجَمْعِ شقيّ ومنهم سعيدٌ، كما قال: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

[٣٨١٥] وقال الحافظ أبو يعلَى في مُسندِه: حدثنا موسى بن حيَّان، حدثنا عبدُ الملك بن عمرو، حدثنا سُلَيمان بن سفيانَ، حدثنا عبد الله بن دينار، عن ابن عُمَر، عن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾، سألت النبي ﷺ قلت: يا رسولَ الله، علامَ نَعملُ؟ على شيءٍ قد فُرِغَ منه، أم على

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٨٦، ومسلم ٢٥٨٣، والترمذي ٣١٠٩، وابن ماجه ٤٠١٨ وابن حبان ٥١٧٥ والبيهقي ٦/ ٩٤.

(٢) هو بعض حديث أخرجه البخاري ٧٥١٠، ومسلم ١٩٣ح٣٢٦، وابن ماجه ٤٣١٢ وأحمد ٣/ ١١٦ و ٢٤٤ و ٢٤٧ و ٢٤٨ من حديث أنس بن مالك في الشفاعة.

شيءٍ لم يُفرَغْ منه؟ فقال: «على شيءٍ قد فُرِغ منه يا عُمَر وجَرَت به الأقلامُ، ولكن كلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلِقَ له»[1].
ثم بَيَّن تعالى حالَ الأشقياءِ وحالَ السُّعداءِ، فقال:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾، قال ابنُ عباس: الزفيرُ في الحَلْقِ، والشهيقُ في الصَّدْرِ. أي: تَنَفُّسُهم زفيرٌ، وأخذُهم النفسَ شهيقٌ، لمَا هُم فيه من العَذَابِ، عياذاً بالله من ذلك. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، قال الإمام أبو جعفر بنُ جَرير: من عادة العَرَبِ إذا أرادت أن تَصِفَ الشيءَ بالدوام أبداً قالت: هذا دائمٌ دوام السمواتِ والأرض، وكذلك يقولون: هو باقٍ ما اختلف الليلُ والنهار، وما سَمر ابنا سَمير وما لألاتِ العُفْرُ بأذنابها. يعنُون بذلك كله: «أبداً»، فخاطبهم جَلَّ ثناؤه بما يتعارفُونه بينهم، فقال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾. (قلتُ): ويَحتمِلُ أنَّ المرادَ بما دامت السمٰوات والأرضُ الجنسُ، لأنه لا بُدَّ في عالم الآخرة من سمٰوات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، ولهذا قال الحسن البصريُّ في قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، قال: تُبدَّلُ سماءٌ غيرُ هذه السماء، وأرضٌ غيرُ هذه الأرض، فما دامت تلك السماءُ وتلك الأرضُ. وقال ابنُ أبي حاتم: ذُكر عن سفيان بن حُسَين، عن الحكم، عن مجاهدٍ، عن ابن عباس قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، قال: لكل جَنَّة سماءٌ وأرضٌ. وقال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَمَ: ما دامت الأرضُ أرضاً، والسماءُ سماءً. وقولُه: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، كقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وقد اختلف المفسِّرون في المراد من هذا الاستثناءِ، على أقوالٍ كثيرةٍ، حكاها الشيخُ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه «زادُ المَسير»، وغيرُه عن علماء التفسير، ونقل كثيراً منها الإمامُ أبو جعفر بنُ جرير ـ رحمه الله ـ في كتابه، واختار هو ما نقله عن خالد بن مَعْدَانَ، والضحَّاك، وقتادةَ، وأبي سنانَ، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً: أن الاستثناءَ عائدٌ على العُصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعَةِ الشافعين، من الملائكةِ والنَّبيين والمؤمنين، حين يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمةُ أرحمِ الرَّاحمين، فتُخرِجِ من النار مَن لم يعمل خيراً قطُّ، وقال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله. كما وَرَدت بذلكَ الأخبارُ الصحيحةُ المستفيضةُ عن رسول الله ﷺ بمضمُونِ ذلك من حديث أنس، وجابر، وأبي سعيدٍ، وأبي هُرَيرَةَ، وغيرهم من الصحابة، ولا يبقى بعد ذلك في النارِ إلا مَن وجبَ عليه الخلودُ فيها ولا محيدَ له عنها. وهذا الذي عليه كثيرٌ من العلماء قديماً وحديثاً في تفسيره هذه الآيةِ الكريمةِ. وقد رُوِي في تفسيرها عن أمير المؤمنين عُمَر بن الخطاب، وابنِ عَبَّاس، وابن مسعود، وأبي هُرَيرة، وعبد الله بن عمرو،

---

(١) حديث قوي بشواهده. إسناده ضعيف لضعف سليمان بن سفيان، لكن توبع، ولم أجده بهذا الإسناد في المطبوع من مسند أبي يعلى ولعله في مسنده الكبير الذي لم يطبع، ولكن أخرجه أبو يعلى ٥٤٦٣ حدثنا أبو خيثمة، حدثنا حبان بن هلال، حدثنا شعبة قال: عاصم بن عبيد الله أخبرني قال سمعت سالماً يحدث عن ابن عمر أن عمر... الحديث. وهذا إسناد ضعيف لضعف عاصم بن عبيد الله بن عاصم بن عمر بن الخطاب وأخرجه الطيالسي (٦٢) من طريق شعبة بهذا الإسناد. وأخرجه أحمد ٢/ ٥٢، والترمذي ٢١٣٦ من طريق عبد الرحمن بن مهدي. وأخرجه أحمد ٢/ ٧٧ من طريق عفان كلاهما عن شعبة به وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. قلت: وله شاهد من حديث علي عند أبي يعلي برقم ٣٧٥ ومن حديث جابر عنده أيضاً ٢٠٥٤ و ٢١١٠، وفي الباب أحاديث.

وجابر، وأبي سعيد، من الصحابة. وعن أبي مِجْلَز، والشعبيِّ، وغيرهما من التابعين، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلَم، وإسحاقَ بن راهَوَيه وغيرهما من الأئمة ـ أقوالٌ غريبةٌ[1]، ووردَ حديثٌ غريب في مُعجَم الطَّبَرانيِّ الكبيرِ، عن أبي أمامة صُدَيِّ بن عَجلانَ الباهليِّ، ولكن سَنَده ضعيف، والله أعلم. وقال قتادة: الله أعلم بِثُنْيَاه. وقال السدِّيُّ: هي منسُوخةٌ بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾، وهم أتباعُ الرسل، ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: فمأواهم الجنةُ، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين مقيمينَ فيها أبداً، ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، معنى الاستثناء ها هنا أن دَوامهم فيما هم فيه من النعيم، ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكولٌ إلى مشيئةِ الله تعالى، فله المنةُ عليهم، ولهذا يُلهَمُون التسبيحَ والتحميدَ كما يُلهَمُونَ النَّفَس. وقال الضحاكُ، والحسنُ البصريُّ: هي في حَقِّ عُصاة الموحِّدين الذين كانُوا في النار، ثم أخرِجُوا منها. وعَقَّب ذلك بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، أي غير مقطوع. قاله ابنُ عباس، ومجاهد، وأبو العالية وغيرُ واحد، لئلاَّ يَتوهَّم مُتوهِّم بعد ذكره المشيئة أنَّ ثَمَّ انقطاعاً، أو لبساً، أو شيئاً، بل خَتَم له بالدوام وعدم الانقطاع، كما بيَّن هنا أن عذاب أهل النار في النار دائماً مَردُودٌ إلى مشيئته، وأنه بعَدْله وحكمته عذبهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، كما قال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾، وهنا طيَّبَ القلوبَ وثبَّت المقصودَ بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

[٣٨١٦] وقد جاء في الصَّحيحَين: «يُؤتى بالموتِ في صُورَةِ كَبْشٍ أملَحَ فَيُذبَحُ بين الجَنَّة والنارِ، ثم يُقال: يا أهلَ الجَنَّة، خُلودٌ فلا مَوتَ، ويا أهلَ النارَ، خُلودٌ فلا مَوتَ»[2].

[٣٨١٧] وفي الصَّحِيحين أيضاً: «فيقال: يا أهلَ الجنة، إنَّ لكم أن تَعِيشوا فلا تموتُوا أبداً، وإن لكم أن تَشِبُوا فلا تَهرَمُوا أبداً، وإن لكم أن تَصِحُوا فلا تَسقَمُوا أبداً، وإن لكم أن تنعمُوا فلا تَبأسُوا أبداً»[3].

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركون إنه باطلٌ وجهل وضلالٌ، فإنَّهم إنما يعبدُون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي: ليس لهم مُستَنَدٌ فيما هم فيه إلا اتباع الآباءِ في الجهالات، وسَيَجزِيهم الله على

---

(١) ذكر السيوطي في «الدر المنثور» ٣/ ٦٣٥ هذه الأقوال عن عمر، وأبي هريرة، وابن عمرو بن العاص وغيرهم «أنه يأتي على جهنم زمان تخفق أبوابها»، لكن في صحة الأسانيد عنهم نظر، وأما المرفوع عن أبي أمامة، فلم يذكره السيوطي في الدر، وهو في تخريج الكشاف ٢/ ٤٣١، والله أعلم، وهذا القول مرجوح، والجمهور على خلود أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٣٠ ومسلم ٢٨٤٩ والترمذي ٣١٥٦ من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) صحيح. أخرجه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري: مسلم ٢٨٣٧ والترمذي ٣٢٤٦ وأحمد ٢/ ٣١٩ و ٣/ ٣٨ و ٩٥ والدارمي ٢/ ٣٣٤.

ذلك أَتَم الجزاء فَيُعذب كافِرَهم عذاباً لا يُعَذِّبه أحداً من العالمين، وإن كان لهم حسناتٌ فقد وَفاهم الله إيَّاها في الدنيا قبل الآخرة. قال سفيانُ الثوريُّ، عن جابر الجُعفي، عن مجاهدٍ، عن ابنِ عَبَّاس: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾، قال: ما وُعدوا فيه من خيرٍ أو شر. وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ: لموفُّوهم من العَذاب نصيبَهُم غيرَ منقُوص. ثم ذكر تعالى أنه آتى مُوسَى الكتابَ فاختلفَ الناسُ فيه، فَمِن مُؤمنٍ به وَمِنْ كافرٍ به، فَلَكَ بمن سَلَف مِن الأنبياء قبلك يا محمدُ أسوةٌ، فلاَ يَغِيظنَّك تكذيبُهم لك، ولا يَهيدَنَّك ذلك.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، قال ابنُ جَرِير: لولا ما تقدَّم من تأجيلِهِ العذابَ إلى أجلٍ معلُوم لَقَضَى الله بينهم. ويَحتَمِل أن يكونَ المرادُ بالكلمة أنه لا يعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجَّةِ عليه، وإرسالهِ الرسُول إليه، كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ فإنه قد قال في الآيةِ الأخرى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٢٩ ـ ١٣٠]. ثم أخبرَ أنَّ الكافرين في شكٍّ مما جاءَهُم به الرسول قويٍّ، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾. ثم أخبرنا تعالى أنه سيجمَعُ الأوَّلين والآخِرين من الأُمم، ويجزيهم بأعمالهم، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ، فقال: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾، أي: عليم بأعمالهم جميعها، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها. وفي هذه الآية قراءاتٌ كثيرة، ويرجِعُ معناها إلى هذا الذي ذكرناه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يس: ٣٢].

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يأمرُ تعالى رسولَه وعبادَه المُؤمنين بالثَّباتِ والدَّوام على الاستقَامةِ، وذلك من أكبر العَوْنِ على النَّصرِ على الأعداءِ ومخالفةِ الأضدادِ. ونهى عن الطغيان، وهو البغيُ، فإنَّه مصْرَعَةٌ حتى ولو كان على مُشركٍ، وأعلم تعالى أنه بصيرٌ بأعمال العباد، لا يغفُل عن شيءٍ، ولا يخفَى عليه شيءٌ.

وقولُه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: لا تُدْهِنُوا. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو الركونُ إلى الشرك. وقال أبو العالية: لا تَرْضوا أعمالهم. وقال ابنُ جُرَيج، عن ابن عباس: لا تَميلوا إلى الذين ظَلَموا. وهذا القولُ حسنٌ، أي: لا تستَعِينُوا بالظَّلَمة فتكونُوا قد رضيتم بباقي صَنيعهم، ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، أي: ليس لكم من دونه من وليٍ يُنقِذكم، ولا نَاصِرٍ يُخلِّصكم من عَذَابِه.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عبَّاس: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾، قال: يعني الصبحَ والمغربَ: وكذا قال الحسنُ، وعبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ. وقال الحسنُ ـ في روايةٍ ـ وقتادةُ، والضحاكُ، وغيرُهم: هي الصبحُ والعصرُ. وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار، والظهر والعصر من آخره. وكذا قال محمد بن كعب القُرَظِيُّ، والضحاك في رواية عنه. وقولُه ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والحسنُ وغيرُهم: يعني صلاةَ العِشاءِ.

[٣٨١٨] وقال الحسنُ ـ في روايةِ ابنِ المُبَارك، عن مبارك بن فَضالَةَ، عنه: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾، يعني

المغربَ والعِشَاءَ، قال رسولُ الله ﷺ: «هما زُلْفَتَا الليل: المغربُ والعشاءُ»[1]. وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب وقتادة، والضحاك: إنها صلاة المغربِ والعشاء. وقد يَحْتَمِلُ أن تكون هذه الآية نزلت قبل فَرْضِ الصلَوات الخمس ليلةَ الإسراءِ؛ فإنه إنما كان يَجِبُ من الصلاةِ صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبلَ غروبها. وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نُسِخَ في حقِّ الأمَّةِ، وثَبت وجوبهُ عليه، ثم نُسُخ عنه أيضاً في قولٍ، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، يقولُ: إن فعل الخيراتِ يُكَفِّر الذُّنوبَ السالفة.

[٣٨١٩] كما جاءَ في الحديثِ الذي رواه الإمامُ أحمدُ وأهلُ السُّنَنِ، عن أمير المؤمنينِ عَليِّ بن أبي طالب، قال: كنتُ إذا سَمِعتُ من رسولِ الله ﷺ حديثاً نَفَعني الله بما شاء أن ينفَعَني منه، وإذا حَدَّثني عنه أحدٌ استحلفتهُ، فإذا حَلَفَ لي صَدَّقته، وحدثني أبو بكر ـ وصَدَق أبو بكر ـ أنه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «ما من مُسلِمٍ يُذنبُ ذنباً فَيَتوضَّأُ ويُصلِّي ركعتين، إلا غُفِرَ له»[2].

[٣٨٢٠] وفي الصَّحِيحين، عن أمير المؤمنين عثمانَ بن عفان: أنه تَوضَّأَ لهم كوضوء رسولِ الله ﷺ ثم قال: هكذا رأيتُ رسولَ الله يتوضَّأ، وقال: «مَن تَوضَّأَ نحو وُضُوئي هذا، ثم صَلَّى ركعتين لا يُحدِّثُ فيهما نفسَه، غُفِر له ما تَقدَّم من ذَنبِهِ»[3].

[٣٨٢١] وروى الإمامُ أحمد، وأبو جعفرِ بنِ جَريرٍ، من حديثِ أبي عَقيل زُهْرَة بن مَعْبَدٍ: أنه سمع الحارث مولى عثمان يقولُ: جلس عثمانُ يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذِّن، فدعا عثمانُ بماء في إناء أظنُّه سيكون فيه قَدرُ مُدٍّ فتوضَّأ، ثم قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يتوضَّأ وُضُوئي هذا، ثم قال: «من تَوضَّأ وُضُوئي هذا ثم قام فَصَلَّى صلاة الظهر، غُفِر له ما كان بينه وبين صلاة الصُّبح، ثم صَلَّى العصر غُفِر له ما بينه وبين صلاة الظُّهر، ثم صَلَّى المغرب غُفِرَ له ما بينه وبين صلاة الصبح، ثم صَلَّى العشاءُ غُفِر له ما بينه وبين صلاة المغرب، ثم لَعلَّه يبيت يتَمرَّغُ ليلتَه، ثم إن قام فَتَوضَّأ وصلَّى الصُّبحَ غُفِر له ما بينها وبين صَلاَةِ العشاء، وهُنَّ الحسناتُ يُذهِبن السيِّئات»[4].

[٣٨٢٢] وفي الصحيح عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أرأيتم لو أَنَّ بباب أحدكم نهراً غَمْراً يغتسِلُ فيه كلَّ يوم خَمسَ مرَّاتٍ، هل يُبقي من دَرَنِهِ شيئاً؟» قالوا: لا، يا رسولَ الله. قال: «وكذلك الصلواتُ الخمسُ، يمحُو الله بِهنَّ الذنوبَ والخطايا»[5].

---

(١) ضعيف جداً، أخرجه الطبري ١٨٦٤٨ وهذا مرسل، ومراسيل الحسن واهية، والخبر منكر.

(٢) حسن. أخرجه أحمد رقم (٢) و (٤٧) و (٤٨) و (٥٦)، والحميدي (٤)، وابن أبي شيبة ٢/ ٣٨٧، وابن ماجه ١٣٩٥، والنسائي في عمل اليوم والليلة ٤١٥. وإسناد وحسن.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ١٥٩ و ١٦٤ و ١٩٣٤ و ٦٤٣٣، ومسلم ٢٢٦ وأبو داود ١٠٦، ١٠٧ والنسائي ١/ ٦٤، ٦٥، والدارمي ٦٩٧، وابن ماجه ٢٨٥، والدارقطني ١/ ٨٣.

(٤) حسن. أخرجه أحمد رقم ٥١٣، والبزار (٤٠٥)، والطبري ١٢/ ١٣٢ من حديث عثمان بن عفان وأورده الهيثمي في المجمع ١/ ٢٩٧، وقال: في الصحيح بعضه، رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار ورجاله رجال الصحيح غير الحارث بن عبد الله (كذا قال: وصوابه ابن عبد، ويغلب على الظن أنه خطأ من الناسخ) مولى عثمان بن عفان وهو ثقة. قلت: وصححه العلامة أحمد شاكر في تعليقه على المسند، والصواب أنه حسن لأجل الحارث مولى عثمان والله أعلم.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٨ ومسلم ٦٦٧، والترمذي ٢٨٦٨، والنسائي ١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١، والدارمي ١/ ٢٦٨، وأحمد ٢/ ٣٧٩، وأبو عوانة ٢/ ٢٠، وابن حبان ١٧٢٦.

[٣٨٢٣] وقال مسلم في صَحِيحه: حدثنا أبو الطَّاهِر وهارون بن سعيد قالا: حدثنا ابنُ وهب، عن أبي صَخْرٍ: أن عُمَر بن إسحاق مولى زائدةَ حَدَّثه، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلواتُ الخمس، والجمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ، مُكَفِّراتٌ ما بينهنَّ إذا اجتُنِبَتِ الكبائرُ»(١).

[٣٨٢٤] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا الحَكَم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، عن ضَمْضَم بن زُرْعَةَ، عن شُرَيحِ بن عُبَيد، أن أبا رُهْم السَّمْعِيَّ كان يحدّث: أن أبا أيوبَ الأنصاريَّ حَدَّثه أن النبي ﷺ كان يقولُ: «إنَّ كلَّ صلاةٍ تَحُطُّ ما بين يَدَيها من خطيئة»(٢).

[٣٨٢٥] وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا مُحمَّد بن عوف، حدثنا مُحمَّد بن إسماعيلَ، حدثنا أبي، عن ضَمْضَمِ بن زُرْعَةَ، عن شُرَيح بن عُبَيد، عن أبي مالك الأشعريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «جُعِلَتِ الصلواتُ كفَّاراتٍ لما بينهنَّ؛ فإن الله قال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾»(٣).

[٣٨٢٦] وقال البخاريُّ: حدثنا قُتَيبة بن سعيد، حَدثنا يزيد بن زُرَيع، عن سُليمان التَّيمِيِّ، عن أبي عثمانَ النهديِّ، عن ابن مسعودٍ: أن رجلاً أصابَ من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، فقال الرجلُ: ألي هذا يا رسولَ الله؟ قال: «لجميع أُمَّتي كلِّهم»(٤). هكذا رَواه في كتاب الصلاة، وأخرجَه في التفسير عن مُسَدِّدٍ، عن يَزِيدَ بن زُرَيع، بنحوه. ورواه مُسلِمٌ، وأحمد، وأهل السنن إلا أبا داود، من طُرُق، عن أبي عثمان النهديِّ، واسمه عبد الرحمن بن مُلّ، به.

[٣٨٢٧] ورواه الإمامُ أحمد، ومسلم، وأبو داودَ والترمذيُّ، والنسائي، وابنُ جرير ـ وهذا لفظُه ـ من طُرُقٍ، عن سِمَاك بن حَرْب: أنه سَمِعَ إبراهيمَ بن يَزيدَ يُحدِّثُ عن علقمةَ والأسودِ، عن ابن مسعودٍ قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إني وجدتُ امرأةً في بُستانٍ، ففعلتُ بها كُلَّ شيء، غير أني لم أجامِعْهَا، قَبَّلتها ولَزِمتُها، ولم أفعل غير ذلك، فافعل بي ما شئتَ. فلم يَقُل رسولُ الله ﷺ شيئاً، فذهب الرجُل، فقال عُمر: لقد سَتَر الله عليه، لو سَتَر على نفسه! فأتبعه رسولُ الله بصرَه ثم قال: «رُدُّوه عليَّ». فَردُّوه عليه، فقرأ عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾. فقال معاذُ ـ وفي رواية عُمر ـ: يا رسولَ الله، أله وحده، أم للناسِ كافةً؟ فقال: «بل للناس كافةً»(٥).

[٣٨٢٨] وقال الإمامُ أحمد: حَدَّثنا محمد بن عبيد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصَّباح بن محمد، عن مُرّة الهَمْداني، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسولَ الله ﷺ: «إن الله قَسَم بينكم أخلاقكم كما قَسَم

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٣٣، والترمذي ٢١٤، وابن ماجه ١٠٨٦، وأحمد ٢/ ٢٢٩ و ٣٥٩ و ٤٠٠ و ٤١٤ وأبو عوانة ٢/ ٢٠، والطيالسي ٢٤٧٠، وابن حبان ١٧٣٣.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٥/ ٤١٣ والطبراني في الكبير ٤/ ١٢٦ رقم ٣٨٧٩، وفي مسند الشاميين ١٦٣٨، وقال الهيثمي في المجمع ١/ ٢٩٨: إسناده حسن، وكذا حسنه المنذري في الترغيب ١/ ٣١٤.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان ١٨٦٧٨ وإسناده ضعيف لأجل محمد بن إسماعيل، وهو ابن عياش.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٦ و ٤٦٨٧ ومسلم ٢٧٦٣ والترمذي ٣١١٤ والنسائي في «التفسير» ٢٦٧ وابن ماجه ٤٢٥٤.

(٥) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٦٣ح٤٢، وأبو داود ٤٤٦٨، والترمذي ٣١١٢، والطيالسي ٢٨٥، وأحمد رقم ٤٢٥٠ و ٤٢٩٠ و ٣٦٥٣، والطبري ١٨٦٨٨ و ١٨٦٨٢ وابن حبان ١٧٢٨ و ١٧٣٠.

بينكم أرزاقكم، وإن الله يُعطِي الدُّنيا مَن يحبُّ ومَن لا يُحبّ، ولا يُعطِي الدِّين إلا من أَحَبَّ، فمن أعطاه الله الدِّين فقد أحبَّه، والذي نفسي بيده لا يُسْلِمُ عبدٌ حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يُؤمِن حتى يَأمن جارهُ بَوائِقَه». قال: قلنا: وما بَوَائِقُه يا نَبِيَّ الله؟ قال: «غِشُّهُ وظُلمه، ولا يكسبُ عبد مالاً حَراماً فَيُنفِق منه فَيُبارَكَ له فيه، ولا يَتَصدَّق فَيُقبلَ منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زادَه إلى النار، إن الله لا يمحُو السيِّئَ بالسَّيء، ولكنه يمحُو السَّيِّءَ بالحسن، إن الخبيثَ لا يمحُو الخبيثَ»[١].

[٣٨٢٩] وقال ابنُ جرير: حدثنا أبو السائِبِ، حدثنا أبو مُعَاوية، عن الأعمش، عن إبراهيمَ قال: كان فلانُ بن مُعَتِّب رجلاً من الأنصار، فقال: يا رسولَ الله دخلت عليّ امرأة فنِلْتُ منها ما ينالُ الرجلُ من أهله، إلا أني لم أجامِعْهَا. فَلَم يَدرِ رسولُ الله ﷺ ما يُجيبه، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾. فدعاهُ رسولُ الله، فقرأها عليه[٢]. وعن ابن عباس: أنه عَمرو بن غَزِيّة الأنصاريُّ التَّمار، وقال مقاتِلٌ: هو أبو نُفَيل عامرُ بن قَيس الأنصاريُّ، وذكر الخطيبُ البغدادي أنه أبو اليَسَر: كَعْبُ بن عَمرو.

[٣٨٣٠] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا يونس وعفَّانُ قالا: حدثنا حَمَّاد ـ يعني ابن سلمَة ـ عن علي بن زيدٍ ـ قال عَفَّان: أنبأنا عليُّ بن زيدٍ، عن يوسفَ بن مِهران، عن ابن عباس: أن رجُلاً أتى عُمَر قال: امرأة جاءت تُبايعه، فأدخلتها الدَّوْلَجَ، فأصبتُ منها ما دُون الجماع، فقال: ويحكَ! لعَلَّها مَغِيبَةٌ في سبيل الله؟ قال: أجل. قال: فَائتِ أبا بكر فاسأله. قال: فَسأله فقال: لعلها مُغِيبَةٌ في سبيل الله؟ فقال مثلَ قولِ عُمرَ، ثم أتى النبيَّ ﷺ فقال له مثل ذلك، قال: «فلعلها مُغِيبَةٌ في سبيل الله». ونزل القرآن: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾... إلى آخر الآية، فقال: يا رسولَ اللهِ، ألي خاصَّة أم للناس عامَّة؟ فَضرب ـ يعني عُمرَ ـ صدره بيده وقال: لا، ولا نعمَةَ عين، بل للناس عامَّةً. فقال رسولُ الله ﷺ: «صَدَقَ عمر»[٣].

[٣٨٣١] ورَوَى الإمامُ أبو جعفر بنُ جرير من حديث قيس بن الرَّبيع، عن عثمان بن موهب، عن موسى بن طلحَةَ عن أبي اليَسَرَ كعب بن عَمْرو الأنصارِي قال: أتتني امرأةٌ تبتاعُ مني بِدِرْهم تمراً، فقلت: إنَّ في البيت تمراً أطيبَ وأجودَ من هذا. فدخَلَت، فأهويتُ إليها فقبلتُها، فأتيتُ عُمَر فسألته، فقال: اتَّقِ الله واستر على نفسِكَ، ولا تخبرنَّ أحداً. قال: فلم أصبر حتى أتيتُ أبا بكر فسألتُه، قال: اتَّقِ الله، واستُر على نَفسِكَ، ولا تُخبِرَنَّ أحداً. قال: فلم أصبر حتى أتيتُ النبيَّ ﷺ فأخبرتُه، فقال: «أخلَفْتَ رَجُلاً غازياً في سبيل الله في أهلِهِ بمثل هذا؟!» حتى ظننتُ أني من أهل النار، حتى تَمنيتُ أني أسلمتُ ساعَتئِذٍ. فأطرقَ رسولُ الله ﷺ ساعةً فنزل جبريل، فقال: أينَ أبو اليَسَر؟ فَجِئتُ، فقرأ عليَّ رسول الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ إلى ﴿ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾، فقال إنسانٌ: يا رسولَ اللهِ، أله خاصَّةً أم للناسِ عامَّةً؟ قال: «للناسِ عامَّةً»[٤].

---

(١) ضعيف. أخرجه أحمد رقم ٣٦٧٢ من حديث عبدالله بن مسعود، وقال الهيثمي في المجمع ١/ ٥٣: رواه أحمد، ورجال إسناده بعضهم مستور وأكثرهم ثقات. قلت: فيه الصباح بن محمد وهو واه.

(٢) مرسل. أخرجه الطبري ١٨٦٨٨ وهذا مرسل، لكن يتأيد بشواهده.

(٣) أخرجه أحمد ٢٢٠٧ والطبراني ٢٩٣١ من حديث ابن عباس، وإسناده ضعيف لأجل علي بن زيد، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٠٧٨: علي بن زيد سيء الحفظ ثقة اهـ قلت: جزم الحافظ في «التقريب» بضعف علي بن زيد، ثم إن الحديث منكر بهذا اللفظ، وتقدم بألفاظ محفوظة متقاربة، والله أعلم.

(٤) حسن. أخرجه الترمذي ٣١١٥، والنسائي ٢٦٨ والطبري ١٨٦٩٧ و ١٨٦٩٨. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره هـ. قلت: تابعه شريك عند النسائي فالحديث حسن، ويتأيد بما بعده.

[٣٨٣٢] وقال الحافظُ أبو الحسن الدارقطنيُّ: حدثنا الحُسَين بن إسماعيل المحاملي، حدثنا يوسفُ بن موسى، حدثنا جريرٌ، عن عبد الملك بن عُمَير، عن عبد الرَّحمن بن أبي ليلى، عن مُعاذِ بن جَبَل: أنه كان قاعِداً عند النبيِّ ﷺ. فجاءه رجلٌ فقال: يا رسول الله، ما تقولُ في رجل أصابَ من امرأةٍ لا تَحلُّ له، فلم يَدَع شيئاً يُصيبه الرجلُ من امرأته إلا قد أصاب منها، غير أنه لم يُجامعها؟ فقال له النبي ﷺ: «توضأ وُضوءاً حسَناً، ثم قم فصَلِّ»، قال: فأنزل الله ـ عز وجل ـ هذه الآية، يعني قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾، فقال معاذ: أهِي له خاصَّةً أم للمسلمين عامة؟ قال: «بل للمسلمين عامَّة»(١). ورواه ابنُ جرير من طرق، عن عبد الملك بن عُمير، به.

[٣٨٣٣] وقال عبد الرزاق: أخبرنا محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن يحيى بن جَعْدَة: أن رَجُلاً من أصحاب النبيِّ ﷺ ذكر امرأة وهو جالس مع رسول الله ﷺ فاستأذنه لحاجة، فأَذِنَ له، فذهب يطلبها فلم يجدها، فأقبلَ الرجلُ يريد أن يُبَشر النبي ﷺ بالمطر، فوجد المرأة جالسةً على غَدِير، فدفع في صدرها وجَلَس بين رجليها، فصار ذكره مثل الهُدْبة، فقام نادماً حتى أتى النبيَّ ﷺ فأخبره بما صَنَع، فقل له: «استغفر رَبَّك، وصَلِّ أربع ركعاتٍ». قال: وتلا عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ الآية(٢).

[٣٨٣٤] وقال ابنُ جرير: حدثني عبدُ الله بن أحمَد بن شَبّويه، حدثنا إسحاقُ بن إبراهيم، حَدَّثني عَمْرُو بن الحارث، حدثني عبد الله بن سالم، عن الزُّبَيديِّ، عن سُلَيم بن عامر: أنه سَمِع أبا أمامَة يقول: إنَّ رَجُلاً أتى النبيّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أَقِم فيَّ حدَّ الله ـ مَرَّةً أو اثنتَين ـ فأعرضَ عنه رسولُ الله ﷺ ثم أُقِيمت الصلاةُ، فلما فَرَغ النبيُّ ﷺ من الصلاة قال: «أين هذا الرجل القائل: أقم فيَّ حدَّ الله؟» قال: أنا ذا. قال: «هلَ أتممتَ الوضوءَ وصَلّيتَ معنا آنفاً؟» قال: نعم. قال: «فإنك من خَطِيئتك كما ولدتك أمُّك، ولاَ تَعدْ». وأنزل الله على رسول الله ﷺ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾(٣).

[٣٨٣٥] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفَّانُ، حدثنا حمّاد بن سلمَةَ، أنبأنا علي بن زيدٍ، عن أبي عثمانَ قال: كنتُ مع سلمانَ الفارسيِّ تحت شجرةٍ، فأخذَ منها غُصناً يابساً فهزَّه حتى تحاتَّ ورقهُ، ثم قال: يا أبا عثمان، ألا تسألني: لم أفْعَلُ هذا؟ فقلتُ: لم تفعله؟ قال: هكذا فَعَل بي رسول الله ﷺ وأنا معه تحتَ شجرةٍ، فأخذَ منها غصناً يابساً فهزه حتى تحاتَ ورقُهُ، فقال: يا سَلْمانُ، ألا تسألني: لم أفعَلُ هذا؟ قلتُ: وَلِمَ تفعَلُه؟ فقال: «إن المُسلِمَ إذا تَوَضَّأ فأحسنَ الوضُوءَ ثم صَلَّى الصلواتِ الخمس، تحاتّت خطايَاه كما يَتَحاتُ هذا الورَق». وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤﴾(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي ٣١١٣، والدارقطني ١/ ١٣٤، والطبري ١٨٦٩٥ من حديث معاذ بن جبل. قال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بمتصل عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ، ومعاذ بن جبل مات في خلافة عمر، وقتل عمر وعبد الرحمن بن أبي ليلى غلام صغير ابن ست سنين اهـ. لكن يتأيد بما بعده.

(٢) مرسل. أخرجه الطبري ١٨٦٩٦ من طريق عبد الرزاق بهذا الإسناد. وهو مرسل، لكن يتأيد بشواهده.

(٣) أخرجه الطبري ١٨٦٩٤ وإسناده ضعيف لضعف إسحق بن إبراهيم الحمصي، ولفظ «فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك» ضعيف، ولباقي الحديث شواهد.

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨ والطبراني٦١٥١ من حديث سلمان، قال الهيثمي في «المجمع» ١٦٥١: فيه علي بن زيد مختلف فيه، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ ولأصله شواهد، وهو بهذا الإسناد ضعيف.

[٣٨٣٦] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا وكيع، حدثنا سفيانُ، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ميمون بن أبي شَبِيب، عن معاذٍ ـ رضي الله عنه ـ: أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال له: «يا معاذُ، أتبع السيئة الحسنةَ تمحُها، وخالِق الناس بِخُلِق حسن»(١).

[٣٨٣٧] وقال الإمامُ أحمد ـ رضي الله عنه ـ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا سفيان، عن حَبِيب، عن ميمونِ بن أبي شَبِيب، عن أبي ذَرٍّ: أن رسولَ الله ﷺ قال: «اتَّقِ الله حيثُما كنتَ، وأَتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالِق الناسُ بخُلق حَسَن»(٢).

[٣٨٣٨] وقال أحمدُ: حدّثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمشُ، عن شِمْر بن عَطِيَّةَ، عن أشياخِهِ، عن أبي ذَرٍّ قالَ: قلتُ: يا رسولَ الله، أوصِني. قال: «إذا عَملتَ سيئةً فَأَتبعها حسنَة تمحُها». قال: قلت يا رسولَ الله، أَمِنَ الحسناتِ: لا إله إلا الله؟ قال: «هي أفضلُ الحَسَناتِ»(٣).

[٣٨٣٩] وقال الحافظ أبو يَعْلَى المَوْصِليُّ: حدثنا هُذيل بن إبراهيم الجُمّاني، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الزُّهري، من ولد سعد بن أبي وَقّاصٍ، عن الزُّهري؛ عن أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما قال عبدٌ: لا إله إلا الله في ساعةٍ من ليل أو نهارٍ، إلا طَلَّسَت ما في الصَّحيفة من السيِّئاتِ، حتى تسكُن إلى مِثلِها من الحسنات»(٤). عثمان بن عبد الرحمن يقال له: الوَقّاصِيُّ، فيه ضعفٌ.

[٣٨٤٠] وقال الحافظ أبو بكر البزّار: حدثنا بشرُ بن آدمَ وزَيدُ بن أَخْزَمَ قالا: حدثنا الضَّحّاكُ بنُ مَخْلَدٍ، حدثنا مَسْتُورُ بن عَبّاد، عن ثابت، عن أنسٍ: أن رجُلاً قال: يا رسول الله، ما تركتُ من حاجةٍ ولا داجة فقال رسول الله ﷺ: «تشهدُ أن لا إله إلا الله وأني رسولُ الله؟» قال: بلى. قال: «فإنَّ هذا يأتي على ذلك»(٥). تفرّد به من هذا الوجه مستورٌ.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

يقولُ تعالى: فهلاَّ وُجِدَ من القرون الماضيةِ بقايا من أهل الخير يَنْهَون عما كان يقَع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض. وقولُه: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: وُجِد منهم من هذا الضربِ قليلٌ لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حُلُولِ غِيرَهِ، وفَجْأة نِقَمِهِ، ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفةَ أن يكونَ فيها من

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٢٨ وإسناده ضعيف، ميمون فيه ضعف، ولم يسمع من معاذ.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٥٢ و ١٧٧ والترمذي ١٩٨٧، والدارمي ٢٧٩١ والحاكم ١/ ٥٤ من حديث أبي ذر، قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، والصواب أنه حسن إن كان ميمون سمعه من أبي ذر. وانظر صحيح الترمذي ١٦١٨.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ١٦٠ من حديث أبي ذر، قال الهيثمي في «المجمع» ١٦٧٩٧: رجاله ثقات إلا أن شمر بن عطية حدث به عن أشياخه، ولم يسمّ أحداً منهم، ولشطره الأول شواهد منها المتقدم، والوهن في عجزه فقط، والله أعلم.

(٤) ضعيف أخرجه أبو يعلى ٣٦١١ من حديث أنس، وفي إسناده عثمان بن عبد الرحمن الزهري أعله الهيثمي في «المجمع» ١٦٨٠٣ به، وقال: متروك.

(٥) إسناده صحيح على شرط مسلم.

يأمرُ بالمعروفِ وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

[٣٨٤١] وفي الحديث: «إنَّ الناسَ إذا رأوُا المنكَر فلم يُغيِّرُوه أوشك أن يَعُمَّهم الله بعقاب»[1]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾. وقولُه: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾، أي: استمرُّوا على ما هُم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتُوا إلى إنكار أولئك حتى فَجأهم العذابُ، ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾. ثم أخبر تعالى أنه لم يُهلِك قريةً إلاَّ وهي ظالمةٌ، ولم يأت قريةً مصلحةً بأسُه وعذابُه قطُّ حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

يخبرُ تعالى أنه قادرٌ على جَعْله الناسِ كُلِّهم أمةً واحدةً، من إيمانٍ أو كُفرانٍ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾، وقولُه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، أي: ولا يزالُ الخُلفُ بين الناسِ في أديانهم واعتقاداتِ مِلَلِهم ونِحَلهم ومَذاهبهم وآرائهم. قال عكرمةُ: ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ في الهُدَى. وقال الحسنُ البصريُّ: ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ في الرزقِ يُسَخِّر بعضهم بعضاً. والمشهور الصحيح الأول. وقولُه: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، أي: المرحومين من أتباع الرسُل، الذين تَمسَّكوا بما أمِرُوا به من الدين. أخبرتهم به رسلُ الله إليهم، ولم يَزَل ذلك دأبهم، حتَّى كان النبيُّ ﷺ الأميُّ خاتَم الرسُلِ والأنبياءِ فاتبعُوه وصَدَّقوهُ، ونَصَرُوه وَوَازَرُوه، ففازُوا بِسعادةِ الدنيا والآخرة؛ لأنَّهم الفرقةُ الناجيةُ.

[٣٨٤٢] كما جاء في الحديثِ المرويِّ في المسانيد والسُّنَنِ، من طُرُقٍ يَشُدُّ بعضُها بعضاً: «إن اليهودَ افترقت على إحدى وسبعين فرقةً، وإنَّ النصارى افترقُوا على ثنتين وسبعين فرقةً، وستفتَرِق أُمتي على ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً، كُلُّها في النارِ إلا فرقةً واحدةً». قالوا: ومن هُم يا رسولَ الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[2]. رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة. وقال عطاءٌ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، يعني اليهودَ والنصارى والمجوسَ، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، يعني الحنيفيّة. وقال قتادة: أهلُ رحمةِ الله أهلُ الجماعة وإن تفرّقت ديارُهم وأبدانُهم، وأهلُ معصيته أهلُ فُرقةٍ وإن اجْتمَعَتْ ديارُهم وأبدانُهم. وقولُه: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال الحسنُ البصريُّ ـ في رواية عنه ـ: وللاختلاف خَلَقهم، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: خَلَقهم فريقَين، كقولِهِ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾. وقيل: للرَّحمةِ خَلَقهم، قال ابنُ وهب: أخبرني مسلمُ بن خالدٍ، عن ابن أبي نَجيح، عن طاووس: أن رجلين اختصَما إليه فأكثرا، فقال طاووس: اختلفتُما فأكثرتُما! فقال أحد الرجلين: لذلك خَلَقنا. فقال طاووس: كذبت. فقال: أليس الله يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: لم يخلقهم ليختلفوا، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة. كما قال الحكمُ بن أبان، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: للرحمةِ خَلَقهم، ولم يخلُقهم للعذاب. وكذا قال مجاهدٌ

(١) تقدم في سورة المائدة.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٢/ ٣٣٢، وأبو داود ٤٥٩٦ والترمذي ٢٦٤٠، وابن ماجه ٣٩٩١، وأبو يعلى ٥٩١٠ و ٥٩٧٨ و ٦١١٧ وابن حبان ٦٢٤٧ و ٦٧٣١ والحاكم ١/ ١٢٨ من حديث أبي هريرة. وله شواهد كثيرة، وتقدمت.

والضحَّاك وقتادةُ. ويرجعُ معنى هذا القول إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقيل: بل المرادُ: وللرحمةِ والاختلافِ خَلَقهم، كما قال الحسنُ البصري ـ في روايةٍ عنه ـ في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: الناس مختلفون على أديان شتّى، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، فمن رَحِم ربُّك غيرُ مختلف. قيل له: فَلِذلك خلقهم؟ فقال: خَلَق هؤلاء لجنته، وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لرحمتِهِ، وخلق هؤلاء لعذابه. وكذا قال عطاءُ بن أبي رَبَاح، والأعمشُ. وقال ابنُ وهب: سألتُ مالكاً عن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: فَريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير. وقد اختار هذا القولَ ابنُ جرير، وأبو عُبَيدة والفرَّاء. وعن مالِكٍ فيما رويناه عنه في التفسير: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: للرحمة، وقال قوم: للاختلافِ. وقولُه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، يخبر تعالى أنه قد سَبَق في قَضَائه وقَدَره، لعلمِه التام وحكمتِهِ النافذة، أنَّ ممن خلقه من يستحقُّ الجنةَ، ومنهم مَن يستحقُّ النار، وأنه لا بدَّ أن يَملأ جهنم من هذين الثَّقلَين الجنِّ والإنسِ، وله الحجةُ البالغةُ والحكمةُ التامة.

[٣٨٤٣] وفي الصَّحيحَين عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمتِ الجنةُ والنارُ، فقالت الجنةُ: ما لي لا يدخُلني إلا ضَعفَةُ الناس وسَقَطُهم؟ وقالتِ النار: أوثِرتُ بالمُتكبِّرين والمُتجبِّرين. فقال الله ـ عز وجلَّ ـ للجنةِ: أنتِ رحمتي، أرحمُ بك من أشاء. وقال للنار: أنتِ عذابي، أنتقمُ بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما مِلؤها. فأما الجنةُ فلا يزالُ فيها فضلٌ حتى ينشىءَ الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزالُ تقول: هل من مزيدٍ؟ حتى يضعَ عليها ربُّ العزة قَدَمه، فتقول: قَطْ قَطْ، وعزتك»[1].

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٠﴾

يقولُ تعالى: وكلُّ أخبار نقصُّها عليك من أنباءِ الرسل المتقدِّمين قبلك مع أممهم، وكيف جَرَى لهم من المحاجَّات والخُصُومات، وما احتمله الأنبياءِ من التكذيب والأذى، وكيف نَصَر الله حِزْبَه المؤمنين وخَذَل أعداءَه الكافرين، كلُّ هذا مما نُثَبِّت به فؤادكَ ـ يا محمد ـ أي: قَلْبَك، ليكونَ لك بمن مضَى من إخوانك من المرسلين أسْوَة. وقولُه: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾، أي: هذه السورةِ. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وجماعةٌ من السَّلف: وعن الحسن ـ في روايةٍ عنه ـ وقتادةَ: في هذه الدنيا. والصحيح: في هذه السورةِ المشتملة على قَصَص الأنبياء وكيف نجّاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين، جاءك فيها قَصَصٌ حق، ونبأ صِدْقٌ، وموعظة يرتدعُ بهاالكافرون، وذكرى يتذكَّرُ بها المؤمنون.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٤٩ و ٤٨٥٠ ومسلم ٢٨٤٦ح٣٥ و ٣٦، والترمذي ٢٥٦١ وعبد الرزاق ٢٠٨٩٣ و ٢٠٨٩٤ وأحمد ٢/ ٣١٤ و ٢٧٩ و ٥٠٧ من طرق عن أبي هريرة. قال البغوي في «شرح السنة» ١٥/ ٢٥٧: والقدم والرجلان، كما جاء في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما، من صفات الله سبحانه وتعالى، المنزه عن التكييف والتشبيه، وكذلك كل ما جاء من هذا القبيل في الكتاب، أو السنة، كاليد، والإصبع، والعين، والمجيء، والإتيان، فالإيمان بها فرض، والامتناع عن الخوض فيها واجب، فالمهتدي من سلك فيها سبيل التسليم، والخائض فيها زائغ، والمنكر معطِّل، والمكيِّف مشبِّه، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ سبحان ربنا رب العزة عما يصفون.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً رسوله أن يقولَ للذين لا يُؤمِنُون بما جاء به من ربِّه على وجه التهديد: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أي: على طريقتكم ومنهجِكم، ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾، أي: على طريقتنا ومَنْهَجِنا، ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾، أي: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وقد أنجز الله لرسوله وعده، ونَصَره وأيَّده، وجَعَل كَلِمَته هي العليا، وكَلِمة الذين كفرُوا السفلى، والله عزيز حكيم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيبِ السمواتِ والأرضِ، وأنه إليه المرجعُ والمآبُ وسَيُوفِّي كلَّ عاملٍ عَمله يوم الحساب، فله الخلقُ والأمرُ. فأمر تعالى بعبادتِهِ والتوَكُّلِ عليه؛ فإنه كافٍ من تَوَكَّل عليه وأنابَ إليه. وقولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، أي: ليس يخفى عليه ما عليه مُكَذِّبوك يا محمد، بل هو عليمٌ بأحوالهم وأقوالهم، وسَيَجزيهم على ذلك أتَمَّ الجزاءِ في الدنيا والآخرةِ، وسينصُرُك وحِزْبَكَ عليهم في الدارين. وقال ابنُ جرير: حدثنا ابنُ وكيع، حدثنا زيدُ بن الحباب، عن جعفرِ بن سُلَيمان، عن أبي عمران الجَوْني، عن عبد الله بن رَبَاح، عن كَعبٍ قال: خَاتمة التوراة خاتمة هود.

* * *

تم تفسير سورة هود عليه السلام، ولله الحمد والمنة



[٣٨٤٤] رَوى الثَّعلَبيُّ وغيرُه، من طريق سَلاّم ـ ويقال: سُلَيم ـ المَدَائِنيّ، وهو متروكٌ، عن هارونَ بن كثير ـ وقد نَصَّ على جَهَالته أبو حاتِم ـ عن زَيدِ بن أسلَمَ، عن أبيه، عن أُبيّ أمَامَةَ، عن أبي بن كَعب قال: قال رسولُ الله ﷺ: «علموا أرقَّاءكم سورةَ يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها، أو علَّمها أهلَه، أو ما ملكت يمينُه، هَوَّن الله عليه سكراتُ الموتِ، وأعطاه من القوة ألاّ يحسُد مسلماً»[١]. وهذا من هذا الوجه لا يصحُّ، لضعفِ إسنادِهِ بالكلِّية. وقد ساقه الحافظُ ابن عساكر مُتابعاً، من طريق القاسم بن الحَكَم، عن هارونَ بن كثير، به، ومن طريق شَبَابة، عن محمد بن عبد الواحد النَّضريِّ، عن علي بن زيد بن جُدعان ـ وعن عطاء بن أبي ميمونة، عن زِرِّ بن حُبَيش، عن أُبَيِّ بن كعب، عن النبي ﷺ فذكر نحوه. وهو منكر من سائِرِ طرقه.

[٣٨٤٥] ورَوَى البيهقي في الدلائل أن طائفة من اليهود حين سَمِعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا، لموافقتها ما عندهم[٢]. وهو من رواية الكَلبِيِّ، عن أبي صَالحٍ، عن ابن عَبَّاس.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾

أما الكلامُ على الحروف المقطَّعة فقد تقدَّم في أول سورة البقرة. وقولُه تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي: هذه آياتُ الكتاب، وهو القرآنُ، ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾، أي: الواضحُ الجليُّ، الذي يُفصِح عن الأشياء المُبهَمَة ويُفَسِّرها ويُبيِّنها. ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾، وذلك لأنَّ لغةَ العربِ أفصحُ اللغاتِ وأبينُها وأوسعُها، وأكثرُها تأديةً للمعاني التي تقومُ بالنفوس، فلهذا أُنزِلَ أشرفُ الكُتُب بأشرف اللُّغاتِ على أشرفِ الرسل، بِسِفارة أشرَفِ الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتُدِىء إنزالُه في أشرفِ شهور السنة وهو رمضانُ، فكَمُل من كلِّ الوُجوهِ، ولهذا قال تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾، أي: بِسَببِ إيحائِنا إليكَ هذا القرآن.

---

(١) باطل. أخرجه الواحدي ٢/ ٥٩٩، جاء في الميزان ٩١٦٩: هارون بن كثير عن زيد بن أسلم مجهول، وزيد عن أبيه، نكرة، ثم ذكر له حديثاً آخر، وقال: قال أبو حاتم: هذا باطل. وفيه سلام بن سليم متروك متهم. وراجع تعليق المصنف رحمه الله.

(٢) باطل، أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٦/ ٢٧٦ مطولاً من حديث ابن عباس، وإسناده ساقط، فيه محمد بن مروان، وهو السدي الصغير متروك. والكلبي محمد بن السائب متروك متهم، وأبو صالح ضعيف.

[٣٨٤٦] وقد وَرَدَ في سبب نزولِ هذه الآياتِ ما رواه ابنُ جرير: حدثني نصر بن عبد الرحمن الأوديُّ، حدثنا حَكّام الرازي، عن أَيُّوبَ، عن عمرو ـ هو ابن قيسٍ المُلائِيِّ ـ عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسولَ الله، لو قَصَصْتَ علينا؟ فنزلت: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[١]. ورواه من وجه آخر، عن عمرو بن قَيس مرسلاً.

[٣٨٤٧] وقال أيضاً: حدثنا محمدُ بن سعيد العطار، حدثنا عَمرو بن محمد، أنبأنا خَلّادٌ الصَفّار، عن عَمرو بن قيس، عن عمرو بن مُرّة، عن مِصْعَبِ بن سعد، عن سعدٍ قال: أُنزِلَ على النبيِّ ﷺ القرآنُ، قال: فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسولَ الله، لو قَصَصتَ علينا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾، إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ثم تَلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسولَ الله، لو حَدَّثتنا. فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣][٢]. . . الآية، وذكر الحديث ورواه الحاكمُ من حديث إسحاق بن رَاهويه، عن عَمرو بن محمد القُرَشي العَنْقزيِّ، به.

[٣٨٤٨] ورَوى ابنُ جرير بسنده، عن المَسعوديِّ، عن عَون بن عبد الله قال: مَلَّ أصحابُ رسول الله ﷺ مَلَّةً، فقالوا: يا رسولَ الله، حَدثنا فأنزل الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾، ثم مَلّوا مَلة أخرى فقالوا: يا رسول الله، حدثنا فوقَ الحديث ودُون القرآنِ. يعنون القَصص، فأنزل الله: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾، فأرادوا الحديث، فدلَّهم على أحسن الحديثِ، وأرادوا القَصَص فدلهم على أحسَن القصص[٣]. ومما يناسبُ ذكرُه عند هذه الآية الكريمةِ المشتملةِ على مدح القرآن، وأنه كافٍ عن كلِّ ما سواه من الكتب: ما قال الإمام أحمد:

[٣٨٤٩] حدثنا سُرَيجُ بن النعمان، أخبرنا هُشَيم، أنبأنا مُجالِد، عن الشَّعبي، عن جابر بن عبد الله: أن عُمَر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتابٍ أصابَه من بعضِ أهل الكتابِ، فقرأه على النبي ﷺ فَغَضِبَ وقال: «أمتهوِّكُونَ فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاءَ نقيَّةً، لا تسألوهم عن شيءٍ فيخبرُوكم بحق فتكذِّبونه، أو بباطل فتصدقونَه. والذي نَفسِي بيده لو أنَّ موسى كان حياً لما وَسِعَه إلا أن يتبعني»[٤].

[٣٨٥٠] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاقِ، أخبرنا سفيان، عن جابر، عن الشَّعبيِّ، عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عُمَر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إني مررتُ بأخٍ لي من قُرَيظَة، فكتب لي جوامعَ من التوراةِ، ألاَ أَعرِضُها عليك؟ قال: فَتغيَّر وجهُ رَسُول الله ﷺ قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بِوَجْهِ رسولِ الله ﷺ؟ فقال عُمَر: رَضِينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبِمُحمّد رسولاً. قال: فَسُرِّيَ عن النبي ﷺ وقال: «والذي نفسُ محمد بيده لو أصبَحَ فيكم موسَى ثم اتبعتموه وتركتموني لضَلَلْتُم، إنكم حَظِّي من الأمم، وأنا حَظُّكم من النبيِّين»[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ١٨٧٨٦، وهو منقطع، عمرو بن قيس لم يدرك ابن عباس، وكرره الطبري ١٨٧٨٧ مرسلاً، وهو أصح، وانظر ما بعده.

(٢) الحديث أخرجه الطبري ١٢/ ١٥٠ والواحدي ٥٤٤ والحاكم ٢/ ٣٤٥ وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه الطبري ١٨٧٨٨ وهذا مرسل، لكن يصلح شاهداً لما قبله، والله أعلم.

(٤) في إسناده مجالد بن سعيد ضعيف الحديث، وتقدم الكلام على هذا الحديث في سورة آل عمران آية ٨٢.

(٥) إسناده ضعيف لضعف جابر، وهو ابن يزيد الجعفي، وتقدم.

[٣٨٥١] قال الحافظ أبو يَعلَى الموصليُّ: حدثنا عبد الغفار بن عبد الله بن الزُّبير، حدثنا علي بن مُسهِر، عن عبدِ الرحمن بن إسحاقَ، عن خليفَة بن قيس، عن خالد بن عُرْفُطَة قال: قال: كنتُ جالساً عند عُمَر إذ أُتِيَ برجُلٍ من عبد القيس مسكنه بالسُّوسِ، فقال له عُمر: أنت فلانُ بنُ فلانٍ العَبْديُّ؟ قال: نعَم. قال: وَأنت النازلُ بالسُّوسِ، قال: نعم. فَضَربه بقَنَاةٍ معه، قال: فقال الرجلُ: مالي يا أميرَ المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلِس. فجَلَس، فقرأ عليه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾، فقرأها ثلاثاً، وضَربه ثلاثاً، فقال له الرجل: مالي يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذي نَسَخت كتابَ دانيال! قال: مُرني بأمرك أتَّبعْه. قال: انطلق فامحه بالحَمِيم والصوف الأبيض، ثم لا تَقرأه ولا تُقرئه أحداً من الناس. فَلَئِنْ بلغني عنك أنك قَرَأته أو أَقرأته أحداً من الناس لأُنهِكَنَّك عُقُوبَةً. ثُم قال له: اجلِسْ، فَجَلس بين يديه، فقال: انطلقت أنا فانتسختُ كتاباً من أهل الكتاب، ثم جئتُ به في أديم، فقال لي رسول الله ﷺ: ما هذا في يدِك يا عُمر؟ قال: قلت يا رسوَل الله، كتاب نسخته لنزداد به عِلماً إلى عِلمنا. فَغَضِب رسولُ الله ﷺ حتى احمَّرت وجنتاه، ثم نُودِي بالصلاة جامعةً، فقالت الأنصارُ: أُغضبَ نبيّكم ﷺ؟ السِّلاحَ السِّلاحَ. فجاؤوا حتى أحدَقُوا بمنبر رسولِ الله ﷺ فقال: «يا أيُها الناس، إني قد أُوتيتُ جوامعَ الكلم وخواتيمَه، واختُصر لي اختصاراً، ولقد أتيتكم بها بيضاءَ نَقيَّةً فلا تَتهوّكوا ولا يَغرَّنكم المتهوّكون»[١]. قال عمر: فقمت فقلت: رَضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبِكَ رسولاً. ثم نَزل رسولُ الله ﷺ[٢]. وقد رواه ابن أبي حاتم في تفسيره مختصراً، من حديث عبد الرحمن بن إسحاقَ، به. وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجهِ، وعبد الرحمن بن إسحاق هو أبو شَيبَةَ الواسطي، وقد ضَعَّفوه وشيخَه. قال البخاري: لا يصح حديثه. (قلت): وقد رُوي له شاهد من وجه آخر:

[٣٨٥٢] فقال الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: أخبرني الحسن بن سُفيانَ، حدثنا يعقوبُ بن سفيان، حدثنا إسحاقُ بن إبراهيم بن العلاء الزُّبيدي، حدثني عمرو بن الحارث، حدثنا عبد الله بن سالم الأشعري، عن الزُّبيدي، حدثنا سُلَيم بن عامر: أن جُبَير بن نُفَير حَدّثهم: أَنَّ رجلين كانا بحمْص في خلافة عُمر ـ رضي الله عنه ـ فأرسل إليهما فيمن أرسل من أهل حِمْص، وكانا قد اكتتبا من اليهود مِلْءَ صُفّةٍ فأخذاها معهما يستفتيان فيها أمير المؤمنين ويقولون: إن رضيها لنا أميرُ المؤمنين ازددنا فيها رغبةً. وإن نهانا عنها رَفَضناها. فلما قَدِما عليه قالا: إنا بأرض أهل الكِتَاب، وإنا نَسمعُ منهم كلاماً تقشعرُ منه جلودُنا، أفنأخذ منه أو نترك؟ فقال: لعلكما كتبتما منه شيئاً. قالا: لا. قال: سأحدّثكما، انطلقتُ في حياة رسول الله ﷺ حتى أتيت خَيبر، فوجدت يهودياً يقول قولاً أعجبني، فقلت: هل أنت مُكتبِي ما تقولُ؟ قال: نعم. فَأتيتُ بأديم، فأخذ يملي عَلَيّ، حتى كتبتُ في الأكرُع. فلما رجعتُ قلتُ: يا نبيّ الله، وأخبرتُه. قال: «ائتني به». فانطلقتُ أرغبُ عن المشي رجاءَ أن أكونَ أتيتُ رسولَ الله ببعض ما يُحبُّ؛ فلما أَتيتُ به قال: «اجلس اقرأ علي». فقرأت ساعةً، ثم نظرتُ إلى وجههِ فإذا هو يَتلوّن، فتحيرتُ من الفَرَقُ، فما استطعتُ أجيزُ منه حرفاً، فلما رأى الذي بي دَفَعه، ثم جعلَ يتْبَعُه رسماً رسماً فيمحُوه بريقه، وهو يقول: «لا تَتّبعوا هؤلاء، فإنهم قد هَوّكوا وتَهوّكوا». حتى محا آخِره حَرْفاً حَرْفاً. قال عُمَر ـ رضي الله عنه ـ فلو عَلِمت أنكما

(١) المتهوك: المتحير. والتهوك: التهور والوقوع في الشيء بغير مبالاة.

(٢) ضعيف بهذا السياق، فيه عبد الرحمن بن إسحق، قال الذهبي في «الميزان» ٤٨١٢: ضعفوه. قال أحمد: ليس بشيء، منكر الحديث، وقال يحيى: متروك. وذكر الذهبي هذا الحديث في ترجمة ٢٥٦٢ ونقل عن البخاري قوله: لم يصح حديثه.

كتبتما منه شيئاً جعلتُكما نكَالاً لهذه الأمة! قالا: والله ما نكتب منه شيئاً أبداً. فخرجَا بِصُفْتَيهما فحفرا لها فلم يألوا أن يُعَمِّقا، وَدَفناها فكان آخرَ العهدِ منها[١]. وكذا روى الثوريُّ، عن جابر بن يزيد الجُعفِيِّ، عن الشعبيِّ، عن عبد الله بن ثابتٍ الأنصاريِّ، عن عُمَر بن الخطاب، بنحوه. وروى أبو داودَ في المراسيل، من حديث أبي قِلابَةَ، عن عُمر، نحوه، والله أعلم.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

يقولُ تعالى: اذكُر لقومك ـ يا محمد ـ في قَصَصِك عليهم من قصَّة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو: يعقوبُ بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، كما قال الإمام أحمد:

[٣٨٥٣] حدثنا عبد الصَّمد، حدثنا عبدُ الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عُمَر: أن رسولَ الله ﷺ قال: «الكريمُ ابنُ الكريم ابنُ الكريم ابنُ الكريم، يوسفُ بنُ يعقوبَ بن إسحاقَ بنِ إبراهيم»[٢]. انفرد بإخراجه البخاري، فَرَواه عن عبد الله بن محمد، عن عبد الصَّمد، به.

[٣٨٥٤] وقال البخاري أيضاً: حدثنا محمد، أخبرنا عبدةُ عن عُبَيد الله، عن سعيد بن أبي سَعِيد، عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سُئِل رسولُ الله ﷺ: أيُّ الناسِ أكرمُ؟ قال: «أكرمُهم عند الله أتقاهُم». قالوا: ليس عن هذا نسألُك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابنُ نبي الله، ابنِ نبي الله، ابنِ خَلِيل الله». قالوا: ليسَ عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألُوني؟» قالوا: نعم. قال: «فخيارُكم في الجَاهلية خيارُكم في الإِسلام إذا فَقِهُوا»[٣]. ثم قال: تابعه أبو أسامَةَ، عن عُبَيد الله.

وقال ابن عباس: رُؤيا الأنبياء وحيٌ. وقد تكلَّم المفسرون على تَعبير هذا المنام: أن الأحدَ عشر كوكباً عبارةٌ عن إخوته، وكانوا أحدَ عشر رجلاً، والشمس والقمر عبارةٌ عن أبيه وأمِّه. رُوِي هذا عن ابن عباس، والضحاك، وقتادةَ، وسفيانَ الثوريِّ، وعبد الرحمن بن زيدِ بن أسلَم، وقد وقع تفسيرُها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانينَ سنة، وذلك حين رفَعَ أبويه على العرش، وهو سريرُه، وإخوته بين يديه ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾. وقد جاء في حديث تسمية هذه الأحدَ عشر كوكباً.

[٣٨٥٥] فقال الإمامُ أبو جعفرِ بن جرير: حدثني علي بن سعيد الكنديُّ، حدثنا الحكم بن ظُهَير، عن السدِّيِّ، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ من يهودَ يقال له: بستانة اليهوديُّ، فقال له: يا محمدُ، أخبرني عن الكواكبِ التي رآها يوسفُ أنها ساجدةٌ له، ما أسماؤها؟ قال: فسكتَ النبيُّ ﷺ ساعةً فلم يُجِبه بشيءٍ، ونزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ فأخبره بأسمائها. قال: فبعثَ رسول الله ﷺ إليه فقال: «هل أنت مؤمنٌ إن أخبرتك بأسمائها؟» قال: نعم. قال: «جُرْيَان، والطارق، والذيَّال، وذو الكنفات، وقابس، ووثَّاب، وعَمُودان، والفَلِيق، والمصبح، والضُّروح، وذو الفرْغ، والضياء، والنور»، فقال اليهودي: إيْ والله، إنها لأسماؤها[٤]. ورواه البيهقيُّ في الدلائل، من حَديث سعيد بن

(١) إسناده ضعيف لضعف إسحق بن إبراهيم، لكن لأصله شواهد تقدم بعضها ويتأيد بمرسل أبي قلابة الآتي.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٩٠ و ٤٦٨٨، وأحمد ٢/ ٩٦، والبغوي في شرح السنة ٣٥٤٧.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٥٣ و ٣٣٧٤ و ٣٣٨٣ ومسلم ٢٣٧٨ و ٢٥٢٦ وأحمد ٢/ ٢٥٧ والطيالسي ٧١، والحميدي ١٠٤٥، وابن حبان ٩٢ و ٦٣٦.

(٤) موضوع. أخرجه البزار ٢٢٢٠ والطبري ١٨٧٩٢ والبيهقي في «الدلائل» ٦/ ٢٧٧ والعقيلي ١/ ٢٥٩/ ٣١٦ وابن حبان في

منصور، عن الحكم بن ظُهير. وقد رَوَى هذا الحديث الحافظان أبو يعلى الموصلي وأبو بكر البزّار في مسنديهما، وابنُ أبي حاتم في تفسيره، أما أبو يعلى فرواه عن أربعة من شيوخه عن الحكم بن ظُهَير به وزاد: قال رسولُ الله ﷺ: «لما رآها يوسف قَصَّها على أبيه يعقوبَ، فقال له أبوه: هذا أمرٌ مُتَشَتت يجمَعه الله من بعدُ»؛ قال: «والشمسُ أبوه، والقمرُ أمه». تَفرّد به الحكم بن ظُهَير الفَزارِيُّ، وقد ضعفه الأئمةُ، وتَرَكه الأكثرونَ، وقال الجُوزجَانِيُّ: ساقطٌ، وهو صاحبُ حديث حُسْنِ يوسفَ. ثم ذكر الحديث المروي عن جابر أن يهودياً سأل النبي ﷺ عن الكواكب التي رآها يوسف: ما أسماؤها؟. وأنه أجابه ثم قال: تفرد به الحكم بن ظهير، وقد ضعّفه الأئمة.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن قول يعقوبَ لابنه يُوسُفَ حين قَصَّ عليه ما رَأى من هذه الرؤيا، التي تعبيرُها خضوعُ إخوته له وتعظيمُهم إيّاه تعظيماً زائداً، بحيث يخرُّون له ساجِدين إجلالاً وإكراماً واحتراماً، فَخَشِيَ يعقوبُ ـ عليه السلام ـ أن يحدِّث بهذا المنام أحداً من إخوَتِهِ فَيحسُدوه على ذلك، فَيَبغُوا له الغَوائِل، حَسَداً منهم له، ولهذا قال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾، أي: يحتالوا لك حيلة يُرْدُونَك فِيها.

[٣٨٥٦] ولهذا ثبتت السنةُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدُكم ما يحبُّ فلْيُحدِّث به، وإذا رَأى ما يكرَه فَلْيَتحوّل إلى جنبِهِ الآخر وَلْيتفُل عن يسارِهِ ثلاثاً، وَليستعِذْ بالله من شَرِّها، ولا يُحدِّث بها أحداً، فإنها لا تَضُرُّه»[١].

[٣٨٥٧] وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعضُ أهل السنن، من رواية معاويةَ بن حيدَةَ القُشَيريِّ أنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبّر، فإذا عُبِّرَتْ وقَعت»[٢]. ومن هذا يؤخَذ الأمر بكتمان النعمةِ حتى تُوجَد وتَظهَرَ، كما ورد في حديث:

[٣٨٥٨] «استعينُوا على قَضاء الحوائِج بكتمانها فإن كُلَّ ذِي نعمةٍ محسودٌ»[٣].

«المجروحين» ١/ ٢٥٠ ـ ٢٥١ من حديث جابر، ومداره على الحكم بن ظُهير. قال الهيثمي في «المجمع» ١١٠٨٤: متروك أهـ. وقال ابن حبان: لا أصل له من حديث رسول الله ﷺ، والحكم يروي عن الثقات الموضوعات أهـ. وحكم ابن الجوزي رحمه الله بوضع هذا الحديث ١/ ١٤٦ وقال: واضعه يريد شين الإسلام بمثل هذا أهـ. والأشبه في هذا المتن كونه متلقىً عن أهل الكتاب، ولا يصح عن رسول الله ﷺ البتة، وضعفه ابن كثير رحمه الله، والصواب أنه موضوع.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٩٩٥ و ٦٩٨٦ و ٧٠٠٥ و ٧٠٤٤ ومسلم ٢٢٦١ ح١ و ٣ و ٤ والنسائي في عمل اليوم والليلة ٨٩٩ وأحمد ٥/ ٣٠٣ و ٣٠٥، والدارمي ٢/ ١٢٤.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٤/ ١٠، وأبو داود ٥٠٢٠، والترمذي ٢٢٧٨ وابن ماجه ٣٩١٤ من حديث أبي رزين العقيلي وليس من حديث معاوية بن حيدة كما وقع للمصنف رحمه الله تعالى. وله شواهد كثيرة.

(٣) ضعيف، أخرجه العقيلي ٢/١٠٩/ ٥٨٠، والطبراني ٢٠/ ١٨٣ وفي «مسند الشاميين» ٤٠٨ وابن حبان في المجروحين ١/ ٣٢٢ والبيهقي في «الشعب» ٦٦٥٥ وابن عدي ٢/ ٣٦٠ و ٤٠٤ والقضاعي ٧٠٧ وابن الجوزي ٢/ ١٦٤ ـ ١٦٥ من حديث معاذ، وفي إسناده سعيد بن سلام متهم بالوضع، قال العقيلي: لا يتابع عليه، ولا يعرف إلا به، وقال ابن حبان: ينفرد عن الثقات بما لا أصل له، وذكره الذهبي في الميزان بهذا الحديث، وعده من منكراته، ونقل عن أحمد قوله: كذاب. وقال ابن الجوزي: المتهم به سعيد بن سلام، قال: وتابعه حسين بن علوان، وقال عنه ابن حبان وابن عدي: كان يضع الحديث أهـ. وأعله الهيثمي في «المجمع» ١٣٧٣٧ بالانقطاع بين خالد بن معدان ومعاذ.

وورد من حديث ابن عباس، أخرجه ابن حبان ١/ ٣٨٥ والخطيب ٨/ ٥٦ ـ ٥٧ وابن الجوزي ٢/ ١٦٥ ـ ١٦٦ وأعله ابن

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾

يقولُ تعالَى مخبراً عن قول يعقوبَ لولده يوسف: إنه كما اختارك ربُك، وأراك هذه الكواكبَ مع الشمس والقمر ساجدةً لك، ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، أي: يختارُك ويصطفيكَ لنبوّته، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، قال مجاهد وغيرُ واحد: يعني تعبيرَ الرؤيا. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾، أي: بإرسالِك والإيحاءِ إليك، ولهذا قال: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وهو الخليل، ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ ولده، وهو الذبيح في قول، وليس بالرَّجيح، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي أعلمُ حيث يجعلُ رسالاته، كما قال في الآية الأخرى.

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾

يقولُ تعالى: لقد كان في قِصَّةِ يُوسف وَخَبره مع إخوتِهِ آياتٌ، أي: عبرةٌ ومواعظُ للسائلين عن ذلك المُستخبِرينَ عنه، فإنه خبرٌ عجيبٌ، يَستحقُّ أن يُستخبَر عنه، ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾، أي: حَلَفوا فيما يَظنُّون: والله ليوسُف وأخوه ـ يعنون بنيامينَ، وكان شقيقَه لأمّه ـ ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾، أي: جماعةٌ، فكيفَ أحبَّ ذينَكَ الاثنينِ أكثرَ من الجَماعة؛ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، يعنونَ في تقديمهما علينا، ومَحبته إياهما أكثرَ منا.

واعلم أنه لم يقُم دليلٌ على نُبوّة إخوة يوسفَ، وظاهرُ هذا السياق يدلُّ على خلاف ذلك، ومن الناس مَن يزعُم أنهم أوحِيَ إليهم بعدَ ذلك. وفي هذا نظرٌ. ويحتاج مُدّعي ذلك إلى دَليلٍ ولم يذكروا سوى قولِهِ تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وهذا فيه احتمال، لأن بطونَ بني إسرائيلَ يقال لهم: الأسباطُ، كما يقال للعربِ: قبائل، وللعجم: شعوبٌ؛ يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباطِ بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كُلّ سبطٍ من نسل رَجل من إخوةِ يوسفَ، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحِي إليهم، والله أعلم. ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾، يقولون: هذا الذي يُزاحِمكم في مَحبّة أبيكم لكم أعدِمُوه من وجه أبيكم

حبان بطاهر بن الفضل الحلبي، وقال: يضع الحديث وضعاً. وهذا موضوع، وهو عند ابن الجوزي من طريق آخر أعله بالحسن بن عبيد الله الأبزازي، وقال: تقدم أنه كذاب. قال مهنئ: سألت أحمد ابن حنبل ويحيى بن معين عن قولهم «استعينوا على طلب الحوائج بالكتمان» فقالا: موضوع، وليس له أصل. وورد من حديث أبي هريرة. أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (٣٧) بترقيمي، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» ص ١٨٢، وفي إسناده الهيثم بن العطار السلمي، لم أجد من ترجه، وفيه سهل بن عبد الرحمن الجرجاني، لم أجد من ترجه، ونسبه إلى جرجان. وورد من حديث أبي بردة مرسلاً أخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في «آداب الصحبة» ص ٢٦ ومع إرساله، السلمي اتهمه الذهبي في الميزان.

الخلاصة: نص على بطلانه، وأنه لا أصل له، إماما هذا الفن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وكذا أبو حاتم الرازي كما في «العلل» ٢٢٥٨ وقال: لا يعرف له أصل، وكذا نص على بطلانه: ابن حبان، وابن عدي، وابن الجوزي، والعقيلي، وغيرهم، ولم يصب الألباني، إذ خالف هؤلاء الأئمة جميعاً، وأورده في الصحيحة ١٤٥٣!!.

ليخلُوَ لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تُلقُوه في أرضٍ من الأراضي تَستريحُوا منه، وتخلُوا أنتم بأبيكم، وتكونُوا من بعد إعدامِهِ قوماً صالحِينَ. فأضمروا التوبةَ قبل الذنب. ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ ـ قال قتادة، ومحمد بن إسحاق: كان أكبَرَهم واسمه رُوبِيلَ. وقال السديُّ: الذي قال ذلك يَهوذَا. وقال مجاهد: هو شمعُونُ ـ ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾، أي: لا تَصِلُوا في عداوته وبُغضِه إلى قَتله، ولم يكُن لهم سبيلٌ إلى قتله، لأن الله تعالى كان يُريدُ منه أمراً لا بُدَّ من إمضائِهِ وإتمامِهِ، من الإيحاءِ إليه بالنبوّةِ، ومن التمكين له ببلادِ مصرَ والحُكم بها، فَصرَفَهم الله عنه بمقالةِ رُوبِيلَ فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابَةِ الجُبِّ، وهو أسفله ـ قال قتادة: وهي بئر بيْتِ المقدس ـ ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾، أي: المارَّةِ من المسافرين، فتستريحوا منه بهذا، ولا حاجَةَ إلى قَتْلِه. ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾، أي: إن كنتُم عازِمين على ما تقولُون. قال محمدُ بنُ إسحاقَ بن يَسَار: لقد اجتمعوا على أمرٍ عظيم، من قطيعةِ الرَّحِمِ، وعُقُوقِ الوَالِدِ، وقِلَّةِ الرأفة بالصغير الضَّرَع الذي لا ذَنْبَ له، وبالكبير الفاني ذي الحقِّ والحُرمَةِ والفضلِ، وخَطَرُه عند الله، مع حق الوالد على وَلَدِهِ، ليفرقوا بينه وبين ابنه وحبيبه على كِبَر سِنِّه، ورِقَّة عَظْمِهِ، مع مكانه من الله، فيمن أحبَّه طفلاً صغيراً، وبين أبيه على ضَعفِ قُوَّته وصِغَرِ سنِّه، وحاجتِهِ إلى لُطفِ والدِهِ وسُكُونِهِ إليه، يغفر الله لهم وهو أرحَمُ الراحمين، فقد احتمَلُوا أمراً عظيماً. رواه ابنُ أبي حاتمٍ من طريقِ سَلَمَةَ بن الفضلِ، عنه.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

لما تواطؤوا على أخذه وطَرْحه في البئر ـ كما أشار عليهم أخوهُم الكبيرُ روبيلُ ـ جاؤوا أباهُم يعقوبَ ـ عليه السلام ـ فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾. وهذه توطئةٌ وسَلَفٌ ودعوى، وهُم يُريدُون خلافَ ذلك، لما له في قُلوبهم من الحسد لحبِّ أبيه له، ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾، أي: ابعثَه معنا، «غَدًا نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ» وقرأ بعضهم بالياء: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾، قال ابن عباس: يسعى وينشط. وكذا قال قتادة، والضحاك والسدّيُّ، وغيرهم. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، يقولون: ونحن نحفظُه ونحوطُه من أجلكَ.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن نبيِّه يعقوبَ أنه قال لِبَنِيه في جَوابِ ما سألُوا من إرساله يوسفَ معهم إلى الرّعي في الصَّحراءِ: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾، أي: يَشُقُّ عليّ مفارقتُهُ مدّة ذَهَابكم به إلى أن يرجِعَ، وذلك لفَرْط محبَّتِه له، لما يتوسَّمُ فيه من الخير العظيم، وشمائلِ النبوّةِ والكمالِ في الخَلْق والخُلُق، صلواتُ الله وسلامُه عليه. وقولُه: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾، يقول: وأخشَى أن تَشتَغِلُوا عنه برَمْيِكم ورَعيَتِكم فيأتِيَه ذئبٌ فيأكُلَه وأنتم لا تشعُرون، فَأَخذُوا من فَمِهِ هذه الكلمةَ، وجعلُوها عُذرَهم فيما فعلوه، وقالوا مُجيبين عنها في الساعةِ الراهنة: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾، يقولون: لَئِن عدا عليه الذِئبُ فأكَلَه من بيننا، ونحنُ جماعةٌ، إنّا إذاً لهالِكُون عاجِزُونَ.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقولُ تعالى: فلما ذَهَبت به إخوتُه من عند أبيه بعد مراجَعَتِهم له في ذلك، ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾، هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلُّهم على إلقائه في أسفل ذلك الجبِّ، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يُظهرونه له إكراماً له، وبسطاً وشرحاً لصدره، وإدخالاً للسُّرُورِ عليه، فيقال؛ إنَّ يعقوب ـ عليه السلام ـ لما بعثه مَعَهم ضَمَّه إليه، وقَبَّله ودعا له. قال السديّ وغيره: إنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابُوا عن عين أبيه وتوارَوا عنه، ثم شَرَعوا يُؤذونه بالقول من شتْم ونحوه، والفعل من ضَرْبٍ ونحوه، ثم جاؤوا به إلى ذلك الجبِّ الذي اتَّفقوا على رميه فيه فَرَبَطُوه بحبل ودلَّوه فيه، فجعل إذا لجأ إلى واحدٍ منهم لَطَمه وشَتَمه، وإذا تَشبَّثَ بحافَاتِ البئر ضَرَبُوا على يديه، ثم قطعوا به الحبلَ من نصفِ المسافة، فسقط في الماء فَغَمره، فَصَعِد إلى صخرةٍ تكونُ في وسطه، يقال لها: الراغُوفةُ، فقام فوقَها.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، يقول تعالى ذاكراً لُطفه ورحمَته وعائِدَته وإنزالَه اليُسر في حال العُسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيِّق، تطييباً لقلبه، وتثبيتاً له: إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإنَّ لك من ذلك فَرَجاً ومخرَجاً حَسناً، وسينصُرك الله عليهم، ويُعليك ويرفَعُ درجَتَك، وسَتُخبِرهم بما فعلُوا معك من هذا الصنيع. وقولُه: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال قتادة: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإيحاءِ الله إليه. وقال ابن عباس؛ سَتُنبئهم بصنيعهم هذا في حقك وهم لا يعرفونكَ ولا يستشعرُون بكَ، كما قال ابنُ جرير: حدَّثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا صَدَقَة بن عُبادة الأَسَدِيّ، عن أبيه، سَمِعتُ ابن عباس يقول: لما دخلَ إخوةُ يوسفَ فعرفهم وهم لهُ منكِرون، قال: جِيءَ بالصُّوَاع فوضعه على يده، ثم نَقَره فَطَنَّ، قال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخٌ من أبيكم يقال له: يوسفُ، يُدنيه دونكم، وأنكم انطلقتُم به فألقيتُموه في غيابة الجب ـ قال: ثم نقره فَطَنَّ ـ فأتيتم أباكم فقُلتم: إن الذئبَ أكَله، وجِئتم على قميصه بدم كَذِب ـ قال: فقال بعضُهم لبعض: إن هذا الجامَ لَيُخبره بخبركم. قال ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لا نرى هذه الآيةَ نَزلت إلا فيهم: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسفَ بعدما ألقوه في غَيَابة الجُبّ: إنهم رَجَعُوا إلى أبيهم في ظُلمة الليل يبكُون، ويُظهرُون الأسفَ والجزَع على يوسفَ ويتغمَّمُون لأبيهم، وقالوا مُعتَذِرين عما وَقَع فيما زعَمُوا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾، أي: نترامى، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾، أي: ثيابنا وأمتِعَتِنا، ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، وهو الذي كان جزِعَ منه، وحَذَّر عليه. وقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾، تَلَطُّفٌ عظِيم في تقرير ما يُحَاولونه، يقولُون: ونحنُ نعلم أنك لا تُصدِّقنا ـ والحالةُ هذه ـ لو كنا عندك صَادِقين، فكيفَ وأنت تَتَّهِمُنا في ذلك، لأنك خَشِيت أن يأكُلَه الذئبُ، فأكله الذئبُ، فأنت معذورٌ في تكذيبك لنا، لغرابة ما وَقَع، وعَجِيب ما اتّفق لنا في أمرنا هذا. ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، أي: مكذُوبٍ مُفترىً. وهذا من الأفعال التي يُؤَكِّدون بها ما تمالؤوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عَمَدوا إلى سَخْلة ـ فيما ذكره مجاهدٌ، والسديُّ وغيرُ واحد ـ فَذَبحوها، ولَطَخوا ثوبَ يوسفَ بدمها، موهمين أن هذا قميصُه الذي أكلَه فيه الذئبُ، وقد أصابه من دَمِهِ، ولكنهم نَسُوا أن يخرِقُوه، فلهذا لم يَرُج هذا الصنيعُ على نبيِّ الله يعقوب، بل قال لهم

مُعرضاً عن كلامهم إلى ما وَقَع في نفسه من تمالُئِهم عليه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، أي: فسأصبرُ صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي قد اتفقتُم عليه، حتى يُفَرِّجه الله بِعَونه ولُطفِهِ، ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، أي: على ما تذكُرون من الكَذِب والمُحَال.

وقال الثوريّ، عن سِمَاكٍ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، قال: لو أكله السبعُ لخرق القميصَ؛ وكذا قال الشعبيُّ، والحسنُ، وقتادةُ، وغيرُ واحد. وقال مجاهدٌ: الصبر الجميلُ: الذي لا جَزَع فيه.

[٣٨٥٩] ورَوَى هُشيم، عن عبد الرحمن بن يحيى، عن حِبَّان بن أبي جَبَلة قال: سُئِل رسولُ الله ﷺ عن قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، فقال: «صبرٌ لا شكوى فيه»[1]. وهذا مرسل. وقال عبدُ الرزّاق: قال الثوريُّ عن بعضِ أصحابِهِ أنه قال: ثلاثٌ من الصبر؛ ألاّ تحدث بِوَجَعِك، ولا بمصِيبَتِك، ولا تُزَكّي نفسَكَ.

[٣٨٦٠] وذكر البخاريُّ ها هنا حديثَ عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ في الإفكِ حَتّى ذكر قولها: والله لا أجدُ لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبا يوسفَ، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[2].

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عما جَرى ليوسفَ ـ عليه السلام ـ حين ألقاه إخوتُه، وتركُوه في ذلك الجبِّ فَرِيداً وَحِيداً، فمكثَ عليه السلام في البئر ثلاثةَ أيام، فيما قاله أبو بكر بن عيّاش. وقال محمدُ بن إسحاق: لما ألقاه إخوتُه جَلَسُوا حولَ البئر يومَهُم ذلك ينظُرون ما يصنَعُ وما يُصنَعُ به، فساق الله له سَيّارةً، فَنَزَلُوا قريباً من تلك البئر، وأرسلوا وَارِدَهم ـ وهو الذي يَتَطَلَّب لهم الماء ـ فلما جاء تلك البئر، وأدلى دلْوَه فيها، تَشَبَّث يوسف ـ عليه السلام ـ فيها، فأخرجه واستبشرَ به، وقال: «يَا بُشْرَايَ هٰذا غُلامٌ». وقرأ بعضُ القراء: ﴿يَا بُشْرَىٰ﴾، فزعم السدّي أنه اسمُ رجل ناداه ذلك الرجلُ الذي أدلَى دلوه، معلماً له أنه أصاب غلاماً. وهذا القول من السدّي غريبٌ، لأنه لم يُسبَق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا في رواية عن ابن عباس، والله أعلم. وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى، ويكون قد أضاف البشرى إلى نفسِهِ، وحَذَفَ ياء الإضافة وهو يريدها، كما تقول العرب: يا نفسُ اصبري، و«يا غلامُ أقبل، بحذف حرفِ الإضافةِ، ويجوزُ الكسرُ حينئذٍ والرفعُ، وهذا منه، وتُفَسِّرُها القراءة الأخرى «يا بشرايَ»، والله أعلم. وقولُه: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾، أي: وأسره الورادُون من بَقِيَّة السيّارة، وقالوا: اشتريناه وَتَبَضَّعناه من أصحاب الماء مخافةَ أن يُشارِكُوهم فيه إذا عَلِمُوا خَبَره. قاله مجاهد، والسديّ، وابنُ جرير. هذا قول. وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾، يعني إخوةَ يوسف، أسرُّوا شأنه، وكَتَمُوا أن يكون أخاهم، وكَتَم يوسفُ شأنَه مخافةَ أن يقتُلَه إخوتُه، واختارَ البيعَ. فَذَكره إخوتُه لوارِدِ القوم، فنادى أصحابَه: ﴿يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾ يُباع، فباعه إخوتُه. وقولُه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، أي: يعلَم ما يفعله إخوةُ يوسفَ ومُشترُوه، وهو قادرٌ على تغيير ذلك ودَفعه، ولكن له حكمةٌ وقدَرٌ سابقٌ، فَتركَ ذلك ليمضِي ما قَدَّره وقَضاه، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وفي هذا تعريضٌ لرسوله محمد ﷺ وإعلامٌ له بأني عالمٌ بأذَى قومِكَ لك، وأنا

---

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ١٨٨٨٤ هكذا مرسلاً، والمرسل من قسم الضعيف، والله أعلم.

(٢) صحيح. وهو بعض حديث الإفك الطويل أخرجه البخاري ٢٦٦١ ومسلم ٢٧٧٠ وسيأتي في النور.

قادرُ على الإنكار عليهم، ولكن سَأملي لهم، ثم أجعلُ لك العاقبةَ والحُكم عليهم، كما جَعلتُ ليوسفَ الحُكمَ والعاقبةَ على إخوته.

وقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾، يقولُ تعالى: وبَاعَه إخوتُه بثمنٍ قليلٍ، قاله مجاهدٌ وعكرمةُ. والبخسُ: هو النقصُ، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣]، أي: اعتاضَ عنه إخوتُه بِثَمنٍ دُونٍ قليلٍ، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهِدِينَ، أي: ليس لهم رغبةٌ فيه، بل لو سئلوه بلا شيءٍ لأجابوا. قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ: إن الضمير في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ عائد على إخوةِ يوسفَ. وقال قتادةُ: بل هو عائد على السيارة. والأول أقوى، لأن قوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾، إنما أراد إخوتَه، لا أولئك السيارةَ، لأن السيَّارةَ استبشروا به وأسرُّوه بضاعةً، ولو كانوا فيه زاهِدين لما اشتَرَوه، فَتَرجَح من هذا أنَّ الضمير في ﴿وَشَرَوْهُ﴾ إنما هو لإخوته، وقيل: المرادُ بقوله: ﴿بَخْسٍ﴾ الحرامُ، وقيل: الظُّلم. وهذا وإن كان كذلك، لكن ليس هو المراد هنا، لأن هذا معلومٌ يعرفه كلُّ أحد أن ثَمَنه حرام على كل حال، وعلى كلِّ أحد، لأنه نبيٌّ ابن نبيٍّ، ابن خليلِ الرَّحمن، فهو الكريمُ، ابنُ الكريم، ابن الكريم، ابنِ الكريم. وإنما المراد هنا بالبَخْسِ الناقصُ أو الزيوفُ أو كلاهما، أي: إنهم إخوته، وقد باعُوه ومع هذا بأنقصِ الأثمانِ، ولهذا قال: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾، فعن ابنِ مسعود: باعوه بعشرينَ درهماً. وكذا قال ابنُ عباس، ونوفُ البَكاليُّ، والسدِّيُّ، وقتادةُ، وعطيةُ العَوفي وزاد: اقتسَمُوها درهمَين درهمين. وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً. وقال محمد بن إسحاق وعكرمة: أربعون درهماً. وقال الضحاك في قوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾، وذلك أنهم لم يعلَموا نُبوَّته وَمنزلته عند الله عز وجل. وقال مجاهد: لما باعُوه جَعلُوا يَتبعُونَهم ويقولُون لهم: استوثِقُوا منه لا يأبِقْ حتَّى وَقَفُوه بمصرَ، فقال: من يَبْتَاعُنِي وَلْيَبْشَرْ؟ فاشتراه الملك، وكان مسلماً.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

يخبرُ تعالى بألطافه بيوسف ـ عليه السلام ـ أنه قَيَّض له الذي اشتراه من مصر، حتى اعتنى به وأكرمَه، وأوصى أهلَه به، وتوسَّم فيه الخير والفلاح، فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، وكان الذي اشتراه من مصر عزيزَها، وهو الوزير بها. قال العَوْفِيُّ، عن ابن عباس: وكان اسمه قطفير. وقال محمدُ بن إسحاقَ: اسمه إطفير بن روحيب، وهو العزيزُ، وكان على خزائن مصرَ، وكان المَلكُ يومئذٍ الريَّانَ بن الوليد، رجلٌ من العَماليق. قال: واسمُ امرأتِهِ راعيلُ بنت رَعَائيل. وقال غيره: اسمها زليخا. وقال محمدُ بن إسحاق أيضاً، عن محمد بن السائب، عن أبي صالح، عن ابن عباسٍ: كان الذي باعه بمصر مالكُ بن دُعْرِ بن بُوَيب بن عَيْفا بن مِدْيَان بن إبراهيم، فالله أعلم. وقال أبو إسحاق، عن أبي عُبَيدَةَ، عن عبد الله بن مسعودٍ أنه قال: أفرسُ الناس ثلاثةٌ: عَزيز مصرَ حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، والمرأة التي قالت لأبيها: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر الصِّدّيق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. يقولُ تعالى: وكما أَنقَذْنا يوسفَ من إخوته، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾، يعني بلادَ مِصْرَ، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، قال مجاهدٌ والسديُّ: هو تعبير الرؤيا،

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾، أي: إذا أراد شيئاً فلا يُرَدُّ ولا يُمانَعُ ولا يُخالَفُ، بل هو الغالبُ لما سواه.

قال سعيدُ بن جُبَير في قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾، أي: فعَّال لما يشاء. وقولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، يقول: لا يَدرُون حِكْمَته في خلقه، وتَلَطُّفَه لما يريد، وقولُه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾، أي: يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾، أي: استكمَل عقلُه وتم خَلقُه، ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يعني النبوةَ، إنه حباه بها بين أولئكَ الأقوام، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: إنَّه كان محسناً في عَمَلِه، عاملاً بطاعةِ ربِّه تعالى. وقد اختُلفَ في مقدارِ المدّةِ التي بَلَغ فيها أشدَّه، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاثٌ وثلاثون. وعن ابن عباسٍ: بضعٌ وثلاثون. وقال الضحَّاكُ: عشرونَ. وقال الحسنُ: أربعونَ سنةً. وقال عكرمةُ: خمسٌ وعشرون سنةً. وقال السُّديُّ: ثلاثون سنة. وقال سعيد بن جُبَير: ثماني عشرَة سنةً. وقال الإمامُ مالك، وربيعة، وزيدُ بن أسلَم، والشعبيُّ: الأشُدُّ الحُلُم، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يخبر تعالى عن امرأةِ العزيزِ التي كان يوسُفُ في بيتها بمصرَ، وقد أوصاها زوجُها به وبإكرامِهِ: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾، أي: حاولته على نفسه، ودَعَته إليها، وذلك أنها أحبَّته حُبّاً شديداً لجَماله وحُسنِهِ وبَهائِهِ، فحَملها ذلك على أن تَجمَّلت له، وغلّقَت عليه الأبوابَ، ودعَته إلى نفسها، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، فامتنعَ من ذلك أشدَّ الامتناع، و ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ وكان يُطلِقُون «الربَّ» على السيِّد والكبير، أي: إنَّ بَعلَكِ ربِّي ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾، أي: مَنْزِلي وأحسَن إليّ، فلا أقابله بالفاحشة في أهله، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، قال ذلك مجاهد، والسديُّ، ومحمد بن إسحاقَ، وغيرهم. وقد اختلف القراءُ في قراءة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فقرأه كثيرون بفتح الهاء، وإسكان الياء، وفتح التاء. قال ابن عباس، ومجاهدٌ، وغيرُ واحد: معناه أنها تدعُوه إلى نَفسِها. وقال عليّ بن أبي طلحة، والعوفيُّ، عن ابن عباسٍ: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ تقول: هَلُمَّ لك. وكذا قال زِرّ بن حُبَيش، وعكرمة، والحسن، وقتادة. قال عمرو بن عُبَيد، عن الحسن: وهي كلمة بالسريانية، أي: عَلَيك. وقال السدي: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، أي: هَلُمَّ لك، وهي بالقبطية. وقال مجاهد: هي لغة عَرَبيَّة تدعُوه بها. وقال البخاريُّ: وقال عكرمةُ: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾: هَلُمَّ لك بالحَوْرَانية. هكذا ذكره مُعَلَّقاً، وقد أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير.

حدثني أحمدُ بن سُهيل الواسطيُّ، حَدَّثنا قُرَّةُ بن عيسى، حدثنا النضرُ بن عَرَبيِّ الخَزَريُّ، عن عِكْرِمةَ مولى ابنِ عباسٍ في قولِهِ: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، قال: هَلُمَّ لك، قال: هي بالحَوْرَانِيَّة. وقال أبو عُبَيدٍ القاسمُ بن سَلَّام: وكان الكسائيُّ يحكي هذه القراءةَ ـ يعني هَيتَ لك ـ ويقول: هي لغةٌ لأهل حَوْرَانِ، وقعت إلى أهلِ الحجازِ، معناها تَعالَ. وقال أبو عُبَيدة: سألتُ شيخاً عالماً من أهل حوران، فذكر أنها لغتُهم يَعرِفُها. واستشهد الإمامُ ابنُ جَرِيرٍ على هذه القراءة بقول الشاعرِ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أَبْلِغْ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أَخَا العِرَاقِ إِذَا أَتَيْتَا
أَنَّ العِرَاقَ وَأَهْلَهُ عُنُقٌ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا

يقول: فتعالَ واقترِب. وقرأ ذلك آخرون: «هِئت لك»، بكسرِ الهاءِ والهمزةِ، وضَمِّ التاء، بمعنى تهيَّأتُ لك، من قول القائل: هِئتُ للأمر أهِيءُ هِيئَة. وممن رُوِي عنه هذه القراءة ابنُ عباس، وأبو عبد الرحمن

السُّلَمِيُّ، وأبو وائل، وعكرمةُ، وقتادةُ، وكلُّهم يفسرها بمعنى: تهيأتُ لك. وقال ابنُ جرير: وكان أبو عَمرو والكسائيُّ ينكرانِ هذه القراءة. وقرأ عبدُ الله بن إسحاق: «هَيتِ»، بفتح الهاء وكسر التاء، وهي غَرِيبةٌ. وقرأ آخرونَ، منهم عامّةُ أهلِ المدينة «هِيْتَ» بكسر الهاء، وتسكين الياء، وفتح التاء. وقرأ بعض المَكيِّين «هَيْتُ» بفتح الهاء، وضَمِّ التاءِ. وأنشدَ قولَ الشاعر:

لَيسَ قَومِي بالأَبعَدِينَ إِذَا مَا ... قَالَ دَاعٍ مِنَ العَشِيرَةِ: هَيتُ

قال عبد الرزاق: أنبأنا الثوريُّ، عن الأعمش، عن أبي وائل قال: قال ابنُ مسعودٍ: قد سَمِعتُ القَرأَةَ فسَمعتُهم مُتقاربين، فاقرؤوا كما عُلِّمتُم، وإياكم والتنطُّعَ والاختلافَ، فإنما هو كقولِ أحدِكم: هَلُمَّ وتعالَ. ثم قرأ عبدُ الله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فقال: يا أبا عبدِ الرحمنِ، إنَّ ناساً يقرؤونها: ﴿هِيتُ﴾؟ فقال عبد الله: إنّي أقرأها كما عُلِّمت، أحبّ إليّ. وقال ابنُ جرير: حدثني ابنُ وكيع، حدثنا ابن عُيينة، عن منصور، عن أبي وائل قال: قال عبد الله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فقال له مسروقٌ: إن ناساً يقرؤونها «هِيتُ لَكَ»؟ فقال: دعُوني، فإني أقرأ كما أُقرِئتُ، أحبُّ إليّ. وقال أيضاً: حدثني المثنى، حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شعبةُ، عن شقيقٍ، عن ابن مسعود قال: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بنصب الهاء والتاء، وبلا همز. وقال آخرون: «هِيْتُ لك»، بكسر الهاء، وإسكان الياء، وضَمِّ التاء. قال أبو عُبَيدة معمرُ بنُ المثنى: «هيتَ» لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث، بل يخاطب الجميع بلفظ واحدٍ، فيقال: هيتَ لكَ، وهيتَ لكِ، وهيتَ لكما، وهيتَ لكم، وهيت لكن وهيتَ لهنّ.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

اختلفت أقوالُ الناس وعباراتُهم في هذا المقام، وقد رُوِيَ عن ابنِ عباسٍ، ومُجاهدٍ، وَسعيد بن جُبَير وطائفةٍ من السَّلَفِ في ذلك ما ذَكَره ابنُ جرير وغَيره، والله أعلم. وقال بعضُهم: المراد بهمِّه بها هَمُّ خَطَراتٍ، حديث النفس. حكاه البَغَوِيُّ عن بعض أهل التحقيق.

[٣٨٦١] ثم أورد البَغَوِيُّ ها هنا حديثَ عبد الرزّاقِ، عن معمَرٍ، عن همّام، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يقولُ الله تعالى: إذا هَمّ عبدي بحسنةٍ فاكتبُوها له حسنةً، فإن عَمِلها فاكتبُوها له بعشرِ أمثالها، وإن هَمّ بسيِّئةٍ فلم يعمَلها فاكتبوها حسنةً، فإنما تَركَها من جَرّائي، فإن عَمِلها فاكتبُوها بمثلها»[1]. وهذا الحديث مُخرّجٌ في الصَّحِيحَين، وله ألفاظٌ كثيرةٌ هذا منها. وقيل: هَمَّ بضربها. وقيل: تَمنّاها زوجةً. وقيلَ: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾، أي: فَلم يَهُمّ بها. وفي هذا القول نَظرٌ من حيثُ العربيّةِ، ذَكَرهُ ابنُ جرير وغيرُه. وأما البُرهان الذي رآه ففيه أقوالٌ أيضاً. فعَن ابنِ عباس، ومجاهدٍ، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن سيرينَ، والحَسَن، وقتادةَ، وأبي صالحٍ، والضحّاكَ، ومحمد بن إسحاقَ، وغيرهم: رَأى صُورَةَ أبيه يعقوبَ ـ عليه السلام ـ عاضاً على إصبعه بِفَمه. وقيل عنه في رواية: فضرب في صدرِ يوسف. وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: رأى خيالَ المَلِك ـ يعني سَيِّده ـ وكذا قال محمد بن إسحاق، فيما حكاه عن بعضهم: إنما هو خيال إطفير سَيِّده حين دنا من الباب.

وقال ابنُ جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا وكيع، عن أبي مودود، سَمِعت من محمد بن كعب القُرَظِيّ

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٢/ ٣١٥ ومسلم ١٢٩، وابن منده في الإيمان ٣٧٦، وابن حبان ٣٧٩.

قال: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب في حائط البيت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢][1]. وكذا رواه أبو معشر المدنيُّ، عن محمد بن كعب. وقال عبد الله بن وَهب: أخبرني نافعُ بن يزيدَ، عن أبي صخر قال: سَمِعت القُرَظِيَّ يقولُ في البرهان الذي رأى يوسفُ: ثلاث آيات من كتاب الله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الانفطار: ١٠]... الآية، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ [يونس: ٦١]... الآية، وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، قال نافعٌ: سَمِعتُ أبا هلالٍ يقولُ مثل قول القُرَظِيِّ، وزاد آيةً رابعةً: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾[2]. وقال الأوزاعيُّ: رأى آيةً من كتابِ الله في الجِدَار تنهَاه عن ذلك. قال ابنُ جرير: والصوابُ أن يُقَالَ: إنه رأى من آياتِ الله ما زَجَره عما كانَ هَمَّ به، وجائزٌ أن يكونَ صورةَ يعقوبَ، وجائز أن يكون صورةَ المَلِكِ، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك. ولا حُجَّة قاطعةً على تعيين شيءٍ من ذلك، فالصوابُ أن يُطلَقَ كما قال الله تعالى.

وأما ما وَرَدَ من الإسرائيليات من أنَّ يوسف حَلَّ سراويله، وأنه قَعَدَ منها مقعد الرجل من زوجته، وأنه رأى صورة أبيه يعقوب فانزجر، كلّ هذه الافتراءات لا أَصْلَ لها. ومما ينبغي على المسلم أن يحذر الإسرائيليات التي أُدخِلَت في كتب التفسير. والتي دُسّت على أنبياء الله تعالى؛ فتارة يقولون: إن داود عليه السلام رأى امرأة عارية فاشتهاها، فأرسل زَوجها لمقدّمة الجيش لِيُقْتَل لِيتزوجها من بعده؛ وقد قال الإمام ابن الجوزي في تفسيره بعد ذكر هذه القصة المكذوبة عن سيدنا داود: وهذا لا يصح من طريق النقل، ولا يجوز من حيث المعنى، لأن الأنبياء منزهون عنه؛ وأما استغفار داود ربه فهذا لأنه حكم بين الاثنين بسماعه من أحدهما قبل أن يسمع من الآخر. وتارة يقولون: إن أيوب دَوَّد حتى تناثر منه الدود. وتارة يقولون: إن إبراهيم عَبَدَ الكواكب من دون الله تعالى؛ وقد قال الله تعالى عن سيدنا إبراهيم: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] مع العلم أن الأنبياء معصومون عن كل هذه الأراجيف المغرضة، فالله تعالى عصم أنبياءه عن كل ما لا يليق بمنصب النبوة من كفر وغدر وخيانة وخساسة وبلادة ودناءة وأمراض مُنَفِّرة وصفات ذميمة ليكون قدوة وأسوة للناس، إلى ما هنالك من الأقوال؛ والصحيح أن الله سبحانه وتعالى قد عصم أنبياءه قبل النبوة وبعدها، ومن ذلك أن الله عصمهم من الهمّ بالزّنا، لأنه يُزري بمنصب النبوة، ولا يليق بنبيٍّ من أنبياء الله تعالى، لأنَّ الهمّ بالزّنا من الأفعال الخسيسة التي لا يفعلها أنبياء الله، فالهمُّ من وساوس الشيطان، والشيطان يوم طرده الله ولعنه قال لله تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣]، وسيدنا يوسف كان من المخلصين، لأن الله قال فيه: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. ثم إن المرأة لما قالت له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، قال يوسف: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾، هذا دليل على أنه ما همَّ مُطلقاً بالزنا، ثم إن المرأة فيما بعد اعترفت بقولها: ﴿الْـَٰٔنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١]. والعصمة ظاهرة في النص: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ﴾، فلو أنه هَمَّ بالزنا لما قال: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ﴾، أي: كما أريناه بُرهاناً صَرَفه عما كان فيه، كذلك نَقِيه السوءَ والفحشاءَ في جميع أموره. ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، أي: المُجتبين المُطَهَّرين المختارين المصطَفين الأخيار، صلواتُ الله وسلامُه عليه.

---

(١) في الأصول: «... إنه كان فاحشة ومقتاً....».

(٢) هذا الأثر وما قبله متلقى عن أهل الكتاب. وانظر الطبري ١٩٠٩٥.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

يُخبر تعالى عن حالهما حين خرجَا يستبقان إلى الباب، يوسفُ هاربٌ، والمرأة تطلُبه ليرجعَ إلى البيت، فَلَحِقته في أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه من ورائه فَقَدَّته قداً فظيعاً، يقال: إنه سَقَط عنه، واستمرَّ يوسفُ هارِباً ذاهباً، وهي في إثره، فألفيا سيِّدها ـ وهو زوجُها ـ عند الباب، فعند ذلك خَرجت مما هي فيه بمكرها وكَيدِها، وقالت لزوجها مُتنصِّلة وقاذفةً يوسفَ بدائها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾، أي: فاحشةً، ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾، أي: يُحبسَ، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: يُضربَ ضرباً شديداً موجعاً. فعند ذلك انتصرَ يوسف ـ عليه السلام ـ بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، و﴿قَالَ﴾ بارّاً صادقاً: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾، وذكر أنها اتَّبعته تَجذِبه إليها حتى قدَّت قميصه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾، أي: من قُدَّامه، ﴿فَصَدَقَتْ﴾، أي: في قولها إنها أرادها على نفسها، لأنه يكون لَمَّا دعاها وأبَت عليه دَفَعته في صَدْره، فَقَدَّت قميصَه، فَيَصِحُّ ما قالت، ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾، وذلك يكونُ ـ كما وَقَع ـ لما هَرَب منها وتَطَلَّبَه أمسكَت بقميصه من ورائه لتردَّه إليها، فَقَدَّت قميصه من ورائه. وقد اختلفُوا في هذا الشاهد: هل هو صغيرٌ أم كبيرٌ، على قولَين لعلماء السَّلَفِ، فقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن سِمَاكٍ، عن عِكرَمَة، عن ابن عباس: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، قال: ذُو لِحْيةٍ. وقال الثوري، عن جابر، عن ابن أبي مُلَيكة، عن ابنِ عباس: كان من خاصَّة الملك. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدي، ومُحمَّد بن إسحاقَ: إنه كان رجلاً. وقال زيدُ بن أسلَمَ، والسديُّ: كان ابنَ عمها. وقال ابن عباس: كان من خاصَّة الملك. وقد ذكر ابنُ إسحاقَ أن زلَيخا كانت بنتَ أخت الملك الرَّيان بن الوليد.

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، قال: كان صَبِياً في المهد. وكذا رُوي عن أبي هُرَيرة، وهلال بن يسافٍ، والحسنِ، وسعيدِ بن جُبَير، والضحَّاكِ بنِ مُزَاحِم: أنه كان صبياً في الدار. واختاره ابنُ جرير. وقد وَرَد فيه حديث مرفوعٌ:

[٣٨٦٢] فقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عَفَّان، حدثنا حَمَّاد ـ هو ابن سَلَمة ـ أخبرني عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «تكلَّم أربعةٌ وهم صغار»، فذكر فيهم شاهدَ يوسفَ[1]. ورواه غيرُه عن حَمَّاد بن سلمة، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه

(١) المرفوع ضعيف جداً، والصواب موقوف، أخرجه الطبري ١٩١١٨، وإسناده ضعيف، فيه عطاء بن السائب، اختلط بأخَرَة، وقد اضطرب فيه، حيث أخرجه الطبري ١٩١٠٨ و ١٩١٠٩ عن ابن عباس موقوفاً.

وأخرج أبو يعلىٰ ٢٥١٧ وابن حبان ٢٩٠٤ وأحمد ١/ ٣١٠ والبزار ٥٤ والطبراني ١٢٢٨٠ والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٨٩ عن عطاء بن السائب عن سعيد عن ابن عباس مرفوعاً حديثاً مطولاً وعجزه «قال ابن عباس: أربعة تكلموا وهم صغار...»، فهو موقوف كما ترىٰ مع أن راويه، هو ابن السائب نفسه، فالصواب موقوف. وقد أخرج البخاري ٣٤٣٦ ومسلم ٢٥٥٠ وأحمد ٢/ ٣٠٧ وغيرهم من حديث أبي هريرة «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة، عيسىٰ ابن مريم، وصاحب جريج، والطفل الرضيع» في سياق قصة طويلة.

قال: تَكلَّم أربعةٌ وهم صِغَارٌ: ابن ماشطةِ بنتِ فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جُرَيج، وعيسى ابن مريم. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: كان من أمر الله، ولم يكن إنسياً. وهذا قول غريب.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾، أي: فلما تحقق زوجُها صدقَ يوسف وكَذِبها فيما قَذَفته ورمته به، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي: إنَّ هذا البهت واللَّطخ الذي لَطَختِ عِرضَ هذا الشابِّ به من جُملَةِ كيدِكُنّ، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال آمراً ليوسفَ ـ عليه السلام ـ بكتمان ما وَقَع: يا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾، أي: اضرب عن هذا صفحاً، فلا تَذكُره لأحدٍ، ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾، يقول لامرأته وقد كان لَيِّنَ العريكة سهلاً، أو أنه عَذَرها، لأنها رأت ما لا صَبْر لها عنه، فقال لها: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾، أي: الذي وَقَع منكِ من إرادةِ السُّوءِ بهذا الشابِّ، ثم قَذْفِهِ بما هو بريءٌ منه، استغفري من هذا الذي وقَعَ منك، ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾.

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

يُخبر تعالى أن خَبَر يوسف وامرأةِ العزيز شاع في المدينة، وهي مصرُ، حتى تحدَّث الناس به، ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ مثل نساء الأمراءِ والكُبراءِ يُنكِرْنَ على امرأةِ العزيز ـ وهو الوزير ـ ويَعِبْنَ ذلك عليها: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾، أي: تُحاولُ غلامَها عن نفسه، وتدعُوه إلى نفسها، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، أي: قد وصل حُبُّه إلى شَغَافِ قلبها. وهو غِلافُه. قال الضحَّاكُ، عن ابن عباس: الشَّغْفُ: الحبُّ القاتل، والشَّعفُ دون ذلك، والشَّغاف حجابُ القلب. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: في صَنِيعها هذا من حُبِّها فتاها، ومُرَاودتها إيَّاه عن نفسه. ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾، قال بعضُهم: بِقَولِهِنَّ. وقال محمد بن إسحاق: بل بَلَغهُنَّ حُسْنُ يوسف، فأحببن أن يَرَينه، فقلن ذلك ليتوصَّلْنَ إلى رُؤيتِهِ ومُشاهَدَتِهِ، فعند ذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾، أي: دَعَتهُنَّ إلي مَنزلها لتضيِّفَهُنَّ ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾. قال ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، والحسن، والسدِّيُّ، وغيرُهم: هو المجلس المُعَدُّ فيه مفارشُ ومخادُّ وطعامٌ، فيه ما يُقطَعُ بالسكاكين من أُترُجٍّ ونحوه. ولهذا قال تعالى: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، وكان هذا مكيدةً منها، ومُقابلة لهنَّ في احتيالهِن على رؤيته، ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾، وذلك أنها كانت قد خَبَّأته في مكان آخر، ﴿فَلَمَّا﴾ خَرَج و ﴿رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾، أي: أعظَمنَ شأنَه، وأجلَلْنَ قَدْرَه، وجَعَلْن يقطعنَ أيديهنَّ دَهشاً برُؤيَته، وهُنَّ يظنَنَّ أنهن يقطعن الأترجَّ بالسكاكين، والمراد: أنهن حَزَزْنَ أيدِيَهُنَّ بها، قاله غيرُ واحد. وعن مجاهدٍ، وقتادة: قَطَّعن أيديهُنَّ حتى ألقينها، فالله أعلم.

وقد ذُكِر عن زيدِ بن أسلَمَ أنها قالت لهنَّ بعدما أكلْنَ وطابت أنفسُهنَّ، ثم وضَعَت بين أيديهن أترجّاً، وآتت كُلَّ واحِدةٍ منهن سِكِّيناً: هل لَكُنَّ في النظر إلى يوسفَ؟ قُلْنَ: نعم. فَبعثَت إليه تأمرُه أن اخرُج إليهن،

فلما رَأَينه جَعلْنَ يقطعْنَ أيديَهنّ، ثم أَمرته أن يرجعَ، فرجع ليرينَه مُقبلاً ومُدبراً، وهن يحزُزْنَ في أيديهنّ، فلما أحسسْنَ بالألم جعلنَ يُولوِلْنَ، فقالت: أنتُنّ من نظرةٍ واحدةٍ فعلتُنّ هكذا. فكيف ألامُ أنا؟ ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، ثم قلن لها: وما نَرَى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا. لأنهنّ لم يَرَيْنَ في البشرِ شِبْهَه ولا قَريباً منه، فإنه ـ صلواتُ الله عليه وسلامه ـ كان قد أعطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ.

[٣٨٦٣] كما ثَبت ذلك في الحديث الصَّحيح في حديث الإِسراء: أن رسول الله ﷺ مَرَّ بيوسفَ ـ عليه السلام ـ في السماء الثالثة، قال: «فإذا هُو قد أعطِي شَطْرَ الحُسْن»[١].

[٣٨٦٤] وقال حَمّاد بن سَلَمة، عن ثابتٍ، عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أعطِيَ يوسفُ وأمُّه شَطْرَ الحُسْن». وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوصِ، عن عبد الله بن مسعود قال: أعطِي يوسفُ وأمهُ ثُلُثَ الحسن. وقال أبو إسحاق أيضاً، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: كان وجهُ يوسفَ مثل البَرْقِ، وكانت المرأة إذا أتته لحاجةٍ غَطّى وجهَه مخافةَ أن تُفتَتن به.

[٣٨٦٥] ورواهُ الحسنُ البَصْرِي مرسلاً، عن النبي ﷺ أنه قال: «أُعطِيَ يوسُفُ وأمُه ثلث حُسنِ أهلِ الدنيا، وأُعطِي الناسُ الثلثين» أو قال: «أعطي يوسفُ وأمُه الثلثين والناس الثلث»[٢]. وقال سفيانُ، عن منصور، عن مجاهدٍ، عن ربيعةَ الجُرَشِيِّ قال: قُسِمَ الحسنُ نصفين، فأعطِيَ يوسفُ وأمُه سارَةُ نصفَ الحُسنِ. والنصفُ الآخرُ بين سائر الخلق.

وقال الإمام أبو القاسم السهيلي: معناه أن يُوسُفَ كان على النِّصف من حُسن آدم ـ عليه السلام ـ فإن الله خَلَق آدم بيده على أكمل صورةٍ وأحسنها، ولم يكن في ذُرِّيتهِ من يُوازيه في جَمَاله، وكان يوسفُ قد أعطِي شَطْرَ حُسنه. فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ ـ قال مجاهد وغير واحد: معاذَ اللّهِ، ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ ـ وقرأ بعضهم: «ما هذا بِشِرىً» أي: بِمُشْتَرىً. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾، تقول هذا مُعتذِرة إليهنّ بأن هذا حقيق بأن يُحَبَّ لجمالِهِ وكماله. ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾، أي: فامتنع. قال بعضهم: لما رأين جَمَاله الظاهِرَ أخبرتهنّ بصفاتِهِ الحسنةِ التي تخفَى عنهنّ، وهي العِفّة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعَّدُه: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، فعند ذلك استعاذ يوسف ـ عليه السلام ـ من شرِّهن وكيدِهِنّ، و ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾، أي: من الفاحشة، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: إن وكلتَني إلى نفسي فليسَ لي من نفسي قدرةٌ، ولا أملك لها ضَرّاً ولا نفعاً إلا بِحَوْلِكَ وقُوّتِكَ، أنت المستعانُ، وعليك التُّكلان، فلا تَكِلْني إلى نفسي. ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٣ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وذلك أن يوسفَ ـ عليه السلام ـ عصَمَه الله عِصمَةً عَظِيمةً، وحماه فامتنعَ منها أشدَّ الامتناع، واختار السجنَ على ذلك، وهذا في غايةِ مقاماتِ الكمالِ: أنه مع شَبَابه وجَمَاله وكَمَاله تدعُوه سيدَتُه، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غايةِ الجَمَالِ والمال والرِّياسةِ، ويمتنع من ذلك، ويختارُ السِّجن على ذلك، خوفاً من الله ورجاءَ ثوابه.

[٣٨٦٦] ولهذا ثبتَ في الصحيحَين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعةٌ يُظِلُّهم الله في ظِلّه يوم لا ظلَّ إلا

---

(١) صحيح. هو بعض حديث الإسراء أخرجه البخاري ٣٢٠٧ و ٣٨٨٧، ومسلم ١٦٤، والنسائي ١/ ٢١٧، وأحمد ٤/ ٢٠٨ و ٢١٠، وابن حبان ٤٨ من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة.

(٢) أخرجه الطبري ١٩٢٣٧ عن الحسن مرسلاً، ومراسيل الحسن واهية كما هو مقرر.

ظِلُّه، إمامٌ عادلٌ، وشابٌ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبه مُعلَّق بالمسجدِ، إذا خَرَج منه حَتّى يعودَ إليه. ورجلانِ تحابّا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلَمَ شِمالُه ما أنفقت يمينُه، ورجلٌ ذَكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجلٌ دعته امرأةٌ ذات جمالٍ ومنصبٍ فقال: إني أخافُ الله»[1].

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

يقولُ تعالى: ثم ظهرَ لهم من المصلحة فيما رأوه أنّهم يسجُنونه إلى حين، أي: إلى مُدّةٍ، وذلك بعدما عَرَفوا براءته، وظهرت الآياتُ ـ وهي الأدلةُ ـ على صدقِهِ في عِفّته ونزاهته. فكأنهم ـ والله أعلم ـ إنما سَجَنُوه لمّا شاع الحديث إيهاماً أن هذا راوَدَها عن نفسها، وأنهم سَجَنُوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملكُ الكبيرُ في آخر المدّةِ، امتَنَع من الخروجِ حتى تتبينَ براءتُه مما نُسِب إليه من الخيانة، فلما تقرّر ذلك خَرَج وهو نَقِيّ العِرْضِ، صلواتُ الله عليه وسلامه. وذكر السدّيُّ: أنهم إنما سَجَنُوه لئلا يَشِيعَ ما كان منها في حَقّه ويبرأ عرضُه فيفضحَها.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قال قتادةُ: كان أحدُهما ساقِيَ الملكِ، والآخر خَبّازَه. قال محمد بن إسحاق: كان اسمُ الذي على الشراب نَبُوا، والآخرُ مَجْلَثُ. قال السدّي: وكان سببُ حَبْسِ الملِك إيّاهما أنه توهَّم أنهما تَمالآ على سَمّه في طَعامه وشَرابه. وكان يوسفُ ـ عليه السلام ـ قد اشتهر في السجن بالجُودِ والأمانةِ وصِدْقِ الحديثِ، وحُسْنِ السَّمْتِ، وكَثْرَةِ العبادة ـ صلواتُ الله عليه وسلامُه ـ ومعرفةِ التَّعبير، والإحسانِ إلى أهل السجن، وعيادةِ مرضاهم، والقيام بحقُوقِهم. ولما دخلَ هذان الفَتَيان إلى السجن، تآلفا به وأحبّاه حُبّاً شَدِيداً، وقالا له: والله لقد أحببناك حبّاً زائداً. قال: بارك الله فيكما، إنه ما أحبّني أحدٌ إلا دَخل عليّ من مَحَبّته ضَررٌ، أحبّتني عَمّتي فدخلَ عليّ الضررُ بسببها، وأحبّني أبي فأوذِيت بِسَببه، وأحبتني امرأة العزيزِ فكذلك، فقالا: والله ما نستطيعُ إلاّ ذلك، ثم إنهما رَأيا مناماً، فرأى الساقي أنه يعصِرُ خمراً ـ يعني عِنَباً ـ وكَذَلِكَ هي في قراءةِ عبد الله بن مسعود: «إني أراني أعصِرُ عِنَباً». ورواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن سنان، عن يزيد بن هارون، عن شريكٍ، عن الأعمشِ، عن زيدِ بن وهبٍ، عن ابن مسعودٍ: أنه قرأها: «أعصِرُ عِنَباً». وقال الضحّاك في قولِهِ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾، يعني عِنَباً، قال: وأهل عُمَانُ يُسمُّون العِنب خمراً. وقال عِكْرِمةُ: قال له: إني رأيتُ فيما يَرَى النائمُ أني غَرَسْتُ حَبَلَةً من عِنب، فنبتت، فَخَرج فيه عناقيدُ، فعصرتُهُنّ ثم سقيتُهنّ المَلِك. قال: تمكث في السجنِ ثلاثة أيام، ثم تخرجُ فَتَسقيه خَمْراً. وقال الآخرُ، وهو الخَبّازُ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. والمشهورُ عند الأكثرين ما ذكرناه، وأنهما رأيا مناماً وطَلَبا تعبيره. وقال ابنُ جَرير: حدثنا ابنُ وَكِيع وابن حُمَيد قالا: حدثنا جَرير، عن عُمارةَ بنِ القَعقاع، عن إبراهيمَ، عن عبد الله قال: ما رأى صاحِبَا يوسُفَ شيئاً، إنما كان تحالما لِيُجرِّبا عَلَيه.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٦٠ ومسلم ١٠٣١ح٩١ والترمذي بعد الحديث ٢٣٩١ والنسائي ٨/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣، وأحمد ٢/ ٤٣٩، وابن خزيمة ٣٥٨، وابن حبان ٤٤٨٦ من حديث أبي هريرة.

﴿مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَاءِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)﴾

يُخبرُهما يوسفُ ـ عليه السلام ـ أنهما مهما رَأيا في نومهما من حُلُم فإنه عارفٌ بتفسيره ويُخبرهما بتأويله قبلَ وقوعه، ولهذا قال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾. قال مجاهد: يقول: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ في يومكما، ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾، وكذا قال السُّديُّ. وقال ابنُ أبي حاتم ـ رحمه الله ـ: حدثنا عليُّ بن الحسين، حَدَّثنا مُحمَّد بن العلاء، حَدثنا مُحمد بن يَزيدَ ـ شيخٌ له ـ عن رشدين، عن الحسن بن ثوبانَ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: ما أدري لعلَّ يوسفَ ـ عليه السلام ـ كان يَعْتَافُ، وهو كذلك، لأني أَجِدُ في كتاب الله حين قال للرَّجُلَين: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾، قال: إذا جاءَ الطعامُ حُلواً أو مُرّاً اعتاف عند ذلك. ثم قال ابنُ عباس: إنما عُلِّمَ فَعَلِم. وهذا أثر غريبٌ. ثم قال: وهذا إنما هو من تَعليم الله إيايَ، لأني اجتنبتُ مِلَّةَ الكافِرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجُون ثواباً ولا عقاباً في المعاد، ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَاءِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، يقول: هجرتُ طريقَ الكفرِ والشركِ، وسلكتُ طريق هؤلاء المرسلين ـ صلوَاتُ الله وسلامُه عليهم أجمعينَ ـ وهكذا يكون حالُ من سَلَك طريق الهُدى، واتَّبع طريق المرسلين، وأعرضَ عن طريق الضالينَ، فإن الله يَهدِي قلبه ويُعلِّمه ما لم يكن يعلَمُه، ويجعَلُه إماماً يُقتَدَى به في الخيرِ، وداعياً إلى سبيل الرشاد. ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾، هذا التوحيدُ ـ وهو الإقرارُ بأنه لا إله إلا هو وحدَه لا شريكَ له ـ ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾، أي: أوحاه إلينا، وأمَرنا به ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾، إذ جَعَلَنا دُعاةً لهم إلى ذلك، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، أي: لا يَعرفُون نعمةَ الله عليهم بإرسالِ الرُّسُلِ إليهم، بل ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن سنان، حدثنا أبو معاويةَ، حدثنا حَجَّاجُ، عن عطاءِ، عن ابنِ عباس: أنه كان يجعلُ الجَدَّ أباً، ويقولُ: واللهِ فمن شاء لاعنته عند الحَجَرِ، ما ذكر الله جَدّاً ولا جَدَّةً، قال الله تعالى ـ يعني إخباراً عن يوسف ـ: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَاءِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾

ثم إنَّ يوسفَ ـ عليه السلام ـ أقبلَ على الفَتَيينَ بالمخاطبة، والدعاءِ لهما إلى عبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، وخَلع ما سِواه من الأوثان التي يعبدها قومُهما، فقال: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، الذي ذَلَّ كُلُّ شيءٍ لِعزِّ جلاله، وعَظَمةِ سلطانه. ثم بَيَّن لهما أنَّ التي يَعبدونها ويُسَمُّونها آلهةً إنما هو جَهْلٌ منهم، وتسميةٌ من تلقاءِ أنفُسِهم، تلقاها خَلَفُهم عن سَلَفِهم، وليس لذلك مستندٌ من عند الله، ولهذا قال: ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾، أي: حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ. ثم أخبرُهم أن الحُكْم والتصرُّفَ والمشيئةَ والمُلْك كلَّه لله، وقد أَمَر عبادَه قاطبةً ألاّ يعبدوا إلا إيّاه، ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، أي: هذا الذي أدعوكم إليه من تَوحيدِ الله وإخلاص العَملِ له، هو الدِّينُ المستقيمُ، الذي أَمَر اللهُ به. وأنزل به الحُجَّة والبرهانَ الذي

يُحبه ويرضاه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: فلهذا كان أكثرُهم مشركين، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾. وقد قال ابنُ جَرِيرٍ: إنما عَدَلَ بهم يُوسُفُ عن تعبير الرُّؤيا إلى هذا، لأنه عَرَف أنها ضَارَّةٌ لأَحَدِهما، فأحبَّ أن يَشغَلَهما بغير ذلك، لئلا يُعاوِدُوه فيها، فعاوَدُوه، فأعادَ عليهم الموعِظة. وفي هذا الذي قاله نظرٌ؛ لأنه قد وَعَدهما أولاً بتعبيرِها، ولكن جَعَل سُؤالهما له على وَجْهِ التعظيم والاحترام وُصلَةً وسَبَباً إلى دُعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رَأى في سَجِيَّتِهما من قَبُول الخيرِ والإقبالِ عليه، والإنصاتِ إليه، ولهذا لما فَرَغ من دعوتهما شَرَع في تعبير رُؤياهما، من غير تكرار سؤال فقال:

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

يقولُ لهما: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾، وهو الذي رَأى أنه يَعصِر خَمْراً، ولكنه لم يُعَيِّنه لئلا يحزنَ ذاك، ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾، وهو في نفس الأمر الذي رَأى أنه يحمل فوقَ رأسِهِ خُبزاً. ثم أعلمهما أن هذا قد فُرِغ منه، وهو واقعٌ لا محالة، لأنَّ الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبَّر، فإذا عُبِّرت وقَعَت. وقال الثوريّ: عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم، عن عبد الله قال: لما قالا ما قالا وأخبرَهما قالا: ما رأينا شيئاً. فقال: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾. ورواه محمد بن فُضَيلٍ عن عمارة عن إبرهيم عن علقمة عن ابن مسعود، به. وكذا فَسَّره مجاهدٌ وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَمَ وغيرُهم. وحاصلُه أن من تَحَلَّم بباطل وفَسَّره، فإنه يُلزَمُ بتأويله والله تعالى أعلم.

[٣٨٦٧] وقد ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد، عن معاوية بن حيدة، عن النبي ﷺ: «الرُّؤيا على رجل طائرٍ ما لم تُعبَّر فإذا عُبِّرت وقعت»[١].

[٣٨٦٨] وفي مسند أبي يعلى، من طريق يزيدَ الرَّقاشي، عن أنس مرفوعاً: «الرُّؤيا لأول عابر»[٢].

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

ولما ظَنَّ يوسفُ ـ عليه السلام ـ نجاة أحدهما، وهو الساقي، قال له يوسف خفيةً عن الآخر ـ والله أعلم ـ لئلا يُشعِره أنه المصلوبُ قال له: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾. يقول: اذكر قِصَّتي عند ربِّك ـ وهو المَلِك ـ فَنَسِيَ ذلك المُوصَى أن يُذَكِّر مَولاه المَلِك وكان من جملةِ مكايدِ الشيطانِ، لِئلاً يطلع نَبِيُّ الله من السِّجن. هذا هو الصوابُ أن الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ عائد على الناجي، كما قاله مجاهدٌ، ومحمد بن إسحاقَ، وغيرُ واحد. ويُقالُ إنَّ الضمير عائدٌ على يوسف ـ عليه السلام ـ رواهُ ابنُ جرير، عن ابنِ عباسٍ، ومجاهدٍ أيضاً، وعكرمةَ وغيرهم. وأسند ابنُ جريرٍ ها هنا حديثاً، قال:

[٣٨٦٩] حدثنا ابنُ وكيع، حدثنا عَمْرو بن محمد، عن إبراهيمَ بن يزيدَ، عن عمرو بن دينار، عن عكرمةَ، عن ابن عباسٍ مرفوعاً قال: قال النبيّ ﷺ: «لو لم يَقُل ـ يعني يوسفَ ـ الكلمةَ التي قال: ما لَبِثَ في

---

(١) تقدم تخريجه فيما سبق.

(٢) في إسناده يزيد بن أبان الرقاشي واهٍ، لكن ربما يشهد له ما قبله.

السِّجنِ طولَ ما لبث، حيثُ يبتغي الفرج من عند غير الله»[1]. وهذا الحديثُ ضعيفٌ جداً؛ لأن سُفيان بنَ وكيع ضعيفٌ، وإبراهيمَ بن يزيدَ ـ هو الخُوزيُّ ـ أضعفُ منه أيضاً. وقد رُوي عن الحسن وقتادةَ مرسلاً عن كلٍّ منهما، وهذه المرسلاَت ها هنا لا تُقبلُ لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم.

وأما البِضعُ، فقال مجاهد وقتادةُ: هو ما بين الثلاث إلى التسع. وقال وهب بن مُنَبِّه: مكثَ أيوبُ في البلاء سبعاً، ويوسف في السِّجن سبعاً، وعُذِّب بُختنصَّر سَبْعاً. وقال الضحَّاكُ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾، قال: ثنتا عشرة سنة، وقال الضحَّاكُ: أربَع عشرة سنة.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

هذه الرؤيا من مَلك مصر مما قدَّر الله تعالى أنها كانت سبباً لخرُوج يوسفَ ـ عليه السلام ـ من السجن معزَّزاً مكرماً، وذلك أن المَلك رَأى هذه الرؤيا، فهالته وتعَجَّب من أمرها، وما يكونُ تفسيرها، فَجمع الكَهَنة والحُزاة وكُبَراء دولته وأمراءه وقَصَّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلِها، فلم يعرفُوا ذلك، واعتذرُوا إليه بأن هذه ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾، أي: أخلاطٌ اقتضت رُؤياك هذه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾، أي: ولو كانت رُؤيا صحيحةً من أخلاطٍ لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تَعبيرُها. فعند ذلك تَذكَّرَ ذلك الذي نجا من ذينك الفتيين اللَّذين كانا في السجن مع يوسفَ، وكان الشيطانُ قد أنساه ما وصَّاه به يوسفُ من ذكر أمْرِه للمَلِك، فعند ذلك تَذَكَّر ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، أي: مُدَّةٍ ـ وقرأ بعضُهم: بعد أمَهٍ، أي: بعد نِسيان ـ فقال للمَلِك والذين جَمَعهم لذلك: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾، بتأويل هذا المَنَام، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾، أي: فابعثونِ إلى يوسفَ الصديق إلى السِّجن. ومعنى الكلام: فبعثوه. فجاءه فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾، وذَكَر المنام الذي رآه المَلك، فعند ذلك ذَكَر له يوسفُ ـ عليه السلام ـ تعبيرَها من غير تعنيف لذلك الفتى في نسيانه ما وَصَّاه به، ومن غير اشتراطٍ للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾، أي: يأتيكم الخِصْبُ والمطرُ سبعَ سنين

---

(١) منكر، أخرجه الطبري ١٩٣٢٢ والطبراني ١١٦٤٠، وإسناده ضعيف جداً، قال الهيثمي في «المجمع» ١١٠٨٧: فيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي، وهو متروك، أهـ وسفيان بن وكيع ضعفوه. وورد من حديث أبي هريرة أخرجه ابن حبان ٦٢٠٦ وفي إسناده محمد بن عمرو صدوق يخطىء. ولعل الوهم ممن دون محمد بن عمرو، فقد أخرجه أحمد ٢/ ٢٣٢ والحاكم ٢/ ٥٦١ والطحاوي في «المشكل» ١/ ١٣٦ من طريق آخر عن محمد بن عمرو به وليس فيه لفظ «لو لم يقل...» ووردت هذه اللفظة عن عكرمة مرسلة عند الطبري ١٩٣١٩ و ١٩٣٢٠ و ١٩٣٢١ عن الحسن، و ١٩٣٢٣ عن قتادة، وهذه مراسيل، قال ابن كثير: لا يحتج بها في مثل هذه المواطن، وذكر ابن كثير ذلك في النهاية ١/ ١٩٤ وأنكر هذه اللفظة، وانظر الإحسان ٦٢٠٦.

مُتَوالِياتٍ، فَفَسَّر البقرِ بالسنين، لأنها تُثِير الأرض التي تُسْتَغل منها الثمرات والزروع، وهُنَّ السُّنبلات الخضر. ثم أرشدهم إلى ما يَعتَمِدونه في تلك السنين فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾، أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخِصْبِ فاخزِنُوه في سنبله، ليكون أبقى له وأبعدَ عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدارَ الذي تأكلونه، ولْيكُن قَليلاً قَليلاً لاَ تُسرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشِّداد، وهُنَّ السبع السنين المُحْل التي تعقب هذه السبعَ مُتَواليات، وهن البقرات العِجَاف اللاّتي يأكُلن السمان، لأن سِني الجَدْبِ يُؤكَلُ فيها ما جَمعوه في سِني الخِصْبِ، وهُنَّ السنبلاتُ اليَابِسات. وأخبرهم أنهنّ لا يُنبِتْنَ شيئاً، وما بَذرُوه فلا يَرْجِعُون منه إلى شيء، ولهذا قال: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾. ثم بَشَّرهم بعد الجَدْبِ العامِّ المتوالي بأنه يَعقُبهم، بعد ذلك ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾، أي: يأتيهم الغيثُ، وهو المطرُ، وتُغِلُّ البلادُ، ويَعصِرُ الناس ما كانوا يعصِرُون على عادتهم، من زيتٍ ونحوه، وسُكرٍ ونحوه، حتى قال بعضُهم: يدخلُ فيه حَلْبُ اللَّبنِ أيضاً. قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾: يَحلِبُون.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

يقولُ تعالى إخباراً عن المَلِك لما رَجَعُوا إليه بتعبير رؤياه التي كان بما أعجَبَه وأينقه، فَعَرَفَ فضلَ يوسفَ ـ عليه السلام ـ وعِلْمَه، وحسن اطلاعه على رُؤيَاه، وحُسن أخلاقِهِ على من بِبَلده من رعاياه، فقال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾، أي: أخرِجُوه من السِّجن وأحضِرُوه. فلما جاءه الرسولُ بذلِك امتنَعَ عن الخروج حتى يتحقَّق المَلِكُ ورعيَّتُه براءَةَ ساحَتِه، ونزاهةَ عرضه، مما نُسِب إليه من جِهَةِ امرأةِ العزيز، وأنَّ هذا السِّجنَ لم يكن على أمر يَقتضِيه، بل كان ظُلماً وعُدواناً، قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾. وقد وَرَدت السنةُ بِمدحه على ذلك، والتنبيهِ على فَضلِه وشَرَفه، وعُلُوِّ قَدْرِه وصَبْرِه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه.

[٣٨٧٠] فَفي المسندِ والصَّحِيحَين من حديث الزُّهريِّ، عن سعيد وأبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيمَ إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ويرحم الله لُوطاً لقد كان يَأوِي إلى ركنٍ شديدٍ، ولو لبثتُ في السِّجن ما لبثَ يوسفُ لأجبتُ الداعيَ»[(١)].

[٣٨٧١] وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حدثنا عَفَّانُ، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، حدثنا محمد بن عَمرو، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٧٢ و ٤٥٣٧، ومسلم ١٥١ ح ٢٣٨، وابن ماجه ٤٠٢٦ وأحمد ٢/٣٢٦، والطبري في جامع البيان ٥٩٧٤ و ١٩٤٠٠ وابن حبان ٦٢٠٨ والطحاوي في مشكل الآثار ٣٢٦.

عَلِيمٌ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «لو كنتُ أنا لأسرعتُ الإجابةَ وما ابتغيتُ العُذرَ»[١].

[٣٨٧٢] وقال عبدُ الرزّاقِ: أخبرنا ابن عُيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد عجبتُ من يوسف وصَبْرِهِ وكَرَمه، والله يغفرُ له، حين سُئِلَ عن البقراتِ العجافِ والسِّمانِ، ولو كنت مكانه ما أجبتُهم حتى أشترط أن يُخرجُوني. ولقد عَجِبتُ من يوسفَ وصبره وكَرَمه، والله يغفرُ له، حين أتاه الرسولُ، ولو كنتُ مكانه لبادرتُهم البابَ، ولكنّه أراد أن يكون له العُذر»[٢]. هذا حديثٌ مُرسَلٌ.
وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، إخبارٌ عن الملك حين جَمَع النِّسوة اللاتي قَطَّعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهنّ كُلّهن، وهو يريدُ امرأة وزيره وهو العزيز: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾، أي: شأنكُنّ وخبركن ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، يعني يومَ الضِّيافة، ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾، أي: قالت النسوةُ جواباً للملك: حاشَ لله أن يكونَ يوسفُ مُتّهماً، والله ما عَلِمنا عليه من سُوءٍ. فعند ذلك ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: تقولُ: الآن تَبَيَّن الحقُّ وظَهَرَ وبرَزَ. ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي في قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾، ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾، تقول: إنما اعترفتُ بهذا على نفسي، ذلك ليعلَمَ زَوجي أني لَم أَخُنه في نفسِ الأمرِ، ولا وَقَع المحذورُ الأكبرُ، وإنما راودتُ هذا الشابَّ مُراوَدةً فامتنعَ، فلهذا اعترفتُ لِيعلَمَ أني بريئة، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾، تقول المرأة: ولستُ أبرِّيء نفسي، فإن النفس تَتحدَّث وتَتمنّى، ولهذا راودتُه لأنها أمّارةٌ بالسُّوءِ، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾، أي: إلا من عَصَمه الله تعالى، ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وهذا القولُ هو الأشهرُ والأليقُ والأنسبُ بسياقِ القصّةِ ومعاني الكلام. وقد حكاه الماورديُّ في تَفْسِيره، وانتدبَ لنصره الإمامُ العلامةُ أبو العباس ابن تَيميّة ـ رَحِمَه الله ـ فأفرده بتصنيفٍ على حِدَةٍ.

وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسفَ عليه السلام، من قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾... الآيتين، أي: إنما رَدَدْتُ الرسولَ ليعلم الملك بَراءتي وليعلم العزيزُ ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ﴿بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، وهذا القولُ هو الذي لم يحكِ ابنُ جرير ولا ابن أبي حاتم سواه. وقال ابنُ جرير: حَدَّثنا أبو كُرَيب، حدثنا وكيع، عن إسرائيلَ، عن سماكٍ، عن عكرمةَ، عن ابن عباسٍ قال: لما جمع المَلِكُ النسوةَ فسألهن: هل راودتُنّ يوسفَ عن نفسه؟ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ قال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾. قال: فقال له جبريلُ عليه السلامُ: ولا يوم هَممتَ بما هَممتَ به؟ فقال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾. وهكذا قال مجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، وعكرمةُ، وابنُ أبي الهُذَيل، والضَّحّاكُ، والحسنُ، وقتادةُ، والسديُّ. والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كلّه من كلامِ امرأةِ العزيزِ بحضرةِ الملك، ولم يكن يوسفُ ـ عليه السلام ـ عندهم، بل بعد ذلك أحضَره الملكُ.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾

---

(١) أخرجه أحمد رقم ٨٥٣٥ و ٢/ ٣٨٩ رقم ٩٠٣٧. وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ٤٠: رواه أحمد وفيه محمد ابن عمرو وهو حسن الحديث. وانظر تعليق أحمد شاكر: المسند رقم ٨٥٣٥.

(٢) مرسل. لكن يشهد له ما قبله، والله أعلم.

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف ـ عليه السلام ـ ونزاهة عرضِهِ مما نُسِب إليه، قال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾، أي: أجعله من خاصّتي وأهل مَشُورني. ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾، أي: خاطبه الملك وعرفه وَرأى فضله وبراعته، وَعلم ما هو عليه من خَلْق وخُلُق وكَمال قال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، أي: إنك عندنا قد بَقِيتَ ذا مكانةٍ وأمانةٍ، فقال يوسُف ـ عليه السلام ـ: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، مدح نفسه، ويجوزُ للرجل ذلك إذا جُهِل أمرُه، للحاجة. وذكر أنه ﴿حَفِيظٌ﴾، أي: خازنَ أمين، ﴿عَلِيمٌ﴾، ذو علم وبصر بما يتولاه. وقال شيبةُ بن نعامةَ: حَفِيظ لما استودعتني، عليم بِسِني الجَدْبِ. رواه ابن أبي حاتم. وسأل العملَ لِعِلْمِهِ بِقُدرته عليه، ولما في ذلك من المصالح للناس، وإنما سأل أن يُجْعَل على خَزَائن الأرض، وهي الأهراءُ التي يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السِّنين التي أخبرهم بشأنها، لِيتصرّفَ لهم على الوجهِ الأحوطِ والأصلحِ والأرشدِ. فَأجِيبَ إلى ذلك رغبةً فيه، وتكرِمَةً له، ولهذا قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: أرض مصرَ، ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾. قال السّديُّ، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَمَ: يَتصرَّف فيها كيفَ يشاء. وقال ابنُ جرير: يَتّخذُ منها منزلاً حيث يشاء، بعد الضيق والحَبْسِ والإسارِ. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: وما أضعنا صَبْرَ يوسفَ على أذى إخوتِهِ، وَصَبْرَه على الحبس بِسَبَبِ امرأةِ العَزِيز، فلهذا أعقبه الله ـ عز وجل ـ السلامةَ والنصرَ والتأييد، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾، يُخبر تعالى أن ما ادَّخره الله تعالى لنبيه يوسف ـ عليه السلام ـ في الدار الآخرة أعظمُ وأكثرُ وأجلُّ مما خَوَّله من التصرُّفِ والنفوذ في الدنيا، كما قال تعالى في حق سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: ٣٩ ـ ٤٠]. والغرضُ أن يوسف ـ عليه السلام ـ ولاّه مَلكُ مصر الريّان بن الوليد الوزارةَ في بلاد مصر، مكانَ الذي اشتراه من مصر زَوجِ التي رَاودته، وأسلم الملكُ على يَدَي يوسفَ عليه السلام. قاله مجاهد. وقال محمد بن إسحاق: لما قال يوسف للملك: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، قال الملك: قد فعلتُ. فَوَلاّه فيما ذكروا عَمَل إطفير، وعَزَل إطفير عما كان عليه، يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾، قال: فَذُكر لي ـ والله أعلم ـ أن إطفير هَلَكَ في تلك الليالي، وأن الملك الريّان بنَ الوليد زوّج يوسف امرأة إطفير: راعيل، وأنها حين دخلت عليه قال: أليس هذا خيراً مما كنت تُريدين؟ قال: فيزعمون أنها قالت: أيُّها الصديقُ، لا تَلُمني، فإني كنتُ امرأةً كما ترى حسناء جميلة، ناعمةً في مُلْكٍ ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنتَ كما جعَلَك الله في حُسنك وهَيئتك على ما رأيتَ. فَيَزعمون أنه وجدَها عذراء، فأصابها فَوَلدت له رجلين: أفرائيم بن يوسف، وميشا بن يوسف. وولد لأفرائيم نُونُ، والد يُوشَع بن نُونَ، ورحمةُ امرأةُ أيوبَ عليه السلام. وقال الفُضَيل بن عياضٍ: وقفت امرأةُ العزيزِ على ظهر الطريق حتى مَرّ يوسفُ، فقالت: الحمدُ لله الذي جَعَل العبيد مُلوكاً بطاعَتِهِ، والمُلوكَ عَبيداً بِمعصِيَتِهِ.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ

لَكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

ذكر السُّديّ، ومحمد بن إسحاق، وغيرهما من المفسرين: أنَّ السببَ الذي أقدمَ إخوةَ يُوسُفَ بلادَ مصر، أن يوسف ـ عليه السلام ـ لما باشر الوزارة بمصر، ومَضت السبعُ السنينُ المُخصِبةُ، ثم تلتها سنينُ الجَذبِ، وعَمَّ القحطُ بلادَ مصرَ بِكَمالِها، ووصَلَ إلى بلاد كنعان، وهي التي فيها يعقوبُ ـ عليه السلام ـ وأولادُه. وحينئذٍ احتاط يوسفُ ـ عليه السلام ـ للناس في غلاَّتهم، وجَمعها أحسنَ جَمعٍ، فَحَصَلَ من ذلك مبلغ عظيم، وأهراءُ متعددة هائلة، ووَرَد عليه الناسُ من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يُعطَى الرجل أكثرَ من حمل بعير في السنةِ. وكان عليه السلام لا يُشبعُ نفسه ولا يأكلُ هو والمَلِكُ وجنودُهما إلا أكلةً واحدةً في وسط النهار، حتى يتكفى الناسُ بما في أيديهم مُدَّة السبع سنين. وكان رحمةً من الله على أهلِ مصر. وما ذكره بعضُ المفسرين من أنه باعهم في السنة الأولى بالأموال، وفي الثانية بالمَتَاع، وفي الثالثة بكذا، وفي الرابعة بكذا، حتى باعهم بأنفسهم وأولادِهم بعدما تَمَلَّك عليهم جميعَ ما يملكون، ثم أعتقهم وَرَدَّ عليهم أموالَهم كلها، الله أعلمُ بصحة ذلك، وهو من الإسرائيليات التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب. والغرضُ أنه كان في جُملَة من ورد للمِيرة إخوةُ يوسفَ، عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيزَ مصرَ يُعطي الناسَ الطعام بثمنه، فأخذُوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاماً، ورَكِبوا عشرةَ نَفرٍ، واحتبس يعقوبُ ـ عليه السلام ـ عنده ابنه بنيامين شقيقَ يوسفَ ـ عليهما السلام ـ وكان أحب وَلَده إليه بعدَ يُوسُفَ. فلما دَخلوا على يوسف وهو جالسٌ في أُبهته ورياسَتِهِ وسيادته عَرَفهم حين نظر إليهم، ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، أي: لا يَعرِفُونه، لأنهم فارقُوه وهو صغير حَدَثٌ فباعُوه للسيارة، ولم يدرُوا أين يذهبون به، ولا كانوا يستَشعِرون في أنفسهم أن يصيرَ إلى ما صار إليه، فلهذا لم يَعرِفوه، وأما هُو فَعَرفهم. فذكَر السدِّيُّ وغيره أنه شَرَع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ قالوا: أَيُّها العزيزُ، إنا قَدمنا للميرة. قال: فَلَعلَّكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كَنْعَان، وأبونا يعقوبُ نبيُّ الله. قال: له أولادٌ غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثني عشر، فذَهَب أصغرُنا، هلك في البرِّية، وكان أحبَّنا إلى أبيه، وبَقِي شقيقُه فاحتبسه أبُوه ليتسلَّى به عنه. فَأمر بإنزالهم وإكرامهم. ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾، أي: وَفَاهم كَيْلَهم، وحمَّل لهم أحمالهم قال: ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لأعلَمَ صدقكم فيما ذكرتم، ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، يُرَغّبهم في الرجوع إليه. ثم رَهَّبَهم فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾، أي: إن لم تَقْدَموا به معكم في المرَّة الثانية فليس لكم عندي ميرةٌ، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾، أي: سَنحرِصُ على مجيئه إليكَ بكلِّ ممكن ولا نُبقِي مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه. وذَكَر السديُّ أنه أخذَ منهم رهائنَ حتى يَقْدَموا به معهم، وفي هذا نظر؛ لأنه أحسن إليهم ورغَّبهم كثيراً وهذا لحرصه على رُجوعهم. ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾، أي: غِلْمانه، ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ﴾، أي التي قَدِمُوا بها ليمتارُوا عِوضاً عنها ﴿فِى رِحَالِهِمْ﴾ أي: في أمتعتهم من حيثُ لا يَشعُرون، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بها. قيل: خَشِيَ يوسفُ ـ عليه السلام ـ ألاَّ يكون عِندهم بضاعةٌ أخرى يرجعون للميرة بها. وقيل: تَذَمَّمَ أن يأخذ من أبيه وإخوته عِوَضاً عن الطعام. وقيل: أراد أن يَرُدَّهم إذا وجدوها في متاعهم تَحَرُّجاً وتورُّعاً لأنه يعلم ذلك منهم. والله أعلم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

يخبر تعالى عنهم أنهم لما رَجَعُوا إلى أبيهم ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾، يعنون بعدَ هذه المرَّة، إن لم تُرسِل معنا أخانا بنيامينَ فأرسله معنا نكتَل. وقرأ بعضهم بالياء، أي: يَكتَلْ هُو، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، أي: لا تَخف عليه فإنه سَيَرجع إليك. وهذا كما قالوا له في يوسفَ: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾، ولهذا قال لهم: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾، أي: هل أنتم صَانِعُونَ به إلا كما صنعتُم بأخيه من قبل، تُغَيِّبونه عني، وتَحُولون بيني وبينه، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا﴾، وقرأ بعضُهم: «حفظاً»، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، أي: هو أرحمُ الراحمين بي، وسيرحَمُ كِبَرِي وضعفِي وَوَجْدِي بولَدي، وأرجُو من الله أن يردَّه عليَّ، ويجمَعَ شملي به، إنه أرحمُ الراحمينَ.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

يقولُ تعالى: ولما فَتح إخوةُ يوسفَ متاعهم وجدُوا بضاعتهم رُدَّت إليهم، وهي التي كان أمر يوسفُ فتيانه بوضعها في رحالهم، فلما وجدُوها في متاعهم ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾، أي: ماذا نريد؟ ﴿هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾، كما قال قتادةُ: ما نبغي وَرَاء هذا؟! إنَّ بضاعتنا رُدَّت إلينا وقد أوفي لنا الكيلُ. ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾، أي: إذا أرسلت أخانا مَعَنا نأتي بالميرة إلى أهلنا، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾. وذلكِ أن يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ كان يُعطِي كُلَّ رَجُلٍ حِمْلَ بعيرٍ. وقال مجاهد: حِمْلَ حِمَارٍ. وقد يُسَمَّى في بعض اللغات بعيراً، كذا قال: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾، هذا من تمام الكلام وَتحسِينه، أي: إن هذا يسير في مقابلة أخذِ أَخِيهم ما يَعدِلُ هذا. ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: تَحلِفُون بالعهودِ والمواثيقِ، ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾، إلا أن تُغلَبُوا كُلُّكُم ولا تَقدِرُون على تخليصه. ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾، أكَّده عليهم فـ ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾. قال ابن إسحاق: وإنما فعَل ذلك، لأنه لم يجد بُدّاً من بعثهم لأجلِ المِيرَةِ التي لا غِنَى لهم عنها، فَبعثه معهم.

﴿وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى إخباراً عن يعقوبَ ـ عليه السلام ـ: إنه أَمَرَ بنيه لَمَّا جَهَّزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر ألاَّ يدخلوا كُلُّهم من باب واحد، وَلْيدخُلوا من أبوابٍ مُتفرِّقة، فإنه كما قال ابنُ عباس، ومحمدُ بن كعب، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ، وقتادةُ، والسديُّ وغير واحد: إنه خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذَوي جَمالٍ

وَهَيئةٍ حَسنةٍ، ومنظرٍ وبهاءٍ، فَخشِيَ عليهم أن يصيبهم الناسُ بعيونهم؛ فإن العينَ حَقٌّ، تستنزل الفَارِس عن فرسه. وروى ابنُ أبي حاتم، عن إبراهيم النَّخعيِّ في قوله: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾، قال: عَلِم أنه سيلقى إخوته في بعض تلك الأبواب. وقولُه: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، أي: هذا الاحترازُ لا يردُّ قدرَ الله وقضاءه؛ فإن الله إذا أراد شيئاً لا يُخالَفُ ولا يُمانع، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾، قالوا: هي دفعُ إصابةِ العينِ لهم، ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾، قال قتادة والثوريُّ: لذو عَمل بعلمه. وقال ابنُ جرير: لذو علم لتعليمنا إياه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يخبرُ تعالى عن إخوةِ يوسفَ لما قَدِموا على يوسفَ ومعهم أخوه شقيقهُ بنيامينُ، فأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصِّلة والألطاف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنِهِ وما جرى له، وعرَّفه أنه أخوه، وقال له: لا تَبْتَئِس، أي: لا تأسَفْ على ما صَنَعُوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم؛ وألاَّ يُطلِعَهم على ما أطلَعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سَيَحتال على أن يُبقِيه عنده مُعزَّزاً مُكرَّماً مُعظَّماً.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

لَمَّا جهَّزهم وحَمَّل لهم أبعرتهم طعاماً أَمَر بعضَ فتيانه أن يَضَع السقاية، وهي: إناءٌ من فِضةٍ في قولِ الأكثرين. وقيل: من ذَهَب ـ قاله ابنُ زيد ـ كان يشرب فيه، ويَكِيل الناسَ به من عزَّة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ، والضَّحاكُ، وعبدُ الرحمن بنُ زيدٍ، وقال شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: صُوَاع الملك قال: كان من فضة يَشرَبون فيه، كان مثل المَكُّوكِ، وكان للعباس مثلُه في الجاهلية، فَوَضعها في متاع بنيامينَ من حيث لا يشعرُ أحد، ثم نادى منادٍ بينهم: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، فالتفتوا إلى المنادِي وقالوا: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾، أي: صاعَه الذي يَكِيل به، ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، وهذا من باب الجَعَالَةِ، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾، وهذا من باب الضَّمانِ والكَفَالَةِ.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

لما اتهمهم أولئك الفتيانُ بالسرقة قال لهم إخوةُ يوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾، أي: لقد تحقَّقتُم وَعَلِمتم منذ عرفتمونا ـ لأنهم شاهدوا منهم سيرةً حسنةً ـ أنَّا ما جئنا للفسادِ في الأرض، ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾، أي: ليست سَجَايانا تقتضي هذه الصفةَ، فقال لهم الفتيان: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾، أي: السارقِ، إن كان فيكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾، أي: أي شيءٍ يكونُ عقوبتَه إن وَجدنا فيكم مَن أخذه؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾. وهكذا كانت شريعةُ إبراهيم أنَّ السارق

يُدفَع إلى المسروق منه. وهذا هو الذي أراد يوسفُ عليه السلامُ، ولهذا ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، أي: فتَّشها قبله تَورِيةً، ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، فأخذَه منهم بحُكم اعترافهم والتزامهم وإلزاماً لهم بما يعتقدونه، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، وهذا من الكَيدِ المحبُوبِ المرادِ الذي يُحبُّه الله ويرضاه، لما فيه من الحِكْمَةِ والمصلحة المطلوبة.

وقولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾، أي: لم يَكُن له أخذُه في حُكْم مَلِك مصر، قاله الضحاكُ وغيرُه. وإنما قَيَّضَ الله له أن التَزَم له إخوتُه بما التزمُوه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه تعالى فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، قال الحسنُ البصريُّ: ليس عالم إلا فوقه عالمٌ، حتى ينتهي إلى الله عز وجل. وكذا رَوَى عبد الرزاق، عن سُفيانَ الثوريِّ، عن عبد الأعلى الثعلبي، عن سعيد بن جُبَير قال: كُنَّا عند ابن عبَّاسٍ فتحدَّث بحديثٍ عَجِيب، فتَعَجَّب رجلٌ فقال: الحمدُ لله ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾! فقال ابن عباس: بئسَ ما قلت! الله العليمُ، وهو فوق كلِّ عالم. وكذا رَوَى سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، قال: يكونُ هذا أعلَمَ من هذا، وهذا أعلَمُ من هذا، واللّهُ فوقَ كُلِّ عالم. وهكذا قال عكرمة. وقال قتادةُ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، حتى ينتهي العلمُ إلى الله، منه بُدِىء وتَعَلَّمت العلماءُ، وإليه يعودُ، وفي قراءة عبد الله: «وفوقَ كُلِّ عالم عليم».

﴿۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾

وقال إخوةُ يوسف لما رأوا الصُّواع قد أُخرِجَ من متاع بنيامين: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾، يَتنصَّلُون إلى العزيز من التشبُّه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعلَ أخٌ له من قبل، يعنون به يوسف عليه السلام. قال سعيد بن جُبَير، عن قتادة: كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجدِّه، أبي أمه، فكسره.

وقال محمد بن إسحاقَ، عن عبد الله بن أبي نَجيح، عن مجاهدٍ قال: كان أوَّلُ ما دخلَ على يوسف من البلاء ـ فيما بلغني ـ أن عمَّته ابنة إسحاق، وكانت أكبرَ ولد إسحاق، وكانت إليها مِنطَقَةُ إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكِبَر، فكان من أختَانها مُمَّن وليها كان لَهُ سَلَماً لا يُنَازَعُ فيه، يَصْنعُ فيه ما يشاءُ. وكان يعقوبُ حين وُلِد له يوسف قد حَضَنتهُ عمتُه، فكان منها وإليها، فلم يُحِبَّ أحدٌ شيئاً من الأشياء حُبَّها إياه، حتى إذا ترعرَعَ وبلغ سنوات وَقَعت نفسُ يعقوب عليه فأتاها، فقال: يا أخيَّةُ، سَلِّمي إليّ يوسفَ، فوالله ما أقدِرُ على أن يَغِيبَ عَنِّي ساعةً. قالت: فوالله ما أنا بتارِكَتِهِ. ثم قالت: فَدَعه عندي أياماً أنظر إليه وأسكُن عنه، لعل ذلك يُسَلِّيني عنه، أو كما قالت: فلما خرج من عندها يعقوبُ، عَمَدت إلى منطقَة إسحاقَ، فَحَزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: فقدتُ مِنطقَةَ إسحاق عليه السلام، فانظروا من أخذها ومن أصابها؟ فالتُمِسَتْ. ثم قالت: اكشِفوا أهلَ البيت. فكَشَفُوهم، فوجدُوها مع يوسف. فقالت: والله إنه لي لسَلَمٌ، أصنعُ فيه ما شئت. فأتاها يعقوبُ فأخبرته الخبر. فقال لها: أنت وذاك، إن كان فعل ذلك فهو سَلَم لك ما أستطيعُ غيرَ ذلك. فأمسكته فما قَدَر عليه يعقوب حتى ماتت. قال: فهو الذي يقول إخوةُ يوسفَ حين صَنَع بأخيه ما صَنَع حين أخذه: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾. وقولُه: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾، يعني الكلمةَ التي بعدها، وهي قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: تذكرون. قال هذا في نفسه، ولم يُبدِه لهم. وهذا من باب الإضمارِ قبل الذِّكر، وهو كثيرٌ، كقول الشاعر:

جَزَى بَنُوه أبا الغيلانِ عَنْ كِبَرٍ وَحُسْنِ فِعْلٍ كما يُجزَى سِنِمَّارُ

وله شواهدُ كثيرة من القرآنِ والحديثِ واللغةِ، في مَنثورها وأخبارِها وأشعارِها. قال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ﴾، قال: أسرَّ في نفسه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

لما تعيَّن أخذُ بنيامين وتقرَّر تركُه عند يوسفَ بمقتضى اعترافهم شرَعوا يترقَّقون له ويَعطِفُونه عليهم فـ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾، يعنونَ: وهو يُحبه حباً شديداً ويتسلّى به عن وَلده الذي فقده، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾، أي: بَدَله يكونُ عندكَ عِوضاً عنه، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: من العادلين المُنصِفين القابلين للخير، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، أي: كما قلتم واعترفتم، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾، أي إن أخذنا بريئاً بسقيم.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسفَ أنهم لما يَئِسُوا من تخليص أخيهم بنيامين، الذي قد التزمُوا لأبيهم بردِّه إليه، وعاهَدُوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك، ﴿خَلَصُوا۟﴾، أي: انفردوا عن الناس ﴿نَجِيًّا﴾ يتناجَون فيما بينهم. ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾، وهو رُوبيل، وقيل: يَهُوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائِهِ في البئر عندما هَمُّوا بقتله، قال لهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لَتَرُدُّنَّه إليه، فقد رأيتم كيف تعذَّر عليكم ذلك مع ما تقَدَّم لكم من إضاعةِ يوسفَ عنه، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾، أي: لن أفارقَ هذه البلدةَ، ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ في الرجوع إليه راضياً عني، ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾، قيل: بالسَّيفِ. وقيل: بأن يمكنني من أخْذِ أخِي، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، ثم أمرهم أن يُخبِرُوا أباهم بِصُورة ما وقع حتى يَكُونَ عُذراً لهم عنده ويتنصَّلُوا إليه، ويبرؤوا مما وقع بقولهم. وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ قال عكرمة وقتادة: ما نعلم أن ابنك سَرَق.
وقال عبدُ الرحمن بن زَيد بن أسلم: ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئاً، إنَّما سَألنا: ما جَزَاءُ السَّارِقِ؟ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾، قيل: المراد مصرُ. قاله قتادة، وقيل: غيرها، ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾، أي: التي رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحِفظنا وحِرَاستِنا، و ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، فيما أخبرناك به، من أنه سرق وأخذوه بسرقته.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

قال لهم كما قال لهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، قال محمدُ بن إسحاقَ: لما جاؤوا يعقوبَ وأخبرُوه بما جرى اتَّهمهم وظنَّ أنها كفَعلتهم بيوسف ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾. وقال بعضُ الناس: لما كان صَنيعُهم هذا مُرتَّباً على فِعْلِهم الأولِ سُحِب حُكمُ الأوَّلِ عليه، وصحَّ قولُه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾. ثم ترجَّى من الله أن سيردُّ عليه أولادَه الثلاثَة: يوسُفَ، وأخاه بنيامين، وروبيلَ الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضَى عنه أبوه فيأمرَه بالرجوع إليه، وإما أن يأخذَ أخاه خِفيةً، ولهذا قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾، أي: العليم بحالي، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وقضائه وقَدَره. ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، أي: أعرَضَ عن بَنِيه وقال مُتذكِّراً حُزنَ يوسفَ القديم الأول: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، جدَّدَ له حزنُ الابنين الحزنَ الدَّفين. قال عبد الرزَّاق: أخبرنا الثوريُّ، عن سفيان العُصْفُريّ، عن سعيد بن جُبَير أنه قال: لم يُعطَ أحدٌ غيرَ هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمَعُون إلى قول يعقوب ـ عليه السلام ـ: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: ساكتٌ لا يشكو أمره إلى مخلوق. قاله قتادة وغيره. وقال الضحاك: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ كئيب حزينٌ.

[٣٨٧٣] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، عن علي بن زيد، عن الحسن، عن الأحنفِ بن قيس: أن النبي ﷺ قال: «إن داود ـ عليه السلام ـ قال: يا ربِّ، إن بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاجعلني لهم رابعاً. فأوحى الله تعالى إليه: أن يا داودُ، إنَّ إبراهيم أُلقِي في النار بسببي فَصَبَر، وتلك بَلِيَّةٌ لم تَنلك، وإن إسحاقَ بذل مَهجَة دمه في سَبَبِي فَصَبر، وتلك بَلِيَّةٌ لم تَنلك. وإنَّ يعقوبَ أَخَذتُ منه حَبِيبه حتى ابيضَّت عيناه من الحزن، فصَبر، وتلك بليَّة لم تَنَلْكَ»[1]. وهذا مرسل، وفيه نكارة؛ فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذَّبيح، ولكن علي بن زيد بن جُدعان له مناكيرُ وغرائبُ كثيرةٌ، والله أعلم. وأقربُ ما في هذا أن يكونَ قد حكاه الأحنف بن قيس ـ رحمه الله ـ عن بعض بني إسرائيلَ ككعب ووهب ونحوهما، والله أعلم، فإن الإسرائيليين ينقلون أن يعقوبَ كَتَبَ إلى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السَّرقة يتلطَّف له في رَد ابنه، ويذكر له أنهم أهلُ بيتٍ مصابون بالبلاء، فإبراهيم ابتُلي بالنار، وإسحاقُ بالذَّبح، ويعقوبُ بفراق يوسفَ، في حديث طويل لا يصحُّ ـ والله أعلم ـ فعند ذلك رقَّ له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾، أي: لا تفارق تَذكرَ يوسفَ، ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي ضَعِيفَ الجِسْم، ضَعِيفَ القُوَّةِ، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾، يقولون: وإن استمرَّ بك هذا الحالُ خَشِينا عليك الهلاك والتَّلَفَ. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾، أي: أجابَهم عما قالوا بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي﴾، أي: غمِّي وما أنا فيه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحدَه، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: أرجو منه كلَّ خير. وعن ابن عباس: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أعلم أن رُؤيا يوسفَ صادقةٌ وأني سوف أسجدُ له.

[٣٨٧٤] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عَرَفة، حدثنا يحيى بن عبد الملك بن أبي غَنِيَّة، عن حفص بن عُمَر، عن أبي الزبير، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «كان ليعقوب النبيِّ ـ عليه السلام ـ أَخٌ مُؤَاخٍ له، فقال له ذات يوم: ما الذي أذهبَ بَصَرَك وقَوَّس ظهرك؟ قال: الذي أذهبَ

(١) لا أصل له في المرفوع. فهو مرسل، وفيه عنعنة الحسن، وفي إسناده علي بن زيد ضعيف روى مناكير كثيرة، ورجح ابن كثير كونه من الإسرائيليات.

بَصَري البكاءُ على يوسف، وأما الذي قَوّس ظهري فالحزنُ على بنيامينَ. فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: يا يعقوبُ، إن الله يُقرئُك السلام ويقول لك: أما تَستَحي أن تَشكوني إلى غيري؟ فقال يعقوبُ: إنما أشكو بَثّي وحُزني إلى الله. فقال جبريل ـ عليه السلام ـ: الله أعلَمُ بما تشكو[1]. وهذا حديث غريب، فيه نكارة.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن يعقوب ـ عليه السلام ـ أنه نَدَب بَنيه على الذَّهاب في الأرض، يَستعلِمُون أخبارَ يوسف وأخيه بنيامين ـ والتَحسُّسُ يكون في الخير، والتَجسُّسُ يستعمَلُ في الشرّ ـ ونَهّضهم وبَشَّرهم وأمرهم ألاّ ييأسُوا ﴿مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾، أي: لا يقطَعُوا رَجاءَهم وأمَلَهم من الله فيما يَرُومونه ويَقصِدُونه، فإنه لا يقطَعُ الرَّجاءَ ويقطَعُ الإِياسِ من الله إلا القومُ الكافِرُون. وقولُه: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾، تقديرُ الكَلام: فَذَهبوا فدخَلُوا بلد مصر، ودَخلوا على يوسف، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾، يعنون من الجَدْب والقَحط وقلّة الطعام، ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾، أي: ومعنا ثمنُ الطعام الذي نمتارُه، وهو ثمنٌ قليل. قاله مجاهدٌ، والحسنُ، وغيرُ واحد. وقال ابنُ عباس: الرديءُ لا يَنفُق، مثل خَلَق الغِرارة، والحَبْلِ، والشيء. وفي رواية عنه: الدراهمُ الرديئة التي لا تحوزُ إلا بنقصان. وكذا قال قتادة، والسدّيُّ. وقال سعيد بن جبير: هي الدراهم الفُسول. وقال أبو صالح: هو الصَّنوبرُ وحبة الخضراء. وقال الضحاك: كاسدة لا تنفُق، وقال أبو صالح: جاؤوا بحَبِّ البُطْم الأخضر والصَّنوبرُ. وأصلُ الإِزجاء: الدفعُ لضعف الشيءِ، كما قال حاتم الطائي:

لَيَبْكِ عَلى مِلْحَانَ ضَيْفٌ مُدَفَّعٌ وَأرمَلَةٌ تُزجِي مَعَ اللَّيلِ أرْمَلا

وقال أعشى بني ثعلبة:

الوَاهِبُ المائةِ الهِجَان وعَبدِها عُوذاً تُزَجِّي خَلفَها أطفَالَها

وقولُه تعالى إخباراً عنهم: ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾، أي: أعطِنا بهذا الثمن القليل ما كنت تُعطِينا قبل ذلك. وقرأ ابن مسعود: «فَأَوقِرْ ركابنا وتَصدَّق علينا». وقال ابن جُريج: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ بِرَدِّ أخينا إلينا. وقال سعيد بن جُبير والسدّيُّ: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾، يقولون: تَصدَّق علينا بِقَبضِ هذه البِضاعةِ المُزجَاةِ، وتَجوَّزْ فيها. وسُئِلَ سُفيانُ بن عُيينَة: هل حُرِّمتِ الصدقَةُ على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ؟ فقال: ألم تسمع قولَه: ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾؟. رواه ابنُ جرير، عن الحارث، عن القاسم، عنه.

وقال ابنُ جرير: حَدَّثني الحارث، حدثنا القاسم، حدثنا مروان بن معاوية، عن عثمانَ بن الأسود: سَمِعتُ مجاهداً وسُئِل: هل يُكرَه أن يقولَ الرجلُ في دعائه: اللهم تَصدَّق عليّ؟ فقال: نعم، إنما الصدقةُ لمن يبتغي الثواب.

﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾

---

(١) إسناده ضعيف جداً، فيه حفص بن عمر ضعفه الأزدي كما في الميزان ٢١٥٦ ووثقه ابن حبان ٤/ ١٥٣ على قاعدته في توثيق المجاهيل، والأشبه في هذا الحديث أنه متلقى عن أهل الكتاب، ولا أصل له في المرفوع، والله أعلم.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن يوسف ـ عليه السلام ـ: أنه لما ذكر له إخوتُه ما أصابهم من الجهد والضيق وقلّة الطعام وعُموم الجَدْب. وتذكَّر أباه وما هو من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسَّعَةِ، فعند ذلك أخذته رِقّةٌ ورأفةٌ ورحمةٌ وشفقة على أبيه وإخوته، وبدَرَه البكاءُ، فتعرَّف إليهمْ، يقال: إنه رفع التاجَ عن جبهته، وكان فيها شامةٌ، وقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾، يعني: كيف فرَّقوا بينه وبينه ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾، أي: إنما حَملكم على هذا الجهلُ بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، كما قال بعض السلف: كل من عَصَى الله فهو جاهل، وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾... إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩]. والظاهرُ ـ والله أعلم ـ أن يوسفَ ـ عليه السلام ـ إنما تعرَّف إليهم بنفسه، بإذن الله تعالى له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسَه في المرّتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك ـ والله أعلم ـ ولكن لما ضاقَ الحالُ واشتدَّ الأمر فرَّج الله تعالى من ذلك الضِّيق، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]، فعند ذلك قالوا: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؛ وقرأ أبي بن كعب: «أَوَ أنت يوسفُ»، وقرأ ابنُ مُحيصِن: «إنك لأنت يوسف»، والقراءةُ المشهورة هي الأولى، لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أي: إنهم تعجَّبوا من ذلك أنهم يَتردَّدُون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفون، وهو مع هذا يَعرفُهم ويكتُم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؟ ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي﴾. وقوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، أي: بجمعه بيننا بَعدَ التفرقة وبُعدِ المدّة، ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾، يقولون معترفين له بالفضل والأَثَرة عليهم في الخَلق والخُلق، والسَّعة، والمُلكِ، والتصرُّف والنبوة أيضاً ـ على قول من لم يجعلْهم أنبياء ـ وأقروا له بأنهم أساؤوا إليه وأخطؤوا في حقِّه ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، يقول: لا تأنيبَ عليكم ولا عَتب عَلَيكُم اليوم، ولا أُعيدُ ذنبكم في حَقّي بعد اليوم. ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. قال السدّي: اعتذروا إلى يوسفَ، فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، يقول: لا أذكرُ لكم ذنبكم. وقال ابنُ إسحاقَ والثوريُّ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾، أي: لا تأنيبَ عليكم عندي فيما صنعتُم ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: يستر الله عليكم اليوم فيما فعلتُم، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

يقولُ: اذهبُوا بهذا القميصِ، ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾، وكان قد عَمِي من كثرةِ البُكاء، ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: بجميع بني يعقوبَ. ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾، أي: خَرجت من مصر، ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾، يعني يعقوب ـ عليه السلام ـ لمن بَقي عنده من بنيه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾، تَنسُبوني إلى الفَنَد والكِبَر. قال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن أبي سِنانٍ، عن عبد الله بن أبي الهُذَيلِ قال: سَمِعت ابنَ عباس يقول: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾، قال: لما خَرجت العير هاجت ريحٌ فجاءت يعقوبَ بريحِ

قَميص يوسف فقال: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾، قال: فوجَد ريحه من مَسِيرة ثَمانِية أيام. وكذا رواه سُفيان الثَّوريُّ، وشعبة، وغيرهما، عن أبي سِنَانٍ، به. وقال الحسن وابن جُريج: كان بينهما ثمانون فرسخاً، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة. وقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وقتادة، وسعيد بن جبير: تُسَفِّهُونِ، وقال مجاهد أيضاً، والحسن: تُهَرِّمونِ. وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾، قال ابن عباس: لفي خَطَئِك القديم. وقال قتادةَ: أي من حُبِّ يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كَلِمةً غَلِيظةً، لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبي الله ﷺ. وكذا قال السديّ، وغيره.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

قال ابن عباس والضحاك: ﴿ٱلْبَشِيرُ﴾ البريدُ، وقال مجاهد، والسّدي: كان يهوذا بنَ يعقوبَ. قال السديُّ: إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقَميص وهو مُلَطَّخٌ بدم كَذِبٍ، فأراد أن يغسلَ ذاك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه، فرجَعَ بصيراً. وقال لِبَنِيه عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: أعلم أن الله سيرده إليّ، وقلت لكم: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾. فعند ذلك قالوا لأبيهم مُترفقين له: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾، أي: مَن تاب إليه تابَ عليه. قال ابن مسعود، وإبراهيم التَّيمي، وعَمرو بن قيس، وابن جُرَيج، وغيرهم: أرْجَأهم إلى وقت السَّحَر. وقال ابنُ جرير: حدَّثني أبو السائب، حدثنا ابنُ إدريسَ، سَمِعتُ عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن مُحَارِب بن دثار قال: كان عُمَر ـ رضي الله عنه ـ يأتي المسجدَ فيسمع إنساناً يقول: اللهم دَعَوتَني فأجبتُ، وأمرتَني فأطعتُ، وهذا السَّحَرُ فاغفِر لي. قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبدِ الله بن مسعود. فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوبَ أخّر بَنِيه إلى السَّحَر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾. وقد وَرَد في الحديث أن ذلك كان ليلة جُمعة، كما قال ابنُ جرير أيضاً:

[٣٨٧٥] حدَّثني المثنى، حدثنا سُليمان بن عبد الرحمن أبو أيوبَ الدِّمشقي، حَدَّثنا الوليد، أنبأنا ابن جُرَيج، عن عطاء وعكرمة، عن ابن عباس، عن رسولِ الله ﷺ: «﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾، يقول: حتى تأتي ليلة الجُمُعة، وهو قولُ أخي يعقوبَ لِبَنيه»[1]. وهذا غريبٌ من هذا الوجه، وفي رفعه نظرٌ، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

---

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ١٩٨٨٠ و ١٩٨٨١ وإسناده ساقط، فيه عنعنة ابن جريج، ولا يحتمل مثل هذا، فإن سليمان بن عبد الرحمن، وقع في حديثه بعض الموضوعات قال أبو حاتم عنه: لو أن رجلاً وضع له حديثاً لم يفهم اهـ والأشبه كونه من كلام ابن عباس.

يخبرُ تعالى عن وُرُودِ يعقوب ـ عليه السلام ـ على يوسف ـ عليه السلام ـ وقُدُومه بلادَ مصر، لما كان يوسف قَد تقدَّم إلى إخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فَتَحمَّلوا عن آخرهم وترحَّلوا من بلاد كنعانَ قاصدين بلاد مصر، فلما أخبر يوسف ـ عليه السلام ـ باقترابهم خَرَج لِتَلقِّيهم، وأمر الملك أمراءه وأكابرَ الناسِ بالخروج مع يوسف لتلقِّي نبي الله يعقوب ـ عليه السلام ـ ويقال: إن المَلك خَرَج أيضاً لِتلقِّيه، وهو الأشبه. وقد أشكل قولُه: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ على كَثير من المفسرين، فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام. وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين. وآوى إليه أبويه، ورفَعهما على العرش. وقد رَدَّ ابنُ جَريرٍ هذا وأجادَ في ذلك. ثم اختارَ ما حَكَاه عن السُّديِّ: أن يوسُفَ آوى إليه أَبَوَيه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا بابَ البلد قال: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾. وفي هذا نَظَرٌ أيضاً، لأنَّ الإِيواء إنما يكونُ في المنزل، كقوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾.

[٣٨٧٦] وفي الحديث: «مَن آوى مُحْدِثاً»[١]، وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾، وضمَّنه: اسكنوا مصر؟ ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، أي: مما كنتُم فيه من الجَهدِ والقَحطِ، ويُقَالُ ـ والله أعلم ـ إن الله تعالى رَفَع عن أهل مصر بقية السنينَ المُجدبةِ بِبركة قُدوم يعقوبَ عليهم.

[٣٨٧٧] كما رَفَع بَقِيَّة السِنينَ التي دعا بها رسولُ الله ﷺ على أهل مَكَّة حين قال: «اللهمَّ أَعِنِّي عليهم بِسَبعٍ كَسَبعِ يوسف»[٢]، ثم لما تَضرَّعُوا إليه واستشفعُوا لديه وأرسلوا أبا سفيان في ذلك، فدعا لهم، فَرُفِعَ عنهم بقيةُ ذلك ببركة دعائه عليه السلام.

وقولُه تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾، قال السدّي، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه وخالته، وكانت أمه قد ماتت قَدِيماً. وقال محمدُ بن إسحاقَ وابنُ جرير: كان أبوه وأمُّه يعيشان. قال ابن جرير: ولم يقُم دليل على موتِ أمه، وظاهِرُ القرآن يدل على حَيَاتِها. وهذا الذي نَصَره هو التصوُّر الذي يدل عليه السياق. وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وغيرُ واحد: يعني السرير، أي: أجلسهما معه على سَريرِه. ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾، أي: سَجد له أبواه وإخوتُه الباقون، وكانوا أحدَ عشر رجلاً، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾، أي: التي كان قصها على أبيه من قبل ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾. وقد كان هذا سائغاً في شَرَائعهم إذا سلَّموا على الكبير يسجُدون له، ولم يَزل هذا جائزاً من لَدُن آدمَ إلى شريعةِ عيسى ـ عليه السلام ـ فحرِّم هذا في هذه الملة، وجُعِلَ السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى. هذا مضمون قول قتادة وغيره.

[٣٨٧٨] وفي الحديث، أَنَّ معاذاً قَدِم الشام فوجَدَهم يسجدون لأساقفتهم، فَلَمَّا رجع سَجَد لرسولِ الله ﷺ فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: إني رأيتهم يسجُدون لأساقفتهم، وأنت أحقُّ أن يُسجَدَ لك يا رسول الله! فقال: «لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجُدَ لأحدٍ لأمرتُ الزوجةَ أن تسجُدَ لزوجها من عِظَم حَقِّه عليها»[٣].

[٣٨٧٩] وفي حديث آخر: أن سلْمان لَقِي النَّبي ﷺ في بعض طُرُق المدينة، وكان سلمانُ حديثَ عهدِ

---

(١) صحيح. هو بعض حديث أخرجه البخاري ١٨٧٠ ومسلم ١٣٧٠ و ١٩٧٨ وتقدم تخريجه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٠٠٧ و ١٠٢٠، ومسلم ٢٧٩٨ح٤٠ وأحمد ١/ ٣٨٠ والترمذي ٣٢٥٤ من طرق عن ابن مسعود.

(٣) تقدم تخريجه في أول البقرة باستيفاء.

بالإسلام، فسجد للنبيِّ ﷺ فقال: «لا تسجُد لي يا سلمانَ، واسجد للحيِّ الذي لا يَمُوتُ»[1]. والغرضُ أنَّ هذا كان جائزاً في شريعتهم، ولهذا خرُّوا له سجداً فعندها قال يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾، أي هذا ما آل إليه الأمرُ، فإنَّ التأويل يطلَق على ما يَصِيرُ إليه الأمرُ، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾، أي: يومَ القيامةِ يأتيهم ما وُعِدُوا من خيرٍ وشرٍّ.

وقولُه تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾، أي: صحيحةً صِدْقاً. يذكرُ نِعَم الله عليه، ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾، أي: البادية. قال ابن جُرَيج وغيره: كانوا أهلَ باديةٍ وماشيةٍ، وقال: كانوا يسكنونَ بالعَرَباتِ من أرض فلسطين، من غور الشام، قال: وبعضٌ يقولُ: كانوا بالأولاج من ناحية شِعْب أسفلَ من حُسْمَى، وكانوا أصحابَ باديةٍ وَشاءٍ وإبلٍ. ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾، أي: إذا أراد أمراً قيَّض له أسباباً وبسَّره وقدَّره. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أفعالِهِ وأقوالِهِ، وقضائِهِ وقَدَرِه، وما يختاره ويُرِيدُه.

قال أبو عثمان النَّهدِيُّ، عن سلمان: كان بين رؤيا يوسفَ وتأويلِها أربعون سنة. قال عبد الله بن شداد: وإليها ينتهي أقصى الرؤيا. رواه ابن جرير. وقال أيضاً: حَدَّثنا عَمرو بن علي، حدثنا عبد الوهاب الثَّقَفِيُّ، حدثنا هِشامٌ، عن الحسن قال: كان منذ فارقَ يوسفُ يعقوبَ إلى أن التقيا ثمانون سنةً، لم يُفارِق في الحزن قلبه، ودموعُه تجري على خَدَّيه، وما على وجه الأرض عبدٌ أحبُّ إلى الله من يعقوب. وقال هُشَيم، عن يُونسَ، عن الحَسَن: ثلاثٌ وثمانون سنةً. وقال مباركُ بن فَضالةَ، عن الحَسَنِ: أُلقِي يوسفُ في الجبِّ وهو ابنُ سبعَ عشرة سنةً، فغاب عن أبيه ثمانين سنة. وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرينَ سنةً، فمات وله عشرون ومئةُ سنة. وقال قتادةُ: كان بينهما خمسٌ وثلاثونَ سنةً. وقال محمد بن إسحاق: ذُكر ـ والله أعلم ـ أنَّ غَيبةَ يوسف عن يعقوبَ كانَت ثماني عشرةَ سنةً، قال: وأهلُ الكتابِ يزعمُون أنها كانت أربعينَ سنةً أو نحوها، وأن يعقوبَ ـ عليه السلام ـ بقي مع يوسفَ بعد أن قَدِم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قَبضه الله إليه. وقال أبو إسحاق السبيعيُّ، عن أبي عُبَيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: دخل بنو إسرائيلَ مصر، وهم ثلاثة وستون إنساناً، وخرجُوا منها وهم ستمئة ألف وسبعُون ألفاً. وقال أبو إسحاقَ، عن مسروقٍ: دخلوا وهم ثلاثمئة وتسعونَ من بين رجل وامرأة. والله أعلم. وقال موسى بن عُبَيدَة، عن محمد بن كعب القُرظِيِّ، عن عبد الله بن شَدَّاد: اجتمع آل يعقوبَ إلى يوسفَ بمصر وهم ستةٌ وثمانون إنساناً، صغيرُهم وكبيرُهم، وذكرُهم وأنثاهم، وخرجوا منها وهم ستمئة ألف ونَيِّف.

﴿۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾

هذا دعاءٌ من يوسفَ دعا به رَبَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ لما تمَّت النعمةُ عليه، باجتماعه بأبويه وإخوته، وما مَنَّ الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ كما أتمَّ نعمته عليه في الدنيا أن يستمرَّ بها عليه في الآخرة، وأن يتوفَّاه مُسلماً حين يتوفاه. قاله الضحاك، وأن يُلحِقَه بالصالحين، وهم إخوانُه من النبيِّين والمرسَلين، صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين. وهذا الدعاءُ يحتمِلُ أن يوسفَ ـ عليه السلام ـ قاله عندَ احتضاره.

---

(١) مضىٰ في سورة البقرة عند الآية ٣٤. وحديث سلمان بمفرده ضعيف غير معروف، والمشهور في ذلك حديث معاذ، لكن اضطربوا في ألفاظه.

[٣٨٨٠] كما ثبتَ في الصَّحيحَين عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ: أن رسول الله ﷺ جعل يرفَع إصبَعَه عند الموت، ويقول: «اللهمّ في الرَّفيقِ الأعلى، اللهمّ في الرَّفيقِ الأعلى، اللهمّ في الرَّفيقِ الأعلى»[١]. ويحتمل أنه سأل الوفاةَ على الإِسلام واللّحاق بالصَّالحين إذا حان أجلُه، وانقضى عُمُره، لا أنه سأل ذلك مُنَجَّزاً، كما يقول الداعي لغيره: أماتك الله على الإِسلام. ويقول الداعي: اللهم أحيِنا مُسلِمين، وتَوفَّنا مسلمين، وألحِقْنا بالصَّالحين. ويحتمل أنه سأل ذلك مُنَجَّزاً، وكان ذلك سائغاً في ملتهم، كما قال قتادةُ قوله: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، لما جمع الله شمله وأقرّ عينه، وهو يومئذٍ مغمورٌ في الدنيا ومُلكها ونضارتها، فاشتاق إلى الصَّالحين قبله، وكان ابن عباس يقول: ما تمنّى نبيٌّ قطُّ الموتَ قبل يوسف عليه السلام.

وكذا ذكر ابن جرير، والسدّي عن ابن عباس: أنه أول نَبيٍّ دعا بذلك. وهذا يَحتمِلُ أنه أول من سَأل الوفاة على الإِسلام، كما أن نُوحاً أوّلُ من قال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ [نوح: ٢٨]، ويَحتَمِلُ أنه أول من سأل إنجاز ذلك، وهو ظاهر سياق قتادة، ولكن هذا لا يجوزُ في شَرِيعتنا.

[٣٨٨١] قال الإِمام أحمدُ بن حَنبلٍ ـ رحمه الله ـ: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عبد العزيز بن صُهَيب، عن أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يَتمنينَّ أحدُكم الموتَ لِضُرٍّ نَزَلَ به، فإن كان لا بدّ مُتمنياً الموت فليقل: اللهم أحْيني ما كانت الحياةُ خيراً لي، وَتَوفَّني إذا كانت الوفاةُ خيراً لي»[٢].

[٣٨٨٢] وأخرجاه في الصَّحِيحَين، وعندهما: «لا يَتمنَّينَّ أحدُكم الموتَ لِضُرٍّ نزل به إمّا محسناً فيزدادُ، وإمّا مُسيئاً فلعله يَستَعتِبُ، ولكن لِيَقُل: اللهمّ، أَحْيِني ما كانتِ الحياةُ خيراً لي، وَتَوفَّنِي إذا كانتِ الوفاةُ خيراً لي»[٣].

[٣٨٨٣] وقال الإِمامُ أحمدُ: حَدَّثنا أبو المغيرة، حدثنا مُعَانُ بن رفاعَةَ، حدثني علي بن يزيدَ، عن القاسم، عن أبي أمَامةَ قال: جَلَسنا إلى رسول الله ﷺ فذكَّرنا ورقَّقنا، فَبَكى سعدُ بن أبي وقَّاصٍ فأكثر البُكاء، فقال: يا ليتني مِتّ! فقال النبي ـ: «يا سعدُ أعندي تَتَمنّى الموت؟» فردَّد ذلك ثلاث مرات، ثم قال: «يا سعد، إن كنتَ خُلِقت للجنة، فما طال عُمرك، أو حَسُن من عملك، فهو خيرٌ لك»[٤].

[٣٨٨٤] وقال الإِمامُ أحمدُ: حدثنا حَسَن، حدثنا ابن لَهيعَةَ، حدثنا أبو يونس ـ هو سُلَيم بن جُبَير ـ عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَتمنَّينَّ أحدُكم الموتَ ولا يَدْعُونَّ به من قبل أن يأتيه، إلا أن يكونَ قد وَثِق بعمله، فإنه إذا مات أحدُكم انقطَع عنه عملُه، وإنه لا يَزيد المؤمنَ عملُه إلا خيراً»[٥]. تفرّد به أحمد.

وهذا فيما إذا كان الضرُّ خاصّاً به، أما إذا كان فتنةً في الدين فيجوزُ سُؤالُ الموت، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعونُ عن دِينهم وتهدَّدهم بالقتل، قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾

---

(١) متفق عليه، وتقدم.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٣/ ١٠١ ح ١١٩١٩، وانظر ما بعده.

(٣) صحيح أخرجه البخاري ٦٣٥١، ومسلم ٢٦٨٢، وأبو داود ٣١٠٩، وأحمد ٢/ ٥١٤ والنسائي ٤/ ٣، وابن ماجه ٤٢٦٥ من طرق عن أنس بن مالك.

(٤) ضعيف، أخرجه أحمد ٥/ ٢٦٧ والطبراني ٧٨٧٠، قال الهيثمي في «المجمع» ١٧٥٤٤: فيه علي بن يزيد الألهاني متروك أهـ، وفيه القاسم بن عبد الرحمن ضعفه غير واحد، روىٰ مناكير كثيرة، ومعان بن رفاعة غير قوي.

(٥) أخرجه أحمد ٢/ ٣٥٠ من حديث أبي هريرة، وفي إسناده ابن لهيعة، ضعفه الجمهور. ولصدره شواهد.

[الأعراف: ١٢٦]، وقالت مريم لما أجاءها المخاضُ ـ وهو الطَّلْقُ ـ إلى جِذْعِ النخلة: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]، لَما تعلم من أن الناس يقذِفُونها بالفاحشة، لأنها لم تكن ذَاتَ زَوجٍ وقد حَمَلت وولَدت، فيقول القائل أَنَّى لها هذا؟ ولهذا واجهوها أَوّلاً بأن قالوا: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٧ ـ ٢٨]. فجعل الله لها من ذلك الحال فَرجاً ومخرجاً، وأنطق الصبيَّ في المهد بأنه عَبدُ اللّهِ ورسولُه، كان آيةً عظيمةً ومعجزةً باهرةً صلواتُ الله وسلامُه عليه.

[٣٨٨٥] وفي حديث مُعاذٍ الذي رواه الإمام أحمدُ والترمذيُّ، في قصة المنام والدعاء الذي دعا فيه: «وإذا أردتَ بقوم فتنةً فَتوفّني إليك غير مفتون»[١].

[٣٨٨٦] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا أبو سلمة، أخبرنا عبدُ العزيز بن محمد، عن عمرو بن عُمَر بن قتادة عن محمود بن لَبِيد أن النبي ﷺ قال: «اثنتان يكرههما ابنُ آدم: الموتُ، والموتُ خير للمؤمن من الفتنةِ، ويكره قِلّة المال، وقِلّة المالِ أقلُّ للحساب»[٢]. فعند حُلُولِ الفِتَن في الدين يجوزُ سُؤالُ الموتِ، ولهذا قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في آخِرِ إمارته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له، ولا يزدادُ الأمرُ إلا شِدّةً قال: اللهمّ، خُذني إليك فقد سَئِمتُهم وسَئِمُوني. وقال البخاري ـ رحمه الله ـ لما وَقَعت له تلك المِحَنُ وجَرَى له ما جَرَى مع أمير خراسان: اللهمَّ، تَوفَّني إليك.

[٣٨٨٧] وفي الحديث: «إن الرَّجُل ليمرُّ بالقبر ـ أي في زمان الدّجالِ ـ فيقولُ: يا لَيتني مكانَكَ»[٣]، لما يَرَى من الفِتَنِ والزلازل والبلابل، والأمورِ الهائلةِ التي هي فتنةٌ لكل مفتون. قال أبو جعفر بن جَرِير: وذُكِر أَنَّ بني يعقوبَ الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا، استغفر لهم أبُوهم، فتاب الله عليهم وعَفَا عنهم، وغَفَرَ لهم ذُنُوبَهم.

ذِكْرُ من قال ذلك: حدثنا القاسم، حدثنا الحسينَ، حدثني حجّاجُ، عن صالح المرّيّ، عن يزيدَ الرّقاشي، عن أنس بن مالك قال: إن الله تعالى لما جَمَع ليعقوب شَمْلَه، وأقرّ عينَه خلا وَلَده نجيّاً، فقال بَعضُهم لبعض: ألستُم قد عَلِمتُم ما صنعتُم وما لَقِي منكم الشيخ، وما لقي منكم يوسفَ؟ قالوا: بلى. قال: فَيَغرُّكم عفوُهما عنكم، فكيفَ لكم بربكم؟ فاستقام أمرُهم على أن أتوا الشيخ فجلسُوا بين يديه، ويوسُف إلى جَنْبِ أبيه قاعداً، قالوا: يا أبانا، إنا أتيناك في أمرٍ لم نأتك في مثلِهِ قطُّ، ونَزَل بنا أمرٌ لم ينزِل بنا مثلُه. حتى حَرّكُوه، والأنبياءُ ـ عليهم السلام ـ أرحمُ البريّة، فقال: مالكم يا بَنِيّ؟ قالوا: ألستَ قد عَلِمتَ ما كانَ منّا إليك، وما كان منّا إلى أخينا يوسفَ. قال: بلى. قالوا: أو لستُما قد عَفَوتما؟ قالا: بلى. قالوا: فإنَّ عفوَكما لا يُغنِي عنا شيئاً، إن كان الله لم يعفُ عنا. قال: فما تُريدُون يا بَنِيّ؟ قالوا: نُرِيدَ أن تدعُوَ الله لنا، فإذا جاءك الوحيُ من الله بأنه قد عفا عما صنعنا قَرّت أعيُننا، واطمأنت قلُوبنا، وإلا فلا قُرّة عين في الدنيا أبداً لنا. قال: فقام الشيخ فاستقبل القبلة، وقام يوسفُ خَلْفَ أبيه، وقامُوا خلفهما أذِلّةً خاشعين، قال: فدعا وأمّن يوسفُ، فلم يُجَبْ فيهم عشرين سنة. قال صالح المرّيُّ: يُخيفهم. قال: حتى إذا كان رأسُ العشرين نزل جبريل ـ

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٣٢٣٥ وأحمد ٥/ ٢٤٣ ونقل الترمذي عن البخاري قوله: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٤٢٧ح٢٣٥١٥ و ٢٣٥١٦ عن محمود بن لبيد، وأورده الهيثمي في المجمع ١٠/ ٢٠٧، والمنذري في الترغيب ٤/ ١٥١ وقالا: رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٧١١٥ ومسلم ٤/ ٢٢٣١ من حديث أبي هريرة، وقد ساقه المصنف بمعناه.

عليه السلام ـ على يعقوبَ فقال: إن الله بعثني إليك أبشِّرُك بأنه قد أجاب دعوتَكَ في ولدك، وأنه قد عفا عما صنعوا، وأنه قد اعتقَدَ مواثيقَهم من بَعدِكَ على النبوة. هذا الأثرُ موقوفٌ عن أنس. ويزيدُ الرَّقاشي وصالح المرّي ضَعيفان جداً، وذكر السديُّ أن يعقوب ـ عليه السلام ـ لما حضره الموتُ أوصى إلى يوسفَ بأن يُدفَن عند إبراهيم وإسحاقَ، فلما مات صَبَّره وأرسله إلى الشام، فدُفِن عندهما عليهم السلامُ.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

يقولُ تعالى لعبده ورسوله محمد ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ لما قَصَّ عليه نَبأَ إخوةِ يوسف، وكيف رَفَعه الله عليهم، وجعل له العاقبةَ والملك والحُكم، مع ما أرادوا به من السُّوء والهلاكِ والإعدام: هذا وأمثالُه يا محمدُ من أخبار الغيوب السابقة، ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضراً عندهم ولا مُشاهِداً لهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾، أي: على إلقائِهِ في الجُبِّ، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، ولكن أعلمناك به وحياً إليك، وإنزالاً عليك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص: ٤٤] إلى أن قال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٥]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص: ٦٩ ـ ٧٠]. يُقرر تعالى أنه رسُوله، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سَبَق مما فيه عبرة للناس ونجاةٌ لهم في دينهم ودنياهم؛ ومع هذا ما آمن أكثر الناس، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ وقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] كقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الشعراء: ٨]، إلى غير ذلك من الآيات. وقولُه: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، أي: وما تسألُهم ـ يا محمد ـ على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أي: من جُعَالة ولا أجرةٍ على ذلك، بل تفعلُه ابتغاء وجهِ الله، ونُصحاً لخلقه. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: يتذكَّرون به ويهتَدُون، وينجُون به في الدنيا والآخرةِ.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

يخبرُ تعالى عن غَفلة أكثر الناس عن التفكُّر في آياتِ الله ودلائلِ توحيده، بما خَلقه الله في السموات والأرض من كواكبَ زاهراتٍ ثوابتَ، وسياراتٍ وأفلاكٍ دائراتٍ، والجميعُ مُسخَّراتٌ، وكم في الأرض من قِطَعٍ متجاورات، وحدائقَ وجنَّات، وجبالٍ راسياتٍ، وبحارٍ زاخراتٍ، وأمواج متلاطمات، وقفارٍ شاسعاتٍ، وكَم من أحياءٍ وأمواتٍ، وحيواناتٍ ونباتاتٍ، وثمراتٍ متشابهةٍ ومختلفاتٍ، في الطعوم والروائح والألوان والصِّفات، فسبحانَ الواحدِ الأحدِ، خالقِ أنواعِ المخلوقات، المتفرِدِ بالدوامِ والبقاءِ والصمديَّة ذي الأسماءِ والصفاتِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾، قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: مَن خلق السمٰوات؟ ومَن خلق الأرض؟ ومَن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مُشرِكون به. وكذا قال مجاهدٌ، وعطاءٌ، وعكرمةُ، والشعبيُّ، وقتادةُ، والضحّاكُ وعبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ.

[٣٨٨٨] وهكذا وفي الصحيحين: أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شركاً هو لك، تملكه وما ملك[١].

[٣٨٨٩] وفي صحيح مسلم: أنهم كانوا إذا قالوا: لبيك لا شريكَ لك. يقول رسول الله ﷺ: «قَدْ قَدْ»[٢] أي: حَسْبُ، حَسْبُ، لا تَزيدُونا على هذا. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا هو الشركُ الأعظمُ الذي يُعبَدُ مع الله غيره، كما في الصحيحَين، عن ابن مسعود:

[٣٨٩٠] قلت: يا رسولَ الله، أيّ الذنبِ أعظَمُ؟ قال: «أن تجعل لله نِدّاً وهو خَلَقَك»[٣].

وقال الحَسَنُ البصريُّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾، قال: ذاك المنافِقُ يعمَلُ إذا عَمِل رياءً للناس وهو مُشركٌ بعَمَلِهِ ذاك، يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢]. وثَمّ شركٌ آخرُ خفيٌّ لا يشعرُ به غالباً فاعلُه كما رَوَى حَمّاد بن سلمة، عن عاصم بن أبي النَّجودِ، عن عُروةَ قال: دخل حُذَيفة على مريضٍ فرأى في عضده سَيراً فقطعه ـ أو انتزعه ـ ثُمّ قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾.

[٣٨٩١] وفي الحديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك»[٤]. رواه الترمذيّ، وحسّنهُ من رِوَايَةِ ابنِ عُمَرَ.

[٣٨٩٢] وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داودَ وغيره، عن ابن مَسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الرُّقَى والتَّمائِمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ». وفي لفظٍ لهما: «الطِّيَرة شركٌ وما منّا إلاّ، ولكنّ الله يُذهِبُه بالتوكُّلِ»[٥]. ورواهُ الإمام أحمدُ بأبسطَ من هذا، فقال:

[٣٨٩٣] حدثنا أبو معاويةِ، حدثنا الأعمشُ، عن عَمرو بن مُرّة، عن يحيى الجَزّار، عَن ابنِ أخي زينبَ، عن زينبَ امرأة عبد الله بن مَسعُودٍ قالت: كان عبدُ الله إذا جاء من حاجةٍ فانتهى إلى الباب تَنَحنَح وبَزَق كراهيةَ أن يهجُم منا على أمر يكرهُه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتَنحنَحَ وعندي عجوزٌ ترقِيني من

---

(١) تقدم في بحث الحج، وهو من حديث ابن عمر.

(٢) أخرجه مسلم ١١٨٥ عن ابن عباس.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٤٧٧ ومسلم ٨٦، وقد تقدم.

(٤) صحيح. أخرجه أبو داود ٣٢٥١، والترمذي ١٥٣٥، والطيالسي ١٨٩٦، وعبد الرزاق ١٥٩٢٦، وأحمد ٢/ ٣٤ ـ ٨٧ ـ ١٢٥، وابن حبان ٤٣٥٨، والحاكم ١/ ١٨ و ٤/ ٢٩٧ كلهم من حديث ابن عمر، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وهو كما قالوا.

(٥) جيد. أخرجه أبو داود ٣٨٨٣، وابن ماجه ٣٥٣٠، وأحمد ١/ ٣٨١، وابن حبان ٦٠٩٠ والبيهقي ٩/ ٣٥٠، والبغوي ٣٢٤٠ كلهم عن يحي بن الجزار عن ابن مسعود هكذا وقع عند ابن حبان وهو منقطع يحيى هذا لم يدرك ابن مسعود. وهو عند أبي داود وأحمد بالإسناد الآتي. ووقع عند ابن ماجه: عن ابن أخت زينب. قال الحافظ في التقريب: كأنه صحابي ولم أره مسمّى. وتابعه عبد الله بن عتبة بن مسعود عند الحاكم ٤/ ٤١٧، ٤١٨ فذكره بنحوه وصححه ووافقه الذهبي. وله طريقان آخران عند الحاكم ٤/ ٢١٦، ٢١٧. وله شاهد من حديث عقبة، فالخبر حسن أو صحيح.

الحُمْرَة فأدخلتُها تحتَ السرير، قالت: فدخل فجلسَ إلى جانبي، فَرَأى في عنقي خيطاً، قال: ما هذا الخيطُ؟ قالت: قلتُ خيطٌ رُقِيَ لي فيه. قالت: فأخذَه فقطَعَه، ثم قال: إنَّ آل عبد الله لأغنياءُ عن الشِّرك، سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الرُّقى والتمائم والتِّوَلة شركٌ». قالت: قلتُ له: لم تقولُ هذا وقد كانت عَيني تَقذِفُ، فكنت أختلِفُ إلى فلانٍ اليهوديِّ يَرقِيها، فكانَ إذا رَقَاها سكَنت؟! قال: إنما ذاك من الشيطانِ. كان ينخَسُها بيدِهِ، فإذا رَقيتِها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال رسولُ الله ﷺ: «أذهبِ الباسَ ربَّ الناس، اشفِ وأنتَ الشافي، لا شفَاء إلا شفاؤكَ، شفاءً لا يُغادِر سُقماً»[1].

[٣٨٩٤] وفي حديث آخَرَ رواه الإمامُ أحمدُ، عن وكيع، عن ابن أبي ليلى، عن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلنا على عبد الله بن عُكَيم، وهو مريضٌ نعودُه، فقيل له: لو تَعَلَّقتَ شيئاً؟ فقال: أَتَعَلَّقُ شيئاً؟! وقد قال رسول الله ﷺ: «من تَعَلَّق شيئاً وُكِلَ إليه»[2]. ورَواه النَّسائيُّ عن أبي هُريرةَ.

[٣٨٩٥] وفي مُسنَدِ الإمامِ أحمدَ، من حَدِيث عُقبةَ بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من علَّق تَميمةً فقد أشرك». وفي رواية: «من تعلق تَميمةً فلا أَتَمَّ الله له، ومن تَعلَّق وَدعةً فلا وَدَعَ الله له»[3].

[٣٨٩٦] وعن العلاء، عن أبيه، عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «قال الله: أَنَا أغنى الشُّركاءِ عن الشِّركِ، ومن عَمِل عَمَلاً أشركَ فيه مَعِي غيرِي تركتُه وشِرْكَه»[4]. رواه مسلم.

[٣٨٩٧] وعن أبي سعيدِ بن أبي فَضَالة قال: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إذا جَمَعَ الله الأولين والآخرين لِيوم لا ريبَ فيه، يُنادي مُنَادٍ: من كان أشركَ في عَمَل عَمِله لله فَلْيطلُب ثَوَابَه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»[5]. رواه أحمدَ.

[٣٨٩٨] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يونُس، حدثنا ليثٌ، عن يزيدَ ـ يعني ابنَ الهاد ـ عن عمرو، عن محمود بن لَبيدٍ، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم الشِّركُ الأصغَرُ». قالوا: وما الشركُ الأصغَرُ يا رسولَ الله؟ قال: «الرياءُ، يقولُ الله يومَ القيامةِ إذا جَزَى الناس بأعمالهم: اذهبُوا إلى الذين كنتُم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً؟!»[6] وقد رواه إسماعيل بن جعفر، عن عَمْرو بن أبي عَمرو مولى المُطلب، عن عاصم بن عُمَر بن قتادةَ، عن محمود بن لَبيدٍ، به.

[٣٨٩٩] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حسن، أنبأنا ابن لَهِيعةَ، أنبأنا ابن هُبَيرة، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد اللهِ بن عَمرو قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من رَدَّته الطِّيَرَةُ من حاجة فقد أَشرَكَ». قالوا: يا

---

(١) انظر تخريج الحديث السابق.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٠٧٢، وأحمد ٤/٢١١، والحاكم ٤/٢١٦ ومداره على محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وهو صدوق سيىء الحفظ. لكن يصلح شاهداً لما تقدم. وله علة ثانية: ابن عكيم تابعي مخضرم.

(٣) جيد. أخرجه أحمد ٤/١٥٤، وأبو يعلى ١٧٥٩، وابن حبان ٦٠٨٦، والحاكم ٤/٤١٧ والطحاوي ٤/٣٢٥، والطبراني ١٧/٨٢٠. قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وقال المنذري في الترغيب: ٤/٣٠٦: إسناده جيد. وقال الهيثمي في المجمع: ٥/١٠٣: رجاله ثقات. وله شواهد.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٨٥، وأحمد رقم ٧٩٨٦ و ٧٩٨٧، وابن ماجه ٤٢٠٢.

(٥) حسن. أخرجه أحمد ٣/٤٦٦، والترمذي ٣١٥٤، وابن ماجه ٤٢٠٣ وإسناده حسن في الشواهد. وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٦) حسن. أخرجه أحمد ٥/٤٢٨ ـ ٤٢٩، والبيهقي في الشعب ٦٨٣١ ورجاله ثقات، وله شواهد كثيرة.

رسولَ الله، ما كفارةُ ذلك؟ قال: «أن يقول أحدهم: اللهم لا خيرَ إلا خيرُك، ولا طَيْرَ إلا طيرُك، ولا إله غيرك»[١].

[٣٩٠٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نُمَير، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان العَرْزَميُّ، عن أبي علي ـ رجل من بني كاهلٍ ـ قال: خَطَبنا أبو موسى الأشعريُّ فقال: يا أيُّها الناس، اتقُوا هذا الشركَ فإنه أخفَى من دَبِيب النمل. فقام عبد الله بن حَزْن وقيس بن المضارب فقالا: والله لَتَخرُجَنَّ مما قلتَ أو لنأتينَّ عُمر مأذوناً لنا أو غيرَ مأذونٍ. قال: بل أخرُج مما قلتُ، خَطَبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «أيها الناسُ، اتَّقُوا هذا الشركَ فإنه أخفى من دَبيب النمل». فقال له مَن شاء الله أن يقول: فكيف نَتَّقِيه وهو أخفَى من دبيب النَّمل يا رسولَ الله؟ قال: «قُولوا: اللهمَّ إنا نعوذُ بك مِن أن نُشرِكَ بكَ شيئاً نعلمُه، ونَستغفِرُك لما لا نعلَمُه»[٢]. وقد رُوِي من وجهٍ آخَرَ، وفيه أنَّ السائِلَ في ذلك هو الصِّدِّيق.

[٣٩٠١] كما رواه الحافظُ أبو يعلى الموصليُّ، من حديث عبد العزيز بن مسلم، عن ليثِ بن أبي سُلَيم، عن أبي محمد، عن مَعقِل بن يسار قال: شَهِدتُ النبيَّ ﷺ: أو قال: حَدَّثني أبو بكر الصِّديقُ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشِّركُ أخفى فيكم من دَبِيب النمل». فقال أبو بكر: وهل الشركُ إلا من دعا مع الله إلهاً آخر؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «الشِّركُ فيكم أخفَى من دَبيبِ النمل». ثم قال: «ألا أدلُّكَ على ما يُذهِب عنك صَغِيرَ ذلك وكبيرَه؟ قل: اللهُمَّ، أعوذ بك أن أُشرِكَ بك وأنا أعلم، وأستغفِرُك لما لا أعلم»[٣].

[٣٩٠٢] وقد رواه الحافظُ أبو القاسم البغويُّ، عن شيبان بن فَرُّوخ، عن يحيى بن كثير، عن الثوريِّ، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي بكر الصدِّيق قال: قال رسول الله ﷺ: «الشركُ أخفَى في أمتي من دَبِيب النمل على الصَّفا»[٤]. قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف النجاةُ والمخرجُ من ذلك؟ فقال: «ألا أُخبرُك بشيءٍ إذا قلتَه بَرِئتَ من قَليلهِ وكَثيرهِ وصَغيرهِ وكَبيرِه؟» قال: بلى، يا رسولَ الله. قال: «قل: اللهمَّ، إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفِرُك لما لا أعلم»[٥]. قال الدارقطنيُّ: يحيى بن كثير هذا يقال له: أبو النضر متروك الحديث.

[٣٩٠٣] وقد رَوَى الإمام أحمد، وأبو داودَ، والترمذيُّ ـ وصَحَّحه ـ والنسائيُّ، من حديث يعلى بن عطاء، سَمِعتُ عَمرو بن عاصم، سَمِعتُ أبا هُرَيرة قال: قال أبو بكر الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ: يا رسولَ الله، عَلِّمني شيئاً أقولُه إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ وإذا أخذتُ مَضجَعِي. قال: «قل: اللهُمَّ، فاطرَ السمواتِ

---

(١) حسن. أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٠ رقم ٧٠٤٥، والطبراني كما في المجمع ٥/ ١٠٥ وقال الهيثمي: فيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات. قلت: للحديث شواهد وقد صححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند رقم ٧٠٤٥ والألباني في الصحيحة ١٠٦٥.

(٢) حسن. أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٩/ ٥٨، وأحمد ٤/ ٤٠٣ح١٩٤٩٦، وابن أبي شيبة ١٠/ ٣٣٨، وأبو علي الكاهلي، قد رضيه البخاري في تاريخه الكبير ٩/ ٥٨ وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤: رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي، ووثقه ابن حبان.

(٣) أخرجه أبو يعلى ٥٨ و٥٩ وإسناده ضعيف لأجل ليث بن أبي سُليم. وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٦٧١: رواه أبو يعلى عن شيخه عمرو بن الحصين، وهو متروك. أهـ. قلت: توبع عمرو عند أبي يعلى ٦١، وإنما علته ليث بن أبي سُليم، فإنه صدوق سيء الحفظ، وفيه أبو محمد مجهول.

(٤) الصفا: الحجر الأملس.

(٥) في إسناده يحيى بن كثير، متروك الحديث كما ذكر ابن كثير عن الدارقطني.

والأرضِ، عَالِمَ الغيبِ والشهادةِ، رَبَّ كل شيءٍ ومَلِيكَه، أشهدُ أن لا إله إلا أنتَ، أعوذُ بك من شرِّ نفسي، وشرِّ الشيطانِ وشِرْكِهِ»[١].

[٣٩٠٤] وزاد أحمدُ في روايةٍ له من حديث لَيث بن أبي سُلَيم، عن مجاهد، عن أبي بكر قال: أمرني رسولُ الله ﷺ أن أقول. . . فذكر هذا الدُّعاء، وزاد في آخره: «وأن أقترِفَ على نفسي سُوءاً أو أجُرَّه إلى مُسلِم»[٢].

وقولُه تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾، أي: أفامن هؤلاء المشركون أن يأتِيَهم أمرٌ يغشاهم من حيث لا يشعرون، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥ ـ ٤٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ ـ ٩٩].

﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

يقولُ تعالى لعبده ورسولِهِ إلى الثَّقلين والإنس والجن، آمراً له أن يُخبِرَ الناس: أن هذه سبيلُه، أي؛ طريقهُ ومسلكهُ وسُنَّتَه، وهي الدعوةُ إلى شهادةَ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، يدعو إلى الله بها على بَصيرة من ذلك، ويقين وبُرهانٍ، وهو وكلُّ من اتَّبعَه، ويدعُو إلى ما دعا إليه رسُول الله ﷺ على بصيرةٍ ويقينٍ وبرهان شرعيٍّ وَعقليٍّ. وقولُه: ﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾، أي: وأنزِّه الله وأجلُّه وأعظِّمه وأقدِّسه، عن أن يكون له شريكٌ أو نَظِيرٌ، أو عديلٌ أو نديدٌ، أو ولدٌ أو والدٌ أو صاحبةٌ، أو وزيرٌ أو مُشيرٌ، تباركَ وتقدَّس وتنزَّه تعالى عن ذلك كلّه علواً كبيراً، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

يُخبِر تعالى أنه إنما أرسلَ رسله من الرِّجال لا من النساء. وهذا قولُ جمهور العُلَماء، كما دَلَّ عليه سياقُ هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى لم يُوحِ إلى امرأةٍ من بناتِ بني آدمَ وَحْيَ تشريع. وَزَعم بعضهم: أن سَارَةَ امرأةَ الخليل، وأمَّ موسى، ومريمَ بنت عمران أمَّ عيسى نَبيَّات، واحتجُّوا بأن الملائكة بَشَّرت سَارَةَ بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]. . . الآية، وبأنَّ المَلَكَ جاء إلى مريم فَبشَّرها بعيسى ـ عليه السلام ـ وبقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣]. وهذا القدرُ حاصلٌ لهنَّ، ولكن لا يلزمُ من هذا أن يَكُنَّ نبيَّاتٍ بذلك، فإن أراد القائل بنبوّتهنَّ، هذا القدر من

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد برقم ٥١ و ٥٢ و ٦٣ و ٧٩٤٨، والترمذي ٣٣٩٢، والطيالسي ٢٥٨٢، وأبو داود ٥٠٦٧، والحاكم ٥١٣/١. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند وكذا شعيب الأرناؤوط.

(٢) ليث بن أبي سُليم صدوق، سيِّىء الحفظ، ومجاهد عن أبي بكر منقطع، لكن الحجة بالإسناد المتقدم قبله.

التشريف فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه في أن هذا: هل يكفي في الانتظام في سِلكِ النبوّة بمجرده أم لا؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري عنهم. أنه ليس في النساء نبيّةٌ، وإنما فيهن صِدّيقاتٌ، كما قال تعالى مُخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: ٧٥]، فوصفها في أشرفِ مقاماتها بالصدّيقيّة، فلو كانت نبيّة لَذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صِدّيقة بنصِّ القرآن.

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ﴾، أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتُم. وهذا القولُ من ابن عباس يَعتضِدُ بقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ﴾ [الفرقان: ٢٠]. . . الآية، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنبياء: ٨، ٩]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]. . . الآية. وقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، المراد بالقُرى المدنُ لا أنّهم من أهل البوادي، الذي هم من أجفى الناس طِباعاً وأخلاقاً: وهذا هو المعهود المعروفُ أنّ أهلَ المُدُنِ أرقُّ طباعاً، والطفُ من أهل سوَادهم، وأهلُ الريفِ والسوادِ أقربُ حالاً من الذين يسكنون في البوادي، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ﴾ [التوبة: ٩٧]. وقال قتادةُ في قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمور.

[٣٩٠٥] وفي الحديث الآخر: أن رجلاً من الأعراب أهدى لرسولِ الله ﷺ ناقة فلم يزل يُعطِيه ويزيده حتى رَضِي، فقال رسول الله ﷺ: «لقد هَمَمْتُ ألاَّ أتَّهبَ هِبَة إلا من قُرَشِيّ، أو أنصاريّ، أو ثَقَفِي، أو دَوْسِيّ»[(١)].

[٣٩٠٦] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حجّاجٌ، حدثنا شعبةُ عن الأعمش، عن يحيى بن وثّاب، عن شيخ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ قال الأعمش: هو ابن عُمَرَ، عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن الذي يُخالِطُ الناسَ وَيَصبِرُ على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ﴾، أي: من الأمم المُكذِّبة للرسُلِ، كيف دَمَّر الله عليهم، وللكافرين أمثالُها، كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فإذا استمعوا خَبر ذلك رأوا أن الله قد أهلَكَ الكافرين ونجّى المؤمنين، وهذه كانت سُنّته تعالى في خَلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ﴾، أي: وَكما أنجينا المؤمنين من الدنيا كذلك كَتَبنا لهم النجاة من الدّار الآخرة أيضاً، وهي خيرٌ لهم من الدنيا بكثير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]. وأضاف الدار إلى الآخرة فقال: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، كما يقال: صلاةُ الأولى، وَمسجدُ الجامع، وعام الأوّلِ، وبارِحَةُ الأولى، ويومُ الخميسِ. قال الشاعر:

أتـمْـدَحُ فَـقْـعَـسـاً وَتَـذُمّ عَـبْـسـاً ... ألاَ لـلّـه أمّـكَ مـنْ هَـجِـيـنِ

---

(١) تقدم في سورة التوبة آية: ٩٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥٨، وأحمد ٥٠٢٢، وابن ماجه. ٤٠٣٢، وتقدم.

وَلَـو أقْـوتْ عَـلَـيْـك ديارُ عَـبْـسٍ عَـرَفْـتَ الـذُّلَّ عِـرْفـانَ الـيَـقـيـنِ

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

يُخبرُ تعالى أنَّ نصره يَنزلُ على رسله ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين ـ عند ضيق الحال وانتظار الفرَجِ من الله تعالى في أحوَجِ الأوقات إلى ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وفي قوله ﴿كُذِبُواْ﴾ قراءتان، إحداهما بالتشديد: «قد كُذِّبوا»، وكذلك كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقرؤها، قال البخاري: حدثنا عبدُ العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيمُ بن سعد، عن صالح، عن ابن شِهَابٍ قال: أخبرني عروةُ بن الزبير، عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾، قال: قلت أكُذِبُوا أم كُذِّبُوا؟ فقالت عائشة: «كُذِّبُوا». فقلت: فقد استيقنوا أن قومَهم قد كَذَّبوهم فما هو بالظَّنّ؟ قالت: أجل، لعمري لقد استيقنوا بذلك. فقلت لها: «وظنوا أنهم قد كُذِبوا؟» قالت: معاذَ الله، لم تكن الرسلُ تظنُّ ذلك بِرَبِّها. قلتُ: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباعُ الرُّسلِ الذين آمنوا بِرَبِّهم وصدَّقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصرُ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ مِمَّن كذبهم من قَومهم، وظَنت الرسلُ أن أتباعهم قد كَذَّبوهم، جاءهُم نصرُ الله عند ذلك. حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شُعَيبٌ، عن الزهريِّ قال: أخبرنا عروةُ فقلت لها: لعلها ﴿قَدْ كُذِبُواْ﴾ مُخففة؟ قالت: معاذ الله. انتهى ما ذكره. وقال ابنُ جريج: أخبرني ابن أبي مُلَيكة: أن ابن عباس قرأها: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ خفيفية، قال عبد الله ـ هو ابن أبي مليكة ـ: ثم قال لي ابن عباس: كانوا بشراً، وتلا ابن عباس: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾. قال ابنُ جريج: وقال لي ابنُ أبي مُلَيكَةَ: وأخبرني عُروةُ عن عائشةَ: أنها خالفت ذلك وأَبَتْهُ، وقالت: ما وَعَد الله محمداً ﷺ من شيءٍ إلا قد عَلِم أنه سيكونُ حتى مات، ولكنه لم يزل البلاءُ بالرسُلِ حتى ظنُّوا أنَّ من معهم من المؤمنين قد كَذَّبوهم. قال ابنُ أبي مليكة في حديث عُروةَ: كانت عائشة تقرؤها: «وظَنُّوا أنَّهم قد كُذِّبوا» مثقلة، للتكذيب. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونُس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني سُليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: جاء إنسانٌ إلى القاسم بن محمد فقال: إن محمد بن كعب القرظي يقول هذه الآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾، فقال القاسم: أَخْبِرْهُ عني أني سَمِعت عائشة زوج النبي ﷺ تقول: «حتَّى إذا استيأسَ الرسلُ وظَنوا أنهم قد كُذِّبوا»، تقولَ: كَذَّبتهم أتباعهم. إسناد صحيح أيضاً.

والقراءة الثانية بالتخفيف. واختلفوا في تفسيرها، فقال ابن عباس ما تقدم. وعن ابن مسعود، فيما رواه سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي الضُّحى، عن مسروق، عن عبد الله أنه قرأ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ مخففة، قال عبد الله: هو الذي تكره. وهذا عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما مخالف لما رواه آخرون عنهما، أما ابن عباس فروى الأعمش عن مسلم عن ابن عباس في قوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ قال: لما أيست الرسل أن يَستَجيبَ لهم قومهم، وظن قومُهم أن الرسل قد كَذَبُوهم، جاءهم النصر على ذلك، ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾. وكذا رُوِي عن سعيد بنُ جبير، وعمران بن الحارث السُّلمي، وعبد الرحمن بن معاوية، وعلي بن أبي طلحة، والعوفيُّ، عن ابن عباس، بمثله.

وقال ابنُ جرير: حدثني المثنى، حدثنا عارمُ أبو النعمان، حدثنا حَمَّاد بن زيد، حدثنا شُعَيب، حدثنا إبراهيم بن أبي حُرَّة الجَزَري قال: سأل فَتىً من قُرَيشٍ سعيدَ بن جُبَيرٍ فقال له: يا أبا عبد الله، كيف هذا

الحرفُ، فإني إذا أتيت عليه تمنيتُ أني لا أقرأ هذه السورة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾؟ قال: نعم، حتى إذا استيأس الرسلُ من قومهم أن يصدِّقوهم، وظن المرسَل إليهم أن الرسل كُذِبوا. فقال الضحّاكُ بن مزاحم: ما رأيت كاليوم قطُّ رجلاً يُدعَى إلى علم فَيَتلكأ! لو رحلت في هذه إلى اليمن كان قليلاً. ثم رَوَى ابنُ جرير أيضاً من وجه آخر: أنَّ مسلم بن يسار سأل سعيدَ بن جُبير عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب، فَقَام إلى سعيد فاعتنقه، وقال: فرّج الله عَنْكَ كما فَرّجتَ عني. وهكذا رُوِي من غير وجه عن سعيد بن جُبَير أنه فسّرها كذلك. وكذا فسّرها مجاهدُ بن جَبْر، وغير واحد من السلف، حتّى إن مُجاهِداً قرأها: «وظنوا أنهم قد كَذَبُوا»، بفتح الذال. رواه ابنُ جرير، إلا أن بعض من فسّرها كذلك يعيد الضمير في قوله: «وظنوا أنهم قد كذبوا» إلى أتباع الرُسل من المؤمنين، ومنهم من يُعيده إلى الكافرين منهم، أي: وظن الكفار أن الرسل قد كَذَبوا ـ مُخَفَّفَةً ـ فيما وَعَدوا به من النصر. وأما ابن مسعود فقال ابن جرير: حدثنا القاسمُ، حدثنا الحُسَين، حدثنا محمد بن فُضَيل، عن جُحَش بن زيادٍ الضبيِّ، عن تميم بن حَذْلَم قال: سمعتُ عبدَ الله بن مسعودٍ يقولُ في هذه الآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم، وظَنَّ قومهُم حين أبطأ الأمر أنهم قد كَذَبوا، بالتخفيف. فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعودٍ وابن عبّاسٍ، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فَسّرها بذلك، وانتصر لها ابنُ جرير، ووجَّه المشهور عن الجمهور، وزَيَّف القولَ الآخرَ بالكلية وَرَدَّهُ وأباه، ولم يقبله ولا ارتضاه، والله أعلم.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾

يقولُ تعالى: لقد كان في خَبَر المرسلين مع قومهم، وكيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين، ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ وهي العقولُ، ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾، أي: وما كان لهذا القرآن أن يُفتَرَى من دون الله، أي: يُكذَب ويُختلَق، ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾، أي: من الكتب المُنَزّلة من السماء، وهو يُصَدِّق ما فيها من الصَّحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريفٍ وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنَّسخ أو التقرير، ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعاتِ والواجباتِ والمستحبّاتِ، والنهي عن المحرّماتِ وما شاكَلَها من المكروهات، والإخبار عن الأمورِ على الجَلِيَّةِ، وعن الغُيوب المستقبلة المجملة والتَّفصيليّة، والإخبار عن الرَّب تبارك وتعالَى بالأسماءِ والصِّفاتِ، وتنزيهه عن مُمَاثَلَةِ المخلوقات، فلهذا كان: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ تهتدي به قلوبُهم من الغيِّ إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السَّدَادِ، ويبتغُون به الرحمةَ من ربِّ العباد، في هذه الحياة الدنيا والمعاد. فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخِرَةِ، يوم يفوزُ بالربح المُبْيَضَّةُ وجوهُهم الناضِرَةُ، ويرجعُ المسودَّة وجوهُهم بالصفقة الخاسرة.

• • •

آخر تفسير سورة يوسف،
ولله الحمد والمنة، وبه المستعان،
وعليه التُّكلان، وهو حسبنا ونعمَ الوكيلُ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١﴾

أمَّا الكلامُ على الحروف المقطعة في أوائل السُّوَر فقد تقدَّم في أول سُورة البقرة، وقَدَّمنا أنَّ كلَّ سورة تُبتَدأ بهذه الحروف ففيها الانتصارُ للقرآن، وتِبيانُ أنَّ نزولَه من عند الله حقٌّ لا شكَّ فيه ولا مِرْيةَ ولا ريبَ، ولهذا قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾، أي: هذه آياتُ الكتاب، وهو القرآن. وقيل: التوراةُ والإنجيلُ. قاله مجاهدٌ وقتادةُ. وفيه نظرٌ، بل هو بعيد. ثم عَطَف على ذلك عَطْفَ صفاتٍ قولَه ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، أي: يا محمدُ، ﴿مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾، خبرٌ تقدَّم مبتدؤه، وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، هذا هو الصحيحُ المطابقُ لتفسير مجاهد وقتادةُ، واختار ابنُ جريرٍ أن تكون الواو زائدةً أو عاطفةً صفةً على صفةٍ كما قدَّمنا، واستشهد بقول الشاعر:

إلى المَلِك القَرْمِ وابنِ الهُمَامِ ... ولَيثِ الكَتِيبة في المُزْدَحَمْ

وقولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، كقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣]، أي: مع هذا البَيانِ والجلاءِ والوُضوح لا يُؤمِنُ أكثرُهم لما فيهم من الشِّقاقِ والعنادِ النفاقِ.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾

يخبرُ تعالى عن كمال قُدرته وعَظِيم سلطانه أنه الذي بإذنه وأمره رَفَع السمواتِ بغير عَمَدٍ، بل بإذنه وأمره وتَسخيره رَفَعها عن الأرض بُعداً لا تُنال ولا يدرَكُ مَداها، فالسماء الدنيا محيطةٌ بجميع الأرض وما حَولَها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعٌ عليها من كُلِّ جانبٍ على السواء، وبعدُ ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرةُ خمسمئة عام، وسُمكها في نفسها مَسِيرةُ خَمسِمئة عام. ثم السماءُ الثانيةُ محيطةٌ بالسماء الدنيا وما حوَت، وبينها وبينها من البعد مَسِيرةُ خمسِمئة عام، وسُمكها خَمسُمئة عام، ثم السماء الثالثة محيطةٌ بالثانية بما فيها، وبينها وبينها خَمسُمئة عام، وسُمكها خمسُمئة عام، وكذا الرابعةُ والخامسةُ والسادسةُ والسابعةُ، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

[٣٩٠٧] وفي الحديث: «ما السمواتُ السبعُ وما فيهنَّ وما بينهنَّ في الكرسي إلا كحَلْقَةٍ ملقاةٍ بأرض فلاةٍ، والكرسيُّ في العَرْشِ كتلك الحَلْقَةِ في تلك الفَلاةِ»، وفي روايةٍ: «والعرشُ لا يُقدر قَدْرَه إلا الله

عز وجل»[(١)]. وجاء عن بعضِ السلَفِ: أن بُعدَ ما بين العرشِ إلى الأرض مسيرةُ خمسين ألفَ سنةٍ وبُعد ما بين قُطْرَيهِ مسيرةُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، وهو من ياقوتةٍ حمراءَ. وقولُه: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، رُوِي عن ابن عباسٍ، ومجاهدٍ، والحسنِ، وقتادةَ أنهم قالوا: لها عمدٌ ولكن لا تُرَى.

وقال إياسُ بن معاويةَ: السماءُ على الأرضِ مثل القُبَّة، يعني بلا عَمَدٍ، وكذا رُوي عن قتادةَ، وهذا هو اللائق بالسياق. والظاهِر من قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، فعلى هذا يكون قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي: هي مرفوعة بغير عَمَد كما تَرَونها. وهذا هو الأكملُ في القدرةِ. وفي شعر أُميَّةَ بن أبي الصَّلتِ الذي آمن شِعرهُ وكفر قلبه، كما ورد في الحديث[(٢)]. ويُروَى لزيد بن عَمْرو بن نُفَيل رَحِمه الله ورَضِي عنه:

وأنـتَ الَّـذِي مِـنْ فَـضْـلِ مَـنٍّ وَرَحْـمَـة ... بَـعَـثْـتَ إلـى مُـوسـى رَسُـولاً مُـنَـادِيـا

فـقـلـتَ لـه: فـاذهـب وهـارون فـادعُـوا ... إلـى الـلَّـه فِـرْعَـونَ الـذي كـانَ طَـاغِـيـا

وَقُـولاَ لَـه: هَـلْ أنـتَ سَـوَّيـت هَـذه ... بـلا وَتِـدٍ حَـتَّـى اطـمـأنَّـتْ كَـمَـا هِـيَـا

وقُـولاَ لَـه: آأنـت رفـعـت هـذه ... بـلا عَـمَـدٍ أرْفِـقْ إذاً بِـكَ بـانـيـا؟

وَقُـولاَ لَـه: هَـل أنـتَ سَـوّيـتَ وَسْـطَـهَـا ... مُـنِـيـراً إذا مـا جَـنَّـكَ الـلَّـيـلُ هـاديـا

وقُـولا لـه: مَـنْ يُـرسِـلُ الـشَّـمـس غُـدوةً ... فـيُـصـبـحَ مـا مَـسَّـتْ مِـنَ الأرضِ ضَـاحِـيـا

وَقُـولا لـه: مَـن يُـنـبِـت الـحـبَّ فـي الـثَّـرَى ... فـيُـصـبـحَ مـنـه الـعُـشـبُ يـهـتـزّ رَابـيَـا

وَيُـخْـرِجَ مـنـه حَـبَّـه فـي رُؤوسـه ... فَـفِـي ذَاكَ آيـاتٌ لِـمَـن كَـانَ وَاعِـيـا

وقولُه تعالة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، تَقدَّم تفسيرُ ذلك في سورة الأعراف، وأنه يُمَرَّرُ كما جاء من غير تَكييفٍ ولا تَشبيهٍ ولاَ تعطيلٍ ولا تمثيلٍ تعالى الله عُلوّاً كبيراً. وقولُه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، قيل: المرادُ أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى

---

(١) أخرجه ابن جرير ٥٧٩٤ من طريق يونس، قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض» وهذا سند ضعيف جداً، ابن زيد هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي، ضعفه علي بن المديني جداً وقال ابن خزيمة: ليس هو ممن يحتج أهل العلم بحديثه لسوء حفظه، وهو رجل صناعته العبادة والتقشف، ليس من أهل الحديث، وأبو زيد لم يسمع من أبي ذر وقد وهم الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيحته (١٠٩) فظن ابن زيد عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب الثقة.

وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ٤٠٤ ـ ٤٠٥ من طريق الحسن بن عرفة العبدي، عن يحيى بن سعيد السعدي، عن ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير الليثي، عن أبي ذر، ويحيى بن سعيد السعدي، قال العقيلي في الضعفاء: ٤/ ٤٠٤: لا يتابع على حديثه، وقال ابن حبان في المجروحين ٣/ ١٢٩: يروي المقلوبات والملزقات لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد، وابن جريج مدلس وقد عنعن.

ثم أخرجه من طريق الحسن بن سفيان عن عامر، عن إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، حدثنا أبي، عن جدي، عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر... وهذا سند تالف إبراهيم بن هشام بن يحيى كذبه أبو حاتم وأبو زرعة كما في الميزان ١/ ٧٢ ـ ٧٣. وأخرجه من طريق آخر عن أبي ذر محمد بن أبي شيبة في كتاب «العرش» ورقة ١/١١٤ وفي سنده ضعيف ومجهول.

(٢) تقدم.

لِمُسْتَقَرٍّ لَهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: ٣٨]. وقيل: المرادُ إلى مُستقرِّهما وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائرُ الكواكب إذا وصلُوا هنالك يكونون أبعدَ ما يكون عن العرش، لأنه على الصَّحيح الذي تقومُ عليه الأدلة قبَّةٌ مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك، لأنه له قوائم وحَمَلة يحمِلُونه. ولا يتصوّر هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تَدَبَّر ما وَرَدَتْ به الآيات والأحاديث الصحيحةُ، ولله الحمد والمنةُ. وذَكَر الشمس والقمر لأنهما أظهرُ الكواكب السيَّارة السبعة، التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سَخَّر هذه فَلأنْ يدخلَ في التسخير سائرُ الكواكب بطريق الأَوْلَى والأَحرَى، كما نبَّه بقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، مع أنه قد صَرَّح بذلك بقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقولُه: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾، أي: يُوضِّح الآياتِ والدِّلالاتِ الدَّالةَ على أنه لا إله إلا هو، وأنه يُعيد الخَلْقَ إذا شاء كما ابتدأ خَلْقَه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

لما ذكر تعالة العالم العُلوي شَرَع في ذكر قُدرته وحِكمته وإحكامه للعالم السُّفلي، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾، أي: جعلها مُتَّسِعة ممتدَّةً في الطول العَرض، وأرساها بجبالٍ راسيات شامخاتٍ، وأجرَى فيها الأنهار والجَداوِلَ والعُيونَ لسقي ما جَعَل فيها من الثمراتِ المختلفة الألوانِ والأشكالِ والطعوم والروائح، من كلِّ زوجَين اثنينِ، أي: من كلِّ شكلٍ صنفان. ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾، أي: جَعَل كُلاً منهما يطلُبُ الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غَشِيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخرُ، فَيَتصرفُ أيضاً في الزمان كما تَصرَّف أيضاً في المكان والسكَّانِ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: في آلاءِ الله وحكمتِهِ ودلائِله.

وقولُه تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾: أي: أراضٍ يجاورُ بعضُها بعضاً، مع أنَّ هذه طيبة تُنبِتُ ما ينتفع به الناس، وهذه سَبَخَةٌ مالحة لا تُنبِتُ شيئاً. هكذا رُوِي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبيرَ، والضحَّاك، وغيرهم. وكذا يدخل في هذه الآية اختلافُ ألوانِ بقاع الأرضِ. فهذه تربة حمراءُ، وهذه بيضاءُ، وهذه صفراءُ، وهذه سوداءُ، وهذه مُحجَرةٌ، وهذه سهلةٌ، وهذه مُرمِلةٌ، وهذه سميكة، وهذه رَقيقة، والكل متجاوِرَاتٌ. فهذه بصفَتِها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كلُّه مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلا هُوَ، ولاَ رَبَّ سِواه وقولُه: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾، يَحتمِلُ أن تكون عاطفة على ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾، فيكون ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفاً على ﴿أَعْنَٰبٍ﴾، فيكون مجروراً. ولهذا قرأ بكلٍّ منهما طائفةٌ من الأئمة. وقولُه: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾، الصنوان: هي الأصول المجتمعة في مَنْبِتٍ واحِدٍ، كالرّمان والتين وبعض النخيل، ونحو ذلك. وغير الصِّنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سُمّي عم الرجل صِنْوُ أبيه.

[٣٩٠٨] كما جاء في الحديث الصحيح أنَّ رسول الله ﷺ قال لعُمَر: «أما شَعَرتَ أن عَمّ الرجل صِنْوُ

أبيه؟»[١]. وقال سُفيان الثوريُّ، وشعبةُ، عن أبي إسحاقَ، عن البراء ـ رضي الله عنه ـ: الصِّنوان هي النخلات في أصل واحد، وغيرُ الصِّنوانِ المتفرقاتُ. وقاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والضحاكُ، وقتادةُ، وعبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ. وغير واحد. وقولُه: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾.

[٣٩٠٩] قال الأعمشُ، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾، قال: «الدَّقَل والفارسي[٢]، والحُلو والحامض»[٣]، رواه الترمذي وقال: حسن غريب. أي: هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزّروع، في أشكالها وألوانِها، وطُعومها وروائِحِها، وأوراقِها وأزهارِها، فهذا في غاية الحلاوةِ، وذا في غايةِ الحُموضةِ، وذا في غاية المَرارةِ، وذا عَفِصٌ، وهذا عذب، وهذا جَمَع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخَرَ بإذن الله تعالى، وهذا أصفَرُ، وهذا أحمَرُ، وهذا أبيضُ، وهذا أسودُ، وهذا أزرقُ، وكذلك الزُّهورات مع أن كُلّها يَستمِد من طبيعةٍ واحدةٍ، وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط، ففي ذَلِكَ آياتٌ لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدّلالات على الفاعِلِ المختارِ، الذي بِقُدرته فاوتَ بين الأشياء، وخلقها على ما يريدُ، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾

يقولُ تعالى لرسوله محمد ـ صلوات الله وسلامُه عليه: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يُشاهدونه من آيات الله ـ سبحانه ـ ودلالته في خَلْقِه على أنه القادرُ على ما يشاء، وَمع ما يعترفُون به من أنه ابتدأ خَلْقَ الأشياء، فكَوَّنها بعد أن لم تكُن شيئاً مذكوراً، ثم هُم بعد هذا يُكَذِّبون خبره في أنه سَيُعيد العالَمين خَلْقاً جديداً، وقد اعترفُوا وشاهدُوا ما هو أعجبُ مما كَذَّبوا به، فالعجبُ من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وقد عَلِم كلُّ عالم وعاقل أن خَلْقَ السمواتِ والأرض أكبرُ من خَلْقِ الناس، وأنَّ من بدأ الخَلْقَ فالإعادةُ سهلةٌ عليه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٣﴾ [الأحقاف: ٣٣]. ثم نعت المكذِّبين بهذا فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾، أي يُسحبونَ بها في النار، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، أي: ماكِثُون فيها أبداً، لا يَحُولونَ عنها ولا يَزُولونَ.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾، أي: هؤلاء المُكذِّبون ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾، أي: بالعُقوبة، كما أخبر

---

(١) متفق عليه. وتقدم.

(٢) الدقل: الرديء من التمر. والفارسي: ضرب جيد من التمر.

(٣) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣١١٨ والطبري ٢٠١٢٦ وإسناده ساقط، فيه سيف بن محمد، قال الحافظ في التقريب: كذبوه ومع ذلك حسنه الترمذي واستغربه! وتابعه سليمان بن عبيدالله عند الطبري ٢٠١٢٧ والعقيلي ٢/ ١٣١ لكن قال العقيلي: إنما يعرف هذا الحديث بسيف بن محمد، وسليمان لا يتابع عليه.

عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ ۝﴾ [الحجر: ٦ ـ ٨]. وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ۝﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤]، وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝﴾ [المعارج: ١]، وقال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ۝﴾ [ص: ١٦]، أي: حسابنا وعِقابنا، كما قال مخبراً عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝﴾ [الأنفال: ٣٢]، فكانوا يَطلبُون من الرسول أن يأتيَهم بعذاب الله، وذلك من شِدَّة تكذيبهم وكُفرهم وعنادهم. قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾، أي: قد أوقعنا نِقمتنا بالأمم الخالية وَجَعَلْنَاهم مَثُلَةً وعبرة وعِظَةً لمن اتَّعظ بهم.

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمُه وعفوُه لعاجلهم بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾، أي: إنه ذو عفو وصَفح وسَتْر للناس مَعَ أنهم يَظلِمُون ويُخطِئُون بالليل والنهار، ثم قرن هذا الحُكم بأنه شديد العقاب، ليعتدِلَ الرجاءُ والخوفُ، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ۝﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]. إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمَعُ الرجَاء والخوف.

[٣٩١٠] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حَدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حَمّاد، عن علي بن زيدٍ، عن سَعيد بن المُسيِّب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفوُ الله وتجاوُزُه ما هَنَأ أحداً العيشُ، ولولا وعيدهُ وعقابهُ لاتَّكَلَ كلُّ أحدٍ»[1]. وروى الحافظُ ابنُ عساكرٍ في ترجمةِ الحَسَن بن عثمان أبي حَسَّان الزيادِي. أنه رأى رَبَّ العِزّةِ في النوم، ورسولُ الله ﷺ واقفٌ بين يديه يشفَع في رجل من أمّته، فقال له: ألم يَكفكَ أني أنزلتُ عليك في سورةِ الرَّعد: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾؟ قال: ثم انتبهتُ.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝﴾

يقولُ تعالى إخباراً عن المشركين: إنهم يقولون كُفراً وعناداً: لولا يأتينا بآيةٍ من ربِّه كما أرسلَ الأوَّلون، كما تَعنَّتوا عليه أن يَجعَل لهم الصَّفا ذَهَباً، وأن يُزيل عنهم الجبالَ، ويجعلَ مكانها مُروجاً وأنهاراً. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾، أي: إنَّما عليكَ أن تُبَلِّغ رسالةَ الله التي أمرَكَ بها، و ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقولُه: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباسٍ، أي: ولِكلِّ قوم داعٍ. وقال العوفيُّ، عن ابن عباس في تفسيرها: يقول الله تعالى: أنت يا محمدُ منذرٌ، وأنا هادي كُلِّ قومٍ. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَير، والضحاك وغير واحد. وعن مجاهد: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، أي نبيٌّ. كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:

---

(١) إسناده ضعيف جداً. فهوَ مرسل، ومع إرساله فيه علي بن زيد ضعيف الحديث صاحب مناكير.

٢٤]. وبه قال قتادة، وعبدُ الرحمن بنُ زيدٍ. وقال أبو صالح، ويحيى بن رافع: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، أي: قائدٌ. وقال أبو العالية: الهادي القائدُ، والقائد الإمام، والإمامُ العَمَل، وعن عِكْرِمةَ، وأبي الضُّحى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: هو محمد ﷺ وقال مالك: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، مَن يدعوهم إلى الله عز وجل.

[٣٩١١] وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن يحيى الصُّوفي، حدثنا الحسنُ بن الحُسَين الأنصاري، حدثنا معاذ بن مسلم الهَرَوِيُّ، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال لما نَزلت ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قال: وَضع رسول الله ﷺ يَدَه على صدره، وقال: «أنا المنذرُ، ولكل قوم هادٍ». وأومأ بيده إلى منكب عليٍّ، فقال: «أنت الهادي يا عليُّ، بك يهتدي المهتدُون من بعدي»[١]. وهذا الحديث فيه نكارة شديدة. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عليُّ بن الحُسَين حدثنا عثمانُ بن أبي شيبةَ، حدثنا المطلب بن زياد، عن السديِّ، عن عبدِ خيرٍ، عن علي: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قال: الهادي رَجُلٌ من بني هاشم[٢]. قال الجُنَيدُ: هو علي بن أبي طالب رَضِيَ الله عنه. قال ابنُ أبي حاتم: ورُوِي عن ابن عباس ـ في إحدى الرِّوايات ـ وعن أبي جعفرٍ محمد بن علي، نحوُ ذلك.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾

يخبرُ تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفَى عليه شيءٌ، وأنه مُحيطٌ بما تحمِله الحواملُ من كلِّ إناثِ الحيواناتِ، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ﴾، أي: ما حَمَلت من ذكر أو أنثى، أو حَسَنٍ أو قبيح، أو شَقِيٍّ أو سعيدٍ، أو طويل العمر أو قصيره، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍۚ﴾ [الزمر: ٦]، أي: خَلَقكم طَوراً من بعدِ طَور، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

[٣٩١٢] وفي الصحيحَين عن ابن مسعود قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ خَلْق أحدكم يُجمَع في بَطْنِ أمه

---

(١) باطل لا أصل له، أخرجه الطبري ٢٠١٦١، وفيه عطاء بن السائب صدوق اختلط بأخَرَه، وعنه معاذ بن مسلم ذكره الذهبي في الميزان ٨٦١٣ وقال: مجهول وله عن عطاء بن السائب خبر باطل. وعنه الحسن بن حسين الكوفي. قال ابن عدي: لا يشبه حديثه حديث الثقات، وقال ابن حبان: يأتي عن الثقات بالملزقات اهـ.

(٢) باطل. أخرجه عبد الله بن أحمد ١٠٤٤ والطبراني في «الأوسط» ١٣٨٣ و «الصغير» ٧٣٩ عن علي مرفوعاً بهذا اللفظ، قال الهيثمي في «المجمع» ١١٠٩٠: رجال المسند ـ أي عبد الله بن أحمد ـ ثقات، كذا قال! مع أن في إسناده المطلب بن زياد الثقفي، فهو وإن وثقه أحمد ويحيى وابن حبان، فقد قال أبو حاتم: يكتب حديثه، ولا يحتج به. وضعفه عيسى بن شاذان، وقال ابن سعد: كان ضعيفاً جداً. وشيخه السدي ضعفه الجمهور. وورد موقوفاً على علي أخرجه الحاكم ٣/١٢٩/٤٦٤٦ وصححه. وقال الذهبي: بل كذب قبح الله واضعه.

الخلاصة: هذا من بدع التأويل، لا أصل له في المرفوع، ولا الموقوف، والصحيح القول الأول وهو «أن الله عز وجل هو الهادي، ورسول الله ﷺ هو المنذر»، وهذا أسنده الطبري ٢٠١٤٢ عن سعيد بن جبير وبرقم ٢٠١٤٣ و ٢٠١٤٤، وبرقم ٢٠١٤٥ عن مجاهد. و ٢٠١٤٦ عن ابن عباس و ٢٠١٤٧ عن الضحاك، وهذا هو الصحيح، والله أعلم.

أربعين يوماً، ثم يكون علقةً مثلَ ذلك، ثم يكون مُضغَةً مثل ذلك، ثم يُبْعَثُ إليه مَلَكٌ فَيُؤْمَرُ بأربعِ كلماتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِه، وعُمُره، وَعَمله، وشقيٌّ أو سعيد»[١].

[٣٩١٣] وفي الحديث الآخر: «فيقول المَلَك: أيْ رَبِّ، أذكر أم أنثى؟ أي ربِّ، أشقيٌّ أم سعيدٌ؟ فما الرزقُ؟ فما الأجلُ؟ فيقولُ: الله، ويكتُبُ المَلَك»[٢].

وقولُه: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾، قال البخاري:

[٣٩١٤] حدثنا إبراهيمُ بن المنذر، حدثنا مَعن، حدثنا مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عُمَر: أن رسولَ الله ﷺ قال: «مفاتيحُ الغيب خمسٌ لا يَعلَمُها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلَمُ ما تَغِيضُ الأرحامُ إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطرُ أحدٌ إلا الله، ولا تَدْرِي نفس بِأيِّ أرض تموتُ، ولا يعلَمُ متى تقوم الساعة إلا الله»[٣]. وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾، يعني السُّقْط، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾، يقول: ما زادت الرَّحِمُ في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً. وذلك أن من النساء من تحمل عشرةَ أشهر، ومنهن من تحمِلُ تسعة أشهر، ومنهن من تَزِيد في الحمل، ومنهن من تَنقُص، فذلك الغيضُ والزيادة التي ذكر الله تعالى، وكلُّ ذلك بعلمه تعالى. وقال الضحاكُ، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾، قال: ما نقصت عن تِسْعَةٍ وما زَادَ عليها. وقال الضحاك: وَضَعتني أمِّي وقد حملتني في بطنها سنتين، وولدتني وقد نَبَتت ثَنِيَّتي. وقال ابن جُريج، عن جَميلةَ بنت سعدٍ، عن عائشة قالت: لا يكونُ الحملُ أكثر من سنتين قَدْرَ ما يتحرك ظِلُّ مِغْزَل. وقال مجاهدٌ: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾، قال: ما تَرَى من الدم في حملها، وما تزدادُ على تسعة أشهر. وبه قال عطيةُ العوفيُّ وقتادةُ، والحسنُ البصريُّ والضحَّاكُ. وقال مجاهدٌ أيضاً: إذا رأت المرأةُ الدم دُونَ التسعةِ، زاد على التسعة. مثل أيام الحيض وقاله عكرمةُ، وسعيد بن جُبَير، وابنُ زيد. وقال مجاهدٌ أيضاً: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾: إراقة المرأة حتى يخسّ الولدُ، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ إن لم تُهرق المرأةُ تَمَّ الولدُ وعَظم. وقال مكحولٌ: الجَنينُ في بطنِ أمِّه لا يَطْلبُ، ولا يحزَن ولا يغتَمُّ، وإنما يأتيه رزقُه في بطن أمِّه من دم حيضتها، فَمِن ثَمَّ لا تحيضُ الحامل. فإذا وَقَع إلى الأرض استهلَّ، واستهلالُه استنكارٌ لمكانه، فإذا قُطِعت سُرَّته حَوّل الله رزقَه إلى ثَدْيي أمه حتى لا يطلب ولا يحزَن ولا يغتَمّ، ثم يصير طفلاً يتناول الشيءَ بكفّه فيأكلُه، فإذا هو بلغ قال: هو المَوت أو القتل، أنَّى لي بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويلَكَ! غذَّاك وأنت في بَطْنِ أمِّك وأنت طفلٌ صغيرٌ، حتى إذا اشتددت وعَقَلت قلت: هو الموتُ أو القتلُ، أنَّى لي بالرِّزقِ؟! ثم قرأ مكحول: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ ﴿٨﴾﴾. وقال قتادةُ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾، أي: بِأَجلٍ، حَفِظَ أرزاقَ خَلْقِه وآجالَهم، وجَعَل لذلك أجلاً معلوماً.

[٣٩١٥] وفي الحديثِ الصَّحيح أنَّ إحدى بَناتِ النبي ﷺ بعثت إليه: أن ابناً لها في الموت، وأنها تحبُّ أن يحضرَه. فبعث إليها يقول: «إن لله ما أَخَذ، وله ما أَعطى، وكُلُّ شيءٍ عنده بأجلٍ مسمّىً، فَمُرُوها

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٠٨ و ٣٣٣٢ و ٦٥٩٤ و ٧٤٥٤، ومسلم ٢٦٤٣، وأبو داود ٤٧٠٨، والترمذي ٢١٣٨، وابن ماجه ٧٦، وأحمد ١/ ٣٨٢ والحميدي ١٢٦.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٤٦ وغيره، وتقدم.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٩٧ وأحمد ٢/ ٢٤ والطبري ٢١/ ٨٨، والطبراني ١٣٢٤٦ وابن حبان ٧٠ و ٧١.

فلتصبر ولتحتسب»[١]. . . الحديث بتمامه. وقولُه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: يعلم كُلَّ شيءٍ مما يُشاهِدُه العباد ومما يَغيب عنهم، ولا يخفى عليه من شيء، ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾، الذي هو أكبرُ من كُلِّ شيءٍ، ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾، أي: على كلِّ شيءٍ، ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾، وقهر كل شيء، فَخضعت له الرقاب ودان له العبادُ، طوعاً وكرهاً.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

يُخبر تعالى عن إحاطة عِلمه بجميع خَلقه، سواء منهم من أسرَّ قوله أو جَهَر به، فإنه يسمعُه، لا يخفى عليه شيءٌ كما قال: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ٧]، وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥].

[٣٩١٦] وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: سبحان الذي وَسِع سمعُه الأصواتَ، والله لقد جاءت المجادِلة تَشتكي زوجَها إلى رسول الله ﷺ وأنا في جَنب البيت، وإنه ليخفَى عليَّ بعضُ كلامها، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ١].

وقولُه تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾، أي: مُختفٍ في قَعْر بيته في ظَلام الليل، ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، أي: ظاهرٌ ماشٍ في بياض النهار وضيائه، فإن كِليهما في علم الله على السَّواء، كما قال تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: لِلْعَبد ملائكةٌ يَتَاقبون عليه، حَرَسٌ بالليلِ وحَرَسٌ بالنهار، يحفظونه من الأسواءِ والحادثَاتِ، كما يتعاقبُ ملائكةٌ آخرون لِحفظِ الأعمالِ من خير أو شر، ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار. فاثنان عن اليمينِ والشمالِ يكتُبان الأعمالَ، صاحب اليمين يكتُب الحسنات، وصاحب الشمال يكتبُ السيئات، وملكان آخران يحفظَانه ويحرُسانه، واحد من ورائِهِ وآخرُ من قدامه، فهو بين أربعة أملاكٍ بالنهار، وأربعةٍ آخرينَ بالليل، بَدَلانِ حافظان وكاتبان، كما جاء في الصحيح:

[٣٩١٧] «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العَصر، فيصعد إليه الذينَ باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلمُ بكم: كيف تركتُم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يُصَلُّون، وتركناهم وهم يُصَلُّون»[٢].

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٢٨٤ ومسلم ٩٢٣، وأحمد ٥/ ٢٠٤ و ٢٠٦ وابن أبي شيبة ٣/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣، وعبد الرزاق ٦٦٧٠، والنسائي ٤/ ٢١ ـ ٢٢، والطيالسي ٦٣٦، وابن حبان ٣١٥٨ من طرق عن أسامة بن زيد.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٥ ومسلم ٦٣٢، والنسائي ١/ ٢٤٠ و ٢٤١ ومالك ١/ ١٧٠ وأحمد ٣١٢ و ٤٨٦، وابن خزيمة في صحيحه ٣٢١ و ٣٢٢ وابن حبان ١٧٢٨ كلهم من حديث أبي هريرة.

[٣٩١٨] وفي الحديث الآخر: «إنَّ معكم مَن لا يفارقكم إلا عند الخلاءِ وعند الجماعِ، فاستحيُوهم وأكرِمُوهم»[١].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾، والمعقِّبات من أمر الله، وهي الملائكةُ. وقال عِكرمةُ، عن ابن عباس: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾، قال: ملائكةٌ يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قَدَرُ الله خَلَّوا عنه. وقال مجاهدٌ: ما من عبد إلا له مَلَك مُوكَّل، يحفظُه في نومِهِ ويَقظَته من الجنِّ والإنسِ والهوامِّ، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال الملك: وراءك. إلا شيءٌ يأذن الله فيه فيُصيبُه. وقال الثَّوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾، قال: ذلك مَلِك من ملوك الدنيا، له حَرَسٌ من دونه حرس. وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾، يعني وليّ الشيطانِ، يكونُ عليه الحرسُ. وقال عِكْرِمةُ في تفسيرها: هؤلاء الأمراءُ، المواكبُ من بين يَدَيه ومن خلفه. وقال الضحاك: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾، قال: هو السلطان المحترسُ من أمر الله، وهم أهل الشرك. والظاهر ـ والله أعلم ـ أن مُراد ابن عباس وعكرمة والضَّحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبيد يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم.

[٣٩١٩] وقد رَوَى الإمام أبو جعفر بن جَرير ها هنا حديثاً غَريباً جِداً فقال: حدثني المثنَّى، حدثنا إبراهيمُ بن عبد السلام بن صالح القُشيري، حدثنا علي بن جَرير، عن حَمَّادِ بن سَلَمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كِنانةَ العَدَويِّ قال: دخلَ عثمانُ بن عفانَ على رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أخبرني عن العبد كم مَعَه من مَلَك؟ فقال: «مَلَكٌ على يمينك على حَسَناتك، وهو آمرٌ على الذي على الشمال، فإذا عَمِلتَ حسنة كُتِبتْ عشراً، فإذا عَمِلتَ سيئةً قال الذي على الشمال للذي على اليمين: أكتُب؟ قال: لا، لعله يستغفِرُ الله ويتوبُ. فإذا قال ثلاثاً قال: نعم، اكتُب، أراحنا الله منه، فَبِئس القرينُ! ما أقلَّ مُراقَبته لله وأقل استحياءه منا! يقول الله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق: ١٨] ومَلَكان من بين يديك ومن خَلفِك، يقول الله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾، ومَلَكٌ قابضٌ على ناصيتك، فإذا تواضعتَ لله رَفَعك، وإذا تَجبَّرتَ على الله قَصَمك. ومَلَكان على شَفَتيك، ليس يحفَظانِ عليكَ إلا الصَّلاة على محمد ﷺ، ومَلَكٌ قائم على فيك لا يَدَع الحيَّة أن تدخُلَ في فيك، ومَلَكان على عينيك. فهؤلاء عشرةُ أملاكٍ على كُلِّ بني آدَمَ، ينزلون ملائكةُ الليل على ملائِكة النهار، لأنَّ ملائكةَ اللَّيل سِوى ملائكةِ النهار، فهؤلاء عشرون مَلَكاً على كل بني آدَمَ، وإبليس بالنهار وولده بالليل»[٢].

[٣٩٢٠] وقال الإمام أحمدُ ـ رحمه الله ـ: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا سُفيان، حدثني منصور، عن سالم بن أبي الجَعْدِ، عن أبيه، عن عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد وُكِّل به قرينُه من الجنِّ وقرينُه من الملائكة». قالوا: وإياكَ يا رسول الله، قال: «وإياي، ولكن أعانني الله عليه، فلا يأمرني

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٨٠٠ من حديث ابن عمر، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. يعني أنه ضعيف، لأن في سنده ليث بن أبي سُليم وهو سيّء الحفظ، وباقي رجاله ثقات.

(٢) منكر. أخرجه الطبري ٢٠٢١١، وهو منقطع، كنانة لم يدرك عثمان، وعبد الحميد بن جعفر، وثقه قوم، وضعفه آخرون. وفيه إبراهيم بن عبد السلام بن صالح لم أجد له ترجمة، والظاهر أن الحمل عليه في هذا الحديث فإنه غريب جداً كما قال ابن كثير. أو لعل الحمل فيه على محمد بن عثمان، فقد اتهمه بعضهم.

إلا بخير»[(١)]. انفرد بإخراجه مسلم. وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، قيل: المرادُ حِفظُهم له من أَمْرِ الله. رواه عليُّ بن أبي طلحة وغيرُه، عن ابن عباسٍ. وإليه ذهب مجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، وإبراهيم النَّخعِيُّ، وغيرُهم. وقال قتادةُ: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، قال: وفي بعض القراءات: «يحفظونه بأمر الله». وقال كعب الأحبار: لو تجلَّى لابن آدم كلُّ سَهْلٍ وحَزْنٍ لرأى من ذلك شياطين، لولا أنَّ الله وَكَّل بكم ملائكةً يَذُبُّون عنكم في مَطْعَمِكم ومَشْرَبِكم وعَوْرَاتكم إذاً لتُخطَفتُم. وقال أبو أمامَةَ: ما مِن آدميٍّ إلا ومعه مَلَكٌ يَذُود عنه حتى يُسلِمه للذي قُدِّر له، وقال أبو مِجْلَز: جاء رجلٌ من مُرَادٍ إلى علي ـ رضي الله عنه ـ وهو يصلِّي، فقال: احترسْ، فإنَّ ناساً من مُرادٍ يُريدون قَتْلَك. فقال: إنَّ مع كل رَجُلٍ مَلَكين يحفظانه مما لم يُقَدَّر، فإذا جاء القَدَرُ خَلَّيا بينه وبينه، وإن الأجلَ جُنَّةٌ حَصِينَة.

وقال بعضُهم: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: بِأمر الله، كما جاء في الحديث أنَّهم قالوا:

[٣٩٢١] يا رسولَ الله، أرأيتَ رُقىً نَسْتَرقِي بها، هل تَرُدُّ من قَدَرِ الله شيئاً؟ فقال: «هي من قَدَرِ الله»[(٢)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا حفصُ بن غياثٍ، عن أشعث، عن جَهْم، عن إبراهيم قال: أوحى الله إلى نَبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل: أَنْ قُل لقومِكَ: إنه ليس من أهلِ قريةٍ ولا أهلِ بيت يكونُون على طاعةِ الله فَيَتَحوَّلون منها إلى معصيةِ الله إلا حَوَّلَ الله لهم مما يُحبُّون إلى ما يكرَهُون، ثم قال: إنَّ مصداقَ ذلك في كتاب الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. وقد وَرَد هذا في حديث مرفوع.

[٣٩٢٢] فقال الحافظ مُحمَّد بن عثمان بن أبي شيبة في كتابه صفة العرش: حدثنا الحسن بن علي، حدثنا الهَيثَمُ بن الأشعثِ السَّلمي، حدثنا أبو حَنِيفة اليَمَاني الأنصاري، عن عُمَير بن عبد الملك قال: خَطَبَنا عليُّ بن أبي طالب على منبر الكوفة قال: كنتُ إذا سَكَتُّ عن رسول الله ﷺ ابتدأني، وإذا سألته عن الخبر أنبأني، وإنه حَدَّثني عن ربِّه ـ عز وجل ـ قال: «قال الرَّبُّ: وَعِزَّتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قريةٍ ولا أهلِ بيتٍ كانوا على ما كرهتُ من معصيتي، ثم تحوَّلُوا عنها ما أحببت من طاعتي، إلا تَحوَّلتُ لهم عَمَّا يكرهونَ من عَذَابي إلى ما يُحبُّون من رَحْمَتي»[(٣)]. وهذا غريبٌ، وفي إسنادِهِ مَن لا أعرِفهُ.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه هو الذي يُسخِّر البرقَ، وهو: ما يُرى من النُّور اللامع ساطعاً من خَلَلِ السَّحاب. ورَوى

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨١٤ وأحمد ١/ ٣٨٥، والدارمي ٢/ ٣٠٦ والطحاوي في مشكل الآثار ١٠٩.

(٢) أخرجه الحاكم ٤/ ٤٠٢، والطبراني في الكبير ٣/ ٣٠٩٠ من حديث حكيم بن حزام، وقال الهيثمي في المجمع ٥/ ٨٥: وفيه صالح بن أبي الأخضر وهو ضعيف يعتبر حديثه.
وأخرجه الطبراني في الكبير ٦/ ٥٤٦٨ عن الحارث بن سعد عن أبيه وقال: هكذا رواه عثمان بن عمر عن يونس، وخالفه الناس فرووه عن يونس كما رواه الناس عن الزهري عن أبي خزامة، وقال الهيثمي في المجمع ٥/ ٨٥: والحارث لم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح غير أبي خزامة.

(٣) في إسناده مجاهيل لا يعرفون كما قال ابن كثير رحمه الله.

ابنُ جَرير أنَّ ابن عباس كَتب إلى أبي الجَلْد يسأله عن البَرْق فقال: البرق الماء. وقولُه: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، قال قتادةُ: خوفاً للمُسافِر، يخافُ أذاه ومَشقَّته، وطَمَعاً للمُقِيم يرجُو بَرَكته ومِنفعته، ويطمع في رِزْقِ الله. ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾، أي: ويخلقُها مُنشأةً جَدِيدة، وهي لِكَثرة مائها ثقيلةٌ قريبة إلى الأرض. قال مجاهدٌ: والسَّحابُ الثِّقالُ: الذي فيه الماء. قال ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

[٣٩٢٣] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ، حدثنا إبراهيمُ بن سعد، أخبرني أبي قال: كنتُ جالساً إلى جَنْبِ حُميد بن عبد الرحمن في المسجد، فَمَرَّ شيخٌ من بني غفار، فأرسل إليه حُمَيد، فلما أقبل قال: يا ابنَ أخي، وَسِّع فيما بيني وبينك، فإنه قد صحِب رسولَ الله ﷺ. فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه، فقال له حُمَيد: ما الحديث الذي حَدَّثتني عن رسول الله ﷺ؟ فقال الشيخُ: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إن الله يُنشِيءُ السَّحَابَ فَيَنطِقُ أحسنَ النطق، ويَضحك أحسن الضَّحِكَ»[١]. والمرادُ ـ والله أعلم ـ أن نطقَها الرعدُ، وضَحِكها البرقُ. وقال موسى بن عُبَيدة[٢]، عن سَعد بن إبراهيم قال: يبعَثُ الله الغيثَ، فلا أحسنَ منه مَضْحَكاً، ولا آنسَ منه مَنْطِقاً، فَضَحِكُه البرقُ، ومنطقُه الرعد. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عُبَيد الله الرازيُّ، عن محمد بن مسلم قال: بَلَغنا أن البرق ملكٌ له أربعة وجوه: وجهُ إنسان، ووجهُ ثور، ووجه نَسْرٍ، ووجهُ أَسَدٍ، فإذا مَصَعَ بِذنبِهِ فذاك البرقُ[٣].

[٣٩٢٤] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحجّاج، حدثني أبو مَطَر، عن سالم، عن أبيه قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا سَمِعَ الرعْد والصواعِقَ قال: «اللهمَّ، لا تَقتُلنا بِغَضَبكَ، ولا تُهلِكْنا بِعَذابِكَ، وعافِنا قبل ذلك»[٤]. ورَوَاه التِّرمذيُّ، والبخاري في كتاب الأدَب، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم في مُستدرَكِه، من حديث الحجاج بن أرطاة، عن أبي مطر ـ ولم يُسمّ، به.

[٣٩٢٥] وقال أبو جعفر بن جَرير: حدثنا أحمد بن إسحاق: حدثنا أبو أحمدَ، حدثنا إسرائيلُ، عن أبيه، عن رَجُلٍ، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رَفَع الحديثَ ـ قال: إنه كان إذا سَمِع الرعدَ قال: «سُبحانَ من يُسبِّح الرعدُ

---

(١) إسناده صحيح على شرط الشيخين، وهو عند أحمد ٥/ ٤٣٥، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات رقم ٩٨٨، والرامهرمزي في الأمثال ١٢٥، والعقيلي في الضعفاء من طرق عن إبراهيم بن سعد به. وأخرجه العقيلي والرامهرمزي رقم ١٢٤ من طريق عمرو بن الحصين العقيلي عن أمية بن سعيد الأموي عن صفوان بن سليم عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبي هريرة مرفوعاً. وقال العقيلي: «أمية بن سعيد الأموي مجهول وفي حديثه وهم ولعله أتي من عمرو بن الحصين». قلت: وعمرو بن الحصين متروك كما في التقريب.

(٢) موسىٰ بن عبيدة هو الربذي متروك، فما ذكره في تأويل هذا الحديث عن سعد بن إبراهيم لا يصح.

(٣) هذا الأثر من أباطيل الإسرائيليين.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢٧١ والترمذي ٣٤٥٠ والنسائي في «الكبرىٰ» ١٠٧٦٤ وأحمد ٢/ ١٠٠ والحاكم ٤/ ٢٨٦ وابن أبي شيبة ٧/ ٣١ والنسائي في «اليوم والليلة» ٩٢٧ و ٩٢٨ وابن السني ٢٩٨ والخرائطي في «مكارم الأخلاق» ٥٦٠، والبيهقي ٣/ ٣٦٢ كلهم من حديث ابن عمر. ضعفه الترمذي بقوله: غريب. وأما الحاكم، فصححه! ووافقه الذهبي! وضعفه النووي في «الأذكار» ٤٦٣ واعترضه بأنه أخرجه أحمد والحاكم، وغيرهما من طرق متعددة، وهو متماسك اهـ. والصواب أن مداره علىٰ أبي مطر في هذه الروايات جميعاً، وقد قال عنه الحافظ في التقريب: مجهول، وقال الذهبي في الميزان: لا يدرىٰ من هو اهـ. وأما حجاج بن أرطاة فقد توبع عند النسائي والحاكم. وعلة الحديث أبو مطر وحده. وأخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٣٠ عن جعفر بن برقان معضلاً، فالخبر إلىٰ الضعف أقرب، والله أعلم.

بِحَمْدِهِ»[١]. ورُوي عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه كان إذا سَمِع صوت الرعد قال: سبحانَ من سَبَّحتَ له. وكذا رُوي عن ابن عباس، والأسود بن يزيد، وطاووس أنهم كانوا يقولون كذلك. وقال الأوزاعيُّ: كان ابن أبي زكريًا يقول: من قال حين يسمعُ الرعد: سبحانَ الله وبِحمده، لم تُصِبه صاعِقة. وعن عبد الله بن الزُّبير: أنه كان إذا سَمِع الرعدَ تركَ الحديثَ وقال: سُبحان الذي يُسبِّح الرعدُ بِحَمده والملائكةُ من خِيفَتِهِ، ويقولُ: إنَّ هذا لوعيد شديدٌ لأهل الأرض. رواه مالك في الموطأ والبخاري في كتاب الأدب.

[٣٩٢٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود الطيالسيُّ، حدثنا صَدقَة بن موسى، حدثنا محمد بن وَاسع، عن شُتَير بن نَهارٍ، عن أبي هُرَيرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال ربُكم ـ عزَّ وجلَّ: لو أن عَبِيدي أطاعوني لأسقيتهم المطَرَ بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهَار، ولما أسمعتهم صوتَ الرعد»[٢].

[٣٩٢٧] وقال الطبراني: حدثنا زكريا بن يحيى السَّاجي، حدثنا أبو كامل الجَحْدري، حدثنا يحيى بن كثير أبو النضر، حدثنا عبد الكريم، حدثنا عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سَمِعتم الرعدَ فاذكُروا الله؛ فإنه لا يُصِيب ذاكراً»[٣]. وقولُه تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾، أي: يُرْسِلُها نِقمة يَنْتقِم بها مِمَّن يشاء، ولهذا تكثُر في آخر الزمان.

[٣٩٢٨] كما قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن مُصعب، حدثنا عمارة، عن أبي نَضْرة، عن أبي سعيد الخُدريِّ ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ﷺ قال: «تكثُرُ الصواعقُ عند اقتراب الساعةِ، حتى يأتي الرجلُ القومَ فيقول: من صُعِق تلكم الغداة؟ فيقولون: صُعِق فلان وفلان وفلان»[٤].

[٣٩٢٩] وقد رُوي في سَبَب نُزُولِها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي: حَدَّثنا إسحاقُ، حدثنا علي بن أبي سارَةَ الشيباني، حدثنا ثابتٌ، عن أنس: أن رسول الله ﷺ بَعَثَ رَجُلاً مرةً إلى رَجُلٍ من فَراعِنَة العرب فقال: «اذهب، فادعُه لي». فقال: يا رسول الله، إنه أعتى من ذلك. قال: «اذهب فادعه لي». قال: فَذَهب إليه فقال: يدعُوك رسول الله ﷺ. فقال له: من رسولُ الله؟ وما الله؟ أمِن ذَهَب هُو؟ أم من فضة هو؟ أم من نُحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبَرَه، فقال: يا رسول الله، قد أخبرتُك أنه أعتًى من ذلك، قال لي كذا وكذا. فقال: «ارجع إليه الثانية» ـ أراه ـ فذهب فقال له مثلَها، فرجَعَ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك. قال: «ارجع إليه فادعُه». فرجع إليه الثالثة. قال: فأعاد ذلك الكلامَ. فبينا هُو يُكلِّمهُ، إذ بَعَث الله ـ عزَّ وجل ـ سحابةً حِيالَ رأسِهِ، فَرَعَدت، فوقعت منها صاعقةٌ، فذهب بِقِحْف رأسه فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ

---

(١) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٠٢٦٠ بهذا الإسناد، فيه راوٍ لم يسمّ. وقد صح موقوفاً علىٰ علي وجماعة من التابعين. كما سيذكر ابن كثير رحمه الله.

(٢) ضعيف. أخرجه الحاكم ٢/٣٤٩ ح ٣٣٣١، وأحمد ٢/٣٥٩. وفي إسناده صدقة بن موسىٰ ضعيف الحديث، ومع ذلك صححه الحاكم! وتعقبه الذهبي بقوله: صدقة واهٍ. وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٢٧٨: مداره علىٰ صدقة الدقيقي، وقد ضعفه ابن معين. وغيره. وقال مسلم بن إبراهيم: كان صدوقاً أهـ. فالخبر إلىٰ الضعف أقرب، وذكره الذهبي في الميزان في ترجمة صدقة. علىٰ أنه من غرائبه.

(٣) أخرجه الطبراني ١١٣٧١، قال الهيثمي في «المجمع» ١٧١٢٧: فيه يحيىٰ بن كثير أبو النضر ضعيف.

(٤) أخرجه أحمد ٣/ ٦٤ ـ ٦٥ وأعله الهيثمي في «المجمع» ١٢٥٨٤ بمحمد بن مصعب، وقال: ضعيف.

ٱلْمِحَالِ﴾[١]. ورَوَاه ابنُ جرير من حديث علي بن أبي سارَة، به. ورواه الحافظ أبو بكر البزَّار، عن عبدة بن عبد الله، عن يزيدَ بن هارونَ، عن دَيْلَم بن غَزوان، عن ثابت، عن أنسٍ، فذكر نحوه[٢].

[٣٩٣٠] وقال: حدثنا الحسَنُ بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا أبانُ بن يزيد، حدثنا أبو عمران الجَونيُّ، عن عبد الرحمن بن صُحَار العَبْدي: أنه بَلَغه أن نَبِيّ الله ﷺ بعث[٣] إلى جَبَّار يدعُوه، فقال: أرأيتم ربكم، أذَهَبٌ هو؟ أم فِضَّة هو؟ أم لؤلؤٌ هو؟ قال: فَبينا هو يجادِلُهم، إذ بعث الله سحابة فرَعَدت، فأرسل عليه صاعقةً فذهبَتْ بقِحْفِ رأسه، ونزلت هذه الآية[٤].

[٣٩٣١] وقال أبو بكر بن عياش، عن لَيث بن أبي سُلَيم، عن مجاهد قال: جاء يهوديٌّ فقال: يا محمد، أخبرني عن رَبّك، من أيّ شيء هُو؟ من نُحاس هو؟ أم من لُؤلُؤٍ أو ياقوتٍ؟ قال: فجاءت صاعِقَةٌ فأخذَتْه، وأنزل الله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾[٥].

[٣٩٣٢] وقال قتادة: ذُكِر لنا أنّ رَجُلاً أنكر القرآنَ، وكذَّب النبيّ ﷺ فأرسل الله صاعِقَةً فأهلكته، وأنزل الله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ. . .﴾ الآية[٦].

[٣٩٣٣] وذَكروا في سبب نزولها قصةَ عامرِ بن الطُّفَيل وأربدَ أخي لبيد بن ربيعةَ لما قَدِما على رسول الله ﷺ المدينة، فَسَألاه أن يجعلَ لهما نصفَ الأمرِ، فأبى عليهما رسولُ الله ﷺ، فقال له عامر بن الطُّفيل ـ لعنه الله ـ: أما والله لأملأنها عليك خيلاً جُرداً ورجالاً مُرْداً. فقال له رسول الله ﷺ: «يأبى الله عليك ذلك وأبناء قَيْلة»، يعني الأنصارَ، ثم إنهما هَمَّا بالفَتْكِ بالنبيّ ﷺ وجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يَستلُّ سيفَه ليقتُلَه من ورائه، فَحَمَاه الله منهما وعَصَمه، فخرجا من المدينة فانطلقا في أحياء العرب، يجمعان الناسَ لحربه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأرسلَ الله على أربَد سحابةً فيها صاعقة فأحرقته. وأما عامرُ بن الطفيل فأرسل الله عليه الطاعونَ، فخرجت فيه غُدَّةٌ عظيمةٌ، فجعل يقول: يا آل عامر، غُدَّةٌ كغدَّةِ البكْر وموتٌ في بيت سَلوليَّةٍ؟ حتى ماتا ـ لعنهما الله ـ وأنزل الله في مثل ذلك: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة، أخو أربد يَرْثيه:

أَخْشَى عَلَى أرْبَدَ الحُتُوفَ وَلاَ ... أَرْهَبُ نَوءَ السِّمَاكِ وَالأسَدِ

فَجَّعَني الرَّعْدُ والصَّواعِقُ بالـ ... ـفَارِسِ يَومَ الكَرِيهةِ النَّجُدِ[٧]

---

(١) أخرجه أبو يعلى برقم ٣٤٦٨ وأخرجه الطبري ١٣/ ١٢٥، والواحدي في أسباب النزول ص ٢٠٤ من طريقين عن علي بن أبي سارة الشيباني، حدثنا ثابت بهذا الإسناد وهذا إسناد ضعيف لضعف ابن أبي سارة.

وذكره الهيثمي في المجمع ٧/ ٤٢ وقال: رواه الطبراني في الأوسط والبزار ورجال البزار رجال الصحيح غير ديلم بن غزوان وهو ثقة، وفي رجال أبي يعلى والطبراني علي بن أبي سارة وهو ضعيف ا.هـ.

(٢) أخرجه البزار ٢٢٢١ وأبو يعلى ٣٣٤١ وابن أبي عاصم في «السنة» ٦٩٢ وهذا إسناد صحيح، وصححه الألباني في «السنة».

(٣) وقع في سائر النسخ «بعثه» وذكر الضمير خطأ من الناسخ، والتصويب عن الطبري.

(٤) هذا مرسل لكن يشهد لما قبله.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠٢٦٧ هكذا مرسلاً، ومع إرساله، فيه ليث ضعيف. والغريب فيه ذكر اليهودي فقط.

(٦) أخرجه الطبري ٢٠٢٧١ هكذا مرسلاً، لكن يصلح شاهداً لحديث أنس المتقدم، والله أعلم.

(٧) ذكره بدون إسناد، وانظر ما بعده.

[٣٩٣٤] وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانيُّ: حدثنا مَسْعَدَةُ بن سعد العَطّار، حدثنا إبراهيمُ بن المنذر الحِزَامي، حدثني عبدُ العزيز بن عِمرانَ، حدثني عبدُ الرَحمن وعبدُ الله ابنا زيد بن أسلَمَ، عن أبيهما، عن عطاء بن يسار، عن ابن عبّاس: أن أربدَ بن قيس بن جَزْء بن خالد بن جعفر بن كلاب، وعامر بن الطُّفيل بن مالك، قَدِما المدينةَ على رسول الله ﷺ فانتَهَيا إليه وهو جالس، فَجَلسا بين يديه، فقال عامر بن الطُّفيل: يا محمدُ، ما تجعلُ لي إن أسلمتُ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «لَكَ ما للمسلمين، وعليكَ ما عليهم». قال عامر بن الطُّفَيل: أتجعلُ لي الأمرَ إن أسلمتُ من بعدِك؟ قال رسولُ الله ﷺ: «ليس ذلك لك ولا لِقَومك، ولكن لك أَعِنَّةُ الخيل». قال: أنا الآن في أَعِنَّة خيلِ نَجدٍ، اجعل لي الوَبَر ولك المَدَرُ. قال رسول الله: «لا». فلما قَفَلا من عنده قال عامر: أما والله لأملأنها عليكَ خَيلاً ورِجالاً. فقال له رسول الله ﷺ: «يمنعك الله». فلما خرج أربدُ وعامرٌ قال عامر: يا أربدُ، أنا أشغلُ عنك محمداً بالحديث، فاضرِبهُ بالسيفِ، فإن الناس إذا قتلتَ مُحمَّداً لم يَزيدوا على أن يَرضَوا بالدِّية، وَيكرَهُوا الحربَ، فَنُعطِيهم الدية. قالَ أربد: افعل. فأقبلا رَاجِعَينِ إليه، فقال عامرٌ: يا محمدٌ، قُم معي أكلِّمك. فقامَ معه رسول الله ﷺ فجلسا إلى الجدَارِ، ووقَف معه رسول الله ﷺ يُكَلِّمُه، وسَلّ أربدُ السيفَ، فلما وضَع يدَه على السَّيفِ يَبِسَت يدُه على قائِمِ السَّيفِ، فلم يستطع سَلَّ السيفِ، فأبطأ أربدُ على عامر بالضربِ، فالتفت رسولُ الله ﷺ فرأى أربدَ وما يصنعُ، فانصرفَ عنهما. فلما خَرَج عامر وأربدُ من عند رسول الله ﷺ حتى إذا كانا بالحَرّة - حرّة واقم - نزلا، فخرج إليهما سَعد بنُ معاذ وَأسَيْدُ بن حُضَير فقالا: اشخصَا يا عَدُوّي الله، لعنكما الله. فقال عامر: من هذا يا سعد؟ قال: هذا أُسَيْدُ بن حُضير الكَتَائب. فخرجا حتى إذا كانا بالرَّقْم، أرسل الله على أربدَ صاعقةً فَقَتَلَتْهُ، وخرج عامر حتى إذا كان بالخريم أرسل الله قُرْحةً فأخذته، فأدركه الليلُ في بيت امرأةٍ من بني سَلُولَ، فجعل يَمَسُّ قَرحته في حلقه ويقول: غُدّة كغُدّة الجَمَل في بيت سَلُولية! يَرغبُ أن يَموتَ في بيتها! ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعاً، فأنزل الله فيهما: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ - قال: المُعَقبات من أمر الله يحفظون محمداً ﷺ ثم ذكر أربدَ وما قَتَله به، فقال: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ الآية[1].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾، أي: يَشكُّون في عَظمته، وأنه لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾. قال ابنُ جَرير: شَدِيدةٌ مُماحلَتُهُ في عُقوبة من طَغَى عليه وعتَا وتمادَى في كفره. وهذه الآيةُ شبيهةٌ بقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾ [النمل: ٥٠ - ٥١]. وعن علي رضي الله عنه: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾، أي شديدُ الأخذِ. وقال مجاهد: شديدُ القُوّةِ.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝١٤﴾

قال عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه -: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾، قال: التوحيد. رواه ابنُ جرير. وقال ابن

(١) أخرجه الطبراني ١٠٧٦٠ وفي «الطوال» ٣٧ من حديث ابن عباس. قال الهيثمي في «المجمع» ١١٠٩١: في إسنادهما عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف، وذكره الواحدي في الأسباب ٥٤٧ بقوله: قال ابن عباس في رواية أبي صالح [وهو واهٍ]، وابن جريج، وابن زيد، فساقه بلا سند. وأثر ابن جريج أسنده الطبري ٢٠٢٧٢ عنه وهو معضل.

عباس، وقتادةُ، ومالك عن محمد بن المنكدر: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾: لا إله إلا الله. ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ الآية، أي: ومَثَلُ الذين يعبدون آلهة غير الله، ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾، قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبداً بيدِهِ، فكيف يبلغ فاه؟! وقال مُجاهِدٌ: ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ﴾: يَدعُو الماءَ بِلِسَانِه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً. وقيل: المرادُ كقابضٍ يَدِهِ على الماء، فإنه لا يَحكُم منه على شيءٍ، كما قال الشاعر:

فَـإنّـي وَإيَّـاكُـمْ وَشَـوْقـاً إلَـيـكُـمُ كَـقَـابِـضِ مـاءٍ لَـم تَـسِـقـه أنَـامِـلُـهْ

وقال الآخر:

فـأصـبَـحْـتُ مِـمَّـا كَـانَ بَـيْـنـي وَبَـيْـنَـهـا مِـنَ الـوُدِّ مِـثْـلَ الـقَـابِـضِ الـمَـاءَ بِـالـيَـدِ

ومعنى هذا الكلام أنَّ هذا الذي يبسُط يَدَه إلى الماء إما قابضاً وإما متناولاً له من بُعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه، الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدُون مع الله إلهاً غيره، لا ينتفعون بهم أبداً في الدُّنيا ولا في الآخرةِ ولهذا قال: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ (١٥)﴾

يُخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قَهر كُلَّ شيء، ودان له كلُّ شيء. ولهذا يسجُد له كل شيء طوعاً من المؤمنين، وكرهاً من المشركين، ﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ﴾، أي؛ البُكر، والآصال وهو جمع أصيل وهو آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)﴾

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هُو، لأنهم مُعترِفون أنه هو الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ، وهو ربُها ومُدَبِّرها، وهم مع هذا قد اتَّخذُوا من دونه أولياءَ يعبدونهم، وأولئك الآلهةُ لا تَملِكُ لنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى، ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، أي: لا تُحصِّل منفعةً ولا تدفَع عنهم مَضرَّةً. فهل يَستوِي من عَبَد هذه الآلهةَ مع الله ومن عَبَد الله وحدَه لا شريك له وهو على نُور من ربِّه؟! ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الربَّ وتماثله في الخلق، فَخلقوا كخلقه، فتشابه الخلقُ عليهم، فلا يَدرُون أنها مخلوقةٌ من مخلوق غيره؟ أي: ليس الأمرُ كذلك، فإنه لا يشابهه شيءٌ ولا يماثله، ولا نِدّ له ولا عِدْل له، ولا وَزير لَه، ولا وَلَد ولا صاحبة؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون في تَلْبِيَتِهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تَملِكُه وما مَلَك. وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، فأنكر تعالى ذلك عليهم، حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يُشفَّع عِنده أحداً إلا بإذنه، ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦]. وقال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٥]، فإذا كان الجميعُ عبيداً، فَلِم يعبدُ بعضُهم بعضاً بلا دليل ولا برهانٍ، بل بمُجرَّد الرأي والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رُسُله من أولهم إلى آخرهم تزجُرهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادةِ مَن سِوَى الله، فَكَذَّبوهم وخالَفُوهم، فحقت عليهم كلمةُ العذابِ لا محالة، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

اشتملت هذه الآيةُ الكريمةُ على مَثَلين مَضرُوبَين للحقِّ في ثباته وبقائه، والباطلِ في اضمحلاله وفَنائه، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، أي: مطراً، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾، أي: أخذ كُلُّ وادٍ بحسبه، فهذا كبيرٌ وَسِع كثيراً من الماء، وهذا صغير فَوسع بقدَرِه. وهو إشارةٌ إلى القلوب وتفاوتِها، فمنها ما يَسَعُ علماً كثيراً، ومنها ما لا يَتَّسع لكثير من العلوم بل يضيقُ عنها، ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾، أي: فجاء على وجهِ الماء الذي سال في هذه الأودية زَبَدٌ عالٍ عليه، هذا مثل، وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾، هذا هو المثل الثاني، وهو ما يُسبَكُ في النار من ذهب أو فضة ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾، أي: ليجعل حليةَ نحاسٍ أو حديدٍ فَيُجعَل متاعاً، فإنه يعلُوه زَبَدٌ منه، كما يعلو ذلك زبدٌ منه، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾، أي: إذا اجتمعا لا ثباتَ للباطِل ولا دَوَام له، كما أن الزبد لا يثبتُ مع الماء، ولا مع الذَّهب ونحوهِ مما يُسبَكُ في النار، بل يذهَبُ ويَضمحِلُّ، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾، أي: لا يُنتفعُ به، بل يتفرَّقُ ويتمزَّقُ ويذهَبُ في جانِبَي الوادي، ويعلَق بالشجر وتَنْسِفُه الرياح. وكذلك خَبَث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهبُ، ولا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماءُ، وذلك الذهبُ ونحوه ينتفعُ به. ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]. وقال بعضُ السلفِ: كنتُ إذا قرأتُ مثلاً من القرآن فلم أفهمه بَكَيتُ على نفسي، لأن الله تعالى يقولُ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس في: قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾: هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوبُ على قدر يقينها وشكِّها، فأما الشكُّ فلا ينفع معه العملُ، وأما اليقينُ فينفع الله به أهله، وهو قولُه: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾، وهو الشك، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وهو اليقين، وكما يُجعل الحَلْي في النار فيؤخَذُ خالِصُه ويُترَك خَبَثه في النار. فكذلك يقبلُ الله اليقينَ ويتركُ الشكَّ. وقال العوفيُّ، عن ابن عباسٍ قولَه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾، يقولُ: احتملَ السيلُ ما في الوادي من عُودٍ ودِمْنَةٍ، ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾، فهو الذهبُ والفضةُ والحليةُ والمتاعُ والنحاسُ والحديدُ، فللنحاس والحديد خَبَثٌ، فجعل الله مثل خَبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضةُ، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت. فجعل ذاك مثلَ العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيىء يضمحلُّ عن أهله، كما يذهبُ هذا الزبدُ، فكذلك الهُدَى والحقُّ جاءا من عند الله، فمن عَملَ بالحقِّ كان له ويبقى كما يبقَى ما ينفع الناسَ في الأرض. وكذلك الحديدُ لا يُستطاع أن يُعملَ منه سِكِّينٌ ولا سيفٌ حتى يدخل في النار فتأكُل خَبَثَه، ويخرجَ جَيِّده فينفع به. كذلك يضمحلُّ الباطل إذا كان يوم

القيامة، وأقيم الناسُ، وعُرِضت الأعمالُ، فيزيغ الباطلُ ويهلِك، وينتفعُ أهلُ الحقِّ بالحق. وكذلك رُوِي في تفسيرها عن مجاهد، والحسن البصري، وعطاء، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف.

وقد ضَرَب الله ـ سبحانه وتعالى ـ في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين ناريّاً ومائياً، وهما قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ [البقرة: ١٧]... الآية، ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩]... الآية. وهكذا ضرَب للكافرين في سورة النور مثلين، أحدهما قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [النور: ٣٩]... الآية، والسرابُ إنما يكون في شدة الحر.

[٣٩٣٥] ولهذا جاء في الصحيحين: «فيقال لليهود يوم القيامة: فما تريدون؟ فيقولون: أي ربنا عطشنا فاسقنا. فيقال: ألا تردون؟ فيَرِدُون النار فإذا هي كالسراب يحطم بعضها بعضاً»[١]... ثم قال تعالى في المثل الآخر: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ [النور: ٤٠]... الآية.

[٣٩٣٦] وفي الصَّحِيحَين عن أبي موسى الأشعريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ مثلَ ما بعثني الله به من الهُدَى والعلم كَمَثَلِ غيثٍ أصابَ أرضاً، فكان منها طائفة قَبِلت الماءَ فأنبتت الكَلأَ والعُشبَ الكثير، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماء، فَنَفع الله بها الناسَ، فَشَربوا ورعَوا وَسَقُوا وَزَرعُوا، وأصابت طائفةً منها أخرى، إنما هي قيعانٌ لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنبتُ كَلأً، فذلك مَثَلُ من فَقِه في دين الله ونَفَعه الله بما بعثني ونَفَع به. فَعَلِم وعَلَّم. ومثل من لم يَرْفَع بذلك رأساً ولَم يَقْبَل هُدَى الله الذي أرسلت به»[٢]. فهذا مثل مائي.

[٣٩٣٧] وقال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد: حَدَّثنا عبد الرزاق، حدثنا معمرٌ، عن همام بن مُنَبّه قال: هذا ما حَدَّثنا أبو هُرَيرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَثَلي ومثَلُكم كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءَت ما حولَه جعل الفَرَاشُ وهذه الدوابُ التي يقعن في النار يَقَعْنَ فيها، وجعل يَحْجُزُهُنَّ ويَغلِبْنَه فَيَتقحَّمْنَ فيها، قال: فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحُجَزكم عن النار، هَلُمّ عن النار، هَلُمَّ عن النار، هَلُمَّ. فتغلبوني، فتقتحِمُون فيها»[٣]، وأخرجاه في الصحيحين أيضاً، فهذا مثلٌ ناريٌّ.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

يخبر تعالى عن مآل السُعداء والأشقياء فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾، أي: أطاعوا الله ورسوله، وانقادُوا لأوامره، وصدَّقُوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وهو الجزاء الحسنُ، كما قال تعالى مخبراً عن ذي القرنين أنه قال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ٨٧ ـ ٨٨]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٨٣ من حديث أبي سعيد في خبر المرور على الصراط المشهور، وتقدم.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٧٩ ومسلم ٢٢٨٢ وأحمد ٤/ ٣٩٩ وابن حبان ٤.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٢٨٤ح١٨ وأحمد ٢/ ٣١٢ من طريق عبد الرزاق به. وأخرجه البخاري ٣٤٢٦ ومسلم ٢٢٨٤ والترمذي ٢٨٧٤ وابن حبان ٦٤٠٨ من وجه آخر عن الأعرج عن أبي هريرة به.

وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ أي لم: يُطيعوا الله، ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، أي: في الدار الآخرة، لو أن يُمكِنَهم أن يفتدوا من عذاب الله بملْءِ الأرضِ ذهباً ومثله مَعَه لافتدَوا به، ولكن لا يُتَقبَّل منهم؛ لأنه تعالى لا يَقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾، أي: في الدار الآخرة، أي: يُناقَشون على النَّقِير والقِطْمير، والجَليل والحَقير.

[٣٩٣٨] «ومن نُوقِشَ الحسابَ عُذِّب»(١)، ولهذا قال: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩)﴾

يقولُ تعالى: لا يَستوي مَن يعلم مِن الناس أن الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا مُحمَّدُ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هو ﴿الْحَقُّ﴾، أي: الذي لا شَكَّ فيه ولا مِرْيَةَ ولا لَبْس فيه ولا اختلافَ فيه، بل هو كلُّه حقٌّ يُصَدِّق بعضُه بعضاً، لا يُضادُّ شيءٌ منه شيئاً آخرَ، فأخباره كلُّها حقٌّ، وأوامرُه ونواهيه عدلٌ، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الطَّلَب، فلا يستوي مَن تحقق صِدْقَ ما جئتَ به يا محمد ومن هُو أعمى لا يَهتدي إلى خير ولا يفهَمُه، ولو فَهِمه ما انقاد له ولا صَدَّقه ولا اتبعه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ أي: أفهذا كهذا؟ لا استواء. وقولُه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، أي: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة، جعلنا الله منهم.

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾

يقولُ تعالى مخبراً عمَّن اتَّصف بهذه الصفاتِ الحَميدة، بأنَّ لهم ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾، وهي العاقبةُ والنصرةُ في الدنيا والآخرة. ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾، وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدُهم غَدَر، وإذا خاصَم فَجَر، وإذا حَدَّث كذَب، وإذا اؤتُمِنَ خانَ. ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾، من صِلَة الأرحام، والإحسانِ إليهم وإلى الفقراءِ والمحاويجِ وبذل المعروف، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، أي: فيما يأتون وما يَذَرُون من الأعمال، يُراقبون الله في ذلك، ويخافون سُوء الحساب في الدار الآخرة. فلهذا أَمْرُهم على السداد والاستقامةِ في جَميع حَرَكاتهم وسَكَناتِهم وجَميع أحوالِهم القاصِرَة والمتعدية. ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، أي: عن المحارم والمآثم، فَفَطموا نُفوسَهم عن ذلك لله ـ عز وجل ـ ابتغاءَ مَرْضَاتِهِ وجَزيل ثوابه، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، بِحدُودِها ومَوَاقيتها ورُكوعِها وسُجودِها وخُشوعِها على الوجه الشرعي المرضيِّ، ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، أي: على الذين يجبُ عليهم الإنفاقُ لهم من زوجات وقَرَابات وأجانِبَ، من فُقَراء ومحاويج ومساكين، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، أي: في السرِّ والجَهْرِ، لم يمنعهُم من ذلك حالٌ من الأحوال، في آناءِ الليل وأطراف النهار، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾، أي: يَدفعون القبيحَ بالحسنِ، فإذا آذاهم أحدٌ قابلوه بالجميل

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٣٩ ومسلم ٢٨٧٦ وأحمد ٦/ ١٢٧ وابن حبان ٧٣٧٠ من حديث عائشة وانظر ما تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٤٣.

صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفواً، كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥]، ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السُّعداءِ المتَّصِفين بهذه الصفاتِ الحسنةِ بأن لهم عُقبى الدارِ. ثم فسَّر ذلك بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، والعدنُ: الإقامةُ، أي: جناتُ إقامةٍ يَخلدون فيها. وعن عبد الله بن عَمرو أنه قال: إنَّ في الجنة قصراً يُقال له: عَدْنٌ، حولَه البُروجُ والمُروجُ، فيه خمسةُ آلافِ بابٍ، على كل بابٍ خمسة آلاف حِبَرَةٍ لا يدخلُه إلا نبيٌّ أو صِدِّيقٌ أو شَهيدٌ.

وقال الضحّاكُ في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، مدينةُ الجنةِ، فيها الرسلُ والأنبياءُ والشهداءُ وأئمةُ الهُدى، والناسُ حولَهم بعد، والجناتُ حولها. رواهما ابنُ جَرير. وقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾، أي: يُجمَعُ بينهَم وبين أحبابهم فيها من الآباءِ والأهلينَ والأبناء، ممن هو صالحٌ لدخول الجنّةِ من المؤمنين، لِتَقَرَّ أعينُهم بهم، حتى إنه تُرفَع درجةُ الأدنى إلى درجةِ الأعلى، من غير تَنْقيصٍ لذلك الأعلى عن درجته، بل امتناناً من الله وإحساناً، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]. وقولُه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾، أي: وتدخلُ عليهم الملائكةُ من ها هنا وها هنا للتهنئةِ بدُخولِ الجنة، فعند دُخولهم إيَّاها تَفِد عليهم الملائكةُ مُسلِّمين مُهنِّئين لهم بما حصَلَ لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامةِ في دارِ السَّلامِ، في جوارِ الصدِّيقين والأنبياءِ والرسُلِ الكِرام.

[٣٩٣٩] وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثني سَعِيد بن أبي أيُّوب، حدثنا معروفُ بن سُويد الجُذامي، عن أبي عُشَّانَةَ المَعَافِريّ، عن عبد الله بن عَمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هل تَدرُون أوَّل من يدخل الجَنةَ من خَلْقِ الله؟» قالوا: اللّهُ ورسولُه أعلم. قال: «أوّلُ مَن يدخلُ الجنةَ من خَلقِ الله الفقراءُ المهاجرونَ الذين تُسَدُّ بهم الثغورُ، وتُتَّقى بهم المكارهُ، ويموتُ أحدُهم وحاجتُه في صَدره لا يَستطيع لها قضاءً، فيقول الله تعالى لمن يشاءُ من ملائكته: ائتُوهم فَحَيُّوهم. فتقول الملائكةُ: نحن سُكّان سمائِكَ، وخِيرَتُك من خَلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فَنُسلِّمَ عليهم؟ قال: إنهم كانوا عباداً يَعبدونني لا يُشرِكُون بي شيئاً، وتُسَدُّ بهم الثغورُ، وتُتَّقى بهم المكارهُ، ويموتُ أحدُهم وحاجتُه في صَدْرِه فلا يستطيعُ لها قضاءً». قال: «فتأتيهمُ الملائكةُ عند ذلك، فَيدخُلون عليهم من كلِّ باب، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾»(١).

[٣٩٤٠] ورواه أبو القاسم الطبراني، عن أحمد بن صَالح، عن عبد الله بن وَهبٍ، عن عَمْرو بن الحارث، عن أبي عُشَّانَةَ، سَمع عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «أولُ ثُلَّةٍ يدخلون الجنةَ فقراء المهاجرين، الذين تُتَّقى بهم المكارهُ، وإذا أُمِرُوا سَمِعوا وأطاعوا، وإن كانت لرجلٍ منهم حاجةٌ إلى سلطان لم تُقْضَ حتى يَموتَ وهي في صدره، وإن الله يدعُو يومَ القيامة الجنةَ فتأتي بزخرفها وزينتها، فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، وجاهَدُوا في سبيلي؟ ادخُلوا الجنةَ بِغَير عذاب ولا حساب، وتأتي الملائكةُ فيسجدون ويقولون: رَبَّنا نحن نُسَبِّحُك الليلَ والنهارَ، ونُقَدِّس لك، مَن هؤلاء الذين آثرتَهم علينا؟ فيقول الربُّ ـ عز وجل ـ هؤلاء عبادي الذين جاهَدُوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي. فتدخلُ

---

(١) حسن. أخرجه أحمد ٢/١٦٨ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/٢٥٩: رواه أحمد والبزار والطبراني. . . ورجالهم كلهم ثقات. وهو كما قال، وإسناده حسن.

عليهم الملائكةُ من كلِّ باب: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[(١)].

وقال عبدُ الله بن المبارك، عن بَقِيَّة بن الوليد، حدثنا أرطأة بن المنذر، سَمِعتُ رجلاً من مشيخةِ الجند، يقال له أبو الحَجَّاج يقول: جلستُ إلى أبي أمامة فقال: إن المؤمنَ لَيكون متكئاً على أريكته إذا دخلَ الجنة، وعنده سِمَاطان من خَدَم، وعندَ طَرَفِ السَماطين بابٌ مُبَوَّب، فَيُقبِلُ المَلَكُ فيستأذنُ، فيقول أقصى الخدم للذي يليه: مَلَك يستأذن، ويقول الذي يليه للذي يليه: مَلَك يستأذن، حتى يبلغ المؤمن فيقول: ائذنوا. فيقول أقربهم إلى المؤمن: ائذنوا، ويقول الذي يليه للذي يليه: ائذنوا. حتى يبلغَ أقصاهم الذي عند الباب فيفتح له، فيدخل فيسلِّم ثم ينصرف، رواه ابن جرير. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث إسماعيل بن عياش، عن أرطأة بن المنذر، عن أبي الحجاج يوسف الألهانيِّ قال: سمعت أبا أمامة... فذكر نحوه.

[٣٩٤١] وقد جاء في الحديث: أن رسولَ الله ﷺ كان يزورُ قبورَ الشهداء في رأس كلِّ حول، فيقول لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[(٢)]. وكذا أبو بكر، وعمر، وعثمان.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

هذا حالُ الأشقياء وصفاتُهم، وذِكرُ مآلِهِمْ في الدار الآخرة ومَصِيرهم إلى خلافِ ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتَّصفُوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفُون بعهد الله ويَصِلُون ما أمر الله به أن يُوصَلَ، وهؤلاء ﴿يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

[٣٩٤٢] كما ثَبت في الحديث: «آيةُ المنافِق ثلاث: إذا حَدَّث كَذَب، وإذا وَعَد أخلَفَ، وإذا أؤتمن خانَ» ـ وفي رواية: «وإذا عاهَدَ غَدَر، وإذا خَاصَم فَجَر»[(٣)]. ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾، وهي الإبعادُ عن الرحمة، ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، وهي سوءُ العاقبةِ والمآل، ومأواهم جَهَنَّم وبئس القرارُ. وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾... الآية، قال: هي ستُّ خصالٍ في المنافقين إذا كان فيهم الظَّهرة على الناس أظهروا هذه الخِصَال: إذا حَدَّثوا كَذَبوا، وإذا وَعَدُوا أخلَفُوا، وإذا ائتُمِنُوا خانُوا، ونَقَضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقَطَعوا ما أمر الله به أن يُوصَلَ، وأفسدُوا في الأرض. وإذا كانت الظُّهْرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حَدَّثوا كَذَبُوا، وإذا وَعَدُوا أخلَفُوا، وإذا ائتُمِنُوا خانُوا.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾﴾

يذكرُ تعالى أنهُ هو الذي يُوسِّع الرزقَ على من يشاء، ويُقَتِّره على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدلِ. وفَرِح هؤلاء الكفارُ بما أوتوا في الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً، كما قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]. ثم حَقَّر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادَّخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾، كما

---

(١) حسن. أخرجه أحمد ٢/١٦٨ وأبو نعيم في «صفة الجنة» ٨١ وابن حبان ٧٤٢١ والبيهقي في «البعث» ٤١٤. وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/٢٥٩ وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني، ورجالهم ثقات.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠٣٤٤ عن محمد بن إبراهيم مرسلاً.

(٣) تقدم عند آية ١٧٧ من سورة البقرة.

قال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

[٣٩٤٣] وقال الإمامُ أحمد: حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسولُ الله ﷺ: ما الدنيا في الآخرةِ إلا كَمَثَل ما يجعَلُ أحدُكم إصبعه هذه في اليمّ، فَلْينظر بم ترجعُ؟ وأشار بالسبّابة[١]. ورَوَاه مسلمٌ في صحيحه.

[٣٩٤٤] وفي الحديث الآخر: أنّ رسول الله ﷺ مرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ ـ والأَسَكُّ: الصغيرُ الأذُنين ـ فقال: «وَاللَّهِ لَلدُّنيا أهونُ على الله مِن هَذا على أهلِهِ حينَ أَلْقَوه»[٢].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

يخبر تعالى عن قِيلِ المشركين: ﴿لَوْلَآ﴾، أي: هَلاّ ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]. وقد تقدّم الكلامُ على هذا غير مرّةٍ، وأنّ الله قادرٌ على إجابة ما سألوا.

[٣٩٤٥] وفي الحديث: «إنّ الله أوحى إلى رسوله لَمّا سألوه أن يُحوّل لهم الصّفا ذهباً، وأن يُجري لهم يُنبوعاً، وأن يُزيح الجبال من حول مكة فيصيرَ مكانها مروجٌ وبساتين: إن شئتَ ـ يا محمد ـ أعطيتُهم ذلك، فإن كفروا فإني أعذّبهم عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين، وإن شئتَ فتحتُ عليهم باب التوبةِ والرّحمةِ، فقال: بل تفتحُ لهم بابَ التوبةِ والرّحمةِ»[٣]. ولهذا قال لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾، أي: هو المضلُّ والهادي، سواءٌ بُعِثَ الرسل بآيةٍ على وَفق ما اقترحوا، أو لم يُجبْهُم إلى سُؤالهم، فإن الهداية والإضلالَ ليس منوطاً بذلِكَ ولا عدَمِهِ، كما قال: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١]. وهكذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾، أي: ويَهدِي مَن أناب إلى الله، ورجع إليه، واستعان به، وتضرّع لديه. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: تَطِيبُ وتركَن إلى جانب الله، وتسكُن عند ذِكرِه، وترضى به مولىً ونَصيراً، ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، أي: هو حَقِيقٌ بذلك. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾، قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: فَرَحٌ وقُرّةُ عين. وقال عِكرمَةُ: نِعْمَ مآلُهم. وقال الضحاك: غبطةٌ لَهُم. وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ: خير لهم. وقال قَتَادَةُ: هي كلمة عربية، يقول الرجلُ: طُوبى لك، أي: أصبت خيراً. وقال في رواية: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾، حُسنى لهم. ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾، أي: مرجعٌ. وهذه الأقوال شيء واحد لا منافاة بينها. وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿طُوبَىٰ

(١) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية ٣٩.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٥٧ من حديث جابر بأتم منه، وفي الباب من حديث ابن عباس عند أحمد ١/ ٣٢٩ وأبي يعلى ٢٥٩٣.

(٣) يأتي في سورة الإسراء، آية ٩٠.

لَهُمْ﴾، قال: هي أرض الجنة بالحبشية. وقال سعيد بن مَسْجوح: طوبى اسم الجنة، بالهندية. وكذا روى السّدي، عن عكرمة: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾، أي: الجنة. وبه قال مجاهد. وقال العَوفي: عن ابن عباس: لما خَلَق الله الجنةَ وفَرَغ منها قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾، وذلك حين أعجَبَتْهُ.

وقال ابنُ جرير: حدثنا ابن حُميد، حدثنا يعقوبُ، عن جَعفرٍ، عن شهر بن حَوشَبٍ قال: ﴿طُوبَىٰ﴾، شجرةٌ في الجنة، كُلُّ شجرِ الجَنَّةِ منها، أغصانُها من وراء سُورِ الجنة. وهكذا رُوِيَ عن أبي هريرة، وابن عباس، ومغيث بن سُمَيّ، وأبي إسحاق السَّبِيعي وغير واحد من السَّلَفِ: أن طوبى شجرة في الجنة، في كل دار منها غصنٌ منها. وذكر بعضُهم أن الرحمن ـ تبارك وتعالى ـ غَرَسها بيده من حَبَّةِ لُؤلُؤَةٍ، وأمرها أن تمتدَّ، فامتدت إلى حيثُ يشاءُ الله ـ تبارك وتعالى ـ وخَرَجت من أصلها ينابيعُ أنهار الجَنَّةِ، من عَسَلٍ وَخمر وماءٍ ولبن.

[٣٩٤٦] وقد قال عبد الله بنُ وَهبٍ: حدثنا عمرو بن الحارث، أنَّ دَرّاجاً أبا السَّمْح حَدَّثَه، عن أبي الهَيْثَم، عن أبي سَعيدٍ الخدري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: ﴿طُوبَىٰ﴾: «شَجَرةٌ في الجنَّةِ مسيرةُ مئةِ سنةٍ، ثيابُ أهلِ الجنة تخرجُ من أكمامها»[(١)].

[٣٩٤٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، سمعت عبد الله بن لَهيعة، حدثنا دَرّاج أبو السَّمح، أن أبا الهيثم حَدَّثه، عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، طُوبَى لمن رآك وآمَنَ بك. قال: «طُوبى لمن رآني وآمَنَ بي، ثم طُوبى، ثم طُوبى لمن آمن بي ولم يَرَني». قال له رجل: وما طُوبى؟ قال: «شجرةٌ في الجنة مسيرةُ مئة عام، ثيابُ أهل الجَنَّةِ تخرج من أكمامها»[(٢)].

[٣٩٤٨] ورَوَى البخاريُّ ومسلم جميعاً، عن إسحاق بن راهويه، عن مُغيرة المخزومي، عن وُهَيْبٍ، عن أبي حازِمٍ، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها». قال: فَحَدّثت به النعمانَ بن أبي عياش الزرَقي، فقال: حدثني أبو سعيد الخُدْري، عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرةً يسير الراكبُ الجَوَادَ المضمَّرَ السريع مئة عام ما يقطعها»[(٣)].

[٣٩٤٩] وفي صحيح البخاري، من حديث يَزيدَ بن زُرَيعٍ، عن سعيدٍ، عن قَتَادةَ، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾، قال: «في الجنة شَجَرةٌ يسير الراكبُ في ظلها مئةَ عام لا يقطعها»[(٤)].

[٣٩٥٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا سريج، حدثنا فُلَيح، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عَمْرَة، عن أبي هُريرة قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «في الجنةِ شجرةٌ يسيرُ الراكب في ظِلِّها مئة سنة. اقرؤوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾»[(٥)]. أخرجاه في الصحيحين.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٧١ وأبو يعلىٰ ١٣٧٤ وابن حبان ٧٤١٣ والخطيب ٤/ ٩١ والطبري ٢٠٣٩٤ وإسناده ضعيف، لضعف دراج في روايته عن أبي الهيثم، ولصدره شواهد، والوهن فقط في عجزه «ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»، قوله: «أكمامها» هو غلاف التمر والحب قبل أن يظهر.

(٢) إسناده ضعيف كسابقه، والوهن في عجزه فقط كما تقدم.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٥٢ ـ ٦٥٥٣ ومسلم ٢٨٢٧ ـ ٢٨٢٨.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٥١ والترمذي ٣٢٩٣.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٥٢ ومسلم ٢٨٢٦ والترمذي ٢٥٢٣ وأحمد ٢/ ٤١٨ وابن حبان ٧٤١١.

[٣٩٥١] وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر وحجّاج قالا: حدثنا شعبةُ، سَمِعتُ أبا الضحّاك يُحدِّث عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الجنّةِ شجرةً يسير الراكبُ في ظِلِّها سبعينَ ـ أو: مئةَ سنةٍ ـ هي شجرةُ الخُلد»[١].

[٣٩٥٢] وقال محمدُ بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزُّبَير، عن أبيه عن عائشة.، عن أسماءِ بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ قالت: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ وذكر سِدْرَة المنتهى، قال: «يسيرُ في ظل الفَنَن منها الراكبُ مئةَ سنة، أو قال: يستظلُّ في الفَنَنِ منها مئةُ راكب، فيها فِرَاش الذهب، كأن ثَمَرها القِلال»[٢]. رواه الترمذي.

[٣٩٥٣] وقال إسماعيل بن عَيّاش، عن سعيد بن يوسف، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلام الأسود قال: سَمِعتُ أبا أمامةَ الباهِليّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما منكم من أحد يدخلُ الجَنّةَ إلا انطُلِقَ به إلى طُوبى، فَتَفتحُ له أكمامها، فيأخذ من أيِّ ذلك شاء، إن شاءَ أبيض، وإن شاء أحمَرَ، وإن شاء أصفَرَ، وإن شاء أسودَ، مثلَ شقائقِ النعمان وأرقُّ وأحسَن»[٣].

وقال الإمام أبو جعفر بنَ جرير: حدثنا محمدُ بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثَورٍ، عن معمر، عن أشعثَ بن عبد الله، عن شهر بنَ حوشبٍ، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: طُوبى شجرةٌ في الجَنّةِ، يقول الله لها: تَفَتَّقِي لعبدِي عَمّا شاء؛ فَتَفَتَّقُ له عن الخيل بِسُرُوجِها ولُجُمها، وعن الإِبل بِأزمّتِها، وعمّا شاء من الكُسوة.

وقد رَوَى ابنُ جرير، عن وهب بن مُنَبِّه ها هنا أثراً غريباً عجيباً، قال وهب ـ رحمه الله ـ: إن في الجنّة شجرةً يقال لها: «طُوبى»، يسير الراكبُ في ظِلِّها مئة عام، لا يقطعها، زهرُها رِياطٌ، وورَقُها بُرُود، وقُضبانها عَنْبَرٌ وبطحاؤها ياقوتٌ، وتُرابها كافورٌ، ووَحلها مِسكٌ، يخرجُ من أصلها أنهارُ الخمر واللبنِ والعسل، وهي مجلِسٌ لأهل الجنّةِ، فبينا هُم في مجلِسِهم إذ أتتهم ملائكةٌ من ربِّهم يَقُودون نُجُباً مزمومَةً بسلاسِلَ من ذَهبٍ، وجوهُها كالمصابيح حُسناً، ووبَرُها كَخزِّ المِرْعِزّي من لينه، عليها رِحالٌ ألواحها من ياقوت، ودفوفها من ذهب، وثيابها من سندسٍ وإستبرقٍ، فَيُنِيخُونها ويقولون: إنّ ربَّنا أرسلنا إليكم لِتَزُورُوه وتُسَلِّموا عليه. قال: فيركَبُونها، فهي أسرعُ من الطائرَ، وأوطأ من الفِراش، نُجُباً من غير مِهْنَةٍ، يسيرُ الرجل إلى جَنْبِ أخيه وهو يُكلِّمه ويُناجيه، لا تُصِيب أذنُ راحلة منها أذنَ الأخرى، ولا بَرْكُ راحلةٍ بَرْكَ الأخرى، حتى إن الشَّجرة لتَتَنحّى عن طريقهم، لئلاً تُفرِّق بين الرجل وأخيه، قال: فيأتونَ إلى الرحمن الرحيم فَيُسفِر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظُروا إليه، فإذا رأوه قالوا: اللهمّ، أنت السلامُ ومنك السلامُ، وحقٌّ لك الجلال والإِكرامُ. قال: فيقول تعالى عند ذلك: أنا السلامُ ومنّي السلامُ، وعليكم حَقّت رحمتي ومحبّتي، مرحباً بعبادي الذين خَشُوني بغيبٍ وأطاعُوا أمري. قال: فيقولون: ربَّنا، لم نعبدك حقَّ عبادتك، ولم نَقدُرك حق قَدرك، فأذن لنا في السجودِ قُدّامِك. قال: فيقول الله: إنها ليست بدار نَصَبٍ ولا عبادة، ولكنها دارُ مُلْك ونَعيم، وإنّي قد

(١) أخرجه أحمد ٢/٤٥٥ وفيه أبو الضحاك ذكره الذهبي في الميزان ١٠٣٢٥ فقال: حدث عنه شعبة لا يعرف، لكن شيوخ شعبة جياد أهـ قلت: تفرد بلفظ «جنة الخلد» وهو غريب، وباقي الحديث صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٥٤١ بإسناد ضعيف، فيه عنعنة ابن إسحق.

(٣) إسناده ضعيف لضعف سعيد بن يوسف الشامي.

رفعتُ عنكم نَصَبَ العبادة، فَسَلُوني ما شئتم، فإنَّ لكل رجُلٍ منكم أمنيَّته. فيسألونه، حتى إنَّ أقصَرَهم أمنيَّةً ليقولُ: ربِّ، تَنَافس أهلُ الدنيا في دنياهم فَتَضايقوا فيها، ربِّ فآتِني مثلَ كلِّ شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا. فيقول الله تعالى: لقد قَصرت بك أمنيَّتُك، ولقد سألت دُون منزلتك، هذا لك منِّي، وسأتحِفُك بمنزلتي، لأنه ليس في عطائي نَكَدٌ ولا تَصرِيدٌ. قال: ثم يقول: اعرِضُوا على عبادي ما لم يبلغ أمانيهم، ولم يخطرُ لهم على بال. قال: فَيعرِضُون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم التي في أنفسهم، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مُقرَّنة، على كل أربعة منها سرير من ياقوتةٍ واحدةٍ، على كل سريرٍ منها قُبة من ذهب مُفرَغةٍ، في كل قُبَّةٍ منها فُرش من فُرش الجنة مُتظاهرة، في كل قُبَّة منها جاريتان من الحُور العين، على كلُ جارية منهن ثوبان من ثيابِ الجنةِ، وليس في الجنة لون إلا وهو فيهما، ولا ريحٌ طيبة إلا قد عَبِقَتا به، ينفذ ضوءُ وجُوهِهما غِلَظَ القبة، حتى يظنُّ من يراهُما أنهما دُون القبَّة، يرى مُخُّهما من فوق سوقهما، كالسِّلك الأبيض في ياقوتةٍ حَمراء، يريان له من الفضل على صاحبته كَفَضل الشمس على الحجارة أو أفضلَ، ويَرَى هو لهما مثل ذلك، ويدخُل إليهما فَيُحيِّيانه ويُقبِّلانه ويَعتَنِقَانه، ويقولان له: والله ما ظَنَنَّا أن الله يخلق مثلك. ثم يأمر الله تعالى الملائكةَ فَيَسِيرون بهم صَفّاً في الجنة، حتى يُنتهى بكُلِّ رجل منهم إلى مَنْزِلته التي أُعِدَّت له[1]. وقد رَوى هذا الأثَر ابنُ أبي حاتم بسنده، عن وهب بن مُنَبِّه، وزاد: فانظُروا إلى موهوب رَبِّكم الذي وَهَب لكم، فإذا هو بِقباب في الرفيق الأعلى، وغُرَف مَبنِيَّة من الدرِّ والمَرْجانِ، وأبوابُها من ذهب، وسُرُرها من ياقوتٍ، وفُرُشَها من سندُس وإستبرقٍ، ومنابرُها من نور، يَفُور من أبوابها وعِراصها نورٌ مثلُ شعاع الشمس، عنده مثل الكوكب الدرِّي في النهارِ المضيءِ، وإذا بِقُصورٍ شامخةٍ في أعلى عِلِّيِّينَ من الياقوتِ يُزْهِرُ نورُها، فلولا أنه مُسخَّر إذاً لالتمع الأبصارُ، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيضِ، فهو مفروشٌ بالحرير الأبيض، وما كان فيها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقري الأحمرِ، وما كان فيها من الياقوت الأخضر، فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان فيها من الياقوت الأصفر، فهو مفروش بالأرجوان الأصفر. مُبَوَّبَةٌ بالزُمُردِ الأخضر، والذهب الأحمر، والفضَّةِ البيضاء، قوائمُها وأركانُها من الجوهر، وشُرُفها قبابٌ من لؤلؤ، وبروجُها غُرَف من المَرْجانِ، فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربُّهم قُرِّبت لهم بَرَاذِين من ياقوتٍ، منفوخ فيها الرُّوح، تَجنُبُها الوِلدانُ المُخلَّدون، بيدِ كلِّ وليدٍ منهم حَكَمَة بِرذَونٍ من تلك البَرَاذين، ولُجُمها وأعنتها من فِضَّةٍ بيضاء، منظومةٍ بالدرِّ والياقوت، سُرُوجُها سُرُر موضونة، مفروشةٌ بالسندُس والإستبرق. فانطلقت بهم تلك البراذينَ تَزِفُّ بهم ببطن رياض الجنَّةِ. فلما انتهَوا إلى منازلهم وجدُوا الملائكة قُعُوداً على منابر من نور، ينتظرونهم ليزورُوهم ويُصَافِحُوهم ويهنئوهم كرامَةَ ربهم. فلما دخلوا قُصُورَهم وجدُوا فيها جميع ما تَطَاولَ به عليهم ربُّهم وما سألوا وتَمَنَّوا، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان، جَنَّتَان ذواتا أفنان، وجنتان مُدْهامتان، وفيهما عينان نَضّاختان، وفيهما من كلِّ فاكهة زوجانِ، وحورٌ مقصوراتٌ في الخيام، فلما تَبوءوا منازلهم واستقروا قَرارَهم قال لهم ربهم: هل وجدتم ما وعدتكم حقاً؟ قالوا: نعم، وربِّنا. قال: هل رَضِيتُم ثوابَ ربكم؟ قالوا: رَبَّنا، رَضِينا فارضَ عنا. قال: برضاي عنكم حَلَلتم داري، ونظرتُم إلى وجهي، وصافحتكُم ملائكتي، فَهَنِيئاً هَنيئاً لكم، ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، ليس فيه تنغيصٌ ولا تَصرِيدٌ[2]. فعند ذلك قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾

---

(١) هذا الأثر والذي بعده من الإسرائيليات.

(٢) التصريد: التقليل.

[فاطر: ٣٤]، و ﴿أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥]، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]. وهذا سياق غريب، وأثر عجيبٌ ولبعضه شواهدُ.

[٣٩٥٤] ففي الصحيحين: «أن الله تعالى يقول لذلك الرجل الذي يكون آخِر أهل الجنة دخولاً للجنة، تمنَّ. فيَتمنى، حتى إذا انتهتْ به الأمانيُّ يقول الله تعالى: تمنَّ مِن كذا، وتَمنَّ من كذا، يُذَكِّره، ثم يقول: ذلك لك، وعشرةُ أمثاله»(١).

[٣٩٥٥] وفي صحيح مسلم، عن أبي ذَرّ، عن رسول الله ﷺ عن الله ـ عزّ وجلّ ـ: «يا عبادي، لو أن أوّلكم وآخركم، وإنسكم وجنّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسْألته، ما نَقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أدخل في البحر»(٢). . . الحديث بطُوله.

وقال خالدُ بنُ مَعْدانَ: إنَّ في الجنة شجرةً يقال لها طُوبى، لها ضروعٌ، كُلُّها تُرضِع صبيانَ أهل الجنة، وإنَّ سقْطَ المرأة يكونُ في نهر من أنهار الجنةِ، يُتَقلَّب فيه حتى تقوم القيامة، فيُبعثُ ابن أربعين سنة. رواه ابن أبي حاتم.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

يقولُ تعالى: وكما أرسلناك ـ يا محمدُ ـ في هذه الأمّةِ ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: تُبلّغهم رسالةَ الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرةِ بالله، وقد كُذّب الرسلُ من قَبلك، فلك فيهم أسوةٌ، وكما أوقعنا بأسنا ونِقْمَتَنا بأولئك، فَليحذرْ هؤلاء من حُلول النِّقَم بهم، فإنَّ تَكذيبهم لك أشدُّ من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤]، أي: كيفَ نصرناهم، وجعلنا العاقبةَ لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة. وقولُه: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾، أي: هذه الأمةُ التي بعثناك فيهم يَكفُرون بالرحمن لا يقرُّون به لأنَّهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أَنِفوا يوم الحديبية أن يكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم؟! قاله قتادة. والحديثُ في صحيح البخاريِّ، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

[٣٩٥٦] وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عُمَر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن أحبَّ الأسماء إلى الله تعالى عبد اللهِ وعبد الرحمن»(٣). ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: هذا الذي تكفُرون به أنا مؤمنٌ به مُعترفٌ مقرٌ له بالربوبية والإلهية هو رَبِّي لا إله إلا هو، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: في جَميع أموري، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: إليه أرجع وأُنيب، فإنه لا يستحقُّ ذلك أحدٌ سواه.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٨٤٣٧ ـ ٨٤٣٨ ومسلم ١٨٢ وأحمد ٢/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦ وابن حبان ٧٤٢٩ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد مطوّلاً.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٧٧ والبخاري في «الأدب المفرد» ٤٩٠ وأحمد ٥/ ١٦٠ وابن حبان ٦١٩.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢١٣٢ وأبو داود ٤٩٤٩ والترمذي ٢٨٣٥ وابن ماجه ٣٧٢٨.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

يقولُ تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ومُفضِّلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾، أي: لو كان في الكتبِ الماضية كتابٌ تُسَيَّرُ به الجبالُ عن أماكنها، أو تُقطَّع به الأرضُ وتَنشقُّ، أو تُكَلَّم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآنُ هو المتَّصِفَ بذلك دُون غيره، أو بطريقِ الأولى أن يكون كذلك، لما فيه من الإعجازِ الذي لا يَستطِيع الإنسُ والجنُّ عن آخرهم إذا اجتمَعُوا أن يأتوا بمثلِهِ، ولا بسورةٍ من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافِرُون به جَاحِدُون له، ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، أي: مرجعُ الأمورِ كُلِّها إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما شاء الله كانَ، وما لم يَشَأْ لم يكن، ومن يُضلِلِ الله فلا هاديَ له، ومن يَهدِ الله فلا مُضلَّ له. وقد يُطلَق اسمُ القرآنِ على كلٍّ من الكتب المتقدمة، لأنه مشتق من الجميع.

[٣٩٥٧] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزَّاق، حدثنا معمَرٌ، عن همام بن مُنبِّه قال: هذا ما حَدَّثنا أبو هُرَيرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خففت على داودَ القراءةُ فكان يأمرُ بدابَّته أن تُسرَجَ، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تُسرَج دابته، وكان لا يأكل إلا من عَمل يديه»[١]. انفرد بإخراجه البخاري. والمرادُ بالقرآن هنا الزَّبُورُ. وقولُ: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، أي: من إيمانِ جَميع الخلق ويعلَمُوا أو يتبيَّنُوا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، فإنه ليس ثَمَّ حجةٌ ولا مُعجزَةٌ أبلغ ولا أنجعُ في النفوس والعقولِ من هذا القرآن، الذي لو أنزله الله على جَبَل لرأيته خاشعاً مُتَصَدِّعاً من خَشْيَةِ الله.

[٣٩٥٨] وثَبَت في الصَّحِيح أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما من نبيٍّ إلا وقد أوتي ما آمَن على مثله البشرُ، وإنما كان الذي أوتيتُه وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجُوا أن أكُونَ أكثرَهم تابعاً يوم القيامة»[٢]. معناه أن مُعجزَةَ كُلِّ نبيٍّ انقرضت بموته، وهذا القرآن حجَّةٌ باقية على الآباد، لا تنقضي عجائبُه، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الردِّ، ولا يشبَعُ منه العلماءُ، هو الفصلُ ليس بالهَزل. من تَرَكه من جَبَّار قَصَمه الله، ومن ابتغَى الهُدَى في غيرِه أضَلَّه الله.

[٣٩٥٩] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا مُنجاب بن الحارث، أنبأنا بشر بن عُمَارة، حدثنا عُمَر بن حَسَّان، عن عطيَّةَ العَوْفيِّ قال: قلتُ له: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾... الآية، قالوا لمحمد ﷺ: لو سُيِّرت لنا جبالُ مكة حتى تَتَّسِع فَنَحرُث فيها، أو قُطِّعت لنا الأرض كما كان سُلَيمان يقطَع لقومه بالرِّيح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يُحيي الموتَى لِقَومه؟ فأنزلَ الله هذه الآيةَ. قال: قلت: هل تَروُون هذا الحديثَ عن أحد من أصحاب النبيِّ ﷺ؟ قال: نعم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ[٣]. وكذا رَوَى ابن عباس، والشعبيُّ، وقتادةُ، والثوريُّ، وغير واحد في سَبَبِ هذه الآية، فالله أعلم. وقال قتادةُ: لو فُعِلَ هذا بِقرآنٍ غير قرآنِكم فُعِلَ بقرآنكم.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤١٧ وأحمد ٢/ ٣١٤ وابن حبان ٦٢٢٥.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية ٢٤.

(٣) إسناده ضعيف، لضعف عطية بن سعد العوفي، روىٰ مناكير كثيرة. وأسنده الطبري ٢٠٣٩٨ عن ابن عباس من قوله، وفيه عطية العوفي أيضاً.

وقولُه تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، قال ابن عباس: أي لا يصنَعُ من ذلك إلا ما يَشاءُ، ولم يكُن لِيفعَلَ. رواه ابن إسحاق بسنده عنه، وقاله ابنُ جَرِيرٍ أيضاً. وقال غيرُ واحد من السَّلَفِ في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾، أفَلم يعلم الذين آمنُوا. وقرأ آخرون: «أفلم يَتبيَّن الذين آمنُوا أن لو يشاءُ الله لهدَى الناسَ جميعاً». وقال أبو العالية: قد يَئِس الذين آمنوا أن يهدُوا، ولو يشاءُ الله لهدَى الناسَ جميعاً. وقولُه: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، أي: بسبب تكذيبهم لا تزالُ القوارعُ تُصيبهم في الدنيا، أو تُصيب مَن حولهم ليتَّعظُوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٧﴾ [الأحقاف: ٢٧]، وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]. قال قتادةُ، عن الحسن: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، أي: القارعة. وهذا هو الظاهر من السياق.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعوديُّ، عن قتادةَ عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾، قال: سَرِيَّةٌ، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، قال: محمد ﷺ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾، قال: فتح مكة. وهكذا قال عكرمة، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، في رواية. وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾، قال: عذابٌ من السماء ينزِلُ عليهم، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، يعني نزولَ رسول الله ﷺ بهم، وقتالَه إيّاهم. وكذا قال مجاهد، وقتادةُ. وقال عكرمة ـ في رواية عنه ـ عن ابن عباس: ﴿قَارِعَةٌ﴾، أي: نَكْبَةٌ. وكلُّهم قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾، يعني فتحَ مكة، وقال الحسن البصري: يومَ القيامة. وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي: لا ينقضُ وعدَه لِرُسلِه بالنُّصرة لهم ولأتباعهم في الدُّنيا والآخرة، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤٧﴾ [إبراهيم: ٤٧].

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٣٢﴾

يقولُ تعالى مُسَلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كَذَّبه من قومه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، أي: فَلَك فيهم أسوةٌ، ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: أنظرتهم وأجلتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أخذةَ رابيةً فكيف بلغك ما صنعتُ بهم وعاقبتهم؟ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝٤٨﴾ [الحج: ٤٨].

[٣٩٦٠] وفي الصحيحَين: «إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذَه لم يُفلِته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود: ١٠٢][1].

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾

يقولُ تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾، أي: حفيظٌ عليمٌ رقيبٌ على كلِّ نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العامِلُون من خيرٍ وشرٍّ، ولا يخفى عليه خافيةٌ، ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود: ٦]، وقال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ [الرعد:

---

(١) الحديث سبق فيها عن أبي موسى.

١٠]، وقال: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]. . . أفمن هو هكذا كالأصنام التي يَعبدُونها، لا تسمع ولا تُبصِرُ ولا تَعقِل، ولا تملِكُ نفعاً لأنفسِها ولا لِعَابِدِيها، ولا كَشْفَ ضُرٍّ عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه، وهو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، أي: عَبَدُوها معه، من أصنام وأندادٍ وأوثانٍ. ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾، أي: أعلِمُونا بهم، واكشِفُوا عنهم حتى يُعرَفُوا، فإنهم لا حقيقةَ لهم، ولهذا قال: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: لا وجود لها، لأنه لو كان لها وجودٌ في الأرض لعلمها، لأنه لا تخفى عليه خافيةٌ. ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾، قال مجاهد: بظَنٍّ من القول. وقال الضحاك وقتادةُ: بباطلٍ من القولِ. أي: إنما عبدتُم هذه الأصنامَ بِظَنٍّ منكم أنها تنفعُ وتَضرُّ وسميتموها آلهة، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣]، ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾، قال مجاهدٌ: قولهم. أي: ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليلِ وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَـٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]، ﴿وَصُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، مَن قرأها بفتح الصاد، معناه أنهم لما زُيِّن لهم ما فيه وأنه حَقٌّ دَعَوا وصَدُّوا الناسَ عن اتباع طريق الرسل، ومن قرأها: ﴿وَصُدُّوا﴾، أي: بما زُيِّن لهم من صحّة ما هم عليه صُدُّوا به عن سبيلِ الله، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، كما قال: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١] وقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

ذَكَر تعالى عقاب الكُفار وثوابَ الأبرار، فقال بعد إخباره عن حالِ المشركين وما هُم عليه من الكُفر والشِّرك: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، أي: المدّخَرُ مع هذا الخِزي في الدنيا ﴿أَشَقُّ﴾، أي: من هذا بكثير.

[٣٩٦١] كما قال رسول الله ﷺ للمُتَلاعنَين: «إنَّ عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة»[1]. وهو كما قال صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ فإنَّ عذابَ الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبداً في نارٍ هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً ووثاقٍ لا يُتصوَّر كثافته وشدّتُه، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٥ ـ ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الفرقان: ١١ ـ ١٥]. ولهذا قَرَن هذا بهذا، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، أي: صِفتُها ونعتُها، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾، أي: سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيثُ شاء أهلُها، يُفَجِّرونها تفجيراً، أي: يُصَرِّفونها كيف شاؤوا وأين شاؤوا كما قال

(١) يأتي في مطلع سورة النور إن شاء الله.

تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقولُه تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾، أي: فيها المطاعِمُ والفَوَاكِه والمَشَارِبُ، لا انقطاعَ ولا فناءَ.

[٣٩٦٢] وفي الصَّحيحَين، من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسولَ الله، رأيناك تناولتَ شيئاً في مقامِكَ هذا، ثم رأيناك تَكَعْكعتَ[1] فقال: «إني رَأيت الجَنَّةَ ـ أو: أُرِيتُ الجنَّةَ ـ فتناولتُ منها عنقوداً، ولو أخذتُه لأكلتم منه ما بَقِيت الدُّنيا»[2].

[٣٩٦٣] وقال الحافظُ أبو يعلَى: حدثنا أبو خَيْثَمَةَ، حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عُبَيد الله، حدثنا أبو عَقِيل، عن جابر قال: بينما نحنُ في صلاة الظهر إذ تَقَدم رسولُ الله ﷺ فتقدّمنا، ثم تناول شيئاً ليأخذَه ثم تأخَّر. فلما قَضَى الصَّلاة قال له أُبَيُّ بن كعب: يا رسولَ الله، صنعتَ اليومَ في الصلاةِ شيئاً ما رأيناكَ كنتَ تصنَعُه. فقال: إني عُرِضَت عَلَيَّ الجنةُ وما فيها من الزَّهْرَةِ والنَّضْرَة، فتناولت منها قِطْفاً من عِنَبٍ لآتيكم به، فَحِيلَ بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه مَن بين السماء والأرض، لا يَنْقُصُونه»[3]. وروى مسلم من حديث أبي الزبير، عن جابر، شاهداً لِبَعضِهِ.

[٣٩٦٤] وعن عُتبة بن عَبدِ السُّلَمي: أن أعرابياً سألَ النبيَّ ﷺ عن الجنَّةِ، فقال: فيها عِنَبٌ؟ قال: «نعم». قال: فما عِظَمُ العنقود؟ قال: «مسيرةُ شهر للغُرَاب الأبقع لا ينثني ولا يفتر»[4]. رواه الإمام أحمد.

[٣٩٦٥] وقال الطبراني: حدثنا مُعَاذ بن المثنى، حدثنا علي بن المديني، حدثنا ريحانُ بن سعيد، عن عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبي قِلَابَةِ، عن أبي أسماءَ، عن ثوبانَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرجلَ إذا نَزَع ثمرةً من الجنَّةِ عادت مكانها أخرى»[5].

[٣٩٦٦] وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يأكلُ أهلُ الجنة ويشربُون، ولا يمتَخطُون ولا يَتَغوَّطون ولا يبولون، طعامهم ذلك جُشَاء كريح المسك، ويُلهَمُون التسبيح والتَّقْدِيسَ كما يُلهَمُون النفَسَ»[6]. رواه مسلم.

[٣٩٦٧] وروى الإمامُ أحمد والنسائيُّ، من حديث الأعمش، عن ثُمامة بن عُقبةَ، سَمِعتُ زيدَ بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتابِ فقال: يا أبا القاسم، تزعُم أنَّ أهل الجنة يأكُلون ويَشرَبُون؟ قال: «نعم، والذي نفسُ محمد بيَدِه، إن الرجل منهم ليعطى قُوَّة مئة رجل في الأكل والشرب والجمَاع والشهوة». قال:

---

(١) أي أحجمت وتأخرت إلى الوراء.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٠٥٢ و ٥١٩٧ ومسلم ٩٠٧ وأحمد ١/ ٢٩٨ وابن حبان ٢٨٣٢.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٣٥٣ بأتم منه ويشهد له ما قبله.

(٤) أخرجه أحمد ٤/ ١٨٣ ـ ١٨٤ والطبراني ٨٢٠٨ مطولاً، قال الهيثمي في «المجمع» ١٨٧٢٧: فيه عامر بن زيد البكالي، ذكره ابن أبي حاتم من غير جرح ولا تعديل، وبقية رجاله ثقات اهـ فالحديث غير قوي، عامر شبه مجهول، والله أعلم.

(٥) أخرجه الطبراني ١٤٤٩ والبزار ٣٥٣٠ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٤١٤ وقال: رواه الطبراني والبزار إلا أنه قال: «عيد في مكانها مثلاها» ورجال الطبراني وأحد إسنادي البزار ثقات اهـ.

(٦) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٣٥ وأبو داود ٤٧٤١ وأحمد ٣/ ٣١٦ وابن حبان ٧٤٣٥.

فإن الذي يأكلُ ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذىً؟ قال: حاجةُ أحدِهم رَشْحٌ يَفِيض من جلودهم كريح المسك، فَيَضمُرُ بطنُه»(١).

[٣٩٦٨] وقال الحسنُ بن عَرَفَة: حدثنا خَلَف بن خَليفة، عن حُمَيدِ الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبدُ الله بن مسعودِ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «إنك لتنظرُ إلى الطير في الجنة، فَيَخِرُّ بين يديكَ مشوياً»(٢).

[٣٩٦٩] وجاء في بعض الأحاديث: «أنه إذا فُرِغَ منه عاد طائراً كما كان بإذن الله تعالى»(٣). وقد قال الله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۝٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ۝٣٣﴾ [الواقعة: ٣٢ ـ ٣٣]، وقال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ۝١٤﴾ [الإنسان: ١٤]. وكذلك ظِلُّها لا يَزُولُ ولا يَقْلِصُ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ۝٥٧﴾ [النساء: ٥٧].

[٣٩٧٠] وقد تَقَدَّم في الصحيحَين من غير وجه أن رسولَ الله ﷺ قال: «إن في الجنَّة شجرةً يسيرُ الراكبُ المجدّ الجَوادَ المُضمَّرَ السريعَ في ظلها مئة عام لا يقطعُها»، ثم قرأ: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ۝٣٠﴾(٤).

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صِفةِ الجنة وصِفَة النار، لِيُرغِّبَ في الجنة ويُحَذِّر من النار، ولهذا لما ذكر صفةَ الجنة بما ذكر قال بعده: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾ [الحشر: ٢٠]. وقال بلالُ بنُ سعد خطيبُ دمشق في بعض خطبه: عبادَ الله، هل جاءكم مُخبِرٌ يُخبرُكم أنَّ شيئاً من عبادتكم تُقُبِّلَت منكم، أو أنَّ شيئاً من خطاياكم غُفِرت لكم؟ ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون: ١١٥]، والله لو عُجِّلَ لكم الثوابُ في الدنيا لاستقللتُم كُلُّكم ما افترض عليكم، أَوَ ترغبون في طاعة الله لِتَعجيل دنياكم، ولا تنافسون في جنة ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ۝٣٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ۝٣٧﴾

يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وهم قائمون بمقتضاه، ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، أي: من القرآن لما في كُتُبهم من الشَّواهِد على صدقه والبِشارة به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» ١١٤٧٨ وأحمد ٤/٣٦٧.

(٢) أخرجه البزار ٣٥٣٢ وابن المبارك في «الزهد» ١٤٥٢ والبيهقي في «البعث» ٣١٨ من حديث ابن مسعود، قال الهيثمي في «المجمع» ١٨٧٣٤: فيه حميد بن عطاء الأعرج ضعيف.
وذكره المنذري في «الترغيب» ٥٥٠٨ وعزاه لابن أبي الدنيا عن أبي أمامة موقوفاً، وكرره ٥٥٠٩ عن ميمونة مرفوعاً، وعزاه لابن أبي الدنيا، وكذلك ٥٥١٠ عن أبي سعيد مرفوعاً وقال: قد حسن الترمذي إسناده لغير هذا المتن اهـ، فهذا وإن كان فيه ضعف، فلعله يتقوى بما ذكر المنذري، والله أعلم.

(٣) هو طرف حديث. عزاه المنذري في «ترغيبه» ٥٥٠٩ لابن أبي الدنيا من حديث ميمونة. انظر تخريج الحديث السابق.

(٤) تقدم عند آية: ٢٩ من هذه السورة.

يَتْلُونَهُۥ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة: ١٢١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]، أي: إنْ كان ما وَعَدنا الله به في كتبنا من إرسالِ محمدٍ ﷺ لحقاً وصِدقاً مفعولاً لا محالَةَ وكائناً، فسبحانه ما أصدقَ وعدَه! فله الحمدُ وحدَه، ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٩]. وقولُه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾، أي: ومن الطَّوائِفِ من يُكذِّب ببعض ما أُنزلَ إليك. وقال مجاهدٌ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾: اليهودِ والنَّصارى مَن يُنكِر بعضَ ما جاءك من الحقِّ. وكذا قالَ قتادةُ، وعبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ. وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾، أي: إنما بُعِثتُ بعبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له كما أرسِلَ الأنبياء من قبلي، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾، أي: إلى سبيله أدعو الناسَ، ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾، أي: مَرْجِعي ومَصِيري.

وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، أي: وكما أرسلنا قبلَكَ المرسلين، وأنزلنا عليهم الكُتُب من السَّماءِ، كذلك أنزلنا عليكَ القرآن مُحكماً مُعرَباً، شرّفناك به وفَضّلناك على مَن سِواك بهذا الكِتاب المُبين الواضح الجَليّ الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، وقولُه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾، أي: آراءهم، ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، أي: مِنَ الله تعالى، ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾. وهذا وعيدٌ لأهل العلم أن يَتّبعوا سُبُل أهل الضَّلالَةِ بعدما صاروا إليه من سُلُوك السنة النبويّة والمحجّةِ المُحمّدية، على مَن جاء بها أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾

يقولُ تعالى: وكما أَرسلناك ـ يا محمدُ ـ رسولاً بشَرِيّاً كذلك بعثنا المُرسَلين قبلك بَشراً يأكُلون الطعام، ويمشُونَ في الأسواق ويأتونَ الزوجات، ويُولَد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذُرّيّةٍ، وقد قال تعالى لأشرف الرُسل وخاتمهم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [فصلت: ٦].

[٣٩٧١] وفي الصَحيحَينِ أَنّ رسولَ الله ﷺ قال: «أما أنا فأصومُ وأفطِرُ، وأقومُ وأنامُ وآكل الدَّسَم، وأتزوجُ النساء، فمَن رَغِب عن سنتي فَليس مِنّي»(١).

[٣٩٧٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيدُ، أنبأنا الحجاجُ بن أرطاةَ، عن مكحولٍ قال: قال أبو أَيُّوبَ: قَال رسول الله ﷺ: «أربعٌ من سُنَن المُرسَلِين: التَّعطُّر، والنِّكاح، والسِّواك، والحِنّاء»(٢). وقد رواه أبو

---

(١) تقدم.

(٢) إسناده ضعيف، أخرجه الترمذي ١٠٨٠ وأحمد ٥/ ٤٢١ من حديث أبي أيوب، وإسناده ضعيف، مكحول عن أبي أيوب منقطع، وحجاج بن أرطاة اختلط بأخره فترك لأجل ذلك، وروي موصولاً بذكر أبي الشمال وهو مجهول، وفيه حجاج أيضاً، ومع ذلك حسنه الترمذي.

تنبيه: لفظ «الحِناء» وقع في «الترغيب» ٣٢٥ «الختان» وعزاه للترمذي، ووقع في مسند أحمد ٥/ ٤٢١ ح ٢٣٠٦٩ «الحياء» وكذا وقع في جامع الأصول ٩٣٢٢ وعزاه للترمذي.

عيسى التِّرمِذيُّ، عن سفيانَ بن وكيع، عن حَفص بن غياثٍ، عن الحجّاج، عن مكحولٍ، عن أبي الشِّمال، عن أبي أيّوبَ. . . فذكره، ثم قال: وهذا أصحُّ من الحديثِ الذي لم يذكر فيه أبو الشِّمال.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أي: لم يكن يأتي قومَه بخارقٍ إلا إذا أذِنَ له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ يفعلُ ما يشاءُ، ويحكُم ما يُريدُ. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، أي: لكُل مُدّة مضرُوبةٍ كتابٌ مكتوبٌ بها، وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾ [الحج: ٧٠]. وكان الضحاكُ بن مُزاحِم يقولُ في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، أي: لِكُلِّ كتابٍ أَجَلٌ، يعني لكلِّ كتابٍ أنزله من السماء مدةٌ مضروبةٌ عند الله ومقدارٌ مُعين، فلِهذا يمحُو ما يشاء منها ويُثبت. يعني حتى نُسخت كلُّها بالقرآنِ الذي أنزله الله على رسوله، صلواتُ الله وسلامُه عليه. وقولُه: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، اختلف المفسرون في ذلك، فقال الثوريُّ، ووكيعٌ، وهُشَيم، عن ابن أبي ليلى، عن المِنهال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عَبّاس: يُدبِّر أمر السَّنةِ، فَيَمحُو ما يشاء، إلا الشَّقاء والسعادة، والحياةَ والموت. وفي رواية: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، قال: كلُّ شيءٍ إلا الحياةَ والموت، والشقاء والسعادةَ، فإنهما قد فُرغ منهما.

وقال مجاهد: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، إلا الحياةَ والموتَ، والشَّقاء والسَّعادةَ، فإنهما لا يَتَغيَّران. وقال منصورٌ: سألتُ مجاهداً فقلتُ: أرأيتَ دعاء أحدِنا يقول: اللهم إن كان اسمي في السُّعداء فأثبته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحُه عنهم، واجعله في السعداء، فقال: حَسَن. ثم لقيته بعد ذلك بحولٍ أو أكثرَ، فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٣ ـ ٤]، قال: يَقضي في ليلة القدر ما يكون في السنَة من رِزقٍ أو مُصيبة، ثم يُقدِّم ما يشاء ويُؤخِّر ما يشاء، فأما كتاب الشقاوةِ والسعادةِ فهو ثابتٌ لا يُغيَّرُ. وقال الأعمشُ، عن أبي وائل شَقِيقِ بن سَلَمةَ: إنه كان يُكثِرُ أن يدعُوَ بهذا الدعاء: اللهمَّ إن كنتَ كتبتنا أشقياء فامحه، واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداءَ فأثبِتنا، فإنّك تمحُو ما تشاءُ وتُثبتُ وعندك أمُّ الكتاب. رواه ابن جرير.

وقال ابنُ جرير أيضاً: حدثنا عَمرو بن علي، حدثنا مُعاذ بن هشام، حدثني أبي، عن أبي حكيمة عصْمة، عن أبي عثمان النَّهدِيّ: أن عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال وهو يَطُوف بالبيت، وهو يَبكي: اللهمَّ، إن كنتَ كتبتَ عَلَيَّ شِقوةً أو ذنباً فامحه، فإنك تمحُو ما تشاء وتُثبت، وعندك أمُّ الكتاب، فاجعله سعادةً ومَغفِرةً. وقال حَمّاد، عن خالد الحَذّاء، عن أبي قِلابَةَ، عن ابن مسعود: أنه كان يدعُو بهذا الدعاء أيضاً. ورواه شَريك، عن هلال بن حُمَيد، عن عبد الله بن عُكَيْم، عن ابن مسعود، بمثله. وقال ابنُ جرير: حَدَّثني المثنّى، حدثنا حجّاجٌ، حدثنا حَمّاد، عن أبي حمزةَ، عن إبراهيم: أن كعباً قال لِعُمَر بن الخطاب: يا أميرَ المؤمنين، لولا آيةٌ في كتاب الله لأنبأتُكَ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة[1]. قال: وما هي؟ قال: قال الله تعالى: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾. ومعنى هذه الأقوالِ أنّ الأقدارَ ينسخُ الله ما يشاءُ منها، ويُثبِتُ منها ما يشاءُ.

[٣٩٧٣] وقد يُستأنَسُ لهذا القولِ بما رَواه الإمام أحمد: حدثنا وكيعٌ، حدثنا سفيانُ ـ وهو الثّوريُّ ـ عن

وهذا الاضطراب إما من بعض الرواة أو من حجاج نفسه، فإنه اختلط كما تقدم، والله أعلم. ولفظ «الجِناء» هو الأبعد، والأقرب «الختان» وعلى هذا فللحديث شواهد تعضده، والله أعلم.

(١) قول كعب باطل مردود، فإنه ادعاء بعلم الغيب، ولعله لا يصح عنه، أبو حمزة هو ميمون، متروك.

عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبي الجَعْدِ، عن ثوبانَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الرجلَ لَيُحرَمُ الرِّزقَ بالذنبِ يُصِيبه، ولا يردُّ القَدَرَ إلا الدعاءُ، ولا يَزيدُ في العمرِ إلا البرُّ»[1]. ورواه النَّسائي وابنُ ماجَه، من حديث سفيانَ الثوريِّ، به.

[٣٩٧٤] وثَبَت في الصحيح أنَّ صِلَةَ الرَّحمِ تَزيدُ في العُمُر.

[٣٩٧٥] وفي الحديث الآخر: «إن الدُّعاء والقَضَاء لَيَعتَلِجانِ بين السماء والأرض»[2].

وقال ابنُ جرير: حَدَّثني محمد بن سَهل بن عَسْكَرٍ، حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا ابن جُرَيج، عن عَطَاءٍ، عن ابن عباس قال: إن لله لوحاً محفوظاً مسيرةَ خمسمئة عام، من دُرَّةٍ بيضاءَ لها دَفَّتان من ياقوت ـ والدفتان: لوحان ـ لله ـ عز وجل ـ كل يوم ثلاثمئة وستون لحظة، ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾.

[٣٩٧٦] وقال الليثُ بن سعدٍ، عن زيادةَ بن محمد، عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ، عن فَضَالة بن عُبَيد، عن أبي الدَّرداءِ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن الله يفتح الذِّكر في ثلاث ساعات يَبْقَين من الليل، في الساعة الأولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحدٌ غيره، فيمحُو ما يشاء ويُثبِت»[3]. وذكر تَمَام الحديث. رواه ابن جرير.

[٣٩٧٧] وقال الكلبيُّ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، قال: يمحُو من الرزق ويَزيد فيه، ويمحُو من الأجلِ ويَزيد فيه، فقيل له: من حَدَّثك بهذا؟ فقال: أبو صالح، عن جابر بن عبد الله بن رِئَاب، عن النبيِّ ﷺ. ثم سُئِل بعد ذلك عن هذه الآية فقال: يُكتَب القولُ كلُّه، حتى إذا كان يومُ الخميس طُرِح منه كلُّ شيءٍ ليسَ فيه ثوابٌ ولا عقابٌ، مثلُ قولك: أكلتُ وَشَرِبتُ، دخلتُ خرجتُ ونحوُه من الكلام، وهو صادق، ويُثبِت ما كان فيه الثوابُ، وعليه العقابُ. وقال عكرمَةُ، عن ابن عباس: الكتابُ كتابان، فكتابٌ يمحو الله منه ما يشاء ويُثبِت، وعنده أمُّ الكتاب[4].

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾، يقول: هو الرجلُ يعمَلُ الزمانَ بطاعةِ الله، ثم يَعُودُ لمعصيةِ الله فيموتُ على ضَلالَةٍ، فهو الذي يمحُو. والذي يُثبِتُ الرجلُ يعمَلُ بمعصية الله، وقد كان سبق له خيرٌ حتى يموتَ وهو في طاعةِ الله، فهو الذي يُثبِتُ. ورُوِي عن سعيد بن جُبَير أنها بمعنى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، يقول: يُبَدِّل ما يشاء فينسَخُه، ويثبت ما يشاء فلا يُبَدِّله، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾، يقول: وجُملةُ ذلك عنده في أم الكتاب، الناسخُ والمنسوخُ، وما يُبَدَّلُ وما يثبت، كُلُّ ذلك في كتاب. وقال قتادةُ في قوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾: كقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٤٠٢٢ وابن أبي شيبة ١٠/ ٤٤١ ـ ٤٤٢ والطبراني ١٤٤٢ والحاكم ١/ ٤٩٣ والقضاعي ١٠٠١ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده حسن اهـ قلت: ورجاله ثقات كلهم رجال الشيخين سوى عبد الله بن أبي الجعد، وهو مقبول كما في «التقريب»، وفي «الميزان»: فيه جهالة. فالخبر غير قوي.

(٢) يأتي في سورة غافر إن شاء الله تعالى.

(٣) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٠٥٠٢ و ٢٠٥٠٣ من حديث أبي الدرداء. وإسناده ضعيف لضعف زيادة بن محمد، والمتن غريب.

(٤) باطل، الكلبي هو محمد بن السائب متروك كذبه غير واحد. وأبو صالح اسمه باذام ضعيف روى موضوعات، أخرجه الطبري ٢٠٤٨٧.

ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]. وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد في قولِه: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، قال: قالت كفارُ قريش حين أنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ما نَراك يا محمدُ تَمْلِك من شيءٍ، ولقد فُرِغ من الأمر. فأنزلت هذه الآيةُ تخويفاً ووَعِيداً لهم: إنا إن شِئنا أَحْدَثنا له من أمرِنا ما شِئنا، ونحدِث في كلِّ رمضان، فَنَمحُو ونُثبِتُ ما نشاء من أرزاقِ الناسِ ومَصَائِبِهم، وما نُعطِيهم وما نقسم لهم. وقال الحسن البصري: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، قال: من جاء أجلُه، فَذَهب، ويُثبِتُ الذي هو حَيٌّ يجرِي إلى أجله. وقد اختار هذا القول أبو جعفر بنُ جَرِير رَحِمَه الله. وقولُه: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾، قال: الحَلال والحرام. وقال قتادةُ: أي جملةُ الكتابِ وأصلُه. وقال الضحّاكُ: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾، قال: كتابٌ عند ربِّ العالمين. وقال سُنَيد بن داود، حدثني مُعتمِرٌ، عن أبيه، عن سَيّار، عن ابن عباس: أنه سأل كعباً عن ﴿أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾ فقال: علم الله ما هو خالِقٌ وما خَلقُه عاملون، ثم قال لِعلمِه: كن كتاباً. فكان كتاباً. وقال ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾، قال: الذكر.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى لرسوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمدُ ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾، أي: نَعِدُ أعداءَك من الخِزْيِ والنَّكالِ في الدنيا، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ﴾، أي: إنما أرسلناك لِتُبلِّغهم رسالةَ الله، وقد بَلَّغت ما أُمِرْتَ به، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾، أي: حِسَابُهم وجزاؤُهم، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٦]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، قال ابن عباس: أَوَ لم يَرَوا أنا نفتحُ لِمُحمَّدٍ ﷺ الأرضَ بعد الأرض؟ وقال في رِوَايةٍ: أَوَ لم يَرَوا إلى القرية تخرَبُ حتى يكونَ العمران في ناحيةٍ؟ وقال مجاهدٌ وعِكرِمةُ: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، قال: خَرَابها. وقال الحسن والضحّاكُ: هو ظهورُ المسلمين على المشركين. وقال العوفي، عن ابن عباس: نُقصان أهلِها وبَرَكَتِها. وقال مجاهد: نقصانُ الأنفس والثَّمرات وخَرَابُ الأرض. وقال الشعبيُّ: لو كانت الأرضُ تنقصُ لَضَاق عليك حُشُك، ولكن تنقصُ الأنفسُ والثمراتُ. وكذا قال عكرمةُ: لو كانت الأرض تنقُص لم تجد مكاناً تقعُ فيه، ولكن هو الموتُ. وقال ابن عباس في رواية: خَرَابها بموت فُقَهائها وعُلَمائها وأهلِ الخير منها. وكذا قال مجاهدٌ أيضاً: هو مَوْتُ العُلَمَاءِ. وفي هذا المعنى رَوَى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبي القاسم المِصْري الواعظ، سكن أصبهان: حَدَّثنا أبو محمد طلحةُ بن أَسَدِ الرَّقِّي بدمشق، أنشدنا أبو بكر الآجُرِّي بمكة قال: أنشدنا أحمدُ بن غزال لنفسه:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالِمُها ... مَتَى يمُتْ عالمٌ منها يمُت طَرَفُ
كالأرض تَحيَا إذا ما الغيثُ حَلَّ بها ... وإن أبى عادَ في أكنافِها التلَفُ

والقولُ الأول أولى، وهو ظهورُ الإسلام على الشرك قريةً بعدَ قريةٍ. كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ [الأحقاف: ٢٧] الآية. وهذا اختيار ابن جرير.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برُسُلِهم، وأرادُوا إخراجَهم من بلادهم، فمَكر الله بهم، وجَعَل العاقِبَة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٥٠ - ٥٢]... الآية. وقولُه: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾، أي: أنّه تعالى عالمٌ بجميع السَّرائِر والضَّمائِر، وسَيَجزي كُلَّ عاملٍ بعَمَلِه. ﴿وَسَيَعْلَمُ الكَافِرُ﴾ - وقرىء: الكفار - ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، أي: لمن تكون الدائرة والعاقبةُ، لهم أو لأتباعِ الرسُل؟ كَلاً، بل هي لأتباعِ الرسُلِ في الدنيا والآخرة، ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

يقولُ تعالى: ويُكَذِّبك هؤلاء الكفارُ ويقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾، أي: ما أرسلك الله. ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: حَسْبِيَ الله، وهو شاهدُ عليَّ وعليكم، شاهدٌ عليَّ فيما بلغتُ عنه من الرسالةِ، وشَاهدٌ عليكم أيها المُكَذِّبون فيما تَفترُونه من البهتان. وقولُه: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾، قيل: نَزلت في عبد الله بن سَلاَم. قاله مجاهد. وهذا القولُ غريبٌ؛ لأن هذه الآية مكيَّةٌ وعبد الله بن سَلاَم إنما أسلم في أول مَقْدَم رسول الله ﷺ المدينةَ. والأظهر في هذا ما قاله العَوْفيُّ، عن ابن عباس قال: هم مِنَ اليهودِ والنَّصارى. وقالَ قتادةُ: منهم ابن سَلاَم، وسلمانُ، وتَميمٌ الداريُّ. وقال مجاهد - في رواية - عنه: هو الله تعالى. وكان سعيد بن جبير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سَلاَم، ويقولُ: هي مكيَّةٌ، وكان يَقرؤُها: «ومِنْ عِنْدِه علم الكتاب»، ويقول: من عند الله. وكذا قرأها مجاهد والحسن البصري.

[٣٩٧٨] وقد رَوَى ابن جرير من حديث هارونَ الأعور، عن الزهريِّ، عن سالم، عن ابن عُمَر: أن رسولَ الله ﷺ قرأها: «ومِنْ عِنْدِه علم الكتاب»[١]. ثم قال: لا أصل له من حديث الزهريِّ عند الثقات.

قلتُ: وقد رَوَاه الحافظُ أبو يعلى في مُسنَدِه، من طريق هارونَ[٢] بن موسى هذا، عن سليمانَ بن أرقم - وهو ضعيفٌ - عن الزُهريِّ، عن سالم، عن أبيه مرفوعاً كذلك[٣]. ولا يَثْبتُ، والله أعلم. والصحيحُ في هذا: أن ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾، اسمُ جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يَجدُون صفةَ محمد ﷺ وَنَعْتَه في كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياءِ به، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]... الآية، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٧]... الآية. وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن عُلَماء بني إسرائيل: أنهم يَعْلَمون ذلك من كُتُبهم المنزَّلة. وقد وَرَد في حديث الإخبارُ عن عبد الله بن سَلاَم بأنه أسلم بمكَّة قبل الهجرةِ، قال الحافظُ أبو نُعَيم الأصبهانيُّ في كتابِ «دلائل النبوَّة» وهو كتابٌ جَليلٌ:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠٥٥٨، وانظر ما بعده.

(٢) كذا وقع في سائر النسخ، والذي في مسند أبي يعلى «عبد الرحيم بن موسى».

(٣) ضعيف، أخرجه أبو يعلى ٥٥٧٤ من حديث ابن عمر وفيه سليمان بن أرقم متروك قاله في «المجمع» ٧/ ١٥٥، وكذا ضعف هذا الحديث السيوطي في «الدر» ٤/ ٦٩ وزاد نسبته لابن مردويه.

[٣٩٧٩] حدثنا سُليمان بن أحمد الطَّبَرانيُّ، حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا محمد بن مُصَفّى، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن حمزةَ بن يوسفَ بن عبد الله بن سَلاَم، عن أبيه: أن عبد الله بن سلام أنه قال لأحبار اليهود: إني أردت أن أجَدِّد بمسجدِ أبينا إبراهيمَ وإسماعيلَ عهداً. فانطَلَقَ إلى رسول الله ﷺ وهو بمكَّة، فوافاهم وقد انصَرفُوا من الحجِّ، فوجَد رسولَ الله بمنى، والناسُ حولَه، فقامَ مع الناس، فلما نَظَرَ إليه رسولُ الله ﷺ قال: أنت عبد الله بن سَلاَم؟ قال قلتُ: نعم. قال: «ادنُ». فدنوتُ منه، قال: «أَنشُدكَ بالله يا عبدَ الله بن سَلاَم، أما تَجِدُني في التوراةِ رسولَ الله؟» فقلت له: انعتْ ربَّنا. قال: فجاء جبريلُ حتى وَقَفَ بين يَدَي رسول الله ﷺ فقال له: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾... إلى آخرها، فقرأها علينا رسولُ الله ﷺ. فقال ابن سلام: أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنكَ رسولُ الله. ثم انصرفَ ابنُ سَلاَم إلى المدينةِ فكتم إسلامَه. فلما هاجَر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة وأنا فوقَ نخلةٍ لي أجُدُّها، فألقيتُ نفسي، فقالت أمي: لِلَّه أنتَ! لو كان موسى بنُ عمران ما كان لك أن تُلقِي نفسَك من رأسِ النخلةِ. فقلتُ: والله لأَنِيَّ أَسَرُّ بقُدوم رسول الله ﷺ من مُوسَى بن عِمْرانَ إذ بُعِث[1]. وهذا حديثٌ غريب جداً.

* * *

آخر تفسير سورة الرعد، ولله الحمد والمنّة

(١) إسناده ضعيف جداً، والمتن باطل، أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» ٢٤٦ وهو معلول بعلل متعددة، فيه الوليد ابن مسلم مدلس، وقد عنعن، وحمزة بن يوسف مقبول كما في التقريب. أي حيث يتابع، ولم يتابع على هذا بل خولف، ثم هو منقطع بين حمزة وجده عبد الله بن سلام. ويعارضه حديث أنس: «أن عبد الله بن سلام أتى رسول الله ﷺ مقدمه المدينة، فقال: إني سائلك عن ثلاث خصال لا يعلمهن إلا نبي... فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله...»، أخرجه البخاري ٣٣٢٩ و ٣٩٣٨ و ٤٤٨٠ وأبو يعلى ٣٨٥٦ وابن حبان ٧١٦١ وأحمد ٣/١٠٨ والبيهقي في «الدلائل» ٢/٥٢٨ وغيرهم.. وفي هذا أنه أسلم في المدينة، ولذا قال ابن كثير رحمه الله: غريب جداً.



وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣﴾

قد تقدم الكلامُ على الحروف المقطَّعة في أوائل السوَر. ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾، أي: هذا كتابٌ أنزلناه إليك يا محمدُ، وهو القرآن العظيم، الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض، إلى جميع أهلها عَربهم وعَجَمهم. ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أي: إنما بعثناك ـ يا محمد ـ بهذا الكتاب، لِتخرجَ الناسَ مما هُم فيه من الضلال والغيِّ إلى الهُدَى والرُّشدِ، كما قال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. . . الآية، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الحديد: ٩]. . . الآية

وقولُه تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: هو الهادي لمن قَدَّرَ له الهِدايَة على يَدَي رسوله المبعُوثِ عن أمره يهديهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ﴾، أي: العزيزِ الذي لا يمانَع ولا يُغالب، بل هو القاهرُ لكلِّ ما سِواه، ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾، أي: المحمودِ في جميع أفعاله وأقواله، وشَرْعِه وأَمْرِه ونَهْيِه، الصَّادقِ في خَبَره. وقولُه: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، قَرأه بعضُهم مستأنفاً مرفوعاً، وقرأه آخرون على الإتباع صفة للجلالة، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. . . الآية. وقولُه: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾، أي: ويلٌ لهم يوم القيامة إذ خالفوكَ ـ يا محمد ـ وكذَّبوك. ثم وَصَفهم بأنهم يَستحِبُّون الحياةَ الدنيا على الآخرة، أي: يُقدِّمُونها ويُؤثرونها عليها، ويَعمَلُون للدنيا ونَسُوا الآخرةَ، وتركوها وراءَ ظُهُورهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وهي اتباعُ الرسُلِ، ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾، أي: وَيُحبُّون أن تكونَ سبيلُ الله عِوَجاً مائلةً عائِلَةً، وهي مستقيمة في نفسها، لا يَضرُّها مَن خالفها ولا مَن خَذَلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهلٍ وضَلالٍ بعيدٍ من الحقِّ، لا يُرجَى لهم ـ والحالة هذه ـ صلاحٌ!

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

هذا من لُطفِه تعالى بخلقه أنّه يرسل إليهم رُسُلاً منهم بلغاتهم لِيفهمُوا عنهم ما يُرِيدوه وما أرسِلُوا به إليهم، كما قال الإمام أحمد:

[٣٩٨٠] حدّثنا وَكِيعٌ، عن عُمَر بن ذَرٍّ قال: قال مجاهد عن أبي ذَرٍّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لم يَبْعَثِ الله ـ عزّ وجلّ ـ نبياً إلا بِلُغَةِ قَوْمِهِ»[١]. وقولُه: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، أي: بعدَ البيانِ وإقامة الحُجّة عليهم يُضِلُّ تعالى من يشاءُ عن وجهِ الهُدَى، ويَهدِي مَن يشاءُ إلى الحقِّ، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يَكُن، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعالِهِ، فَيُضِلّ مَن يستحق الإضلال، ويَهدي من هو أهلٌ لذلك. وقد كانت هذه سُنَّةَ الله في خَلْقِه أنه ما بَعَث نَبياً في أُمّةٍ إلا أن يكونَ بِلُغتهم، فاختَصَّ كُلُّ نبيٍّ بإبلاغ رسالَته إلى أمته دون غيرهم، واختَصَّ محمدَ بنَ عبد الله رسولَ الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثَبَت في الصَّحِيحين عن جَابر قال:

[٣٩٨١] قال رسولُ الله ﷺ: «أعطِيتُ خمساً لم يُعطَهُن أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرُعب مسيرةَ شهر، وجُعِلت لي الأرض مَسجِداً وطَهُوراً، وأحِلّت لي الغنائم ولم تَحلّ لأحد قبلي، وأعطِيتُ الشفاعةَ، وكان النبيُّ يُبعَث إلى قومِهِ خاصة وبُعِثتُ إلى الناسِ عامّةً»[٢]. وله شواهدٌ من وجوهٍ كثيرةٍ، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾

يقول تعالى: وكَمَا أرسلناك ـ يا محمد ـ وأنزلنا عليك الكتابَ لتخرجَ الناسَ كُلَّهم، تدعُوهم إلى الخروج من الظُلُماتِ إلى النور، كذلك أرسلنا موسى في بني إسرائيل بآياتنا ـ قال مجاهد: وهي التسعُ الآياتِ ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، أي: أمرناه قائلين له: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أي: ادعهم إلى الخير، لِيَخرجُوا من ظُلُمات ما كانوا فيه من الجَهلِ والضلال إلى نُور الهُدَى وبَصِيرة الإيمان. ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾، أي: بِأَيَادِيه ونِعَمِه عليهم في إخراجه إيَّاهم من أسر فرعون وظلمه وغشمه وإنجائه إياهم من عدوهم وفلقه لهم البحر وتظليله إياهم بالغَمَام، وأنزالِهِ عليهم المَنَّ والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد، وقتادةُ، وغيرُ واحد.

[٣٩٨٢] وقد وَرَد فيه الحديث المرفوع الذي رواه عبدُ الله بنُ الإمام أحمدَ بن حَنبلٍ[٣] في مُسْنَدِ أبيه حيثُ قال: حَدَّثني يحيى بن عبد الله مولى بني هاشم، حدثنا محمد بن أبان الجُعفِي، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، عن أُبَيّ بن كعب، عن النبيِّ ﷺ في قوله ـ تبارك وتعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ

---

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٥/١٥٨ من حديث أبي ذر، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٠٩٥: رجاله رجال الصحيح، إلا أن مجاهداً لم يسمع من أبي ذر اهـ.

(٢) تقدم في سورة آل عمران عن آية: ١٥١.

(٣) كذا وقع في سائر النسخ مع أنه في المسند من رواية أحمد.

ٱللَّهِ﴾، قال: بنعَم الله تَبَارَكَ وتعالى[1]. ورواهُ ابنُ جرير، وابن أبي حاتم، من حديث محمد بن أبان، به. ورواه عبد الله ابنهُ أيضاً موقوفاً، وهو أشبه.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾، أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهُم من يد فِرْعَونَ، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المُهين، لعبرةً ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾، أي: في الضرَّاءِ ﴿شَكُورٖ﴾، أي: في السراء، كما قال قتادة: نعم العبدُ عبدٌ إذا ابتُلي صَبَر، وإذا أُعطِيَ شَكَرَ.

[٣٩٨٣] وكذا جاء في الصَحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ أمر المُؤمِن كُلّه عَجَبٌ، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضَرّاءُ صَبَر فكان خيراً له، وإن أصابته سَرّاءُ شَكَرَ فكان خيراً له»[2].

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى حينَ ذَكّر قومَه بأيّام الله عندهُم ونِعَمه عليهم، إذ أنجاهُم من آل فِرْعَونَ، وما كانوا يَسُومونهم به من العذاب والإذلالِ، حين كانوا يَذْبَحونَ مَن وُجِد من أبنائهم، ويتركون إناثهم، فأنقذ الله بني إسرائيل من ذلك. وهذه نعمةٌ عظيمةٌ، ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾، أي: نعمةٌ عظيمةٌ منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزُونَ عن القيام بشُكرِها. وقيلَ: وفيما كان يصنَعُه بكم قومُ فرعونَ من تلك الأفاعيل ﴿بَلَآءٞ﴾، أي: اختبارٌ عظيمٌ. ويَحتَملُ أن يكون المرادُ هذا وهذا. والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. وقولُه: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ﴾، أي: آذنكم وأعلمَكُم بوعدِه لكم. ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسمَ رَبُّكم وآلى بِعِزَّته وجَلاله وكِبريائِهِ، كما قال: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]. وقولُه: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾، أي: لَئِن شَكَرتُم نعمتي عليكم لأزيدنّكم منها، ﴿وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ﴾، أي: كفرتم النِّعم وسترتُموها وجَحَدتُموها، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾، وذلك بِسَلْبِها عنهم، وعِقَابِهِ إيَّاهم على كُفْرِها.

[٣٩٨٤] وقد جاء في الحديث: «إن العبد لَيُحرم الرزق بالذَّنب يُصِيبَه»[3].

وفي المسند: أنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ به سائل فأعطاه تمرةً، فتَسَخَّطها ولم يقبلها، ثم مرَّ به آخرُ فأعطاه إياها فقبلها وقال: تمرةٌ من رسول الله ﷺ! فأمَرَ له بأربعين درهماً[4]، أو كما قال.

[٣٩٨٥] قال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا عُمَارة الصَّيدلاني، عن ثابت، عن أنس قال: أتى النبيَّ ﷺ سائل فأمر له بتمرةٍ فلم يأخذها ـ أو: وَحْشَ بها ـ قال: وأتاه آخرُ فأمَرَ له بتمرةٍ، فقال: سُبحانَ الله!

---

(١) أخرجه أحمد ١٢٢/٥ ح ٢٠٦٢٥، والطبري ٢٠٥٧٩ وفيه محمد بن أبان الجعفي غير قوي. وكرره عبد الله ابن أحمد ٢٠٦٢٦ من وجه آخر عن أبي موقوفاً، وهو من طريق محمد بن أبان أيضاً، والظاهر أن الوهم في رفعه من قبل يحيىٰ بن عبد الله مولىٰ بني هاشم، والله أعلم.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية ١٥٣.

(٣) تقدم قبل أحاديث، وهو ضعيف.

(٤) هو الآتي.

تمرةً من رسول الله ﷺ! فقال للجارية: اذهبي إلى أم سَلَمة، فأعطيه الأربعين درهماً التي عندها»[١]. تفرّد به الإمام أحمد. وعُمَارة بن زَاذان وَثَّقه ابن حبَّان، وأحمدُ، ويعقوبُ بن سفيان. وقال ابن مَعِين: صالح. وقال أبو زُرعَةَ: لا بأس به. وقال أبو حاتم: يُكتَب حديثه ولا يُحتَجُّ به. ليس بالمتين. وقال البخاري: ربما يَضطرب في حديثه. وعن أحمدَ أيضاً أنه قال: رُوِيَ عنه أحاديثُ منكَرةٌ. وقال أبو داودَ: ليس بذاكَ. وضَعَّفه الدارقطنيُّ، وقال ابن عَدِيٍّ: لا بأس به، ممن يُكتَبُ حديثه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾، أي: هو غنيٌّ عن شُكرِ عبادِهِ، وهو الحميدُ المحمودُ، وإن كَفره مَن كَفره، كما قال: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. وقال تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

[٣٩٨٦] وفي صحيح مسلم، عن أبي ذَرٍّ، عن رسولِ الله ﷺ فيما يَروي عن ربِّه ـ عز وجل ـ أنه قال: «يا عبادِي، لو أنَّ أوَّلكم وآخِركم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أتقى قَلْب رَجُلٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخِركم وإنسَكُم وجِنَّكم كانوا على أفجرِ قلبِ رَجُلٍ منكم ما نَقصَ ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخِركم وإنسَكُم وجِنَّكم قامُوا في صَعِيد واحدٍ فَسَألُوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسْألته. ما نَقص ذلك من مُلكي شيئاً، إلا كما ينقُص المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ في البحر»[٢]... فَسُبحانَه وتَعالى الغنيُّ الحميدُ.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾

قال ابنُ جَرير: هذا من تَمام قِيلِ مُوسَى لقومِهِ. يعني: وتذكاره إيَّاهم بأيام الله بانتقامِهِ من الأُمَم المُكَذِّبة للرسُل. وفيما قال ابنُ جريرٍ نَظَرٌ؛ والظاهرُ أنه خَبَرٌ مستأنَفٌ من الله تعالى لهذه الأمَّةِ، فإنه قد قيل: إن قصَّةَ عادٍ وثَمودَ ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام مُوسَى لقومه وقَصُّه عليهم ذلك فلا شَكَّ أن تكونَ هاتان القِصَّتان في التوراة، والله أعلم. وبالجملة فالله تعالى قد قَصَّ علينا خَبَر قوم نوح وعاد وثَمُود وغيرهم من الأمم المكذِّبة للرسل، مما لا يُحصي عَدَدَهم إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أتتهم رسلُهم بالبيِّنات، أيْ بالحُجَجِ والدَّلائِلِ الواضِحَاتِ الباهِرَاتِ القاطِعَات. وقال ابن إسحاقَ، عن عمرو بن مَيمُونٍ، عن عبد الله أنه قال في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: كَذَبَ النَّسَّابُون. وقال عُروة بن الزبير؛ ما وَجَدنا أحدا يعرِف ما بعد مَعَدِّ بنِ عَدنان. وقولُه: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، اختلف المفسرون في معناه فقيل: معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمُرُونهم بالسكوت عنهم، لَمَّا دعوهم إلى الله عز وجل. وقيل: بل وَضَعُوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم. وقيل: بل هو عبارة عن سُكُوتهم عن جواب الرسل. وقال مجاهد، ومحمد بن كعب، وقتادةُ:

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ١٥٥ ـ ٢٦٠ والبزار ٩٣٩. قال الهيثمي في «المجمع» ٤٥٦٥ و ١٣٦٤٩: رواه أحمد والبزار باختصار، وفيه عمارة بن زاذان، وهو ثقة وفيه كلام لا يضر. وقال في الموضع الثاني: وثقه جماعة، وضعفه الدارقطني أهـ وقال عنه الحافظ في التقريب: صدوق كثير الخطأ أهـ فالحديث غير قوي.

(٢) تقدم في سورة يونس عند آية ٤٤.

معناه أنهم كَذَّبوهم وَرَدُّوا عليهم قولَهم بأفواهِهم. قال ابن جرير: وتوجيهه أن «في» ها هنا بمعنى الباء، قال: وقد سُمع من العرب: «أدخلك الله بالجنَّةِ»، يعنون في الجنةِ، وقال الشاعر:

وَأَرْغَبُ فيها عَن لَقيطٍ ورهطه ... ولكنني عَن سِنْبِسٍ لَسْتُ أرغب

يريد: أرغب بها. قلتُ: ويُؤيِّد قولَ مجاهدٍ تفسيرَ ذلك بتمام الكلام: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، فكأنَّ هذا والله أعلم تفسيرٌ لمعنى رَدِّ أيديهم في أفواههم. وقال سفيانُ الثوريُّ، وإسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوصِ، عن عبد الله في قوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، قال: عَضُّوا عليها غيظاً. وقال شعبةُ، عن أبي إسحاقَ، عن هُبَيرة بن مَرْيم، عن عبد الله أنه قال ذلك أيضاً. وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ووجَّهه ابنُ جرير مختاراً له، بقوله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩]. وقال العَوفِيُّ، عن ابن عباس: لما سَمِعوا كتابَ الله عَجبوا ورَجَعُوا بأيديهم إلى أفواهِهم. وقالُوا: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، يقولون: لا نُصدِّقكم فيما جِئتم به؛ فإن عندنا فيه شكّاً قوياً.

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

يخبر تعالى عما دار بين الكفّار وبين رُسُلهم من المجادلة، وذلك أن أُممهم لما واجَهُوهم بالشكِّ فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريكَ له، قالت الرسُل: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾. وهذا يَحتمِلُ شيئين، أحدُهما: أفي وجُودِه شكٌّ؟ فإن الفِطَر شاهدةٌ بوجُودِه، ومجبولةٌ على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروريٌّ في الفِطَر السليمة، ولكن قد يَعرِضُ لبعضها شكٌّ واضطرابٌ، فتحتاجُ إلى النظر إلى الدليل الموصِّل إلى وُجُوده، ولهذا قالت لهم الرسل تُرشِدُهم إلى طريق مَعرفته بأنه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، الذي خلقها وابتدَعها على غير مثالٍ سَبَق، فإنَّ شواهِدَ الحُدوثِ والخَلْقِ والتَّسخير ظاهرٌ عليها، فلا بدَّ لها من صانع، وهو الله لا إله إلا هو. خالقُ كلِّ شيءٍ وإلهُهُ ومَليكُه. والمعنى الثاني في قولهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾، أي: أفي إلاهيَّتِهِ وتَفرُّده بوجُوبِ العِبادةِ له شكٌّ؟ وهو الخالقُ لجميع الموجودات، ولا يستحقُّ العبادةَ إلا هو، وحدَه لا شريكَ له، فإنَّ غالبَ الأمم كانت مقرةً بالصانع، ولكن تَعبُد معه غيره من الوسائطِ التي يَظنونها تَنفعُهم أو تُقرِّبهم من الله زُلفى. وقالت لهم رُسُلهم: الله ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، أي: في الدار الآخرة، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣]. . . الآية، فقالت لهم الأمَمُ محاجِّين في مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم للمقام الأول، وحاصل ما قالوه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، أي: كيف نَتَّبِعكم بمجرَّدِ قولكم، ولمَّا نر منكم مُعجزةٍ؟! ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، أي: خارقٍ نَقترِحُه عليكم. قالت لهم رُسُهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ

﴿مِّثۡلُكُمۡ﴾، أي: صَحيحٌ أنّا بشرٌ مثلكم في البشرية، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾، أي: بالرّسالة والنبوّة، ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ﴾، على وَفقِ ما سألتم، ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾، أي: بعد سُؤالنا إياه، وإذْنِه لنا في ذلك، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، أي: في جميع أُمورِهم. ثم قالت الرسُل: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: وما يمنعنا من التوكُّل عليه وقد هدانا لأقوم الطُرُقِ وأوضحِها وأبينِها، ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾، أي: من الكلام السيِّء، والأفعال السَّخيفَةِ، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾﴾

يُخبِرُ تعالى عما تَوَعّدت به الأمم الكافرة رُسُلهم من الإخراج من أرضهم، والنَّفي من بين أظهُرهم، كما قال قوم شُعَيب له ولمن آمن به: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٨]. وقال قوم لوط: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]. وقال تعالى إخباراً عن مُشركي قُريش: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]. وكان من صُنعِه تعالى أنه أظهرَ رسولَه ونَصره، وجَعل له بسبب خُروجه من مَكّة أنصاراً وأعواناً وجُنداً، يُقاتِلون في سَبيل الله تعالى، ولم يَزل يُرقِّيه تعالى من شيءٍ إلى شيءٍ، حتى فَتح له مكّةَ التي أخرجَته، ومَكّن له فيها وأرغم أنوف أعدائِه منهم وسائِرِ أهل الأرض، حتى دَخل الناسُ في دين الله أفواجاً، وظهرت كلمةُ الله ودينُه على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومَغاربها في أيسر زَمانٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]. وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾، أي: وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يَدَي يوم القيامة، وخشِيَ من وَعيدي، وهو تَخويفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١]، وقال: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٤٦].

وقولُه تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾، أي: استنصرت الرسُل ربَّها على قومها. قاله ابن عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ. وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَم: استفتحت الأممُ على أنفسِها، كما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢]. ويَحتمِلُ أن يكون هذا

مراداً وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسِهم يوم بدر، واستفتح رسولُ الله واستنصَرَ، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ١٩]. . . الآية، والله أعلم.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، أي: مُتَجبِّر في نفسه معاند للحقّ، كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق: ٢٤ ـ ٢٦].

[٣٩٨٧] وفي الحديث: «إنه يُؤتَى بجهنم يوم القيامة، فتنادي الخلائقَ فتقول: إنّي وُكِّلتُ بكلِّ جبَّار عَنيدٍ»... الحديث[١]. ﴿وَخَابَ﴾ خسر؛ حين اجتَهَد الأنبياءُ في الابتهالِ إلى رَبِّهم العزيزِ المُتقدِرِ.

وقولُه تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾، و «وراءُ» ها هنا بمعنى أمام، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، وكان ابن عباس يقرؤها: «وكان أمامَهُم ملك». أي: من وراء الجبَّار العَنِيدِ جهنَّم، أي: هي له بالمرصاد، يَسكنُها مُخلَّداً يوم المعاد، ويُعرَض عليها غُدوّاً وعشِيّاً إلى يوم التَّناد. ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: في النار ليس له شرابٌ إلا من حَميم أو غَسَّاق، فهذا حار في غاية الحرارةِ، وهذا بارد في غاية البَرْدِ والنتن كما قال: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٧ ـ ٥٨].
وقال مجاهد وعكرمة: الصديد من القَيح والدم. وقال قتادةُ: هو ما يسِيلُ من لحمه وجلده. وفي روايةٍ عنه: الصدِيدُ ما يخرجُ من جوف الكافر، قد خالط القيحَ والدمَ.

[٣٩٨٨] وفي حديث شهر بن حَوشَب، عن أسماءَ بنتِ يزيدَ بن السَّكَنِ قالت: قلتُ: يا رسولَ اللّهِ ما طينةُ الخَبَالِ؟ قال: «صَدِيد أهل النار»[٢].

[٣٩٨٩] وفي روايةٍ: «عُصَارةُ أهل النار»[٣].

[٣٩٩٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاقَ، أنبأنا عبد الله، أنبأنا صفوانُ بن عمرو، عن عبيد الله بن بُسْرٍ، عن أبي أمامَة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ﴾، قال: يُقرَّبُ إليه فَيتكرَّهُه، فإذا أدنيَ منه شَوَى وَجهَه، ووقعت فروةُ رأسِهِ، فإذا شَربه قَطَّع أمعاءَه حتى يَخرجَ من دُبُره. يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩][٤]. وهكذا رواه ابنُ جرير، من حديث عبد الله بن المبارك، به. ورواه هو وابنُ أبي حاتم، من حديث بَقِيَّةَ بن الوليد، عن صَفْوَانَ بن عمرو، به.

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٥٧٧ من حديث أبي هريرة بأتم منه وقال: حسن صحيح، ويشهد له حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد ٣/ ٤٠ وأبي يعلى ١١٣٨ وفي الباب أحاديث، وهو صحيح.

(٢) هو عجز حديث أخرجه أحمد ٦/ ٤٦٠ والطبراني ٢٤/ ١٦٨ ـ ١٦٩ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٥/ ٦٩ وقال: وفيه شهر بن حوشب، وهو ضعيف، وقد حُسِّن حديثه، وبقية رجال أحمد ثقات.

(٣) هذه الرواية عند أحمد ٢/ ١٧٨ من حديث عبد الله بن عمرو، ورجاله ثقات كما في «المجمع» ٥/ ٦٩.

(٤) الحديث أخرجه الترمذي ٢٥٨٣ والنسائي ١١٢٦٣ «كبرى» والحاكم ٢/ ٣٥١ والطبري ٢٠٦٣٢ وأحمد ٥/ ٢٦٥، وإسناده ضعيف لأجل عبيد الله بن بسر. قال عنه الحافظ في التقريب: مجهول، وقال الذهبي في الميزان: لا يعرف. ومع ذلك صححه الحاكم! ووافقه الذهبي! ولعل السبب في ذلك هو أن عبيد الله بن بسر تحرف عند الحاكم إلى «عبد» وعلى هذا هو صحابي وليس كذلك فقد قال الترمذي: عبيد الله بن بسر ليس بصاحب أهـ. وله شاهد أخرجه الترمذي ٢٥٨٢ والبيهقي في «البعث» ٥٧٩ من حديث أبي هريرة، وفي إسناده درّاج أبي السمح لا بأس به لأنه ليس من روايته عن أبي الهيثم. وفي الباب من حديث أبي سعيد أخرجه أحمد ٣/ ٧٠ ـ ٧١ وابن حبان ٧٤٧٣ والحاكم ٢/ ٥٠١ لكنه من رواية دراج عن أبي الهيثم وهي رواية فيها ضعف، لكن لعل الحديث يتأيد بذلك، ويستأنس له بالآية الكريمة، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾، أي: يَتغصَّصُه ويتكرَّهُهُ، أي: يشربُه قَهراً وقَسْراً، لا يَضعهُ في فيه حتى يَضربه المَلَكُ بمطراقٍ من حَديدٍ، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١]. ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾، أي: يَزْدَرِدهُ لسُوءِ لونه وَطعْمِه وريحه، وحَرارَتِه أو بَرْدِه الذي لا يستطاع. ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾، أي: يألم له جميعُ بَدَنه وجَوارحه وأعضائِهِ. قال مَيمونُ بن مِهرانٍ: من كلِّ عظم، وعِرْقٍ، وعَصَبٍ. وقال عِكْرمةُ: حتى من أطراف شعره، وقال إبراهيم التيميُّ: من موضع كل شعرة، أي: من جَسَدِهِ، حتّى من أطرافِ شعَرِهِ. وقال ابنُ جرير: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾، أي: من أمامِهِ وَورائِهِ، وعن يمينه وشِمَاله، ومن فَوْقه ومن تحت أرجُلِه، ومن سائر أعضاء جَسَدِه.

وقال الضحّاكُ، عن ابن عباس: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: أنواعُ العذاب التي يُعَذِّبه الله بها يوم القيامة في نار جهنَّم، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكن لا يموتُ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. ومعنى كلام ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه ما من نَوعٍ من هذِهِ الأنواعِ من العذَابِ إلاَّ إذا ورد عليه اقتضى أن يموتَ منه لو كان يموتُ، ولكنه لا يموتُ ليخلُدَ في دوام العذابِ والنَّكالِ، ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾، أي: وله من بعد هذا الحالِ عذابٌ آخرُ غليظٌ، أي: مؤلمٌ صعبٌ شديدٌ أغلظُ من الذي قبلَه وأدهى وأمرُّ. وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقُّوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات: ٦٤ ـ ٦٨]، فأخبر أنهم تارةً يكونون في أكل زَقُّوم، وتارةً في شُرب حَميم، وتارةً يَردون إلى الجَحيم، عياذاً بالله من ذلك. وهكذا قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٣ ـ ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٥٠]، وقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤١ ـ ٤٤]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٥ ـ ٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوُّع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يُحصيه إلا الله عز وجل، جزاءً وفاقاً، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

هذا مثلُ ضَربه الله تعالى لأعمال الكُفّار الذين عَبَدوا مع الله غيره، وكَذَّبوا رُسُلَه، وبنَوا أعمالَهم على غير أساس صَحِيح؛ فانهارت وَعَدِمُوها أحوَج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ﴾، أي: مثلُ أعمالِ الذين كَفَروا يومَ القيامة إذا طَلَبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانُوا يَحسبون أنهم على شَيءٍ، فلم يَجدُوا شيئاً، ولا ألْفوا حاصِلاً إلا كما يَتحصَّل من الرَّماد إذا اشتدت به الريحُ العاصفة، ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾، أي: ذي ريح عاصفةٍ قوية، فلا يقدِرُون على شيء من أعمالهم التي كَسَبوا في الدنيا إلا كَمَا يَقدِرُون على جَمع هذا الرَّماد في هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً

مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وقال في هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾، أي: سَعيُهُم وعَملُهم على غير أساسٍ ولا استقامةٍ، حتى فَقَدُوا ثوابَهم أحوجَ ما هم إليه، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن قُدرته على مَعَاد الأبدان يومَ القيامةِ، بأنه خَلَقَ السمواتِ التي هي أكبرُ من خلقِ الناسِ، أفليس الذي قَدَر على خَلْقِ هذه السمواتِ في ارتفاعها واتِّساعها وعَظَمتها، وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحَركات المختلِفات، والآياتِ الباهراتِ، وهذه الأرض بما فيها من مهادٍ ووهادٍ وأوتادٍ وبَراريَّ وصحارَى وقفارٍ، وبحارٍ وأشجارٍ، ونباتٍ وحيوانٍ، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها؛ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٧٧ ـ ٨٣]. وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾، أي: بعظيم ولا مُمتنع، بل هو سَهلٌ عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويأتِ بآخرين على غير صِفَتِكم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٧]، وقال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَبَرَزُوا﴾، أي: بَرزت الخلائقُ كلُّها، برُّها وفاجرُها لله وحدَه الواحدِ القَهَّارِ، أي: اجتمَعُوا له في بَرَاز من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيءٌ يستر أحداً. ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الأتباعُ لقادتهم وسادتهم وكُبَرائِهم الذين استكبرُوا عن عبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، وعن مُوافَقةِ الرُّسل، فقالوا لهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، أي: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفَعَلنا، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، أي: فهل تدفعُون عنا شيئاً من عذاب الله، كما كنتم تَعِدُوننا وتُمنُّوننا؟ فقالت القادةُ لهم: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾، ولكن حقَّ علينا قولُ ربنا، وسَبَق فينا وفيكم قَدَرُ الله، وحَقَّت كلمةُ العذاب على الكافرين

﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾، أي: ليس لنا خَلاصٌ مما نحن فيه إن صَبَرنا عليه أو جزعنا منه.

قال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَم: إنَّ أهلَ النار قال بعضُهم لبعضٍ: تعالَوا، فإنما أدرك أهلُ الجنةِ الجنّةَ ببكائهم وتضرُّعهم إلى الله عز وجل، تعالَوا نبكِ ونتضرَّع إلى الله. فبكوا وتَضرَّعوا فلما رأوا ذلك لا ينفعهُم قالوا: تعالَوا، فإنما أدرك أهلُ الجنةِ الجنةَ بالصَّبر، تعالَوا حتى نَصبِرَ. فصبروا صَبراً لم يُرَ مثلُه، فلم ينفعهم ذلك، فعِندَ ذلك قالُوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾. قلتُ: والظاهرُ أنَّ هذه المراجعةَ في النار بعد دُخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف: ٣٨ ـ ٣٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨]. وأما تخاصُمهم في المحشر فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبا: ٣١ ـ ٣٣].

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

يُخبر تعالى عما خاطَب به إبليس أتباعَه بعْدما قَضى الله بين عباده، فأدخلَ المؤمنينَ الجناتِ، وأسكَنَ الكافِرينَ الدَّرَكاتِ، فقام فيهم إبليسُ ـ لعنه الله ـ حينئذٍ خطيباً ليزيدهم حُزناً إلى حزنهم، وغَبناً إلى غَبْنِهم، وحَسْرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾، أي: على ألسنة رُسُله، ووعدكم في اتباعهم النجاةَ والسلامةَ، وكان وعداً حقاً، وخبراً صِدقاً. وأما أنا فوعدتُكم وأخلفتُكم، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾، أي: ما كان لي عليكم فيما دَعوتكم إليه من دليل ولا حُجّةٍ على صدقِ ما وَعدتُكم به، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾، بمجرّد ذلك. هذا وقد أقامت عليكم الرسلُ الحُجَجَ والأدلةَ الصَّحيحةَ على صدقِ ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصرتُم إلى ما أنتم فيه، ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ اليومَ ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾، فإن الذنب لكم، لِكَونكم خالفتم الحُجَجَ واتبعتُموني بمجردِ ما دعوتُكم إلى الباطل، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾، أي: بنافعكم ومُنقِذكم ومُخلِّصكم مما أنتم فيه، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾، أي:

بنافعيَّ بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكالِ، ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ﴾، قال قتادةُ: أي بسببِ ما أشركتموني من قبل، وقال ابنُ جرير: يقول: إني جَحدت أن أكونَ شريكاً لله عز وجل. وهذا الذي قاله هو الراجحُ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦]، وقال: ﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. والظاهرُ من سياق الآية أنَّ هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار، كما قدَّمنا.

[٣٩٩١] ولكن قد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم ـ وهذا لفظه ـ وابنُ جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد: حدثني دُخَين الحَجْري، عن عقبة بن عامر، عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «إذا جمَع الله الأوَّلين والآخِرين فَقضَى بينهم، فَفرغ من القضاء، قال المؤمنون: قد قَضى بيننا ربُّنا، فمن يشفع لنا؟ فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم ـ وذكر نُوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ـ فيقول عيسى: أَدُلُّكم على النبيِّ الأميِّ. فيأتوني، فيأذن الله لي أن أقومَ إليه فيثورُ من مجلسي من أطيب ريح شَمَّها أحدٌ قطُّ، حتى آتي ربي فَيُشفِّعني، ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى ظُفرِ قَدَمي، ثم يقول الكافرون هذا: قد وجدَ المؤمنونَ من يشفَع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليسُ، هو الذي أضلَّنا، فيأتون إبليسَ فيقولون: قد وجد المؤمنونَ من يشفَع لهم، فقم أنت فاشفَع لنا، فإنك أنت أضْللتنا. فيقومُ فيثورُ من مجلِسِه من أَنْتَنِ ريح شَمَّها أحدٌ قطُّ، ثم يعظُم نَحيبُهم، ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾»[1]. وهذا سياق ابن أبي حاتم. ورواه ابنُ المبارك عن رِشدين بن سعد، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعُم، عن دُخَين، عن عقبة، به مرفوعاً.

وقال محمدُ بن كعب القُرظي ـ رحمه الله ـ: لما قال أهلُ النار: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾، قال لهم إبليس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾... الآية، فلما سَمِعوا مقالته مَقَتوا أنفسَهم، فَنُودوا: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠]، وقال عامر الشعبيُّ: يقوم خطيبان يومَ القيامة على رُؤوس الناس، يقول الله لعيسى ابن مريم: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٩]، قال: ويقومُ إبليسُ ـ لعنه الله ـ فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾... الآية. ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياءِ وما صارُوا إليه من الخزي والنكال، وأنَّ خطيبهم إبليسُ، عطفَ بحالِ السُعداءِ وأنهم يدخُلون يومَ القيامةِ جنات تجرِي من تحتها الأنهارُ سارحةً فيها حيثُ سارُوا وأينَ سارُوا، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، ماكثينَ أبداً لا يَحُولون ولا يزُولون، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس: ١٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤

(١) إسناده ضعيف أخرجه الطبري ٢٠٦٤٦ فيه عبد الرحمن بن زياد الإفريقي ضعيف الحديث، وقد تفرد به.

تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شهادةُ أن لا إله إلا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، وهو المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾، يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، يقول: يُرفَعُ بها عَملُ المؤمن إلى السماء. وهكذا قال الضحَّاك، وسعيد بن جُبَير، وعكرمةُ، وقتادةُ، وغيرُ واحد: إن ذلك عبارةٌ عن المؤمن، وقوله الطيب، وعَمَلِه الصالح، وإنَّ المؤمنَ كالشجرةِ من النَّخلِ، لا يزال يُرفع له عملٌ صالحٌ في كُلِّ حينٍ ووقتٍ، وصباحٍ ومساءٍ. وهكذا رواه السُّديّ، عن مُرَّةَ، عن ابن مسعود قال: هي النخلة. وشعبةُ، عن معاوية بن قُرَّةَ، عن أنس: هي النخلة.

[٣٩٩٢] وحَمَّادُ[1] بن سَلَمة، عن شُعَيب بن الحبحاب، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتِيَ بِقِنَاعِ بُسْرٍ فقرأ: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، قال: «هي النخلة»، ورُوِي من هذا الوجه ومن غيره، عن أنس موقوفاً. وكذا نصَّ عليه مسروقٌ، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وسعيد بنُ جبير، والضحاكُ، وقتادةُ، وغيرهم.

[٣٩٩٣] وقال البخاري: حدثنا عُبيدُ بن إسماعيل، عن أبي أسامة، عن عُبَيد الله، عن نافع، عن ابن عُمَر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبِرُوني عن شجرةٍ تُشبه ـ أو: كالرجل ـ المسلم، لا يتحاتُّ ورقُها ولا، ولا، ولا، تُؤتي أكلها كلَّ حين. قال ابنُ عمر: فوقَع في نفسي أنها النخلةُ، ورأيتُ أبا بكر وعُمَر لا يتكلَّمان، فكرهتُ أن أتكلَّم، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسولُ الله ﷺ: هي النخلةُ. فلما قمنا قلت لعُمَر: يا أبتا، والله لقد كان وَقَع في نفسي أنها النخلةُ. قال: ما منعك أن تَتكلَّم؟ قال: لم أركُم تَتكلَّمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً. قال عمر: لأن تكون قلتَها أحبُّ إليَّ من كذا وكذا»[2].

[٣٩٩٤] وقال أحمد: حدثنا سفيانُ: عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهدٍ: صَحِبتُ ابنَ عمر إلى المدينة، فلم أسمعهُ يحدِّث عن رسول الله ﷺ إلا حَديثاً واحداً، قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ فأتى بِجُمَّارٍ[3]. فقال: «من الشجر شجرةٌ مَثَلُها مثلُ الرجل المسلم. فأردتُ أن أقول: هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغرُ القوم، فسكتُّ، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلةُ»[4]. أخرجاه.

[٣٩٩٥] وقال مالك وعبد العزيز، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عُمَر قال: قال رسولُ الله ﷺ يوماً لأصحابه: «إنَّ من الشجر شجرة لا يُطْرَحُ ورقُها، مَثَلُ المؤمن. قال: فوقع الناس في شَجَر البَوَادِي، ووَقَع في قلبي أنها النخلة، فاستَحْيَيتُ، حتى قال رسول الله ﷺ: هي النخلة[5]. أخرجاه أيضاً.

[٣٩٩٦] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبانُ ـ يعني ابن يزيدَ العطَّار ـ حدثنا قتادةُ: أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، ذهبَ أهلُ الدُّثُورِ بالأجُورِ! فقال: «أرأيتَ لو عَمَدَ إلى

---

(١) هو معطوف على «وهكذا رواه» وسيأتي إسناده بتمامه.
(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٩٨ ومسلم ٢٨١١.
(٣) الجُمَّار: شحم النخل، ومنه يخرج الثمر.
(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٧٢ و ٢٢٠٩ ومسلم ٢٨١١ وأحمد ٢/ ١٢ وابن حبان ٢٤٤.
(٥) صحيح. أخرجه البخاري ١٣١ وأحمد ٢/ ٦١ من طريق مالك به، وأخرجه أحمد ٢/ ١٢٣ وابن حبان ٢٤٣ من طريق عبد العزيز به.

متاع الدنيا، فَرَكَّب بعضَها على بعض أكان يبلغُ السماء؟ أفلا أخبرك بعملٍ أصلُه في الأرض وفرعُه في السماء؟ قال: ما هو يا رسولَ الله؟ قال: تقولُ: «لا إله إلا الله، والله أكبرُ، وسبحانَ الله، والحمدُ لله»، عشر مرات في دُبُر كُلِّ صلاة، فذاكَ أصله في الأرض، وفرعُه في السماء»[١]. وعن ابن عباس: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، قال: هي شجرةٌ في الجنة. وقولُه: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾، قيل: غُدوةً وعَشياً. وقيل: كلَّ شهرٍ، وقيل: كلَّ شهرين: وقيل: كلَّ ستةِ أشهُر. وقيل: كلَّ سبعةِ أشهرٍ. وقيل: كلَّ سنةٍ. والظاهرُ من السِّياق أن المؤمِنَ مثلهُ كمَثَلِ شجرةٍ، لا يزال يوجَدُ منها ثمر في كلِّ وقت من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمنُ لا يزالُ يُرفَعَ له عملٌ صالحٌ آناءَ الليل وأطرافَ النهار في كلِّ وقتٍ وحينٍ. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، أي: كاملاً حَسَناً كثيراً طيباً، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، هذا مثلُ كفرِ الكافر، لا أصلَ له ولا ثباتَ، وشُبِّه بشجرة الحَنظَل. ويقال لها: الشِّرْيان. رواه شعبةُ عن معاويةَ بن قُرَّة، عن أنسِ بن مالكٍ: أنها شجرةُ الحنظل.

[٣٩٩٧] وقال أبو بكر البزارُ الحافظُ: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا أبو زيد سعيد بن الرَّبيع، حدثنا شعبةُ، عن معاوية بن قُرَّةَ، عن أنس ـ أحسَبه رَفعه ـ قال: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، قال: هي النخلةُ، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، قال: هي الشِّرْيان[٢]. ثم رواه عن محمد بن المثنى، عن غُنْدر، عن شعبةَ، عن معاوية، عن أنس موقوفاً.

[٣٩٩٨] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حَمّاد ـ هو ابن سَلَمةَ ـ عن شعيب بن الحَبْحاب، عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ قال: «ومثلُ كلمةٍ خبيثةٍ كَشجرةٍ خبيثةٍ، هي الحنظلة». فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: هكذا كنا نسمَعُ[٣]. ورواه ابنُ جرير، من حديث حَمّاد بن سَلَمة، به. ورواه أبو يعلى في مسنده بأبسط من هذا، فقال:

[٣٩٩٩] حدثنا غسان، عن حمّاد، عن شُعَيب، عن أنس: أن رسولَ الله ﷺ أُتي بِقِناع عليه بُسْر، فقال: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، فقال: «هي النخلة»، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾، قال: «هي الحنظلُ». قال شُعَيب: فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: كذلك كنا نسمعُ[٤]. وقولُه: ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾، أي: استؤصِلَت ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، أي: لا أصلَ ولا ثباتَ، كذلك الكفرُ لا أصلَ له ولا فرع، ولا يصعَدُ للكافرِ عَمَلٌ، ولا يُتقَبَّل منه شيءٌ.

---

(١) هذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف عند أهل الحديث.

(٢) إسناده على شرط الصحيح. لكن شك الراوي في رفعه. وقد أخرجه الطبري ٢٠٩٢٨ و ٢٠٩٢٩ و ٢٠٩٣١ و ٢٠٩٣٢ من وجوه موقوفاً.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠٧٣٩ ورجاله رجال مسلم. لكن كرره ٢٠٧٣٢ و ٢٠٧٣٣ و ٢٠٧٣٤ و ٢٠٧٣٥ و ٢٠٧٣٦ من غير وجه عن أنس موقوفاً، وهو أصح من المرفوع.

(٤) أخرجه أبو يعلى ٤١٦٥ بهذا الإسناد وأخرجه الترمذي ٣١١٨ وابن حبان ٤٧٥ من طريق حماد بن سلمة به وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وأخرجه الترمذي ٣١١٨ موقوفاً على أنس وقال: وهذا أصح من حديث حماد بن سلمة. أي المرفوع والراجح وقفه كسابقه.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾

[٤٠٠٠] قال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبةُ، أخبرني عَلْقَمَةُ بنُ مَرْثَد قال: سَمِعتُ سعدَ بن عُبَيدة، عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمُ إذا سُئِل في القبر شَهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله، فذلك قولُه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِۖ﴾»[1]. ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة كلهم. من حديث شُعبَةَ، به.

[٤٠٠١] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمشُ، عن المِنهال بن عمرو، عن زاذانَ، عن البراء بن عازِب قال: خَرَجنا مع رَسولِ الله ﷺ في جنازةِ رجلٍ من الأنصار، فانتهينا إلى القبرِ ولما يُلحد، فجلس رسولُ الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رُؤُوسنا الطيرَ، وفي يده عودٌ يَنْكُتَ به في الأرضِ، فرفع رأسه فقال: «استعيذُوا بالله من عذاب القبر». مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبالٍ إلى الآخرة نَزَل إليه ملائكةٌ من السماء بيضُ الوجوهِ كأنَّ وجوهَهم الشمسُ، معهم كَفَنٌ من أكفان الجنة وحَنُوط من حَنُوط الجنَّةِ، حتى يجلسوا منه مدَّ البَصر. ثم يجيءُ ملكُ الموتِ حتى يجلِسَ عند رأسِهِ، فيقول: أيَّتُها النفسُ الطيِّبَةُ، اخرُجي إلى مغفرةٍ من الله ورِضْوانٍ. قال: فتخرُجَ تَسِيل كما تَسِيل القطرةُ من في السِّقَاء، فيأخذُها، فإذا أخذَها لم يدعُوها في يَدِه طَرْفَة عينٍ حتى يأخذوها فيجعَلُوها في ذلك الكَفَن وفي ذلك الحنوطِ، ويخرُج منها كأطيب نَفْحةِ مِسْك وُجدت على وَجْهِ الأرض. فيصعَدُون بها، فلا يمرُّون ـ يعني بها ـ على مَلأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيِّبُ؟ فيقولون: فلان ابن فلانٍ، بأحسن أسمائه التي كانوا يُسَمُّونه بها في الدنيا، حتى يَنتهُوا به إلى السَّماءِ الدنيا، فيستفتحون له، فَيُفتح له، فيشيعه من كلِّ سماءٍ مُقَرَّبُوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعةِ، فيقول الله: اكتُبوا كتابَ عبدي في عِلِّيين، وأعيدُوه إلى الأرض، فإني منها خلقتُهم وفيها أُعِيدُهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى». قال: «فتُعاد روحه في جَسَدِه، فيأتيه مَلَكان فَيُجلسانِهِ فيَقُولان له: من ربُّك؟ فيقول: رَبِّي الله. فيقولون له: ما دينُك؟ فيقول: ديني الإسلامُ، فيقولان له: ما هذا الرجُل الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هو رسولُ الله. فيقولان له: وما عِلْمُك؟ فيقول: قرأت كتابَ الله، فآمنتُ به وصدَّقت. فَيُنادي منادٍ من السماء: أن صَدَق عبدي، فأفرِشُوه من الجنة، وألبِسُوه من الجنةَ، وافتَحُوا له باباً إلى الجنة». قال: «فَيَأتِيهِ من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرُّك، هذا يومُكَ الذي كنت تُوعد. فيقول له: مَن أنتَ؟ فوجهُكَ الوجه يجيءُ بالخير. فيقول: أنا عَمَلُك الصالحُ. فيقولُ: ربِّ، أَقِم الساعةَ، ربِّ أَقِم الساعةَ، حتى أَرْجع إلى أهلي ومالي». قال: «وإن العبدَ الكافرَ إذا كان في انقطاع من الدنياَ وإقبالٍ من الآخرةِ، نَزَل إليه من السماء ملائكةٌ سود الوُجوه معهم المُسُوح، فَجلسوا منه مَدَّ البصر، ثم يجيءُ مَلَك الموتِ حتى يجلِسَ عند رأسه، فيقول: أيتها النفسُ الخبيثةُ، اخرُجي إلى سَخَطٍ من الله وغَضَبٍ. قال: فَتَفرَّقُ في جسده؛ فَينتزِعُها كما يُنتزَعُ السَّفُودُ من الصُوفِ المبلولِ، فيأخذها، فإذا أخذها لم

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٦٩ و ٤٦٩٩ ومسلم ٢٨٧١ وأبو داود ٤٧٥٠ والترمذي ٣١٢٠ والنسائي في «التفسير» ٢٨٤ وعبد الرزاق ٦٧٣٧ والطبري ٢٠٧٥٩

يَدَعُوها في يده طرفة عينٍ، حتى يجعلُوها في المُسوح. ويخرج منها كأنتن ريح جيفةٍ وُجدت على وجهِ الأرضِ، فيصعدون بها فلا يَمرُّون بها على مَلأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروحُ الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان. بأقبح أسمائه التي كان يُسَمُّونه بها في الدنيا، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا، فيُستفتحُ له، فلا يُفتح له. ثم قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقول الله: اكتبُوا كتابه في سِجِّينٍ ـ في الأرض السفلى ـ فتُطرَح روحُه طَرْحاً. ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. فتُعاد روحه في جَسَدِه، ويأتيه مَلَكان فيُجلسانه ويقولان له: من ربُّك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري! فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري؟ فينادي منادٍ من السماء: أن كَذَب، فأفرِشُوه من النار، وافتحُوا له باباً إلى النار. فيَأتيه من حَرِّها وسَمُومِها، ويُضَيَّقُ عليه قبرُه حتى تختلِفَ فيه أضلاعهُ، ويأتيه رجلٌ قبيحُ الوجهِ، قَبِيحُ الثياب، مُنْتِنُ الريح فيقول: أبشر بالذي يَسوؤكَ، هذا يومك الذي كنت توعد! فيقول: ومن أنت؟ فوجهُكَ الوجهُ يجيءُ بالشر! فيقول: أنا عَمَلُك الخبيثُ، فيقول: رَبِّ، لا تُقِم الساعة»[١]. ورواه أبو داود من حديث الأعمش، والنسائي وابنُ ماجه، من حديث المِنهالِ بن عَمرو، به.

[٤٠٠٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزَّاق، حدثنا معمرٌ، عن يونس بن خَبَّاب، عن المنهالِ بن عمرو، عن زاذانَ، عن البَرَاء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: خَرَجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة. . . فذكر نحوه. وفيه: «حتى إذا خرج روحه صَلَّى عليه كلُّ مَلَكٍ بين السماء والأرض، وكلُّ مَلَكٍ في السماء، وفُتِحت أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وَهُم يدعُون الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يعرج بِرُوحِهِ من قِبَلِهم». وفي آخره: «ثم يُقَيَّض له أعمى أصمُّ أبكَمُ، وفي يده مِرْزَبَّة لو ضُرب بها جَبَلٌ لكان تراباً، فَيَضرِبُه ضربةً فَيَصِيرُ تُراباً: ثم يُعِيدُه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كما كان، فَيَضرِبُه ضربةً أخرى فيصيحُ صيحةً يسمَعُها كلُّ شيءٍ إلى الثَّقَلين. قال البَراءِ: ثم يفتح له باب إلى النار ويمهد له من فرش النار. وقال سفيان الثوري عن أبيه، عن خيثمة عن البراء في قولِهِ تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قال: عذابُ القبر[٢].

وقال المسعوديُّ، عن عبد الله بن مخارق عن أبيه عن عبد الله[٣] قال: إن المؤمن إذا مات أُجْلِسَ في قَبْرِهِ، فيقال له: من ربُّك؟ ما دينُك؟ من نَبيُّك؟ فَيُثَبِّته الله، فيقول: ربي الله، وديني الإسلامُ، ونَبيِّي محمدٌ ﷺ. وقرأ عبد الله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

[٤٠٠٣] وقال الإمام عبدُ بن حُمَيد ـ رحمه الله ـ في مسنده: حدثنا يونسُ بن محمد، حدثنا شيبانُ بن عبد الرحمن، عن قتادةَ، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وُضع في قبره، وتولَّى عنه أصحابُه، وإنه ليسمع قَرْعَ نِعَالهم، قال: فيأتيه مَلَكان فَيُقعِدَانه فيقولان له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمنُ فيقول: أشهدُ أنه عبدُ الله ورسولُه. قال: فَيُقال له: انظرُ إلى مَقْعَدِكَ من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة». قال نبيُّ الله ﷺ: «فيراهما جميعاً». قال قتادةُ: وذُكِر لنا أنه يُفسَحُ له في قبره سبعونَ

---

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٤٧٥٣ وأحمد ٤/ ٢٨٧ والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» ٢٠ و ٥٥ وصححه الحاكم ١/ ٣٧ ـ ٤٠ ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣/ ٥٠ وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وهو كما قالوا.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦ وإسناده جيد.

(٣) هو ابن مسعود رضي الله عنه.

ذراعاً، ويُملأُ عليه خَضِراً إلى يوم القيامة»[١]. رواه مُسلِم عن عبد بن حَميد، به، وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدّب، به.

[٤٠٠٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بنُ سعيدٍ، عن ابن جريج، أخبرني أبو الزُبير، أنه سأل جابر بنَ عبد الله عن فَتَّاني القبر فقال: سَمِعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «إن هذه الأمة تُبتلَى في قُبورها، فإذا أدخِلَ المؤمنُ قبرَه وتَوَلّى عنه أصحابُه، جاء مَلَكٌ شديدُ الانتهار، فيقول له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ؟ فيقولُ المؤمنُ: أقول: إنه رسولُ الله ﷺ وعبدُه. فيقول له الملَك: انظر إلى مقعدِك الذي كان لك في النار، قد أنجاك الله منه، وأبدلَك بمقعَدِك الذي تَرَى من النار مقعَدَك الذي تَرَى من الجنّةِ. فيراهما كِلَيهما. فيقول المؤمن: دَعُوني أُبَشّر أهلي. فيقال له: اسكن. وأمّا المنافقُ فيقعدُ إذا تولّى عنه أهلُه، فيقال له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، أقول كما يقولُ الناس. فيقال له: لا دَرَيتَ، هذا مَقعدُك الذي كان لك في الجَنّةِ، قد أبدِلْتَ مكانَه مقعَدَك من النار». قال جابر: فَسَمِعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «يُبعَثُ كُلُّ عبدٍ في القبر على ما ماتَ، المؤمِنُ على إيمانِهِ، والمنافقُ على نِفَاقِهِ»[٢]. إسنادُه صحيحٌ على شرط مُسلِم، ولم يخرجاه.

[٤٠٠٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عَبّاد بن راشد، عن داود بن أبي هندٍ، عن أبي نَضرة، عن أبي سَعيدِ الخدريِّ قال: شَهِدنا مع رسولِ الله ﷺ جنازةً، فقال رسولُ الله ﷺ: «يا أيها الناسُ، إن هذه الأمة تُبتَلى في قُبورها، فإذا الإنسانُ دُفِن وَتَفرّق عنه أصحابه جاءه مَلَكٌ في يده مِطراقٌ فأقعده، قال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمناً قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله. فيقول له: صدقتَ. ثم يفتَح له باباً إلى النار، فيقول: هذا كان منزلك لو كفرت بربّك، فأما إذ آمنت فهذا منزلك. فَيَفتح له باباً إلى الجنة، فيريد أن ينهض إليه، فيقول له: اسكن. ويُفسَحُ له في قبره. وإن كان كافراً أو منافقاً يقول له: ما تقولُ في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، سَمِعت الناسَ يقولون شيئاً. فيقول: لا دَرَيت ولا تَلَيت ولا اهتديتَ. ثم يَفتح له باباً إلى الجنة، فيقول له: هذا مَنْزلك لو آمنتَ بربّك، فأما إذا كفرت به فإن الله ـ عزّ وجلّ ـ أبدلك به هذا. فَيَفتح له باباً إلى النار، ثم يقمَعه قمعةً بالمطراق فيصيح صيحة يسمَعُها خَلْقُ الله ـ عزّ وجلّ ـ كلُهم غيرُ الثقلين. فقال بعضُ القوم: يا رسولَ الله، ما أحدٌ يقومُ عليه مَلَكٌ في يده مِطراقٌ إلا هِيلَ عند ذلك. فقال رسول الله ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾»[٣]. وهذا أيضاً إسنادٌ لا بأسَ به، فإنَّ عبّاد بنَ راشدِ التميمي رَوَى له البخاريُّ مقروناً، ولكن ضعفه بعضُهم.

[٤٠٠٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا حُسَين بن محمد، عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يَسَارٍ، عن أبي هُريرة، عن النبي ﷺ: «إنَّ الميت تحضُره الملائكةُ، فإذا كان الرجلُ الصالحُ قالوا: اخرجي أيتها النفسُ المطمئنةُ كانت في الجسد الطيب، اخرُجي حَميدةً، وأَبشِري برَوح

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٣٨ و مسلم ٣٨٧٠ وأحمد ٣/١٢٦ و ٢٣٣ وابن حبان ٣١٢٠ والنسائي في «الكبرى» ٢١٧٦.

(٢) أخرجه أحمد ٣/٣٤٦ عن موسى بن داود عن ابن لهيعة عن أبي الزبير به وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣/٤٨ وقال: وفيه ابن لهيعة وفيه كلام وبقية رجاله ثقات اهـ ولم أره من الطريق الذي ذكره المصنف.

(٣) حسن. أخرجه أحمد ٣/٣ والبزار ٨٧٢ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣/٤٧ ـ ٤٨ وقال: ورجاله رجال الصحيح اهـ وله شواهد يتقوى بها.

وريحانٍ وربٌ غيرِ غضبانَ». قال: «فلا يزالُ يُقال لها ذلك حتى تخرُجَ، ثم يُعْرَج بها إلى السماء، فَيُستَفْتَحُ لها فيقال: مَن هذا؟ فيقال: فلان. فيقولون: مرحباً بالرُّوح الطيبة كانت في الجسد الطيِّب، ادخلي حَميدةً، وأبشري بِرَوح وريحان، وربٌ غير غضبان». قال: فلاَ يزالُ يقالُ لها ذلك، حتى يُنتهَى بها إلى السماء التي فيها الله عَزَّ وجلَّ. وإذا كان الرجلُ السُّوءُ قالوا: اخرُجي أيتها النفسُ الخبيثةُ كانت في الجَسَد الخَبِيثِ، اخرُجي ذميمةً، وأبشري بحميم وغَسَّاق، وآخَرَ من شكله أزواجٌ. فلا يزالُ يُقَال لها ذلك حتى تخرُجَ، ثم يُعرج بها إلى السماء، فَيُستفتَحُ لها فيقال: مَن هذا؟ فيقال: فلانٌ، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثةِ كانت في الجسدِ الخبيثِ، ارجِعي ذميمةً، فإنه لا تُفتَح لكِ أبواب السماء. فَيُرسَل من السماء ثم يصير إلى القبر، فيجلس الرجلُ الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول، ويجلِسُ الرجل السُّوء فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول[1]. ورواه النسائي وابنُ ماجه، من طريق ابن أبي ذِئْب، بنحوه.

[٤٠٠٧] وفي صَحيح مُسلم عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: إذا خرجَت روحُ العبد المؤمن تَلقَّاها ملكان يصعَدان بها ـ قال حماد: فَذَكَر من طِيب ريحها وَذَكَرَ المِسْكَ ـ قال: ويقولُ أهلُ السماء: روحٌ طيِّبَةٌ جاءت من قِبَل الأرض، صَلَّى الله عليكِ وعلى جَسَدٍ كنت تَعْمُرينَه، فَيُنطَلَقُ به إلى ربِّه عز وجل فيقول: انطلِقُوا به إلى آخر الأجل. وإن الكافر إذا خرجت روحه ؛ قال حَمَّاد: وَذَكَرَ من نَتْنِها وَذَكَرَ مقتاً ـ ويقول أهلُ السماء: روحٌ خَبِيثَةٌ جاءت من قِبَل الأرض. قال: فيقال: انطلِقُوا به إلى آخر الأَجَلِ. قال أبو هُرَيرة: فَرَدَّ رسولُ الله ﷺ رَيْطَةً كانت عليه على أنفه، هكذا[2].

[٤٠٠٨] وقال ابن حِبَّان في صَحِيحه: حدثنا عُمَر بن محمد الهَمْدَاني، حدثنا زيد بن أَخْزَمَ، حدثنا مُعاذ بن هِشَام، حدثني أبي، عن قَتَادة، عن قَسَامة بن زُهَير، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ المؤمن إذا قُبِضَ أتته ملائكةُ الرحمة بحَريرةٍ بيضاءَ، فيقولون: اخرُجي إلى رَوحِ الله. فتخرجُ كأطيب ريحِ مسكٍ، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً يَشُمُّونه حتى يَأتوا به بابَ السماء، فيقولون: ما هذه الريحُ الطَيِّبة التي جاءت من قِبَلِ الأرض؟ ولا يأتون سماءً إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواحَ المؤمنين، فَلَهُم أشدُّ فَرَحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فَيقُولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دَعُوه حتى يستريح، فإنه كان في غَمٍّ! فيقول: قد مات، أما أتاكُم؟ فيقولون: ذُهِب به إلى أمِّه الهاوية. وأما الكافر فيأتيه ملائكةُ العذاب بِمِسْحٍ فيقولون: اخرُجي إلى غَضَب الله. فتخرج كأنتن ريحِ جيفةٍ، فَيُذْهَب به إلى باب الأرض»[3].

[٤٠٠٩] وقد رَوَى أيضاً مِنْ طريق همَّام بن يحيى، عن قتادةَ، عن أبي الجوزاء، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ بنحوه، قال: «فَيُسأل: ما فَعَل فلانٌ؟ ما فعل فلانُ؟ ما فعلَت فلانةُ؟ قال: وأما الكافر فإذا قُبضت نفسُه وذُهب بها إلى باب الأرض تَقُول خَزَنَةُ الأرضِ: ما وجدنا ريحاً أنتنَ من هذه! فَتَبْلَغُ بها الأرضَ السفلى. قال قتادةُ: وحدَّثني رجل، عن سَعِيد بن المسيّب، عن عبد الله بن عَمرو قال: أرواح المؤمنين تُجمع بالجَابِيَتَينِ، وأرواحُ الكُفَّار تجمع بِبَرَهُوتَ، سَبْخَةٍ بحضْرَمَوت[4].

---

(١) حسن. أخرجه أحمد ٢/ ١٤٠ و ٣٦٤ والنسائي في «الكبرى» ١١٤٤٢ وابن ماجه ٤٢٦٨ وإسناده حسن.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٧٢.

(٣) صحيح. أخرجه النسائي ٤/ ٨ ـ ٩ والحاكم ١/ ٣٥٣ وابن حبان ٣٠١٤ وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه ابن حبان ٣٠١٣ ورجاله ثقات، وله شواهد.

[٤٠١٠] وقال الحافظ أبو عيسى الترمذي ـ رحمه الله ـ: حدثنا يحيى بن خَلَف، حدثنا بِشْرُ بن المُفضَّل، عن عبد الرحمن بن إسحاقَ، عن سعيد بن أبي سَعِيد المَقْبرِي، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا قُبِرَ الميِّت ـ أو قال: أحدُكم ـ أتاه مَلَكان أسوَدان أزرقان، يقال لأحدهما: المُنكر، والآخر: النَّكِير، فيقولان: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقُول: هو عبدُ الله ورسولُه، أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه. فيقولان: قد كنا نعلَم أنك تقول هذا. ثم يُفسَح له في قبره، سبعونَ ذراعاً في سبعين. ثُم يُنَوَّر له فيه، ثم يقال له: نَمْ. فيقول أرجِعُ إلي أهلي فأخبرهم؟ فيقولان: نَمْ نومةَ العَرُوس الذي لا يُوقِظُه إلا أحَبُّ أهلِهِ إليه، حتى يَبعثه الله من مَضجَعِه ذلك. وإن كان منافقاً قال: سَمِعتُ الناسَ يقولون، فقلت مثلهم، لا أدري! فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقولُ ذلك، فيقال للأرض: التئِمي عليه. فَتَلْتَئِمُ عليه، فَتَختَلِفُ أضلاعُه، فلا يزالُ فيها مُعَذَّباً حتى يَبعَثَه الله من مَضجعِه ذلك»[1]. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

[٤٠١١] وقال حَمَّاد بن سلمة، عن مُحمَّد بن عَمْرو، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ـ قال: «ذاك إذا قيل له في القبر: من ربُّك؟ وما دِينُك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلامُ، ونَبِيِّي محمدٌ، جاءَنا بالبيناتِ من عند الله، فآمنتُ به وصدقتُ، فيقال له: صدقت، على هذا عِشتَ، وعليه مِتَّ، وعليه تُبعثُ»[2].

[٤٠١٢] وقال ابنُ جرير: حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد قالا: حدثنا يزيدُ، أنبأنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هُريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده إن الميِّتَ لَيسمَعُ خَفقَ نِعالهم حين يُوَلُّون عنه مُدبِرين، فإذا كان مؤمناً كانت الصلاةُ عند رأسه، والزكاةُ عن يمينه، والصيامُ عن يَساره، وكان فعلُ الخيراتِ من الصَّدَقةِ والصِّلة والمعروفِ والإحسانِ إلى الناس عند رِجْلَيه، فَيُؤتى من عند رأسه فتقول الصلاة: ما قِبَلي مَدخَلٌ. فَيُؤتى مِن عَن يمينه فتقول الزكاةُ: ما قِبَلي مدخلٌ. فَيُؤتى عن يَسارِه فيقول الصيامُ: ما قِبَلي مدخلٌ. فَيُؤتى من عندِ رجليه فيقول فعلُ الخيراتِ: ما قِبَلي مَدْخَلٌ. فيقال له: اجلِسْ. فيجلس قد مَثَلَتْ له الشمسُ قد دَنَت للغُروب، فيقال له: أخبِرْنَا عما نسألُكَ. فيقول: دَعُوني حتى أصلِّي. فيقال: إنك ستفعلُ، فأخبرنا عما نسألك. فيقول: وعَمَّ تسألوني؟ فيقال: أرأيتَ هذا الرجل الذي كان فيكُم، ماذا تقولُ فيه، وماذا تشهدُ به عليه؟ فيقول: أمحمدٌ؟ فَيُقال له: نعم. فيقول: أشهد أنه رسولُ الله، وأنه جاءنا بالبيِّناتِ من عند الله فَصدَّقناه. فيقال له: على ذلك حَيِيتَ، وعلى ذلك مِتَّ، وعلى ذلك تُبعَثُ إن شاء الله. ثم يُفسَحُ له في قَبره، سبعون ذراعاً، ويُنَوَّر له فيه، ويُفتَح له بابٌ إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى ما أَعَدَّ الله لك فيها. فيزداد غبطةً وسروراً ثم يُفتَح له باب إلى النار فيقال له: انظر إلى ما صَرَف الله عنك لو عَصَيته. فيزداد غبطة وسروراً. ثم يُجعَلُ نَسَمُه في النسم الطيِّب، وهي طيرٌ خُضرٌ تَعلَقُ بشجر الجنة، ويُعاد الجَسَد إلى ما بُدِئ منه من التُّراب»، وذلك

---

(١) جيد. أخرجه الترمذي ١٠٧١ وقال: حسن غريب. وأخرجه ابن حبان ٣١١٧ وابن أبي عاصم ٨٦٤ والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» ٥٦ من وجه آخر عن عبد الرحمن بن إسحاق به وإسناده جيد.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠٧٦٠ وإسناده حسن لأجل محمد بن عمرو.

قولُ الله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[١]. ورواه ابن حِبّان من طريق المُعتمر بن سليمان، عن محمد بن عَمرو، وذكر جَوابَ الكافِر وعذَابَه.

[٤٠١٣] وقال البزّار: حدثنا سعيد بن بحر القراطيسي، حدثنا الوليد بن القاسم، حدثنا يزيد بن كيسانَ، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيرة ـ أحسَبه رَفَعه ـ قال: «إن المؤمنَ ينزل به الموتُ، ويُعاين ما يُعاين، فيودُّ لو خرجَت ـ يعني نفسه ـ والله يحب لقاءه، وإن المؤمن يُصعَد بروحه إلى السماء، فتأتيه أرواحُ المؤمنين، فتستخبرُه عن معارفهم من أهل الأرض، فإذا قال: تركت فلاناً في الأرض، أعجبهم ذلك. وإذا قال: إن فلاناً قد ماتَ، قالوا: ما جِيءَ به إلينا. وإنَّ المؤمن يُجلَسُ في قبره، فَيُسأَلُ: من ربُّك؟ فيقولُ: ربِّي الله، وَيُسأَلُ: مَن نَبِيُّك؟ فيقولُ: محمد نَبِيِّي. فيقال: ما دينُك؟ قال: ديني الإِسلام. فَيُفتَح له بابٌ في قبره، فيقول ـ أو: يقال ـ: انظر إلى مجلسك. ثم يرى القبر فكأنما كانت رَقْدَةً، وإذا كان عَدوُّ الله نَزَلَ به الموتُ وعايَن ما عاين، فإنه لا يُحب أن تخرُج روحُه أبداً، والله يُبغِضُ لقاءَه، فإذا جلس في قبره ـ أو: أُجلِسَ ـ يقال له: من ربُّك؟ فيقول: لا أدري. فيُقال: لا دَريت! فَيُفتَح له بابٌ من جهنم، ثم يُضرَبُ ضربةً يسمعها كلُّ دابة إلا الثقلين، ثم يقال له: نَم كما ينام المنهوشُ. قلت لأبي هُرَيرة: ما المنهوشُ؟ قال: الذي تَنْهَشُه الدواب والحيَّاتُ. ثم يُضَيِّق عليه قبرُه»[٢]. ثم قال: لا نعلَم رواه إلا الوليدُ بن القاسم.

[٤٠١٤] وقال الإمام أحمدُ ـ رحمه الله ـ: حدثنا حُجَين بن المثنى، حدَّثنا عبدُ العزيز بن أبي سَلَمة الماجِشُون، عن محمد بن المنكدر قال: كانت أسماءُ ـ يعني بنتَ الصدِّيق، رضي الله عنها ـ تُحدِّث عن النبي ﷺ قالت: قال: «إذا دخل الإِنسانُ قبره، فإن كان مؤمناً أَحَفَّ به عملُه: الصلاةُ والصيام، قال: فيأتيه المَلَكُ من نحو الصلاة فتردُّه، ومن نحو الصيام فيردُّه، قال: فيناديه: اجلس. فيجلسُ. فيقول له: ماذا تقول في هذا الرجل؟ يعني النبي ﷺ. قال: مَن؟ قال: محمدٌ. قال: أشهد أنه رسولُ الله، قال: يقولُ: وما يُدريك؟ أدركته؟ قال: أشهدُ أنه رسولُ الله. قال: يقولُ: على ذلك عشت، وعليه متَّ، وعليه تُبعَثُ. وإن كان فاجراً أو كافراً، جاءه المَلَك ليس بينه وبينه شيءٌ يَرُدّه، فأجلَسه يقول: اجلس، ماذا تقولُ في هذا الرجل؟ قال: أيّ رجل؟ قال: محمد؟ قال يقول: والله ما أدري، سَمِعت الناسَ يقولون شيئاً فقلتُه. قال له المَلَك: على ذلك عشتَ، وعليه متّ، وعليه تبعثُ. قال: وتسلَّط عليه دابةٌ في قبره، معها سوطٌ تَمْرَتُه جَمرَةٌ مثلُ غَرْب البعِيرِ، تضربه ما شاء الله، صَمَّاء لا تسمع صوتَه فترحَمُه»[٣].

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في هذه الآية قال: إنَّ المؤمن إذا حَضَره الموت شَهدته الملائكةُ، فَسلَّموا عليه وبَشَّروه بالجنة، فإذا مات مَشَوا مع جَنَازته، ثم صَلَّوا عليه مع الناسِ، فإذا دُفِن أُجلِسَ في قبره فيقال له: من ربُّك؟ فيقول: ربي الله. فيقال له: مَن رسولك؟ فيقول: محمدٌ ﷺ. فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأشهد أَنَّ محمداً رسولُ الله. فَيُوسع له في قبره مدَّ بَصَره، وأما

---

(١) حسن. أخرجه الحاكم ١/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠ والطبري ٢٠٧٦١ وعبد الرزاق ٦٧٠٣ وابن حبان ٣١١٣، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣/ ٥١ ـ ٥٢ وقال: رواه الطبراني وإسناده حسن. وهو كما قال.

(٢) أخرجه البزار ٨٧٤ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣/ ٥٢ ـ ٥٣ وقال: ورجاله ثقات خلا سعيد بن بحر القراطيسي، فإني لم أعرفه اهـ. قلت: لأصله شواهد كما ترى.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣ وذكره الهيثمي في / المجمع ٣/ ٥١ وقال: ورجاله رجال الصحيح.

الكافر فتنزل عليه الملائكةُ، فيبسُطون أيديهم - والبَسْطُ هو الضرب - يضربون وجوهَهم وأدبارَهم عند الموت. فإذا أدخِلَ قبره أقعِدَ فقيل له: مَن ربُّك؟ فلم يَرْجِع إليهم شيئاً، وأنساه الله ذِكرَ ذلك. وإذا قيل: منِ الرسولُ الذي بُعِثَ إليكم؟ لم يهتدِ له، ولم يرجع إليه شيئاً، كذلك يُضِلُّ اللهُ الظالمين.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن عثمان بن حَكيم الأوديُّ، حدثنا شُريح بن مسلمة، حدثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبي إسحاقَ، عن عامر بن سعد البَجَليِّ، عن أبي قتادةَ الأنصاريِّ في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الآية، قال: إن المؤمن إذا مات أجْلِسَ في قبره، فيقال له: من ربُّك؟ فيقولُ: الله. فيقال له: من نبيُّك؟ فيقول: محمد بن عبد الله. فيقال له ذلك مرات. ثم يُفتَح له بابٌ إلى النار، فيقال له: انظر إلى مَنزلك في النار لو زِغْتَ. ثم يُفتح له بابٌ إلى الجنة، فيقال له: انظُر إلى مَنزِلك من الجنة إذ ثَبَتَّ. وإذا مات الكافرُ أجلِس في قبرِه، فيقال له: من ربُّك؟ من نبيُّك؟ فيقول: لا أدري كنتُ أسمَعُ الناسَ يقولون. فيقال له: لا دَرَيت. ثم يُفتَح له بابٌ إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك لو ثَبَتَّ ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظُر إلى منزلك إذْ زِغتَ، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

وقال عبد الرزّاق، عن معْمرٍ، عن ابن طاووس، عن أبيه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قال: لا إله إلا الله، ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، المسألة في القبر. وقال قتادةُ: أما الحياةُ الدنيا فيُثَبِّتهم بالخير والعملِ الصالحِ، ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، في القبرِ. وكذا رُوي عن غير واحد من السَّلَف.

[٤٠١٥] وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذيُّ في كتابه «نَوَادِر الأصول»: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن نافع، عن ابن أبي فُدَيكٍ، عن عبد الرحمن بن عبد الله، عن سعيد بن المُسَيِّب، عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم، ونحنُ في مسجد المدينةِ، فقال: «إني رأيتُ البارحةَ عَجباً، رأيتُ رَجُلاً من أمتي جاءَه مَلَكُ الموت لِيقبضَ روحَه، فَجاءه برُّه بوالديه فَردَّ عنه. ورأيتُ رَجُلاً من أُمّتي قد بُسِطَ عليه عذابُ القبر، فجاءَه وُضوءُه فاستنقذه من ذلك. ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطينُ فجاءه ذكرُ الله فَخلَّصه مِن بَينهم. ورأيت رجُلاً من أمّتي قد احتَوشَتْه ملائكة العذاب، فجاءته صلاتُه فاستنقَذَتْه من أيديهم ورأيتُ رَجُلاً من أُمّتي يَلْهثُ عطشاً، كُلّما وَرَد حَوضاً مُنِعَ منه، فجاءه صيامُه فَسقاه وَأرْواه. ورأيتُ رجلاً من أمتي والنبيُّون قعودٌ حِلقاً حِلقاً، وكلّما دنا لحلقة طَرَدُوه، فجاءه اغتسالُه من الجَنابة، فأخذَ بيده فأقعدَه إلى جنبي. ورأيت رجلاً من أمّتي من بين يديه ظُلمة، ومن خَلفه ظُلمة، وعن يمينه ظُلمة، وعن شِمَالِهِ ظُلمة، ومن فوقه ظُلمة، ومن تحته ظُلمة، فهو متحيِّر فيها فجاءته حَجَّتُه وعُمرتُه، فاستخرجاه من الظُّلمة وأدخلاه النُور. ورأيت رَجُلاً من أُمتي يُكلّم المؤمنين فلا يُكلّمونه، فجاءته صِلَةُ الرَّحم، فقالت: يا معشرَ المؤمنين، كَلِّموه. فَكلَّموه. ورأيتُ رَجُلاً من أمّتي يتّقي وَهجَ النّار أو شَررَها بيده عن وَجهه، فجاءته صَدَقته فصارت سِتراً على وجهه وظِلاً على رأسه. ورأيت رَجُلاً من أمتي قد أخذته الزبانية من كلِّ مكان، فجاءه أمرُه بالمعروف ونهيُه عن المنكر فاستنقذاه من أيْدِيهم، وأدخلاه مع ملائكة الرحمة. ورأيتَ رَجُلاً من أمتي جاثياً على رُكبتيه، بينه وبين الله حِجَابٌ، فجاءه حسن خُلقُه، فأخذ بيدِه فأدخَلَه على الله عز وجلّ. ورأيتُ رجلاً من أمتي قد هَوَت صحيفتُه من قِبَل شماله، فجاءه خوفه من الله فأخذ صَحِيفَته، فجعلها في يمينه. ورأيتُ رَجُلاً من أمّتي قد خَف ميزانه، فجاءته أفراطُه فَثَقَّلُوا ميزانه. ورأيت رَجُلاً من أمتي قائماً على شَفِير جَهنّم، فجاءه وَجَلُه من الله فاستنقَذَه من ذلك ومضى. ورأيت رَجُلاً من أمتي هَوَى في النار، فجاءته دموعُه التي بكى

من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار. ورأيتُ رَجُلاً من أمّتي قائماً على الصراط يُرْعَدُ كما تُرعَدُ السَّعفةُ[1]، فجاء حسنُ ظنّه بالله، فسكَّن رِعْدَته ومضى. ورأيتُ رَجُلاً من أمّتي على الصِراط يَزحفُ أحياناً ويحبُو أحياناً، فجاءته صلاتُه عليَّ، فأخذت بيده فأقامته ومَضَى على الصِراط. ورأيتُ رَجُلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة، فأُغلِقت الأبوابُ دونه، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله فَفتَحت له الأبوابَ وأدخَلَته الجنةَ»[2]. قال القرطبيُّ بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه: هذا حديثٌ عظيم، ذكرَ فيه أعمالاً خاصة تُنَجِّي من أهوال خاصة. أورده هكذا في كتابه التذكرة.

[٤٠١٦] وقد رَوى الحافظُ أبو يعلى الموصليُّ في هذا حديثاً غريباً مُطَوّلاً، فقال: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن إبراهيم النُكْري، حدثنا محمد بن بكر البُرساني أبو عثمان، حَدَّثنا أبو عاصم الحَبَطِيُّ ـ وكان من خِيَارِ أهل البصرةِ وكان من أصحاب حَزْم وسلام بن أبي مطيع ـ حدثنا بكر بن خُنَيس، عن ضِرَارِ بن عمرو، عن يزيدَ الرَّقاشي، عن أنس بن مالك، عن تَميم الدَّاريِّ، عن النبي ﷺ قال: يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ لملك الموت: انطلِق إلي وَلِيِّي فَأْتِني به. فإني قد ضَرَبْتُه بالسَرّاء والضَرّاء، فوجدتُه حيث أحِبُّ. ائتِني بِهِ فَلأريحنّه. فينطلق إليه ملَك الموتِ ومعه خمسُمئةٍ من الملائكةِ، معهم أكفانٌ وحَنُوطٌ من الجَنّةِ، ومعهم ضَبائر الرَّيْحان، أصلُ الريحانة واحدٌ وفي رأسِها عِشرُون لوناً، لكلِّ لونٍ منها ريحٌ سِوَى ريح صاحِبِه، ومعهم الحَرِيرُ الأبيضُ فيه المسك الأذْفَر. فيجلس مَلَكُ الموتِ عند رأسِهِ وتَحفُّ به الملائكة، ويَضَع كلُّ مَلَك منهم يَده على عضو من أعضائه ويَبْسط ذلك الحريرَ الأبيضَ والمِسك الأذفَر تحت ذقنه، ويُفتَح له بابٌ إلى الجنةِ، فإنَّ نفسَه لتَعَلَّلُ عند ذلك بطُرَفِ الجنة تارة وبأزواجها تارة، ومرّةً بِكسْوتِها، ومَرّةً بثمارها، كما يُعَلَّلُ الصبيُّ أهلُه إذا بَكى. قال: وإن أزواجه لَيَبتهشْنَ عند ذلك ابتهاشاً. قال: وتنزو الروحُ ـ قال البُرْسَاني: يريد أن تَخرُج من العَجَل إلى ما تُحبُّ ـ قال: ويقول مَلَكُ الموت: اخرُجي يا أيتها الروحُ الطيبة، إلى سِدْرٍ مخضودٍ، وطَلْحٍ منضود، وظِلٍّ ممدُودٍ وماءٍ مَسكُوب. قال: ولَمَلَكُ الموت أشدُّ به لُطفاً من الوالدةِ بولدها، يعرف أن ذلك الروح حَبيب لربِّه، فهو يَلتمِسُ بلُطفِهِ تَحبُّباً لديه رضاءً للربِّ عنه، فَتُسَلّ روحُه كما تُسَلُّ الشعرةُ من العَجِين. قال: وقال الله عزَّ وجل: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢]. وقال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]، قال: رَوحٌ من جِهة الموت، وريحانٌ يُتلقّى به، وجنةُ نَعيم تُقَابِله. قال: فإذا قَبَض ملكُ الموتِ رُوحه، قال الروحُ للجَسَد: جَزاك الله عَني خيراً فقد كنتَ سَريعاً بي إلى طاعةِ الله، بَطِيئاً بي عن مَعْصيةِ الله، فقد نَجّيتَ وأنجيتَ. قال: ويقول الجَسدُ للرُوحِ مثلَ ذلك. قال: وتبكِي عليه بقاعُ الأرض التي كان يُطيع الله فيها، وكلُّ باب من السماء يصعَد منه عملُه. ويَنزِل مِنه رزقُه أربعين ليلةً. قال: فإذا قَبَض مَلَكُ الموتِ رُوحَه، أقامت الخمسمئةُ من الملائكةِ عند جَسَدِه، فلا يُقْلِبهُ بنُو آدم لشقٍّ إلا قَلَبته الملائكة قبلهم، وغَسَّلته وكَفّنته بأكفانٍ قبل أكفانِ بني آدم، وحَنُوطٍ قبل حنُوطِ بني آدم، ويَقوم من بين باب بيته إلى باب قبره صَفّان من الملائكة، يَستقبِلُونه بالاستغفار، فَيَصِيحُ عند ذلك إبليسُ صيحة تتصدَّعُ منها عظامُ جسده، قال: ويقولُ لجُنودِهِ: الويلُ لكم! كيف خلَص هذا العبدُ منكم؟ فيقولُون: إنّ هذا كان عبداً معصُوماً. قال: فإذا صَعِد ملكُ الموتِ بِرُوحه يستقبله جبريلَ في سبعينَ ألفاً من الملائكة، كلٌّ يأتيه ببشارةٍ من ربِّه سوى بشارة صاحِبه، قال: فإذا انتهى مَلَكُ الموتِ بِرُوحِه إلى العرش، خرَّ الروحُ ساجِداً قال: يقول

(١) السعفة: ورق النخلة.

(٢) ضعيف جداً. فيه عبد الله بن نافع مولى ابن عمر، قال البخاري: منكر الحديث. وقال النسائي: متروك.

الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لِملَك الموتِ: انطلِق برُوح عبدي فضعه ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١﴾ [الواقعة: ٢٨ ـ ٣١]، قال: فإذا وُضِع في قبره جاءته الصلاة فكانت عن يمينه وجاءه الصيامُ فكان عن يساره، وجاءه القرآن فكان عند رأسه، وجاءه مَشْيهُ إلى الصلاة فكان عند رجليه، وجاءه الصَّبْرُ فكان ناحيةَ القبر. قال: فيبعثُ الله عزَّ وجلَّ عُنُقاً من العذاب، قال: فيأتيه عن يمينه قال: فتقول الصلاة: وراءَكَ، والله ما زال دائباً عمرَه كلَّه، وإنما استراح الآن حين وضع في قبره. قال: فيأتيه عن يساره، فيقول الصيامُ مثل ذلك، قال: ثم يأتيه من عند رأسِه، فيقول القرآن والذكر مثل ذلك، قال: ثم يأتيهِ من عند رجلَيه، فيقول مشيُه إلى الصلاة مثل ذلك. فلا يأتيه العذابُ من ناحية يلتمسُ هل يجدُ إليه مَساغاً إلا وجدَ وليَّ الله قد أخذَ جُنَّته، قال: فينقمعُ العذابُ عند ذلك فيخرُج، قال: ويقولُ الصبرُ لسائر الأعمال: أما إنَّه لَم يمنعني أن أباشِرَ أنا بنفسي إلا أنّي نظرتُ ما عندكم، فإن عجزتُم كنت أنا صاحبه، فأما إذ أجزأتُم عنه فأنا له ذُخرٌ عند الصِّراط والميزانِ. قال: ويبعَثُ الله مَلَكين أبصارُهما كالبرق الخاطف، وأصواتُهما كالرَّعد القاصفِ، وأنيابُهما كالصَّياصِي، وأنفاسُهما كاللَّهب، يطآان في أشعارِهما، بينَ مَنْكِب كلِّ واحدٍ مسيرةُ كذا وكذا، وقد نُزِعَت منهما الرأفةُ والرحمةُ، يقال لهما: مُنكَر ونَكِير، في يدِ كلِّ واحد منهما مِطرَقةٌ، لو اجتمع عليها ربيعةُ وَمُضَرُ لَم يُقِلُّوها. قال: فيقُولان له: اجلس. قال: فيجلِسُ فيستوي جالساً. قال: وتَقَع أكفانُه في حَقْوَيهِ قال: فيقولون له: من ربُّك؟ وما دينُك؟ ومن نبيُّك؟ قال: قالوا: يا رسول الله، ومن يُطيق الكلام عند ذلك، وأنت تَصِف مِنَ المَلَكين من تَصفُ؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾. قال: فيقولُ رَبّي الله وحدَه لا شريكَ له، وديني الإسلامُ الذي دانت به الملائكةُ، ونَبيِّي محمدٌ خاتَمُ النبيِّين، قال: فيقولان: صدقت. قال: فَيَدفَعانِ القبرَ فَيُوسِّعان من بين يَدَيه أربعين ذراعاً، وعن يمينه أربعينَ ذراعاً، وعن شماله أربعينَ ذراعاً، ومن خلفه أربعين ذِراعاً، ومِن عند رأسِهِ أربعين ذراعاً، ومِن عند رأسِهِ أربعينَ ذراعاً، ومن عند رِجلَيه أربعينَ ذراعاً. قال: فيوسعان له مئتي ذراع ـ قال البُرسانيُّ: فأحسَبُه: وأربعين ذراعاً تُحاطُ به ـ قال: ثم يقولان له: انظُر فوقك، فإذا بابٌ مفتوحٌ إلى الجنّةِ، قال: فَيَقُولاَن له: وَليَّ الله، هذا منزلك إذ أطعتَ الله. فقال رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسُ محمد بيده إنه يَصِلُ إلى قلبه عند ذلك فرحةٌ، ولا تَرتدُّ أبداً»، ثم يقال له: انظر تحتك. قال: فينظُر تحته فإذا بابٌ مفتوحٌ إلى النار. قال: فيقولان: وَلِي اللّهِ، نجوتَ آخِرَ ما عليك. قال: فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتدُّ أبداً». قال: فقالت عائشةُ: يُفتَح له سبعةٌ وسبعونَ باباً إلى الجنةِ، يأتيه ريحُها وبردُها، حتى يَبْعَثه الله عزَّ وجلَّ[(١)].

[٤٠١٧] وبالإسناد المتقدِّم إلى النبي ﷺ قال: ويقولُ الله تعالى لِمَلَكِ الموتِ: انطلِق إلى عَدُوّي فَأْتِني به، فإني قد بَسطتُ له رِزْقِي، ويَسَّرت له نِعْمَتي، فأبى إلاَّ معصيتي، فَأْتِني بهِ لأنتقِمَ منه. قال: فينطلقُ إليه مَلَكُ الموتِ في أكرهِ صُورةٍ رآها أحدٌ من الناس قَطُّ، له اثنتا عشرةَ عيناً، ومعه سَفُّودٌ[(٢)] من النار كثيرُ الشوك، ومعه خمسمئةٍ من الملائكة، معهم نحاس وجَمْر من جمر جَهَنَّم، ومعهم سياطٌ من نار، لِينُها لِينُ السِّياط وهي نارٌ تأجَجُ، قال: فَيَضربُه مَلَكُ الموتِ بذلك السفُّود ضربة يَغيبُ كلُّ أصلِ شوكةٍ من ذلك السفُّود في أصل كُلِّ شَعَرة وعِرْقٍ وظُفرٍ. قال: ثم يَلْويه لَيّاً شَدِيداً. قال: فَيَنزعُ رُوحَه من أظفارِ قَدَميه، قال: فَيُلقيها

(١) ضعيف جداً، فيه الرقاشي والملطي وبكر بن خنيس ثلاثتهم ضعفاء، والخبر شبه موضوع، وانظر ما بعده.

(٢) حديدة يشوىٰ بها.

في عقبيه، ثم يَسْكَر عند ذلك عدوُّ الله سَكرَةً، فَيُرفِّهُ ملك الموت عنه. قال: وتضربُ الملائكة وجهَه ودُبُره بتلك السِّياط، قال: فَيشُدُّه مَلَكُ الموتِ شدة فَيَنزع روحَه من عقبيه، فَيُلقِيها في ركبتيه، ثم يَسْكَر عدوُّ الله عند ذلك سَكرة، فَيُرفِّه ملك الموت عنه. قال: فتضرب الملائكة وَجْهَه ودُبُره بتلك السياط قال: ثم يَنْتُرُه مَلَكُ الموت نَترةً فينزعُ رُوحَه من ركبتيه فَيُلقِيها في حقوَيه، قال: فَيَسْكَر عَدُوُّ الله عند ذلك سكرة، فَيُرفِّه مَلَكُ الموتِ عنه، قال: وتَضرِبُ الملائكة وجهَه ودُبُره بتلكَ السِّياطِ، قال: كذلك إلى صَدْره. ثم كذلك إلى حَلْقِه، قال: ثم تَبْسُط الملائكةُ ذُلِك النحاسَ وجَمْرَ جَهَنَّم تحت ذقنه، قال: ويقولُ مَلَكُ الموتِ: اخرُجِي أَيَّتُها الروحُ اللعينة المَلعونةُ إلى ﴿سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤٢ ـ ٤٤]، قال: فإذا قبضَ مَلَكُ الموتِ رُوحَه قال الروحُ للجسد: جَزاك الله عنِي شرّاً، فقد كنتَ سَريعاً بي إلى معصيةِ الله، بَطِيئاً بي عن طاعة الله، فقد هلكتَ وأهلكتَ. قال: ويقول الجَسَدُ للروح مثل ذلك، وتَلعنه بقاعُ الأرضِ التي كان يعصِي الله عليها، وتنطلقُ جنودُ إبليسَ إليه فَيُبشِّرونه بأنهم قد أوردوا عبداً من ولدِ آدَم النارَ.

قال: فإذا وُضع في قبره ضُيِّق عليه قبرُه حتى تختلف أضلاعُه، حتى تدخُلَ اليمنى في اليسرى، واليُسرى في اليُمنى قال: ويبعث الله إليه أفاعِيَ دُهماً[١] كأعناقِ الإِبِل يأخذن بأرْنَبَتِه وإبهامَي قدميه، فيقْرِضنه حتى يَلْتَقِين في وَسَطه. قال: ويبعَثُ الله مَلَكين أبصارُهما كالبرق الخَاطِفِ، وأصواتُهما كالرَعدِ القاصفِ، وأنيابُهما كالصَياصي، وأنفاسُهما كاللهب، يطأان في أشعارهما، بين مَنْكِبي كُلِّ واحد منهما مسيرة كذا وكذا، قد نُزِعت منهما الرأفة والرحمة، يقال لهما: مُنكَرٌ ونَكِير، في يدِ كُلِّ واحدٍ منهما مِطرَقةٌ، لو اجتمعَ عليها ربيعةُ ومُضَر لم يُقِلُّوها. قال: فيقولان له: اجلس. قال: فيستوي جالساً، قال: وتقع أكفانُه في حقوَيه، قال: فيقولان له: من ربُّك؟ وما دينُك؟ ومن نبيُّك؟ فيقول: لا أدري. فيقولان: لا دَرَيت ولا تَلَيتَ! فيضربانه ضربةً يتطاير شَرَرُهَا في قبره، ثم يَعُودان، قال: فيقولان: انظُر فوقك. فينظر، فإذا بابٌ مفتوحٌ من الجنة، فيقولان: ـ عَدُوَّ الله ـ هذا منزلُك لو أطعْتَ الله. قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيدِهِ إنه لَيَصِلُ إلى قلبه عند ذلك حسرةٌ لا ترتدُّ أبداً». قال: ويقولان له: انظر تحتك. فينظر تحته. فإذا بابٌ مفتوح إلى النار، فَيَقُولان: عَدُوَّ الله، هذا منزلُك إذْ عَصَيت الله. قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه لَيَصِلُ إلى قلبه عند ذلك حَسْرَةٌ لا ترتدُّ أبداً». قال: وقالت عائشة: ويُفتَحُ له سبعةٌ وسبعون باباً إلى النار، يأتيه حَرُّها وسَمُومُها حتى يبعثه الله إليها[٢]. هذا حديثٌ غَريبٌ جداً، وسياقٌ عَجِيبٌ، ويَزِيدُ الرَّقاشيُّ راوِيهِ عن أنسٍ له غرائبُ ومُنكرَاتٌ، وهو ضعيفُ الرِّوايةِ عند الأئمة، والله أعلم.

[٤٠١٨] ولهذا قال أبو داود: حَدَّثنا إبراهيم بن موسى الرَّازيُّ، حدثنا هشامُ ـ هو ابن يوسف ـ عن عبد الله بن بَحِير، عن هانيء مولى عثمان، عن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبيُّ ﷺ إذا فَرَغ من دفنِ الرجل وقفَ عليه فقال: «استغفِرُوا لأخيكم، واسألوا له بالتَّثبيتِ، فإنه الآن يُسأَلُ»[٣]. انفردَ به أبو داودَ. وقد أورد الحافظُ أبو بكر بن مَرْدَويه عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟

---

(١) الأدهم: الأسود.

(٢) إسناده ضعيف لضعف يزيد بن أبان الرقاشي، ضعفه الأئمة، روى مناكير كثيرة. وعنه ضرار بن عمرو هو الملطي. قال الذهبي في الميزان ٣٩٥٣: قال يحيى عنه: لا شيء. وقال الدولابي فيه نظر اهـ. وعنه بكر بن خُنيس، ذكره الذهبي في الميزان ١٢٧٨ وقال: قال ابن معين: ليس بشيء، وقال مرة: لا بأس به، وقال أبو حاتم: صالح، وقال الدارقطني: متروك، وقال ابن حبان: يروي أشياء موضوعة اهـ فالحديث مسلسل بالضعفاء كما ترىٰ.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٢٢١ وهو حديث حسن، وتقدم.

أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]. . . الآية، حديثاً مطولاً جداً، من طريق غريب، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه غرائبُ أيضاً.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

قال البخاريُّ: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾. الم تعلم، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [الفيل: ١]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤٣]. البوار: الهلاك، بار يَبُور بَوراً، وقوماً بوراً: هالكين. حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سُفيان، عن عَمرو، عن عطاءٍ سَمِع ابنَ عَبّاسٍ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾، قال: هم كُفّار أهل مكة. وقال العوفيُّ، عن ابن عباس في هذه الآية: هو جَبلةُ بن الأَيْهَم والذين اتَّبعوه من العَرَبِ، فَلحقُوا بالرُّوم. والمشهورُ الصحيح عن ابن عباس هو القولُ الأول، وإن كان المعنى يَعُمُّ جميع الكفار؛ فإن الله تعالى بعَث محمداً ﷺ رحمةً للعالمين، ونعمةً للناس، فمن قَبِلها وقام بِشُكرِها دَخَلَ الجنَّة، ومن ردَّها وكَفَرَها دَخَل النار. وقد رُوِي عن علي نحوُ قولِ ابن عباس الأول، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا شعبةُ، عن القاسم بن أبي بَزَّة، عن أبي الطُّفَيل؛ أن ابن الكَوَّاء سأل علياً عن: ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾، قال: كفار قريشٍ يومَ بدر. حدَّثنا المنذرُ بن شاذان، حدثنا يعلَى بن عُبَيد، حدثنا بسَّام ـ هو الصيرفيُّ ـ عن أبي الطُّفيل قال: جاء رجلٌ إلى عليٍّ فقال: يا أميرَ المؤمنين، مَنِ الذين بدلوا نعمةَ الله كفراً وأحلُّوا قومهم دارَ البَوَار؟ قال: منافِقُوا قريش. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدَّثنا ابنُ نُفيل قال: قرأت على معقل، عن ابن أبي حُسَين قال: قام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقال: ألا أحدٌ يسألني عن القرآن؟ فوالله لو أعلَمُ اليوم أحداً أعلَمَ منّي به، وإن كان وَرَاء البحار، لأتيتهُ. فقام عبد الله بن الكَوَّاء فقال: مَنِ الذين بَدَّلوا نعمةَ الله كفراً وأحلُّوا قومهم دار البَوار؟ فقال: مشركو قريش، أتتهم نعمةُ الله: الإيمانُ، فَبَدَّلوا نعمةَ الله كفراً وأحلُّوا قومَهم دار البوار.

وقال السديُّ في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ الآية! ذكر مسلم المستوفي عن علي أنه قال: هما الأفجران من قريش: بَنُو أمية، وبنو المُغِيرة، فأما بَنُو المغيرة فأحلُّوا قومهم دار البوار يوم بدر، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أُحُدٍ. وكان أبو جهل يومَ بدر. وأبو سفيانَ يومَ أحدٍ. وأما دار البَوَار فهي جهنم. وقال ابن أبي حاتم ـ رحمه الله ـ: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا الحارث بن منصور، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق عن عمرِو بن مُرّ قال: سمعتُ علياً قرأ هذه الآيةَ: ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾، قال: هما الأفجَران من قريشٍ، بنو أمية وبنو المُغَيرة فأهلِكُوا يوم بدر، وأما بَنُو أمية فمتَّعوا إلي حين. ورواه أبو إسحاقَ، عن عَمرو ذي مر، عن علي، نحوه. ورُوِيَ من غير وجهٍ عنه. وقال سفيان الثوري، عن عليّ بن زَيد، عن يوسف بن سعد، عن عُمَر بن الخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾، قال: هما الأفجرانِ من قُرَيش: بَنُو المغيرة وبنو أميّة، فأما بنو المغيرة فكُفيتموهُم يوم بدر، وأما بَنُو أُمَيَّةَ فَمُتِّعوا إلى حين. وكذا رواه حمزةُ الزياتُ، عن عمرو بن مُرّة قال: قال ابن عباس لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، هذه الآيـة، ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾، قال: هـم الأفـجـران من قُرَيش: أخوالي وأعمامك، فأما أخوالي فاستأصلهم الله يوم بدر، أما أعمامُكَ فَأَمْلَى الله لهم إلى حين. وقال مجاهد، وسعيد بنُ جُبَير، والضحاك، وقتادة، وابنُ زَيدٍ: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر. وكذا رَوَاه مالك في تفسيره، عن نافعَ، عن ابن عمر.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِۦ﴾، أي: جعَلوا له شركاء عَبَدُوهم معه، ودعَوُا الناس إلى ذلك. ثم قال تعالى: مُهَدِّداً لهم ومتوعِّداً لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾، أي: مهما قدرتُم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾، أي: مَرْجِعكم وموئلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٧٠].

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً العبادَ بطاعته والقيام بحقِّه، والإحسان إلى خَلقه، بأن يُقِيموا الصلاةَ، وهي عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له، وأن يُنفِقوا مما رَزَقهم الله بأداء الزكوات، والنفقة على القَرَابات والإحسان إلى الأجانب. والمرادُ بإقامتها هو: المحافظةُ على وَقتها وحدُودِها، وركُوعِها وخُشوعها وسُجودها. وأمر تعالى بالإنفاق مما رَزق في السرِّ، أي: في الخُفْيَةِ، والعَلانية وهي؛ الجهرُ، وليبادرُوا إلي ذلك لخلاصِ أنفسهم، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾، وهو يومُ القيامة، وهو يومٌ ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾، أي: لا يُقبلُ من أحد فديَة بأن تُباع نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥]. وقوله: ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾، قال ابنُ جرير: يقول: ليس هناك مُخالَّة خليل فَيَصفحَ عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمُخالَّته، بل هنالك العدلُ والقسط. فالخِلالُ مصدر، من قول القائل: خَاللتُ فلاناً فأنا أُخالُّه مُخالَّةً وخِلالاً ومنه قولُ امرىء القيس:

صَرَفتُ الهَوَى عَنهُنَّ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى   وَلَسْتُ بِمَقْلِيِّ الخِلالِ ولا قالِ

وقال قتادةُ: إنَّ الله قد عَلِم أن في الدنيا بُيوعاً وخِلالاً يتخالُّون بها في الدنيا، فلينظر الرجل من يُخالِل؟ وعلامَ يُصاحِب؟ فإن كان لله فَلْيُداوِمْ، وإن كان لغير الله فليقطع عنه. قلت: المرادُ من هذا أنه يُخبر تعالى أنه لا ينفعُ أحداً بيعٌ ولا فديةٌ، ولو افتدى بملءِ الأرض ذهباً لو وَجَده، ولا ينفعُه صداقة أحدٍ ولا شفاعةُ أحدٍ إذا لَقِي الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

يُعدِّد تعالى نِعَمَه على خلقه، بأن خَلَق لهم السمواتِ سقفاً محفوظاً، والأرضَ فِراشاً، وأنزلَ من السماءِ ماءً فأخرج به أزواجاً من نباتٍ شتّى، ما بين ثِمار وزُروع، مختلفة الألوانِ والأشكالِ، والطعُوم والروائح والمنافع، وسَخَّر الفلك بأن جعلها طافِيةً على تيار ماءِ البحرِ، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخَّر البحر يحملها ليقطَع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى ها هنا، وسخَّر الأنهار تشق الأرض من قُطرٍ إلى قُطرٍ، رزقاً للعباد من شربٍ وسَقْيٍ، وغير ذلك من أنواع المنافع. ﴿وَسَخَّرَ

لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾، أي: يَسيران لا يَفتُران ليلاً ولا نهاراً، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠]، ﴿يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالشمسُ والقمرُ يتعاقبان، والليلُ والنهارُ يتقارَضان، فتارةً يأخذُ هذا من هذا فيطولُ، ثم يأخذ الآخرَ من هذا فيقصر، ﴿يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣]. وقال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، يقول: هيَّأ لكم كلَّ ما تحتاجون إليه في جَميع أحوالكم مما تسألونَه: بحالكم وقَالكم. وقال بعضُ السلفُ: من كلِّ ما سألتمُوهُ وما لم تسألُوه. وقرأ بعضُهم: «وآتاكم من كل ما سألتموه». وقولُه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، يخبر عن عَجز العباد عن تَعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، كما قال طلقُ بن حَبيبٍ ـ رحمه الله ـ: إن حَقَّ الله أثقلُ من أن يقومَ به العبادُ، وإنَّ نعم الله أكثرُ من أن يُحصِيهَا العبادُ، ولكن أصبحوا توابين وأمسُوا توابين.

[٤٠١٩] وفي صحيح البخاري أنَّ رسول الله ﷺ كان يقولُ: «اللهمَّ لك الحمدُ غير مَكْفِيٍّ ولا مُودَّعٍ، ولا مُستغنىً عنه، ربَّنا»[(١)].

[٤٠٢٠] وقال الحافظُ أبو بكرٍ البزَّارُ في مُسنَدِهِ: حدثنا إسماعيلُ بنُ أبي الحارث، حدثنا داودُ بنُ المُحبّر، حدثنا صالح المُرِّيُّ، عن جَعْفَرِ بن زيد العَبْدِي، عن أنس، عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرجُ لابن آدم يوم القيامة ثلاثةُ دواوين: ديوانٌ فيه العملُ الصالح، وديوانٌ فيه ذنوبُه، وديوان فيه النعَمُ من الله تعالى عليه، فيقولُ الله تعالى لأصغر نِعَمِه ـ أحسبه قال: في ديوان النعم ـ: خُذِي ثَمَنك من عمله الصالح، فتستوعب عمله الصالح كُلَّه، ثم تَنَحَّى وتقولُ: وعِزَّتِك ما استوفيتُ! وتبقى الذنوبُ والنِّعم فإذا أراد الله أن يرحَم قال: يا عبدي، قد ضاعفتُ لك حسناتِك وتجاوزت عن سَيِّئاتك، أحسبُه قال: ووهبتُ لك نِعَمي»[(٢)]. غريب، وسندُه ضعيفٌ. وقد رُوِي في الأثر: أن داودَ ـ عليه السلام ـ قال: يا ربِّ: كيف أشكرُك وشُكري لك نعمةٌ منك عليَّ؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتَني يا داودُ. أي: حينَ اعترفت بالتقصير عن أداء شُكر النِّعم. وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: الحمد لله الذي لا يُؤدَّى شُكْرُ نِعْمَةٍ من نِعَمِهِ، إلا بنعمة منه تُوجِب على مُؤدِّي ماضي نِعَمه بأدائها نعمةً حادثة تُوجِبُ عليه شكره بها. وقال القائل في ذلك:

لـو كـل جَـارِحـةٍ مـنّـي لـهَـا لُـغَـةٌ   تُـثْـنـي عَـلَـيـكَ بـمـا أولـيـتَ مِـنْ حَـسَـنِ
لَـكَـان مـا زَادَ شُـكْـرِي إذ شَـكَـرت بـه   إلَـيْـكَ أبـلَـغَ فـي الإحـسَـانِ والـمـنَـنِ

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

يذكرُ تعالى في هذا المقام محتجّاً على مشركي العَرَب بأنَّ البلد الحرام مكَّةَ إنما وُضعت أوَّلَ ما وُضِعتِ

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٤٥٨ و ٥٤٥٩ من حديث أبي أمامة.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه البزار ٣٤٤٤، وأعله الهيثمي في «المجمع» ١٨٤٣٤ بصالح المري، وأنه ضعيف! مع أن فيه داود بن المحبر متروك متهم بالوضع، فالحمل عليه في هذا الحيث أولى. والله أعلم.

على عبادة الله وحده لا شريك له، وأنَّ إبراهيم الذي كانت عامرةً بسببه آهلةً تبرأ ممن عَبَد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾. وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧]، وقال في هذه القصة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ فعرَّفه كأنه دَعَا به بعد بنائها، ولهذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلومٌ أن إسماعيلَ أكبرُ من إسحاقَ بثلاثَ عشرةَ سنةً، فأما حين ذهبَ بإسماعيل وأمه وهو رضيعٌ إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضاً فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصىً مُطوّلاً.

وقال تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، ينبغي لكلِّ داعٍ أن يدعُو لنفسه ولوالِدَيه ولذريته. ثم ذكر أنه افتُتِن بالأصنام خلائقُ من الناس وأنه بَرِيءٌ ممَّن عبدها، وردَّ أمرهم إلى الله، إن شاء عذَّبهم، وإن شاء غفر لهم، كما قال عيسى - عليه السلام -: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]. وليس في هذا أكثرُ من الردِّ إلى مشيئةِ الله تعالى، لا تجويزُ وقوع ذلك.

[٤٠٢١] قال عبد الله بن وَهب: حدثنا عمرو بن الحارث، أن بكر بن سَوادة حدثه، عن عبد الرحمن بن جُبير، عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ تلا قولَ إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، ورفع يديه، قال: «اللهم أمَّتي، اللهم أمَّتي». وبكى، فقال الله: اذهَب يا جبريل إلى محمدٍ - وربُّك أعلم - وسَله ما يُبكيك؟ فأتاه جبريل - عليه السلام - فسأله، فأخبره رسولُ الله ﷺ ما قال: فقال الله: اذهب إلى محمد، فقل له، إنا سَنُرضِيك في أمتك ولا نَسُوؤك[1].

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

وهذا يدلُّ على أن هذا دعاء ثانٍ بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولَّى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كانَ بعد بنائِهِ، تأكيداً ورغبةً إلى الله عزَّ وجلَّ، ولهذا قال: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾، وقولُه: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، قال ابنُ جرير، هو مُتعلّق بقوله: ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾، أي: إنما جعلتَه محرَّماً ليتمكَّنَ أهلُه من إقامةِ الصلاةِ عندَه. ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾، قال ابن عباس، ومجاهدٌ، وسعيد بن جُبير، لو قال: أفئدة الناسِ، لازدَحَمَ عليه فارسُ والرومُ واليهودُ والنصارى والناسُ كُلُّهم، ولكن قال: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. فاختصَّ به المسلمون. وقولُه: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، أي: ليكونَ ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ فاجعل لهم ثماراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، وهذا من لُطفه تعالى وكَرَمه ورَحمته وبَركته: أنه ليس في البلد الحرامِ مكةَ شَجرةٌ مثمرةٌ، وهي تُجبَى إليها ثمراتُ ما حولها، استجابةً لِخليله إبراهيم عليه الصلاةُ والسلامُ.

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٠٢ والطبري ٢٠٨٤١ وابن حبان ٧٢٣٤.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

قال ابنُ جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليلِه أنه قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾، أي: أنت تَعلم قَصْدِي في دعائي وما أردتُ بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصدُ إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كُلَّها ظاهرها وباطنها، ولا يَخفى عليك منها شيءٌ في الأرض ولا في السماء. ثم حَمد ربَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ على ما رَزَقه من الولد بعد الكِبَر، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾، أي: إنه ليستجيبُ لمن دَعاه، وقد استجابَ لي فيما سألتُه من الولدِ. ثم قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، أي: محافظاً عليها مقيماً لحدودها، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، أي: واجعَلهم كذلك مُقيمين الصلاةَ، ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾، أي: فيما سألتُكَ فيه كلِّه. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾، وقرأ بعضُهم: «ولولدي، على الإفراد. وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه، لما تَبيَّنَ له عداوتُه لله عزَّ وجلَّ، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: كلِّهم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾، أي: يوم تحاسبُ عبادك فتَجزيهم بأعمالهم، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌّ.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾

يقول: ولا تحسبنَّ الله ـ يا محمدُ ـ غافلاً عما يعمل الظالمون، أي: لا تحسبه إذ أنظرهم وأَجَّلهم أنه غافلٌ عنهم مهملٌ لهم، ولا يُعاقِبهم على صُنعهم، بل هو يُحصي ذلك عليهم ويعُدُه عداً، أي: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، أي: من شدةِ الأهوالِ يوم القيامة. ثم ذَكر تعالى كيفيّة قيامهم من قُبورهم ومَجيئهم إلى قيام المحشر فقال: ﴿مُهْطِعِينَ﴾، أي: مُسرِعين، كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨]. . . الآية، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾، إلى قوله: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ [طه: ١٠٨ ـ ١١١]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣]. وقولُه: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: رافعي رُؤوسهم. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾، أي: أبصارُهم طائرةٌ شاخصةٌ، يُديمون النظر لا يُطرِفُون لحظةً لكثرةِ ما هُم فيه من الهولِ والفِكرةِ والمَخافة لما يَحلُّ بهم. عياذاً بالله العظيم من ذلك، ولهذا قال: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾، أي: وقلوبُهم خاويةٌ خاليةٌ ليس فيها شيءٌ لكثرة الوَجَل والخوف. ولهذا قال قتادةُ وجماعةٌ: إنَّ أمكنة أفئدتهم خاليةٌ لأنَّ القلوب لدى الحناجر قد خَرَجت من أماكنها من شدَّة الخوف. وقال بعضهم: ﴿هَوَآءٌ﴾، خرابٌ لا تَعي شيئاً لشدة ما أخبر به الله عنهم، ثم قال تعالى لرسوله صلَّى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم:

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن قِيلِ الذين ظلمُوا أنفسَهم عند مُعاينة العذاب: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: ٩، ١٠]، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال تعالى راداً عليهم في قولهم هذا: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾، أي: أو لم تكونوا تحلفُون من قبل هذه الحال: أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معادَ ولا جزاءَ، فَذُوقُوا هذا بذاك. قال مجاهدٌ وغيره: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾، أي: ما لكم من انتقالٍ من الدنيا إلى الآخرةِ، كما أخبر عنهم تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨]. ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾، أي: قد رأيتم وبلَغكُم ما أحللنا بالأمم المكذِّبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم مُعتبَرٌ، ولم يكن فيما أوقعنا بهم مُزدجَرٌ لكم، ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر: ٥]. وقد روى شعبةُ، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن أن علياً ـ رضي الله عنه ـ قال في هذه الآية ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾، قال: أخذ ذاك الذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه نَسْرَين صَغيرين، فَربَّاهما حتى استغلظا واستَغلَجا وَشَبَّا، قال: فأوثق رجل كلَّ واحد منهما بِوَتدٍ إلى تابوتٍ، وجَوَّعهما، وقعد هو ورجلٌ آخر في التابوت، قال: ورفَع في التابوتِ عصاً على رأسِهِ اللحمُ، قال: فطارا، وجعل يقولُ لصاحبه: انظر، ما ترَى؟ قال: أرى كذا وكذا. حتى قال: أرى الدنيا كلها كأنها ذبابٌ، قال فقال: صَوِّب العصا. فصوَّبها فَهبَطا، قال: فهو قولُ الله عز وجل: «وإنْ كادَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنهُ الجِبالُ» قال أبو إسحاق: وكذلك هي في قراءة عبد الله: «وإن كادَ مكرُهم». قلت: وكذا رُوِي عن أبيّ بن كعب، وعُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ أنهما قرآ: «وإن كاد» كما قرأ علي، وكذا رَواه سفيانُ الثوريُّ، وإسرائيلَ، عن أبي إسحاقَ، عن عبد الرحمن بن أُذْنَانَ، عن علي، فذكر نحوه. وكذا رُوِيَ عن عِكْرِمَةَ أَنَّ سياق هذه القصةِ للنُّمرُودِ مَلِك كنعان: أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلةِ والمَكرِ، كما رام ذلك بعدَه فِرعونُ مَلِك القِبطِ في بناء الصَّرحِ فَعجزا وضَعُفا. وهما أَقَلُّ وأحقَرُ، وأصغَرُ وأدحَرُ. وذكر مجاهِدٌ هذه القصة عن بُختنصرَ، وأنه لما انقطَع بصرُه عن الأرض وأهلها، نُودِي: أيها الطاغية، أين تريد؟ فَفرِق، ثم سَمِع الصَّوتَ فوقه، فصوَّب الرماح فَصوَّبتِ النسور، فَفزعت الجبالُ من هدَّتها، وكادت الجبالُ أن تَزُولَ من حِسِّ ذلك. فذلك قولُه: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾. ونقل ابنُ جُرَيج عن مجاهد أنه قرأها «لتزول منه الجبال»، بفتح اللام الأولى، وضم الثانية. ورَوَى العوفيُّ عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾، يقول: ما كان مكرهم لتزُولَ منه الجبال. وكذا قال الحسن البصري. ووجَّهه ابنُ جرير بأن هذا الذي فَعَلُوه بأنفسهم من كُفرهم بالله وشركهم به، ما ضرَّ ذلك شيئاً من الجبَالِ ولا غَيرِها، وإنما عاد وبالُ ذلك على أنفسهم. قلت: ويُشبِهُ هذا إذاً قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ

ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧]. والقول الثاني في تفسيرها ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾، يقول: شركهم، كقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم: ٩٠، ٩١]. وهكذا قال الضحاك، وقتادةُ.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

يقولُ تعالى مُقَرِّراً لوعدِه ومؤكِّداً: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾، أي: من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ثم أخبر تعالى أنه ذو عزةٍ لا يمتنع عليه شيءٌ أراده ولا يُغالَبُ، وذُو انتقام ممن كفر به وجَحده، ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، أي: وعدُه هذا حاصلٌ يوم تبدَّلُ الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفةِ المألوفة المعروفةِ،

[٤٠٢٢] كما جاء في الصحيحَين، من حديث أبي حازم، عن سهل بن سَعدٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُحشَر الناسُ يومَ القيامةِ على أرضٍ بيضاءَ عَفراءَ، كقُرصة النَّقِيِّ، ليس فيها مَعْلَم لأحد»[(١)].

[٤٠٢٣] وقال الإمامُ أحمد: حدثنا محمد بن أبي عديٍّ، عن داودَ، عن الشعبيِّ، عن مسروق، عن عائشة أنها قالت: أنا أوّل الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾، قالت: قلت أين الناسُ يومئذٍ يا رسولَ الله؟ قال: «على الصراط»[(٢)]. رواه مُسلِمٌ منفرداً به دون البخاري، والترمذيُّ، وابنُ ماجَه، من حديث داودَ بن أبي هندٍ، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه أحمدُ أيضاً، عن عَفَّان، عن وُهَيب، عن داود، عن الشعبيِّ، عنها. ولم يذكر مَسرُوقاً.

[٤٠٢٤] وقال قتادةُ، عن حَسَّان بن بلالٍ المزنيِّ، عن عائشة ـ رضي الله عنهما ـ أنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، قال: قالت يا رسول الله، فأين الناسُ يومئذٍ؟ قال: «لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحدٌ من أمّتي، ذاك أنَّ الناسَ على جسرِ جهنَّم»[(٣)].

[٤٠٢٥] وروى الإمامُ أحمدُ، من حديث حَبيب بن أبي عمرةَ، عن مجاهد، عن ابن عباس: حَدَّثتني عائشةُ أنها سَأَلت رسولَ الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، فأين الناسُ يومئذٍ يا رسولَ الله؟ قال: «هم على مَتْن جَهنَّم»[(٤)].

[٤٠٢٦] وقال ابنُ جرير: حدثنا الحسن: حدثنا علي بن الجَعْدِ، أخبرني القاسم، سمِعتُ الحسَن قال: قالت عائشةُ: يا رسولَ الله، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾، فأين الناسُ يومئذٍ؟ قال: «إنَّ هذا شيءٌ ما سألني عنه أحدا» قال: «على الصِّراط يا عائشة»[(٥)]. ورواه أحمدُ، عن عَفَّانَ، عن القاسِم بن الفَضلِ، عن الحَسَنِ، به.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٢١ ومسلم ٢٧٩٠ وابن حبان ٧٣٢٠.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٩١ والترمذي ٣١٢١ وابن ماجه ٤٢٧٩ وأحمد ٦/ ٣٥ وابن حبان ٧٣٨٠.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠٩٧٢ وإسناده ضعيف، حسان عن عائشة فيه إرسال.

(٤) أخرجه أحمد٦/ ١١٦ ـ ١١٧، ولفظه «على جسر جهنم» بدل «على متن جهنم». وإسناده حسن، رجاله ثقات.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠٩٧١ وأحمد ٦/ ١٠١ وإسناده منقطع الحسن البصري لم يسمع من عائشة، لكن توبع فيما تقدم.

[٤٠٢٧] وقال الإمام مسلم بن الحجّاج في صَحيحه: حدثني الحسنُ بن علي الحُلْوَانيّ، حدثنا أبو توبةَ الربيعُ بنُ نافع، حدثنا معاويةُ بن سَلاّم، عن زيدٍ ـ يعني أخاه ـ أنه سَمِع أبا سَلاّم، حدثني أبو أسماء الرَّحْبِيُّ: أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ حَدَّثه قال: كنتُ قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءه حَبرٌ من أحبار اليهود، فقال: السلامُ عليك يا محمدُ. فدفعته دَفعةً كاد يُصرَع منها، فقال: لِم تَدفعُني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسولَ الله؟! فقال اليهوديُّ: إنما ندعُوه باسمه الذي سَمّاه به أهلُه! فقال رسولُ الله ﷺ: «إن اسمي محمدٌ الذي سمّاني به أهلي». فقال اليهودي: جئتُ أسألك. فقال رسولُ الله ﷺ: «أينفعك شيءٌ إن حَدَّثتُك؟» فقال: أسمَعُ بأذني. فنكَتَ رسولُ الله ﷺ بعودٍ معه، فقال: «سَلْ». فقال اليهوديُّ: أين يكونُ الناسَ حين تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض والسموات؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر». قال: فمن أوَّلُ الناس إجازةً؟ قال: فقال: «فُقَراءُ المهاجرين». قال اليهوديُّ: فما تُحفَتُهُم حين يدخلونَ الجَنة؟ قال: «زيادة كبدِ الحوتِ». قال: فما غِذَاؤُهم في أثرها؟ قال: «يُنحَر لهم ثورُ الجنة الذي كان يأكل من أطرافها». قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمّى سلسبيلاً». قال: صدقتَ. قال: وجئتُ أسألُكَ عن شيء لا يعلَمه أحدٌ من أهل الأرض إلا نبيٌّ أو رجلٌ أو رجلان؟ قال: «يَنفعُك إن حدَّثتك؟» قال: أسمعُ بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: «ماء الرجل أبيضُ وماء المرأة أصفرُ. فإذا اجتمعا فَعَلا منيُّ الرجل منِيَّ المرأة أذْكَرا بإذن الله تعالى، وإذا علا مني المرأةِ منيَّ الرجل آنَثا بإذن الله». قال اليهوديُّ: لقد صَدَقْتَ، وإنك لنبيٌّ. ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علمٌ بشيء منه، حتى أتاني الله به»[1].

[٤٠٢٨] قال أبو جعفر بن جرير الطبري: حدثني ابن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا ابنُ أبي مَرْيَم، حدثنا سعيدُ بن ثوبان الكَلاَعي، عن أبي أيوب الأنصاري: قال: أتى النبيَّ ﷺ حَبر من اليهود فقال: أرأيت إذ يقولُ اللهُ تعالى في كتابِهِ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، فأين الخَلْق عند ذلك؟ فقال: «أضيافُ الله، فلن يُعجِزَهم ما لديه»[2]. ورواه ابنُ أبي حاتم، من حديث أبي بكر بن عبد الله بن أبي مَرْيَم، به. وقال شعبةُ: أخبرنا أبو إسحاقَ، سَمِعتُ عمرو بن ميمون ـ وربّما قال: قال عبد الله، وربما لم يَقُل ـ فقلت له: عن عبد الله؟ فقال: سَمِعت عَمْرو بن ميمون يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾، قال: أرض كالفضّةِ البيضاءِ نَقِيّة، لم يسفَك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، يَنفُذُهم البصرُ، ويُسمِعُهم الداعي، حُفاةً عراةً كما خُلِقُوا، قال: أراه قال: قياماً حتى يُلجِمَهم العَرَقُ. ورُوِي من وجهٍ آخرَ عن شعبة، وعن إسرائيل، عن أبي إسحاقَ، عن عَمْرو بن ميمون، عن ابن مسعود، بنحوه. وكذا رواه عاصم، عن زِرٍّ، عن ابن مسعود، به. وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن عَمرو بن ميمون. لم يُخبر به. أورد ذلك كله ابنُ جرير.

[٤٠٢٩] وقد قال الحافظ أبو بكر البزّار: حدثنا محمد بن عبد الله بن عُبَيد بَن عَقِيل، حدثنا سَهلُ بن حمادٍ أبو عَتّاب، حَدَّثنا جرير بن أيوب، عن أبي إسحاقَ، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله، عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ ـ رضي الله عنه ـ، قال: «أرضٌ بيضاءُ لم يسقُط عليها

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٣١٥ وابن حبان ٧٤٢٢ والبيهقي في «البعث» ٣١٥.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠٩٧٦ بهذا الإسناد، وهو ضعيف جداً، فيه أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم ضعيف، وسعيد بن ثوبان مجهول لم يذكره إلا ابن أبي حاتم حيث قال: روىٰ عن أبي بكر بن أبي مريم سمعت أبي يقول ذلك أهـ. وعلىٰ هذا إما أن يكون الإسناد قد قُلب عند الطبري أو أن هناك تحريفاً في «الجرح والتعديل» ٩/٤ فيكون الصواب «روىٰ عنه أبو بكر...»، وأياً كان فهو مجهول لم يوثقه حتىٰ ابن حبان، وخبره يدل علىٰ سقوطه. والصواب الحديث المتقدم.

دمٌ، ولم يُعمَل عليها خطيئة»[١]. ثم قال: لا نعلم رفعه إلا جريرُ بن أيوب، وليس بالقوي.

[٤٠٣٠] ثم قال ابنُ جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا معاويةُ بن هشام، عن سنانٍ، عن جابر الجُعفِي، عن أبي جُبَيرة، عن زيد قال: أرسلَ رسولُ الله ﷺ إلى اليهود فقال: «هل تدرُون لم أرسَلتُ إليهم؟» قالوا: الله ورسوله أعلمُ. قال: «فإني أرسلت إليهم أسألُهم عن قول الله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾، إنها تكون يومئذ بيضاء مثل الفضة». فلما جاؤوا سألهم فقالوا: تكون بيضاء مثل النَّقِيّ[٢]. وهكذا رُوي عن علي، وابن عباس، وأنس بن مالك، ومجاهد بن جَبْرٍ: أنها تبدَّل يوم القيامة بأرض من فضةٍ. وعن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: تَصِير الأرضُ فضةً، والسمٰوات ذهباً. وقال الربيع، عن أبي العالية، عن أبيّ بن كعب قال: تَصير السمٰواتُ جناناً. وقال أبو معشر، عن محمد بن كعب القُرَظِيّ، أو عن محمد بن قيسٍ في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾، قال: خبزةٌ يأكلُ منها المؤمنون من تحت أقدامهم. وكذا رَوَى وكيع، عن عمر بن بشير الهَمْدَانيّ، عن سعيد بن جُبَير في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾، قال: تبدل خبزةً بيضاءَ، يأكل المؤمنُ من تحتِ قَدَمَيهِ.

وقال الأعمش، عن خَيْثَمَةَ قال: قال عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ: الأرض كلُّها يوم القيامة نارٌ، والجنةُ من ورائها تُرى كَوَاعِبُها وأكوابُها، ويُلجِمُ الناس العرقُ ـ أو يبلُغ منهم العراقُ ـ ولم يبلغوا الحساب. وقال الأعمش أيضاً، عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السَّكَنَ قال: قال عبدُ الله: الأرضُ كلُّها نارٌ يوم القيامة، والجنة من ورائها، ترى أكوابها وكواعبها، والذي نفسُ عبدِ الله بيدهِ إنَّ الرجل لَيفِيضُ عَرَقاً حتى ترسخ في الأرض قدمُه، ثم يرتفع حتى يبلُغ أنفَه، وما مسَّه الحسابُ. قالوا: مِمَّ ذاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يَرَى الناس ويَلْقَون. وقال أبو جعفر الرازيُّ، عن الربيع بن أنس، عن كعب في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، قال: تصيرُ السمواتُ جناناً، ويصير مكانُ البحرِ ناراً، وتبدل الأرض غيرها.

[٤٠٣١] وفي الحديث الذي رواه أبو داود: «لا يركبُ البحرَ إلا غازٍ أو حاجٌّ أو مُعتَمِر، فإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً»[٣].

[٤٠٣٢] وفي حديث الصُّور المشهورُ المرويُّ عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ أنه قال: تُبَدَّلُ الأرضُ غير الأرض والسموات، فيبسُطها ويَمُدُّها مدَّ الأَديم العُكَاظِيّ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم يزجر الله الخلق زجرةً، فإذا هم في هذه المبدَّلة»[٤]. وقولُه: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾، أي: خَرَجت الخلائقُ جميعُها من قُبورهم لله ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، أي: الذي قَهَر كلَّ شيء وغَلَبه، ودانت له الرقابُ، وخَضَعت له الألبابُ.

---

(١) الصواب موقوف، أخرجه البزار ٦/١٥٦ في «سننه» والطبراني ١٠٣٢٣ من حديث ابن مسعود، قال الهيثمي في «المجمع» ١١١٠٣: فيه جرير بن أيوب البَجَلي، متروك. ورواه الطبراني ٩٠٠١ موقوفاً علىٰ ابن مسعود بإسناد جيد كما قال الهيثمي، وكذا أسنده الطبري ٢٠٩٤١ و ٢٠٩٤٢ و ٢٠٩٤٣ موقوفاً، وهو أصح من المرفوع.

(٢) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٠٩٤٧، وفيه جابر بن يزيد الجعفي، ضعفه الجمهور، واتهمه أبو حنيفة.

(٣) ضعيف، أخرجه أبو داود ٢٤٨٩ والبيهقي ٤/٣٣٤ من حديث بشير أبي عبد الله عن بشير بن مسلم عن ابن عمرو مرفوعاً. وإسناده ضعيف بشير عن بشير كلاهما مجهول كما في التقريب.

وأخرجه البخاري في «تاريخه» ١/٢/١٠٤ من وجه آخر عن بشير بن مسلم بهذا الإسناد، وقال البخاري في ترجمة بشير: لم يصح حديثه، وكذا ضعفه المنذري في «مختصر السنن» ٣/٣٥٩.

(٤) تقدم الكلام علىٰ حديث الصور باستيفاء.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، وتبرزُ الخلائقُ لديَّانِها، ترى ـ يا محمدُ ـ يومئذ المجرمين، وهم الذين أجرمُوا بكُفرهم وفسادهم، ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾، أي: بعضُهم إلى بعضٍ، قد جُمِعَ بين النظراء أو الأشكال منهم، كلُّ صنفٍ إلى صنفٍ، كما قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ [التكوير: ٧]، وقال: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٧ ـ ٣٨]. والأصفادُ: هي القيودُ، قاله ابنُ عباس، وسعيد بن جُبَير، والأعمشُ، وعبد الرحمن بن زَيد. وهو مشهورٌ في اللغة، قال عَمرو بن كُلثوم:

فَـآبُـوا بـالـنِّـهـابِ وَبِـالـسَّـبَـايـا ... وَأُبْـنـا بـالـمُـلُـوكِ مُـصَـفَّـدِيـنـا

وقولُه: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾، أي: ثيابهم التي يلبسُونَها عليهم من قِطْرانٍ، وهو الذي تُهْنأ به الإبلُ، أي: تُطلَى، قاله قتادةُ: وهو ألصقُ شيءٍ بالنار. ويُقَال فيه: قَطِران بفتح القاف وكسر الطاء، وبفتح القاف وتسكين الطاء. وبكسر القاف وتسكين الطاء. ومنه قول أبي النجم.

كَـأنَّ قِـطْـرانـاً إذَا تَـلاهَـا ... تَـرمـي بـه الـرِّيـحُ إلـى مَـجْـراهـا

وكان ابن عباس يقول: القَطِران هو النحاسُ المذابُ، وربما قرأها: «سرابيلهم من قَطِرٍ آنٍ»، أي: من نُحاسٍ حارٍّ قد انتهى حرُّه. وكذا رُوي عن مجاهد، وعِكْرمة، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادةَ. وقوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ كقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

[٤٠٣٣] وقال الإمامُ أحمدُ ـ رحمه الله ـ: حدثنا يحيى بن إسحاق، أنبأنا أبانُ بن يزيد، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد، عن أبي سَلاّم، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أربعٌ من أمرِ الجاهلية لا يُتْرَكن: الفخرُ بالأحساب، والطعنُ في الأنسابِ، والاستسقاءُ بالنجوم، والنياحةُ. والنائحةُ إذا لم تَتُبْ قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربالٌ من قَطِران، ودِرْعٌ من جَرَب»[(١)]. انفرد بإخراجه مسلم.

[٤٠٣٤] وفي حديث القاسم، عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «النائحةُ إذا لم تَتُب توقف في طريق بين الجنة والنار، سرابيلها من قطرانٍ، وتَغشى وجهها النارُ»[(٢)].

وقولُه تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: يومَ القيامة، كما قال: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، يَحتمِلُ أن يكون كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١]، ويَحتمِلُ أنه في حال محاسبته لعبده سريعُ النجاز؛ لأنه يعلَمُ كلَّ شيء، ولا يخفَى عليه خافيةٌ، وإن جميعَ الخلقِ بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم. كقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنى قول مجاهدٍ: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إحصاءً. ويحتمل أن يكون المعنيان مُرادَين، والله أعلم.

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٩٣٤ وأحمد ٥/ ٣٤٢ و ٣٤٣ و٣٤٤ وابن حبان ٣١٤٣ والبيهقي ٤/ ٦٣.

(٢) فيه القاسم بن عبد الرحمن غير قوي، لكن يشهد له ما قبله، والله أعلم.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿هَٰذَا﴾ القرآنُ ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾، كقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، أي: هُو بلاغٌ لجميع الخَلْق من إنس وجان، كما قال في أول السورة: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾. ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾، أي: ليتعظُوا به، ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي: ذَوُو العقولِ.

* * *

آخر تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين

فهرس المحتويات